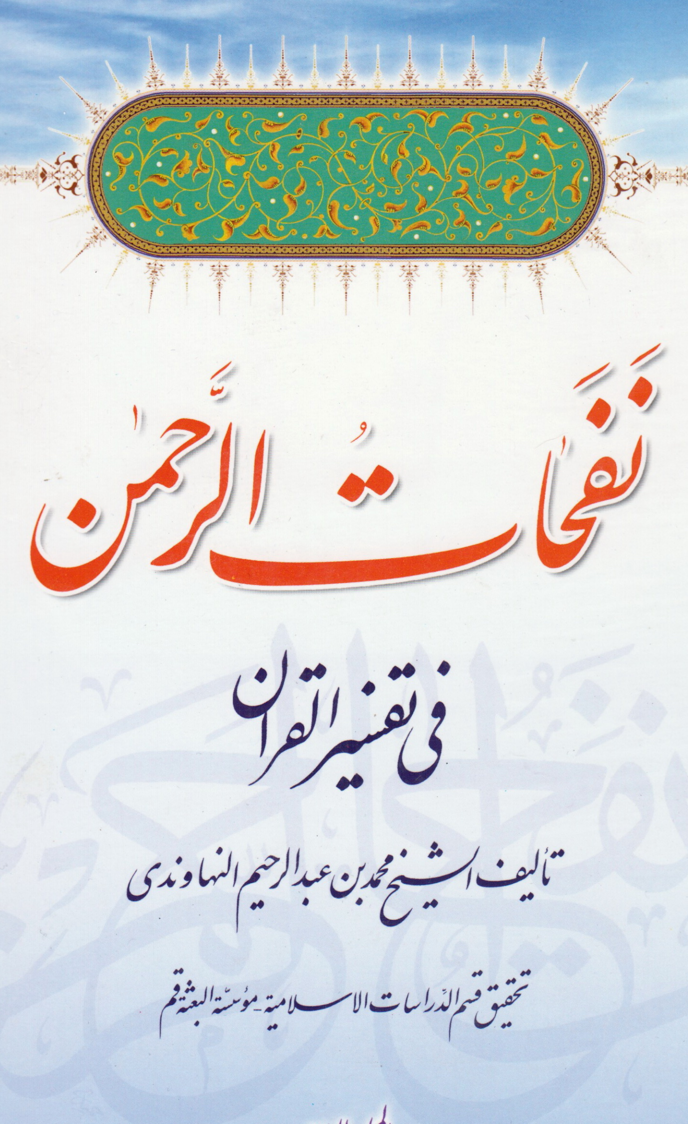


نفحات الرحمن

في تفسير القرآن

تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي

تحقيق قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة قم

المجلد الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم



نفحات الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

الشيخ محمد بن عبدالرحيم النهاوندي

(١٢٩١ـ١٣٧١هـ)

الجزء الرابع

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قم

نهاوندی، محمد ۱۲۵۲- ۱۳۳۰
نفحات الرحمن فی تفسیر القرآن/تالیف محمد بن عبدالرحیم النهاوندی؛
تحقیق
قم: موسسه البعثه، مرکز الطباعه و النشر ۱۳۸۶
۶ج.
دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۱: ۵-۷۵۹-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۲: ۹-۷۶۰-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۳: ۷-۷۶۱-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۴: ۵-۷۶۲-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۵: ۳-۷۶۳-۳۰۹-۹۶۴؛ ج.۶: ۱-۷۶۴-۳۰۹-۹۶۴
فیپا
عربی.
کتابنامه.
تفاسیر شیعه –قرن ۱۴.
بنیاد بعثت. واحد تحقیقات اسلامی
بنیاد بعثت. مرکز چاپ و نشر
BP۹۸/ن۹ن۷
۲۹۷/۱۷۹
۸۴/۳۷۴۹۰م



مركز الطباعة و النشر فی موسسة البعثة

نفحات الرحمن فی تفسير القرآن ج۴
الشيخ محمد بن عبدالرحيم النهاوندی
تحقيق: قسم الدراسات الاسلامية – موسسة البعثة – قم
الطبعة الاولى ۱۴۲۸ق.
الكمية: ۲۰۰۰ نسخه
التوزيع: موسسة البعثة
طهران – شارع سميه – بين شارعی الشهيد مفتح و فرصت – الرقم ۱۰۹
هاتف: ۸۸۸۲۲۳۷۴ فاكس: ۸۸۳۲۵۴۶۴

شابک ج.۴: ۵-۷۶۲-۳۰۹-۹۶۴
شابک دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴

في تفسير سورة الإسراء

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ[١]

ثمّ لمّا ختم الله تعالى سورة النحل المحتوية لاثبات التوحيد بالبراهين القاطعة، وردّ شُبهات المشركين فيه وفي صدق القرآن العظيم ونبوة خاتم النبيين، وأمر النبي ﷺ باتّباع إبراهيم عليه السلام، أردفها بسورة الاسراء المشتملة على جُلّ تلك المطالب العالية وإظهار شرف نبيه محمّد ﷺ على إبراهيم عليه السلام، حيث بيّن فيها أنّه تعالى أسرى بحبيبه وعبده إلى قاب قوسين أو أدنى ليريه من آياته الكبرى، وإنما أرى خليله ملكوت السماوات والأرض وهو في مكانه من الأرض، إلى غير ذلك من المناسبات التي تُوجِب تعاقبهما، فابتدأ فيها بذكر أسمائه الحسنى على حسب دأبه تعالى ورسمه تعليماً للعباد بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع فيه بتنزيه ذاته المقدّسة من الشرك والمعجز بقوله: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى﴾ فعل بقدرته الكاملة أعجب العجائب وأبدع البدائع، وهو أنّه ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ وحبيبه محمّد ﷺ وأعرج به[١] ﴿لَيْلاً﴾.

قيل: ذكر الليل وتنكيره للدلالة على قلّة مدّة الإسراء، وهو بعض الليل[٢].

وقيل: لما وصل النبي ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في معراجه، أوحى الله إليه: يا محمّد، بم أُشرّفك؟ قال: «يا ربّ بأن تنسُبني إلى نفسك بالعبودية» فأنزل الله فيه[٣]: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ومكة المعظَمة ﴿إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ قيل: هو بيت المَقدِس[٤] ﴿ٱلَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ بالثّمار والأزهار وقرار الأنبياء وهبوط الملائكة فيه ﴿لِنُرِيَهُ﴾ بعضاً ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ العِظام التي لم نُرِه غيره من الأنبياء ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقواله ﴿ٱلبَصِيرُ﴾ بنورانيته ومسانحته لعالم الأنوار وبأحواله وأخلاقه وأعماله.

---

١. في النسخة: وأعرجه. ٢. تفسير الرازي ٢٠: ١٤٦، تفسير روح البيان ٥: ١٠٣.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٤٦. ٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٤٦.

وقيل: إنّ المراد السميع لما يقولون للرسول عند دعواه المعراج، البصير بما يعملون في هذه الواقعة[١].

روى بعض العامة أنّه بات ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب في بيت اُمّ هانئ بنت أبي طالب، ونام بعد أن صلّى الركعتين اللتين كان يصليهما في وقت العشاء، ففُرِج عن سقف بيتها ونزل جَبْرَئيل وميكائيل وإسرافيل، ومع كلّ واحدٍ منهم سبعون ألف مَلَك فأيقظه جَبْرَئيل بجَناحه، قال عليه السلام: «فقمت إلى جَبْرَئيل، فقلت: أخي جَبْرَئيل مالك؟ فقال: يا محمّد، إنّ ربيّ تعالى بعثني إليك، وأمرني بأن آتيه بك في هذه الليلة بكرامةٍ لم يُكرَم بها أحدٌ قبلك ولا يُكرَم بها أحدٌ بعدك، فانّك تُريد أن تكلّم ربّك وتنظُر إليه وترى في هذه الليلة من عجائب ربّك وعظمته وقدرته» قال: «فتوضّأت وصليت ركعتين».

قال الراوي: وشقّ جَبْرَئيل صدره الشريف من الموضع المنخفض بين التَّرْقُوتين إلى أسفل بطنه، فجاء بطَشْتٍ من ماء زَمْزَم، واستخرج قلبه فغسله ثلاث مرات، ونزع ما كان فيه من أذى، ثمّ جاء بطشتٍ من ذهب يمتلئ إيماناً وحكمةً، فأفرغ فيه، ثمّ أعاد القلب إلى مكانه، والتأم صدره الشريف، فكانوا يرون أثراً كأثر الخيط[٢] في صدره.

قال صلّى الله عليه وآله: «ثمّ جاء جَبْرَئيل بدابةٍ بيضاء، فقلت: يا جبرئيل، ما هذه الدابة؟ فقال: هذا البُراق فاركب عليه حتى تمضي إلى دعوة ربّك، فأخذ جَبْرَئيل بلِجامها وميكائيل بركابها وإسرافيل من خلفها، فقصدت أن أركبها فجمحت الدابة وأبت، فوضع جَبْرَئيل يده على وَرِكها، وقال لها: ألا تستحين ممّا فعلت؟! فوالله ما رَكِبك أحدٌ أكرم على الله من محمّد، فرشحت عرقاً من الحياء، فقالت: يا جبرئيل، لم أستصعب منه إلّا ليضمَن أن يشفع لي يوم القيامة، لأنّه أكرم الخلائق على الله، فضَمِن لها ذلك»[٣].

رُوي أنه صلّى الله عليه وآله قال: «لمّا عُرِج بي إلى السماء، بكت الأرض من بعدي، فنبت الأصفر من نباتها، فلمّا رجعت قَطَر عَرَقي على الأرض، فنَبَت وردٌ أحمر، ألا من أراد أن يشَمّ رائحتي فليشَمّ الورد الأحمر».

قال: فركبه[٤]، فانطلق البُراق يهوي به يضع حافره حيث أدرك طرفه، حتى بلغ أرضاً، فقال له جَبْرَئيل: انزل فصلّ رَكْعتين ها هنا. ففعل، ثمّ ركِب فقال له جَبْرَئيل: أتدري أين صلّيت؟ قال: «لا». قال: صلّيت بمَدين، فانطلق البُراق يهوي به، فقال له جَبْرَئيل: انزل فصلّ ففعل، ثم رَكِب، فقال: أتدري أين صلّيت؟ قال: «لا». قال: صلّيت ببيت لَحْم، وهي قرية تِلقاء بيت المَقْدِس حيث ولد

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٤٧.

٢. في تفسير روح البيان: المخيط.

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٠٦.

٤. في النسخة: فركبتها.

عيسى عليه السلام.

وبينا هو على البُراق إذ رأى عِفريتاً من الجنّ يطلُبه بشُعلةٍ من نار، كلّما التفت رآه، فقال له جَبْرئيل: ألا أعلّمك كلماتٍ تقولهنّ، إذا أنت قلتهنّ طفئت شُعلته وخَرّ لفيه؟ فقال: «بلى». فقال جَبْرئيل: قل أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامّات اللّاتي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر، من شرّ ما ينزل من السماء، ومن شرّ ما يعرُج فيها، ومن شرّ ما ذرأ في الأرض، ومن شرّ ما يخرُج منها، ومن فِتَن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار، إلّا طارقاً يطرُق بخيرٍ يا رحمٰن.

فقال صلى الله عليه وآله ذلك، فانكبّ لفيه، وطفئت شُعلته، فرآى صلى الله عليه وآله قوماً يزرعون ويحصُدون من ساعته، وكلّما حصدوا عاد كما كان، فقال: «يا جَبْرئيل، ما هذا؟» قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تُضَاعف لهم الحسنة بسبعمائة، وما انفقوا من خيرٍ فهو يَخْلُفه.

فنادى منادٍ عن يمينه: يا محمّد، انظُرني اسألك، فلم يُجبه، فقال: «ما هذا يا جبرئيل؟» قال: هذا داعي اليهود، أما إنّك لو أجبته لتهوّدت اُمّتك، ونادى منادٍ عن يساره كذلك، فلم يُجبه، فقال: «ما هذا يا جَبْرئيل؟» فقال: هذا داعي النصارى، أما إنّك لو أجبته لتنصّرت اُمّتك، فرأى امرأةً حاسرةً عن ذراعها، فقالت: يا محمّد، انظُرني أسألك، فلم يلتفت إليها، فقال: «من هذه يا جَبْرئيل؟» فقال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتها لاختارت اُمّتك الدنيا على الآخرة.

إلى أن قال: ومضى صلى الله عليه وآله حتى أتى إيليا من أرض الشام، فاستقبله من الملائكة جمّ غفيرٌ لا يُحصى عددهم، فدخلها من الباب [اليماني] الذي فيه مثال الشمس والقمر، ثمّ انتهى إلى بيت المَقْدِس، وكان بباب المسجد حَجَرٌ، فأدخل جَبْرئيل يده فيه فخرقه، فكان فيه كهيئة الحَلقة وربط به البُراق.

ثمّ دخل عليه السلام المسجد، ونزلت الملائكة، وأحيا الله له آدم ومن دونه من الأنبياء، فسلّموا عليه وهنّأوه بما أعطاه الله من الكرامة، وقالوا: الحمد لله الذي جعلك خاتم الأنبياء، فنعم النبيّ أنت، ونعم الأخ أنت، واُمّتك خير الأمم. ثمّ قال جَبْرَئيل: تقدّم يا محمّد وصلّ باخوانك من الأنبياء رَكْعتين، فصلّى بهم رَكْعتين، وكان خلف ظهره إبراهيم، وعن يمينه إسماعيل، وعن يساره إسحاق، وكانوا سبعة صفوف؛ ثلاثة [صفوف] من الأنبياء المرسلين، وأربعة من سائر الأنبياء.

قال صلى الله عليه وآله: «لمّا وصلت إلى بيت المَقْدِس وصلّيت فيه رَكْعتين، أخذني العطش أشدّ ما أخذني، فأُتيت بإناءين؛ في أحدهما لبن، وفي الآخر خمر، فأخذت الذي فيه اللبن ـ وكان ذلك بتوفيق ربّي ـ فشَربته إلّا قليلاً منه، وتركت الخمر، فقال جَبْرئيل: أصبت الفِطرة يا محمد، أما إنّك لو شَربت الخمر لَغَوتْ اُمّتك كلّها، ولو شَربت اللبن كلّه لما ضلّ أحدٌ من اُمّتك بعدك. فقلت: يا جَبْرَئيل: اردُد عليّ

اللبن حتى أشربه كلّه. فقال جَبْرَئيل: قُضي الأمر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ليهلِك من هلك عن بينة، ويحيى من حيي عن بيّنة.

ثمّ قال جَبْرئيل: قم يا محمّد، فقمتُ فاذا بسُلّمٍ من ذهب قوائمه من فِضّة، مركّب من اللؤلؤ والياقوت، يتلألأ نوره، وأسفله على صخرة بيت المَقْدِس، ورأسه في السماء، فقيل لي: يا محمّد، اصعد. فصَعِدت فانتهيت إلى بحرٍ أخضر عظيم أعظم ما يكون من البحار، فقلت: يا جَبْرئيل، ما هذا البحر؟ فقال: يا محمّد، هذا بحرٌ في الهواء لا شيء فوقه يتعلّق به، ولا شيء تحته يقرّ فيه، ولا يدري قَعْره وعظمته إلّا الله، ولولا أنّ هذا البحر كان حائلاً لاحترق ما في الدنيا من حرّ الشمس».

قال: «ثمّ انتهيت إلى سماء الدنيا، واسمها رقيع، فأخذ جَبْرئيل بعَضُدي، وضرب بابها به[1]، وقال: افتح الباب. قال الحارس: من أنت؟ قال: جَبْرَئيل. قال: ومن معك؟ قال: محمّد. قال: أو قد بُعِث محمّد؟ قال: نعم. قال: الحمد لله. ففتح [لنا] الباب ودخلنا، فلمّا نظر إليّ قال: مرحباً بك يا محمّد، ولنعم المجيء مجيئك. فقلت: يا جَبْرَئيل، من هذا؟ قال: هذا إسماعيل خازن سماء الدنيا، وهو ينتظر قدومك، فادْنُ وسلّم عليه، فدنوت وسلّمت، فردّ عليّ السلام وهنّأني، فلمّا صرت إليه قال: أبشِر يا محمّد، فإنّ الخير كلّه فيك وفي اُمّتك. قال: وإذا جُنوده قائمون صفوفاً، ولهم زَجَلٌ بالتسبيح يقولون: سُبّوح قُدّوس ربّ الملائكة والرّوح، قُدّوس قُدّوس لربّ الأرباب، سبحان العظيم الأعظم».

قال: «ثمّ انتهيت إلى آدم، فاذا هو كهيئته يوم خلقه الله، وكان تسبيحه: سبحان الجليل الأجلّ، سبحان الواسع الغنيّ، سبحان [الله] العظيم وبحمده، فاذا هو تُعرَض عليه أرواح ذُرّيّته المؤمنين، فيقول: روحٌ طيبةٌ ونفسٌ طيبة خرجت من جسدٍ طيبٍ، اجعلوها في عِلّيين، وتُعرَض عليه أرواح ذرّيته الكفّار، فيقول: روحٌ خبيثةٌ ونفسٌ خبيثةٌ خرجت من جسدٍ خبيث، اجعلوها في سجّين» قال ﷺ: «فتقدّمت إليه وسلّمت عليه، فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح».

قال ﷺ: «ورأيت رجالاً لهم مَشافِر كمَشافِر الإبل[2]، في أيديهم قِطَعٌ من نار كالأفهار ـ أي الحِجارة التي [كلّ] واحدٍ منها ملء الكفّ ـ يقذِفونها في أفواههم ثمّ تخرُج من أدبارهم، قلت: من هؤلاء يا جَبْرئيل؟ قال: أكَلَة أموال اليتامى ظُلماً.

ثمّ رأيت رجالاً لهم بطون أمثال البيوت، فيها حيّات تُرى من خارج البُطون بطريق آل فرعون يمُرّون عليهم كالابل المهيومة[3] حين يُعرَضون على النّار، لايقدِرون أن يتحوّلوا من مكانهم ذلك ـ

---

١. في النسخة: وضرب بابه.

٢. مشفر الإبل: بمثابة الشفة للانسان.

٣. أي العطشى.

وفي رواية: كلّما نهض أحدهم خرّ ـ قلت: من هؤلاء يا جَبْرئيل؟ قال: هؤلاء أكَلَة الربا.

ثمّ رأيت أخْوِنة[1] عليها لحمٌ طيب، ليس عليها أحد، وأخرى عليها لحم مُنتنٌ عليها ناسٌ يأكُلون منه. قلت: يا جَبْرئيل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين تركوا الحلال ويأكُلون الحرام.

ثمّ رأيت نساءً معلّقات بثديهنّ، فقلت: يا جَبْرَئيل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن [على] الرجال ما ليس من أولادهم.

ثمّ عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جَبْرَئيل، قال الحارس: من أنت؟ قال: جَبْرَئيل. قال: ومن معك؟ قال: محمد. قال: أو قد بُعِث؟ قال: نعم، ففتح لنا، فاذا أنا بابني الخالة؛ عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، ومعهما نفرٌ من قومهما، فرحّبا بي ودَعَوا لي بخير.

ثمّ عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جَبْرئيل، فقيل: من أنت؟ قال: جَبْرئيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قال: أو قد بُعِث؟ قال: نعم، فُفتِح لنا، فإذا أنا بيوسف ومعه نفرٌ من قومه، وإذا هو أُعطي شَطر الحُسن، فرحّب بي، ودعا لي بخير.

ثمّ عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جَبْرَئيل قيل: من هذا؟ قال: جَبْرَئيل قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد بعث؟ قال. نعم، ففتح لنا، فاذا أنا بإدريس، فرحّب بي ودعا لي بخير.

ثمّ عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جَبْرئيل، قيل: من هذا؟ قال: جَبْرئيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد، قيل: أو قد بُعِث؟ قال: نعم، ففُتِح لنا، فإذا أنا بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصف لحيته سوداء، تكاد تضرِب إلى سُرّته من طولها، وحوله قوم من بني إسرائيل، وهو يقُصّ عليهم، فرحّب بي ودعا لي بخير.

ثمّ عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جَبْرئيل، قيل: من هذا؟ قال: جَبْرئيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: أو قد بعث؟ قال: نعم، ففتح لنا، فاذا أنا بموسى، فرحّب بي ودعا لي بخير، فلمّا جاوزت بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأنّ غُلاماً بُعِث بعدي يدخُل الجنّة من أُمّته أكثر ممّن يدخُل الجنّة من أُمّتي.

ثمّ عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جَبْرئيل، قيل: من هذا؟ قال: جَبْرئيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: أو قد بعث؟ قال: نعم. ففتح لنا، فاذا أنا بابراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم، فسلّم عليه وسلّمت عليه، فردّ السلام ثمّ قال: مرحباً بالابن الصالح، والنبي الصالح، وإذا إبراهيم رجلٌ أشمط[2]

---

١. جمع خِوان: ما يؤكل عليه.

٢. في النسخة: أمشط، والأشمط: الذي يختلط سواد شعره ببياض.

جالس عند باب الجنّة على كُرسيّ، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وهو من عقيق محاذٍ للكعبة بحيث لو سقط سقط عليها، يدخُله كلّ يوم سبعون ألف مَلَك ثمّ لا يعودون، وإذا أنا بأمّتي شَطرين: شَطر عليهم ثياب بيض كأنّها القراطيس، وشَطر عليهم ثياب رَمِدة[١]. فدخلت البيت المعمور، ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض، وحُجِب الآخرون الذين عليهم الثياب الرَّمِدة، فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور».

وفي رواية: «أنّ أطفال المؤمنين والكافرين في كفالة إبراهيم، فلمّا رآهم رسول الله ﷺ مع إبراهيم، قال: من هؤلاء يا جَبْرَئيل؟ قال: هؤلاء أولاد المؤمنين الذين يموتون صِغاراً. قال له: وأولاد الكافرين؟ قال: وأولاد الكافرين».

وقال إبراهيم لرسول الله ﷺ: أقرأ أُمّتك منّي السلام، وأخبرهم أنّ الجنّة طيبة التربة عَذِبة الماء، وأن غَرْسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر.

قال ﷺ: «استقبلتني جارية لَعْساء[٢]، قد أعجبتني، فقلت لها: لمن أنت؟ قالت: لزيد بن حارثة».

قال: «ورأيت فوجاً من الملائكة نصف أبدانهم [من] النار، ونصفها من الثلج، فلا النار تُذيب الثلج، ولا الثلج يُطفئ النار، وهم يقولون: اللهمّ كما ألّفت بين النار الثلج ألّف بين قلوب عبادك المؤمنين».

قال ﷺ: «ثمّ ذهب بي جَبْرَئيل إلى سِدرة المُنتهىٰ، وهي شجرة فوق السماء السابعة في أقصى الجنّة، إليها ينتهي الملائكة بأعمال أهل الأرض من السعداء، وإليها تنزل الأحكام، وإذا أوراقها كآذان الفِيلة»[٣].

قيل: إنّه عرج من السماء السابعة إلى السِّدرة على جَناح جَبْرَئيل[٤]، وإنّه عليه السلام رأى جَبْرَئيل عند السِّدرة على الصورة التي خلقه الله عليها[٥]، ثمّ عرج منها على الرَّفرف - وهو بساطٌ عظيمٌ على قول، أو هو كالمِحفَّة[٦] - ورأى أنّ جَبْرَئيل لمّا وصل إلى السِّدرة التي هي مقامه تأخّر فلم يتجاوز، قال ﷺ: «أفي مثل هذا المقام يترك الخليل خليله؟!» فقال: لو تجاوزتُ لأحترقت بالنور[٧]. وفي رواية قال: لو دنوتُ أنْمُلَةً لاحترقت[٨].

فقال: «يا جبرئيل، هل لك [من] حاجةٍ إلى ربّي؟ قال: يا محمّد، سَل الله لي أنّ أبسُط جَناحي على

---

١. الرَّمِد: الكَدر الذي صار على لون الرماد.
٢. جارية لَعْساء: في لونها أدنى سواد مشربة من الحمرة.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٠٨ - ١٢٠.
٤. تفسير روح البيان ٥: ١٢١.
٥. تفسير روح البيان ٥: ١٢٠.
٦. تفسير روح البيان ٥: ١٢١، والمِحفّة: هودج لا قُبّة له، تركب فيه المرأة.
٧ و٨. تفسير روح البيان ٥: ١٢٠.

الصراط لأمّتك حتّى يجوزوا عليه[١].

قال ﷺ: «ثمّ زجّ بي في النور، فخرق بي سبعون ألف حِجاب، ليس [فيها] حجابٌ يُشبه حِجاباً، غِلَظ كُلّ حجاب خمسمائة عام، وانقطع عنّي حسّ كلّ مَلَكٍ، فَلَحِقني عند ذلك استيحاش، فعند ذلك نادى منادٍ بلغة أبي بكر: قف فانّ ربك يصلّي[٢]»، أي يقول: سبحاني سبحاني، سبقت رحمتي غضبي.

أقول: العجب كلّ العجب أنّ المنادي في ذلك المقام لم يجد لغةً ولساناً لم ينطِق بالشرك، واختار لغةً ولساناً نَطَق بالشِّرك دهراً دهيراً.

«وجاء نداء من العليّ الأعلى: ادنُ يا خير البرية، ادنُ يا أحمد ادنُ يا محمد، فأدناني ربيّ حتى كنت كما قال: **﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾**[٣] ونادى جَبْرَئيل من خلفه: يا محمّد، إنّ الله يُثني عليك، فاسمع وأطِع، ولا يهولنّك كلامه. فبدأ بالثناء وهو قوله: التحيات لله والصلوات والطيّبات». فقال تعالى: السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته. فقال ﷺ: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». فقال جَبْرَئيل: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، وتابعه جميع الملائكة[٤].

رُوي عنه ﷺ قال: «سألني ربّي فلم أستطع أن أُجيبه، فوضع يده بين كتفي بلا تكييف ولا تحديد، فوجدتُ برَدْها، فأورثني علم الأولين والآخرين، وعلّمني علوماً شتّى، فعِلْم أخذ عليّ كِتمانه إذ عَلِم أنّه لا يقدِر على حمله غيري، وعِلْم خيّرني فيه، وعِلْم أمرني بتبليغه إلى العامّ والخاصّ من أُمّتي»[٥].

ثمّ قال ﷺ: «فرض الله عليّ خمسين صلاة في كلّ يوم وليلة، فنزلت إلى إبراهيم فلم يقل شيئاً، ثمّ أتيت موسى فقال: ما فرض ربك على أُمّتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجِع إلى ربّك فاسأله التخفيف، فانّ أُمّتك لا تُطيق ذلك، فانّي والله قد جرّبت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة، ولقيت الشدّة في ما أردت فيهم من الطاعة».

قال ﷺ: «فرجعت إلى ربّي، فخررت له ساجداً، فقلت: أي ربّي، خفّف عن أُمّتي، فحطّ عنّي خمساً، فرجعت إلى موسى وأخبرته، فقال: إنّ أُمّتك لا تُطيق ذلك، قال: فلم أزل أُراجع بين ربي وموسى ويحُطّ خمساً خمساً حتّى قال موسى: بم أُمرت؟ قلت بخمس صلوات كلّ يوم. قال: ارجع

---

١. تفسير روح البيان ٥: ١٢١.
٢. تفسير روح البيان ٥: ١٢١.
٣. النجم: ٥٣/٨ و٩.
٤. تفسير روح البيان ٥: ١٢١.
٥. تفسير روح البيان ٥: ١٢٢.

إلى ربك فاسأله التخفيف. فقلت: قد راجعت ربّي حتّى استحييت، ولكن أرضى وأسلّم، فلما جاوزت نادى منادٍ: أمضيت فريضتي يا محمّد، وهي خمس صلوات في كلّ يوم وليلة بكلّ صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنةٍ فلم يعملها كُتِبت له حسنة، ومن علمها كُتِبت له عشر، ومن همّ بسيئةٍ فلم يعملها لم يُكْتَب شيء، وإن عَمِلها كُتِبت سيئة واحدة»[١].

ورُوي أنّه كانت الصلاة خمسين، والغُسل من الجنابة سبع مرات، وغَسل البول من الثوب سبع مرات، ولم يزل ﷺ يسأل ربه حتى جُعِلت الصلاة خمساً، وغُسل الجنابة مرة واحدة، وغَسل البَوْل من الثوب مرّة[٢].

وعن أنس، قال قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أُسري بي إلى السماء تحت العرش سبعين مدينة، كلّ مدينة مثل دنياكم هذه سبعين مرة، مملوءة من الملائكة، يسبّحون الله ويقدّسونه، ويقولون في تسبيحهم: اللهمّ اغفر لمن شَهِد الجمعة، اللهمّ اغفر لمن اغتسل يوم الجمعة.

ورأيت ليلة أُسري بي إلى السماء مكتوباً على باب الجنة: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر. فقلت: ياجَبْرَئيل، ما بال القَرضْ أفضل من الصدقة. قال: لأنّ السائل يسأل وعنده شيء، والمستقرض لا يستقرض إلّا من حاجة.

ورأيت رضوان خازن الجنة، فلمّا رآني فَرِح بي ورحّب بي، وأدخلني الجنة، وأراني فيها من العجائب ما وعد الله فيها لأوليائه ممّا لا عين رأت ولا أُذن سمِعت، ورأيت فيها درجات أصحابي، ورأيت فيها الأنهار والعيون، وسَمِعت فيها صوتاً وهو يقول: آمنّا بربّ العالمين. فقلت: ما هذا الصوت يا رضوان؟ قال: هم سَحَرة فرعون وأزواجهم.

وسَمِعت آخر يقول: لبّيك اللهمّ لبّيك فقلت: من هو؟ قال: أرواح الحجّاج، وسَمِعت التكبير، فقال: هؤلاء الغُزاة. وسَمِعت التسبيح، فقال: هؤلاء الأنبياء. ورأيت قصور الصالحين.

وعُرِضت النار عليّ، وإن كانت في الأرض السابعة، فاذا على بابها مكتوب: وإنّ جهنم لموعدهم أجمعين. قال: وأبصرتُ مَلَكاً لم يضحك في وجهي، فقلت: يا أخي جَبْرئيل، من هذا؟ قال: مالك خازن النار، لم يضحك منذ خلقه الله، ولو ضَحِك إلى أحدٍ لضحِك إليك، فقال له جَبْرَئيل: يا مالك، هذا محمّد فسلّم عليه. فسلّم عليّ وهنّأني بما صرت إليه من الكرامة والشرف.

قال: فسألته أن يعرِض عليّ النار بدركاتها، فعرضها عليّ بما فيها، وإذا فيها غضب الله، لو طُرِحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها، وإذا قوم يأكُلون الجِيف، فقلت: من هؤلاء يا جَبْرئيل؟ فقال: هؤلاء

---

١. تفسير روح البيان ٥: ١٢٣.

٢. تفسير روح البيان ٥: ١٢٣.

الذين يأكُلون لحوم الناس ـ **أقول**: يعني يغتابونهم ـ ورأيت قوماً تُنزَع ألسنتهم من أقفيتهم، فقلت: من هم؟ قال: هم الذين يَحْلِفون بالله كاذبين. ورأيت جماعة من النساء عُلّقن بشعورهنّ، فقلت: من هنّ؟ قال: هنّ اللاتي لا يستترن من غير محارمهنّ. ورأيت جماعة منهنّ لباسهنّ [من] القَطِران. فقلت: من هنّ؟ قال: نائحات».

فلمّا نزل إلى سماء الدنيا نظر إلى أسفل منه، فاذا هو بهَرج ودُخَان وأصوات، فقال: «ما هذه يا جَبْرَئيل؟» قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم حتى لا يَنْظُروا إلى العلامات، ولا يتفكّروا في مَلَكُوت السماوات، ولولا ذلك لرأوا العجائب. ونزل ﷺ إلى بيت المَقْدِس، وتوجّه إلى مكّة وهو على البُراق حتّى وصل إلى بيته، أو إلى بيت أمّ هانئ[1].

قيل: كان ذَهابه وإيابه ثلاث ساعات، أو أربع ساعات[2]. وقيل: إنّه كان قَدر لحظة[3].

القمي، عن الباقر عليه السلام: أنه كان جالساً في المسجد الحرام، فنظر إلى السماء مرّة، وإلى الكعبة مرّة، ثم قال: ﴿**سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا**﴾ وكرّر ذلك ثلاث مرات، ثمّ التفت إلى إسماعيل الجُعفي، فقال: «أيّ شيءٍ يقول أهل العراق في هذه الآية يا عراقي؟» قال: يقولون أُسري به من المسجد الحرام إلى بيت المَقْدِس.

فقال: «ليس كما يقولون، ولكنّه أسرى به من هذه إلى هذه» وإشار بيده إلى السماء، وقال: «مابينهما حرم»[4].

وعن الصادق عليه السلام، أنّه سئل عن المساجد التي لها فضل، فقال: «المسجد الحرام، ومسجد الرسول» قيل: والمسجد الأقصى؟ فقال: «ذاك في السماء، إليه أسرى رسول الله».

فقيل: إنّ الناس يقولون إنّه بيت المَقْدِس؟ فقال: «مسجد الكوفة أفضل منه»[5].

وعنه عليه السلام: أنّه سُئِل كم عُرِج برسول الله ﷺ، فقال: «مرتين»[6].

وعن الباقر ﷺ: «أتى جَبْرَئيل بالبُراق أصغر من البغل وأكبر الحمار، مضطرب الأُذنين عيناه في حافره وخِطامه مدّ بصره»[7].

وزاد في (الكافي): «أنّه إذا انتهى إلى جبل قصُرت يداه وطالت رجلاه، فاذا هبط طالت يداه

---

١. تفسير روح البيان ٥: ١٢٣.
٢. تفسير روح البيان ٥: ١٢٥.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٢٥.
٤. تفسير القمي ٢: ٢٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٦٦.
٥. تفسير العياشي ٣: ٢٤٥٧/٣٥، تفسير الصافي ٣: ١٦٦.
٦. الكافي ١: ١٣/٣٦٧، تفسير الصافي ٣: ١٦٧.
٧. تفسير العياشي ٣: ٢٤٤٧/٣١، تفسير الصافي ٣: ١٦٧، وفي تفسير العياشي: في حوافره، خطوه مَدّ بصر.

وقصُرت رجلاه، أهْدَب العُرف[١] الأيمن، له جَناحان من خلفه»[٢].

وعن (العيون) عن النبي صلى الله عليه وآله: «أنّ [الله] سخّر لي البُراق، وهي دابة من دوابّ الجنّة ليست بالقصير ولا بالطويل، فلو أنّ الله أذِن لها لجالت الدنيا والآخرة في جريةٍ واحدة، وهي أحسن الدوابّ لوناً»[٣].

القمي عن الصادق عليه السلام: «جاء جَبْرَئيل وميكائيل وإسرافيل بالبُراق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فأخذ واحدٌ باللِّجام، وواحدٌ بالرِّكاب، وسوّى الآخر عليه ثيابه، فتضعضعت البُراق، فلطمها جَبْرَئيل، ثمّ قال [لها]: اسكُني يا بُراق، فما رَكبك نبي قبله، ولا يَركبك بعده مثله» قال: «فترقّت[٤] فرفعته ارتفاعاً ليس بالكثير، ومعه جَبْرَئيل يريه الآيات من السماء والأرض. قال النبي صلى الله عليه وآله: [فبينا] أنا في مسيري إذ نادى منادٍ عن يميني: يامحمّد، فلم أجبه، ولم ألتفت إليه، ثمّ نادى منادٍ عن يساري: يا محمّد، فلم أجبه، ولم التفت إليه، ثمّ استقبلتني امرأةٌ كاشفة عن ذراعيها وعليها من كلّ زينة الدنيا، فقالت: يامحمّد، انظُرني حتّى أكلّمك فلم التفت إليها.

ثمّ سرتُ فسَمِعت صوتاً أفزعني [فجاوزتُ به]، فنزل بي جَبْرَئيل فقال: صلّ، فنزلتُ وصليتُ، فقال لي: تدري أين صليت؟ فقلتُ: لا. فقال: صلّيتَ بطَيْبه وإليها مهاجرك. ثمّ ركبتُ ومضينا ما شاء الله، ثمّ قال لي: إنزل فصلّ، فنزلتُ وصليتُ، فقال لي: تدري أين صليتَ؟ فقلت: لا. قال: صليتَ [بطور سَيناء حيث كلم الله موسى تكليماً، ثمّ ركبت فمضينا ما شاء الله، ثمّ قال لي: انزل فصلٍّ، فنزلت وصليت، فقال لي: تدري أين صليت؟ فقلت: لا، قال: صليت في] بيت لحم بناحية بيت المَقْدِس حيث ولد عيسى بن مريم.

ثمّ ركبت فمضينا حتى انتهينا إلى بيت المَقْدِس، فربطت البُراق بالحَلقة التي كانت الأنبياء يربُطون بها، فدخلتُ المسجد ومعي جَبْرَئيل إلى جَنْبي، فوجدنا إبراهيم وموسى وعيسى في من شاء الله من أنبياء الله قد جُمِعوا إليّ، وأقمتُ الصلاة، ولا أشُكّ أن جَبْرَئيل يستقدمنا[٥]، فلمّا استووا أخذ جَبْرئيل بعَضُدي فقدّمني وأممتهم ولا فخر، ثمّ أتاني الخازن بثلاث أوانٍ: إناء فيه لَبن، وإناء فيه ماء، وإناء فيه خمر، وسَمِعتُ قائلاً يقول: إن أخذ الماء غَرِق وغرِقت اُمّته، وإنّ أخذ الخمر غوىٰ وغوت اُمّته، وإن أخذ اللَّبن هُدِي وهُدِيت اُمّته. قال: فأخذتُ اللَّبن وشربت منه، فقال لي جَبْرَئيل: هُديتَ وهُديتْ اُمّتك.

---

١. أي طويل العُرف.
٢. الكافي ٨: ٥٦٧/٣٧٦، تفسير الصافي ٣: ١٦٧.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٤٩/٣٢، تفسير الصافي ٣: ١٦٧.
٤. في المصدر: فرقت به.
٥. في المصدر: ولا أشك إلا وجبرئيل استقدمنا.

ثمَ قال لي: ماذا رأيت في مسيرك؟ فقلت: ناداني منادٍ عن يميني. فقال لي: أو أجبته. قلت: لا ولم التفت إليه. قال: ذلك داعي اليهود، ولو أجبته لتهوّدت أُمّتك من بعدك. ثمّ قال: ماذا رأيت؟ فقلتُ: ناداني منادٍ عن يساري. فقال لي: أو أجبته؟ فقلت: لا، ولم التفت إليه. فقال: ذاك داعي النصارى، ولو أجبته لتنصّرت أُمتك من بعدك. ثمّ قال: ماذا استقبلك؟ فقلت: لقيت امرأةً كاشفةً عن ذراعيها عليها من كلّ زينة الدنيا. فقالت: يا محمّد، انظُرني حتّى أُكلّمك. فقال لي: أفكلّمتها؟ فقلت: لم أُكلّمها ولم التفت إليها. فقال: تلك الدنيا، ولو كلّمتها لاختارت أُمّتك الدنيا على الآخرة.

ثمَ سمِعتُ صوتاً أفزعني، فقال لي [جَبْرَئيل:] تسمع يامحمّد؟ قلت: نعم. قال: هذه صخرة قذفتها على شفير جهنّم منذ سبعين عاماً، فهذا حين استقرّت. قالوا: فما ضَحِك رسول الله ﷺ حتّى قُبِض.

قال: فصَعِد جَبْرئيل وصَعِدت معه إلى سماء الدنيا وعليها مَلَك يقال له إسماعيل، وهو صاحب الخَطْفة التي قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأُتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[1] وتحته سبعون ألف مَلَك، تحت كلّ ملك سبعون ألف مَلَك: فقال: يا جَبْرئيل، من معك؟ فقال: محمّد. قال: أو قد بُعِث؟ قال: نعم، ثمَ فتح الباب، فسلّمتُ عليه وسلّم عليّ، واستغفرتُ له واستغفر لي، وقال: مرحباً بالأخ الناصح والنبيّ الصالح، وتلقّتني الملائكة حتى دخلتُ سماء الدنيا، فما لقيني مَلَك إلّا كان ضاحكاً مستبشراً حتى لقيني مَلَك من الملائكة لم أرَ خَلْقاً أعظم منه، كريه المنظر، ظاهر الغضب. فقال لي مثل ما قالوا من الدعاء إلّا أنّه لم يضحك، ولم أر فيه [من] الاستبشار ما رأيت ممّن ضَحِك من الملائكة.

فقلت: من هذا يا جَبْرئيل، فإنيَ قد فَزِعت منه؟ فقال: يحِقّ أن تفزع منه، وكُلّنا نفزع منه، إن هذا مالك خازن النار، لم يضحك قطّ، ولم يزل منذ ولّاه الله جهنّم يزداد غَضباً وغيظاً على أعداء الله وأهل معصيته، فينتقم الله به منهم، ولو ضَحِك إلى أحدٍ كان قبلك، أو كان ضاحكاً إلى أحدٍ بعدك، لضَحِك إليك، ولكنّه لا يضحك. فسلّمت عليه فردّ السلام عليّ، وبشّرني بالجنة.

فقلت لجَبْرئيل وهو بالمكان الذي وصفه الله: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[2]: ألا تأمره أن يريني النار؟ فقال له جَبْرَئيل: يا مالك، أرِ محمّداً النار. فكشف عنها غطاءها، وفتح باباً منها، [فخرج] لهيبٌ ساطعٌ في السماوات، وفارت وارتفعت حتى ظننت ليتناولني ممّا رأيت. فقلت: يا جَبْرئيل، قل له فليرُدّ عليها غطاءها، فأمرها وقال: ارجِعي، فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه.

ثمَ مضيتُ فرأيت رجلاً آدماً[3] جسيماً فقالت: من هذا يا جَبْرئيل؟ فقال: هذا أبوك آدم. فاذا هو

---

١. الصافات: ١٠/٣٧. ٢. التكوير: ٢١/٨١. ٣. الآدم من الناس: الأسمر.

تُعرَض عليه ذُرّيته فيقول: روحٌ طيبٌ وريحٌ طيبةٌ من جسدٍ طيّب ثمّ تلا رسول الله ﷺ[1]: **﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾**[2] إلى آخرها. قال: فسلّمتُ على أبي آدم وسلّم عليّ، واستغفرت له واستغفر لي، وقال: مرحباً بالابن الصالح، والنبي الصالح، والمبعوث في الزمن الصالح.

ثمّ مررتُ بمَلَكٍ من الملائكة جالس على مجلس[3]، وإذا جميع الدنيا بين ركبتيه، وإذا بيده لوحٌ من نور ينظُر إليه مكتوب فيه، كتاب ينظُر فيه ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً إلا وهو مقبل عليه كهيئة الحزين، فقلت: من هذا يا جَبْرئيل؟ فقال: هذا مَلَك الموت دائب في قبض الأرواح. فقلت: يا جَبْرئيل ادنُني منه حتّى أكلّمه، فأدناني منه فلَسمتُ عليه، فقال له جَبْرئيل: هذا نبي الرحمة الذي أرسله الله إلى العباد، فرحّب بي وحيّاني بالسلام، وقال: أبشِر يا محمّد، فإنّي أرى الخير في اُمتك. فقلت: الحمد لله المنّان ذي النِّعم على عباده، ذلك من فضل رَبي ورحمته عليّ.

فقال جَبْرئيل: هو أشدّ الملائكة عملاً. فقلت: أكلّ من مات أو هو ميتٌ فيما بعد هذا يقبض روحه؟ فقال: نعم: قلت: ويراهم حيث كانوا ويشهدهم بنفسه؟ فقال: نعم. فقال مَلَك الموت: ما الدنيا كلّها عندي فيما سخّرها الله لي ومكّنني منها إلّا كالدِرْهَم في كفّ الرجل يقلّبه كيف يشاء، وما من دارٍ إلّا وأنا أتصفّحها كلّ يوم خمس مرات، وأقول إذا بكى أهل الميت على ميتهم: لا تبكوا عليه، فانّ لي فيكم عودة وعودة حتى لا يبقى منكم أحد، فقال رسول الله ﷺ: كفى بالموت طامّة يا جَبْرئيل. فقال جَبْرئيل: إنّ ما بعد الموت أطمّ وأطمّ من الموت.

قال: ثمّ مضيتُ فاذا أنا بقومٍ بين أيديهم موائد من لحمٍ طيب ولحم خبيث يأكُلون الخبيث ويَدَعُون الطيب، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكُلون الحرام ويَدَعون الحلال، وهم من اُمّتك يا محمد.

فقال رسول الله ﷺ: ثمّ رأيت مَلَكاً من الملائكة جعل الله أمره عجباً، نصف جسده نار، والنصف الأخر ثلج، فلا النار تُذيب الثلج، ولا الثلج يُطفىء النار، وهو ينادي بصوت رفيع يقول: سبحان الذي كفّ حرّ هذه النار فلا تُذيب الثلج، وكفّ برد [هذا] الثلج فلا يُطفئ حرّ هذه النار، اللهمّ يا مؤلّف بين الثلج والنار ألّف بين قلوب عبادك المؤمنين. فقلت: من هذا يا جَبرئيل؟ فقال: هذا مَلَك وكّله الله بأكناف السماوات وأطراف الأرضين، وهو أنصح ملائكة الله لأهل الأرضين من عباده المؤمنين،

---

١. زاد في المصدر: سورة المطففين على رأس سبعة عشر آية.
٢. المطففين: ٨٣/ ١٨ ـ ٢١.
٣. في المصدر: الملائكة وهو جالس.

يدعو لهم بما تسمع منه منذ خلقه، ومَلَكان يناديان في السماء؛ أحدهما يقول: اللهمّ أعطِ كلّ منفقٍ خَلفاً، والآخر يقول: اللهمّ أعطِ كلّ مُمسكٍ تَلَفاً.

ثمّ مضيتُ فإذا أنا بأقوام لهم مشافر كمشافر الإبل[١]، يُقرَض اللحم من جنوبهم ويلقى في أفواههم، فقلت: من هؤلاء يا جَبرَئيل؟ فقال: هؤلاء الهمّازون اللمّازون.

ثمّ مضيتُ فاذا أنا بأقوام ترُضَخ رؤوسهم بالصخر، فقلت: من هؤلاء يا جَبْرَئيل؟ فقال: هؤلاء الذين ينامون عن صلاة العِشاء.

ثمّ مضيتُ فإذا أنا بأقوام تُقْذَف النار في أفواههم وتخرُج من أدبارهم. فقلت: من هؤلاء يا جَبْرئيل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكُلون أموال اليتامى ظُلماً، إنّما يأكلُون في بطونهم ناراً وسيُصْلَون سعيراً.

ثمّ مضيتُ فاذا أنا باقوامٍ يُريد أحدهم أن يقوم فلا يقدِر من عِظم بطنه، فقلت: من هؤلاء يا جَبْرَئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكُلون الرِّبا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ، فإذا هم بسبيل آل فِرعون يُعرَضون على النار غُدوّاً وعشيّاً، ويقولون: ربّنا متى تقوم الساعة؟

قال: ثمّ مضيتُ فإذا أنا بنسوان معلّقات بثديهنّ، فقلت: من هؤلاء يا جَبْرئيل؟ فقال: هؤلاء اللواتي يُورثن أموال أزواجهنّ أولاد غيرهم. ثمّ قال رسول الله ﷺ: اشتدّ غَضَب الله على امرأةٍ أدخلت على قومٍ في نسبهم من ليس منهم، فاطّلع على عوراتهم وأكل خزائنهم.

قال: ثم مررتُ بملائكةٍ من ملائكة الله عزّ وجلّ خلقهم كيف شاء، ووضع وجوههم كيف شاء، ليس شيءٌ من أطباق أجسادهم إلّا وهو يُسبّح الله ويحمده من كلّ ناحية بأصوات مختلفة، أصواتهم مرتفعة بالتحميد والبكاء من خَشية الله، فسألت جَبْرَئيل عنهم، فقال: كما ترى خُلِقوا، إنّ المَلَك منهم إلى جَنْب صاحبه ما كلّمه قطّ، وما رفعوا رؤوسهم إلى ما فوقها، ولا خفضوها إلى ما تحتها خوفاً من الله وخشوعاً، فسلّمتُ عليهم فردّوا عليّ إيماءً برؤوسهم لا ينظُرون إليّ من الخُشوع. فقال لهم جَبْرئيل، هذا محمّد نبي الرحمة، أرسله الله إلى عباده رسولاً نبياً، وهو خاتم الأنبياء وسيّدهم، أفلا تكلّمونه [قال:] فلمّا سَمِعوا ذلك من جَبْرئيل أقبلوا عليّ بالسلام، وأكرموني، وبشّروني بالخير لي ولأمّتي.

قال: ثمّ صَعِدنا إلى السماء الثانية، فاذا فيها رجلان متشابهان، فقلت: من هذان يا جَبْرئيل؟ قال: أبنا الخالة يحيى وعيسى، فسلّمتُ عليهما وسلّما عليّ، واستغفرتُ لهما واستغفرا لي، وقالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، وإذا فيها من الملائكة [مثل ما في السماء الأولى] وعليهم الخشوع، وقد

---

١. المِشْفَر للبعير بمثابة الشَّفة للانسان.

وضع الله وجوههم كيف شاء، ليس منهم مَلَك إلّا يسبّح الله ويحمده بأصواتٍ مختلفة.

ثمّ صَعِدنا إلى السماء الثالثة، فإذا[فيها رجلٌ] فَضْلُ حُسنِهِ على سائر الخَلْق كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم. فقلت: من هذا يا جَبْرَئيل؟ فقال: هذا أخوك يوسف، فسلّمت عليه وسلّم عليّ، واستغفرتُ له واستغفر لي. وقال: مرحباً بالأخ الصالح، والنبيّ الصالح، والمبعوث في الزمان الصالح. وإذا فيها ملائكة [عليهم] من الخشوع مثل ما وصفتُ في السماء الأولى والسماء الثانية، فقال له جَبْرَئيل في أمري ما قال للآخرين، وصنعوا مثل ما صنع الآخرون.

ثمّ صَعِدنا إلى السماء الرابعة، وإذا فيها رجلٌ فقلت: من هذا ياجَبْرَئيل؟ فقال: هذا إدريس رفعه الله مكاناً علياً، فسلّمتُ عليه وسلّم عليّ، واستغفرتُ له واستغفر لي، وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات، فبشّروني بالخير لي ولأمّتي.

ثمّ رأيت مَلَكاً جالساً على سريرٍ تحت يديه سبعون ألف ألف[1] مَلَك، تحت كلّ مَلَك سبعون ألف ألف[2] مَلَك، فوقع في قلب رسول الله ﷺ أنّه هو، فصاح به جَبْرَئيل، فقال: قُم، فهو قائم إلى يوم القيامة.

ثمّ صَعِدنا الى السماء الخامسة، فإذا فيها رجلٌ كَهْلٌ عظيم العين لم أر كَهْلاً أكهل[3] منه، حوله ثُلّة من اُمّته، فأعجبتني كَثْرتهم، فقلت: من هذا يا جَبْرَئيل؟ فقال: هذا المجيب لقومه[4] هارون بن عِمران. فسلّمتُ عليه وسلّم عليّ، واستغفرتُ له واستغفر لي، وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات.

ثمّ صَعِدنا إلى السماء السادسة، وإذا فيها رجلٌ آدم كأنّه من شعره لو[5] أنّ عليه قميصين لنفذ شعره فيهما، وسَمِعته يقول: زعم بنو إسرائيل أنّي أكرم ولد آدم على الله، وهذا رجلٌ أكرم على الله منّي. فقلت: من هذا يا جَبْرَئيل؟ فقال: [هذا] أخوك موسى بن عِمران . فسلّمتُ عليه وسلّم عليّ، واستغفرتُ له واستغفر لي، وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات.

ثمّ صَعِدنا إلى السماء السابعة، فما مررتُ بمَلَك من الملائكة إلّا قالوا: يا محمد، احتجم وأمر اُمّتك بالحِجامة، وإذا فيها رجلٌ أشمط[6] الرأس واللّحية جالس على كُرسيّ، فقلت: يا جَبْرئيل، من هذا الذي في السماء السابعة على باب البيت المعمور في جِوار الله؟ فقال: هذا يا محمد أبوك إبراهيم،

---

١ و٢. في المصدر: سبعون ألف.

٣. في المصدر: أعظم.

٤. في المصدر: المحبب في قومه.

٥. في المصدر: آدم طويل عليه سمرة ولولا.

٦. الشَّمط: بياض يخالطه سواد في الشعر.

وهذا محلّك ومحلّ من اتّقى من أمّتك، ثمّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾[1] فسلّمتُ عليه وسلّم عليّ، وقال: مرحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح، والمبعوث في الزمن الصالح. وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات، فبشّروني بالخير لي ولأمّتي.

قال رسول الله ﷺ: ورأيتُ في السماء السابعة بحاراً من نُور تتلألأ يكاد تلألؤها يخطَف بالأبصار، وفيها بحارٌ مظلمةٌ وبحار ثلج ترعُد[2]، فلمّا فزعت ورأيت هؤلاء سألت جَبْرئيل، فقال: أبشر يا محمد، واشكُر كرامة ربك، واشكُر الله ما صنع إليك [قال:] فثبّتني الله بقوّته وعونه حتى كثُر قولي لجَبْرئيل وتعجّبي، فقال جَبْرئيل: يا محمّد أتُعظّم ما ترى؟ إنّما هذا خَلْق من خَلْق ربك، فكيف بالخالق الذي خَلَق ما ترى وما لا ترى من خَلْق ربك أعظم من هذا؟ إنّ بين الله وبين خلقه تسعين[3] ألف حِجاب، وأقرب الخَلْق إلى الله أنا وإسرافيل، وبيننا وبينه أربعة [حُجب]: حِجاب من نور، وحِجاب من ظُلمة، وحِجاب من غَمام، وحِجاب من ماء.

قال: ورأيت من العجائب التي خلق الله وسخّره على ما أراد دِيكاً رجلاه في تُخوم الأرضين السابعة، ورأسه عند العرش، ومَلَكاً من ملائكة الله خلقه الله كما أراد رجلاه في تُخوم الأرضين السابعة، ثمّ أقبل مُصعِداً حتى خرج في الهواء إلى السماء السابعة، وانتهى فيها مُصعِداً حتى انتهى قَرنه إلى قُرب العرش وهو يقول: سبحان ربي حيث ما كنت، لا تدري أين ربّك من عِظَم شأنه، وله جَناحان في مَنْكِبيه إذا نشرهما جاوزوا المشرق والمغرب، فاذا كان في السَّحر[4] نشر جَناحيه وخَفقَ بهما، وصرخ بالتسبيح، يقول: سبحان الله المَلَك القُدّوس، سبحان الله الكبير المتعال، لا إله إلّا هو الحيّ القيوم. فاذا قال ذلك سبّحت دُيُوك الأرض كلّها، وخَفقَت بأجنحتها، وأخذت بالصُّراخ، فاذا سكت ذلك الديك في السماء سكتت دُيُوك الأرض كلّها، ولذلك الدِّيك زُغب أخضر وريش أبيض كأشدّ بياضاً ما رأيته قطّ، وله زَغَب أخضر أيضاً تحت ريشه الأبيض كأشدّ خُضرةً ما رأيتها قطّ.

قال: ثمّ مضيتُ مع جَبْرئيل، فدخلتُ البيت المعمور فصلّيت فيه رَكْعتين ومعي أُناس من أصحابي عليهم ثياب جُدد، وآخرون عليهم ثياب خُلقان[5]، فدخل أصحاب الجُدد، وحُبِس أصحاب الخُلقان.

ثمّ خرجتُ فانقاد لي نهران: نهر يسمّى الكوثر، ونهر يسمّى الرحمة، فشربت [من] الكوثر، واغتسلت من الرحمة، ثمّ انقادا إليّ حتى دخلتُ الجنة، فإذا على حافتيها بيوتي وبيوت أزواجي، وإذا

---

١. آل عمران: ٦٨/٣. ٢. في المصدر: ثلج ورعد. ٣. في المصدر: سبعون.
٤. زاد في المصدر: ذلك الديك. ٥. الخُلقان: جمع خَلَق، أي بالٍ.

تُرابها كالمِسك، وإذا جارية تنغمس في أنهار الجنة، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ فقالت: لزيد بن حارثة فبشّرته بها حين أصبحت، وإذا بطيرها كالبُخت[1]، وإذا رُمّانها مثل الدِّلاء العِظام، وإذا شجرة لو أُرسل طائر في أصلها ما دارها سبعمائة[2] سنة، وليس في الجنة منزلٌ إلّا وفيه فَرْع منها، فقلت: ماهذه يا جَبْرئيل. فقال: هذه شجرة طُوبى، قال الله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[3].

قال رسول الله ﷺ: فلما دخلتُ الجنّة، رجعت إلى نفسي فسألت جَبْرئيل عن تلك البحار وهولها وأعاجيبها، فقال: هي سُرادقات الحُجب التي احتجب الله تبارك وتعالى بها، ولولا تلك الحُجب لهتك نورُ العرش كلَ شيء فيه.

فانهيت إلى سِدرة المُنتهى، فاذا الورقة منها تُظِلّ أمّةً من الأمم، فكنت [منها] كما قال الله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[4] فناداني ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[5] وقد سبق ذلك في آخر سورة البقرة. فقال رسول الله ﷺ: يا ربّ، أعطيت أنبياءك فضائل فأعطني. فقال: قد أعطيتك في ما أعطيتك كلمتين من تحت عرشي: لا حول ولا قوة إلّا بالله، ولا منجىً منك إلّا إليك.

قال: وعلّمتني الملائكة قولاً أقوله إذا أصبحت وأمسيت: اللهم إن ظُلمي أصبح مستجيراً بعفوك، وذنبي أصبح مستجيراً بمغفرتك، وذُلّي أصبح مستجيراً بعزّك، وفَقْري أصبح مستجيراً بغِناك، ووجهي [الفاني] البالي أصبح مستجيراً بوجهك الباقي[6] الذي لا يفنى.

ثمّ سَمِعتُ الأذان، فإذا مَلَك يؤذّن لم يُرَ في السماء قبل تلك الليلة، فقال: الله أكبر، الله أكبر، فقال الله: صدق عبدي، أنا أكبر. فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله، أشهد أن لا إله إلّا الله. فقال الله: صدق عبدي أنا الله لا إله غيري. فقال: أشهد أن محمّداً رسول الله، أشهد أنّ محمّداً رسول الله. فقال الله: صدق عبدي إنّ محمّداً عبدي ورسولي. أنا بعثته وأنا انتجبته. فقال: حيّ على الصلاة، [حيّ على الصلاة] فقال: صدق عبدي، ودعا إلى فريضتي، فمن مشى [إليها] راغباً فيها محتسباً، كانت كفارةً لما مضى من ذنوبه. فقال: حيّ على الفلاح، [حيّ على الفلاح.] فقال الله: هي الصلاح والنجاح والفلاح، ثمّ أممتُ الملائكة في السماء كما أممتُ الأنبياء في بيت المَقْدِس.

قال: ثمّ غشيتني ضَبابة، فخررتُ ساجداً، فناداني ربّي: إنّي قد فرضتُ على كلّ نبيّ كان قبلك خمسين صلاة، وفرضتها عليك وعلى أمّتك، فقم بها أنت في أمّتك فقال: رسول الله: فانحدرت حتّى مررت بابراهيم فلم يسألني عن شيء، ثمّ انتهيت إلى موسى، فقال: ما صنعت يا محمّد؟ فقلت:

---

١. البُخت: الإبل الخُراسانية. ٢. في المصدر: تسعمائة.
٣. الرعد: ٢٩/١٣. ٤. النجم: ٩/٥٣. ٥. البقرة: ٢٨٥/٢. ٦. في المصدر: الدائم.

قال ربّي: فرضت على كلّ نبيٍ كان قبلك خمسين صلاة، وفرضتها عليك وعلى أُمّتك. فقال: [موسى] يا محمّد، إنّ أُمّتك آخر الأمم وأضعفها، وإن ربّك لا يَرُدّ عليك شيئاً، وإنّ أُمّتك لا تستطيع أن تقوم بها، فارجِع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمّتك. فرجعتُ إلى ربي فانتهيت إلى سِدرة المنتهى، فخررتُ ساجداً، ثمّ قلت: فرضت عليّ وعلى أُمّتي خمسين صلاة، ولا أُطيق ذلك ولا أُمّتي، فخفّف عني. فوضع عنّي عشراً، فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجِع لا تُطيق. فرجعت، فوضع عنّي عشراً، فرجعتُ إلى موسى فأخبرته، فقال: لا تطيق ارجِع، وفي كلّ رجعةٍ أرجِع إليه أخرّ ساجداً حتى رجع إلى عشر صلوات، فرجعت إلى موسى وأخبرته، فقال: لا تُطيق. فرجعت إلى ربّي فوضع عني خمساً، فرجعت إلى موسى وأخبرته، فقال: لا تُطيق. فقلت: قد استحييتُ من ربّي، ولكن أصبر عليها. فناداني [منادٍ:] كما صبرت عليها فهذه الخمس بخمسين، كلّ صلاة بعشر، ومن همّ من أُمّتك بحسنة يعملها فعملها كتبت له عشراً، وإنّ لم يعمل كُتِبت له واحدة، ومن همّ من أُمّتك بسيئةٍ فعَمِلها كُتبت عليه واحدة، وإن لم يعملها لم أكتُب عليه [شيئاً]، فقال الصادق عليه السلام: جزى الله موسى عن هذه الأمة [خيراً] فهذا تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ الآية»[1].

وعن (كشف الغمة) عن النبي صلى الله عليه وآله: أنّه سئل بأيِّ لُغةٍ خاطبك ربّك ليلة المِعراج؟ فقال «خاطبني بلغة علي بن أبي طالب، فأُلهمتُ أن قلت: يا ربّ [أنت] خاطبتني أم عليّ؟ فقال: يا محمّد[2]، أنا شيءٌ ليس كالأشياء، ولا أُقاس بالناس، ولا أُوصَف بالأشياء، خلقتُك من نوري، وخلقتُ علياً من نورك، فأطلعت على سرائر قلبك، فلم أجد إلى قلبك أحبّ من علي بن أبي طالب، فخاطبتك بلسانه كيما يطمئنّ قلبك»[3].

وعن الصادق عليه السلام: « لمّا أُسري برسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيت المَقْدِس حَمَله جَبْرَئيل على البُراق، فأتيا بيت المَقدِس، وعرض عليه محاريب الأنبياء، وصلّى بها، وردّه فمّر رسول الله صلى الله عليه وآله في رجوعه بِعيرٍ لقُريش، وإذا لهم ماء في آنية، وقد أضلّوا بعيراً لهم، وكانوا يطلبونه، فشرب رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك الماء، وأهريق باقيه.

فلمّا أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله قال لقريش: إن الله تعالى قد أسرى بي إلى بيت المَقْدِس، وأراني آثار الأنبياء ومنازلهم، وإنّي مررتُ بعِيرٍ في موضع كذا وكذا، وقد أضلّوا بَعيراً لهم، فشربت من مائهم، وأهرقت باقيه. فقال أبو جهل: قد أمكنتكم الفرصة [منه]، فاسألوه كم الأساطين فيها والقناديل؟

---

١. تفسير القمي ٢: ٣، تفسير الصافي ٣: ١٦٧.
٢. في المصدر: يا أحمد.
٣. كشف الغمة ١: ١٠٦، تفسير الصافي ٣: ١٧٧.

فقالوا: يا محمّد، إنّ ها هنا من دخل بيت المقدس، فصِف لنا كم أساطينه وقناديله ومحاريبه، فجاء جَبْرَئيل فعلّق صورة بيت المَقْدِس تِجاه وجهه، فجعل يُخبرهم بما يسألونه عنه، فلمّا أخبرهم قالوا: حتى تجيء العير ونسألهم عمّا قلت، فقال لهم رسول الله ﷺ: تصديق ذلك أنّ العير تطلُع عليكم مع طلوع الشمس، يَقْدَمها جمل أوْرَق[1] فلمّا كان من الغد أقبلوا ينظُرون إلى العقبة، ويقولون: هذه الشمس تطلُع الساعة، فبينا هم كذلك إذ طلعت عليهم العِير حين طلع القُرص يَقْدَمها جمل أورَق، فسألوهم عمّا قال رسول الله ﷺ، فقالوا: لقد كان هذا ضلّ جملٌ لنا في موضع كذا وكذا، ووضعنا ماءً فأصبحنا وقد أُهريق الماء، فلم يَزِدهم إلّا عُتوّاً»[2].

روت العامة: أنّ النبي ﷺ لمّا رجع من ليلته قصّ القصّة على اُمّ هانئ، وقال: «إنّي اُريد أن أخرُج إلى قريش واُخبرهم بذلك». فقالت: أنشدك بالله يا بن عمّ أن لا تُحدّث بهذا قريشاً فيكذّبك من صدّقك. فلمّا كان الغَداة تعلّقت بردائه، فضرب يده على ردائه فانتزعه من يدها، وانتهى إلى نفرٍ من قريش في الحَطيم وهو ما بين باب الكعبة والحَجر الأسود، واُولَئِكَ النفر: مُطعِم بن عَديّ، وأبو جهل بن هِشام، والوليد بن المُغيرة. فقال: «إنّي صلّيت العِشاء في هذا المسجد، وصلّيت به الغَداة، وأتيت فيما بين ذلك بيت المَقْدِس» وأخبرهم عمّا رأى في السماء من العجائب، وأنّه لقي الأنبياء، وبلغ البيت المَعْمُور وسِدرة المنتهى[3].

ورُوي أنه لمّا دخل المسجد الحرام، وعرَفَ أنّ الناس يكذّبونه، وما أحبّ أن يكتُم ما هو دليل على قدرة الله، وعلوّ مقامه الباعث على اتّباعه، قَعَد حزيناً، فمرّ به أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه ﷺ، فقال كالمستهزئ: هل كان من شيءٍ؟ قال: «نعم اُسري بي الليلة». قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المَقْدِس» قال: ثمّ أصبحتَ بين ظهرانينا؟! قال: «نعم». قال: أرأيت أن دعوت قومك تحدّثهم بما حدّثتني؟ قال: «نعم». قال: يامعشر كعب بن لؤي، فانفضّت إليه المجالس وجاءوا حتّى جلسوا إليهما، فقال: «إنّي اُسري بي». قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المُقدِس، فنشر لي الأنبياء وصلّيت به وكلّمتهم».

فقال أبو جهل كالمستهزئ: صفهم لنا. فقال ﷺ: «أمّا عيسى ففوق الرَّبْعَة[4] دون الطويل عريض الصدر جاعد الشعر» [أي في شعره تثنّي وتكسّر] «تعلوه صُهبة» أي [يعلو شعره شُقرة «ظاهر الدم» أي يعلوه] حُمرة «كأنّما خرج من دَيْماس» أي حمام «أمّا موسى فضخَم آدم» أي أسمر طويل «كأنّه رجال شنوءة» وهم طائفة من اليمن معروفون بالطول «كثير الشعر، غائر العينين، متراكم الاسنان،

---

١. الأورق من الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد.
٢. أمالي الصدوق: ٧١٩/٥٣٣، تفسير الصافي ٣: ١٧٦.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٢٥.
٤. الرَّبْعَة : الوسيط القامة.

متقلّص الشفتين، خارج اللّثة، عابس. وأمّا إبراهيم فوالله إنّه لأشبه الناس بي خَلقاً وخُلقاً».

فضجّوا وعظموا ذلك، وصار بعضهم يصفّق، وبعضهم يضع يده على رأسه متعجّباً ومنكِراً، قالوا: نحن نضرِب أكباد الإبل إلى بيت المَقْدِس مُصعداً شهراً ومنحدراً شهراً، أتزعُم أنّك أتيته في ليلة واحدة، واللات والعُزّى لا نصدّقك. وارتدّ ناسٌ ممّن كان آمن به، وسعى رجالٌ إلى أبي بكر، فقال: إن كان قد قال ذلك فلقد صدق. قالوا: أتُصدّقه على ذلك؟ قال: إنّي أُصدّقه على أبعد من ذلك، فإنّي أُصدّقه في خبر السماء في غُدوةٍ ورَوْحة.

وكان فيهم من يعرف بيت المقدس، فقالوا: صِف لنا بيت المَقْدِس، كم له [من] باب؟ قال ﷺ: «فكَرَبتُ كَرْباً شديداً لم أكرب مثله [قطّ]، لأنّهم سألوني عن أشياء لم أثبتْها، وكنت دخلته ليلاً وخرجت منه ليلاً، فقمتُ في الحِجْر، فجلّى الله لي بيت المَقْدِس، فَطَفِقت أُخبرهم عن آياته وأنا أنظُر إليه»، فقالوا: أمّا النعت فقد أصاب. فقالوا: ما آية ذلك يا محمّد؟ فقال ﷺ: «[آية ذلك] إنّي مررتُ بعِيرِ بني فلان بوادي الروحاء» وهو محلّ قريب من المدينة «قد أضلّوا ناقةً لهم، وانتهيت إلى رِحالهم، وإذا قَدحُ ماءٍ فشَرِبت منه، فاسألوهم عن ذلك». قالوا: فأخبرنا عن عِيرنا. قال: «مررتُ بها في التنعيم» وهو محلّ قريب من مكة «فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وأنها تَقْدُم مع طُلوع الشمس، يتقدّمها جملٌ أوْرَق عليه غِرارتان» أي جُوالقان[1] «أحداهما سوداء، والأُخرى بَرْقاء[2]» فابتدر القوم الثنية، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد أشرقت. فقال آخر: هذه والله العِير قد أقبلت، يتقدّمها جمل أوْرَق، كما قال محمد، عليه غِرارتان، فتاب المرتدّون وأصرّ المشركون، وقالوا: إنّه ساحر[3].

ثمّ اعلم أنّ معراج النبي ﷺ مرّة ببَدَنه العنصري من ضروريات دين الاسلام، والأخبار به متواترة، وإن كان تفصيل خصوصياته وقضاياه منقولٌ بخبر الواحد، فلا شُبهة في أنّ إنكار أصله ـ كما نُسب إلى عائشة ومعاوية ـ كفرٌ وخروجٌ عن رِبْقة الاسلام، والتشكيك فيه بأن صُعود الجسم الثقيل إلى السماوات وسرعة حركته إلى هذا الحدّ وخرق الأفلاك غير معقول، إنّما نشأ عن الجهل بقدرة الله تعالى الكاملة. وأمّا في بعض الروايات من الأُمور البعيدة عن الأنظار فمطروحٌ أو موجّه بوجوهٍ قريبةٍ إلى الاعتبار.

---

١. الجِوالق: وعاءٌ من صوف أو شعر أو غيرهما.
٢. برقاء: لعلّه يريد بيضاء مشرقة كالبرق، وفي روح البيان: أي فيها بياض وسواد، أي جوالق مخطط ببياض.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٢٦.

وَآتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِى إِسْرَاءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلاً * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً[٢ و ٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان إكرام نبيه ﷺ بإسرائه إلى السماوات، بيّن إكرام موسى بإسرائه إلى الطّور وإيتائه التوراة بقوله: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ المعهود ـ وهو التوراة ـ بعد إسرائه إلى الطّور، وكان من فضائل ذلك الكتاب أنّا قرّرناه ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدىً﴾ ورشاداً ﴿لِبَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾ إلى كلّ حقٍّ وخيرٍ، لاحتوائه للعلوم الكثيرة والأحكام الوفيرة، وكان أهمّ ما فيه أنّاكتبنا فيه ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ يا بني إسرائيل لأنفسكم ﴿مِن دُونِى﴾ وممّا سواي ﴿وَكِيلاً﴾ وإلهاً تفوّضون إليه الأمور، وترجعون إليه في الحوائج يا ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾ ه ﴿مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة يوم الطّوفان، وأنعمنا عليه بالنجاة حين هلاك جميع ما في الأرض من الحيوان والنبات، فانّ نجاة آبائكم من أعظم النّعماء عليكم؛ لأنّه لو لم يكونوا لم تكونوا، فيجب أن يقابلوه بالشكر كما شكر نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ مبالغاً في أداء حقّ[1] النعمة، ومجدّاً إلى القيام بوظائف العبودية.

رُوي أنّه عليه السلام كان إذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء أجاعني». وإذا شَرِب قال: «الحمد لله الذي سقاني، ولو شاء أظمأني» وإذا اكتسى قال: «الحمد لله الذي كساني، ولو شاء جرّدني». وإذا تغوّط قال: «الحمد لله الذي أخرج عنّي أذاه في عافية، ولو شاء حبسه»[2].

وعن الباقر عليه السلام، أنه سُئِل ما عنى بقوله في نوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾؟ فقال: «كلمات بالغ فيهنّ» قيل: وما هنّ؟ قال: «كان إذا أصبح قال: أصبحت اُشهدك ما أصبحت بي من نعمةٍ أو عافيةٍ في دِين أو دنيا فانّها منك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد على ذلك، ولك الشكر كثيراً. كان يقولها إذا أصبح ثلاثاً، وإذا أمسى ثلاثاً»[3].

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِى إِسْرَاءِيلَ فِى ٱلْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً[٤ ـ ٦]

---

١. في النسخة: حقه. ٢. تفسير روح البيان ٥: ١٣١.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٤٦٣/٣٦، الكافي ٢: ٣٨/٣٨٨، تفسير الصافي ٣: ١٧٧.

ثمّ أنه تعالى بعد بيان أن إيتاء التوراة كان لهداية بني إسرائيل، بيّن عدم هدايتهم بها بقوله: ﴿وَقَضَيْنَا﴾ وحكمنا حكماً مبتوتاً مرسلاً ﴿إِلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾ بكتبه ﴿فِى﴾ ذلك ﴿الْكِتَابِ﴾ المُنزَل على موسى عليه السلام أنكم يا بني إسرائيل والله ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ بالكفر وقتل الأنبياء ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المقدسة والبيت المقدّس وحواليه ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ أولاهما: مخالفتهم، التوراة وقتل أشعيا[1]، وحبس أرميا ﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾ وتستكبرنّ عن طاعة الله ﴿عُلُوّاً﴾ واستكباراً ﴿كَبِيراً﴾ وطغياناً عظيماً ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ﴾ العقوبة على المرة السابقة من الإفسادتين، وحان[2] حين المجازاة على ﴿أُولَاهُمَا بَعَثْنَا﴾ وسلّطنا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لعقوبتكم على معاصيكم ﴿عِبَاداً﴾ وناساً مخلوقين ﴿لَنَا﴾ حال كونهم ﴿أُولِى بَأْسٍ﴾ وذوي بطشٍ ﴿شَدِيدٍ﴾ فقتلوكم ونهبوا أموالكم، فلمّا لم يجدوا من تَظَاهَرَ منكم وما ظهر من أموالكم ﴿فَجَاسُوا﴾ وفتّشوا ﴿خِلَالَ ٱلدِّيَارِ﴾ وفُرَج البيوت وما بين جُدرها ليقتلوا من استخفى منكم، وينهبوا ما سترتم من أموالكم ﴿وَكَانَ﴾ وعد تعذيبكم ﴿وَعْداً﴾ لابدّ من كونه ﴿مَفْعُولاً﴾ ومُنجَزاً غير مُخلف.

قيل: إنّ المراد من العباد المبعوثين جالوت وجنوده[3]. وقيل: بُخْت نَصَر المجوسي مَلِك بابل، حارب بني إسرائيل وغلب عليهم وأكثر القتل فيهم، حتى قتل أربعين ألفاً من علمائهم، وأسر سبعين ألفا منهم، وغَنِم أموالهم، وأحرق التوراة، وخرّب المسجد، فبقوا في الذلّ والشدّة إلى قريب من مائة سنة، فضجّوا وتابوا من عصيانهم وإفسادهم وعُتوّهم[4].

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا﴾ وأعدنا ﴿لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ والدولة والغَلَبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بعد كونكم مقهورين مغلوبين تحت سلطنتهم وسطوتهم ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم﴾ وقوّيناكم ﴿بِأَمْوَالٍ﴾ كثيرةٍ بعد ما نُهبت أموالكم ﴿وَبَنِينَ﴾ وأولاد بعدما سُبوا ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ وعدداً مماكنتم، أو من أعدائكم.

قيل: إنّ كُورش الهمداني غزا أهل بابل، فظهر عليهم، وسكن ديارهم، ثمّ تزوجّ امرأةً من بني إسرائيل، فطلبت من زوجها أن يردّ بني إسرائيل إلى أرضهم، فردّهم كورش إلى بيت المقدس وقتل بُخْت نَصَر، وخرج بنو إسرائيل من الأسر، ورجع إليهم المُلك، وصاروا إلى أحسن ممّا كانوا عليه[5].

إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـُٔوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً[٧]

---

١. في روح البيان ٥: ١٣٢: شعيا.
٢. في النسخة: وأحان.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٥٦.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٥٥، تفسير روح البيان ٥: ١٣٢.
٥. تفسير روح البيان ٥: ١٣٣.

ثمَ أنَه تعالى بعد حكاية شدَة بلائهم بعد عِصيانهم، وحُسن حالهم بعد توبتهم وإنابتهم، نبَه على أن نفع الإيمان والطاعة عائدٌ إليهم، وضرر الكفر والعصيان واردٌ عليهم لا يتعدّاهم بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل في العقائد والأعمال، فقد تبيَن لكم أنكم ﴿أَحْسَنتُمْ﴾ وحصَلتم الخير والثواب الدنيوي والأخروي ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ واستفتحتم أبواب البركات على ذواتكم ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ بالكفر والطُّغيان ﴿فَلَهَا﴾ ضررها من الذُّلَ والشدَة في الدنيا والعذاب في الآخرة، وفي ذكر فعل الاحسان مرتين دون الاساءة، إشارةٌ بغلبة رحمته تعالى على غضبه ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ﴾ العقوبة على المرَة ﴿الْآخِرَةِ﴾ من طُغيانكم كقتل يحيى وزكريا والاجتماع لقتل عيسى، بعثنا عليكم جمعاً آخر ﴿لِيَسُوءُوا﴾ ويغيَروا ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ من شدَة الحزن والكآبة فتسودَ أو تتغيَر ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ الأقصى ويخربوه ﴿كَمَا﴾ أنَ أعداءكم ﴿دَخَلُوهُ﴾ وخربوه ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عقوبةً على طغيانكم الأول ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا﴾ واستولوا عليه من النفوس والأموال ﴿تَتْبِيرًا﴾ وإهلاكاً فظيعاً لا يُوصَف.

قيل: إنَ الذين بعثهم الله لعقوبة بني إسرائيل ططوس النصراني[١]، حاصر بلادهم، وقتل نفوسهم، ونهب أموالهم، وخرَب بيت المقدس[٢].

وقيل: إنَ هردوس مَلِك بابل غزا بني إسرائيل، وقال لرئيس جُنده: كنت حَلَفت بالهي لأن ظَفِرت بأهل بيت المَقْدِس لأقتلنَهم حتى تسيل دماؤهم وسط عسكري، فاقتُلهم أنت. فدخل بيت المَقْدِس، وقام في البُقعة التي كانوا يُقرَبون فيها القُربان، فوجد فيها دماً يغلي فسألهم عنه فقالوا: دم قربان لم يُقْبَل منّا. فقال: ما صَدَقْتُموني. فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من رؤسائهم وعلمائهم[٣] وأزواجهم، فلم يسكُن الدم.

ثمَ قال: إن لم تَصْدُقوني ما تركت منكم أحداً. فقالوا: إنَه دم نبي [كان] ينهانا عن المعاصي، ويُخبرنا بأمركم، فلم نُصدَقه فقتلناه، فهذا دمه. فقال: ما كان اسمه؟ قالوا: يحيى بن زكريا. قال: الآن صَدَقْتُموني، لمثل هذا ينتقم ربَكم منكم.

وكان قتل يحيى بيد مَلِك من بني إسرائيل يقال له لا حت[٤] حمله على قتله امرأة اسمها إربيل، وكانت قتلت سبعة من الأنبياء، وقَتْل يحيى كان بعد رفع عيسى، فلمّا رأى أنهم صَدَقوا خرَ ساجداً، ثمَ قال: يا يحيى، قد عَلِم ربّي وربّك ما أصاب قومك من أجلك وما قُتِل منهم، فاهدأ باذن الله قبل أن لا أُبقي أحداً منهم، فهدأ فرَفَع عنهم القتل، وقال: آمنتُ بما آمنت به بنو إسرائيل، وأيقنت أنه لا ربَ

---

١. في روح البيان: طرطوس الرومي.
٢. تفسير روح البيان: ٥: ١٣٣.
٣. في تفسير روح البيان: وغلمانهم.
٤. في تفسير روح البيان: لاخت.

غيره.

وقال لبني إسرائيل: إن هردوس أمرني أن اقتّل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، ولست أستطيع أن أعصيه. قالوا: أفعل ما أمرت، فأمر أن يُحفَر خندقاً ويذبحوا دوابّهم حتى سال الدم في العسكر، فلمّا رأى هردوس ذلك أرسل إليه أن ارفع عنهم القتل، فسلب عنهم المُلك والرئاسة، وضربت عليهم الذِلة والمَسْكنة، ثمّ أنصرف إلى بابل[1].

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً[٨]

ثمّ رغّبهم الله تعالى في الإيمان والطاعة والأعمال الصالحة،ورهّبهم عن الفساد والطُّغيان بقوله: **﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾** بعد الانتقام منكم إن بقيتم على الايمان والأعمال الصالحة، أو إن تُبتُم توبةً أخرى وكففتم عن العِصيان والطُّغيان **﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾** مرةً ثالثة إلى ما كنتم عليه من العِصيان **﴿عُدْنَا﴾** إلى الانتقام منكم بالقتل والأسر في الدنيا **﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾** ومَحْبَساً، أو مقرّاً ومِهاداً في الآخرة، ولا يمكنهم الخروج منها أبداً، وكان من خُبث ذاتهم أنّهم بعد ما رأوا من العقوبات وسَمِعوا من التهديد، عادوا إلى العِصيان بتكذيب النبي وكِتمان علائمه ونُعوته المذكورة في التوراة والانجيل وتحريفهما، فعاد الله عليهم بالتعذيب على أيدي المسلمين، فقتلوا كثيراً منهم، وأجلوا كثيراً، وضرب الله على سائرهم الجِزية والذِلة إلى يوم القيامة.

والقمّي قال: **﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ فِى ٱلْكِتَابِ﴾** أي أعلمناهم، ثمّ انقطعت مخاطبة بني إسرائيل، وخاطب الله أمة محمّد فقال: **﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾** يعني فلاناً وفلاناً وأصحابهما، ونقضهم العهد **﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾** يعني ما ادّعوه من الخلافة **﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا﴾** يعني يوم الجمل **﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾** يعني أمير المؤمنين وأصحابه **﴿فَجَاسُوا خِلاَلَ ٱلدِّيَارِ﴾** أي طلبوكم وقتلوكم **﴿وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً﴾** يعني يتِمّ ويكون **﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾** يعني لبني أمية على آل محمد **﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾** من الحسن والحسين ابني علي عليه السلام وأصحابهما [فقتلوا الحسين بن عليّ] وسبوا نساء آل محمّد **﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾** يعني القائم وأصحابه **﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾** يعني تسوّد وجوهكم **﴿وَلِيَدْخُلُوا ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وأمير المؤمنين عليه السلام **﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾**[2] أي يعلو عليكم فيقتلوكم.

---

١. تفسير روح البيان ٥: ١٣٤.

٢. الإسراء: ١٧/٤ ـ ٧.

ثمّ عطف على آل محمّد فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي ينصُركم على عدوكم. ثمّ خاطب بني أُمية فقال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ يعني إن عُدتم بالسفياني عُدنا بالقائم من آل محمد ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ [أي] حبساً يُحْصَرون فيها[١].

عن (الكافي) و(العياشي) عن الصادق عليه السلام في تأويل الإفسادتين بقتل عليّ عليه السلام وطعن الحسن عليه السلام، والعلوّ الكبير بقتل الحسين عليه السلام، والعباد أُولى البأس بقوم يبعثهم الله قبل خروج القائم، فلا يدعون واتراً لآل محمّد إلّا قتلوه، ووعد الله بخروج القائم عليه السلام والكَرّة عليهم بخروج الحسين عليه السلام في سبعين من أصحابه عليهم البيض المُذهّب حين كان الحجةَ القائم[٢] بين أظهرهم[٣].

وعن (العياشي): «ثمّ يَملِكهم الحسين عليه السلام حتى يقع حاجباه على عينيه»[٤].

وعنه عليه السلام: «أول من يكُرّ إلى الدنيا الحسين بن علي عليهما السلام [وأصحابه] ويزيد بن معاوية وأصحابه، فيقتلهم حذو القُذّة[٥] بالقُذّة» ثمّ تلا هذه الآية[٦].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ العباد أولي بأس شديد هم القائم عليه السلام وأصحابه»[٧].

أقول: الظاهر أنّ المراد من الروايات تطبيق ما يقع في هذه الأمّة على ما وقع في بني إسرائيل حَذو النّعل بالنّعل، لا صرف الآية عن ظاهرها وحصر المراد منها فيما وقع بعد الرسول ﷺ.

إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً[٩]

ثمّ لمّا وصف الله التوراة بكونها هُدىً لبني إسرائيل، وصف القرآن بكونه هُدىً لكافّة الناس إلى أحسن الأديان بقوله: ﴿إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرْآنَ﴾ الذي أُنزل إليك يا محمّد ﴿يَهْدِى﴾ الناس كافة إلى يوم القيامة ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ من سائر الملل، وإلى الشريعة التي هي أسدّ وأتقن من سائر الشرائع بحيث لا يمكن أن تساويها مِلّة وشريعة في الاستقامة والاتقان.

---

١. تفسير القمي ٢: ١٤، تفسير الصافي ٣: ١٧٩.

٢. هذه عبارة تفسير الصافي، وفي الكافي: «المُذهّب لكل بيضة وجهان، المؤدّون إلى الناس أنّ هذا الحسين قد خرج حتى لا يشكّ المؤمنون فيه، وأنه ليس بدجال ولا شيطان والحجة القائم...» وفي تفسير العياشي نحوه.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٤٦٤/٣٧، الكافي ٨: ٢٥٠/٢٠٦، تفسير الصافي ٣: ١٧٩.

٤. تفسير العياشي ٣: ٢٤٦٤/٣٧، تفسير الصافي ٣: ١٧٩.

٥. القُذّة: ريشة الطائر بعد تسويتها وإعدادها لتركّب في السّهم، والقول يُضرَب مثلاً للشيئين يستويان ولا يتفاوتان.

٦. تفسير العياشي ٣: ٢٤٦٧/٣٩، تفسير الصافي ٣: ١٧٩.

٧. تفسير العياشي ٣: ٢٤٦٥/٣٨، تفسير الصافي ٣: ١٧٩.

وعن الصادق: «يدعو إلى الإمام»[١].

وعن الباقر عليه السلام: «يهدي إلى الولاية»[٢].

وعن السجاد عليه السلام: «الإمام منّا لا يكون إلّا معصوماً، وليست العصمة في ظاهر الخِلقة [فيُعرَف بها،] ولذلك لا يكون إلّا منصوصاً» فقيل: ما معنى العصمة؟ قال: هو الاعتصام[٣] بحبل الله، وحبل الله هو القرآن، والقرآن يهدي إلى الإمام، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتى هِىَ أَقْوَمُ﴾»[٤].

ثمّ أخبر سبحانه بأتمّ النفع الذي يكون للعمل بالشريعة الأقوم بقوله: ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ هذا القرآن ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ﴾ آمنوا به و﴿يَعْمَلُونَ﴾ بما فيه من الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ من أداء الواجبات وترك المحرّمات ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿أَجْراً كَبِيراً﴾ وثواباً عظيماً.

وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * وَيَدْعُ ٱلْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ عَجُولاً[١٠ و ١١]

ثمّ أخبر سبحانه بأعظم الضرر على مخالفته بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ كأغلب المشركين واليهود على ما قيل من أنّهم منكرون للمعاد الجسماني[٥] ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيّئنا ﴿لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ في الآخرة، وجعل الإخبار بالعذاب من البشارة إمّا من باب التهكّم، أو الازدواج، أو لأنّ تعذيب أعداء المؤمنين ممّا تُسرّ به قلوبهم.

ثمّ ذمّ سبحانه من لا يعرف قدر القرآن وعظمة هذه النعمة بكونه غير مميّزٍ بين الخير والشرّ بقوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَانُ﴾ لنفسه ﴿بِالشَّرِّ﴾ ويُبالغ في طلبه بلسانه باعتقاد أنّه خيره وصلاحه، أو يطلب الأعمال السيئة المفضية إلى الشرّ بنحو يشابه ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ لغاية جهله وعدم تميّزه نفعه عن ضرّه، وما يُصلِحه عمّا يُفسِده، وكون نظرة إلى العاجل ﴿وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ﴾ جنسه بالطبع ﴿عَجُولاً﴾ ومسارعاً في الأمور بلا تأنٍّ فيها وتدبرٍ في عواقبها.

عن الصادق عليه السلام: «واعرف طريق نجاتك وهلاكك، كيلا تدعو الله بشيءٍ عسى أن يكون فيه هلاكك وأنت تظُنَ أنّ فيه نجاتك، قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَانُ﴾ الآية»[٦].

قيل: إنّ المراد بالانسان الداعي بالشرّ النَّضر بن الحارث القائل: اللهمّ إن كان هذا هو الحقّ من

---

١. الكافي ١: ٢/١٦٩، تفسير الصافي ٣: ١٨٠.   ٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤٦٩/٣٩، تفسير الصافي ٣: ١٨٠.

٣. في معاني الأخبار: فقيل له: يا ابن رسول الله، فما معنى المعصوم؟ فقال: «هو المعتصم...».

٤. معاني الأخبار: ١/١٣٢، تفسير الصافي ٣: ١٨٠.   ٥. تفسير الرازي ٢٠: ١٦٢.

٦. مصباح الشريعة: ١٣٢، تفسير الصافي ٣: ١٨١.

عندك فأمطر علينا حِجارة، فضُربت عنقه بدعائه، والقائلون لرسول الله ﷺ: آتنا بعذاب الله، أو متى هذا الوعد إن كنت من الصادقين؟[١]

وقيل: هو الذي يلعن نفسه وأهله وولده عند الغضب[٢].

وروت العامة أنّ النبيّ ﷺ دفع إلى سَوْدة بنت زَمْعَة أسيراً، فأقبل يئنّ بالليل، فقالت له سَوْدة: مالك تئنّ؟ فشكا ألم القيد، فأرخت له من كِتافه، فلمّا نامت أخرج يده وهرب، فلمّا أصبح النبيّ ﷺ دعا به، فأُعلم بشأنه، فقال: «اللهمّ اقطع يدها»، فرفعت سَودة يدها تتوقّع أن يقطع الله يدها بدعائه ﷺ، فقال النبيّ: «إنّي سألت الله أن يجعل دعائي على من لا يستحقّ عذاباً من أهلي رحمةً، لأنّي بشرٌ أغضب كما تَغْضبون، فلتردّ سَودَة يدها»[٣]. هذا ما رواه بعض المفسرين، وفيه ما لا يخفى من منافاته لغاية حِلمه وعِصمته.

وقيل: إنّ المراد بالانسان العجول هو آدم[٤]. روى بعض العامة أنّه لمّا انتهت الروح إلى سُرّة آدم، نظر إلى جسده فأعجبه، فذهب لينهض فلم يقدِر، فهو قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ عَجُولاً﴾[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «قال: لمّا خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه، وَثَب ليقوم قبل أن يستتمّ خَلْقه فسقط، فقال الله عز وجل: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ عَجُولاً﴾»[٦].

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً[١٢]

ثمّ لمّا مدح الله التوراة والقرآن بكونهما هُدىً شبّههما في تعاقبهما وأفضلية القرآن على التوراة وأنفعيته منها، وكونه ناسخاً لها بالليل والنهار، بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بسبب تعاقبهما واختلافهما طولاً وقِصَراً ﴿آيَتَيْنِ﴾ ودليلين على وجود الصانع القادر الحكيم للعالم، يهتدي المتأمّل فيهما إلى معارف الله وكمال قدرته وحكمته، فكأنّه سبحانه قال: جعلنا التوراة والقرآن آيتين على الحقّ والصواب، ثمّ نسخنا التوراة بالقرآن الذي هو أفضل وأنفع، كما جعلنا الليل والنهار آيتين على وجود الصانع الواحد القديم ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وأذهبناها بضوء النهار، كما نسخنا التوراة بنزول القرآن الذي هو كضوء النهار ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ومضيئة يُرى بضوئها كلّ شيء

---

١ ـ ٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٦٢. ٤ و٥. تفسير الرازي ٢٠: ١٦٣.

٦. تفسير العياشي ٣: ٢٤٧١/٤٠، تفسير الصافي ٣: ١٨١.

﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وتطلُبوا في ضوئها ﴿فَضْلاً﴾ ورزقاً مقدَراً ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ بمقتضى ربوبيته لكم ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ بتعاقبهما ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ المتوقّف عليه صلاحكم ﴿وَٱلحِسَابَ﴾ الراجع إلى الدقائق والساعات والأيام والشهور، كما جعل القرآن مبصراً، يُرى بنوره كلّ ما تحتاجون إليه من مصالح الدين والدنيا، لتبتغوا فضلاً كثيراً من ربّكم في الدنيا والآخرة ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ ممّا تحتاجون إليه في المعاش والمعاد ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ وبيّناه في القرآن ﴿تَفْصِيلاً﴾ وأضحاً وتبييناً بليغاً وافياً.

وقيل: إنّ وجه النّظم أنّ هذا القرآن سبب هداية جميع الناس إلى أحسن الأديان، وكان التوحيد من أهمّ العقائد، شرع في الاستدلال عليه بقوله: ﴿وجَعَلْنَا ٱلَّيلَ﴾ الآية.

وقيل: إن الوجه أنه تعالى بعد ذكر منّته على الخلق بإعطائهم نعمة القرآن الذي هو أتمّ النِعم الدينية، ذَكَر منّته عليهم بإعطائهم النعمة العظيمة الدنيوية، وهي اختلاف الليل والنهار، لتشابه النِّعمتين، أو أنّ القرآن كما هو مركّب من المُحكم والمُتشابه، كذلك الدهر مركّب من الليل والنهار، فالمُتشابه هو الليل، والمُحكم هو النهار، وكما أنّ الغرض من التكليف لا يتِمّ إلّا بوجود المُحكم والمُتشابه، كذلك الانتفاع بالوقت والزمان لا يكمّل إلّا بوجود الليل والنهار[1].

وقيل: إنّ المراد بآية الليل القمر، وبآية النهار الشمس، ومحو القمر انتقاصه قليلاً قليلاً إلى المُحاق[2].

وقيل: محوه: الكَلَف: الذي يظهر في وجهه[3]. روت العامة أنّ الشمس والقمر كانا سَواء في النور والضوء، فأرسل الله جَبْرئيل فأمرّ جَناحه على وجه القمر، فطَمَس عنه الضوء[4].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في (النهج): «وجعل شمسها آيةً مبصرةً لنهارها، وقمرها آية مَمْحُوَةً من ليلها، وأجراهما وقدّر مسيرهما في تدرّج مدرجهما[5]، ليُميّز بين الليل والنهار بهما، وليُعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما»[6].

وفي (العلل) عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه سُئِل: ما بال الشمس والقمر لا يستويان في الضوء والنور؟ قال: «لمّا خلقهما الله عز وجل أطاعا ولم يعصيا شيئاً، فأمر الله جَبْرَئيل أن يمحو ضوء القمر، فمحاه فأثر المحو في القمر خطُوطاً سوداء، ولو أنّ القمر تُرِك على حاله بمنزلة الشمس ولم يُمحَ، لما عُرِف الليل من النهار، ولا النهار من الليل، ولا عَلِم الصائم كم يصوم، ولا عَرَف الناس عدد السنين، وذلك

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٦٣.
٢ ـ ٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٦٤.
٥. في المصدر: وأجراهما في مناقل مجراهما، وقدر سيرهما في مدارج درجهما.
٦. نهج البلاغة: ١٢٨ ـ الخطبة ٩١، تفسير الصافي ٣: ١٨١.

قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ الآية»[١].

وعن (الاحتجاج): قال ابن الكوّاء لأمير المؤمنين عليه السلام: أخبرني عن المحو الذي يكون في القمر. فقال: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، رجل أعمى يسأل عن مسألة عمياء! أما سمعت الله يقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «لمّا خلق الله القمر كتب عليه: لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله، عليّ أمير المؤمنين، وهو السواد الذي ترونه»[٣].

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * ٱقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [١٣ و ١٤]

ثمّ وصف الله القرآن بكونه هادياً للملّة الأقوم، ونهاراً مبصراً ومفصّلاً لكلّ شيءٍ ومتمّماً للحجّة، هدّد المخالفين له بقوله: ﴿وَكُلَّ﴾ فردٍ من أفراد ﴿إِنسَانٍ﴾ مكلّف من العرب والعجم والأسود والأحمر ﴿أَلْزَمْنَاهُ﴾ وقلّدناه ﴿طَائِرَهُ﴾ وعمله، خيراً أو شرّاً ﴿فِى عُنُقِهِ﴾ فان كان خيراً يكون له زينةً، وإن كان شرّاً كان غُلّاً وشَيْناً على رقبته.

عن الباقر عليه السلام: «خيره وشرّه معه حيث كان لا يستطيع فراقه»[٤].

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ﴾ من قبره، أو نُظهر له من ستر الخفاء ومن مكتب الآخرة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ ووقت المحاسبة ﴿كِتَاباً﴾ مسطوراً فيه عمله من النَّقير والقِطْمير بيد الرقيب والعتيد وهو ﴿يَلْقَاهُ﴾ ويجده ﴿مَنشُوراً﴾ ومبسوطاً، وحينئذٍ يقول الله بلسان الملائكة: يافلان ﴿ٱقْرَأْ كِتَابَكَ﴾.

قيل: إنّ الكافر يقول: يا ربّ إنك [قضيت أنك] لست بظلّامٍ للعبيد، فاجعلني اُحاسب نفسي. فيقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[٥] ومحاسباً.

وقال بعض العامة: إنّ الكتاب هي النفس التي انتقشت فيها الأحوال والأعمال الدنيوية والاُخروية، فما دامت الروح مشغولة بتدبير البدن، كانت تلك الآثار مخفية عنها، فكأنه كان ذلك الكتاب مطوياً، فبعد انقطاع علاقة الروح من الجسد، وقيامها من مكانها، وصعودها إلى العالم العلوي، تشاهد القوة العاقلة تلك الآثار المكتوبة بالكتابة الذاتية في جوهر الروح والنفس، فكأنّ الكتاب صار منشوراً بعد ما كان مطوياً، فقال للانسان في تلك الحالة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَابَكَ﴾[٦].

---

١. علل الشرائع: ٣٣/٤٧٠، تفسير الصافي ٣: ١٨١.
٢. الاحتجاج: ٢٦٠، تفسير الصافي ٣: ١٨١.
٣. الاحتجاج: ١٥٨، تفسير الصافي ٣: ١٨١.
٤. تفسير القمي ٢: ١٧، تفسير الصافي ٣: ١٨٢.
٥. تفسير الرازي ٢٠: ١٦٩.
٦. تفسير الرازي ٢٠: ١٧٠.

أقول: لا مجال للشك في ما دلّت عليه الآيات والروايات من وجود كتابٍ مكتوب فيه الأعمال يؤتى كَل نفس من المؤمن والفاسق يوم القيامة بيمينها أو شمالها، ويقول: ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولاكبيرة إلّا أحصاها، ولا منافاة بينها وبين وجود الكتاب النفساني الذي ذُكِر، فيجب الالتزام بظاهر الآية وتفسيرها بماكتبه المَلَكان.

عن الصادق عليه السلام، في هذه الآية، قال: «يُذكَر العبد جميع ما عَمِل وكُتِب[1] عليه حتى كأنّه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا: ﴿يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هٰذَا ٱلْكِتَابِ﴾ الآية»[2].

مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً[١٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان عدم انفكاك الانسان عن عمله، بيّن اختصاص نتائجه بعامله بقوله: ﴿مَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى الحقّ والصواب بهداية القرآن وعَمِل بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى﴾ ويكون نفع هدايته وعمله ﴿لِنَفْسِهِ﴾ وعائداً إلى شخصه لا يتعدّى إلى غيره ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الحقّ وانحرف عن طريق الصواب، ولم يؤمن بالقرآن، ولم يعمل بأحكامه ﴿فَإِنَّما يَضِلُّ﴾ وضرر ضلاله ﴿عَلَيْهَا﴾ وتَبِعاته راجعة إليها لا تتجاوز إلى غيرها، ثمّ قرر ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ ولا تحمِل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ وحاملة للوِزر والثقل أو للإثم ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ وإثمها كي تتخلّص النفس الأُخرى من الإثم، أو يخفّف عنها، وحاصل المراد عدم مؤاخذة أحد بذنب غيره.

ثمّ أنّه تعالى بعد نفي الظلم عن نفسه بأحد بذنب غيره، أثبت لنفسه اللُّطف بعباده بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ أحداً من الناس، وما صحّ لنا بمقتضى اللطف عقوبة أحدٍ منهم ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ من البشر يُبلّغهم أحكامنا ويبيّن لهم تكاليفنا.

واعلم أنّ هذا التفسير مبنيّ على القول بصحة العقوبة على مخالفة الأحكام العقلية، إلاّ أنّ مقتضى اللطف تأييدها بالأحكام الشرعية، كما ذهب إليه بعض.

وأما إذا قلنا بتَرتُّب العقوبة على مخالفة الأحكام العقلية، فلابدّ إما من القول بكون المراد من الرسول في الآية مطلق البيان، سواء كان بتوسّط الرسول الظاهر أو الرسول الباطن، وإنّما عبّر [عن] مطلق البيان ببعث الرسول لأنّ الغالب تحقّق البيان به، أو المراد من الرسول مطلقه سواء أكان عقلاً أو

---

١. في مجمع البيان: جميع أعماله وما كتب.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤٧٧/٤١، مجمع البيان ٦: ٦٢٢، تفسير الصافي ٣: ١٨٢، والآية من سورة الكهف: ٤٩/١٨.

بشراً، أو خصوص الرسول الظاهر، وتخصيص عموم النفي بالأدلة الدالة على حُجيَة الأحكام العقلية بما إذا لم يحكم العقل بالوجوب أو الحرمة. وعلى هذه الوجوه الثلاثة يكون مدلول الآية نفي الظلم عن ذاته المقدسة، وقبح العقاب بلا بيان، فيكون دليلاً على البراءة عند الشك في التكليف وعدم وجدان الحُجَة عليه.

وما قيل: من أنّ المراد بالعذاب في الآية العذاب الدنيوي، والمقصود من قاعدة البراءة نفي العذاب مطلقاً دنيوياً كان أم أخروياً، ونفي العذاب الدنيوي لا يدلّ على نفي العذاب الأخروي منه إلّا بالفحوى، وهو ممنوع. فيه: أن قوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا﴾ دالٌ على تنزيه ذاته المقدسة من ارتكاب هذا الفعل لقبحه وعدم لياقته بمقام حكمته وألوهيته، ولا يتفاوت في ذلك بين كون العذاب دنيوياً أو أخروياً.

ثمّ لا يخفى أنّ نفي العذاب إلى الغاية لا يدُلّ على وقوعه بعدها وإن لم يتحقّق عِصيان كما توهّم، بل الظاهر أنّه بيان كون البعث من شرائط صحة العذاب إذا وجد مقتضية وارتفعت موانعه من التوبة والشفاعة وأمثالهما.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً[١٦ و ١٧]

ثمّ بيّن الله أنّ العذاب الدنيوي لا يكون إلّا بعد كمال الاستحقاق بالطغيان بقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا﴾ وعزمنا على ﴿أَن نُّهْلِكَ﴾ ونعدم ﴿قَرْيَةً﴾ من القرى ونعذّب أهلها بعذاب الاستئصال، لخُبث ذاتهم وسوء أخلاقهم ﴿أَمَرْنَا﴾ بتوسط الرسول ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ وجبابرتها والمتنعّمين من أهلها ورؤوسها المُتّبعين فيهم بالطاعة والتسليم لأحكامنا.

وقيل: إنّ المراد أكثرنا مترفيها وفُسّاقها وطُغاتها[١]، أو المراد: إذا أردنا أن نُهلِك قرية بسبب عصيان أهلها، لا نُعاجلهم بالعقوبة، بل أمرناهم بالرجوع عن العصيان والتوبة عن السيئات[٢]، أو المراد من الأمر تسبيب أسباب الفِسق من توفير النعم وتهيئة المرغّبات إلى العصيان وما يُفضيهم إليه[٣].

﴿فَفَسَقُوا﴾ وتمرّدوا وخرجوا عن طاعتنا ﴿فِيهَا﴾ وتَبِعهم سائر أهلها ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ وثبتت

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٧٥.

٢. تفسير الرازي ٢٠: ١٧٦.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٧٥، ١٧٦.

عليهم كلمة العذاب بسبب كمال استحقاقهم له ﴿فَدَمَّرْنَاهَا﴾ وأفنينا أهلها ودورها، ومحونا آثارها بالعذاب ﴿تَدْمِيراً﴾ وفناءً عجيباً بديعاً.

ثم بيّن سبحانه أنّ عادته من أول الخلقة أخذ المتمردين بالعذاب بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً ما عذّبنا ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ والأمم المتمرّدة ﴿مِن بَعْدِ﴾ عصر ﴿نُوحٍ﴾ وإهلاك اُمّته بالطُّوفان كعاد وثمود وقوم لوط وأضرابهم، وإنّما خصّ إكثار العذاب بمن بعد نوح؛ لأنّه أوّل نبي بالغ قومه في تكذيبه.

ثمّ أنّه تعالى بعد إظهار قدرته على التعذيب، بيّن كمال علمه بالمعاصي الباطنية والظاهرية بقوله: ﴿وَكَفَىٰ﴾ يا محمّد ﴿بِرَبِّكَ﴾ اللطيف بك ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ الخفية والجلية والباطنية والظاهرية ﴿خَبِيراً بَصِيراً﴾ فيعاقب عليها، فليحذر مكذّبوك من المشركين وأهل الكتاب من أن يبتلوا بمثل ما ابتلي به الأمم الماضية المُهْلَكة بتكذيبهم الرسل.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَشْكُوراً * كُلّاً نُمِدُّ هٰؤُلَاءِ وَهٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً * ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً[١٨ ـ ٢١]

ثمّ لما هدّد الله الكفار بالعذاب، وكان كثيرٌ منهم متنعّمين في الدنيا مستدلّين بتنعّمهم على كرامتهم على الله، ردّهم سبحانه بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ النِّعم ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ واللّذات الدنيوية السريعة الزوال بأعماله الحسنة كإعانة الضعفاء وإغاثة الملهوفين ونظائرهما ﴿عَجَّلْنَا لَهُ﴾ في إعطاء النعم الدنيوية، وأسرعنا ﴿فِيهَا﴾ ولكن لا نُعطي الكلّ للكلّ، بل نعطي ﴿مَا نَشَاءُ﴾ إعطاءه منها ﴿لِمَن نُرِيدُ﴾ أن نُعطيه منها، فلا يفوز كلّهم بكلّ مطالبهم، بل كثير منهم محرومون عن الدنيا، فمن فاز منهم بها أخذناها منه سريعاً ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ بدل النِعم التي عجّلناها ﴿لَهُ جَهَنَّمَ﴾ وفنون العذاب الذي فيها.

ثمّ إن كان أشدّ العذاب هو الآلام المقرونة بالذلّ والبُعد، بيّن غاية ذلّ الكافر المتنعّم المتكبّر وبُعده بقوله: ﴿يَصْلَاهَا﴾ ذلك المُترَف المتكبّر، ويدخُلها حال كونه ﴿مَذْمُوماً﴾ ومهاناً باللوم و ﴿مَدْحُوراً﴾ ومطروداً من ساحة رحمة الله.

ثمّ قيل: إنّ هذه الآية تقرير لقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾[١] والمقصود أنّ من يُريد

---

١. الإسراء: ١٣/١٧.

بعمله الدنيا والرئاسة ويستنكف من طاعة الأنبياء تكبّراً وخوفاً من زوال رئاسته، جعل طائره شؤماً[١] سائقاً له إلى أشدّ العذاب ﴿وَمَنْ أَرَادَ﴾ بعمله ﴿الْآخِرَةَ﴾ وثوابها الدائم ﴿وَسَعَىٰ لَهَا﴾ في مدّة عمره ﴿سَعْيَهَا﴾ الائق بها، واجتهد في الأعمال المفيدة فيها من أداء الواجبات الالهية وترك المحرّمات الاسلامية بنيّة التقرّب إلى الله ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسوله إيماناً لا شرك معه ولا تكذيب ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون العاملون المخلصون ﴿كَانَ سَعْيُهُم﴾ وجُهدهم في طاعة الله ﴿مَشْكُوراً﴾ ومثاباً عليه عندالله.

عن النبيّ ﷺ: «من أراد الآخرة فليترك زينة الحياة الدنيا»[٢].

﴿كُلًّا﴾ من الفريقين: المريدين للدنيا، والمريدين للآخرة ﴿نُمِدُّ﴾ هم ونزيدهم من النِّعم سواء ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ المعجّل لهم ﴿وَهَٰؤُلَاءِ﴾ المشكورون سعيهم، ونوسّع في أرزاقهم ونكثّر أموالهم وأولادهم بالقدر الذي يقتضيه الصلاح، وإنّما يكون ذلك الامداد والزيادة ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ وفضله الذي لا تناهي له حسب ما اقتضته الحكمة البالغة ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ﴾ وتفضّله على عباده بالنِعم الدنيوية والأُخروية ﴿مَحْظُوراً﴾ وممنوعاً عن أحدٍ من قبله، وإنما يمنع العُصاة النِّعم الأُخروية عن أنفسهم بعصيانهم وسوء اختيارهم.

﴿انظُرْ﴾ يا محمّد، أو أيّها الناظر بنظر الاعتبار الى الفريقين، إنّا ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الأمداد والعطايا الدنيوية، فترى مؤمناً مُوسِراً ومؤمناً مُعْسِراً، ومؤمناً مالكاً ومؤمناً مملوكاً، وكذلك الكفّار، فاذا كان مراتب التفاضل في مَتاع الدنيا وحُظوظها بهذه الكَثْرة التي تكون فوق حدّ الإحصاء، وتفاوت درجات الخلق فيه أكثر من أن تدرى، فكيف بدرجات الآخرة؟ ﴿وَ﴾ والله ﴿لَلْآخِرَةُ﴾ ونِعمها وحُظوظها ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ من الدنيا ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ وأعظم تفاوتاً، فانّ نسبة عِظم درجاتها وكثرة تفاضلها وتفاوتها إلى درجات الدنيا والتفاضُل فيها، كنسبة الدنيا والآخرة، فمن كان راغباً في فضيلة الدنيا وعلوّ الدرجة فيها، فلتكن رغبته في تحصيل فضيلة الآخرة وعلوّ الدرجة أزيد وأكثر.

روي أنّ ما بين أعلى درجات الجنّة وأسفلها مثل ما بين السماء والأرض[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «لا تقولنّ الجنة واحدة، إنّ الله يقول: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[٤] ولا تقولن درجة واحدة، إنّ الله يقول: (درجات بعضها فوق بعض) إنّما تفاضل القوم بالأعمال».

قيل له: إنّ المؤمنين يدخلان الجنّة، فيكون أحدهما أرفع مكاناً من الآخر، فيشتهي أن يلقى

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٧٨.
٢. روضة الواعظين: ٤٣٤، تفسير الصافي ٣: ١٨٣.
٣. مجمع البيان ٦: ٦٢٨، تفسير الصافي ٣: ١٨٤.
٤. الرحمن: ٦٢/٥٥.

صاحبه؟ قال: «من كان فوقه فله أن يهبِط، و[من] كان تحته لم يكن له أن يصعَد؛ لأنّه لم يبلُغ ذلك المكان، ولكنّهم إذا أحبّوا ذلك واستهووه التقوا على الأسرّة»[١].

وعن النبي ﷺ: «إنما يرتفع العباد غداً في الدرجات، وينالون الزُّلفى من ربّهم على قدر عقولهم»[٢].

وعن ابن عبّاس: يرفع درجة العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة بين كلّ درجتين، كما بين السماء والأرض[٣].

وعن النبي ﷺ: «أن في الجنة مدينة من نور، لم ينظُر إليها مَلَك مقرّب ولا نبيّ مرسل، جميع ما فيها من القصور والغُرف والأزواج والخَدم من النور، أعدّها الله للعاقلين، فاذا ميّز الله أهل الجنّة من أهل النار، ميّز أهل العقل فجعلهم في تلك المدينة، فيجزي كلّ قومٍ على قدر عقولهم، فيتفاوتون في الدرجات، كما بين المشارق والمغارب بألف ضِعف»[٤].

وعنه ﷺ: «أن في الجنة درجة لا يَنالها إلّا أصحاب الهموم»[٥].

وعنه ﷺ: «أنّ في الجنّة درجة لا يَنالها إلّا ثلاثة أقسام: عادل، وذو رَحِم واصل، وذو عيالٍ صبور» فقال [علي عليه السلام: «ما صبر ذي العيال؟» قال:] «لا يمُنّ على أهله ما يُنفِق عليهم»[٦].

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾[٢٢]

ثمّ لمّا بين الله سبحانه أنّ شرط فائدة الأعمال في الآخرة هو الإيمان، بيّن أنّ أهمّ ما يجب الإيمان به التوحيد بقوله مخاطباً لنبيه ﷺ لاظهار غاية الاهتمام به: ﴿لَا تَجْعَلْ﴾ ولا تَختَر يا محمّد بهوى نفسك، أو لا تعتقد أنّ ﴿مَعَ ٱللهِ﴾ الواجب الوجود ﴿إِلٰهاً ءَاخَرَ﴾ مشاركاً في الألوهية والعبادة ﴿فَتَقْعُدَ﴾ وتصير، أو تمكُث في العالم، أو في جهنّم حال كونك ﴿مَذْمُوماً﴾ وملاماً عند العارفين بالله من العقلاء والمؤمنين والأنبياء والملائكة و﴿مَخْذُولاً﴾ عند الله، ممنوعاً عنك ألطافه، فلا ينصُرك أحدٌ بدفع العذاب عنك، وإنّما عبّر سبحانه عن الصيرورة أو المكث بالقعود؛ لأنّ فيه معنى الذلّ والهوان والعجز، أو لأنّ من شأن المذموم المخذول أن يقعُد في ناحية متفكّراً نادماً على ما فرّط، أو لأنّ من لا يقدِر على طلب خير يقعُد آيساً منه.

---

١. تفسير العياشي ٣: ٦١/١٥٥، تفسير الصافي ٣: ١٨٤.
٢. تفسير الصافي ٣: ١٨٤.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٤٥.
٤. تفسير روح البيان ٥: ١٤٥.
٥. تفسير روح البيان ٥: ١٤٦.
٦. تفسير روح البيان ٥: ١٤٦.

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً* وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً[٢٣و ٢٤]

ثمَ أنّه تعالى بعد النهي عن اعتقاد ألوهية غيره، أمر بتخصيص العبادة به بقوله: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ**﴾ وحكم حكماً بتيّاً ﴿**أَلَّا تَعْبُدُوا**﴾ أيها الناس شيئاً ﴿**إِلَّا إِيَّاهُ**﴾ لاختصاص استحقاق العبادة به ذاتاً ونعمةً ﴿**وَ**﴾ بأن تُحسِنوا ﴿**بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً**﴾ كاملاً لكونهما بعد الله سبحانه أعظم إحساناً إليكم، وأكثر حقّاً عليكم، حيث إنّهما من مبادئ وجودكم، ومتكفّل تربيتكم وحِفظكم ومعاشكم بلا توقّع عوض منكم.

ثمَ أنّه تعالى بعد الأمر بالاحسان إليهما، نهى عن الإساءة إليهما بقوله: ﴿**إِمَّا يَبْلُغَنَّ**﴾ وإن يَصِلن ﴿**عِندَكَ**﴾ وفي كَنَفك وكَفَالتك ﴿**ٱلْكِبَرَ**﴾ في السِّنّ والضَّعْف في القوى الموجبين لضيق صدرهما وثِقل مؤنتهما وكَثْرة زحماتهما ﴿**أَحَدُهُمَا**﴾ أباً أم أمّاً ﴿**أَوْ كِلَاهُمَا**﴾ وإن أضجراك بما تستقذر منهما وتشتغل من مُؤنتهما وخدمتهما ﴿**فَلَا تَقُل لَهُمَا**﴾ في حال الاجتماع، أو لأحدهما حال الانفراد ﴿**أُفٍّ**﴾ ولا تُظهِر عندهما الانضجار من نفسك.

عن الصادق عليه السلام: «إن أضجراك فلا تقل لهما أُفّ»[١].

وعنه عليه السلام: «لو عَلِم الله شيئاً أدنى من الأُفّ لنهى عنه، وهو من أدنى العُقوق»[٢].

قيل: يعني لا تتقذّر منهما شيئاً، كما لم يتقذّرا منك حين كنت تخرأ وتبول في حِجرهما[٣].

وقال مجاهد: يعني إذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما أُفّ[٤].

﴿**وَلَا تَنْهَرْهُمَا**﴾ ولا تُضجِر قلوبهما بكلمةٍ غير ملائمةٍ لطبعهما من ردّ أو تكذيب. عن الصادق عليه السلام: «ولا تنهرهما، إن ضرباك»[٥].

وقيل: إنّ المعنى لا تنهها من شيء أراداه[٦].

ثمَ أنّه تعالى بعد النهي عن استقبالهما بكلمة مؤذية لهما، أمر بأن يواجههما بالكلام الطيب بقوله:

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٤٨٣/٤٢، الكافي ٢: ١/١٢٦، تفسير الصافي ٣: ١٨٥.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤٨٢/٤٢، الكافي ٢: ٧/٢٦١، تفسير الصافي ٣: ١٨٥.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٨٩.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٨٩.
٥. تفسير العياشي ٣: ٢٤٨٣/٤٢، الكافي ٢: ١/١٢٦، تفسير الصافي ٣: ١٨٥.
٦. مجمع البيان ٦: ٦٣١، جوامع الجامع: ٢٥٤، وفيهما: لا تمتنع من شيء أراداه منك.

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ وكلاماً حسناً جميلاً.

سُئل [سعيد] بن المسيب عن القول الكريم فقال: «هو قول العبد المذنب للسيد الفظّ».

وعن عطاء: هو أن تتكلّم معهما، ولا ترفع عليهما صوتك، ولا تشُدّ إليهما نظرك[١].

ثمّ بعد الأمر بتكريمهما قولاً، أمر سبحانه بالتواضع لهما في الفعل بقوله: **﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾** وأظهر لهما غاية التواضع **﴿مِنَ﴾** فَرْط **﴿ٱلرَّحْمَةِ﴾** عليهما، والرأفة بهما، لافتقارهما إليك بعد ما كنت أفقر الخلق إليهما.

عن ابن عبّاس: كن مع الوالدين كالعبد المذنب الذليل الضعيف للسيد الفظّ الغليظ[٢].

قيل: ينظُر إليهما بنظر المحبّة [والشّفقة] والترحّم[٣].

وفي الحديث: «ما من ولد ينظُر إلى الوالد وإلى والدته نظر رحمةٍ إلّا كان له بها حجّة وعُمرة». قيل: وإن نظر في اليوم ألف مرّة؟ قال: «نعم، وإن نظر في اليوم مائة ألف»[٤].

عن الصادق عليه السلام: «لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلّا برحمةٍ ورقّةٍ، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما، ولا يديك فوق أيديهما، ولا تقدّم قُدّامهما»[٥].

وعنه عليه السلام: «من العُقوق أن ينظُر الرجل [إلى] والديه، فيحدّ النظر إليهما»[٦].

وعن الكاظم عليه السلام: «سأل رجلٌ رسول الله صلّى الله عليه وآله: ما حقّ الوالد على ولده؟ قال: لا يسمّيه باسمه، ولا يمشي بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسبّ له»[٧].

وروي أنّ النبي صلّى الله عليه وآله قال: «رغم أنفه» ثلاث مرات، قالوا: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك أبويه عند الكِبر - أحدهما أو كلاهما - ولم يدخُل الجنّة»[٨].

ثمّ أضاف سبحانه إلى ما ذكر الأمر بالدعاء لهما بقوله: **﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾** واشمُل رحمتك الواسعة لهما في الدنيا والآخرة **﴿كَمَا﴾** رحماني و**﴿رَبَّيَانِى﴾** حين كنت **﴿صَغِيراً﴾**.

رُوي أنّ رجلاً قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله: إن أبويّ بلغا من الكِبر أنّي ألي منهما ما وليا مّني في الصِغَر، فهل قضيت حقّهما؟ قال: «لا، فانّهما كانا يفعلان ذلك وهما يُحبّان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٩٠.
٢. تفسير روح البيان ٥: ١٤٧.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٤٨.
٤. تفسير روح البيان ٥: ١٤٨.
٥. تفسير العياشي ٣: ٢٤٨٣/٤٣، الكافي ٢: ١/١٢٦، تفسير الصافي ٣: ١٨٥.
٦. الكافي ٢: ٧/٢٦١، تفسير الصافي ٣: ١٨٥.
٧. الكافي ٢: ٥/١٢٧، تفسير الصافي ٣: ١٨٥، واستسبّ له: عرّضه للسبّ، يقال: استسبّ لأبيه: إذا سبّ أبا غيره فجلب بذلك السبّ إلى أبيه.
٨. جوامع الجامع: ٢٥٤، تفسير الصافي ٣: ١٨٥.

تُريد موتهما»[١].

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً * وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً[٢٥ و ٢٦]

ثمَ أنَه تعالى بعد الأمر بإخلاص العبادة وعدم التضجَر من الوالدين، حذَر الناس من المخالفة بقوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ وضمائركم من الاخلاص في العبادة وعدمه، والتضجَر من الوالدين وعدمه.

ثمَ رغَبهم في تزكية أنفسهم بقوله: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ ومنزَهين عن رذائل الأخلاق وسيئات الأعمال، تكونوا من الأوابين والراجعين إلى الله في ما فرَط منكم من خُطُور غير الله في قلوبكم، أو صُدُور أذيَة قولية أو عملية منكم، والتائبين إليه من زلاتكم، واعلموا أنّ الله يغفر لكم ﴿فَإِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ والتائبين ـ كما عن الصادق عليه السلام[٢] ـ ﴿غَفُوراً﴾ لا يُؤاخذهم بما صدر منهم من الهَفَوات والزلَات التي لا يخلو منها البشر.

ثمَ أنَه تعالى بعد بيان جملة من حقوق الوالدين، بيّن حقّ الأرحام وغيرهم من الناس بقوله: ﴿وَآتِ﴾ يا محمّد ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وصاحب الرّحم ﴿حَقَّهُ﴾ المقرّر من الله. قيل: هو النفقة إذا كانوا فقراء[٣]. وقيل: هو المودَة والزيارة وحسن العشرة والمساعدة في حوائجهم[٤].

﴿وَ﴾ آت ﴿ٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ حقّهم. عن الصادق عليه السلام: «لمّا أنزل الله ﴿وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جَبْرَئيل، [قد] عرفت المسكين، فمن ذو القُربى؟ قال: هم أقاربك، فدعا حسناً وحسيناً وفاطمة، فقال: إنّ ربّي أمرني أن أُعطيكم مّما أفاء عليّ. قال: أعطيتكم فَدَك»[٥].

وعن السجاد عليه السلام: أنه قال لبعض الشاميين: «أما قرأت هذه الآية ﴿وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾؟» قال: نعم. قال: «فنحن أُولئك الذين أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله أن يُعطيهم حقّهم»[٦].

وعن الرضا عليه السلام ـ في حديث له مع المأمون ـ: «والآية الخامسة: ﴿وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ خصوصية خصّهم الله صلى الله عليه وآله العزيز الجبار بها، واصطفاهم على الأمّة، فلمّا نزلت هذه الآية على رسول

---

١. تفسير روح البيان ٥: ١٤٨.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤٨٦/٤٤، تفسير الصافي ٣: ١٨٦.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٥٠.
٤. تفسير روح البيان ٥: ١٥٠.
٥. تفسير العياشي ٣: ٢٤٩٠/٤٥، تفسير الصافي ٣: ١٨٧.
٦. الاحتجاج: ٣٠٧، تفسير الصافي ٣: ١٨٧.

الله قال: ادعوا لي فاطمة فدُعيت له، فقال يا فاطمة، قالت: لبيك يا رسول الله. فقال: هذه فَدَك، وهي ممّا لم يُوجَف عليه بخيل ولا ركاب، وهي لي خاصّة دون المسلمين، فقد جعلتها لك لما أمرني الله به، فخُذيها لك ولولدك»[1].

وعن الكاظم عليه السلام: «أنّ الله تعالى لمّا فتح على نبيّه صلى الله عليه وآله فَدَك وما والاها لم يُوجَف عليه بخيل ولاركاب، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وآله **﴿وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾** فلم يدرِ رسول الله من هم، فراجع في ذلك جَبْرَئيل، وراجع جَبْرَئيل ربّه، فأوحى الله إليه: أن ادفع فدَك إلى فاطمة، فدعاها رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال [لها:] يا فاطمة، إنّ الله أمرني أن أدفع إليك فَدَك. فقالت: قد قَبِلت يا رسول الله من الله ومنك»[2].

وقال العلّامة في (نهج الحق): روى الواقدي وغيره من نَقَلة الأخبار وذكروه في أخبارهم الصحيحة: أنّ النبي صلى الله عليه وآله لمّا فتح خيبر اصطفى قُرىً من قُرى اليهود، فنزل جَبْرَئيل بهذه الآية **﴿وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾** فقال محمّد صلى الله عليه وآله: ومن ذو القربى، وما حقّه؟ قال: فاطمة، فدفع[3] إليها فدك والعوالي، فاستغلّتها حتى توفّي أبوها، فلمّا بويع أبو بكر منعها، فكلّمته في ردّها عليها، وقالت: إنّهما لي [وإنّ أبي دفعهما لي] فأبى عمر دفعهما إليها، فقال أبو بكر: لا أمنعك ما دفع إليك أبوك. فأراد أن يكتُب [لها] كتاباً، فاستوقفه عمر بن الخطاب، وقال: إنّها امرأة، فطالبها بالبيّنة على عليه السلام ما ادّعت، فأمرها بها أبو بكر، فجاءت بأُمّ أيمن وأسماء بنت عُميس مع علي، فشهدوا بذلك، فكتب لها أبوبكر فبلغ ذلك عمر، فأخذ الصحيفة[4] فمحاها، فحلفت أن لا تكلمهما، وماتت ساخطة عليهما»[5].انتهى.

ونسب السيد الأجلّ القاضي نور الله هذه الرواية إلى ابن مردويه[6] وصدر الأئمّة أيضاً.

وعن الصادق عليه السلام ـ في حديث ـ «ثمّ قال جلّ ذكره: **﴿وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾** وكان عليّ عليه السلام، وكان حقّه الوصية التي جُعِلت له والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار[7] النبوة»[8].

ثمّ أنّه تعالى بعد الأمر ببذل المال للأقارب، نهى عن التبذير وإفساد المال وصرفه في المصارف السفهية بقوله: **﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾** ولا تُفسِد المال بصرفه فيما لا ينبغي **﴿تَبْذِيراً﴾** يسيراً، فكيف بالكثير.

رُوي عن ابن عمر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لسعد وهو يتوضأ: «ما هذا أتُسرِف يا سعد؟» فقال: أو في الوضوء سَرَف؟ قال: «نعم، وإن كنت على نهرٍ جارٍ»[9].

---

١. أمالي الصدوق: ٨٤٣/٦١٩، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٣٣، تفسير الصافي ٣: ١٨٦.
٢. الكافي ١: ٥/٤٥٦، تفسير الصافي ٣: ١٨٦.
٣. في المصدر: تدفع.
٤. زاد في المصدر: ومزقها.
٥. نهج الحق: ٣٥٧.
٦. إحقاق الحق ٣: ٥٤٩.
٧. زاد في الكافي وتفسير الصافي: علم.
٨. الكافي ١: ٣/٢٣٣، تفسير الصافي ٣: ١٨٧.
٩. تفسير الرازي ٢٠: ١٩٣.

وعن الصادق عليه السلام أنه قال لرجل: «اتق الله ولا تُسرِف ولا تقتّر، وكُن بين ذلك قَوَاماً، إنّ التبذير من الأسراف، قال [الله]: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾»[١].

وعنه عليه السلام، أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: «من أنفق شيئاً في غير طاعة الله فهو مبذّر، ومن أنفق في سبيل الله فهو مقتصد»[٢].

وعنه عليه السلام، أنّه سُئل أفيكون تبذير في حلال؟ قال: «نعم»[٣].

وعنه عليه السلام: أنّه دعا برُطَبٍ فأقبل بعضهم يرمي بالنّوى، فقال: «لا تفعل، إن هذا من التبذير، وإن الله لا يُحبّ الفساد»[٤].

إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ ٱلشَّيَاطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِن رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً[٢٧ و ٢٨]

ثمّ ذمّ سبحانه المبذّرين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ ٱلشَّيَاطِينِ﴾ والموافقين له في الصفة والعمل، أو أعوانهم في إهلاك أنفسهم تابعين لهم في كفران النعمة ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ مبالغاً في صرف نعم الله من عقله وحياته وقواه في المعصية.

وعن مجاهد: أنّه رفع رأسه إلى أبي قُبيس وقال: لو أنّ رجلاً أنفق مثل هذا في طاعة الله لم يكن من المسرفين، ولو أنفق دِرهَماً واحداً في معصية الله كان من المسرفين[٥].

ثمّ أمر سبحانه بمواجهة الأقارب والمساكين بالبِشر وجميل القول إذا لم يتمكّن الانسان من مساعدتهم بالمال بقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ وصرفت وجهك ﴿عَنْهُمُ﴾ حياءً من التصريح بردّهم بسبب كونك صفر اليد عديم المال ﴿ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ﴾ وطلب السعة ﴿مِن رَبِّكَ﴾ إذاكنت ﴿تَرْجُوهَا﴾ منه تعالى ﴿فَقُل لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ وكلاماً ليناً جميلاً، كأن تَعِدهم بوعدٍ يُودِع قلوبهم راحةً وسروراً.

رُوي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان إذا سئل شيئاً وليس عنده سكت حياءً، وأمر بالقول الجميل لئلا يعتريهم الوحشة بسكوته[٦].

وقيل: القول الميسور الدعاء لهم باليسر[٧].

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٤٩٩/٤٧، الكافي ٣: ١٤/٥٠١، تفسير الصافي ٣: ١٨٨.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤٩٧/٤٦، تفسير الصافي ٣: ١٨٨.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٤٩٨/٤٦، تفسير الصافي ٣: ١٨٨.
٤. تفسير العياشي ٣: ٢٥٠٢/٤٧، تفسير الصافي ٣: ١٨٨.
٥. تفسير الرازي ٢٠: ١٩٣.
٦. تفسير أبي السعود ٥: ١٦٨، تفسير روح البيان ٥: ١٥١.
٧. تفسير البيضاوي ١: ٥٦٩، تفسير أبي السعود ٥: ١٦٨، تفسير روح البيان ٥: ١٥١.

روي أنه ﷺ كان لمّا نزلت [هذه] الآية إذا سئل ولم يكن عنده ما يعطي قال: «يرزُقنا الله وإياكم من فضله»[١].

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً[٢٩]

ثمّ علّمه الله تعالى أدب الانفاق بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ﴾ منقبضةً وممسكةً عن الانفاق، كأنّها تكون ﴿مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ لا تقدِر على مدّها وإعطاء شيء بها ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ ولا توسعها ﴿كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ وكمال السعة بحيث لا يستقرّ فيها شيء ﴿فَتَقْعُدَ﴾ وتمكُث بين أهلك ومعارفك ﴿مَلُوماً﴾ يلومونك[٢] بسوء التدبير وإضاعة المال وإلقاء الأهل والأولاد في المحنة والمشقّة و ﴿مَحْسُوراً﴾ ومنقطعاً عن الحيل والتدابير في تنظيم أُمورك وأُمور عيالك.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ رسول الله ﷺ كان لا يسألة احدٌ من الدنيا شيئاً إلا أعطاه، فأرسلت إليه امرأة ابناً لها فقالت: انطلق إليه فاسأله فان قال [لك:] ليس عندنا شيء، فقل: أعطني قميصك. قال: فأخذ قميصه وأعطاه، فأدّبه الله على القَصْد»[٣].

والقمي، قال: كان سبب نزولها أنّ رسول الله ﷺ كان لا يرُدّ أحداً يسأله شيئاً عنده، فجاءه رجلٌ فسأله فلم يحضُره شيء، فقال: «يكون إن شاء الله». فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك، فأعطاه قميصه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ نهاه الله أن يَبْخَل أو يُسرِف ويقعُد محسوراً من الثياب. فقال الصادق عليه السلام: «المحسور: العُريان»[٤].

وعنه عليه السلام ـ في حديث ـ «علّم الله نبيه ﷺ كيف يُنفِق، وذلك أنه كان عنده اُوقية من ذهب، فكَرِه أن تبيت عنده فتصدّق بها، فأصبح وليس عنده شيء، وجاءه من يسأله فلم يكن عنده ما يُعطيه، فلامه السائل، واغتمّ هو حيث لم يكن عنده ما يُعطيه، وكان رحيماً رفيقاً[٥]، فأدّب الله نبيه ﷺ بأمره فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ﴾ الآية. يقول: [إنّ النّاس] قد يسألونك ولا يعذِرونك، فاذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حُسِرت من المال»[٦].

وعنه عليه السلام: «الإحسار: الفاقة»[٧].

---

١. مجمع البيان ٦: ٦٣٤، تفسير الصافي ٣: ١٨٨.
٢. في النسخة: يلامونك.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٥٠٣/٤٨، الكافي ٤: ٧/٥٥، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.
٤. تفسير القمي ٢: ١٨، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.
٥. في الكافي وتفسير الصافي: رقيقاً.
٦. الكافي ٥: ١/٦٧، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.
٧. الكافي ٤: ٦/٥٥، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.

وعنه عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه الآية: الإحسار، الإقتار»[١].

وعنه عليه السلام، في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ قال: ضمّ يده فقال: «هكذا» ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾، قال: وبسط راحته وقال: «هكذا»[٢].

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً[٣٠]

ثمّ بيّن سبحانه أن مقتضى ربوبيته رعاية صلاح العباد في توسعة المعاش وتضييقه تسكيناً لقلب النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ توسعة رزقه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق على من يشاء التضييق عليه على حسب اختلاف مصالح الأشخاص ونظام العالم ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ ومصالحهم ﴿خَبِيراً بَصِيراً﴾ فالتفاوت بينهم في الغنى والفقر إنّما هو لاختلافهم في الأحوال والمصلحة، والله العالم بها، فلا تغتمّ لفقر أحد.

في الحديث القدسي: «أنّ من عبادي من لا يُصلحه إلّا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي من لا يُصلحه إلّا الغِنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك» وقال: «وإنّي لأعلم بمصالح عبادي»[٣].

وفي (نهج البلاغة): «وقدّر الأرزاق، فكثّرها وقلّلها، وقسّمها على الضيق والسّعة، فعدل فيها ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها، وليختبر بذلك الشُّكر والصبر من غنيّها وفقيرها»[٤].

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـأً كَبِيراً[٣١]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه أنّ الرزق والتوسعة والتضييق فيه بتقدير الله، وكان العرب على ما قيل يقتلون أولادهم خوفاً من الفقر[٥]، نهاهم عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ أيها العرب ﴿أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ ولمخافة الفَقر، فانّ رزقهم ليس عليكم حتى تخافوا منه، بل ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ لا غيرنا ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ﴾ لأيّ داعٍ ﴿كَانَ خِطْأً كَبِيراً﴾ وذنباً عظيماً.

قيل: إنّ هَرِم بن حَيّان قال لأويس: أين تأمُرني أن أكون؟ فأومأ إلى الشام، فقال هَرِم كيف المعيشة

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٥٠٥/٤٨، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٥٠٤/٤٨، التهذيب ٧: ١٠٣١/٢٣٦، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.
٣. الكافي ٢: ٨/٢٦٣ «نحوه»، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.
٤. نهج البلاغة: ٩١/١٣٤، تفسير الصافي ٣: ١٩٠.
٥. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩٠، تفسير روح البيان ٥: ١٥٣.

بها؟ فقال أُويس: اُفٍّ لهذه القلوب التي قد خالطها الشكّ فما تنفعها العِظة[١].

قيل: إنّ العرب كانوا يقتُلون البنات لعجز البنات عن التكسّب، ولأنّ فقرها يُنفّر أكفاءها عن تزويجها، فيحتاجون إلى تزويجها بغير أكفائها، وهو عارٌ شديد[٢].

وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً[٣٢]

ثمّ لمّا وصف سبحانه قتل الأولاد بالذنب الكبير، أردفه بذكر بعض الكبائر التي منها الزنا بقوله: **﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ﴾** ولا ترتكبوه أبداً **﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾** فعله **﴿فَٰحِشَةً﴾** شديدة القباحة **﴿وَسَآءَ سَبِيلاً﴾** سبيله، وبئس طريقاً طريقه، فانّه موجبٌ لاختلال الأنساب وهيجان الفِتن وشيوع الفساد.

وعن الباقر عليه السلام ـ في حديث ـ قال: «**﴿وَسَآءَ سَبِيلاً﴾** وهو أشدّ الناس عذاباً، والزنا من أكبر الكبائر»[٣].

وعن الصادق عليه السلام، عن أبيه، عن جدّه، عن علي عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله في وصيته له: «يا علي، في الزنا ست خصال؛ ثلاث منها في الدنيا، وثلاث في الآخرة، فأمّا التي في الدنيا: فيُذهب بالبَهاء، ويُعجّل الفَناء، ويقطع الرزق. وأمّا التي في الآخرة: فسوء الحساب، وسَخَط الرحمن، والخُلود في النّار»[٤].

وروى بعض العامة عن بعض الصحابة: «إياكم والزنا، فانّ فيه ستّ خصال؛ ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة، فأما التي في الدنيا: فنُقصان الرزق، ونُقصان العمر، والبُغض في قلوب الناس. وأما الثلاث التي في الآخرة: فغضب الربّ، وشدّة الحساب، والدخول في النّار»[٥].

وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰناً فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُوراً[٣٣]

ثمّ ذكر سبحانه قتل النفس المحترمة التي هي أكبر الكبائر العملية بقوله: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾** قتلها بوجهٍ من الوجوه **﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾** المقرّر في الشرع المطهّر من القِصاص والحدّ والدفاع.

---

١. تفسير روح البيان ٥: ١٥٤.
٢. تفسير الرازي ٢٠: ١٩٦ ـ ١٩٧.
٣. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩٠.
٤. الخصال: ٣/٣٢١، من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٢٤/٢٦٦، تفسير الصافي ٣: ١٩٠.
٥. تفسير أبي السعود ٥: ١٧٠، تفسير روح البيان ٥: ١٥٤.

عن النبي ﷺ: «إني اُمرت أن اُقاتل الناس حتّى يقولوا لا إله إلّا الله، فاذا قالوا عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها، وحسابهم على الله»[1].

قيل: وما حقّها، يا رسول الله؟ قال: «زنا بعد إحصان، وكفر بعد إيمان، وقتل نفس فيُقتَل بها»[2].

ثمّ ذكر حكم القِصاص بقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ﴾ من المؤمنين حال كونه ﴿مَظْلُوماً﴾ ومحترماً دمه بأن لم يصدُر منه ما يجوّز قتله ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ﴾ ووارث دمه من وُرّاث ماله إن كانوا، ومن الإمام الذي هو وارث من لا وارث له ﴿سُلْطَاناً﴾ واستيلاءً على القاتل إن شاء قتَله، وإن شاء أخذ الدِّية، فان اختار القتل ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ ولا يتجاوز الحدّ المقرّر ﴿فِى ٱلْقَتْلِ﴾ بأن يقتُل غير القاتل مع القاتل، أو يمثّل بالمقتصّ منه، أو يقتُل عوض القاتل أشراف قومه، وليس لأحدٍ مزاحمة القاتل في استيفاء حقّه ﴿إِنَّهُ﴾ في شَرْع الاسلام ﴿كَانَ مَنصُوراً﴾ من قبل الله.

القمي: يعني ينصُر ولد المقتول على القاتل[3].

عن الكاظم عليه السلام، أنّه سئل عن هذه الآية، وقيل له: فما هذا الاسراف الذي نهى الله [عنه؟] قال: «نهى أن يُقتَل غير قاتله، أو يمثّل بالقاتل».

قيل: فما معنى قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾؟ قال: «وأيّ نُصرةٍ أعظم من أن يُدفَع القاتل [إلى] أولياء المقتول فيقتُله، ولا تَبِعة تَلْزَمه من قتله في دِين أو دنيا»[4].

عن العياشي [عن أبي عبدالله عليه السلام]: «إذا اجتمع العِدّة على قتل رجلٍ واحدٍ، حَكَم الوالي أن يُقتل أيّهم شاءوا، وليس لهم أن يقتُلوا أكثر من واحدٍ، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِى ٱلْقَتْلِ﴾»[5].

وعن الصادق عليه السلام: «نزلت في الحسين عليه السلام، لو قُتِل أهل الأرض به ما كان سَرَفاً»[6].

وقيل: إنّ الاسراف في القَتل ترجيحه على أخذ الدِّية، والمراد بالنهي النهي عن اختيار القتل[7]، وإنّما قدّم النهي عن الزنا على النهي عن القتل، مع أنّ القتل أكبر الكبائر العملية؛ لأنّ الجِماع مقدّمة وجود الانسان، والقتل إعدامه بعد الوجود، وبيان حكم مقدمة وجود الانسان مقدّم بالطبع على حكم مترتّب

---

١. سنن الترمذي ٥: ٣٣٤١/٤٣٩، مسند أحمد ٤: ٨. ٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٠٠، تفسير روح البيان ٥: ١٥٥.
٣. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩١.
٤. الكافي ٧: ٧/٣٧٠، تفسير الصافي ٣: ١٩١، وفيهما: ولا دنيا.
٥. تفسير العياشي ٣: ٢٥١٠/٤٩، الكافي ٧: ٩/٢٨٤، تفسير الصافي ٣: ١٩١.
٦. الكافي ٨: ٣٦٤/٢٥٥، تفسير الصافي ٣: ١٩١. ٧. تفسير الرازي ٢٠: ٢٠٢.

على وجوده، كذا قيل[١].

ثمّ أعلم أنّ بالتفسير الذي ذكرنا للمظلوم، يندفع الاعتراض على الآية بأنّها تدلّ على أن موجب جواز القتل منحصرٌ في كون المقتول مظلوماً، مع أنّ سببه غير منحصرٍ فيه، بل له أسباب كثيرة كالكفر بعد الايمان وكثير من المعاصي التي حدّها[٢] القتل.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً[٣٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد النهي عن إتلاف النفوس نهى عن إتلاف مال اليتامى الذين هم أضعف الضعفاء بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ ولا تتصرّفوا فيه بطريقة من الطُرق وخَصْلة من الخِصال ﴿إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الطُّرق والخِصال، وهو التصرّف الذي لا يكون فيه إفساد والذي تكون فيه الغِبطة، وكونوا مستمرّين على ذلك ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ وكمال قُواه وعقله ورُشده.

ثمّ أكّد العمل بالأحكام المذكورة التي هي عهود الله بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ الذي بينكم وبين ربّكم من العمل بأحكامه والنّذر واليمين، أو بينكم وبين الناس كالبيوع وغيرها من المعاملات.

ثمّ هدّد سبحانه على مخالفته بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ﴾ يوم القيامة عنه ﴿مَسْئُولاً﴾ حين المحاسبة قيل: إنّه بتقدير المضاف، والمعنى أنّ صاحب العهد[٣].

وقيل: المسؤول بمعنى المطلوب، والمراد أنّه يطلّب من المعاهد أن يفي به[٤]. وقيل: إنّه فرَض العهد شخصاً عاقلاً يسأل عنه، ويقال له: لم يُوفَ بك، تبكيتاً للناكث[٥].

وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً[٣٥ و ٣٦]

ثمّ بعد إيجاب الوفاء بالعهد، أوجب سبحانه إيفاء الحقوق بقوله: ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ﴾ وأتمّوه ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ لمستحقّه ولا تُخسِروه حين عاملتم بالكيل ﴿وَزِنُوا﴾ ما عاملتموه بالوزن ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ والميزان ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ والعدل السويّ.

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٩٩.

٢. في النسخة: حدّه.

٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٠: ٢٠٦.

٥. تفسير الرازي ٢٠: ٢٠٦.

عن الباقر عليه السلام: «هو الميزان الذي له لسان»[١]. ﴿ذٰلِكَ﴾ الايفاء بالكيل والوزن ﴿خَيْرٌ﴾ لكم في الدنيا؛ لأنه موجبٌ لرغبة الناس في معاملتكم، ولذكركم بالجميل في الناس ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ وعاقبة في الآخرة.

ثمَ لمّا نهى سبحانه عن قتل النفوس وإتلاف أموال اليتيم، وأمر بتأدية حقوق الناس، نهى عن إتلاف نفوسهم وأموالهم وأعراضهم بالقول بقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تَقُل، كما عن القمي[٢] ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ عن محمد ابن الحنفية: يعني شهادة الزور[٣]. وعن ابن عباس: يعني لا تشهد إلّا بما رأته عيناك وسَمِعته أذناك، ووعاه قلبك[٤].

وقيل: إن المراد [منه: النهي عن] القذف ورمي المُحصَنين والمُحصَنات بالأكاذيب[٥].

وقيل: المراد النهي عن الكذب. وقيل: إنّ المراد النهي عن البُهتان[٦].

وعن القمي: لا ترمِ أحداً بما ليس لك به علم، قال رسول الله: «من بَهَت مؤمناً أو مؤمنة أُقيم في طينة خَبال، أو يخرُج ممّا قال»[٧]. قيل: إنّ طينة خَبال صَديد جهنّم.

وقيل: إنّ المراد مطلق القول بما لا علم به، سواء أكان على الله، أو على الناس. وقيل: إنّ المعنى لا تتبع ما لا تعلم.

واستدلّ جماعة بهذه الآية بناءً على حُرمة العمل بالظنّ والخبر غير العلمي في الأحكام الشرعية، وفيه أنّه صحيحٌ لو لم يكن على حُجيتهما دليلٌ قطعي، وإلّا كان العمل بهما عملاً بالعلم، أو كان عموم النهي مخصصاً به.

ثمَ هدّد الله على القول أو العمل بغير العلم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ﴾ واحدٍ من ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ الأعضاء التي رئيسها الفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ في القيامة، فيشهد بأعمالكم ومعاصيكم، فلا تستطيعون ردّها، فانّ جميع الأعضاء في الآخرة حيّة بحياة مستقلة شاعرة ناطقة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٨].

عن الصادق عليه السلام: في هذه الآية: «يُسأل السمع عمّا سَمِع، والبصر عمّا نَظَر إليه، والفؤاد عمّا عقَدَ عليه»[٩].

وعنه عليه السلام، قال له رجل: إنّ لي جيراناً ولهم جوارٍ يتغنّين ويضربن بالعود، فربما دخلتُ المخرج

---

١. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩٢.
٢. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩٢.
٣ ـ ٥. تفسير الرازي ٢٠: ٢٠٧.
٦. تفسير الرازي ٢٠: ٢٠٨.
٧. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩٢.
٨. النور: ٢٤/٢٤.
٩. تفسير العياشي ٣: ٢٥١٩/٧٥، الكافي ٢: ٢/٣١، تفسير الصافي ٣: ١٩٢.

فأطيل الجلوس استماعاً منّي لهن؟ قال عليه السلام: «لا تفعل».

فقال: والله ما هو شيء آتيه برجلي، إنما هو سَماع أسمعه بأُذني؟ فقال عليه السلام: «تالله كذبت[1]، أما سَمِعت الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾»[2] الخبر.

وعن السجاد عليه السلام: «ليس لك أن تتكلّم بما شئت؛ لأنّ الله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ولأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: رَحِم الله عبداً قال خيراً فغَنِم، أو صَمَت فسَلِم، وليس لك أن تسمع ما شئت؛ لأنّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾»[3].

وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً * كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً [٣٧ و ٣٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد النهي عن الكبائر الموبقة، والأمر بالوفاء بالعهد وإيفاء الحقوق، وكلّها من وظائف اليد واللسان والقلب، وبيان مسؤولية الأعضاء والجوارح، نهى عن مشي الخُيلاء[4] والتكبّر الذي هو وظيفة الرِّجلين بقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ﴾ أيها الانسان ﴿فِى﴾ وجه ﴿ٱلْأَرْضِ مَرَحاً﴾ وتكبّراً، أو فخراً، أو بطراً، أو فرحاً، كما عن القمي رحمه الله[5].

ثمّ نبّه سبحانه على عدم لياقته للتعظّم والتكبّر بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ﴾ ولن تنقّب حال انخفاضك في المشي ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بقوة قدميك وشدّة وطئك ﴿وَلَن تَبْلُغَ﴾ حال ارتفاعك ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ ولن تَصل إلى رؤوسها ﴿طُولاً﴾ وبتطاولك، فمع هذا العجز يكون التكبّر عين الحماقة، إذ التكبّر إنّما يكون بكَثرة القوة وعِظم الجُثّة، وكلاهما مفقودان فيك.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لمحمّد بن الحنفية: «وفرض على الرِّجلين أن تنقُلهما في طاعته، وأن لا تمشي بهما مشية عاصٍ، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحاً﴾[6]».

ثمّ بيّن سبحانه علّة النهي عن الخِصال الاثني عشر بقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور في تضاعيف الآيات المشتملة على الأوامر والنواهي من الخصال الخمس والعشرين ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ وقبيحه، وهو الذي نهى عنه، وهي اثنتا عشرة خَصْلة ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ ومبغوضاً.

---

١. في الكافي والعياشي: لله أنت، وفي من لايحضره الفقيه والتهذيب: يالله أنت. وفي الصافي: تالله أنت.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٥٢٠/٥٢، من لا يحضره الفقيه ١: ١٧٧/٤٥، التهذيب ١: ٣٠٤/١١٦، الكافي ٦: ١٠/٤٣٢، تفسير الصافي ٣: ١٩٢.

٣. علل الشرائع: ٨٠/٦٠٦، تفسير الصافي ٣: ١٩٢.

٤. في النسخة: المشي عن الخيلاء.

٥. تفسير القمي ٢: ٢٠، تفسير الصافي ٣: ١٩٣.

٦. من لا يحضره الفقيه ٢: ١٦٢٧/٣٨٣، تفسير الصافي ٣: ١٩٣.

قيل: إنّما وصف المنهيات بمطلق الكراهة مع كون جميعها أوجُلّها من أكبر الكبائر، إيذاناً بكفاية مجرّد كراهة الله تعالى لشيء في وجوب الالتزام بتركه[١].

ذٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً[٣٩]

ثمَ حثّ سبحانه في العمل بالتكاليف المفصّلة بقوله: **﴿ذٰلِكَ﴾** المذكور من التكاليف **﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾** وما يستقلّ بحسنه وصلاحة العقل السليم، أو من الأحكام المُحكمة التي لا تقبل النّسخ، أو من الأحكام التي كانت في ألواح موسى، كما عن بن عباس[٢].

ولمّا كانت دليلاً على الوَحْدانية، ختم سبحانه الأحكام بما بدأها بقوله: **﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾** أيّها الانسان **﴿مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ﴾** تنبيهاً على أنّ التوحيد أول المقاصد وآخرها، وأنّ عُمدة الغَرَض منها تكميله.

ثمَ أنّه تعالى بعد التهديد أولاً على الشِّرك بالعذاب الدنيوي، هدّد عليه آخراً بالعذاب الاخُروي بقوله: **﴿فَتُلْقَىٰ﴾** في الآخرة **﴿فِى جَهَنَّمَ﴾** حال كونك **﴿مَلُوماً﴾** عند نفسك وغيرك على ما كنت عليه من الشِّرك **﴿مَدْحُوراً﴾** ومطروداً من رحمة الله.

عن القمي: المخاطبة للنبي صلى الله عليه وآله، والمعنى للناس[٣].

عن الباقر عليه السلام ـ في حديث ـ «ثم بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله وهو بمكة عشر سنين، فلم يَمُت بمكة في تلك العشر سنين أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله إلا أدخله الله الجنة بإقراره، وهو إيمان التصديق، ولم يعذّب الله أحداً ممن مات وهو متّبع لمحمّد صلى الله عليه وآله على ذلك إلّا من أشرك بالرحمن، وتصديق ذلك أنّ الله عز وجل أنزل عليه في سورة بني إسرائيل آية[٤] **﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾** إلى قوله: **﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾**[٥] أدب وعِظة وتعلّم ونهي خفيف، ولم يَعِدْ عليه، ولم يتواعد على اجتراح شيءٍ ممّا نهىٰ عنه، وأنزل نهياً عن أشياء حذّر عليها ولم يغلّظ فيها، ولم يتواعد عليها، وقال: **﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾** وتلا الآيات إلى قوله: **﴿مَلُوماً مَّدْحُوراً﴾**[٦].

---

١. تفسير أبي السعود ٥: ١٧٢، تفسير روح البيان ٥: ١٥٩.
٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢١٤، تفسير أبي السعود ٥: ١٧٣، تفسير الصافي ٣: ١٩٣.
٣. تفسير القمي ٢: ٢٠، تفسير الصافي ٣: ١٩٣.
٤. في الكافي وتفسير الصافي: بمكة.
٥. الإسراء: ٢٣/١٧ ـ ٣٠.
٦. الكافي ٢: ١/٢٥، تفسير الصافي ٣: ١٩٤، والآيات من سورة الإسراء: ٣١/١٧ ـ ٣٩.

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً[٤٠ و ٤١]

ثمَ أنَه تعالى بعد النهي عن الاشراك، ذمّ المشركين القائلين بأنّ الملائكة بنات الله على هذا القول الفضيع، وأنكر عليهم بقوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾ وخصّكم ﴿رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ وفضّلكم على نفسه بأفضل الأولاد في اعتقادكم ﴿وَاتَّخَذَ﴾ لنفسه ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ أولاداً ﴿إِنَاثاً﴾ وبنات مع اعتقادكم بأنهنّ أخسّ الأولاد، وهذا ممّا تُنكِره العقول، فانّ المَوالي لا يختارون لأنفسهم الأردأ ويُعطُون الأجود الأصفى للعبيد ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيّها الجُهّال الحُمقاء، والله ﴿لَتَقُولُونَ﴾ بقولكم: إنّ الله اتّخذ لنفسه ولداً، وهو إناث ﴿قَوْلاً عَظِيماً﴾ وكلاماً شنيعاً في الغاية، بحيث لا يقول به من له أدنى مُسكة، لبداهة أن الولادة من خصائص الجسم، والله تعالى مُجسِّم الأجسام وخالق الوالد والولد، ولا يُعقَل أن يكون جسماً، ومن لوازم الحاجة، وهو تعالى غنيّ بالذات. وعلى فرض المُحال لا يمكن أن يختار لنفسه أخسّ الأولاد، وهو موجِد لهم، فيالها من ضلالة، وما أقبحها!

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وبيّنا أو كررنا ﴿فِي هٰذَا الْقُرْآنِ﴾ الحُجج والحِكم والعِبر ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ وليتنبّهوا ويتدبّروا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ هذا القرآن وتصريف البراهين والمواعظ التي منه ﴿إِلَّا نُفُوراً﴾ واشمئزازاً منه ومن الحقّ.

قُل لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً[٤٢ و ٤٣]

ثمَ أنه تعالى بعد النهي عن الشِرك، استدلّ على بطلانه بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمّد، للمشركين ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ﴾ تعالى ﴿آلِهَةٌ﴾ أخرى من الأصنام والكواكب وغيرها ﴿كَمَا﴾ هم ﴿يَقُولُونَ﴾: إنّ لله شركاء في الألوهية ﴿إِذاً﴾ البتة ﴿لَابْتَغَوْا﴾ ولطلبوا ﴿إِلَىٰ﴾ معارضة ﴿ذِي الْعَرْشِ﴾ وخالق الموجودات والغَلَبة عليه في الألوهية والايجاد والتدبير في العالم ﴿سَبِيلاً﴾ ووسيلة، كما هو دأب الملوك بعضهم مع بعض، ولو طلبوا لفسد نظام العالم. وقيل: يعني لطلبوا لأنفسهم إلى التقرّب إليه تعالى سبيلاً بتحصيل الكمالات الفائقة والمراتب العالية، حتى يمكنهم أن يقرّبوكم إليه ويشفعوكم لديه[١].

ثمَ نزّه ذاته المقدّسة عن الشرك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ وتنزّه وارتفع بذاته ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من وجود الشريك والولد له ﴿عُلُوّاً كَبِيراً﴾ وارتفاعاً عظيماً لا غاية له، لأنّ المنافاة بين وجوب الوجود

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٢١٧.

لذاته والقديم والحادث والباقي والفاني والغني المطلق والمحتاج المطلق بحدّ لا تُعقَل الزيادة عليه.

تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّماوَاتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِن لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً[٤٤]

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ تسبيحه لا ينحصر بذاته المقدسة بل ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ**﴾ ما في ﴿**ٱلسَّماوَاتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ**﴾ من الملائكة والأرواح المقدّسة، وتنزّهه عن جميع النقائص الامكانية والضِدّ والنِدّ والولد، ثمّ عمّم تسبيحه لجميع الموجودات بقوله: ﴿**وَإِن مِن شَيْءٍ**﴾ من الأشياء، وما من موجود من الموجودات ﴿**إِلَّا**﴾ وهو ﴿**يُسَبِّحُ**﴾ ربّه ملابساً ﴿**بِحَمْدِهِ**﴾ على نِعمه ﴿**وَلٰكِن**﴾ أنتم ﴿**لَا تَفْقَهُونَ**﴾ ولا تفهمون ﴿**تَسْبِيحَهُمْ**﴾ لقُصور فَهْمكم واحتجاب أسماعكم وعدم التدبّر في آيات حدوثهم وإمكانهم.

عن الصادق عليه السلام: «تَنَقُّض الجُدُر تسبيحها»[1].

وعن الباقر عليه السلام: سُئل هل تسبّح الشجرة اليابسة؟ فقال: «نعم، أما سمعت خشب البيت كيف يُنقَض، وذلك تسبيحه لله، فسبحان الله على كلّ حال»[2].

أقول: ظاهر الروايتين أنّ طروَ النقص على الموجودات، وظهور التغيير فيها، دالّ على تنزّه خالقها من النقص والتغيير، وكون جميعها تحت قدرة مُوجِدها وتدبيره وإرادته، ولمّا لم يتدبّر المشركون في تلك الآيات لغفلتهم وجهلهم وانهماكهم في الشهوات، صاروا مستحقّين للعذاب، ولكن لا يُعاجلهم الله به ﴿**إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً**﴾ غير عجولٍ في تعذيب العُصاة غير الأهلين للغفران ﴿**غَفُوراً**﴾ لذنوب الأهلين له.

وقيل: إن التسبيح في الآية على معناه الحقيقي، وهو قول: سبحان الله، كما عن ابن مسعود، قال: لقد كنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل[3].

وعن ابن عبّاس، في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ**﴾[4] كان داود إذا سبّح جاوبته الجبال بالتسبيح[5].

وعن مجاهد: كلّ الأشياء تسبح الله، حيّاً كان أو جماداً، وتسبيحها: سبحان الله وبحمده[6].

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٥٢٣/٥٤، الكافي ٦: ٤/٥٣١، تفسير الصافي ٣: ١٩٥.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٥٢٨/٥٤، تفسير الصافي ٣: ١٩٥.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٦٣.
٤. سورة ص: ١٨/٣٨.
٥. تفسير روح البيان ٥: ١٦٣.
٦. تفسير روح البيان ٥: ١٦٣.

وروي أنّ الحصَاة سبَحت في كفِّ النبيّ ﷺ [١]. وفي الحديث: «ما من طيرٍ يُصاد إلّا بتضييعه التسبيح» [٢].

أقول: الحقّ أنّ جميع الموجودات لها تسبيح تكويني وتسبيح اختياري، وإنّما يسمعه من له أُذن سامعة كالنبيّ والكُمّلين من المؤمنين.

عن النبيّ ﷺ، قال: «إنّي لأعرف حجراً بمكّة كان يسلّم عليّ قبل أن أُبْعَث» [٣].

ويمكن أن يكون المراد من الآية المباركة كلا التسبيحين بإرادة القدر المشترك، أو عموم المجاز.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾[٤٥ و ٤٦]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه آيات توحيده وكمال ذاته، وذمّ المشركين بعدم فَهْمهم وتفقّههم لها، ذمّهم بإعراضهم عن القرآن المبين لمعارفه وللبراهين الدالة على توحيدة، وتنزّهه عما لا يليق بوجوب وجوده وكمال ذاته، وعدم فَهْمهم وتفقّههم ما فيه، ومعاداتهم للنبيّ ﷺ بقوله: **﴿وَإِذَا قَرَأْتَ﴾** يا محمّد **﴿ٱلْقُرْآنَ﴾** الحاوي للحكم والمعارف **﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ﴾** المشركين **﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾** والبعث بعد الموت **﴿حِجَاباً﴾** وسِتْراً يستُرك عنهم حتّى لا يؤذونك، وكان ذلك الحِجاب أيضاً **﴿مَسْتُوراً﴾** عن أعينهم، أو المراد حِجاباً ذا سِترٍ يستُرك عنهم **﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾** وأغطية كراهة **﴿أَن﴾** يفهموا القرآن و **﴿يَفْقَهُوهُ﴾** حقّ فَهْمه وفِقهه، ويعرفوا جهات إعجازه ودلائل صدقه **﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾** وثِقلاً عن سَماعة اللائق به، قيل: إنّ الآية نزلت في قومٍ كانوا يُؤذون النبيّ ﷺ إذا قرأ القرآن على الناس [٤].

ورُوي أنه ﷺ كان كلّما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان، وعن يساره آخران من ولد قُصيّ، يُصفّقون ويَصْفِرون ويُخَلّطون عليه بالأشعار [٥].

وعن أسماء: أنه ﷺ كان جالساً ومعه أبو بكر، إذ أقبلت امرأة أبي لهب ومعها فِهر [٦] تُريد رسول الله ﷺ وهي تقول:

مذمّماً أتينا ودينه قلينا

---

١. تفسير روح البيان ٥: ١٦٤.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٥٢٧/٥٤، تفسير الصافي ٣: ١٩٥.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٦٣.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٠.
٥. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٠، تفسير أبي السعود ٥: ١٧٦.
٦. الفِهر: الحَجَر.

وامره عصينا

فقال أبو بكر، يا رسول الله، معها فِهرٌ، أخشاها عليك: فتلا رسول الله ﷺ، هذه الآية، فجاءت فما رأت رسول الله، وقالت: إنّ قُريشاً [قد] عَلِمت أنّي ابنة سيّدها، وأنّ صاحبك هجاني[١].

وروي أنّها نزلت في أبي سفيان والنضير[٢] وأبي جهل وأُمّ جميل امرأة أبـي لهب، كـانوا يـؤذون النبيّ ﷺ إذا قرأ القرآن، فحجب الله أبصارهم إذا قرأ، وكانوا يمرّون به ولا يرونه[٣].

وقيل: إنّ المشركين كانوا يطلبّون موضع النبيّ ﷺ في الليالي، لينتهوا إليه ويـؤذونه، ويستدلّون على موضعه باستماع قراءته، فآمنه الله من شرّهم، وذكر له أنّه جعل بينه وبينهم حجاباً لا يـمكنهم الوصول إليه معه، وبيّن أنّه جعل في قلوبهم مايَشْغَلهم عن فَهْم القرآن، وفي آذانهم ما يمنع من سَماع صوته. ويجوز أن يكون ذلك مرضاً شاغلاً يمنعهم عن المصير إليه[٤].

وقيل: إنّ القوم لشدّة امتناعهم عن قبول دلائل نبوة محمّد ﷺ، صاروا كأنّه حصل بينهم وبين تلك الدلائل حِجاب وساتِر، وإنّما نسب [الله] سبحانه ذلك الحِجاب إلى نفسه؛ لأنـه لمّا خـلّاهم مـع أنفسهم وما منعهم عن ذلك الاعراض، صارت تلك التخلية كأنّها هي السبب لوقـوعهم فـي تـلك الحالة[٥].

وقيل: إنّ المراد من القرآن هو الصلاة، تسمية للكلّ باسم جُزئه[٦].

رُوي أنّ المشركين كانوا يؤذون النبي ﷺ مصلّياً، وجاءت اُمّ جميل امرأة أبي لهب بحجرٍ لترضخه فنزلت[٧].

ثمّ ذمّهم الله بالنَّفر عن ذكر الله وحده بقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ بأن سَمِعوا منك آية فيها ذكر الله وذمّ الشرك، أو لم تذكُر مع اسم الله اسم آلهتهم ﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ وهربوا ونفروا من استماعه ﴿نُفُوراً﴾ واشمئزازاً، وقيل: إنّ المراد أعرضوا عنك حال كونهم نافرين[٨].

عن الصادق عليه السلام: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل إلى منزله، واجتمعت عليه قريش، يـجهَر بـبسم اللهالرحمن الرحيم ويرفع بها صوته، فتولّي قريش فِراراً، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْآنِ﴾ الآية»[٩].

والقمي، قال: كان رسول الله ﷺ إذا تهجّد بالقرآن تسمع له قريش لحسن صوته، فكـان إذا قـرأ

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢١، تفسير أبي السعود ٥: ١٧٥.
٢. كذا في المصدر أيضاً، ولعلّه النَّضْر بن الحارث.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٦٧.
٤ و٥. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٢.
٦ و٧. تفسير روح البيان ٥: ١٦٧.
٨. تفسير روح البيان ٥: ١٦٨.
٩. الكافي ٨: ٣٨٧/٢٦٦، تفسير الصافي ٣: ١٩٥.

(بسم الله الرحمن الرحيم) فروا عنه[١].

وعن العياشي، عنه عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا صلّى بالناس جهر ببسم الله الرحمن الرحيم، فتخلّف من خلفه من المنافقين عن الصفوف، فاذا جازها في السورة عادوا إلى مواضعهم، وقال بعضهم لبعض: إنّه ليرّدد اسم ربّه تَرْداداً، إنّه ليُحبّ ربّه، فأنزل الله ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ﴾ الآية»[٢].

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً * ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً[٤٧ و ٤٨]

ثمّ هدّد الله المستهزئين بالقرآن بقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ﴾ وبالوجه الذي يصغون ﴿بِهِ﴾ من الاستهزاء والتكذيب ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ﴾ وحين يصغون ﴿إِلَيْكَ﴾ وأنت تتلو القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ وحين يسارّون في شأنك ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ والمتجاوزون عن حدّ العقل في نجواهم ومسارّتهم: إنكم إن اتّبعتم محمّداً فيما يدعوكم إليه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ ومجنوناً أو مخدوعاً خَدَعه الذين علّموه، أو خَدَعه الشيطان، فأوهمه أنّه مَلَك.

ثمّ أظهر التعجّب من مقالاتهم الواهية بقوله: ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمّد نظر التعجّب إلى هؤلاء الحُمقاء ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ وقالوا فيك ما لا يجوز أن يقال من قولهم:هو شاعر، أو كاهن، أو مجنون، أو ساحر ﴿فَضَلُّوا﴾ عن منهاج الحقّ أو الحِجاج ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يَجِدوا ﴿ سَبِيلاً﴾ إليه، ولا يمكنهم الطعن فيك بما يقبله العقل.

نقل الفخر الرازي عن المفسّرين أنّه أمر رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام أن يتّخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش، ففعل ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله، وقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى التوحيد، وقال: «قولوا لا اله إلّا الله حتى تُطيعكم العرب، وتدين لكم العجم»، فأبوا ذلك عليه، وكانوا عند استماعهم القرآن والدعوة إلى الله يقولون بينهم متناجين: هو ساحر، أو هو مسحور، وما أشبه ذلك، فنزلت الآية[٣].

وعن ابن عبّاس: أنّ أبا سفيان والنَّضْر بن الحارث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وآله ويستمعون إلى حديثه، فقال النَّضْر يوماً: ما أدري ما يقول محمّد، غير أنّي أرى شفتيه تتحرّك بشيء.

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٠، تفسير الصافي ٣: ١٩٥.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٥٣١/٥٥، تفسير الصافي ٣: ١٩٦.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٣.

وقال أبو سفيان: إني لأرى بعض ما يقول حقاً. وقال أبو جهل: هو مجنون. وقال أبو لهب: هو كاهن. وقال حُويطب بن عبدالعُزى: هو شاعر[١].

وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيباً[٤٩ ـ ٥١]

ثمّ لمّا وصف الله المشركين بأنّهم لا يؤمنون بالآخرة، حكى شُبهتهم في المعاد بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ إنكاراً للبعث، وتقريراً لكون النبي فاسد العقل: يا محمّد ﴿أَءِذَا﴾ متنا و﴿كُنَّا عِظَاماً﴾ بالية ﴿وَرُفَاتاً﴾ وأجزاء متفتّته ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ من القبور حال كوننا مخلوقين ﴿خَلْقاً جَدِيداً﴾ ومحيين بحياة ثانية مع تفرّق تُراب أجسادنا في العالم واختلاطه بغيره وعدم تميّزه؟ هيهات، لا يمكن ذلك أبداً، فردّهم الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿كُونُوا﴾ في المثل ﴿حِجَارَةً﴾ صلبة ﴿أَوْ حَدِيداً﴾ الذي هو أصلب منها ﴿أَوْ خَلْقاً﴾ آخر ﴿مِمَّا يَكْبُرُ﴾ ويعظُم ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ قبوله للحياة لغاية بعده عنها في نظركم، فانّكم تحيون وتبعثون لا محالة.

قيل: إنّ المراد ممّا يكبُر في صدورهم السماوات والجبال[٢]. وقيل: إنّه الموت، ونسب إلى جمهور المفسرين، إذ ليس في النفس شيء أكبر من الموت[٣].

والقمي عن الباقر عليه السلام: «الخلق الذي يكبُر في صدوركم الموت»[٤]. والمعنى لو كنتم عين الموت لأُميتكم وأُحييكم لا محالة، لإمكانه وعدم القصور في القدرة، واقتضاء الحكمة البالغة وجوبه، إذ لولا البعث لكان الخلق الأول عبثاً، وتعالى الله من العبث علواً كبيراً، فإذا أجبتهم عن شُبهتهم تلك[٥] ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ إنكاراً واستبعاداً: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ ويبعثنا مع كمال المباينة بين ترابنا وبين الإعادة والبعث ﴿قُلِ﴾ يا محمّد، يعيدكم القادر ﴿ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ واخترع خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وفي بدو خلقكم في هذا العالم من غير مثالٍ يحتذيه من ترابٍ لم يشَمّ رائحة الحياة، فإذا أجبتهم وعيّنت معادهم[٦] ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ﴾ ويحرّكون نحوك ﴿رُءُوسَهُمْ﴾ تعجباً وانكاراً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاء ﴿مَتَىٰ﴾ البعث، وفي أي وقت ﴿هُوَ قُلْ﴾ لهم ﴿عَسَىٰ﴾ وأرجو ﴿أَن يَكُونَ﴾ ذلك الوقت ﴿قَرِيباً﴾

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢١.
٢ و٣. تفسير روح البيان ٥: ١٧٠.
٤. تفسير القمي ٢: ٢١، تفسير الصافي ٣: ١٩٦.
٥. في النسخة: ذلك.
٦. في النسخة: معيدهم.

لأنّ كلّ آتٍ قريب، أو لأنه مضى أكثر الزمان وبقي أقلّه.

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً[٥٢]

ثمّ عيّن الله وقت الاعادة وسهولتها بقوله: ﴿**يَوْمَ يَدْعُوكُمْ**﴾ الله ببعثكم من القبور أو إسرافيل بنفخه الأخير في الصُّور ﴿**فَتَسْتَجِيبُونَ**﴾الدعوة، وتمتثلون [أمر]

الداعي [سواء أ]كان هو الله أو إسرافيل فيما دعاكم إليه، وتخرُجون من الأجداث سِراعاً منقادين لله رافعين أصواتكم ﴿**بِحَمْدِهِ**﴾ على قدرته على إعادتكم.

عن سعيد بن جبير: أنّهم ينفُضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، ويقدّسونه ويحمَدونه حين لا ينفعهم ذلك[١]، أو تستجيبون بأمره على القول بمجئ الحمد بمعنى الأمر، أو منقادين لاسرافيل حامدين لما فعل بكم غير مستعصين ﴿**وَتَظُنُّونَ**﴾ بعد البعث ورؤية الأهوال ﴿**إِن لَبِثْتُمْ**﴾ وما مَكَثتم في الدنيا، أو في القبور ﴿**إِلَّا قَلِيلاً**﴾ اقتصاراً للمدّة الماضية، أو تقريباً لوقت البعث.

عن ابن عبّاس: يُريد ما بين النفختين الأُولى والثانية، فإنّه يُزال عنهم العذاب في ذلك الوقت، قال: والدليل عليه قوله في سورة يس: ﴿**مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هٰذَا**﴾[٢] فظنّهم بأن هذا لبث قليل عائدٌ إلى لبثهم فيما بين النفختين[٣] الأُولى والثانية.

وقيل: يوم يدعوكم خطاب للمؤمنين، فانّهم يحمَدون الله على إحسانه إليهم[٤].

وَقُل لِعِبَادِي يَقُولُوا ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً[٥٣ـ٥٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد إقامة الحُجّة على التوحيد والمعاد وبيان معارضة المشركين للرسول وشدّة عداوتهم للحق، أمر المؤمنين بمداراتهم ومجادلتهم بالتي هي أحسن صوناً من الفساد[٥] بقوله: ﴿**وَقُل**

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٧، تفسير روح البيان ٥: ١٧٠.
٢. يس: ٥٢/٣٦.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٧.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٨.
٥. في النسخة: صوناً للفساد، ويريد صوناً من الفساد المترتّب على المخاشنة في القول والسبّ والشتم لأنّ المشركين سيقابلونهم بمثله.

﴿لِعِبَادِى﴾ المؤمنين الذين يجادلون المشركين ﴿يَقُولُوا﴾ عند محاورتهم معهم الكلمة ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الكَلِم ولا يخاشنونهم في القول، ولا يخلِطون حُجَتهم بالشَّتم والسَّبّ.

ثمّ نبّه سبحانه على فائدة تحسين الكلام بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَنزَغُ﴾ وَيثير الفتن ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين المشركين، ويُغري بعضهم على بعض، وتشتدّ العداوة بينهم، ويزداد الغضب والتنافر فيهم، فيمتنع حصول المقصود، وهو هدايتهم ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ﴾ من بدو خلقتهم ﴿عَدُوّاً مُبِيناً﴾ في عداواته، ومبغضاً متجاهراً ببغضه.

ثمّ علّم سبحانه المؤمنين تحسين الكلام مع المشركين بقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ أيّها المشركون ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ وأخبر بعقائدكم وأعمالكم ﴿إِن يَشَأْ﴾ الرحمة عليكم بالتوفيق للايمان والعمل الصالح ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ بلا مزاحم ولا رادّ ﴿أَوْ إِن يَشَأْ﴾ تعذيبكم باماتتكم على الكفر يميتكم و ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ بلا عجز ولا دافع، ولا تصرّحوا لهم بأنّكم أهل النار، فانّه يهيجهم على الشرّ مع أنّه لا يعلم عاقبة أحد إلّا الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ نَكِل إليك اُمورهم من الرحمة والتعذيب، فتُجبرهم على الايمان، وإنّما أرسلناك بشيراً ونذيراً، فدارِهم ومُر أصحابك بالمُداراة وترك المخاصمة.

عنه ﷺ: «أنّ الله أمرني بمداراة الناس، كما أمرني باقامة الفرائض»[1].

وقيل: إنّ المراد من العباد في الآية الكفّار، عبّر عنهم به جذباً لقلوبهم وميلاً لطباعهم إلى دين الاسلام[2]، والمعنى: قل - يا محمّد - للذين يقرّون بكونهم عباداً لي يعتقدوا بالعقائد التي هي أحسن من التوحيد والمعاد، ولا يُصِرّوا على العقائد الباطلة، فانّ الشيطان يحمِلهم على التعصّب، والشيطان عدوٌّ لهم، فلا ينبغي أن يلتفتوا إلى قوله وتسويلاته، وقل لهم: ربّكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم بأن يُوفقكم للايمان والهداية، وإن يشأ يُميتكم على الكفر، وأنتم لا تَطّلعون على تلك المشيئة، فاجْتَهِدوا أنتم في طلب الحقّ، ولا تُقيموا على الباطل، لئلا تُحرَموا من السعادات الأبدية، ثمّ قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ حتّى تشدّد عليهم وتُغلِظ لهم في القول، فانّ اللِّين والرِّفق آثر في قلوبهم، وأفيد في حصول المقصود من هدايتهم.

ثمّ أنّه تعالى بعد قوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ بيّن سَعَة علمه، وعدم قصره بأحوال المشركين، بل محيطٌ بأحوال جميع أهل العالم بقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأحوالهم وخِصالهم وما يليق بكلّ واحدٍ منهم ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾ كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى بالكتاب والشرع وعموم الرسالة وكَثْرة المعجزات ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر لعلمنا بتفاوت مراتبهم في

---

١. تفسير روح البيان ٥: ١٧٢.

٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٩.

الفضائل النفسانيّة والكمالات الروحانيّة.

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ التفضيل إنّما هو بالفيوضات المعنوية من العلم والكتاب لا بالسلطنة بقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ وفضلّناه به لا بالمُلك والسلطنة، فاذا كان كذلك فلا بُعد في أن نفضّل محمّداً ﷺ على جميع الخلق من الأولين والآخرين بإتيانه القرآن الذي هو أفضل الكتب السماوية، وتعميم رسالته إلى يوم القيامة.

وقيل: إن وجه تخصيص داود وكتابه بالذكر أنّ في الزّبور أنّ محمّداً خاتم الأنبياء، وأن اُمّته خير الأمم[1].

وقيل: إنّ وجهه أنّ اليهود كانوا يقولون: إنّه لا نبيّ بعد موسى، ولا كتاب بعد التوراة. فنقض الله كلامهم بإنزال الزبور على داود[2].

أقول: الظاهر أنّ اليهود يُنكرون بعث رسولٍ بعد موسى له شرع غير شرعه، ونزول كتاب ناسخ لكتابه، لا بعث مطلق الرسول ونزول مطلق الكتاب.

عن الصادق عليه السلام: «سادة النبيين والمرسلين خمسة، وهم اُولو العزم من الرسل، وعليهم دارت الرحىٰ: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وفضله على جميع الأنبياء»[3].

وفي (العلل) عن النبي ﷺ: «أنّ الله تعالى فضّل الأنبياء المرسلين على ملائكته المقرّبين، وفضّلني على جميع النبيين والمرسلين، والفضل بعدي لك يا عليّ وللأئمّة من ولدك، وإنّ الملائكة لخُدّامنا وخُدّام محبّينا»[4].

وعن ابن عباس: أنّه جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يتذاكرون، وهم ينتظرون خروجه، فخرج حتى دنا منهم، فسَمِعهم يتذاكرون، فسمِع حديثهم فقال بعضهم: عجباً إنّ الله اتّخذ إبراهيم من خلقه خليلاً! وقال آخر: ماذا بأعجب من أنّ الله كلّم موسى تكليماً؟ وقال آخر: ماذا بأعجب من جعل عيسى كلمة الله وروحه؟ فقال آخر: ماذا بأعجب من آدم اصطفاه الله عليهم؟ فسلّم رسول الله ﷺ على أصحابه، وقال: «قد سَمِعتُ كلامكم وعَجَبكم من أنّ ابراهيم خليل الله وهو كذلك، وأن موسى كليم الله وهو كذلك، وأن عيسى روح الله وكلمته وهو كذلك، وأنّ آدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٠.

٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٠.

٣. الكافي ١: ١٣٤/٣، تفسير الصافي ٣: ١٩٨.

٤. علل الشرائع: ١/٥، تفسير الصافي ٣: ١٩٨.

الله ولا فخر، وأنا أوّل من يحرّك حَلقَة الجنّة فيفتح الله لي فأدخلها ومعي فقراء المهاجرين [ولا فخر]»[١].

قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُون كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً[٥٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد إبطال مذهب عَبَدة الأصنام وقولهم بانكار المعاد، أمر نبيّه ﷺ بردّ قول عَبَدة الملائكة والجِنّ والمسيح والعُزير بقوله: ﴿قُلِ﴾ يا محمّد، للذين يعبُدون الملائكة والجنّ والمسيح والعُزير ﴿ٱدْعُوا﴾ أيها المشركون ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ وتخيّلتم بأهوائكم أنّهم آلهتكم ﴿مِن دُونِهِ﴾ تعالى وممّا سواه لحوائجكم، فانّ المعبود لا بدّ أن يكون قادراً على إزالة الضرر من عابديه، وإيصال النفع إليهم، وأما آلهتكم ﴿فَلَا يَمْلِكُون كَشْفَ ٱلضُّرِّ﴾ من المرض والفقر وغيرهما، ولا يَقدِرون على إزالته ﴿عَنكُمْ﴾ بوجهٍ من الوجوه ﴿وَلَا تَحْوِيلاً﴾ ونقلاً له منكم إلى غيركم.

قيل: إنّها نزلت في الذين كانوا يعبُدون الملائكة[٢]. وقيل: في الذين عبدوا المسيح[٣]. وقيل: في الذين عبدوا نفراً من الجّن، فأسلم النفر، وبقي اُولئك متمسّكين بعبادتهم[٤].

أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً[٥٧]

ثمّ بيّن سبحانه عجز آلهتهم واحتياجهم إلى الله بقوله: ﴿أُولٰئِكَ﴾ الآلهة ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ هم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلُبون ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ ومالك أُمورهم ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ والقربة بالطاعة والعبادة له ﴿أَيُّهُمْ﴾ وكلّ واحدٍ منهم فرض أنّه ﴿أَقْرَبُ﴾ إليه تعالى بكون[٥] شغله ذلك الابتغاء والطلب ﴿وَ﴾ هم ﴿يَرْجُونَ﴾ ويأمَلون ﴿رَحْمَتَهُ﴾ تعالى بالوسيلة ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ بتركها كدأب سائر العباد، فكيف بمن دونهم؟ فأين هم من كشف الضرّ فضلاً عن الأُلوهية ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ وحقيقاً بأن يحترز منه كلّ أحدٍ حتى الرسل والملائكة، وإن لم يحذره المشركون لغاية غفلتهم وانهماكهم في الشهوات، وإنّما استدلّ سبحانه بعجز الملائكة وغيرهم ممّن ادّعوا أُلوهيتهم عن كشف الضرّ وبابتغائهم الوسيلة لتسليم المشركين كونهم عباداً لله مخلوقين بقدرته مربوبين بتربيته.

وَإِن مِن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ

---

١. تفسير روح البيان ٥: ١٧٤.
٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣١.
٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣١.
٥. في النسخة: يكون.

ذٰلِكَ فِى ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً[٥٨]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه كون عذابه حقيقاً بأن يُحذَرْ منه، بيّن ابتلاء الكفّار في الدنيا بشديد عذابه بقوله: ﴿وَإِن مِن قَرْيَةٍ﴾ من قرى المشركين، وما من بلدةٍ من بلادهم ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ بعذاب الاستئصال المُفْني لجميع أهلها ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً﴾ دون عذاب الاستئصال من قبل أكابرهم وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الأموال وأخذ الجزية ﴿كَانَ ذٰلِكَ﴾ الحكم والدأب الالهي ﴿فِى ٱلْكِتَابِ﴾ المبين واللوح المحفوظ ﴿مَسْطُوراً﴾ ومكتوباً لا يتطرّق إليه التغيير.

وقيل: إنّ المراد به القرية[١] الصالحة والطالحة، أما الصالحة فتهلِك بالموت، وأما الطالحة فبالعذاب[٢].

عن الصادق عليه السلام، قال: «بالقتل أو الموت وغيره»[٣].

وعنه عليه السلام أنّه سُئِل عن هذه الآية، فقال: «هو الفناء بالموت»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «إنّما أمّة محمد من الأمم، فمن مات فقد هلك»[٥].

وَمَا مَنَعَنَا أَن نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً[٥٩]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه ابتلاء بعض القرى بعذاب الاستئصال لتكذيبهم الرسل مع ظهور المعجزات القاهرة، أظهر منّته على هذه الأمّة بعدم تعذيبهم بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا﴾ من ﴿أَن نُرْسِلَ﴾ وننزل ﴿بِالْآيَاتِ﴾ القاهرة والمعجزات المقترحة من المشركين شيئاً ﴿إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا﴾ العُتاة ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ والكفّار السابقون، كقوم عاد وثمود وأضرابهما، فاستحقّوا لذلك عذاب الاستئصال، فلو أرسلنا المعجزات التي اقترحها المشركون وكذّبوا بها، لاستوجبوا عذاب الاستئصال كسابقيهم، فمننّا على هذه الأمة ببركة نبي الرحمة بأن لا نستأصلهم بالعذاب، ألم يسمعوا أنّا أرسلنا صالحاً بالنبوة، واقترح قومه عليه وسألوه معجزة قاهرة فأجبناهم ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ بأن أخرجناها من الصخرة لتكون لهم معجزةً ﴿مُبْصِرَةً﴾ وموجبةً لليقين بصدق صالح وصحّة دينه بحيث لم يبقَ معها لأحد مجال الشكّ في كونها معجزة، وفي صدق نبوة صالح ﴿فَظَلَمُوا﴾ الناقة بأن عقروها وكذّبوا ﴿بِهَا﴾ وعرّضوا

---

١. في النسخة: المراد بالقرية.
٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٣.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٥٣٦/٥٧، وفيه: والموت أو غيره، تفسير الصافي ٣: ١٩٨.
٤. من لا يحضره الفقيه ١: ٥٦٢/١١٨، تفسير الصافي ٣: ١٩٨.
٥. تفسير العياشي ٣: ٢٥٣٤/٥٦، تفسير الصافي ٣: ١٩٨.

أنفسهم للهلاك، وإنما ذكر سبحانه من الأمم المهلكة خصوص ثمود لأنّهم كانوا من العرب مثلهم، وكانوا عالمين بحالهم ومشاهدين آثار هلاكهم.

عن القمي، عن الباقر عليه السلام: «أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله سأله قومه أن يأتيهم بآية، فنزل جبْرئيل وقال: إنّ الله يقول: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ وكنّا إذا أرسلنا إلى قرية آيةً فلم يؤمنوا بها أهلكناهم، فلذلك أخّرنا عن قومك الآيات»[1].

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ﴾ غير المقترحة من القرآن وسائر المعجزات ﴿إِلَّا﴾ لتكون ﴿تَخوِيفاً﴾ وإنذاراً لهم بعذاب الآخرة، فإنّ أمر أُمّتك التي بُعثتَ إليهم مؤخّر إلى يوم القيامة كرامةً لك.

عن سعيد بن جبير: أنّ القوم قالوا: يا محمّد، إنّك تزعُم أنّه كان قبلك أنبياء، فمنهم من سُخّرت له الريح، ومنهم من كان يُحيي الموتى، فأتنا بشيءٍ من هذه المعجزات، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ الآية[2].

وعن ابن عباس: أنّ أهل مكة سألوا الرسول صلى الله عليه وآله أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيل الجبال لهم حتى يزرعوا [تلك] الأراضي التي تحتها، فطلب الرسول صلى الله عليه وآله ذلك من الله تعالى، فقال الله تعالى: إن شئت فعلت ذلك، لكن بشرط أنّهم إن كفروا أهلكتهم. فقال الرسول صلى الله عليه وآله: «لا أُريد ذلك بل نتأنّى[3] بهم»، فنزلت[4].

وقيل: إنّ وجه الجواب أن الأولين شاهدوا هذه المعجزات، وكذّبوا بها، فعَلِم الله منكم أنّكم لو شاهدتموها لكذّبتم، فكان إظهارها عبثاً[5].

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً[٦٠]

ثمّ لمّا صار عدم إجابة الرسول مسألة المشركين في ما اقترحوه من الآيات سبباً لجُرأتهم عليه وطعنهم في رسالته، قوّى سبحانه قلبه الشريف بوعده النصر عليهم بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ بتوسّط جَبْرئيل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ قدرةً وعلماً، فلا يقدِر أحدٌ على أمرٍ إلّا بقضائه وإرادته، فلا تُبالِ بهم ولا تَخَف منهم فانّهم لن يضُرّوك شيئاً، وإنّ ربك سينصُرك عليهم، ويُؤيّدك حتى يُظهِر دينك

---

١. تفسير القمي ٢: ٢١، تفسير الصافي ٣: ١٩٩.
٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٤.
٣. في تفسير الرازي: تتأنّى.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٤.
٥. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٤.

على سائر الأديان.

وقيل: إنّ المراد من الناس أهل مكّة، والمعنى: وإذ بشّرناك بأنّ الله أحاط بأهل مكة بالقهر والغَلَبة، ويظهر دولتك عليهم، فهو نظير قوله: ﴿سيُهْزَم الجَمْع ويُولّون الدُّبر﴾[١].

رُوي أنّه لمّا تزاحف الفريقان يوم بدر، ورسول الله ﷺ في العريش، كان يدعو ويقول: اللهم إنّي أسألك عهدك ووعدك لي، ثمّ خرج وعليه الدرع يحرّض الناس ويقول: سيُهزم الجمع ويولّون الدُّبر[٢].

في ذكر رؤيا النبي ﷺ

ثمّ قيل: إنّ الله أرى النبي ﷺ في المنام مصارع الكفّار، فأخبرهم بها فكذّبوه، فذكّره الله تلك الرؤيا[٣] بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِى أَرَيْنَاكَ﴾ لغرض من الأغراض ﴿إِلَّا﴾ لتكون ﴿فِتْنَةً﴾ وابتلاءً ﴿لِلنَّاسِ﴾ وسبباً لتكذيبهم.

وقيل: إنّ المراد بالرؤيا الرؤيا التي رآها أنه يدخُل مكة، وأخبر بذلك أصحابه، فلمّا مُنِع [عن البيت الحرام] عام الحُديبية كان ذلك فتنةً لبعض القوم، وقال عمر لأبي بكر: أليس قد أخبرنا رسول الله ﷺ أنّا ندخُل البيت ونطوف به؟ فقال أبو بكر: [إنّه] لم يُخبِر أنّا نفعل ذلك في هذه السنة، فسنفعل ذلك في سنة اُخرى، رواها الفخر الرازي[٤].

وقيل: المراد رُؤياه المعراج[٥]، فإنّه كما كان له معراج في اليقظة كان له معراج في النوم.

وعن سعيد بن المسيب: رأى رسول الله ﷺ بني اُمية يَنْزُون على مِنْبرَه نَزْو القِردَة، فساءه ذلك، قال الفخر: هذا قول ابن عباس في رواية عطاء. ثمّ قال: واعترضوا على هذين القولين، بأن هذه السورة مكية، وهاتان الواقعتان مدنيتان، ثمّ ردّه بأنّ الواقعتين مدنيتان، أمّا رؤيتهما في المنام فلا يُبعد حصولهما في مكّة[٦].

وعن ابن عباس: رأى رسول الله ﷺ في المنام أن ولد مَروان يتداولون مِنْبرَه[٧].

وعن العياشي، عن الباقر عليه السلام: أنه سُئل عن هذه الرُؤيا. فقال: «إنّ رسول الله ﷺ اُري أن رجالاً من بني تَيم وعَديّ على المنابر يرُدّون الناس عن الصراط القهقرى»[٨].

وفي رواية اُخرى عنه عليه السلام: «أنّ رسول الله ﷺ قد رأىٰ رجالاً من نارٍ على منابر من نار، يرُدّون الناس

---

١. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٥، والآية من سورة القمر: ٤٥/٥٤.
٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٥.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٦، تفسير أبي السعود ٥: ١٨٢.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٦.
٥. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٦، تفسير أبي السعود ٥: ١٨١، تفسير روح البيان ٥: ١٧٨.
٦. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٦، وفيه: حصولها في مكة.
٧. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٧.
٨. تفسير العياشي ٣: ٢٥٤٤/٥٨، تفسير الصافي ٣: ١٩٩.

على أعقابهم القَهْقرى، قال: ولسنا نسمّي أحداً»[١].

وفي رواية أُخرى: «إنّا لا نسمّي الرجال، ولكن رسول الله ﷺ رأى قوماً على مِنْبرَه يُضِلّون الناس بعده عن الصراط القَهْقرى»[٢].

وفي رواية عن النبيّ ﷺ قال: «رأيت الليلة صِبيان بني أُمية يَرقُون على مِنْبَري هذا، فقلت: يا ربّ معي؟ فقال: لا ولكن بعدك»[٣].

وعن (الكافي) عن أحدهما عليه‌السلام: «أصبح رسول الله ﷺ كئيباً حزيناً، فقال له علي عليه‌السلام: ما لي أراك يا رسول الله كئيباً حزيناً؟ فقال: وكيف لا أكون وقد رأيت في ليلتي هذه أنّ بني تَيم وبني عَديّ وبني أُمية يصعدون مِنبري هذا، يرُدّون الناس عن الاسلام القَهقرى. فقلت: يا ربّ في حياتي أو بعد موتي؟ فقال: بعد موتك»[٤].

وفي روايةٍ مضمرةٍ أنّه سُئِل عن هذه الآية فقال: «إنّ رسول الله ﷺ نام فرأى أنّ بني أُميّة يَصْعَدون المنابر، فكلما صَعِد منهم رجل رأى رسول الله ﷺ الذِلّة والمَسْكنة، فاستيقظ جَزوعاً من ذلك، فكان الذين رآهم اثني عشر رجلاً من بني أُميّة، فأتاه جَبْرَئيل بهذه الآية، ثمّ قال جَبْرَئيل: [إنّ بني أُمية] لا يَملِكون شيئاً إلّا مَلك أهل البيت [ضعفيه]»[٥].

وعن أمير المؤمنين عليه‌السلام ـ في حديث ـ قال: «أمّا معاوية وابنه سيليانها بعد عثمان، ثمّ يليها سبعة من ولد الحكم بن أبي العاص واحداً بعد واحد تكملة اثني عشر إمام ضلالة، وهم الذين رآهم رسول الله ﷺ على مِنْبرَه يَرُدّون الناس على أدبارهم القَهْقَرى، عشرة منهم من بني أُميّة، ورجلان أسّسا ذلك لهم، وعليهما[٦] أوزار هذه الأُمّة إلى يوم القيامة»[٧].

إلى غير ذلك من الروايات الخاصة المتوافقة على أنّ الرؤيا كانت نَزْو بني أُمية على مَنْبرَ النبي ﷺ، ﴿وَ﴾ ذكرنا ﴿ٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ لذلك، قيل: هي شجرة الزَّقّوم، وسمّيت ملعونةً لأنّها في أصل الجحيم، وهو أبعد الأمكنة من رحمة الله[٨]. أو لأنها طعام الكُفّار الملعونين، أو لأنّها مكروهة مبغوضة، كما يقال: طعام ملعون، أي ضارّ مكروه. قيل: انّ أبا جهل قال: إنّ صاحبكم يزعُم أنّ نار

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٥٤٠/٥٧، تفسير الصافي ٣: ١٩٩.
٢. تفسير العياشي٣: ٢٥٤١/٥٨، تفسير الصافي ٣: ٢٠٠.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٥٤٢/٥٨، تفسير الصافي ٣: ٢٠٠.
٤. الكافي ٨: ٥٤٣/٣٤٥، تفسير الصافي ٣: ٢٠٠.
٥. تفسير العياشي ٣: ٢٥٤٥/٥٩، تفسير الصافي ٣: ٢٠٠.
٦. زاد في الاحتجاج: مثل جميع.
٧. الاحتجاج: ١٥٥، تفسير الصافي ٣: ٢٠٠.
٨. تفسير روح البيان ٥: ١٧٨.

جهنم تُحرِق الحجر حيث قال: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَالحِجَارَةُ﴾[١] ثمّ يقول: إنّ في النار شجراً، والنار تأكُل الشجر، فكيف تولّد فيها الشجر؟[٢].

وقال ابن الزِّبعري: ما نعلم الزّقوم إلّا التمر والزُّبد، فتزقّموا منه، فأنزل الله ﴿إنا جعلناها فتنة للظّالمين﴾[٣].

وقيل: إنّ المراد بها أبو جهل أو [الحكم بن أبي] العاص[٤]. وقيل: إنّها شجرة اليهود[٥].

وعن ابن عباس: الشجرة الملعونة: بنو اُميّة[٦].

وعن الباقر عليه السلام ـ في رواية ـ قيل: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾؟ قال: «هم بنو اُميّة»[٧].

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان افتتان الناس بهما[٨]، بيّن أنه يخوّف الناس بالمعجزات والآيات بقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بالعذاب الدنيوي والآخروي ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ وعتواً عظيماً وتمادياً في الكفر والضلال.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً * قَالَ أَرَءَيْتَكَ هٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً * قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً[٦١ ـ ٦٤]

ثمّ لمّا كان سبب عتوّ المشركين ومعارضتهم النبي صلى الله عليه وآله وإيذائه الكِبر والحَسد، بيّن أنّ هاتين الرذيلتين أوّل ما عُصي الله به، وأقوى الأسباب للكفر في بدو الخلقة بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ﴾ تكبراً وتعجباً من أمره بالسجود له: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ يا رب، وأنا مخلوق من نار ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ﴾ وكان مبدأ خلقته ﴿طِيناً﴾ قيل: إن ﴿طِيناً﴾ منصوب بنزع الخافض، والمعنى لمن خلقته من طين[٩].

ثمّ لمّا رأى اللعين تبعيده وطرده من الرحمة وتقريب آدم وتكريمه ﴿قَالَ﴾ حسداً وعُدواناً لآدم:

---

١. البقرة: ٢/٢٤.
٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٧.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٧، والآية من سورة الصافات: ٣٧/٦٣.
٤. تفسير البيضاوي ١: ٥٧٥.
٥ و٦. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٧.
٧. تفسير العياشي ٣: ٢٥٣٧/٥٧، تفسير الصافي ٣: ١٩٩.
٨. كذا، ولعلّ المراد الرؤيا والشجرة الملعونة.
٩. تفسير أبي السعود ٥: ١٨٣.

يا رب ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ وأخبرني عن ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ﴾ وفضلته ﴿عَلَىَّ﴾ بأن أمرتني بالسجود له مع ملائكتك، لم كرّمته عليّ وشرّفته بالخلافة وأنا خير منه بعزّتك؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ حياً وأنظرتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾، وقيل: يعني إن أبقيتني على صفة الإغواء والضلالة[1] ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ ولأستأصلنَ ﴿ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ بالعذاب، أو لأستولينَ عليهم بالإغواء ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ منهم، وهم المخلصون الذين عصمتهم من اتّباع الشهوات والخطايا والزلات.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى تبعيداً وإهانة أو تهديداً له: ﴿ٱذْهَبْ﴾ يا ملعون وافعل ما شئت ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ على الضلالة والعصيان وأطاعك في الكفر والطغيان ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ يا إبليس ويا أتباع إبليس ﴿جَزَآؤُكُمْ﴾ على مخالفتي حال كونها ﴿جَزَآءً مَّوْفُوراً﴾ كاملاً تاماً ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ وحرّك إلى المعصية، أو استزلّ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ أن تستفزّه أو تزلّه من ذرية آدم وقدرت أن تهيجه لمخالفتي ﴿مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ ودعائك ووسوستك.

وقيل: إنّ المراد بصوته: الغِناء والمَزامير[2]. وقيل: الأصوات التي ليس فيها رضا الله. ﴿وَأَجْلِبْ﴾ وصِح، أو اجمع، أو استعن ﴿عَلَيْهِم﴾ وعلى إغوائهم ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ وفُرسانك ومُشاتك. وقيل: بجميع جُندك. وقيل: بجميع قُواك وغاية جُهدك[3].

عن ابن عباس: كلّ راكبٍ أو راجلٍ في معصية الله فهو من خيل إبليس وجنوده[4]. ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَالِ﴾ بترغيبهم إلى تحصيلها من الوجه المحرّم، أو إلى التصرّفات المحرّمة فيها، أو إلى جعل البَحيرة والسائبة وأخواتهما، أو إلى أن يجعلوا فيها نصيباً لغير الله ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْأَوْلَادِ﴾ بتهييجهم إلى الزنا، أو تسميتهم بعبد اللات، أو عبد العُزّى، أو الى دعوة أولادهم إلى اليهودية أو النصرانية أو سائر الأديان الباطلة، أو إلى الاقدام في قتلهم، أو إلى ترغيبهم في الفُحش أو القتل والقتال والحِرَف الخبيثة.

وعن الصادق عليه السلام، أنّه قرئت عليه هذه الآية ثمّ قال: «إنّ الشيطان ليجيئ حتى يقعُد من المرأة كما يقعُد الرجل منها، ويُحدث كما يُحدث، وينكَح كما ينكَح» قيل: بأيّ شيء يُعرَف؟ قال: «بحُبّنا وبُغضنا، فمن أحبنا كان نُطفة العبد، ومن أبغضنا كان نُطفة الشيطان»[5].

وعنه عليه السلام: «إذا ذُكِر اسم الله تنحّى الشيطان، وإن فعل ولم يُسمّ أدخل ذكره، وكان العمل منهما

---

١. تفسير روح البيان ٥: ١٨٠، وفيه: والإضلال.
٢. تفسير روح البيان ٥: ١٨١.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٨١.
٤. تفسير الرازي ٢١: ٦، تفسير أبي السعود ٥: ١٨٤.
٥. الكافي ٥: ٢/٥٠٢، تفسير الصافي ٣: ٢٠٣.

[جميعاً] والنطفة واحدة»[١].

والقمي قال: ما كان من مالٍ حرام فهو شِرك الشيطان، فاذا اشترى به الإماء ونكحهنّ وولد له فهو شِرك الشيطان، كلّما[٢] تلد [يَلْزَمه] منه، ويكون مع الرجل إذا جامع فيكون الولد من نطفته ونُطفة الرجل[٣]. والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ يا إبليس بالمنافع الدنيوية، والأمن من الضرر بها، بأن يُنكَر المعاد والجنّة والنار، أو وَعِدْهُم بتسويف التوبة، أو بالأماني الباطلة، أو بشفاعة الأصنام عند الله، أو بالأنساب الشريفة، ثم زجر عن قبول وعده بقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ وكذباً مزيناً في قلوبهم متعقّباً بالندامة والخُسران.

إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً[٦٥]

ثمَ عيَن الله القليل الذي استثناه الشيطان من عموم إغوائه بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادى﴾ المخلصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾ من حيث الإغواء ﴿سُلْطَانٌ﴾ واستيلاء، لعدم تأثير دعوتك وتسويلك في قلوبهم، لأنّهم يتوكّلون على ربّهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ لهم ﴿وَكِيلاً﴾ وحافظاً من كيد الشيطان، ومدبَراً أُمورهم على وَفق الصلاح، ومسبباً لأسباب سعادتهم وموفّقاً لهم لجميع الخيرات.

وقيل: لمَا أخبر سبحانه باستيلاء الشيطان على من سوى المخلصين خاف المؤمنون منه خوفاً عظيماً، فأخبرهم عن كمال قدرته ولطفه بهم بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ والمعنى: أنّ الشيطان، وإن كان قادراً على الاضلال، ولكنّ الله أقدر وأرحم بعباده من الكلّ، فهو يدفع كيد الشيطان ويعصِمهم من إغوائه[٤] إذا توكّلوا عليه.

رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً * وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ كَفُوراً[٦٦ و ٦٧]

ثمّ استشهد سبحانه على لُطفه الخاص بعباده بلطفه العام لجميع الناس بقوله: ﴿رَبُّكُمُ﴾ هو القادر اللطيف ﴿ٱلَّذِى يُزْجِي﴾ ويسيّر أو يسوق نفعاً ﴿لَكُمُ﴾ ولطفاً بكم ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ والسُفن ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾

---

١. الكافي ٥: ٣/٥٠١، تفسير الصافي ٣: ٢٠٣.
٢. في تفسير القمي: كما.
٣. تفسير القمي ٢: ٢٢، تفسير الصافي ٣: ٢٠٤.
٤. تفسير الرازي ٢١: ٩.

بقدرته الكاملة **﴿لِتَبْتَغُوا﴾** وتطلبوا لأنفسكم بعضاً **﴿مِن فَضْلِهِ﴾** ونعِمه بالتجارة **﴿إِنَّهُ كَانَ﴾** من بدو خلقكم **﴿بِكُمْ رَحِيماً﴾** وعطوفاً حيث هيّأ لكم جميع ما تحتاجون إليه، وسهّل عليكم أسباب معيشتكم، وحَفَظكم من خَطَرات البحر ومهالكه.

ثمّ استدلّ على توحيده بقوله: **﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ﴾** وأصابكم **﴿ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾** وظهرت لكم أمارات الغرق من تلاطم البحر وتراكم الأمواج من كلّ مكان و**﴿ضَلَّ﴾** وذهب من خواطركم **﴿مَن تَدْعُونَ﴾** وتلتجئون إليه في حوائجكم **﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾** تعالى وحده لارتكاز التوحيد وانحصار القدرة والتصرّف في عالم الوجود في الله الذي هو خالق جميع الموجودات في فطرة الانسان.

رُوي أن رجلاً قال للصادق عليه السلام: يا بن رسول الله، دلّني على الله، فقد أكثر عليّ المجادلون وحيّروني. فقال [له:] «يا عبدالله، هل ركبت سفينة قطّ؟» قال: بلى. قال: «فهل كُسِرت بك حيث لا سفينة تُنجيك ولا سِباحة تُغنيك؟» قال. بلى: قال: «فهل تعلّق قلبك هناك أنّ شيئاً من الأشياء قادرٌ على أن يُخلّصك من وَرْطَتك؟» قال: بلى. قال عليه السلام: «فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حين لا مُنجي»[1].

﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ﴾ من الغرق وأوصلكم **﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾** والساحل سالمين[2] **﴿أَعْرَضْتُمْ﴾** عنه تعالى وكفرتم تلك النِّعْمة وسائر نِعَمه باشراككم له في العبادة غيره **﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ﴾** بجنسه وطبعه **﴿كَفُوراً﴾** لنِعَم ربّه، ومبالغاً في مقابلتها بالعِصيان، وإنّما يصير شاكراً بتوفيق الله وهدايته.

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً * أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً[٦٨ و ٦٩]

ثمّ هدّدهم على الكفران بقوله: **﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾** من أن يهلِكَكم الله بسبب **﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾** وقطعته التي تحتكم، وحسبتم أنّها المأمن لكم مثل قارون **﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾** في البرّ **﴿عَلَيْكُمْ﴾** من فوقكم ريحاً **﴿حَاصِباً﴾** مرامياً بالأحجار الصغار، فيكون أشدّ من الغرق، كما أرسل على قوم لوط **﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا﴾** أحداً يكون **﴿لَكُمْ وَكِيلاً﴾** وحافظاً ومُنجياً منه.

وحاصل المراد كما تحتاجون إليه تعالى في أن يَحفَظكم من الغرق وأنتم في البحر، كذلك تحتاجون إليه في أن يَحْفَظكم من الهلاك وأنتم في البرّ، إذ كما أنّه قادرٌ على أن يُغرِقكم في الماء

---

١. التوحيد: ٥/٢٣١، وفيه: حيث لا منجي، تفسير الصافي ١: ٦٨.

٢. في النسخة: سالماً.

قادرٌ على أن يهلِككم من جانب التحت، بأن يغيّبكم في التراب، أو من جانب الفوق بأن يُمطر عليكم الحجارة.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ بعد خروجكم ونجاتكم من البحر من ﴿أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ بسبب إيجاد الحوائج المهمّة التي لا يمكنكم صرف النظر عنها ﴿تَارَةً﴾ ومرّة ﴿أُخْرَىٰ﴾ بعد المرّة الأولى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ وأنتم في البحر ﴿قَاصِفاً﴾ وشديداً ﴿مِنَ ٱلرِّيحِ﴾ فيكسِر فُلْككم ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ في البحر جزاءً ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بالله وبنعمة إنجائه الأول، وأشركتم به غيره في العبادة ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ﴾ بسبب إغراقكم، ولا تألفوا ﴿عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ وحامياً يتبعنا بمطالبة العلّة والسبب.

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً[٧٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد المِنّة بتسهيل سير الانسان في البحر، وحِفظه من المهالك، وكفرانهم تلك النعمة، بالغ في إظهار مِنّته عليهم بعد إهانة عدوهم إبليس بإكرامهم وتفضيلهم بالنِّعم بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وأعلينا شأنهم كرامة وتعلية شأن شاملة لجميع أفرادهم برّهم وفاجرهم، حيث خصصناهم بأحسن الصُّور، وأشرف الأرواح، واعتدال القامة، والأخذ باليدين، والأكل بالأصابع، وزينة اللحى والذوائب، وقابلية الكتابة، والتكلّم باللسان، وتعلّم الصنائع والحِرف والعلوم، ووجدان العقل المُدرِك للكليات، والمميّز بين الخير والشرّ، وملاحظة عواقب الأمور، وغير ذلك من الخصائص.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ﴾ على الحيوانات الحمولة ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ على السّفن والزوارق ﴿وَرَزَقْنَاهُم﴾ وأطعمناهم ﴿مِنَ﴾ أنواع النِّعم ﴿ٱلطَّيِّبَاتِ﴾ والمُستلذّات ممّا يُوجد بصُنعهم وبغير صُنعهم ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ بالمعارف الالهية والأخلاق النفسانية ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ في عالم الوجود، وهم ما عدا الملائكة، كما عن ابن عبّاس[١]. أو ماعدا العقول المجرّدة والأنوار الاسفهبدية[٢]، أو ما عدا آدم وحواء ﴿تَفْضِيلاً﴾ عظيماً ظاهراً.

عن الصادق عليه السلام: «يقول فضلّنا بني آدم على سائر الخلق ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يقول: على الرَّطب واليابس ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾ يقول: من طيّبات الثّمار كلّها ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ يقول: ما من دابةٍ ولا طائرٍ إلّا وهي تأكُل وتشرب بفمها، لا ترفع بيدها إلى فيها طعاماً ولا شراباً، إلّا ابن آدم

---

١. تفسير الرازي ٢١: ١٦.

٢. الاسفهبد: معرب كلمة (اسپهبد) فارسية، لها معانٍ عدة، ولعلّ المراد هنا النفس الناطقة، أو القوة المتكلمة في الإنسان، كما عرّفها الفلاسفة الاشراقيون من الفرس. راجع: لغت نامة دهخدا ٦: ٢٠٨٣ و ٢٣٣١.

فانّه يرفع إلى فيه بيده طعامه»[١].

عن الباقر عليه السلام: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾ قال: «خُلِق كلّ شيءٍ منكبّاً غير الانسان، فانّه خُلِق منتصباً»[٢].

وقيل: إنّ المراد ببني آدم خصوص المؤمنين[٣].

القمي عنه عليه السلام[٤]: «أنّ الله لا يُكرِم روح الكافر، ولكن الله أكرم[٥] أرواح المؤمنين» إلى أن قال: «والرزق الطيب: هو العلم»[٦].

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً[٧١]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان كرامة الإنسان في الدنيا ردعاً لهم من الشرك، بيّن درجاتهم في الآخرة تهديداً لهم على العصيان بقوله: ﴿يَوْمَ﴾ والتقدير: اذكُروا يوم القيامة فانّه يوم ﴿نَدْعُوا﴾ فيه ﴿كُلَّ أُنَاسٍ﴾ وأمّة وأهل عصر من بني آدم الذين أكرمناهم وفضّلناهم في الدنيا ونَضُمّهم في الدعوة ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ ومقتداهم وخليفته. وقيل: يعني ندعوهم باسم إمامهم[٧]. فيقال: يا أمّة إبراهيم، ويا أمّة موسى، ويا أمّة عيسى، ويا أمّة محمّد، ويا شيعة عليّ والمعصومين من ذُرّيته.

عن الصادق عليه السلام، قال: «بامامهم الذي بين أظهرهم، وهو قائم أهل زمانه»[٨].

وعن الباقر عليه السلام في هذه الآية، قال: «يجيء رسول الله صلى الله عليه وآله في قومه[٩]، وعليّ عليه السلام في قومه، والحسن عليه السلام في قومه، والحسين عليه السلام في قومه، وكلّ من مات بين أظهر[١٠] قومٍ جاءوا معه»[١١].

وعنه عليه السلام: «لمّا نزلت هذه الآية قال المسلمون: يا رسول الله، ألست إمام [الناس] كلهم أجمعين؟ فقال: أنا رسول الله إلى الناس أجمعين، ولكن سيكون بعدي أئمة على الناس[١٢] من أهل بيتي يقومون في الناس فيُكذَّبون ويَظْلِمهم أئمة الكفر والضلال وأشياعهم، فمن والاهم واتّبعهم

---

١. أمالي الطوسي: ١٠٧٢/٤٨٩، عن زيد بن علي، عن أبيه عليه السلام، تفسير الصافي ٣: ٢٠٥.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٥٥٧/٦٣، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦.
٣. تفسير روح البيان ٥: ١٨٥.
٤. أي عن الباقر عليه السلام.
٥. في المصدر: ولكن يكرم.
٦. تفسير القمي ٢: ٢٢، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦.
٧. مجمع البيان ٦: ٦٦٣.
٨. الكافي ١: ٣/٤٥١، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦.
٩. في تفسير القمي: في فرقة، وكذا ما بعدها.
١٠. في تفسير القمي: ظهراني.
١١. تفسير القمي ٢: ٢٣، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦.
١٢. زاد في تفسير العياشي والكافي: من الله.

وصدّقهم فهو مني ومعي وسيلقاني، ألا ومن ظلمهم وكذّبهم فليس منّي ولا معي وأنا منه بريئ»[١].

وعن الحسين عليه السلام، أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: «إمام دعا إلى الهدى فأجابوه إليه، وإمام دعا إلى ضلالة فأجابوه إليها، هؤلاء في الجنّة، وهؤلاء في النار، وهو قوله: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «سيُدعى كلّ أُناس بإمامهم، أصحاب الشمس بالشمس، وأصحاب القمر بالقمر، وأصحاب النار بالنار، وأصحاب الحِجارة بالحِجارة»[٣].

وعنه عليه السلام: «أنتم والله على دين الله» ثمّ تلا هذه الآية، ثمّ قال: «عليّ إمامنا، ورسول الله إمامنا، وكم من إمام يجيئ يوم القيامة يلعن أصحابه ويلعنونه»[٤].

وعن (المجمع) عنه عليه السلام: «ألا تَحْمَدون الله، إذا كان يوم القيامة يُدعى[٥] كلّ قومٍ إلى من يتولّونه، وفَزعنا[٦] إلى رسول الله، وفَزِعتم إلينا، فإلى أين ترون أن يذهب بكم؟ إلى الجنّة وربّ الكعبة» قالها ثلاثاً[٧].

وقيل: إنّ المراد بالإمام الكتاب، فيُدعى: يا أهل التوراة، ويا أهل الانجيل، ويا أهل القرآن[٨].

وقيل: إنّ المراد بالامام هو الدِّين، فيقال يا يهود، يا نصارى، يا أهل الاسلام[٩].

وقيل: إنّ الامام جمع أُمّ، كخِفاف جمع خُفّ، فيقال: يا بن فلانة، إجلالاً لبعض الناس كعيسى والحسنين، وستراً على أولاد الزنا[١٠].

عن ابن عباس وعائشة: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأُمهاتهم ستراً منه على عباده»[١١].

وعلى أي تقدير ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ وأعطي ﴿كِتَابَهُ﴾ وصحيفة أعماله من السُّعداء والصُّلحاء ﴿بِيَمِينِهِ﴾ تشريفاً وتبشيراً له ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ السعداء ﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ مسرورين بما فيه من الحسنات ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ ولا يُنقَصون من أجور أعمالهم المكتوبة فيه ﴿فَتِيلاً﴾ وقدراً قليلاً.

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٥٦٤/٦٥، الكافي ١: ١/١٦٨، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦.
٢. أمالي الصدوق: ٢٣٩/٢١٧، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦، والآية من سورة الشورى: ٧/٤٢.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٥٦١/٦٤، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦.
٤. تفسير العياشي ٣: ٢٥٦٣/٦٤، تفسير الصافي ٣: ٢٠٧.
٥. في المصدر: فدعا.
٦. في المصدر: ودعانا.
٧. مجمع البيان ٦: ٦٦٣، تفسير الصافي ٣: ٢٠٧.
٨. تفسير الرازي ٢١: ١٧، تفسير روح البيان ٥: ١٨٧.
٩. تفسير روح البيان ٥: ١٨٧.
١٠. تفسير أبي السعود ٥: ١٨٧، تفسير روح البيان ٥: ١٨٧.
١١. تفسير روح البيان ٥: ١٨٧.

عن ابن عباس الفتيل: هو الوسخ الذي يظهر بفتل الانسان إبهامه بسبابته[١].

قيل: إنّما خصّ أصحاب اليمين بالقراءة؛ لأنّ أصحاب الشمال إذا أطّلعوا على ما في كتابهم أخذهم الحياء والخجل والعجز عن إقامة حروف الكتاب، أو يستولى الخوف والوحشة على قلوبهم، ويثقّل لسانهم فيعجِزوا عن القراءة، وأمّا أصحاب اليمين فهم يقرأون كتابهم على أحسن الوجوه، ثمّ لا يكتفون بقراءتهم وحدهم، بل يقولون لأهل المحشر: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[٢].

وَمَن كَانَ فِي هٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً[٧٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان نعمته العظيمة على الإنسان في الدنيا وإحسانه إليه[٣] في الآخرة، هدّد الكافرين لنعمه بقوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هٰذِهِ﴾ النعم الجسيمة الدنيوية، أو في هذه الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ القلب عن معرفة منعمه ورؤية نعمه عليه، أو بطريق تقربّه إليه ﴿فَهُوَ فِي﴾ أمر ﴿ٱلآخِرَةِ﴾ ومعرفة أحوالها وطريق السلامة فيها، أولى بأن يكون ﴿أَعْمَىٰ﴾ القلب وفاقد البصيرة.

عن عكرمة، قال: جاء نفرٌ من أهل اليمن إلى ابن عباس، فسأله رجلٌ عن هذه الآية، فقال: اقرأ ما قبلها، فقرأ ﴿رَبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ إلى قوله: ﴿تَفْضِيلاً﴾[٤] قال ابن عباس: من كان في هذه النِّعم التي قد رأى وعاين أعمى، فهو في أمر الآخرة التي لم يَرَ ولم يعاين أعمى[٥]. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾.

وفي نقل آخر عنه قال: من كان في الدنيا أعمى عمّا يرى من قدرة الله في خلق السماوات والأرض، والبحار والجبال، والناس والدوابّ، فهو عن أمر الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً، وأبعد عن تحصيل العلم به[٦].

وقيل: يعني من كان في الدنيا ضالاًكافراً، فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً، لأنّه في الدنيا يهتدي إلى التخلّص من أنواع الآفات، وفي الآخرة لا يهتدي إلى ذلك، وفي الدنيا تُقبَل توبته، وفي الآخرة لا تُقبَل[٧].

وقيل: يعني من كان في هذه الدنيا أعمى عن معرفة الله، فهو في الآخرة أعمى عن طريق الجنّة[٨].

وقيل: يعني من كان في هذه الدنيا منهمكاً في الشهوات، ومنغمراً في ظُلمات الجهل، فهو في الآخرة أعمى ليس معه شيءٌ من أنوار معرفة الله، فيكون منغمراً في ظُلمات شديدة وحسرة

---

١. تفسير الرازي ٢١: ١٨.

٢. تفسير الرازي ٢١: ١٨، والآية من سورة الحاقة: ١٩/٦٩.

٣. في النسخة: إليهم.

٤. الإسراء: ١٧/٦٦-٧٠.

٥. تفسير الرازي ٢١: ١٨.

٦ و٧. تفسير الرازي ٢١: ١٩.

٨. تفسير الرازي ٢١: ١٩.

عظيمة.

وقيل: يعني من كان في هذه الدنيا أعمى القلب، حُشِر يوم القيامة أعمى العين والبصر، فيقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً﴾؟[١]

وعن الباقر عليه السلام: «من لم يدلّه خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ودوران الشمس والقمر والآيات العجيبات على أنّ وراء ذلك أمراً أعظم منه، فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً»[٢].

وعن الرضا عليه السلام: «إياك وقول الجُهّال [من] أهل العمى والضلال الذين يزعُمون أنّ الله جلّ وتقدّس موجودٌ في الآخرة للحساب والثواب والعقاب، وليس بموجودٍ في الدنيا للطاعة والرجاء، ولو كان في الوجود لله عزّ وجلّ نقص واهتضام لم يوجد في الآخرة أبداً، ولكن القوم تاهوا وعَمُوا وصَمّوا عن الحقّ من حيث لا يعلمون، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يعني أعمى عن الحقائق الموجودة»[٣].

وعن (الخصال) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أشدّ العمى من عمي عن فضلنا وناصبنا العداوة بلا ذنب سبق إليه منّا، إلّا أن دعوناه إلى الحقّ، ودعاه من سوانا إلى الفتنة في الدنيا فأتاها، ونصب البراءة منّا والعداوة [لنا]»[٤].

وعن الصادق عليه السلام، أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «ذلك الذي يسوّف نفسه الحجّ - يعني حجّة الاسلام - حتى يأتيه الموت»[٥].

وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً [٧٣و ٧٤]

ثمّ لمّا كان من لوازم عمى القلب الاغترار بوساوس أهل الضلال، نهى المؤمنين عنه بتهديد نبيه المعصوم من كلّ زلل عليه بقوله: ﴿وَإِن كَادُوا﴾ والمعنى وإن الشأن أنّ المشركين قرُبوا ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ويَصْرِفونك بخدعهم ومكرهم ﴿عَنِ﴾ تبليغ ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من الأحكام والوعد والوعيد ﴿لِتَفْتَرِيَ﴾ وتختلق ﴿عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ ممّا يُلقونه إليك ﴿وَإِذاً﴾ والله ﴿لَاتَّخَذُوكَ﴾ واختاروك لأنفسهم

---

١. تفسير الرازي ٢١: ١٩، والآية من سورة طه: ١٢٥/٢٠.
٢. التوحيد: ٦/٤٥٥، تفسير الصافي ٣: ٢٠٧.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٧٥، التوحيد: ١/٤٣٨، تفسير الصافي ٣: ٢٠٧.
٤. الخصال: ١٠/٦٣٣، تفسير الصافي ٣: ٢٠٧.
٥. تفسير القمي ٢: ٢٤، تفسير العياشي ٣: ٢٥٧٠/٦٦، الكافي ٤: ٢/٢٦٨، تفسير الصافي ٣: ٢٠٧.

﴿خَلِيلاً﴾ وصديقاً مع أنَك تكون لنا حبيباً ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ على الحقّ وعصمناك من الزلل بالمَلَكة القُدسية وتأييدك برُوح القُدُس ﴿لَقَدْ كِدتَّ﴾ وقَرُبت من أنّه ﴿تَرْكَنُ﴾ وتميل ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وتعزِم على موافقة مرادهم بمقتضى الطبيعة البشرية ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾ وركوناً يسيراً لقوّة مقتضياته من كثرة خدعهم وشدّة احتيالهم.

عن ابن عبّاس: نزلت في وفد ثقيف، أتو رسول الله ﷺ فسألوه شَطَطاً، وقالوا: متّعنا باللات سنة، وحرّم وادينا كما حرّمت مكة شجرها وطيرها ووحشها، فأبى ذلك رسول الله ﷺ ولم يُجِبْهم، فكرّروا ذلك الالتماس، وقالوا: إنا نُحبّ أن تعرف العرب فضلنا عليهم، فإن كرهت ما نقول وخشيت أن تقول العرب: أعطيتهم ما لم تُعطنا. فقل: الله أمرني بذلك، فأمسك رسول الله ﷺ عنهم، وداخلهم الطمع، فصاح عليهم عمر، وقال: أما ترون أنّ رسول الله ﷺ [قد] أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه، فأنزل الله هذه الآية[1].

ورُوي أنّهم جاءوا بكتابهم فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب [من] محمّد رسول الله إلى ثقيف لا يُعشَرون ولا يُحشَرون. فقالوا: ولا يُجْبَون. فسكت رسول الله ﷺ، ثمّ قالوا للكاتب: اكتُب ولا يُجْبَون، والكاتب ينظُر إلى رسول الله ﷺ، فقام عمر وسلّ سيفه، وقال: أسعرتم قلب نبينا أسعر الله قلوبكم ناراً، فقالوا: لسنا نُكلّمك، إنّما نكلّم محمّداً، فنزلت[2].

ورُوي أنّ قريشاً قالوا له: اجعل آية العذاب آية رحمة[3]. حتى نؤمن بك، فنزلت[4].

وقيل: إنّ كفّار مكّة أخذوا رسول الله ﷺ ليلةً بمكة قبل الهجرة، فقالوا: كُف يا محمّد عن ذمّ آلهتنا وشَتْمها، فلو كان ذلك حقّاً كان فلان وفلان بهذا الأمر أحقّ منك. فوقع في قلب رسول الله ﷺ أنْ يَكُفَ عن شَتْم آلهتهم، فنزلت[5].

وعن سعيد بن جُبير أنّه ﷺ كان يستلم الحجر، فمنعه قريش وقالوا: لا نَدَعُك حتى تستلم آلهتنا، فوقع في نفسه أن يفعل ذلك مع كَراهية، فنزلت[6].

عن الصادق عليه السلام، أنّه سُئِل عن هذه الآية فقال: «لمّا كان يوم الفتح، أخرج رسول الله ﷺ أصناماً من المسجد، وكان منها صنم على المَروة، وطلبت قريش أن يترُكه، وكان ﷺ مستحيياً، فهمّ بتركه، ثمّ أمر بكسره، فنزلت»[7].

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٠.

٣. في تفسير الرازي: اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة.

٤ -٦. تفسير الرازي ٢١: ٢٠.

٧. تفسير العياشي ٣: ٦٨/٢٥٧٤، تفسير الصافي ٣: ٢٠٨.

عن الصادق عليه السلام: «ما عاتب الله نبيّه فهو يعني به من قد مضى في القرآن، مثل قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ إلى أن قال: عنى بذلك غيره»[١].

وعن الرضا عليه السلام، في حديث المأمون في عصمة الأنبياء حيث سأله عن قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[٢] قال: «هذا ممّا نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة، خاطب الله بذلك نبيه صلى الله عليه وآله والمراد به اُمّته، وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٣] وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ الآية»[٤].

إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَاةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً * وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً[٧٥ـ٧٧]

ثمّ هدّد على الركون إلى الكفار بقوله: ﴿إِذاً﴾ والله ﴿لَأَذَقْنَاكَ﴾ عذاباً يكون ﴿ضِعْفَ﴾ العذاب الذي يكون لغيرك ومثليه بهذا العمل في ﴿ٱلْحَيَاةِ﴾ الدنيا ﴿وَضِعْفَ﴾ ذلك في ﴿ٱلْمَمَاتِ﴾ لكونك أعرف الخلق بعظمة الله وحقوقه ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ ومدافعاً عنك.

روى الثعلبي: أنه لمّا نزلت الآية قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «اللهمّ لا تَكِلني إلى نفسي ولو طَرفة عين»[٥].

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر حِيَل المشركين في افتتان النبيّ صلى الله عليه وآله عن تبليغ الوحي والاضرار به في دينه، ذكر همّهم باخراج النبيّ صلى الله عليه وآله من مكة والاضرار به في دنياه بقوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ وليُزعجونك ولينزعونك سريعاً ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي وطنك، وهي مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾.

قيل: إنّ أهل مكة شاوروا في إخراج النبيّ صلى الله عليه وآله منها، فاتّفق رأيهم على أن يُفرطوا في إظهار عداوته وإيذائه حتى يضطرّ إلى الخروج، فنزلت[٦].

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ﴾ ولا يَمْكُثون ولا يحيون ﴿خِلَافَكَ﴾ وبعد خروجك في الدنيا ﴿إِلَّا﴾ زماناً ﴿قَلِيلاً﴾ ومدّةً يسيرةً، وقد كان كذلك، فانّ الذين توافقوا على إخراجه من مكة واضطرّوه إلى المهاجرة إلى المدينة، اُهلكوا ببدر بعد مدة قليلة، وذلك الاهلاك كان ﴿سُنَّةَ﴾ الله ودأبه على قانون الحكمة البالغة لأجل ﴿مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُسُلِنَا﴾ مع أعدائهم الذين أخرجوهم من بين أظهرهم ﴿وَلَا تَجِدُ﴾ يا محمّد، في شأنك وشأن مخرجيك من أعدائك ﴿لِسُنَّتِنَا﴾ وعادتنا القديمة من إهلاكهم ﴿تَحْوِيلاً﴾ وتغييراً.

---

١. تفسير العياشي ١: ٢٩/٨٤، الكافي ٢: ١٤/٤٦١، تفسير الصافي ٣: ٢٠٩.
٢. التوبة: ٤٣/٩.
٣. الزمر: ٦٥/٣٩.
٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٠٢، تفسير الصافي ٣: ٢٠٨.
٥ و٦. تفسير روح البيان ٥: ١٩٠.

أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً[٧٨]

ثمّ لمَا ذكر سبحانه منّه على نبيّه ﷺ بحفظه من كيد أعدائه وفتنتهم، ووعده باهلاك مخرجيه من مكة ونصرته عليهم، أمره بالاقبال إليه والقيام بوظائف العبوديّة التي أهمّها الصلاة بقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ﴾ وأدمها كما قيل ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ وزوالها عن خطّ نصف النهار إلى غسق الليل وظلمته الشديدة الحاصلة بعد زوال الحُمْرة المغربية.

عن جابر، قال: طَعِم عندي رسول الله ﷺ وأصحابه، ثمّ خرجوا حين زالت الشمس، فقال النبي ﷺ: «هذا حين دَلَكت الشمس»[١].

ورُوي عن النبي ﷺ أنّه قال: «أتاني جَبْرئيل لدُلوك الشمس، حين زالت الشمس، فصلى بي الظهر»[٢].

وعن الباقر عليه السلام، أنّه سُئِل عمّا فرض الله من الصلاة؟ فقال: «خمس صلوات في الليل والنهار» فقيل: هل سمّاهنّ وبينهنّ في كتابه؟ فقال: «نعم، قال الله تعالى لنبيه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ ودُلوكها زوالها، ففيما بين دُلوك الشمس إلى غَسق الليل أربع صلوات سمّاهن الله وبينهنّ ووقتهنّ، وغَسَق الليل: انتصافه، ثمّ قال: ﴿وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ فهذه الخامسة»[٣].

والعياشي عنهما عليهما السلام، في هذه الآية، قال: «جَمَعت الصلوات كلّهن، ودُلوك الشمس: زوالها، وغَسَق الليل: انتصافه» وقال: «إنّه ينادي منادٍ من السماء كلّ ليلة إذا انتصف [الليل]: من رَقَد عن صلاة العِشاء إلى هذه الساعة فلا نامت عيناه ﴿وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ﴾ قال: صلاة الصبح. وأمّا قوله: ﴿كَانَ مَشْهُوداً﴾ قال: تحضُره ملائكة الليل والنهار»[٤].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن أفضل المواقيت في صلاة الفجر، فقال: «مع طلوع الفجر، إنّ الله يقول: ﴿وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ يعني صلاة الفجر يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فاذا صلّى العبد الصبح مع طلوع الفجر أثبتت له مرّتين؛ أثبتتها ملائكة الليل وملائكة النهار»[٥].

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٢٥.   ٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٥.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٥٧٨/٧٠، الكافي ٣: ١/٢٧١، من لا يحضره الفقيه ١: ٦٠٠/١٢٤، التهذيب ٢: ٩٥٤/٢٤١، تفسير الصافي ٣: ٢١٠.   ٤. تفسير العياشي ٣: ٢٥٨٣/٧٢، تفسير الصافي ٣: ٢١٠.

٥. الكافي ٣: ٢/٢٨٣، تفسير الصافي ٣: ٢١٠.

وروى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ دُلوك الشمس غروبها»[١]. ورووه أيضاً عن ابن عباس وابن مسعود وابن جُبير[٢]، ورووا عن ابن عباس: أنّ غَسَق الليل: دخوله بظُلمته[٣].

أقول: على هذين القولين يكون المراد من الصلاة صلاة المغرب، أو هي مع العشاء، وقيل: إنّ تسمية صلاة الفجر بقرآن الفجر تدلّ على استحباب إكثار تلاوة القرآن فيها[٤].

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحمُوداً[٧٩]

ثمّ خصّ سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله بفريضة زائدة بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ وفي بعضٍ منه ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ بالقرآن وأترُك النوم مشتغلاً بصلاة الليل المصحوبة أو المقرونة ﴿بِهِ﴾ واعلم أنّ هذه الصلاة تكون فريضة ﴿نَافِلَةً﴾ وزائدة على الصلوات الخمس ﴿لَكَ﴾ خاصة لا يشاركك في وجوبها أحد من اُمّتك.

عن الصادق عليه السلام، أنّه سُئِل عن النوافل فقال: «فريضة» ففزِع السامعون، فقال: «إنّما أعني صلاة الليل على رسول الله صلى الله عليه وآله، إنّ الله يقول: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾» الخبر[٥].

ثمّ حثّ نبيه صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿عَسَىٰ﴾ ويُرجى ﴿أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ﴾ من قبرك ويقيمك أو يُعطيك ﴿مَقَاماً مَحمُوداً﴾ عند جميع الأولين والآخرين من الأنبياء وغيرهم، وهو مقام الشفاعة. وفي الدعاء المشهور: وابعثه المقام المحمود الذي وعدته[٦]، يَغْبِطه به الأولون والآخرون[٧].

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال في هذه الآية: «هو المقام الذي أشفع [فيه] لأُمّتي»[٨].

وعنه صلى الله عليه وآله قال: «إذا قُمتُ المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من اُمّتي، فيُشفّعني الله فيهم، والله لا تشفّعت فيمن آذى ذُرّيتي»[٩].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو قد قُمتُ المقام المحمود لشفعت في أبي وأُمّي[١٠] وأخٍ لي كان في الجاهلية»[١١].

وعن أحدهما عليهما السلام في هذه الآية، قال: «هي الشفاعة»[١٢].

وعنه عليه السلام، أنّه سُئِل عن شفاعة النبي صلى الله عليه وآله يوم القيامة، فقال: «يُلْجِم الناس يوم القيامة العَرَق،

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٥.
٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٧.
٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٧، تفسير أبي السعود ٥: ١٨٩.
٥. التهذيب ٢: ٩٥٩/٢٤٢، تفسير الصافي ٣: ٢١٠.
٦. زاد في مصباح المتهجد: مقاماً.
٧. مصباح المتهجد: ٤٤٦.
٨. روضة الواعظين: ٥٠٠، تفسير الصافي ٣: ٢١١، تفسير الرازي ٢١: ٣١.
٩. روضة الواعظين: ٢٧٣، تفسير الصافي ٣: ٢١١.
١٠. زاد في تفسيري القمي والصافي: وعمي.
١١. تفسير القمي ٢: ٢٥، تفسير الصافي ٣: ٢١١.
١٢. تفسير العياشي ٣: ٢٥٩٠/٧٨، تفسير الصافي ٣: ٢١١.

فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا، فيأتون آدم، فيقولون: [يا آدم] اشفع لنا عند ربك. فيقول: إنّ لي ذنباً وخطيئة، فعليكم بنوح فيأتون نوحاً فيردّهم إلى من يليه، ويردّهم كلّ نبي إلى من يليه حتى ينتهوا إلى عيسى، فيقول: عليكم بمحمد رسول الله ﷺ. فيعرضون أنفسهم عليه ويسألونه فيقول: أن انطلقوا، فينطلق بهم إلى باب الجنة، ويستقبل باب الرحمن ويخرّ ساجداً، فيمكُث ما شاء الله، فيقول الله: ارفع رأسك واشفع تُشفّع وسَلْ تُعْطَ، وذلك قوله تعالى: **﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحمُوداً﴾**»[1].

وبهذا المعنى روايات كثيرة، وادّعى بعض العامة إجماع المفسرين عليه، وادعَى الفخر الرازي اتّفاق الناس عليه[2].

وقيل: إنّه مقام القُرب من الله، عن حذيفة: يُجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ، فلا تتكلّم نفسٌ، فأوّل مدعوٍّ محمد ﷺ، فيقول: «لبيك وسعديك، والشرّ ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلّا إليك، تباركت وتعاليت سبحانك ربّ البيت». فهذا هو المراد من قوله: **﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ﴾** إلى آخره[3].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكُر أهل المحشر: «ثمّ يجتمعون في موطن آخر يكون فيه مقام محمّد، وهو المقام المحمود، فيُثني على الله بما لم يُثنِ عليه أحدٌ من قبله، ثمّ يُثني على كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، يبدأ بالصديقين والشهداء ثمّ الصالحين، فيَحْمَده أهل السماوات والأرض، فذلك قوله عزّ وجلّ: **﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ﴾** إلى آخره، فطوبى لمن كان له في ذلك اليوم[4] حظّ ونصيب، وويل لمن لم يكُن له في ذلك اليوم حظّ و [لا] نصيب»[5].

أقول: لا منافاة بين الروايات، فانّ مقام القُرب والمقام الذي يَحْمَده جميع الخلق هو مقام الشفاعة، كما يُشعِر به قوله: «طوبى لمن كان له» إلى آخره.

وَقُل رَبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِى مِن لَدُنكَ سُلْطَاناً نَصِيراً[٨٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد أمره باقامة الصلاة، أمره بالتوجّة والتوسّل إليه في حفظه عن التوجه إلى غيره وعن شرّ الأعداء بقوله: **﴿وَقُل﴾** حين إرادتك الدخول في الصلاة **﴿رَبِّ أَدْخِلْنِى﴾** فيها **﴿مُدْخَلَ**

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٥، تفسير الصافي ٣: ٢١١.
٢ و٣. تفسير الرازي ٢١: ٣٢.
٤. في التوحيد: المقام، وكذا التي بعدها.
٥. التوحيد: ٥/٢٦١، تفسير الصافي ٣: ٢١١.

﴿صِدْقٍ﴾ وإدخالاً حَسناً ممدوحاً ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ من الصلاة ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وإخراجاً حَسناً ممدوحاً ﴿وَٱجْعَل لِى﴾ في دعوتي إلى دينك وعبادتك ﴿مِن لَدُنكَ﴾ وبرحمتك ﴿سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ وبيّنةً قاهرةً تُغلبني بها على من خالفني.

وقيل: إنّه تعالى لمّا بشّره بالبعث للمقام المحمود، أمره بأن يسأل حُسن الحال عند دخوله في القبر وخروجه منه[١].

وقيل: إنّه لمّا أخبره بتصميم المشركين بإخراجه من مكة بقوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾[٢] أمره بالهجرة، وأن يسأله أن يجعل دخوله في المدينة وخروجه من مكة، أو دخوله في مكة بعد الهجرة والعود إليها بعد فتحها، وخروجه منها ورجوعه إلى المدينة، دخولاً وخروجاً مرضياً، ملقى بالكرامة، وآمناً من كلّ مكروهٍ[٣].

القمي: قال: نزلت يوم فتح مكة، لمّا أراد رسول الله ﷺ دخولها أنزل الله: ﴿قُل﴾ يا محمّد ﴿أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الآية[٤].

أقول: الأقوى نزولها قبل الهجرة، ولا يبعُد النزول ثانياً حين دخوله مكة وفتحها.

وقيل: إن المراد ربِّ ادخلني في القيام بمهمات أداء دينك وشريعتك، وأخرجني[٥] منها إخراجاً لا يبقىٰ عليَ منها تَبعة وبقيَة[٦].

وقيل: يعني ربّ أدخلني في بحار دلائل توحيدك وتنزيهك وتقديسك[٧]، ثمّ أخرجني من الاشتغال بالدليل إلى ضياء معرفتك.[٨]

أقول: لا يناسب هذا المعنى مقام خاتميته.

وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً[٨١]

ثمّ لمّا سأل الله النُّصرة على الأديان الباطلة، أمره سبحانه بالاعلان بدينه الحَق واضمحلال الأديان الباطلة، تبشيراً باستجابة دعائه بقوله: ﴿وَقُلْ﴾ يا محمّد، للناس وكافّة أهل الأديان الباطلة ﴿جَاءَ﴾ الدين ﴿ٱلحَقُّ﴾ وملّة التوحيد وشريعة الاسلام من جانب الله ﴿وَزَهَقَ﴾ واضمحلّ الدين ﴿ٱلبَاطِلُ﴾

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٣٣، تفسير أبي السعود ٥: ١٩٠.
٢. الإسراء: ٧٦/١٧.
٣. تفسير الرازي ٢١: ٣٢ و٣٣ تفسير أبي السعود ٥: ١٩٠.
٤. تفسير القمي ٢: ٢٦، تفسير الصافي ٣: ٢١٢.
٥. زاد في تفسير الرازي: منها بعد الفراغ.
٦. تفسير الرازي ٢١: ٣٣.
٧. في تفسير الرازي: وقدسك.
٨. تفسير الرازي ٢١: ٣٣.

ومذهب الشرك والبدع المخترعة بالأهواء الزائغة ﴿إِنَّ ٱلْبَاطِلَ﴾ كائناً ما كان ﴿كَانَ زَهُوقاً﴾ ومضمحلاً.

روى الفخر الرازي وغيره من العامة عن ابن مسعود: أنّ النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل ينكُتُ بمِخْصَرةٍ كانت بيده [في] عين واحدٍ واحدٍ ويقول: ﴿جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ﴾ فينكبّ لوجهه حتّى ألقى جميعها، وبقي صنم خُزاعة فوق الكعبة، وكان من صُفر، فقال: يا علي ارم به، فصَعِد فرمى به فكسره[١].

وعن الصادق عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه: «دخل رسول الله ﷺ مكة والأصنام حول الكعبة، وكانت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعنها[٢] بمِخصَرةٍ في يده ويقول: ﴿جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ وما يبدي وما يعيد، فجعلت تنكبّ لوجهها»[٣].

وعن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «إذا قام القائم ذهبت دولة الباطل»[٤].

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً[٨٢]

ثمّ لمّا أمر سبحانه نبيه ﷺ بتلاوة القرآن والتهجّد به، بيّن فضيلة القرآن وفوائده بقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ السور والآيات التي ﴿مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ من الأمراض الجسمانية والروحانية، كالشكّ والزّيغ والأخلاق الرذيلة ﴿وَ﴾ ما هو ﴿رَحْمَةٌ﴾ وهداية ورَشاد إلى العقائد الحقّة والأخلاق الفاضلة والأعمال المحمودة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به والمتمسّكين بما فيه والعاملين بأحكامه.

عن الصادق عليه السلام ـ في حديث ـ «إنما الشِّفاء في علم القرآن، لقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ لأهله لاشكّ فيه ولا مِرية، وأهله أئمة الهدى»[٥].

وعنه عليه السلام: «ما اشتكى أحدٌ من المؤمنين شِكاية[٦] قطّ وقال بإخلاص نيّة ومسح موضع العلّة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ إلّا عوفي من تلك العلّة أية علّة كانت، ومِصداق ذلك في الآية حيث يقول: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾»[٧].

وعنه عليه السلام: «لا بأس بالرُّقية والعُوذة والنُّشرة إذا كانت من القرآن، ومن لم يَشفِه القرآن فلا شفاه الله،

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٣٣، تفسير روح البيان ٥: ١٩٤، تفسير أبي السعود ٥: ١٩١.

٢. في أمالي الطوسي: يطفّها.

٣. أمالي الطوسي: ٦٨٣/٣٣٦، تفسير الصافي ٣: ٢١٢.

٤. الكافي ٨: ٤٣٢/٢٨٧، تفسير الصافي ٣: ٢١٢.

٥. تفسير العياشي ٣: ٢٥٩٦/٧٩، تفسير الصافي ٣: ٢١٣.

٦. في طب الأئمة عليهم السلام: شَكاة.

٧. طب الأئمة عليهم السلام: ٢٨، تفسير الصافي ٣: ٢١٣.

وهل شيء أبلغ من هذه الأشياء من القرآن؟! أليس الله يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾» الخبر[١].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالشرك والكفر به ﴿إِلَّا خَسَاراً﴾ وهلاكاً وكفراً باصرارهم على تكذيبه والطعن فيه.

وعن الباقر عليه السلام: «نزل جَبْرئيل عليه السلام على محمّد صلى الله عليه وآله [بهذه الآية] ولا يزيد الظالمين آل محمّد حقّهم إلاّ خَساراً»[٢].

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَئُوساً[٨٣]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ الظلم إنّما هو بكفران النعم بقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا﴾ النِّعم الدنيوية من الصحّة والمال والجاه ﴿عَلَى﴾ نوع ﴿ٱلْإِنسَانِ﴾ وبني آدم ﴿أَعْرَضَ﴾ وحوّل وجهه عن الحقّ، ولم يعتنِ بدعوة الرسول، ولم يقبل دين الله ﴿وَنَئَا﴾ وتباعد من الهدى ﴿بِجَانِبِهِ﴾ ونفسه، أو لوى عنه عِطفه وولّاه ظهره استكباراً وتعظّماً، وامتنع عن طاعة الله ورسوله حباً للدنيا وغفلةً عن العقبى ﴿وَإِذَا مَسَّهُ﴾ وأصابه ﴿ٱلشَّرُّ﴾ من المرض والفقر وسائر الشدائد ﴿كَانَ يَئُوساً﴾ ومنقطع الرجاء من رحمة الله جهلاً بسعة كرمه وفضله، فلا يذكُر الله ولا يُقبِل إليه، ولا يقبل دعوة الرسول، ولا يُطيعه في حال من الأحوال، وهذا غاية من هو في الضلال، ودونه من إذا مسّه الشّر فذو دعاء عريض.

وفي إسناد الإنعام إلى نفسه دون الشرّ إيذانٌ بأنّ النعمة من فضله، دون الشرّ فانّه بذنوب الخلق، أو بأنّ الأول هو المقصود بالذات، والثاني مقصود بالتّبع.

عن ابن عباس: أنّ المقصود بالانسان هنا الوليد بن المُغيرة[٣].

قال الفخر الرازي: هذا بعيدٌ، بل المراد أنّ نوع الانسان [من] شأنه ذلك[٤].

أقول: فيه أنّ المراد أنّ مورده خاص، وإن كان موضوع الحكم عاماً، كما في قوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[٥].

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً * وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً[٨٤ و ٨٥]

---

١. طب الأئمة عليهم السلام: ٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢١٣.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٥٩٧/٧٩، تفسير الصافي ٣: ٢١٣.
٣ و ٤. تفسير الرازي ٢١: ٣٥.
٥. الحجرات: ٦/٤٩.

ثمّ بيّن سبحانه أن اختلاف النفوس ناشيء عن اختلاف طيناتهم وقلوبهم المستلزمة لاختلاف نياتهم وقصورهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿كُلٌّ﴾ مِن المؤمن والكافر ﴿يَعْمَلُ﴾ عمله ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ وسجيته وجُبْلته[١] التي اختلافها يلازم اختلاف النية والطريقة، فاستعمل اللازم في الملزوم.

عن الصادق عليه السلام: «النية أفضل من العمل، ألا وإن النيّة هي العمل، ثمّ تلا: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ يعني على نيّته»[٢].

وعنه عليه السلام: «إنّما خُلّد أهل النار في النار، لأنّ نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو خُلّدوا فيها أن يَعْصوا الله أبداً، وإنّما خُلّد أهل الجنّة في الجنّة لأنّ نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو بَقُوا فيها أن يُطيعوا الله أبداً، فبالنيّات خُلّد هؤلاء وهؤلاء» ثمّ تلا: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[٣].

وعنه عليه السلام أنه سُئل عن الصلاة في البِيَع والكَنائس، فقال: «صَلّ فيها» قلت: أُصلّي فيها وإن كانوا يصلّون فيها؟ قال: «نعم، أما تقرأ ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾»[٤].

ثمّ بشّر سبحانه المهتدين وهدّد الضالين بقوله: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ وأصوب طريقاً، وبمن هو أضلّ سبيلاً وأسوء منهجاً، فيجازي كلاً بطريقته وسيرته، ثمّ لمّا كان اختلاف الطينات ملازماً لاختلاف الأرواح المتعلّقة بها، حكى سبحانه سؤال الناس عن الروح بقوله: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ﴾ جوهرة شريفة قدسية مخلوقة ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ وقدرته في عالم الملكوت، لا مادّة لها ولامدّة، بل هي من الابداعيات الموجودة بصرف الإرادة المعبرة عنها بلفظ (كُن) كسائر المجرّدات البسيطة، ويُعبّر عن عالمها بعالم الأمر والبقاء، كما يُعبّر عن عالم الماديات والأجسام بعالم الخلق والفناء، وعليه يكون الجواب بيناً ومفصلاً لا إبهام فيه.

في بيان الروح وتجرده

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن الروح، فقال: «هي من قُدرته من المَلَكُوت»[٥].

وعنه عليه السلام: «مَثَل روح المؤمن وبدنه كجوهرة في صندوق، إذا أخرجت الجوهرة منه طُرح الصندوق ولم يُعبأ به». وقال: «إنّ الأرواح لا تُمازج البدن ولا تُداخله، إنّما هي كالكُلل للبدن محيطة به»[٦].

أقول: أي متعلّقة به تعلّق التدبير والتصرّف.

---

١. الجُبْلَة: الخِلقة والطبيعة.
٢. الكافي ٢: ٤/١٣، تفسير الصافي ٣: ٢١٤.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٦٠٠/٨٠، الكافي ٢: ٥/٦٩، تفسير الصافي ٣: ٢١٤.
٤. تفسير العياشي ٣: ٢٥٩٩/٨٠، من لا يحضره الفقيه ١: ٧٣١/١٥٧، التهذيب ٢: ٨٧٦/٢٢٢، تفسير الصافي ٣: ٢١٤.
٥. تفسير العياشي ٢: ٢٣٢٤/٤٢٨، تفسير الصافي ٣: ١٠٨.
٦. بصائر الدرجات: ١٣/٤٨٣، تفسير الصافي ٣: ١٠٨.

[في (الاحتجاج) عن الصادق عليه السلام: «الروح لا يوصف بثِقل ولا خِفّة، وهي جسم رقيق ألبس قالباً كثيفاً] فهي بمنزلة الريح في الزِّق[١]، فاذا نفخت فيه امتلأ الزِّقّ منها، فلا يزيد في وزن الزِّق وُلُوجها، ولا يُنقصه خُروجها، وكذلك الروح ليس لها ثِقل ولا وزن».

قيل: افيتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باقٍ؟ قال: «بل هو باقٍ إلى يوم يُنفَخُ في الصُّور، فعند ذلك تَبطُل الأشياء وتَفنى، فلا حسّ ولا محسوس، ثمّ اُعيدت الأشياء كما بدأها مدبّرها، وذلك أربعمائة سنة يسبُت[٢] فيها الخَلْق، وذلك بين النَّفْختين».

وقال: «إنّ الروح مقيمةٌ في مكانها؛ روح المؤمن[٣] في ضياء وفُسحة، وروح المُسيء في ضيق وظُلمة، والبدن يصير تُراباً»[٤].

وعن كُميل بن زياد، قال: سألت مولانا أمير المؤمنين علياً عليه السلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، اُريد أن تعرّفني نفسي. قال: «ياكميل، وأيّ الأنفس تُريد أن اُعرّفك؟» قلت: يا مولاي، هل هي إلّا نفس واحدة؟ قال: «يا كُميل، إنّما هي أربعة: النامية النباتية، والحسية الحيوانية، والناطقة القدسية، والكلية الالهية ـ إلى أن قال:ـ والناطقة القدسية لها خمس قوى: فِكر، وذِكر، وعِلم، وحِلم، ونَباهة، وليس لها انبعاث، وهي أشبه الأشياء بالنفوس الفلكية، ولها خاصيتان: النزاهة والحكمة.

والكلية الالهية لها خمس قوى: بقاء في فَناء، ونعيم في شقاء، وعزّ في ذلّ، وفَقْر في غَناء، وصبر في بلاء، ولها خاصيتان: الرضا، والتسليم، وهذه هي التي مبدؤها من الله، وإليه تعود، قال الله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[٥] وقال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[٦] والعقل [في] وسط الكلّ»[٧].

وعن أحدهما عليهما السلام في هذه الآية، سئل ما الروح؟ قال: «التي في الدوابّ والناس»؟ قيل: وما هي؟ قال: «هي من الملكوت والقدرة»[٨]

وقيل: إنّ المراد أن الروح وحقيقته من الأسرار الخفية التي استأثر الله بعلمه لا يكاد يحوم حولها عقول البشر[٩].

﴿وَمَا أُوتِيتُم﴾ أيها الناس ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ في جنب علم الله، وإن كان كثيراً بالنسبة إليكم،

---

١. الزِّقّ: وعاء من جلد يُجَزُّ شعرهُ ولا يُنتف.
٢. سَبَت: نام واستراح وسكن.
٣. في المصدر: المحسن.
٤. الاحتجاج: ٣٥٠، تفسير الصافي ٣: ١٠٩.
٥. الحجر: ٢٩/١٥.
٦. الفجر: ٢٧/٨٩ و٢٨.
٧. بحار الأنوار ٦١: ٨٥، تفسير الصافي ٣: ١١١.
٨. تفسير العياشي ٣: ٢٦٠٥/٨١، تفسير الصافي ٣: ٢١٤، وفيهما: من القدرة.
٩. تفسير أبي السعود ٥: ١٩٢.

فانّ كثيراً من الأمور لا يمكنكم العلم بحقيقته وحدوده، ومنها الروح، فانّه لا يعرف إلّا بآثاره وعوارضه الخاصة به.

رُوي أنّ رسول الله ﷺ لمّا قال ذلك قالوا: نحن مختصّون بهذا الخِطاب أم أنت معنا فيه؟ فقال: «بل نحن وأنتم لم نُؤت من العلم إلّا قليلاً» فقالوا: ما أعجب شأنك، ساعة تقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[1] وساعة تقول: هذا؟! فنزلت ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ الآية»[2].

القمي، قال: إنّ اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الروح، فقال: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ قالوا: نحن خاصة؟ قال: بل النّاس [عامّة] قالوا: فكيف يجتمع هذان يا محمّد؛ تزعُم أنك لم تؤت [من] العلم إلّا قليلاً، وقد اُوتيت القرآن، وأُوتينا التوراة، وقد قرأتَ ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ إلى آخره[3]. يقول: علم الله أكبر من ذلك، وما أُوتيتم كثير فيكم قليل عند الله[4].

وعن الباقر عليه السلام قال: «تفسيرها في الباطن أنه لم يؤت العلم إلا أناس يسير فقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ منكم».

وعن الصادق عليه السلام ـ في حديث ـ «ووصف الذين لم يؤتوا من الله فوائد العلم، فوصفوا ربّهم بأدنى الأمثال، وشبّهوه بالمتشابه منهم فيما جهلوا به، فلذلك قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ فليس له شبه ولا مثل ولا عدل»[5].

وقيل: إنّ نظر السائلين إلى السؤال عن حقيقة الروح وقدمه وحدوثه، فأجاب عن كليهما بكون الروح خالية عن العلوم، ثمّ تحدُث فيها العلوم قليلاً قليلاً، فلا تزال في التغيير من حال إلى حال، ومن النقص إلى الكمال، وهو آية الحدوث[6].

وقيل: إن المراد بالروح هنا هو القرآن، حيث إنه تعالى سمّاه في آيات عديدة روحاً، لأنّ به تحصُل حياة القلوب، وهو المناسب لما قبل الآية من قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾[7] الآية، ولما بعده من قوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ﴾[8] الآية، وقوله: ﴿قُل لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾[9] الآية، فيكون المراد أنّ القرآن هل هو سحر أو كِهانة أو شعر أو نازل من الله؟[10]

---

١. البقرة: ٢٦٩/٢.
٢. تفسير الرازي ٢١: ٥٣، والآية من سورة لقمان: ٢٧/٣١.
٣. تفسير القمي ٢: ١٦٦، تفسير الصافي ٤: ١٥٠.
٤. تفسير العياشي ٣: ٢٦٠٦/٨٢، تفسير الصافي ٣: ٢١٥.
٥. التوحيد: ١/٣٢٤، تفسير الصافي ٣: ٢١٥.
٦. تفسير الرازي ٢١: ٣٨.
٧. الإسراء: ٨٢/١٧.
٨. الإسراء: ٨٦/١٧.
٩. الإسراء: ٨٨/١٧.
١٠. تفسير الرازي ٢١: ٣٨.

في وصف الملك المسمىٰ بالروح

وقيل: إنّ المراد به جَبْرئيل[١]، وقيل: إنّ المراد به المَلَك الذي هو أعظم من سائر الملائكة قدراً وقوةً[٢].

وروى الفخر الرازي عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «هو مَلَك له سبعون ألف وجه، لكل وجه سبعون ألف لسان، لكل لسانٍ سبعون ألف لُغة، يُسبّح الله بتلك اللغات كلّها، ويخلُق الله من كلّ تسبيحة مَلَكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة».

قال[٣]: ولم يخلُق الله خلقاً أعظم من الروح غير العرش، ولو شاء أن يبتلع السماوات السبع والأرضين السبع ومن فيهنّ بلقمةٍ واحدةٍ لفعل[٤].

ثمّ اعترض الناصب عليه بوجوه لا يليق بالمؤمن العاقل نقلها والجواب عنها.

القمي عن الصادق عليه السلام، أنّه سُئِل عن هذه الآية فقال: «خَلْق[٥] أعظم من جَبْرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو مع الأئمة، وهو من الملكوت»[٦].

وعنه عليه السلام أيضاً أنّه سُئِل عنه فقال: «خلق عظيم، أعظم من جَبْرئيل وميكائيل، لم يكن مع أحدٍ ممّن مضى غير محمّد و[هو] مع الأئمة يُسدِّدهم، وليس كلّما طلب وجد»[٧].

وعنهما عليهما السلام: «إنّما الروح خَلْق من خلقه، له بصر وقوة وتأييد يجعله في قلوب المؤمنين والرُّسل»[٨].

أقول: يُحتَمل أن يكون المراد بذلك المَلَك النفس الكلية التي تتحرّك بها المتحرّكات من الأفلاك والملائكة والكواكب والحيوانات، والمراد من رؤوسها الموجودات التي تعلّق بها، ومن تكلّمه باللغات الكثيرة، نَطَق تلك الموجودات بالتسبيح وغيره، ومن كونها مع النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام قوة ظهورها فيهم بحيث لم يكن في غيرهم هذا الظهور والآثار.

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً * إِلَّا رَحْمَةً مِن رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً [٨٦ و ٨٧]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه قلّه علم الناس بالنسبة إلى علمه، نبّه على أنّ هذا القليل بفضل منه تعالى وإنعامه

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٣٩.
٢. تفسير الرازي ٢١: ٣٩.
٣. في المصدر: قالوا.
٤. تفسير الرازي ٢١: ٣٩.
٥. في المصدر: ملك.
٦. تفسير القمي ٢: ٢٦، الكافي ١: ٢١٥/٣، تفسير الصافي ٣: ٢١٤.
٧. تفسير العياشي ٣: ٢٦٠٣/٨١، الكافي ١: ٢١٥/٤، تفسير الصافي ٣: ٢١٤.
٨. تفسير العياشي ٣: ٢٦٠٢/٨١، تفسير الصافي ٣: ٢١٤.

بتوسط إنزاله القرآن، ولو شاء لَسَلَبه عنهم بقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن العظيم الذي فيه تبيان كلّ شيءٍ ونمحوه من صدورهم وصُحفهم بحيث لا يبقى منه في العالم أثر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ﴾ بعد ذَهاب القرآن ﴿بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ ووليّاً يرُدّه إليك ويُعيده في الصدور والدفاتر ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ كائنة ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فانّها هي التي تَرُدّه إليك، كما أنّها هي التي أبقته في حِفظك وحِفظ غيرك ﴿إِنَّ فَضْلَهُ﴾ وإحسانه ﴿كَانَ عَلَيْكَ﴾ من بدو خَلْقك في العوالم إلى الآن ﴿كَبِيراً﴾ وعظيماً حيث ختم بك الرسل، وأتاك بالقرآن، وأعطاك أفضل الأوصياء في الدنيا، والمقام المحمود في الآخرة.

﴿قُل لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[٨٨]

ثمّ لمّا بيّن تفضّله على النبي ﷺ بإنزاله القرآن عليه، أمره بالتحدّي به بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمّد للذين يقولون إنّه كلام البشر والله: ﴿لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ واتّفقوا ﴿عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْقُرْآنِ﴾ في الفصاحة والبلاغة، وجزالة المعنى، وبَداعة الأسلوب وكَثْرة العلوم ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ولا يقدِرون على ترتيب مشابه ﴿وَلَوْ﴾ فرض أنه ﴿كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ﴾ آخر منهم ﴿ظَهِيراً﴾ ومعاضداً ومعاوناً في الاتيان بمثله مع أنّ فيهم الفصحاء ومَهرَة البيان والخُطباء والشعراء.

عن (العيون) عن أمير المؤمنين عليه السلام «أنّ الله تعالى نزّل هذا القرآن بهذه الحروف التي يتداولها جميع العرب» ثمّ قال: ﴿قُل لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ الآية»[١].

ورُوي أن ابن أبي العوجاء وثلاثة نفرٍ من الدهرية[٢] اتفقوا على أن يُعارض كلّ واحدٍ منهم رُبع القرآن، وكانوا بمكة، وعاهدوا على أن يجيئوا بمعارضته في العام القابل، فلمّا حال الحول واجتمعوا في مقام إبراهيم، قال أحدهم: إني لمّا رأيت قوله: ﴿يَا أَرْضُ ٱبْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَماءُ أَقْلِعِى﴾[٣] الآية، كففت عن المعارضة. وقال الآخر: وكذا أنا لمّا وجدت قوله ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً﴾[٤] أيست عن المعارضة. وكانوا يَسْرّون ذلك، إذ مرّ عليهم الصادق عليه السلام وقرأ عليهم ﴿قُل لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ الآية، فبُهتوا[٥].

إن قيل: إنّه ظهر عَجْز الإنس عن الاتيان بمثله، فمن أين يعلم عجز الجنّ عنه مع احتمال أن يكون

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٦/١٣٠، تفسير الصافي ٣: ٢١٦.
٢. الدَّهرية: قومٌ يقولون: لاربّ ولا جنّة ولا نار، ويقولون: ما يهلكنا إلّا الدهر.　٣. هود: ٤٤/١١.
٤. يوسف: ٨٠/١٢.　٥. الخرائج والجرائح ٢: ٥/٧١٠، تفسير الصافي ٣: ٢١٦.

القرآن من كلام الجنّ ونَظْمهم، وإنّما ألقوه إلى محمد ﷺ لإضلال الناس، وإن قلنا: إنّ النبي ﷺ أخبر بعجزهم يلزَم الدور.

قلنا: إنّ قاعدة اللُّطف مقتضية لاظهار معارضه بنحو من الانحاء، فلمّا لم يظهر علمنا أنّهم أيضاً عاجزون عن إتيان مثله وأنّه من الله تعالى.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً[٨٩]

ثمّ وصف سبحانه القرآن بجامعية العلوم بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وكرّرنا ﴿لِلنَّاسِ فِى هٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِن كُلِّ﴾ نحوٍ من أنحاء التحدّي، وبرهان من براهين المبدأ والمعاد وصحّة النبوة وردّ شُبهات المشركين فيها، وكلّ صنف من أصناف العلوم والأحكام والوعد والوعيد، وأحوال الأنبياء، وكيفية دعواهم وبيان معاجزهم، ومعارضة اُممهم وإصرارهم على التمرّد والعِناد، وابتلائهم بالعذاب، وذكر الوَعظ والنُّصح وغيرها ممّا يحتاج إليه الناس ببيان يكون بمنزلة ﴿مَثَلٍ﴾ في الغَرابة والوَقْع في النفس ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ من مشركي مكة ﴿إِلَّا كُفُوراً﴾ وجُحوداً للحقّ وإنكاراً للنعمة العظيمة من القرآن ورسالة الرسول.

عن الباقر عليه السلام: «نزل جَبْرئيل بهذه الآية هكذا: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ - بولاية علي - إِلَّا كُفُوراً﴾»[١].

وَقَالُوا لَن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّماءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِىَ بِاللهِ وَٱلْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّماءِ وَلَن نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً[٩٠-٩٣]

ثمّ بيّن الله سبحانه كفران المشركين نِعمة القرآن بعدم اكتفائهم به في الاعجاز والتماسهم المعجزات الأُخر تعنّتاً ولَجاجاً بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ يا محمّد ﴿لَن نُؤْمِنَ لَكَ﴾ ولا نعترف بنبوتك أبداً ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ وتُخرج ﴿لَنَا مِنَ﴾ هذه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ التي نسكنُها ﴿يَنْبُوعاً﴾ وعيناً كثيرة الماء ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ وبستان كثير الأشجار، وكانت أشجارها ﴿مِن﴾ جنس ﴿نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ﴾

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٦٠٨/٨٢، الكافي ١: ٦٤/٣٥١، تفسير الصافي ٣: ٢١٦.

وتجري ﴿ٱلْأَنْهَارَ﴾ العديدة (خِلالَهَا) وفيما بين أشجارها (تفجِيراً) وإجراءً كثيراً ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ ومثلما توهَمت أنك نبيّ ذو معجزة، أو أن الله يفعل مايشاء ﴿عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ وقطعاً، أو كما قلت، أو يُسقِط عليهم كِسَفاً من السماء فيقولون: سَحابٌ مركومٌ ﴿أَوْ تَأْتِيَ﴾ إلينا ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾ ومقابلاً لنا بحيث نراهم، أو فوجاً كما عن ابن عباس[1]، أو ضامناً أو كفيلاً ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ﴾ وذَهَب تسكُن فيه وتخلُص من الفقراء ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ وتصعد ﴿فِي﴾ معارج ﴿ٱلسَّمَاءِ﴾ ومدارجها ونحن ننظُر إليك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ ولا نصدّق نبوتك أبداً لأجل عروجك في السماء ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ من السماء ﴿كِتَاباً﴾ فيه تصديق نبوتك ونحن ﴿نَّقْرَؤُهُ﴾ كي لا يبقى لنا فيه شُبهة السحر.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المقترحين تعجباً من اقتراحهم، أو تنزيهاً لساحة الربوبية من أن يكون محكوماً بحُكمهم، أو من ما لا يفيد في إيمانهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وتَنَزَه عمّا لا ينبغي له من إجابتكم فيما تسألونه تعنّتاً ولَجاجاً، وإن تسألوني أن أفعل تلك الأمور بقوّة نفسي وقُدرتي، فأخبروني ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً﴾ عاجزاً مثلكم؟ وإنّما أكون ﴿رَّسُولاً﴾ والرسول ليس فاعلاً لما يشاء، ولا حاكماً على الله، وإنّما عليه أن يأتي معجزةً كافيةً في إثبات نبوته، وقد أتيتكم فوق ما فيه الكفاية.

عن ابن عباس: أنّ عُتبة وشَيبة وأبا سفيان والنَّضر بن الحارث وأبا البَخْتري والوليد بن المُغيرة وأبا جهل وعبدالله بن أبي أُمية [وأمية] بن خَلف ورؤساء قُريش، اجتمعوا عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمّد فكلّموه وخاصموه حتّى تعذِروا فيه، فبعثوا إليه أنّ أشراف قومك اجتمعوا لك ليكلّموك، فجاءهم سريعاً وهو يظُنّ أنّه بدا لهم في أمره بَداء، وكان عليهم حريصاً يُحبّ رُشدهم ويعِزّ عليه عَنَتهم، حتّى جلس إليهم فقالوا: يا محمّد، إنا لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرّقت الجماعة، وما بقي أمرٌ قبيحٌ إلّا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنّما جئت بهذا تطلُب به مالاً جعلنا لك من الأموال ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنّما تطلُب الشرف فينا سوّدناك علينا، وإن [كنت] تُريد مُلكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الرَّئيّ[2] الذي يأتيك قد غلب عليك ـ وكانوا يسمّون التابع من الجنّ الرأي ـ بذلنا أموالنا في طلب الطبّ لك حتى نُبرئك منه أو نعذِر فيك.

فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم، ولا للشرف فيكم،

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٥٧.

٢. الرَّئيّ: الجِنّي يعرض للانسان ويُطلعه على ما يزعُم من الغيب. ويقال: به رِئيٌّ من الجنّ: أي مَسٌّ.

ولا للمُلك عليكم، ولكنّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن ترُدّوه عليّ أصبر لأمر الله حتّى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: يا محمّد، فان كنت غير قابل منّا ما عرضناه، فقد علمت أنه ليس من النّاس أحدّ أضيق بلاداً ولا أقلّ مالاً ولا أشدّ عيشاً منّا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك، فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت [علينا]، أو يبسُط [لنا] بلادنا، وليُجرِ فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قُصيّ بن كلاب، فإنّه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عمّا تقول أحقّ هو أم باطل، فإن فعلت ما سألناك صدّقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وأنّه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال رسول الله ﷺ «ما بهذا بُعِثت، وإنّما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلّغتكم ما أُرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن تَرُدّوه أصبر لأمر الله».

قالوا: فإن لم تفعل هذا، فسل ربك أن يبعث مَلَكاً يُصدّقك، وسَلْه أن يجعل لك جنّاتٍ وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفِضّة، ويُغنيك بها عمّن سواك، فانك تقوم في الأسواق، وتلتمس المعاش.

فقال: «ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعِثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً».

قالوا: سَله أن يُسقط علينا السماء، كما زعمت إنّ ربك إنْ شاء فعل. فقال عليه السلام: «ذلك إلى الله، إن شاء فعل» وقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً.

وقام عبدالله بن أبي أُمية بن المُغيرة المخزومي، [وهو] ابن عاتكة بنت عبد المطلب، ابن عمّة النبي، ثمّ أسلم بعد وحسُن إسلامه، فقال: لا أُؤمن بك أبداً حتى تتّخذ إلى السماء سُلّماً وتَرقى فيه، وأنا أنظُر حتى تأتينا وتأتي بنسخةٍ منشورةٍ معك ونفرٍ من الملائكة يشهدون لك أنّك كما تقول. فانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً لِما فاته من متابعة قومه، ولما رأى من مباعدتهم عنه، فأنزل الله الآيات[1].

وعن تفسير الإمام عليه السلام، عن أبيه: «أنّ رسول الله ﷺ كان قاعداً ذات يوم بمكة بفِناء الكعبة، إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش، منهم: الوليد بن المُغيرة المخزومي، وأبو البَختري بن هِشام، وأبو جهل بن هِشام، والعاص بن وائل السّهمي، وعبدالله بن أبي أُمية المخزومي، وكان معهم جمعٌ ممّن يليهم كثير، ورسول الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه يقرأ عليهم كتاب الله، ويؤدّي إليهم من الله أمره

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٠٢، أسباب النزول للواحدي: ١٦٦.

ونهيه. فقال المشركون بعضهم لبعضٍ: لقد استفحل أمر محمّد، وعَظُم خطبه، فتعالوا نبدأ بتقريعه وتبكيته وتوبيخه، والاحتجاج عليه، وإبطال ما جاء به، ليهون خَطْبه على أصحابه، ويصغُر قدره عندهم، ولعله ينزع عمّا هو فيه من غَيّه وباطله وتمرّده وطُغيانه، فإن انتهى وإلّا عاملناه بالسيف الباتر.

قال أبو جهل: فمن الذي يلي كلامه ومجادلته؟ قال عبدالله بن أبي اُمية: أنا إلى ذلك، أفما ترضاني له قِرناً حسيباً ومجادلاً كفياً؟ قال أبو جهل: بلى. فأتوه بأجمعهم، فابتدأ عبدالله بالكلام، فقال: يا محمّد، لقد ادّعيت دعوى عظيمة، وقلت مقالاً هائلاً، زعمت أنّك رسول رب العالمين، وما ينبغي لربّ العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسولاً [له]، وأنت بشر مثلنا تأكُل كما نأكُل وتمشي في الأسواق كما نمشي، فهذا مَلِك الرُّوم، وهذا مَلِك الفُرس لا يبعثان رسولاً إلّا كثير المال عظيم الخَطر[1] له قصور ودور وفَساطيط وخيام وعبيد وخُدّام، وربّ العالمين فوق هؤلاء كلهم فهم عبيده، ولو كنت نبياً لكان معك مَلَك يُصدّقك ونُشاهده، بل لو أراد الله أن يبعث إلينا نبياً، لكان يبعث إلينا مَلَكاً لا بشراً مثلنا، ما أنت يا محمّد إلّا مسحور ولست بنبي.

فقال رسول الله ﷺ: هل بقي [من كلامك] شيء؟ فقال: بلى، لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً لبعث أجلّ من [فيما] بيننا مالاً وأحسنه حالاً، فهلّا نزل القرآن الذي تَزْعُم أنّ الله أنزله عليك وبعثك به رسولاً على رجلٍ من القريتين عظيم؛ إمّا الوليد بن المُغيرة بمكة، وإما عُروة بن مسعود الثقفي بالطائف؟

فقال رسول الله ﷺ: هل بقي من كلامك شيء؟ فقال: بلى، لن نؤمن لك حتى تفجّر لنا من الأرض يَنبوعاً بمكة هذه، فإنّها ذات حجارة وَعِرة وجبال، تكسح أرضها وتَحْفِرها وتُجري فيها العيون، فإننا إلى ذلك محتاجون، أو تكون لك جَنّةٌ من نخيل وعِنب فتأكُل منهما وتُطعِمنا، فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تُسقِط السماء كما زعمت علينا كِسَفاً، فانّك قلت لنا: **﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِنَ ٱلسَّماءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾**[2] فلعلنا نقول ذلك، وقال: أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، تأتي به وبهم وهم لنا مقابلون، أو يكون لك بيت من زُخرف تُعطينا منه وتُغنينا به، فلعلنا نَطغى، فأنّك قلت لنا: **﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَآهُ ٱسْتَغْنَىٰ﴾**[3].

ثمّ قال: أو ترقى في السماء، أي تصعد في السماء، ولن نؤمن لرُقيك، أي لصعودك، حتى تُنزل علينا كتاباً نقرأه فيه: من الله العزيز الحكيم إلى عبدالله بن أبي اُمية المخزومي ومن معه، أن آمنوا بمحمد بن عبدالله بن عبدالمطلب فانه رسولي وصدّقوه في مقاله فانه من عندي، ثمّ لا أدري يا

---

١. في المصدر: عظيم الحال.
٢. الطور: ٥٢/٤٤.
٣. العلق: ٩٦/٦ و٧.

محمّد إذا فعلت هذا كلّه أُؤمن بك أم لا أُؤمن بك، ولو رفعتنا إلى السماء وفتحت أبوابها وأدخلتناها لقلنا: إنّما سكّرت أبصارنا وسحرتنا.

فقال رسول الله ﷺ: أبقي شيء من كلامك يا عبدالله؟ قال: أو ليس فيما أوردته عليك كفاية وبلاغ؟! ما بقي شيء، فقل ما بدا لك، وأفصح عن نفسك إن كانت لك حُجّة، وآتنا بما سألناك.

فقال رسول الله ﷺ: اللهمَ أنت السامع لكلّ صوت، والعالم بكلّ شيء، تعلم ما قاله عبادك، فأنزل عليه ﴿وَقَالُوا مَالِ هٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿قُصُوراً﴾ [١]، وانزل عليه ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [٢] الآية، وأنزل عليه ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً﴾ [٣] الآية.

فقال رسول الله ﷺ: أما ما ذكرت من أنّي آكل الطعام، إلى أن قال رسول الله ﷺ: وأما قولك لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض يَنبوعاً، إلى آخر ما قلت، فانّك اقترحت على محمّد رسول ربّ العالمين أشياء منها ما لو جاءك به لم يكن برهاناً على نبوته، ورسول الله يرتفع من أن يغتنم جهل الجاهلين ويحتجّ عليهم بما لا حُجة فيه.

ومنها ما لو جاءك به لكان فيه هلاكك، وإنّما يُؤتى بالحجج والبراهين ليَلْزَم عباد الله الايمان لا بما يهلِكون به، وإنّما اقترحت هلاكك، وربّ العالمين أرحم بعباده وأعلم بمصالحهم من أن يهلِكهم كما يقترحون.

ومنها المُحال الذي لايصِحّ ولا يجوز كونه، ورسول الله يُعرّفك ذلك، ويقطع معاذيرك، ويضيّق عليك سبيل مخالفته، ويُلجئك بحجج الله إلى تصديقه حتى لا يكون لك عنه محيد ولا محيص.

ومنها ما قد اعترفت على نفسك أنّك فيه معاندٌ متمردٌ، لا تقبل حجة، ولا تُصغي إلى برهان، ومن كان كذلك فداؤه عذاب النار النازل من سمائه أو في جحيمه، أو سيوف أوليائه.

وأمّا قولك يا عبدالله لن نؤمن لك حتى تفجر [لنا] من الأرض ينبوعاً بمكة هذه، فانّها ذات أحجار وصخور وجبال تكسح أرضها وتحفِرها وتُجري فيها العيون، فانّنا إلى ذلك محتاجون، فانّك سألت هذا وأنت جاهل بدلائل الله. يا عبدالله، أرأيت لو فعلت كنت من أجل ذلك نبياً، أرأيت الطائف التي [لك] فيها بساتين، أما كان هناك مواضع فاسدة صعبة أصلحتها وذلّلتها وكسحتها وأجريت فيها عيوناً استنبطتها؟ قال: بلى. قال: وهل لك في هذا نظراء؟ قال: بلى، قال: أفصرت بذلك أنت وهم أنبياء! قال: لا. قال: فكذلك لا يصير هذا حجة لمحمّد لو فعله على نبوته، فما هو إلّا كقولك لن نؤمن لك

---

١. الفرقان: ٢٥/٧ـ١٠. ٢. هود: ١١/١٢. ٣. الأنعام: ٦/٨.

حتى تقوم وتمشي على الأرض، أو حتى تأكُل الطعام كما يأكُل الناس.

وأما قولك يا عبدالله: أو تكون لك جَنّة من نخيل وعِنبٍ فتأكُل منها وتُطعمنا، فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو ليس لك ولأصحابك جنان من نخيل وعِنب بالطائف تأكُلون وتُطعمون منها، وتُفجَر الأنهار خلالها تفجيراً، أفصرتم بهذا أنبياء؟ قال: لا. قال: فما بال اقتراحكم على رسول الله أشياء لو كانت كما تقترحون لما دلّت على صدقه، بل لو تعاطاها لدلّ تعاطيه على كذبه؛ لأنّه حينئذٍ يحتجّ بما لا حُجَة فيه، ويخدع الضعفاء عن عقولهم وأديانهم، ورسول ربّ العالمين يَجِلّ ويرتفع عن هذا.

ثمّ قال عليه السلام: يا عبدالله، وأمّا قولك: أو تُسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، فانّك قلت: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِنَ ٱلسَّماءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ فإنّ في سقوط السماء عليكم هلاككم وموتكم، وإنما تُريد بهذا أن تهلِك، ورسول رب العالمين أرحم بك من ذلك ولا يهلِكك، ولكنّه يُقيم عليك حجج الله، وليس حجج الله لنبيه على حسب اقتراح عباده؛ لأنّ العباد جُهّال بما يجوز من الصلاح وبما لا يجوز منه من الفساد[1]، وقد يختلف اقتراحهم ويتضادّ حتى يستحيل وقوعه، فإنّه لو كان إلى اقتراحاتهم [واقعة] لجاز أن تقترح أنت أن تسقط السماء عليكم، ويقترح غيرك أن لا تسقط السماء عليكم، بل أن ترتفع الأرض إلى السماء وتقع [السماء] عليها، وكان ذلك تضادّ وتنافي ويستحيل وقوعه، والله لا يُجري تدبيره على ما يَلْزَمه المحال.

ثمّ قال صلى الله عليه وآله: وهل رأيت يا عبدالله طبيباً كان دواؤه للمرضى على حسب اقتراحاتهم، وإنّما يفعل به ما يعلم صلاحه فيه أحبّه العليل أو كَرِهه، فأنتم المرضى والله طبيبكم، فان انقدتم لدوائه شفاكم، وإن تمردّتم عليه أسقمكم، وبعد فمتى رأيت ياعبدالله مدّعي حقّ من قبل رجل أوجب عليه حاكم من حُكّامهم فيما مضى بيّنة [على] دعواه على حسب اقتراح المُدّعى [عليه] إذن ما كان يثبت لأحد على أحد دعوى ولا حقّ، ولا كان بين ظالم ومظلوم، ولا صادق ولا كاذب فرق.

ثمّ قال: يا عبدالله، وأمّا قولك: أو تأت بالله والملائكة قبيلاً يقابلوننا ونُعاينهم. فانّ هذا من المُحال الذي لا خَفاء به، إنّ ربي عز وجل ليس كالمخلوقين يجيئ ويذهب ويتحرّك ويقابل شيئاً حتى يُؤتى به، فقد سألتم بهذا المحال، وإنّما هذا الذي دعوتَ إليه صفة أصنامكم الضعيفة المنقوصة التي لا تَسمع ولا تُبصر، ولا تعلم ولا تُغني عنك شيئاً ولا عن أحدٍ.

يا عبدالله، أو ليس لك جِنان وضِياع بالطائف وعَقار بمكة وقُوّام عليها؟ قال: بلى. قال: أفتشاهد جميع أحوالها بنفسك أو بسفراء بينك وبين معامليك؟ قال: بسفراء. قال: أرأيت لو قال معاملوك

---

١. في المصدر: وبالفساد.

وأكَرَتك وخَدمك لسفرائك: لا نصدّقكم في هذه السفارة إلّا أن تأتونا بعبدالله بن أبي اُمية لنشاهده ونسمع ما تقولون عنه شِفاهاً، أكنت تسوّغهم هذا، أو كان يجوز لهم عندك ذلك؟ قال: لا. قال: فما الذي يجب على سُفرائك؛ أليس عليهم أن يأتوهم عنك بعلامة صحيحة تَدُلّهم على صدقهم؟ قال: بلى. قال: يا عبدالله، أرايت سفيرك لو أنّه لمّا سَمِع منهم هذا، عاد إليك فقال: قم معي، فإنّهم قد اقترحوا عليّ مجيئك، أليس يكون هذا لك مخالفاً، وتقول لهم: إنّما أنت رسول لا مشير ولا آمر؟ قال: بلى.

قال: فكيف صرت تقترح على رسول ربّ العالمين ما لا تُسوّغ لأكَرتك ومعامليك أن يقترحوه على رسولك إليهم، فكيف أردت من رسول ربّ العالمين أن يستذمّ[1] إلى ربّه بأن يأمُر عليه وينهى، وأنت لا تسوّغ مثل ذلك لرسولٍ لك إلى أكَرَتك وقُوّامك؟! هذه حُجَةٌ قاطعةٌ لابطال جميع ما ذكرت في كلّ ما اقترحته [يا عبدالله].

وأمّا قولك يا عبدالله: أو يكون لك بيتٌ من زُخرف ـ وهو الذّهب ـ أما بلغك أن لعزيز مصر بيوتاً من زُخرف؟ قال: بلى. قال: أفصار بذلك نبياً؟ قال: لا. قال: فكذلك لا يوجب لمحمّد لو كان له نبوة، ومحمّد لا يغتنم جهلك بحجج الله.

وأمّا قولك: يا عبدالله، أو ترقى في السماء، ثمّ قلت: ولن نُؤمن لرُقيّك حتى تُنزِل علينا كتاباً نقرؤه [يا عبدالله الصعود إلى السماء أصعب من النزول عنها، وإذا اعترفت على نفسك بأنك لا تؤمن إذا صَعِدت فكذلك حكم النزول.

ثمّ قلت: «حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه]، ومن بعد ذلك لا أدري اُؤمن بك أو لا أؤمن بك. فأنت يا عبدالله مُقرّ بأنّك تُعاند بعد حُجَة الله عليك، فلا دواء لك إلّا تأديبه على يد أوليائه من البشر أو ملائكته الزبانية، وقد أنزل الله عليّ كلمة[2] جامعة لبطلان كلّ ما اقترحته.

فقال الله تعالى: قل يا محمّد **﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾** ما أبعد ربّي من أن يفعل الأشياء على قدر ما يقترحه الجُهّال بما يجوز وبما لا يجوز! وهل كنت إلّا بشراً رسولاً، لا يَلْزَمني إلّا إقامة حُجَة الله التي أعطاني، وليس لي أن آمر على ربّي ولا أنهى ولا اُشير، فأكون كالرسول الذي بعثه مَلَكٌ إلى قومٍ من مخالفيه، فرجع إليه يأمُره أن يفعل بهم ما أقترحوه عليه»[3].

أقول: لا شُبهة في أنّ عبارة عبدالله من مقترحاته لم تكن عبارة الآيات؛ لأنّه لو كانت عين عبارات

١. استذمّ إليه: فعل ما يذّمه عليه.
٢. في المصدر: حكمة.
٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣١٤/٥٠١، الاحتجاج: ٢٩، تفسير الصافي ٣: ٢١٧.

الآيات لَزِم أنهم أتوا بمثل بعض القرآن، بل إنّما عبّر الامام عن مطالبهم بعبارات القرآن، والقول بأنّ العبارات قليلة، والقليل لا ينافي التحدّي، ضعيف غايته.

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ ٱللهُ بَشَراً رَسُولاً * قُل لَوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ ٱلسَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً * قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً[٩٤-٩٦]

ثمّ لمّا حكى سبحانه اقتراحات البشر على النبيّ ﷺ، حكى بعض شُبهاتهم في نبوته بقوله: **﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾** من **﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾** بالحقّ **﴿إِذْ جَاءَهُمُ﴾** سبب **﴿ٱلْهُدَىٰ﴾** والرَّشاد إليه من النبي والكتاب، أو ما منعهم من الايمان بالرسول بعد ظهور دلائل صدقه ووفور معجزاته مانع **﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾** تعجّباً وإنكاراً: **﴿أَبَعَثَ ٱللهُ بَشَراً﴾** فينا **﴿رَسُولاً﴾** إلينا مع قدرته على بعث المَلِك، وكونه أقرب قبولاً؟

﴿قُلْ﴾ يا محمّد في جوابهم: لمّا كنتم بشراً لا تقدِرون على رُؤية المَلِك على صورته، ولا تستأنسون به، وجب على الله بمقتضى حكمته البالغة أن يبعث الرسول إليكم من البشر حتى يمكنكم مجالسته والاستفادة منه و **﴿لَوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾** مكان البشر **﴿مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ﴾** على أقدامهم ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء، فيسمعوا من أهلها ويتعلّموا منهم ما يجب عليهم علمه، وكانوا **﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾** ومستقرّين فيها **﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ ٱلسَّماءِ مَلَكاً﴾** ليكون **﴿رَسُولاً﴾** منّا إليهم يبلّغهم المعارف والأحكام، ويهديهم إلى وظائف العبودية.

و**﴿قُلْ﴾** لهم: إن تُريدوا الشاهد والدليل على صدق دعواي **﴿كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً﴾** ومصدّقاً لدعواي **﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾** حيث أظهر المعجزات القاهرات الدالة على صدقي، بحيث لم يبقَ لأحدٍ مجال الشك فيه **﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ﴾** ظواهرهم وبواطنهم **﴿خَبِيراً بَصِيراً﴾** فيجازي من صدقني وأطاعني بقلبه ولسانه وظاهره وباطنه بأفضل الجزاء، ويعاقب من أنكرني أشدّ العقاب.

وَمَن يَهْدِ ٱللهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً * ذٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً

وَرُفَاتاً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً[٩٧ و ٩٨]

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ وفور الدلائل لا يوجب الايمان إلّا مع توفيقه بقوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ ويوفّقه لتبعية الرسول ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ بالخصوص ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ الله بسلب التوفيق منه ويَخْذُله ويَكلِه إلى نفسه ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ يا محمّد ﴿لَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأحبّاء ﴿مِن دُونِهِ﴾ تعالى يهدونهم إلى الحقّ.

في الحديث: «إنّما أنا رسول، وليس إليّ من الهداية شيء، ولو كانت الهداية إليّ لآمن كلّ من في الأرض، وإنّما إبليس مزيّنٌ وليس له من الضلالة شيء، ولو كانت الضلالة إليه لأضلّ كلّ من في الأرض، ولكن الله يُضِلّ من يشاء ويهدي من يشاء»[١].

ثمّ هدّد الضالين بقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ ماشين ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ بدلاً من أقدامهم.

عن أبي هريرة: أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: يا نبي الله، كيف يُحشَر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «إنّ الذي أمشاه على رجليه قادرٌ على أن يُمشيه على وجهه»[٢].

وعن أحدهما عليهما السلام: ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ قال: «على جِباههم»[٣] حال كونهم ﴿عُمْياً﴾ مكفوفي الأبصار ﴿وَبُكْماً﴾ خُرس الألسن ﴿وَصمّاً﴾ مسدودي الآذان، لأنّهم غضّوا أعينهم في الدنيا عن النظر في الآيات، وتصامموا عن استماع الحقّ والنُّصح، وأبوا عن النُّطق بما فيه رضا الله.

عن ابن عباس قال: لا يَرَون ما يَسُرّهم، ولا يَنطِقون بما يُقبَل منهم، ولا يستمعون ما يُلذّ مسامعهم[٤].

نُقِل أنّ رجلاً قال لابن عباس: أليس أنه تعالى يقول: ﴿وَرءا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾[٥] وقال: ﴿سَمِعوا لها تَغيّظاً وزَفيراً﴾[٦] وقال: ﴿دَعَوا هنالك ثُبوراً﴾[٧] وقال: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[٨] وقال حكايةً عن الكفار: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٩] فثبت بهذه الآيات أنهم يَرَون ويسمعون ويتكلّمون، فكيف قال هاهنا: عُمياً وبُكماً وصُمّاً؟

قال ابن عباس: عمياً عن النظر إلى ما جعله الله لأوليائه، بُكماً عن مخاطبه الله ومخاطبة الملائكة المقربين، صُمّاً عن سَماع ثناء الله تعالى على أوليائه[١٠].

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٠٥.
٢. تفسير الرازي ٢١: ٦٠، مجمع البيان ٦: ٦٨٢، عن أنس بن مالك.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٦١٠/٨٢، تفسير الصافي ٣: ٢٢٤.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٠٦. ٥. الكهف: ٥٣/١٨. ٦. الفرقان: ١٢/٢٥.
٧. الفرقان: ١٣/٢٥. ٨. النحل: ١١١/١٦. ٩. الأنعام: ٢٣/٦. ١٠. تفسير الرازي ٢١: ٦١.

وقال مقاتل: إنّه حين يقال لهم: ﴿ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[١] يصيرون عُمياً وبُكماً وصُمّاً، أمّا قبل ذلك فهم يَروَن ويسمعون ويَنطِقون[٢].

وقيل: إنّهم راؤون سامعون ناطقون في الموقف، فاذا أخذوا يذهبون من الموقف إلى النار، جعلهم الله عُمياً وبُكماً وصُمّاً[٣].

ويمكن القول بأنهم حال حشرهم عُميٌ وبُكمٌ وصُمٌّ، ثمّ عند ظهور أهوال القيامة من ظهور لهب النار وتغيّظ جهنم وزفيرها، وعِتاب الله لهم، يصيرون رائين سامعين ناطقين.

ثمّ يكون ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومنزلهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ فيستقرّون فيها أبداً ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ وسكنت بسكون لَهَبها، وهو حين أكلت جُلودهم ولُحومهم بحيث لم يبقَ ما تتعلق به النار ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ ولَهيبا بتبديل جُلودهم بجُلود غيرها ﴿ذٰلِكَ﴾ العذاب ليس بسبب التشفّي بل ﴿جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ وبراهين توحيدنا ومعجزات نبينا، ﴿وَ﴾ بأنهم ﴿قَالُوا﴾ إنكاراً للمعاد ﴿أَءِذَا﴾ متنا و﴿كُنَّا عِظَاماً﴾ نَخِرة بالية ﴿وَرُفَاتاً﴾ وأجزاء متفرّقة ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ من القبور إلى المحشر حال كوننا مخلوقين ﴿خَلْقاً جَدِيداً﴾ ومُحيون حياة ثانية.

أَوَلَم يَرَوْا أَنَّ ٱللهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً * قُل لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ قَتُوراً[٩٩و١٠٠]

ثمّ لمّا كان منشأ استبعادهم المعاد الجهل بقدرة الله، أنكر عليهم ترك التفكّر فيها بقوله: ﴿أَوَلَم يَرَوْا﴾ قيل: إنّ التقدير ألم يتفكّروا، ولم يعلموا[٤] ﴿أَنَّ ٱللهَ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مع غاية عِظمهما، وكون خلقهما أعجب من خلق الكفّار البتة ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ ويُوجدهم ثانياً بصورتهم الأولى بعد صيرورتهم رُمَماً ورُفَاتاً ﴿وَ﴾ لكن ﴿جَعَلَ﴾ الله بحكمته البالغة لاعادته ﴿لَهُمْ﴾ وبعثه إياهم ﴿أَجَلاً﴾ معيناً ووقتاً محققاً ﴿لَّا رَيْبَ﴾ للعقلاء ﴿فِيهِ﴾ أنه آت، وهو يوم القيامة.

وقيل: إنّ المراد بالأجل وقت الموت[٥] ﴿فَأَبَى ٱلظَّالِمُونَ﴾ وامتنع الكافرون عن الانقياد للحقّ، ولم يرضوا لأنفسهم ﴿إِلَّا كُفُوراً﴾ ونُفوراً عنه وجُحوداً به.

---

١. المؤمنون: ١٠٨/٢٣. ٢. تفسير الرازي ٢١: ٦١، تفسير روح البيان ٥: ٢٠٦. ٣. تفسير الرازي ٢١: ٦١.
٤. تفسير أبي السعود: ٥: ١٩٧، تفسير روح البيان ٥: ٢٠٦.
٥. تفسير البيضاوي ١: ٥٨٣، تفسير الصافي ٣: ٢٢٤.

ثمَ لمّا سألوا النبي ﷺ تفجير العيون لهم وتكثير أموالهم، ذمّهم سبحانه بأن كثرة الأموال لا تزيدهم إلّا بُخلاً بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمّد، لهؤلاء المقترحين عليك المنكرين للمعاد: ﴿لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ على سبيل الفرض ﴿خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى﴾ ورزقه الذي يقسمه بين الموجودات ﴿إِذاً﴾ والله ﴿لَأَمْسَكْتُمْ﴾ عن بذل شيء منه وبَخلِتم ﴿خَشْيَةَ ٱلإِنفَاقِ﴾ ومخافة النَّفاد لطول أملكم، وتوهُّم بقائكم وخلودكم في الدنيا وغفلتكم عن الموت ﴿وَكَانَ ٱلإِنسَانُ﴾ لجهله بفنائه وتوهُّم دوام حاجته ﴿قَتُوراً﴾ ومبالغاً في البُخل والضِّنّة.

القمي في هذه الآية، قال: لو كانت الأمور[١] بيد الناس، لما أعطوا شيئاً مخافة الفناء[٢] ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ قَتُوراً﴾ أي بخيلاً[٣].

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْأَلْ بَنِى إِسْرَاءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً * فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَعَهُ جَمِيعاً * وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرَاءِيلَ ٱسْكُنُوا ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً[١٠١ ـ ١٠٤]

ثمَ لما سأل المشركون من النبي ﷺ معجزات عديدة اقتراحاً وتعنّتاً، سلّى نبيّه ﷺ وبالغ في ردّ المشركين ببيان عدم إيمان معاندي موسى مع رؤيتهم المعجزات العظيمة منه بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ومعجزات قاهرات ﴿فَسْئَلْ﴾ يا محمّد في حضور المشركين ﴿بَنِى إِسْرَاءِيلَ﴾ عن ذلك حتى يُصدّقوك، ويعلم المشركون صدق قولك بتصديقهم إياك، وشهادتهم بصحة خبرك ﴿إِذْ﴾ من المعلوم أن موسى ﴿جَاءَهُمْ﴾ بتلك الآيات وهم مطّلعون عليها.

وقيل: يعني سَل مؤمني بني إسرائيل كعبدالله بن سلّام وأضرابه لتزداد [يقيناً وطمأنينة، أو ليظهر صدقك][٤]، أو المراد فقلنا لموسى اسأل من فرعون أن يُرسِل معك بني إسرائيل[٥]، أو المراد فأسأل يا محمّد من بني إسرائيل عمّا جرى بين موسى وفرعون.

قيل: إنها صيرورة العصا ثُعباناً، واليد البيضاء، والطُّوفان، والضَّفادع، والجُراد، والقُمّل، والدم، والطَّمْس[٦].

---

١. في المصدر: الأموال. ٢. في المصدر: النفاد. ٣. تفسير القمي ٢: ٢٩، تفسير الصافي ٣: ٢٢٤.
٤. أثبتناه من تفسير أبي السعود ٥: ١٩٨. ٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٠٨.
٦. تفسير الرازي ٢١: ٦٤، تفسير البيضاوي ١: ٥٨٣، تفسير أبي السعود ٥: ١٩٨، تفسير روح البيان ٥: ٢٠٨، وقد ذكر في المتن ثمان آيات.

وعن الصادق عليه السلام: «هي: الجَراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، والطُّوفان، والبحر، والحجر، والعصا ويده»[١].

وعن الكاظم عليه السلام وقد سأله يهودي عنها، فقال: «العصا، وإخراج يده من جيبه بيضاء والجَراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، ورفع الطُّور، والمَنّ والسَّلوى آية واحدة [وفلق البحر]»[٢].

روى الفخر الرازي عن صفوان بن عسال أنه قال: إنّ يهودياً قال لصاحبه: أذهب بنا إلى هذا النبي نسأله عن تسع آيات، فذهبا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، فسألاه عنها، فقال: «هنّ أن لا يُشرِكوا بالله شيئاً، ولا يُسرفوا، ولا يزنُوا، ولا يقتُلوا، ولا يسحَروا، ولا يأكُلوا الرِّبا، ولا يقذِفوا المُحصنة، ولا يُولّوا الفِرار يوم الزحف، وعليكم يا يهود أن لا تَعْدُوا في السبت». فقام اليهوديان فقبّلا يديه ورجليه، وقالوا: نشهد أنك نبي، ولولا نخاف القتل لاتبعناك، الخبر[٣].

فلم ينفع في إيمان المعاندين، فانّه عليه السلام لما أظهرها ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ﴾ عِناداً ولَجاجاً واستكباراً: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ﴾ واتخيّل ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ أنك صِرت ﴿مَسْحُوراً﴾ ومجنوناً، أو مختلّ العقل بسحر السَّحَرة، ولذا تتكلّم بمثل هذه الكلمات.

وقيل: يعني أتوهّم أنك ذو السِّحر[٤]، وإنّما تفعل هذه الأفاعيل بالسِّحر ﴿قَالَ﴾ له موسى: والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ أنه ﴿مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ﴾ الآيات التي أظهرتها ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومُدبّرهما حال كونها، أو لتكون للناس ﴿بَصَائِرَ﴾ ودلائل واضحَة على صدقي فيما أقول، وإنّما أنت معاندٌ ومكابرٌ ﴿وَإِنِّى﴾ والله ﴿لَأَظُنُّكَ﴾ وأعتقد أنك ﴿يَا فِرْعَوْنُ﴾ تصير ﴿مَثْبُوراً﴾ وهالكاً، أو تكون مصروفاً من كلّ خيرٍ مطبوعاً على الشرّ، أو غير بصير وناقص العقل ﴿فَأَرَادَ﴾ فِرعون على حسب ظنّه الكاذب في حقّ موسى عليه السلام وأتباعه من بني إسرائيل ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ ويُزعجهم ﴿مِنَ﴾ وجه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بالقتل، أو يُخرجهم من أرض مِصر، كما أرادت قريش أن يُخرِجوك من مكة ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَعَهُ﴾ واتّبعه من القِبط ﴿جَمِيعاً﴾ في البحر، ونجّينا موسى عليه السلام ومن معه جميعاً منه.

عن الباقر عليه السلام: «أراد فِرعون أن يُخرجهم من الأرض، وقد عَلِم فِرعون وقومه ما أنزل تلك الآيات إلّا الله»[٥].

﴿وَقُلْنَا﴾ غِب[٦] إغراق فِرعون وقومه وإهلاكهم ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ بتوسّط موسى ﴿لِبَنِى إِسْرَاءِيلَ﴾ التابعين لموسى ﴿ٱسْكُنُوا ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد أعداءكم أن يُخرجوكم منها وتعيشوا فيها برفاه وَسَعَة

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٩، الخصال: ٢٤/٤٢٣، تفسير الصافي ٣: ٢٢٥.

٢. قرب الإسناد: ١٢٢٨/٣١٨، تفسير الصافي ٣: ٢٢٥.

٣. تفسير الرازي ٢١: ٦٤.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٠٨.

٥. تفسير القمي ٢: ٢٩، تفسير الصافي ٣: ٢٢٦.

٦. أي بعد.

مدّة أعماركم في الدنيا ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ ووقت قيام الساعة ﴿جِئْنَا بِكُمْ﴾ في عَرصة القيامة أنتم وأعداؤكم حال كونكم ﴿لَفِيفاً﴾ ومختلطاً بعضكم ببعض، ثمّ يمتاز المؤمن من الكافر، فنحكم بينهم بما يستحقّون.

عن الباقر عليه السلام: «﴿لَفِيفاً﴾ يقول، جميعاً». وفي رواية «أي من كلّ ناحية»[1].

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً[١٠٥ و١٠٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر معجزات موسى عليه السلام وامتناع قومه من الايمان به، بيّن عِظَم شأن القرآن الذي هو أعظم معجزات حبيبه بقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ﴾ ومعه، أو بغرض إظهار الحقّ مَحْضاً ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ عليك ﴿وَبِالْحَقِّ﴾ ومعه، أو على النبي الحقّ ﴿نَزَلَ﴾ من عندنا، وإنّ اقترح الكفّار المعاندين عليك غَيرهُ وتمرّدوا من الايمان بك، فليس عليك شيء، فانّما بعثناك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلى الناس ﴿إِلَّا﴾ لتكون ﴿مُبَشِّراً﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَنَذِيراً﴾ للكافرين، ومخوفاً لهم من العقاب ﴿وَ﴾ أنزلنا ﴿قُرْآناً﴾ عظيم الشان، وإنّما ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ وجعلناه مميزاً للحق عن الباطل، أو أقساماً من الخبر والأمر والنهي والوعد والوعيد والأمثال والعِبر، أو متفرّقاً ومتدرّجاً في النزول ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ ومَهْل وتأنٍّ حتى يكون أيسر للحِفظ وأعون للفَهْم ﴿وَنَزَّلْنَاهُ﴾ عليك ﴿تَنْزِيلاً﴾ خاصاً موافقاً للحكمة ومناسباً للمقامات.

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً[١٠٧ـ١٠٩]

ثمّ هدّد سبحانه المنكرين بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، للجاحدين للقرآن المقترحين عليك غيره من المعجزات: إنّ الله قد أتمّ عليكم بنزوله الحُجّة إن شئتم ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ به لا يتفاوت في علوّ شأنه وعظم قدره وتمامية الحُجّة به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ والمعرفة بمعنى النبوة ودلائلها[2] بقرائتهم الكتب السماوية، وتمكّنوا من التمييز بين الحقّ والباطل، والمعجز والسحر، وبُشّروا ببعثة محمّد ونزول القرآن ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ وهم

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٩، تفسير الصافي ٣: ٢٢٦.

٢. في النسخة: ودلائله.

الخصيصون من أهل الكتاب كعبدالله بن سلّام وورَقة بن نوفَل وأضرابهما ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن الذي تستهزئون به وتقولون إنّه كلام البشر وأساطير الأولين ﴿يَخِرُّونَ﴾ على الأرض ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ ويسقُطون على الوجوه حال كونهم ﴿سُجَّداً﴾ لله تشكراً على إنجاز وعده وإتمام نعمته ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في سجودهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ وتنزّه إلهنا اللطيف بنا عن الخُلف في الوعد ﴿إِن﴾ الشأن ﴿كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ ببعث محمّد ﷺ في آخر الزمان، وإنزال الكتاب الذي هو أفضل الكتب عليه، أو وعده بالمعاد والحشر للحساب كما قيل ﴿لَمَفْعُولاً﴾ ومُنجَزاً البتة وواقعاً لا محالة، لاستحالة الخُلف منه[1] ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ عند استماع القرآن وهم ﴿يَبْكُونَ﴾ من خشية الله ومواعظه، ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ سَمَاع القرآن ﴿خُشُوعاً﴾ وضَراعة، كما يزيدهم علماً وعرفاناً بالله، ويقيناً بصدق نبيه وجلالة كتابه، فاذا كان حال العلماء عند استماع القرآن وتلاوته هذا، فأيّ اعتناء بتكذيب هؤلاء السَّفِلة الحُمقاء؟

قُلِ ٱدْعُوا ٱللهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمٰنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً[١١٠]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه خُضوع العلماء وتضرّعهم إليه، بيّن كيفية الدعاء وتسميته بقوله: ﴿قُلِ﴾ يا محمّد، لمن يدعو الله ﴿ٱدْعُوا ٱللهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمٰنَ﴾ لا تفاوت بين الاسمين ﴿أَيّاً﴾ من الاسمين ﴿مَا تَدْعُوا﴾ وتقولوا في دعائكم كان حسناً مرضياً عند الله، بل عليكم أن تخُصّوه بهذين الاسمين ﴿فَلَهُ﴾ بالخصوص ﴿ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنّ له الصفات العليا.

رُوي أنّ اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: إنّك لتُقلّ ذكر الرحمن، وقد أكثره الله في التوراة، فنزلت[2].

وقيل: إنها نزلت حين سَمِع المشركون رسول الله ﷺ يقول: «يا الله، يا رحمن» فقالوا: إنّه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر[3].

ثمّ أنه تعالى بعد تعليم كيفية دعائه وتسميته، بيّن كيفية قراءة القرآن بقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ﴾ ولا تعلِ بصوتك ﴿بِصَلَاتِكَ﴾ وقراءتك فيها ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ بحيث لا تسمع نفسك ﴿وَابتَغِ﴾ واطلب في كيفية القراءة ﴿بَيْنَ ذٰلِكَ﴾ المذكور من النحوين ﴿سَبِيلاً﴾ وطريقة.

عن ابن عبّاس، في هذه الآية، قال: كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقرآن[4]، فاذا سَمِعه المشركون

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢١١.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٢١٢.
٣. تفسير الصافي ٣: ٢٢٧، تفسير روح البيان ٥: ٢١٢.
٤. في تفسير الرازي: بالقراءة.

سبّوه وسبّوا من جاء به، فأوحى الله إليه ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمع المشركون فيسبّوا الله عَدْواً بغير علم ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فلا تسمع أصحابك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾ [١].

ورُوي أنّ النبي ﷺ طاف بالليل على دور الصحابة، وكان أبو بكر يُخفي صوته بالقرآن [٢] في صلاته، وكان عمر يرفع صوته، فلمّا جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «لم تُخفي صوتك؟» فقال: أُناجي ربي، وقد علم حاجتي. وقال لعمر: «لم ترفع صوتك؟» فقال: أزجُر الشيطان، وأُوقظ الوَسْنان، فأمر النبي ﷺ أبا بكر أن يرفع صوته قليلاً، وأمر عمر أن يخفض صوته قليلاً [٣].

وعنهما عليهما السلام: «كان رسول الله ﷺ إذا كان بمكة جهر بصوته، فيعلم بمكانه المشركون، فكانوا يُؤذونه، فأنزل الله الآيه عند ذلك» [٤].

وعن الباقر عليه السلام: «نسختها ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾» [٥].

وعن الباقر عليه السلام، أنه قال للصادق عليه السلام: «يا بُني عليك بالحسنة بين السيئتين تمحوهما. قال: وكيف ذلك يا أبه؟ قال: مثل قول الله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ﴾ الآية، ومثل قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ [٦] الآية» الخبر [٧].

وعن الصادق عليه السلام، أنه سُئل: أعلى الامام أن يُسمِعَ مَن خلفه وإن كثّروا؟ قال: «ليقرأ [٨] وسطاً» ثمّ تلا هذه الآية [٩].

وقيل: إنّ المعنى ولا تَجْهَر بصلواتك كلّها، ولا تخافت بها كلّها، وابتغ بين ذلك سبيلاً، بأن تجهَر بصلاة الليل ولا تخافت بصلاة النهار [١٠].

وقيل: إنّ المراد بالصلاة الدعاء، رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال في هذه الآية: «إنّما ذلك في الدعاء والمسألة، لا ترفع صوتك فتذكُر ذنوبك فيُسْمَع ذلك فتعيّر بها» [١١].

وعن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «الجهر بها: رفع الصوت، والمخافتة: ما لا تسمع نفسك [١٢]، واقرأ ما بين ذلك» [١٣].

وعن الباقر عليه السلام: «الاجهار: أن ترفع صوتك تسمعه من بعُد عنك، والاخفات أن لا تُسمِع [من]

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٧٠.
٢. في تفسير الرازي: بالقراءة.
٣. تفسير الرازي ٢١: ٧٠، تفسير روح البيان ٥: ٢١٣.
٤. تفسير العياشي ٣: ٢٦١٧/٨٤، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨.
٥. تفسير العياشي ٢: ٢٣٥٨/٤٣٩، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨ والآية من سورة الحجر: ٩٤/١٥.
٦. الإسراء: ٢٩/١٧.
٧. تفسير العياشي ٣: ٢٦٢١/٨٤، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨.
٨. في تفسير العياشي: يقرأ قراءة.
٩. تفسير العياشي ٣: ٢٦١٤/٨٣، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨.
١٠. تفسير الرازي ٢١: ٧٠.
١١. تفسير الرازي ٢١: ٧١.
١٢. في تفسير القمي: بإذنك.
١٣. تفسير القمي ٢: ٣٠، تفسير الصافي ٣: ٢٢٧.

معك إلّا يسيراً»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «الجهر بها: رفع الصوت، والاخفات: مالم تَسْمَع اُذناك، وما بين ذلك: قَدر ما تُسمع اُذنيك»[٢].

وعنه عليه السلام: «المخافتة: ما دون سَمعك، والجهر: أن ترفع صوتك شديداً»[٣].

وعنه عليه السلام: «تفسيرها لا تجهر بولاية علي وما أكرمته به حتى آمرك بذلك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ يعني لا تكتُمها علياً، وأعلمه بما أكرمته به ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾ يعني سَلني أن آذن لك أن تجهر بأمر علي وبولايته، فأذِن له باظهار ولايته يوم غدير خُمّ»[٤].

أقول: المراد بالتفسير هنا هو التأويل.

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً[١١١]

ثمّ أنّه تعالى بعد تعليم كيفية الدعاء وقراءة القرآن، علّم كيفية تحميده بقوله: ﴿وَقُلِ﴾ يا محمّد، إذا أردت تحميد ربك على نِعمه وإفضاله، فاحمده بصفاته التي فيها تنزيهه عن أعظم النقائص بأن تقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ﴾ ولم يختر لنفسه[٥] ﴿وَلَداً﴾ ذكوراً أو إناثاً، لأنّ إيجاد الولد من صفات الأجسام ومن شؤون الحاجة، وهو تعالى خالق الاجسام وغنيّ بالذات، وفيه ردّ على اليهود القائلين بأن العزيز ابن الله، وعلى النصارى القائلين بأنّ المسيح ابن الله، على بني مُدلج القائلين بأنّ الملائكة بنات الله.

﴿وَلَمْ يَكُن﴾ في الأزل، ولا يكون إلى الأبد ﴿لَّهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ والسلطنة في عالم الوجود، لاستلزام وجود الشريك التعدّد والتحدّد في الذات، ويمتنع التعدّد والتحدّد في واجب الوجود، وفيه ردّ على النصارى القائلين بأنّ الله ثالث ثلاثة، وعلى عَبَدة الكواكب والأصنام.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ﴾ وصديق ومعاون ﴿مِّنَ﴾ أجل دفع ﴿ٱلذُّلِّ﴾ عن نفسه بموالاته، لأنّ له العزّة جميعاً، وفيه ردّ على الصابئين القائلين بأنه لولا أولياء الله لذلّ، فلمّا عرفته بكمال الذات والصفات فعظّمه ﴿وَكَبِّرْهُ﴾ من جميع النقائص تعظيماً و﴿تَكْبِيراً﴾ كثيراً.

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٠، تفسير الصافي ٣: ٢٢٧.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٦١٩/٨٤، تفسير الصافي ٣: ٢٢٧.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٦١٥/٨٣، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨.
٤. تفسير العياشي ٣: ٢٦٢٢/٨٥، تفسير الصافي ٣:٢٢٨.
٥. في النسخة: يختار نفسه.

عن الصادق عليه السلام أنّه أمر من قرأ هذه الآية أن يُكبّر ثلاثاً[١].

وعنه عليه السلام قال رجل عنده: (الله أكبر) فقال: «الله أكبر من أيّ شيء؟» فقال: من كلّ شيء. فقال: «حدّدته» فقال الرجل: كيف أقول؟ قال: «قل الله أكبر من أن يُوصَف»[٢].

وفي رواية أُخرى قال: «أو كان شيء فيكون أكبر منه؟» فقيل: وما هو؟ قال: «أكبر من أن يُوصَف»[٣].

وروى بعض العامة: كان النبيّ صلى الله عليه وآله إذا أفصح الغُلام من بني عبدالمطلب علّمه هذه الآية، ويُسمّيها آية العِزّة[٤].

وعن مُعاذ بن جَبل: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «عليكم بآية العِزّة». قيل: يا رسول الله، ما هي؟ قال: **﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى﴾** إلى آخرها[٥].

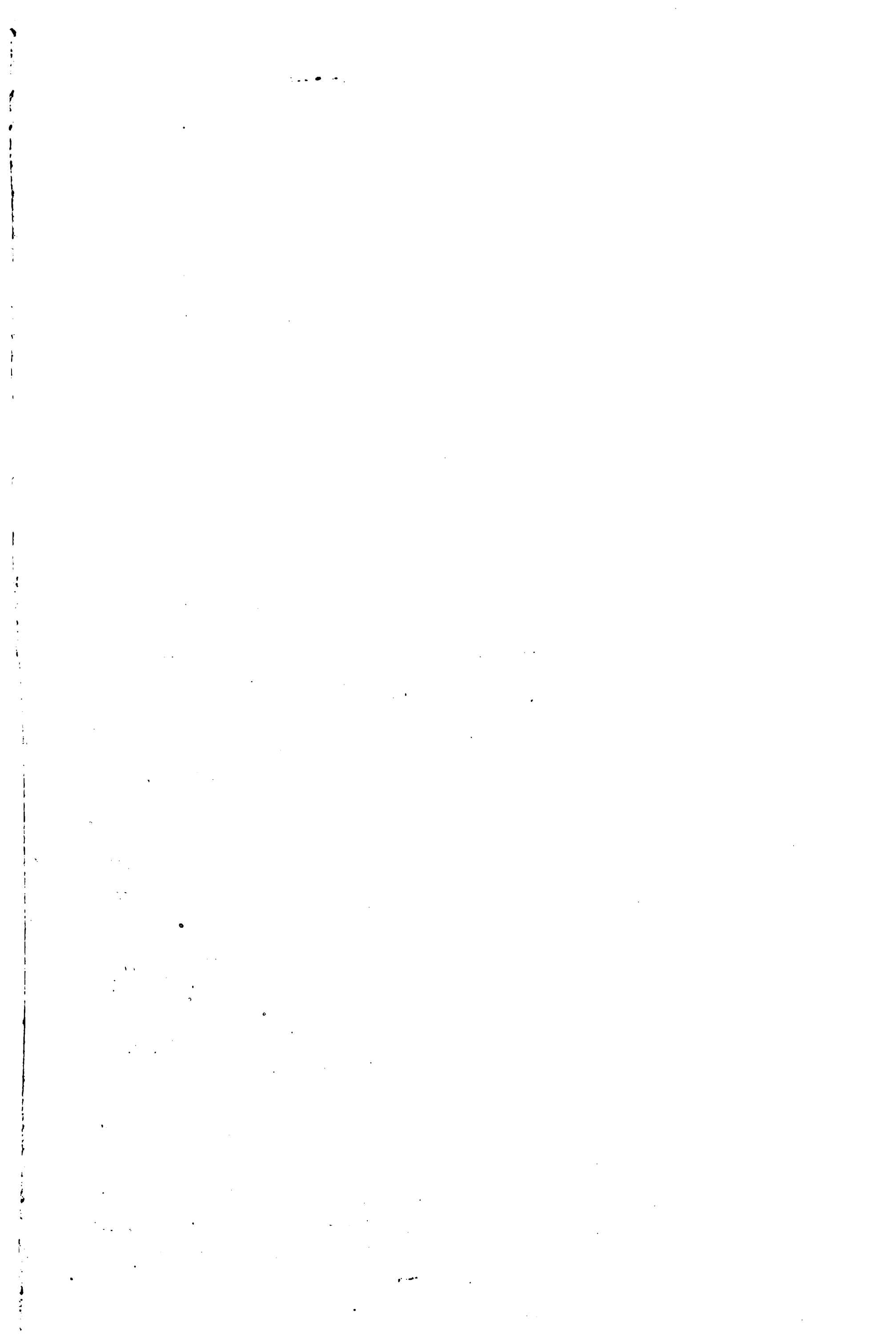
وفي (الفقيه) في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «أمان لأُمّتى من السَّرق **﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ﴾**[٦]» إلى آخر السورة[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة بني إسرائيل في كلّ ليلة جمعة، لم يمُت حتى يُدرِك القائم عجّل الله فرجه الشريف [ويكون من أصحابه]»[٨].

الحمد لله الذي منّ عليّ بالتوفيق لاتمام تفسير سورة الاسراء المباركة وأسأله أن يديمه عليّ.

---

١. التهذيب ٢: ١١٩٥/٢٩٧، تفسير الصافي ٣: ٢٢٩.
٢. الكافي ١: ٨/٩١، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨.
٣. الكافي ١: ٩/٩١، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨.
٤. تفسير البيضاوي ١: ٥٨٦، تفسير روح البيان ٥: ٢١٣.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٢١٣، الجامع للقرطبي ١٠: ٣٤٥.
٦. الإسراء: ١١٠/١٧.
٧. من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٢٤/٢٦٨، تفسير الصافي ٣: ٢٢٩.
٨. ثواب الاعمال: ١٠٧، تفسير الصافي ٣: ٢٢٩.



في تفسير سورة الكهف

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً * وَيُنْذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَداً * مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً[١ ـ ٥]

ثمَ لمّا ختم سبحانه السورة المباركة المبتدأة بثناء ذاته بقدرته على تكميل محمد ﷺ وأسرائه إلى أعلى مراتب العبودية، ورفعه إلى مقام قاب قوسين أو أدنى، المختومة بحمد نفسه وثنائها بالصفات الكمالية، ونزاهته من اتخاذ الولد والشريك والولي، أردفها بسورة الكهف المبدوءة. بحمد ذاته المقدسة على أعظم نعمائه، وهو بعث خاتم الانبياء ﷺ لهداية الناس وإنزال أعظم الكتب إليه المختومة بأمر نبيه ﷺ بدعوة الناس إلى توحيده وتنزيهه من الشريك، والقيام بوظائف العبودية والأعمال الصالحة، فابتدأ فيها على حسب دأبه في الكتاب العزيز بذكر اسمائه المباركة، بقوله: ﴿**بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ**﴾.

ثمَ افتتحها بحمد ذاته على أعظَم النِّعم بقوله: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ**﴾ محمّد ﷺ، بتوسّط جَبْرئيل ﴿**ٱلْكِتَابَ**﴾ الذي هو أفْضَلُ الكُتُب ﴿**وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجاً**﴾ وَاخْتِلالاً في اللّفظ، وتناقُضاً في الآياتِ، واختِلافاً في المطالِب، وانحرافاً عن الحقّ، وجعله﴿**قَيِّماً**﴾ ومستقيماً، كما عن ابن عبّاس[١]، أو كافلاً لمصالح الخلق إلى يوم القيامة.

وعن القمي، قال: هذا مقدَّم ومؤخَّر، لأنّ معناه: الذي أنزل على عبده الكتاب قيّماً ولم يجعل له عِوَجاً[٢].

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٧٥.

٢. تفسير القمي ٢: ٣٠، تفسير الصافي ٣: ٢٣٠.

أقول: نَسَب الواحدي هذا القول إلى جميع المفسّرين[١].

وقيل: إنّ المقصود من قوله: ﴿**لَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجاً**﴾ أنّه كامل في نفسه، ومن قوله: ﴿**قَيِّماً**﴾ أنّه قائم بأمور غيره ومُكَمّل للناس، ومن المعلوم أنّ كماله في نفسه مقدّم بالطبع على مُكمّليته لغيره، فالترتيب المذكورة موافق للعقل[٢].

وقيل: إنّ المعنى: ولَم يَجْعَل لِعَبْده عِوَجاً وتوجُّهاً إلى غير ذاته المقدّسة، بل جَعَله مستقيماً في جَميع أحواله[٣].

ثمّ بيّن سبحانه الغرضَ من إنزاله بقوله: ﴿**لِيُنْذِرَ**﴾ الذينَ كَفَرُوا وَعمِلُوا السيّئات ﴿**بَأساً**﴾ وعَذاباً ﴿**شَدِيداً**﴾ صادِراً ﴿**مِن لَدُنْهُ**﴾ تعالى من عذاب الاستئصال في الدنيا، أو العقوبة بالنّار في الآخرة ﴿**وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ بوَحْدانيّة الله ورسالة رسوله وصدق كتابه ﴿**ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ**﴾ الأعمال ﴿**ٱلصَّالِحَاتِ**﴾ والعبادات الخالصات لوجه الله ﴿**أَنَّ لَهُم**﴾ في مقابِل إيمانِهم وأعمالِهم ﴿**أَجْراً حَسَناً**﴾ من الجنّة والنّعيم الدّائمة حال كونهم مقيمين في ذلك الأجر ﴿**مَاكِثِينَ**﴾ وباقين ﴿**فِيهِ أَبَداً**﴾ لا زوال له ولا نَفاد له ﴿**وَيُنْذِرَ**﴾ بالخصوص، أكفر الكَفَرة وأجهلهم؛ وهم المشركون ﴿**ٱلَّذِينَ قَالُوا**﴾ واعتقدوا أنه ﴿**ٱتَّخَذَ ٱللهُ**﴾ واختار لنفسه ﴿**وَلَداً**﴾ ذكوراً، كاليهود القائلين بأنّ العزيز ابن الله، والنّصارى القائلين بأنّ المسيح ابن الله، أو إناثاً، كبني مُدْلِج القائلين بأنّ الملائكة بنات الله.

والحال أنّ القائلين بهذا القول السخيف ﴿**مَا لَهُم بِهِ**﴾ أقلّ مرتبة ﴿**مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ**﴾ الذين قلّدوهم في ذلك، بل قالوا به بمحض الجهل، وهوى النفس، وعدم التفكّر في كونه ما لا يحتمله العاقل ﴿**كَبُرَتْ**﴾ وعَظُمَتْ تلك المقالة من حيث كونها ﴿**كَلِمَةً**﴾ باطلة ومقالة فاسدة في غاية القَباحة والشّناعة ﴿**تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**﴾ جُرأةً على الله.

وقيل: إنّ فيه معنى التعجّب، والمراد: ما أكبرها كلمة[٤] ومقالة! ﴿**إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً**﴾ فظيعاً.

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِم إِن لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفاً * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً[٦-٨]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه فضيلة القرآن، وغاية جهل المشركين وشدّة حُمْقهم المَوجبة لتأثّر قلب

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٧٥.
٢. تفسير الرازي ٢١: ٧٥.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٢١٥.
٤. تفسير الرازي ٢١: ٧٨.

النبيّ ﷺ وحُزنه، سلّاه سبحانه بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ﴾ وقاتل أو مُتْعِب ﴿نَفْسَكَ﴾ الشريفة ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ ومفارقتهم حين فارقوك، أو للتحسّر عليهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا﴾ القرآن الّذي هو أحسن ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ وأفضل الكتب، لأجل أنّك تأسف ﴿أَسَفاً﴾ وتَحزَن حُزناً شديداً.

وحاصل المراد أنّه تعالى شبّه حال نبيه ﷺ في شفقته ورحمته على الأُمّة بمن يتوقّع منه إهلاك نفسه من شدّة الحُزن على مُفارقَة الأحِبّة، فسلّاه بأنّه لا يعظُم حُزنك بسبب كفرهم، فإنّه ليس عليك إلّا الإنذار والتبشير، لا إيجاد الإيمان في قلوبهم، وإنّما المقصود من إرسال الرسل، وجعل التكاليف، والإنذار والتبشير، امتحان الخلق وتميز النفوس الطيّبة من النفوس الخبيثة، فعامل معهم بالمداراة والإمتحان كما نعامل معهم[١].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ وخلقنا ﴿مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من المعادن، والنباتات، والحيوانات، لأجل أنْ يكونَ ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ ولأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ ونمتحنهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وأخلص عبادة، وأزهد في الدنيا، وأقنع بالكَفافِ منها، وأيّهم أقبح عملاً، وأرغب في الدنيا، وأحرص على جمع زخارفها.

ثمّ أنّهم يكفرون ويتمرّدون، ومع ذلك لا أقطع عنهم النِّعم، وأُداري بهم[٢]، فأنت يا محمّد أيضاً دارِ بهم ولا تترك ـ لحُزنك على كفرهم ولَجاجهم ـ دعوتهم إلى الحقّ ﴿وَإِنَّا﴾ بعد انقضاء الدنيا والله ﴿لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ وأرضاً بلا نبات، كما عن الباقر عليه السلام، أو خراباً، كما عن القمي[٣].

وعن السجّاد عليه السلام: «أنّ الله لم يُحبّ زَهْرَةَ الدنيا وعاجلها لأحدٍ من أوليائه، ولم يرغّبهم فيها وفي عاجل زَهْرتها وظاهر بَهجَتها، وإنّما خلق الدنيا وأهلَها لِيَبلوهم أيّهم أحسن عملاً»[٤].

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً[٩]

ذكر أصحاب الرقيم

ثمّ استشهد على غاية لطفه بالمؤمنين المعرضين عن الدنيا طلباً لِلآخرة بقصّة أصحاب الكهف فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ﴾ وساكني الغار الواسع في الجبل ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ قيل: هو اسم كلبهم، أو اسم قريتهم، أو جبلهم، أو الوادي الذي كان الجبل فيه، أو اللّوح الذي كُتِب فيه أسماؤهم ونَسَبُهم وترجمة أحوالهم[٥].

وعن الصادق عليه السلام «هم قوم فُقِدوا، وكَتَب ملك تلك الديار بأسمائهم وأسماء آبائهم وعشائرهم في

---

١. كذا، والظاهر: فعاملهم بالمداراة والامتحان كما نعاملهم.
٢. كذا، والظاهر: وأُداريهم.
٣. تفسير القمي ٢: ٣١، تفسير الصافي ٣: ٢٣١.
٤. الكافي ٨: ٢٩/٧٥، تفسير الصافي ٣: ٢٣١.
٥. تفسير البيضاوي ٢: ٤، تفسير أبي السعود ٥: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٥: ٢١٨.

صُحف من رَصاص»[١].

ورُوي أنّ أصحاب الرَّقيم كانوا ثلاثة نفرٍ غير أصحاب الكهف، خرجوا من بلدهم لحاجة فأخذهم المطر، فالتجأوا إلى غار، فلمّا دخلوا فيه سقط حجرٌ عظيم من الجبل، فسَد باب الغار بحيث لم يمكنهم الخروج منه، فيأسوا من الحياة، فتضرّعوا إلى الله، فتوسّل كلٌّ منهم إلى عملٍ خالص لله صدر منه، فشفَعوه عند الله فنجّاهم الله به[٢].

وعلى أيّ تقدير ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا﴾ أمراً ﴿عَجَباً﴾ لا تحسَب ذلك، فإنّ واقعتهم في جنب عجائب آياتنا ـ من خلق السماوات والأرض وتزيينها بالمعادن والنباتات والحيوانات ـ لا عجب فيها.

القمي: يقول قد آتيناك من الآيات ما هو أعجب [منه][٣].

قيل: إنّ أهل مكّة تعجبوا من قصة أصحاب الكهف فسألوا عنها رسول الله ﷺ امتحاناً، فنزلت[٤].

وقيل: إنّ النَّضر بن الحارث كان من شياطين قريش، وكان يُؤذي رسول الله ﷺ ويَنصِب له العداوة، وكان قد قَدِم الحِيرة وتعلّم بها أحاديث رُستم وإسفنديار، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلساً ذكر فيه الله وحدّث قومه ما أصاب مَنْ كان قبلهم من الأُمَم، وكان النَّضْر يَخْلُفه في مجلسه إذا قام، فقال: أنا والله ـ يا معشر قريش ـ أحسن حديثاً منه، فَهَلُمُّوا فأنا أُحدّثكم بأحسنَ من حديثه؛ ثمّ يُحدّثهم عن ملوك فارس.

ثمّ أنّ قريشاً بعثوه وبعثوا معه عُتبة بن أبي مُعيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهما: سَلوهم عن محمّد وصفته، فأخبروهم بقوله، فإنّهم من أهل الكتاب الأول، وعندهم [من] العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما إلى المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمّد ﷺ، فقال أحبار اليهود: سَلوه عن ثلاث: عن فِتية ذهبوا في الدّهر الأوّل، ما كان من أمرهم؟ فإنّ حديثهم عجيب. وعن رجلٍ طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإنْ أخبركم فهو نبيّ، وإلّا فهو مُتَقَوِّل.

فلمّا قدِم النَّضْر وصاحبه مكّة قالا: قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمّد، وأخبروا بما قاله اليهود، فجاءوا رسول الله ﷺ وسألوه. فقال رسول الله: «أُخبركم بما شئتم غداً» ولم يستثنِ[٥]، فانصرفوا. ومَكَث رسول الله ﷺ فيما يذكُرون خمس عشرة ليلة حتى أرجَف أهل مكّة به وقالوا: وعدنا محمّد

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٦٢٩/٨٨، تفسير الصافي ٣: ٢٣٢.
٢. مجمع البيان ٦: ٦٩٧.
٣. تفسير القمي ٢: ٣١، تفسير الصافي ٣: ٢٣١.
٤. تفسير الرازي ٢١: ٨١.
٥. أي لم يقل: إن شاء الله تعالى.

غداً، واليوم خمس عشرة ليلة، فشقّ ذلك عليه صلى الله عليه وآله، ثمّ جاء جَبْرَئيل من عند الله بسورة أصحاب الكهف، وفيها معاتبة الله إيّاه على حُزنه عليهم، وخبر أُولئك الفِتية، وخبر الرجل الطوّاف[1].

والقمي عن الصادق عليه السلام: «كان سبب نزول سورة كهف أنّ قريشاً بعثوا ثلاثة نفر إلى نَجْران: النضّر بن الحارث بن كَلَدة، وعُقْبَة بن أبي مُعَيْط، والعاص بن وائل السّهمي، ليتعلّموا من اليهود والنصارى مسائل يسألونها رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرجوا إلى نَجْران، إلى علماء اليهود، فسألوهم فقالوا: سلوه عن ثلاث مسائل، فَإنْ أجابكم فيها على ما عندنا فهو صادق.

ثمّ سلوه عن مسألة واحدة، فإن ادّعى علمها فهو كاذب، قالوا: وما هذه المسائل؟ قالوا: سَلُوه عن فتيةٍ كانوا في الزَّمَن الأوّل، فخرجوا وغابوا وناموا، كم بَقَوا في نومهم حتى انتبهوا؟ وكم كان عددهم؟ وأيّ شيء كان معهم من غيرهم؟ وما كان قصّتهم؟ واسألوه عن موسى حين أمره الله تعالى أنْ يَتّبع العالم ويتعلّم منه من هو؟ وكيف تبعه؟ وما كان قصّته معه؟ واسألوه عن طائفٍ طاف مغربَ الشّمس ومَطْلعها حتى بلغ سدّ يأجوج ومأجوج، من هو؟ وكيف كان قصّته؟ ثمّ أملوا عليهم أخبار هذه الثلاث مسائل، وقالوا لهم: إن أجابكم بما أملينا عليكم فهو صادق، وإنْ أخبركم بخلاف ذلك فلا تصدّقوه. قالوا: فما المسألة الرابعة؟ قالوا: سَلُوه متى تقوم الساعة؟ فإن ادّعى علمها فهو كاذب، فإنّ قيام الساعة لا يعلمه إلّا الله تبارك وتعالى.

فرجعوا إلى مكة، واجتمعوا إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب، إنّ ابن أخيك يدّعي أنّ خبر السماء يأتيه، ونحن نسأله عن مسائل، فإن أجابَنا عنها عَلِمنا أنّه صادق، وأنْ لم يُخْبرنا عَلِمنا أنّه كاذب، فقال أبو طالب: سَلوه عمّا بدا لكم. فسألوه عن الثلاث مسائل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: غداً أُخبركم، ولم يستثنِ، فاحتبس الوحي عليه أربعين يوماً حتى اغتمّ النبيّ صلى الله عليه وآله وشكّ أصحابه الذين كانوا آمنوا به، وفَرِحت قريش واستزؤوا به وآذوه، وحَزِن أبو طالب، فلمّا كان بعد أربعين يوماً نزل عليه جَبْرَئيل بسورة الكهف.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جَبْرَئيل، لقد أبطأتَ؟ فقال: إنّا لا نقدِر أنْ ننزِل إلّا بإذنِ الله تعالى، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً**﴾» الخبر[2].

إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً * فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٨٢.
٢. تفسير القمي ٢: ٣١، تفسير الصافي ٣: ٢٣٢.

ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَداً * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً[١٠ـ١٣]

قصة أصحاب الكهف

ثمّ حكى سبحانه قصّتهم بقوله: ﴿إِذْ أَوَى﴾ والتقدير: أذكر إذ أوى والتجأ ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ الذين كانوا من أشراف بَلْدة أُفسُوس (من بلاد الروم) وأبناء أشرافها بعدما أكرههم دقيانوس أو طغيانوس (مَلِك الروم) على الشِّرك وعبادة الأصنام، فأبوا عن ذلك وهربوا منه ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ والغار الواسع الذي كان في جبل كان بنواحي بلدتهم يقال له: يَنْجَلوس[1] على ما قيل[2]، فاختفوا من خوف القتل فيه، فاشتغلوا فيه بالعبادة والمناجاة ﴿فَقَالُوا﴾ تضرّعاً إلى الله: ﴿رَبَّنَا﴾ أي مَليك أمرنا ﴿آتِنَا﴾ وأعطنا ﴿مِن لَدُنكَ﴾ ومن خَزائن رحمتك الواسعة العامة ﴿رَحْمَةً﴾ خاصّة من المغفرة، والأمن من الأعداء، والسلامة في الدين، والسَّعة في الرِّزق ﴿وَهَيِّئْ﴾ وأصلح وأتمم ﴿لَنَا﴾ بلُطفك ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن فيه من هَجْر الوطن المألوف، والفِرار من الكفّار، والقيام لطاعتك، والاهتمام بتحصيل رضاك ﴿رَشَداً﴾ ووصولاً إلى أعلى المقاصد، من الاهتداء إليك والتقرّب لَديك، فاستجبنا دعاءهم ﴿فَضَرَبْنَا﴾ حِجاباً من النوم ﴿عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ يمنعها من سماع الأصوات: فناموا جميعاً ﴿فِي﴾ ذلك ﴿ٱلْكَهْفِ﴾ واستراحوا فيه ﴿سِنِينَ﴾ كثيرة، كانت تعدّ ﴿عَدَداً﴾ معيناً ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ وأيقظناهم من نومهم المشابه للموت ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ونختبر ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ والفريقين المختلفين في مدّة لبثهم في النوم ﴿أَحْصَىٰ﴾ وأضبط ﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ وَبَقُوا في النوم ﴿أَمَداً﴾ وزماناً، أو غايةً لِزَمان بَعْثهم.

عن ابن عبّاس: المراد بالحِزبين الملوك الذين تداولوا المدينة مَلِكاً بعد ملك، فالملوك حزب، وأصحاب الكهف حزب[3].

وقيل: الحزبان من الفتية، لأنهم اختلفوا بعد انتباههم في أنّهم كم ناموا؟[4]

وقيل: إنّهما المسلمون، فإنّهم اختلفوا[5] في مدّة لبث أصحاب الكهف[6].

ثمّ بيّن سبحانه سبب التجائهم إلى الكهف، وسؤالهم الرشد بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ ونبيّن لك خبر أصحاب الكهف و﴿نَبَأَهُم﴾ حال كون ذلك النبأ مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ ودلائل الصدق، من إعجاز البيان، ومطابقته للكتب، أو متلبّساً بالمطابقة للواقع من غير زيادة ونقصان ﴿إِنَّهمْ فِتْيَةٌ﴾ وشبّان

---

١. يَنْجَلوس: اسم الجبل الذي فيه أصحاب الكهف. ٢. بحار الأنوار ١٤: ٤٣٢.

٣ و ٤. تفسير الرازي ٢١: ٨٤.

٥. في تفسير الرازي: قال الفراء: إن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا.

٦. تفسير الرازي ٢١: ٨٤.

﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ ورَفضوا عبادة الأصنام، واهتدوا إلى الحقّ بالنظر والاستدلال ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ على هدىً ويقيناً على يقين، ونوراً في القلب على نور، وثباتاً على ثبات، برؤية آثار توحيد الله وقدرته، والعلم بنتائج الإيمان وحُسن عاقبته.

قيل: إنّ سبب إيمانهم أنّ حوارياً من حواريي عيسى أراد أنْ يدخُل مدينتهم، فقيل له: إنّ على بابها صنماً لا يدخُلها أحد إلّا سجد له، فامتنع من خولها، وأتى حمّاماً كان قريباً من المدينة، فآجر نفسه فيه، فكان يعمل فيه، فتعلّق به فتية من أهل المدينة، فجعل يُخبر خبر السّماء وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدّقوه.

ثمّ إن ابن الملك أراد دخول الحمّام بامرأة، فنهاه الحَواري فانتَهَره ابن المَلِك، فلمّا دخل مع المرأة ماتا في الحمّام، فقيل للمَلِك: إنّ العامل في الحمّام قتله، فهرب الحواري فطلبه المَلِك ولم يجده، فقال: من كان يَصْحَبه؟ فسمّوا الفتية، فهربوا إلى الكهف[1].

وقيل: إنّ دقيانوس سخّر ممالك الرّوم، ثمّ جاء إلى بلد يقال له أُفسُوس فاتّخذه دار سلطنته وبنى فيه مذبحاً للأصنام، وأمر أهل البلد بعبادتها، وكان يقتُل كلّ من تمرّد عن طاعته، وكان في المدينة ستّة شبّان كلّهم من عُظَماء البلد ومن أولاد العظماء، وكانوا مؤمنين بالله، فاعتزلوا عن الناس، واشتغلوا بعبادة الله، وسألوا الله أن يَحْفَظهم من فتنة المَلِكِ الجبّار وأن يأمنهم من شرّه، فأُخبر دقيانوس بدينهم واعتزالهم، فأمر بإحضارهم وأصرّ في انصرافهم عن التوحيد والتزامهم بعبادة الأصنام، فامتنعوا عن طاعته[2].

وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلٰهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً * هٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً * وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللهَ فَأْوُوا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِن رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِنْ أَمْرِكُم مِرْفَقاً[١٤ ـ ١٦]

فأخبر الله عن تأييده لهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وثبّتناهم على الدين وألهمناهم الصبر، وشرحنا صدورهم للإيمان حتى اقتحموا مضايق الصبر على القتل، أو هجر الأقارب والأهل، وتركوا

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٢١.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٢١٩.

الجاه والنِعم، واجترأوا على الصدع بالحقّ من غير خوف وحَذَر[1] من بأس دقيانوس الجبّار **﴿إِذْ قَامُوا﴾** بين يديه **﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾** وحده **﴿لَن نَدْعُوَا﴾** أو لا نعبُد أبداً **﴿مِن دُونِهِ إِلٰهاً﴾** ومعبوداً آخر، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، فأمّا إنْ قلنا بألوهية غيره **﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾** وقولاً متجاوِزاً عن حدود العقل.

قيل: إنّ دقيانوس لمّا رأى تمرّدهم أمَرَ أنْ يُنزع منهم الحُلَل وقال: أنتم شُبّان ليس لكم كثير سنّ ولا تجربة، وإنّي أُمهلكم أيّاماً قَلائِلَ لِكَي تتفكّروا في صَلاحكم من طاعتي ومخالفتي، فخرج المَلِك من البلد فَاغْتَنَم الفِتْية الفُرصة[2]، وقالوا: **﴿هٰؤُلاءِ قَوْمُنَا﴾** وأهل بلدنا أعرضوا عن الله و**﴿ٱتَّخَذُوا﴾** لأنفسهم **﴿مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾** وعبدوا الأصنام لفرط جهلهم وغاية ضلالهم، مع أنّ الألوهيّة لابدّ لها من دليلٍ قاطع، وهؤلاء القومُ الذين يعبُدون الأصنام **﴿لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾** ولم لا يقيمون على صحّة عبادتهم حجّة واضحةً؟ **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً﴾** بنسبة الشِّرك إليه.

عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: **﴿قَامُوا﴾** قال: إنّهم كانوا عظماء مدينتهم، فخرجو فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد، فقال رجل منهم أكبر القوم: إنّي لأجد في نفسي شيئاً ما أظنّ أحداً يجده. قالوا: ماتجد؟ قال: أجد في نفسي أنّ ربّي ربّ السماوات والأرض[3].

وقيل: إنّهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم في الكهف[4].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ أصحاب الكهف والرّقيم كانوا في زمان ملكٍ جبّارٍ عاتٍ، وكان يدعو أهل مملكته إلى عبادة الأصنام، وكانوا هؤلاء قوماً مؤمنين يعبُدون الله عزّ وجلّ ووَكّل المَلِك بباب المدينة وكلاءَ، ولم يَدَع أحداً يخرُج حتى يسجُد للأصنام، فخرج هؤلاء بعلّة الصيد»[5].

وعنه عليه السلام أيضاً: «خرج أصحاب الكهف على غير معرفة ولا ميعاد، فلمّا صاروا في الصحراء أخذ بعضهم على بعض العهود والمواثيق، فأخذ هذا على هذا، وهذا على هذا، ثمّ قالوا: أظهِروا أمركم، فأظهَروه فإذا هم على أمرٍ واحد»[6].

وعنه: «ما بلغت تقيّة أحد تقيّة أصحاب الكهف، إنّهم كانوا يَشْهَدون الأعياد، ويشدو الزنّانير[7]، فأعطاهم الله أجرهم مرّتين»[8].

---

١. في النسخة: وحذار. ٢. تفسير روح البيان ٥: ٢١٩. ٣. تفسير الرازي ٢١: ٩٧.

٤. تفسر الرازي ٢١: ٩٨. ٥. تفسير القمي ٢: ٣٢، تفسير الصافي ٣: ٢٣٢.

٦. تفسير العياشي ٣: ٢٦٣٠/٨٨، تفسير الصافي ٣: ٢٣٥.

٧. الزّنانير: جمع زُنّار، وهو شيء يشدّه الذمّي على وسطه.

٨. تفسير العياشي ٣: ٢٦٣٣/٨٩، تفسير الصافي ٣: ٢٣٤.

وعنه عليه السلام أنّه ذكر أصحاب الكهف فقال: «لو كلّفكم قومكم ما كلّفهم!» فقيل: ما كلّفهم قومهم؟ فقال: «كلّفوهم الشِّرك بالله العظيم، فأظهروا لهم الشِّرك وأسرّوا الإيمان حتى جاءهم الفَرَج»[١].

وعنه: «أنّ مَثَل أبي طالب مَثَل أصحاب الكهف: أسرّوا الإيمان وأظهروا الشِّرك، فآتاهم الله أجرهم مرّتين»[٢].

أقول: مقتضى هذه الروايات أنّهم لم يُظهروا إيمانهم في بلدهم، لا عند دقيانوس ولا عند القوم، فلابدّ من كون المراد من (قيامهم) إقدامهم على إظهار التّوحيد بعضهم لبعض.

عن الصادق عليه السلام: «أنّهم مرّوا في طريقهم براعٍ، فدعَوه إلى أمرهم فلم يُجبهم، [وكان مع الرّاعي كَلْبٌ] فأجابهم الكلب وخرج معهم»[٣].

وروى بعض العامّة أنّ الراعي قال لهم: لا تخافوا منّي فإنّي أحبّ الله، فوافقهم وصاحَبَهم في الطّريق مع كلبه، فذهبوا حتى قربوا من جبل قريب من بلدهم يقال له ينجلوس، فقال له تمليخا كبيرهم حين أمنوا من كيد قومهم[٤]: ﴿وَإِذِ﴾ فارقتم قومكم و ﴿ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ وجانبتموهم واعتزلتم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام ﴿إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُوا﴾ والتجأوا ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ الذي يكون في هذا الجبل، واتّخِذوه مأوى ومسكناً، واعبُدوا ربّكم فيه ﴿يَنْشُرْ﴾ ويبسُط ﴿لَكُمْ﴾ ويوسّع عليكم ﴿رَبُّكُم﴾ ومالك أمركم اللطيف بكم بعضاً ﴿مِن رَحْمَتِهِ﴾ الواسعة في الدارين، ﴿وَيُهَيِّئْ﴾ ويُسهّل ﴿لَكُم﴾ موافقاً لصلاحكم ﴿مِن أَمْرِكُم﴾ الذي أنتم عليه من الفِرار بدينكم ﴿مِرْفَقاً﴾ ومستراحاً.

قيل: إنّهم لمّا قربوا من الجبل قال لهم الرّاعي: إنّ في هذا الجبل كهفاً فأْوُوا إليه، فتوجّهوا الى الغار، ولمّا سكنوا فيه أنطقَ الله الكلب فقال لهم بلسان فصيح: إنّي أُحبُّ من أَحبَّ الله، فناموا أنتم وأنا أحْرِسكم، فسلّط الله عليهم النّوم فناموا[٥].

قيل: إنّ دقيانوس رجع إلى بلد أُفْسُوس بعد أيّام، فسأل عن الشُّبّان فأخبروه بفرارهم، فأحضر آباءهم وكلّفهم أن يُحضِروا أبناءهم، فقالوا: إنّهم أخذوا أموالنا وهَرَبُوا[٦].

وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٦٣٢/٨٨، تفسير الصافي ٣: ٢٣٤.

٢. الكافي ١: ٢٨/٣٧٣، تفسير الصافي ٣: ٢٣٤.

٣. تفسير القمي ٢: ٣٢، تفسير الصافي ٣: ٢٣٣.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢١٩.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٢١٩.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٤.

وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً[١٧]

ثمّ بيّن الله كيفية حِفْظهم أحياء[١] في الغار مدّةً طويلةً بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ يا محمّد لو رأيتهم ﴿إِذَا طَلَعَت﴾ من اُفق المشرق ﴿تَزَاوَرُ﴾ وتَميل ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ الذي يكونون فيه ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ وجهته من الكهف، فلا يَقَع عليهم شُعاعُها فيُؤذيهم ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ الشّمسُ ومالت إلى اُفق المَغربِ تَراها ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾ وتَعْدِلُ من سَمْت رُؤوسهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وجانِبه من الكهف ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ﴾ ومُتّسعٍ ﴿مِنْهُ﴾، فَصانَ الله أجسادهم من الفساد بعدم وصول حرّ الشّمس إليهم في حالٍ من الأحوال، ووصول الهَواء الطيّب والنّسيم إليهم.

قيل: إنّ ذلك كان لأجْل أنّ بابَ الكهف كان في طرف الجنوب[٢]. وقيل: إنّه كان بقدرةِ الله وخَرْقِه لِلعادَة كرامةً لهم[٣]، وإليه أشار سبحانه بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ الصُّنع الذي صَنَع اللهُ بهم من تَزاوُرِ الشّمس وقَرْضِها حالتي الطُّلوعِ والغُروب مع كونهم في مَعْرَض شُعاعها آيةٌ ﴿مِنْ آيَاتِ ٱللهِ﴾ العَجيبة الدالةِ على كَمال عِلمه تعالى وقُدرته وإكرامه المؤمنين به الموحّدين له.

ثمّ بيّن سبحانه حُسْن نتائج التوحيد والإيمان ترغيباً إليه، وسوء تَبعات الشِّرك زَجْراً عنه بقوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللهُ﴾ ويوفّقه لقبول توحيده ومعارفه ﴿فَهُوَ﴾ بالخصوص ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾ إلى كلّ فلاحٍ ونَجاحٍ وخيرٍ وسَعادة في الدارين ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ عن الحقّ ويحرفه إلى الطريق الباطل بخِذْلانه ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ يا محمّد ﴿لَهُ﴾ أبداً ﴿وَلِيّاً﴾ وناصِراً و﴿مُرْشِداً﴾ وهادِياً يَهْدِيه إلى الحقّ وطَرِيق الصَّواب. وفيه التّنبيه على أنّ إيمانَهم حُدوثاً وبقاءً بِلُطْفِ الله وتوفيقه.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «أنّ الله تبارك وتعالى يُضِلّ الظالمين يوم القيامة عن دار كرامته ويهدي أهل الإيمان والعمل الصالح إلى جنّته». الخبر[٤].

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً * وَكَذٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هٰذِهِ إِلَى

---

١. في النسخة: حيّاً.   ٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٤.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٥.

٤. معاني الأخبار: ١/٢٠، التوحيد: ١/٢٤١، تفسير الصافي ٣: ٢٣٥.

ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً * إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً[١٨ ـ ٢٠]

ثمّ بعد بيان كيفيّة حِفْظَهم بَيَّن سبحانه حالهم في الكهف بقوله: ﴿**وَتَحْسَبُهُمْ**﴾ لو رأيتهم يامحمّد فيه ﴿**أَيْقَاظاً**﴾ مُنْتَبِهين لانفِتاح عُيونهم كأنهم ناضرين ﴿**وَهُمْ رُقُودٌ**﴾ وَنِيامٌ ﴿**وَنُقَلِّبُهُمْ**﴾ ونُحَوِّلُ أجسادَهم ﴿**ذَاتَ ٱلْيَمِينِ**﴾ وجانِبه تارةً ﴿**وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ**﴾ وناحيته أُخرىٰ في كلِّ سَنَةٍ، كما قال أبو هريرة[١]. أوفي كلِّ تِسْع سِنِينَ، كما عن مجاهد[٢]. لِئلّا تأكُلَ الأرضُ لُحُومَهم ولا تُبْلِيهم، كما عن ابن عباس[٣]. ﴿**وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ**﴾ ومُفْتَرِش ﴿**ذِرَاعَيْهِ**﴾ ويديه ﴿**بِالْوَصِيدِ**﴾ وفِناءِ الكهف، أو بابه كأنّه يَحْرُسهم.

قد سبق القول بأنّه كلب الرّاعي، وقيل: إنّه كلبُ صَيدهم[٤]، وقيل: إنّه كلب نَبَح عليهم في الطريق فَطَردوه مِراراً، فقال لهم الكلب: لا تخشوا مِنّي فإنّي اُحِبّ أحِبّاءَ الله، فناموا حتى أحرُسكم.[٥] وروى بعض العامة أنّه كان أسداً[٦].

عن الصادق عليه السلام: «لا يدخُل الجنّة من البهائم إلّا ثلاثة: حمار بلعم بن باعورا، وذئب يوسف، وكلب أصحاب الكهف»[٧].

وروى بعض العامّة أنّه يدخُل مع المؤمنين في الجنّة عشرة من الحيوانات: ناقة صالح، وعِجْل إبراهيم، وكَبْش إسماعيل، وبقرة موسى، وحُوت يونس، وحمار عزير، ونملة سليمان، وهُدهُد بلقيس، وكلب أصحاب الكهف، وناقة محمّد صلى الله عليه وآله، فكلّهم يصيرون على صورة كبش ويدخُلون الجنّة[٨].

وروى الثعلبي أنّ من سَلّم على نوح كلّ يومٍ ولَيلةٍ أمِن من لَدْغ العقرب، ومن كتب: ﴿**وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**﴾ وجعله معه، أمِن من ضرر الكلب[٩].

ثمّ بيّن سبحانه هيبتهم الحافظة لهم بقوله:﴿**لَوِ ٱطَّلَعْتَ**﴾ يا محمّد وأشرفت ﴿**عَلَيْهِمْ**﴾ بالمعاينة ﴿**لَوَلَّيْتَ**﴾ وفررت ﴿**مِنْهُمْ فِرَاراً**﴾ من هيبة صورتهم ﴿**وَلَمُلِئْتَ**﴾ وَامْتَلأ صدرك ﴿**مِنْهُمْ رُعْباً**﴾ وخوفاً، لطُول شُعُورهم وأظفارهم، وفَتْح أعيُنِهم كَالْيَقْظان الذي يُريد أنْ يتكلّم، كما قيل[١٠].

---

١ ـ٥. تفسير الرازي ٢١: ١٠١.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٦.

٧. تفسير القمي ٢: ٣٣، تفسير الصافي ٣: ٢٣٣.

٨ و٩. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٦.

١٠. تفسير الرازي ٢١: ١٠١، تفسير روح البيان ٥: ٢٢٧.

نُقل أنّ معاويَة مرّ بالكهف فقال: لو كُشف عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عبّاس له: ليس لك ذلك، قد منع الله من هو خير منك. فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلمَ. فبعث أُناساً وقال لهم: اذهبوا فانظروا، فلمّا دخلوا الكهف جاءت ريحٌ فأخرجتهم[1].

ثمّ قيل: إنّه مات دقيانوس وانقضى ملكه، وتعاقبت ملوك كثيرة بعده إلى أن وصل الملك إلى رجل يقال له تندروس، وكان مؤمناً صالحاً، واختلف أهل مملكته في صحة الحشر، وأنكره أكثرهم، كلّما نصحهم المَلِك لم يقبلوا. فأراد الله أنْ يُقِيم لهم دليلاً على الحشرِ، فايقظ أصحاب الكهف[2].

فحكى الله سبحانه ذلك لأُمّة محمّد ﷺ تأكيداً للحجّة عليهم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الإنامَةَ لأصحاب الكهف في المدّة الطويلة، مع حِفظ أجساهدهم وثيابهم من البَلى ﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾ وأيقظناهم من نومهم ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾ فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وكان تساؤلهم أن ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ وهو رئيسهم يقال له مكشلينا أو مكسلمينا، أو تمليخاً، كما عن ابن عباس[3] للفتية لما رأى من طول شعورهم وأظفارهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في النوم يا أصحابي؟ فأجاب الآخرون و﴿قَالُوا﴾ نظراً إلى أنّ دخولهم في الكهف كان أوّل النّهار وحسبانهم الوقت آخره: ﴿لَبِثْنَا يَوْماً﴾ فلمّا رَأوا أنّ الشمس لم تَغْرُب بعد قالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وقيل: إنّهم انتبهوا حين ارتفاع الشمس فقالوا: إنْ نُمْنا أمس كانت مدّة نومنا يوماً، وإنْ نُمْنا في اليوم كانت مدّته بعضَ يوم، فلمّا رأى بعضهم أمارات طول المدّة، من طول الشعر والأظفار ولا يمكنهم تعيينها[4] ﴿قَالُوا﴾ أعرضوا عن البحث ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وَاشْتَغِلُوا بما يهمّكم، فإن تُريدون قُوتَ اليوم ﴿فَابْعَثُوا﴾ وأرسلوا ﴿أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ والفِضّة المضروبة ﴿هَٰذِهِ﴾ التي عندكم ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ التي كنّا فيها ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ المبعوث في أهل المدينة من بائعي الطّعام ﴿أَيُّهَا﴾ ومن يكون فيها ﴿أَزْكَىٰ﴾ وأطْيَبْ وَأجَلّ ﴿طَعَاماً﴾ ومأكولاً ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ﴾ وقُوتٍ تقومون به ﴿مِنْهُ﴾.

قيل: كان في زمان كون الفتية في المدينة جماعة مؤمنون يكتُمُون إيمانهم، وكانت ذبيحتهم محلّلَة[5]، وكان غرضهم الشراء منهم.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وَلْيُبالغْ في الاخْتفاء وعدم التعرّف، من حين الدخول في المدينة إلى الخروج منها ﴿وَلا يُشْعِرَنّ﴾ البتة ﴿بِكُمْ﴾ ذلك المبعوث ﴿أَحَداً﴾ من أهل المدينة؛ لأنّه إنْ عرفكم واحدٌ منهم شاعَ خبركم فيها.

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٧، تفسير روح البيان ٥: ٢٢٧، وفيهما: ريح فأحرقتهم.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٨.

٣. تفسير الرازي ٢١: ١٠٣، وفيه: يمليخا.

٤. تفسير البيضاوي ٢: ٧.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٩.

ثمّ حكى سبحانه مبالغتهم في الاختفاء بذكر علّته بقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا﴾ ويطّلعوا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ويَظْفَروا بكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ ويَقتُلوكم بالرَّمي بالأحجار إنْ ثبتّم على دينكم ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ من عبادة الأصنام، ويَدخلوكم فيها إنْ لم توطَنوا أنفسكم على القتل ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة. فإنّ الإجابة الظّاهريّة قد تؤدّي إلى الإجابةِ الحقيقيّة الواقعيّة.

ثمّ قيل: إنّهم بعثوا تمليخا ـ وكان له كمال عقلٍ وفَطانة ـ إلى المدينة، فلمّا وصل إليها رأى بابها متغيّراً، فلمّا دخلها رأى أسواقها وسككها وأوضاع أهلها على غير النحو الذي رآها سابقاً، فغلبت الحَيرة عليه، فجاء إلى دكّة الخبّاز فأعطاه درهماً ليشتري به الخبز، وكان عليه اسم دقيانوس أو صورته، فتخيّل أنّه وجد كنزاً فأراه أهل السوق ، فَانتشر الخبر فيه حتى اتّصل الخبر بحاكم المدينة، فطلب تمليخا وهدّده وقال: جئني ببقيّة الكنز، فقال تمليخا: إنّا ما وجدنا كنزاً، إنّما أخذت هذا الدِّرْهَم من دار أبي بالأمسِ، وجئتُ اليومَ لأشتري به من السوق طعاماً. فسألوه عن اسم أبيه وحليته فأخبرهم، فلم يعرفه أحدٌ فكذّبوه، فأخذته الدهشة. فقال: أذهبوا بي إلى دقيانوس المَلِك. فإنّه عارفٌ بي وبأبي فاستهزءوا به[1] وقالوا: إنّ دقيانوس مات قريباً من ثلاثمائة سنة، فقال تمليخا: أنا وجماعة من أصحابي فررنا منه بالأمسِ إلى جَبَلٍ قَرِيبٍ من هذا البلد، واليوم بعثني أصحابي لأشتري لهم الطعام، لا أعلم غير هذا الذي أقول.

فذهب الحاكم به إلى المَلِك، فَاستخبره الحالَ، فأخبره تمليخا بمثل ما أخبر به غيره، فتوجّه المَلِك وأشراف البَلَد مع تمليخا إلى الغار، فتقدّمهم تمليخا، وأخبر أصحابه بالقضيّة، فلمّا وصل المَلِك إلى الكَهْفِ رأى لوحاً منصوباً على بابه، مكتوبٌ فيه أسامي أصحاب الكهف وقصّتهم، فقرءوه وأطّلعوا على أحوالهم[2].

وَكَذٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا اَنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَ عَلَيْهِم مَسْجِداً[٢١]

ثمّ بيّن سبحانه علّة إطّلاع النّاس عليهم بقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ الإنامةُ، والبعث الدالّين على كَمالِ قدرتنا وحكمتنا ﴿أَعْثَرْنَا﴾ النّاسَ واطّلعناهم ﴿عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا﴾ بتلك الإنامة والبعث ﴿اَنَّ وَعْدَ ٱللهِ﴾ بالإحياءِ بعد الموت للحساب ﴿حَقٌّ﴾ وصدق، لا خُلف فيه لوقوع نظيره في الفتية ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾

---

١. في النسخة: فاستهزؤه.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٣٠.

والقيامة آتية ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ ولا مجال للشك في وقوعها، اذكر يا محمد ﴿إِذْ﴾ الناس ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ فيما ﴿بَيْنَهُم أَمْرَهُمْ﴾ وفي تدبير إخفاء مكانهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ﴾ وعلى باب كهفهم ﴿بُنْيَاناً﴾ وجِداراً يمنع من تطرّق الناس إليهم، ومن إطّلاع النّاس على مكانهم ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وبشأنِهم، لا حاجةَ إلى إطّلاعِ الغير بمكانهم.

وقيل: إنّ الكُفار قالوا: إنّهم منّا فابنُوا عليهم صَوْمَعة[١]. ثمّ قال سبحانه: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ منهم، فتكون الجملة معترضة.

﴿قَالَ﴾ المَلِك والمؤمنون ﴿الَّذِينَ غَلَبُوا﴾ واطّلعوا ﴿عَلَى أَمْرِهِم﴾ وحالهم: واللهِ ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم﴾ ونبنينَّ على باب كهفهم ﴿مَسْجِداً﴾ يصلّي فيه المسلمون، ويتبرّكون بمكانهم. وقيل: إنّ كلمة (إذْ) متعلقةٌ بأعثرنا، والمعنى: أعثرنا عليهم حين يَتَنازعَون في أمر البعث[٢].

رُوي أنّ مَلِك ذلك الوقت كان يُنكِر البعثَ إلّا أنّه مع كفره كان منصفاً، فجعل الله أمر الفتية دليلاً للملك[٣]. وقيل: بل اختلفت الأُمّة في ذلك الزمان، فقال بعضهم: الجسدُ والروح يُبعثان، وقال آخرون: الروح تُبعَث، وأمّا الجسد فتأكُله الأرض[٤].

ورُوي أنّ قوم تندروس لمّا اختلفُوا في البعث مُقِرِّين وجاحدين، دخل المَلِك بيته وأغلق بابَه، ولَبِس مِسحاً[٥]، وجلس على رَمادٍ، وسأل ربَّه أنْ يُظْهِرَ الحقّ، فألقى اللهُ في قلب رجل من الرُّعاة، فهدَ السدّ الذي بناه دقيانوس على باب الكهف لإهلاك الفتية ليتّخذ حظيرة لغنمه، فعند ذلك بعثهم الله تعالى. فلمّا انتشر خبرهم واطّلع عليهم المَلِك وأهل المدينة مُسْلِمهم وكافرهم، كلّموهم وحمدوا الله على الآية الدالّة على البعث.

ثم قالت الفتية للمَلِك: نستودعك الله ونُعيذك به من شرّ الجن والإنس، ثمّ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وماتوا، فألقى المَلِك عليهم ثيابه، وأمر فجعل لكلّ واحدٍ تابوتاً من ذهب، فرآهم في المنام كارهين للذّهب فجعلها من الساج، وبنى على باب الكهف مسجداً[٦].

وقيل: إنّهم كانوا يتنازعون في أنّ أصحاب الكهف ماتوا بعد العود إلى الكهف، أو ناموا كنومهم السابق؟[٧] وقيل: يتنازعون في أنّهم على أيّ دين؟ قال الكفّار: إنّهم كانوا على ديننا، فنبني عليهم بنياناً، وقال المؤمنون: إنّهم على ديننا ونتّخد عليهم مسجداً. وقيل: إنّ التنازع كان في مدّة لَبثهم. وقيل: في عددهم، وأسمائهم، وأحوالهم، ومدّة لبثهم، فلمّا لم يَهتدوا إلى شيءٍ منه قالوا: ربّهم أعلم بهم. وقيل:

---

١ ـ٤. تفسير الرازي ٢١: ١٠٥.
٥. المِسح: الكساء من شعر.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٣٢.
٧. تفسير الرازي ٢١: ١٠٥.

إنّ هذا اعتراض وكلام من الله، ردّاً للخائضين في حديثهم[١].

سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِنْهُمْ أَحَداً[٢٢]

ثمّ حكى سبحانه التنازع في عددهم بقوله: ﴿**سَيَقُولُونَ**﴾ إنّ أصحاب الكهف عددهم ﴿**ثَلَاثَةٌ**﴾ لا أزيَد و﴿**رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾ وظاهر الآية أنّ هذا التنازع كان في عهد النبيّ ﷺ، كما روي أنّ السيّد والعاقب وأصحابهما من أهل نَجْران كانوا عند النبيّ ﷺ، فجرى ذِكر أصحاب الكهف، فقال السيّد ـ وكان يعقوبيّاً ـ: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب ـ وكان نُسْطُوريّاً ـ: كانوا خمسة سادسهم كلبهم، وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم[٢]، فنزل: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾ وهذان القولان يكونان ﴿**رَجْماً بِالغَيْبِ**﴾ ورمياً بما يخفى على الناس، وكلاماً من غير دليل، أو ظنّاً به ﴿**وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾.

قيل: في تعقيب القولين الأوّلين بقوله: ﴿**رَجْماً بِالْغَيْبِ**﴾ دلالة على أنّ القول الثالث ليس كذلك[٣].

وقيل: إنّ ذِكر الواو هنا دالّ على إثبات هذا القول وتصحيحه[٤].

عن ابن عباس قال: حين وقعت الواو انقطعت العدّة، يعني لم يبق بعدها عدّة عادٍّ يُعتدّ بها، وثبت أنّهم سبعة وثامنهم كلبهم قطعاً وجزماً[٥].

﴿**قُل**﴾ يا محمّد تحقيقاً للحقّ وردّاً على القولين الأوّلَين: ﴿**رَبِّى أَعْلَمُ**﴾ من أهل الكتاب، من اليهود والنصارى ﴿**بِعِدَّتِهِم**﴾ وعددهم، وبَعْدَه تعالى ﴿**مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ من النّاس كالنبيّ والوصيّ والذين وفّقهم الله للاستشهاد بالقرائن على الحقّ. قال ابن عباس: أنا من ذلك القليل[٦].

روى الفخر الرازي وبعض العامة عن علي عليه السلام: «أنّهم سبعة نفر وأسماؤهم هذا: يمليخا، ومكسلمينا، ومسلثينا، وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين المَلِك، وكان عن يساره مرنوس، ودبرنوس، وسادنوس، وكان المَلِك يستشير هؤلاء الستّة في مُهمّاته، والسابع هو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من مَلِكهم، واسمه كفشططيوش أوكفيشيططيوش، واسم كلبهم قطمير[٧].

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢١: ١٠٥.
٣. تفسير الرازي ٢١: ١٠٦.
٤. تفسير الرازي ٢١: ١٠٦.
٥. جوامع الجامع: ٢٦٤، تفسير روح البيان ٥: ٢٣٣.
٦. جوامع الجامع: ٢٦٤، تفسير الرازي ٢١: ١٠٦، تفسير روح البيان ٥: ٢٣٣.
٧. تفسير الرازي ٢١: ١٠٦، تفسير أبي السعود ٥: ٢١٦، تفسير روح البيان ٥: ٢٣٣.

وعن (المجمع): أسماؤهم: مكسلمينا، تمليخا، ومرطولس، ونينونس، وسارينونس، ودربرنس، وكشوطبنونس[١].

وقيل: مكشلينا، وتمليخا، ومثلنيا، ودبرنوش، ومرنوش، وشادنوش، ومرطونس[٢].

وقيل: مكشلينا، ونملسا، وتمليخا، ومرطونس، أو بسوطولس، ونيورس أو بسرطوس، وبكريوس، وبطيوس[٣].

عن ابن عبّاس: أنّ أسماء أصحاب الكهف تصلُح للطلب، والهرب، وإطفاء الحريق، تُكتَب في خِرقة ويُرمى بها في وسط النار، ولبكاء الطفل تُكتَب وتُوضَع تحت رأسه في المَهْد، وللحرث تُكتَب في قِرطاس وتُرفَع على خشبٍ منصوبٍ في وسط الزرع، وللضربان وللحُمَى المُثلّثة[٤]، والصُداع، والغِنى، والجاه، والدخول على السلاطين تُشَدّ على الفَخِذ اليُمنى، ولعُسر الولادة تُشدّ على الفَخِذ اليسرى، ولحفظ المال، والركوب في البحر، والنجاة من القتل[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّه يخرُج مع القائم عليه السلام من ظهر الكعبة سبعة وعشرون رجلاً، خمسة عشر من قوم موسى الذين كانوايهدون بالحقّ وبه يعدلون، وسبعة من أهل الكهف، ويُوشَع بن نون، وسلمان، وأبو دُجانة الأنصاري، والمِقداد، ومالك الاشتر، فيكونون بين يديه أنصاراً وحكّاماً»[٦].

ثمَ لمَا أخبر الله نبيّه بعدد أصحاب الكهف، نهاه عن مناظرة أهل الكتاب فيهم بقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ ولا تُجادِل يا محمّد أهل الكتاب ﴿فِيهِم﴾ وفي شأنهم ﴿إِلَّا مِرَاءً﴾ وجِدالاً ﴿ظَاهِراً﴾ غير متعمّق فيه، بأن تُخْبِرهم بما أُوحي إليك من غير تجهيل لهم والردّ عليهم، لظهور جهلهم به، فإنّ الجِدال مع وضوح بطلان قول الخصم منافٍ لمكارم الأخلاق ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾ ولا تسأل شأنهم ﴿مِنْهُمْ﴾ ومن غيرهم من الخائضين فيه ﴿أَحَداً﴾ بعد ما علّمك الله أحوالهم بالوحي، فلا حاجة لك إلى الاستفتاء والسؤال، خصوصاً مع جهل غيرك.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً * إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللهُ وَٱذْكُر رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذَا رَشَداً * وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعاً * قُلِ ٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ

---

١. مجمع البيان ٦: ٧١٠.
٢ و٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٣٣.
٤. التي تعاود المريض كل ثلاثة أيام مرّة.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٣٣.
٦. روضة الواعظين: ٢٦٦، تفسير الصافي ٣: ٢٣٧.

أَحَداً[٢٣_٢٦]

ثمَ أنّه تعالى بعد إظهار لُطفه بنبيّه ﷺ بِنَهيه عن المُجادله والسؤال، نهاه عن الاعتماد على نفسه في الأمور المستلزمة لأمره بالاعتماد على مشيئته تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاىْءٍ﴾ من الأشياء وأمرٍ من الأمور ﴿إِنِّى فَاعِلٌ ذٰلِكَ﴾ الشيءَ ﴿غَداً﴾ اعتماداً على استقلالك في فعله في حالٍ من الأحوال ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾ ذلك الشَّيء والأمر. وعن الصادق عليه السلام قال: «ما لم ينقطع الكلام».[١]

وقد مرّت رواية العامة والخاصة في أنّه احتبس الوحي عنه ﷺ لعدم تعليقه الوعدَ بالجوابِ على مشيئة الله[٢].

وفي رواية عن الباقر عليه السلام: «أن رسول الله ﷺ أتاه ناسٌ من اليهود فسألوه عن أشياء فقال لهم: تعالوا غداً أُحدّثكم، ولم يستثنِ، فاحتبس جَبْرئيل أربعين يوماً، ثمّ أتاه فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاىْءٍ﴾ الآية»[٣].

ثمّ أمره الله بذكره بقوله: ﴿وَٱذْكُر رَبَّكَ﴾ بِقَولِ: إنْ شاء الله ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ وتركت ذكره. وفي رواية عن الصادق عليه السلام قال: «ذلك في اليمين، إذ قلتَ واللهِ لأفعلُ كذا، فإذا ذكرتَ أنّك لم تستثنِ فقل: إنْ شاء الله»[٤].

وعنه عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: الاستثناءُ في اليمينِ متى ما ذكر، وإن كان بعد أربعين صباحاً، ثمّ تلا هذه الآية»[٥].

وعنه عليه السلام: «للعبد أن يستثنِ مابينه وبين أربعين يوماً إذا نسي»[٦].

وعن الباقر عليه السلام _ في رواية _ قال: «وقد قال الله لنبيّه ﷺ في الكتاب: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً * إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ لا أفعله، فان سبقت[٧] مشيئة الله في أنْ لا افعله فلا أقدر على أنْ أفعله، فلذلك قال عزَ وجلَ: ﴿وَٱذْكُر رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي استثنِ مشيئة الله في فعلك»[٨].

وعنه عليه السلام: «إنّ آدم لمّا أسكنه الله الجنّه فقال له: يا آدم. لا تقرَب هذه الشجرة. فقال: نعم، ولم يستثن، فأمر الله نبيّه ﷺ فقال: ﴿ولا تقولَنّ لِشَاىْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿إذا نَسِيتَ﴾ ولو بعد سَنَة»[٩].

---

١. جوامع الجامع: ٢٦٤، تفسير الصافي ٣: ٢٣٨.
٢. مرّت الرواية في تفسير الآية (٩) من هذه السورة.
٣. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٠٨١/٢٢٩، وتفسير الصافي ٣: ٢٣٨، عن الصادق عليه السلام.
٤. الكافي ٧: ٣/٤٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٣٨.
٥. تفسير العياشي ٣: ٢٦٤٦/٩٢، الكافي ٧: ٦/٤٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٣٨.
٦. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٠٨١/٢٢٩، تفسير الصافي ٣: ٢٣٨.
٧. في الكافي: أفعله، فتسبق.
٨. الكافي ٧: ٢/٤٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٣٩.
٩. تفسير العياشي ٣: ٢٦٣٩/٩٠، تفسير الصافي ٣: ٢٣٩.

وعن الصادق عليه السلام: «أنّه أمر بكتابٍ في حاجةٍ فكُتِب، ثمّ عُرِض عليه ولم يكُن فيه استثناء فقال: كيف رَجَوتم أنْ يتِمّ هذا وليس فيه استثناء؟ انظُروا كلّ موضعٍ لا يكون فيه استثناء فاستثنوا فيه»[١].

وقيل: إنّ المراد اُذكر ربّك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيتَ كلمة الاستثناء[٢].

وقيل: يعني اُذكُر ربّك إذا نسيتَ شيئاً، فإنّ ذِكر الله يُذكِّر المنسي[٣].

ويُحتَمل أن يكون المراد: إذا نسيتَ شيئاً فلا تنسينَّ ذِكْر الله، بل اذكُره في كلّ حال.

وقيل: إنّ المراد من ذكر الله الصلاة: والمعنى صلِّ الصلاةَ المَنْسيّة إذا ذكرتها[٤].

ثمّ لمّا أعطاه الله آيةً عظيمةً دالةً على نبوّته، وهو إخباره بقصة أصحاب الكهف، أمره سبحانه بسؤال[٥] آياتٍ أعظم منها بقوله: **﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذَا﴾** النبأ المُعْجِب، من الآيات الدالّة على نبوّتي **﴿رَشَداً﴾** ودلالةً للنّاس على صدقي، وقد فعل ذلك سبحانه حيثُ أعطاه من الآيات ما هو أعظم من ذلك كإخباره بقَصَص الأنبياء المتباعدة أيّامهم، والحوادث النازلة في الأعصار الآتية إلى يوم القيامة.

وقيل: لمّا جعل اليهود حكاية أصحاب الكهف دليلاً على نبوّته، هوّن اللهُ أمره وقال: **﴿قُلْ عَسَىٰ﴾** الآية، كما هوّن أمر أصحاب الكهف بقوله: **﴿أم حَسِبْتَ﴾** الآية[٦].

وقيل: إنّ المعنى إذا وَعَدْتَ بشيءٍ قل: إنْ شاء الله، وقل: عسى أن يهديني ربّي لشيءٍ أحسن وأكمل ممّا وعدتكم به[٧].

وقيل: إنّ المراد أنّ ذِكْر ربّك عند نسيان شيءٍ أنْ تقولَ: عسى ربّي أنْ يهديني لِشَيءٍ آخر بدل هذا المنسي أقرب منه رَشَداً أو أدنى خيراً ومنفعة[٨].

ثمّ أنّه تعالى بعد الإخبار بعدد الفتية أخبر بمدّة لبثهم في الكهف بقوله: **﴿وَلَبِثُوا﴾** في النوم **﴿فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾** كانت من **﴿سِنِينَ﴾** شمسيّة **﴿وَ﴾** العرب **﴿آزْدَادُوا﴾** عليها **﴿تِسعاً﴾** لأنّ سَنَتهم قمريّة، وكلّ مائة سنةٍ قمريّةٍ تزيد على مائة سنة شمسيّة بثلاث سنين. هذا هو الواقع في مدّة لبثهم، فإنْ نازعوك فيها فلا تجادلهم و **﴿قُلِ آللهُ أَعْلَمُ﴾** منكم ومن كلّ أحد **﴿بِمَا لَبِثُوا﴾** من المدّة إذ **﴿لَهُ غَيْبُ آلسَّماوَاتِ وَآلْأَرْضِ﴾** والعلم بخفياتهما لا يشركه فيه أحد من الملائكة والرسل فضلاً عن غيرهم.

---

١. الكافي ٢: ٧/٤٩٤، تفسير الصافي ٣: ٢٣٩. ٢ ـ ٤. تفسير الرازي ٢١: ١١١، تفسير أبي السعود ٥: ٢١٧.
٥. في النسخة: لسؤال. ٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٣٤، والآية ٩ من هذه السورة.
٧. تفسير الرازي ٢١: ١١١. ٨. تفسير روح البيان ٥: ٢٣٥.

رُوي أنّ يهودياً سأل علياً عليه السلام عن مدّة لبثهم، فأخبره بما في القرآن فقال: إنّا نجدُ في كتابنا ثلاثمائة، فقال عليه السلام: «ذلك بسنيّ الشمس، وهذا بسنيّ القمر»[١].

وقال القميّ وبعض العامّة: قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا﴾ من قول القائلين بأنّهم ثلاثة أو خمسة، والمعنى: وقالوا لبثوا في كهفهم، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ الآية[٢]. لأنّه محيط بجميع الموجودات، ومدبّر للعالم، فاذا كان كذلك كان عالماً بهذه الواقعة لا محالة[٣].

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان إحاطته على الخلق عِلماً، بيّن إحاطته على الناس قدرةً وتدبيراً بقوله: ﴿مَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ ومدبّر أمر. وقيل: إنّ المعنى ما لأصحاب الكهف [من دون الله] من وليّ[٤]. وعلى كلّ تقديرٍ لا يعلم أحدٌ واقعتهم إلّا بإعلامه، فاذا حكم بِأنّ مدّة لبثهم مقداراً معيّناً، فإنّه مستقلّ في الحكم ﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَداً﴾ فليس لغيره الحكم بخلافه.

قيل: اختلف النّاسُ في زمان أصحاب الكهف، قيل: إنّهم كانوا قبل موسى لِذِكْر خبرهم في التوراة، ولذا سأل اليهود رسول الله صلّى الله عليه وآله عن قصّتهم. وقيل: إنّهم دخلوا الكهف قبل المسيح، وأخبر المسيح بهم. ثمّ بعثوا بعد رفع المسيح. وقيل: إنّهم دخلوا الكهف بعد المسيح[٥].

وَٱتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً[٢٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد الجواب عن سؤال قريش واليهود عنهم امتحاناً واقتراحاً، أمَرَ نبيّه صلّى الله عليه وآله بتلاوة كتابه المتضمّن لكلّ شيء وعدم الاعتناء باقتراحاتِ القوم بقوله: ﴿وَٱتْلُ﴾ يا محمّد ﴿مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ الذي هو أحسن الحديث وأفضل الكتب، وأستَأنِسْ به، ولا تلتفت إلى اقْتراحاتِ المشركين وتُرَهاتهم من قولهم: إئت بقرآنٍ غير هذا أو بدّله، فإنّه ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ ولا مغير لآياته من الجنّ والإنس، وإنْ تظاهروا على ذلك، لأنّا له لحافظون ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أبداً وإن أجْهدْتَ نفسك في الطلب أحداً ﴿مِن دُونِهِ﴾ تعالى يكون لك ﴿مُلْتَحَداً﴾ ومَلجأً يَلْتَجئ إليه في مهمّاتك، وفي البليّات التي تنزل عليك.

---

١. مجمع البيان ٦: ٧١٥، تفسير الصافي ٣: ٢٣٩.
٢. نحوه في: تفسير القمي ٢: ٣٤، وتفسير الصافي ٣: ٢٤٠، وتفسير الرازي ٢١: ١١١.
٣. لم يذكر تفسير قوله تعالى: ﴿أبصر به وأسمع﴾.
٤. تفسير الرازي ٢١: ١١٢.
٥. تفسير الرازي ٢١: ١١٣.

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً[٢٨]

ثمّ لمّا كان من أباطيل الكفّار وتُرّهاتهم التماسهم من النبيّ صلى الله عليه وآله طرد المؤمنين الخُلّصين من مجلسه، أمره سبحانه بمجالستهم وصُحبتهم وعدم الاعتناء بقول أعدائهم بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ واحبِسها على المجالسة والمُصاحبة ﴿مَعَ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ ويتضرّعون إليه ﴿بِالْغَدَاةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ وأوّل النهار وآخره لطلب التوفيق والتيسير والعفو عن التقصير.

وقيل: والغَداة والعَشيّ كناية عن جميع الأوقات والمداومة على العبادة[١]. وقيل: إنّ المراد بالدعاء في الغَداة صلاة الصبح، وبالدعاء بالعَشيّ صلاة العصر[٢]. وعنهما عليهما السلام: «إنّما عنى بهما الصلاة»[٣].

حال كونهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بدعائهم أو صلاتهم ﴿وَجْهَهُ﴾ تعالى ورضاه ﴿وَلَا تَعْدُ﴾ ولا تجاوز ﴿عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ إلى غيرهم من أهل الدنيا وطالبي زخارفها حال كونك ﴿تُرِيدُ﴾ من النظر إلى غيرهم من المُترَفين والمجالسة معهم ﴿زِينَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وحُطامها ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في طرد الفقراء عن مجلسك ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ بالخِذلان والطَّبْع ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وأطاع تسويلات نفسه وانْهَمَك في شهواته ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ وفعله أو شأنه ﴿فُرُطاً﴾ وظلماً على النفس وتجاوزاً عن الحدّ ونَبْذاً للحقّ.

رُوي أنّ رؤساء الكفّار طلبوا من النبيّ صلى الله عليه وآله طرد فقراء المسلمين من مجلسه، كعمّار ، وصُهَيب، وخَبّاب وغيرهم، وقالوا: أُطرُد هؤلاء الذين رِيحهم رِيح الصُّنان حتى نجالسك، فإنْ أسلمنا أسلمَ النّاس، وما يمنعنا من اتّباعك إلّا هؤلاء، فإنّهم قوم أرْذَلُون[٤].

القمي: نزلت في سلمان الفارسي، كان عليه كِساء من صُوف، فدخل عُيينة بن حُصين على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلمان عنده، فتأذّى عيينة بريح كِساء سلمان، وكان عَرَق فيه، وكان يوم شديد الحرّ، فعَرَقَ في الكِساء، فقال: يا رسول الله، إذا نحن دخلنا عليك فاخرُج هذا وأضرابه من عندك، فإذا نحن خرجنا فادخُل من شئتَ، فأنزل الله ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ الآية. وهو عُيينة بن حُصين بن حُذيفة بن بدر الفَزاري[٥].

وعن (المجمع): نزلت في سلمان وأبي ذرّ وصُهيب وخَبّاب وغيرهم من فقراء أصحاب

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢١: ١١٥.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٦٤٩/٩٣، تفسير الصافي ٣: ٢٤٠.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٣٨.
٥. تفسير القمي ٢: ٣٤، تفسير الصافي ٣: ٢٤٠.

النبيَ ﷺ، وذلك أنّ المؤلّفة قلوبهم جاءوا إلى رسول الله ﷺ؛ عُيينة بن حُصين والأقْرَع بن حابِس وذَوُوهم، فقالوا: يا رسول الله، إنْ جلستَ في صدر المجلس ونحّيتَ عنّا هؤلاء وروائح صُنانهم[1] ـوكانت عليهم جِباب الصُّوف ـ جلسنا نحن إليك، وأخذنا عنك، ولا يمنعنا من الدخول عليك إلّا هؤلاء. فلمّا نزلت الآية قام النبيّ ﷺ، يلتمسهم، فأصابهم في مؤخّر المسجد يذكُرون الله عزّ وجلّ فقال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أمرني أنْ أصبرَ نفسي مع رجالٍ من أمتي معهم المَحيا ومعهم المَمات[2].

عن أبي سعيد الخُدري قال: كنت جالساً في عِصابة من ضعفاء المهاجرين، وإنّ بعضهم ليستّر بعضاً من العُري، وقارئ يقرأ القرآن، فجاء رسول الله ﷺ فقال: ماذا كنتم تصنعون؟ قلنا: يا رسول الله، كان واحد يَقْرأ من كتاب الله ونحن نستمع، فقال: الحمد لله الذي جعل من أُمّتي من أُمرت أنْ أصبر نفسي معهم. ثمّ جلس وسطنا وقال: أبشروا يا صَعَاليك[3] المهاجرين بالنور التامّ يوم القيامة، تدخُلون الجنّة قبل الأغنياء بمقدار خمسين ألف سنة[4].

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً[٢٩]

ثمّ لمّا علّق الكفّار إيمانهم على طرد فقراء المسلمين، أمر الله نبيّه ﷺ بالإعلان بعدم اعتنائه بإيمانهم بقوله: ﴿وَقُلِ﴾ يا محمّد لِهؤلاء المتكبّرين الغافلين ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي جئتكم به يكون ﴿مِن رَبِّكُمْ﴾ لا منّي، ونفعه وضرره راجع إليكم، لا إليّ ولا إلى آخر، وأنا لا أدعُوكم إليه لأنتفع من إيمانكم حتى أُطيعكم فيما تُحِبّون ﴿فَمَن﴾ كان من أهل السّعادة و﴿شَاءَ﴾ الإيمانَ وخير الدّارين ﴿فَلْيُؤْمِن﴾ بالدّين الحقّ، لتماميّة الحُجّة، ووضوح البراهين ﴿وَمَن﴾ كان من أهل الشّقاوة و﴿شَاءَ﴾ الكُفرَ والضّررَ على نفسه ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ فإنّي لا أُبالي بإيمانِ من آمن، وكُفر من كَفَر، ولا أطلبُ إيمانكم بطرد أولياء الله من مجلسي.

ثمّ هدّدهم الله بِضَررِ كُفرهِم ووَخامة عاقبتهم بقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ وهيّئنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر في الآخرة ﴿نَاراً﴾ خارجة [في] حَرّها عن الوصف، مشتملة عليهم ومحيطة بهم

---

١. الصُّنان: النَّتَن، الريح الكريهة.
٢. مجمع البيان ٦: ٧١٧، تفسير الصافي ٣: ٢٤٠.
٣. الصُّعْلُوك: الفقير، وجمعه: صعاليك.
٤. تفسير الرازي ٢١: ١١٨.

كأنها سُرادق و ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ وفساطيطها. قيل: إن سُرادق سِتر يُدار به حول الخيمة[١].

عن أبي سعيد الخُدري قال: قال النبيّ ﷺ: «سُرادِق النار أربعة جُدُر كُثُف، كلّ جدار مسيرة أربعين سنة»[٢].

وعن ابن عبّاس: هو الدُّخان الذي قال الله: ﴿إنطَلِقُوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾[٣].

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ ويطلُبوا الماءَ من العَطَش ﴿يُغَاثُوا﴾ ويُؤتَوا بعد استغاثتهم ﴿بِمَاءٍ﴾ جارٍ ﴿كَالْمُهْلِ﴾ والحديد المُذاب، أو النُحاس، أو الذهب المُذاب، أو الصَديد وقيح أهل جهنّم، أو القَطِران، أو دُرديّ[٤] الزَيت المغلي، يعني يُجعل المُهْل لهم مكان الماء الذي طَلَبُوه، وإطلاق الماء عليه من باب التهكُّم، فإذا قدّم إليهم ليشربوه ﴿يَشْوِى﴾ ويُحرق ﴿ٱلْوُجُوهَ﴾ من فَرط حرارته. عن النبيّ ﷺ: «إذا قرّب إليه سقطت فَرْوَةُ وجهه»[٥]. ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ذلك الماء المُحرِق ﴿وَسَاءَتْ﴾ النّار من حيث كونها ﴿مُرْتَفَقاً﴾ ومتّكأً، أو منزلاً، أو مستراحاً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً * أُولٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَائِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً[٣٠ و ٣١]

ثمّ أنّه تعالى بعد تهديد الكفّار بسوء عاقبة الكفر بشّر المؤمنين بحسن عاقبة الإيمان بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورُسُله والدّارِ الآخرة ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ وفعلوا العبادات الخالصات، نُؤتِيهم أجراً عظيماً ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ ولا نُبطِل ﴿أَجْرَ﴾ كلّ ﴿مَنْ أَحْسَنَ﴾ وأخلص ﴿عَمَلاً﴾ لمنافاته الحكمة المقتضية لإعطاء كلّ مستحقّ حقّه.

ثمّ شرح الأجر بقوله: ﴿أُولٰئِكَ﴾ المؤمنون الصالحون ﴿لَهُمْ﴾ بالاستحقاق ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وخُلد ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ﴾ وتحت غُرَفهم وقُصُورهم ﴿ٱلْأَنهَارُ﴾ الكثيرة، أو الأربعة المعهودة ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ ويُزيّنون ﴿فِيهَا﴾ بأنواع ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جنسها ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ عن سعيد بن جبير: يُحلّى

---

١ و ٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٤١.

٣. مجمع البيان ٦: ٧١٩، تفسير الرازي ٢١: ١٢٠، ونسبه إلى بعضهم، والآية من سورة المرسلات: ٣٠/٧٧.

٤. الدُرديّ: ما رسب أسفل الزيت أو نحوه من كل شيء مائع.

٥. تفسير أبي السعود ٥: ٢٢٠، تفسير روح البيان ٥: ٢٤١، والفَرْوةُ: الجلدة ذات الشعر.

كلّ واحدٍ منهم ثلاثة أساور[١].

أقول: لعلّ كلّ سِوار له شكلٌ خاصّ، وهو ما يُلبَس في الذِّراع ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً﴾ لأنّ الخُضرة ـ على ما قيل ـ أحسن الألوان وأكثرها طَراوة[٢]، وجنس الثياب ﴿مِن سُندُسٍ﴾ وحَرير رقيقٍ ﴿وَ﴾ من ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ ودِيباجٍ غليظٍ حال كونهم ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ كالملوك ﴿فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ والسُّرر الموضوعة في البيوت المزيّنة.

عن الباقر عليه السلام: «الأرائك، السُّرر، عليها الحِجَال»[٣].

ثمّ مدح سبحانه ذلك الأجر العظيم بقوله: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ تلك الجنّات ونعمها ﴿وَحَسُنَتْ﴾ تلك الأرائك من حيث كونها ﴿مُرْتَفَقاً﴾ ومتّكأ، أو مقرّاً للاستراحة، وقد قال سبحانه ما قال في حقّ الكفّار من قوله: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ بهذا التذييل. وإنّما أتى (يُحَلَّوْنَ) بصيغة المَبنيّ للمفعول، و(يَلْبَسُون) بصيغة المَبني للفاعل؛ لأنّ العَروس يلبس ثيابه بنفسه، وأمّا تَحْليته فغالباً [ما] يكون بيد الغير، أوْ للاشارة إلى أنّ لُبس الثياب يكون بسبب أعمالهم، وأمّا التَّحْلية فإنّها من كرامات الله الزائدة تفضُّلاً به.

وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِنْهُ شَيئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً[٣٢ و ٣٣]

ثمّ لمّا كان الكفار المتنفّرون من فقراء المؤمنين مفتخرين عليهم بكَثْرة أموالهم وأتباعهم، بيّن الله سبحانه زوال الغِنى والثروة في الدنيا ودوام المعارف والأعمال الصالحة للمؤمنين في الدّارين، للكافر الغنيّ والمؤمن الفقير بقوله: ﴿وَاضْرِبْ﴾ يا محمّد ﴿لَهُم مَثَلاً﴾ بديعاً، وبيّن لهم بهذا المثل حالهم بياناً واضحاً، وهو أنّ ﴿رَجُلَيْنِ﴾ كان واحد منهما مؤمناً والآخر كافراً و﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ الكافر ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ وبُستانين كانت أشجارهما ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ متنوّعة وكُرُوم مختلفة وأحطنا بالجنّتين ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾.

قيل: هذه الصفة ممّا يُؤثِرها الدهاقين في كُرومهم، فإنّهم يجعلونها مَحْفُوفةً بالأشجار المُثْمِرة[٤].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ كثيراً من أنواع الحبُوبات، وفي ذكر الصفات دلالة على اتّساعها

---

١. مجمع البيان ٦: ٧٢٠، تفسير روح البيان ٥: ٢٤٣. ٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٤٣.

٣. تفسير القمي ٢: ٢١٦، تفسير الصافي ٣: ٢٤٢، والحِجال: جمع حَجَلة: ساتر كالقُبّة يُزيّن بالثياب والسُّتور للعروس. ٤. تفسير الرازي ٢١: ١٢٤.

وَاستجماعها لأنواع الأقوات والفواكة الفائقة ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ وثَمرها المترقَب منها في جميع الأوقات ﴿وَلَمْ تَظْلِمِ﴾ ولم تُنقَص ﴿مِنْهُ شَيْئاً﴾ ولو يسيراً، مع أنّ المعهود من سائر البساتين إتمام الثمر في عام وتنقيصه في عام ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ وشَقَقْنا، أو أجرينا فيما بين كلَ من الجنّتين و﴿خِلَالَهُمَا نَهَراً﴾ على حِدة، ليدوم شربهما ويكثر بهاؤهما.

قيل: إنّما قدّم إيتاء الأُكل على تفجير النهر للدّلالة على استقلال كلّ منهما في حُسن الجنّتين، وللدّلالة على أنّ إتيان الأُكل لم يكن متوقّفاً على السقي، كقوله ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[1].

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لٰكِنَّا هُوَ ٱللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً[٣٤-٣٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد توصيف الجنّتين ذَكَر حال الكافر بقوله: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ ومالٌ كثيرٌ غير الجَنّتين، من الذَّهب والفِضّة، أو فواكه أُخر غير العِنب والرُّطب.

عن تفسير الجلالين: أنّ الرَّجلين كانا ابني مَلِك في بني إسرائيل، اسم أحدهما يهودا وكان مؤمناً، واسم الآخر قُطروس وكان كافراً، مات أبوهما فَوَرِثا منه ثمانية آلاف ديناراً، فتقاسماها بينهما، فاشترى الكافر أرضاً بألف دينار وبَنى داراً بألف دينار، وتزوّج امرأة بألف دينار، واشترى خدماً ومَتاعاً بألف دينار، فقال المؤمن: اللّهم إنّ أخي اشترى أرضاً بألف دينار، وأنا اشتري منك أرضاً في الجنّة، فتصدّق بألف دينار، وإنّ أخي بنى داراً بألف دينار، وأنا أشترى منك داراً في الجنّة فتصدّق به، وإنّ أخي تزوّج امرأة بألف دينار وأنا أجعل ألفاً صَداقاً لِلحُور، فتصدّق به، وإنّ أخي اشترى خَدَماً ومَتاعاً بألف دينار، وأنا أشتري منك ولداناً مخلّدين بألف، فتصدّق به. ثمّ أصابته الحاجة، فجلس لأخيه على طريقه، فمرّ به أخوه في حَشَمِهِ، فقام إليه فنظر أخوه إليه وقال: ما شأنك؟ فقال: أصابتني حاجة، فأتيتُ لتصيبني بخير. فقال: وما فعلتَ بمالك وقد اقتسمنا مالاً وأخذتَ شَطْره؟ فقصّ عليه

---

١. تفسير أبي السعود ٥: ٢٢١، والآية من سورة النور: ٣٥/٢٤.

القصّة، قال: إنّك إذاً لمن المتصدّقين بهذا، إذهب لا أُعطيك شيئاً، فطرده ووبّخه[1].

﴿فَقَالَ﴾ الكافر ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ وأخيه ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ ويكالمه مفتخراً عليه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً﴾ وثروةً ﴿وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ من البنين والخَدَم والأعوان ﴿وَدَخَلَ﴾ يوماً ﴿جَنَّتَهُ﴾ مع أخيه المؤمن ﴿وَهُوَ﴾ بكفره ﴿ظَالِمٌ﴾ وضارّ ﴿لِنَفْسِهِ﴾ ومعجب بماله ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ﴾ ولا احتمل ﴿أَن تَبِيدَ﴾ وتَفْنى ﴿هٰذِهِ﴾ الجنّة ﴿أَبَداً﴾ وما دُمتُ حيّاً ﴿وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ﴾ التي يُبعث من في القبور ﴿قَائِمَةً﴾ وآتية فيما بعد ﴿وَلَئِن رُدِدتُّ﴾ ورجعتُ بعد الموت ﴿إِلَىٰ رَبِّى﴾ بالبعث على الفرض وزعمك، والله ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ يومئذٍ بعد انقطاعي من هذه الجنّة ﴿خَيْراً مِنْهَا﴾ في الآخرة ﴿مُنقَلَباً﴾ ومَرجِعاً ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ وأخوه المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ ويكالمه ويجادله منكراً عليه، ومتعجّباً من مقالاته الفاسدة ﴿أَكَفَرْتَ﴾ يا أخي ﴿بِالَّذِى خَلَقَكَ﴾ من أصلِ مخلوقٍ ﴿مِن تُرَابٍ﴾ بقدرته الكاملة وحكمته البالغة ﴿ثُمَّ﴾ بعد خَلْق أصلك منه خَلَقَكَ ﴿مِن نُطْفَةٍ﴾ أمشاج ومنيَ دافق في الرَّحِم ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ﴾ وخلقك معتدلاً في الخلق والقامة، وجعلك ﴿رَجُلاً﴾ وإنساناً ذَكَراً بالغاً، فمن كان له القدرة والحكمة والنِّعمة هل يساويه غيره في الصفات؟ وهل يعجِز عن إعادة خلقك مع اقتضائها الحكمة؟ حاشا وكلّا ﴿لٰكِنَّا﴾ قالوا: أصله لكن أنا[2] مؤمنٌ موحِّد معتقد وقائل بأنّه ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿رَبِّى﴾ ومالك أمري ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى﴾ في الأُلوهيّة والربوبيّة ﴿أَحَداً﴾ من خلقه.

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً * فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً [٣٩ـ٤١]

ثمّ لامه على كُفرانه النعمة بقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ وهلّا حين وردت في بستانك ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ ٱللَّهُ﴾ ـ من إبقاء الجنّة وإفنائها ـ كان، وهلّا قلت حين رأيت جنّتك في غاية الحُسن والبَهاء وكَثرة المنفعة اعترافاً بعجزك عن تعميرها وأنّه بقدرة الله ومعونته، وأنّ ما فيها من الأشجار والثّمار والعِمارة بمشيّة الله ﴿لَا قُوَّةَ﴾ بشيء من الحيوانات والنباتات ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

في الحديث: «من رأى شيئاً فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله، لم تضُرّه العين»[3].

وفي حديث آخر: «من رأى أحداً أُعطي خيراً من أهل أو مال، فقال عنده: ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله،

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٤٥.

٢. تفسير أبي السعود ٥: ٢٢٢، تفسير روح البيان ٥: ٢٤٧.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٤٧.

لم يَرَ فيه مكروهاً». ورُوي أنها دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهَمّ[١].

ثمّ أنّ المؤمن بعد إنكاره على الكفر ولومه على كفرانه النعمة، أجابه عن فخره عليه بالمال والنَّفر بقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً﴾ الآن، فلا تغترّ بحُسن حالك وكَثرة مالك ولا تشمَت[٢] بسوء حالي وشدّة فَقري ﴿فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ﴾ ويُعطيني في الدنيا أو في الآخرة جنّةً ﴿خَيْراً﴾ وأفضل ﴿مِن جَنَّتِكَ﴾ التي تفتخر بها ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ عقوبة على كفرك وكفرانك ﴿حُسْبَاناً﴾ وعذاباً ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ من بردٍ أو صاعقةٍ ﴿فَتُصْبِحَ﴾ وتَصِير جنّتك بذلك البَلاء ﴿صَعِيداً زَلَقاً﴾ وأرضاً لا نبات فيها ﴿أَوْ يُصْبِحَ﴾ ويصير ﴿مَاؤُهَا﴾ الذي يجري فيها ﴿غَوْراً﴾ وذاهباً في الأرض بحيث لا تناله الأيدي والدِلاء، بل لا يبقى منه أثَر ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ بوجهٍ من الوجوه فضلاً عن وجدانه وردّه.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ ما أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَداً * وَلَمْ تَكُن لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً * هُنَالِكَ ٱلْوَلَايَةُ لِلهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً[٤٢ ـ ٤٤]

ثمّ أخبر سبحانه بوقوع بعض ما توقّعه المؤمن في أموال الكافر بقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ وأهلك أمواله بأن أرسل الله عليها النار فأهلكتها وغار ماؤها كما عن (المجمع)[٣] ﴿فَأَصْبَحَ﴾ الكافر وصار ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهراً لبطنٍ تأسّفاً وتَحَسّراً ﴿عَلَىٰ ما أَنفَقَ﴾ وصرف ﴿فِيهَا﴾ وفي تعميرها من الأموال حيث رأى الجنّة ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ وساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ ودعائمها المصنوعة لكُرومها، لمّا رأى الكافر صدق أخيه فيما هدّده على شِركه وغُروره، وكان يتمنّى التوحيد ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَداً﴾ ولم ينفعه النّدم والتمنّي.

ثمّ لمّا كان كَثرة أعوانه بسبب كَثرة ماله، تفرّق عنه أعوانه وخَدَمه ﴿وَلَمْ تَكُن لَهُ فِئَةٌ﴾ وجماعة ﴿يَنصُرُونَهُ﴾ بدفع الهلاك عن ماله، أو إعطائه مثله ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ لأنّه القادر على نصره، وهو لم ينصُره لاستحقاقه العذاب والخِذلان ﴿وَمَا كَانَ﴾ بنفسه ﴿مُنتَصِراً﴾ ومدافعاً عن ماله بقدرته وقوّته.

ثمّ لمّا بيّن سبحانه نُصرته للمؤمن على أخيه الكافر المفتخر عليه، بيّن أنّ دأبه تعالى كذلك في كلّ موردٍ يكون الكافرُ بِصَدَدِ إذلال المؤمن بقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ وفي ذلك الوقت الذي يكون الكافر بصَدَد

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٤٧.
٢. في النسخة: ولا تشمتني.
٣. مجمع البيان ٦: ٧٢٨، تفسير الصافي ٣: ٢٤٣.

إذلال المؤمن تكون ﴿ٱلْوَلَايَةُ﴾ ونُصرة المؤمن ﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ والمعبود الصدق، فيوالي أولياءه ويغلبهم على أعدائه في الدنيا، وأمّا في الآخرة ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿خَيْرٌ ثَوَاباً﴾ وأفضلُ أجراً لأوليائه ﴿وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ ومآلاً لهم، وأسوأ عقوبةً وعاقبةً لأعدائه وأعدائهم.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَثَلَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً * ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً[٤٥ و ٤٦]

ثمّ ضرب الله مثلاً آخَرَ لحِقارة الدنيا وسُرعة زوالها بقوله: ﴿وَٱضْرِبْ﴾ يا محمّد، لقومك واذكُر ﴿لَهُم مَثَلَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ونظيرها في زَهْرَتِها ونَضارتها وسرعة زَوالها لِئلّا يَطْمئنّوا بها، ولا يَعْكُفوا عليها، فإنّها ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ﴾ بسبب ذلك الماء، والتفَ وتَكاثَفَ ﴿بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ من رَياحينها، وزَرعها، وغيرهما ﴿فَأَصْبَحَ﴾ ذلك النبات، وصار بعد غاية بَهْجته ونَضارته ﴿هَشِيماً﴾ ومكسوراً لِيُبسه، بحيث ﴿تَذْرُوهُ﴾ وتفرّقه ﴿ٱلرِّيَاحُ﴾ الخفيفة حتّى لا يبقى منه أثَر. كذلك الإنسان يَنْمو ويَشِبّ ويَقوى، فإذا انقضى أجَله أتاه صَرْصَرُ الموت، فجعله كأن لم يكن شيئاً مذكوراً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإيجاد والإبقاء والإفناء ﴿مُقْتَدِراً﴾

ثمّ أنه تعالى بعد بيان زوال حياة الدنيا، بيّن زوال المال والأولاد الذين هما أعظم زينتها بقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾ اللّذان يفتخرون بهما ممّا به ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ينقطعان عنكم بانقضائها ﴿وَٱلْبَاقِيَاتُ﴾ معكم في جميع العوالم من البَرْزَخ والمعاد، هي الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتُ﴾ والعبادات الخالصات من الصَوم والحجّ والصلاة وغيرهما ﴿خَيْرٌ﴾ من الفانيات الفاسدات التي منها المال والأولاد ﴿عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً﴾ وأجراً وعائدةً ﴿وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ ومأمولاً؛ لأنّ صاحِبَها يَنالُ بها في الآخرة ما كان يأمُل في الدنيا.

عن الصادق عليه السلام: «إنْ كان الله عزّ وجلّ قال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إنّ الثماني ركعات يُصَلّيها العبدُ آخر اللّيل زِينة الآخرة»[١].

وعنه عليه السلام: «أنّ من الباقيات [الصالحات] القيام لصلاة الليل»[٢]. وقيل: هنّ الصلوات الخمس[٣].

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٦٥٧/٩٥، التهذيب ٢: ٤٥٥/١٢٠، تفسير الصافي ٣: ٢٤٤.

٢. مجمع البيان ٦: ٧٣١، تفسير الصافي ٣: ٢٤٤.

٣. تفسير الرازي ٢١: ١٣١، تفسير أبي السعود ٥: ٢٢٥.

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ الباقيات الصالحات هي الصلوات، فحافظوا عليها»[١].

وعنه عليه السلام: «هي الصلوات الخمس»[٢].

وقال جمعٌ من العامة: هي التسبيحات الأربع[٣].

وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خُذوا جُنّتكم[٤]، قالوا: يا رسول الله عدّو حضر؟ قال: لا، ولكن خُذوا جُنّتكم من النار، قالوا: فبم نأخذ جُنّتنا، يا رسول الله؟ قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، فإنّهنّ يأتين يوم القيامة ولَهُنّ مقدّمات ومؤخّرات، وهنّ الباقيات الصالحات»[٥].

وعن الباقر عليه السلام: «مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله برجل يَغْرِس غَرساً في حائطٍ له، فوقف عليه وقال: ألا أدلّك على غَرسٍ أثبتَ أصلاً، وأسرعَ إيناعاً، وأطيب ثمراً وأبقى؟ قال: بلى، فدلّني يا رسول الله، فقال: إذا أصبحتَ وأمسيتَ فقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، فإنّ لَك إنْ قُلتَه بكلّ تسبيحة عشر شجرات في الجنّة من أنواع الفاكهة، وهنّ من الباقيات الصالحات»[٦].

وعن الصادق عليه السلام أنّه قال للحُصين بن عبدالرحمن: «لا تستصغر مودّتنا، فإنّها من الباقيات الصالحات»[٧].

أقول: الجمع بين الأخبار أنّ كلّ عملٍ واعتقادٍ فيه رضَا الله، فهو من الباقيات الصالحات.

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً * وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِداً [٤٧ و ٤٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان خَساسة الدنيا، وذِكْر ما يوجب التزهيد منها وترغيبهم في الصالحات، ذَكَر بعض أهوال القيامة تنبيهاً على كَثرة الحاجة بها فيها بقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ في الهَواءِ والجَوّ على هيئتها بعد قَلعها من الأرض، أو [نُسيّر] أجزاءها بعد جعلها هَباءً منبثّاً ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ يا محمّد ﴿بَارِزَةً﴾ وظاهرة من تحت الجبال، والعِمارات، والأشجار. أو بارزة الجَوفِ لا يَبقى في بَطنها شيءٌ من الموتى والكُنوز، وبعثنا الناس من القبور ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ وجمعناهم إلى عَرصَة القيامة وموقف الحساب، مؤمنيهم وكفّارهم ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ ولم نَترُك ﴿مِنْهُمْ﴾ تحت الأرض ﴿أَحَداً﴾.

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٦٥٥/٩٤، تفسير الصافي ٣: ٢٤٤.
٢. مجمع البيان ٦: ٧٣١، تفسيرالصافي ٣: ٢٤٤.
٣. تفسير أبي السعود ٥: ٢٢٥، تفسير روح البيان ٥: ٢٥١.
٤. في تفسير العياشي: جُننكم، وكذا ما بعدها.
٥. تفسير العياشي ٣: ٢٦٥٦/٩٤، تفسير الصافي ٣: ٢٤٤.
٦. الكافي ٢: ٤/٣٦٧، تفسير الصافي ٣: ٢٤٥.
٧. مجمع البيان ٦: ٧٣١، تفسير الصافي ٣: ٢٤٤.

ثمّ بيّن سبحانه كيفيّة حشرالخلق بقوله: ﴿وَعُرِضُوا﴾ بعد حشرهم ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ كما يُعرَض الجندُ على المَلِك حال كونهم ﴿صَفّاً﴾ صفاً، ومجتمعين غير متفرّقين ولا مختلطين يُرى جميعُهم كما يُرى واحدُهم.

عن الصادق عليه السلام: «هُم يَومئذٍ عشرون ومائة ألف صفّ في عَرَض الأرض»[١].

فيقول الله لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ من الدنيا بلا مال وأولاد وأعوان حُفاة عُراة ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

عن عائشة قلت: يا رسول الله، كيف يُحشر النّاس يوم القيامة؟ قال: «عُراة حُفاة» قلت: والنساء؟! قال: «نعم» قلت: يا رسول الله، نستحيي! قال: «يا عائشة، الأمرُ أشدّ من ذلك، لن يَـهُمّهم أن يَـنظُرَ بعضهم إلى بعض»[٢].

ثمّ يخاطب المنكرين للبعث ويقول سبحانه لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ وادّعيتهم بالكذب في الدنيا ﴿أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم﴾ أبداً ﴿مَوْعِداً﴾ ووقتاً نُنجز فيه ما وعدناه على ألسنة الرُّسل من البعث وتَبِعاته، فاليوم قد تعيّن لكم صدق ما أخبروكم، وشاهدتم أنّ السّاعةَ حقٌّ، والبعث صِدقٌ، وتركتم في الدنيا ماكنتم تَفْتَخِرون به من الأموال والأولاد والأعوان.

وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هٰذَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً[٤٩]

ثمّ بيّن سبحانه كيفيّة المحاسبة بقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ﴾ الذي فيه أعمال الخلق في أيديهم ﴿فَتَرَى﴾ يا محمّد، أو أيّها الرائي ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والعُصاة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ وخائفين ﴿مِمَّا﴾ هو مكتوب ﴿فِيهِ﴾ من العقائد الفاسدة، والأعمال السيّئة، والذنوب الصغيرة والكبيرة، فينادون ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حِينَ اطّلاعهم على أعمالهم المكتوبة فيه نَقِيرها[٣] وقِطْمِيرها[٤] تعجّباً وتحسّراً: ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾ وهلكتنا احضُري فهذا أوانك ﴿مَالِ هٰذَا ٱلْكِتَابِ﴾ وأيّ شيء له، فإنّه ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ ولا يترك فِعلةً ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ وضبطها ﴿وَوَجَدُوا﴾ جميع ﴿مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا ﴿حَاضِراً﴾ ومثبوتاً فيه، وإنّما يعترفون به لأنّهم يجدونه مطابقاً لماكتبوه في صحائف نفوسهم بِقَلَم

---

١. الاحتجاج: ٣٥٠، تفسير الصافي ٣: ٢٤٥.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٥٢.
٣. النَّقِير: النُّكتة في ظهر النّواة.
٤. القِطْمِير: القِشرة الرقيقة بين النّواة والتمر.

أعمالهم.

قيل: إنّما قدّم ذكر الصغيرة لكونها جارّة إلى الكبيرة[1]، ويُحتَمل أن يكون [المراد] من حضور الأعمال تجسّمها في نَظَرهم مضافاً إلى رؤيتها في كتابها. أو يكون المراد رؤية جَزائها وشهوده ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ بكتابة ما لم يعمل، أو العقوبة زائداً على الاستحقاق.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً * مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُداً[٥٠ و ٥١]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر افتخار المشركين على فقراء المؤمنين وتكبّرهم عليهم، ذكر تكبّر إبليس عن السجود لآدم رَدْعاً لهم وبَياناً لسوء عاقبة الكِبر بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ له ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فانّه أبى واستكبر؛ لأنّه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ المخلوق من النار المَجْبُولِ على الترفّع، ولم يكن من الملائكة المخلوقين من النّور ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[2].

ثمّ وَبّخ الله سبحانه المتكبّرين عَلَى اتّباعه ما غاية عداوته لآدم وذريّته بقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾ لأنفسكم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأحِبّاءَ متبوعين ﴿مِن دُونِي﴾ وبدلاً منّي ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ مُبْغض، وحقّهم أنْ تُعادوهم وتُبغضوهم لا أنْ تُوالوهم، وأن تُخالفوهم لا أنْ تُطيعوهم ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ﴾ والكافرين المتكبّرين ﴿بَدَلاً﴾ من الله إبليس وذريّته.

ثمّ بيّن سبحانه تعالى فُقْدانهم لِما يُوجب التكبّر على غَيرهم، وهو كُونهم أعوان الله وشركاءه في الخَلْق بقوله: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما أحضرتُهم حينئذٍ لأستعينَ بهم في خَلْقهما، أو أُشاورهم في إيجادهما ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ مع كمال حَقارتهم بأنْ يُعيننا بعضهم في خَلْق بعضٍ آخَر، وما شاورتهم في تدبير العالم ﴿وَمَا كُنتُ﴾ من قبلِ خَلْق الموجودات إلى الأبد ﴿مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ من الشيطان وذُرّيته وأتباعه من الجنّ والإنس لِنَفْسي في الخَلْق والتدبير ﴿عَضُداً﴾ وعَوْناً.

قيل: إنّ المراد ما أشهدتُ الذين اتّخذتموهم أولياء خلقَ السماواتِ والأرض، ولا أشهدتُ بعضهم

---

١. تفسير الرازي ٢١: ١٣٤.

٢. لم يرد تفسيرها عن المصنف.

خَلْق بعضٍ[١]. وقيل: إنّ المراد أنّه ليس لهم العلم بالمغيبات ولا بخَلْق أنفسهم، فكيف تعبُدونهم وتَدّعون أنّهم شُركائي في العبادة[٢]؟

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً * وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً[٥٢ و ٥٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد توبيخ المشركين المتكبّرين على اتّباعهم الشيطان ونفي أهليّة التكبّر عنهم، عاد إلى تهويلهم بأهوال القيامة وتقريعهم على الشِّرك فيها بقوله: ﴿**وَيَوْمَ يَقُولُ**﴾ الله للمشركين تقْريعاً وتهكُّماً: أيّها المُشركون ﴿**نَادُوا شُرَكَاءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ**﴾ أنّهم شُركائي في الألوهيّة والعبادة، وأنّهم شفعاؤكم في هذا اليوم، كي يُنجوكم من العذاب بالقهر، أو يشفعوا لكم[٣] ﴿**فَدَعَوْهُمْ**﴾ ونادوهم ﴿**فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ**﴾ واستغاثوا بهم فلم يغيثوهم ﴿**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ**﴾ من الداعين والمدعوّين ﴿**مَوْبِقاً**﴾ ومَهْلِكاً وهو النار، أو وادياً من جهنّم، أو بَرْزَخاً بعيداً يهلِك فيه السائر، أوعداوةً شديدة مُهلِكة.

وقيل: إنّ البين بمعنى المواصلة، والمعنى: جعلنا مُواصلتهم في الدنيا هلاكهم في الآخرة[٤].

﴿**وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ**﴾ والمشركون بعد يأسهم من آلهتهم ﴿**ٱلنَّارَ**﴾ التي اُعدّت لهم ﴿**فَظَنُّوا**﴾ وأيقنوا ﴿**أَنَّهُم مُوَاقِعُوهَا**﴾ ومخالطوها.

عن أمير المؤمنين عليه السلام «يعني: أيقنوا أنّهم داخلوها»[٥].

وعنه عليه السلام: «وقد يكون بعضُ ظنّ الكافر يقيناً، وذلك قوله تعالى: ﴿**وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ**﴾ الآية، أي: أيقنُوا أنّهم مواقعوها»[٦].

﴿**وَلَمْ يَجِدُوا**﴾ لأنفسهم ﴿**عَنْهَا مَصْرِفاً**﴾ ومَعدِلاً إلى غيرها أو مَهْرباً؛ لأنّ الملائكة يَسُوقونهم إليها، أوْ لأنّها مُحيطة بهم من كلّ جانب.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً[٥٤]

---

١. تفسير الرازي ٢١: ١٣٨.
٢. مجمع البيان ٦: ٧٣٥، تفسير روح البيان ٥: ٢٥٦.
٣. في النسخة: يشفعوكم.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٥٨.
٥. التوحيد: ٥/٢٦٧، تفسير الصافي ٣: ٢٤٧.
٦. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٣: ٢٤٧.

ثمَ أنّه تعالى بعد رَدع الكفّار المفتخرين على فقراء المؤمنين بكَثْرة المال والولد بالبيانات التي كلّها كالمَثَل في الغرابة والحسن، وذِكر المثلين المتقدّمين، بيّن سبحانه شدّة شقاوتهم وقساوتهم وعدم تأثّرهم بها بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وكرّرنا أوْ أوردنا على وجوه كثيرة من النظم ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ﴾ صلاحاً ونفعاً ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافة الى يوم القيامة ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ بَديع ومعنى عجيب وشبيه ونظير وعِبر ودلائل على الحقّ ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كَانَ ٱلْإِنسَانُ﴾ بجنسه وطبعه ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ وأشدّه خصومة بالباطل.

قيل: من طبيعة الإنسان المجادلة والمخاصمة، وبها يقطعون الطريق على أنفسهم، فتارةً يجادلون الأنبياء ولا يقبلون النبوّة والرسالة حتى يقاتلوهم، وتارةً يجادلون في الكتب المنزلة ويقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء، وتارة يجُادلون في محكماتها، وتارةً يُجادلون في مُتَشابهاتها، وتارةً يجادلون في ناسخها ومنسوخها، وتارةً يُجادلون في تفسيرها وتأويلها، وتارةً يُجادلون في أسباب نزولها، وتارةً يجادلون في قراءتها، وتارةً يُجادلون في قِدَمها وحُدوثها، إلى غير ذلك حتى لم يَفْرَغوا من المجادلة إلى المجاهدة، ومن المخاصمة إلى المعاملة، ومن المنازعة إلى المطاوعة، فلهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[1].

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلاً * وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوا آيَاتِى وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً[٥٥ و ٥٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان أنّ القرآن جامع لجميع الدلائل والعبر والعلوم، بيّنَ تمامية الحجّة على النّاس به، وعدم تصوّر العذر لهم في ترك الإيمان بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ من ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ بالله ورسوله ودينه الحقّ ﴿إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ وحين أتاهم الرسول، وقرّر لهم دلائل التوحيد ورسالته، وجميع ما يجب الإيمان به بما لا مزيد عليه ﴿وَ﴾ من أنْ ﴿يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ ويتُوبوا إليه من شركهم ومعاصيهم ﴿إِلَّا﴾ انتظار ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ العقوبة الدنيويّة التي هي ﴿سُنَّةُ﴾ الله ودأبه في القرون ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والأُمم الماضين الجاحدين لكلّ حقّ، المعارضين للرسل ﴿أَوْ﴾ أنْ ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الأخروي ﴿قُبُلاً﴾ وعِياناً، أو أنواعاً.

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٥٩.

وحاصل المعنى ـ والله أعلم ـ أنّهم لا يؤمنون إلّا عند نزول عذاب الاستئصال، أو حين تَواصُل عذاب الدنيا عليهم بعذاب الآخرة، وحينئذٍ لا ينفعهم الإيمان.

ثمّ لمّا بيّن الله أنّ جِبِلّة الإنسان على الجِدال بيّن أنّهم يُجادلون ويَقْترحون على الرسل مع أنّ وظيفتهم التبشير والإنذار بقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الناس لِغَرَضٍ من الأغْراض ﴿إِلَّا﴾ لغرضٍ واحدٍ وهو أنْ يكونوا ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين المطيعين بالثواب ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ للكافرين والعُصاةِ بالعذاب، لا لِمُوافقتهم أهواءَ النّاس وإتيانهم بمُقْترحاتهم وعملهم بمتوقّعاتهم، من طَرِد الفُقَراء، ومجالسة المتكبّرين ﴿وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ رُسُلَهم ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ كقولهم: لا يكون الرسول إلّا مَلَكاً، أو من يكون له بيت من زُخْرُف، إلى غير ذلك ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ بجِدالهم ويُزيلوا ﴿بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ الذي جاءهم به الرسول عن مقرّه ويُبْطِلوه ويُطْفِئوا نوره ﴿وَٱتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ الدالّة على الحقّ ومعجزات الرسول ﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾ وخوّفوا به من العذاب على الكفر ﴿هُزُواً﴾ وسُخريّة.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً[٥٧]

ثمّ ذمّهم سبحانه بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وهل يكون أحد، أكثر إساءةً على نفسه ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ وتُلِيَت عليه حجج الله ومواعظه بالعبارات التي تكون في أعلى درجة الإعجاز ﴿فَأَعْرَضَ﴾ وَلَوى رأسه ﴿عَنْهَا﴾ وألقاها وراء ظهره ولم يتدبّرها ولم يتفكّر فيها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿نَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ وتغافل عَمّا أرتكبه من السيّئات وعن سُوء عاقبتها.

ثمّ بيّن سبحانه علّة إعراضهم وتَناسِيهم بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ بسبب كفرهم وعصيانهم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الخبيثة المظلمة ﴿أَكِنَّةً﴾ وأغطيةً حين تلاوة القرآن عليهم كراهة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ ويفهموا ما فيه من الأعجاز والحِكَم والمعارف والأحكام ﴿وَ﴾ جعلنا ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ وثِقلاً وصَمَماً ﴿وَ﴾ كراهة أنْ يَسْتَمِعُوهُ حقَّ الاستماع ﴿وَ﴾ لذا ﴿إِن تَدْعُهُمْ﴾ يا محمّد ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الذي هو دين الإسلام ﴿فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ لعدم تأثّر قُلوبهم بقولك، كعدم تأثّرهم بالقرآن، فلا تَتْعَب في دَعْوتهم ولا تَحْزَن على ضَلالتهم.

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَهُم مَوْعِدٌ لَن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً * وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا

لِمَهْلِكِهِم مَوْعِداً[٥٨ و ٥٩]

ثمّ ذكر سبحانه علّة إمهالهم بقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾ للذنوب و﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ على العباد يحلُم ويرحَم و﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ ولا يحلُم عنهم ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ بالصّاعقة، أو الخَسف، أو غيرهما ممّا يُهلكهم بالاستئصال في الدنيا، أو بإماتتهم وإحراقهم بالنّار في الآخرة ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ ووقت معيّن لِمؤاخذتهم فيه ﴿لَّن يَجِدُوا﴾ حين مَجيئ ذلك الموعد ﴿مِن دُونِهِ﴾ وممّا سواه تعالى ﴿مَوْئِلاً﴾ ومَلْجأً يلتجئون إليه.

ثمّ استشهد على إمهاله الكفّار وأخذهم في موعده بالقُرى المُهلَكَة بقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ المُهلكة من قرى عادٍ وثمودٍ وأضرابهما ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بعذاب الاستئصال ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والطغيان وتكذيب الرسل والإعراضِ عن الآيات، ولكن لم نعاجلهم، بل قرّرنا ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ وإنزالَ العذابِ عليهم ﴿مَّوْعِداً﴾ ووقتاً معيّناً ممتدّاً لم يتقدّم إهلاكهم عليه ولم يتأخّر عنه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَباً[٦٠ و ٦١]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان أنّ الفخر والكبر خُلْق الشّيطان، بيّنَ أنّ صفة التواضع وتبعيّة العالم من كرائم أوليائه ورُسله، بذكر قصّة موسى عليه السلام وتبيعته الخِضر بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ بن عِمران بن يصهَر ﴿لِفَتَاهُ﴾ وخادمه يُوشع بن نون، أو أخي يُوشع، أو عبده ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ ولا أزالُ أسِيرُ وأذهَب ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ بحر فارس وبحر روم ومُلتقاهما على ما قيل[١]، وهو الموضع الذي وعده الله بلقاء الخِضر فيه. أو مجمع موسى والخِضر، فإنّ موسى بحر العلم الظاهر، والخِضر بحر العلم الباطن ﴿أَوْ أَمْضِيَ﴾ وأسِير في الأرضِ ﴿حُقُباً﴾ ومدّةً طويلةً، أو ثمانون سنة على ما قيل[٢]، ورواه القمي عن الباقر عليه السلام[٣].

وقال القمي: لمّا أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً بخبر أصحاب الكهف قالوا: أخبرنا عن العالِمِ الذي أمَرَ الله مُوسى أنْ يتّبعه وما قصّته؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾[٤].

١. تفسير الرازي ٢١: ١٤٥، تفسير روح البيان ٥: ٢٦٣.
٢. تفسير الرازي ٢١: ١٤٦، تفسير روح البيان ٥: ٢٦٤.
٣. تفسير القمي ٢: ٤٠، تفسير الصافي ٣: ٢٤٨.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٧، تفسير الصافي ٣: ٢٤٨.

في قصة موسى والخِضر

وروى بعض العامة أنّه لمّا ظهر موسى عليه السلام على مِصر مع بني إسرائيل بعد هلاك القِبْط، أمرهُ الله أنْ يذكّر قومه أنعام الله عليهم، فخَطَب خُطبةً بليغةً رقّت بها القلوب، وذَرَفت العيون، فقال واحد من علماء بني إسرائيل: يا موسى، من أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يردّ العِلَم إلى الله تعالى، فأوحى إليه: بل أعْلَمُ منك عبدٌ لي عند مَجْمَع البحرين، وهو الخِضر، وكان في أيّام أفريدون الملك العادل العاقل قبل موسى عليه السلام، وكان على مقدّمة ذي القَرنين الأكبر، وبقي إلى أيّام موسى عليه السلام، وقد بُعِث هو في أيّام كشتاسب بن لهراسب ـ على ما قيل ـ فقال موسى عليه السلام: يا ربّ، أين أطلُبه، وكيف يتيسّر لي الظَّفَر به والاجتماع معه؟ قال: اطلُبه على ساحل البحر عند الصخرة، وخُذ حُوتاً مَمْلُوحاً في مِكْتَلٍ يكون زاداً لك، فحيث فقدته فهو هناك. فأخذ حُوتاً فجعله في مِكْتَلٍ فقال لفتاه: إذا فقدت الحُوت فأخبرني. قال: وزعم أهل التوراة أنّ موسى هذا هو موسى بن ميشاء بن يوسف، وكان نبيّاً قبل موسى بن عمران[1].

وقال بعضهم: إنّ موسى عليه السلام لمّا أعطى الألواح وكلّمة الله قال: مَن الذي أفضل منّي وأعلم؟ فقيل: عبدٌ لله يسكُن جزائر البحر[2].

وفي رواية عامية أُخرى: أنّ موسى عليه السلام لمّا أُوتي من العلم ما أُوتي، ظَنّ أنّه لا أحد مثله، فأتاه جَبْرَئيل وهو بساحل البحر فقال: يا موسى، اُنظُر إلى هذا الطير الصغير يَهوي إلى البحر يضرِب بمِنقاره فيه ثمّ يرتفع، فأنت فيما اُوتيت من العلم دون قدر ما يحمِل هذا الطير بمِنقاره من البحر[3].

وفي رواية عامية: أنّ موسى عليه السلام سأل ربه أيّ عبادك أحبُّ إليك؟ قال: الذي يذكُرني ولا ينساني. قال : فأيّ عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحقّ ولا يتّبع الهوى. قال: فأيّ عبادك أعْلَم؟ قال: الذي يبتغي علمَ الناس إلى عِلمه، عسى أنْ يُصيب كلمة تدُلّه على هدى، أو تردّه عن ردى. فقال موسى عليه السلام: إن كان في عبادك أعلمُ منّي فَادلُلْني عليه، فقال: أعلم منك الخِضر. قال: فأين أطلُبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: يا ربّ، كيف لي به؟ قال: تأخذُ حُوتاً في مِكْتَل فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدت الحُوت فأخبرني[4].

والقمي رحمه الله لمّا كلّم الله موسى عليه السلام تكليماً، فأنزل الله الألواح عليه، وفيها كما قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ﴾[5] رجع موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، فصَعِد المِنبَر، فأخبرهم أنّ الله قد أنزل عليه التوراة وكلّمه، قال في نفسه: ما خَلَق الله خَلْقاً أعلمُ منّي. فأوحى الله إلى جَبْرَئيل:

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٢.

٢ و٣. تفسير الرازي ٢١: ١٤٤.

٤. تفسير الرازي ٢١: ١٤٥.

٥. الاعراف: ١٤٥/٧.

أدرِكْ موسى فقد هَلَك، وأعْلِمْهُ أنّ عند مُلتقى البحرين عند الصخرة رجلٌ أعْلَم منك، فسِر إليه وتَعَلَّمْ مِنْ عِلمه. فنزل جَبْرَئيل إلى موسى فأخبره، وذلّ موسى في نفسه، وعَلِم أنه أخطأ ودخله الرُّعب، وقال لوصيّه يوشع: إنّ الله قد أمرني أنْ أتبع رجلاً عند ملتقى البحرين وأتَعَلَّم منه، فتزوّد يوشعُ حُوتاً مملوحاً[١].

وعن الصادق عليه السلام قال: «بينا موسى عليه السلام قاعدٌ في ملأ من بني إسرائيل، إذ قال له رجل: ما أرى [أحداً] أعلمَ بالله منك، قال موسى عليه السلام: ما أرى. فأوحى الله إليه: بل عبدي الخِضر. فسأل السبيل إليه، فكان له آية الحوت إن افتقده، وكان من شأنه ما قصّ الله»[٢].

فذهب موسى ويوشع عليهما السلام حتى بلغا مجمع البحرين ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ ومكاناً يلتقي وسط ما امتدّ من البحرين، أو الموضع الذي يجتمع فيه موسى والخِضر الذي كان في طلبه، جلس هو وفتاه على الصخرة التي كانت قريبة من عين الحياة.

ثمّ نام موسى عليه السلام، وتوضّأ يُوشع من العين، فوقعت قطرة من ماء العين على الحوت المملوح فحيي، فذهب في البحر، فتحيّر يُوشع من هذا الأمر، فقام موسى عليه السلام من النوم، وتوجّه إلى الطريق، وأسرع في السير وتَبِعه يُوشع و﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ الذي جُعل فقدانه أمارة وجدان المطلوب، أمّا موسى عليه السلام فنسى تذكّر الحوت لصاحبه، وأمّا صاحبه فنسي الإخبار بأمر الحوت ﴿فَاتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَباً﴾ ومسلكاً.

القمي: فلمّا خرجا وبلغا ذلك المكان، وجدا رجلاً مُسْتلقياً على قَفاه فلم يَعْرِفاه، فأخرج وصيّ موسى الحوت وغسله بالماء، ووضعه على الصخرة ومضيا ونسيا الحوت، وكان ذلك الماء ماء الحَيوَان، فحيي الحوت ودخل في الماء، فمضى موسى ويُوشع معه حتى عييا[٣].

عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنّه قال لبعض اليهود وقد سأله عن مسائل: «أمّا قولك أوّل عين نبعت على وجه الأرض، فإنّ اليهود يزعُمون أنّها العين التي ببيت المَقْدِس تحت الحجر وكَذَبوا، هي عين الحَيوَان التي انتهى موسى عليه السلام وفتاه إليها، فغسل فيها السمكة المالحة فحييت، وليس من ميت يُصيبه ذلك الماء إلّا حيي، وكان الخِضر في مقدّمة ذي القَرنين يطلُب عين الحياة فوجدها وشرب منها، ولم يجدها ذو القَرنين»[٤].

وفي رواية: أنّ موسى ويُوشع عليهما السلام انطلقا يمشيان، فانتهيا إلى شيخ مستلقٍ معه عصاه موضوعة إلى

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٧، تفسير الصافي ٣: ٢٤٨.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٦٧٢/١٠٣، تفسير الصافي ٣: ٢٤٩.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٧، تفسير الصافي ٣: ٢٤٩.
٤. إكمال الدين: ٥/٢٩٨، تفسير الصافي ٣: ٢٥٠.

جانبه عليه كِساء، إذا قنَع رأسه خرجت رِجْلاه، وإذا غطّى رِجْليه خرج رأسه، فقام موسى يصلّي وقال ليُوشع: احْفَظه[1] عليّ، قال: فقطرت قطرة من السماء في المِكْتَل فاضطرب الحوت، ثمّ جعل يَثِب من المِكْتَل إلى البحر، وهو قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَباً﴾ ثمّ جاء طيرٌ فوقع في[2] ساحل البحر، ثمّ أدخل منقاره في البحر فقال: يا موسى، ما أخذتَ من علم ربّك ما حمل [ظهر] مِنقاري من جميع ماء البحر[3].

وفي رواية عنهما عليهما السلام: «لمّا كان من أمر موسى عليه السلام ما كان، أُعطي مِكْتَلاً فيه حُوت مملّح، وقيل له: هذا يدُلّك على صاحبك عند مجمع البحرين صخرة عندها عين[4] لا يصيب منها شيء ميّتاً إلّا حيي، يقال لها عين الحياة، فانطلقا حتى بلغا الصخرة، فانطلق الفتى يغسِل الحوت في العين، فاضطرب في يده فخدشه وتفلّت منه ونسيه الفتى»[5].

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هٰذَا نَصَباً * قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَا أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَباً * قَالَ ذٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصاً * فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَدُنَّا عِلْماً [٦٢ ـ ٦٥]

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَاهُ﴾ يُوشع: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ والحوت الذي أعددناه لأكلِنا أوّل النهار، بالله ﴿لَقَدْ لَقِينَا﴾ وأصبنا ﴿مِن سَفَرِنَا هٰذَا﴾ الذي نحن فيه ﴿نَصَباً﴾ وتعباً شديداً وعِيّاً كثيراً.

عن النبي صلّى الله عليه وآله: «لم يجد موسى النَّصب حتى جاوزا[6] المكان الذي أمره به»[7].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّما أعيى حيث جاوزا[8] الوقت»[9].

فلمّا جاء يُوشع بالسُّفرة تذكّر قصّة الحوت و﴿قَالَ﴾: يا موسى ﴿أَرَأَيْتَ﴾ وهل اطّلعت على الأمر العجيب، فإنّا ﴿إِذْ أَوَيْنَا﴾ ووصلنا ﴿إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ ونزلنا عندها ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ﴾ وتركتُ

---

١. في تفسير العياشي: احفظ.
٢. في تفسير العياشي: فوقع على.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٦٧١/١٠١، تفسير الصافي ٣: ٢٤٩.
٤. في تفسير العياشي: عين مجمع البحرين.
٥. تفسير العياشي ٣: ٢٦٦٥/٩٧، تفسير الصافي ٣: ٢٥٠.
٦. في تفسير روح البيان: جاوز.
٧. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٥.
٨. في تفسير العياشي: جاوز.
٩. تفسير العياشي ٣: ٢٦٧١/١٠١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٠.

﴿ٱلْحُوتَ﴾ على الصخرة، أو نسيتُ أنْ أذكُر لَكَ أمرَه وما شاهدتُ من العَجَبِ، وهو أنّه حيي واضطرب ووقع في الماء.

قيل: إنّ علّة نسيانه ـ وإنْ كان أمرُه من شدّةِ غرابته ممّا لا يُنْسى اعتياده مشاهدة أمثال ذلك من موسى عليه السلام، فقلّ اهتمامه به، أو استغراقه في أنوار جمال الألوهيّة وانجذابُ شَراشره[1] إلى جَناب قُدس الربوبية[2].

ثمّ لمّا كان نسيانه ذلك سبباً لتجاوز موسى عليه السلام من ذلك المكان وارتفاعه في التعب، اعتذَر إليه بقوله: ﴿وَمَا أَنسانِيهُ﴾ شيء ﴿إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ﴾ لك وأخبرك به ﴿وَٱتَّخَذَ﴾ الحوتُ ﴿سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ سبيلاً أو اتخاذاً ﴿عَجَباً﴾.

قيل: إنّ وجه التعجّبِ حياتُه بعد الموت والتّشويه، وانقلابه من المِكْتَل، وإلقاءُ نفسه في البحر، وجعل الله تعالى الماء على الحوت كالطاق والسَرب[3]. وإنّما نَسَب يُوشع النسيان إلى الشيطان لكونه نقصاً أو لإظهار هَضْم النفس.

وقيل: إنّ بعد إخبار يُوشع بأمر الحوت ﴿قَالَ﴾ موسى: عجباً ﴿ذٰلِكَ﴾ الذي ذكرتَ من أمر الحُوت[4] ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ ونَطلُب لكونه أمارة الفوز بالمقصود من لقاء الخِضر ﴿فَارْتَدَّا﴾ ورجعا من مكانهما إلى مكان الصخرة ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ وطريقهما الذي جاءا منه، وهما يقُصّان ﴿قَصَصاً﴾ ويتفحّصان تفحّصاً عن أثرهما وطريقهما إلى المكان الذي نسيا فيه الحوت، فأتيا الصخرة ﴿فَوَجَدَا﴾ عندها ﴿عَبْداً﴾ عَظيم الشّأن ﴿مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ﴾ الوحي والنبوّة اللّتين تكونان ﴿رَحْمَةً﴾ وتفضّلاً ﴿مِنْ عِندِنَا﴾.

وقيل: إنّ الصوفية قالوا: إنّ المراد من الرحمة طول العمر لا النبوّة[5]. وقيل: إنّه كان نبيّاً ولم يكن مُرسلاً[6] ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَدُنَّا عِلْماً﴾ خاصّاً بنا وهو علم الغيب.

أقول: ذهب الأكثرون إلى أنّه الخِضر، كما في الروايات السابقة؛ وإنّما سُمّي خضراً لأنّه لا يَقِفُ موقفاً إلّا اخضرّ ذلك الموضع[7].

عن الصادق عليه السلام: «إنّ الخِضر كان نبيّاً مرسلاً، بعثه الله إلى قومه، فدعاهم إلى توحيده، والإقرار

---

١. الشَّرَاشِر: النفس، والمحبّة، وقيل: جميع الجسد، يقال: ألقى عليه شراشره، أي نفسه حرصاً ومحبّة.
٢. تفسير البيضاوي ٢: ١٧، تفسير روح البيان ٥: ٢٦٦.
٣. تفسير الرازي ٢١: ١٤٧، والسِّرْب: الطريق. والسَّرَب: حفير تحت الأرض لا مَنْفذ له، والقناة الجوفاء.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٧.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٧٠.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٨.
٧. تفسير الرازي ٢١: ١٤٩.

بأنبيائه ورسله وكتبه، وكانت آيته أنّه كان لا يجلِس على خشبةٍ يابسةٍ ولا أرض بيضاءَ إلّا اهتزّت خَضْراء، وإنّما سُمّي الخِضر لذلك، وكان اسمه بليابن ملكا بن عامر[١] بن أرفخشد بن سام بن نوح[٢].
وقال بعض العامّة: إنّه بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالح[٣] بن أرفخشد بن سام بن نوح[٤].

وروى أبو الليث عن النبيّ ﷺ «أنّه كان ابن مَلِك من الملوك، فأراد أبوه أن يستخلفه من بعده، فلم يقبل وهرب منه، ولَحِق بجزائر البحر»[٥].

وقيل: إنّ أباه كان مَلِكاً، وأُمّه كانت بنت فارس، واسمها الها، وأنّها ولدته في مَغارة، وأنّه تُرك هنالك وشاة تُرضِعه في كلّ يوم من غنم رجلٍ من القرية، فأخذه الرجل فربّاه، فلمّا شبّ طَلَب المَلِك أبوه كاتِباً، فجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتُب الصُحف التي نزلت على إبراهيم وشيث. فدخل الخِضر فيمن قدِم عليه من الكتّاب، فلمّا استحسن خطّه ومعرفته ونجابته سأله عن جليّة أمره، فعرف أنّه ابنه، فضمّه لنفسه وولّاه أمر الناس. ثمّ فرّ الخِضر من المَلِك وزَهِد في الدنيا، وسار إلى أن وَجَد عين ماء الحياة فشرب منها[٦].

وعن ابن عبّاس: أنّ الخِضر بن آدم لصُلبه، ونسئ له في أجله حتّى يُكذّب الدجّال[٧].

وعن ابن العساكر: أنّ آدم لمّا حضرَه الموت أوصى بنيه أن يكونَ جسده معهم في غار، فكان جسده في مغارة معهم، فلمّا بعث الله نوحاً ضمّ ذلك الجسد في السفينة بوصيّة آدم، فلمّا خرج منها قال لبنيه: إنّ آدم دعا بطول العمر لمن يدفِنه من أولاده إلى يوم القيامة، فذهب أولاده إلى الغار ليدفِنوه، وكان فيهم الخِضر، فكان هو الذي تولّى دفن آدم، فأنجز الله ما وعده[٨].

وقيل: إنّه ابن خالة ذي القَرنين، وكان في سَفَره معه، وشرِب من ماء الحياة، فمدّ الله عُمرَه[٩].

وقيل: إنّه كان من ذُريّة إسحاق[١٠].

وعن البَغَوي: أربعة من الأنبياء أحياء إلى يوم القيامة، اثنان في الأرض وهما الخِضر وإلياس عليهما السلام، [وإثنان في السماء إدريس وعيسى عليهما السلام][١١].

وقال بعض العامة: أنّ أبا عمر إمام الحديث في وقته روى أنّ رسول الله ﷺ حين غُسّل وكُفّن سَمِعوا قائلاً يقول: السلام عليكم يا أهل البيت، إنّ في الله خَلَفاً من كلّ هالك، وعوضاً من كلّ تالف، وعزاءً من كلّ مصيبة، فعليكم بالصَّبر فَاصْبِروا واحْتَسِبوا. ثمّ دعا لهم، ولا يَرَون شخصَه، فكانوا يَرَون

---

١. في علل الشرائع: باليا بن ملكا بن عابر.
٢. علل الشرائع: ١/٥٩، تفسير الصافي ٣: ٢٥١.
٣. في تفسير روح البيان: شالخ.
٤ و٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٧.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٧.
٧ و٨. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٨.
٩ ـ ١١. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٨.

أنّه الخِضر[1].

وعن كتاب (الهواتف) لبعض العامّة: أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام لقي الخِضر وعلّمه الدعاء، وذكر فيه ثواباً عظيماً، ومغفرة لمن قاله في أثر كلّ صلاة وهو: يا من لا يَشْغَلُه سَمْعٌ عن سَمْعٍ، ويا من لا تُغلّطه المسائل، ويا من لا يتبرَم من إلحاح المُلِحّين، أذِقْني بَرْد عَفوك وحَلاوة مغفرتك[2].

وروى بعض أكابر العامة أنّ الخِضر يظهر مع أصحاب الكهف عند ظهور المهدي عليه السلام ويستشهد، ويكون من أفضل شهداء عسكر المهدي عليه السلام[3].

وعن الصادق عليه السلام في الحديث السابق: «فرجع موسى عليه السلام فقصّ أثره حتى انتهى إليه وهو على حاله مستلقٍ، فقال له موسى عليه السلام: السلام عليك، [فقال: وعليك السلام] ياعالم بني إسرائيل. قال: ثمّ وثب فأخذ عصاهُ بيده» الخبر[4].

قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً * قَالَ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ ٱللهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْراً * قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْئَلْنِى عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً[٦٦ ـ ٧٠]

﴿**قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ**﴾ شرط، أو بانياً على ﴿**أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ**﴾ علماً يكون هو ﴿**رُشْداً**﴾ لي في دِيني، ودلالةً لي إلى خيري، أو عُلّمت وأرشدت به ﴿**قَالَ**﴾ الخِضر: يا موسى ﴿**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً**﴾ لأنّي وُكلتُ بِأمرٍ[5] لا تُطيقه، ووكَلتَ بِأمرٍ[6] لا أُطيقُه. كما عن الصادق عليه السلام[7].

ثمّ بالغ في صَرفه عن مصاحبته بِاسْتِبعاد الصَّبر على ما يرى بقوله: ﴿**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً**﴾ وعِلْماً، ولم تَقِف على حقيقته ﴿**قَالَ**﴾ موسى عليه السلام: ﴿**سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ ٱللهُ صَابِراً**﴾ معك غير معترضٍ عليك ﴿**وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْراً**﴾ ولا أُخالفُك فيما تطلُب منّي.

عن الصادق عليه السلام «فلمّا استثنى المشيئة قَبِلَه»[8].

وفي حديث عن أحدهما عليهما السلام: «فلمّا سأل العالِمَ عَلِم العالمُ أنّ موسى عليه السلام لا يستطيع صحبته ولا

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٨. ٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٩.

٤. تفسير العياشي ٣: ٢٦٧١/١٠٢، تفسير الصافي ٣: ٢٥١.

٥ و٦. في علل الشرائع: بعلم.

٧. تفسير العياشي ٣: ٢٦٦٥/٩٨، علل الشرائع: ١/٦٠، تفسير الصافي ٣: ٢٥٢.

٨. علل الشرائع: ١/٦٠، تفسير الصافي ٣: ٢٥٢.

يحتمل عِلمَه ولا يَصبِر معه، فعند ذلك قال: فكيف تصبر على ما لم تُحِط به خُبْراً؟ فقال له موسى عليه السلام وهو خاضع يستلطفه[١] على نفسه كي يقبله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ ٱللَّهُ صَابِراً﴾[٢].

عن الصادق عليه السلام: «كان موسى عليه السلام أعلم من الخِضر»[٣].

ثمّ ﴿قَالَ﴾ الخِضر إيذاناً لِلرّضا بصُحبته: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي﴾ وصَحِبْتَني ﴿فَلَا تَسْئَلْنِي عَنْ﴾ حِكْمَة ﴿شَيْءٍ﴾ وفِعْلٍ تشاهده من أفعالي وتُنْكِرُهُ في نفسك منّي ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ﴾ وأبتدؤك ﴿مِنْهُ ذِكْراً﴾ وبياناً، فإنّ كلّما أفْعَله له مصلحة تامّة وغاية حميدة أُطلِعك عليها.

عن الرضا عليه السلام: «يقول: لا تسألني عن شيء أفعله ولا تُنْكره عليَ حتى اُخبرك بخبره، قال: نعم»[٤].

قيل: إنّ موسى عليه السلام صرف يُوشع إلى بني إسرائيل، وبقي هو مع الخِضر[٥].

فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْراً * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً [٧١ـ٧٧]

﴿فَانطَلَقَا﴾ وذهبا: قيل: وتَبِعهما يُوشع[٦] ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا﴾ البحر ﴿فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾ رُوي أنّهما مرّا بالسفينة فاستحملا ملاحيّها، فعرفوا الخِضر، فحملوهما بغير أُجرة[٧]. فبينما تسير السفينة قام الخِضر و ﴿خَرَقَها﴾ وشقّها لمّا بلغوا وسط البحر.

عن الرضا عليه السلام في حديث: «فمرّوا ثلاثتهم حتّى انتهوا إلى ساحل البحر، وقد شُحِنت سفينة وهي تُريد أنْ تعبُر: فقال أرباب السفينة: نحمِل هؤلاء الثلاثة نفر فإنّهم قوم صالحون فحملوهم، فلمّا

---

١. في تفسير العياشي: يستعطفه.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٦٧٠/١٠٠ عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٣: ٢٥٢.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٦٦٧/٩٨، تفسير الصافي ٣: ٢٥٢.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٩، تفسير الصافي ٣: ٢٥٣.
٥. تفسير أبي السعود ٥: ٢٣٥، تفسير روح البيان ٥: ٢٧٧.
٦ و٧. تفسير روح البيان ٥: ٢٧٧.

جَنَحت السفينة في البحر قام الخِضر إلى جوانب السفينة فكسرها فحشاها بالخِرق[١] والطين، فغضِب موسى عليه السلام غضباً شديداً و﴿قَالَ﴾ للخِضر معترضاً عليه: ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ وشَقَقتها ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾[٢] مع أنهم مُحْسِنون بنا حيث حملونا بلا أجرة؟! باللهِ ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ وفعلت ﴿شَيْئاً﴾ وفِعلاً ﴿إِمْراً﴾ وشنيعاً، أو عظيماً، أو عجيباً.

القمي: هو المنكر، وكان موسى يُنكر الظلم فأعظَمَ ما رأى[٣] ﴿قَالَ﴾ الخِضر لموسى عليه السلام إنكاراً عليه، أو تقريراً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾ لك ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ وأنت وعدتني الصبر، فلمَ خالفت؟ ﴿قَالَ﴾ موسى معتذراً إلى الخِضر: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ وصيّتك بترك السؤال من شدّة الغضب، ولا مؤاخذة على الناسي ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ ولا تُعنتني ﴿مِنْ أَمْرِي﴾ الذي أنا عليه من متابعتك ﴿عُسْراً﴾ ومشقّة، بل يسّر متابعتك عليّ بالإغضاء وترك المناقشة، فإنّي مشتاقٌ إلى صحبتك، ولا يمكنني ذلك إلّا بأن تَرْفُق بي وتسامحني فيما يصدُر منّي.

فقبل الخِضر عُذر موسى، وخرجا من السفينة ﴿فَانطَلَقَا﴾ وذهبا معاً ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ مرّا بقرية و﴿لَقِيَا﴾ في خارجها ـ على ما قيل[٤] ـ ﴿غُلَاماً﴾ صبيحاً، فأخذه الخِضر وذهب به خلف الجدار ﴿فَقَتَلَهُ﴾.

وعن أُبيّ بن كعب، عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّهما خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخِضر غُلاماً يلعب مع الغِلمان، فأخذ الخِضر برأسه فاقتلعه بيده»[٥].

وعن الرضا عليه السلام في الحديث السابق: «فخرجوا من السفينة، فنظر الخِضر إلى غلام يلعب بين الصبيان حَسَن الوجه، كأنّه قطعة قمر، وفي أُذنيه دُرّتان، فتأمّله الخِضر ثمّ أخذه وقتله، فوثب موسى عليه السلام على الخِضر وجَلَدَ به الأرض»[٦]. ﴿قَالَ﴾ انكاراً لفعله ﴿أَقَتَلْتَ﴾ يا خِضر ﴿نَفْساً زَكِيَّةً﴾ طاهرة من الذنوب ﴿بِغَيْرِ﴾ قتل ﴿نَفْسٍ﴾ محترمة يُوجِب القِصاص؟!

قيل: إنّ الغُلام كان بالغاً، لأنّ الصغير لو قَتَل أحداً لا يُقتصّ منه[٧]. وفيه: لعلّ المراد بيان إنحصار مجوّز القتل في الحدود والقِصاص، وإن لم يكن في الصغير أحد موجباته.

وقيل: لعلّ الصغير كان يُقادُ في شرع موسى، كما أنّ الصغار كانوا مكلّفين قبل الهجرة، وفي عام

---

١. في النسخة: بالخزف.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٩، تفسير الصافي ٣: ٢٥٤.
٣. تفسير القمي ٢: ٤٠، تفسير الصافي ٣: ٢٥٣.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٧٩.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٧٩.
٦. تفسير القمي ٢: ٣٩، تفسير الصافي ٣: ٢٥٤، وجَلَدَ به الأرض: صرعه.
٧. تفسير روح البيان ٥: ٢٧٩.

خيبر رُفِع القلم عنهم[١].

وروت العامّة أنّ علياً عليه السلام أسلَم وهو ابن ثماني سنين، وقد أجمعوا على صحّة إسلامه[٢].

ثمّ بالغ موسى عليه السلام في توبيخ الخِضر بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ وفعلت يا خِضر ﴿شَيْئاً﴾ وفعلاً ﴿نُكْراً﴾ وقبيحاً غايته، ومنكراً أنكرَ من الفعل الأوّل، لأنّ خرق السفينة وإنْ كان تَعْريضاً للتلف إلّا أنه قابل للتّدارك، بخلاف قتل الغلام فإنّه إتلافٌ غير قابلٍ للتدارك. ﴿قَالَ﴾ الخِضر توبيخاً لموسى على عدم وفائه بالعهد وتركه العمل بالوصيّة: يا موسى ﴿أَلَمْ أَقُل لَكَ﴾ مراراً ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبراً﴾.

عن الصادق عليه السلام: «قال الخِضر: إنّ العقول لا تَحْكُم على أمرِ الله، بل أمرُ الله يَحْكُم عليها، فسلّم لِما تَرى منّي وَاصْبِر عليه، فقد كنتُ علمتُ أنّكَ لن تستطيعَ مَعِي صبراً»[٣] ﴿قَالَ﴾ موسى: اُعْفُ يا خِضر عن خطئي في هذه المرّة ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ وخالفتُك مَرّةً ثالثةً ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ وإنْ سألتُ صحبتَك، وأبْعِدْني وإن التَمَسْتُ قُربَك ﴿قَدْ بَلَغْتَ﴾ ووجدتَ في تَبْعيدي وعدم قبول التماسي ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ ومن قِبَلي ﴿عُذْراً﴾ مقبولاً لا أقدِرُ [على] ردّه. وفي الحديث: «رَحِمَ الله أخي موسى استحيا فقال ذلك، ولو لَبِث مع صاحبه لأبصَرَ أعجب الأعاجيب»[٤].

﴿فَانْطَلَقَا﴾ وذهبا معاً بعد ما شرطا ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ يقال لها أنطاكية، وكانت ذات أعين وسُور عظيم من صخر داخلة خمسة أجْبُل، ودورها اثنا عشر ميلاً. كذا قيل[٥]. وقيل: إنّها أيلة[٦]. وقيل: البصرة[٧]. وقيل: جُردان من أرمينية[٨]. وقيل: بَرْقة من الروم[٩]. وعن الصادق والرضا عليهما السلام: «هي الناصِرة، وإليها تُنسَب النصارى»[١٠].

قيل: كانت عادة أهل البلد أنهم يسُدّون أبوابها في أوّل الليل ولا يفتحونها لأحدٍ، فجاء موسى والخِضر حتّى وَصَلا إلى القرية عند العشاء، فوجدا أبوابها مسدودة، فسألوا أهلها أن يفتحوا لهما الباب فأبوا ذلك[١١]، ولمّا كانا جائعين ﴿آسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ وطلبا منهم الضيافة ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٠.
٣. علل الشرائع: ١/٦١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٣.
٤. تفسير الصافي ٣: ٢٥٤، تفسير روح البيان ٥: ٢٨٠.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٨١.
٦. تفسير الرازي ٢١: ١٥٦، تفسير أبي السعود ٥: ٢٣٧.
٧. تفسير البيضاوي ٢: ١٩.
٨. تفسير البيضاوي ٢: ١٩، وفيه: باجروان، وفي مراصد الاطلاع ١: ٦٠، وفي معجم البلدان ١: ١٩٢: جُرزان.
٩. تفسير أبي السعود: ٥: ٢٣٧.
١٠. تفسير العياشي ٣: ٢٦٧١/١٠٢، علل الشرائع: ١/٦١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٤.
١١. تفسير روح البيان ٥: ٢٨١.

ويُطعِموهما.

قيل: ذكر أهلها في موضع ضمير الجمع، للدلالة على التأكيد وزيادة التشنيع على سُوء صَنِيعهم، فإنّ الإباء عن الإطعام والضيافة مع كونهم أهل القرية وقادرين عليها أقبح وأشنع[١].

وقيل: إنّهما لم يسألا، وإنّما كان نزولهما عليهم بمنزلة السؤال[٢].

ثمّ قيل: إنّهم باتُو خارج القرية إلى الصباح، فلمّا فتحوا في النهار أبوابها، دخلوها وساروا في سِكَكِها[٣] ﴿فَوَجَدَا﴾ فيها ﴿جِدَاراً يُرِيدُ﴾ ويُشرِف ﴿أَنْ يَنْقَضَّ﴾ ويسقُط لزيادة مَيله ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخِضر وسوّاه بالاشارة بيده، كما عن النبي صلى الله عليه وآله[٤]. أو بوضع يده عليه، كما عنه صلى الله عليه وآله أيضاً. وعن الصادق عليه السلام في (العلل)[٥].

قيل: كان طول الجدار في السماء مائة ذراع[٦]، فلمّا رأى موسى عليه السلام هذا الإحسان من الخِضر إلى أهل القرية مع غاية لآمتهم وشدّة ضرورتهما إلى الطعام، اعترَض على الخِضر و﴿قَالَ﴾ له: لِمَ عمِلت هذا العمل مجّاناً؟ إنّك ﴿لَوْ شِئْتَ﴾ والله ﴿لَتَّخَذْتَ﴾ من أهل القرية ﴿عَلَيْهِ أَجْراً﴾ حتى نشتري به طعاماً نسُدُّ به الرمَق.

عن الرضا عليه السلام في الحديث السابق: «حتى إذا أتَيا بالعشيّ قريةً تُسمّى الناصِرة، ولم يضيّفوا أحداً قطُّ، ولم يُطْعِموا غريباً، فاستطعموهم فلم يُطْعِموهم ولم يُضيّفوهم»[٧].

وفي رواية: «ولم يُضيّفوا أحداً بعدهما حتى تقوم الساعة»[٨].

فنظر الخِضر إلى حائطٍ قد مال[٩] لينهدم، فوضع يده عليه وقال: قُمْ بإذنِ الله فقام، فقال موسى عليه السلام: لم يَنْبَغِ أنْ تُقِيمَ الجِدارَ حتى يُطعمونا ويأوونا، وهو قوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾[١٠].

قيل: لمَا قال موسى عليه السلام ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾[١١] قال: أليَس كُنتَ في البحر ولم تغرَق من غير سفينة؟ ولمّا قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾[١٢] قال الخِضر: أليس قتلتَ القِبْطيّ بغير ذَنْب؟ ولمّا قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ قال: أنَسِيتَ سَقياك لبنات شُعيب من غير أُجرة؟[١٣]

قَالَ هٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَلَيْهِ صَبْراً * أَمَّا

---

١. تفسير أبي السعود ٥: ٢٣٧، تفسير روح البيان ٥: ٢٨٢.
٢ و٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٨١.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٢.
٥. علل الشرائع: ١/٦١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٤.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٢.
٧. تفسير القمي ٢: ٣٩، تفسير الصافي ٣: ٢٥٥.
٨. تفسير العياشي ٣: ٢٦٧١/١٠٢، تفسير الصافي ٣: ٢٥٥.
٩. في تفسير القمي: زال.
١٠. تفسير القمي ٢: ٣٩، تفسير الصافي ٣: ٢٥٥.
١١. الكهف: ٧١/١٨.
١٢. الكهف: ٧٤/١٨.
١٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٢.

ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً[٧٨و ٧٩]

ثمّ لمّا خالف موسى عليه السلام العهد مرّة ثالثة ﴿قَالَ﴾ الخِضر: ﴿هٰذَا﴾ الفِراق ﴿فِرَاقُ﴾ أو هذا السؤال موجبٌ للفِراق ﴿بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ وَسَبَبُ انقطاع وَصْلي ووَصْلك ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ وأخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَلَيْهِ صَبْراً﴾ وحكمة الأمورِ المسؤول عنها.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «[وَدَدْنا] أنّ موسى كان صَبَر حتى يقُصّ عَلَينا مِنْ خَبَرِهما»[١].

ثمّ شرع الخِضر في بيان الحُكم بقوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتُها ﴿فَكَانَتْ﴾ مِلْكاً ﴿لِمَسَاكِينَ﴾ وعدّة ضُعفاء عَجَزة عن دفع الظلم عن أنفسهم.

قيل: كانوا عشرة إخوة، خمسة منهم زَمْنى[٢]، وخمسة منهم ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بها ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ مؤاجرة، للكسب[٣] والمعيشة ﴿فَأَرَدتُّ﴾ بأمر الله ﴿أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وأنقُضها[٤] بالكسر ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم﴾ وخلفهم، أو أمامهم ﴿مَلِكٌ﴾ كافِر يقال له جلندى: بجزيرة الأندلس ببلدة قُرطُبة على ما قيل[٥]. وهو ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صحيحةٍ جيّدةٍ وَجَد ﴿غَصْباً﴾ وظُلماً، من أربابها. فكان الخرق بقصد التعييب لتسلم السفينة من الغصب لا بقصد الإغراق.

قيل: إنّ المَلِك كان من وَراء الموضع الذي رَكِبوا في السفينة[٦]. وروِي أنّ الخِضر اعتذر إلى القوم، وذَكَر لهم شأن المَلِك، ولم يكونوا يعلمون بخبره[٧].

قيل: فَبينما هم كذلك استقبلتهم سفينة فيها جُنود المَلِك، وقالوا: إنّ المَلِك يُريد أنْ يأخُذَ سفينتكم إنْ لم يكُن بها عيب، ثمّ صَعِدوا إليها وكَشَفوها، فوجدوا مَوْضع اللَوحِ مفتوحاً فَانْصرفوا، فلمّا بَعُدوا عنهم أخذَ الخِضر ذلك اللَوح وردّه إلى مكانه[٨].

أقول: كلّ ذلك منافٍ لِما ذكره الله من إطّلاع موسى عليه السلام على الحكمة حين إرادة الخِضر مفارقته.

وَأَمَّا ٱلْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً * وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ

---

١. تفسير الصافي ٣: ٢٥٥، تفسير روح البيان ٥: ٢٨٣.
٢. أي مرضى.
٣. تفسير أبي السعود ٥: ٢٣٧، تفسير روح البيان ٥: ٢٨٣.
٤. نقض الشيء: أفسده بعد إحكامه.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٤.
٦. تفسير الرازي ٢١: ١٦٠.
٧. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٤.
٨. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٤.

يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَلَيْهِ صَبْراً[٨٠ـ٨٢]

ثمّ قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَامُ﴾ الذي قتلتُه ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ موحّدين ﴿فَخَشِينَا﴾ وَخِفْنا من ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ ويُغشيهما أو يُكلّفهما ﴿طُغْيَاناً﴾ على الله ﴿وَكُفْراً﴾ بوَحْدانيّته فيتّبعانه فيكفُران ويطغِيان لشدّة حُبّهما إيّاه ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ الله ويُعوّضهما عنه وَلَداً ﴿خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً﴾ وطهارةً من الذّنوب، ودِيناً وصَلاحاً ـ وإنّما قال ذلك في مقابل قول موسى عليه السلام، قتلتَ نفساً زكيّة ـ ﴿وَأَقْرَبَ﴾ منه ﴿رُحْماً﴾ وأكثر عَطْفاً وأوصل بِولديه وأبويهما.

عن ابن عباس: أبدلهما [الله] جاريةً، تزوّجها نبيّ من الأنبياء، فولدت سبعينَ نَبيّاً[١].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّهما أُبْدِلا بالغلام المقتول ابنةً، فولِد منها سبعون نبيّاً»[٢].

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ المائل الذي أقمتُه ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ اسمهما أصرم وصريم على ما قيل[٣]. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا﴾ من الذهب والفِضّة على قول، وقيل: كان لوحاً من ذَهب أو من رُخامٍ مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عَجِبتُ لِمَن يؤمنُ بالقدر كيف يحزَن، وعجبت لمن يؤمن بالرّزق كيف ينصَب، وعَجِبتُ لمن يؤمن بالموت كيف يفرَح، وعَجِبتُ لمن يؤمنُ بالحساب كيف يغفُل، وعَجِبتُ لمن يعرِفُ الدنيا وتقلّبها بأهلِها كيف يطمئنّ إليها. لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله، وعَجِبتُ لم يؤمن بالنار كيف يضحَك. وفي الجانب الآخَر مكتوبٌ: أنَا الله لا إله إلّا أنَا، وحدي لا شريك لي، خلقتُ الخيرَ والشرَّ، فطُوبى لمن خلقته للخير وأجريتُه على يَدَيه، والويل لمن خلقتُه للشرّ وأجريتُه على يَدَيه[٤].

وعن أمير المؤمنين والصادق عليهما السلام: «كان ذلك الكنز لوحاً من ذهب فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، عَجِبتُ لمن يَعلَمُ أنّ الموت حقّ كيف يفرَح، عَجِبتُ لِمَن أيقنَ بِالقدر كيف يحزَن، عَجِبتُ لمن يذكُر النار كيف يضحك، عَجِبتُ لم يرى الدنيا وتصرّف أهلها حالاً بعد حالٍ كيف يطمئنّ إلَيها»[٥].

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٥.
٢. الكافي ٦: ١١/٧، من لا يحضره الفقيه ٣: ١٥٤٢/٣١٧، تفسير الصافي ٣: ٢٥٦.
٣. تفسير أبي السعود ٥: ٢٣٨، تفسير روح البيان ٥: ٢٨٦.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٦.
٥. معاني الأخبار: ١/٢٠٠، تفسير القمي ٢: ٤٠، تفسير الصافي ٣: ٢٥٧.

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذا الكنز فقال: «أما إنّه ما كان ذهباً ولا فضّة، وإنّما كان أربع كلمات: لا إله إلّا أنا، من أيقن بالموت لم يضحَك سِنُّه، ومن أيقن بالحساب لم يفرَح قلبُه، ومن أيقن بالقدر لم يخشَ إلّا الله»[١].

وعن الرضا عليه السلام: «كان [في الكنز الذي قال الله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا﴾ لوح من ذهب] فيه: بِسم الله الرحمن الرحيم [محمّد رسول الله،] عَجِبتُ لمن أيقَن بالموت كيف يفرَح قلبُه، وعجبتُ لِمن أيقن بالقدر كيف يحزَن، وعجبت لِمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلِها كيف يَرْكَن إليها. وينبغي لمن عَقَل عن الله [أن] لا يَتّهم الله في قَضائِه ولا يستبطئه في رِزْقه»[٢].

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾ المسمّى بكاشح ـ على ما قيل[٣] ـ ﴿صَالِحاً﴾ تَقيّاً أميناً، يضعُ الناسُ ودائعهم عِنده فيرُدّها إليهم سالمةً ـ كما قيل[٤] ـ فحُفِظا بِصلاح أبِيهما في أنفُسِهما ومالهما.

عن ابن عبّاس قال: حُفِظا بصلاح أبِيهما[٥] وما ذُكِر منهما صلاحٌ. روت العامّة عن الصادق عليه السلام: «كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء»[٦].

والعياشي عنه عليه السلام: «إنّ الله ليَحْفَظ ولد المؤمن [لأبيه] إلى ألف سنة، وإنّ الغُلامين كان بينهما وبين أبيهما سبعمائة سنة»[٧].

وعنه عليه السلام: «إنّ الله لَيُصْلِح بصلاح الرَّجل المؤمن ولده وولد ولده، ويَحْفَظه في دُوَيْرَته ودُويراتِ حوله، فلا يَزالُون في حِفْظ الله؛ لِكَرامته على الله» ثمّ ذكر الغُلامين وقال: «ألَم تَرَ أنّ الله شَكَرَ صَلاح أبويهما لَهما»[٨].

قال بعض العامّة: فما بالُك بسيّد الأنبياء بالنسبة إلى قرابته الطّاهرة الطيّبة المطهّرة؟[٩].

أقول: ويلٌ لم غصب فَدك، الذي كان كنزاً لهم، ولم يَرْعَ رسول الله صلّى الله عليه وآله فيهم.

نقل بعضهم: أنّ هارون هَمَّ بقتل بعض العلوية، فلمّا دخل عليه العلوي أكرمَه وخلّى سبيلَه، فقيل له: بماذا دعوتَ حتى أنجاك الله منه؟ قال: قلت: يا من حَفِظ الكنزَ على الصبيّين بصلاح أبيهما، احْفَظْني لِصلاح آبائي[١٠].

---

١. تفسير العياشي ٣: ١٠٨/٢٦٩٠، الكافي ٢: ٦/٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٥٦.
٢. تفسير العياشي ٣: ١٠٨/٢٦٩١، الكافي ٢: ٩/٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٥٧.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٦.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٧.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٨.
٦. تفسير الرازي ٢١: ١٦٢، تفسير روح البيان ٥: ٢٨٧.
٧. تفسير العياشي ٣: ١٠٩/٢٦٩٤، تفسير الصافي ٣: ٢٥٧.
٨. تفسير العياشي ٣: ١٠٦/٢٦٨٧، تفسير الصافي ٣: ٢٥٧.
٩. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٨.
١٠. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٩.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ بأمره بتسوية جِدار الغُلامين ﴿أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ ويَصِلا إلى حدَ كمالهما من البلوغ وكمال العقل وحسن التدبير في المال ﴿وَيَسْتَخْرِجَا﴾ من تَحتِ الجِدار ﴿كَنزَهُمَا﴾ بسهولةٍ، وَلَولا إقامته لخرِب وخرج الكنز وظهر قبل اقتدارهما عليه وضاع بالكليّة، وإنّما كانت تلك الإرادة منه تعالى ﴿رَحْمَةً﴾ عظيمةً لهما ﴿مِن رَبِّكَ﴾ ولذا فعلتُ ما رأيت ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ أو ما فعلتُ جَميع ما رأيتَ مِن خَرْقِ السفينة وغيره ﴿عَنْ أَمْرِى﴾ ورأيي، بل فعلتُهُ بأمرِ الله تعالى وَوَحيه ﴿ذٰلِكَ﴾ المذكور ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَلَيْهِ صَبْراً﴾.

قيل: إنّ الخِضرَ في تأويل خَرق السفينة نَسَبَ إرادة التعييب إلى نفسِه، لِكَون التعييب ظاهرَ القُبح، وفي تأويل القتل إلى ضَمِيرِ «نا» لكون الكُفر ممّا يَجِب أن يَخْشاه كلّ أحد، وفي تأويل إقامة الجِدار إلى الربَ لكون بُلوغِ الأشُدّ ليس إلّا بإرادته تعالى وَحْدَه[1].

قيل: لمّا أسند الخِضر الإرادةَ إلى نفسه أوّلاً، أُلْهِمَ بأنه مَنْ أنتَ حتى تكونَ لكَ الإرادة؟ ثمّ جمع في الثانية حيث قال: فأرَدْنا، فَأُلْهِمَ بأنّه من أنتَ وموسى حتى تَكون لَكُمَا الإرادة؟ فخصَ في الثالثة الإرادة بالله[2].

وقيل: إنّه في خرق السفينة ذَكَر العيب فأضافَه إلى نفسه، وفي قتل الغلام عبّر عن نفسه بضمير الجمع تنبيهاً على عظمته في العلم والحكمة، ولذا لم يَقْدُم على القتل إلّا لحكمة بالغة، ولمّا ذكر في الغُلامين رعاية صلاحهما أضافَ الإرادة إلى الله تنبيهاً على أنّ المُراعي لِصَلاح الخلق هو الله[3].

وعن الصادق عليه السلام في قوله: ﴿فَأَردتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[4]: «نَسبَ الإرادة إلى نفسه لعلّة ذكر العيب»[5] إلى أنْ قال: «وفي قوله: ﴿فَخَشِينا﴾ إنّما اشترك في الأنانيّة، لأنّه خَشِيِ والله لا يَخْشى؛ لأنّه لا يَفُوته شيء، ولا يمتنع عليه أمر أرادهُ. وإنّما خشيَ الخِضر مِنْ أنْ يُحال بينه وبين ما أُمر به، فلا يُدرِك ثوابَ الإمضاء فيه، وَوَقَع في نَفْسه أنّ الله جَعَلَه سبباً لِرَحمة أبَوَي الغُلام،فعَمِل فيه وسط الأمرين من البشرية مثل ما كان عَمِل في موسى عليه السلام لأنّه صار في الوقت مخبراً، وكليم الله مخبراً»[6].

أقول: لمّا كان فَهم الرواية في غاية الإشكال تركتُ نقل بقيّتها.

روي أنّ موسى عليه السلام لمّا أراد أنْ يُفارِقَ الخِضر قال له الخضر: لو صبرتَ لأتيتُ ألف عجيبة، كلّ عجيبة أعجب ممّا رأيتَ. فبكى موسى عليه السلام على فِراقه وقال له: أوْصِني يا نبيّ الله. قال: لا تطلب

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٧. ٣. تفسير الرازي ٢١: ١٦٢.
٤. الكهف: ٧٩/١٨. ٥. في علل الشرائع: التعييب.
٦. علل الشرائع: ١/٦١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٧.

العلم لتحدّثَ به الناس واطلُبه لتعْمَل به، وكن نفّاعاً ولا تكن ضرّاراً، وكن بشّاشاً ولا تكن عَبُوساً غِضاباً، وإيّاك واللَّجاجة، ولا تَمْشِ في غير حاجةٍ، ولا تَضْحَك من غير عَجَبٍ، ولا تعيّر المُذْنِبينَ لعلَ الله يغفر خطاياهم بعد النَدَم، وَابْكِ على خَطِيئَتِك ما دُمتَ حيّاً، ولا تؤخّر عَمَلَ اليوم إلى الغَدِ، وَاجْعَل همّك في مَعادِك، ولا تَخُضْ في ما لا يَعْنِيك، وتدبّر الأمور في عَلانِيَتِك، ولا تَذَرِ الإحسانَ في قُدَرتِك. فقال له موسى عليه السلام: قد أبلغتَ في الوصيّة.

إلى أنْ قال: فقال له الخِضر: أوْصِني أنتَ يا موسى. فقال موسى عليه السلام له: إيّاك والغَضَب إلّا في الله، ولا تُحبّ الدنيا، فإنّها تُخرِجُك من الإيمان إلى الكُفر. فقال الخِضر: قد أبلغتَ في الوصيّة، الخبر[١].

أقول: في هذه القصّة فوائد من شرف العلم وحسن طلبه، وتبعيّة العالم والتذلّل له وعدم المبادرة في الاعتراض عليه، ومعرفة لُطف الله بعباده، ورعايته تعالى حقوقهم في ذُرّيّتهم وأموالهم، وحُسن الاعتذار من المقصّر وقبول عُذره، ومُداراة المعلّم مَعَ المتعلّم، إلى غير ذلك ممّا يَعْرِفه المتأمّل فيها.

وَيَسْئَلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً[٨٣]

ثمّ ذكر سبحانه القصّة الثالثة التي سأل اليهودُ النبيَّ صلى الله عليه وآله عنها امتحاناً لنبوّته بقوله: ﴿**وَيَسْئَلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ**﴾ الأكبر الذي ملك الدنيا بأسْرها. واسمه إسكندر بن فيلقوس اليوناني ﴿**قُل**﴾ يا محمّد ﴿**سَأَتْلُوا**﴾ وأقْرأ من القرآن ﴿**عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً**﴾ وخبراً، أو المعنى سَأتْلُو ما في شأنه من قبل الله قرآناً عليكم. قيل: كان بعد نمرود في عهد إبراهيم، وعاش ألفاً وستّمائة سنة[٢].

وعن العيّاشي، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ اسمه عيّاش، اختارَهُ الله وبعثه إلى قَرنٍ من قُرون الأُولى في ناحية المغرب، وذلك بعد طُوفان نوح»[٣].

وعن ابن عبّاس: أنّه في زمان إبراهيم[٤].

وعنه: أنّ إبراهيم كان بمكّة، فأقبل إليها ذو القَرنين، فلمّا كان بالأبطح قيل له: في هذا البلد إبراهيم خليل الرحمن، فقال ذو القَرنين: ما كان ينبغي لي أنْ أركبَ في بَلْدةٍ فيها إبراهيم. فنزل ومشى إليه، فسلّم عليه إبراهيم وَاعْتَنَقَه، وهو أوّل من عانَقَ بعد السلام[٥].

وقيل: إنّه إسكندر الرُّومي، وكان وزيره وأُستاذه أرسطاطاليس، وكان بعد إسكندر إبراهيم بأكثرَ من

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٧.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٠.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٢، تفسير الصافي ٣: ٢٦٠.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٩١.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٩١، وفيه: عند السلام.

ألفي سنة، وقبل المسيح بما يقرُب من ثلاثمانة سنة[١].

عن الكاظم عليه السلام: «أنّ نفراً من اليهود أتوا النبيّ صلى الله عليه وآله فقالوا لأبي الحسن جدّي: إسْتَأْذِنْ على ابن عمّك نسأله، إلى أنْ قال: فدخلوا، فقال صلى الله عليه وآله: أتسألوني عمّا جئتم له، أم اُنبّئكم؟ قالوا: أنبئنا، قال: قد جئتم تسألوني عن ذى القَرنين. قالوا: نعم، قال: كان غلاماً من أهل الروم، ثمّ مَلَك وأتى مطلعَ الشمس ومغربها» الخبر[٢].

قيل: كان بعدَ ثَمود، وكان الخِضر على مُقدّمة جيشه ووزيره[٣].

في نكتة تسمية إسكندر بذي القرنين

وإنّما لُقّب بذي القَرنين؛ لأنّه بلغ قَرني الشمس وجانبيها: مشرقها ومغربها. وهو مرويّ عن النبي[٤].

أو لأنّه رأى في المنام كأنّه دنا من الشمس حتى أخَذَ بقَرنيها في شرقها وغربها، فقصّ رؤياه على قومه فلقّبوه به. وهو مرويّ عن الباقر عليه السلام[٥].

أو لأنّه كان في رأسه قرنان كالظِّلْفَيْن يتحرّكان، فلَبِس العِمامة لذلك، وهو أوّل من لَبِسها[٦]. أو لأنّه انقرض في زمانة قَرنان[٧]. أوْ لأنّه كان لتاجه قَرنان[٨]. أوْ لأنّ الله سخّر له النور والظلمة، فكان إذا سرى يهديه النور من أمامه، وتَمُدّه الظلمة من وَرائه[٩]. أوْ لأنّه دخل في النور والظلمة[١٠]. أوْ لأنّه جمع بين علم الظاهر وعلم الباطن[١١]. أوْ كان له ذُؤابتان[١٢] من يمين رأسه ويساره. أو لأنّه كان كريم الطرفين[١٣]. أوْ كان يقاتل بيده وركابه[١٤]. أو لأنّه ضُرِب على قَرنه الأيمن في طاعة الله فمات، ثمّ بعثه الله بعد مائة عام. ثمّ بعثه الله إلى قَرن من القُرون الأُولى في ناحية المشرق، فضربوه ضربةً على قَرنه الأيسر فمات، ثمّ أحياهُ الله بعد مائة عام. كما عن أمير المؤمنين[١٥].

وفي رواية عنه عليه السلام: «أنّ قومَه ضربُوه على قَرنه الأيمن فغاب عنهم ما شاء الله أنْ يَغيب، ثمّ بعثه الله الثانيةَ فضربوه على قَرنه الأيسر، فغاب عنهم ما شاء الله أنْ يغيب، ثمّ بعثَه الله الثالثة» إلى أنْ قال:

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٠.
٢. قرب الاسناد: ١٢٢٨/٣٢١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٨.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٠.
٤. تفسير الرازي ٢١: ١٦٤.
٥. الخرائج والجرائح ٣: ٦٨/١١٧٥، وتفسير الصافي ٣: ٢٦١، عن أمير المؤمنين عليه السلام.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٠.
٧. تفسير أبي السعود ٥: ٢٤١.
٨. تفسير أبي السعود ٥: ٢٤٠.
٩. تفسير الرازي ٢١: ١٦٤، تفسير أبي السعود ٥: ٢٤١.
١٠. تفسير الرازي ٢١: ١٦٥.
١١. جامع الاحكام ١١: ٤٨.
١٢. تفسير أبي السعود ٥: ٢٤٠.
١٣. مجمع البيان ٦: ٧٥٦، جامع الاحكام ١١: ٤٨.
١٤. جامع الاحكام ١١: ٤٨.
١٥. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٢، تفسير الرازي ٢١: ١٦٤، تفسير الصافي ٣: ٢٦٠.

«وفيكم مثله» أو قال: «لو فيكم مثله» وأراد نفسه[١].

وقالت العامة: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لُقّب بذي القَرنين لِما كانت شَجّتان في رأسه، أحدهما عن عمرو بن عبدودّ لعنه الله، والآخر من ابن مُلْجَم لعنه الله[٢].

وقالوا: إنّه مَلَك الدنيا[٣].

قيل: إنّه لمّا مات أبوه جمع ملوك الروم بعد أنْ كانوا طوائفَ، ثمّ جمع ملوك المغرب وقَهَرهُم، وأمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر، ثمّ عاد إلى مصر، فَبَنَى الإسكندرية، وسمّاها باسم نَفْسِه، ثمّ دخل الشام، وقصد بَنِي إسرائيل، وورد بيت المَقْدِس، وذَبَح في مَذْبَحِهِ، ثمّ انعطف إلى أرمينية، وبابُ الأبواب[٤]، ودانت له العراقيون والقِبْط والبَرْبَر، ثمّ توجّه إلى دار ابن دارا وهَزَمه مرّات إلى أنْ قَتَله صاحب حرسه، فاسْتَولى الإسكندر على ممالك الفرس، ثمّ قصد الهند والصين، وغزا الأُمم البعيدة، ورجع إلى خُراسان، وبَنَى المُدن الكثيرة، ورجع إلى العراق، ومَرِض بشهرزور ومات بها[٥]. وقيل: إنّه كان نبيّاً[٦].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ الله لم يَبْعث أنبياءَ ملوكاً إلّا أربعة بعد نوح؛ أوّلهم ذو القَرنين، واسمه عيّاش» إلى أن قال: «فأمّا عيّاش فإنّه مَلَك ما بين المشرق والمغرب»[٧].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في رواية: «وعوّضه [الله] من الضربتين اللتين على رأسه قَرْنين في موضع الضَّربتين أجوفين، فجعل عزّ مُلكه وآيه نبوّته في قَرنه»[٨].

وقيل: إنّه لم يكن نبيّاً[٩].

وعن الباقر عليه السلام «أنّه لم يكن نبيّاً، ولكنّه كان عبداً صالحاً أحبّ الله فأحبّه»[١٠].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: أنّه سُئِل عن ذي القَرنين، أنبيّاً كان، أم مَلِكاً؟ فقال: «لا نبيّ ولا مَلِك، بل عبدٌ أحَبَّ الله فأحبّه»[١١].

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ

---

١. تفسير القمي ٢: ٤١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٩. ٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٠.

٣. جوامع الجامع: ٢٧٠. ٤. باب الأبواب: مدينة على بحر طبرستان، وهو بحر الخزر.

٥. تفسير الرازي ٢١: ١٦٣، تفسير أبي السعود ٥: ٢٤٠. ٦. تفسير الرازي ٢١: ١٦٥.

٧. تفسير العياشي ٣: ٢٦٩٩/١١٠، تفسير الصافي ٣: ٢٥٩.

٨. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٢، تفسير الصافي ٣: ٢٦٠.

٩. تفسير أبي السعود ٥: ٢٤٠، تفسير روح البيان ٥: ٢٩٠.

١٠. كمال الدين: ١/٣٩٣، تفسير الصافي ٣: ٢٥٩. ١١. تفسير القمي ٢: ٤١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٩.

مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَـا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَـلَهُ جَزَاءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّىٰ إِذَا بَـلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَهُم مِن دُونِهَا سِتْراً[٨٤ـ ٩٠]

ثمّ شرع سبحانه في ذكر قصته بقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا﴾ وأقدَرْنا ﴿لَهُ﴾ من حيث القوى والأسباب ﴿فِي ٱلأَرْضِ﴾ كلِّها مشرقِها ومغربِها ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء، وكلّ أمر من الأمور التيَ لها دخل في قدرته وسلطانه ﴿سَبَباً﴾ ووسيلةً تُوصله إليه من العِلم والتدبير والرأي والمال والجُنْد، فإذا أرادَ شيئاً ﴿فَأَتْبَعَ﴾ واتّخذ له ﴿سَبَباً﴾ وطريقاً يُوصله إليه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: ثمّ رَفَعهُ الله إلى السماء الدنيا، فكَشَطَ له عن الأرض كلّها جبالها وسُهُولها وفِجاجها حتى أبصر ما بين المشرق والمغرب، وآتاه الله من كلّ شيءٍ فعرف بـه الحقّ والباطل، وأيّده في قَرنه بكِسَفٍ من السماء فيه ظُلمات ورعدٌ وبرقٌ، ثمّ أهبطه إلى الأرض، وأوحى إليه: أنْ سِرْ في ناحية غرب الأرضِ وشرقِها، فقد طَوَيتُ لك البلاد، وذَلّلتُ لَك العِباد، فأرهـبتُهم مِنك. فسار إلى ناحية المغرب، فكان إذا مرّ بقرية يزأر فيها كما يزأر الأسد المُغْضَب، فـيَنبَعِث مـن قَرنيه ظلماتٌ ورَعد وبرق وصواعق تهلِك من ناواهُ وخالفه»[١].

وعن ابن عبّاس: أنّه عندما تواضَع لإبراهيم وعانقه، سخّر له السَّحاب[٢].

قيل: كانت السَّحاب تَحمِله وعساكره وجميع آلاتهم إذا أرادوا غَزْوَةَ قَومٍ[٣].

وقال بعض العامة: أنّه سخّر له السَّحاب، وبسط له النور، وكان الليل والنهار عليه سواء[٤]. وقد مرّ أنّهم قالوا: سخّر له النور والظلمة، فكان إذا سَرى يَهدِيه النّور من أمامه، وتمُدّه الظلمة من وَرائه[٥].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سُئل عن ذي القَرنين، فقال: «سُخِّر له السَّحاب، وقُرِّبت له الأسباب، وبُسِط له النور، وقال: كان يضيء[٦] [بالليل كما يضيء] بالنهار» الخبر[٧]. فسار طلباً لِماء الحياة ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ وَمُنْتَهَى الأرض من جهتها المتّصلة[٨] بالبحر المُحيط بـحيث إذا نـظر إلى

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٢، تفسير الصافي ٣: ٢٦٠.

٢ ـ٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٩١.

٥. تفسير الرازي ٢١: ١٦٤، تفسير أبي السعود ٥: ٢٤١ وقد تقدّم آنفاً في تفسير الآية (٨٣) من هذه السورة.

٦. في تفسير العياشي: يبصر، وكذا التي بعدها.

٧. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٢/١١٢، تفسير الصافي ٣: ٢٦٠.

٨. في النسخة: من جهته المتّصل.

الشمس ﴿وَجَدَهَا﴾ حين غُرُوبِها ﴿تَغْرُبُ﴾ وتَغِيبُ ﴿فِى عَيْنٍ﴾ ذات ﴿حَمِئَةٍ﴾ وطينٍ أسْوَد وماء كَدِرٍ.

قيل: لمّا بَلَغَ موضعاً لم يبقَ بعده عِمارة في جانب المغرب، وجد الشّمس كأنّها تَغْرُبُ في وَهْدَةٍ مُظْلمة، كما أنّ الراكب في البحر يَراها كأنّها تَغْرُب في البحر إذا لَمْ يرَ الساحل، وفي الحقيقة تَغْرُب وَراءَ البحر، وإلّا فإنّه كان من عُلماء النّجُوم، وكان معلوماً عنده أنّ الأرض كُرَوِيّة، والسماءُ مُحِيطةٌ بها، والشمس في الفَلَك الرّابع، ولا يمكن جُلوس قومٍ عند الشّمس كما حكاه الله بقوله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً﴾ مع أنّ الشّمس أعظم من الأرض مرّات كثيرة، فكيف يمكن دخولها في عَينٍ من الأرض؟![1]

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «في عين حامية، في بحر دون المدينة التي تلي المغرب» يعني جَابَلقا[2].

وعنه عليه السلام: «لمّا انتهى مَعَ الشّمس إلى العين الحامية، وجدها تغرُب فيها، ومعها سبعون ألف مَلَك يَجُرّونها بِسَلاسل الحديد والكلاليب، يجُرّونها من[3] قَعْر البحر في قُطر الأرض الأيمَن، كما تجري السفينة على ظَهر الماء»[4].

قال الفَخر الرازي: قال أهل الأخبار في صفة ذلك الموضع أشياء عجيبة، قال ابن جُريج: هناك مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لَولا أصوات أهلها سَمِع النّاس وَجْبَةَ الشّمس حِينَ تَغِيب[5].

أقول: وقال بعض العامة: هم أهل جَابَلص، وهي مدينة يقال لها بالسريانية جرجليسا[6]، لها عشرة آلاف باب، بين كلّ بابين فَرسَخ، يسكُنها قومٌ من بقية ثمود الذين آمنوا بصالح وآمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وآله لمّا مرّ بهم في ليلة الاسراء[7].

وقال بعض علمائهم: حديث جابلصا وجابلقا، وإيمان أهاليهما ليلة المعراج، وأنّهما من الإنسان الأوّل، فمشهور[8].

وقيل: إنّ القوم الذين وجدهم ذو القَرنين كانوا عَبَدة الأصنام، لهم أعينٌ خُضْرٌ وشعورٌ حُمْر، يَلبَسون جُلود الحيوانات، ويأكُلون لحوم البحر[9].

﴿قُلْنَا﴾ بطَريق الإلْهام: ﴿يَا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ﴾ـهُمْ بالقتل على كفرهم ﴿وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٢.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٧/١٢٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦١، وفي معجم البلدان عن ابن عباس: أن جابلقا مدينة بأقصى المغرب، وأهلها من ولد عاد. معجم البلدان ٢: ١٠٥.

٣. في النسخة: في.

٤. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦١.

٥. تفسير الرازي ٢١: ١٦٧.

٦. في تفسير روح البيان: جرجيسا. والذي في معجم البلدان: جَابَرس: مدينة بأقصى المشرق، وأن بها بقايا المؤمنين من ثمود، وفي مادة (جابلق) عن ابن عباس: أن أهل جَابَرس من ولد ثمود. معجم البلدان ٢: ١٠٥.

٧-٩. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٣.

فِيهِمْ﴾ وتسلك معهم طريقاً ﴿حُسْناً﴾.

أقول: هو مبالغة في (ذي حُسن). أو محذوف المضاف، والمعنى أمراً ذا حُسن، بإبقائهم أحياءً[1]، وإرشادهم إلى التوحيد، وتعليمهم الشرائع، فَاختر ما تراه الأصلح من الأمرين فيهم ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين: أدعُوهم إلى التوحيد والعمل الصالح ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ على نفسه بالإصرار على الكفر ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ بالقتل، قيل: كان يَطْبُخ الكافرَ في القِدْر[2] ﴿ثُمَّ يُرَدُّ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ﴾ فيها ﴿عَذَاباً نُكْراً﴾ ومنكراً وشديداً لا يتصوّره أحد.

عن الصادق عليه السلام: «أي في النَّار»[3]. ﴿وَأَمَّا مَنْ﴾ أجابَ دَعْوتي و ﴿آمَنَ﴾ بالله ﴿وَعَمِلَ﴾ عَمَلاً ﴿صَالِحاً﴾ وخالِصاً لله ومرضيّاً عنده ﴿فَلَهُ﴾ منّي في الدنيا ومِنَ الله في الدّارَين ﴿جَزَاءً﴾ ومَثُوبَةً ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ أوْ جَزاءً عظيماً على فِعلته الحُسنى.

قيل: كان يُعْطِي المؤمنَ ويَكْسِيه[4] ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ﴾ بعضاً ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ وحُكمنا ما يَراه ﴿يُسْراً﴾ وسهلاً عليه لا مشقّة فيه في أمر الخراج والزكاة.

﴿ثمّ أَتْبَعَ﴾ وسَلَكَ بعد الفراغ من بلاد المغرب ﴿سَبَباً﴾ وطريقاً مُوصلاً له إلى بلاد المشرق، فسار بجُنده ﴿حتّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ ومُنْتَهى الأرض من جهته.

قيل: بَلَغه في اثنَتَي عَشْرة سنة[5]. وقيل: أقلّ من ذلك[6]. فرأى الشّمس في ذلك الموضع و ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَهُم مِن دُونِهَا سِتْراً﴾ وحِجاباً من النبات والأبْنِيَة والأشجار والجِبالِ، فكانوا عُراةً لا يستظلّون بشيء.

عن الباقر عليه السلام: «لَمْ يَعْلَمُوا صَنْعَةَ البُيُوت»[7].

والقمي: لم يَعْلَمُوا صَنْعَةَ الثّياب[8].

قيل: كانوا إذا طلعتِ الشّمس دَخَلُوا في الأسرابِ أو البحر من شدّة الحرّ، فإذا غَربَتْ أو زالَتْ عن سَمْتِ رُؤوسهم خَرَجُوا وَاصْطادُوا السَّمَك والحيوانات البحريّة لِمَعيشتهم[9].

وقيل: لَمْ يَكُنْ على رؤوسهم وأجسادهم شَعْرٌ، كأنّما سُلِخَت من شدّة الحَرّ[10].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّه وَرَد على قومٍ قد أحرقتهُم الشمس وغَيّرت أجسادهم وألوانهم حتى

---

١. في النسخة: حيّاً. ٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٣.
٣. تفسير القمي ٢: ٤١، تفسير الصافي ٣: ٢٦٢. ٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٣.
٥ و٦. تفسير أبي السعود ٥: ٢٤٣، تفسير روح البيان ٥: ٢٩٤.
٧. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٨/١٢٣، مجمع البيان ٦: ٧٥٨، تفسير الصافي ٣: ٢٦٢.
٨. تفسير القمي ٢: ٤١، تفسير الصافي ٣: ٢٦٢. ٩ و١٠. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٤.

صيّرتهم كالظلمة»[١].

كَذٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا يَا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * آتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً * فَمَا ٱسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً * قَالَ هٰذَا رَحْمَةٌ مِن رَبِّى فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً[٩١ـ٩٨]

﴿كَذٰلِكَ﴾ السُّلوك الذي كان لِذِي القَرنين مع أهل المغرب، سَلَك مع هؤلاء القوم الذّين كانُوا في جهة المشرق، أو كذلك السلطان والاقتدار الذي كان له في ناحية المغرب كان له في ناحية المشرق ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من أمر القوم، أو بما عنده من الصلاحيّة لِلمُلْك العظيم وَالاستقلال، أو بما عنده من الأسباب والعُدّة والعدد والقدرة ﴿خُبْراً﴾ وعِلماً، بحيث لا يَخْفى علينا شيءٌ من أمره ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ﴾ ذُو القَرنين وأخَذَ بعد الفَراغ من اُولئك القوم ﴿سَبَباً﴾ وطريقاً ثالثاً إلى ناحية الشّمال كما قيل[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «سبباً في ناحية الظُلمة»[٣]. فسَار بأسبابه ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ والجبلين العالِيَيْن اللذَين كانا في مُنْقَطع أرض التُرك مِمّا يَلِي المشرق، على قول[٤]. أو في ما بين أرْمِينِيَة وأذْرَبيجان على آخر[٥].

وقيل: إنّ موضع السدّين في الرّبع الشّمالي[٦] إلى الغربي من المَعْمورة.

إذَنْ ﴿وَجَدَ﴾ ذُو القرنين ﴿مِنْ دُونِهِمَا﴾ وعندهما، أو من وَرائهما ﴿قَوْماً﴾ وجماعةً من النّاس وكانوا ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ ولايَقْرَبون أن يَفْهموا ﴿قَولاً﴾ وكلاماً من غيرِهم إلّا بمشقّةٍ من إشارةٍ

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦٢.
٢. تفسير الصافي ٣: ٢٦٢، تفسير روح البيان ٥: ٢٩٦.
٣. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦٢،
٤. تفسير الرازي ٢١: ١٦٩، تفسير أبي السعود ٥: ٢٤٤.
٥ و٦. تفسير الرازي ٢١: ١٦٩.

ونحوها.

﴿قَالُوا﴾ بلسان تُرجُمانهم أو بإلهامهم لغة اسكندر، أو بإلهامه لغتهم. قيل: كان ذو القَرنين مُلْهَماً باللّغات[1] ﴿يَا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالقتل والغارة وإتلاف الزُروعِ والثِّمار. وهما قبيلتان من التُرك على قول[2]. أو يأجوج من التُرك، ومأجوج من الجَبَل والدَّيلم على آخر[3].

وقيل: إنّ المؤرّخين قالوا إنّه كان لِنُوح ثلاثة أولاد: بسام، وحام، ويافث، فسام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبش والزَّنج والنُّوبَة[4]، ويافث أبو التُّرك والخَزر والصَّقالبة ويأجوج ومأجوج[5].

وعن الهادي عليه السلام: «جميع التُرك والصقالب ويأجوج ومأجوج والصين من يافث حيث كانوا»[6].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «قالوا: يا ذا القَرنين، إنّ يأجوج ومأجوج خَلْف هذين الجبلين، وهم يُفْسدون في الأرض، إذا كان إبّان زُروعنا وثمارنا خرجوا علينا، فرَعَوا في ثمارنا وفي زروعنا حتى لا يُبقوا منها شيئاً»[7] ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾ ومِقداراً من أموالنا﴿عَلَىٰ﴾ شَرط ﴿أَنْ تَجْعَلَ﴾ بتلك الأموال التي نُعطيك ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً﴾ وحاجزاً يمنعهم من الخُروج علينا ﴿قَالَ﴾ ذُو القَرنين: لا حاجة لي إلى أموالكم، فإنّ ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ﴾ وأقدَرَني عليه ﴿رَبِّى﴾ من المال

والأسباب والمُلْك ﴿خَيْرٌ﴾ ممّا عندكم من الأموال و[ما] تَبْذُلونه من الخَرْج، فإنْ تُريدوا[8] السدّ ﴿فَأَعِينُونِى﴾ وساعِدوني عليه ﴿بِقُوَّةٍ﴾ من العُمّال والصنّاع لا بالأموال ﴿أَجْعَلْ﴾ إذَن ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم رَدْماً﴾ وحاجزاً عظيماً، أكبر وأوثق من السدّ. ثمّ كأنّهم قالوا: فَأمُرنا بما تُريد قال ﴿آتُونِى﴾ بِعوض ما أعطيكم من المال ﴿زُبَرَ الحَدِيدِ﴾ وقطعات عظيمة منه.

قيل: إنّهم قالوا لَيس لنا من الحديد ما يَسَع هذا العمل، فدلّهم على مَعْدِن الحديد والنُّحاس[9]، ثمّ قاسَ مابين الصَدَفَيْن فوجده ثلاثة أميال[10]. وقيل: مائة فَرْسَخ[11].

ثمّ أمر بحفر ما بين السدّين فحفروه حتى بَلَغ الماء، ثمّ جعل الأساس من الصخر والنُّحاس المُذاب بدل الطين، وجعل البُنيان من زُبرِ الحديد، بين كلّ زُبْرَتين الحَطب والفَحَم[12] ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ وجانِبَي الجَبَلَيْن بتنضيد الزُبَر بعضها فوق بعض، أمَرَ بوضع المَنافِخ حوله فوضعوها، ثمّ﴿قَالَ﴾ للعَمَلَة: ﴿آنْفُخُوا﴾ على زُبَرِ الحديد، فَنَفخُوا في السدّ المنضُود من الحديد

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٧.
٢ و٣. تفسير الرازي ٢١: ١٧٠.
٤. النُّوبَة: جيل من الناس، موطنهم جنوب مصر.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٧.
٦. علل الشرائع: ١/٣٢، تفسير الصافي ٣: ٢٦٣.
٧. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦٣.
٨. في النسخة: تريدون.
٩ -٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٨.

والحطب ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ﴾ مُحْمىً كأنه صار ﴿نَاراً قَالَ﴾ للذين أذابُوا النُّحاس: ﴿آتُونِى﴾ النُحاس المُذاب ﴿أُفْرِغْ﴾ على السدّ وأصُبُّ ﴿عَلَيهِ قِطْراً﴾ ونُحاساً مُذاباً.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فاحتفروا له جبل حديد، فقطعوا له أمثال اللَّبِن، فطَرَح بعضَه على بعضٍ في ما بين الصَّدَفَيْن، ثمّ جعل عليه الحَطَب، وألهب فيه النار، ووضع عليه المَنافِخ فنفخوا عليه، فلمّا ذاب قال: ائتوني بقِطْر، فاحتفروا جبلاً من نُحاسٍ، فطَرَحُوه على الحديد، فذاب معه واختلط به»[١].

فلمّا تمّ السدّ جاء يأجوج ومأجوج ﴿فَمَا ٱسْطَاعُوا﴾ وما قَدَروا ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ ويَعْلُوه لارتِفاعه ومَلاسَتِه ﴿وَمَا ٱسْتَطَاعُوا﴾ أنْ يَجْعَلُوا ﴿لَهُ نَقْباً﴾ وخَرْقاً من أسفَلِه لِثَخانَتِه وصَلابته ﴿قَالَ﴾ ذُو القَرنين: ﴿هٰذَا﴾ السدّ والاقتدار على تَسْوِيَته ﴿رَحْمَةٌ﴾ ونِعْمةٌ عظيمة ﴿مِنْ رَبِّى﴾ على عباده ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ بقيام الساعة وقُرب يوم القيامة وظهرت مباديه من خروج الدجّال، ونزول عيسى، هدم الله السدَّ و﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ وأرضاً مستويةً ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى﴾ بقيام الساعة، أو بغيره ﴿حَقّاً﴾ وصِدْقاً البتّة، لا خُلف فيه.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه عَدَّ من الآياتِ التي تكون قبل الساعة خروج يأجوج ومأجوج[٢].

وعن القمي: إذا كان قَبْلَ يوم القيامة انهدم السدّ، وخرج يأجوج ومأجوج إلى الدنيا وأكَلُوا الناس[٣].

أقول: في كيفيّة خَلْق يأجوج ومأجوج وطُول أعمارهم وكَثرة عددهم وتخريبهم السدّ وأعمالهم بعد الخروج، رواياتٌ كثيرةٌ من طرق الخاصة والعامة، أعْرَضْنا عن نقلِها لِطُولِها وبُعْدها عن الأذهان.

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً[٩٩ـ١٠٠]

ثمّ بيّن سبحانه حال يأجوج ومأجوج بعد إندكاك السدّ وخروجهم منه بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا﴾ وخلّينا، أو جعلنا ﴿بَعْضُهُم يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ﴾ ويختلط أو يضطرب ﴿فِى بَعْضٍ﴾ كأمواج البحر، لا يَمُرّون على إنسانٍ إلّا قَتَلُوهُ، ولا على شيءٍ إلّا أكَلُوه، ولا على ماءٍ إلّا شَرِبوه، ثمّ يُرسل الله عليهم دُوداً بعدَ نُزول عيسى فيقتلهم دفعةً كنَفْسٍ واحدةٍ، على ما في الروايات[٤].

وقيل: إنّ المراد باليوم في الآية يوم السدّ ومَنْعهم من الخروج[٥].

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦٤.
٢. الخصال: ٤٦/٤٤٧، تفسير الصافي ٣: ٢٦٤.
٣. تفسير القمي ٢: ٤١، تفسير الصافي ٣: ٢٦٤.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٩ و٣٠٠.
٥. تفسير الرازي ٢١: ١٧٢.

وقيل: يوم القيامة، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام[١].

وقيل: إنّ ضَمِير الجمع في بعضهم راجعٌ إلى جميع الخَلْق[٢].

ثمّ ذكر سبحانه الآية الثانية بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى الصُّورِ﴾ النفخة الثانية التي عندها الحشر ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾ في صَعِيدٍ واحدٍ بعد تَفتُّت أعضائهم ﴿جَمْعاً﴾ عجيباً للحِساب والجَزاء ﴿وَعَرَضْنا﴾ وأبرَزنا ﴿جَهَنَّم يَوْمَئِذٍ﴾ بحيث تكون مكشوفةً بأحوالها ﴿للكَافِرِينَ﴾ مِنهم ﴿عَرْضاً﴾ وإبرازاً هائلاً، حيث يَرَون لَهَبها، ويسمعون تَغيُّظَها وزَفيرها.

في الحديث: «يُؤتى بجهنّم يَوْمئذٍ ولها سَبْعون ألف زِمام، مع كلّ زِمام سبعون ألف مَلَك يَجُرّونها»[٣].

ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً * أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِن دُونِى أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً[١٠١ و ١٠٢]

ثمّ وصف الكفّار بأذمّ صفاتهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ﴾ في الدنيا ﴿أَعْيُنُهُم فى غِطَاءٍ﴾ وحِجابٍ غليظٍ مانعٍ ﴿عَن﴾ رُؤية الآيات المؤدّية بالتفكّر فيها إلى ﴿ذِكْرِى﴾ بالتوحيد والتمجيد ﴿وَكَانُوا﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لِفَرْط إعراضهم عن الحقّ وعداوتهم للرّسول ﴿سَمْعاً﴾ لذكري واستماعاً لِكَلامي، وفيه دلالةٌ على أنّهم أسوء حالاً من الأصمّ، حيث إنّ الأصمّ قد يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل: أتستطيع النفس المعرفة؟ فقال: «لا». [فقيل:] يقول الله ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاءٍ﴾ الآية؟ قال: «هو كقوله: و﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾[٤]». قيل: فعابهم؟ قال: «لم يُعِبهم بما صنع هو بهم، [ولكن] عابهم بما صنعوا، ولو لم يتكلّفوا لم يكُن عليهم شيء»[٥].

وعن الرضا عليه السلام: «أنّ غطاء العين لا يمنع من الذِّكر، والذِّكر لا يُرى بالعين، ولكن الله شبّه الكافرين بولاية عليّ بن أبي طالب بالعَمْيان؛ لأنّهم كانوا يستثقلون قول النبيّ صلى الله عليه وآله فيه، ولا يستطيعون له سمعاً»[٦].

---

١. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٤، تفسير الصافي ٣: ٢٦٦.
٢. مجمع البيان ٦: ٧٦٦.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٠٢.
٤. هود: ٢٠/١١.
٥. تفسير العياشي ٣: ٢٧١٢/١٢٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦٦.
٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٣/١٣٦، تفسير الصافي ٣: ٢٦٦.

وعن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: «يعني بالذّكر ولاية أمير المؤمنين» قال: «كانوا لا يستطيعون إذا ذُكر عندهم عليّ عليه السلام أنْ يسمعوا ذِكْره، لشدّة بُغْضِهم له، وعداوةً منهم له ولأهلِ بيْته»[١].

ثمّ وَبّخَ الله الكافرين المُعْرِضين عن آيات التوحيد على شِرْكِهم بقوله: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ والتقدير لا شرك[٢] ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا بي ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ كالملائكة وعيسى وعُزَير والأصنام والشياطين ويختاروهم لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِي﴾ وممّا سواي، أو متجاوزين إيّاي ﴿أَولِيَاءَ﴾ ومعبودين، أو ناصرين لهم، ومُنْجِيهم من عذابي، فقد ضلّوا وأخطأوا في حِسْبانهم وتوهّمهم ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ وهيّئنا ﴿جَهَنَّمَ﴾ وما فيها من أنواع العذاب ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ بوَحْدانيّتي، ورسالة رسولي، والدّار الآخرة ﴿نُزُلاً﴾ ومأوىً، أو تشريفاً لِوُرُودهم عليّ، كما تُعدّ التشريفات لِوُرُود الضَّيْف ذي الشأن[٣]، وفيه غاية التهكُّم.

وعن ابن عباس: أنّه موضع النزول والمأوى[٤].

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْناً * ذٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَٱتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾[١٠٣ـ١٠٦]

ثمّ بيّن الله غاية جَهْلهم وخُسرانهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لِهؤلاء المشركين: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ وأُخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ وبِالأقوامِ الذين هم أشدّ الخَلْق ضرراً على أنفسهم من جهة أعمالهم.

ثمّ كأنّه قيل: من هم؟[٥] بَيّنْهم لنا، فأجابهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ﴾ وبطَل ﴿سَعْيُهُمْ﴾ واهتمامهم في الأعمال التي هي في أنفسها حسنة ﴿فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ومدّة أعمارهم فيها ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ ويتوهّمون ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ ويعملون صالحاً ينفعهم في الآخرة، بجهلهم بشرائط صحّة العمل واعتقادهم أنّهم عَلَى الحقّ مع عدم النظر في دلائله، وتقصيرهم فيه.

قيل: أُريد بهم الرُّهبان[٦]. وعن مجاهد: هم أهل الكتاب[٧].

---

١. تفسير القمي ٢: ٤٧، تفسير الصافي ٣: ٢٦٦.
٢. كذا.
٣. في النسخة: الضيف الشئون.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٠٣.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٣٠٤.
٦ و٧. تفسير الرازي ٢١: ١٧٤.

وروى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سأله ابن الكوّاء عنهم فقال: «هم أهل حَرَوراء» أي الخوارج.

وعن القمي: نزلت في اليهود، وجرت في الخوارج[١].

وعن الباقر عليه السلام: «هم النصارى والقسّيسون والرُّهبان، وأهل الشبهات والأهواء من أهل القبلة، والحَروريّة وأهل البِدَع»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال: «كَفَرةُ أهل الكتاب: اليهود والنصارى، وقد كانوا على الحقّ فابتدعُوا في أديانهم، وهم يَحْسَبُون أنهم يُحْسِنُون صُنْعاً». ثمّ قال: «وما أهل النَّهروان مِنْهم بِبَعِيد»[٣].

ثمّ أنه تعالى بعد بيان ضلالتهم في الأعمال وغاية خُسرانهم فيها، بيّن سبحانه سُوء عقائدهم الذي كان سبباً لخُسرانهم فيها بقوله: **﴿أُولئِكَ﴾** الخاسرون هم **﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** وجَحَدُوا **﴿بِآيَاتِ﴾** وَحْدانيّة **﴿رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾** بعد الموت والحضور في محضر عدله في الآخرة للحساب وجزاء الأعمال **﴿فَحَبِطَتْ﴾** وضاعت بسبب ذلك **﴿أَعْمَالُهُمْ﴾** التي عَمِلوها في الدنيا باعتقاد انتفاعهم بها في الآخرة **﴿فَلَا نُقِيمُ﴾** ولا نَنْصِب **﴿لَهُم يَومَ القِيَامَةِ وَزْناً﴾** وميزاناً، لعدم ترتُّب الثواب عليها حتى يحتاج إلى تعيين مِقداره، أو ترجيحها على سَيّئاتهم.

وقيل: إنّ المراد لا نجعل لأنفسهم مِقداراً أوْ اعتباراً[٤].

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «أنه ليأتي الرجل السمين يوم القيامة لا يَزِن جَناح بعوضةٍ»[٥].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام ـ في حديث يذكُر فيه أهل الموقف وأحوالهم ـ: «ومنهم أئمّة الكُفْر وقادةُ الضَّلالة، فأُولئك لا يُقيم لهم وزناً، ولا يَعْبأ بهم، لأنّهم لم يَعْبؤوا بأمره تعالى ونَهْيه يوم القيامة، فهُم في جهنّم خالدون، تَلْفَحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ»[٦].

وعن القمي: وزناً، أي حَسَنَة[٧].

ثمّ أنه تعالى بعد بيان خُسرانهم وعدم الاعتناء بشأنهم في الآخرة، بيّن جَزاءهم على كُفرهم وأعمالهم الباطلة السيّئة بقوله: **﴿ذلِكَ﴾** الجزاء الذي نذكُر **﴿جَزاؤُهُم﴾** في الآخرة، وَهُوَ **﴿جَهَنَّمُ﴾** فإنّا نُدْخِلُهم فِيها **﴿بِما كَفَرُوا﴾** بتوحيدي **﴿وَٱتَّخَذُوا آيَاتِي﴾** مِنَ القرآن ومعجزات الرسول صلّى الله عليه وآله

---

١ و٢. تفسير القمي ٢: ٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٦٧.
٣. الاحتجاج: ٢٦١، تفسير الصافي ٣: ٢٦٧.
٤. تفسير الصافي ٣: ٢٦٧، تفسير روح البيان ٥: ٣٠٥.
٥. مجمع البيان ٦: ٧٦٧، تفسير الصافي ٣: ٢٦٧.
٦. الاحتجاج: ٢٤٤، تفسير الصافي ٣: ٢٦٧.
٧. تفسير القمي ٢: ٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٦٨.

﴿وَرُسُلِي﴾ جَميعاً ﴿هُزُواً﴾ وسُخْرِيةً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً [١٠٧ و ١٠٨]

ثمَ لمّا ذَكَر سبحانه وعيد الكفّار بإعدادِ جَهَنَّم نُزُلاً، أتْبَعه بِوَعْد المؤمنين الصّالحين بِجَعْل الفِرْدَوس نُزُلاً لَهُم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوَحْدانيّة الله ورسالة رسوله ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ التي هي من لوازم الإيمان ودَلِيل صدقه في الدنيا ﴿كَانَتْ لَهُم﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ التي هي أفضل الجنّات ﴿نُزُلاً﴾ ومأوىً، أو تشريفاً، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومُقِيمينَ ﴿فِيهَا﴾ أبداً ﴿لَا يَبْغُونَ﴾ ولا يَطْلُبون ﴿عَنْهَا حِوَلاً﴾ وَانْتِقالاً إلى أحسن وأعلى منها، إذ لا مَزيد عليها ولا مَلالة من الإقامة فيها.

قيل: إنّ الفِردَوس رَبْوَةٌ خَضْراء في الجنّة أعلاها وأحسنها، ويقال لها سُرَة الجنّة[١].

وفي الحديث: «الجنّة مائة دَرَجة، ما بين كلّ دَرَجتين كما بين السماءِ والأرض، والفِردَوس أعلاها، فيها تتفجَر الأنهارُ الأربعة، وفوقها عرش الرحمن، فإذا سَألْتُم الله فأسألوا الفِرْدَوس»[٢].

وفي حديث آخَر: «جنّات الفِردَوس أربع؛ جنّتان من فضّة، أبنِيَتُهما[٣] وما فيهما من فِضّة، وجنّتان من ذَهَب، أبنيتُهما وما فيهما من ذهب»[٤].

وعن كعب: ليس في الجِنان أعلى من جنّة الفِردَوس، وفيهَا الآمِرون بالمعروف والناهون عن المنكر[٥].

القمي ﵀: هذه الآية نزلت في أبي ذرّ، والمِقداد، وسلمان الفارسي، وعمّار بن ياسر، جعل الله عزّ وجلّ لهم جنّات الفِردَوس نُزُلاً، أي: مأوىً ومنزلاً[٦].

قُل لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ

---

١. مجمع البيان ٦: ٧٦٩، تفسير الصافي ٣: ٢٦٨، تفسير روح البيان ٥: ٣٠٦.
٢. تفسير الرازي ٢١: ١٧٥، تفسير روح البيان ٥: ٣٠٦.
٣. في تفسير روح البيان: آنيتها، وكذا التي بعدها.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٠٦.
٥. تفسير أبي السعود ٥: ٢٥٠.
٦. تفسير القمي ٢: ٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٦٨.

أَحَداً[١٠٩و١١٠]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه في السورةالمباركة دلائل التوحيد والرسالة والأمثال العالية والمواعظ الشافية وقَصَص الأوّلين، نبّه على كمال القرآن وفضله بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، لقومك ﴿لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾ الذي في الدنيا وماؤه ﴿مِدَاداً﴾ وحِبْراً ﴿لِكَلِمَاتِ﴾ عِلْم ﴿رَبِّى﴾ وحكمته، والله ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ وفني ماؤه بحيث لم يبقَ منه ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى﴾ وتفنى معلوماته وحكمه ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ وخلَقْنا ضِعْفه كَي يكونَ البحرُ الموجود في العالم ﴿مَدَداً﴾ ومعونةً لَنَفِد أيضاً، ولا تَنْفَد الكلمات، لأنّ كلّما وُجِد ويُوجَد من البحر يكون مَحدوداً ومُتَناهٍ، وهنا علم الله تعالى غير محدودٍ ولا مُتناهٍ.

قيل: نزلت حين قال حُيَي بن أخْطَب: في كتابِكم ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيراً كَثِيراً﴾[١] ثمّ تقرأون ﴿وَما أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[٢] [فنزلت هذه الآية]، والمراد: وما أُوتيتم وإنْ كان كثيراً ولكنّه قطرة من بحار كلمات الله[٣].

ثمّ لمّا بيّن سبحانه كمال كلامه المُوحَى إلى نبيّه ﷺ، أمره بالتّواضع والإعلانِ بأنّ كلّما عَلِمَه إنّما هو بفضلِ الله ووَحْيه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، لقومك ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أحتاجُ إلى ما تَحتاجُونَ إليه، وأتضرّر بما تَضرّرون به، لا مَيْزَ بيني وبينكم في لوازم الجسمانية، وإنّما المَيْز في الكلمات الروحانية والفضائل المعنوية التي أهّلَتْني لأنْ ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من قِبَل ربّي العُلوم الكثيرة والمعارف الوفيرةالتي أهَمُّها﴿أَنَّمَا إِلٰهُكُم﴾ ومعبودكم ﴿إِلٰهٌ﴾ ومعبودٌ ﴿وَاحِدٌ﴾ يستحقّ العبادة، ولا يأهل غيره لَها.

عن العسكري عليه السلام قال: «يعني قُل لهم أنا في البشريّة مثلكم، ولكن ربّي خصّني بالنبوة دونكم، كما يخُصّ بعض البشر بالغنى والجمال دون بعضٍ من البشر، فلا تُنكِروا أنْ يخُصّني أيضاً بالنبوّة»[٤].

﴿فَمَنْ كَانَ﴾ يؤمن بالله ورسوله و﴿يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ وثَوابه وكرامته ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ لِذلك المَطْلوب ﴿عَمَلاً صَالِحاً﴾ ومرضيّاً عِنْدَ الله، ولْيَعْبُده عبادةً خالصةً من الشرك الجَليّ والخَفيّ والأغراض النفسانية ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ مِنْ خَلْقِه.

عن الباقر عليه السلام: «سُئل رسول الله ﷺ عن تفسير هذه الآية فقال: من صلّى مُراءاة النّاس فهو مشرك، ومن زكّى مُراءاة النّاس فهو مشرك، ومن صام مُراءاة النّاس فهو مشرك، ومن حجّ مُراءاة النّاس فهو

---

١. البقرة: ٢٦٩/٢. ٢. الاسراء: ٨٥/١٧. ٣. تفسير الرازي ٢١: ١٧٦.
٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٥٠٤، الإحتجاج: ٣١، تفسير الصافي ٣: ٢٦٩.

مشرك، ومن عمل عملاً ممّا أمر الله به مراءاة النّاس فهو مشرك، ولا يقبل الله عمل مَرَاءٍ»[١].

وعنه عليه السلام أنّه سئل عن الرجل يَعْمَل الشيءَ مِنَ الخير فيراه إنسانٌ فيَسُرّه ذلك؟ قال: «لا بأس، ما من أحدٍ إلّا ويُحبّ أن يَظْهَر له في النّاس الخير، إذا لم يَصْنَع ذلِكَ لِذلك»[٢].

وعن الرضا عليه السلام: إنّه كان يتوضّأ للصّلاة، فأراد رجلٌ أنْ يصُبَّ الماء على يديه، فأبى وقرأ هذه الآية، وقال: «وها أنا ذا أتوضّأ للصّلاة وهي العبادة، فأكره أنْ يَشْرَكني فيها أحد»[٣].

أقول: هذه الرواية تدُلّ على أنّ المراد بالإشراك في الآية مطلق الإشراك سَواء أشرك الغيرَ في نيّته أوْ في نَفْس عَمَلِه.

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «العمل الصالح المعرفة بالأئمّة **﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾** التسليم لِعلي عليه السلام، لا يُشرِك معه في الخلافة من ليس ذلك له، ولا هو أهله»[٤].

والقمي عنه عليه السلام **﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾**، قال: «لا يتّخذ مع وَلاية آل محمّد غيرهم، ووَلايتهم العمل الصالح، من أشرك بعبادة ربّه فقد أشرك بولايتنا وكَفَر بها، وجَحَد أمير المؤمنين عليه السلام حقّه ووَلايته»[٥].

وفي (الفقيه) عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «من قرأ هذه الآية عند مَنامه **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾** إلى آخرها، سَطَع له نورٌ إلى[٦] المسجد الحرام، حَشْو ذلك النور ملائكة يستغفرون له حتى يُصْبح»[٧].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما من عبدٍ يقرأ **﴿قُل إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾** إلى آخر السورة، إلّا كان له نورٌ من مضجعه إلى بيت الله الحرام، فإنْ كان من أهل بيت الله الحرام كان له نورٌ إلى بيت المَقْدِس»[٨].

وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام: «ما من عبدٍ يَقْرأُ آخر الكهف عند نومه إلّا تيقّظ في الساعةِ التي يُريد»[٩].

وعنه عليه السلام: «من قَرأ سورة الكهف في كلّ ليلة جُمعة، كانت كَفّارة ما بين الجُمعة إلى الجُمعة».

قال: ورُوي في من قرأها يوم الجمعة بعد الظهر والعصر مثل ذلك[١٠].

وفي (المجمع) عنه عليه السلام: «من قرأ سورة الكهف في كلّ ليلة جُمعة لم يَمُت إلّا شهيداً، وبَعَثه الله

---

١. تفسير القمي ٢: ٤٧، تفسير الصافي ٣: ٢٦٩.
٢. الكافي ٢: ١٨/٢٢٥، تفسير الصافي ٣: ٢٦٩.
٣. الكافي ٣: ١/٦٩، تفسير الصافي ٣: ٢٦٩.
٤. تفسير العياشي ٣: ٢٧٢٢/١٢٦، تفسير الصافي ٣: ٢٧٠.
٥. تفسير القمي ٢: ٤٧، تفسير الصافي ٣: ٢٧٠.
٦. في النسخة وتفسير الصافي: من.
٧. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٥٨/٢٩٧، تفسير الصافي ٣: ٢٧٠.
٨. ثواب الأعمال: ١٠٧، تفسير الصافي ٣: ٢٧٠.
٩. الكافي ٢: ٢١/٤٦٢، تفسير الصافي ٣: ٢٧٠.
١٠. الكافي ٣: ٧/٤٢٩، تفسير الصافي ٣: ٢٧٠.

مَعَ[١] الشُّهداء، ووَقَف يوم القيامة مع الشُّهداء»[٢].

اللّهم لَكَ الحَمْدُ والمنّةُ على تَوْفيقك إيّاي لإتمام تفسير السورة المباركة.

---

١. في النسخة: ويبعثه الله من.

٢. مجمع البيان ٦: ٦٩١، ثواب الأعمال: ١٠٧، تفسير الصافي ٣: ٢٧٠.

في تفسير سورة مريم

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً * قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَالِىَ مِن وَرَاءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِراً فَهَبْ لِى مِن لَدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً[١ ـ ٦]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الكهف التي فيها بيان الرحمة الخاصّة على أصحاب الكهف بقوله: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبّكم مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ وعلى الخِضر بقوله: ﴿آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا﴾ وعلى ذي القَرنين بقوله: ﴿هَذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبّى﴾ وإظهار قدرته الكاملة في قصّة أصحاب الكهف وسائر القَصَص، وفيها إثبات النبوّة والمعاد، ثمّ ختمها بِتَهْدِيد المشركين وتَبْشِير المؤمنين، أُرْدِفت بسورة مريم التي فيها بيان رحمته الخاصّة على زكريا ومريم وكثير من الأنبياء، وإظهار قُدرته الكاملة في ولادة يحيى وعيسى وإثبات النبوّة والمعاد، ثمّ ختمها بما ختم به السورة السابقة، فَابْتَدَأها بذكر أسمائه بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ افْتتحها بالحروف المقطّعة بقوله: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ جَلْباً لتوجّه الناسِ إلى المَطالب التّي بَعدها، وقد سبق تأويلها في طُرفة بيان المتشابهات[١].

وقيل: إنّها اسم هذه السورة[٢] التي فيها ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ بن أرزين[٣] بن رجعيم بن سليمان بن داود، من سبط يهودا، على ما قيل[٤].

وقيل: إنّه من ولد هارون أخي موسى، وهما من سبط لاوي[٥].

---

١. راجع: الطرفة (١٨) من مقدمة المؤلف.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٣١٢.
٣. في تفسير روح البيان: آزر.
٤ و٥. تفسير روح البيان ٥: ٣١٣.

قيل: إنّ التقدير هذا المتلوّ عليك ذِكْر رحمة ربّك التي رَحِم بها عبده زكريّا[١].

وقيل: إنّ التقدير أعني عبده[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ فرحمه»[٣]، ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ وَدَعاهُ ﴿نِدَاءً﴾ ودُعاءً ﴿خَفِيًّا﴾ في مِحراب بيت المَقدِس مِنْ بَعْد تقريب القُربان، على ما قيل[٤].

وإنّما أخفى دُعاءه؛ لأنّه أقرب إلى الإخلاص والإجابة. كما في الحديث: «خَيْرُ الدُّعاء ما خَفي»[٥]. أو لخوفه من اطّلاع مَواليه الذين كان يخافهم[٦]. أو لكونه في الصلاة[٧]. أو لِئلّا يُلامَ على طَلَب الولد في الشيخوخة. أو لِضَعْفه وهَرمه[٨].

و﴿قَالَ﴾ في دُعائه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ﴾ وضَعُف ﴿الْعَظْمُ مِنِّي﴾.

قيل: اشتكى سقوط أضراسه[٩] ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ وَابيَضّ شُعُوره هَرَماً ﴿وَلَمْ أَكُنْ﴾ مِنْ بَدو عُمري إلى الآن ﴿بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ وَخائباً، بَلْ كُلّما دَعَوْتُك استجبتَ لِي، فَعَوّدتَني إنجاحَ مسألتي حين كنتُ قَويّاً، فكيف ترُدّني عن بابِك مَعَ كَمال رَجائي بِكَرَمك ونِهاية ضَعْفي وشدّة حاجتي إلى رَحْمَتك؟ فتوسّلَ برحمته السابقة عليه بعد ذكر ما يستدعي الإجابة والرأفة من كِبَر السنّ وضَعْف الحال.

ثمّ ذكر ارتباط حاجته بأمر الدّين المقتضي لِقَضائها بقوله: ﴿وَإِنِّي﴾ أرى نَفْسي مُشْرفةً على الموت و ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ وبني العُمومة ﴿مِن وَرَائِي﴾ وبعد موتي أنْ لا يُحسنوا خلافتي على بني إسرائيل، فيغيّروا دِينَهم. قيل: كان بنو عمّه شِرارَ بني إسرائيل[١٠].

وعن الباقر عليه السلام في تفسير الموالي قال: «هم العمُومة وبنو العَمّ»[١١].

والقمي يقول: خِفتُ الوَرَثة بعدي[١٢] ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي﴾ وزَوْجَتي إيشاع بنت فاقوذ على قول[١٣]. أو بنت عِمران على آخر[١٤] ﴿عَاقِرًا﴾ لم تَلِدْ أبداً ﴿فَهَبْ لِي﴾ وأعْطِني ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ وَمِنْ مَحْضِ رَحْمَتِكَ وَفَضْلِك وَسَعَةِ قُدْرَتِكَ بطريق الإختراع وخَرْق العادة ﴿وَلِيًّا﴾ وَوَلَداً مِنْ صُلْبِي ﴿يَرِثُنِي﴾ جَمِيع تَركَتي من المال والعلم والدين والنبوّة، كما رواه الفخر الرازي عن ابن عباس والحسن

---

١. تفسير الرازي ٢١: ١٨٠.
٢. تفسير الرازي ٢١: ١٧٩.
٣. تفسير القمي ٢: ٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٧٣.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٣١٣.
٥. مجمع البيان ٦: ٧٧٦، تفسير الصافي ٣: ٢٧٣.
٦. تفسير الرازي ٢١: ١٨٠، تفسير روح البيان ٥: ٣١٣.
٧. تفسير الرازي ٢١: ١٨٠.
٨. تفسير الرازي ٢١: ١٨٠، تفسير البيضاوي ٢: ٢٧.
٩. تفسير روح البيان ٥: ٣١٣.
١٠. تفسير روح البيان ٥: ٣١٤.
١١. مجمع البيان ٦: ٧٧٦، تفسير الصافي ٣: ٢٧٣.
١٢. تفسير القمي ٢: ٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٧٣.
١٣ و١٤. تفسير روح البيان ٥: ٣١٤.

والضحّاك[١].

﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ بن إسحاق، أو يعقوب بن ماثان أخي عمران بن ماثان أبي مريم الملك، كما عن الكلبي ومقاتل[٢] ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ وَمَرْضِيّاً عِنْدَك قولاً وفِعْلاً.

في أن الانبياء يُورّثون المال خلافاً للعامة

والعَجَب من بعض العامة أنّهم خصّوا الإرْثَ في الآية بِالعِلْم والنبوّة والدِّين، للرواية المجعولة عندنا المقبولة عندهم عن النبيّ ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة»[٣]. مع أنّ الفخر الرازي روى عن ابن عبّاس والحسن والضحّاك أنّهم خصّوا الإرثَ في الموضعين بالمال[٤].

وعن ابن عباس والسُّدي ومجاهد والشّعبي والحسن والضحّاك أنّ المِيراثَ في ﴿يَرِثُنِى﴾ المال، وفي ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ النبوّة[٥].

ولا يخفى أنّ قول هؤلاء الأعاظم يُنافي الرواية التي رواها أبو بكر وتَفَرّد بنقلها، مضافاً إلى أنّ فاطمة عليها السلام استدلّتْ بهذه الآية ونظائرها ممّا تدلّ على أنّ الأنبياء يُوَرّثون المال على كِذْب الرواية[٦]، وقرّرها أمير المؤمنين[٧]، ولا يمكن القول بكونهما جاهلين بتفسير الآية، مع أنّ الرسول زقّهما العلم زقّاً، خصوصاً علم القرآن، مع أنّ زكريّا جعل وجود الولد له مأمناً من خوفه من مَواليه، ولا يكونُ ذلك الأمر إذا كان خوفه من أنْ يكون بَنُو عمّه وارثينَ لِماله، فيصرفوه في الصرف عن الحقّ وتغيير الدّين، وإلّا فكم من نبيٍّ كان مغلوباً للأشرار ومغموماً وخائفاً من الكفّار.

ودعوى أنّه لو كان المراد من الإرث إرث المال، لَزِم القول بعدم استجابة دعاء زكريّا؛ لأنّ يحيى قُتِل في حياة زكريّا ولم يرث ماله، فباطل جدّاً. للمنع من قَتْله في حياة أبيه، بتصريح جمع من الأعاظم كالزمخشري ومحمّد بن جرير الطبري وغيرهما بخلافه[٨]. مع أنّ الاعتراض مشترك الورود؛ لأنّ إرثَ العلم والنبوّة أيضاً لا يكون إلّا بعد موت المورّث. وعلى ما ذكره المدّعي لم يَصر يحيى وارِثاً لنبوّة زكريّا أيضاً،مع أنّ النبوة لم يمكن أنْ يرثها الأشرار، وأن تنقطع من وجه الأرض، فكان لزكريّا وَرَثة النبوّة، وإنْ لم يكن له ولد من صُلبه. مع أنّه روى عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «رَحِم الله زكريّا،

---

١. تفسير الرازي ٢١: ١٨٤. ٢. تفسير الرازي ٢١: ١٨٥.
٣. تفسير الرازي ٢١: ١٨٤، تفسير أبي السعود ٥: ٢٥٥.
٤ و ٥. تفسير الرازي ٢١: ١٨٤. ٦. الاحتجاج ١: ١٠٢. ٧. كشف الغمة ١: ٤٧٧.
٨. ذكر الطبري في تفسيره ١٦: ٣٧ أنّ معنى الآية: يرثني بعد وفاتي مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة. ثمّ عدّد جمعاً من المفسرين القائلين بهذا، وهو صريح في الدلالة على بقاء يحيىٰ بعد وفاة زكريا عليه السلام.

لم يكن له من وَرَثة»[١] يعني ورثة المال.

مضافاً إلى أنّه سأل الله أنْ يجعَل وارثه مرضياً، ولو كان المراد من الأرث إرث النبوّة، كان هذا السؤال مستدركاً ولَغْواً؛ لأنّ النبيّ لا يكون إلّا مرضيّاً، والقول بأنّ الأنبياء وإنْ كانوا مرضيّين إلّا أنّ الرضا منهم مفضلٌ عليهم. أوْ أنّ المراد بالمرضيّ المَرْضيّ لأمّتِه لا يتلقّى بالتكذيب والردّ، أوْ أنّ المرادَ أنْ لا يكون مُتّهماً في شيءٍ، ولا يوجد فيه مَطْعَنٌ، ولا يُنسَب إليه شيء من المعاصي. أو أنّ المراد ثبّته على كونه مرضياً، كما قال إبراهيم وإسماعيل: ﴿ربّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ﴾[٢] أي ثَبّتنا[٣] على إسلامنا، فكلّها خلاف الظاهر، لا يُصار إليه إلّا بِدَلِيلٍ مُعْتَبَر. وليست الرواية المجعولة أو الظنّية على قول العامة قابلةً لِصَرْفِ الآية عن ظاهِرِها.

يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيّاً * قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً[٧ـ ٩]

ثمّ أخْبرَ سبحانه باستجابة دعائه وقال بالإلْهام، أو بتوسّط المَلَك: ﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾ ووَلَدٍ ذكرٍ[٤] يكونُ من كَرامَته عليّ أنْ سَمّيناه قَبْلَ ولادته ﴿ٱسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ لأنّه أحيا به عُقْر اُمّه، كما عن ابن عبّاس[٥]. أوْ لأنّه أحيا قَلْبَه بالإيمان والطاعة[٦]. أوْ لأنّه اسْتُشْهِدَ والشّهداء أحياء[٧]. أوْ لأنّ الدين به يحيا[٨]. أوْ لأنّه ذابحُ الكَبْشِ الأمْلَح الذي هو صُورَة الموت في القيامة فيذبحه فيحيا الفريقان[٩]. أوْ لِجَميع الوجوه و﴿لَمْ نَجْعَل لَهُ مِن قَبْلُ﴾ ولا في الأزمِنَة السابقة ﴿سَمِيّاً﴾ وموافقاً في الاسم، كما عن ابن عبّاس[١٠]. عن القمي: لَمْ يُسَمَّ باسمه أحدٌ قبله[١١].

﴿قَالَ﴾ زكريّا استعظاماً لِقُدرةِ الله وَاسْتِعْجاباً مِنْ وُقُوع الخارق للعادة: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى﴾ وكيف يتولّد منّي ﴿غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِراً﴾ لم تَلِدْ في شبابها! فكيف وهي الآن عَجُوز ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ﴾ أنا ﴿مِنَ﴾ أجْل ﴿ٱلْكِبَرِ﴾ في السِنّ ﴿عِتِيّاً﴾ ومنتهاه.

وإنّما ذكر ذلك للاعتراف بأنّ وجود الولد منه مع كونه شيخاً فانياً، ومِنْ امْرَأته مع كونها عَجُوزاً

---

١. تفسير الرازي ٢١: ١٨٤.
٢. البقرة: ١٢٨/٢.
٣. تفسير الرازي ٢١: ١٨٥.
٤. في النسخة: ذكور.
٥ ـ٧. تفسير الرازي ٢١: ١٨٦.
٨. تفسير الرازي ٢١: ١٨٧.
٩. لم نجد رواية في هذا المعنى في تفسير هذه الآية أو في سبب تسمية يحيى عليه السلام، لكن وردت عدة روايات وبنفس المضمون دون ذكر اسم يحيىٰ في تفسير الآية ٣٩ من هذه السورة، وسيأتي بعضها في هذا التفسير، راجع: تفسير أبي السعود ٥: ٢٦٦، تفسير روح البيان ٥: ٣٣٥، تفسير الرازي ٢١: ٢٢١.
١٠. تفسير الرازي ٢١: ١٨٦.
١١. تفسير القمي ٢: ٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٧٤.

عاقراً، لا يكونُ إلّا بقدرته القاهرة وإلغاء الأسباب الظاهرة.

وقيل: إنّ المقصود من السؤال عن وجود الغلام منهما أنّه يكون بِرَدِّهما إلى الشّباب؟ أو مع إبقائِهما على حال الهَرَم؟[1]

﴿قَالَ﴾ سبحانه بالإلهام، أو بتوسّط المَلَك: ﴿كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ لا خُلْفَ فيه ولا غَلَط. قيل: إنّ المعنى: الأمرُ كذلك، تصديقاً له. ثمّ ابتدء بقوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ[2] هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وَسَهْلٌ. وقيل: ذلك إشارة إلى مُبهمٍ يفسّره بقوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[3].

قيل: إنّ معنى قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ هو أنك تُعطيني الغُلام على حالِنا من الشيخوخة؟ ﴿قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ يعني نَعَم يَهَب لك الغُلام، وانتما على تلك الحالة[4].

ثمّ استدلّ على قدرته بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ مذكوراً، فَمَنْ كانَ قادراً على خَلْقك من العَدم قادرٌ على خَلْق الولد من الشيخ والشيخة بطريق أولى.

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّي ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً[١٠ و ١١]

ثمّ لمّا لم يُبيّن سبحانه وقْتَ الوَلادة، سأل اللهَ آية تدلّ على وقتها بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّي ءَايَةً﴾ ودلالةً تدلّ على تحقّقِ الولد لأتلقّى نِعمتك بالشُّكر بَدْو حدوثها ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ﴾ ودليلك على ذلك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ بكلامٍ دنيوي، ولا تقدِر على التنطّق بغير ذِكْرِ الله ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ بأيامها مع كونك ﴿سَوِيّاً﴾ وسالِماً مِنَ الأمراض والآفات الموجبة لاعتِقال اللّسان.

قيل: إنّه رجع تلك الليلة إلى امرأته فقربها، فانعقدت النُّطفة في رَحِمها، ثمّ اشْتَغَل بالعبادة والصلاة في مِحرابه المختصّ به، فلمّا أصبح امتنع عليه التكلّم مع الناس[5] ﴿فَخَرَجَ﴾ في صَبيحة ليلة، حملت فيها امرأته ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ والمصلّى.

قيل: إنّ القوم كانوا من وَراء المِحراب ينتظرون أنْ يُفْتَحَ لهم البابَ فيدخُلوا ويُصلّوا، إذْ خرج زكريا عليهم متغيّر اللّون صامتاً فأنكروه وقالوا: مَالَك يا زكريا[6] ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ وأشار ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بيده أوْ بغيرها ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ لله وصلّوا ﴿بُكْرَةً﴾ وبين الطُّلوعين ﴿وَعَشِيّاً﴾ وبين الزوال والمغرب، على ما قيل[7].

---

١. تفسير الرازي ٢١: ١٨٨، تفسير روح البيان ٥: ٣١٧.
٢. تفسير الرازي ٢١: ١٨٨.
٣. تفسير الرازي ٢١: ١٨٨.
٤. تفسير الرازي ٢١: ١٨٩.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٣١٨.
٦. تفسير أبي السعود ٥: ٢٥٨، تفسير روح البيان ٥: ٣١٨.
٧. تفسير روح البيان ٥: ٣١٨.

وقيل: كان القوم يُصلّون في الوقتين بإذنه[١]. ثمّ مضى الحال على زكريّا كذلك ثلاثة أيّام بِلَياليها، ثمّ عادَ إلى حالته الأولى.

يَا يَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيّاً * وَحَنَاناً مِن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً[١٢ ـ ١٤]

ثمّ تولّد يحيى عليه السلام بعد مُضيّ مدّة حَمْلِه ونَما، وكان في صِغره يَلْبَس الصوف ويوافق الأخيار في الرياضة والعبادة، حتى نزل عليه الوحي، وخاطَبَهُ الله إلهاماً بقوله: ﴿**يَا يَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ**﴾ المُنزَل على موسى واعمل به ﴿**بِقُوَّةٍ**﴾ وجِدّ واستظهار بالتوفيق والتأييد، واصْبِر على مَشاقّ النبوّة وتحمُّل أعباء الرسالة.

في ذكر صفات يحيى وفضائله

ثمّ أخبر سبحانه بجَلالَةِ شأنه في الصبئ بقوله: ﴿**وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ**﴾ من العقل الكامل وفَهْم حقائق التوراة والفقه في الدين والنبوّة والرسالة في وقت كونه ﴿**صَبِيّاً**﴾ غير بالغ الحُلُم ﴿**وَ**﴾ آتيناهُ ﴿**حَنَاناً**﴾ وعُطُوفَةً عظيمةً ورحمةً خاصّةً﴿**مِنْ لَدُنّا**﴾ وبسعة فَضْلِنا ﴿**وَزَكَاةً**﴾ وطَهارةً من كلّ ذنبٍ ونَقْصٍ ﴿**وَكَانَ تَقِيّاً**﴾ وخائِفاً مِن رَبِّه، أو مُحْترزاً من كلّ ما لا يَلِيق بِمَقامه، ﴿**وَ**﴾ كان ﴿**بَرّاً**﴾ ورَحِيماً ﴿**بِوالِدَيْهِ**﴾ ومُحْسِناً إليهما ﴿**وَلَمْ يَكُنْ**﴾ في آنٍ من أوان عُمره ﴿**جَبّاراً**﴾ ومتكبّراً عَلَيْهِما، أوْ عَلى أحدٍ مِنَ النّاس، أوْ مُسِيئاً إلَيهما، أوْ إلى أحَد و﴿**عَصِيّاً**﴾ وعاقاً لهما، أوْ عاصِياً لِرَبّه.

وعن تفسير الإمام عليه السلام: «ما ألْحَقَ الله صبيّاً برجالٍ كاملي العُقول إلّا هؤلاء الأربَعَة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريّا، والحسن، والحسين».

ثمّ ذكر قصّتهم، وذكر في قصّة يحيى قوله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيّاً**﴾ قال: «ومن ذلك الحُكم أنّه كان صبيّاً فقال له الصبيان: هل تَلْعَب؟ قال: والله ما للّعب خُلِقْنا، وإنّما خُلِقْنا لِلجِدّ لأمرٍ عظيم. ثمّ قال: ﴿**وَحَناناً مِنْ لَدُنّا**﴾ يعني تَحَنُّناً ورحمةً على والِدَيه وسائر عبادنا ﴿**وَزَكَاةً**﴾ يعني طهارةً لمن آمن به وصدّقه ﴿**وَكَانَ تَقِيّاً**﴾ يتّقي الشُّرور والمَعاصي ﴿**وَبَرّاً بِوالِدَيْهِ**﴾ مُحْسِناً إلَيهما مطيعاً لهما ﴿**وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً**﴾ يقتُل على الغضب، ويضرِب على الغضب، [لكنّه] ما مِنْ عبدٍ لله تعالى إلّا وقد أخطأ أوْ هَمّ بِخَطِيئةٍ إلّا يحيى بن زكريّا فلم يُذْنِب ولم يهُمّ بالذَّنب[٢].

---

١. تفسير الرازي ٢١: ١٩١.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٦٥٩، تفسير الصافي ٣: ٢٧٥.

وعن الباقر عليه السلام أنه سُئل ما عَنى بقوله: ﴿وَحَنَاناً مِن لَدُنَّا﴾؟ قال: «تحنُّن الله» ثمّ سُئل فما بَلَغ من تحنُّنِ الله عليه؟ قال: «كان إذا قال: يا رَبِّ، قال الله عزّ وجلّ: لبيك يا يحيى»[١].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّه كان إذا قال في دُعائه: يا رَبِّ يا الله، ناده الله من السماء: لَبَّيك يا يحيى سَلْ حاجتك»[٢].

وعن (الكافي) عن الباقر عليه السلام: «مات زكريّا فوَرِثه يحيى الكتابَ والحكمة وهو صبيّ صغير» ثمّ تلا هذه الآية[٣].

وعن الجواد عليه السلام: «أنّ الله احْتَجَّ في الإمامة بمثل مَا احْتجَّ به في النبوّةِ فقال: «﴿وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيّاً﴾»[٤].

وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً[١٥]

ثمّ أخبر الله بإكرامه وتعطُّفه عليه في جَميع الأحوال بقوله: ﴿وَسَلَامٌ﴾ وأمانٌ مِنَ الله ﴿عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ مِنْ أنْ يَنالَه مِنَ الشَّيطان ما يَنالُ سائر بني آدم ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ مِنْ عَذابِ القَبْرِ ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ﴾ من القبر ﴿حَيّاً﴾ إلى المَحْشَر من عذاب القيامة وأهوالها.

روى بعض العامة: «أنّ أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مَواطن: يَوْمَ يُولَدُ فَيَرى نَفْسَه خارجاً ممّا كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً ما شاهدهم قَطُّ، ويوم يُبْعَث فيرى نفسه في محشرٍ عظيم. فأكرمَ اللهُ يَحْيى فحيّاه[٥] بالسَّلام عليه في هذه المواطن الثلاثة»[٦].

وعن الرضا عليه السلام: «أنّ أوحشَ ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يُولَدُ ويخرج من بطن اُمّه فيرى الدنيا، ويوم يموت فيعاين الآخرة وأهلَها، ويوم يُبْعَث فيرى أحكاماً لم يَرَها في الدنيا، وقد سلّم اللهُ عزّ وجلّ على يحيى في هذه الثلاثة المواطن وآمن رَوْعَتَه» وتَلا الآية[٧].

ثمّ اعْلَمْ أنّ في ذكر القصّة فوائد كثيرة: منها تعليم آداب الدعاء، أوّلها: الإخفاء فيه، كما قال تعالى: ﴿أدْعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾[٨]، الثاني: ذكر عجز النفس وضَعْفها قبل سؤال الحاجة، الثالث: ذكره كَثْرة نِعم الله عليه، الرابع: نداء الله بوصف الربوبيّة، الخامس: إظهار عدم كون قصده بالدعاء محض الدنيا بل صلاح الدين.

---

١. الكافي ٢: ٣٨/٣٨٩، تفسير الصافي ٣: ٢٧٥.
٢. المحاسن: ٣٠/٣٥، تفسير الصافي ٣: ٢٧٥.
٣. الكافي ١: ١/٣١٣، تفسير الصافي ٣: ٢٧٥.
٤. الكافي ١: ٧/٣١٥، تفسير الصافي ٣: ٢٧٥.
٥. في تفسير الرازي: فخصّه.
٦. تفسير الرازي ٢١: ١٩٣.
٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١١/٢٥٧، تفسير الصافي ٣: ٢٧٦.
٨. الأعراف: ٥٥/٧.

ومنها: بيان رِفْعة مقام زكريّا ويحيى عليهما السلام، وكونهما نَبِيَّين مع كونهما من البشر. ومنها: بيان كمال قدرته تعالى. ومنها: بيان غاية لطفه بأوليائه. ومنها: وجوب البرّ بالوالدين، إلى غير ذلك.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً * قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً * قَالَ كَذٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً * فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هٰذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنْسِيّاً * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيّاً * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ آمْرأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً [١٦ ـ ٢٨]

ثمّ أنّه تعالى بيّن[١] كمال قدرته على خلق الولد من غير فَحْل بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمّد للنّاس ﴿فِى﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَابِ﴾ العظيم ﴿مَرْيَمَ﴾ بنت عمران بن ماثان وقصّة احتبالها بعيسى ووقته بقوله: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ وتَنَحَّتْ ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ وأقاربها وأتَتْ ﴿مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾ من بنت خالتها، أو أُختها ابشاع زوجة زكريّا.

قيل: احتاجتْ يوماً إلى الغُسل، وكان وقت الشِّتاء، فجاءت إلى ناحية شرقيّة من الدّار مقابل للشمس[٢] ﴿فَاتَّخَذَتْ﴾ وأرْخَت للستر من أهلها ﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾ وأدنى مكان منهم ﴿حِجَاباً﴾ وستراً يسترُها منهم إذا تَعرَتْ.

وقيل: إنّها طَلَبتْ خَلْوةً للعبادة لِئلا تشتغل عنها[٣].

والقمي: خَرَجَتْ إلى النَّخْلَةِ اليابِسَة[٤] ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جَبْرئيل ﴿فَتَمَثَّلَ﴾ وتصوَّر ﴿لَهَا﴾

---

١. في النسخة: بعد بيان.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٣٢١.
٣. تفسير الرازي ٢١: ١٩٦.
٤. تفسير القمي ٢: ٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٧٦.

بصورة البشر فرَأتْه ﴿بَشَراً﴾ شاباً أمْرد حَسَن الوجه ﴿سَوِيّاً﴾ ومُعْتَدلاً في الخِلْقَة والقامَة.

وقيل: كان لها في منزل زكريّا مِحرابٌ مخصوصٌ تسكُنه، وكان إذا خرج أغلق عليها بابه، فتمنَّتْ أنْ تَتَّخذ خَلْوةً في الجَبَل لتُفلّي[1] رأسها، فانفرج[2] السقفُ فخرجتْ إلى المَفازَة، فجلست في المشرفة. وراء الجبل، فأتاها المَلَك[3] في صورة شاب أمرد وَضِيء الوَجْه جَعْد الشَّعْر.

وقيل: إنّه ظَهَر لَها في صورة يوسف أحد خُدّام بيت المقدِس[4]، فلمّا رَأتْه ﴿قَالَت﴾ تعفُّفاً وتورّعاً: يا شابّ ﴿إِنّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ﴾ وألتَجِأ إلَيه برحمته الواسعة ﴿مِنْكَ﴾ ومن سُوء قَصْدك وصَنِيعك ﴿إِنْ كُنْتَ﴾ مؤمناً ﴿تَقِيّاً﴾ تُبالي بالاستعاذة بالرحمن، فلا تتعرَّض لي واتّعظ بتعويذي ﴿قَالَ﴾ جَبْرَئيل: لا تخافي[5] منّي ولا تتوهّمي[6] السُّوءَ في حقّي ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذت به جِئتُكَ ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ وأُعطيك بالنَّفْخ في رُوْعِك ﴿غُلَاماً زَكِيّاً﴾ طاهراً من كلّ لَوْث ودَنَس، ومبرّءاً من كلّ نقص وشَيْن، فلمّا سَمِعت ذلك ﴿قَالَتْ﴾ تعجّباً من وقوع الأمر الخارق للعادة، لا استبعاداً من قدرةِ الله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي﴾ وكيف يتولّد منّي ﴿غُلَامٌ وَ﴾ الحالُ أنّه ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي﴾ ولم يُباشِرْني ﴿بَشَرٌ﴾ بالنّكاح ﴿لَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾ وفاجرةً! ﴿قَالَ﴾ جَبْرئيل: ﴿كَذٰلِكِ﴾ الذي قُلْتِ ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾. قَدْ مَرَّت الوُجوه في ﴿كَذٰلِكِ﴾ وما بعدَه.

ثمّ ذَكَر سبحانه علّة خَرْق العادة بِوَهْب الغلام بِغَيْر فَحْل بقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً﴾ وبُرهاناً قاطِعاً للنّاسِ على قُدْرتِنا وَرَسالةِ هذا الغلام.

قيل: إنّ التقدير لِنُبيِّنَ به قُدرتنا[7] ﴿لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً﴾ عظيمةً ﴿مِنَّا﴾ عليهم، هدايةً لهم بهدايته ﴿وَكَانَ﴾ ذلك الخَلْقُ العجيب ﴿أَمْراً مَقْضِيّاً﴾ ومُقَدَّراً في علمي السابق لابُدّ من وقوعه.

ثمّ قيل: إنّ جَبْرَئيل نَفَخَ في جَيْبِها[8]، أو ذَيْلها[9]، أو أخَذ بكُمِّها ونفخ في دِرْعها[10].

عن ابن عباس: فاطمأنّت مريم إلى قول جَبْرئيل، فَدَنا منها فنَفَخَ في جَيْبِ دِرْعها[11] ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ عَقيب نفخ جَبْرئيل.

عن الباقر عليه السلام: «إنّه تَنَاوَلَ جَيْبَ دِرْعها[12] فنفخ فيه نفخةً، فكمَلَ الولد في الرَّحِم في ساعته، كما يَكْمُل في أرحام النساء في تسعة أشْهُر، فخرجتْ من المُسْتَحمَ وهي حامل فحجج[13] مُثْقِل، فنظرتْ

---

١. في النسخة: لتضل. ٢. في النسخة: فانفجر. ٣. تفسير الرازي ٢١: ١٩٦.
٤. تفسير الرازي ٢١: ١٩٦. ٥. في النسخة: تخف. ٦. في النسخة: ولا تتوهم.
٧. تفسير أبي السعود ٥: ٢٦١. ٨ ـ ١٠. تفسير الرازي ٢١: ٢٠١.
١١. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٤. ١٢. في مجمع البيان: مدرعتها.
١٣. كذا، وفي مجمع البيان: محج، وفي الصافي: محجح، ولعلها تصحيف: تفحج، أي تباعد بين رجليها، كما هو شأن

إليها خالتها فانكرتها، ومضَتْ مريم على وجهها مستحيية من خالَتِها ومن زكريًا»[١].

وعنه عليه السلام: «أنّ مريم حملتْ بعيسى تِسْع ساعاتٍ»[٢].

﴿فَانتَبَذَتْ﴾ مريم وَاعْتَزَلَتْ مِنْ أهْلِها وعيسى في بَطْنِها وتباعَدَتْ **﴿بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾** وموضعاً بعيداً من قَوْمِها.

روى بعض العامة عن وهب: أنّ مريم لمَا حملت بعيسى عليه السلام كان معها ابن عمّ لها يقال له يوسف النجّار، وكانا مُنْطَلِقَيْن إلى المسجد الذي عند جَبَلِ صِهْيون، وكانا يَخْدِمان ذلك المسجد، ولا يُعْلَم في زمانهما أحَد أشَدَ اجتهاداً وعبادةً منهما، وأوّل من عَرَف حَمْلَ مريم يوسف، فتحيّر في أمرها، فكُلَّما أرادَ أنْ يتَّهِمَها ذكر صلاحها وعبادتها و أنّها لم تَغِبْ عنه ساعة قطّ، وإذا أرادَ أنْ يُبَرِّءهَا رأى الذي ظَهَرَ منها مِنَ الحَمْل، فأوّل ما تلكّم أنْ قال: إنّه وَقَعَ في قلبي من أمْرِك شيءٌ، وقد حَرَصتُ على كِتْمانه، فَغَلَبَني ذلك، فرأيت أنّ الكلامَ فيه أشْفىٰ لِصدْري. فقالت: قُلْ قَولاً جميلاً. قال: أخْبريني - يا مريم - هل يَنْبتُ زرعٌ بغير بَذْر؟ وهل تَنْبُتُ شجرةٌ بغير غَرْس؟ وهل يكونُ وَلَد من غير ذَكَر؟ قالت: نَعَم، ألَمْ تَعْلَم أنّ الله أنْبَتَ الزَّرْعَ يومَ خلقَه من غير بَذْرٍ، وهذا البَذْرُ إنّما حَصَلَ من الزرع الذي أنْبَتَهُ من غير بَذْر. ألَم تعلَم أنّ اللهَ تعالى أنبتَ الشجرَ مِنْ غَيْرِ غَيْث، وبِالقُدْرَةِ جَعَلَ الغَيْثَ حياة الشَّجَر بعدما خَلَقَ كلَّ واحدٍ منهما على حِدة؟ أوْ تقولُ أنّ الله لا يَقْدِرُ على أنْ يُنْبِتَ الشجرةَ حتى اسْتَعانَ بالماء، ولولا ذلك لم يَقْدِر على إنباتِها؟

فقال يوسف: لا أقولُ هذا، ولكنّي أقول: إنّ الله قادرٌ على ما يَشاءُ، فيقولُ له كُنْ فَيَكُونُ. فقالت له مريم: ألَم تعلم أنّ الله خَلَقَ آدم وَامْرأتَه من غير ذَكَرٍ ولا أُنْثى؟ فعند ذلك زالت التُّهمة عن قلبه، وكان يَنُوب عنها في خِدمة المسجد لاسْتِيلاء الضَّعف عليها بسبب الحَمْل وضيق القلب، فلمّا دنا نِفاسها أوحَى اللهُ إلَيْها أنِ اخْرُجي من أرْضِ قومك لِئلَا يقتُلُوا ولَدَك، فَاحْتَمَلَها يوسف إلى أرض [مصر] على حِمارٍ له، فلمّا بلغتْ تلك البلاد أدركها النِّفاس، فألجأها إلى أصل نخلةٍ، وذلك في زمان بردٍ، فاحتضنتها فوضعت عندها[٣].

وقيل: إنّها استحيت من زكريًا، فذهبت إلى مكانٍ بعيدٍ، لا يَعْلَم بها زكريا[٤].

وقيل: إنّها خافت من قومها على ولدها[٥]. وعلى أيّ تقدير خرجت من بين قومها، أو من منزل

← النساء المثقلات بالحمل.

١. مجمع البيان ٦: ٧٨٩، تفسير الصافي ٣: ٢٧٧.

٢. الكافي ٨: ٥١٦/٣٣٢، تفسير الصافي ٣: ٢٧٧.

٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٠١.

٤ و ٥. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٢.

زكريّا في جوف اللّيل إلى خارج بَيْتِ المَقْدِس على ما قيل[١]. أو من دِمشق إلى كربلاء، كما عن السجّاد عليه السلام[٢]. فأخذها الطَّلْق ﴿فَأَجَاءَهَا﴾ وألْجَأهَا ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ ووَقع الولادة ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ اليابِسَةِ لتَسْتَتِر بها وتَعْتَمِدَ عَلَيْها عند الولادة، إذ لم يكن لها قابلةٌ تُعينها، أوْ لإظْهارِ المعجزة في الجِذْع، وهو مابين العِرْقِ والغُصْن، وكان مَجيئُها إلى الجِذْع بإلهامِ الله.

القمي: كان ذلك اليوم سوق، فَاسْتَقْبَلَها الحاكة، وكانت الحياكة أنْبَل صناعةٍ في ذلك الزمان، فَاقْبَلوا على بِغالٍ شُهب، فقالت لهم مريم: أينَ النَّخْلَة اليابسة؟ فَاسْتَهزءُوا بِها وزَجَروها. فقالت لهم: جَعَلَ اللهُ كَسْبَكُم بَوْراً، وَجَعَلَكُمْ في النّاس عاراً؛ ثمّ اسْتَقْبَلَها قومٌ مِنَ التّجّار فَدلُّوها على النخلة اليابسة، فقالت لهم: جعل الله البَرَكَة في كَسْبِكم، وأحْوَجَ النّاسَ إلَيْكُم؛ فلمّا بَلَغَتِ النَّخْلَة أخذها المَخاض فوضعتْ بعيسى، فلمّا نظرتْ إليه ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾[٣] الأمْر، أو هذا اليوم، أو هذا الحَمْل ﴿وَكُنْتُ نَسْياً﴾ وشيئاً من حقّه أنْ يُطْرَحَ لحقارته ودناءته كخِرْقَة الطَّمْث و ﴿مَنْسِيّاً﴾ عند النّاس لا يَذْكُرني أحد.

قيل: إنّما قالت ذلك كي لا يقعَ أحدٌ في المعصية، للتكلّم فيها، وَإلّا فإنّها كانت راضيةً مسرورةً بوقوع ما بُشِّرَت به[٤].

والقمي: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾ ماذا أقولُ لخالتي[٥]، ولِبَني إسرائيل[٦]؟

﴿فَنَادَاهَا﴾ عيسى ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ ومن مكان أسفَل منها، أو من تحت النَّخْلَة تَطْييباً لِقَلْبِها وإزالةً للوحشة عنها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ بِسَبَبِ وِلادتي وقَحط الطعام والشراب ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ وفي مكان أسفل منك ﴿سَرِيّاً﴾ ونَهْراً صغيراً جارياً.

عن ابن عبّاس: أنّ جَبْرئيل ضربَ بِرِجْلِه الأرضَ، فظهرتْ عين ماء عَذْب، فجرى جَدْوَلاً[٧].

وقيل: إنّ السريَ سَيِّد القوم وشريفهم[٨] ﴿وَهُزِّي﴾ واجْذِبي ﴿إِلَيْكِ﴾ ونحوك ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ التي فوق رأسك ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ﴾ إسقاطاً مُتَواتِراً ﴿رُطَباً جَنِيّاً﴾ طَرِيّاً، أوْ صالِحاً للاجتِناء. قيل: كان من العَجْوَة، وهي أفضل التمر[٩] ﴿فَكُلِى﴾ يا مريم من الرُّطَب ﴿وَاشْرَبِى﴾ من ماء السَّرِيّ ﴿وَقَرِّى عَيْناً﴾ وطيبي نَفساً، وَارْفُضي عَنْكِ ما أحزنك وأهمّكِ، فَإنّ الله نزّه ساحتِكِ بِالْخَوارِق: مِنْ جَري

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٦.
٢. التهذيب ٦: ١٣٩/٧٣، تفسير الصافي ٣: ٢٧٧.
٣. تفسير القمي ٢: ٤٩، تفسير الصافي ٣: ٢٧٨.
٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٣.
٥. في المصدر: لخالي.
٦. تفسير القمي ٣: ٤٩، تفسير الصافي ٣: ٢٧٨.
٧. تفسير أبي السعود ٥: ٢٦٢، تفسير روح البيان ٥: ٣٢٧.
٨. تفسير أبي السعود ٥: ٢٦٢، جوامع الجامع: ٢٧٣.
٩. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٨.

النَّهر، واخضِرار النَّخْلَة اليابسة، وإثمارها قَبْلَ وَقْتِها.

قيل: إنّ المنادي كان جَبْرَئيل[١]،فإنّه كان لها كالقابلة.

قيل: إنّما قَدَّم الأكل لكون حاجتها إليه أشَدَّ[٢]، وأخَّر تأمينه عن الخوف لِقِلَّته ببِشارة جَبْرَئيل، وإنّما جاء رزقها في المِحْراب من الجنّة حال طفوليّتها لعدم تعلّق قلبها بشيءٍ هنالك، وأُمِرَتْ بِهَزِّ النخلة هنا لعلاقتها بالوَلَد، وإنّما أُمِرَتْ بهزِّ النخلة لأنّها تعجَّبَتْ من وجود الولد بلا فَحْل، فأراها اللهُ الرُّطَبَ من النخلة اليابسة لأنّها لا تُثمِر إلّا بالتَّأْبير[٣] من لِقاح الذَّكَر.

في الحديث: «إذا وِلَدتْ امرأة فَلْيَكُن أوّل ما تأكُل الرُّطَب، فإن لم يَكُنْ رُطَبٌ فتَمْر، فإنّه لو كان شيءٌ أفضَل منه لأطْعَمَهُ الله تعالى مريم بِنْتَ عِمران حين وَلَدْت عيسى»[٤].

قيل: إنّ الله أرْسَلَ الملائكة لِيَكُونوا عند مريم حين وَلادةِ عيسى عليه السلام، فلمّا تولّد حفّوا به وقَمَطُوه في حَرِيرِ الجَنَّة، ووَضَعُوهُ عند مَرْيَم[٥].

ثمّ عَلَّمَها عِيسى عليه السلام طَرِيقَ التخلُّص من اعتراض بني إسرائيل عليها بقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَداً﴾ وَإنْ رأيتِ مِنَ الآدَمِيّين شخصاً اعترضَ عليك ﴿فَقُولِى﴾ في جوابه بالاشارة: ﴿إِنِّى﴾ لا أتَكَلَّم ولا أُجيبُك لأنّي ﴿نَذَرْتُ﴾ وجعلتُ على نَفسي أنْ أصُومَ ﴿لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً﴾ وَإمساكاً من الكلام، أوْ منه ومن غيره من المفطرات ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾ قيل: كان صيام عُبّاد بني إسرائيل الإمساك من الطعام والكلام، وقد نُسِخ في هذه الأُمّة[٦].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الصيامَ ليس من الطعام والشراب وَحْدَه» ثمّ قال: «قالت مريم: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً﴾ أي صمتاً، فإذا صُمْتُم فاحْفَظُوا ألْسِنتكم، وغُضُّوا أبصاركم»[٧]. ثمّ احتضنت مريم ولدها، ورجعتْ إلى بَيْتِ المَقْدِس.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا﴾ عن ابن عبّاس: أنّ مريم خرجتْ من عندهم حين أشرقت الشمس، وجاءتهم عند الظهر ومعها صبيّ[٨] ﴿تَحْمِلُهُ﴾ رُوي أنّ زكريّا افتقد مريم، فلم يجدها في مِحْرابها، فاغتمّ غمّاً شديداً، وقال لابن خالها يوسف: اخْرُج في طلبها، فخرج يقتصّ أثَرها حتى لَقِيَها تحت النخلة، فلمّا رجعت إلى قومها، وهم أهل بيت صالحون، وزكريّا جالس معهم، بَكَوا وحَزِنوا[٩] و﴿قَالُوا﴾ توبيخاً

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٤.
٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٦.
٣. أبّرَ النخل: لقحه وأصلحه.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٨.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٨.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٨.
٧. الكافي ٤: ٣/٨٧، تفسير الصافي ٣: ٢٧٩.
٨. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٩.
٩. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٩.

لها: ﴿يَا مَرْيَمُ﴾ والله ﴿لَقَدْ جِئْتِ﴾ وفعلتِ ﴿شَيئاً﴾ وفِعْلاً ﴿فَرِيّاً﴾ وعظيماً، أوْ مُنْكَراً عجيباً ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ الصالح ونظيره في العبادة والتقوى، وقيل: كان لها أخ صالح اسمه هارون[١]، وقيل: إنّ المراد هارون أخو موسى[٢].

عن النبي ﷺ: «إنّما عَنَوا هارونَ النبيّ، وكانت من أعقابه، وإنّما قيل يا أُختَ هارون كما يقال يا أخا هَمْدان، أي يا واحداً منهم»[٣].

وعنه ﷺ: أنه بعث المُغيرة بن شعبة إلى نَجران، فقالوا: ألَستم تَقْرَءُون: ﴿يَا أُختَ هَارُونَ﴾ وبينهما كذا وكذا، فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «ألا قلتَ: إنّهم كانوا يُسمَون بأنبيائهم[٤] والصالِحين منهم»[٥].

قال بعض العامّة: إنّ هارون كان رجلاً مُعْلِناً بالفسق فشبّهوها به[٦].

وعن القمي: أنّ هارون كان رجلاً فاسقاً زانياً، فشبّهوها به[٧].

ثمّ بالغوا في توبيخها بقولهم: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ عِمران ﴿امْرَأَ سَوْءٍ﴾ ورجلاً فاسقاً زانياً، كما عن ابن عبّاس[٨]. قيل: كان أشرف الأحْبار[٩] ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾ حنّة ﴿بَغِيّاً﴾ وزانية، فلم كنتِ سيئة العمل، ومن أين جئت بهذا الولد؟

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللهِ ءَاتَانِىَ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلاَةِ وَٱلزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيّاً * وَٱلسَّلاَمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً * ذٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ[٢٩ ـ ٣٤]

فلمّا بالغ القوم في توبيخها، بل قيل إنّهم همّوا برجمها، وكان عيسى عليه السلام في حِجْرها يرتضع[١٠] ﴿فَأَشَارَتْ﴾ مريم ﴿إِلَيْهِ﴾ وأجابَتْهم بالإيماء: أنّ هذا الرضيع في حِجْرى يُجِيْبكم وأنا صائمةٌ لا أتكلّم، فغَضِبوا غَضَباً شديداً و﴿قَالُوا﴾: لَسُخْرِيَّتها بِنا أشَدّ من زناها ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ﴾ شأنه أنْ يكونَ ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ أوْ من كان في حِجْر اُمّه يرتضع حال كونه ﴿صَبِيّاً﴾ لا يَفهم السؤال ولا يَقْدِر

١ ـ٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٨.
٤. في النسخة: بآبائهم.
٥. سعد السعود: ٢٢١، تفسير الصافي ٣: ٢٧٩.
٦. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٨.
٧. تفسير القمي ٢: ٥٠، تفسير الصافي ٣: ٢٧٩.
٨ و٩. تفسير روح البيان ٥: ٣٣٠.
١٠. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٨.

على الجواب؟ فلمّا سَمِع عيسى عليه السلام منهم ذلك ترك الرِّضاع، واتّكأ على يَساره، وأشار إلى نفسه بسَبّابته.

وقيل: إنّ زكريّا عليه السلام أتى مريم عند ذلك، وقال لعيسى عليه السلام: انطِق بحُجّتك إنْ كنتَ أُمرت بها[١]. فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ عيسى: ﴿إنّي عَبْدُ الله﴾ ردّاً على من يقول إنّه الله أو شَريكه أوْ وَلَده ﴿آتانِيَ الكِتابَ﴾ المسمّى بالإنْجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ في الصبى، كما هو قول بعض العامّة، ومدلول بعض رواياتنا[٢].

وعن ابن عباس أنّه قال: المراد أنّه حكم وقضى بأنّه سيبعثني من بعدُ، ثمّ سكت عيسى وعاد إلى الصِّغر، ولمّا بَلَغ ثلاثين سنة بعثه الله[٣]، ثمّ قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً﴾ ونفّاعاً كما عن القمي، وجمع من العامة[٤]، أو ثابتاً على الحقّ والدِّين[٥]. أوْ مُسْتعلِياً بالحجّة وغالِباً مُفلحاً[٦]، أوْ معلّماً لِلْبشر دينهم[٧] وجميع ما فيه خيرهم ﴿أيْنَ مَا كُنْتُ﴾ في بَرٍّ أوْ بحر أوْ سهل أوْ جبل ﴿وَأوْصَانِي﴾ وأمرني أمراً مؤكّداً ﴿بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾.

عن الصادق عليه السلام قال: «زكاة الرُّؤوس، لأنّ كلّ الناس لَيْسَت لهم أموالٌ، وإنّما الفِطْرَة على الغني والفقير والصغير والكبير»[٨]. ﴿مَا دُمْتُ حَيّاً﴾ في الدنيا ﴿وَ﴾ جعلني ﴿بَرّاً﴾ ومُحْسِناً ﴿بِوالِدَتِي﴾ مَرْيَم ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً﴾ ومتكبّراً و﴿شَقِيّاً﴾ وعاصياً بالعُقُوق وغيره.

عن الصادق عليه السلام: أنّه عدّ مِنَ الكَبائِرِ العُقُوق قال: «لأنّ الله جعل العاقَّ جبّاراً شَقِيّاً في قوله تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرّاً بِوالِدَتِي﴾» الآية[٩]، أعْلَنَ فيه بتبرئة أمّه، وأنّه وُلِد بغير أبٍ، ثمّ سأل السّلامة التي بشّر الله بِها يحيى عليه السلام بقوله: ﴿وَالسَّلامُ﴾ والأمانُ الذي بشّر الله به يحيى عليه السلام يكون ﴿عَلَيَّ﴾ أيضاً ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾ وقد مرّ تفسيره[١٠].

وقيل: إنّ اللّام في (السّلامِ) لِلاسْتِغْراق، والمعنى: كلُّ السّلام عليَّ، ولا يكونُ لأعْدائي الّذين اتّهَمُوا مَرْيَمَ،بل عَلَيْهِمُ اللّعْن[١١].

روي أنّ عيسى عليه السلام قال ليحيى: أنْتَ خيرٌ مِنّي، سَلَّمَ اللهُ عَلَيك، وسلَّمْتُ عَلى نَفْسِي[١٢]. وقيل: إنّ تسليمه على نفسه بتسليم الله عليه[١٣].

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٨.
٢. راجع: تفسير روح البيان ٥: ٣٣١، الكافي ١: ٣١٣ - ١/٣١٤ و٢.
٣. تفسير الرازي ٢١: ٢١٣.
٤. تفسير القمي ٢: ٥٠، تفسير الصافي ٣: ٢٨٠، تفسير البيضاوي ٢: ٣٠، تفسير أبي السعود ٥: ٢٦٤.
٥ -٧. تفسير الرازي ٢١: ٢١٤.
٨. تفسير القمي ٢: ٥٠، تفسير الصافي ٣: ٢٨٠.
٩. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٣/٢٨٦، تفسير الصافي ٣: ٢٨١.
١٠. في الآية (١٥) من هذه السورة.
١١ -١٣. تفسير الرازي ٢١: ٢١٦.

ثمّ أنّه تعالى بعد ذِكْر وَلادة عيسى عليه السلام وحكاية اعترافه بالعبوديّة لله، بَيّنَ بُطلان قول النصارى بأنه ابن الله بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ المتولّد من مريم بنفخ جَبْرئيل المعترف بالعبوديّة لله ورسالته هو ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لا الذي قالت النصارى بألوهيّته، أو إنّه ابن الله، قلنا لكم ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ والصدق. وقيل: إنّ المعنى أنّ عيسى كان قول الحقّ[1] وكلمة الله وروحه ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ وفي شأنه يَشُكّون ويختلفون.

مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّالِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[٣٥ـ٣٩]

ثمّ بيّن امتناع كونه وَلَداً لله بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ وما صحّ ﴿لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ﴾ لنفسه ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾ لأنّ الولد لابدّ أنْ يكونَ مسانِخاً لوالده، ولا تعدُّدَ لواجب الوجود ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتنزّه من أن يكونَ له جنسٌ وجسمٌ وحاجةٌ إلى الولد، لأنه ﴿إِذَا قَضَىٰ﴾ وأراد ﴿أَمْراً﴾ مِنَ الأمور وشيئاً من الأشياء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ ويشاءه بالمشيئة التكوينيّة ﴿فَيَكُونُ﴾ ذلك الأمر ويُوجَد ذلك الشيء بِصِرْف إرادته ومشيئته بلا رَيْث، كالمأمور المطيع للآمر المطاع.

ثمّ عاد سبحانه إلى بيان بقيّة ما قال عيسى عليه السلام في المَهْد، أو بعد بعثته، بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ فإذا كان كذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده ولا تُشْرِكوا به شيئاً من خَلْقِه في الألوهيّة والعبادة، وَاعْلَمُوا أنّ ﴿هَٰذَا﴾ التوحيد الذي دعوتُكم إليه وأمرتُكم به ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ مُوصِلٌ لَكُم إلى كلِّ خيرٍ وسعادة، لا يضِلّ ولا يشقىٰ سالكه ﴿فَاخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ والجَماعات الكثيرة من النّاس المتحزّبين ﴿مِنْ بَيْنِهِم﴾ فقال حزبٌ: إنّه الله، وحزبٌ: إنّه ابن الله، وحزب: إنّه شريك الله وثالث ثلاثة، وحزب: إنّه عبدُ الله ونبيّه ﴿فَوَيْلٌ﴾ ثابتٌ وهَلاكٌ دائمٌ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِن المُخْتَلِفين ﴿مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ومعاينة أهوال القيامة ﴿أَسْمِعْ بِهِم﴾ وما أسمعهم لِلهُدى! ﴿وَأَبْصِرْ﴾ وما أبْصَرهم بالحقّ! ﴿يَوْمَ﴾ هُم ﴿يَأْتُونَنَا﴾ فيه لِلْحِساب وجزاء الأعمال، فيصير الحقّ عندهم أبين من الشّمس.

وقيل: إنّ المعنى أَسْمِع يا محمّد بهم وأبْصِرهم وعَرِّفهم حالهم في اليوم الذي يأتوننا[2] فيه و﴿لَٰكِنِ

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٢١٧.

٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٢١.

﴿ٱلظَّالِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ الذي تَنْفَعهم البصيرة وتمييز الحقّ من الباطل ـ وهو الدنيا ـ مستقرَون **﴿فِى ضَلالٍ مُبِينٍ﴾** ومُصِرُّونَ على الخطأ الواضح، ويكونُ عليهم حسرة **﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾** يا محمّد وخَوِّفْهم من يوم القيامة الذي يكون لهم **﴿يَوْمَ الحَسْرَةِ﴾** ووقت الندامة على الضلالة في الدنيا، وذلك الوقت **﴿إِذْ قُضِىَ الأَمْرُ﴾** وحُتِم عليهم العذاب، ولم يبق لهم مجال التدارُك.

عن النبي ﷺ أنّه سئل عن قوله تعالى: **﴿إِذْ قُضِىَ ٱلأَمْرُ﴾** فقال: «حين يُجاء بالموت على صورة كَبْش أمْلَح، فَيُذْبَح والفريقان يَنْظُران، فيزداد أهل الجنّة فَرَحاً على فَرَحٍ، وأهل النّار غمّاً على غَمّ»[١].

وعن الصادق عليه السلام: أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «يُنادي منادٍ من عند الله عزّ وجلّ، وذلك بعد ما صار أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار: يا أهلَ الجنّة وأهلَ النار، هَلْ تَعْرِفُونَ الموتَ في صورةٍ من الصُّور؟ فيقولون: لا، فَيُؤتى بالموت في صورة كَبْشٍ أمْلَح، فَيُوقَف بين الجنّة والنار، ثمّ يُنادَون جميعاً: أشرفوا وانظُروا إلى الموت، فيُشْرِفون، ثمّ يأمُرالله عزّ وجلّ به فيُذبَح، ثمّ يقال: يا أهل الجنّة خُلُودٌ فلا موتَ، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت أبداً، وهو قوله تعالى: **﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلأَمْرُ﴾** أي قُضي على أهل الجنّة بالخُلُود فيها، وقُضي على أهل النّار بالخُلود فيها»[٢].

وفي رواية: «فيَفْرَح أهل الجنّة فرحاً لو كان أحد يومئذٍ ميّتاً لماتوا فرحاً، ويَشْهَق أهل النار شَهْقَة لو كان أحد ميّتاً لماتوا»[٣].

ثمّ أنّه تعالى بعد الأمر بإنذارهم من ذلك اليوم ذَمَّهم بقوله: **﴿وَهُمْ﴾** اليوم **﴿فِى غَفْلَةٍ﴾** من ذلك، ومن شدّة حسراته، وممّا يُفْعَل بهم فيه **﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** بذلك اليوم حتى يَرَوْنَه، أو لا يؤمِنون بك حتى يقبلوا إنذارك.

وقيل: إنّ الجملتين حاليتين من الضمير المستتر في قوله: **﴿فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾** والمعنى هم مستقرُّون في ضَلالٍ، وهم في غَفْلَةٍ، وهم لا يؤمنون، وما بين الحال وذي الحال اعتراض[٤].

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ * وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً [٤٠-٤٣]

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٢٢١، تفسير روح البيان ٥: ٣٣٥.
٢. تفسير القمي ٢: ٥٠، تفسير الصافي ٣: ٢٨٢.
٣. مجمع البيان ٦: ٧٩٥، تفسير الصافي ٣: ٢٨٢.
٤. تفسير أبي السعود ٥: ٢٦٦، تفسير روح البيان ٥: ٣٣٥.

ثمَ بالَغَ سبحانه في إرعاب القلوب ببيان كمال قدرته وعظمته بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ خاصّة لا غيرنا ﴿نَرِثُ﴾ ونَمْلِك ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ كلّها ﴿وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ وما فيها، فلا يبقى لأحَدٍ مُلك وسُلطان غيرنا بعد النَّفخة الأولى في الصُّور ﴿وَإِلَيْنا﴾ وإلى حُكمنا ﴿يُرْجَعُونَ﴾ ويُرَدّون، فنُحاسب أعمالهم ونجزيهم حسب استحقاقهم، وفيه تخويفٌ عظيمٌ وإنذارٌ بليغٌ.

ثمَ أنّه تعالى بعد بيان نبوة عيسى عليه السلام ودعوته إلى التوحيد، ذكر نبوّة إبراهيم عليه السلام ودعوته إليه بقوله: ﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمّد ﴿فِي﴾ هذا ﴿ٱلكِتَابِ﴾ الكريم لقومك جدّك ﴿إِبرَاهِيمَ﴾ وَاتْلُ عليهم نبأه، فإنّهم مفتخرون بالانتساب إليه، مقرّون بفضله وحُسن طريقته، وقل لهم: ﴿إِنَّهُ﴾ عليه السلام ﴿كَانَ﴾ موحّداً أو ﴿صِدِّيقاً﴾ ومُلازِماً للحقّ ومبالغاً في تصديق الأنبياء، وكُتبهم ودينهم، وكان هو أيضاً ﴿نَبِيّاً﴾ عظيم الشّأن رفيع المنزلة.

واذكُر ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ﴾ آزَر بِلِينٍ ولُطْفٍ وأدَب ﴿يَا أَبَتِ﴾ لابُدَ في حُكم العقل من كون المعبود قادراً على كلّ شيءٍ، سميعاً لِدُعاء الداعين ومسألة المحتاجين، بَصِيراً بأحوال عباده وأفعالهم وعباداتهم، مغنياً عنهم، ونافعاً لهم حتى تكون عبادته جالبة للنفع، ولا يكون لَغْواً ولا عبثاً، فإذا كان كذلك ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ أنت ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ دُعاءك وتَضَرُّعك ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ عبادتك وخضوعك ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْكَ﴾ وَلَا ينفعك في حوائجك ﴿شَيْئاً﴾ يَسيراً لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى﴾ من قَبَلِ ربّي بالوَحْي والإلْهام ﴿مِنَ ٱلعِلْمِ﴾ بالواقعيات وحقائق الأمور ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ إذَنْ ﴿فَاتَّبِعْنِى﴾ ووافِقْنِي في العقائد والأعمال، وَاقْبَل نُصْحِي، ولا تَسْتَنْكِف عن التَّعلّم منّي، فَإنْ فَعَلْتَ ذلك ﴿أَهْدِكَ﴾ وارشِدْك ﴿صِراطاً سَوِيّاً﴾ وطريقاً مستقيماً، يُوصلك إلى السعادة الأبَدِيّة وخير الدنيا والآخرة، وفيه من حُسن الدعوة ما لا يخفى، حيث لم يدَّعِ لنفسه العلم الفائق وَلأبِيه الجهلَ المُفْرط، وإن كانا كذلك، بَلِ ادَّعى لنفسه زيادة العلم بالنسبة إليه، وسأله الرّفاقة في مسلكٍ يكونُ أعْرَف به.

يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً * يَاأَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيّاً * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيّاً * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ وَأَدْعُوا رَبِّى عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيّاً * فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُم مِن رَّحْمَتِنَا

وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً [٤٤ـ٥٠]

ثمّ بعد توبيخ أبيه على عبادة الأوثان زَجَرَهُ عنها بقوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾ إنّ عبادة الأصنام في الحقيقة عبادة الشيطان لكونها بِتَسْوِيله، و ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطانَ﴾ ولا تَتَّبع خُطُواته وتَسْوِيلاته ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطانَ كَانَ﴾ في بدو خِلْقَة أبيك آدم ﴿لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً﴾ حيث أمره بالسجود له فأبى واستكبر، ثمّ أعْلَن بعداوته لذُرّيته، ومن الواضح أنّ طاعة العاصي مع شدّة عداوته تُورث النِّقَم وتُزيل النِعَم.

ثمّ خَوَّفَه مع إظهار المودّة له[1] بقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ﴾ إنْ مُتَّ على ما أنتَ عليه من عبادة الأصنام مِنْ ﴿أَنْ يَمَسَّكَ﴾ ويُصيبك ﴿عَذَابٌ﴾ عَظِيم ﴿مِنَ ٱلرَّحمٰنِ﴾ مع سَعة رحمته ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ﴾ بسبب طاعتك له ﴿وَلِيّاً﴾ وقَريناً في العذاب الدّائم، أو قريباً يَليك وتَليه.

فلمّا سَمِع أبوه منه عليه السلام هذه النصائح، غَضِب وأنكر عليه اعتزاله عبادة الأصنام بقوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ﴾ ومُعْرِض ﴿أَنْتَ عَنْ﴾ عبادة ﴿آلِهَتِى﴾ والأصنام التي أعبُدها ﴿يَا إِبرَاهِيمُ﴾ فإنّ الإعْراض عن عبادتها لا ينبغي من عاقلٍ فضلاً عَنْ أنْ يقدم أحدٌ على صرف الغير عنها، فَباللات والعُزّى ﴿لَئِن لَمْ تَنتَهِ﴾ وَلَمْ تَنْصرِفْ من هذا القول الذي نَهَيْتُك عنه وعن إعراضك عن عبادة الأصنام الذي أزجُرك عنها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وَلأقْتلَنَّك بِرَمْيِ الأحْجار، وقيل: يعني لأشْتُمَنّك[2]، إذَنْ فَاحْذَرني ﴿وَاهْجُرْنِى﴾ وتباعَدْ منّي ﴿مَلِيّاً﴾ وزماناً طويلاً، لتَسْلَم من بأسي، ولا تنطِق عندي بهذه الخُرافات.

فلمّا رأى إبراهيم عليه السلام شدّة غَضَب آزَر عليه، وعدم قَبوله الهداية والنُّصْح ﴿قَالَ﴾: يا أبَتِ ﴿سَلَامٌ﴾ منّي ﴿عَلَيْكَ﴾ لا أُصيبك بمكروهٍ، ولا أُقابلك بما يُؤذيك، بل أُحسِنُ إليك في مقابل إساءتك. وقيل: إنّه سلام تَوْدِيع ومُتَارِكة[3]، والمعنى أنَا الآن أهجُركَ وأُفارقَك، ولكن ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى﴾ وأسأله أنْ يُوفَقك للهداية وقَبول الحقّ، وأرجُو أنْ يُجيبَ دُعائي ﴿إِنَّه كَانَ بِى حَفِيّاً﴾ ولَطِيفاً في الغاية وبليغاً في البرّ والعناية ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ وأتباعدُ عنكم يا عَبَدَةَ الأصنام لمّا لا تَقْبلون نُصْحي ولا تَهْتَدُونَ بقولي ﴿وَ﴾ أعْتَزِلُ ﴿ما تَدْعُونَ﴾ و تعبُدون ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وممّا سواه ﴿وَأَدْعُوا رَبّى﴾ وَحْدَه وأعبُده ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى﴾ اللَّطِيف بي ﴿شَقِيّاً﴾ وخائباً، كما أنتم أشقياء خائبون في دعائكم الأصنام، وفي إظهار الرجاء باستجابة دعائه إظهارٌ للتّواضع والأدب، وأنّ الاجابة بالتفضّل والكرم لا بالاستحقاق.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ﴾ وفارقهم في المكان بعد اليأس من اجتماعهم معه في الدين وتركهم ﴿وَمَا

---

١. في النسخة: به. ٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٢٨، تفسير روح البيان ٥: ٣٣٧.

٣. جوامع الجامع: ٢٧٥، تفسير الرازي ٢١: ٢٢٨، تفسير روح البيان ٥: ٣٣٧.

يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ﴾ وَلَمْ يُعارضهم، بل هاجر من بلدهم وذهب إلى الأرض المقدّسة ﴿وَهَبْنا لَهُ﴾ بدل أقْربائه الكَفَرة ﴿إِسْحَاقَ﴾ من صُلبه بعد إسماعيل ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ من إسحاق ﴿وَكُلّاً﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾ وهذا من أفضل المواهب وأعظم النِّعم ﴿وَوَهَبْنا لَهُم﴾ مع مَنصِب النبوّة كلَّ خير ﴿مِنْ رَحْمَتِنا﴾ وَفَضْلِنا.

وعن العسكري عليه السلام: «ووهبنا لهم ـ يعني لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ من رحمتنا رسول الله» ﴿وَجَعَلْنا لَهُم﴾ في النّاس إلى آخر الدهر ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ وثناءً جميلاً ﴿عَلِيّاً﴾ ورفيعاً. عن العسكري عليه السلام: «يعني أمير المؤمنين عليه السلام»[1].

فلم يتضرّرْ إبراهيم عليه السلام من هجر الأقارب في الله، بل انتفع به أعلَى المنافع الدنيويّة والأُخْروية.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً * وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً[٥١ ـ ٥٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان مواهبه لابراهيم عليه السلام وإلطافه به، ذَكَر مواهبه لموسى عليه السلام بقوله: ﴿وَاذْكُرْ﴾ يامحمّد لقومك، واتلُ عليهم ﴿فِى ٱلْكِتَابِ﴾ الكريم ﴿مُوسى﴾ بن عِمران بن يصهر بن لاوي بن يعقوب ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً﴾ أخْلَصَه اللهُ للعبوديّة وبرأة من الشرك والأخلاق الرَّذيلة والنقائص الخُلقيّة والخَلقية ﴿وَكَانَ رَسُولاً﴾ مِنَ الله إلى عباده ﴿وَنَبِيّاً﴾ يُنبّئهم بما اُوحي إليه، وإنّما أخّرذكر نبوّته عن ذكر رسالته مع كونها أخصّ وأرفع؛ لأنّ الإنباء بما اُوحي إليه بعد إرساله، ولرعاية الفواصل.

عن الباقر عليه السلام أنّه سُئِل عن هذه الآية: ما الرسول وما النبيّ؟ فقال: «النبيّ الذي يَرى في مَنامِه ويسمع الصوت ولا يرى المَلَك، والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويُعاين المَلَك»[2].

﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ حين رجوعه من مَدين يُريد مصر، وكَلّمناه بصوتٍ عالٍ ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ وناحيته التي كانت في الطَّرف ﴿الأَيْمَنِ﴾ منه، أوْ من موسى عليه السلام ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ إلينا تَقْريبَ تشريفٍ حيث اخترناه لرفعة مقامه وعلوّ منزلته عندنا ﴿نَجِيّاً﴾ ومُخاطباً بنحو المناجاة والمسارّة، فشبّه سبحانه حال موسى عليه السلام بحال من قرّبه المَلِكَ لمناجاته واصطفاه لمصاحبته.

وقيل: إنّ المنجي من النّجاة، والمعنى قرّبناه حال كونه نجيّاً من أعدائه[3]، مُسْتَخْلَصاً من مكائدهم

---

١. تفسير القمي ٢: ٥١، تفسير الصافي ٣: ٢٨٤.
٢. الكافي ١: ١/١٣٤، تفسير الصافي ٣: ٢٨٤.
٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٣١.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَحْمَتِنَا﴾ وبتفضلنا عليه ورأفتنا به ﴿أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾ حيثُ قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهلِي * هَارُونَ أَخِي * اُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[١].

عن ابن عبّاس: كان هارون أكبر من موسى عليه السلام، وإنّما وهب الله له نبوّته لا شخصه وأُخوّته[٢].

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَٱلزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً[٥٤ و ٥٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذِكْر إسحاق ويعقوب اللذين كانا شجرة الانبياء، وذِكر موسى عليه السلام الذي كان أفضل فَرْعهما، ذَكَرَ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بقوله: ﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمّد ﴿فِي﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ قيل: إنّما فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه إظهاراً لِكَمال الاعتناء بشأنه[٣]، والمعنى اُتْلُ يا محمّد على قومك قصّة جدّك إسماعيل عليه السلام، وبَيِّنْ لهم عُلوَّ مقامه ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ فيما بينه وبين الله، لم يُخالف شيئاً ممّا أمر به، وفيما بينه وبين النّاس.

عن ابن عبّاس: إنّ إسماعيل عليه السلام وَعَدَ صاحباً له أنْ ينتظره في مكان فَانْتَظرهُ [سَنة][٤].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّما سُمِّي صادق الوَعْد لأنّه وَعَدَ رَجُلاً في مكانٍ فَانْتَظَرَهُ في ذلك المكان سَنَة، فسمّاه الله عزّ وجلّ صادق الوعد، ثمّ إنّ الرجل أتاه بعد ذلك، فقال له إسماعيل: ما زِلْتُ منتظراً لك»[٥].

وقيل: إنّه وعد نفسه الصبر على الذبح، فوفى به[٦].

﴿وَكَانَ﴾ مع ذلك ﴿رَسُولاً﴾ ومبلّغاً من الله إلى جُرْهُم والعماليق وقبائل اليمن على ما قيل[٧].

و﴿نَبِيّاً﴾ القمي: [وهو إسماعيل بن حزقيل[٨]. وفي المجمع:] قال: هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، كان إذا وعد لم يُخْلِف، وكان مع ذلك رسولاً نبيّاً إلى جُرْهُم، قال: وقيل: إنّ إسماعيل بن إبراهيم مات قَبْل أبيه، وأنّ هذا هو إسماعيل بن حزقيل[٩].

وعن الصادق عليه السلام قال: «إنّ إسماعيل الذي قال الله في كتابه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ إِسْماعِيلَ﴾ الآية، لم يكن إسماعيل بن إبراهيم، بل كان نبيّاً من الأنبياء بعثه الله إلى قومه فأخذوه وسَلَخوا فَرْوَةَ رأسه،

---

١. طه: ٢٠/٢٩-٣٢.
٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٣١.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٤٠.
٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٢، تفسير روح البيان ٥: ٣٤٠.
٥. الكافي ٢: ٨٦/٧، تفسير الصافي ٣: ٢٨٥.
٦. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٢، تفسير روح البيان ٥: ٣٤٠.
٧. تفسير روح البيان ٥: ٣٤١.
٨. تفسير القمي ٢: ٥١، وتفسير الصافي ٣: ٢٨٥.
٩. مجمع البيان ٦: ٨٠٠، تفسير الصافي ٣: ٢٨٥.

فأتاه مَلَك فقال: إنّ الله بعثني إليك فمُرْني بما شئت، فقال: لي اُسوة بما صُنِع بالأنبياء»[١].

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ وأقاربه ﴿بالصَّلَاةِ﴾ التي هي أفضل العبادات البدنيّة ﴿والزَّكاةِ﴾ التي هي أفضل العبادات المالية ﴿وَكَانَ﴾ هو ﴿عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾ وَمَحْبُوباً لنيله بأعلى درجات العبودية والطاعة والانقياد.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً * وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً * أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِم مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَاءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ ٱلرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً[٥٦ ـ ٥٨]

في ذكر ترجمة إدريس النبي عليه السلام

ثمّ لمّا كان إدريس ـ على ما قيل ـ أوّل من تظاهر بالنبوّة، ذكره الله بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمّد ﴿فِى﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَابِ﴾ لقومك ﴿إِدْرِيسَ﴾ وإنّما لُقّب به لكثْرة دراسته، نزل عليه ثلاثون صحيفة، وكان اسمه اخنوخ، ووُلِد قبل موت آدم عليه السلام بمائة سَنَة، أو بعد موته بمائة سنة، وكان جدّ أبي نوح، وهو أوّل من وضع الميزان والمِكيال، واتّخذ السّلاح وجاهد في سبيل الله، وسبى واسترقّ بني قابيل، و خطّ بالقلم، ونظر في عِلم الحِساب والنُّجوم، وخاط الثياب، ولبِس القُطن وكانوا يلبَسون الجُلود[٢].

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ رَفِيعاً. عن ابن عبّاس: إنّه رُفِع إلى السّماء حيّاً، ثمّ قُبِض روحه فيها[٣]. وقيل: إنّه بقي حيّاً في السماء الرابعة[٤].

وقيل: إنّ أربعة من الأنبياء في الأحياء؛ اثنان في الأرض: الخضر وإلياس، واثنان في السماء: إدريس وعيسى[٥].

ثمّ أنه تعالى بعد مَدْح كلّ واحدٍ من الأعاظم المذكورين بالتفصيل، جَمَعَهُم في الثناء والتجليل بقوله: ﴿أُولٰئِكَ﴾ الأعاظم المذكورون بعض من ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِم﴾ بِأنواع النِّعم الدينيّة والدنيويّة وأصناف المواهب الصورية والمعنوية ﴿مِنَ﴾ بين ﴿ٱلنَّبِيِّينَ﴾ الذين هم ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ ونسله كإدريس ومن قبله في الذّكر ﴿وَمِمَّنْ﴾ كانَ في أصلاب مَنْ ﴿حَمَلْنا﴾ هم في السفينة ﴿مَعَ

---

١. علل الشرائع: ٢/٧٧، تفسير الصافي ٣: ٢٨٥.
٢. لم يذكر المصنف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ وقد تقدّم القول فيه عند الآية (٤١) من هذه السورة.
٣ ـ ٥. تفسير روح البيان ٥: ٣٤٢.

﴿نُوحٍ﴾ كمن عدا إدريس **﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾** كإسحاق ومن بعده **﴿وَ﴾** ذريّة **﴿إِسرائِيلَ﴾** كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى. وفيه دلالة على أنّ ولد البنت كعيسى من الذُّرية **﴿وَ﴾** هم **﴿مِمَّنْ هَدَيْنا﴾** هم إلى الحقّ والحقيقة والدين **﴿وَٱجْتَبَيْنَا﴾** هم لِلرّسالة، وَاصْطَفَيْناهم لأنواع الكرامة، وهم كانوا في العبودية والخُضوع لله بحيث **﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ ٱلرَّحْمٰنِ﴾** المُنزلة في بيان عظمته والبِشارة بثوابه والتهديد بعقابه **﴿خَرُّوا﴾** وسَقَطُوا على الأرض **﴿سُجَّداً﴾** وواضعين جباههم عليها خُشوعاً لله **﴿وَبُكِيّاً﴾** مسبلي الدموع من الرَّهْبَة والخوف والشوق، فإذا كانوا مع عُلوّ مقامهم ورفعة منزلتهم وقُرْبِهم من الله، وكونهم من ذراري النبيّين ومن أعظام المرسلين عند سَماع الآيات بتلك المثابة، فغيرهم أولى بأنْ يكونوا كذلك.

قيل: إنّ المراد بالسجود هو الصلاة[1]. وقيل: هو سجود التلاوة[2]. وقيل: هو كناية عن غاية الخُضوع والخُشوع[3]، وفيه دلالة على كون البكاء من آداب التّلاوة.

عن النبيّ ﷺ: «أتلُوا القرآنَ وَابكُوا، فإنْ لم تَبْكُوا فتباكوا»[4].

وعن ابن عبّاس: إذا قرأتُم[5] سَجْدَة سبحان فلا تعجَلوا بالسجود حتى تَبْكُوا، فإنْ لم تَبكِ عين أحدكم فليبكِ قَلْبُه[6].

فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلاَةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً [٥٩ و ٦٠]

ثمّ لمّا مدح الله سبحانه أنبياءه بالقيام بالعبوديّة وغاية الخضوع لله، ذمّ أعقابهم من اليهود والنصارى الذين هم من بني إسرائيل ومشركي العرب، الذين هم من ولد إسماعيل بقوله: **﴿فَخَلَفَ﴾** الأنبياءَ المَذْكُورون وعقَبوا **﴿مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾** وعَقِب سوءٍ **﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾** وتركوها وأخّروها عن وقتها المقرَّرِ لها، أو أضاعوا ثوابَها بالمعاصي **﴿وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَاتِ﴾** وَسَعَوا في استعمال اللّذات النفسانيّة كشُرب الخمر والزنا ونظائرهما.

عن ابن عباس: هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة، وشربوا الخمر، واستحلّوا نِكاح الأخت من الأب[7].

وعن الصادق عليه السلام في تفسير إضاعة الصلاة قال: أضاعوها بتأخيرها عن وقتها من غير أنْ تركوها[8].

---

١ ـ٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٤. ٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٤، تفسير روح البيان ٥: ٣٤٣.
٥. في النسخة: قرء. ٦. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٤. ٧. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٥.
٨. مجمع البيان ٦: ٨٠٢، تفسير الصافي ٣: ٢٨٧.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير اتّباع الشهوات: «مَنْ بَنَى الْمَشِيدَ، ورَكِبَ المَنْظُورَ، ولَبِسَ المَشْهُور»[١] ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ﴾ في القيامة ﴿غَيّاً﴾ وشرّاً.

وقيل: إنّ غَيّاً اسم وادٍ في جهنم يستعيذ من حرّه أوديتها، أعدّ للزاني، وشارب الخمر، وآكل الربا، وشاهد الزُّور، ولأهل العُقوق، وتارك الصلاة[٢].

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ مِنَ الشِّرك والمعاصي إلى الله ﴿وَآمَنَ﴾ بما يَجِبُ الإيمانُ به ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ بعد التوبة والإيمان ﴿فَأُولَئِكَ﴾ التّائِبونَ المؤمنون الصّالحون ﴿يَدْخُلُونَ﴾ في الآخرة ﴿الجنّةَ﴾ الموعودة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ ولَا يُنْقَصون من جزاء إيمانهم وأعمالهم ﴿شَيْئاً﴾ وقليلاً، وفي إطلاق الظُّلم على تنقيص الجزاء دلالةٌ على أنّه بالاستحقاق.

جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً * تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً[٦١ ـ ٦٣]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ الجنّة لا تكون واحدةً موقّتةً بقوله: ﴿جَنّاتُ عَدْنٍ﴾ وبساتين دائمة لا خُروج منها، وقد سبق القول بأنّ عَدْن اسم تلك الجنّات ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ عِبَادَهُ﴾ بها وهي ﴿بِالْغَيْبِ﴾ عنهم لم يَرَوْها في الدنيا ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ﴾ ما تعلّق ﴿وَعْدُهُ﴾ به ﴿مَأْتِيّاً﴾ وجائياً لا يمكن الخُلْف فيه، ومن صفات الجنّات أنّ المؤمنين ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً﴾ وكلاماً باطلاً لا فائدة فيه ﴿إِلَّا سَلاماً﴾ قيل: يعني لكن يَسْمَعُونَ تسليم الملائكة، أو تسليم بعضهم على بعضٍ[٣] ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ﴾ وغِذاؤهم ﴿فِيها بُكْرَةً﴾ وَأوّل النّهار ﴿وَعَشِيّاً﴾ وآخره.

قيل: إنّ البُكْرَةَ والعشَي كناية عن الدوام، أو المراد مِقدار البُكرة والعشيّ، إذ لا لَيل فيها ولا صباح، بل هم في النُّور أبداً، وإنّما وصف الجنّة بذلك لأنّ العرب لا تعرِف من العيش أفضل من الرزق في الوقتين[٤].

ثمّ بيّنَ عظمة شأن الجنّة بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ الموصوفة بالصفات الفائقة ﴿ٱلَّتِى نُورِثُ﴾ ونُمَلّك بعضاً ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهو ﴿مَنْ كَانَ﴾ في الدُّنيا ﴿تَقِيّاً﴾ وَمُحْتَرِزاً من الشِّرك والعقائد الفاسدة والأعمال السيّئة، فالتقوى سَبَبٌ لصيرورة المتّقي مالِكاً للجَنَّة، كما أنّ موتَ المُوَرِّث سبب لصيرورة

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٤٤.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٣٤٥.
٣. تفسير أبي السعود ٥: ٢٧٣، تفسير روح البيان ٥: ٣٤٥.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٤٥.

وارثه مالِكاً لِما تَرَكَه.

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً * رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً [٦٤ و ٦٥]

ثمَ أنّه تعالى بعد بيان المطالب العالية والأخبار الغيبيّة، بيّن أنّ جميعها كلامه المنزل على نبيّه ﷺ بتوسط الملائكة بحكاية اعتذار المَلَك من تأخير نزوله على نبيه ﷺ بقوله: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ**﴾ عليك يا محمّد ﴿**إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ**﴾ وإذْنِه.

قيل: إنّ المعنى قال الله لجَبْرَئيل: قل لِمحمّد ما نتنزَل وقتاً من الأوقات إلّا بِأمْر الله على ما تقتضيه حكمته[١]، وليس لنا استقلال في أمرٍ من الأمور، لأنّنا تحت قُدرته وسُلطانه حيث إنّ ﴿**لَهُ**﴾ تعالى ﴿**مَابَيْنَ أَيدِينَا**﴾ وَكُلّ شيء يكون قُدامنا ﴿**وَمَا خَلْفَنا**﴾ ووَراءنا ﴿**ومَا بَيْنَ ذَلِكَ**﴾ المذكور من الجهتين، فلا نتمالك أن ننتقل من جِهة إلى جِهة ومن مكان إلى مكان إلّا بِإذنه وإرادته.

وقيل: إنّ المراد من ﴿**مَا بَيْنَ أَيْدِينَا**﴾ ما قبل وُجودهم، ومِنْ ﴿**مَا خَلْفَنَا**﴾ مابعد فَنائهم[٢]، ﴿**وَ**﴾ من ﴿**مَا بَيْنَ ذٰلِكَ**﴾ زمان وجودهم وبقائهم.

وقيل: إنّ المعنى ما مضى من أعمارنا وما بقي منها وما نحن فيه[٣].

وقيل: يعني له تعالى الأرض التي بين أيدينا، والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض[٤].

وعلى أي تقدير المقصود أنّ الله محيطٌ بِنا وبِكُلّ شيءٍ بحيث لا تَخفى عليه خافية ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ**﴾ حين عدم إذْنِه لَنا بالنُّزول إليك ﴿**نَسِيّاً**﴾ وتاركاً لك، أوْ غافلاً عنك.

قيل: إنّه أبْطأ جَبْرَئيل على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ له: ما حَبَسَك يا جَبْرَئيل؟ فنزلت[٥].

وقيل: إنّه أبطأ عليه لِتَرْكِه الاستثناء في الوعد بجواب اليهود عن المسائل الثلاث التي مرّ ذكرها في سورة الكهف[٦]، فقال له النبيّ ﷺ: «أبطأتَ عليّ حتى ساء ظنّي، وَاشتَقْتُ إليك» فقال جَبْرئيل: إنّي كنتُ أشْوَق، ولكنّي عَبْدٌ مأمورٌ، إذا بُعِثت نزلت، وإذا حُبِست احتبست[٧]. فأنزل الله هذه، فعلى هذا يكون ذلك من وجوه النَّظم.

---

١. تفسير أبي السعود ٥: ٢٧٣، تفسير روح البيان ٥: ٣٤٧.

٢ ـ ٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٩.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٣٤٦.

٦. في تفسير الآية (٩) من سورة الكهف.

٧. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٨، تفسير روح البيان ٥: ٣٤٧.

وعن (المجمع) عن النبيّ ﷺ أنه قال لجَبْرَئيل: «ما منعك أنْ تَزُورَنا؟» فنزلت[١].

وقيل: يجوز كون الآية من كلام أهْل الجنّة بعضهم مع بعضٍ، والمعنى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ الجنّة ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي في الجنّة مستقبلاً ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ممّا كان في الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذٰلِكَ﴾ [أي ما بين] الوقتين، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ لشيء ممّا خلق فيترُك إعادته؛ لأنّه عالم الغيب لا يَعْزُب عنه مِثقال ذرّة[٢].

وقيل: إنّ قوله: ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ ابتداء كلام منه تعالى في مخاطبة الرسول تقريراً لِكلام أهْل الجنّة، ويتّصل به قوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣] والحقّ أنّ الكُلّ كلام المَلَك، وكأنّه قال: وما كان ربّك يا محمّد نَسِيّاً لك، وجائزاً عليه الغفلة والسهو، حتى يضُرّك إبطاؤنا بالنزول عليك، وإنّما لا يجوز عليه النسيان لأنّه ﴿رَبُّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وخالقهما ومُدبّرهما، ولو كان نَسِيّاً لاختَلّ نظام العالَم وتدبيره لأمور الموجودات، فإذا كان ربّك كذلك ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ وَاجْتَهِد في طاعته ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِه﴾ وَاحْبِس نفسك على مَشاقّها، ولا تحزَن بإبطاء الوحي ونزولنا عليك، وباستهزاء الكَفَرة وشَماتَةِ الأعداءً بك، فإنّه تعالى يُراقبُك ويُراعيك ويَلْطُفُ بك في جَميع الأحوال والعوالم ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ أحداً يكون ربّاً للموجودات ورحماناً في الدنيا والآخرة حتى يكون ﴿لَهُ﴾ تعالى ﴿سَمِيّاً﴾ ومشاركاً في الأسماء والصفات.

عن ابن عبّاس: لا يُسمّى بالرحمن غيره[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «تأويلُه هَلْ تَعْلَم أحداً اسمه الله غير الله»[٥].

قيل: إنّالمشركين كانوا يُطلقون اسمالإله علىالصنم والوَثَن، ولا يُطلقون اسمالله على غيره تعالى[٦].

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً * أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً [٦٦ و ٦٧]

ثمّ لمّا ذكر الله كمال قُدرته وحكمته وتدبيره في الموجودات، وأمَر نبيّه ﷺ بعبادته، ولا فائدة في العبادة إذا لم يعتقد العابد بالحَشر والحِساب، مع كونهما من لوازم حكمته بحكم العقل، وَبّخَ المشركينَ المنكرين للحشر المستبعدين له بقوله: ﴿وَيَقُولُ الإنسَانُ﴾ الذي يُنْكِر الحشرَ والمعادَ استبعاداً له وتعجّباً من مُدَّعِيه: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ وَأُدْخِلْتُ في القبر وصِرْتُ تراباً ورُفاتاً ﴿لَسَوْفَ

---

١. مجمع البيان ٦: ٨٠٥، تفسير الصافي ٣: ٢٨٨.
٢ و٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٩.
٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٠.
٥. التوحيد: ٥/٢٨٨، تفسير الصافي ٣: ٢٨٨.
٦. تفسير البيضاوي ٢: ٣٦.

أُخْرَجُ﴾ من القبر حال كوني ﴿حَيّاً﴾ سَوياً وإنساناً كاملاً؟

ثمَ أنكرَ سبحانه عليهم القول بقوله: ﴿أَوَ لَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَانُ﴾ مع عقله وفطنته، ولا يتفكرَ ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وفي بَدْو وجوده في هذا العالم ﴿وَ﴾ الحالُ أنه ﴿لَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ مذكوراً، بل كان عَدَماً صِرْفاً؟

في (الكافي) عن الصادق عليه السلام قال «لا مقدَراً ولا مكوناً»[١].

وعنه عليه السلام في رواية أخرى: «لم يكن شيئاً في كتاب ولا علم»[٢].

وعن القمي: أي لم يكن ثمَة ذكره[٣].

ومن الواضح أنّ القادر على خلقه أولاً بلا مِثال قادرٌ على خلقه ثانياً بتلك الصورة، بل يكون خَلْقُه أهوَن وأسْهَل عند العاقل.

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمٰنِ عِتِيّاً * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيّاً * وَإِن مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً * ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَنَذَرُ ٱلظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً[٦٨ـ٧٢]

ثمَ أنَه تعالى بعد نَقْلِ إنكار منكري الحشر، واستبعاد إمكانه، واستدلاله تعالى على إمكانه، أخْبَرَ بوقوعه، وهَدَّدَ مُنْكرِية بتعذيبهم بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ لَنُحْيِيَنَّهم في القبور ثمَ ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ مِنها، ولَنَسُوقَنَّهم إلى عَرَصة القيامة ﴿وَٱلشَّيَاطِينَ﴾ المُغْوِينَ لَهم معهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ البتَة ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ وفي أطرافِها حال كونهم ﴿جِثِيّاً﴾ وجُلُوساً على رُكَبِهم لشدَة هولهم بحيث لا يُمكنهم القيام على أرْجُلِهم.

قيل: إنّ عادةَ النَاس أنَهم في مواقف المطالبات من المُلوك يجلِسون على رُكَبِهم، لِما في ذلك من الاستظهار والقَلق[٤] وغاية التذلَل.

وعن ابن عباس «جِثِيّاً» يعني: جماعات[٥].

قيل: إنّ الكفرةَ يُحْشَرُونَ مع قُرَنائهم من الشياطين الذين أغووهم، كلٌ مع شيطانه في سِلْسِلَةٍ[٦] ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ ونَجْذِبَنَّ ﴿مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ وفِرْقَة من الفِرق الذين تابعوا[٧] غاوياً من الغُواة الذين يقال فيهم:

---

١. الكافي ١: ١١٤/٥، تفسير الصافي ٣: ٢٨٨.
٢. المحاسن: ٢٤٣/٢٣٤، تفسير الصافي ٣: ٢٨٨.
٣. تفسير القمي ٢: ٥٢، تفسير الصافي ٣: ٢٨٨.
٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٤١ و٢٤٢.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٣٤٩.
٦. تفسير أبي السعود ٥: ٢٧٥.
٧. في النسخة: تابعت.

﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾.

وقيل: إنّ التقدير أيّهم هو اشد وأزيد ﴿عَلَى الرَّحْمٰنِ﴾ وخالق الموجودات برحمته العامة ﴿عِتِيًّا﴾ وتَمَرّداً وطُغياناً، ليعلم أنّ عذابه أشدّ حتى يَخُصّه به.

وحاصل المُراد ـ والله العالم ـ أنه تعالى يُحضِر جميع الفرق الضالّة أوّلاً حول جهنّم، ثمّ يُميّز بعضهم من بعض، فمن كان أزيد منهم تَمَرُّداً وأصرّ على الكفر، يُلقى أوّلاً في جهنّم، ويُخَصّ بأشدّ العذاب، ثمّ تميّز من دونهم في التمرّد وهكذا.

والحاصل أنه يَبْدَأ بالأعصى فالأعصى على الترتيب إلى آخرهم، كما قال: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ﴾ بجهنّم وَأحَقّ ﴿بِها صِلِيّاً﴾ وإلقاءً أوْ دُخُولاً ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾ أيّها النّاس مؤمنكم وكافركم ﴿إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ﴾ إنجاز ذلك الوَعْد ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ أمْراً ﴿حَتْماً﴾ وواجباً و﴿مَقْضِيّاً﴾ ومحكوماً به بِحُكْمٍ مُبْرمٍ، لا يُمكن عدم نفوذه ﴿ثمّ نُنَجِّى﴾ ونُخلّص من النّار المؤمنين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشِّرك والمعاصي ﴿وَنَذَرُ﴾ ونترك ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر والعُتوّ ﴿فِيهَا﴾ حال كونهم ﴿جِثِيّاً﴾ وجميعاً، أوْ جالِسِينَ على رُكَبِهِم، للعجز عن القيام والحَرَاك.

قال بعض العامة: المراد بالورود الحضور حولها، مستدلاً بما عن النبيّ ﷺ من أنه قال: «لا يدخُل النار أحدٌ شَهِد بدراً والحُديبيّة» فقالت حَفصة: ألَيْسَ الله يقول: ﴿وَإِن مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال ﷺ: «[فمه؟] ﴿ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾»[1]. فعلم أنّ المراد من الورود القُرْب منها، وإلّا لم يكُن ما قاله ﷺ جواباً عن سؤال حَفصة، وهذا كقول العرب: وردت بلد كذا وماء كذا، يعني أشْرَفت عليه، دخلتَ فيه أو لم تَدْخُله، وكقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ﴾[2].

وعن الصادق عليه السلام: «أما تَسْمَع الرَّجُل يقول: وردنا ماءَ بَنِي فلان، فهو الورود ولم يدخُل»[3] وأستدل بقوله: ﴿إنَّ الذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا الحُسْنى أُولٰئِكَ عَنْها مُبْعَدُون﴾[4].

وقيل: إنّ المرادَ منه الدخول فيها[5]، ثمّ يُبْعِد المؤمنين منها ويَذَرُ الظّالمين فيها.

رُوي أنّ عبدَالله بن رَواحة قال للنبيّ ﷺ: أخَبرَ الله عن الورود، ولم يُخْبر عن الصدور؟ فقال ﷺ: «يا بْنَ رَواحة، اقرأ ما بعدها: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾»[6].

وعن جابر بن عبدالله، أنه سئل عن هذه الآية، فقال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: الورود الدخول،

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٣.
٢. القصص: ٢٨/٢٣.
٣. تفسير القمي ٢: ٥٢، تفسير الصافي ٣: ٢٨٩.
٤. تفسير القمي ٢: ٥٢، والآية من سورة الأنبياء: ٢١/١٠١.
٥. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٣.
٦. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٣.

لايَبْقى بَرّ ولا فاجر إلّا دخلها، فتكون على المؤمنين بَرْداً وسلاماً، حتى إنّ للناس ضَجيجاً من بَرْدِها»[1].

وعن (المجمع) عن النبيّ ﷺ قال: «يَرِد النّاس النّار ثمّ يَصْدُرون بأعمالهم، فأوّلهم كَلَمْعِ البرق، ثمّ كَمَرِّ الريح، ثمّ كَحُضْر الفرس، ثمّ كالرّاكِب، ثمّ كشدّ الرّجل، ثمّ كمشيه»[2]

وعنه ﷺ: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جُزْ يا مؤمن، فقد أطفأ نُورُك لَهَبي»[3]

وروي أنّ الله يجعل النار كالسّمن الجامد، ويجمع عليها الخلق، ثمّ ينادي المنادي: خُذِي أصحابك وذَرِي أصحابي، قال: والذي نفسي بيده، لَهِي أعرف بأصحابها من الوالدة بولدها[4].

قيل: حكمة ورود المؤمنين في النّار أنّهم إذا عَلِمُوا الخلاص منها زادهم سُرُوراً وزاد الكفّار غمّاً، حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين، وأنّه إذا كان المؤمنين مع العُصاة في النّار يُقَرّعونهم ويُبَكّتونهم فيزيد ذلك غمّاً للكُفّار وسروراً للمؤمنين، وأنّ المؤمنين يُظهِرون للكفّار صِدق قولهم في الحَشر والتعذيب وكِذْب الكفّار في الإنكار، وأنّ المؤمنين إذا شاهَدُوا العذابَ صار سبباً لِمَزِيد الْتِذاذِهم بنَعِيم الجنّة[5].

وعن الصدوق: أنّه لايُصيب أحداً من أهل التوحيد ألَمٌ في النّار إذا دخلوها، وإنّما يُصِيبهُم الألم عند الخروج منها، فتكون تلك الآلام جزاء بما كسبت أيديهم وَمَا الله بظلّام للعبيد[6].

أقول: إنّما التألّم عند الخروج يكون للذين اكتسبوا السيّئات، ولم يغفر لهم دون المؤمنين الذين شَمَلتهم المغفرة والشّفاعة.

وعن النبيّ ﷺ أنّه سئل عن هذه الآية فقال: إذا دخل أهلُ الجنّة الجَنّةَ، قال بعضهم لبعض: ألَيس قد وَعَدَنا رَبّنا أنْ نَرِد النار؟ فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة»[7].

وعن ابن مسعود: ورودها الجواز على الصراط الممدود عليها، وذلك لأنّه لا طريق إلى الجنّة سوى الصّراط، فالمرور في حكم الورود[8]، وأمّا قوله تعالى: **﴿إنّ الّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنّا الحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُون * لا يَسْمَعُونَ حَسِيسُها﴾**[9] فالمراد البُعد من عذابها، ولا يسمعون حسيسها لأنّ حسيسَها كسائر أهوال القيامة محجوبٌ عنهم.

وعن ابن عبّاس: إنّ الآية مختصّة بالكفّار كما قال تعالى: **﴿إنّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ حَصَبُ**

---

١ ـ٤. مجمع البيان ٦: ٨١٢، تفسير الصافي ٣: ٢٨٩. ٥. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٤.

٦. اعتقادات الصدوق: ٢٩/٧٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٠. ٧. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٤.

٨. تفسير روح البيان ٥: ٣٥٠. ٩. الأنبياء: ١٠١/٢١ و١٠٢.

جَهَنَّم أنتُم لَها وارِدُون﴾[١].

وعن مجاهد، قال: ورود المؤمن في النّار [هو] مسّ الحُمّى جسده في الدنيا، لقوله ﷺ: «الحمّى من فَيْحِ[٢] جهنم، فأبرِدوها بالماء»[٣].

وفي الحديث: «الحمّى حظّ كلّ مؤمن من النار»[٤].

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً [٧٣و ٧٤]

ثمَ أنّه تعالى بعد إثبات بطلان الشرك ووعيد المشركين بالعذاب عليه، حكى استدلالهم على صحّة قولهم بحسن مآلِهم في الدنيا وسُوء حال المؤمنين الموحّدين فيها بقوله: **﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾** القرآنية الدالة على التوحيد والوعد والوعيد مع كونها معجزات **﴿بَيِّنَاتٍ﴾** من حيث العبارات والمعاني **﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** وَأصرُّوا عَلَى الشِّرك والعِناد كالنَّضْر بن الحارث وأضرابه **﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾** بوَحْدانية الله الفقراء منهم أنْظُروا أيّها المؤمنون **﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾** مِنّا ومنكم **﴿خَيْرٌ﴾** وأفْضَل **﴿مَقَاماً﴾** وَمَسْكَناً **﴿وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾** وَمَجْلِساً من حيث اجتماع الأشراف ووجوه قريش فيه.

رُوي أنّ المشركين كانوا يُرَجِّلُونَ[٥] شُعُورَهم ويَدْهُنُونَها ويتطيّبون ويتزيّنون بالزِّينة الفاخرة، فإذا سَمِعوا الآيات الواضحات وعَجَزُوا عن معارضتها أو الطعن فيها، قالوا مفتخرين بالحُظوظ الدنيويّة على فقراء المؤمنين: لو كنتم على الحقّ وكنّا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أحسن، لأنّ الحكيم لا ينبغي له أنْ يُوقع أولياءه في العذاب والذُّلّ، وأعداءه في العزّ والرّاحة، ولكن الأمر بالعكس[٦].

ثمَ ردَ عليهم سبحانه بقوله: **﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾** بعذاب الاسْتِئصال بسبب الكُفر والشِّرك مِنْ **﴿قَبْلَهُم﴾** كثيراً **﴿مِن﴾** أهل **﴿قَرْنٍ﴾** وأهل عصر كانوا **﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً﴾** ومَتاعاً يَـزيّنون بـه بـيوتهم **﴿وَ﴾** أحْسَنْ **﴿رِءْياً﴾** ومَنْظراً منكم.

عن الباقر عليه السلام: «الأثاث المتاع، ورِئْياً الجمال والمَـنْظَر الـحَسَن»[٧]. فـلو كـانت الأمْتِعة الدنـيويّة وحظوظها التي تفتخرون بها دليلاً على الكرامة عند الله لم يهلِكوا بالعذاب.

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٣، تفسير الجامع ١١: ١٣٨، والآية من سورة الأنبياء: ٩٨/٢١.
٢. الفَيح: سطوع الحر وفورانه، وفي النسخة: قيح. ٣ و٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٥١.
٥. رجّل الشعر: سرّحه. ٦. تفسير روح البيان ٥: ٣٥١.
٧. تفسير القمي ٢: ٥٢، تفسير الصافي ٣: ٢٩١.

قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدّاً حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً * وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدىً وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً[٧٥و ٧٦]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ النِّعم الدنيوية خِذْلان من الله واستدراج لا لُطف وكرامة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، لقريش المفتخرين بالحُطام الدنيوية ﴿مَن كَانَ﴾ مستقراً ﴿فِى الضَّلَالَةِ﴾ والشِّرك والبُعْد عن الحقّ ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ وليُمهل ﴿لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وليُعينه على ما هو فيه بطول العمر وكثرة المال والنِّعم ﴿مَدّاً﴾ وإمهالاً كثيراً مُسْتَمِراً ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾ وعايَنُوا ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ بلسان الأنبياء، وذلك الموعود ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ الدنيوي ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ والقيامة وما فيها من الأهوال والنَّكال ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حين وقوع أحدهما ﴿مَنْ هُوَ﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿شَرٌّ مَكَاناً﴾ ومن هو خير مقاماً ﴿وَ﴾ مَنْ ﴿أَضْعَفُ جُنْداً﴾ وأقَلّ أنصاراً وأقوى أعواناً، هُمْ أم المؤمنون، فَإنْ قُتِلُوا وغَلَب المسلمون عليهم عَلِموا أنّهم أضْعَف جنداً.

القمي: العذاب: القتل، والساعة: الموت[١].

وقيل: إنّ العذاب عذاب الله عند الموت[٢]. وقيل: عذاب القبر[٣]. وقيل: تغيّر حالهم في الدنيا من الغنى إلى الفقر، ومن العِزّ إلى الذُّلّ، ومن الأمْن إلى الخوف[٤].

ثمّ بيّن سبحانه معاملته مع المؤمنين بقوله: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ﴾ المؤمنينَ ﴿ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا﴾ بهدايته إلى التوحيد ودين الحقّ ﴿هُدىً﴾ وإيماناً ويَقيناً. وقيل: يعني ثواباً[٥].

وعن الصادق عليه السلام: ﴿ويزيد الله﴾، قال: «يزيدهم يوم خُروج القائم هُدىً على هدىً باتّباعهم القائم حيث لا يَجحَدونه ولا يُنكرونه»[٦].

﴿وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ﴾ التي مرّ تفسيرها في سورة الكهف[٧] ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضَل ﴿عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً﴾ وأجراً في الدنيا والآخرة ممّا يفتخر به المشركون من الحُطام والحُظوظ العاجلة ﴿وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾ ومآلاً؛ لأنّ مآلها النِّعم الدائمة، ومآل حظوظ الكفّار العذاب الأبَدِيّ[٨].

أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً * أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ

---

١. تفسير القمي ٢: ٥٢، تفسير الصافي ٣: ٢٩١.
٢ ـ ٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٧.
٥. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٨.
٦. الكافي ١: ٣٥٧/٩٠، تفسير الصافي ٣: ٢٩٢.
٧. في الآية (٤٦) من سورة الكهف.
٨. في النسخة: الأبدية.

عِندَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْداً * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدّاً * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً[٧٧ـ ٨٠]

ثمّ بيّن الله غاية غرور المشركين بمآلهم عند الله بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ يا محمّد ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ الدالّة على التوحيد في الألوهية ورسالة رسولنا ويوم جزائنا ﴿وَقَالَ﴾ غروراً: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ في القيامة ﴿مَالاً﴾ كثيراً ﴿وَوَلَداً﴾ كما اُوتيتهما في الدنيا حتى تتعجّب من غاية حُمقه وجهالته.

رُوي أنّ الآية نزلت في العاص بن وائل. وقيل: في الوليد بن المُغيرة، فإنّه كان لِخَبّابِ بن الأرَتّ دَيْن عليه فَاقتضاه فقال: لا والله حتى تَكْفُرَ بمحمّد. فقال خَبّاب: لا والله لا أكْفُرُ بمحمّد ﷺ، لا حيّاً ولا مَيّتاً ولا حين نُبعَث، فقال العاص أو الوليد: فإنّي إذا مُتّ بُعِثْتُ؟! قال خَبّاب: نعم، قال: إذا بُعِثْتُ وجِئْتَنِي فسيكون لي ثمّة مال وولد فأُعطيك.

وقيل: صاغ خَبّابٌ له حُليّاً فَاقْتَضاه، فطلب الأُجرة منه، فقال: إنّكم تَزْعُمون أنكم تُبْعَثُون، وَأنّ في الجنّة ذهباً وفِضّةً وحريراً، فَأنا أقضيك ثَمّ، فَإنّي اُوتى مالاً وولداً حينئذٍ[1].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ العاص بن وائل بن هِشام القُرشي ثمّ السَّهمي، وهو أحد المستهزئين، وكان لخبّابِ بن الأرَتّ عليه حقّ فأتاهُ يتقاضاه، فقال له العاص: ألَستُم تَزعُمون أنّ في الجنّة الذهب والفضّة والحرير؟ قال: بلى، قال: فموعد [ما] بيني وبينك الجنّة، فوالله لأوتينّ فيها خيراً ممّا اُوتيت في الدنيا»[2].

فردّ الله عليه بقوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ وهل بلغ من القرب عند الله إلى أنْ اُوتي العلم الذي لا يعلمه إلّا الله ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ مِنَ الله العالِم بالمغيبات، وكان له ﴿عِندَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾ وميثاقاً على أنْ يُعْطِيَه ما يقول ﴿كَلَّا﴾ ليس شيء من الأمرين بل ﴿سَنَكْتُبُ﴾ عليه ونُثبّت ونَحْفَظ ﴿مَا يَقُولُ﴾ من الكَذِب ﴿وَنَمُدُّ لَهُ﴾ بدل ما يَدّعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد، ونُعْطِيه أو نطوّل له ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ في الآخرة ﴿مَدّاً﴾ وعطاءً وطولاً لا نِهاية له ﴿وَنَرِثُهُ﴾ ونَأخُذُ منه بموته ﴿مَا يَقُولُ﴾ من المال والولد الذي يكون له في الدنيا ﴿وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ وواحداً لا يكون معه شيءٌ ممّا يفتخر به في الدنيا.

وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً[٨١و ٨٢]

---

١. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٩.

٢. تفسير القمي ٢: ٥٤، تفسير الصافي ٣: ٢٩٢.

ثمَ أنّه تعالى بعد بيان اغترارهم بالنِّعم الآخرة، أو استهزائهم بها، بيّنَ غرورهم بالأصنام وغاية حُمقهم بقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومن مخلوقاته ﴿آلِهَةً﴾ ومعبودين ﴿لِيَكُونُوا﴾ تلك الآلِهة ﴿لَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿عِزّاً﴾ وسبباً للنيل بالمقاصد، أمّا في الدنيا فبإنجاح حوائجهم، وأمّا في الآخرة فبشفاعتهم عند الله، ونُصْرتهم لهم، وإنجائهم إيّاهم من العذاب، فَرَدَعَهُمْ الله عن هذا التوهّم الفاسد بقوله: ﴿كَلَّا﴾ ليس كما توهّموه، بل ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ويُنْكِرُونَ ولايتهم حين يَرَون سُوء عاقبتهم، ويقولون: ما كنّا مشركين ﴿وَيَكُونُونَ﴾ حين مشاهدة أصنامهم ﴿عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ وأعداءً بعد أنْ كانوا لهم مُحِبّين كحُبِّ الله.

قيل: إنّ ضمائر الصِّيغ كلّها راجعة إلى الأصنام، والمعنى ستكفر الأصنام، ويَجْحَدون عبادتهم، لأنّهم كانوا جَمادات لم يشعروا بعبادتهم، ويكونون أعواناً على ضررهم، وذلك أنّ الله تعالى يركّب فيهم العقول فيُنطِقهم فيقولون: يا ربِّ عَذِّب هؤلاء الذين عبدونا[1].

وقيل: إنّ المراد من الضدّ ضدّ العز [وهو الذُّلّ والهوان][2]، والمعنى: يكونون عليهم ذُلاً وهواناً، وإنّما أفرد الضدّ لفرض وَحدة الكُلّ.

وقيل: إنّ المراد بالآلهة الملائكة، لأنّهم في الآخرة يكفُرون بعبادتهم[3]، ويقولون: سُبحانك أنتَ وَليّنا من دونهم، بل كانوا يَعْبُدون الجِنّ.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «أي يكونون هؤلاء الّذين اتَّخذوا آلهةً من دون الله ضِدّاً يوم القيامة، ويتبرؤون منهم ومن عبادتهم» ثمّ قال: «ليس العبادة هي السُّجود والرُّكوع، وإنّما هي طاعة الرجال، من أطاع مخلوقاً في معصية الخالق فقد عَبَدَه»[4].

أقول: يعني ليس العبادة منحصرةً في الرُّكوع والسُّجود، فالآية تعمّ عبادة الأصنام وطاعة رؤساء الضلال.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً * فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً [٨٣ و ٨٤]

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ استيلاء الشياطين عليهم بَعَثهم إلى عبادة الأصنام بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم تعلم يا محمّد ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا﴾ وسَلّطْنا ﴿ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾ بسبب خُبْث ذاتهم وسُوء اختيارهم، وخَلّينا بينهم وبينهم ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ وتُغريهم وتُهيّجهم على المعاصي والشُّرور وعبادة الأصنام ﴿أَزّاً﴾

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٥٥.
٢ و٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٥٠.
٤. تفسير القمي ٢: ٥٥، تفسير الصافي ٣: ٢٩٢.

وتَهييجاً شديداً بأنواع الوساوس والتسويلات.

وعن القمي: نزلت في مانعي الخُمس والزكاة والمعروف، يبعث الله عليهم شيطاناً، فيُنفِق ما يجب عليه من الزكاة في غير طاعة الله، ثمّ يعذّبه على ذلك[١].

﴿فَلَا تَعْجَلْ﴾ في نزول العذاب ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وهلاكهم حتى تستريحَ أنتَ والمؤمنونَ من شرّهم، وتُطهَر الأرض من لَوْث وجودهم، وتأمنها من فسادهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ﴾ أيّام آجالهم وأنفاسهم ﴿لَهُمْ عَدّاً﴾ فإنّه لم يبقَ من عمرهم إلّا أيّامٌ قليلة وأنفاسٌ محصورة.

روي أن ابن عباس إذا قَرأها بَكى، وقال: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فِراق أهلك، آخر العدد دُخول قبرك[٢].

عن الصادق عليه السلام: أنّه سُئل عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ قال: «ما هو عندك؟» قال السائل: عدد الأيّام، قال: «إنّ الآباء والأمّهات يُحصون ذلك، [لا] ولكنّه عدد الأنفاس»[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «نَفَسُ المَرْءِ خُطاه إلى أجَلِه»[٤].

وقيل: إنّ المعنى إنّما نَعُدّ [أنفاسهم و] أعمالهم عَدّاً، فنجازيهم على قليلها وكثيرها[٥].

وقيل: يعني إنّما نعُدّ الأوقات إلى وقت الأجل المُقدّر لكلّ منهم[٦]، ثمّ نعذّبهم على أعمالهم.

يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمٰنِ وَفْداً * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً * لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْداً[٨٥ـ٨٧]

ثمّ عيّن سبحانه وقتَ كُفْرِهم بعبادة الأصنام وابتلائهم بالعذاب بقوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ﴾ فيه ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمحترزين من الشِّرك والعِصيان، ونُخْرِجهم من قبورهم أحياء، أو نجمعهم ﴿إِلَىٰ﴾ محلّ كرامة ﴿ٱلرَّحْمٰنِ﴾ وربّهم الرّحيم بهم حال كونهم ﴿وَفْداً﴾ وقادمين عليه راجين لثوابه وإنعامه، كما ينزل المحتاجون على الملوك طامعين لجوانزهم.

وقيل: إنّ المعنى أُذكُر يا محمّد اليوم الذي نميّز بين المتّقين والمجرمين، بأنْ نحشُرَ أهل الإيمان والطاعة إلى رحمة الرّحمنِ كالأضياف النّازِلين على المَلِك الكريم.

روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام: قال: «ما يُحشَرون والله على أرْجُلهم، ولكن على نُوقٍ رِحالها ذهب، وعلى نَجائِبَ سُرُجها ياقوت، وأزِمّتها زَبَرْجَد، ثمّ ينطلق بهم حتى يَقْرَعوا باب

١. تفسير القمي ٢: ٥٣.   ٢. تفسير روح البيان ٥: ٣٥٥.

٣. الكافي ٣: ٣٣/٢٥٩، تفسير الصافي ٣: ٢٩٣.   ٤. نهج البلاغة: ٤٨٠ الحكمة ٧٤، تفسير الصافي ٣: ٢٩٣.

٥ و٦. تفسير الرازي ٢١: ٢٥٢.

الجنّة»[١].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «سأل علي عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله عن تفسير هذه الآية، قال: يا علي، إنّ الوَفْد لا يكونون إلاّ رُكباناً، اُولئك رجالٌ اتقوا الله، فأحَبَّهم الله واختصَهم ورضى أعمالهم فسمّاهُمُ المتّقِين، ثم قال: يا علي، أما والّذي فلق الحبّة وبرَأ النَّسَمَة، إنّهم لَيَخْرُجون من قبورهم وإنّ الملائكة لتستقبلهم بنُوقٍ من نُوق العِزّ عليها رِحالُ الذّهَب مُكلّلة بالدُّرّ والياقوت، وجِلالُها الاسْتَبرق وَالسُّنْدُس، وخِطامُها جُدُل الأُرْجُوان، وزِمامها من زَبَرْجد، فتطير بهم إلى المحشر، مع كلّ رجلٍ منهم ألف مَلَك من قُدّامة وعن يمينه وعن شماله، يَزِفُّونهم زَفّاً حتى ينتهوا بهم إلى باب الجنّة الأعظم.

وعلى باب الجنّة شَجَرَةٌ، الوَرَقةُ منها يستظلّ تحتها مائة ألف مِنَ النّاس، وعن يمين الشجرة عين مُطهّرة مُزكّية، يسقون منها شُربة شُربة، فيُطهّر الله بها قُلُوبَهم من الحسد، ويُسقط عن أبشارهم الشَّعْر، وذلك قوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُم شَرَاباً طَهُوراً﴾[٢] من تلك العين المطهّرة، ثمّ ينصرفون إلى عين اُخرى عن يسار الشجرة فيغتسلون فيها، وهي عين الحياة فلا يموتون أبداً.

ثمّ يُوقَف بهم قُدّام العرش، وقد سَلِموا من الآفات والأسقام والحرّ والبرد أبداً، فيقول الجبّار للملائكة الذين معهم: اُحْشروا أوليائي إلى الجنّة فلا تُوقِفوهم مع الخلائق فقد سَبَق رضائي عنهم، ووجبت رحمتي لهم، فكيف اُريد أنْ أُوقفهم مع أصحاب الحسنات والسيّئات، فتَسُوقهم الملائكة إلى الجنّة، فإذا انتهوا إلى باب الجنّة الأعظم ضرب الملائكة الحَلقة ضربةً فتصرّ صَريراً، فيبلُغ صوت صَريرها كلّ حوراء خلقها الله وأعدَّها لأوليائه، فيتباشَرنَ إذا سمعنَ[٣] صَرير الحَلقة، وتقول بعضهنّ لبعض: قد جاءنا أولياء الله، فيُفتَح لهم الباب، فيدخُلون الجنّة، فيُشرف عليهم أزواجهم من الحُور العِين والآدميين، فيَقُلْنَ: مرحباً بكم، فما أشوقنا إليكم! ويقول لهنّ أولياء الله مثل ذلك»[٤].

وعن القمي ـ في رواية ـ فقال علي عليه السلام: «مَن هؤلاء يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وآله: هؤلاء شيعتك يا علي، وأنت إمامهم، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ نحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمٰنِ وَفْداً﴾[٥] على الرحائل ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجرِمينَ﴾ والعُصاة كما تُساقُ البهائم بإهانة واستخفاف ﴿إِلىٰ جَهَنَّمَ﴾ حال كونهم ﴿وِرْداً﴾ ومُشاةً عِطاشاً، وعباد الله ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ﴾ لأحَدٍ ولا يَقدِرون عليها ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾ وإذناً، فكيف بالأصنام التي لا قَدْرَ لها عند الله حتى تُقبَل شفاعتها، ويأذَن لها

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٥٦.
٢. الانسان: ٢١/٧٦.
٣. في النسخة: فيتباشرون بهم إذا سمعوا.
٤. تفسير القمي ٢: ٥٣، تفسير الصافي ٣: ٢٩٤.
٥. تفسير القمي ٢: ٥٤، تفسير الصافي ٣: ٢٩٥.

فيها في حقّ أحد.

وقيل: يعني لا يَمْلِك المشركون الشَّفاعَةَ لأحد، ولكنَّ الشفاعة لِمَنِ اتَّخَذَ عند الرحمن عهداً، وهو الإيمان، فإنّ المؤمنين هم الشُّفعاء فيَشْفَعون[1].

عن ابن مسعود: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لأصحابه ذات يوم: «أيَعْجِز أحدُكم أنْ يتَّخذ كلّ صباحٍ ومساءٍ عند الله عهداً؟». قالوا: وكيف ذلك؟ قال: «يقول كلّ صباحٍ ومساءٍ: اللّهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إنّي أعْهدُ إليك بأنّي أشْهَدُ أنْ لا إله إلّا أنْتَ، وَحْدَكَ لا شريك [لك]، وَأنّ محمّداً عبدك ورسولك، وأنّك إنْ تَكِلني إلى نفسي تُقرّبني من الشرّ، وتُباعدني من الخير، وإنّي لأثِقُ برحمتك، فاجْعَل لي عهداً توفّينيه يوم القيامة، إنّك لا تُخْلِف المِيعاد. فإذا قال ذلك طَبَع [الله] عليه بطابَعٍ، ووُضِع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين لهم عند الرحمن عهدٌ؟ فيدخُلون الجنّة»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «لا يُشْفَع لهم ولا يَشْفَعُونَ ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ يعني إلّا مَنْ أُذِن له بولاية أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام من بعده، فهو العهد عند الله»[3].

وعنه عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من لم يُحسِن وصيّته عند موته كان نقصاً في مُروءته. قيل: يا رسول الله، كيف يوصي عند الموت؟ قال: إذا حضرته الوفاة واجتمع الناس إليه قال: اللّهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، إنّي أعْهَد في دار الدنيا، أنّي أشْهَدُ أنْ لا إله إلّا أنْتَ وحدكَ لا شريك لك، وأنّ محمداً عبدك ورسولك، وأنّ الجنّة حقّ، وأنّ النارَ حقّ، وأنّ البعث حقّ، والحساب حقّ، [والقدر] والميزان حقّ، وأنّ الدِّينَ كما وصفتَ، وأنّ الإسلام كما شرَعت، وأنّ القول كما حدّثت، وأنّ القرآن كما أنزلت، وأنّك أنت الله [المَلِك] الحقّ المُبين، جَزَى الله محمّداً خير الجزاء، وحيّى الله محمّداً وآل محمّد بالسَّلام.

اللّهمّ يا عُدّتي عند كُربتي، ويا صاحبي عند شدّتي، ويا وليي في نعمتي، إلٰهي وإله آبائي، لا تَكِلني إلى نفسي طَرْفة عينٍ أبداً، فإنّك إنْ تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَة عينٍ كنتُ أقْربَ من الشرّ وأبْعَدَ من الخير، فآنِس في القبر وحشتي، واجْعَل لي عهداً يومَ القاكَ مَنْشُوراً.

ثمّ يُوصي بحاجته، وتصديق هذه الوصيّة في سورة مريم، في قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٥٦، تفسير أبي السعود ٥: ٢٨٢، وفيهما لا يملك المجرمون بدل المشركون.
٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٥٣، تفسير روح البيان ٥: ٣٥٦.
٣. تفسير القمّي ٢: ٥٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٥.

إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾ فهذا عهد الميت، والوصيّةُ حقّ على كلّ مسلم، وحقّ عليه أنْ يَحْفَظَ هذه الوصيّة ويتعلّمها، وقال علي عليه السلام: علّمنيها رسول الله، وقال: علّمنيها جَبْرَئيل»[١].

وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمٰنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ ٱلسَّماوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدّاً * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً * وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا آتِى ٱلرَّحْمٰنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَرْداً[٨٨ـ٩٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد ردّ عَبَدَة الأصنام، ردّ القائلين بأنّ لله ولداً من اليهود والنصارى وطائفة من قُريش بقوله: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمٰنُ وَلَداً﴾.

عن الصادق عليه السلام: «هذا حيث قالت [قريش]: إنّ الله عزّ وجلّ اتّخَذَ ولداً من الملائكة إناثاً»[٢].

ثمّ وجّه الخطاب إليهم توبيخاً لهم بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾ وأدّعيتهم ادّعاءً عجيباً، وقُلتم قولاً مُنْكَراً فَظِيعاً ﴿تَكَادُ﴾ وتقرَبُ من فَظاعة هذا القول ﴿ٱلسَّماوَاتُ﴾ من أنْ ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ وينقطعن ﴿مِنْهُ﴾ من فوقكم ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ وتنصدع أجزاؤها من تحتكم ﴿وَتَخِرُّ﴾ وتَنْهَدَ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ الرواسي ﴿هَدّاً﴾ وتنهدم هَدْماً شديداً.

والمعنى أنّ عِظَم تلك الكلمة بحيث لو تَصوَّرَتْ بصورةٍ محسوسةٍ جسمانيةٍ لا تتحمّلها هاتيك الأجرام العِظام، بل لتفتّتت[٣] من ثِقلها، أو المراد أنّ فَظَاعتها في استجلاب الغضب واستيجاب السَّخَط بحيث لولا حِلْم الله تعالى لخَرب العالم وبدِّد قوائمه[٤] غضباً على المتفوّهين بها لأجْل ﴿أَنْ دَعَوا﴾ وسَمّوا ﴿لِلرَّحْمٰنِ﴾ الخالق لكلّ شيء ﴿وَلَداً﴾ من ذَكَر أو إناث ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا يَنبَغِى لِلرَّحْمٰنِ﴾ وما يَليق به ﴿أَنْ يَتَّخِذَ﴾ لنفسه مع كمال قُدرته وغِناه ﴿وَلَداً﴾ لاستحالته كاستحالة أخْذ الشريك، لوضوح أنه ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والأنبياء وغيرهما، وما أحدٌ منهم ﴿إِلَّا﴾ أنه ﴿آتِى ٱلرَّحْمٰنِ﴾ ومُلتجئ إليه حال كونه ﴿عَبْداً﴾ مملوكاً مُنقاداً خاضعاً، راجياً منه الإنعام والتفضّل، ولا يكون الولد عبداً لوالده، وكلّهم محاطون بعلمه وقدرته، بحيث إنّه تعالى ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ وحَصَرهم ﴿وَعَدَّهُمْ﴾ بالأشخاص والأنفاس والآجال ﴿عَدّاً﴾ بالغاً ﴿وَكُلُّهُمْ

---

١. تفسير القمي ٢: ٥٥، من لا يحضره الفقيه ٤: ٤٨٢/١٣٨، الكافي ١: ١/٢، التهذيب ٩: ٧١١/١٧٤، تفسير الصافي ٣: ٢٩٥.

٢. تفسير القمي ٢: ٥٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٦.

٣. في النسخة: تفتتت.

٤. في النسخة: قوائمها.

آتِيهِ﴾ واحداً بعد واحدٍ، كما عن الصادق عليه السلام[١] ﴿يَوْمَ القِيامَةِ﴾ للعَرض عليه ﴿فَرْداً﴾ وحيداً، لا ناصر لهم ولا تابع.

في الحديث القدسي: «كَذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وَشَتَمني ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إيّاي فقوله: لن يُعِيدَني كما بَدَأني، وأمّا شتمه إيّاي فقوله: إتَّخَذَ اللهُ وَلَداً»[٢].

أقول: إنّما يكون شتماً لأنّ فيه نِسْبَة الاحتياج.

وعن أمير المؤمنين: «أنّ الشجر لم يزل حصيداً كلّه حتى دعا للرحمن ولداً» إلى أنْ قال: «فعِنْدَ ذلك اقشعرَ الشَّجَرُ، وصارَ له شَوْك حداد»[٣].

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمٰنُ وُدّاً[٩٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان سُوء عقائد المشركين وسوء حالهم وعداوتهم للمؤمنين، ذكر حُسن حال المؤمنين ومحبوبيّتهم عند الله وعند خلقه بقوله: ﴿إِنّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانيّة الله ورسالة رسوله ودار جزائه ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ والمرضيّات عند الله ﴿سَيَجْعَلُ﴾ ويُحدِث البتّة ﴿لَهُمُ ٱلرَّحْمٰنُ﴾ برحمته الواسعة ﴿وُدّاً﴾ في القلوب وحُبّاً في الصدور بلا سببٍ ظاهرٍ سوى الإيمان والعمل الصالح، كما جعل في قلوب أعدائهم الرُّعب والهيبة منهم.

قيل: كان المؤمنون ممقوتين في مكّة عند المشركين، فوعدهم الله ذلك بعد قوّة الإسلام[٤].

وقيل: إنّ ذلك في القيامة، فإنّه تعالى يُحبّبهم إلى خَلقه بما يُعْرَض من حسناتهم[٥]، ويُنشر من ديوان أعمالهم.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله في هذه الآية: «إذا أحبّ الله عبداً نادى جَبْرَئيل: قد أحببتُ فلاناً فأحِبّوه، فينادي جَبْرَئيل بذلك في السماء والارض، وإذا أبغض فمثل ذلك»[٦].

وعن كعب الأحبار قال: مكتوب في التوراة والإنجيل: لا محبّة لأحد في الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله تعالى، ينزّلها على أهل السماء، ثمّ على أهل الأرض، وتصديق ذلك في القرآن قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمٰنُ وُدّاً﴾[٧].

وقال العلامة رضوان الله عليه في (نهج الحقّ): روى الجمهور عن ابن عباس، قال: نزلت في أمير

---

١. تفسير القمي ٢: ٥٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٧. ٢. تفسير روح البيان ٥: ٣٥٨.

٣. تفسير القمي ١: ٨٥ و٨٦، تفسير الصافي ٣: ٢٩٧، وفيهما زيادة: حذار أن ينزل به العذاب.

٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٥٥، تفسير روح البيان ٥: ٣٥٩.

٥ ـ ٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٥٥.

المؤمنين عليّ عليه السلام، قال: الودّ المحبّة في قلوب المؤمنين[١].

وقال القاضي في (إحقاق الحقّ): الرواية مذكورةٌ في (تفسير الرازي والنيشابوري) وكتاب (الصواعق المحرقة) لابن حَجَر، ونقل عنه أنّه قال: وصحّ أنّ العبّاس شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ما يَلْقَون من قريش [من] تعبيسهم وجوههم، وقطعهم حديثهم عند لقائهم، فغَضِب صلى الله عليه وآله غضباً شديداً حتى احمرّ وجهه ودرّ عِرقٌ بين عينيه، وقال: «والّذي نفسي بيده لا يدخُل قلب رجلٍ الإيمان حتى يُحبّكم[٢] لله ورسوله»[٣].

عن الصادق عليه السلام قال: «سبب نزول هذه الآية أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان جالساً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: قُل يا عليّ: اللهمّ اجعل لي في قلوب المؤمنين وُدّاً، فأنزل الله [الآية]»[٤].

وعنه عليه السلام: «دعا رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام في آخر صلاته، رافعاً به صوته، يُسمِع الناس، يقول: اللهمّ هَبْ لعليّ المودّة في صدور المؤمنين، والهيبة والعظمة في صدور المنافقين، فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية»[٥].

وعنه عليه السلام في هذه الآية، قال: «ولاية أمير المؤمنين هي الوُدّ الذي قال الله»[٦].

وعن الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام قل: اللّهمّ اجْعَلْ لي عندك عهداً، وَاجْعَلْ [لي] في قلوب المؤمنين وُدّاً، فقالهما، فنزلت الآية»[٧].

وقيل: إنّ المراد سيجعل لهم الرحمن وُدّهم، أي محبوبهم في الجنّة[٨].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾[٩٧ و ٩٨]

ثمّ أنه تعالى بعد وعيد المشركين على الشِّرك والعِصيان، ووعد المؤمنين عَلَى الإيمان والعمل الصالح، بيّن أنّهما الغرض من إنزال القرآن بلغة العرب بقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ وسهّلنا عليك فَهمه وتِلاوته بأنْ جعلناه ﴿بِلِسَانِكَ﴾ ولُغتك.

وقيل: إنّ باء (بلسانك) بمعنى عَلى، والتّيسير متضمّن معنى الإنزال، والفاء في (إنّما) فاء التعليل، والمعنى بلّغ يا محمّد هذا المُنزَل، أوْ بشّر به وأنذِر، لأنّا يسّرناه منزّلين له بلسانك ولغتك[٩] ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ

---

١. نهج الحق: ١٨٠. ٢. في النسخة: يحبهم. ٣. إحقاق الحق ٣: ٨٧.
٤. تفسير القمي ٢: ٥٦، تفسير الصافي ٣: ٢٩٧. ٥. تفسير العياشي ٢: ١٩٩٧/٣٠٢، تفسير الصافي ٣: ٢٩٧.
٦. الكافي ١: ٩٠/٣٥٨. ٧. مجمع البيان ٦: ٨٢٢، تفسير الصافي ٣: ٢٩٧. ٨. تفسير الرازي ٢١: ٢٥٦.
٩. تفسير أبي السعود ٥: ٢٨٤.

﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من الشِّرك والعِصيان بما أُعِدَّ لهم في الآخرة من الثواب العظيم ﴿وَتُنْذِرَ﴾ وتُخوِّف ﴿بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ وجَمْعاً لَجُوجاً عَنُوداً أو أشدّاء الخصومة، وفي الحديث: «أبغَضُ الرّجال الألَدّ الخصم»[١].

عن الصادق عليه السلام: «﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ يعني القرآن، و﴿قَوْماً لُدّاً﴾ يعني أصحاب الكلام والخصومة»[٢].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: «هو عليّ و﴿قَوْماً لُدّاً﴾ قال: بنو اُميّة قوماً ظَلَمة»[٣].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «فإنّما يسّره الله على لسانه حين أقام أمير المؤمنين عَلَماً، فبشّر به المؤمنين، وأنذر به الكافرين، وهم الذين ذكرهم الله في كتابه لُدّاً أي كفّاراً»[٤].

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر لَجاج القوم، هدّدهم ووعظهم بحال الأمم الماضية المُهْلَكَة بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ بالعذاب أو بالموت ﴿قَبْلَهُم﴾ وفي الأزمنة السابقة على زمانهم ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ وأهل عصرٍ من المكابرين للرُّسل بحيث لم يبق منهم عينٌ ولا أثرٌ، فَانْظُر يا محمّد ﴿هَلْ تُحِسُّ﴾ وتُدْرِك بحواسّك ﴿مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ مِنْ أولئك القُرون ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ وصوتاً خفيّاً.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية، قال: «أهلَكَ اللهُ مِنَ الأُمَمِ ما لا تُحصون، فقال: يا محمّد ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ أي ذِكْراً»[٥].

عنه عليه السلام: «مَنْ أدْمَنَ قَراءة سورة مريم، لم يَمُت حتى يُصيب ما يُغنيه[٦] في نفسه وماله وولده، وكان في الآخرة من أصحاب عيسى بن مريم، وأُعطي[٧] مِنَ الأجر مثل مُلك سليمان في الدنيا»[٨].

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٦٠.
٢. تفسير القمي ٢: ٥٦، تفسير الصافي ٣: ٢٩٨.
٣. روضة الواعظين: ١٠٦، تفسير الصافي ٣: ٢٩٨.
٤. الكافي ١: ٩٠/٣٥٨، تفسير الصافي ٣: ٢٩٨.
٥. تفسير القمي ٢: ٥٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٨.
٦. في النسخة: يغنيه ما يصيب.
٧. زاد في ثواب الأعمال: في الآخرة.
٨. ثواب الأعمال: ١٠٨، تفسير الصافي ٣: ٢٩٨.

في تفسير سورة طه

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّماوَاتِ ٱلْعُلَىٰ * ٱلرَّحْمٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ[١ ـ ٥]

ثمَ لمَا ختم سبحانه السورة المباركة ببيان تيسير القرآن على نـبيّه ﷺ للتّبْشِير والإنـذار، وهـدّد معارضيه بذكر إهلاكه الأمَم الماضية بالشرك والطغيان، أرْدَفها بسورة طه المبتدئة بالتّأكيد في بـيان غرض إنزال القرآن، المتضمّنة لذِكر هلاك فِرعون وقومه وغيره من المطالب المناسبة للسّورة السابقة المختتمة بتهديد المشركين، فَابْتَدَءَ فيها بذِكر أسمائه المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

ثمَ افْتَتَحَها بذكر الحروف المقطّعة بقوله: ﴿طه﴾ وقد مرّ في الطرفة الثامنة عشرة تأويلها، وذُكِرَ أنّها من أسماء النبيّ ﷺ، كما رُوي أنّه قال: «أنَا محمّد، وأنَا أحمد، والفاتح، والقاسم، والحاشر، والعاقِب، والماحي، وطه، ويس»[١].

وعن بعض العامة: أنّ الصادق عليه السلام قال: «إنّه قَسَمٌ بطهارة أهل البيت وهدايتهم»[٢].

وقيل: إنّه قسم بطُوبىٰ والهاوية. وقيل: بطيبة ومكّة. وقيل غير ذلك[٣].

ثمَ خاطب نبيّه ﷺ بقوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ﴾ يا محمّد ﴿لِتَشْقَىٰ﴾ وتقع في تَعَبِ الأسَف والحُزْن على كُفْر قومك، أو في تَعَبِ الجُهدِ في إيمانهم، أو في تَعَبِ العبادة بحيث تُشرِف على الهلاك.

روت العامة أنّه ﷺ صلّى باللّيل حتى تورّمت قدماه فقال له جَبْرَئيل: أبْقِ على نفسك، فإنّ لها عليك حقّاً[٤].

ورووا أنّه ﷺ كان إذا قام في[٥] اللّيل، رَبَطَ صدرَه بحبلٍ حتى لا ينام[٦].

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٦١.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ٣، تفسير روح البيان ٥: ٣٦١.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٦١.
٤. تفسير الرازي ٢٢: ٤.
٥. في تفسير الرازي: من.
٦. تفسير الرازي ٢٢: ٤.

وقيل: كان يقوم على رِجْل واحدة. وقيل: كان يسهر طول الليل[١].

والقمي عنهما عليهما السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا صلّى قام على أصابع رِجْلَيه [حتى تورّمت] فأنزل الله ﴿طه﴾ بلغة طي يا محمّد ﴿مَا أَنزَلْنَا﴾ الآية»[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله، لم تُتْعِب نفسك وقد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: أفَلا أكونُ عبداً شكوراً؟»

قال: «وكان صلى الله عليه وآله يَقُوم على أطراف أصابع رِجْلَيه، فأنزل الله: ﴿طه مَا أَنزَلْنَا﴾ الآية»[٣].

وعن الكاظم عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «لَقَد قام رسول الله صلى الله عليه وآله عَشْرَ سنين على أطراف أصابِعِه حتى تورّمت قَدَماه وَاصْفَرّ وجهه، يقوم الليل [أجمع] حتى عُوتب عليه في ذلك، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ بل لتَسْعَد بِهِ»[٤].

وقيل: إنّ السورة من أوئل ما نزل بمكّة، وكان صلى الله عليه وآله حينئذٍ مقهوراً لأعْدائه، فأُنزلت تسليةً له، والمراد أنّك لا تبقىٰ على هذه الحالة من التَعَب والمَشقّة من مُكَابَدة الأعداء، فإنّا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقىٰ شقيّاً وموهُوناً بينهم، بل لتصيرَ معظَماً مكرّماً[٥].

وقيل: إنّ جماعة من قريش قالوا للنبيّ صلى الله عليه وآله: إنّك لتشقى حيث تركتَ دين آبائك. فقال صلى الله عليه وآله: «بل بُعِثْتُ رحمة للعالمين» قالوا: بل أنت تشقى. فنزلت الآية ردّاً عليهم، وتعريفاً لمحمّد صلى الله عليه وآله بأنّ دين الإسلام هو السّلام، والقرآن سَبَبٌ لكلّ سعادة، والكفر هو الشقاء[٦].

ثمّ بيّن سبحانه حكمة إنزال القرآن بقوله: ﴿إِلَّا﴾ لِيَكُونَ ﴿تَذْكِرَةً﴾ وَعِظَةً ﴿لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ سُوء العاقبة، ويتأثّر بالآياتِ وَالنُّذُر، فإنّه المنتفع بِها.

وقيل: إنّ (إلّا) بمعنى (لكنْ)[٧].

ثمّ بيّن عِظم شأن القرآن بقوله: ﴿تَنْزِيلاً﴾ قيل: أي نزّل تنزيلاً[٨] متدرّجاً بديعاً ﴿مِمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَاوَاتِ ٱلْعُلَىٰ﴾ والمرفوعات، وهو ﴿ٱلرَّحْمٰنُ﴾ الّذي ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وسَرِيرِ المُلْك، أوْ عالم الوجود ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ وَاسْتَولى بقدرته، أو بعلمه وتدبيره، أو بفيضه المنبسط على جميع الذرّات.

عن الصادق عليه السلام يقول: «عَلَى المُلْكِ احتَوىٰ»[٩].

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ٤. ٢. تفسير القمي ٢: ٥٨، تفسير الصافي ٣: ٢٩٩.
٣. الكافي ٢: ٦/٧٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٩. ٤. الاحتجاج: ٢١٩، تفسير الصافي ٣: ٢٩٩.
٥. تفسير الرازي ٢٢: ٤. ٦. تفسير الرازي ٢٢: ٣. ٧. تفسير الرازي ٢٢: ٤. ٨. تفسير الرازي ٢٢: ٤.
٩. التوحيد: ١/٣٢١، تفسير الصافي: ٣: ٣٠٠.

لَهُ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَىٰ[٦ و ٧]

وإنّما وَصَفَ ذاته بالرحمانيّة إشعاراً بأنّ مبدأ خلق الموجودات رحمته الواسعة **﴿لَهُ﴾** تعالى **﴿مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ﴾** من الملائكة والكواكب وغيرهما **﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾** من الحيوان والنبات وغيرهما، **﴿وَما بينهما﴾** من المخلوقات في الجوّ كالهواء والسَّحاب وغيرهما **﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾** قيل: إنّه ما تحت الأرضينَ السبع[1]. وقيل: ما تحت الصخرة التي عَلَيها الأرض [السابعة][2].

عن الصادق عليه السلام: «الأرضُ على الحُوت، والحُوت على الماء، والماء على الصخرة التي عليها، والصخرة على قَرن ثورٍ أمْلَس، والثور على الثَّرى، وعند ذلك ضلّ علم العلماء»[3].

أقول: الرواية من المتشابهات المفوّض عِلْمها إليهم عليهم السلام.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «كلّ شَيء عَلَى الثرى، والثرى على القدرة، والقدرة تحمل كلّ شيء»[4].

ثمّ بيّن سبحانه سَعة علمه بقوله: **﴿وَإِن تَجْهَرْ﴾** وتُعْلِن **﴿بِٱلْقَوْلِ﴾** مِنَ الذِّكْر والدعاء، فَاعْلَم أنّه تعالى غني عن الجهر **﴿فَإِنَّهُ﴾** تعالى **﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾** والمكتوم **﴿وَأَخْفَىٰ﴾** منه.

عن الصادق عليه السلام: «السرّ: ما أكْنَنْتَه في نفسك، وأخْفَى: ما خَطَر بِبَالِك ثمّ نَسِيتَه»[5].

وقيل: إنّ الأخفى ما ستسرّه فيما بعد ولا تَعْلَمْه[6].

ٱللَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْماءُ ٱلْحُسْنَىٰ * وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ رَأَىٰ نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا إِنِّى ءَانَسْتُ نَاراً لَعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدىً * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَامُوسَىٰ * إِنِّىٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوىً[٨ـ١٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان كماله في الذات والصفات، أعْلَن بتوحيده في الأُلوهيّة بقوله: **﴿ٱللَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾** لا تنحصر أسماؤه وصفاته فيما ذكر، بل **﴿لَهُ ٱلْأَسْماءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾** والصفات العُليا كلّها، وفي الإتيان بضمير الغائب مع حضوره عند كلّ شيء، إشْعار بغيبة ذاته وحقيقته عن دَرْك الحواسّ

---

١ و ٢. تفسير أبي السعود ٦: ٥.
٣. تفسير القمي ٢: ٥٩، تفسير الصافي ٣: ٣٠٠.
٤. الخصال: ١/٥٩٧، تفسير الصافي ٣: ٣٠٠.
٥. معاني الأخبار: ١/١٤٣، تفسير الصافي ٣: ٣٠٠.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٣٦٦، وفيه: ما ستسرّه فيما سيأتي، أي ما يلقيه الله في قلبك من بعد، ولا تعلم أنك ستحدّث به نفسك.

والعقول.

ثمَ أنَه تعالى بعد ذِكْر لطفه بنبيِّه ﷺ ذَكَرَ ألطافه بموسى بن عمران الذي هو دونه في القرب منه، تقويةً لقلبه الشريف، وتحريضاً له على تحمّل أعباء الرسالة، وتقريراً لأمْر التوحيد بقوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ وبلغك ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ عن ابن عباس: ألَيس قد أتاك خبره؟[1] وفي هذا الاستفهام المبالغة في إعجاب قصّته ﴿إِذْ رَأَىٰ نَاراً﴾ رُوي أنّ موسى عليه السلام تزوّج صفوراء بنت شُعيب، ثمَ أستأذن منه في الخروج من مَدْيَن لزيارة اُمّه وأخيه هارون في مِصر، فخرج بأهله، وأخذ على غير طريق خوفاً من مُلوك الشام، فلمّا أتى وادي طُوى، وهو بالجانب الغربي من الطُّور، وُلِد لَه وَلَد في ليلةٍ مظلمةٍ ذات بَردٍ وشِتاءٍ وثَلْجٍ، وكانت ليلة الجمعة، فَقَدَحَ زَنْدَه، فلم تخرُج منه نار[2].

وقيل: كان موسى عليه السلام غَيوراً يَصْحَب الناس بالليل ويُفارقهم بالنهار، لئلّا يَرَوا امرأته، فَلِذا أخطأ الرُّفقةَ والطَّريقَ، فبينما هو في ذلك، إذ رأى ناراً من بعيدٍ على يسار الطريق من جانب الطُّور، فظنّ أنّها من نِيران الرُّعاة[3] ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ وصَحْبه من امرأته وولده وخدمه: ﴿امْكُثُوا﴾ وتوقّفوا في مكانكم، ولا تتبعوني ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ وشاهدتُ من البعيد ﴿نَاراً﴾ فَأذهبُ إليها ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ وشُعْلَةٍ أوْ جَذْوَة ﴿أَوْ أَجِدُ﴾ بالسّؤالِ من القاعدين والمُشْرِفين ﴿عَلَى النَّارِ﴾ عن الطريق ﴿هُدًى﴾ ورشاداً إليه، أوْ ما اهتدي به من دليل وعلامة ﴿فَلَمَّا﴾ فارقَ أهله، وأسرعَ إلى النار و﴿أَتَاهَا﴾ وَانْتَهى سَيْرُه إليها.

عن ابن عبّاس: رأى شجرة خضراء، أحاطتْ بِها من أسفلها وأعلاها نارٌ بيضاء تتّقد كأضوء ما يكون، ولم يَرَ هناك أحداً، فوقف متعجّباً من شدّه ضوء تلك النار، وشدّة خُضْرة تلك الشجرة، فَلَا النّار تغيّر خُضْرَتها، ولا كثرة ماء الشجرة تغيّر ضوءَ النار، فسَمِع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً تكلّ الأبصار عنه، فوضع يديه على عينيه، وخاف وبُهِتَ، فاُلقيت عليه السكينة والطُّمأنينة[4]، فعند ذلك ﴿نُودِيَ﴾ وقيل: ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ لا تَخَفْ ولا تحزن وليطمئنَ قلبك ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ اللَّطِيف بك.

وعن وهب: ظَنّ موسى عليه السلام أنّها نار أوقدت، فأخذ من دقائق الحطب ليقتبس من لهبها، فمالت إليه كأنّها تُريده، فتأخّر عنها وهَابَها، ثمَ لم تزل تُطمِعه ويَطْمَع فيها، ثم لم يكن أسرع من خُمودها كأنّها لم تكُن، ثمّ رمى موسى عليه السلام بنظره إلى فَرْعها، فإذا خُضرتها ساطعة في السّماء، وإذا نورٌ بين السماء والأرض له شُعاع تكِلّ عنه الأبصار، فلمّا رأى موسى عليه السلام ذلك وضع يده على عينيه، فنودي:

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٤.

٢ و٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٦٩.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٦٩.

يا موسى[١].

وعن الباقر عليه السلام: «فأقبل نحو النار يقتبس، فإذا شجرة ونار تلتهب عليها، فلمّا ذهب نحو النار يقتبس منها أهوت إليه ففَزِع [منها] وعَدا، ورَجَعَتِ النّارُ إلى الشجرة، فالتفت إليها وقد رجعت إلى الشجرة، فرجع الثانية ليقتبس، فأهوتْ إليه فَعَدا وَتَرَكَها، ثمّ التفت وقد رجعت إلى الشجرة، فرجع إليها الثالثة فَأهْوت إليه فَعَدا ولم يعقّب، أي لم يرجِع، فناداه الله عزّ وجلّ» الخبر[٢].

رُوي أنّه لمّا نُودي موسى عليه السلام قال عليه السلام: مَنِ المتكلّم؟ فقال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنّي أَنَا رَبُّكَ﴾ فَوَسْوَسَ إليه إبليس: لَعَلَّك تَسْمَع كلامِ الشيطان، فقال عليه السلام: أنَا عرفت أنه كَلامُ الله تعالى بأنّي أسمعه من جَميع الجهات بجميع الأعضاء[٣].

قيل: تلقّى موسى عليه السلام كلامَ ربّه تلقّياً روحانياً، ثمّ تمثّل ذلك الكلام لِبَدَنِه، وانتقل إلى الحسّ المشترك، فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة[٤].

ثمّ قال: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ من رِجليك ﴿إِنَّكَ﴾ تكون ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المطهّرُ من كلّ دَنَسٍ وسُوء، اسمه ﴿طُوىً﴾ وقيل: طِوىً كَثِنىً لفظاً ومعناً، والمعنى نُودي مرّتين، أو المُقدّس قدّس مَرّة بعد اُخرى[٥].

وعن ابن عبّاس: يعني الوادي المقدّس الذي طَوَيْتَه[٦].

في تأويل قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾

رُوي أنّه عليه السلام خَلَعَهُما وألْقاهُما وراءَ الوادي[٧]. وإنّما أُمِر بالحَفْوة لأنّها ادْخَل في التواضع وحُسنِ الأدب، أو لتعظيم الوادي، أو ليُباشر الوادي بقَدَمَيْه تبرّكاً به.

وقيل: لكون نَعْليه من جِلد حِمار غير مذبوحٍ، روته العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام وجمع من المفسّرين[٨].

وعن الصادق عليه السلام قال: «إنّه اُمر بِخَلْعِهما لأنّهما كانتا من جِلد حمارٍ ميّت»[٩].

وقيل: خَلْع النعلين كناية عن تَفْرِيغ القلب من حبّ الأهلِ وَالمال[١٠].

وعن القائم عليه السلام - في حديث - قيل له: أخبِرني يا [ابْنَ] رسول الله عن أمْر الله لنبيّه موسى عليه السلام ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾ فإنّ فقهاءَ الفَرِيقَيْن يَزعُمون أنّها كانت من إهاب المَيْتَة؟

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٦.
٢. تفسير القمي ٢: ١٤٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠١.
٣ و٤. تفسير أبي السعود ٦: ٧.
٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٨، تفسير أبي السعود ٦: ٧.
٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٨.
٧. تفسير أبي السعود ٦: ٧، تفسير روح البيان ٥: ٣٧١.
٨. مجمع البيان ٧: ١٠، جوامع الجامع: ٢٨٠، تفسير الرازي ٢٢: ١٧، تفسير ابن كثير ٣: ١٥١، الدر المنثور ٥: ٥٥٨.
٩. تفسير القمي ٢: ٦٠، علل الشرائع: ١/٦٦، تفسير الصافي ٣: ٣٠١.
١٠. تفسير أبي السعود ٦: ٧.

قال عليه السلام: «من قال ذلك فَقَدِ افْتَرى عَلى موسى عليه السلام وَاستَجْهَلَه في نبوّته؛ لأنه ما خَلا الأمرُ فِيها من خَصلتين[1]: إمّا أنْ تكونَ صلاته فيها جائزة [أو غير جائزة]، فان كانت صلاته جائزة جاز له لُبْسها في تلك البُقعة إذا لم تكن مقدّسة، وإنْ كانت مُقدّسة مُطهَرة فليست بأقدس وأطْهَر من الصلاة. وإن كانت صلاته [غير] جائزة فيها، فقد أوجب على موسى أنّه لا يعرِف الحلال من الحرام، ولم يعلم ما جاز فيه الصلاة وما لم يَجُز، وهذا كفرٌ».

قيل: فأخبرني يا مولاي عن التأويل فيها. قال (صلوات الله عليه): «إنّ موسى ناجى ربّه بالوادي المقدّس فقال: يا ربّ إنّي [قد] أخلصتُ لك المحبّة منّي، وغسلت قلبي عمّن سِواك، وكان شديد الحبّ لأهله، فقال الله: اخْلَعْ نَعْلَيْك، أي انزع حُبّ أهلك من قلبك إنْ كانت محبّتك لي خالصةً، وقلبك من المَيل إلى سواي مغسولاً»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «يعني ارفع خوفَيك؛ يعني خوفه من ضَياع أهله وقد خلّفها تَمْخَض، وخوفه من فِرعون»[3].

وقيل: يعني فاتْرُك الالتفات إلى الدنيا والآخرة، وكُنْ مستغرقاً في محبّة الله، ويكون المراد بالواد المقدّس قُدْس الله تعالى[4].

وقيل: إنّ موسى كان يلبَس النَّعْلين لحِفظ رجليه عن النَّجَاسة وعن هَوامّ الأرض، فقال سبحانه: اخلع نعليك فإنّ هذا الوادي مقدّس ومطهّر من النجاسات، وآمنٌ من لَدْغ الهوام[5].

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنَّنِى أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِى [١٣ و ١٤]

ثمّ نصبه الله سبحانه للرسالة بقوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ وَاصْطَفَيْتُكَ لِرِسالتي ولمناجاتي ﴿فَٱسْتَمِعْ﴾ يا موسى ﴿لِمَا يُوحَىٰ﴾ إليك من قبلي.

قيل: في قوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ إظهارٌ لغاية لُطفه، وفي قوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ إظهار لغاية مَهابته، فكأنّه قال: قد جاءك أمرٌ عظيمٌ من قبلنا، فتأهّب له واصرِف جميع قُواك وجَوارحك إليه[6].

ويُحتمل تعلّق قوله: ﴿لِمَا يُوحَىٰ﴾ بقوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ وكون (ما) مصدريّة، والمعنى: أنا اخْتَرْتُك لِوَحْيِي، وأهمّهُ ﴿إِنَّنِى أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ﴾ ولا معبودَ بالاسْتِحْقاق في عالم الوجود ﴿إِلَّآ أَنَا﴾

---

١. في كمال الدين: خطيئتين.
٢. كمال الدين: ٢١/٤٦٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠٢.
٣. علل الشرائع: ٢/٦٦، تفسير الصافي ٣: ٣٠٢.
٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٧، تفسير روح البيان ٥: ٣٧٠.
٥. مجمع البيان ٧: ١٠.
٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٩.

وحدي لا شريك لي في العبادة، فإذا كان كذلك ﴿فَاعْبُدْنِى﴾ وخُصّني بالعبادة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ خصوصاً ﴿لِذِكْرِى﴾ وتَوَجَّه بقلبك[١] إليّ في الأوقات، فإنّها أهمّ العبادات، فإنّها ذِكرٌ ودُعاءٌ ورُكوعٌ وسُجود.

وقيل: يعني لأنّي ذَكَرتُها في الكتب السماوية وأمرتُ بها[٢]. وقيل: يعني لإخلاص ذِكْرِي وطلب وَجْهِي، لا تُرائي بها ولا تَقْصِد غرضاً آخر بفعلها[٣].

وقيل: يعني لأن أذكُرك بالمدح والثناء[٤]. وقيل: لأوقاتِ ذِكْرِي، وهي مواقيت الصلاة[٥]. وقيل: يعني أقِم الصّلاة حين تَذْكُرها[٦].

عن أنس، عن النبي ﷺ، أنه قال: «من نسي صلاةً فليُصلّها إذا ذكرها، لا كفّارة لها إلّا ذلك»[٧].

أقول: وعليه يكون في الكلام حَذْفٌ، والتقدير: لذِكر صلاتي.

عن الباقر عليه السلام: «إذا فاتتك صلاة فذَكَرتها في وقتِ اُخرى، فإنْ كنتَ تَعْلَم [أنك] إذا صلّيت التي فاتتك كنتَ من الأخرىٰ في وقتٍ، فَابْدَأ بالتي فاتتك فإنّ الله يقول: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى﴾»[٨].

وعنه عليه السلام: «معناه أقِمِ الصّلاة متى ذكرت أنّ عليك صلاةً، كنتَ في وقتها أو لم تَكُن»[٩].

﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [١٥ و ١٦]

ثمّ نبّه سبحانه على علّة وجوب العبادة والصلاة بقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ والقيامة ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ وكائنةٌ لا مُحالة، وهي لكَثرة أهوالها وغاية عِظَمها ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ واستُرها عن كُلّ أحدٍ، ولكنّ اللُّطف ولُزوم قطع الأعذار اقتضى إظهارها.

وقيل: يعني اُريدُ أخفي وقتها، ليكونَ الناس على حَذَرٍ منها في جميع الأوقات[١٠].

وقيل: يعني لو صحّ إخفاؤها من نفسي لأخفيتها عنّي، فكيف اُظهِرها لكم؟ وفيه غاية المبالغة في لُزوم إخفائها عن النّاس[١١].

وقيل: يعني أكادُ اُظهرها[١٢] بإتيانها ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ في تلك الساعة ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ وتَعْمَل إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرّاً فشرٌّ.

---

١. في النسخة: قلبك.
٢ ـ ٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٩.
٥ و ٦. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠.
٧. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠.
٨. الكافي ٣: ٢٩٣/٤، تفسير الصافي ٣: ٣٠٢.
٩. مجمع البيان ٧: ١٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠٣.
١٠. تفسير روح البيان ٥: ٣٧١.
١١ و ١٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢٢.

وقيل: يعني لتجزي كلّ نفس بسعيها في الأمور المأمور بها[1].

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ ولا يَمْنَعك عن تذكّرها والتَهْيئة لها، أو لا يَمْنَعك عن الصلاة ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وَسَعى في موافقة مَيْل نفسه ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ وتَهْلِك، إذَن فَإِنّ الغَفْلَة عن تحصيل ما يُنْجِي من أهوال الساعة، أو عن الصلاة والقيام بوظيفة العبوديّة، موجبةٌ للهلاك في الآخرة.

وقيل: إنّ المخاطب من قوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ إلى هنا هو خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله[2].

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ [١٧ ـ ٢١]

ثمّ قيل: إنّ المهابة لمَا عَظُمتْ في قلب موسى عليه السلام، أراد سبحانه اسْتِئناسه[3] بقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ مأخوذةً ﴿بِيَمِينِكَ﴾ ويدك، وفي السؤال تنبيهٌ له على ما سيبدو له من التعاجيب[4].

ثمّ كرّر الخطاب بقوله: ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ ازدياداً للتّأنيس وإظهاراً لغاية اللُّطف ﴿قَالَ﴾ موسى: يا ربِّ ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ وفائدتها إنّي ﴿أَتَوَكَّؤُا﴾ وَأعْتَمِد ﴿عَلَيْهَا﴾ وعند الإعْياء، أو حين الوقوف على رأس القَطِيع ﴿وَأَهُشُّ﴾ وأسقط ﴿بِهَا﴾ الوَرَقَ من الأشجار ﴿عَلَىٰ غَنَمِي﴾ لِتَأكُلَ منه.

القميّ: ثمّ من الفَرَق لم يستطع الكلام فجمع كلامه[5] وقال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ﴾ وحوائج ومنافع ﴿أُخْرَىٰ﴾ غير ذلك.

وقيل: إنّه عليه السلام أجْمَل في الجواب رجاء أنْ يسأله ربّه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله مرّة اُخرى[6].

وقيل: إنّه قال موسى عليه السلام: إلَهي ما هذه العصا إلّا كغيرها لكنّك لمَا سألت عنها عرفت أنّ لي فيها مآرب اُخرى منها: أنّك كلّمتني بسببها[7].

رُوي أنّه كان إذا سار وَضَعَها على عاتقه فعلّقَ بِها أدواته، وإذا أقام في البريّة رَكَزَها وعَرَضَ الزَّنْدَيْن على شُعْبَتَيْها فَاشْتَعَلَتا، وألقى عليها كساءه واستَظَلّ به، وإذا تعرّضت السباع لغنمه قاتلها بها[8].

قيل: إنّه فَهِم من السؤال بيان حقيقتها وتفصيل منافعها، حتى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة،

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ٨.
٢. تفسير أبي السعود ٦: ٨.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٧٤.
٤. أي العجائب، وفي النسخة: التعاجب.
٥. تفسير القمي ٢: ٦٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠٤.
٦ و٧. تفسير الرازي ٢٢: ٢٧.
٨ و٩. تفسير أبي السعود ٦: ١٠.

وبَدَت منها خواص بديعة، عَلِم أنهاآياتٌ باهرة. أو كان المقصود إزالة الرهبة والمهابة من قلب موسى عليه السلام والاستئناس به[١].

ثمّ كأنّه قيل: ماذا قال الله إذن؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿قَالَ﴾ الله ﴿أَلْقِهَا﴾ مِنْ يدك ﴿يَامُوسىٰ﴾ على الأرض، لترى منها ما لم يَخْطِر بقلبك ﴿فَأَلْقَاهَا﴾ من غير رَيْثٍ ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾ عظيمةٌ وثعبانٌ جسيمٌ، وهي مع غاية عِظَم جُثّتها ﴿تَسْعىٰ﴾ وَتَمْشِي عَلَى الأرض بسرعةٍ وجلادةٍ كالحيّة الصغيرة.

وفي رواية: أنه عليه السلام لمّا ألقاها انقلبت حيّةً صفراء في غِلَظ العصا، ثمّ انتفخت وعَظُمت، فلذلك سُمّيت بالجانّ تارةً، وبالثعبان اُخرى[٢].

قيل: كان لها عُرف كعُرف الفَرس، وكان بين لَحْيَيها أربعون ذراعاً، وابتلعت كلّما مرّت به من الصخور والأشجار حتى سَمِع موسى صرير الحجر في فَمِها وجَوْفها[٣]، فخافها وولّى مُدبراً، فناداه ربّه و﴿قَالَ﴾: يا موسى ﴿خُذْهَا﴾ بيدك ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ منها إنّا ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾ وحالتها ﴿الْأُولَىٰ﴾ التي كانت عليها.

قيل: لمّا قال الله: ﴿لَا تَخَفْ﴾ بلغ اطمئنان موسى إلى أنْ أدْخَلَ يده في فمها وأخذ بلِحْيَيها[٤].

وفي رواية: أنه أدْخَل يده بين أسنانها، فانقلبت خَشَبةً[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «ففَزِع منها موسى وعدا، فناداه الله عزّ وجلّ: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ الآية»[٦].

قيل: إنّ حكمة قلب العصا حيّة في ذلك الوقت معرفة موسى نبوّة نفسه بها[٧]، لاحتمال كون النداء من باب إظهار غاية اللُّطف وعدم خوفه بعد مشاهدة ذلك الأمر من وقوعه عند فِرعون وقوّة قلبه في الدعوة، وعِلْمه بِأنّ الله القادر على قلب العصا ثُعباناً، قادرٌ على نُصرته في إظهار الدين وإعلاء كلمة الحقّ.

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ * اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي [٢٢ـ٢٨]

ثمّ أراه الله آيةً اُخرى على نبوّته بقوله: ﴿وَاضْمُمْ﴾ ومُدّ ﴿يَدَكَ﴾ اليُمنى ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ وإبْطك وأدْخِلها في جَيْبك ﴿تَخْرُجْ﴾ يدك إذَن منه حال كونها ﴿بَيْضَاءَ﴾ بقدرة الله ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٧٤.
٢. تفسير أبي السعود ٦: ١٠.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢٨.
٤ و٥. تفسير الرازي ٢٢: ٢٩.
٦. تفسير القمي ٢: ١٤٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠٤.
٧. تفسير الرازي ٢٢: ٢٨.

ومرض بَرَصٍ تكون هذه ﴿آيَةً أُخْرَىٰ﴾ على قدرتي، ونبوّتك، ومعجزةً قاهرةً غير انقلاب العصا حيّة.

رُوي أنّه عليه السلام كان شديد الأدْمَة، فكان إذا أدخل يده اليُمنى في جيبه وتحت إبطه الأيسر وأخرجها كانت تُبرِق مثل البرْق ـ وقيل: مثل الشمس ـ من غير بَرَص، ثمّ إذا ردّها عادت إلى لونها الأول بلا نُور[1].

وعن الصادق عليه السلام: «﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من غير علّة، وذلك أنّ موسى عليه السلام كان شديد السُّمْرَة، فأخرج يده من جيبه، فأضاءت له الدنيا»[2].

وإنّما فعلنا ما فعلنا من إظهار الآيتين ﴿لِنُرِيَكَ﴾ بها بعضاً ﴿مِنْ آيَاتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ﴾ قيل: إنّ المعنى لنريك الكبرى من آياتنا[3].

ثمّ أنّه تعالى بعد إعطائه الآيتين أمره بالرّسالة بقوله: ﴿إِذْهَبْ﴾ يا موسى، للدعوة إلى التوحيد والتحذير من الطُّغيان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ملك مِصر بهاتين الآيتين ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ وتجاوز عن الحدّ في الكفر والطغيان.

عن وهب، أنّه قال: قال الله تعالى لموسى: إسمع كلامي، واحْفظ وصيّتي، وانطلق برسالتي، فإنّك بعيني وسمعي، وإنّ معك يدي ونَصري[4]، وإنّي ألبستك جُنّةً من سُلطاني[5] لتستكمل بها القوّة في أمري، أبعثك إلى خلقٍ ضعيفٍ من خَلْقي، بَطِر بنعمتي، وأمِن مَكْرِي، وغرّته الدنيا حتى جَحَد حقّي، وأنكر ربوبيتي، وسقط عن عيني، فبلّغه عنّي رسالتي، وادعُه إلى عبادتي، وحذّره نِقمتي، إلى أن قال: فسكت موسى سبعة أيّام لا يتكلّم، ثمّ جاءه مَلَك فقال: أجِب ربّك في ما أمرك[6].

فلمّا كلّف موسى عليه السلام بهذا التكليف الشاقّ ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ووسّع قلبي بحيث لا يَضيق بسَفاهة المعاندين ولَجاج العاتين، أو زِدْ حِفْظي وذَكائي وجَودة ذِهني حتى أحْفَظ ما تُنزل من الوحي وأفهمه، أوْ قَوِّ قلبي حتى أجترئ على مخاطبة فِرعون وقومه ومعارضتهم.

﴿وَيَسِّرْ لِي﴾ وسهّل عَلَيّ ﴿أَمْرِي﴾ من الدعوة والتبليغ بتهيئة الأسباب ورفع الموانع ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً﴾ قليلة، وأزِل لُكْنةً يسيرةً ﴿مِن لِسَانِي﴾ كَي ﴿يَفْقَهُوا﴾ ويَفْهَموا ﴿قَوْلِي﴾ وكلامي عند تبليغ الرسالة، ولا يَشُقّ عليّ مكالمة فِرعون ومَلَئِه.

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ٣٠.
٢. تفسير القمي ٢: ١٤٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠٤.
٣. جوامع الجامع: ٢٨٠.
٤. في تفسير الرازي: وبصري.
٥. في النسخة: جبّة سلطاني.
٦. تفسير الرازي ٢٢: ٣٠.

قيل: كانت اللُّكنة بخِلْقة الله تعالى[١]. وقيل: كانت من جَمْرةٍ أدخلها فاه[٢].

رُوي أنّ فِرعونَ حمله يوماً، فأخذ لِحيته ونَتَفَها، لمّا كانت مرصّعة بالجواهر، فغَضِب وقال: إنّ هذا عدوّي المطلوب، وأمَر بقتله، فقالت آسية زوجته: أيّها المَلِك، إنّه صبيّ لا يُفرّق بين الجَمر والياقوت، فأُحضرا بين يدي موسى، بأنْ جُعِل الجَمْر في طَشْت والياقوت في آخر، فقصد إلى أخذ الجوهر، فأمالَ جَبْرَئيل يده إلى الجَمْر، فرفعه إلى فيه، فاحْتَرق لسانه، فكانت منه لُكْنةٌ وعُجْمة[٣].

وعن الباقر عليه السلام ـ في رواية ـ: «ولمّا دَرَج موسى عليه السلام كان يوماً عند فِرعون فعَطَس فقال: الحمد لله ربّ العالَمِين، فأنكر فِرعون ذلك عليه ولَطَمه، وقال: ما هذا الذي تقول؟ فوثب موسى عليه السلام على لِحيته عليه السلام وكان طويل اللحية، فهَلَبها ـ أي قَلَعها ـ فآلمه ألماً شديداً، فهمّ فِرعون بقتله، فقالت له امرأته: هذا غُلامٌ حَدَثٌ ما يدري ما يقول. فقال فِرعون: بل يدري. فقالت له: ضَعْ بين يديك تَمْراً وَجَمْراً، فَإنْ ميّز بين الجَمْرِ والتّمر فهو الذي تقول، فَوضَعَ بين يديه تَمراً وجَمراً وقال له: كُلْ، فمدّ يده إلى التّمر فجاء جَبْرَئيل فصَرَفها إلى الجَمْر، فأخذ الجَمر في فيه فَاحْتَرقَ لسانه، وصاح وبكى. فقالت آسية: ألَم أقُلْ لَكَ أنه لم يَعْقِل؟ فعفا عنه»[٤].

ثمّ أنّ بعض العامة قال: لم يحترق بيده ولا لسانه، لكون يده آلة أخْذ العصا، ولسانه آلة ذكْرِ الله، ومنهم من قال: احترقت يده ولم يحترق لسانه، ومنهم من قال بالعكس، ومنهم من قال احترقا معاً[٥].

أقول: الأظهر من الروايتين هو القول الثالث.

﴿وَٱجْعَل لِى وَزِيراً مِنْ أَهْلِى * هَارُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَىٰ﴾ [٢٩ ـ ٣٦]

ثمّ أنّه تعالى بعد سؤال قوّة قلبه ولسانه، سأل تقويته في تحمُّل أعباء الرسالة بجعل المُعِين له بقوله: **﴿وَٱجْعَل لِى وَزِيراً﴾** ومُعِيناً كائناً **﴿مِنْ أَهْلِى﴾** وأقربائي وخواصّي المتسببين إليّ في تحمُّل أعباء الرسالة، ولمّا كان التعاون في أمر دينك درجةً عظيمةً يكون الأحَقّ به **﴿هَارُونَ﴾** الذي يكون **﴿أَخِى﴾** من أبي وأمّي **﴿ٱشْدُدْ﴾** واحكَم **﴿بِهِ أَزْرِى﴾** وقوّتي عَلَى التبليغ، أو قَوِّ به ظَهْري **﴿وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى﴾** ومَنْصِبِي وشُغْلي من الرسالة والتبليغ **﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ﴾** ونُنَزِّهك عمّا لا يليق بك تسبيحاً

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٢: ٤٧.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٧٩.

٤. تفسير القمي ٢: ١٣٦، تفسير الصافي ٣: ٣٠٥.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ٤٧.

وتنزيهاً ﴿كَثِيراً﴾ دائماً ﴿وَنَذْكُرَكَ﴾ بصفات الجلال والجمال ذِكْراً ﴿كَثِيراً﴾ فَإنّ التعاون يهيّج الرَّغَبات ويُؤثّر في تكاثر الخيرات ﴿إِنَّكَ﴾ يا مولاي ﴿كُنْتَ بِنَا﴾ وبمصالحنا، أو بما في قلوبنا من الخُلوص في الطاعة، أو بغرضنا من الاستعانة ﴿بَصِيراً﴾ وعليماً.

قال العلامة (رضوان الله عليه) في (نهج الحق): وفي (مسند أحمد) قال رسول الله ﷺ: «اللّهم إنّي أقولُ كَما قال أخي مُوسى: إجْعَل لي وَزِيراً مِنْ أهْلِي علياً أخي اُشْدُدْ بِهِ أزْرِيَ وأشْرِكْهُ في أمْرِي»[1].

في ردّ بعض روايات العامة وإبطالها

أقول: وقد اشتهر بين العامّة والخاصّة قوله ﷺ لعلي: «أنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسى إلّا أنه لا نَبيّ بَعْدِي»[2] ومن العجب أنّه مع ذلك روى بعض العامّة أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ لِي فِي السَّماءِ وَزِيرَيْنِ، وَفِي الأرْضِ وَزِيرَيْنِ، فَاللّذانِ في السَّماء: جَبْرَئيل وميكائيل، واللّذانِ فِي الأرْضِ: أبو بكر وعمر»[3]،

فَإنّ هذه الرواية تُنافي الخبرين المعتبرين السابقين المعتضدين بقوله ﷺ: «لأعطِيَنّ الراية غداً رجلاً يُحِبّ الله ورسولَه، ويُحِبّه الله ورَسُولُه»[4] وقوله في حديث الطائر: «اللّهمّ ائتِني بأحَبِّ خَلْقِكَ إلَيْك»[5].

والحاصل: أنه لا شُبهة أنّ علياً عليه السلام كان أخا الرسول ﷺ، وأخَصّ أهْلِه، وأحبّ الخلق إليه، لكونه أحبّ الخلِق إلَيه تعالى، ووصيّة كما كان يُوشع بن نُون وصيّ موسى، وكانا من شجرةٍ واحدةٍ، وكان نُورهما واحداً، وكان أعلم الصحابة وأعقلهم وأقضاهم بحيث قال عمر: «لا قضيّة لا يكون فيها أبو الحسن» «ولولا عليّ لَهَلَكَ عمر»[6]، وكان من النبيّ ﷺ بمنزلة هارون من موسى، ولم يكْفُر بالله طَرْفَة عين، وقال: «سَلُوني»[7] ولم يسأل هو عن أحدٍ غير النبيّ ﷺ، وكان حامل لوائه ومُبلّغ براءة عنه، ولم يُخالفه في شيء، إلى غير ذلك ممّا لا يُحصى من مَحامده، ومع ذلك كيف يمكن أن تكونَ وِزارته

---

١. نهج الحق: ٢٢٩، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢: ١١٥٨/٦٧٨.

٢. صحيح البخاري ٥: ٢٠٢/٨٩، صحيح مسلم ٤: ٢٤٠٤/١٨٧٠، سنن الترمذي كتاب المناقب ٥/٣٧٣٠، مستدرك الحاكم ٣: ٣٣٧، مسند احمد ١: ١٧٣، ١٧٥، ١٨٢، ١٨٤، ٣٣١، مصابيح السنة ٤: ٤٧٦٢/٧٠، جامع الأصول ٩: ٦٤٧٧/٤٦٨، أمالي المفيد: ٢/٥٧، أمالي الطوسي: ٤٥٣/٢٥٣، الكافي ٨: ٨٠/١٠٧.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ٤٨، تفسير روح البيان ٥: ٣٨٠.

٤. صحيح البخاري ٥: ١٩٧/٨٧ و١٩٨، وص ٢٣١/٢٧٩، صحيح مسلم ٤: ٣٢/١٨٧١ ـ ٣٤، سنن الترمذي ٥: ٣٧٢٤/٦٣٨، سنن ابن ماجة ١: ١١٧/٤٣، مسند أحمد ١: ١٨٥ و٥: ٣٥٨ وغيرها.

٥. سنن الترمذي ٥: ٣٧٢١/٦٣٦، خصائص النسائي: ٥ ، فضائل الصحابة لأحمد ٢: ٩٤٥/٥٦٠، مستدرك الحاكم ٣: ١٣٠ ـ ١٣٢، مصابيح السنّة ٤: ٤٧٧٠/١٧٣، أُسد الغابة ٤: ٣٠.

٦. الاستيعاب بهامش الاصابة ٣: ٣٩.

٧. نهج البلاغة بتحقيق صبحي الصالح: ٢٨٠ الخطبة ١٨٩، الاستيعاب ٣: ٤٣.

للأبْعَدَيْن الأجْهَلَيْن، اللذين عَبَدا الصَّنَم في أكثر عُمرهما، وكانا يَتعلّمان من كَعْبِ الأحبار وأبي هُريرة وأضْرابهما، وكانت النساء أفقه منهما[١]، إلى غير ذلك من مَثالبهما، ثمّ كيف كان أبو بكر مُعِيناً له في التبليغ مع عدم أهليّته لتبليغ براءة؟

ثمّ ﴿قَالَ﴾ الله إجابةً لدُعائه: ﴿قَدْ أُوتِيتَ﴾ وأُعطيت من قِبلنا ﴿سُؤْلَكَ﴾ ومطلوبك ﴿يَا مُوسىٰ﴾ قيل: أزال الله لُكْنة لسانه بالكُلّيّة[٢]، وقيل: أزال أكثرها[٣]، وجعل له هارون وزيراً، وكان أكبر سنّاً وأفصح لِساناً منه.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِى وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى [٣٧ـ ٣٩]

ثمّ قوّى سبحانه قلبه وهيّجه على القيام بوظيفته بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ وأنعمنا ﴿عَلَيْكَ﴾ لُطفاً وتفضّلاً بالنعم الكثيرة ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ في بدو ولادتك ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا﴾ بعد ولادتك ﴿إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ وألْهَمناها، أو قلنا لها في الرؤيا، أو بتوسّط المَلَك الذي تمثّل لها كما تمثّل لمريم ﴿مَا﴾ يجب أن ﴿يُوحَىٰ﴾ ويُنبّه من الأمر العظيم اللازم الوقوع، أو ما لايمكن أن تعلم به إلّا بالوحي، وهو أنّه لمّا خافتْ اُمّك عليك من فِرعون، أوْحَيْنا إليها ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ وَضَعِيه ﴿فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ والصُّندوق ﴿فَاقْذِفِيهِ﴾ وألْقِيهِ مَعَ التّابوت ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ ونهر النِّيل ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ بعد ذلك ﴿ٱلْيَمُّ﴾ والنهر بمَوْجِه ﴿بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ﴾ عند ذلك فِرعون الذي هو ﴿عَدُوٌّ لِّى﴾ لكُفره وطُغيانه ﴿وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ لكونه من الخوف منه بصدد قتله.

روي أنّ اُمّ موسى جعلت في التابوت قُطْناً، ووَضَعت موسى فيه، ثمّ أحكمته بالقِير لئلّا يدخُلَ فيه الماء، وألْقَتْهُ في اليَمّ، وكان يدخُل منه إلى بُستان فِرعون نهرٌ، فدفعه الماءُ إليه، فأتى به إلى بِركةٍ في البُستان، وكان فِرعون جالساً ثمّةَ مع آسية بنت مُزاحم، فأمر به فاُخرج، ففُتِح فإذا هو صبيّ أصبَحُ الناس وجهاً، وسمّاه موسى لمّا وجده في الماء عند الشجرة، فإنّ كلمة (مو) على ما قيل بالقِبطيّة الماء، وكلمة (سا) هو الشجر[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ موسى عليه السلام لمّا حملته اُمّه لم يظهر حَمْلها إلّا عند وضعه، وكان فِرعون قد

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٨٢، و١٢: ٢٠٨، و١٧: ١٧١.

٢ و٣. تفسير الرازي ٢٢: ٤٨.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٣.

وكَل بنساء بني إسرائيل نساءً من القِبط تَحْفَظهنّ، وذلك لمّا كان بلغه عن بني إسرائيل أنّهم يقولون إنّه يُولَد فينا رجلٌ يقال له موسى يكون هلاك فِرعون وأصحابه على يديه، فقال فِرعون عند ذلك: لأقتلنّ ذكور أولادهم حتّى لا يكون ما يُريدون، وفرّق بين الرجال والنساء، وحبس الرجال في المحابس، فلمّا وضعت اُمّ موسى بموسى نَظَرتْ إليه فحَزِنتْ واغْتَمّتْ وبَكَتْ، وقالت: يُذبح الساعة، فعطف الله قلب الموكّلة بها عليه، فقالت لاُمّه: مالَكِ قَد اصْفرّ لونك؟ قالت: أخافُ أنْ يُذْبَحَ ولدي، قالت: لا تخافي، وكان موسى لا يراه أحد إلّا أحَبّه».

إلى أنْ قال: «وَأنْزَل الله على اُمّ موسى التابوت، ونُوديت: ضَعِيه ﴿فِى ٱلتَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وهو البحر ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1] فوضعتْهُ في التابوت، وأطبقت عليه، وألقَتْه في النيل، وكان لفِرعون قصورٌ على شطّ النِّيل متنزّهات، فنظر من قصره -ومعه آسية امرأته- إلى سواد في النيل تَرْفَعُه الأمواج والرِّياح تضرِبه حتى جاءت به إلى باب قصر فِرعون، فأمر فِرعون بأخْذِه، فأخذ التابوت ورُفِع إليه، فلما فتَحَه وجد فيه صبيّاً فقال: هذا إسرائيلي»[2]. قيل: كما أنجاهُ الله من البحر في الابتداء، أنجاهُ منه في الانتهاء بغَرَق فِرعون[3].

ثمّ ذكر مِنّته الاُخرى بقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً﴾ عظيمةً كائنةً ﴿مِنِّى﴾ وبقُدْرتي، قد زرَعْتُها في القلوب، ليتعطّف عليك كلّ من نظر إليك ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ وتُرَبّى حال كونك ﴿عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ وَحِفْظي وحِراسَتي، أو على علمي بحالك.

رُوي أنّه كان على وجهه مَسْحة جمال، وفي عينيه مَلاحةٌ لا يكاد يَصْبِر عنه من رآه[4].

وعن الباقر عليه السلام: «كان موسى لا يراه أحداً إلّا أحبّه، وهو قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى﴾ فأحَبّه القبطيّةُ الموكلة به» إلى أن قال: «فألقَى اللهُ في قلب فِرعون لموسى محبةً شديدةً، وكذلك في قلب آسية، وأراد فِرعون قَتْلَه فقالت آسية: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[5] أنّه موسى، ولم يكن لفِرعون ولدٌ فقال: أن آتوا له ظِئْراً[6] لتربيته، فجاءوا بعِدّة نساء قد قُتِل أولادهنّ فلم يشرب لبن أحدٍ من النساء، وهو قوله: ﴿وَحَرَّمنا عَلَيْهِ المَراضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾[7] وبلغ اُمّه أنّ فِرعون قد أخَذَه فحَزِنتْ وبَكَتْ كما قال الله: ﴿وَأَصبَحَ فؤادُ أُمّ مُوسىٰ فارِغاً إِنْ كادتْ لَتُبْدِى بِهِ﴾[8]».

قال عليه السلام: «كادت أنْ تُخْبَر بخبره أو تموت، ثمّ حَفِظت نفسها، فكانت كما قال الله: ﴿لَوْلا أَنْ رَبَطْنا

---

١. القصص: ٧/٢٨.
٢. تفسير القمي ٢: ١٣٥، تفسير الصافي ٣: ٣٠٦.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٨٢.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٨٣.
٥. القصص: ٩/٢٨.
٦. الظِّئر: المرضعة لغير ولدها.
٧. القصص: ١٢/٢٨.
٨. القصص: ١٠/٢٨.

عَلىٰ قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين﴾[١] ثمّ قالت لأخْتِه: ﴿قُصِّيه﴾ أي أتْبِعيه[٢]، فجاءت أُخته إليه ﴿فبصُرَتْ به عن جُنُبٍ﴾ أي بُعْد ﴿وهم لا يشعرون﴾[٣] فلمّا لم يقبل موسى بأخذ ثَدْي أحدٍ من النساء اغتمّ فِرعون غمّاً شديداً»[٤] الخبر.

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ[٤٠]

ثمّ ذكر مِنّته عليه بردّه إلى اُمّه بقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي﴾ وتذهب ﴿أُخْتُكَ﴾ مَرْيَم إلى بيت فِرعون ﴿فَتَقُولُ﴾ لِفِرْعَون وامرأته حين رأتهما يَطلُبان له مُرْضِعَة يقبل ثَدْيها: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ﴾ ويَحْضُنه ويُربّيه من المُرضعات؟

رُوي أنّه فَشَا الخبر بمِصر أنّ آل فِرعون أخذُوا غلاماً من النِّيل لا يَرْضَع من ثدي امرأةٍ، وَاضْطَرّوا إلى تتبّع النساء، فخرجت مريم لتعرِف [خبره] فجاءتهم مُنكَرة فقالت ما قالت، فقالوا: مَنْ هي؟ قالت: اُمّي، قالوا: لها لبن؟ قالت: نعم لبن أخي هارون، فجاءت بها فقَبِل ثَديها[٥]، فحكى الله ذلك بقوله: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ وفاءً بالوعد حيث قلنا: إنّا رادُّوه إليك ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ ويُسَرّ قلبها بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقك وبارتضاعك من ثدي غيرها.

عن الباقر عليه السلام - في رواية - «فلمّا أخذته بحِجْرها وألقمته ثَدْيها، الْتَقَمَه وشَرِب، ففَرِح فِرعون وأهله، وأكرموا اُمّه، فقال لها: رَبّيه لَنا، فإنّا نفعل بك ما نفعل»[٦]. فسأله الراوي: كم كان موسى غائباً عن اُمّه حتى ردّه الله عليها؟ قال: «ثلاثة أيّام»[٧].

ثمّ ذَكَر اللهُ مِنّته الأُخرى بقوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً﴾ من القِبْط بِوَكْزِه حين استغاث بك الإسرائيلي عليه، فاغتممتَ لذلك خوفاً من تَظاهُر القِبْط عليك، واقتصاص فِرعون منك ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِن﴾ ذلك ﴿ٱلْغَمِّ﴾ بالهِجرة إلى مَدْيَن ﴿وَفَتَنَّاكَ﴾ وامتحنّاك بهذه المذكورات والمَتاعب التي صبرتَ عليها في طَريق مَدْيَن ﴿فُتُوناً﴾ وامتحاناً تامّاً، أو امتحانات عديدة، أو المعنى أخلصناكَ مِن الأخلاقِ الرّذيلة تخليصاً كاملاً ﴿فَلَبِثْتَ﴾ وأقَمْتَ ﴿سِنِينَ﴾ كثيرة ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ عند شُعَيب تَخدِمه وتَرعى أغنامَه ﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ الوادي المُقدّس لأُكَلّمَكَ وأُريك الآيات ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ قدّرته وقضاء قضيته، أو

---

١. القصص: ٢٨/١٠. ٢. في النسخة: ابتغيه. ٣. القصص: ٢٨/١١.
٤. تفسير القمي ٢: ١٣٥، تفسير الصافي ٣: ٣٠٦. ٥. تفسير روح البيان ٥: ٣٨٤.
٦. في النسخة: ونفعل. ٧. تفسير القمي ٢: ١٣٦، تفسير الصافي ٣: ٣٠٦.

على وقتٍ معيَنٍ، أو على مقدارٍ مُعيَنٍ من عُمرك، وهو أربعون سَنَة ﴿يَا مُوسىٰ﴾ وَإنّما كرّر نداءه لإظهار غاية لُطفه به، وانتهاء ذِكر منّته في المرّة الأخرى.

وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى * ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى * ٱذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ [٤١ ـ ٤٤]

ثمّ صرّح بإجابة مسؤوله الأهمّ بقوله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ واصطفيتك على النّاس بِرسالاتي وبكلامي، وأكرمتُك بأعظم كراماتي، أو اخترتُك لتتصرّف على عادتي، وتشتغل بأمري من تبليغ الرسالة، وتتقلّب لوجهي لا لنفسك ولا لغيري ﴿إذْهَبْ﴾ يا موسى ﴿أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ معاً حسب استدعائك إلى فِرعون متمسّكين ﴿بِآيَاتِى﴾ والمعجزات التي أعطيتك بقُدرتي ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ ولا تَفْتُرا ﴿فِى ذِكْرِى﴾ وثنائي بما يليق بعظمتي وجلالي في حالٍ ووقتٍ، فإنّه بذكر الله تطمئنّ القلوب.

وقيل: يعني لا تَفْتُرا في تبليغ رسالتي[١]، أوْ لا تنسياني حيثما تقلّبتما، واستمدّا بذِكْري واسألاني به العَون والتأييد[٢].

ثمّ أكّد سبحانه الأمر بذَهابهما وقيامها بوظيفة الرسالة بقوله: ﴿ٱذْهَبا﴾ معاً ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وادعواه إلى توحيدي وعبادتي ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ وتجاوز عن حدّ العبوديّة بِدَعْوى الأُلوهيّة.

قيل: إنّ الخِطاب مع غيبة هارون على التغليب[٣]، أو كان بعد اجتماعهما[٤].

روي أنّه تعالى لمّا نادىٰ موسى عليه‌السلام بالواد المُقدّس، وأرسله إلى فِرعون، وأعطاه سُؤله، انطَلَق من ذلك الموضع إلى فِرعون، وشيّعته الملائكة يصافحونه، وخلّف أهله في الموضع الذي تركهم فيه، فبقوا فيه ينتظرونه ليلاً ونهاراً، فلم يجدوا منه خبراً، فلم يزالوا مقيمين متحيّرين حتى مرّ بهم راعٍ من أهل مَدْين فعرفهم، فحملهم إلى شُعيب، فمكثوا عنده حتى بلغهم خبر موسى بعد ما جاوز بنو إسرائيل البحر وغَرِق فِرعون وقومه، فبعث بهم شُعيب إلى موسىٰ عليه‌السلام[٥].

ثمّ أنّه تعالى بعد الأمر بذَهابهما إلى فِرعون، وبيان شدّة طُغيانه، علّمهما كيفيّة دعوته ليَسْلَما من شرّه بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ﴾ بعد مُلاقاته ﴿قَوْلاً لَيِّناً﴾ وكلاماً رقيقاً لا خشونة فيه ولا تعنيف، كقوله: هل لك أنْ تَزَكّى، وأهديك إلى رَبّك، فإنّه دَعْوَة بصورة المشورة، أو كلاماً فيه حُسن الأدب كالخطاب بالكُنى والألقاب دون الاسم، وقيل: يعني عِداه شباباً لا هَرَم له، وبقاء لذّة المَطْعَم والمَشْرَب والنّكاح،

---

١ و٢. تفسير أبي السعود ٦: ١٧.

٣ و٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٨٨.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٣٨٧.

ودوام السّلطنة إلى الموت[١] ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ ويَتَنبّه على ما يحكُم به عقله ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ من عذابي ونَكالي.

عن الكاظم عليه السلام قال: «أمّا قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً﴾ أي ليّناه في القول، أو قولا له[٢]: يا أبا مُصعَب، وكان [اسم] فِرعون أبا مُصْعَب، وأمّا قوله: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ فإنّما قال ذلك لِيَكونَ أحرص لموسى على الذّهاب، وقد عَلِم الله عزّ وجلّ أنّه لا يتذكّر ولا يخشى إلّا عند رُؤية البأس»[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام ما يقرب منه[٤].

قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ * فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِل مَعَنَا بَنِى إِسْرائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ [٤٥ـ٤٧]

رُوي أنّه أُوحي إلى هارون وهو بمِصر أنْ يتلقّى موسى عليه السلام[٥]. وقيل: سَمِع بإقباله فتلقّاه[٦]، فلمّا أخبره موسى عليه السلام بالأمر ﴿قَالَا﴾ عند ذلك: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ﴾ من ﴿أَن يَفْرُطَ﴾ ويُعجَل ﴿عَلَيْنَا﴾ بالعقوبة، ولا يصبر إلى تمام الدعوة وإظهار المُعجِزة ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ زيادةً على طُغيانه السابق إلى أن يقول في شأنك ما لا ينبغي لكمال جُرأته وقَساوته.

﴿قَالَ﴾ اللهُ تسلية لهما: ﴿لَا تَخَافَا﴾ منه ﴿إِنَّنِى﴾ بحِفظي ونُصرتي ﴿مَعَكُمَا﴾ وإنّي ﴿أَسْمَعُ﴾ كلامكم ﴿وَأَرَىٰ﴾ عملكم ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ واحْضُرا عنده ﴿فَقُولا﴾ له بَدْو الملاقاة: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ إليك ليعرِف شأنكما، ثمّ قولا له: إذا عرفتنا بالرسالة ﴿فَأَرْسِل مَعَنَا بَنِى إِسْرائِيلَ﴾ وأطْلِقْهم من قَيد الأسر والعبوديّة حتى نذهب بهم إلى الأرض المقدّسة التي كانت موطن آبائهم ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بِتَذْلِيلهم وتبعيدهم وتحميل المشاقّ عليهم، فَإنْ تكُن في شَكٍّ من رسالتنا فإنا ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ عظيمةٍ ومعجزةٍ قاهرةٍ ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ للدّلالة على صدقنا في ادّعائنا، ثمّ رغّبوه في الإيمان بقولهم: ﴿وَالسَّلَامُ﴾ والتحيّة المستتبعة بسلامة الدارين والعافية الأبديّة من الله تعالى ﴿عَلَىٰ مَنِ﴾ استسلم لِما جاءنا و﴿ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ﴾ والرّشاد الذي جاءه من ربّه.

رُوي أنّ موسى عليه السلام وعده على قبول الإيمان شباباً لا يَهْرَم، ومُلْكاً لا يُنْزَع منه إلّا بالموت، وبقاء لذّة المَطْعَم والمَشرَب والمَنْكَح عليه إلى انقضاء أجله، فإذا مات دخل الجنّة، فأعجبه ذلك، وكان

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ٥٨، تفسير أبي السعود ٦: ١٨.
٢. في العلل: أي كنّياه وقولا له.
٣. علل الشرائع: ١/٦٧، تفسير الصافي ٣: ٣٠٨.
٤. الكافي ٧: ١/٤٦٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠٨.
٥ و٦. تفسير أبي السعود ٦: ١٧.

هامانُ غائباً، وكان لا يَقْطَع أمراً بدونه، فلمّا قدِم أخبره بمقالة موسى عليه السلام وإرادته الإيمان به، فقال له هامان: كنتُ أرى أنّ لك عقلاً ورأياً، أنت الآن ربٌّ، وتُريدُ أنْ تكونَ مَرْبُوباً؟! فأبى عن الإيمان[١].

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى [٤٨ ـ ٥٢]

ثمّ هدّده موسى عليه السلام بترك الإيمان بقوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ﴾ من قبل ربّنا ﴿إِلَيْنَا﴾ بتوسط جبْرَئيل ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ الشديد الدائم ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بآيات ربّه وبما جاء به أنبياؤه ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرضَ عن قبول دعوة رسله وتصديق الحقّ ﴿قَالَ﴾ فِرعون: إنْ كنتما رسولَي ربّكما ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ الذي أرسلكما ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ وإنّما خصّ النداء بموسى عليه السلام لكونه أصلاً وهارون تابعه، أوْ لعلمه برثّةٍ في لسانه، فأراد استنطاقه لتوهينه دون هارون لعلمه بفصاحته، أو لكون موسى عليه السلام في تربيته، فتعجّب من دعوى كونه مَرْبُوباً لغيره، فكأنّه قال: أنَا ربّك، فَلِم تدعو ربّاً غيري، وإضافة الربّ إليهما لغاية عُتوّه.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام في جوابه: ﴿رَبُّنَا﴾ هو الله القادر ﴿ٱلَّذِى﴾ بقُدرته ورحمته ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء ﴿خَلْقَهُۥ﴾ والصورة المناسبة له والشكل اللائق به، الموافق لما يترتّب عليه من الخواصّ والمنافع ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كلّ واحدٍ إلى ما يصدُر وما ينبغي له، طبعاً كما في الجمادات والنباتات، واختياراً كما في الحيوانات.

وقيل: إنّ الخلق عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية القوالب، والهداية عبارة عن إبداع القُوى المحرّكة والمدركة فيها، ولذا قدّم الخَلْق[٢] وعطف عليه الهداية بكلمة (ثُمَّ) الدالة على التراخي.

ويحتمل أنْ يكون المراد بالهداية الهداية إلى معرفته بقدر إدراكه واستعداده، فإنّ لكلّ شيءٍ حياةً وشعوراً على حدّ وجوده من الضّعف والقوّة، كما مرّ بيانه غير مرّة، أوْ المراد أنّه تعالى هَداهُ إلى مصالح نفسه ولوازم معيشته، وعرّفه الضار والنافع، كما ألْهَم النّحل تركيب البيوت المُسدّسة، ومعرفة ما يضُرّه وما ينفعه من النباتات، وألْهَم الحيوانات ما به قوامُها من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح، وكيفيّة الانتفاع بها، وعرّف الذكر الأُنثى وبالعكس، وهَداهُ إلى كيفيّة المقاربة ليدومَ النسل، وهَدَى الأولادَ إلى أخْذ الثّدْي ومَصّ اللبن منها.

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٨٩.

٢. تفسير الرازي ٢٢: ٦٤.

وعن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: «ليس شيءٌ من خلق الله إلّا وهو يعرف من شَكْله الذّكر والأنثى». وسُئل ما معنى ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قال: «هداه للنّكاح والسِّفاح من شَكْله»[1].

ثمّ قال فِرعون: إنْ كان ربوبيّة ربّك بهذا الحدّ من الظهور ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ والأمَم الكثيرة في الأعصار السابقة أنّهم لم يعترفوا بربوبيته وعبدوا غيره؟ فقدح اللّعين في الحُجّة القاطعة التي أقامها موسى عليه السلام بغفلة الناس عنها وعملهم بخلافها.

وقيل: إنّه عليه السلام لمّا هدّده بالعذاب على الشِّرك وتكذيب الرُّسل، قال: فما بالُ الأُمم الماضية أنّهم أشركوا وكذّبوا ولم يُعذّبوا؟[2]

وقيل: إنّ الخبيث لمّا رأى إتقان حجّة موسى عليه السلام على التوحيد، خاف أن يزيد في تقريرها فيظهر للناس صدقه وفساد مذهب نفسه، أراد أنْ يَصْرفه عن ذلك الكلام ويَشغله بذكر قضايا الأمم الماضية كعاد وثمود وأضرابهما، فلم يلتفت موسى عليه السلام إلى سؤاله[3]، بل ﴿قَالَ﴾: إنّما ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ لأنّه من الغيُوب التي تَخْتَصّ به تعالى، ولا أعْلَمُ إلّا ما علّمنيه من الأمور المتعلّقة بما أُرْسِلتُ به، وإنّما أحوالهم مثبتةٌ ﴿فِى كِتَابٍ﴾ ولوحٍ مَحفُوظٍ، بل لا يحتاج إلى كتابٍ لأنّه ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ ولا يُخطئ في علمه، بل يعلم كلّ شيءٍ على ما هو في الواقع ﴿وَلَا يَنسَىٰ﴾ ولا يَغْفَل عن شيءٍ بعد العلم به.

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِن نَبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى ٱلنُّهَىٰ [٥٣ و ٥٤]

ثمّ عاد إلى بيان شؤونه تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ بقدرته وتفضّله ﴿ٱلْأَرْضَ مَهْداً﴾ ومعدّاً للسُّكونة والراحة ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا﴾ من جِبالها وأوْدِيَتها وبَرارِيها ﴿سُبُلاً﴾ وطرقاً تَسْلُكونها من قُطْر إلى قُطْر وبَلَدٍ إلى بَلَد لِحَوائجكم وقضاء مَآرِبكم ﴿وَأَنزَلَ﴾ برحمته ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ المظَلّ أو جهة العلوّ ﴿مَاءً﴾ نافِعاً بطريق الإمطار.

ثمّ نبّه عليه السلام على زيادة اختصاص الإنبات بذاته القادرة، وكون النباتات طائعات له بأنْ قال: يقول الله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ وأنْبَتْنا بسببه ﴿أَزْوَاجاً﴾ وأصنافاً ﴿مِن نَبَاتٍ﴾ ناميات ﴿شَتَّىٰ﴾ ومتفرّقات في الطعوم والألوان والروائح والأشكال، أو متفرّقات في وجه الأرض ممّا يأكل الناس والأنعام، وقلنا:

---

١. الكافي ٥: ٤٩/٥٦٧، تفسير الصافي ٣: ٣٠٩.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ٦٦.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ٦٦ - ٦٧.

﴿كُلُوا﴾ أيّها الناس منها ومن ثِمارها ﴿وَٱرْعَوْا﴾ فيها ﴿أَنْعَامَكُمْ﴾ فإنّها مُباحةٌ لكم مخلوقات لانتفاعكم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإنبات وَجَعْلِ الاختلافاتِ الكثيرة فيها مع وَحْدَةِ الأرض والماء والهواء، أو في تلك[١] النِّعم الجسيمة والموجودات البديعة واللهِ ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمةٍ وبراهين واضحةٍ على وجود الصانع القادر الحكيم ﴿لِّأُولِى ٱلنُّهَىٰ﴾ وذَوِي العقول السليمة الرادعة عن القبائح.

وقيل: إنّ كلامَ موسى عليه السلام قد انقطع عند قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً﴾ ثمّ أخبَرَ سُبحانه عن صفة نفسه[٢].

وقيل: إنّ المراد من ضمير المتكلّم في (أخرجنا) موسى عليه السلام وغيره من الناس، والمعنى فأخرجنا مَعاشِرَ العِباد بذلك الماء المنزل وبالحراثة أزواجاً[٣].

والحقُّ هو الوجه الذي فسّرنا، لعدم مناسبة الوجه الآخر لِقَوله: ﴿كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ والوجه الأوّل أيضاً غيرُ صحيحٍ لِدَلالة (الفاء) في قوله ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ على ارتباطه بالسابق. نعم يُمكن أنْ يقال إنّ كلام موسى قد تَمّ عند قوله: ﴿لَا يَنسَى﴾.

عن الباقر عليه السلام: قال: «قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: إنّ خيارَكُم أُولُو النُّهىَ. قيلَ: يا رسول الله، مَن أُولوا النهي؟ قال: هُم أولُوا الأخلاقِ الحَسَنَةِ، وَالأحْلامِ الرَّزِينَة، وصِلَةِ الأرْحام، والبَرَرَة بالأمّهاتِ وَالآباء، والمُتعاهِدُونَ لِلفقراء والجيران وَاليَتامى، ويُطْعِمونَ الطَّعام، ويُفْشُونَ السَّلام في العالَم، ويُصَلّون والناسُ نِيامٌ غافِلُون»[٤].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: «نَحْنُ واللهِ أُولُوا النُّهى»[٥].

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ * وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَىٰ [٥٥-٥٧]

ثمّ لمّا كان فِرعون في غاية التكبّر والتجبُّر حتى ادّعى الربوبيّة، بين مُبْتَدَئِه ومُنْتَهاه، إظهاراً لغاية ذِلّته بقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ بِخَلْقِ آدم الذي هو أبو البَشَر من تُراب، أو بخلق الأغْذِية التي تتولّد النُّطَف منها من الأرض ﴿وَفِيهَا﴾ بعد الموت ﴿نُعِيدُكُمْ﴾ بالدَّفن والإقبار ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ بالخَلق والإحياء ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ومرّة ثانية بَعْدَ خَلْقِكُمْ في هذا العالم، ونَبْعَثُكم إلى المَحْشَر للحساب وجزاء الأعمال.

---

١. في النسخة: ذلك. ٢ و٣. تفسير الرازي ٢٢: ٦٨.

٤. الكافي ٢: ٣٢/١٨٨، تفسير الصافي ٣: ٣١٠. ٥. تفسير القمي ٢: ٦١، تفسير الصافي ٣: ٣١٠.

عن ابن مسعود: أنّ الله يأمر مَلَكَ الأرحام أنْ يكتُبَ الأجل والرِّزقَ والأرضَ التي يُدْفَن فيها، وأنه يأخُذ من تُراب تلك البُقعة، ويَذُرّه على النُّطفة، ثمّ يُدْخلها في الرَّحِم[1].

وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام: «أنّ النُّطفة إذا وقعت في الرَّحم، بعث الله عزّ وجلّ مَلَكاً يأخُذُ من التُّربة التي يُدْفَن فيها فماثَّها[2] في النُّطفة، فلا يزال قلبه يحِنُّ إليها حتى يُدْفَن فيها»[3].

ثمّ بيّن الله شدّة لَجاج فِرعون بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ وبَصَّرناه ﴿آيَاتِنَا﴾ الدالّة على التوحيد والنبوّة ﴿كُلَّها﴾ من البراهين العقلية والمعجزات الباهرة كالعصا واليد البيضاء وغيرها ﴿فَكَذَّبَ﴾ بها ونسبها إلى السِّحر من فَرط عِناده ولَجاجه ﴿وَأَبَىٰ﴾ وامتنع من قَبولها والإيمان بها، وكان من إبائه أنّه ﴿قَالَ﴾ إنكاراً على موسى عليه السلام وتقبيحاً لدعوته: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ بعد غِيابك عنّا، ورجعت إلينا بعد هِجرتك من بلدنا ﴿لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ وسُلطانِنا، وتستولي على مملكتنا ﴿بِسِحْرِكَ﴾ وشَعبذتك وتَخْييلاتٍ لا واقِعَ ولا حَقِيقَةَ لها ﴿يَا مُوسىٰ﴾ فإنّ العاقِلَ لا يتخيّل ذلك فَضْلاً عَنْ أنْ يَقْصُدَه.

قيل: كان غرضه من هذا القول حَمْل القِبْط على غاية مَقْتِه، وبَعْثِهم على معارضته حيث أظهر لهم أنّه ليس غرض موسى عليه السلام إنجاء بني إسرائيل، بل إخراجُ القِبْط من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم[4]، وهذا أصعب عليهم من القتل.

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوىً * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحىً * فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ * قَالُوا إِنْ هٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ [٥٨ ـ ٦٤]

ثمّ لمّا نسب معجزات موسى عليه السلام إلى السحر قال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ﴾ ونعارضنّ سِحرك ﴿بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ حتى يتّضح للنّاس أنّك ساحرٌ، إذَن ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً﴾ ووقتاً معيّناً، أوْ مكاناً معلوماً نحضُر فيه للمعارضة ﴿لَّا نُخْلِفُهُ﴾ ولا نتخلّف عنه ﴿نَحْنُ وَلَا أَنتَ﴾ وَلْيَكُن المَوْعد ﴿مَكَاناً سُوىً﴾

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ٧٠.

٢. أي خلطها.

٣. الكافي ٣: ٢/٢٠٣، تفسير الصافي ٣: ٣١٠.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٩٨.

متوسَطاً بيننا وبينك مسطَحاً مستوياً لا يَحجُب العين ارتفاعه وانخفاضه ﴿قَالَ﴾ موسى: نَعَم ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ وزمان اجتماعكم معنا للمعارضة ﴿يَوْمُ﴾ العيد الذي هو يوم ﴿ٱلزِّينَةِ﴾ لقومك، قيل: هو يوم النَّيروز[١]. وقيل: يوم سُوقٍ لهم[٢]. وعن ابن عباس: يوم عاشوراء[٣].

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ ويجتمعون من كلّ مكان في ﴿ضُحًى﴾ وحين ارتفاع الشمس، ليشهد عموم الناس تلك الوقعة، ولا يمكن إنكار ما وقع فيها من الغَلبة، ويَنسَدّ باب الرِّيبة ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرضَ ﴿فِرْعَوْنُ﴾ عن موسى عليه السلام، وخرج من المجلس، وأرسل إلى البلاد والمدائن، وأمر بحضور من كان فيها من السَّحَرَة في الموعد ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ وما يحتال به في إبطال دعوى موسى عليه السلام من السَّحرة وَالآلاتِ وَالأدوات ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ المَوعِد هو مع مَلَئِه، وأتى موسى أيضاً و ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ نُصحاً وزَجْراً عن معارضتهم الحقّ: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ يا قوم، ارتَدعوا عمّا أنتم فيه من الكفر والعِناد مع الحقّ و﴿لَا تَفْتَرُواْ﴾ ولا تُكذّبوا ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً﴾ بيّناً بنسبة الشريك إليه والسِّحر إليَّ ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ ويُهْلِكَكُم الله ويستأصلكم ﴿بِعَذَابٍ﴾ عظيمٍ لا يقادر قدره ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وحُرِم من كلّ خيرٍ مَرْجوّ ﴿مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ وبَهَتَ على الله كان من كان.

قيل: أثّر قول موسى عليه السلام في بعض السَّحرة دون بعض[٤] ﴿فَتَنَازَعُوٓاْ﴾ واختلفوا في معارضته.

وقيل: إنّ قول موسى عليه السلام غاظ السَّحَرة، فتنازعوا[٥] ﴿أَمْرَهُم﴾ الذي أرادوه من معارضة موسى عليه السلام وتشاوروا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في كيفيّتها، وأطالوا القول في ذلك ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ وبالغوا في إخفاء مُذاكراتهم، لئلّا يقف عليها موسى عليه السلام فيدفعها، وكان من نجواهم أنّهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ أيـها الرُّفقة ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ﴾ الرجلان ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾.

وقيل: إنّ كلِمةَ (إنْ) نافية، واللامَ في (لَسَاحِرَانِ) بمعنى (إلّا)، والمعنى: ما هذان إلّا ساحران[٦]، ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ وأوطانكم، ويستوليا على مملكتكم ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ الذي أظهَراهُ مِنْ قَبل ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ ومذهبكم الذي هو أفضل المذاهب، وهو مذهب فِرعون، ويُشيعا دينهما بينَكم.

وقيل: إنّ الطريقة اسمٌ لوُجوه القوم وأشرافهم، لكونهم قُدوةً لغيرهم[٧].

ثمّ أنّهم بعد ذِكْر مضارّ غلبة موسى عليه السلام كأنّهم قالوا: إذا عَلِمتم ذلك ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ وآراءكم،

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ٧٣، تفسير أبي السعود ٦: ٢٤. ٢ و٣. تفسير الرازي ٢٢: ٧٣.
٤. مجمع البيان ٧: ٣٠. ٥. تفسير أبي السعود ٦: ٢٥، تفسير روح البيان ٥: ٤٠٠.
٦. تفسير الرازي ٢٢: ٧٥، مجمع البيان ٧: ٢٨. ٧. تفسير الرازي ٢٢: ٨٠، تفسير أبي السعود ٦: ٢٥.

وأجعلوها واحداً لا يخالف فيه أحَدٌ، أو أدوات سِحْرِكم ورتّبوها كما ينبغي ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا﴾ في المَوْعِد حال كونكم ﴿صَفًّا﴾ واحداً، فَإنَّ إتيانكم مجتمعين في الموعد أشَدّ مهابة في نظر الخصم ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ المقصد الأعلى، وهو القرب من فِرعون والشرف بين الناس ﴿مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ منكم وغَلَب على موسى.

قيل: كان الموعد مكاناً متَّسعاً، وخاطبهم موسى عليه السلام في قُطْر منه، وتنازعوا أمرهم في قُطْر آخر، ثمَّ أُمِروا بأنْ يأتوا وسطه على الوجه المذكور[1].

قيل: كان نجواهم أنْ قالوا حين سَمِعوا مقالة موسى عليه السلام: ما هذا ساحر، وإنْ غَلَبَنا اتَّبَعْناه، أو قالوا: إنْ كان ساحراً غَلَبْناه، وإنْ كان من السماء فله أمْر. ثمَّ رجعوا بعد تلك المقالات والاختلافات إلى الإتّفاق على المعارضة[2].

قيل: كانوا سبعين ألفاً مع كلّ منهم حَبْل وعصا، وأقْبَلوا على موسى عليه السلام إقبالةً واحدةً في سبعين صفاً كلّ صفّ ألف[3].

وقيل: كانوا بَضْعةً وثلاثين ألفاً[4]. وقيل: خمسة عشر ألفاً[5]. وقيل: تسعمائة؛ ثلاثمائة من الفُرْس، وثلاثمائة من الروم، وثلاثمائة من الإسكندريّة[6]. وقيل: كانوا اثنين وسبعين؛ اثنان من القِبْط، والباقي من بني إسرائيل[7].

وقيل: إنّ المراد بالصفّ المصلّى لاجتماع الناس فيه في الأعياد للصلاة[8].

قَالُوا يَامُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ [٦٥ ـ ٦٨]

ثمَّ أنهم بعد اجتماعهم وحُضورهم ﴿قَالُوا﴾ تأدّباً وإظهاراً لعدم المبالاة بموسى عليه السلام وصنيعه: ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ لَكَ الخِيار ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ عصاك على الأرض أوّلاً ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ما نُلقيه ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام مقابلة لأدَبِهم بأدَبٍ، أو إظهاراً للجَلادة وعدم الاعتناء بِسِحْرهم، أوْ علماً بأنّ إلقاءهُم أوّلاً أدْخَل في عظمة إعجازه حيث إنّ عصاه تَلْقَف ما ألْقَوه: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ أنْتم أوّلاً ما تُلْقون، فبادروا في الإلقاء ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ لتلطُّخها بالزِّئبَقِ وَإشْراقِ الشَّمْس عَلَيها، اضْطَرَبَتْ

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٠٠.
٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٦.
٣ ـ ٧. تفسير الرازي ٢٢: ٨٣، تفسير أبي السعود ٦: ٢٦.
٨. تفسير الرازي ٢٢: ٨١، تفسير أبي السعود ٦: ٢٦.

وَاهتَزَّتْ بحيث كان موسى عليه السلام ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ ويتوهَم ﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا﴾ حيّات ﴿تَسْعَىٰ﴾ وتمشي بسُرعةٍ عَلَى الأرض ﴿فَأَوْجَسَ﴾ وَأضمَر ﴿فِى نَفْسِهِ﴾ بمقتضى البشرية ﴿خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ من مُفاجأة رؤية الحيّات المخيّلة وضَررها. فلمّا خاف ﴿قُلْنَا﴾ لَه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ مِمّا رأيت من السِّحر ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ منهم والغالب القاهر عليهم.

وقيل: إنّ موسى عليه السلام خاف من أنْ يَظُنَّ الناس أنّ السَّحرة ساوَوا موسى عليه السلام [١]، فينصرفوا قبل أنْ يُشاهِدُوا مُعجزته، فَيَدُومُوا على باطلهم.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لم يُوجِس مُوسى خِيفَةً عَلَىٰ نَفْسِه، وإنّما أشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الجُهَّالِ وَدَوَلِ الضَّلال» [٢].

وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ * فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىٰ * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ [٦٩ـ٧٣]

ثمّ أمر الله موسى عليه السلام بمعارضة السَحَرة بقوله: ﴿وَأَلْقِ﴾ أنت أيضاً ﴿مَا فِى يَمِينِكَ﴾ من الخَشَب اليابس الصغير، فإنّها بقُدرة الله ﴿تَلْقَفْ﴾ وتَبْتَلِع بسرعة ﴿مَا صَنَعُوا﴾ه وموّهوه من الحِبال المَحْشُوَّة بالزِّئْبَقِ والعِصيّ المربوطة بها ﴿إِنَّمَا﴾ أصنعُ معجزةً باهرةً، وما ﴿صَنَعُوا﴾ه وموّهوه وزوّروه [٣] ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ وحِيلته التي لا حقيقة لها ﴿وَلَا يُفْلِحُ﴾ ولا يَفُوز ﴿ٱلسَّاحِرُ﴾ بمطلوبه ولا يَدْرِك بُغيته ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ من الأرض وعَمِل فيها بالسِّحر، أوْ حيث أتى مَصْنُوعي وكَيْدي؛ لأنّ صُنْعِي حقٌّ وكَيْدِي مَتِينٌ.

عن ابن عبّاس: ألقوا حِبالهم وعِصِيّهم مِيلاً من هذا الجانب، ومِيلاً من هذا الجانب، فخيّل إلى

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ٨٤.
٢. نهج البلاغة: ٥١ الخطبة ٤، تفسير الصافي ٣: ٣١١، وفي النسخة: وذوي الضلال.
٣. في النسخة: ورودوه، راجع: تفسير روح البيان ٥: ٤٠٣.

موسى عليه السلام أنّ الأرضَ كلَّها حيّات، وأنّها تَسْعى فخاف، فلمّا قيل له: ﴿أَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ أَلْقَى موسى عصاه، فَإذا هي حيّة أعظم من حيّاتهم، ثمّ أخذت تزداد عِظماً حتى ملأت الوادي، ثمّ صَعِدت وعَلَت حتى علّقت ذَنَبها بطرف القُبّة، ثمّ هبطَتْ فأكلَتْ كلَّ ما عَمِلوا في المِيلين، والنّاس يَنْظُرون إلَيها لا يَحْسَبون إلّا أنه سِحرٌ، ثمّ أَقْبَلَت نَحْوَ فِرعون لتبتلعه فاتِحَةً فاها ثَمانين ذراعاً، فصاح بموس فأخذها وهي عصا [كما]كانت، ونَظَرَت السَّحَرة فإذا هي لم تَدَع من حِبالهم وعِصيّهم شيئاً إلّا أكَلَتْهُ، فعرفت السَّحرة أنّه ليس بسِحر، وقالوا: أينَ حِبالنا وعِصِيّنا؟ لو لم تكن[1] سحراً لبقيت[2] ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ وخرّوا عَلَى الأَرضِ بسرعةٍ وشدّةٍ، كأنّه ألقاهم غَيْرُهُم حال كونهم ﴿سُجَّداً﴾ للهِ خاضعينَ لعظمته وقُدرته بعد ما رأوا من إعجاز العصا.

قيل: ما أعْجَبَ [أمر]هُمْ أَلْقَوا حِبالهم للكُفْر والجُحُود، وَأَلْقَوا نفوسَهم للتّعظيم والسُّجود[3] بعد ساعةٍ، فما أعظم الفَرق بين القائلين! و ﴿قَالُوا﴾ في سُجُودهم بصوتٍ عالٍ: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

قيل: إنّما لم يَقُولُوا بِرَبِّ العالَمين، لأنّ موسى وهارون دَعَياهم إلى الإيمانِ به، وَكَيْلا يتوهّم أنّ مُرادَهم فِرعون، لأنّه كان مُرَبّي موسى عليه السلام[4].

رُوي أنّهم لَم يَرْفَعُوا رُؤوسَهُم حتى رَأوا الجَنَّةَ والنّار[5].

وعن عِكْرِمة: لمّا خَرُّوا سُجّداً أراهُمُ الله مَنازِلَهم التي يَصيرُون إلَيها في الجنّة[6].

ثمّ قيل: لمّا شاهد فِرعون إيمانهم بموسى عليه السلام، خاف من أنْ يقتدي بهم سائر الناس[7]، فادّعى أنّ إيمانَهم كان للتّباني مع موسى عليه السلام، ولذا ﴿قَالَ﴾ توبيخاً لهم ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ واتّبَعْتُموه ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ في الإيمان له، مع أنّي ربّكم وأميركم، وإنّما كان إيمانُكم لأنّكم تَلامِذَتُه و ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ وأستاذكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فواطأتم معه على أنْ يُظْهِرُوا العَجزَ من أنفسِكم عن معارضته ترويجاً لأمْره، وتعظّماً لشأنه، وأداءً لِحقّ تعليمه.

ثمّ هدّدهم بقوله ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلَافٍ﴾ بأنْ أقطع مِنْ شِقّ يداً، ومِنْ شِقّ رِجْلاً ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ وأُعَلِّقَنّكُم ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ وعلى أُصوله، لِتَكُونوا عِبرةً لِغَيْرِكم ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىٰ﴾ وأدوم نَكالاً أنا أوْ مُوسىٰ، أوْ أنا أوْ رَبّه، وفي كلامه هذا إيماءٌ إلى أنّ إيمانَهم لم

---

١. في النسخة: لو كانت. ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٨٢.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٤٠٥. ٤. تفسير الرازي ٢٢: ٨٧، تفسير أبي السعود ٦: ٢٨.
٥ و٦. تفسير الرازي ٢٢: ٨٦. ٧. تفسير الرازي ٢٢: ٨٧.

يكن على بصيرةٍ، بل كان عن خَوْفٍ من قَهْرِ مُوسى وسُلْطانِه، وإظهاراً للجَلادة والوَقاحة مع غاية خوفه من موسى عليه السلام حِفظاً لِنامُوسِه وترويجاً لأمْرِه، فتجلّد السَّحَرة في الجواب عن تهديده و ﴿قَالُوا﴾ غير مُكْتَرِثين بوعيده: إنّا ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ ولا نختارك بالإيمان والاتّباع أبداً ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا﴾ مِن الله على يد موسى ﴿مِنَ﴾ المعجزات ﴿ٱلْبَيِّنَاتِ﴾ والبراهين الواضحاتِ التي لا ريبَ في حقّانيّتها ﴿وَ﴾ حقّ ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ وخَلَقَنا لا نؤثرك.

وقيل: إنّ (الواو) في ﴿وَٱلَّذِى﴾ عاطفةٌ، والمعنى: لن نؤثِرَك على ما جاءنا وعَلَى الّذي فطَرَنا وخَلَقَنا وخَلَق سائر المخلوقات[١] ﴿فَاقْضِ﴾ يا فِرعون في حقّنا ﴿مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ وَاحْكُم فِيه ما أنْتَ حاكم، أو افعل بنا ما أنت فاعله، فإنّا لا نَخافُ ولا نُبالي، وكيف نخاف منك ولا نخاف من الله؟ أو كيف نؤثِرك ولا نؤثِر الله؟ والحال أنّه ﴿إِنَّمَا تَقْضِى﴾ وتَصْنَع ما تَهْواه أوْ تَحكم بما تَراهُ في ﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ التي تَزول بسرعة، وإن لم تقضِ، وليس لك علينا بعد انقِضائها قضاء، فالله يقضي في الدنيا والآخرة، وقَضاءُ الله وعذابه أشدّ وأبْقى، بل لا انقضاء له ولا نجاة منه.

وَأمّا مانبّهتَ عليه وأشَرتَ إليه مِن أنّ إيماننا كان للمواطأة مع موسى أو للخوف منه، فليس كذلك، بل ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ وذنوبَنا التي سَلَفتْ منّا قبلَ إيماننا ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ﴾ عمل ﴿ٱلسِّحْرِ﴾ ومعارضة الرسول، أو تَعَلُّمه وتعليمه، كما عن ابن عباس[٢]، لا للأغراضِ الدنيويّة حتى يُصْرِفَنا عنه وعيدك بالقطع والصَّلب ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ وأنفع لنا منك ومن كلّ أحدٍ ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ جزاءً، ثواباً كان أو عقاباً، أو خيرٌ منك ثواباً إنْ آمنّا به وأطعناه، وأبقى منك عذاباً إنْ كفرنا به وعَصَيناه.

وإنّما خصّوا السِّحرالذي أكرههم عليه فِرعون بالذِّكر ـ مع كونه داخلاً في عُمومِ الخَطايا ـ لإظهار غاية نِفْرَتِهم منه، وللإيذانِ بأنّ معارضة الرسول ـ وإنْ كان بالإكراه ـ مِمّا يجب أنْ يُفرَد بِالاستِغفار.

روى بعض العامة أنّ رؤساء السَّحَرة كانوا اثنين وسبعين؛ اثنان منهم من القِبْط، والباقي من بني إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلّم السِّحْر[٣]. وقيل: أكرَهَهم على مُعارضة موسى[٤].

ورُوي أنّهم قالوا لِفرعَون: أرِنا موسى نائماً ففعل، فوجدوه تَحرُسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسِحْر، فإنّ الساحر إذا نام بَطَل سِحْره، فأبىٰ فِرعون إلّا أنْ يُعارضوه[٥].

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِ

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٠٦. ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٨٩.

٣ ـ ٥. تفسير الرازي ٢٢: ٨٩، تفسير أبي السعود ٦: ٣٠.

مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ ٱلصَّالِحَاتِ فَأُولٰئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَاتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ [٧٤_٧٦]

ثمّ بيّنوا كون عذاب الله أشدّ وأبقى، ردّاً على قول فِرعون: ﴿أيّنا أشدّ عذاباً وأبقى﴾ بقولهم: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ﴾ يوم القيامة حال كونه ﴿مُجْرِماً﴾ وعاصياً له بالكفر والطغيان ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ بالاستحقاق ﴿جَهَنَّم﴾ وهو ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياةً منتفعاً بِها، بل في كلّ آن يتمنّى الموت من شدّة العذاب والنّكال ولا يتيسّر له.

ثمّ بيّنوا حسن حال المؤمنين بقولهم: ﴿وَمَن يَأْتِهِ﴾ ويلقاه في المحشر حال كونه ﴿مُؤْمِناً﴾ بوَحْدانيّته وبرسوله وبآياته التي منها ما شاهدناه و ﴿قَدْ عَمِلَ﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ وأتى بما كُلّف به من الواجبات، واحترز المحرّمات ﴿فَأُولٰئِكَ﴾ المؤمنون الصّالِحون ﴿لَهُمُ﴾ جزاءً على إيمانهم وطاعتهم ﴿ٱلدَّرَجَاتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ والمنازل الرفيعة، وهي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وبَساتينَ دائمة لا فَناء لها ولا خَراب لها، قُصور وأشجار ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ ويكون المؤمنون ﴿خَالِدِينَ﴾ ومُقِيمينَ ﴿فيهَا﴾ أبَداً ﴿وَذٰلِكَ﴾ المذكور من الدّرجات العالية في تلك الجِنان ﴿جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ وطهّر[1] نفسَه مِن دَنَس الكُفر والعِصيان بالإيمان والتوبة والطاعة.

عن ابن عباس: كانوا [في] أوّل النهار سَحَرة و[في] آخره شهداء[2].

وقال بعض العامة: إنّ كلام السَّحَرة خُتِم بقوله: ﴿خَيرٌ وأبقى﴾ والآياتُ الثلاث ابتداء كلامِ الله تعالىٰ[3].

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِى ٱلْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَىٰ * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ [٧٧_٧٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد طي ذكر ما جرى على فِرعون ومَلَئه من الآياتِ المفصّلات الظاهرة على يد موسى في نحو من عشرين أو أربعين سنة من قتله السَّحَرة، بيّن مَا انتَهى إليه أمر فِرعون ونجاة بَنِي إسرائيل من ظُلْمه بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ وقُلنا له بتوسّط جَبْرَئيل: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ الّذِينَ اسْتَعْبَدَهم فِرعَون، وَاسْتَذَلّهم بالأسْر، وَاسْتَضْعَفَهم بتحميل المشاقّ، وَسِر بِهِم لَيْلاً من مصر ﴿فَاضْرِبْ﴾ وَاتَّخِذْ ﴿لَهُم﴾ أو اضرِب بعصاك، وَاجْعَل لهم بعد الخروج من مِصر ﴿طَرِيقاً﴾ كائناً

---

١. في النسخة: تطهّر. ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٨٨. ٣. تفسير أبي السعود ٦: ٣١.

﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ القُلْزُم[1] على قولٍ، أو الأصاف[2] على آخر، يكون ﴿يَبَسًا﴾ وجافاً لا وَحلَ فيه ولا نَداوة فضلاً عن الماءِ، وَجُزْ منه آمِناً بحيث ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا﴾ مِن العدوّ ووُصولهم إليك ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ الغَرَق.

رُوي أنّ موسى عليه‌السلام خرج بهم أوّل اللّيل، وكانوا ستمائة وسبعين ألفاً، فأُخبِر فِرعون بذلك[3] ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ وعَساكِرِه، وكانت مقدّمته سبعمائة ألف، فقصّ أثَرهم فَلحِقَهم بحيث تراءى الجمعان، فعند ذلك ضرب موسى عليه‌السلام بعصاة البحر، فانفلق عَلَى اثْنَي عَشَر فِرقاً كلّ فِرقٍ كالطُّود العظيم، وبقي الماءُ قائماً بين الطُّرق، فَعَبر موسى بمن معه من الأسباط سالِمين، وتَبِعَهم فِرعون بجُنوده ﴿فَغَشِيَهُم﴾ وسَتَرَهم ﴿مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ والبحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ وما عَلاهُم من الأمواج الهائلة التي لا يعلمها إلّا الله.

عن ابن عبّاس قال: خرج فِرعون في طلب موسى عليه‌السلام، وعلى مقدّمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجَنْبين والقلب، فلمّا انتهى موسى عليه‌السلام إلى البحر قال: ها هنا أُمِرت، ثمّ قال موسى عليه‌السلام للبحر: انفرق فأبى، فأوحى الله إليه: أن اضْرِب بعَصاك البَحْر، فضرب فَانْفَلَق فقال لهم موسى عليه‌السلام: ادخلوا فيه، فقالوا: كيف وأرضه رَطبةٌ؟ فدعا الله فهبّتْ عليه الصَّبا[4] فجَفَتْ، فقالوا: نخافُ الغَرَق في بعضنا، فجعل بينهم كُوى حتى يرى بعضهم بعضاً، فدخلوا حتى جاوَزُوا البحر، فأقبل فِرعون إلى تلك الطُّرق، فقال قومه له: إنّ موسى سحر البحر فصار كما تَرى، وكان على فَرَسٍ حِصان، وأقبل جَبْرَئيل على فَرَسٍ أُنثى في ثلاثة وثلاثين من الملائكة، فصار جَبْرَئيل بين يدي فِرعون، وأبصر الحِصان الفَرَس الحِجْر[5]، فَاقْتَحم بفِرعون على أثرها، وصاحَتْ الملائكة في الناس: ألحقوا المَلِك، حتى إذا دخل آخرهم وكاد أوّلهم أنْ يخرُجَ التقى البحر عليهم فغَرِقوا، فسَمِع بنو إسرائيل خَفقَة البحر عليهم فقالوا: ما هذا يا موسى؟ قال: قد أغرق الله فِرعون وقومَه، فرجعوا لينظروا إليهم، فقالوا: يا موسى، ادع الله أنْ يُخرِجهم لنا حتى ننظُر إليهم، فدعا فلَفَظَهم البحر إلى الساحل، وأصابوا سلاحهم[6].

قال ابن عبّاس: إنّ جَبْرَئيل قال: يا محمّد، لو رأيتَني وأنا أدُسّ فِرعونَ في الماءِ والطِّين مخافَة أنْ يتوبَ[7].

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ وَسَلك بِهِم مَسْلَكاً أدّاهم إلى الخَيْبَةِ وَالخُسْران في الدّين وَالدنيا حيثُ

---

١. بحر القُلْزم: البحر الأحمر. ٢. كذا.
٣. تفسير أبي السعود ٦: ٣١، تفسير روح البيان ٥: ٤٠٩.
٤. الصَّبا: ريحٌ مهبّها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار. ٥. الحِجر: أُنثى الخيل.
٦. تفسير الرازي ٢٢: ٩٣. ٧. تفسير الرازي ٢٢: ٩٤.

ماتُوا عَلَى الكُفْر والطُّغْيان بالعذاب الهائل الدنيوي المتّصل بالعذاب الشَّدِيد الدّائِم الأُخْرَوي **﴿وَمَا هَدَىٰ﴾** وما أرشد إلى مطلوبٍ وخيرٍ أبداً. وفيه تأكيدٌ لغاية إضْلاله وردٌّ لقوله: **﴿وما أهديكم إلّا سَبِيلَ الرّشاد﴾**[١].

روى أنّ موسى لمّا ضرب بعصاه البحر حصل اثنى عَشَر طريقاً يا بِساً، يتهيّأ طُرُوقه، وبقي الماء قائماً بين الطريق والطريق كالطَّود العظيم، فأخذ كلّ سِبطٍ من بني إسرائيل في طَرِيقٍ من هذه الطرق[٢].
وقيل: بل حصل طريق واحد[٣].

وقيل: إن فِرعون لمّا خاف من دخول البحر، أمَر مقدّمته بالدخول فيه، فلمّا دَخَلُوا وسارُوا فيه وما غَرِقُوا، غلب على ظنّه السلامة فدخل، فلمّا دَخَلَ الكُلّ أغرقَهم الله[٤].

أقول: لا تنافي بين هذا وبين ماروي من تقدّم جَبْرَئيل عليه وهو على رَمَكَة[٥]؛ لأنّه وإن كان ظنّ السلامة ولكن يمكن أنّه لو لم يَجْمَح فرسه لكان يحتاط، ولمّا جَمَح فرسه وكان له ظن السلامة لم يبالغ في إمساك فرسه، فلا يَرِد على الرواية أنّ فِرعون مع عقله ودهائه كيف ألقى نفسه في التَّهْلُكة.

يَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْناكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ * كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ[٨٠و ٨١]

ثُمّ رغَب الله سبحانه بني إسرائيل في طاعته بتذكيرهم النِّعم التي أنْعَم عليهم، مقدّماً لنعِمة دفع الضَّرِ عنهم على إيصال النفع إليهم، مخاطباً لهم بلسان موسى بعد إغراق فِرعون وابتلائهم بالتّيه بقوله: **﴿يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾** فِرعون وقومه وخلّصناكم من ظُلْمِهِم.
ثُمّ ثنّاها بالنِّعمة الدِّينِيّة التي هي أهَمّ من النِّعَم الدُّنْيويّة بقوله: **﴿وَوَاعَدْناكُمْ﴾** ودعوناكم بوساطة نبيّكم موسى عليه السلام أنْ تَأتُوا **﴿جَانِبَ الطُّورِ﴾** يعني جانبه **﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾** من السالك من مصر إلى الشام على ما قيل[٦].

وإنّما أضافَ الدَّعوة إلى جميعهم مع كون المدعوَ خصوص موسى، أو هو مع السبعين المختارة، لكونهم منهم، ونفعها من المناجاة وأخْذ التوراة عائداً إلى جَمِيعِهِم.
ثمّ ثَلّثهما بذكر النعمة العظيمة الدنيوية بقوله: **﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾** وقد مرّ تفسيرهما

---

١. غافر: ٤٠/٢٩.   ٢ ـ٤. تفسير الرازي ٢٢: ٩٤.
٥. الرَّمكة: الفرس البِرذَونة تُتّخذ للنسل.   ٦. تفسير الرازي ٢٢: ٩٦.

وتفصيل نزولهما في سورة البقرة، وقلنا لكم بِلِسان الرّسول أوْ بدلالة الفِعْل: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وَلَذائِذِ ما أنعمنا عليكم من الطعام، أوْ مِن حَلالِه ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ ولا تجاوزُوا الحدّ ﴿فِيهِ﴾ بالسَّرَفِ والبَطَر، والمَنْع من المستحقّ، والإدّخار منه لأكثر ممّا يحتاج إليه في اليوم واللّيلَة، وَالإخْلالِ بالشُّكْر ﴿فَيَحِلَّ﴾ عند تلك الأمور ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ ويَلْزَمكم عقابي، ويجب لكم انتقامي.

ثمّ بالغ في تهديدهم ببيان شدّة غضبه وعظمة انتقامه بقوله: ﴿وَمَن يَحْلِلْ﴾ وينزِل ﴿عَلَيْهِ غَضَبِى﴾ وعذابي ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ وهَلَك إلى الأبد، أو هوى في جهنّم وسَقَط فِيها.

عن الباقر عليه السلام سُئل ما ذلك الغَضَب؟ فقال: «هو العقاب»[١].

وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ آهْتَدَىٰ[٨٢]

ثُمّ بشّر سبحانه العُصاةَ بقَبول توبتهم بقوله: ﴿وَإِنِّى﴾ والله ﴿لَغَفَّارٌ﴾ وستّارٌ لِلذّنوب ﴿لِمَن تَابَ﴾ وَرَجع عن الشِّرك والكُفْر، ونَدِم على العِصيان الذي منه الطُّغيان في ما رزق ﴿وَآمَنَ﴾ بما يجب الإيمانُ به ﴿وَعَمِلَ صالِحاً﴾ وعملاً مستَقِيماً عند العقل والشّرع ﴿ثُمَّ آهْتَدَىٰ﴾ وثَبت على الحقّ في العقائد والأعمال إلى الخُروج من الدُّنيا، كما قيل عن ابن عبّاس: ﴿ثُمَّ آهْتَدَىٰ﴾ أيْ عَلِمَ أنّ ذلك بهداية اللهِ وتَوفِيقه، وبقي مستعيناً بالله في إدامة ذلك من غير تقصير[٢].

وقيل: هذه الخطابات لبني إسرائيل الّذين كانوا في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله على معنى أنّه تعالى قد مَنّ عليهم بما فعل بآبائهم أصالةً وبهم تَبَعاً، فإنّه لَولا تلك النِّعم على آبائهم لم يبقَ منهم نَسلٌ ولم يُوجَد مَن كان في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله.

وقال المولى أبو السعود: ويرُدّه ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾ الآية ضرورة استحالة حمله على الإنشاء[٣]. وفيه: أنّه يمكن أنْ يكون قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾ رجوعاً إلى القصّة بعد موعظة أهل عصر النبيّ صلى الله عليه وآله.

عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: «ألَا تَرى كيف اشترط ولم تنفعه التوبة والإيمان والعمل الصالح حتى[٤] اهتدى، والله لو جَهَد أنْ يعمل [بعمل] ما قُبل منه حتى يهتدي». قيل: إلى مَنْ جعلني الله فداك؟ قال: «إلَينا»[٥].

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال في حديث لعلي عليه السلام: «ولقد ضلّ من ضلّ عَنْك، ولن يهتديَ إلى الله من لم

---

١. التوحيد: ١/١٦٨، تفسير الصافي ٣: ٣١٤.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ٩٧.
٣. تفسير أبي السعود ٦: ٣٢.
٤. في النسخة: الصالح وقال ثم.
٥. تفسير القمي ٢: ٦١، تفسير الصافي ٣: ٣١٤.

يهتد إليك وإلى ولايتك، وهو قول ربّي عزّ وجلّ: **﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ﴾** الآية، يعني: إلى ولايتك»[١].

وعن الباقر عليه السلام قال: «ثمّ اهتدى إلى ولايتنا أهل البيت، فوالله لو أنّ رجلاً عَبَدَ الله عُمْره مابين الرّكن والمَقام، ثمّ مات ولم يجئ بولايتنا، لأكبّه الله في النار على وجهه»[٢].

وعنه عليه السلام قال وهو مستقبل البيت: «إنّما أُمر النّاس أنْ يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها، ثمّ يأتونا فيُعْلِمُونا ولايَتَهم لَنا، وهو قول الله تعالى: **﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾** ثمّ أومأ إلى صدره وقال: «إلى وِلايتنا»[٣].

وعن الصادق عليه السلام قال: «لهذه الآية تفسيرٌ يدُلّ ذلك التفسير، على أنّ الله لا يقبل من أحدٍ عملاً إلّا ممّن لَقاه بالوفاء منه بذلك التفسير، وما اشترط فيه على المؤمنين»[٤].

وعنه عليه السلام قال: «إنّكم لا تكونون صالحين حتى تَعْرِفوا، ولا تَعْرِفونَ حتى تُصَدّقوا، ولا تُصَدّقون حتى تُسَلِّموا أبواباً أربعة لا يَصْلَح أوّلُها إلّا بآخرها، ضلّ أصحابُ الثّلاثة وتاهُوا تَيْها عَظِيماً[٥]، إنّ الله لا يَقْبَل إلّا العملَ الصّالِح، ولا يَقْبَلُ الله إلّا الوفاء بالشّروط والعهود، فمن وَفىٰ لله تعالى بِشرْطِه، وَاسْتَعْمَل ما وصف في عهده، نال ما عنده، واستكمل وَعْدَه، إنّ الله تعالى أخبرَ العبادَ بطُرقِ الهُدى، وشرعَ لهم فيها المَنار، وأخبرهم كيفَ يَسْلُكونَ، فقال: **﴿إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾** وقال: **﴿إنّما يتقبّل اللهُ من المُتّقين﴾**[٦] فَمَنِ اتَّقَى الله في ما أمره، لَقي [الله] مؤمناً بما جاءَ به محمّد صلى الله عليه وآله. هَيهاتَ هَيهاتَ فاتَ قومٌ وماتُوا قبلَ أنْ يَهْتَدوا، وظَنُّوا أنّهم آمَنوا وَأشْرَكُوا من حيثُ لا يَعْلَمُونَ»[٧].

وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَامُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ [٨٣ـ٨٥]

ثمّ رُوي أنّ بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام أن يأتيَهم بشريعةٍ وأحكامٍ يعملون بها، فناجى موسى عليه السلام ربّه في ذلك، فأوحى إليه: أن ائتِ الطُّورَ مع أشرافِ بني إسرائيل حتى أُعطيكَ كتاباً فيه جميع أحكام شريعتك، فجاء موسى عليه السلام إلى قومه وَاختار منهم سبعين رجلاً من أشرافهم وخِيارهم،

---

١. أمالي الصدوق: ٨٠٣/٥٨٣، تفسير الصافي ٣: ٣١٤.
٢. مجمع البيان ٧: ٣٩، تفسير الصافي ٣: ٣١٤.
٣. الكافي ١: ٣/٣٢٣، تفسير الصافي ٣: ٣١٥.
٤. تفسير العياشي ١: ٩٠٤/٣٧٧، تفسير الصافي ٣: ٣١٥.
٥. في الكافي: بعيداً.
٦. المائدة: ٢٧/٥.
٧. الكافي ١: ٦/١٣٩ و٢: ٣/٣٩، تفسير الصافي ٣: ٣١٥.

وخلَف أخيه هارون فيهم، فلمّا ذهب بمن معه وقرُب من الطُّور، أسرع في المشي، وسبقهم في الصُّعود على الطُّور شوقاً إلى كلام ربّهِ، وأمرهم أنْ يتّبعوه، فخاطبه الله بقوله: **﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾** ودَعاكَ إلى الإسراعِ إلى الصُّعُود عَلَى الطُّور، وأنْ تُخلَف النُّقباءَ الَّذِين اُمرِتَ أنْ تكونَ معهم **﴿يَا مُوسَىٰ﴾**[١].

وقيل: إنّ المراد بقومه جملة بني إسرائيل الذين خلّف هارونَ فيهم[٢]، فلمّا رأى موسى عليه السلام إنكاره تعالى عليه تَقَدُّمَهُ على قومه وحُضورَهُ منفرداً في المِيقات، مع كونه مأموراً باستصحابهم وإحضارهم معه، وكون تعجيله منافياً للحزم اللائق بأُولي العَزْم، أخذته الهيبة، فأخذ بالاعتذار و**﴿قَالَ﴾**: رَبّ **﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾** ومِن وَرائي، وإنّما سبقتهُم بخُطىً يسيرة لا تُخِلّ بالمعيّة التي أمرتَني بها **﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ﴾** وسبقتهم يسيراً إلى الصعود على الطُّور **﴿رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾** بمسارعتي إلى امتثال أمْرك، وَاهْتِمامي بالوفَاء بوَعْدك، وَاشْتِياقي إلى استماع كَلامك.

عن الصادق عليه السلام قال: «المُشتاق لا يَشْتَهي طعاماً، ولا يلتذّ بشراب، ولا يَستَطيبُ رُقاداً، ولا يأنَس حَميماً، ولا يأوي داراً، ولا يَسكُن عُمراناً، ولا يَلبَس لِباساً، ولا يَقِرّ قراراً، ويعبُدُ الله ليلاً ونهاراً، راجِياً بأنْ يصلَ إلى ما يشتاق إليه، ويُناجِيه بلسان شوقه، مَعبّراً عمّا في سَريرَته، كما أخبر الله عن موسى بن عِمران عليه السلام في ميعاد ربّه بقوله: **﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾** وفسّر النبي صلى الله عليه وآله عن حاله أنّه ما أكَل ولا شَرِب ولا نام ولا اشتَهى شيئاً من ذلك في ذَهابه ومَجيئه أربعينَ يوماً شوقاً إلى رَبّه»[٣].

وإنّما ذكر الله بصفة الربوبيّة، لزيادة التضرُّع والابتهال رغبةً في قَبول عُذْره.

ثُمّ أخبرهُ الله بِافْتِتانِ قومه بعد خُروجه من بَيْنهم، لِتَعْجيلهم وعَدَم صَبْرهم لِرُجوعِ موسى عليه السلام حيث **﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا﴾** وابتلينا **﴿قَوْمَكَ﴾** بَنِي إسرائيل مع إخلافك هارون فيهم **﴿مِن بَعْدِكَ﴾** وزمان غيابك عنهم بعبادة العِجل.

رُوي أنّهم أقاموا على ما وصّى به موسى عليه السلام عشرين ليلة بعد ذَهابه، فحسبوها مع أيّامها أربعين، وقالوا: قد أكملنا العِدّة وليس من موسى عليه السلام عَينٌ ولا أثَر[٤]، **﴿وَأَضَلَّهُمُ﴾** عند ذلك **﴿السَّامِرِيُّ﴾** بتدبيره وحِيلته.

رُوي أنّ السّامِري كان من بني إسرائيل، وتولّد في زمان كان فِرعون يَقْتُل أبناءهم، فَألْقَتْه أُمّه في جزيرةٍ في النِّيل، فأمر الله جَبْرَئيل أن يُربّيه ويَحْفَظه، ويأتي بمأكوله ومشرُوبه، ثمّ جاء في قومه، وكان

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤١٢.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ٩٩.
٣. مصباح الشريعة: ١٩٦، تفسير الصافي ٣: ٣١٦.
٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٠١، تفسير روح البيان ٥: ٤١٤.

صائغاً، فلمَا ذهب موسى عليه السلام إلى الطُّور جاء إلى هارون وقال: إنّ عندَ بني إسرائيل من زِينة القِبْط حيثُ اسْتَعاروها منهم ولم يَرُدّوها ويتصرّفون فيها، وهو حرام عيلهم، فَأْمُرْهم أن يَأتوا بها وأحرقها، فأمَرَ هارون بني إسرائيل بأنْ يأتوا بما عندهم من زِينة القِبْط، فأتوا بها، فحفر هارون حُفْرةً فألقاها فيها، فأوقَد علَيها النّار، فلمّا رأى السامِريّ أنّها ذابت، أتى بقالب فصبّ فيه ذلك الذَّهَب المُذاب، فَأخرَج منه صورة عِجْل، ثمّ ذرّ فيه من تراب أخَذَه من تحت حافر رَمَكَة جَبْرَئيل، فحيي العجل وخَارَ، ثمّ قال لبَني إسرائيل: هذا إلٰهكم وَإِله موسى[١].

وعن ابن عباس: كان السامِريّ عِلْجاً من أهل كرمان وقع إلى مِصر، وكان من قوم يَعْبُدون البقر[٢].

وفي رواية أُخرى عنه: أنّه كان رجلاً من القِبْط جاراً لموسى عليه السلام ثمّ آمن به[٣]. والأكثرون على أنّه كان من عُظَماء بني إسرائيل من قبيلةٍ يقال لها السامِرة[٤].

فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِن رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ[٨٦و ٨٧]

قيل: إنّ الله أخبر موسى عليه السلام عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة [الكائنة] على عادته[٥] ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ بعد استيفائه الأربعين وَأخْذِه التوراة حال كونه ﴿غَضْبَانَ﴾ عليهم ﴿أَسِفاً﴾ شديد الحُزن على عِصيانهم.

قيل: رآهم مُجتَمِعين على العِجل يضرِبون الدُّفوف ويرقُصون حوله فعاتبهم[٦] و﴿قَالَ﴾ توبيخاً: ﴿يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً﴾ وصِدقاً نافعاً بأنْ يُعطيكم التوراةَ التي فيها هُدىً ونُورٌ، ولا وَعْد أحسن من ذلك.

وقيل: إنّه الوَعْد بالثواب على الطاعة[٧].

وقيل: إنّه العَهْد على أنْ لا يَطْغَوا فيما رزقهم[٨].

﴿أَفَطَالَ﴾ قيل: أن أوعدكم فطال ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ وزَمانُ الإنجاز فأخطأتم بسببه؟[٩] أو الْعَهْد بنِعَم

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤١٤.

٢ ـ٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٠١.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٠١.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٤١٥.

٧ و٨. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٢.

٩. تفسير أبي السعود ٦: ٣٥، تفسير روح البيان ٥: ٤١٥.

الله من الإنجاء من فِرعون والغرق وغيرهما، وطُولُه كنايةٌ عن نسيانه ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ﴾ ويَنزل، أو يجب ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾ شديدٌ وعذابٌ عظيمٌ ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ومالِك أمركم اللّطيف بكم؟ ﴿فَأَخْلَفْتُم﴾ لذلك ﴿مَّوْعِدِى﴾ وعَهْدِي عليكم بالثّبات على ما أمرتُكم به إلى أنْ أرجِع من مِيقات ربّي.

قال العلماء: إنّ الغَضَب من صفات أفعاله تعالى، لا من صفات ذاته؛ لأنّ صفات الذات لا تَحْلُل ولا تنْزِل في الأجسام[1].

عن الباقر عليه السلام، قال في تفسير الغضب: «من زَعَم أنّ الله عزّ وجلّ زال من شيء إلى شيء فقد وَصَفَه صفة مخلوق، إنّ الله عزّ وجلّ لا يستفِزّه شيءٌ ولا يُغيّره شيء»[2].

ثمّ أنّ الّذين عَبَدوا العجل من بني إسرائيل اعْتَذَروا إلى موسى عليه السلام من فِعْلِهم الشنيع و﴿قَالُوا﴾: يا موسى ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾ وما نقضنا عهدك علينا بالثبات على ما أمَرتَنا به ﴿بِمَلْكِنَا﴾ واختيارنا ومَيل قلوبنا ﴿وَلَٰكِنَّا﴾ غُلِبنا من كَيد السامريّ إذ ﴿حُمِّلْنَا أَوْزَاراً﴾ وأحمالاً ثَقيلةً ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ وحُلِيّ القِبْط التي استَعَرناها منهم بأنْ جعلها في عُهْدَتنا إلى أنْ نُؤدّيها إلى حيث تأمُرنا، أو بأنْ ألزمنا فيه حُكم الغنيمة ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ وطرحناها في الحفيرة وفي النار تخلّصاً من ذنبها ﴿فَكَذَٰلِكَ﴾ القَذْف والإلقاء ﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ ما معه من الحُلِيّ فيها.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى [٨٨-٩٠]

ثمّ حكى سبحانه فتنة السّامِري لزيادة تقريرها وترتيب الإنكار والتوبيخ عليها بقوله: ﴿فَأَخْرَجَ﴾ السّامِريّ من ذلك الحُلِيّ الّذي جَمَعَه بنو إسرائيل ﴿لَهُمْ عِجْلاً﴾ وولد بقرة، وكان ﴿جَسَداً﴾ ذا دَمٍ ولَحْمٍ وعَظم، أو جسداً مِن ذَهَب ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ وصوت عِجل.

عن ابن عبّاس: أنّ هارونَ مَرّ بالسّامِريّ وهو يَصْنَع العِجْل فقال له: ما تصنع؟ قال: أصنَع ما ينفع ولا يضُرّ فادعُ لي، فقال: اللّهمّ أعْطِهِ ما سأل. فلمّا مَضى هارونُ قال السامِريّ: اللّهمّ إنّي أسألُك أنْ يَخُور، فخار[3]. فسجد له السامريّ والمفتتنون به ﴿فَقَالُوا﴾ لغاية بَلادتهم، أو اعتقادهم حُلول الله فيه لغاية

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٢.
٢. التوحيد: ١/١٦٨، تفسير الصافي ٣: ٣١٤.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٤.

حُمْقِهِم: ﴿هٰذَا﴾ العجل ﴿إِلٰهُكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَإِلٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ موسى عليه السلام أنّ هذا إلهه فذهب يطلبه في الطُّور. وقيل: إنّه ردّ على السامريّ، وأنّ الإله لا يَحُلّ في شيء ولا يحُلّ فيه شيء.

ثُمّ استدلّ سبحانه على بُطلان دعوى المُفْتَتِنين به بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ﴾ هذا العِجْل ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾ ولا يرُدّ عليهم جواباً إذا سألوه ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾ إذا طَلَبوا منه دفعَ ضررٍ أوْ جلبَ نفعٍ، ومن المعلوم أنّ مَنْ لا يُمكنه التكلّم ولا يَقْدِر على الضرّ والنفع، لا يمكن أن يكونَ إلٰهاً.

ثمّ حَكى سبحانه نُصْح هارون لهم في بَدْو ضلالَتِهِم وعبادتهم العِجْلَ توضيحاً لعُتوّهم وحُمْقهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ﴾ نُصحاً وشفقةً عليهم، وتنبيهاً لهم على خَطئهم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي بَدْو إقامتهم على عبادة العجل، أوْ قبل رجُوع موسى عليه السلام إليهم، أو قبل قول السامريّ: هذا إلٰهُكُمْ.

قيل: إنّه عليه السلام لمّا رأى العِجْل خَطَر في قلبه افتتان القوم به، فبادر في تحذيرهم[1] عن عبادته، وقال: ﴿يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم﴾ وأضلَلْتم، أو امْتُحِنْتم من قِبَل الله ﴿بِهِ﴾ وبسببه ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ﴾ وَالإلٰهُ المُنْعِم عليكم هو ﴿الرَّحْمٰنُ﴾ برحمته الواسعة لَا العِجْل الّذِي لا يضُرّ ولا ينفَع، فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ في الثّبات عَلَى التّوْحِيد وَدِينِ الحقّ ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ هذا واترُكُوا عِبادة مَن عرفتم شأنه.

نقل كلام للفخر الرازي وردّه

قال الفخر الرازي: وَاعلَم أنّ هارون سَلَكَ في هذا الوعظ أحسن الوجوه، لأنّه زَجَرَهُم عن الباطل أوّلاً بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾، ثمّ دَعاهُم إلى معرفة الله ثانياً بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ﴾ ثمّ دَعاهم إلى معرفة النبيّ ثالثاً بقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ ثمّ دَعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

أقول: لا يخفى ما في كلامه من الوهن. ثمّ قال: هاهُنا دقيقة، وهي أنّ الرّافِضَة تمسّكوا بقوله صلّى الله عليه وآله لِعَلِيّ: «أنْتَ مِنّي بمنزلة هارُونَ مِنْ مُوسىٰ».

ثُمّ أنّ هارونَ ما منعته التقيّة في مثل هذا الجمع بل صَعِد المِنْبَر، وصرّح بالحقّ، ودَعَا النّاسَ إلى متابعة نَفْسِه والمنع من متابعة غيره، فلو كانت أُمّة محمّد صلّى الله عليه وآله عَلَى الخطأ، لكَانَ يَجِبُ عَلىٰ عَلِيٍ أنْ يفعلَ ما فعله هارون، وأنْ يصعد المِنْبَر مِنْ غيرِ تقيةٍ ولا خَوفٍ، وأنْ يقولَ: فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أمْرِي، فلمّا لم يَفْعَل ذلك عَلِمْنا أنّ الأُمّةَ كانوا عَلَى الصّواب[2]، انتهى كلامه السخيف بطوله.

وفيه مِنَ الفَساد ما لا يخفى، فإنّ بين النبيّ المؤسّس للشّرع والإمام الحافظ له المُجري لقوانينه

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٥٦، تفسير أبي السعود ٦: ٣٧. ٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٦.

فَرْقٌ واضِح لا يخفى على ذي مُسكةٍ[١]، فَإنّ النبيَ المُؤسس لا يجوز له التقيَة، لأنّ تقيّته موجبةٌ لاختِلال الغرَض من بعثته، ولذا يجب على الله حِفْظه حتى يُتِمّ رسالته وتبليغه ولو بالأسباب الخارقة للعادة، كما حَفِظ نوح من القتل مع تَفَرُّده وعداوة أهل الأرض لَه، وإبراهيمَ من نار نمرود وجعلها له برداً وسلاماً، وحِفْظه نبيّنا من شرّ الكفّار مع انفراده في أوّل الدعوة، لِئلا يكونَ للنّاسِ عَلَى الله حُجّةٌ بعد الرُّسل، فأمره الله بالتّبليغ بقوله: ﴿فاصْدَعْ بِما تُؤمَرْ وَأعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِين﴾ [٢] وآمَنه بقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله﴾ [٣] و﴿إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا﴾ [٤] و﴿والله يَعْصِمُكَ مِنَ النّاس﴾ [٥] فكان ينادي بَيْنَ الأشرار مع غاية تعصّبهم وَلَجاجِهم وعِنادهم بقوله: «قُولُوا لا إله إلّا الله تُفْلِحُوا» وَلَمْ يَقْدِرُوا على قَتْلِه، وَنَصَرَهُ اللهُ بالرُّعب وبجنودٍ من الملائكة، وَالرّيحِ، وَبِمَنِ اتَّبَعَه مِن المؤمنين.

وَأمّا الإمام فوظيفته وظيفة العلماء، وهي حِفظ الدين، وتعليم الأحكام الواقعيّة عن علمٍ لا خَطَأَ فيه، وإجراء السياسات الشرعيّة، وتربية النفوس القابلة، ورفع الاختلاف بين الناس، وكونه مرجِعاً في جميع المنازعات بعد إتمام الحُجّة على النّاس بتبليغ الدين، ونصبه على رؤوس الأشهاد، بحيث لا يَبْقى لأحدٍ عذرٌ في عدم معرفته، كما نَصَب موسى هارون عليهما السلام، ونبيّنا عليّاً عليه السلام يومَ الغديرِ، فمن حيث إنّ هارون كان شريكاً لموسى عليه السلام في الرسالة لم يَجُز له التقيّة، ومن حيث أنّه كان خليفته في غيبته جاز له التقيّة، ولذا أعلن بالحقّ، ولكن لم يشدّد على بني إسرائيل كما شدّد موسى عليه السلام عليهم بعد رجوعه من الميقات، واعتذر إلى موسى عليه السلام من تركه التَشدّد وعمله بالتقيّة بقوله: ﴿إنّ ٱلْقَوْمَ استَضْعَفُونِى وَكادُوا يَقْتُلُونَنِى﴾ فظهر أنّ هارون اتّقى من قومه حيث لم يقاتلهم على عباده العِجْل، ولم يخرُج من بينِهم، مع أنّه كان أنصاره اثني عَشَر ألفاً، كما أنّ عليّاً عليه السلام أظْهَر خلافته عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في محافلٍ كثيرة، واحتَجّ على إمامته بالحُجج القاطعةِ، مع أنّه لم يكن له ناصرٌ إلّا ثلاثةٌ أو خمسة أو سبعة[٦]، ولذا لم يُقاتلهم على عبادتهم عِجْلَ هذه الأمّة، ولو كان معه أربعون لقاتلهم وردّهم عن ضلالتهم[٧].

وأمّا قوله: إنّ هارون صَعِد على المنبر وأظهرَ الحقَّ، فهو تَخرُّصٌ بالغيب، لعدم دلالة آيةٍ أو روايةٍ على صُعوده على المِنْبَر، مع أنّ عِجْل بني إسرائيل لم يَشْغَل المِنْبَر، ولذا تمكّن هارون من الصعود عليه، وأمّا عجلُ هذه الأمّة فإنّه كان جالساً على مِنْبَر الرسول صلّى الله عليه وآله وشاغِلاً له، ولذا لم يتمكّن

---

١. المُسكة: العقل الوافر والرأي. ٢. الحجر: ٩٤/١٥. ٣. البقرة: ١٣٧/٢.

٤. غافر: ٥١/٤٠. ٥. المائدة: ٦٧/٥.

٦. راجع: تفسير العياشي ١: ٧٨٧/٣٤١ و٧٨٨، الكافي ٨: ٢٤١/٢٤٥، رجال الكشي: ١٢/٦ و:١٧/٨ و: ٢٤/١١.

٧. الاحتجاج: ١٩١، كتاب سليم بن قيس: ٩٣.

عليّ عليه السلام من الصُّعود عليه.

والحاصل أنّه كما أظهر هارونُ الحقَ مرّةً مع إشراك أغلب بني إسرائيل بالشِّرك الجَليّ، أظهر عليٌّ عليه السلام حقَّه في المحافلِ الكثيرة، وأعلن بافتتان الأُمّة مرّاتٍ عَديدة إلى أن استُشْهد كما تَشهَد بذلك احتجاجاتُه المرويّة بالتَّضافُر[١]، وخطبته الشِّقْشقية التي أذعن ابن أبي الحديد بصحتها[٢]، مع إشراك هذه الأُمّة بالشِّرك الخفيّ.

وكما لم يقاتل هارون قومَه مع كثرة أنصاره، بل اكتَفى بالنُّصح والموعظة، كذلك لم يقاتل عليٌّ عليه السلام أهلَ المدينة لقلّة أنصاره، بل لكون الرُّوم مع كمال قوّته وعظمته بصدد إذهاب الإسلام بعد غَزْوة مُؤتة وتَبُوك.

ولذا كان النبي صلى الله عليه وآله في مرض مَوته مُصرّاً على بَعْث أُسامة وجَيْشه إلى تَبُوك خوفاً من تَهاجُم عسكر الرّوم على أرض المسلمين إنْ بَلَغَهم خبرُ مَوْتِه صلى الله عليه وآله، فلو وقعت المقاتلة بعد النبي صلى الله عليه وآله بينَ المسلمين ما كان يبقى من الإسلام أثَرٌ على وجه الأرض، ولذا اعْتَذر أمير المؤمنين عليه السلام إلى فاطمة عليها السلام حين شكتْ إليه غَصْبَ فَدَك مِن عَدَمِ مُعارَضة الغاصِبين ومُقاتَلتهم بأنه لو قاتَلَهم لم يبقَ اسمُ الرَّسُولِ في وجهِ الأرض[٣].

وقال في الخطبة الشِّقْشقيَة: «فَطَفِقْتُ[٤] أرْتَئِي بَيْنَ أنْ أصُولَ بِيَدٍ جَذّاءَ، أوْ أصْبِرَ عَلىٰ طَخْيَةٍ عَمْياءَ، يَشِيبُ فِيهَا الصَّغيرُ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الكَبيرُ، وَيَكْدَحُ فِيها مُؤمِنٌ، حتى يَلْقىٰ رَبَّه، فَرَأيتُ أنّ الصَّبْرَ [على هاتا] أحْجَىٰ، فَصَبَرْتُ وَفِي العَيْنِ قَذىٰ، وفي الحَلْقِ شَجىٰ»[٥].

وممّا يدُلّ على إظهار عليّ عليه السلام حقّه، ومخالفته للأوّلين، ولجَمْع من الأُمّة في الخلافة، ما رواه هذا

---

١. احتج عليه السلام على أبي بكر في أمر البيعة في مناسبات عدة، كما ناشد أهل الشورى واحتج عليهم بجملة فضائله وبين حقه في الخلافة، راجع: بحار الأنوار ٢٩: ٣ ـ ٦٧ و٧٧ ـ ٧٩، ترجمة الامام عليّ عليه السلام من تاريخ دمشق ٣: ١١٣، المناقب للخوارزمي: ٢٢١ ـ ٢٢٤، مناقب ابن المغازلي: ١١٢، الاستيعاب ٣: ٣٥. وفي خلافته عليه السلام جمع الناس في رحبة الكوفة واستشهدهم على حديث الغدير الذي هو نص على خلافته، فشهد أثنا عشر بدرياً، راجع مسند أحمد ١: ٨٨، ١١٨/١١٩، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢: ٩٩١/٥٨٥ و٩٩٢ و:٦٨٢/١١٦٧، أُسد الغابة ٢: ٢٣٣ و٣: ٩٣ و٤: ٢٨، خصائص النسائي: ٢٢ ـ ٢٥، الاصابة ٤: ٥١٨٩/١٨٢ (ترجمة عبدالرحمن بن مدلج)، مجمع الزوائد ٩: ١٠٤ ـ ١٠٥.

٢. نقل ابن أبي الحديد شيخة أبي الخير الواسطي أنه قرأ الخطبة الشقشقية على ابن الخشاب، وذكر ابن الخشاب أنها من كلام أمير المؤمنين عليه السلام وأنه وقف عليها في كتب صنفت قبل أن يخلق الرضي بمائتي سنة وأنها كتبت بخطوط لعلماء كانوا قبل أن يُخلق النقيب والد الرضي، راجع شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٠٥، مصادر نهج البلاغة ـ عبدالزهراء الخطيب ١: ٣١٥.

٣. راجع: شرح ابن أبي الحديد ٢٠: ٧٣٥/٣٢٦.

٤. في النسخة: فجعلت.

٥. نهج البلاغة: ٤٨ الخطبة ٣.

الناصب في تفسيره قبل هذه الآية قال: قال بعض اليهود لعلي عليه السلام: ما دَفَنتُم نبيَّكم حتى اختَلَفتُم، فقال عليه السلام: «إنَّما اختَلَفنا عنه، ومَا اختَلَفنا فيه، وأنتم ما جَفَّتْ أقدامكم من ماء البحر حتى قُلْتُم لنبيِّكم: ﴿إجْعَلْ لَنا إلٰهاً كَما لَهُم آلِهة﴾[1].

فإنّ معنى اختَلَفنا عنه الاختلافُ في الرواية عنه، ولم تكن الرواية المُختَلف فيها في ذلك الوقت إلّا الرواية الناصّةُ على الخلافة، ولم يكن أحدٌ يدَعي النصَ على خلافته إلّا عليّ عليه السلام والخلَصون من المؤمنين، ولم يخالِفهم في ذلك إلّا ساميريّ هذه الأُمّة والمفتتنون بالعجل.

قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى * قَالَ يَبْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلاَ بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى[٩١ ـ ٩٤]

ثمّ بيّن سبحانه عُتوّ بني إسرائيل وعدم قَبولهم النُّصح بقوله: ﴿قَالُوا﴾ في جواب هارون بعد إبلاغه في نُصْحِهم تعلّلاً وتسويفاً لترك عبادة العجل: ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ على القول بالُوهيّة العجل، ولا نزال أبداً ﴿عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ ومُقيمين وبعبادته مُلْتَزمين ﴿حتّى يَرْجِعَ﴾ من الطُّور ﴿إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فإذا رَجَعَ نُطيعُ أمره، فإنْ أمَرَنا بعبادته ووافَقَنا عليها نستمرّ عليها، ولا نقبل قولك، وإنْ نَهانا عنها نتركها.

رُوي أنّهم لمَا قالوهُ اعتزَلَهم هارون في اثني عَشَر ألفاً مِنَ الَّذين لم يعبُدوا العِجْلَ، فلمّا رجعَ موسى سَمِعَ الصيَاح وكانوا يرقُصُون حول العِجْل، فقال عليه السلام للسّبعين الذين كانوا معه: هذا صوت الفتنة، فلمّا جاءهم قالَ لهم ما قال، وسَمِعَ منهم ما سَمِعَ[2].

ثمّ توجّه إلى هارون مُغْضِباً و﴿قَالَ﴾ له مغتاظاً: ﴿يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ﴾ وأيّ عُذرٍ لك ﴿إِذْ رَأَيْتَهُمْ﴾ أنّهم ﴿ضَلُّوا﴾ وَانْحرَفُوا عن طريق التوحيد إلى الشرك، وعن طاعَتِك إلى مُكابَرَتِك وَعِصيانك ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ في الغَضَب لله عَلَيهم، وفي قتالهم على إشراكهم؟!

وقيل «لا» مَزيدةٌ، والمعنى ما مَنَعك مِنْ أن تتبعني في ما ذكر، أوْ من أنْ تَلْحَقني وتُخبرني بما صَنَع القوم، وتترُك المقام بين أظهرهم، كما عن ابن عبّاس[3].

وقيل: يعني ما منعك من أن تتّبعني في وصيّتي إذ قلتُ لك: ﴿اخلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٥، والآية من سورة الأعراف: ١٣٨/٧.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٤١٨.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٨.

﴿سَبِيلَ ٱلمُفْسِدِينَ﴾[١] فَلِمَ تَركتَ قِتالهم وتأديبهم[٢]، ثمّ وبّخه بقوله: **﴿أَفَعَصَيْتَ﴾** وخالفتَ **﴿أَمْرِى﴾** إيّاك بِالصَّلابة في الدّين والمُحاماةِ عليه.

رُوي أنّه عليه السلام أخَذَ بشَعْر رأسه بيمينه ولِحيَته بِشِماله من شدّة غيظه [وغضبه] لله، وكان عليه السلام حديداً متصلّباً في كلّ شيء، ففعل ما فعل بمَرأى من قومه حين رآهم يعبُدون العِجل[٣]، فلمّا رأى هارون غضبه عليه **﴿قَالَ﴾** ترقيقاً لقَلْبه: **﴿يَا بْنَ أُمِّ﴾** ارفُق بي وراعِ حقَّ أمّك فيّ، و**﴿لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى﴾** وشَعْره **﴿إِنّى خَشِيتُ﴾** إنْ قاتلتُ بعضَهم ببعضٍ وتفرّقوا مِن **﴿أَنْ تَقُولَ﴾** لي حين رُجوعك أنت **﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْراءِيلَ﴾**.

وقيل: يعني أنّي خَشِيتُ إنْ فارقتهم واتّبعتك من أنْ يَصِيرُوا حزبين يقتُل بعضهم بعضاً، فتقول لِي: أنتَ أوقعتَ الفُرقة في ما بينهم **﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾** ولم تَحفَظ بحسن الخلافة عليهم[٤].

قيل: لعلَ موسى عليه السلام [إنّما] أمره بالذّهابِ إليه إذا لم يُؤدِ ذَهابه إلى فساد القوم، فقال: إنّما أمَرْتَني باتّباعك إذا لم يحصُل الفساد، فلو جئتُك مع حُصول الفساد ماكنتُ مُراقِباً لقولك[٥].

عن الصادق عليه السلام أنّه سئل لِمَ أخَذَ موسى عليه السلام برأس هارون يجُرّه إليه وبلحيته، ولم يكن له في اتّخاذهم العجل وعبادتهم له ذَنْب؟ فقال: «إنّما فَعَل ذلك لأنّه لم يُفارقهم لمّا فعلوا ذلك، ولم يلحَق بموسى عليه السلام، وكان إذا فارقهم ينزل عليهم العذاب، ألا تَرى أنّه قال لهارون: **﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾**؟ قال هارون: لو فعلتُ ذلك لتفرّقوا»[٦].

ثُمّ اعلم أنّ مُنكري عِصمة الأنبياءِ استدلّوا بهاتين الآيتين بوجوهٍ عَدِيدَةٍ على مذهبهم الفاسد، وأجاب القائلون بعصمتهم عنه بوجوه منها: أنّ بني إسرائيل كانوا على نهاية سوء الظنّ بموسى عليه السلام، حتى أنّ هارونَ غاب عنهم غَيبةً فقالوا لموسى: أنتَ قتلتَه؟ فلمّا رجع موسى عليه السلام من المِيقات، ورأى في قومه ما رأى، أخذ برأس أخيه ليُدْنيه ويتفحّص من كيفيّة الواقعة، فخاف هارون مِن أنْ يسبقَ إلى قلوبهم ما لا أصلَ له، فقال إشفاقاً على موسى عليه السلام: لا تأخُذْ بِلِحيَتِي وَلا بِرَأسي لِئَلا يظُنَّ بك القوم ما لا يَلِيقُ بك، والحَقُّ أنّ موسى عليه السلام أظهر الغضبَ على أخيه مع عِلْمه بأنّه لم يفعل إلّا ما هو تكليفه وصلاح دينه، إظهاراً لشدّة غضبه من عمل قومه، وإعظاماً له، وإعلاناً بغاية قُبحه وشَناعته.

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ

---

١. الأعراف: ١٤٢/٧. ٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٨.
٣ و ٤. تفسير روح البيان ٥: ٤١٩. ٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٩.
٦. علل الشرائع: ١/٦٨، تفسير الصافي ٣: ٣١٧.

أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ وَٱنظُرْ إِلَىٰ إِلٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفاً[٩٥-٩٧]

ثمَ أنه عليه السلام بعد قَبول عُذر هارون توجّه إلى السامري، وكان حاضراً، أو بعد إحضاره ﴿قَالَ﴾ له: ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ وما شأنك، وأيّ شيء غرضُك ممّا فعلتَ، أوْ مَا الذي حملَك عليه ﴿يَا سَامِرِيُّ﴾؟ وكان غرضُه من السؤال إثبات بُطلان عمله وكيده باعترافه، ﴿قَالَ﴾ السّامِري لِمُوسى عليه السلام: ﴿بَصُرْتُ﴾ وَأنَا في القوم ﴿بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ ورأيتُ ما لم يَرَوه، وهو أنه رأى جَبْرَئيل راكِباً على فَرَسٍ، وكان كلّما وَضَع فرسه يَدَيْه أو رِجْلَيه عَلَى الأرْضِ اليابسة يخرُج من تحته النبات في الحال فقال: ﴿فَقَبَضْتُ﴾ وأخَذْتُ ﴿قَبْضَةً﴾ وكفاً ﴿مِنْ﴾ تُربة ﴿أَثَرِ﴾ فرس ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ وموضع حافره ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ وألقَيْتُها في فَمِ العِجْل الذي صنعتُه من الحُلِيّ، فكان ما كان ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ التّسْويل من القبض والنبذ ﴿سَوَّلَتْ لِى﴾ أو مثل ذلك التّزْيين زَيّنت لِي ﴿نَفْسِى﴾ في نَظَري، ففعلتُ ما فَعَلتُ بِهَواي، لا بحُكم العَقْل، ولا بأمرِ الله ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: إذَنْ ﴿فَاذْهَبْ﴾ وَاخْرُج مِن بَيْن النّاس ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى﴾ مدّة ﴿ٱلْحَيَاةِ﴾ وزمانِ العُمْر ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ للنّاس ﴿لَا مِسَاسَ﴾ لأحَدٍ بي.

رُوي أنّه كان إذا ماسّ أحداً ذَكَراً كان أو أُنثى حمّ الماسّ والممسوس جميعاً حُمّىً شديدة، فتحامَى النّاس وتَحامُوه، وكان يَصِيح بأعلى صَوتِهِ لا مِساسَ، وحُرّم عليهم ملاقاته ومكالمته ومواجهته، فصار وحيداً طَريداً، يَهيم في البريّة مع الوحش والسباع[1].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ موسى عليه السلام همّ بِقَتْل السّامِري، فأوحَى الله إليه: لا تَقْتُله فإنّه سَخِيّ»[2].

ثُمّ أوعده موسى عليه السلام بالعذاب في الآخرة بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً﴾ وَوَعْداً بالعَذابِ الشّدِيد في الآخرة عَلَى الضّلال وَالإضلال ﴿لَّن تُخْلَفَهُ﴾ من قِبَل الله، يُنْجزُ البتّة بعد عقوبتك في الدنيا ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ إِلٰهِكَ﴾ ومعبودك ﴿ٱلَّذِى﴾ صنعتَه بيدك و﴿ظَلْتَ﴾ وبَقِيتَ، أوْ صِرْتَ ﴿عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾ وعلى عبادته مُقِيماً، والله ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنّار بناءً على كون العِجْل ذا لَحم وعَظْم، أو لنَبْرُدنّه بالمِبْرَد بناءً على كونه ذهباً ﴿ثُمّ لَنَنْسِفَنّه﴾ ولنَذرِيَنّه ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ والبحر رَماداً ومبروداً[3] ﴿نَسْفاً﴾ وذرَاً [بحيث] لا يبقىٰ منه عينٌ ولا أثر، حتى يعلَم أنّ ما يُحرَق ويُعْدَم آثارُه لا يكون قابلاً للعبادة.

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٢٢.
٢. مجمع البيان ٧: ٤٧، تفسير الصافي ٣: ٣١٨.
٣. في النسخة: مبرداً، وما أثبتناه من روح البيان ٥: ٤٢٢.

إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ ٱللهُ ٱلَّذِى لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً * كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَدُنَّا ذِكْراً * مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وِزْراً * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ حِمْلاً[٩٨ـ١٠١]

ثمَ عرّفهم إلهَهم بقوله: ﴿إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ﴾ المستحقّ للعبادة والتّعظيم ﴿ٱللهُ ٱلَّذِى لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدليل أنه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ وأحاط بكلّ شيءٍ خُبراً، يعلم عابده وعبادته، ومُطيعه ومِقدار استحقاقه من الثّواب، وعاصيه ومِقدار استحقاقه من العقاب.

ثمَ لمّا بيّن سبحانه قصّة موسى عليه السلام وفِرعون وهارون والسامري، بيّن عظمة شأن النبيّ وكتابه وأنّ جميعه بوحي الله بقوله: ﴿كَذٰلِكَ﴾ الحديث الذي قَصَصْناه، أو كَذلِك القَصّ البديع ﴿نَقُصُّ﴾ ونتلو ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمّد بالوَحي وبتوسّط جَبْرَئيل بعضاً ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ والحوادث الواقعة على الأُمَم السالفة ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ وأنزلنا إليك ﴿مِنْ لَدُنّا﴾ كتاباً عظيم الشأن يكون ﴿ذِكْـراً﴾ للعالَمين ورشاداً إلى مَهامّ الدنيا والدين، وتذْكرةً لنِعم الله، وموعظةً للمتّقين، أو يكون سبباً لبقاء ذِكْرك إلى يوم الدين.

ثمَ هدّد سبحانه المعرضين عنه بقوله: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ ولم يؤمن به، ولم يَهْتَدِ بِهُداه، ولم يتّعظ بمواعظه، ولم يَعْمل بأحكامه ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وِزْراً﴾ وعِقاباً ثَقِيلاً حال كون المعرضين ﴿خَالِدِينَ﴾ في العقاب وماكثين ﴿فِيهِ﴾ أبداً ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ وِزْرُهم، وقيل: يعني ما أسْوء هذا الوِزْر مَحْمُولاً[1]! قيل: إعادَة ذِكْر يوم القيامة لزيادة التقرير والتهويل[2].

يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُـجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً[١٠٢ـ١٠٤]

ثمَ ذكر سبحانه بعضَ أهوال القيامة بقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ قيل: إنّ التقدير أذْكُر يا محمّدُ لقومكَ يومَ يَنْفُخ إسرافيل في الصُّور[3] ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والعُصاةَ المتوغّلين في العصيان ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ من قُبورهم ﴿زُرْقاً﴾ وعُمياً.

وقيل: إنّ الزُرْقَةَ أسوء ألوان العين وأبغَضها عند العرب[4]. ورُوي أنّ الزُرْقَة وسواد الوجه سيماء

---

١. تفسر الرازي ٢٢: ١١٤.
٢. تفسير أبي السعود ٦: ٤١، تفسير روح البيان ٥: ٤٢٤.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٤٢٥.
٤. تفسير الصافي ٣: ٣١٩، تفسير روح البيان ٥: ٤٢٥.

أهل النار[١].

وقيل: إنّهم يَخرُجُون من قبورهم بُصراء زُرقاً أوّل مرّة، ويَعمُون في المحشر[٢].

وقيل: إنّه يتغيّر سَواد أعينهم من شدّة العطش حتى تَزْرَقّ[٣].

وقيل: إنّ الزُّرْق يعني الطامِعين في ما لا يَنالونه[٤].

والقمي، قال: تكون أعينهم مُزرقّةً لا يقدِرون أنْ يَطْرِفوها[٥].

﴿يَتَخافَتُونَ﴾ ويَتَسارُّون بالقول فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ من شدّة الرُّعب والهَوْل، أو من غاية الضَّعف بحيث لا يُمْكِنهم الإجهار في الصوت، ويقول بعضهم لبعضٍ في إسراره: ﴿إنْ لَبِثْتُمْ﴾ وما مَكَثتم في الدنيا، أو في القبر ﴿إلّا عَشْراً﴾ من الأيّام، أو الساعات استِقْصاراً لمدّة لَبْثهم فيها، وتحسُّراً على إضاعتها، مع إمكان تحصيل الرّاحة الأبَدِيّة فيها.

وقيل: يُريدون ما بين النَّفْخَتَين، وهو أربعون سنةً يُرفَع العذاب عن الكفّار في تلك المدّة، ويَستَقصِرون تلك المدّة إذا عاينوا أهوالَ القيامة، كما عن ابن عباس[٦].

وقيل: إنّهم لمّا عَلِموا بعُمر الآخرة، اسْتَقْصَروا عمرَهم في الدنيا بالنسبة إليه[٧].

وقيل: إنّهم لمّا رَأوا انقضاء عمر الدنيا وإتيان عُمر الآخرة، استقصروا عُمر الدنيا، لأنّ الذاهب قليلٌ بالنسبة إلى الآتي وإن قَصُرت مدّته[٨].

ثُمّ حكى سبحانه مبالغتهم في الاستقصار بقوله: ﴿نَحْنُ أعْلَمُ بِما يَقُولُونَ﴾ فِيما بَيْنهم ﴿إذْ يَقُولُ أمْثَلُهُمْ﴾ وأفضلهم ﴿طريقةً﴾ وأكْمَلُهم عقلاً. القمي: أعلمُهم وأصلحهم[٩]: (إنّ لبثتم) وما مَكَثتم في الدنيا ﴿إلّا يَوْماً﴾.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً[١٠٥ـ١٠٧]

ثُمّ أنّه تعالى بعد توصيف القيامة وذكر بعض أهوالها، حكى سؤال بعض منكري الحشر بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ﴾ حال ﴿ٱلجِبَالِ﴾ في الحشر، قيل: نزلت في مشركي مكّة حين قالوا استهزاءً: يا

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٢٥.
٢ و٣. تفسير الرازي ٢٢: ١١٤.
٤. تفسير الرازي ٢٢: ١١٥.
٥. تفسير القمي٢: ٦٤، تفسير الصافي ٣: ٣١٩.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٤٢٥.
٧. تفسير الرازي ٢٢: ١١٥.
٨. تفسير الرازي ٢٢: ١١٥.
٩. تفسير القمي ٢: ٦٤، تفسير الصافي ٣: ٣٢٠.

محمَد، كيف تكون الجبال يوم القيامة؟[١] فأمر الله نبيّه ﷺ أن يُجيبَهم بقوله: ﴿فَقُلْ﴾ في جوابهم ﴿يَنسِفُهَا﴾ ويَذْرَها ﴿رَبِّى﴾ في ذلك اليوم ﴿نَسْفاً﴾ وذَرّاً عجيباً بأن يجعلها هَباءً منثوراً. وقيل: يعني يُذهبها ويُطيّرها[٢] ويَقْلَعها.

عن النبي ﷺ أنّه سُئل كيف تكون الجبال مع عِظَمها يوم القيامة؟ فقال: «إنّ الله يسوقها بأن يجعلَها كالرِّمال، ثمّ يُرسِل عليها الرياح فتُفرّقها»[٣].

﴿فَيَذَرُهَا﴾ ويترك مراكزها ومحالّها حال كونها ﴿قَاعاً﴾ ومكاناً خالياً و﴿صَفْصَفاً﴾ ومُستوياً بحيث ﴿لَّا تَرَىٰ﴾ يا محمّد، مع قوةبصرك وبصيرتك، أو أيّها الرائي﴿فِيهَا عِوَجاً﴾وانخِفاضاً ﴿وَلَا أَمْتاً﴾ وَارْتِفاعاً يسيراً، وهذا تأكيد غاية استواءالأرض، ودفع توَهماجتماع فُتاتها فيموضع آخر.

وقيل: إنّ الأمتَ الانخِفاض والارتفاع[٤].

القمي: القاع: الذي لا تُراب فيه، والصَّفْصَف: الذي لا نبات له[٥]، والعِوَج: الحُزُون، والأمت: الارتفاع[٦].

وقيل: الأحوالُ الثلاثة مرتّبةٌ، فَالأوّلان باعتبار الإحساس، والثالث باعتبار المِقياس، ولذلك ذَكَر العِوج بالكسر، ويخُصّ المعاني[٧]، فإنّ الاعوجاجَ الذي لا يُدْرَك بالبصر ويُدرَك بالمِقياس مُلْحقٌ بالمعاني.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً * يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً[١٠٨و١٠٩]

ثُمَ أنّه تعالى بعد بيان استواء الأرض بحيث لا يغيب أحدٌ عن أحدٍ، بيّن كيفيّة الحشر بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ الّذي يَدْعُوهم إلى المحشر، وهو إسرافيل بالنفخة الثانية، أو مَلَك قائمٌ على صخرةِ بيت المَقْدِس ينادي ويقول: أيّتها العِظام النَّخِرة والأوصالُ المتفرّقة واللحوم الممزّقة، قُومي إلى ربّك للحساب والجزاء، فيسمعون صوت الداعي، فَيُقْبِلون من كلّ جانبٍ إلى جهته ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ ولا عدُول عنه، لعدم ما يوجب التعويج في الأرض، ولا ما يمنع النفوذ للصّوت على السواء، فيَتّبعون الصوتَ من غير انحرافٍ ﴿وَخَشَعَتِ﴾ وخُفِظت ﴿ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ من شدّة الفَزَع مع سَعَة

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٢: ١١٧.
٣. مجمع البيان ٧: ٤٨، تفسير الصافي ٣: ٣٢٠.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٤٢٨.
٥. تفسير القمي ٢: ٦٧، تفسير الصافي ٣: ٣٢٠.
٦. تفسير القمي ٢: ٦٤، تفسير الصافي ٣: ٣٢٠.
٧. تفسير الصافي ٣: ٣٢٠، وفي النسخة: بالمعاني.

رحمته، وخَفَتت لهيبته ﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ أصواتَهم ﴿إِلَّا هَمْساً﴾ وخَفيّاً.

قيل: لا يُسمَع إلّا صوت أقدامهم[1].

وعن بعض العامة: يُنْفَخ في الصور النفخة الأولى، فتتطاير الجبال، وتتفجّر الأنهار بعضها في بعضٍ، فيمتلئ الهواء ماءً، وتُنْثَر الكواكب، وتتغيّر الأرض والسماء، ويموتُ العالَمون، فتخلو الأرض والسماء، ثُمّ يكشِف سبحانه عن بيتٍ في سَقَر، فيخرُج لَهَبٌ من النار فيشتعل في البحور فتَنْشَف، ويَدَع الأرض حمأةً[2] سوداء، والسماوات كأنّها عَكَر[3] الزيت والنُحاس المُذاب.

ثُمّ يَفْتَح الله تعالى خِزانةً من خزائن العرش فيها بحر الحياة، فيُمطِر به الأرض، وهو كمَنيّ الرجال، فتَنْبُت الأجسام على هيئتها، الصبيّ صبيٌّ والشيخ شيخ وما بينهما، ثمّ تَهُبّ من تحت العرش ريحٌ لطيفة، فتبرُز الأرض ليس فيها جبلٌ ولا عِوَجٌ ولا أمْت، ثمّ يُحيي الله إسرافيل، فينفُخ من صخرة بَيْتِ المَقْدس، فتخرُج الأرواح من ثَقبٍ في الصُّور بعددها، ويحُلّ كلّ روح في جسده حتّى الوحش والطير، فإذا هُم بالسّاهرة، أي بِوَجه الأرض بعد أنْ كانوا في بطنها[4].

وعن الباقر عليه السلام: «إذاكان يوم القيامة جمع الله عزّ وجلّ الناسَ في صَعيدٍ واحدٍ حُفاة عُراة، فيُوقَفون في المحشر حتى يَعْرَقوا عَرَقاً شديداً وتشتدّ أنفاسهم، فَيَمكُثون في ذلك مِقدارَ خمسين عاماً، وهو قول الله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾ ثمّ ينادي منادٍ من تِلْقاءِ العرش: أينَ النبيّ الأمّي؟ فيقول الناس: سَمّ باسمه، فينادي أين نبيّ الرحمة؟ أين محمّد بن عبدالله الأمّي؟

فيتقدم رسول الله صلى الله عليه وآله أمام الناس كلّهم حتى ينتهي إلى حوضٍ طوله ما بين أيله وصَنعاء، فيقف عليه فينادي بصاحبكم، فيتقدم عليّ عليه السلام أمام الناس فيقف معه، ثمّ يُؤذَن للناس فيمرُّون فَبَيْنَ واردٍ على الحوض وبين مصروفٍ عنه.

فإذا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله من يُصْرَف عنه من محبّينا بَكى فيقول: يا رب شيعة عليّ أراهم صُرفوا تِلقاءَ أصحاب النار، ومُنِعوا عن ورُود الحوض! فَيَبْعَث الله إليه مَلَكاً فيقول له: ما يُبْكِيك يا محمّد؟ فيقول: لأناسٍ من شيعة علي، فيقول المَلَك: إنّ الله يقول: يا محمّد، إنّ شيعة عليّ قد وهبتُهم لك، وصَفَحتُ عن ذنوبهم لِحُبّهم لك ولِعِتْرتك، وألحقتُهم بك، وجعلتُهم في زُمْرتك فأورِدْهم حوضَك».

ثمَ قال أبو جعفر عليه السلام: «فكَم من باكٍ يومئذٍ وباكيَةٍ يُنادون: يا محمّد[اه] إذا رأوا ذلك» الخبر[5].

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١١٨، تفسير روح البيان ٥: ٤٢٨.
٢. الحَمأ: الطين الأسود المنتن.
٣. العَكَر: الراسب من كل شيء.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٤٢٨.
٥. تفسير القمي ٢: ٦٤، تفسير الصافي ٣: ٣٢٠.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ﴾ من الشُّفعاء واحداً ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ﴾ في أن يُشْفَعَ ﴿لَهُ ٱلرَّحْمٰنُ﴾ وأجاز ﴿وَرَضِيَ لَهُ﴾ ولأجله ﴿قَوْلاً﴾ مِن الشَّفيع في حقّه، أو المراد إلّا شفاعة من أذِن [له] الله في الشفاعة، ورَضِي للشّافع قولاً لمكانته عند الله، فإنّ الشفاعة مَنْصبٌ عَظِيمٌ لا يَحْصُل إلّا لمن كان مأذوناً فيها ومرضيّاً عند الله.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً [١١٠ ـ ١١٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان اشتراط قَبول شَفاعة الشّافِع بكونه مَأذوناً فيها، أو كون المشفوع لَهُ مرضيّاً عند الله، بيّن إحاطةَ عِلْمه تعالى بأحوال العباد بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وما تقدّمهم من الأحوال، أو من اُمور الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وما بعدهم ممّا يستقبلونه، أو ما وراءهم من اُمور الدنيا.

وقيل: ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وما خَلْفهم من أمر الآخرة والثواب والعقاب[١].

وقيل: يعني يَعْلَم ما مَضى من اُمور الدنيا، وما بَقِي منها، ومَتى تكون القيامةِ[٢]. ﴿وَ﴾ هم ﴿لَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ تعالى، أو بما بَيْنَ أيديهم وبما خَلْفَهم ﴿عِلْماً﴾.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يُحِيط الخلائقُ بالله عزّ وجلّ عِلْماً، إذ هو تَبارك وتَعالى جَعَلَ عَلىٰ أبصارِ القُلوبِ غِطاءً، فلا فَهْم يَنالُه بالكَيْف، ولا قَلْب يُثْبته بالحدّ فَلا نَصِفُه إلّا كما وَصَف نَفْسَه: ﴿لَيْس كَمِثْلِه شَيء وَهُو السَّميع البَصِير﴾[٣] الأوّل، والآخر، والظّاهِر، والباطِن، والخالِق، البارئ، المُصَوِّر، خَلَق الأشياءَ وَلَيْس مِن الأشياء شيء مِثْلُه[٤].

﴿وَ﴾ يومئذٍ ﴿عَنَتِ﴾ وذَلّت ﴿ٱلْوُجُوهُ﴾ وصارَ النّاسُ كَالأُسارىٰ[٥] ﴿لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ والمُوجِد المؤثّر الدّائم، فلا يُمْكِنُهم الامتناعُ ممّا ينزل بهم من المُجازاة، ولا يَقْدِرونَ على مُعارَضة خالقهم كما كانوا يتخيّلون لأنفسهم الاستقلال في الاُمُور في الدنيا ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وحُرِم من الثواب ونَيل النِّعمة والراحة ﴿مَنْ حَمَلَ﴾ وَارْتَكَب ﴿ظُلْماً﴾ وعصياناً.

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «اُطْلُبوا اسمَ اللهِ الأعظَم في هذه السُّور الثلاث: البقرة، وآل عِمران، وطه»[٦].

قال الرازي: فوجدنا المشترك في تلك السور ﴿الله لا إله إلّا هُوَ الحَيّ القَيُّوم﴾[٧].

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١١٩.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ١١٩.
٣. الشورى: ١١/٤٢.
٤. التوحيد: ٥/٢٦٣، تفسير الصافي ٣: ٣٢١.
٥. في النسخة: كالأسير.
٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٠، تفسير روح البيان ٥: ٤٣١.
٧. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٠.

ثُمّ خَتَمَ الله تعالى بَيَانَ أحوال القيامة ببيان حُسن حال المؤمنين بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ في الدنيا شَيئاً ﴿مِنَ الصَّالِحاتِ﴾ والأعمالِ الحسنات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ في الآخرة ﴿ظُلْماً﴾ وعِقاباً بلا جُرْم، أو مَنْعَ ثوابٍ من القيام بالطّاعة ﴿وَلَا هَضْماً﴾ ونقصَ ثوابٍ بما يستحقّه.

وقيل: يعني لا يَخافُ نقص الثّواب، ولا عَدَم توفية الإعظام والإكرام، أو الزيادة على سيّئاته، والتنقيص من حسناته[1].

عن الباقر عليه السلام: «﴿هَضْماً﴾ يعني لا يُنقَص من عمله شيءٌ، وأمّا ﴿ظُلْماً﴾ يقول لن يذهب به»[2].

وَكَذٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً * فَتَعَالَى ٱللهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَبِّ زِدْنِى عِلْماً[١١٣ و ١١٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان كثيرٍ من المطالب العالية، كأهوال القيامة، وحال المجرمين والمؤمنين فيها، بيّن لُطفه على الناس بإنزال القرآن بقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ الإنزال لما سبق من الآيات المتضمّنة للوَعْد والوَعِيد في هذا الكتاب ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ بتمامه حال كونه ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ لِتَفهَمه العربُ، فيَقِفوا على إعجازه وحُسن نَظْمه وأسلوبه وخُروجه من سِنخ كلام البشر ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ وكرّرنا أو فصّلنا ﴿فِيهِ﴾ مقداراً كثيراً ﴿مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ والتّهديد على الكفر والعِصيان بالعذاب الدنيوي كالطُّوفانِ والغَرَق والخَسْف والرَّجْفة وأمثالها، والعذاب الأُخْرَوي كأهوال القيامة وأنواع عذاب النار ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ويحترزون من الكفر والعِصيان ﴿أَوْ يُحْدِثَ﴾ ويُوجِد ﴿لَهُمْ ذِكْراً﴾ وَانْتِباهاً تَتِمّ به الحُجّة عليهم.

وقيل: إنّ المعنى: لِيَتّقوا، فَإنْ لم تَحصُلْ لهم التقوى، فلا أقلّ مِن أنْ يُحدِثَ القرآن لهم ذِكْراً وشَرَفاً وَصِيتاً حَسَناً[3].

ثمّ أعظَم ذاتَه المقتضي لتعظيم ما نزل منه بقوله: ﴿فَتَعَالَىٰ ٱللهُ﴾ وارتفع بذاته وصفاته عن مماثلة مخلوقاته، وهو ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ والسُّلطانُ النافِذ الأمْر وَالنَّهي، الحقيقُ بِأنْ يُرجى بوعده، ويخشى من وعيده، و﴿الْحَقُّ﴾ الثابتُ في مَلَكُوتِهِ وأُلُوهيّته بحيث يمتنع زَوال مُلكه، وتغيّر سُلطانه، واستعانته بخلقه، وحاجته إلى إيمانهم وطاعتهم، وإنّما أنزلَ الكتابَ لِنَفْعِهم، وتَكْمِيل نَقْصِهم، وتَهْذِيب

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٣١.
٢. تفسير القمي ٢: ٦٧، تفسير الصافي ٣: ٣٢٢.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٢١.

نفوسهم، وحُصول استعدادهم لِنَيْل فيوضاته ورحمته، فمن كان بهذه المرتبة من القدرة والرَّحمة والإحسان، [فهو] قادرٌ على حِفظك من السَّهو في وحيه والنسيان في كلامه ﴿وَ﴾ لِذا ﴿لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ ولا تُسرِع إلى قراءته وحِفظه خوفاً من النسيان والانفلات ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ﴾ ويُؤدّى ﴿إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ ويتِمّ جَبْرَئيل قراءته عليك ﴿وَقُل رَبِّ زِدْنِى عِلْماً﴾ بالقرآن، وفَهْماً لِحقائقه وتنوّراً بأنواره.

عن ابن عباس قال: كان ﷺ يحرِص على أخذ القرآن من جَبْرَئيل، فيعجَل بقراءته قبل إتمام[١] جَبْرَئيل مخَافة النسيان، فقال تعالى: لا تَعْجَل به إلى أنْ نَستتمّ[٢] وحيه، فيكون أخْذك إيّاه عن تَثبُّت وسُكونٍ، والله تعالى يَزيدك فَهْماً وعِلْماً[٣].

وعن مجاهد: أي لا تَعْجَل بالقرآن فتقرأه على أصحابك قَبلَ أن يُوحي إليك بيان مَعانيه[٤].

وعن الضحاك: أنّ أهل مكّة وأُسقُف نَجران قالوا: يا محمّد، أخْبِرنا عن كذا وكذا، وقد ضَرَبنا لك أجلاً ثلاثة أيام فأبطأ الوَحْي عليه، وفَشَت المقالة بأنّ اليهود [قد] غَلَبوا محمّداً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ أي بنزوله من قبل أنْ يُقْضى إليك وحيه من اللّوح المحفوظ إلى إسرافيل، ومنه إلى جَبْرَئيل، ومنه إليك ﴿وَقُل رَبِّ زِدْنِى عِلْماً﴾[٥].

عن النبيّ ﷺ قال: «إذا أتى عليّ يومٌ لا أزْدادُ فيه عِلْماً يُقرّبني إلى الله، فلا بارَكَ الله لي في طُلوع شمسه»[٦].

قيل: إنّ موسى عليه السلام سأل الله تعالى زيادة العِلم فأحالَه الله إلى الخِضْر، وسأل نبيّنا ﷺ زيادة العلم ولم يُحِلْه إلى غيره، بل علّمه في مكتب ﴿أدّبَنِى رَبّى﴾ وقال: ﴿علّمكَ ما لم تَكُن تَعْلَم﴾[٧].

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً[١١٥]

ثمّ لمَا أمر الله تعالى نبيّه ﷺ بطلب ازدياد العلم المستلزم لِحِفْظه من السهو والنسيان، ذَكَر سبحانه نِسيانَ آدم وزلّته، أو لمَا ذكر اهتمام النبي ﷺ بالتّحفظ في أمر الدين وحِفْظ القرآن، ذَكَر قلّة اهتمام آدم بالمحافظة لعهده بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ وَوَصّيناه بوصيّة لازمة الرّعاية، وهي النَّهْي عن الأكلِ مِن الشَّجرة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وَفي الأزمِنَة السابقة. وعن ابن عباس: من قبل أن يأكُلَ من الشجرة[٨]

---

١. في تفسير الرازي: استتمام.
٢. في تفسير الرازي: يستتم.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٢.
٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٢.
٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٢.
٦. مجمع البيان ٧: ٥٢، تفسير الصافي ٣: ٣٢٢.
٧. تفسير روح البيان ٥: ٤٣٢.
٨. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٤.

﴿فَنَسِيَ﴾ وَتَرَكَ الاهتمامَ بالعملِ بالعهد ﴿وَلَمْ نَجِدْ﴾ ولم نَعْلَم ﴿لَهُ عَزْماً﴾ وثَباتاً على العهد، وتَصَلُّباً في امتثال النهي، فأزَلّه الشيطان وغرّه.

عن النبيّ ﷺ: «لو وُزِنت أحلام بني آدم بِحِلم آدم لرجَح حِلمه» وقد قال تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ والمعنى أنّ آدم مع ذلك الحلم أثّرت فيه وَسوَسة الشيطان، فكيف في غيره؟[1]

عن الباقر عليه السلام: «أنّ الله تعالى عَهِد إلى آدم أنْ لا يقرَب هذه الشجرة، فلمّا بلغ الوقت الذي كان في عِلْم الله أنْ يأكُلَ منها نَسِيَ فأكل منها»[2].

وعنه عليه السلام: «أنّ الله قال لآدم وزوجته لا تَقْرباها، يعني لا تأكُلا منها فقالا: نعم، ولا يَسْتَثنِيا في قولهما فوكَّلَهُمَا إلى أنْفُسِهما وَإلى ذِكرْهما»[3].

وعن الصادق عليه السلام: «سُمّيَ الإنسان إنساناً لأنّه يَنْسى، قال الله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾»[4].

وعن أحدهما عليهما السلام أنه سُئل: كيف أخَذَ اللهُ آدمَ بالنسيان؟ فقال: «إنّه لم يَنْس، وكيف يَنْسىٰ وهو يذكّره ويقول له إبليس: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ إلى أخره»[5].

أقول: لا يُمكن كونُ المرادِ بالنسيان ما يقابل الذِّكر؛ لأنّه لا يجوز النسيان على النبيّ في وقتٍ مع أنّ الله علّمه الأسماءَ كلَّها، وأنّ الروايات الكثيرة دالة على تذكّره النّهي، فالأولى بل المتعيّن حمل النسيان على التّرك.

عن الباقر عليه السلام قال: «عَهِد اللهُ إليه في محمّد والأئمّة من بعده فتَرك، ولم يكن له عزمٌ فيهم أنّهم هكذا، وإنّما سُمّوا أُولُو العزم لأنّه عَهِد إلَيهم في محمّد ﷺ وَالأوصياء من بعده والمهدي وسيرته، فأجمع عزمهم أنّ ذلك كذلك وأقرّوا به»[6].

وعنه عليه السلام ـ في حديث ـ قال: «وأخذ الميثاق على أُولِي العزم: أنّني ربّكم، ومحمّد رسولي، وعلي أمير المؤمنين وأوصياءه من بعده ولاة أمري وخُزّان عِلْمي، وأنّ المهديّ أنْتَصِر به لِدِيني، وأُظهِر به دولتي، وأنتَقِم به من أعدائي، وأُعْبَد به طوعاً وكَرهاً. قالوا: أقْرَرنا وشَهِدنا، ولم يَجْحَد آدم ولم يُقِرّ، فثبتت العزيمة لِهؤلاء الخمسة في المهدي، ولم يكن لآدم عزمٌ عَلَى الإقرار به، وهو قوله تعالى:

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٣٤.

٢. الكافي ٨: ٩٢/١١٣، كمال الدين: ٢/٢١٣، تفسير الصافي ٣: ٣٢٣.

٣. الكافي ٧: ٢/٤٤٨، تفسير الصافي ٣: ٣٢٣.

٤. علل الشرائع: ١/١٥، تفسير الصافي ٣: ٣٢٣.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٥٥١/١٣٨، تفسير الصافي ٣: ٣٢٣.

٦. بصائر الدرجات: ١/٩٠، علل الشرائع: ١/١٢٢، تفسير الصافي ٣: ٣٢٣.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ قال: إنّما هو فَترك»[1].

أقول: لابُدّ من إيكال العلم بالمراد من هذه الروايات إلى الراسخين فيه.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدىً فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ [١١٦ ـ ١٢٧]

ثمّ بيّن سبحانه قضية ترك عمل آدم بالعهد بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾.

قيل: إنّ المراد اذكُر يا محمّد حالَ آدم في ذلك الوقت ليتبيّن لَكَ أنه نَسِي ولم يكن من أُولي العزم[2].

﴿فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هٰذَا﴾ الشيطان ﴿عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ حوّاء ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ بتَسْويله ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ التي تَسكُنان فيها ﴿فَتَشْقَىٰ﴾ وتُحْرَم عن نِعَمها والسُّكونة فيها، وتَبْتلِيان بالمتاعب في الأرض، وإنّما أسْنَد الشَّقاء إلى آدم عليه السلام مع أنّه وزوجته شريكان فيه، لاستِلْزام ابتلائه ابتلاءها مِن حَيثُ كُونه قيّماً عليها، وكونها تابعَةً له.

ثمّ بيّن سبحانه السعادة التي يكون له فيها بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ﴾ ما دُمتَ ﴿فِيهَا﴾ لِحُضُور أنواع المأكولات عندك ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾ مِن الثّيابِ لِكَون المَلْبُوسات موجودةً لَديك ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا﴾ ولا تَعْطَش ﴿فِيهَا﴾ لكون الأنهار جاريةً في أطرافِك ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ ولا تُصيبك حرارة

---

١. بصائر الدرجات: ٢/٩٠، تفسير الصافي ٣: ٣٢٤.
٢. تفسير البيضاوي ٢: ٥٩، تفسير روح البيان ٥: ٤٣٤.

الشَّمس؛ لأنّ الظِلّ فيها ممدودٌ ﴿فوَسْوَسَ﴾ مع ذلك ﴿إِلَيْهِ ٱلشَّيْطانُ﴾ حيث ﴿قَالَ﴾ بصورة النُّصح: ﴿يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ حتى تأكُلَ منها فتَدُوم حياتُك وراحتُك ﴿وَ﴾ عَلىٰ ﴿مُلْكٍ﴾ وسَلْطَنَةٍ ﴿لَّا يَبْلَىٰ﴾ وَلا يَزُول، فيَدُوم انتظام مَعيشتك، فكَأنّه قالَ آدمُ: نعم، فدلَّه على الشجرة المنهيّة، فقرُب هو وزوجته تلك الشجرة ﴿فَأَكَلا مِنْها﴾ طَمَعاً في ما وَعَدَهُمَا الشَّيطانُ، فَهَبَت رِيح فَألقت التاج من رأسِهما، واختَطَفت الحُلل من جَسَدِهما ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ وَظَهَرَتْ في نَظَرِهما عَوراتُهما لِعصيانهما نَهْي رَبِهما ﴿وَطَفِقا﴾ وشَرَعاً ﴿يَخْصِفَانِ﴾ ويُلزِقان ﴿عَلَيْهِما﴾ لِلسَّتر ﴿مِنْ وَرَقِ﴾ تِين ﴿ٱلجَنَّةِ﴾.

قيل: كان وَرَقُ التِين مدوَراً، فصار بهذا الشكل من أصابِعِهما[1].

﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ وخالَفَ عَهْدَه ﴿فَغَوىٰ﴾ وَضَلَّ عن مَطْلُوبِه، وهو الخُلود أو التَّباعُد من الشجرة المنهيّة ﴿ثُمَّ اجْتَباهُ﴾ وَاصْطَفاه ﴿رَبُّه﴾ بِالتَّوفيق للتَّوبة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ وقَبِل توبتَه وتوبة زوجتِه حِين تابا إليه ﴿وَهَدَا﴾ هُما إلى الثَّباتِ على التوبة والتَمَسُّك بالعِصمة، ثمّ عاتبَ سبحانه آدَمَ عليه السلام والشيطانَ و﴿قَالَ﴾ لَهُمَا: اخْرُجا مِنَ الجَنّة وَ﴿اهْبِطَا﴾ وَانْزِلَا إلى الأرْضِ ﴿مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

ثمّ خاطَبَ ذُرّيّة آدمَ بقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّى هُدىً﴾ مِن رَسُولٍ وَكِتاب ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ وأطاعَ رَسُولِي وعَمِل بدِيني وكِتابي ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ عن الصّراط ودِين الحقّ أبداً ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة بالابتلاء بالعقوبة.

وقيل: إنّ الخِطاب في قوله: ﴿اهْبِطَا﴾ لآدم وحوّاء وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وما بعده لِذريّتهما[2].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ والرسولِ المبعوثِ من قِبَلي، والكتابِ المنزل مِنّي ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ في الدنيا، أو في القَبْر، أوْ فِيهَا وفي الآخرة ﴿مَعِيشَةً ضَنكاً﴾ وَضِيقاً وذات شدَّة، أمّا في الدُّنيا فإنّه - ولو كان ذا ثَروةٍ ومالٍ - مشغولُ القلب بِجَمْعِه وحِفْظِه، ومتالم دائماً ممّا يَرِد عليه، وحريص على ازدياده وخائف من نَقْصه، وَأمّا في الآخِرَة فَإنّ مَأواهُمْ جَهَنّم، طَعامُهُمْ فِيها زَقُّومٌ وضَرِيعٌ، وشَرابُهم حَمِيمٌ وَصَدِيدٌ.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «المعيشة الضَّنْك عذابُ القَبْرِ وضَغْطَته»[3]. وقيل: هو الكسب الحرام[4]. وقيل: إنّه ضِيق أبواب الخيرات عليه[5].

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٣٧.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٩.
٣ و٤. مجمع البيان ٧: ٥٥.
٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٣١.

﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ وَنَبْعَثُه مِن قبره ﴿يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ﴾ وهو ﴿أَعْمىٰ﴾ وفاقد البَصَر لَفقْد بَصِيرته في الدنيا. وقيل: يعني أعمى عن طريق الخير، فَيَبقىٰ متحيّراً[١].

﴿قَالَ﴾ ذلك المُعْرِض عن الذِّكر: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ﴾ في الدنيا ﴿بَصِيراً قَالَ﴾ الله في جوابه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الجزاء كنت تستحقّه لأنّك ﴿أَتَتْكَ﴾ في الدنيا ﴿آيَاتُنَا﴾ والدلائل الدالّة على التوحيد والمعاد ورسالة الرُّسل ﴿فَنسِيتَها﴾ وتركتَ النَّظَر والتفكّر فيها والإيمان بها.

وقيل: يعني مثلَ ذلك فعلتَ أنتَ[٢] حيث إنّك أتتك آياتنا فنَسِيتَها ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ النسيان الذي صدر منك في الدنيا ﴿الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ وتُتْرَك في العَمى والعذاب ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الجزاء المناسب للعِصيان ﴿نَجْزِى﴾ كلّ ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾ وأصرّ في إتيان القبائح والآثام، وتجاوزَ عن الحدّ في العِصيان، وكانَ مِن سَرَفه أنّه لم يُصدّق ﴿وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ وبَراهين توحيد خالقه ومُنْعمه ﴿وَ﴾ واللهِ ﴿لَعَذَابُ الآخِرة﴾ بالنّار وما فيها من الشدائد، لغاية عظمته ﴿أَشَدُّ﴾ من عذاب الدنيا، ومعيشة الضَّنْك ﴿وَأَبْقىٰ﴾ وأدْوَم مِنه لأنّه لا انقطاع له.

عن الصادق عليه السلام: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾ قال: «هو والله النُّصّاب» قيل له: إنّا رأيناهُم في دَهْرِهِم الأطْوَل في الكفاية حتى ماتُوا؟ قال: «ذلك في الرجعة، يأكُلون العَذِرَة»[٣].

وعنه عليه السلام في وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ قال: «ولاية أمير المؤمنين عليه السلام» ﴿أَعْمَىٰ﴾ قال: «يعني أعْمَى البَصَر في الآخرة، وأعْمَى القَلْب في الدنيا عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وهو متحيّرٌ في القيامة يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَىٰ﴾ الآية». قال: «الآيات الأئمة ﴿فَنَسِيتَها﴾ تَرَكْتَها ﴿وَكَذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي تُتْرَك في النّار كما تَرَكْتَ الأئمّة فلم تُطِع أمرهم ولم تَسمع قولهم»[٤].

وعنه عليه السلام: سُئل عن رَجُل لم يَحُجّ قَطّ وَله مالٌ. فقال: «هو ممّن قال الله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾» قيل: سُبحانَ الله أعْمىٰ؟ فقال: «أعْماهُ الله عَن طَرِيقِ الخَيْر»[٥].

وعن القمي: «عَنْ طَرِيقِ الجَنَّة»[٦].

وعنه عليه السلام في قوله: ﴿وَكَذٰلِكَ نَجْزِى﴾ الآية «يعني مَنْ أشْرَكَ بِولاية أمير المؤمنين عليه السلام غيرَه ﴿وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ تَرَكَ الأئِمّة مُعاندةً، فلم يَتّبع آثارَهم ولم يَتَولَّهم»[٧].

---

١. مجمع البيان ٧: ٥٦. ٢. تفسير أبي السعود ٦: ٤٨.
٣. تفسير القمي ٢: ٦٥، تفسير الصافي ٣: ٣٢٥، وفي النسخة: يأكلون الغدق.
٤. الكافي ١: ٩٢/٣٦١، تفسير الصافي ٣: ٣٢٥.
٥. من لا يحضره الفقيه ٢: ١٣٣٢/٢٧٣، مجمع البيان ٧: ٥٦، تفسير الصافي ٣: ٣٢٥.
٦. تفسير القمي ٢: ٦٦، تفسير الصافي ٣: ٣٢٦. ٧. الكافي ١: ٩٢/٣٦١، تفسير الصافي ٣: ٣٢٦.

أقول: هذه الروايات في تأويل الآيات لا تَفْسيرها.

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ * وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى [١٢٨ و ١٢٩]

ثمَ وَبَّخ سبحانه المُعْرِضين عن الآيات بعدم اعتبارهم بما نزل عَلَى الأمَم الماضية من العذاب بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ قيل: إنّ المعنى أغفلُوا فلم يتبيَّن لهم[١] أنّا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ وفي الأعْصارِ السّابقَة على عَصْرهم ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ وَالأُمَمِ المكذِّبة لرسلهم المُعْرِضة عن آيات رَبِّهم وهم ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ﴾ غافِلين آمِنين ممّا نزل بهم.

وقيل: يعني وقُرَيش المُعْرِضون عن الآياتِ يَمْشُون في مَساكِن اُولئكَ الأُمَم المُهلَكة وقُراهُم، كَقُرى ثَمُود، وقَوم لُوط، وأصحاب الحِجْر، حين مسافرتهم إلى الشّام، ويُشاهِدُون الآثار الدالّة على ما كانوا عليه من النِّعم، وما حَلَ بهم من أنواع العذاب والهلاك[٢].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ العذاب النازل على الأمَم السّابقة بتكذِيبهم الرسل وإعراضهم عن معجزاتهم، والله ﴿لَآيَاتٍ﴾ على توحيد الله وقهّاريته ﴿لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ﴾ والعقول السَّليمة الناهية عن القبائح والأعمال السيّئة.

ثمَ بيّن سبحانه علّة تأخير العذاب عن المُعْرِضين عن الرسول ومعجزاته بقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ وَعِدَةٌ ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخيرِ عذابِ هذه الأمّة إلى القيامة ببركة الرسول ﴿لَكَانَ﴾ العذابُ في هذه الدنيا على كُفرهم وعنادهم للحقّ ﴿لِزَاماً﴾ وواجِباً فوريّاً بحيث لم يتأخَر عن جِناياتهم ساعة، كما صار لازِماً للماضينَ من الأُمَم المكذّبة ﴿وَ﴾ لولا ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لأعمارِهم، أو لِنزول العذاب عليهم، وهو يوم بدر أو القيامة، لَما تأخَر عنهم أصلاً.

قيل: الفصل بين المعطوف وهو ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ والمعطوف عليه وهو ﴿لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ للدَّلالة على استقلالِ كلّ واحدٍ منهما في مانعيّة نزول العذاب[٣].

القمي قال: اللِّزامُ الهَلاك، قال: يَعْني كان يَنْزل بهم العَذابُ، ولكن قد أخَرهم إلى أجل مُسَمى[٤].

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ٤٩، تفسير روح البيان ٥: ٤٤٣.

٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٢، تفسير أبي السعود ٦: ٤٩، تفسير روح البيان ٥: ٤٤٣.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ٤٩، تفسير روح البيان ٥: ٤٤٣.

٤. تفسير القمي ٢: ٦٦، تفسير الصافي ٣: ٣٢٦.

وَمِنْ آنَاءِ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ [١٣٠]

ثمّ لمّا أخبر الله تعالى نبيّه ﷺ بتأخير عذاب قومه، أمَره بالصبر على أذاهُم بقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمّد ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مِن أنّك ساحرٌ أو كاهنٌ أو مجنونٌ أو شاعرٌ أو غيرها ﴿وَسَبِّحْ﴾ ونَزّه مُقارناً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أوْصَلِّ حامِداً له تعالى على ما أنعم عليك من الرسالة ودين الحقّ والتّوفيق للقيام بوظيفة العبوديّة وقوّة الصبر ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

في فضيلة ذكر الله قبل طُلُوع الشمس وقبل الغروب

رُوي أنّ الذِّكر والتسبيح إلى طلوع الشمس أفضل من إعتاق ثمانين رَقَبَة مِن وُلد إسماعيل[1].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن هذه الآية فقال: «فريضة على مُسلِم أنْ يقولَ قبل طُلوعِ الشمس عَشْر مرّات وقبل غُروبها عَشْر مرّات: لا إله إلّا الله وَحْدَه لا شَريكَ لَه، لَهُ المُلك ولَه الحَمْد، يُحْيي وَيُمِيت وَيُمِيت وَيُحْيِي وَهو حَيّ لا يَموتُ، بِيَده الخَيْر وَهُوَ عَلى كلّ شَيء قَدِير»[2].

﴿وَ﴾ بعضاً ﴿مِنْ آنَاءِ ٱللَّيْلِ﴾ وساعاته ﴿فَسَبِّحْ﴾ اللهَ وقَدّسه ﴿وَ﴾ كذا ﴿أَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ فسبّحه، وإنّما قدّم الوقت للدّلالة على مَزيد الفضل.

وقيل: إنّ المراد بالتّسبيح الصلاة التطوّعية[3].

وعن الباقر عليه السلام: «التَطَوّع بِالنّهار»[4].

﴿لَعَلَّكَ﴾ تَنال عنده تعالى ما ﴿تَرْضَىٰ﴾ به من المَقامِ المَحْمُود، أو الشفاعة، أو النِّعم العظيمة.

عن ابن عبّاس: دَخَلت الصَّلَوات الخَمْس فيه؛ فقبل طُلوع الشمس: هو صلاة الفجر، وقبل غرُوبها: هو الظهر والعصر؛ لأنّهما جميعاً قبل الغُروب، ومن آناء الليل فسبّح: المغرب والعِشاء الآخرة[5].

وقيل: إنّ قوله: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ يكون تأكيداً للصّلاتين[6] الواقِعَتَين في طَرَفَي النّهار، وهما صلاة الفَجر والمَغرِب[7].

وإنّما أمَرَه الله بعد الأمر بالصَّبر بالتّسبيح وَالصّلاة؛ لأنّ ذِكْر الله والتوجّه إليه يُفيد السُّكون والراحة للقلوب، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللهِ تَطْمَئِنّ ٱلْقُلُوبُ﴾[8].

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٤٤.
٢. الخصال: ٥٨/٤٥٢، تفسير الصافي ٣: ٣٢٦.
٣. تفسير الصافي ٣: ٣٢٧.
٤. الكافي ٣: ١١/٤٤٤، تفسير الصافي ٣: ٣٢٧.
٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٣.
٦. في النسخة: للصلاة.
٧. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٣.
٨. الرعد: ٢٨/١٣.

فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ[١٣١]

ثمّ نَهى سبحانه نبيّه ﷺ عن التوجّه إلى الزّخارفِ التي بِيَد المشركين والرَّغْبَة إلى دُنياهم بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ولا تُطلِنَ نَظَرك استِحساناً وَإعجاباً ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا﴾ ونَفَعنا ﴿بِهِ﴾ من الزّخارف الدنيويّة ﴿أَزْوَاجاً﴾ من الكُفّار وأصنافاً ﴿مِنْهُمْ﴾ كالوَثَنِيّ، واليهود، والنصارى وغيرهم، إنّها تكونُ ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وَزِينَتها وبَهجَتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ ونَختَبِرهم ﴿فِيهِ﴾ أو نُعَذّبهم به ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ وعَطاؤه من الكَفاف في الدنيا والثواب في الآخرة، أو الهُدى والنبوّة ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ممّا عند الكَفرة من الأموال الوفيرة ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ وأدوم لعدم انقطاعه أبداً.

رُوي أنّه نَزَل ضيفٌ بالنبيّ ﷺ، قال الراوي: فَبَعَثَنِي إلى يَهُودي لِبَيْعٍ أو سَلَفٍ فقال: والله لا أفْعَل ذلك إلّا بِرَهْن، فأخبرتُه بقوله، فأمرني أن أذهَب بِدِرعه إليه، فنزلت الآية[١].

وقال ﷺ: «إنّ الله لا يَنْظُر إلى صُوركم، ولا إلى أمْوالكم، ولكن يَنْظُر إلى قُلوبكم وأعمالكم»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «لمّا نزلت الآية استوى رسول الله ﷺ جالساً ثمّ قال: مَن لم يتعزّ بعَزاء الله تقطَّعت نفسه على الدنيا حَسَرات، وَمَنِ اتّبَع بصره ما في أيدي الناس طالَ هَمُّه ولم يُشْفَ غَيظُه، ومن لم يَعْرِف أنّ لله عليه نعمةً إلّا في مَطْعم أوْ مَشْرب قَصُر أجَلُه ودَنا عَذابُه»[٣].

وعنه عليه السلام: «إيّاك أنْ تطمَح بَصَرك إلى مَن [هو] فوقك، وَكَفى بما قال الله عزّ وجلّ لِرَسوله ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أموالهم ولا أولادهم﴾[٤] وقال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية»[٥].

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ[١٣٢]

ثمّ بعد أمره تعالى نبيّه ﷺ بالتّسبيح والصلاة، أمره أنْ يأمُرَ أقاربَه بها بقوله: ﴿وَأْمُرْ﴾ يا محمّد ﴿أَهْلَكَ﴾ وخاصّة أقاربك ﴿بِالصَّلَاةِ﴾ كما أمرناك بها ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ وداوِمْ أنت وهم ﴿عَلَيْهَا﴾ و اجتَهِدوا فيها، فإنّا بأمْرنا هذا ﴿لَا نَسْأَلُكَ﴾ ولا نَطلُب منك ﴿رِزْقاً﴾ ونفعاً لَنا فإنّا ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾.

وقيل: يعني لا نُكَلّفك أن تَرْزُق نفسك وأهلك، بل نحن نَرْزُقك ونَرزُق أهلَك في الدنيا بوجوه النِّعم، وفي الآخرة بِعَظائم الثّواب[٦]، ففرّغ بالَك لِلعبادة وَأمْر الآخرة ﴿وَٱلْعَاقِبَةُ﴾ المحمودةُ مِن الجنّة

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٥، تفسير روح البيان ٥: ٤٤٦.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٥.
٣. تفسير القمي ٢: ٦٦، تفسير الصافي ٣: ٣٢٧.
٤. التوبة: ٥٥/٩.
٥. الكافي ٨: ١٦٨/١٨٩، تفسير الصافي ٣: ٣٢٧.
٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٧.

والنِّعم الدّائمة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ وأهْلها لا لأهْل الدنيا.

رَوى الفخر الرازي وغيره من العامة أنّه ﷺ كان بعد نزول [هذه] الآية يذهب إلى باب فاطمة وعلي عليهما السلام كلّ صباح ويقول: «الصّلاة»، [و] كان يفعلُ ذلك أشهراً[1].

وعن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: «أمَر الله نبيّه ﷺ أن يخُصّ أهل بيته ونفسه دون الناس، ليعلم الناس أنّ لأهله عند الله منزلةً ليست لغيرهم، فأمرهم مع الناس عامة، ثمّ أمَرَهم خاصّة»[2].

وعن الرضا عليه السلام قال: «خَصّنا الله بهذه الخصوصية، إذ أمرنا مع الأمّة بإقامة الصّلاة، ثمّ خصّنا من دون الأمّة، فكان رسول الله ﷺ يَجيئ إلى باب علي وفاطمة عليهما السلام بعَد نُزول هذه الآية تسعة أشْهُر في كلّ يوم عند حضور كلّ صلاة خمس مرّات، فيقول: الصلاة رَحِمَكُم الله، وما أكرم الله أحداً من ذَرارِيّ الأنبياء بِمِثل هذه الكرامة التي أكرمنا [بها] وخَصّنا من دون جَميع أهل بيتهم»[3].

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِن رَّبِّهِ أَوَ لَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ * قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ [١٣٣ ـ ١٣٥]

ثمّ لمّا أمَر الله تعالى نبيّه ﷺ بالصبر على أقوال المشركين، حَكى اعتراضهم على الرسول وشبهتهم في رسالته بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ إضلالاً للنّاس وإلقاءً للشُّبْهة في قلوبهم: ﴿لَوْلَا﴾ وهَلّا ﴿يَأْتِينَا﴾ محمّدٌ ﴿بِآيَةٍ﴾ ومعجزةٍ مِمّا اقْتَرَحنا عليه ﴿مِنْ رَبِّه﴾ لِتَكونَ دَليلاً على صِدْقه فِي دَعوى نُبوّته؟ ثُمّ ردّهم سبحانه بقوله: ﴿أَوَ لَمْ تَأْتِهِم﴾ قيل: إنّ التقدير: ألَم تَأتِهم المعجزات الكثيرة؟! وَلَم تَأتِهم ﴿بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ والكُتُب السماويّة السابقة من العقائد الحَقّة وأُصول الأحكام التي اجتمعت عليها كافّة الرسل وأخبار الأُمَم السالفة، مع أنّه لم يشتغل بالدراسة والتعلّم، ولم يقرأ كتاباً، ولم يَرَ عالِماً، وهذا من أعظَم المعجزات، لأنّه من الإخبار بالمغيبات[4].

وقيل: إنّ المراد بـ(بيّنة ما في الصُّحُف الأُولى) ما فيها من البشارة ببعثة محمّد ﷺ ونبوته[5].

وقيل: إنّها أخبارُ الأمَمِ الّذِينَ أهْلَكَهم الله بعد سؤالهم الآيات من رُسُلهم وكُفْرهم بها، وإنّه تعالى

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٧، تفسير روح البيان ٥: ٤٤٨.
٢. مجمع البيان ٧: ٦٠، عوالي اللآلي ٢: ٢٢/٤٩ تفسير الصافي ٣: ٣٢٧.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٤٠، تفسير الصافي ٣: ٣٢٧.
٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٧.

كيف عاجَلَهم بالعقوبة، فماذا يُؤمّنهم من أنْ يكونَ حالهم في سؤال الآيات كَحالِ أُولئك، وعلى أيّ تقدير لمّا كان كلّ من الأمُور المذكورةِ في القرآن شاهداً على صِدْق نبوّته، وَصَفَه الله بكونه بيّنةً. وتَذْكيرُ الضّميرُ الراجع إلى (البيّنة) لأنّها في معنى الدليل البرهان[1].

ثمّ بيّن سبحانه أنّه أتمّ الحُجّة على الكُفّار والمشركين ببعثة خاتم النبيّين ﷺ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ﴾ أيّ عذابٍ كان، أو بعذاب مستأصل في الدنيا سابقاً على بعْثة محمّدٍ ﷺ وإتيان البيّنة و﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ لِكُفْرِهم وشِرْكهم، لَكانَ العذابُ قبلَ إتمام الحُجّة و﴿لَقَالُوا﴾ يومَ القيامة احتجاجاً علينا: ﴿رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا﴾ في الدنيا ﴿رَسُولاً﴾ يُبَلّغنا دينك، ويَقْرأ علينا كتابَك، ويُعَلّمنا أحكامك ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ بإرشاده ﴿آيَاتِكَ﴾ المنزلة، ونُطيع أحكامك المقرّرة المشروعة، ونكونَ من المؤمنين الصالحين ﴿مِن قَبْلِ أَن نَذِلَّ﴾ بالضلال والقتل والأسر في الدنيا ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ بالابتلاء بالعذاب الشّديد، والدخول في النار في الآخرة، وأمّا اليوم فقد تَمّت عليهم الحُجّة، وانقطع عُذرهم في الكفر والضلال، وانسدّ باب حُجّتهم علينا ببعثة محمّد ﷺ وإنزال القرآن، إنْ عذّبناهم في الدنيا أو في الآخرة فليس لهم أن يأمنوا من نزول العذاب عليهم كما نزل على الأُمَم السابقة مع كمال استحقاقهم له.

ثمّ هدّدهم بالعذاب بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿كُلٌّ﴾ مِنّا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ ومُنْتَظِر لعاقبة الأمر وآثار العقائد والأعمال في الدنيا وقبل الموت، فَتَرى لأيّنا الدولة والشوكة ونفوذ الكلمة، وفي الآخرة يكون لأيّنا الثواب والكرامة عند الله والعِقاب وأنواع الهَوان.

رُوي أنّ المشركين قالوا: نتربّص بمحمّدٍ حوادثَ الدَّهْر، فإذا مات تخلّصْنا منه[2]، فأجابهم الله بقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وانتَظِروا أيّها المشركون ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريبٍ إذا جاء أمر الله تعالى ﴿مَنْ أَصْحَابُ ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ والطريقِ المستقيم المُوصِل إلى كلّ خيرٍ دُنْيويّ وأُخْروي ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ إلى دِين الحقّ وطَريق الصواب، أنَحْنُ أمْ أنْتم؟ وفيه غاية التّهديد والوَعيد.

عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبيّ ﷺ في حديث «قيل: وَمَنِ الوليّ يا رسول الله؟ قال: وليُّكم في هذا الزمان أنَا، ومن بعدي وصيّي، ومن بعد وصيّي لِكُلّ زمانٍ حُجَجٌ لله، لِكَيلا يَقُولوا[3] كما قال الضُّلال من قبلكم [حين] فارَقَهم نبيُّهم: ﴿رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ الآية، وإنّما كان تمام ضلالتهم جهالتهم بالآيات، وهُم الأوصياء، فأجابهم الله بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ الآية، وإنّما كان

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٧.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٤٥٠.
٣. في كشف المحجة: كيما لا تقولون.

تربُّصهم أنْ قالوا: نَحْنُ فِي سَعَة مِنْ معرفة الأوصياء حتى يُعلن إمام علمَه»[1].

عن الصادق عليه السلام قال: «لا تَدَعُوا قراءة سورة طه، فَإنّ اللهَ يحِبُّها [ويُحبّ من قرأها]، وَمَنْ أدْمَنَ قراءتها أعطاهُ الله يوم القيامة كتابه بيَمِينه، ولم يُحاسِبْه بما عَمِلَ في الإسلام، وأُعطيَ في الآخرة [من الأجر] حتى يَرْضى»[2].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَن قرَأ سورة طه أُعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار»[3].

وقال: «ما يَقْرَأ أهلُ الجنّة من القرآنِ إلّا سورة طه ويس»[4].

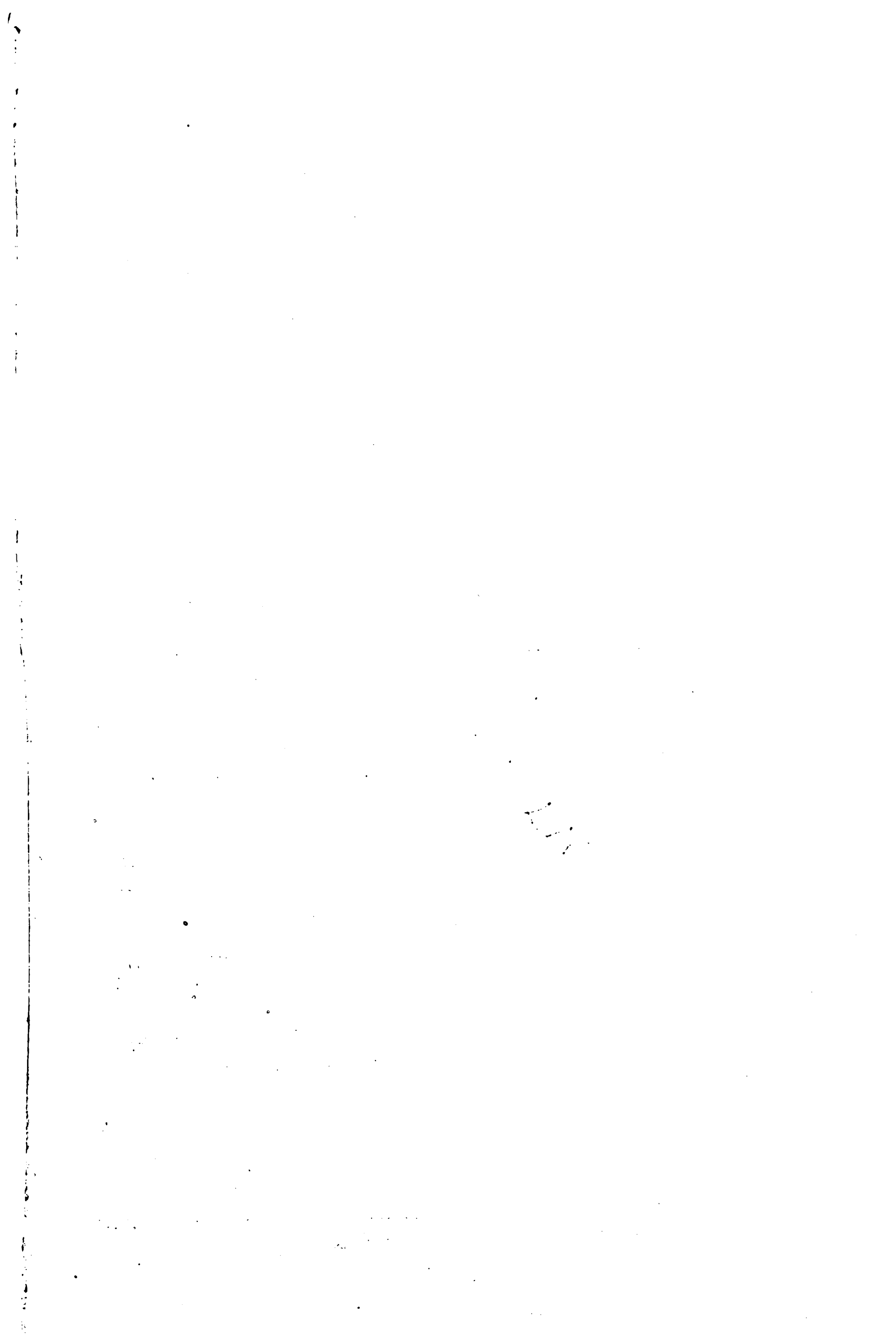
وفقّنا الله لتلاوتها، ولله الحمدُ والمِنّةُ على توفيقنا لإتمام تفسيرها، ونسأله التوفيق لِتَفْسير ما بعدها.

---

١. كشف المحجة: ٢٧٣، تفسير الصافي ٣: ٣٢٨.

٢. ثواب الأعمال: ١٠٨، مجمع البيان ٧: ١، تفسير الصافي ٣: ٣٢٩.

٣ و٤. مجمع البيان ٧: ١، تفسير أبي السعود ٦: ٥٢.



في تفسير سورة الأنبياء

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِن ذِكْرٍ مِن رَبِّهِم مُحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ[١ ـ ٣]

ثمّ لمّا ختم الله سورة طه بتهديد المُعْرِضين عن القرآن بالعذاب الدنيوي والأُخروي، وأمَر نبيّه ﷺ بالصّبر على مقالات المشركين، وذكَر شُبْهتَهم في الرسالة والجواب عنها، وتَنْبيههم بتماميّة الحجَة عليهم بِبَعْث محمّد ﷺ، وقَطْع عُذْرِهم بما في الكتب السماوية، وتهديدهم بالعذاب بقوله: **﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أصحابُ الصّراطِ السَّوِى﴾**، أرْدَفَها بسورة الأنبياء المَبدوءة بتهديد المُعْرِضين عن التفكَر في أمر الآخرة، وغفلتهم عن قرب القيامة، وتوبيخهم لإعراضهم عن الذِّكر والقرآن، واستهزائهم به، وذِكْر شبهتهم في رسالة الرسول بأنه بشر، ونِسبتهم معجزاته إلى السِّحر، وطَلَبِهم منه غير ما أتى به من المعجزات، وسائر أقاويلهم الباطلة التي لا تَليقُ به، وتهديدهم بعذاب الاستئصال، والاستدلال على التوحيد والبَعْث، وذِكْر قَصص الأنبياء الماضين والأُمَم المهلَكة السابقةِ بقوله: **﴿كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾**[1]، إلى غير ذلك من المطالب المربوطة بالسورة السابقة.

فَابْتَدَء فِيها بِذِكْر الأسماءِ المُبارَكاتِ على حَسَب دَأْبِه تعالى في كتابه المجيد بقوله: **﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ﴾**

ثُمّ افْتَتَحَها بِتَهْدِيد المشركين المُعْرِضين عن الآخرة بقوله: **﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾** وَدَنا منهم اليوم الذي فيه **﴿حِسَابُهُمْ﴾** لِجَزاء أعمالهم؛ لأنّ كلّ آتٍ قريبٌ وَإنْ طالت مُدّة تَرقُّبه، أوْ لأنّ كلَّ ساعةٍ أقربُ إليهم منه في الساعةِ السابقة، أو لأنّ بَعْثه مِن أشراط الساعة حيث قال ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعة كَهاتَين»[2] وضمّ بين إصبعيه **﴿وَهُمْ﴾** مستقرّون **﴿فِى غَفْلَةٍ﴾** تامّة منه، ساهُون بالكليّة عنه، منكِرون له،

---

١. طه: ٩٩/٢٠.

٢. مجمع البيان ٧: ٦٢، تفسير الصافي ٣: ٣٣٠، تفسير الرازي ٢٢: ١٣٩.

مع حكم العقل بوجوب إتيانه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن الآيات المنبِّهة لهم عن غفلتهم.

وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب لا إلى النّاس، للدّلالة على أنّه مُقبِل إليهم، كأنّه يَطْلُبُهم وَيَصِلُ إليهم لا مُحالة، وتقديم ﴿لِلنَّاسِ﴾ عَلى ﴿حِسَابُهُمْ﴾ للمُسارعة إلى إرعابهم.

ثمّ وبّخهم على إعراضهم عن الآيات القرآنية بقوله: و﴿مَا يَأْتِيهِم مِن ذِكْرٍ﴾ ووَعْظٍ ﴿مِن رَّبِّهِم﴾ في القرآن يُذكِّرهم الحساب أكمل تَذْكيرٍ ﴿مُحْدَثٍ﴾ وَقتاً بعدَ وقتٍ ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ به ويَسْخَرون منه، وهم[١] ﴿لَاهِيَةً﴾ ومُتَشاغِلة ﴿قُلُوبُهُم﴾ عمّا يَهُمُّهم من عواقِب أمرهم وحالِ ما بعد موتهم بما لا يُفِيدُهم من أمر الدنيا وجمع زَخارِفها والالْتِذاذ بشهواتها.

ثُمّ بيّن سبحانه علّة استهزائهم بالقرآن أنّها إنكارهم الرسالة الذّي هو أثَر جناياتهم بقوله: ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى﴾ وبالَغوا في إخفاء ما تَناجوا به، أوْ أسرُّوا نَفْس تَناجِيهم حتى لا يَشْعُر أحدٌ به، وهم ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسَهم بأفْحَش الظُّلم في ما أسرُّوا به، وقالوا في نَجواهُم قَدْحاً في رسالة محمّد ﷺ: ﴿هَلْ هَذَا﴾ الرجل ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يأكُل ويَمْشي فلا مَزيّة له عليكم حتى يكونَ رسولاً، وما أتى بمعجزةٍ، بل ما أتى به فهو سِحرٌ ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ وتَحْضُرونه وتَقْبلونه منه ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وتُعاينون أنّه سِحر؟ وإنّما قالوا ذلك لاعتقادهم أنّه لا يكون الرسول إلّا مَلَكاً، ولا يكون ما يأتي البشر إلّا سِحْراً.

قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ [٤ـ٨]

ثُمّ حَكى سُبحانه قولَ نبيّه ﷺ بعدَ إطّلاعه على سرّهِم بالوحي بقوله: ﴿قَالَ﴾ الرسول: إنْ كُنْتُم أخفيتم قولَكم منّي، وطعَنكم في رسالتي، لا تَقْدِرون على إخفائه من الله، لأنّ ﴿رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ﴾ الّذِي يكونُ ﴿فِى ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سرّاً كان أو جَهْراً ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للمَسْمُوعات مِن الأقوالِ

---

١. لا يصحّ موقع (وهم) الإعرابي مع لفظ الآية إلّا على رفع (لاهية) والرفع قراءة. قال صاحب الكشاف: (وهم يلعبون لاهية قلوبهم) حالان مترادفان، أو متداخلان، ومن قرأ (لاهية) بالرفع فالحال واحدة؛ لأنّ (لاهية قلوبهم) خبر بعد خبر لقوله (وهم). الكشاف ٣: ١٠٢.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجَميع المعلوماتِ مِن الأحوال.

ثمّ عاد سبحانه إلى حكاية بعض أقوالهم الأخر بقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ يعني أنّهم لم يكتفوا بنسبة القرآن إلى السِّحر، بل قالوا: إنّه أباطيل يَراها في المَناماتِ الكاذِبة، فتَخَيّل أنّها من الله، فأسنَدَها إليه ﴿بَلِ ٱفْتَرَاهُ﴾ على الله من قِبَل نفسِه من غير وَحْيٍ أوْ رُؤيةٍ في المنام ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ لَفّق الكلام الفصيح المُقفى، فخيّل إلى الناس أنّه مِن الله، وعلى أيّ تقدير ليس كتابه معجزةً مُثْبِتةً للنبوّة، ولو فرض أنّه مع كونه بشراً يكونُ رسولاً ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـآيَةٍ﴾ ومعجزةٍ قاهرةٍ لا تتطرّق إليها الاحتمالات المذكورة ﴿كَمَا أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ والأنبياءُ السّابِقون بآياتٍ قاهرةٍ ومعجزاتٍ عظيمةٍ كالعصا واليد البَيْضاء وإحياء الموتى حتى نُؤْمِن به.

ثمّ كذّبهم الله في وَعْدِهم الإيمان عند إجابتهم في مُقْتَرَحاتهم بقوله: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِن قَرْيَةٍ﴾ وبلدةٍ كنّا ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بعذاب الاسْتِئصال لعدم إيمانهم بعد إجابتهم في ما اقْتَرَحُوه من الآيات ﴿أَفَهُمْ﴾ مع شدّة لَجاجهم وغاية عِنادهم لك يا محمّد ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بك؟ كلّا فإنّهم أعْتى مِن الأُمَم الماضية المُهلَكَة.

ثمّ أجاب سبحانه عن شُبْهَتهم في رسالة محمّد ﷺ بكونه بشر بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمّد إلى قريةٍ أو أمّةٍ ﴿إِلَّا رِجَالاً﴾ مُمْتازِين عن سائر الناس بالمعارف وكرامة الصفات، فخصَّصْناهم بأن ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ الشرائع والأحكام بتوسّط المَلَك، كما نُوحي إليك مع أنّك أوّل رجلٍ في عالم الوجود، فَإنْ لا يَقْبَلوا قولك قُل لهم: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ والعلماء بالكتب السماويّة وأحوال الرسل الماضيّة ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أحوالهم حتى تعلَموا وتَزُول شُبهتُكم، ثمّ أكّد كون عادته تعالى إرسال البشر دون المَلَك بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً﴾ مَلَكوتِيّاً ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ غَنِيّاً عنه كالملائكة، بل جَعَلناهم مُحتاجِين إليه كما تَحْتاجُون ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ في الدُّنيا كالملائكة، بل كانوا ميّتين كما أنتُم تَمُوتُون.

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ * لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[٩ و ١٠]

ثمّ أنّهم مع تفرُّدهم ومعارضة الناس وعَدْناهُم النَّصْرَ على عُموم الكفّار ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ ووَفَيْنا بالعَهْد الذي عاهَدْناكم مِن نُصْرتهم وَإهلاك أعدائهم ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ من العذاب حينَ نزوله على مكذِّبيهم ﴿وَمَنْ نَشَاءُ﴾ من المؤمنينَ بِهِم ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المُصِرِّين على الكُفر

المُجاوِزين في الطُّغيان بعذاب الاستئصال عقوبةً لهم وعبرةً لمن يأتي بعدهم ويسمع خبرهم.

ثمَ بيّن الله سبحانه عظيم نِعمته على هذه الأمّة بقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ أيها النّاس بواسطة محمّد ﴿كِتَاباً﴾ عظيم الشأن يكون ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ وعِظَتكم، لِتَحذَروا من مُوجِبات هلاككم، أوْ فِيه ذِكْر دينكم وبيان ما يَلْزَمكم وما لا يَلْزَمْ عليكم، كي تَفُوزُوا بالعملِ به بالجنّة، أوْ فيه شَرَفُكم وَصِيتُكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. قيل: إنّ التقدير: ألا تفكّرون فَلا تَعْقِلُون أنّ الأمْر كَذلك[1]؟ فَإنّ تـعقّله لا يكـون إلّا بالتَّدَبُّر فيه، أوْ المعنى: ألا يكونُ لكم عقلٌ يَبْعَثكم إلى التدبُّر في القرآن والإتّعاظِ والعملِ بما فيه؟

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ [١١ ـ ١٥]

ثمَ بيّن سبحانه كيفيّة هلاك المُسْرفين إرعاباً للقلوب بقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ وكثيراً كَسَرنا كَسْراً فَظِيعاً بحيث تفتّتت الأجزاء ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ وأهالي مدينة ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ على أنفسهم بالإعراض عن الآيات وتكذيب الرسل ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ وأوجدنا ﴿بَعْدَهَا﴾ ووراءَ إهلاكها ﴿قَوْماً آخَرِينَ﴾ لَم يكونوا منهم نسباً وديناً ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ واستَشْعَروا بعذابنا المستأصل وهم في القرية ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ويَهْرُبُون ويُسْرِعون في العَدْو للخروج منها خوفاً من المَهالك.

قيل: هي قرية حَضُور باليمن، بعث الله إليهم نبيّاً فقتلوه، فسلّط الله عليهم بخت نصّر فاستأصلهم[2].

رُوي أنّه لمّا أخَذَتهم السيوف نَادى منادٍ من السماء: يَالِثاراتِ الأنبياء[3].

فقيل لهم توبيخاً وتهكُّماً: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ﴾ وأُبطِرتُم ﴿فِيهِ﴾ من النِّعم ورفاه العيش ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ المرضيّة ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ غداً عمّا جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتُجِيبُوا السائلَ عن علمٍ ومشاهدة، أو يسألكم النّاس في أنْدِيَتكم لِتعاونُوهم في نَوازِل الخُطُوب، ويستشيرونكم في المُهمّات، ويستعينون بآرائكم أو يسألكم الوافدون عليكم والطّامِعون فيكم.

فلمّا يأسوا من الخلاص بالهرَب، وأيقَنُوا بهلاكهم بالعذاب ﴿قَالُوا﴾ تأسّفاً وتحسّراً وندماً: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ ويا هلاكنا احضُر، فهذا أوانك ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ بِأعمالنا ﴿ظَالِمِينَ﴾ على أنْفُسنا ومستحقّين لهذا

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ٥٨، تفسير روح البيان ٥: ٤٥٧.

٢ و٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٤٦.

العذاب، ولكن لم ينفعهم الاعتراف بذنوبهم والنَّدم عليها ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ﴾ الكلمة والدعوة بالويل ﴿دَعْواهُمْ﴾ ونداءهم ﴿حَتّىٰ جَعَلْناهُمْ﴾ مثل الزَّرع الذي صار ﴿حَصِيداً﴾ بالدِّياس ﴿خَامِدِينَ﴾ مَيّتين لا حِسّ لهم ولا حَراك ولا أثر كالنّار الخامدة.

عن السجاد عليه السلام: «لَقَدْ أسْمَعَكُمُ اللهُ فِي كِتابه ما فَعَل بالقَوْم الظّالِمين مِنْ أهْلِ القُرى قَبْلَكم حيث قال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾، وإنّما عَنى بالقرية أهلَها حيث يقول: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ فقال عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يعني يَهْرُبُون، قال: ﴿فلمّا آتاهم العَذْابُ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ قال: وَأيْمُ الله إنّ هذه عِظَة لكم وتَخْوِيف إن اتَّعَظْتُم وَخِفْتُم»[1].

وعن الباقر عليه السلام في تأويله: «إذا قام القائم وَبَعَثَ إلى بني اُميّة بالشام، هَرَبُوا إلى الرُّوم، فيقول لهم الرُّوم: لا نُدخِلنَّكم حتى تتنصَّروا فيُعلِّقون في أعناقهم الصُّلْبان فَيُدْخِلونهم، فإذا نَزَل بِحَضْرَتِهم أصحاب القائم طَلَبُوا الأمان والصُّلح، فيقول أصحاب القائم: لا نَفْعَل حتى تَدْفَعوا إلَينا مَن قِبَلكم منّا، فيدفعونهم إليهم، فذلك قوله: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ قال: يسألهم الكُنوز وهو أعلم بها، فيقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿خَامِدِينَ﴾ أي بالسَّيف»[2].

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّماءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَتَّخِذَ لَهواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِن لَدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَن فِي ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ[١٦ ـ ١٩]

ثمّ لمّا بيّن الله تعذيبه الظّالِمينَ بيّن أنّ حِكْمَة خَلْق العالَم إقامة العدل ومجازاة أهل الظُّلم بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّماءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن عَجائب المخلوقاتِ حال كوننا ﴿لَاعِبِينَ﴾ وعَابِثين بالخَلْق، بَل خلقناها لمَعرفة بني آدم رَبّهم بالنظر إليها والتفكّر فيها، ولتكميل نُفوسهم، وقيامهم بوظيفة عبوديّة خالقهم، وشكر المُنْعِم عليهم، وفعليّة استعدادهم وقابليّتهم للنِّعم الأبَدِيّة المُعدّة لهم في الآخِرة، وَلإقامة العَدْل وَمُجازاةِ الظّالِمين، فَعَلَيهم التفكّر في المخلوقات والاجتهاد في الطاعة والشكر، لَا الانهِماك في الشَّهَوات، ومعارضة الحقّ، ومشاقّة الرُّسُل، والظُّلم على النفس والعِباد.

و﴿لَوْ أَرَدْنَا﴾ وأحْبَبْنا ﴿أَن نَتَّخِذَ لَهواً﴾ ونَشْتَغِل بِلَعِبٍ ﴿لَاتَّخَذْنَاهُ مِن لَدُنَّا﴾ ومن جهة قُدْرَتنا

---

١. الكافي ٨: ٢٩/٧٤، تفسير الصافي ٣: ٣٣٢.
٢. الكافي ٨: ١٥/٥١، تفسير الصافي ٣: ٣٣٢.

على ما نُريد، أو من عندنا وما يليق بشأننا من الرُّوحانيات والمُجرَدات ﴿إِن كُنَّا فَـاعِلِينَ﴾ للَّعِب واللَّهو، لا مِن الأجسام المرفوعة كالسماواتِ والأجرام الموضوعة كالأرَضين مثل دَيْدَن الجَبابِرَة في رفع العُرُوش وتحسينها وتسوية الفُرُش وتزيينها بغرض الالْتِذاذ والتشَهِّي، ولكنّا لا نُـريد اللّـهْو واللَّعِبَ أبداً لمنافاته الحكمة البالغة التي تَكُونُ لنا.

وقيل: إنّ المرادَ باللَّهوِ الوَلَد أو الزَّوجة[1].

وقيل: (إنْ) في قوله: ﴿إنْ كُنّا فَاعِلِين﴾ نافيةٌ، والمعنى مَا كُنّا فَاعِلين[2].

﴿بَلْ نَقْذِفُ﴾ ونَرْمِي ﴿بِالحَقِّ﴾ الذِي هو الجِدّ والعدل والقرآن، كَالحَجَر الصُّلْب ﴿عَلَىٰ البَاطِلِ﴾ الذِي من جملته اللَّعِب والظُّلم والكُفْر وغيرها ممّا ينافي الحكمة، ولا ثَباتَ لَه عند التحقيق ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ ويُهلِكه ويَمْحَقه ﴿فَإِذا هُوَ زَاهِقٌ﴾ وذاهِبٌ بالكُلّية، وهالكٌ بالفور، وإنّما استعار القذف الذي هو بمعنى الرمي الشديد البعيد المستلزم لصلابة المرميّ وإعدام ما وصل إليه ومَحْوِه، لتَغْليب الحقّ على الباطل، واستعارة الدَّمْغ الذِي هو بمعنى كَسْر الدماغ بحيث يُشَقّ غشاوه[3] المؤدّي إلى زُهُوق الروح، لِمَحْقِ[4] الباطل، لغاية المبالغة وتمكين الهيئة المَعْقُولة في ذهن السامع غاية التمكين.

عن الصادق عليه السلام: «ليس من باطلٍ يَقُومُ بإزاء حقّ إلّا غَلَب الحقُّ الباطِلَ، وذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ الآية»[5].

ثمّ هدّد قريشاً بمثل ما لأولئك من العذاب بقوله: ﴿وَلَكُمُ﴾ مَعْشَرَ قريش ﴿ٱلْوَيْلُ﴾ والهلاك ﴿مِنْ﴾ أجل ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ الله بما لا يَلِيق بشأنه مِن اتخاذ الشريك والوَلَد، ثمّ قرَّرَ تفرُّده منهما بقوله: ﴿وَلَهُ مَن فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقاً وَمِلْكاً وتصرُّفاً وتدبيراً، بلا دَخْل لغيره في شيء منها استقلالاً واستِتْباعاً ﴿وَمَنْ عِندَهُ﴾ مِن المَلائكة الّذين يَزْعُمون أنّهم شُركاؤه أو بَناتُه، مع كمال شَرَفهم وعِظَمِهم وقُرْبِهم وعُلُوّ رُتْبَتهم، كُلّهم عبيده ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ ولا يتعظّمون عن طاعته ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يَعْيُون عنها مع ثِقْلها ودَوامها، وكانت عبادتهم أنّهم ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ويُنزّهون الله ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ممّا لا يليق به من الشريك والولد والنقص والحاجة ويُعظّمونه على الدوام و﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ ولا يَتَوانون فيه طَرفة عينٍ، ولا يتخلّل تسبيحهم فَراغ ولا شُغْل آخر.

قيل: إنّ التسبيح لهم كالتنفّس [لنا] فلا يَمْنَعُهم من عملٍ آخر، وإنْ كان لعن مَن استحقّ اللّعْن[6].

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ٦٠، تفسير روح البيان ٥: ٤٦٠.
٢. تفسير أبي السعود ٦: ٥٩.
٣. في النسخة: عصائه، راجع: تفسير روح البيان ٥: ٤٦١.
٤. في النسخة: تحق.
٥. المحاسن: ١٥٢/٢٢٦، تفسير الصافي ٣: ٣٣٣.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٤٦٢.

يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ * أَمِ ٱتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ ٱللهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ[٢٠ـ٢٣]

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن الملائكة أينامُون؟ فقال: «ما من حَيّ إلّا وهو يَنام ما خَلَا الله وَحْدَه، والملائكةُ يَنامون» فقيل: يقول الله تعالى: ﴿**يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ**﴾ قال: «أنفاسهم تسبيح»[١].

وفي رواية اُخرى: «لَيس شيءٌ من أطباق أجسادهم إلّا ويُسبّح الله عزّ وجلّ ويَحْمَده من ناحيته بأصوات مختلفة»[٢].

وقيل: يعني لا يَفْتُرون عن العَزْم على أدائه في أوقاته لا دوام الاشتغال به[٣]. وفيه أنّه خلاف الظاهر.

ثمّ وبَّخهم سبحانه على إشراكهم وادّعائهم قُدرة آلِهَتهم على إحياء الموتى بقوله: ﴿**أَمِ ٱتَّخَذُوا**﴾ وَاخْتارُوا لأنْفُسِهِم ﴿**ءَالِهَةً**﴾ ومَعْبُودِين ﴿**مِنَ**﴾ جِنْس ما في ﴿**الأَرْضِ**﴾ كَالْخَشَب والحَجَر والذَّهَب والفِضَّة وغيرها وقالوا: ﴿**هُمْ يُنشِرُونَ**﴾ ويُحْيُون الموتى مع كونهم في أنفسهم أمواتٌ لا يَشْعُرون، ولا يقول به مَنْ لَه عَقْل وشُعُور.

وقيل: إنّ هذه الدعوى لازم قولهم بِاُلوهيّتِهم، لَا أنّهم صَرَّحوا بِه؛ لأنّهم لا يُثْبِتون الإنْشارَ لله، فكيف يُثْبِتونه لالِهَتِهم[٤].

ثمّ أبْطَل قولَهم الشنيع بقوله: ﴿**لَوْ كَانَ**﴾ في السّماوات والأرض ووُجِد ﴿**فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللهُ**﴾ وغيره تعالى يكون كلّ واحدٍ منهم متصرّفاً فيها بالخلق والتدبير ﴿**لَفَسَدَتَا**﴾ وخَرَجتا بما فيهما من الاعتدال والنّظام الأتَمّ، سواء أكان الله معهم أوْ لا، أو المراد لَبَطَلتا وتفطّرتا لأنّه مع فرض قدرة كلّ واحدٍ مِنهم على الاستقلال في الخَلْق والتدبير واتفاقهم في المراد والإيجاد بالاستقلال، لَزِم توارُد العِلَل على معلولٍ واحدٍ وهو مُحال، ومع تخالفهم في المراد والتزاحم يلزم التعاوق وعدم وجود موجود أصلاً، ومع عدم التزاحم يلزم التعطيل في الواجب والترجيح بلا مرجّح، ومع عجز كلّ واحدٍ عن الاستقلال يلزَم النقص في الواجب.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل: مَا الدَّليل على أنّ اللهَ واحدٌ؟ قال: «إتّصال التدبير وكمال[٥] الصُّنْع، كما قال

---

١. كمال الدين: ٦٦٦/٨، تفسير الصافي ٣: ٣٣٤.
٢. التوحيد: ٦/٢٨٠، تفسير الصافي ٣: ٣٣٤.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٤٦٢.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٤٦٣.
٥. في التوحيد: وتمام.

الله عزَ وجلَ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾»[١].

ثمَ رتَب سبحانه على ذلك الدليل تنافي الألوهيّة للمشاركة فيها بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ ونزّهوه تنزيهاً لا يقال إلّا له [لأنه] المدبّر لجميع الموجودات لعلّة ألوهيّته وربوبيّته ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ذاته المقدّسة بما لا يليق به من النقائص التي من جُملتها كون الشريك والولد له.

ثمَ أنّه تعالى بعد إثبات تفرّده في الألوهيّة بيّن كمال عظمته وقوّة سُلطانه بقوله: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ ولا يُناقِشه أحدٌ في ما يصدُر منه من حُكْمٍ وتَقْديرٍ وإثابَةٍ وتَعْذيبٍ ﴿وَهُمْ﴾ لكونهم عبيده وتحت قُدرته وسُلطانه ﴿يُسْئَلُونَ﴾ عمّا يفعلون نَقِير أوْ قِطْمير، وفيه تهديدٌ ووعيدٌ للكُفّار والمشركين.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يعني بذلك خَلْقه أنّهم يُسْألون»[٢].

وعن الباقر عليه السلام، أنّه سُئِل: وكيف لا يُسأل عمّا يفعل؟ فقال: «لأنّه لا يَفْعَل إلّا ما كان حِكْمةً وصَواباً، وهو المتكبّر الجبّار والواحد القهّار، فَمَن وَجَد في نفسه حَرَجاً في شيءٍ ممّا قضى [فقد] كَفَر، وَمَنْ أنكَر شيئاً من أفعاله جَحد»[٣].

عن الرضا عليه السلام أنّه قال: «قال الله تعالى: يَا بن آدم، بمشيئتي كُنتَ أنتَ الذي تَشاء لنفسك ما تشاء، وبقُوّتي أدّيتَ إليّ فرائضي، وبنعمتي قويتَ عَلى مَعْصِيَتي، جعلتُك سميعاً بصيراً قويّاً، ما أصابَك مِن حسنةٍ فَمِن الله، وما أصابك من سيئةٍ فَمِن نَفْسك، وذلك أنّي أولى بحسناتك مِنْك، وأنت أولى بسيّئاتك منّي، وذلك أنّي لا أُسأل عمّا أفْعَل وهم يُسألون[٤]».

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هٰذَا ذِكْرُ مَن مَعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [٢٤ ـ ٢٧]

ثمَ أنّه تعالى بعدَ إبطال ألوهيّة غيره بالبُرهان، أعاد التَّوبيخَ عليهم بإشراكِهم بلا دليل بقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ مع عَرائها من خصائص الألوهيّة ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لِهؤلاء المشركين تبكيتاً

---

١. التوحيد: ٢/٢٥٠، تفسير الصافي ٣: ٣٣٤.
٢. علل الشرائع: ١/١٠٦، تفسير الصافي ٣: ٣٣٤.
٣. التوحيد: ١٣/٣٩٧، تفسير الصافي ٣: ٣٣٤.
٤. التوحيد: ٦/٣٣٨، تفسير الصافي ٣: ٣٣٥.

وإلقاماً للحَجَر[١]: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ وآتو بحجّتكم على ما تدّعون من جهة العقل أو النقل، لعدم صحّة الدعوى بغير حجّة خصوصاً في الأمور الدينيّة.

ثمّ بيّن سبحانه توافُقَ الكُتُب السّماويّة على التّوحيد ونَفْي الشرك بقوله: ﴿هٰذَا﴾ الموجود بأيدينا مِنَ الكُتُب الثّلاثةِ التي أحدها القُرآن الذي هو ﴿ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ مِنَ المؤمنينَ بي وَعِظَتهم، ﴿وَ﴾ إثنان مِنها ﴿ذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ مِنَ الأمَم، وهُمَا: التوراة والإنجيل، بَيْنَ أيديكم فَراجِعوها وَانظُروا فيها، هل تَجِدون فيها غيرَ الأمْر بالتوحيد والنهي عن الإشراك؟

وقيل: إنّ المعنى: هذا الوَحْي الواردُ في شأن التوحيد المتضمّن للبُرهان القاطِع العقْلي ذِكْر اُمّتي وَعِظَتهم، وَذِكْرُ الأُمَم السابقة قد أقَمْتُه أنَا، وَاسْتَدْلَلْتُ بِه، فَأقِيموا أنْتُم أيضاً بُرهانَكم[٢].

ثُمّ أضْرَبَ الله تعالى عن الأمْر بمُحاجَّتهم إعلاناً بِعَدَم قابليّتِهم للخِطاب والمُحاجَة بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ البديهيّات، ولا يُميّزون مِن غاية جَهْلهم وحُمْقهم بَيْن ﴿ٱلْحَقَّ﴾ والباطل، والدَّليلِ الصَّحيح والفاسد، فعندهم ما هو أصلُ الفساد وهو الجَهْل ﴿فَهُمْ﴾ لِذلك ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن التوحيد وآياته واتّباعِ الرسول ومعجزاته، مُستمرُّون على الإعراض غير مُنْصَرِفين عمّا هم عليه مِن الضّلال، وإنْ كرّرْت عليهم الحجج والبيّنات.

ثمّ أنّه تعالى بعد الاستدلال على التوحيد بِتَوافُق الكتب السماويّة عليه، استَدَلَّ باتّفاق كلمة الأنبياءِ الّذين هم أعْقَل عُقَلاءِ العالَم عليه بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ إلى النّاس ﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ فَإذا عَلِمتُم ذلك ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ خاصّة ولا تَعْبُدوا غَيْري.

ثمّ بعد إبطال الشّرك أبطلَ القول بِاتّخاذه الملائكة بَنات بقوله: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْـمٰنُ﴾ وَالإله الواسع الرَّحْمة والنّعمة لنفسه ﴿وَلَداً﴾ مع غِناه عن كلّ شيء. قيل: هُمْ حَيّ مِن خُزاعة[٣]. وقيل: هم قريش وجُهَيْنَة وبنو سَلَمة وبنو مُلَيْح وخُزاعة[٤].

ثمّ ردّهم الله بقوله: ﴿سُبْحانَهُ﴾ من أنْ يكونَ الملائكة أولاده ﴿بَلْ﴾ هم ﴿عِبادٌ﴾ له والعِبادُ لا يمكن أنْ يكونوا أوْلاد وهُم ﴿مُكْرَمُونَ﴾ عنده مقرّبون لَدَيه مُنقادُون لإرادته بحيث إنّهم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ﴾ تَعالى ﴿بِالْقَوْلِ﴾.

قيل: نزّل سبحانه سبقهم بالقول لقوله تعالى منزلة سبقهم له، للإشعار بمزيد تنزّههم منه[٥] ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ولِحُكمه مُطِيعون.

---

١. ألقمه الحجَر: أسكته عند المخاصمة.
٢. تفسير أبي السعود ٦: ٦٢، تفسير روح البيان ٥: ٤٦٦.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٥٩، تفسير أبي السعود ٦: ٦٣.
٤ و٥. تفسير أبي السعود ٦: ٦٣.

نقل معجزة لأمير المؤمنين عليه السلام

في (الخرائج) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه اختصم رجلٌ وامرأة إليه، فعلا صوتُ الرجل عَلَى المَرأة، فقال له عليّ عليه السلام «اخسأ» - وكانَ خارجياً - فإذا رأسه رأس الكلب، فقيل له: يا أمير المؤمنين، صِحْتَ بهذا الخارجي فصار رأسه رأس الكلب، فما يمنعك عن معاوية؟ فقال: «ويحك لو أشاءُ أن آتي بمعاوية إلى هنا بِسَريره لَدَعَوتُ الله حتى فَعَل، ولكنّا لله خُزّاناً[1] لا على ذَهَبٍ ولا فِضّة، ولكن عَلى أسرار[2]، هذا تأويلُ ما تَقرَء: ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ الآية»[3].

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ[٢٨]

ثمّ نبّه سبحانه على سبب طاعتهم وغاية انقيادهم بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وما قدّموا من أعمالهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وما أخّروا، كما عن ابن عباس[4].

وقيل: يعني يَعْلَم أحوال آخرتهم ودنياهم أو بالعكس[5].

وقيل: يعني يَعْلَم ما قبل خَلْقهم وما بعد خَلْقهم، فيكون المراد أنهم يتقلّبون تحت قُدرته ومُحاطون بِعِلْمه[6]، وهذا العلم يَدْعُوهم إلى غاية الخضوع والانقياد.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ عنده تعالى ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ الله أنْ يَشْفَعوا له من أهل التوحيد مَهابةً منه ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ والخوف منه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ وَجِلُون، أو مرتعدون، أو مِن عظمته ومَهابته خائفون.

رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه رأى جَبْرَئيل ليلة المعراج ساقطاً كالحِلْس مِن خَشْية الله[7].

عن ابن عبّاس: ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أي إلّا لِمَن قَالَ لا إلهَ إلّا الله[8].

وعن الرضا عليه السلام: «الّا لِمَن ارْتَضَى [اللهُ] دِينَه»[9].

وعن الصادق عليه السلام: «أصحابُ الحُدودِ فُسّاقٌ لا مُؤمِنُونَ ولا كافِرون، ولا يُخلّدون في النّار،

---

١. في النسخة: ولكن لله خزائن.
٢. في المصدر: ولا إنكار على أسرار تدبير الله.
٣. الخرائج والجرائح ١: ٣/١٧٢، تفسير الصافي ٣: ٣٣٥.
٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٠.
٥ و٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٠.
٧. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٠، تفسير روح البيان ٥: ٤٦٩. والحِلْس: ما يُبسَط في البيت من حصير ونحوه.
٨. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٠، تفسير روح البيان ٥: ٤٦٨.
٩. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٥/١٣٦، تفسير الصافي ٣: ٣٣٦.

ويُخْرَجُون مِنها يوماً، والشَفاعةُ جائزةٌ لَهُم وَلِلْمُسْتَضْعَفِين إذا ارْتَضَى الله دِينَهم»[١].

وعن الكاظم، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّما الشَّفاعة لأهْل الكَبائِر مِن أُمّتي، فَأمّا المُحْسِنُون مِنْهُم فَما عَلَيْهِم مِنْ سَبِيل».

قيل: يا ابن رسول الله: كيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله يقول: **﴿لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾** وَمَن يرتكب الكبيرة لا يكون مُرْتَضى؟

فقال: «ما مِن مُؤمنٍ يرتكب ذَنْباً إلّا ساءه ذلك ونَدِم عليه، وقال النبي صلى الله عليه وآله: كفى بالنَدَم تَوْبَةً. وقال صلى الله عليه وآله: مَن سَرَّتْه حَسَنَتُه وساءته سَيئَتُه فهو مؤمن، فمن لَمْ يَنْدَم على ذَنْبٍ يَرْتَكِبه فليس بمؤمنٍ، ولم تَجِب له الشفاعة، وكان ظالماً، والله يقول: **﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾**»[٢].

فقيل له: يا ابن رسول الله، وكيف لا يكون مؤمناً مَنْ لَمْ يَنْدَم على ذَنْبٍ يَرْتَكِبُه؟

فقال: «ما من أحدٍ يرتَكِب كبيرةً من المعاصي وهو يعلم أنه سَيُعاقَب عَلَيْها إلّا نَدِم على مَا ارْتَكَب، ومتى نَدِمَ كان تائباً مستحقّاً للشَّفاعة، ومتى لم يَنْدَم عليها كان مُصراً، والمُصِرُّ لا يُغْفَر له، لأنه غيرُ مؤمنٍ بِعُقُوبَةِ مَا ارْتَكَب، ولَو كان مؤمناً بالعقوبة لَنَدِم، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: لا كبيرةَ مع الاستغفار، ولا صَغيرَةَ مع الإصْرار.

وأمّا قول الله عزّ وجلّ: **﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾** فَإنَّهم لا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى [اللهُ] دِينَه، والدِّينُ الإقْرارُ بالجَزاءِ عَلى الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، فَمَنِ ارْتَضى [اللهُ] دِينَه نَدِمَ على مَا ارتَكَبه مِنَ الذُّنوبِ لِمَعْرِفَتِه بعاقبته في القيامة»[٣].

وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّالِمِينَ * أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ [٢٩ و ٣٠]

ثمّ بالغ سبحانه في إظهار غَضَبِه على الإشراك وقولهم: إنّ الملائكة آلِهة بقوله: **﴿وَمَن يَقُلْ﴾** مِنَ المَلائكة ويَدّعي **﴿مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِن دُونِهِ﴾** ومتجاوزين إيّاه تعالى **﴿فَذَلِكَ﴾** القائلُ بهذا القولِ منهم على فَرْض المُحال **﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾** كغيره من المُجْرِمين، ولا يُغْنِي عنهم ما ذكر من صفاتهم السنيّة وأعمالهم المرضيّة، فكيف بغيرهم؟ **﴿كَذَلِكَ﴾** الجزاء **﴿نَجْزِى ٱلظَّالِمِينَ﴾** على الله بتضييع حقّه

---

١. الخصال: ٩/٦٠٨، تفسير الصافي ٣: ٣٣٦. ٢. المؤمن: ١٨/٤٠.

٣. التوحيد: ٦/٤٠٧، تفسير الصافي ٣: ٣٣٦.

بالإشراك، وعلى أنفسهم بتعريضها للهلاك.

في ذِكر بدو خلق السماوات والأرض

ثمّ عاد سبحانه إلى الاستدلال على توحيده وتنزيهه من الشرك بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ بتوحيد الله وأشرَكوا بِهِ ولَمْ يَعْلَمُوا بالتَّفكَر والاستفسار من العلماء ومطالعة الكتب ﴿أَنَّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ في بَدْو خلقتهما ﴿كَانَتَا﴾ شيئاً ﴿رَتْقاً﴾ ومُنْضماً لا فُرْجَةَ بينهما ولا فَضاء ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ وفَصَلْناهما وفرّقنا بينهم.

عن ابن عبّاس وجمع من المفسّرين: أن المعنى: كانَتا شَيْئاً واحِداً مُلْتَزِقَين، ففصل الله بينهما، فرَفع السّماء إلى حيثُ هِي، وأقرّ الأرض[1].

وعن كَعْب: خلَق اللهُ السماواتِ والأرضَ مُلْتَصِقَتَيْن، ثمّ خَلَق رِيحاً توسّطتهما فَفَتَقَهما بها[2].

وقيل: إنَه جاء في التوراة: أنّ اللهَ تعالى خَلَق جوهرة ثمّ نَظَر إليها بعين الهيبة فصارت ماءً، ثمّ خلق السّماواتِ والأرضَ منها وفَتَق بينهما[3].

وعن مجاهد: أنّ السّماواتِ كانَتْ مُرْتتقةً ومُتّصلةً، فَجُعِلَت سبع سماوات، وكذلك الأرضون[4].

وقيل: رَتْقهما: كونهما مَعْدومَين؛ لأنّه لا تَمايُزَ بين الإعْدام، وفَتْقهما: إيجادهما.

وقيل: رَتْقهما: اتّصالهما بالظُّلْمة، وفَتْقهما: إظْهارُ النّهار المُبْصر بينهما[5].

وعن ابن عباس وأكثر المفسّرين: أنّ السماواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً بالاستواء والصلابة، ففتَقَ الله السماءَ بالمَطَر، وَالأرضَ بالنَّبات[6].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «لعلّكَ تَزْعُمُ أنّهما كانتا رَتْقاً مُلْتَزِقَتَين مُلْتَصِقَتَين، فَفُتِقت إحداهما من الأخرى؟» فقال: نعم، فقال: «اسْتَغْفِرْ ربّك، فإنّ قولَ الله عزّ وجلّ ﴿كَانَتَا رَتْقاً﴾ يقول: كانَتِ السَّماءُ رَتْقاً لا تُنْزِل المَطَر، وكانَتِ الأرضُ رتْقاً لا تُنْبت الحَبّ، فلمّا خَلَقَ الله الخَلْق، وبثَّ فيها من كلّ دابّة، فَتَق السماءَ بالمطرِ، والأرضَ بِنَباتِ الحَبِّ».

فقال السائل: أشْهَد أنّك مِن وُلْد الأنبياء، وعِلْمَك عِلْمُهم[7].

وفي (الكافي) عنه عليه السلام: أنه سُئل عنها، فقال: «إنّ الله تبارك وتعالى أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض، وكانت السماء رَتْقاً لا تَمْطُر، وكانت الأرض رَتْقاً لا تُنْبِت شيئاً، فلمّا تاب الله عزّ وجلّ عَلى آدم عليه السلام

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٢، تفسير أبي السعود ٦: ٦٤.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٢، وفيه: وفتق بينها.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٢، تفسير أبي السعود ٦: ٦٤.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٣.

٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٣، تفسير أبي السعود ٦: ٦٥.

٧. الكافي ٨: ٦٧/٩٥، تفسير الصافي ٣: ٣٣٧.

أمَرَ السَّماءَ فَتَفَطَّرَتْ بالغَمام، ثمّ أمرها فَأرْخَت عزَالِيها[١]، ثمّ أمر الأرضَ فَأنبتَت الأشجارَ وَأثْمَرت الثّمار، وتفهّقت[٢] بالأنهار، فكان ذلك رَتْقُها، وهذا فَتْقُها»[٣].

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن ذلك فقال: «هو كما وَصَف نفسَه، كان عرشُه على الماء، والماءُ على الهَواء، والهواء لايُحدّ ولم يكن يومئذٍ خَلْقٌ غيرهما، والماءُ يومئذٍ عَذْبٌ فُراتٌ، فلمّا أراد أنْ يخلُقَ الأرضَ أمر الريّاحَ فضربت الماءَ حتى صار موجاً، ثمّ أزبد وصار زَبَداً واحداً، فجمعه في موضع البيت، ثمّ جعلَه جَبَلاً من زَبَد، ثم دَحَا الأرضَ من تحته، فقال الله تعالى: ﴿إنّ أوّل بيتٍ وُضِعَ للنّاسِ للذِى بِبَكّة مباركاً﴾[٤] ثمّ مَكَثَ الربُّ تبارك وتعالى ما شاء، فلمّا أراد أن يخلُقَ السماء أمر الرياح فضربت البُحور حتى أزْبَدَتْها، فخرج من ذلك الموجِ والزَّبد دُخانٌ ساطعٌ من غيرِ نارٍ، فخَلَق منه السماء، وجعل فيها البُرُوج والنجوم ومنازل الشمس والقمر، وأجراها في الفُلْك، وكانت السماء خَضْراء على لَون الماء الأخْضر، وكانت الأرض غَبْراء على لَون الماءِ العَذب، وكانتا مَرتُوقَتَيْن ليس لهما أبوابٌ، ولم يكن للأرض أبواب، وهو النَّبْت، ولم تَمْطُر السماء عليها فتُنبِت، فَفَتَق السماء بالمَطَر، وفَتَقَ الأرضَ بالنَّبات، وذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية»[٥].

أقول: رجّح القائلون بهذا القول قولهم بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾ والمعنى فَفتقنا السماء لإنْزال المطر، وجعلنا منه كلّ شيءٍ في الأرض من النباتِ وغيره حيّاً.

وقيل: إنّ المراد بالماء النُّطفة[٦]: فيكون المراد مِنْ كلّ شيء خصوص الحيوان، لأنّ النبات لا يسمّى حيّاً. وفيه مَنْعٌ لإطلاق الحَيّ عَلَى الأرض، فَضْلاً عَن النَّبات.

عن الباقر عليه السلام: «نَسَب كلّ شيءٍ إلى الماء، ولم يَجْعَل للماء نسباً إلى غيره»[٧].

وعن الصادق: أنّه سُئل عن طَعْم الماء فقال: «طَعْمُ الماء طَعْمُ الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾»[٨].

ثمّ أنْكَر عَلَيْهِم عدم الإيمان بالتّوحيد مع دلالة هذه الآية عليه بقوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بتوحيد الله.

وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ

---

١. العَزالي: جمع عزلاء، وهو مصبّ الماء من القِربة ونحوها، ويقال: أرسلت السماء عَزاليَهَا: انهمرت بالمطر.
٢. فَهِق الحوض: امتلأ حتى تصبّب.
٣. الكافي ٨: ٩٣/١٢١، تفسير الصافي ٣: ٣٣٧.
٤. آل عمران: ٩٦/٣.
٥. تفسير القمي ٢: ٦٩، تفسير الصافي ٣: ٣٣٨.
٦. تفسير روح البيان ٥: ٤٧١.
٧. الكافي ٨: ٦٧/٩٤، تفسير الصافي ٣: ٣٣٨.
٨. مجمع البيان ٧: ٧٢، تفسير الصافي ٣: ٣٣٨.

يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ٱلسَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ[٣١ـ٣٣]

ثمَ ذكر برهاناً آخر بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وَخَلَقْنا فِيها جِبالاً ﴿رَوَاسِىَ﴾ وثَوابتَ فيها، كراهة ﴿أَنْ تَمِيدَ﴾ وتَمِيل ﴿بِهِم﴾ وتضطرب ﴿وَجَعَلْنَا فِيها فِجاجاً﴾ وطُرُقاً واسِعة ليكونَ لهم ﴿سُبُلاً﴾ ومَسالِك إلى البلاد البعيدة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مصالحهم ومُهمّاتهم التي تكون في تلك البِلاد، أو لِيَهْتَدوا إلى توحيد الله ومعارفه.

وقيل: إنّ ضميرَ (فيها) راجعٌ إلى الجِبال، لأنّها المحتاجة إلى الطُّرُق[1].

ثمَ ذَكَر دليلاً آخَر بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّماءَ﴾ لَهُم ﴿سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾ مِن الوُقُوع والسُّقُوط والزوال والانحلال إلى الوقت المعلوم بِغَيْر عَمَدٍ، وَمِنْ استراق السمع بالشُّهُب.

والقمي: يعني مِنَ الشياطين، أي لا يَسْتَرِقون السَّمع[2] ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ وعَجائِبِهَا الدالّة على كَمال قُدرته وعَظَمته ووحَدْانيّته وَعِلمه وحِكمته ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتدبّرون فيها حتى يَقِفوا على فساد ما هم عليه مِن الشِّرك والضَّلال.

ثمَ نبّه سبحانه على بعض آياتها بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ والله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بِقُدْرته وحكمته ﴿ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ مُخْتَلفين ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ دائِبَيْن ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿فِى فَلَكٍ﴾ على حِدَة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ويُسْرِعون في السير، كما يَسْبَح السَّمكُ في الماء.

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِن مِتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَإِذَا رَآكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ هُمْ كَافِرُونَ[٣٤ـ٣٦]

ثمَ لمَا بيّن سبحانه النِّعم الدنيويّة، نَبّه المشركينَ الظّانّين بقاءهم في الدنيا على فَنائها وزَوالها بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ وما قدّرنا ﴿لِبَشَرٍ﴾ وفردٍ من بني آدم الذين كانوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمّد ﴿الخُلْدَ﴾ والحياة الدائمة في الدنيا ﴿أَفَإِنْ مِتَّ﴾ يا محمّد، وأنتَ سيّد البشر، وخاتم الأنبياء، وأقرب الخلق إلينا ﴿فَهُمُ ٱلخَالِدُونَ﴾ والباقون فيها؟! كلّا، لا يكون ذلك أبداً، بل أنتَ وهُمْ على سُنّتِنا ومقتضى الحكمة البالغة التي تكون لنا ميّتون لا مُحالة.

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٤.

٢. تفسير القمي ٢: ٧٠، تفسير الصافي ٣: ٣٣٩.

قيل: إنّ أُناساً كانوا يقولون: إنّ محمداً ﷺ لا يموت، فنزلت[1].

وقيل:كانوا يُقدّرون أنه ﷺ سيموت فيَشْمَتون[2] بموته، فَنفى الله عنه الشَّماتَة وبيَن أن حالَه كحالِ الأنبياء قبْلَه وحالِ سائر البَشَر، والمعنى: أَفَإنْ مِتّ فَهُم الخالِدون حتى يَشْمَتوا بموتك؟![3]

وقيل: إنّها نزلتْ حين قال: المشركون: ﴿نتربّص بِهِ رَيْبَ الْمَنُون﴾[4].

ثمّ أكّد سبحانه عموم الموت لكلّ أحَدٍ بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس نبيّاً كان أو وليّاً، أو مؤمناً أو كافراً ﴿ذَائِقَةُ﴾ وطاعِمَةُ طعمِ ﴿ٱلْمَوْتِ﴾ وإنّما تكون حكمة تعيُّشكم وحياتكم في الدنيا أنْ نختبركم ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ في مدّة حياتكم ﴿بالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ وَالبَلايا والنِّعم ﴿فِتْنَةً﴾ وامتحاناً ليَتَميَّز الصابِر والشاكر من غيرهما ﴿وَإِلَيْنَا﴾ بعد الموت ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لِجَزاءِ ما اختبرتم به من الأخلاق والأعمال.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مَرِض فعاده إخوانه، فقالوا: كيف نجدُك يا أمير المؤمنين؟ قال: بِشَرٍّ، قالوا: ما هذا كلامُ مثلك! قال: إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ فالخيرُ: الصحّة والغنى، والشرّ: المرض والفقر»[5].

فحاصل الآية أنّ الغرضَ مِن حياة الدنيا الابتلاء، والتعريض للثواب والعقاب، وَأنّ القول بنفي البعث والمعاد باطلٌ مخالف للحكمة في خَلْق الإنسان.

ثمّ حكى سبحانه استهزاءَ المشركين بالنبيّ ﷺ لقوله بالتوحيد وذمّه الأصنام بقوله: ﴿وَإِذَا رَآكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ولا يفعلون بك ﴿إِلَّا هُزُواً﴾ وسُخْريّة لادّعائك النُبوّة ودَعْوَتك إلى التوحيد وذَمّك الأصنام، ويقول بعضهم لبعض استهزاءً: ﴿أَهٰذَا﴾ الرجلُ الوحيدُ الفقيرُ هو ﴿ٱلَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ بالسُّوء ﴿وَهُمْ﴾ أحِقّاء بالاستهزاء والتَّعْييب، لأنهم ﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمنِ﴾ المُنْعِم على عامّة الموجوداتِ ﴿هُمْ كافِرُونَ﴾ ولحقوقه وصفاته الكماليّة من التوحيد والقدرة والغَناء عمّا سواه منكرون.

قيل:نزلت الآية في أبي جهل، مرّ بِه النبيّ ﷺ وهو مع أبي سفيان، فقال لأبي سفيان: هذا نبيّ بَني عَبد مَناف؟! فقال أبو سفيان: ما تُنكر أن يكونَ نبيّاً في بَنِي عبد مناف، فَسَمِع النبيّ ﷺ قولهما، فقال لأبي جهل: «ما أراكَ تَنْتَهي حتى ينزل بك ما نزل بعمّك الوليد بن المُغيرة، وأمّا أنت يا أبا سفيان فإنّما

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٩.
٢. في النسخة: فيشمتونه.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٩.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٤٧٥، والآية من سورة الطور: ٥٢/٣٠.
٥. مجمع البيان ٧: ٧٤، تفسير الصافي ٣: ٣٣٩.

قُلتَ ما قُلتَ حَميّة» فنزلت[١].

خُلِقَ ٱلْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ[٣٧ و ٣٨]

ثمَ أنَه تعالى بَعْدَ ذمَ المشركين عَلَى استِهزائِهم بالنَبيَ ﷺ ذمَّهم على تعجيلهم في العذاب الموعود استهزاءً بقوله: ﴿خُلِقَ الإنسانُ﴾ بنوعه ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ والسُّرعة في طَلَب المطلوب، وقِلَة الصَّبْر عليه، فنزَل سبحانه الخَلْق الذي طُبع عليه مَنْزلة مَبْدءِ خَلْقه إيذاناً بعدم انفكاكه منه. وَمِنْ عَجَلَتِه استعجالهُ نزول العذاب الذي كان يَعِدُهم النبيَ ﷺ إيّاه.

رُوي أنَها نزلت في النَّضْرِ بن الحارث حِينَ اسْتَعْجَل العَذابَ بقوله: اللهمَ إنْ كان هذا هو الحقَّ مِنْ عِنْدِك فَأمْطِر عَلَيْنا حِجارةً مِنَ السَّماءِ أو آتِنا بعذابٍ أليم[٢].

وعن ابن عباس: أنَ المراد بالإنسان آدم عليه السلام، فإنَه حينَ بَلَغَ الرُّوحُ صَدْرَه أرادَ أنْ يَقُومَ[٣].

أقول: لعلَ المراد أنَ العجلة أوَلاً كانت خُلُقه عليه السلام، ثمَ سَرى هذا الخُلُق في أولاده وذُرّيته.

وقيل: إنَ المراد بالعَجَلِ الطِّين[٤]، والمعنى: خُلِق الإنسانُ مِن طِينٍ، وهذا المعنى في غاية البُعد.

ثمَ وجَه سبحانه الخِطاب إلى المُسْتَعْجِلين وهدَّدهم بقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ﴾ وأنزل عليكم عن قريب ﴿آيَاتِى﴾ وعقوباتي الدالّة على كمال قدرتي وقهّاريتي في الدنيا أو في الآخرة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيانِ بها، فَإنَّه استِعْجالٌ في ما يضُرّكم غاية الضَّرر، وهو خلاف العقل وعينُ السَّفَه ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استعجالاً عن استهزاءٍ بالنبيَ[٥] والمؤمنين بعد وَعْدِهم إيّاهم بالعذاب: ﴿مَتَىٰ﴾ يَقَعُ ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الّذِي تَعِدونَنا به، فأتُونا به ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في وَعْدِكم.

لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ[٣٩-٤٢]

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٠.

٢. تفسير أبي السعود ٦: ٦٧.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ٦٧، تفسير روح البيان ٥: ٤٨٠.

٤. تفسير أبي السعود ٦: ٦٧.

٥. في النسخة: للنبيّ.

ثمّ أجابهم سبحانه بقوله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ﴾ ولا يَقْدِرُون أنْ يَدْفَعُوا ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ﴾ لإحاطَتِها بِهِم مِن كُلّ جانِبٍ ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ مِن أحدٍ في دَفْعِها، ولا يُعاونَون مِن نَفْسٍ عليها[١] لما استعجلوا به، أو يَعْلَمون حقيقة الحال ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ العِدة أو النّار أو الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ وغَفْلة عنه ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ وتُحَيِّرهم أو تَغْلِبهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ حين إتيانها ﴿رَدَّهَا﴾ وصَرفها عن أنفسهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ويُمْهَلون، كي يَسْتَرِيحوا منها طَرْفة عَينٍ، فَإنّ الإمهال مختصٌ بالدنيا، أو كَي يَعْتَذِروا مِن مَعاصِيهم، أوْ لا يُنْظَر إليهم وَإلى تَضَرُّعهم.

ثمّ لمّا حَكى سبحانه استهزاء المشركين بالنبيّ ﷺ سَلاه ووعَدَه بالنّصر بقوله: ﴿وَلَقَدِ آسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ كَثِيرةٍ عُظماء القَدْر كانوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ كَمَا اسْتَهْزَأ قومُك بك فصبروا ﴿فَحاقَ﴾ وأحاط ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم﴾ بعد سُخريَتهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِن العذاب، فَهَلكوا جميعاً، وكذلك حالُ المُسْتَهْزِئين بك.

ثمّ أنّه تعالى بعد تسلية النبيّ ﷺ وَتَهْدِيد المُسْتَهْزئين به أمَره بتقريعهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد للمُسْتَهْزِئين: ﴿مَنْ﴾ الذي ﴿يَكْلَؤُكُم﴾ ويَحْفَظُكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ الذي هو أغلَب مَواقع البَليّات ﴿وَٱلنَّهارِ﴾ الذي يختصّ بالآفات ﴿مِن﴾ عذاب ﴿ٱلرَّحْمٰنِ﴾ غيرهُ برحمَتِه الواسعة، فَإنّه هو الذي يُمْهِلُكم مع شدّة استحقاقكم ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ بحيث لا يَخطِر بِبالِهم، فَضْلاً عن أنْ يَخافُوا منه، ولا يَعُدُّون ما هم عليه من الأمنِ والدَّعة حِفْظاً وكلاءةً حتى يسألوا عن الكالِئ. وفي إضافة الإعراضِ إلى الذِّكْر، وإضافة الذِّكْر إلى الربّ، تَنْبِيهٌ عَلى كونهم في الغاية القُصوى من الضَّلال.

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ[٤٣و ٤٤]

ثمّ بالغَ سبحانه في تَقْرِيعهم بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قيل: المعنى بل لَهم[٢]، أوْ ألَهم[٣]، أوْ بَلْ ألَهم[٤] آلِهة ﴿تَمْنَعُهُم﴾ وتَحْفَظُهم من العذاب والآفاتِ اللَّيْلِيَّةِ والنَّهارِيَّة التي تكون ﴿مِنْ دُونِنا﴾ وعندنا. وقيل: يعني تتجاوز منعنا[٥]، أو آلهةٌ يكونون من دوننا، وهُم مُعوّلون عليها، مع أنّهم لغاية ضَعْفهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ وَرَفْعَ الكَسْر والقطْع والتَّلْوِيث عنها ﴿وَلَا هُم مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ بالنَّصر،

١. هكذا الظاهر، وفي النسخة: عليه.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٤٨٣.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٤.
٤. تفسير البيضاوي ٢: ٧١.
٥. تفسير أبي السعود ٦: ٦٩.

أو يُمْنَعُون، كما عن ابن عبّاس[١].

وقيل: يعني لا يكون لهم من جهتنا ما يَصْحَبهم من السّكينة والرَّوح والرِّفق وغير ذلك مِمَا يَصحَب أولياءنا، فكيف يُتَوهَم أنهم يَنْصُرُون غَيْرَهم؟[٢] ﴿بَلْ﴾ مَعَ أنا حَفِظْناهُم مِن كُلّ آفةٍ ﴿مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ وأنعمنا عليهم بالنِّعم الكثيرة الدنيويّة في المُدّة الطويلة ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ في الغَفْلة فَنَسُوا عَهْدنا، وجَهِلوا موقع نِعَمِنا، واغترُّوا بها، مع أنّه لا وجه لاغْتِرارِهم بها مع أنها تَزُول وتَذهب بسرعة، وأنّهم مَقْهُورون تحت قُدْرَتنا، ويَرَونَ آثارَ عذابنا ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ التي يَسْكُنونها و﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ وجَوانِبها بِتَسْليط المُسْلِمين عليها، وفَتْحِهم بِلادها وقُراها، ونزيدها في ملك محمّد ﷺ.

وقيل: يعني: إنّما نُميت رؤساءهم، أوْ ننقُص مِن الشرّك بإهلاك أهله، فيعتبرون بما يَرَون. فَيُؤمنون بالرسول، ويَعْلمون أنّ نِعَمهم مِنّا وبَقاءها وزَوالها بيَدِنا، أو يَعْلَمون أنّا قادرون على إنجاز وَعْدنا إيّاهم بالعذاب، وهم لا يَقْدِرون على حِفْظه منه[٣].

عن ابن عبّاس: تفسير نَقْص الأرض نَقْصُها بفَتْح البِلاد، أو نُقصان أهلها وبَرَكَتها[٤].

وقيل: تخريب قُراها بموت أهلها[٥].

وقيل: هو موت العلماء[٦]، كما روي عن الصادق عليه السلام[٧] واعترض عليه البعض بأنّ الآية نَزَلت في كُفّار مكّة، فكيف يدخُل فيها العلماء والفقهاء؟

وفيه: أنّ المراد من الأرضِ على هذا التفسير مُطْلَقُها، وإنْ كان المقصود اعتبار أهل مكّة، ويمكُن أنْ يكون المراد من النقص المعنى العامّ الشامل للجَميع بإرادة عموم المجاز.

ثمّ أنكر سبحانه على المشركين توهُّم غَلَبتهم على النبيّ ﷺ والمؤمنين مع مشاهدتهم آثار قُدرة الله عليهم بقوله: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ﴾ والقاهِرُون على نبيّنا ﷺ وعلى المؤمنين بِه مَعَ رؤيتهم آثار قدرتنا ونُصرتنا إيّاهم، أمْ محمّد ﷺ وحُزبه الذين هم حزب الله غالِبون على أُولئك الكفرة الطُغاة.

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ * وَلَئِن مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ * لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ[٤٥ و٤٦]

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٨٣.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٤٨٣.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٤.
٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٥.
٥ و٦. مجمع البيان ٧: ٧٩، تفسير الرازي ٢٢: ١٧٥.
٧. مجمع البيان ٧: ٧٩، تفسير الصافي ٣: ٣٤١.

ثمَ أنَه تعالى بعد إكثار الأدِلَة على بُطلان الشِّرك وتَكرارها على التوحيد وعدم انتفاع المشركين بها، والإبلاغ في وَعْدِهم بالعذاب وَعَدَمِ مبالاتهم به، ومُبالَغَتهم في الاستعجال بوعد الرسول إستهزاءً به، أمَر نبيَّه ﷺ بالتبليغ والاهتمام بأداء وظيفة الرسالة، وعدم الاعتناء بتَرَّهاتهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمَد للمشركينَ المُسْتهزئينَ بك ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم﴾ أيها الطُغاة على حَسَب وظيفتي مِن قِبَل رَبي ﴿بِالْوَحْىِ﴾ الذي جاءني بتوسّط جَبْرئيل، وبالقرآن الذي نَزَل إليَ، وليس لِي أنْ آتيكم بِما أُنْذِرُكم به من العذاب، فإنَه بقدرة ربِّي ومشيئته، وأنتم لعدم انتفاعكم بدعوتي وَإنذاري كالصُّمَ ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَاءَ﴾ ونِداء المُنادِي ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ وإنَما قيَد الدعاء بوقوعه وَقْتَ الإنذار؛ لأنَ المُعْتادَ في إنذار الأصَمَ الإفْراط في رَفْعِ الصوت وتَكْرِيره والإبلاغ في تَفْهِيمه بالإشارة الدالَة عليه، فَإذا لم يَسْمَعوا مَعَ ذلك يكون صَمَمهم إلى حدّ لا وَراءَ له.

ثمَ بيَن سبحانه أنْ تَعْجِيلهم بالعذاب إنَما هو لِجَهْلِهم بشدَته وكيفيّته، وأنَهم إذا رَأوه يعترفون على أنفسهم بالظُّلم ويَعْتَذِرون من تصاممهم بقوله: ﴿وَلَئِنْ مَّسَّتْهُمْ﴾ ووالله إن أصابتهم أدنى مرتبة الاصابة ﴿نَفْحَةٌ﴾ وشيءٌ يسير كالرائحة ﴿مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ لَتَنادَوا بالوَيْل والثُّبور و﴿لَيَقُولُنَّ﴾ تَذَلُّلاً وتحسُّراً وتندَماً وَاعْترافاً بفساد عقائدهم وأعمالهم: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهَلاكنا ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿ظَالِمِينَ﴾ على الله بإثبات الشريك له، وعلى الرسول بالاستهزاء، وعلى أنفسنا بتعريضها للهلاك.

وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ [٤٧ و ٤٨]

ثمَ بيَن سبحانه كمال العدل في تعذيبهم بقوله: ﴿وَنَضَعُ﴾ وننصِب ﴿ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ والعدل ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ لِوَزْن العقائد والأعمال بها، لِيَعْلَم النّاسُ مِقدار سَيِّئاتهم وحسناتهم، وما يستحقّون من الثواب والعقاب، وقد مرّ تحقيق المراد من الموازين وما يُوزَن بها في سورةالأعراف[١] ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿شَيْئاً﴾ من حقّها، بل يوفَى حقَّ كلِّ ذِي حَقّ إنْ خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ عملها ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ ومِقدارها في الصِغَر والحقارة، أحْضَرنا ذلك العملَ الّذِي لَهُ وَزْنُ حبَة هِي أصغر الحبوب و﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ للحِساب، ونَضعُها في الموازين ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ لِلأعمالِ عادلين فيها.

---

١. تقدّم في تفسير الآية ٨ و٩ من سورة الأعراف.

عن ابن عبّاس: يعني عالِمينَ حافظين[١]، إذ لا أعْلَم ولا أحْفَظ مِنّا.

ثمَ أنّه تعالى بعد إبطال الشِّرك، وإثبات التوحيد والمعاد بالأدِلّة القاطعة، ودَفْع شبهة المشركين في الرسالة، شَرَعَ في بيان أحوال الأنبياء العِظام الَّذِين كانُوا مِن البَشَر ودُعاةً إلى التوحيد والمَعاد بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَ﴾ أخاهُ ﴿هَارُونَ﴾ التَّوراة الَّتِي تكون هي ﴿الْفُرْقَانَ﴾ والمميّز بَيْن الحقّ والباطل ﴿وَضِيَاءً﴾ يُستَضاءُ بِها في ظُلُمات الحَيْرة والجَهالة ﴿وَذِكْرًا﴾ وعِظَةً عَظِيمةً ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمحتَرِزين من القبائح وسُوءِ العواقب، فَإنّهم المستضيئون بأنواره المُغْتَنِمون بغنائم آثاره.

وقيل: إنّ الفرقان هو النَّصر عَلَى الأعداء[٢].

وقيل: هو البرهان الذي فرّق به الدين الحقّ عن الأديان الباطلة[٣].

وقيل: هو فَلْقُ البَحْر[٤].

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ[٤٩و ٥٠]

ثمَ وصفَ اللهُ المتّقين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ ويَخافون مِن عذابِه الذي يكون ﴿بِالْغَيْبِ﴾ عَنْهم، وفي السَّتر عن أعيُنِهم.

وقيل: يعني يَخْشَون ربّهم وهم غائبون عن الآخرة[٥].

وقيل: يَخْشَون ربّهم في الخَلَوات والغِياب عن الناس[٦] ﴿وَهُمْ مِنَ﴾ عذاب ﴿السَّاعَةِ﴾ وأهوالِها ﴿مُشْفِقُونَ﴾ ووَجِلُون، أو مُرتَعدون، فلذلك يحتَرِزون عَنِ اتِّباعِ الشَّهَوات وَارتِكاب السَيّئات.

ثمَ لمّا مدحَ الله سبحانه التوراة، مَدَحَ القُرآن بقوله: ﴿وَهٰذَا﴾ القرآنُ العظيم ﴿ذِكْرٌ﴾ وَعِظةٌ للناس إلى يوم القيامة و﴿مُبَارَكٌ﴾ كثيرُ الخير والنفع، أو ما يتبرّك به ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ بتوسط جَبْرَئيل كما أنزلنا التوراة من قبل ﴿أَفَأَنْتُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿لَهُ﴾ نُزُولاً وبَرَكةً ﴿مُنْكِرُونَ﴾ مع عدم المجال لإنكاره لاشتماله على معجزات كثيرة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُم لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٨٦.

٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٨، تفسير أبي السعود ٦: ٧١.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٩.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٩، تفسير أبي السعود ٦: ٧١.

٥ و٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٩.

كُنتُمْ أَنْتُم وَآبَاؤُكُمْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذٰلِكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ[٥١ـ٥٨]

ثمّ بيّن سبحانه عِظَم شأن إبراهيم عليه السلام ورسالته وكيفيّة دعوته بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿إِبْراهِيمَ﴾ الخليل ﴿رُشْدَهُ﴾ وهدايته إلى الحقّ ومَصالح الدين والدنيا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي العصر السابق على عصر موسى عليه السلام، كما عن ابن عباس[١]. أو في عالم الذرّ حين أخذنا ميثاق النبيّين، كما عنه أيضاً[٢] ﴿وَكُنَّا بِهِ﴾ وبِأهْلِيّته لذلك العطاء ﴿عَالِمِينَ﴾ وَاذْكُر يا محمّد ﴿إِذْ قَالَ﴾ حَسَب وظيفة الرسالة ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿وَقَوْمِهِ﴾ قيل: هم أهلُ بابل[٣]: ﴿مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ والصُّوَر المُجسّمة ﴿الَّتِى أَنْتُم لَهَا عَاكِفُونَ﴾ وإلى عبادتها مقبلون، ولخدمتها ملتزمون؟ ﴿قَالُوا﴾ في جوابه: إنّا ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ ونحن لهم مُقلِّدون، وبهم مُقْتَدون.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام: بالله ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُم﴾ أيها المُقلِّدون ﴿وَآبَاؤُكُمْ﴾ الّذِينَ اقْتَدَيْتُم بهم ﴿فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وخطأ ظاهرٍ عظيمٍ لايَخفى على ذي شعور ﴿قَالُوا﴾ تعجّباً واستِبْعاداً منه لمخالفته أهل بلده: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ﴾ وكلام صِدْقٍ وعن جِدٍّ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ والهازلين بهذا القول المخالف للأكثرين ومن المازحين معنا؟ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: لستُ من اللاعبين والمازحين ﴿بَلْ﴾ أقول عن جِدٍّ وحقيقةٍ: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ وخَلَقَهنّ بقدرته وحِكمته بلا مِثال سابق، أو الذي خَلَق التماثيل ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذٰلِكُم﴾ الذي ذكرتُه من كون الربّ والإله ربّ جميع الموجودات وَحْدَه دون التماثيل وغيرها ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ والعالِمين به بالبراهين.

قيل: إنّ قومه كان لهم عِيدٌ يَخْرُجون فيه من البلد إلى الصحراء للطَّرَب والبَطَر، ثمّ يعودون إلى بيوت أصنامهم ويُزيّنونها ويَعْبُدونها، فلمّا ناظَر إبراهيمُ عليه السلام بعضَهم قالوا: غداً يوم العِيد فَاخْرُج معنا وانظُر محاسن ديننا، فسكت إبراهيم عليه السلام، فلمّا كان الغد جاءوا إليه وسألوه الخروج معهم، فَاعْتَلّ وتمارض وقال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ يعني عن عبادة الأصنام[٤]، فلمّا ذهبوا قال إبراهيم في نفسه: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ واحتالنّ واجتهدنّ في كسرها، أو لأحتالنّ بكم في كسرها ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا﴾ وترجِعوا ﴿مُدْبِرِينَ﴾ وذاهبين من بيوتها إلى عِيدكم.

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٠.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٠.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٢.

وعن السُّدِّي: كانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثمّ عادوا إلى منازلهم، فلمّا كان هذا الوقت قال آزر لإبراهيم عليه السلام: لو خرجتَ معنا؟ فخرج معهم، فلمّا كان ببعض الطريق ألقى نفسَه وقال: ﴿إنّي سَقِيمٌ﴾ واشتكى رِجْله، فلمّا مَضَوا وبقي الضُعفاء نادىٰ ﴿و﴾ قال: ﴿تَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾[١].

وعن الكَلْبي: كان إبراهيمُ من أهل بيتٍ ينظُر[ون] في النجوم، وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يَتْرُكوا إلّا مريضاً، فلمّا هَمَّ إبراهيم بكسر الأصنام، نظر قبل يوم العِيد إلى السماء، فقال لأصحابه: أراني أشتكي غداً، فأصبح مِن الغَد معصوباً رأسه، فخرج القوم لِعيدهم ولم يتخلّف أحدٌ غيرُه، فقال: أما وَاللهِ لأكِيدَنَّ أصنامَكُم، فسَمِع قوله رجلٌ منهم، فأخبر به غيره فانتشر ذلك[٢].

ورُوي أنّ آزر خرج به في عيدٍ لهم، فبدأوا ببيت الأصنام فدخلوه، وسجدوا لها ووضعوا بينها طعاماً وخُبزاً، وقالوا: الآن ترجع بركة الآلِهة على طعامنا، فذهبوا وبقي إبراهيم عليه السلام فنظر إلى الأصنام فقال مستهزئاً بهم: مَا لَكُمْ لا تَنْطِقون، ما لكم لا تَأكُلُون؟! ثمّ التفت إلى فأسٍ معلّقٍ فتناوله، وكان هناك سَبْعِين صنماً، وكان صنمٌ عَظِيم مستقبلَ الباب، وكان مِن ذَهَب، وكان في عينيه جوهرتان تضيئان، فكسر الكُلّ بالفَأس ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً﴾ وقِطعاً متفرّقة ﴿إلّا كَبِيراً﴾ كان ﴿لَهُمْ﴾ فإنّه عليه السلام لم يَكْسِره وعلّق الفأس في عُنُقه[٣] ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بَعْدَ رُجُوعِهم من عِيدهم ورؤيَتِهم فِعْلَ إبراهيم عليه السلام ﴿إلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ في تَعْيين الكاسر لتسامعهم إنكاره لِدِينهم وسَبّه آلهتهم، أو إلى مقالته من التوحيد يرجِعون، وعن دينهم الباطل يعدِلون، لرُؤيتهم أنّ أصنامهم لَمْ يَقْدِروا على أن يدفعوا عن أنفسهم ضَرّاً ولم يَنَل من أهانهم[٤] وكَسَرَهم ضَررٌ.

وقيل: يعني لعلّهم إلى الصنم الكبير يَرْجِعون،وإنّما قال عليه السلام ذلك استهزاءً بهم[٥].

وقيل: يعني يرجِعون إليه في حلّ مشكلهم من تعيين الكاسِر، وعلّة إبقاء الكبير وتَعْليق الفأس في عُنُقه وكسرِ ما عداه[٦]، حتّى يظهر غاية جهَالتهم وحَماقتهم.

قَالُوا مَن فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٢.

٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٢.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ٧٣.

٤. في النسخة: أهان بهم.

٥ و٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٣.

يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ[٥٩ـ٦٥]

ثمّ لمّا رجع القوم من عيدهم ودخلوا بيت الأصنام ليسجُدوا لهم، رأوا ما فَعَل إبراهيمُ عليه السلام بهم **﴿قَالُوا﴾** تشنيعاً على كاسِرهم وتهديداً له: **﴿مَنْ فَعَلَ هٰذَا﴾** الفعل **﴿بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾** على أنفسهم بتعريضِها للهلاك، أو على الآلهة المستحِقّة للتعظيم بجُرأته على كَسْرِهم وتوهينهم، فلمّا سَمِع هذا الكلامَ الذين عَلِموا أنّه قال إبراهيم عليه السلام: **﴿تَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾**[١]، **﴿قَالُوا﴾**: يا قوم إنّا **﴿سَمِعْنَا﴾** مِن النّاس أنّ **﴿فَتىً﴾** وشاباً يعيب الآلهة و**﴿يَذْكُرُهُمْ﴾** بسُوءٍ **﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾** فلعلّه فَعَل ذلك بهم. فلمّا سمع القوم ذلك **﴿قَالُوا﴾** ـ وقيل: إنّ نمرودَ وأشرافَ قومه قالوا في ما بينهم ـ: **﴿فَأْتُوا بِهِ﴾** وأحْضِروه **﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾**[٢] وبمَرْأىً منهم ومَنْظرٍ، وفيهم الذين عرفوه **﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾** عليه بأنّه فعل ذلك، أو قال ذلك القول لِئلّا يأخُذه بلا بيّنة، فلمّا أحضَروا إبراهيم عليه السلام **﴿قَالُوا﴾** تقريراً له: **﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هٰذَا﴾** الفِعْل **﴿بِآلِهَتِنَا﴾** وأصنامنا **﴿يا إبراهيمُ قَالَ﴾** في جوابهم تهكُّماً: **﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا﴾** الذي لم يُكْسَر، لغضبه على أنْ تُعْبَد معه هذه الأصنام الصِّغار، كما قيل[٣]، فان لم تقبلوا قولي **﴿فَسْأَلُوهُمْ﴾** عمّن فَعَل بِهِم ذلك **﴿إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾** حتى يُصَدِّقوني في ما أُخْبِركم به.

روت العامة عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّه لَمْ يَكْذِب إبراهيم عليه السلام إلّا ثَلاثَ كذباتٍ؛ أحدها أنّه قال: **﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾**، والثانية أنّه قال: **﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا﴾** والثالثة أنه [قال لسارة: هي أُختي]»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّما قال ابراهيمُ عليه السلام: إنْ كانوا يَنْطِقون فكَبِيرُهُم فَعَل، وإنْ لم يَنْطِقوا فَلَم يَفْعَلْ كبيرُهم شيئاً، فَمَا نَطَقُوا، وما كَذَب إبراهيم»[٥].

وعنه عليه السلام أيضاً إنّما قال: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُم، إرادة الإصلاح ودلالة على أنّهم لا يفعلون[٦]»، ثمّ قال: «وَاللهِ ما فَعَلَه وما كَذَب»[٧].

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ وَراجَعوا إلى عقولهم، وتذكّروا أنّ ما لا يقدِر على دَفْع الضَّرَر عن نفسه، ولا عَلَى الإضرارِ بِمَن كَسَرَه، يستحيل أنْ يَقْدِر على دفع الضَّرَر عن غَيْرِه، وما يكون كذلك لا يجوز عبادته.

---

١. الأنبياء: ٥٧/٢١.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٤.
٣. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٤.
٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٥، تفسير روح البيان ٥: ٤٩٤.
٥. معاني الأخبار: ١/٢١٠، تفسير الصافي ٣: ٣٤٣.
٦. الكافي ٢: ١٧/٢٥٦، تفسير الصافي ٣: ٣٤٣.
٧. الكافي ٢: ٢٢/٢٥٦، تفسير الصافي ٣: ٣٤٣.

وقيل: يعني رَجَعُوا إلى أنفسهم فَلامُوها[١] ﴿فَقَالُوا﴾ فيما بينهم: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ على أنفسكم بعبادتهم لا مَن كَسَرهم، أو ظالمون على إبراهيم عليه السلام حيث تَزْعُمون أنه كسرهم، مع أنّ الفأس عند الصنم الكبير، أو الظالمون على أنفسكم حيث سألتم إبراهيم عليه السلام عن ذلك، فأخذ يستهزئ بكم في الجواب ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ﴾ وعادُوا إلى ما كانوا عليه من الحُمْق والمجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة إلى عقولهم.

وقيل: يعني ثمّ قلبوا على رؤوسهم لِفَرط إطراقهم خجلاً وانكِساراً بما بهتهم به إبراهيم عليه السلام، فما أحاروا جواباً[٢] إلّا أنّهم قالوا: والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا إبراهيم ﴿مَا هَٰؤُلَاءِ﴾ الأصنام ﴿يَنْطِقُونَ﴾ فكيف تأمُرنا بالسؤال، عنهم فاعترفوا بلُزوم حُجّة إبراهيم عليه السلام عليهم.

وقيل: يعني قُلِبوا على رؤوسهم في الحُجّة على إبراهيم عليه السلام، واحتجّوا عليه بما هو الحُجّة له، لغاية تحيُّرهم، والمراد نُكِست حجّتهم، فأقامُوا الحُجّة عليهم مقام الحُجّة لهم[٣].

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَالَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَانَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلَاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ[٦٦ ـ ٦٩]

ثمّ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام توبيخاً عليهم وتَبْكِيتاً لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَالَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً﴾ إنْ عبدتموه ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إنْ لا تَعبُدُوه، بل ولو أهَنْتُموه؟ مع أنّ المعبود لابدّ أنْ يكونَ قادراً علَى الإنفاعِ والإضْرارِ، كَي لا تكونَ عبادته عبثاً.

ثمّ لمّا رأى إصرارهم على باطلهم قال تضجُّراً منهم: ﴿أُفٍّ لَكُمْ﴾ وقُبحاً ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ﴾ من الجمادات الخَسيسة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قُبحَ صَنيعكم وشَناعة عَمَلِكم.

ثمّ لمّا عَجَزوا عن الغَلَبة عليه بالحُجّة تشاوَرُوا في إهلاكه و﴿قَالُوا﴾: إنْ أرَدْتُم إهلاكَه ﴿حَرِّقُوهُ﴾ بالنار، فإنّه أشدّ العقوبات ﴿وَٱنصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام لها ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فِعْلاً فِي نُصْرَتِهم والانتِقام لَهم.

قيل: إنّ القائلَ نَمْرُود[٤]. وقيل: إنّه رجلٌ من الكُرد، من أعراب فارس[٥]. وقيل: إنّه رَجُل اسمه هبرين، خسف الله بِهِ الأرْضَ، فهو يتجَلْجَل فيها إلى يوم القيامة[٦].

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٦.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٦.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٦.
٤ ـ ٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٧.

قصة إلقاء إبراهيم عليه السلام في النّار

ثم لمَا اتّفقوا على إحراقه، حَبَسَه نَمْرُود وبَنى بُنياناً كالحَظِيرة، وَاهْتَمَّ النـاسُ بِـجَمْعِ الحَطَبِ، حتى إنّ المَرْأة لَوْ مَرِضَتْ نَذَرَتْ إنْ عافاها الله منه جمعت الحَطَب لإبراهيم، وكانوا على ذلك أربعين يوماً.

ورُوي أنّ الدوابَ امتنعتْ مِن حَمْلِ الحَطَب إلّا البِغال، فَعاقَبَها الله بأنْ أعْقَمَها[1].

قيل: صبُّوا على الحَطَبِ دُهْناً كثيراً، ثمّ أضْرَمُوا فيه النّار، وَأوْقَدُوها سبعة أيّام، فلمّا اشْتَعَلَت النّارُ صار الهواء بحيث لو مرَّ الطيرُ في أقصىٰ الجَوّ لاحْتَرَق[2].

رُوي أنّهم لم يعلموا كيف يُلقُون إبراهيم عليه السلام فيها لعدم إمكان قُرْبِهم مِنْها، فجاء إبليس في صورة شيخ وعلّمَهُم عَمَلَ المَنْجَنِيق[3].

وقيل: تمثّل لهم في صورة نجّار فصنعه لهم، ثمّ نصبوه على رأس الجبل، ووَضعوا إبراهيم عليه السلام فيه مقيّداً مَغْلُولاً، فصاحتِ السماء والأرض وَمَنْ فيهما إلّا الثقلين صيحةً واحدةً: أي ربَّنا ما في أرْضِك أحدٌ يَعْبُدك غير إبراهيم، وهو يُحْرَق فيك! فأذن لنا في نُصْرته. فقال تعالى: إن استَعانَ بأحدٍ منكم لينصُره، فقد أذِنْتُ له في ذلك، وإنْ لَمْ يَدْعُ غيري فأنا أعْلَم به وأنَا وَلِيّه، فخلُّوا بيني وبينه، فإنّه خَلِيلي ليس لي خليلٌ غيرَه، وأنا إلٰهه ليس له إله غَيْري.

فلمّا أرادوا إلقاءه في النّار أتاهُ خازِنُ الرِّياح فقال: إن شئتَ طيَّرتُ النار في الهواء، وأتاه خازن المِياه وقال: إنْ أردتَ أخْمَدتُ النار. فقال إبراهيم عليه السلام: لا حاجة لي إليكم، ثمّ رَفَع رأسه إلى السّماء فقال: أنْتَ الواحِد في السّماء وأنَا الواحِد في الأرض، ليس في الأرض من يَعْبُدك غيري، حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل.

وأقْبَلت الملائكة فلَزِموا كَفّة المَنْجَنيق، فرفعه أعوان نَمْرود، فلم يَرْتَفِع. فقال لهم إبليس: أتُحِبّون أن يَرْتَفِعَ؟ قالوا: نعم. قال: ائتوني بعَشْر نِسوة، فَأتوا بِهِنّ، إلى أن قال: فمدَّتِ الأعوان المَنْجَنيقَ، وذهبت الملائكة، فلمّا أُلقِي في النار قال: لا إلٰه إلّا أنتَ سبحانك ربّ العالَمين، لَكَ الحَمْد ولَكَ المُلْك لا شَرِيكَ لَك[4].

ورُوي أنّ جَبْرئيل أدْرَكه في الهواء، وقال: هل لَكَ حاجة؟ فقال: أمّا إليك فَلا، فقال: سَلْ ربّك حاجتَك. قال: حَسْبِي مِن سؤالي عِلْمُه بِحالي. فأخبر سبحانه عن إجابته له بقوله: ﴿**قُلْنَا يَانَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلَاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾[5].

---

١ ـ٣. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٧.
٤. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٧.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٨.

عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ إبراهيم عليه السلام لمّا أُلقِي في النّار قال: اللّهمّ إنّي أسألك بحق محمّد وآله لمَا أنجَيْتَني مِنها، فَجَعَلَها الله عليه بَرْداً وسَلاماً»[١].

وعن ابن عبّاس: لو لَمْ يتّبع برداً سلاماً لمَاتَ إبراهيمُ عليه السلام مِن بَرْدِها، ولم يَبْقَ يومئذٍ في الدنيا نارٌ إلّا طُفِئت[٢].

قيل: فأخذَتِ الملائكة بَضَبْعَي[٣] إبراهيم عليه السلام، وأقْعَدُوهُ في الأرض، فإذا عين ماءٍ عذبٍ، ووَرْد أحْمَر ونَرْجِس، ولم تُحرِق النار منه إلّا وَثاقه[٤].

وقيل: إنّ إبراهيم عليه السلام لمّا أُلقِي في النّار كان فيها أربعين يوماً أو خمسين، وقال: ماكنتُ أيّاماً أطْيَب عَيْشاً مِنّي إذ كُنْتُ فِيها[٥].

وقيل: بعث الله مَلَك الظلّ في صورة إبراهيم عليه السلام، فقعد إلى جنبه يؤنسه، وأتاه جَبْرَئيل بقميصٍ مِن حرير الجنّة وقال: يا إبراهيم، إنّ ربّك يقول: أما عَلِمتَ أنّ النّار لا تضُرّ أحِبّائي؟ ثمّ نَظَر نَمْرُود مِنْ صَرْحٍ لَه مُشْرِفٍ على إبراهيم عليه السلام، فَرآه جالساً في روضةٍ، ورَأىٰ المَلَك قاعداً إلى جنبه، وحَوْله نارٌ تُحرِق الحطب، فناداه: يا إبراهيم، هل تستطيعُ أنْ تخرُجَ منها؟ قال: نعم، قال: قُمْ فَاخْرُج منها، فَقامَ يَمْشِي حتى خَرَج منها.

قال له نَمْرُود: مَنِ الرجل الذي رأيتُه معك في صورتك؟ قال: ذلك مَلَك الظلّ أرسَلَه ربّي ليؤنسني فيها. فقال نَمْرُود: إنّي مُقرِّب إلى ربّك قُرباناً لِما رأيتُ من قدرته وعزّته في ما صنع بك، فإنّي ذابحٌ له أربعة آلاف بقرة.

فقال إبراهيم عليه السلام: لا يقبل الله منك ما دُمتَ على دِينِك. فقال نَمْرُود: لا أستطيعُ أنْ أترُكَ مُلْكي، ولكن سوف أذبحها له؛ ثمّ ذبحها له، ثمّ أوقَدوا عليه النار سبعة أيّام، ثمّ أطْبَقُوا عليه، ثمّ فَتَحوا عليه من الغَدِ، فإذا هو [غير] محترقٍ يَعْرَق عرقاً[٦].

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ *وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَاةِ

---

١. الاحتجاج: ٤٨، تفسير الصافي ٣: ٣٤٤.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٨.
٣. الضَّبع: ما بين الإبط إلى نصف العَضُد من أعلاها، وهما ضَبْعان.
٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٨، والوَثَاق: مايُشدّ به، كالحبل وغيره.
٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٨.
٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٨.

وَإِيتَاءَ ٱلزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ [٧٠ـ٧٣]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ إلقاءهم إبراهيم عليه السلام في النّار صار معجزةً قاهرةً له بقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً﴾ ومَكْراً عظيماً في الإضرار به وإهلاكه ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ من كلّ خاسرٍ حيث صار سَعْيُهم في إهلاك إبراهيم عليه السلام بالنار دَليلاً ظاهراً كالنّارِ على المَنارِ على رِسالته، و[صار] اتّفاقهم على إطفاء نور الحقّ بُرهاناً قاطعاً على حقّانيّته.

وقيل: يعني جعلناهم الهالكين بِتَسْلِيط البَعُوض عليهم وقتله إيّاهم مع كونه أضْعَف خلق الله تعالى، وما بَرِح نَمْرُود حتى رأى أصحابه قد أكَل البَعُوضُ لُحُومَهم، وشَرِب دِماءهم، ووَقَعَتْ بعوضةٌ في مِنْخَره، فلم تَزَلْ تأكُلُ منه إلى أن وصلت إلى دِماغه، وكان أكرم الناس عليه الذي يَضْرِب رأسَه بِمِرْزَبَة[1] من حديد، فأقام بهذا الحال نحواً من أربعمائة سَنَة ثمّ مات، كذا قيل[2].

ثمّ ذكر سبحانه سائر نِعَمِه العِظام على إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً﴾ الذي هو ابن أخيه، أو ابن خالته، مِن شَرِّ الكُفّار ومجاورتهم مُهاجرين من بابِل وأرض العراق ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَارَكْنَا﴾ وأكثرنا نعمنا ﴿فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ من حيث إكثار المِياه والأشجار والثِّمار والحَطَب، وطِيب العَيْش لِلْغَنِيّ والفَقِير، وبَعْثِ الأنبياء ونَشْرِ الشَّرائع، وهي أرض الشام.

وعن أُبَيّ بن كَعْب: سماها مباركةً لأنّه ما مِن ماءٍ عَذْبٍ إلّا وينبُعُ أصله من تَحْتِ الصَّخْرَة التي بِبَيْتِ المَقْدِس[3].

قيل: خرج إبراهيم مع لوط وسارة من كُوثَى، وهو من بلاد أرض بابِل، مهاجراً إلى ربّه، وفِراراً بدينه، حتى نزل بِحَرّان، فمكث بها ما شاء الله، ثمّ ارتحل منها ونزل بفَلَسْطين، ثمّ خرج منها مهاجِراً حتى قَدِم مِصْراً، ثمّ خرج مِن مصرَ وعاد إلى أرض الشام، ونزل لوط بالمؤتَفِكَة وبعثه الله نبيّاً إلى أهلِها[4].

وفي الحديث: بَيْتُ المَقْدِسِ أرْضُ الحَشْرِ وَالنَّشْرِ، والشام صَفوة الله من بِلاده يَجِيئ إلَيها صفوة خلقة[5].

وكان مِن المِنَن أنّا أنْعَمْنا على إبراهيم عليه السلام ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ بَعْدَ هِجْرَتِه إلى الأرض المباركة ونزوله فيها ﴿إِسْحَاقَ﴾ من صُلْبِه ورَحِم سارَة ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ من صُلْبِ إسحاق عليه السلام حال كونه ﴿نَافِلَةً﴾

---

١. المِرْزَبَة: عُصيّة من حديد، ومطرقة كبيرة تُكسر بها الحجارة.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٥٠٠.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٥٠١.

٤ و٥. تفسير روح البيان ٥: ٥٠١.

وعطيَةً زائدةً ﴿وَكُلّاً﴾ مِنَ الأرْبَعة، أو مِن إسحاق ويعقوب عليهما السلام ﴿جَعَلْنَا﴾ هُمْ بتوفيقنا ﴿صَالِحِينَ﴾ وجامِعِينَ لِخَيْراتِ الدِينِ وَالدُّنيا ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ بِرَحْمَتِنا ﴿أَئِمَّةً﴾ للنَاسِ ومُقْتَدين لهم في أمورِ الدين، وهُداةً ﴿يَهْدُونَ﴾ الخَلْق إلى الحقّ ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لَهم بذلِك، وإرسالِنا إيّاهم إلَيهم ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ ٱلزَّكَاةِ﴾ ليَحُثّوا الناس عليها ﴿وَكَانُوا﴾ أنفسهم ﴿لَنَا﴾ خاصّة ﴿عَابِدِينَ﴾ وخاضعين ومطيعين.

وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ تَعْمَلُ ٱلْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ * وَنُوحاً إِذْ نادىٰ رَبَّهُ فَاستَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ [٧٤ـ٧٧]

ثمّ ذكر الله نعمته على لُوط بإيمانه بإبراهيم عليه السلام وتبعيّته له بقوله: ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ﴾ مِن فَضْلِنا ﴿حُكْماً﴾ وقضاءً بين الناس، أو الحكمة التي هي أفضل النِّعم، أو النبوّة التي هي أعلَى المناصب ﴿وَعِلْماً﴾ نافِعاً، وهو العلم بأمور الدين وأحكام الشريعة ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ﴾ جماعةُ سُكّانها ﴿تَعْمَلُ ٱلْخبَائِثَ﴾ وتفعل الفواحش مِن قَطع الطريق، وإتْيان المنكَر في الأنْدِية، ونِكاح الرجال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ لم تكن فيهم جهة حُسْنٍ، وكانوا ﴿فَاسِقِينَ﴾ وخارِجين عن حدود العقل والشرع، مُنْهَمِكين في الكفر والطُّغيان ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِى رَحْمَتِنَا﴾ الخاصة، وهي النبوّة، والثَواب العظيم، كما عن ابن عبّاس[١]. إنّهُ كانَ واحداً ﴿مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ الَّذِينَ سَبَقَتْ لهم منّا الحُسنى.

ثمّ ذكر سبحانه نعمته على نوح عليه السلام بقوله: ﴿وَنُوحاً إِذْ نادىٰ﴾ ربّه، والمعنى: اُذْكُر نَبَأَ الواقع حين دعائه على قومه بالهلاك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي الزمان السابق على إبراهيم ﴿فَاستَجَبْنا لَهُ﴾ دُعاءه على قَومِهِ بقوله: «ربِّ إنّي مَغْلُوبٌ فانْتَصِرْ» ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ وأولادَه والمؤمنين به ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والغَمّ الشَّدِيد، مِن تَكْذِيبِ القَوْم وإيذائهم، أو منه ومن العذاب ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾ نَصْراً مُسْتَتْبِعاً للانتقام ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ودَلائِل توحيدنا، ورسالة رسلنا.

وقيل: يعني نَصَرْناه من مكروه القوم[٢]، أو عصمناه مِن مَكْرِهم. وقيل: إنّ كلمة (مِن) بمعنى على[٣] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ وأمّةً رَذِيلة الأخلاق، وفاسدة العقائد والأعمال ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ بالطُّوفان ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بحيث لم يَنْفَلِتْ منهم أحد.

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٩٢.

٢ و٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٩٤.

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ[٧٨ـ ٨٠]

﴿وَ﴾ اذْكُر ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾، أو التقدير: وآتينا داود وسليمان رُشْدَهما ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى﴾ قضية ﴿ٱلحَرْثِ﴾ والزَّرْع ﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾ وتفرّقت ﴿فِيهِ﴾ باللّيل ﴿غَنَمُ ٱلقَوْمِ﴾ وقَطِيعهم ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ وقَضائهم في تلك القضيّة ﴿شَاهِدِينَ﴾ وحاضرين عِلْماً وَإحاطةً ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ وألْهمناها ﴿سُلَيْمَانَ﴾ وهو ابن أحد عشر سنة، على ما روته العامة[١].

ثمَ دفع سبحانه توهُّم اختصاص العلم بالحكم بسليمان عليه السلام بقوله: ﴿وَكُلّاً﴾ من داود وسليمان عليهما السلام ﴿آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ كثيراً، لا سليمان وحده.

روت العامة: أنّه دخل رَجُلان على داود عليه السلام، أحدُهما صاحب حرثٍ، والآخَر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إنّ غَنَم هذا دخلتْ حَرْثي، فَما أبْقَتْ منه شيئاً. فقال داود عليه السلام: إذهب فَإنَّ الغنم لَك. فخرجا فمرّا بسليمان عليه السلام، فقال: كيف قضى بينكما؟ فأخْبَراه، فقال: لو كنتُ أنَا القاضِي لَقَضَيْتُ بِغَيْر هذا، فأخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال: كيف قضيتَ بينهما؟ فقال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له منافعها مِنَ الدَّرِّ والنَّسل والوَبَر، حتى إذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئتة يوم أكَل، دَفَعت الغنم إلى أهلها، وقبض صاحب الحَرْث حَرْثه[٢].

وعن ابن مسعود: إنّ راعياً نزل ذات ليلة بجنب كَرْم، فدخلت الأغنام الكَرْم وهو لا يشعُر، فأكلت القُضْبان، وأفسدت الكَرْم، فذهب صاحب الكَرْم من الغد إلى داود عليه السلام، فقضى له بالغنم، لأنّه لم يكن بين ثمن الكَرْم وثمن الغنم تفاوت، فخرجوا فمرّوا بسليمان عليه السلام فقال لهم: كيف قضى بينكما؟ فأخبراه به، فقال: غير هذا أرْفَق بالفريقين، فأُخبر داود بذلك، فدعا سليمان وقال له: بحقّ الأبوّة والنبوّة إلّا أخْبَرتَني بالذي هو أرْفَق بالفَرِيقَيْن؟

فقال: هو ردّ الغنم إلى صاحب الكَرْم حتى يَرْتَفق[٣] بمنافعها، ويَعْمَل الراعي في إصلاح الكَرْم حتى يصيرَ كَما كان، ثمَ تُرَدّ الغنم إلى صاحبها. فقال داود عليه السلام: إنّما القضاءُ ما قضيتَ، وحَكَم بذلك[٤].

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٥٠٥.
٢. تفسيرالرازي ٢٢: ١٩٥، تفسير روح البيان ٥: ٥٠٥.
٣. ارتَفَقَ بالشيء: انتفع واستعان.
٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٩٥.

ورَوَوا أنّ حكم داود عليه السلام لم يكن على البَتّ، وحملوا حكمهما على الاجتهاد[١]. ولا يخفى ما في هذا الحَمْل من الفساد.

وعن الصادق عليه السلام: «أنّه كان أوحى الله عزّ وجلّ إلى النبيّين قبل داود عليه السلام إلى أن بعث الله داود عليه السلام: أيّ غنم نَفَشت في الحَرْث فان لصاحب الحَرْث رقاب الغنم، ولا يكون النَّفش إلّا باللّيل، فإنّ على صاحب الزرع أنْ يَحْفَظ زرعَه بالنّهار، وعلى صاحب الغنم أنْ يَحْفَظَ غنمه باللّيل. فحكم داود عليه السلام بما حكم به الأنبياء من قبل، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى سليمان عليه السلام: أيّ غنم نَفَشت في زرعٍ فليس لصاحب الزرع إلّا ما خرج من بطونها، وكذلك جرت السُّنّة بعد سليمان عليه السلام، وهو قول الله: **﴿وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾** وحكم كلّ واحد بحكم الله عزّ وجلّ»[٢].

وفي رواية اُخرى ما يقرَب منه[٣].

وعنه عليه السلام: «أوحى الله إلى داود عليه السلام أنِ اتَّخِذْ وصيّاً من أهلك، فإنّه قد سَبَق في عِلْمي أنْ لا أبعثَ نبيّاً إلّا وله وصيّ من أهله، وكان لداود عليه السلام عدّة أولاد وفيهم غُلام كانت اُمّه عند داود عليه السلام، وكان لَها مُحبّاً، فدخل عليها داود عليه السلام حين أتاهُ الوَحْي فقال لها: إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إليّ أنْ أتَّخِذَ وصيّاً من أهلي، فقالت له امرأته: فليكن ابْني، قال: ذلك اُريد، وكان السابِقُ في عِلْم الله المَخْتُوم عنده أنّه سليمان عليه السلام، فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: أنْ لا تَعْجَل دون أنْ يأتيك أمْري.

فلم يَلْبَثْ داوُد عليه السلام أنْ وَرَد عليه رَجُلانِ يَخْتَصِمانِ في الغنم والكرم، وأوحى الله عزّ وجل إلى داوُد عليه السلام: أنِ اجْمَع وُلْدَك، فَمَنْ قَضى بهذه القضيّة فأصابَ فهو وصيُّك مِن بَعْدِك، فجَمَع داود عليه السلام وُلْدَه، فلمّا أنْ قَصَّ الخَصْمان قال سليمان عليه السلام: يا صاحِبَ الكَرْم، مَتى دخلتْ غَنَم هذا الرجُلِ كَرمْكَ؟ قال: دَخَلَتْه لَيْلاً، قال: قد قضيتُ عليك يا صاحبَ الغنمِ بأولاد غَنَمِك وأصوافها في عامك هذا.

ثمّ قال له داود عليه السلام: فكيف لم تقضِ بِرقاب الغَنَمِ وقد قَوَّم ذلك عُلَماءُ بني إسرائيل، فكان ثمنُ الكَرْم قيمةُ الغنمِ؟ فقال سليمان عليه السلام: إنّ الكَرْم لم يُجْتَثَّ مِن أصله، وإنّما أكل حَمْله وهو عائدٌ مِن[٤] قابلٍ.

فأوحَى الله عزّ وجلّ إلى داود عليه السلام: إنّ القضاءَ في هذه القضيّة ما قَضى سليمان عليه السلام به، يا داوُد: أردتَ أمراً وأردنا أمراً غَيْرَه. فدخل داود عليه السلام على امرأته فقال: أردنا أمراً وأرادَ اللهُ أمراً غيرَه، ولم

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ٧٩.
٢. الكافي ٥: ٣/٣٠٢، تفسير الصافي ٣: ٣٤٨.
٣. الكافي ٥: ٢/٣٠١، تفسير الصافي ٣: ٣٤٨.
٤. في الكافي: في.

يكن إلّا ما أراد الله، فقد رَضِينا بِأمْرِ الله عزّ وجل وسَلّمنا. وكذلك الأوصياءُ ليس لَهم أن يَتَعَدَوا بِهذا الأمر فَيُجاوِزُن صاحبه إلى غَيْرِه»[١].

وعنه عليه السلام قال: «كان في بني إسرائيل رجلٌ وكان له كَرْم، ونَفَشت فيه غَنمٌ لرجل [آخر] بـالليل، وقَضَمَته وأفسدته، فجاء صاحب الكَرْم إلى داود عليه السلام، فَاسْتَعدى على صاحب الغنم فقال داود عليه السلام: إذهَبا إلى سليمان ليحكُمْ بينكما. فذهبا إليه، فقال سليمان عليه السلام: إنْ كانت الغَنم أكلت الأصْلَ والفَرْعَ، فَعَلى صاحب الغنم أن يدفعَ إلى صاحبِ الكَرْمِ الغَنَم وما في بَطْنِها، وإن كانت ذهبتْ بالفَرْعِ ولم تَذْهَب بِالأصل، فإنّه يدفَع وَلَدها إلى صاحب الكرَم، وكان هذا ما حكم داود عليه السلام، وإنّما أراد أن يُعرّف بني إسرائيل أنّ سليمانَ عليه السلام وصيّة بعده، ولم يختلفا في الحُكم، ولو اختلف حُكْمُهما لقال: كنّا لحُكمهما شاهدين»[٢].

وعن الباقر عليه السلام قال: «لم يَحْكُما، إنّما كانا يَتَنَاظَرانِ ففهّمناها سليمان»[٣].

وعن الكاظم عليه السلام: «كان حُكْمُ داود رِقابُ الغَنَم، والذي فَهَّم الله سليمان أنّ لِصاحبِ الكَرْمِ اللّبن والصُّوف ذلك العام كلّه»[٤].

أقول: هذه جملة الروايات الواردة، وتَبيّن أنّ صريح جملة منها عدم صدور حُكْم من داود عليه السلام كما عليه بعض مفسّري العامة، ومن المعلوم أنّها مخالفةٌ لظاهر الكتاب مِن قوله: **﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾** وقوله: **﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾** وترتُّب قوله: **﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾** على قوله: **﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾** ولازِمُ التَّرَتُّبِ سَبْق الحُكْم المخالف عَلَى التَّفْهِيم، فلابدّ مِن طَرْح الروايات المخالفة للكتاب، وحَمْل الموافقة له على حُكم داود فيها بحُكم سائر الأنبياء. ثمّ نسخه الله على لسان سليمان عليه السلام إظهاراً لعظمة شأنه وكونه نبيّاً، أو بلسان داود عليه السلام، وإنّما كان ما فَهِمَه سليمان عليه السلام حكمه الحكم الناسخ، وبيان أولويّته وأرجحيّته مِن الحُكم المنسوخ، لوضوح عدم جواز الاجتهاد والحكم بالظنّ والاستحسان على الأنبياء، كما عليه العامة[٥].

قال الفاضل المِقداد في آيات أحكامه: هل كان حكمهما بوحيٍ أو باجتهادٍ؟

الجواب: الوجه الحقّ عندنا أنّه بِوَحْي، والثاني ناسخ، كما هو قول الجُبّائي[٦].

ثمّ بيّن نعمته المختصّة بداود عليه السلام بقوله: **﴿وَسَخَّرْنَا﴾** وذلّلنا **﴿مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ﴾** حال تسبيحه،

---

١. الكافي ١: ٣/٢١٩، تفسير الصافي ٣: ٣٤٨.
٢. تفسير القمي ٢: ٧٣، تفسير الصافي ٣: ٣٤٩.
٣. المحاسن: ٣٩٧/٢٧٧، من لا يحضره الفقيه ٣: ١٩٨/٥٧، تفسير الصافي ٣: ٣٤٩.
٤. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٩٩/٥٧، تفسير الصافي ٣:٣٤٩.
٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٩٦.
٦. كنز العرفان ٢: ٣٧٩.

حيث إنهنّ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بِتَبَعهِ. قيل: إنّ التقدير كيف سَخَّرهَا الله فقيل يُسَبِّحْنَ[١]. ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ بحيث يَسْمَع كلُّ أحَد تسبيحها، وإنّما قَدَّم الجِبالَ لكون تسبيحها أعْجَب.

قيل: كان داود عليه السلام إذا وَجَد فَتْرةً سبَحت الجِبال والطَّير بأمرِ الله ليزداد اشتياقاً ونَشاطاً[٢] ﴿وَكُنَّا﴾ بقُدْرَتنا ﴿فَاعِلِينَ﴾ ذلك الأمر العَجيب.

وقيل: يعني كنّا فاعِلين ذلك وأمثاله بالأنبياء، ليكون لهم معجزةً[٣].

عن ابن عبّاس: أنّ بني إسرائيل كانوا قد تفرّقوا قبل مبعث داود، وأقْبَلوا على مَلاهي الشيطان، وهي العِيدان والطَّنابير والمَزامير والصَّنُوج[٤] وما أشبَهَها، فبعث الله داود عليه السلام، وأعطاه من حُسْن الصَّوت ونغمة الألحان حتى كان يتلُو التّوراةَ بترجيعٍ وخَفْضٍ ورَفْعٍ، فأذهل عُقُول بني إسرائيل، وشَغَلَهم عن تلك الملاهي، وصاروا يجتمعون إلى داود عليه السلام يستمعون ألحانه، وكان إذا سبّح تُسبّح معه الجِبال والطَّير والوَحْش[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ داود خرج يقرأ الزَّبور، وكان إذا قرأ الزَّبور لا يبقى جبلٌ ولا حجرٌ ولا طائرٌ إلّا أجابه»[٦].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: أنّ يهودياً قال له: هذا داود بَكى على خطيئته حتى سارت الجبال معه لخوفه. فقال: «إنّه كان كذلك»[٧].

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ وَعَمَل دُروعٍ يكون ذلك التَّعْليمُ أو الدرع ﴿لَكُمْ﴾ أيّها الناس يعني ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾ وتَحْفَظكم اللَّبُوس والدُّروع ﴿مِنْ﴾ أنْ تُصيبَكم الجِراحات في ﴿بَأْسِكُمْ﴾ وحربكم ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ لنعمة اللهِ عليكم حيث سهّل عليكم المَخْرَج مِن الشَّدائد.

قيل: إنّ داود عليه السلام خرج يوماً مُتنكّراً ليطلُبَ مَن يسأله عن سِيرته في مملكته، فاستقبله جَبْرَئيل على صورة آدمي ولم يَعْرِفْهُ داود عليه السلام، فقال له: كيف ترى سيرة داود عليه السلام في مملكته؟ فقال له جَبْرَئيل: نِعْمَ الرجل هو لَولا أنّ فيه خَصْلةً واحدةً. قال: وما هي؟ قال: بلغني أنّه يأكُلُ مِن بيت المال، وليس شيءٌ أفضل مِن أن يَأكلَ الرجلُ مِن كدّ يمينه، فرجع داود عليه السلام وسأل الله أنْ يَجْعَلَ رِزْقَه مِن كَدّ يمينه،

---

١. الكشاف ٣: ١٢٩، تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٠.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٩٩.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٠.
٤. الطَّنابير: جمع طُنبور وهو آلة من آلات اللهو واللعب والطرب، ذات عنق وأوتار. والمَزامِير: جمع مِزمار، وهو آلة من خشب أو معدن تنتهي قصبتها ببوق صغير. والصُّنوج: جمع صَنج، وهو صفيحة مدورة من صُفر يُضرَب بها على أخرى، وصفائح صغيرة مستديرة تثبت في أطراف الدفّ، أو في الأصابع ليُدقّ بها عند الطرب.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٥٠٧.
٦. إكمال الدين: ٦/٥٢٤، تفسير الصافي ٣: ٣٤٩.
٧. الاحتجاج: ٢١٩، تفسير الصافي ٣: ٣٥٠.

فَألانَ له الحديدَ، وكان يتّخذ الدِّرع مِن الحديد ويَبيعها، ويأكُل من ذلك[١].

وعن الصادق عليه السلام «أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: أوْحَى الله إلى داود عليه السلام: أنّك نِعْمَ العَبْد لَولا أنّك تَأكُلُ مِن بيت المال، ولا تَعْمَلْ بِيَدِكَ شَيْئاً. قال: فَبَكى داوُد عليه السلام أربعين صَباحاً، فأوحَى الله إلى الحَديد: أنْ لِنْ لِعَبْدِي داود. فَألانَ اللهُ لَهُ الحَدِيدَ، فكان يَعْمَلُ في كلّ يومٍ دِرْعاً، فيبيعها بألف درهم، فعمل ثلاثمائة وستّين دِرْعاً، فباعها بثلاثمائة وستّين ألفاً، وَاسْتَغْنى عن بيت المال»[٢].

وَلِسُلَيْمانَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ ٱلشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ [٨١و ٨٢]

ثمّ بيّن سبحانه نِعمه الخاصّة على سليمان عليه السلام بقوله: ﴿وَلِسُلَيْمانَ﴾ سخّرنا ﴿ٱلرِّيحَ﴾ التي تكون ﴿عَاصِفَةً﴾ شديدة الهبوب بحيث تقطع المسافة البعيدة في المدّة القليلة، وكانت ﴿تَجْرِي﴾ من كلّ جانبٍ ﴿بِأَمْرِهِ﴾ وإرادته ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا﴾ وأكثَرنا النِّعم الدنيويّة والأُخرَويّة ﴿فِيهَا﴾.

قيل: كانت تَذْهَب به غُدوةً من الشام إلى ناحيةٍ من نواحِي الأرْض بينها وبين الشام مسيرة شَهْر إلى وقت الزوَال، ثمّ ترجع [به] منها إلى الشام بعد الزّوالِ عند الغُروب[٣].

قيل: عَمِلَت الشياطين لسليمان بِساطاً، فَرسخاً في فَرسخٍ من ذَهَب وإبريسم، وكان يُوضَع له مِنْبَر في وَسَط البِساط فيقعُد عليه، وحوله كراسيّ من ذهب وفضّة، يقعُد الأنبياء على كراسيّ الذهبِ، والعلماءُ على كراسيّ الفضّة، وحولهم الناس، وحول النّاس الجنّ والشياطين، وتُظِلّه الطير بأجنِحَتِها حتى لا تطلُع عليه الشمس، وتَرْفَع ريحُ الصَّبا البِساطَ مسيرة شهرٍ مِن الصباحِ إلى الرَّواحِ، ومِن الرواحِ إلى الغُروب، وكان عليه السلام امرءاً قلّما يَقْعُد عن الغَزْوِ، ولا يَسْمَع في ناحيةٍ من الأرض مَلِكاً إلّا أتاهُ ودَعاهُ إلى الحقّ[٤].

وقيل: جَرَيانُها بِأمْرِه كونها مطيعةً له، إنْ أرادها عاصِفةً كانت عاصِفةً، وإنْ أرادها لينةً كانت لينةً[٥]. وكانت تَسير من إصْطَخر إلى الشام[٦]. وقيل: إلى بَيْتِ المَقْدِس[٧].

ثمّ بيّن سَعَة عِلمه بالمصالح بقوله: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ ولذا صحّ منّا أنْ نُدبّر هذا التدبير في رُسُلنا وخَلْقِنا، وأن نُعْطي هذه المعجزاتِ لِمن نَراهُ أهلاً لَها، أو لِعلْمِنا بكُلّ شيءٍ نُجريه على ما

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٥٠٨.
٢. الكافي ٥: ٥/٧٤، تفسير الصافي ٣: ٣٥٠.
٣ و٤. تفسير روح البيان ٥: ٥١٠.
٥. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠١.
٦. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠١، تفسير أبي السعود ٦: ٨٠.
٧. تفسير القمي ٢: ٧٤، تفسير الصافي ٣: ٣٥٠.

تقتضيه الحكمة ﴿وَ﴾ له ﴿مِنَ الشَّياطِينِ﴾ وكَفَرة الجنّ ﴿مَنْ يَغُوصُونَ﴾ ويَدْخُلون ﴿لَهُ﴾ في البحار ويَسْتَخْرِجُونَ له من نفائسها ﴿وَيَعْمَلُونَ﴾ له بأمره ﴿عَمَلاً دُونَ ذٰلِكَ﴾ وصنعة غير ما ذُكِر من بناء المُدُنِ والقُصُور والمحَاريب وتَماثِيل ومخترعات الصنائع الغريبة ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ مِن إفساد ما عَمِلوا.

قيل: كان دَأْبهم أنْ يَعْمَلُوا بالنَّهار ويُفْسِدوا باللَّيل، أو مِن أن يُزِيغوا عن أمره[1]، وأنْ يتمرَّدُوا عليه.

وقيل: إنّ حِفْظ كَفَرَةَ الجنّ مِن التمرُّد والإفساد، بإلقاءِ الخَوْف الشَّدِيد مِن سُلَيْمان، وَالحُبّ المُفْرِط لطاعَتِه في قُلُوبهم، أو بتوكُّل جَمْع مِن الملائكة، أو جَمْع مِن مُؤمِنِي الجنّ عليهم[2]، وكان ذلك مِن مُعجزاته المختصَّةُ بِهِ، وأمّا مُؤمِنُو الجنّ فلم يكونوا مُحتاجين إلى الحِفْظ لأنّهم بإيمانِهم لَه كانُوا مُطيعِينَ لَه، مُنْقادِين لأوامِرِه ونَواهِيه.

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ[٨٣]

ثمّ ذكر الله سبحانه نِعمتَه على أيّوب بقوله: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ والتقدير اذكُر أمر أيّوب ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ ودعا ﴿رَبَّهُ﴾ وقال: ربِّ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ وأصابَنِي الضُّرُّ والبَلاءُ العظيم، ارْحَمني ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾.

رُوي عن وَهْب بن مُنبِّه: أنّ أيّوب عليه السلام كان رجلاً من الروم، وهو ابن أنوص، من وُلْد عيص[3] بن إسحاق، وكانت اُمّه من ولد لُوط، وكان الله [قد] اصطفاهُ وجَعَله نبيّاً، وكانَ مَعَ ذلك [قد] أعطاهُ مِن الدُّنيا حَظّاً وافِراً مِن النِّعم والدوابّ والبَساتين، وكانَ له خَمْسمائة زوج من البقر للزَّرع، وخمسمائة مملوك، كلّ واحد مُوكّل على زوج منها، وكان له أربعمائة مملوك، كلّ منهم راعي قَطِيع مِن الغَنَم، وكان له أهل وولد من رجال ونساء، وكان رحيماً بالمساكين، وكان يَكْفُل الأيتام والأرامِل، ويُكْرِم الضَّيف، وكان معه ثلاثة نفر آمنوا به وعرفوا فَضْلَه.

وإنّ لجَبْرَئيل بين يدي الله تعالى مقاماً ليس لأحدٍ من الملائكة مثله في القُرب والمنزلة، وهو الذي يتلقّى الكلام، فإذا ذكر الله عبداً بخير تلقّاه جَبْرَئيل، ثمّ تلقّاه ميكائيل، ثمّ مَن حَوله مِن الملائكة المقرّبين، فإذا شاع ذلك فيهم يُصلّون عليه، ثمّ صلّت ملائكة السماوات ثمّ ملائكة الأرض.

وكان إبليس لم يُحْجَب عن شيء من السماوات والأرض، وكان يقف فيهنّ حيثما أراد، ومن هناك

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ٨١.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٢.
٣. في النسخة: عيصوا.

وصل إلى آدم عليه السلام حتى أخرجه مِن الجنّة، ولم يَزَل على ذلك حتى رُفِع عيسى فَحُجِب عن أربع سَماوات، فكان بعد ذلك يَصْعد إلى ثلاث إلى زمان نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله، فَحُجِب عند ذلك عن جميع السماوات إلّا مَن استرق السّمع.

فسَمِع إبليس تَجاوبَ الملائكة بالصلاة على أيّوب عليه السلام، فأدركه الحَسَد، فصَعِد سريعاً حتى وَقَف مِن السّماء مَوْقِفاً كان يقفه، فقال: يا ربّ، إنّك أنْعَمتَ على عبدِك أيّوب فَشَكَرك، وعافَيْتَه فَحَمِدك، وأنت لم تُجرّبه بشدّةٍ ولا بَلاءٍ، وأنا لَك زعيمٌ لَئِن ضَرَبْتَه بالبلاء ليَكْفُرنّ بك.

فقال الله تعالى: إنطَلِق فقد سلطّتُك على ماله، فانقضّ الملعون حتى وقع على الأرض، وجَمَع عَفاريت الشياطين، وقال: ماذا عندكم من القوّة، فإنّي سُلِّطت على مال أيوب؟ فقال عفريت: أُعطيت من القوّة ما إذا شئت تحوّلت إعصاراً مِن نارٍ فأحرقت كلّ شيءٍ آتي عليه. فقال إبليس: فَأتِ الإبلِ ورِعاءها. فَذَهَب ولم يشعُر الناس حتى ثارَ مِن تحت الأرض إعصارٌ مِن نارٍ لا يدنو منها شيءٌ إلّا احترق، فلم يَزَل يُحرِقها ورِعاءها حتى أتى على آخرها.

فذهب إبليس على شكل بعض أُولئك الرّعاة إلى أيّوب عليه السلام، فوجده قائماً يصلّي، فلمّا فَرَغ من صلاته قال: يا أيّوب، هَل تَدْري ما صنع ربُّك الذي اخترْتَه بإبلك ورِعائها؟

فقال أيّوب: إنّها ماله أعارنيه، وهو أوْلى به إذا شاء نزعه.

قال إبليس: إنّ رَبّك أرسل عليها ناراً من السماء فَاحْتَرَقَتْ وَرِعاؤها كلّها، وَتَركت الناس مَبْهُوتِين متعجّبين منها، فَمِن قائلٍ يقول: ماكان أيّوبُ يَعْبد شيئاً، وماكان إلّا في غُرُور. ومِن قائلٍ يقول: لو كان إله أيّوب يَقْدِر على شيء لَمَنَع من وَليّه، ومِن قائلٍ آخر يقول: بَل هو الذي فَعَل ما فَعَل لِيَشْمَت عدوّه به، ويَفْجَع صديقه به.

فقال أيّوب: الحمدُ لله حينَ أعطاني وحينَ نَزَع مِنّي، خرجتُ من بَطْن أُمّي عُرياناً، وأُحشر إلى الله تعالى عُرياناً، ولو عَلِم الله تعالى فيك خيراً أيُّها العبد لَنَقَل رُوحَك مع تِلك الأرواح، وصِرتَ شَهيداً وآجرني فيك، ولكنّ الله علم فيك شرّاً فأخّرك.

فرجع إبليس إلى أصحابه خاسِئاً، فقال عفريت آخر: عندي مِن القوّة ما إذا شِئتُ صِحْتُ صيحةً لا يَسْمَعُها ذُو روحٍ إلّا خرجتْ روحه. فقال إبليس: فَأتِ الغَنَم ورعاءها، فَانْطَلَق فَصاحَ بِها، فماتَتْ ومات رِعاؤها، فَخَرج إبليسُ مُتَمَثِّلاً بقهرمان الرّعاة إلى أيّوب عليه السلام، فقال له القول الأوّل، ورَدّ عليه أيّوب عليه السلام الجواب الأوّل.

فرجع إبليس صاغِراً، فقال عفريت آخر: عندي من القُوّة ما إذا شِئتُ تحوّلت ريحاً عاصفةً أقلع كلّ

شيءٍ أتيت عليه قال: فَاذْهَب إلى الحَرْث والثِّيران، فَأتاها وأهْلَكَها، ثمّ رَجَع إبليس متمثّلاً حتى جاء أيّوب عليه السلام وهو يصلّي، فقال مثل القول الأوّل، فردّ عليه أيّوب عليه السلام مثل الردّ الأوّل.

فَجَعَل إبليس يُصِيب أمواله شيئاً فشيئاً، حتى أتى على جَميعها، فلمّا رأى إبليس صَبْره على ذلك، وقف الموقف الذي كان يقفه عند الله، وقال: يا إلٰهي، هل أنتَ مُسلّطي على ولده، فإنّها الفِتْنَة المُضِلّة؟ فقال الله تعالى: إنْطَلِق فقد سَلَّطتك على وُلْدِه.

فَأتى أولادَ أيّوب في قَصْرِهم، فلم يَزَلْ يُزَلْزِله مِن قواعِدِه حتى قلب القصر عَلَيْهِم، ثمّ جاء إلى أيّوب عليه السلام متمثّلاً بالمُعلّم وهو جريح مشدوخ[1] الرأس يسيل دمه ودِماغه، فقال: لو رأيتَ بَنِيك كيف انقَلَبُوا مَنْكُوسين على رُؤسهم تَسيل أدْمِغَتُهم مِن أُنوفهم لتقطّع قلبك. فلم يزل يقول هذا ويُرقّقه حتى رقّ أيّوب عليه السلام وبَكى، وقبضَ قَبْضَةً من التراب ووضَعها على رأسه، فَاغْتَنَم ذلك إبليس، ثمّ لَم يَلْبَث أيّوب عليه السلام حتى اسْتَغْفَر وَاسْتَرْجَع، ثمّ صَعِد إبليس حتى وَقَف موقفه وقال: يا إلٰهي، إنّما يَهُونُ خطر المال والولد على أيّوب لِعِلْمِه أنّك تُعيدهما له، فهل أنتَ مُسلّطي على جَسَده، وإنّي لك زَعيمٌ لو ابتليته في جسده لَيَكْفُرَنّ بك. فقال الله تعالى: إنطَلِق فقد سلّطتُك على جسده، وليس لك سُلطان على عَقْله وقَلْبِه ولِسانه.

فَانْقَضّ عدوّ الله سريعاً، فوجد أيّوب عليه السلام ساجداً لله تعالى، فأتاه مِن قِبَل الأرض فنفخ في مِنْخَره نَفْخةً اشتعل منها جسده، وخرج به من قَرَنه إلى قدمه ثَآليل، ووقعت فيه حِكّة لا يَمْلِكها، وكان يَحُكّ بِأظفارِه حتى سقطت أظفارُه، ثمّ حكّها بالمُسوح الخَشِنة، ثمّ حكّها بالفَخّار والحِجارة ولم يزل يَحُكّها حتى تقطّع لحمه وتغبّر ونَتِن، فأخرجه أهل القرية، وجعلوه على كُناسة، وجَعَلوا له عَرِيشاً، ورَفَضَه الناس كلُّهم غير امرأتِه [فكانت] تُصلِح أُمُورَه.

ثمّ أطالَ وَهب في الحكاية إلى أن قال: إنّ أيّوب عليه السلام أقْبَل على الله مستغيثاً متضرّعاً إليه، فقال: يا ربّ، لأيّ شيءٍ خَلَقتَني؟ يا ليتني كنتُ حَيْضَةً ألْقَتْني أُمّي، ويا لَيْتَني عرفتُ الذَّنبَ الذي أذْنَبْتُه والعمل الذي عَمِلتُه حتى صَرَفتَ وجهَك الكريم عنّي؟ ألَم أكُنْ للغريب داراً. وللمسكين قراراً، ولليتيم وليّاً، وللأرامِل قَيّماً؟

إلٰهي، أنا عبدك الذّليل إنْ أحسنتَ إليّ فالمَنّ لك، وإنْ أسأتُ فَبِيَدك عُقوبتي، جَعَلْتَنِي لِلبَلاءِ غَرَضاً، وللفتنه نَصباً، سلّطتَ عليّ ما لو سلّطتَه على جبلٍ لضَعُف مِن حَمْله.

إلٰهي، تقطّعت أصابعي، وتساقَطَت لَهَواتي، وتَناثَر شَعْري، وذهب مالي، وَصِرتُ أسألُ اللُّقمة

---

١. في النسخة: مخدوش.

فأطعمني مَن يَمُنّ بها عليّ، ويُعيّرني بِفَقْري وهَلاك أولادي[١]. وبَقِي في البَلاءِ ثلاثَ سِنين[٢].

وعن الحسن: أنه عليه السلام مَكَث بعدما أُلقِي على الكُناسة سَبْع سِنين وأشْهراً[٣].

وعن مقاتل: بَقي أيّوب عليه السلام في البلاءِ سبعَ سنين وسبعةَ أشْهُر وسبعة أيّام وسبع ساعات[٤].

وعن أنس، عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّه بقي في البلاء ثماني عشرة سنة، فرفضه القريبُ والبعيدُ إلّا رَجُلَين مِن إخوانه كانا يَغْدوان ويَرُوحان إليه، فقال أحدهما للآخر ذات يوم: والله لقد أذْنَب أيّوب ذنباً ما أذنَبَه أحدٌ مِن العالَمين. فقال له صاحبه: وما ذاك؟ فقال: مُنْذ ثماني عشرة سنة لم يَرْحَمه الله تعالى ولم يَكْشِف ما به.

فلمّا راحا إلى أيّوب، لَمْ يَصْبِر الرجلُ حتى ذكر ذلك لأيّوب، فقال أيوب عليه السلام: ما أدري ما تقولان غير أنّ الله تعالى يَعْلَمُ أنّي كنتُ أمُرُّ على الرجلين يتنازعان فَيَذْكُرانِ الله عزّ وجلّ، فأرجِع إلى بيتي فَأُكَفِّرُ عنهما كراهيَة أن يُذْكَر اللهُ إلّا في حقّ»[٥].

وفي رواية: أنّ الرجلينِ لمّا دخلا عليه وجدا ريحاً فقالا: لو كان لأيّوب عند الله خيرٌ ما بلغ إلى هذه الحالة، قال: فما شقّ على أيّوب شيءٌ مِمّا ابتلي به أشدّ ممّا سَمِع منهما، فقال: اللّهمّ إن كُنتَ تَعْلَم أنّي لم أبتْ شبعاناً وأنا أعْلَمُ بِمَكانِ جائعٍ فَصَدِّقْني. فصدّقه وهما يسمعان، ثمّ خَرّ أيّوبُ، ساجِداً. ثمّ قال: أللّهمّ إنّي لا أرْفَعُ رأسي حتى تكشِفَ مابي[٦].

وعن الحسن: أنّه لم يبقَ لأيّوب عليه السلام مالٌ ولا ولدٌ ولا صِديقٌ إلّا أمرأته رحمة صَبَرَتْ معه، وكانت تأتيه بالطّعام، وتَحْمَد الله تعالى مع أيّوب عليه السلام، وكان أيّوب مواظباً على حَمْدِ الله، والثناء عليه، والصبر على ما ابتلاه، فَصَرَخ إبليس صَرْخةً جزعاً مِن صَبْر أيّوب، فَاجْتَمَع جُنُوده مِن أقطار الأرض، وقالوا له: ما خَبَرُك؟ قال: أعياني هذا العبدُ الذي سألتُ اللهَ أنْ يُسلّطني عليه وعلى ماله وولده، فَلَم أدَع له مالاً ولا ولداً، ولم يَزْدَد بذلك إلّا صبراً وحَمداً لله تعالى، ثمّ سُلّطتُ على جَسَده، فتركته مُلْقىً على كُناسة وما يَقْرَبه إلّا أمْرأته، وهو مع ذلك لا يَفْتُر عن الذِّكر وحَمْدِ الله، فَاستَعَنْتُ بِكم لتُعِينونني عليه.

فقالوا له: أينَ مَكْرُك؟ أين عملُك الذي أهْلَكتَ بِه مَن مَضى؟ قال: بَطَل ذلك كلّه في أيّوب، فأشيروا عَلَيّ.

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٣.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٦.
٤. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.
٥. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٥.
٦. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٦.

قالوا: أدليتَ آدم حين أخرجتَه مِن الجنّة مِن أين أتيتَه؟ قال: مِن قِبَل امْرأته. قالوا: إئتِ أيّوب أيضاً مِن قِبَل امرأته، قالوا: فإنّه لا يستطيعُ أنْ يَعصيها لأنّه لا يَقْرَبِ به أحدٌ غيرها. قال: أصبتُم.

فَانْطَلَق حتى أتى امرأته، فتمثّل لها في صورة رجل، فقال لها: أين بَعْلكِ يا أمَةَ الله؟ قالت: هو هذا الذي يَحُكّ قُروحَه ويَتَردّد الدوابُّ في جسده. فلمّا سَمِع منها ذلك طَمِع أنْ يكون ذلك كلّه جَزَعاً، فوسوس إليها وذَكّرها ما كان من النِّعم والمال، وذَكّرها جمال أيّوب وشبابه فَصَرَخَتْ، فلمّا صَرَخَتْ عَلِم أنّها [قد] جَزِعَتْ فأتاها بِسَخْلَة وقال: قُولي لأيّوب لِيَذْبَح هذه لي ويَبْرَأ.

فجاءت تَصْرُخ إلى أيّوب فقالت: يا أيّوب حتى يُعَذّبك ربُّك؟ ألا يَرْحَمُك؟! أين المال، أين الماشية، أين الولد، أينَ الصديق، أين اللّونُ الحَسَن، أين جِسْمُك الذي قَد بَلى وصار مثل الرّماد وتردّد فيه الدوابّ؟ إذْبَح هذه وَاسْتَرِح.

فقال أيّوب عليه السلام: أتاكِ عدوّ الله ونَفَخ فيكِ فَأجَبْتِيهِ، وَيْلَكِ أتَرين ما تَبْكِين عليه مِن المالِ والوَلَدِ وَالصِّحة، مَن أعطانا ذلك؟ قالت: الله. قال: فكَم مَتَّعْنا به؟ قالت: ثَمانِينَ سنة. قال: فَمُنْذُ كَمْ ابتلانا الله بهذا البلاء؟ قالت: مُنْذُ سَبعَ سِنِين وَأشْهُر،

قال: وَيْلَكِ ما أنْصَفْتِ ربَّكِ، ألا صبرتِ في البلاء ثَمانِينَ سَنَة، كما كُنّا في الرّخاءِ ثَمانِينَ سَنَة؟ والله لَئِن شَفانِي الله لأجْلِدَنّكِ مائة جَلْدةٍ، أمَرْتِينِي أنْ أذْبَح لِغيْر الله؟ حرامٌ عَليَّ أن أذُوقَ بعد هذا شيئاً مِن طَعامِكِ وشَرابكِ الذي تَأتِينِي بِه، فَطَرَدَها فَذَهَبَتْ، فلمّا نَظَر أيّوب عليه السلام في شَأنِه ولَيْس عِنْدَه طعامٌ ولا شَرابٌ ولا صِديقٌ، وقد ذَهَبَتْ امرأته خَرَّ ساجِداً وقال: رَبِّ **﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾**[1].

وعن وَهْب: لمّا غَلَب أيّوبُ إبليسَ، ذَهَب إبليسُ إلى امرأته عَلى هَيْئَةٍ لَيْسَت كَهَيْئَةِ بَني آدم في العِظَم والجسم وَالجَمال، على مَرْكَب ليس كَمَراكِب الناس، وقال لها: أنتِ صاحبة أيوب؟ قالت: نعم. قال: فهل تَعْرِفِيني؟ قالت: لا. قال: أنا إله الأرض، أنَا صَنَعْتُ بأيّوب ما صَنَعت، لأنّه عَبَد إله السَّماء وَتَرَكَني فأغْضَبَني، ولَو سَجَد لي سجدةً واحدةً رددتُ عليكِ وعليهِ جميعَ مالَكُما مِن مالٍ وولدٍ فإنّ ذلك عندي.

قال وَهْب: وسمعتُ أنّه قال: لو أنّ صاحبك أكَلَ طعاماً ولم يسمّ الله لَعُوفي مِمّا هو فيه من البلاء، وقيل: إنّه قال لها: لَوشِئْتِ فَاسْجُدي لي سَجْدةً واحدةً حتى أرُدّ عليك المال والولد وأُعافي زوجكِ.

فَرَجعتْ إلى أيّوب، فَأخبرتْهُ بِما قال لها، فقال أيوب: أتاكِ عدو الله لِيَفْتِنَكِ عن دينكِ، ثمّ أقْسَم لَئِن

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٦.

عافاني الله لأجلِدَنَّكِ مائة جلدةٍ، وقال عند ذلك: رَبِّ ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ يعني مِن طَمَع إبليس في سُجودي له وسجود زوجتي ودعائه إيّاها وإيّايَ إلى الكُفْر[١].

وعنه أيضاً: أنّ امرأة أيّوب كانت تَعْمَل للنّاس وتأتيه بِقُوتِه، فلمّا طالَ عليه البلاء سئمها الناس ولم يستعملوها، فالتمست [ذات] يوم شيئاً مِن الطَّعام فَلَمْ تَجِد، فجزَتْ من رأسِها قَرْناً فباعته بِرَغِيفٍ فَأَتَتْه به، فقال لها: أين قَرْنُك؟ فأخبرتْه بذلك. فَحِينَئِذٍ قال: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾[٢].

وقيل: كان لها ثلاث ذَوائِب، فقطعت إحداهما، فباعَتْها بخُبزٍ ولَحْمٍ، فجاءت إلى أيّوب عليه السلام فقال: مِن أين هذا؟ فقالت: كُلْ فإنّه حَلال، فلمّا كان [من] الغد لم تَجِد شيئاً فباعت الثانية، وكذلك فَعَلَتْ في اليوم الثالث، وقالت: كُلْ، فقال: لا آكلُ مالم تُخْبِريني فَأَخْبَرَته، فبلغ ذلك من أيّوب مَا اللهُ أعْلَمُ بِهِ[٣].

وقيل: إنّ إبليس تَمثَّل للقوم في صورة بشر وقال: لئن تركتُم أيّوب في القرية تتعدّى إليكم عِلّته، فَأَخْرِجوه إلى باب القرية، ثمّ قال لهم: إنّ امرأته تَدْخُل بيوتَكم وهي تَمَسّ زوجها، فإنْ تَعْمَل لكم تتعدّى إليكم عِلّته، ولذا لم يَسْتَعْمِلها أحدٌ، فباعت ضَفِيرَتها[٤].

وقيل: سَقَطَتْ دُودةٌ مِن فَخِذ أيّوب، فَرَفَعَها وردّها إلى موضعها، وقال: جَعَلَنِي الله طُعمَةً لك، فَعَضَّتْه عضةً شديدةً فقال: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ فأوحَى الله إليه: لَولا أنّي جَعَلتُ تحتَ كلّ شعرةٍ منك صبراً لَما صَبَرتَ[٥].

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ [٨٤]

ثمّ أخبر سبحانه بإجابة دُعائه بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه ﴿فَكَشَفْنَا﴾ وأزَلْنا ﴿مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ ومَرَضٍ.

قيل: أوْحَى الله إليه: ارفَع رأسَك فقد استَجَبْتُ لَك، اُرْكُض بِرِجْلِك الأرض. فَرَكَضَ بِرِجْلِه، فَنَبَعَتْ عَيْنُ ماءٍ، فَاغْتَسَل مِنها، فَلَم تَبْقَ في بدنه دابّة إلّا سَقَطَتْ منه عليه السلام، ثمّ ضَرَب بِرِجْله مرّةً أُخرى فَنَبَعَتْ عَينٌ أُخرى، فَشَرِب منها فلم يَبْقَ في جَوْفِه داءٌ إلّا خَرَجَ، وقام صحيحاً، وعاد إليه شبابه وجَماله، حتى صار أحْسَن ما كان، ثمّ كُسي حُلّةً[٦].

﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ وولده ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قيل: لمّا قام جَعَلَ يَلْتَفِتُ فَلا يَرى شيئاً مِن أهله وولده

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٨.
٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٨.
٦. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.

وماله إلّا ضعّفه الله تعالى[١].

قيل: إنّه تطاير من الماء الذي اغتسل منه إلى صدره الجَراد مِن ذَهَب، فَجَعَل يَضُمّه بيده، فأوحَى الله إليه: يا أيّوب، ألَم أغنِك؟ قال: بلى، ولكنّها بركتك، فمن يَشْبَع منها؟ ثمّ جلس على مكانٍ مُشرفٍ[٢].

ثمّ أنّ امرأته قالت: هَبْ إنّه طَرَدَني، أفَأترُكه حتى يموت جُوعاً وتأكُله السباع؟ فرجعتْ، فما رأتْ تلك الكُناسة[٣] ولا تلك الحالة، فجعلت تَطُوف حيث كانت الكُناسة وتَبْكِي، وأيّوبُ عليه السلام يَنْظُر إلَيها، وَهابَتْ أنْ تأتِيَه وتسأله عنه، فأرسل إليها أيّوب ودَعاها وقال لها: ما تُرِيدِين؟ قالت: أردتُ المُبْتَلى الذي كان مُلقىً على الكُناسة، قال لها: ما كان هو منك؟ قالت: هو بَعْلي. قال: أتَعْرِفينَه إذا رأيتيه؟ قالت: وهل يَخفى على أحَدٍ يراه؟ فتبسّم وقال: أنا هو، فَعَرَفَتْه بضحكه فَاعْتَنَقَتْه[٤].

روي أنّ الله ردّ على امرأته شبابها، فَوَلَدَت له ستّة وعشرين وَلَداً[٥].

وكان ذلك لأجل أنه رَحِمنا عَلَيه ﴿رَحْمَةً﴾ خاصة ﴿مِنْ عِنْدِنا﴾ ومِن قُدْرَتنا ﴿وَ﴾ تكون ﴿ذِكْرىٰ﴾ وعبرةً ﴿لِلْعَابِدِينَ﴾ ووسيلةً لهم إلى معرفتنا بكمال القدرة والرحمة حتى يَصْبِروا كما صَبَر أيّوب، ويُثابُوا كما أُثيب.

وعن الصادق عليه السلام: أنّه سُئِل كيف أُوتي مثلهم معهم؟ قال: «أحيي له مِن ولده [الذين كانوا] ماتُوا قَبْلَ ذلك بآجالهم»[٦].

وعنه عليه السلام قال: «ابتلي أيّوب سَبْعَ سِنين بلا ذَنْبٍ»[٧].

[وفي العلل عنه عليه السلام قال]: «وإنّما كانت بليّة أيّوب لنعمةٍ أنْعَمَ اللهُ بِها عَلَيه فأدّى شُكْرَها...»[٨].

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِنَ ٱلصَّالِحِينَ [٨٥ و ٨٦]

ثمّ ذكر سبحانه بعضَ الصابرين مِن الأنبياء بقوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم الذي قال لأبيهِ: سَتَجِدُنِي إن شاء الله مِن الصابرين ﴿وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِنَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ على طاعة الله

---

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.
٣. الكُناسة: موضع القُمامة.
٤. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٥١٤.
٦. الكافي ٨: ٣٥٤/٢٥٢، تفسير الصافي ٣: ٣٥١.
٧. الخصال: ١٠٧/٣٩٩، تفسير الصافي ٣: ٣٥١.
٨. علل الشرائع: ١/٧٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥١، وللحديث تتمة في (العلل)، وقد نقل المصنف هذا المقدار من تفسير الصافي، وأحال في الصافي إلى تتمة الحديث في سورة (ص).

وأذىٰ قَوْمِهم ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِى رَحْمَتِنَا﴾ الخاصّة من النبوة والزُلْفى ﴿إِنَّهُم مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ والكامِلين في الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة والأعمال الحسنة.

عن ابن عباس: أنّ نبيّاً مِن أنبياء بَني إسرائيل آتاه الله المُلْك والنبوّة، ثمّ أوْحَى الله إليه: أنّي اُرِيد أنْ أقبضَ رُوحَك، فَاعْرِض مُلْكَك على بني إسرائيل، فَمَن تكفّل لَك أنْ يُصلّي بـاللّيل حـتى يُـصْبح، ويَصُومَ بالنّهار ولا يُفْطِر، ويَقْضِي بَيْنَ الناس ولا يَغْضَب، فَادْفَع مُلْكَك إليه.

فقام ذلك النبيّ في بني إسرائيل، وأخْبَرَهُم بِذلك، فقام شابّ وقال: أنَا أتَكَفَّلُ لَك بهذا. فقال: في القَوْم مَن هو أكبرُ مِنك فَاقْعُد، ثمّ صاح الثانية والثالثة فقام الرجل وقال: أنَا أتَكفّل لك بهذه الثلاث، فدفع إليه مُلْكَه وَوَفى بِما ضَمِن، فحسده إبليس، فأتاهُ في وقتٍ يُريدُ أنْ يقيل فـقال: إنّ لي غَـريماً مَطَلَنِي حقّي، و[قد] دعوتُه إليك فَأبى، [فأرسل معي من يأتيك به] فَأرْسَلَ مَعَه وقَعَد حتى فـاتَتْه القَيْلولة، وعاد إلى صلاته وصلّى ليله إلى الصبح، ثمّ أتاه مِن الغَد عند القيلولة، فقال: إنّ الرجلَ الذي أستَأذَنْتُك له في موضع كذا، فلا تَبْرَح حتى آتيك به، فذهب وبقي هو مُنْتَظِراً حتى فاتَتْه القيلولة، ثمّ أتاه فقال له: هَرَب منّي، فَمَضى ذُو الكِفْل إلى صلاته، فصلّى ليلته حتى أصبح، فأتاه إبليس وعرّفه نفسه[1].

قال الفخر: ذكر عليّ عليه السلام نحو ما ذَكَره ابن عبّاس، وزاد: «أنّ ذَا الكِفْل قال للبوّاب في اليوم الثالث: قد غلب عليّ النُعاس، فلا تَدَعنّ أحداً يَقْرَبُ هذا الباب حتى أنام، فإنّي قد شقّ عليّ النُعاس، فجاء إبليس فلم يأذَن له البوّاب، فدخل من كُوَّةٍ في البيت، وتسوّر فيها، فإذا هو يدُقّ الباب مِـن داخـلٍ، فاستَيْقَظَ الرجل، وعاتَبَ البوّاب، فقال: أمّا مِنْ قِبَلِي فَلَم يَأتِ، فقام إلى الباب، فإذا هو مغلقٌ،وإبليس على صورة شيخٍ معه في البيت، فقال له: أتَنام والخُصُوم على الباب فَعَرَفَه، فقال: أنت إبليس؟ قال نعم، أعْيَيْتَنِي في كلّ شَيء، فَفَعلتُ هذه الأفعال لأغضبنّك، فعصمك الله منّي، فَسُمّي ذَا الكِفْل، لأنّه [قَدْ] وَفىٰ بِما تكفّل به»[2].

وعن مجاهد: لمّا كَبِر اليَسَع قال: لو أنّي استخلفت رجلاً على الناس في حياتي حتى أنْظُر كـيف يَعْمَل؟ فجمعَ الناسَ وقال: من يتقبّل منّي ثلاثاً حتى أسْتَخْلِفَه[3]، وذكر الثلاث المذكورة.

وقيل: إنّه لَقَبُ زكريا[4]. وقيل: لَقَب يُوشَع بن نُون، كما عن الرضا، عن أمير المؤمنين عليهما السلام[5]. وقيل:

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٠.
٢ ـ ٤. تفسير الرازي ٢٢: ٢١١.
٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٤٥/١، تفسير الصافي ٣: ٣٥١.

لَقَبُ إلياس[١]. وقيل: خمسة مِن الأنبياء سمّاهم اللهُ باسمين: إسرائيل ويعقوب، إلياس وذُو الكِفْل، عيسى والمسيح، يونس وذو النون، محمّد وأحمد[٢].

وقيل: وجه تسميته ذي الكِفل، أنّه تكفّل ضِعْف عمل الأنبياء في زمانه، وضِعْف ثوابهم[٣].

وقيل: إنّه لم يكن نبيّاً، بل كان عبداً صالحاً[٤].

وَذَا ٱلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذٰلِكَ نُنْجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ [٨٧و ٨٨]

ثمّ ذكر الله نعمته على يونس عليه السلام باستجابة دعائه ونجاته مِن بطن الحُوت بقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ وصاحب الحوت وهو يونس بن متّى، قيل: إنّ متّى اسم أبيه واسم اُمه بذورة[٥]، وقيل: متّى اسم اُمّه، وكانت من ولد هارون[٦]. وقيل: يعني اذكُر خبره[٧] ﴿إِذْ ذَهَبَ﴾ مِن بَيْن قومه ـ وهم أهل نِينوىٰ ـ حال كونه ﴿مُغَاضِباً﴾ ومُراغماً لهم إلى البحر.

عن ابن عباس: كان يونس وقومه يَسْكُنون فِلَسطين، فغزاهم مَلِك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقي سبطان ونصف، فأوحى الله إلى شعيب عليه السلام: أن اذهب إلى حَزْقيل المَلِك، وقل له حتى يوجّه نبيّاً قويّاً أميناً، فإنّي ألقي في قُلوب اُولئك أنْ يُرسِلوا معه بني إسرائيل، فقال له المَلِك: فَمَن ترى ـ وكان في ممكلته خمسة من الأنبياء؟ ـ فقال: يونس بن متّى، فإنّه قويّ أمين، فدعا المَلِك بيونس، وأمره أنْ يخرُج، فقال يونس عليه السلام: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا، قال: فهل سمّاني لك؟ قال: لا، قال: فها هنا أنبياء غيري، فألحَوا عليه، فخرج مُغاضِباً للمَلِك وَلِقَومه[٨].

﴿فَظَنَّ﴾ يونس عليه السلام ﴿أَنْ لَنْ نَقْدِرَ﴾ ولن نضيّق ﴿عَلَيْهِ﴾ بإيجاب الإقامة في القوم، أو إيجاب الخروج إلى المَلِك، بل نوسّع عليه بتخييره بين الإقامة والخروج، فكان هذا وجه عدم تَعمُّده المعصية حيث ظَنَ أنّ الأمرَ في خُروجه مُوَسّعٌ عليه، يجوز له تقديمه وتأخيره، وكان الصلاح خلافه. أو المراد تمثيل حاله بحال مَن يَظُنّ أن لَن نَقْدِر عليه في خُروجه مِن قومه مِن غير انتظار أمر الله تعالى. أو المراد فَظَنَّ أنْ لن نقضي عليه بالشدّة، كما عن ابن عباس وجمع من المفسرين[٩].

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢١١.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٠.
٤. تفسير الرازي ٢٢: ٢١١.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٥١٦، وفيه: اُمّه بدورة.
٦ و٧. تفسير روح البيان ٥: ٥١٦.
٨. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٢.
٩. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٥.

وقيل: إنّ الظنّ بمعنى الخُطور بالبال، وإن دفعه بالحُجّة[١]. وقيل: إنّه استفهام توبيخي، والمعنى أفَظَنّ أنْ لَن نقدِر عليه؟![٢]

عن الرضا عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «ذاك يونس بن متّى، ذَهَب مُغاضباً لقومه ﴿فَظَنَّ﴾ يعني استيقن ﴿أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي لن نضيّق عليه رزقه»[٣] الخبر.

وفي رواية اُخرى عنه عليه السلام: «ولو ظنّ أنّ الله لا يقدِرَ لكان قد كفر»[٤].

وعن الباقر عليه السلام في قوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً﴾ يقول: «مِن أعمال قومه ﴿فَظَنّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ يقول: ظنّ أن لَن نُعاقِبه بما صنع»[٥].

عن النبي صلّى الله عليه وآله: «إنّما وكَّل اللهُ يونس بن متّى إلى نَفْسه طَرْفة عين، فكان منه ما كان»[٦].

وعن الصادق عليه السلام ما يقرَب منه[٧].

وعن ابن عباس: أنّه أتى يونسُ بَحْرَ الروم، فوجد قوماً هيّئوا سفينةً فرَكِب معهم، فلمّا تَلَجَجت[٨] السفينة تَكَفّأتْ بهم، وكادوا أنْ يغرقوا، فقال الملّاحون: هاهُنا رجلٌ عاصٍ أو عبدٌ آبِقٌ؛ لأنّ السفينةَ لا تَفْعَلُ هذا من غير رِيحٍ إلّا وفيها رجلٌ عاصٍ، ومن رَسْمِنا أنّا إذا ابتُلِينا بمثل هذا البلاء أنْ نَقْرَع، فَمَن وقعت عليه القُرعة ألقيناه في البحر، لأنّه إنْ يَغرَقْ واحدٌ خيرٌ مِن أنْ تَغرق السفينة، فَأقْرَعوا ثلاثَ مرَاتٍ، فوقعتْ القُرعة فيها كلّها على يونس عليه السلام، فقال: أنَا الرجلُ العاصِي وَالعَبْدُ الآبِق، وألقى نَفْسَه في البحر، فجاء حُوتٌ فَابْتَلَعه، فأوحى اللهُ إلى الحُوت: لا تُؤْذِ منه شَعْرةً، فإنّي جعلتُ بطنَك سِجْناً له، ولم أجْعَلْه طعاماً لك[٩].

وفي رواية: أنّ جَبْرَئيل قال ليونس: انطلق إلى أهل نِينوى، وأنْذِرْهم أنّ العذابَ قد حَضَرَهم، فقال يونس عليه السلام: ألتمسُ دابّة. فقال: الأمرُ أعْجَل مِن ذلك، فغضب وَانْطَلَق إلى السفينة ... ثمّ ساق الكلام كما سبق، إلى أن قال: التقمه الحُوت فَانْطَلَق إلى أنْ وَصَل إلى نِينوى، فَألقاه هناك[١٠].

أقول: أكثر المفسرين والعلماء على أن قضيّة إلقائه في البحر، وابتلاع الحوت إياه، كان بعد رسالته إلى أهل نِينوى ودعوتهم ورَفْع العذاب عنهم بالتّوبة، كما مرّت القصّة في سورة يونس.

وعن اُمّ سَلَمة، عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «لمّا أرادَ الله حَبْسَ يونس عليه السلام أوحى إلى الحوت أنْ خُذْه ولا تخدِش له لحماً، ولا تَكسِر له عَظْماً. فأخَذَه وهَوى به إلى أسفل البحر، فسَمِع يونس حِسّاً، فقال في

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٥.

٣ و٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٣، تفسير الصافي ٣: ٣٥٢.

٥ و٦. تفسير القمي ٢: ٧٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥٢. ٧. الكافي ٢: ١٥/٤٢٣. ٨. أي اضطربت.

٩. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٢، روح البيان ٥: ٥١٧، ولم ينسبه إلى ابن عباس. ١٠. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٣.

نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه: هذا تسبيح دوابّ البحر»[١] الخبر.

﴿فَنَادَىٰ﴾ ودَعا رَبَّه ﴿فِى ٱلظُّلُمَاتِ﴾ الثلاث: ظُلْمة الليل، وظُلمة البحر، وظُلمة بَطْن الحُوت، كما عن الرضا عليه السلام[٢]، وهذا على تقدير كون النّداء بالليل. أو المراد الظُّلمة المُتكاثفة، أو المراد: ظُلمة البحر، وظُلمة بطن الحوتين، فإنّه ابتلع حوت يونس حوتٌ آخر كما قيل[٣].

وكان نداؤه ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ﴾ وأُنزّهك تنزيهاً لائقاً بِكَ عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، ومنه العجز عن إنفاذ إرادتك، أو من أنْ تفعَل ذلك جَوراً أو شهوةً للانتقام، أو عجزاً عن تخليصي من هذا الحبس، بل فَعَلْتَه بحقّ الألوهيّة وبمقتضى الحِكْمَة البالغة ﴿إِنِّى كُنتُ﴾ مستحقّاً لعقوبتك، لكوني ﴿مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ على النفس بِفِراري مِن قَوْمي بغير إذنك، أو بِتَرْكِي في المدّة التي كنتُ على وجه الأرض مثل هذه العبادة التي أشْتَغِل بها حال فراغتي في بَطْن الحُوت، كما عن الرضا عليه السلام[٤].

رُوي أنّ الملائكة سَمِعت تسبيحه فقالوا مثله[٥].

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه الذي في ضِمن اعترافه بالذنب على ألْطف الوجوه ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ وخلّصناه ﴿مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ الحاصِل له مِن الذنب والحبس في بَطْن الحُوت، بأنْ عَفَونا عنه، وقَذْفه الحوت إلى الساحل القَرِيب مِن نِينوى بعد أربع ساعاتٍ، أوْ ثلاثة أيّام، أو سبعة، أو أربعين يوماً، كالفَرْخ المَنْتُوف ليس عليه شَعْر ولا جِلد، وأنْبَتنا عليه شجرةً من يَقطين ليستظلّ بها، ويأكُل مِن ثَمَرها حتّى يشتدّ، كما عن ابن عبّاس[٦] ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الإنجاءُ الذي لا إنجاء أسرع منه ﴿نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن الغموم التي يدعوننا فيها بالإخلاص.

عن سعد بن أبي وقّاص، عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: «دعوة ذي النون في بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ مَا دَعا بِها عبدٌ مُسْلِمٌ قَطُّ وهو مَكْروب إلّا اسْتَجابَ الله دُعاءه»[٧].

وعنه صلّى الله عليه وآله: «اسمُ اللهِ الأعْظَم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل أعطىٰ ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾» إلى آخره[٨].

وروى بعض العامة عن الصادق عليه السلام قال: «عَجِبتُ مِمَن يُبتلى بأربع كيف يَغْفُل عن أربع؟!» إلى أنْ قال: «وَعَجِبتُ مَمّن اغْتَمّ كيف لا يَفْزَع إلى قوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ فإنّي سَمِعت الله يقول بعقبها: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٦، عن عبدالله بن رافع مولى أُم سلمة.
٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٠١، تفسير الصافي ٣: ٣٥٢.
٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٦.
٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٠١، تفسير الصافي ٣: ٣٥٢.
٥. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٦، تفسير روح البيان ٥: ٥١٨.
٦. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٣.
٧. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٦.
٨. تفسير روح البيان ٥: ٥١٨.

المُؤمِنِين﴾[١].

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ[٨٩و ٩٠]

ثمَ ذكر سبحانه نعمته على زكريّاعليه السلام بِاستجابة دُعائه بقوله: **﴿وَزَكَرِيّا﴾** بن آزر **﴿إِذْ نَادَىٰ﴾** ودعا **﴿رَبَّهُ﴾** متضرّعاً بقوله: يا **﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى﴾** ولا تَدَعْنِي في الدنيا **﴿فَرْداً﴾** وَحِيداً بِلا وَلَدٍ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِن آل يعقوب، وإنْ فُرِض أنْ لا تستجيب دُعائي فَلا أبالي، لأنك أفضَلَ الأولياء **﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ﴾** مِن كلِّ أحدٍ بعد موته، ففيه إظهار غاية الاسْتِسْلام والرضا برضاه، وإيكالُ أمره إليه تعالى **﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ﴾** دُعاءه في حقّ الولد **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾** مِن فَضْلِنا **﴿يَحْيَىٰ﴾** ولداً ووليّاً ووارثاً تَقَرَ به عينه، ويَحْيا به ذِكْره ودينه **﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾** وصاحبته إيشاع في الأخلاق وَالدِّين، فإنّها على ما قيل كانت سيّئة الخُلق[٢]، وفي الولادة فإنّها كانتْ عَقِيمَةً كبيرة السنّ.

ثمَ مدح سبحانه زكريّاعليه السلام وزوجه وولده، أو مَدَح الأنبياء المذكورين في السورة بقوله: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾** في مدّة أعمارِهم **﴿يُسارِعُونَ فِى﴾** عمل **﴿ٱلخَيْراتِ﴾** وَفِعْل الطاعات والعبادات الموجبة للمَثُوبات والدرجات العاليات **﴿وَيَدْعُونَنا﴾** ويتضرّعون إلينا **﴿رَغَباً﴾** في الثواب وشوقاً إليه **﴿وَرَهَباً﴾** مِن عظمتنا، وخوفاً مِن العذاب والعتاب **﴿وَكَانُوا لَنا﴾** بِقُلُوبهم وشراشر[٣] وُجُودهم **﴿خَاشِعِنَ﴾** ومُتَواضعين، أوْ عَلَى الدَّوام وَجِلِين، وفي الآية دلالةٌ على غاية فضيلة المسارعة إلى الطاعة كَالصَّلواتِ الواجبة في أوّل أوقاتها.

وَٱلَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ * إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُون[٩١_٩٣]

ثمَ ذكر سبحانه نعمته على مريم بنت عمران بقوله: **﴿وَٱلَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾** وحَفِظَت سَوأتَها مِن أن تُمَسّ بحرام أو حلال **﴿فَنَفَخْنا فِيهَا﴾** بتوسّط جَبْرَئيل **﴿مِنْ رُوحِنا﴾** وَوَهَبْنا لها بذلك النَّفخ

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٥١٨.
٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٧.
٣. الشَّراشِر: الجسم بجملته.

وَلَداً زكياً ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَا﴾ عيسى ﴿آيَةً﴾ عظيمةً ودلالةً واضحةً على قُدرَتِنا الكاملة ﴿لِلعَالَمِينَ﴾ وَأهالي الأعصار إلى يوم الدين حيث إنّ مريَم وُلِدت مِن عَجُوزٍ عقيم وتكلّمت في الصِّبا كما قيل[1]، وَارْتَزَقَت مِمّا يأتيها مِن عند رَبِّها الكريم، واحتبلت بغير فَحْل، وَإنّ ابْنَها عيسى عليه السلام وُلِد بنَفْخ الرُّوح الأمين، وتكلّم في المهد كما تكلّم في الكُهولة، وأظْهَر الآيات البَيّناتِ، ورُفِع في السماء حيّاً. وإنّما عَدَّهُما آيةً واحدةً مع تعدُّدِهما لكمال ارتباطهما.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان قَصص الأنبياء واتّفاقهم على توحيد الله وعبادته، دعا الناس إليهما بقوله: ﴿إِنَّ هٰذِهِ﴾ الملّة الإسلاميّة ودين التوحيد ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ وملّتكم التي يجب عليكم المحافظة عليها أيُّها الناس حال كونها ﴿أُمَّةً﴾ وملّة ﴿واحِدَةً﴾ إتّفَقَ عليها جميعُ الأنبياء والرسل مِنْ أوّل الدنيا إلى فَنائها ﴿وَأَنَا﴾ وَحْدِي ﴿رَبُّكُمْ﴾ وإلٰهُكم المُدَبِّر لأمُورِكُمْ، فإذا عَلِمتم ذلك ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ واخْضَعوا لِي، وتضرّعوا ولا تَجاوزوا عَنّي إلى غَيْري.

ثمّ صرف الله الخطاب عنهم إلى العقلاء، أو إلى نبيّه صلى الله عليه وآله إعظاماً لِمَا ارْتَكَبه المُشرِكون مِنَ الإشراكِ بقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ وفرّقوا ﴿أمْرَهُمْ﴾ ودينهم الذي اتّفقَتْ عليه كَلِمة الأنبياء ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وصارُوا فِرَقاً مختلفةً وأحزاباً شتّى.

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿كُلٌّ﴾ مِن آحاد الفرق ﴿إِلَيْنَا﴾ بعد موتهم ﴿رَاجِعُونَ﴾ فَنُجازيهم بِحَسَب عقائدهم وأعْمالهم.

فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ * وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ [٩٤ و ٩٥]

ثمّ بيّن سبحانه الفِرْقة الحَقّة منهم بقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورُسُله وخُلَفائِهم والدّارِ الآخرة ﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ منّا ﴿لِسَعْيِهِ﴾ ولا حِرْمان له مِن ثواب عَمَلِه، بَلْ نَشْكُره أعْظَمَ الشُّكْر، ونُعْطِيه أفْضَلَ الأجْر على عَمَلِه وَإيمانه ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ في صحيفته ومُثبِتوه في دفتره.

ثمّ بالغ سبحانه في تقرير رُجوع الناس إليه للمُجازاة بقوله: ﴿وَحَرَامٌ﴾ ومُمْتَنِعٌ ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ بإهلاك أهْلها ﴿أَنَّهُمْ﴾ في القيامة ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلينا للحساب وجزاء الأعمال، بَل يَجِبُ رجوعهم بمقتضى العدل والحكمة البالغة.

وقيل: إنّ المعنى وَواجِبٌ على قرية أهلكناها أن لا يَرْجِعوا إلى التوحيد، أو إلى الدنيا[2].

---

١. تفسير روح البيان ٢٢:٢١٨.

٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢٢١.

وقيل: إنّ لفظ الحرام مستعملٌ في معناه لا في ضِدّه، وكلمة (لا) في قوله: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ زائدة والمراد: حرام عليهم أنْ يرجِعوا إلى الدنيا[١].

وعن (الفقيه) عن أميرالمؤمنين عليه السلام في خُطبة الجمعة. «ألَم تَرَوا إلى الماضِين منكم لا يَرجِعون، وَالى الخَلَف الباقِين منكم لا يَبْقُون، قال الله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾»[٢].

وعن القمي عنهما عليهما السلام قالا: «كلّ قريةٍ أهْلَك الله أهْلَها بالعَذابِ لا يَرْجِعُونَ في الرَّجْعة»[٣].

وعن الباقر عليه السلام قال: «كلّ قريةٍ أهْلَكَهَا اللهُ بالعَذابِ فَإِنَّهم لا يَرْجِعُون»[٤].

حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ * إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ[٩٦ـ٩٨]

ثمّ بيّن سبحانه غاية حُرْمة رُجُوعهم بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ﴾ جهة ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أو سدّة القبيلتين اللّتَين مَرّ تفصيلهما في الكهف[٥] ﴿وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ﴾ ومُرتَفَع مِن الأرض ﴿يَنْسِلُونَ﴾ ويَنْزِلون بسُرعة، روي أنّهم يَسِيرُونَ في الأرض ويُقبِلون على الناس مِن كلّ مَوْضَعٍ مُرتَفَعٍ[٦].

القمي: إذا كان آخر الزمان خَرَج يَأجوجُ ومَأجوجُ إلى الدنيا ويأكُلُونَ النّاس[٧].

﴿وَاقْتَرَبَ﴾ عند ذلك ﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ بالحَشْر للحِساب بعد النَّفخة الثانية ﴿فَإِذَا﴾ القصّة ﴿هِيَ شَاخِصَةٌ﴾ ومنفتحة مِن غَير طَرْف ﴿أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِمّا يَرَونَ مِن الأهوالِ وَالشّدائِدِ قائِلِين تحسُّراً وتندّماً: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ ويا هَلاكنا احضُر إنّا ﴿قَدْ كُنَّا﴾ في الدُّنيا مُنْغَمرين ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عظيمةٍ ﴿مِنْ هَٰذَا﴾ الذي نَرى مِن البَعْث وأهواله ﴿بَلْ﴾ لَم نَكُن في غَفْلَةٍ عنه لكثرة الآياتِ الدالّة عليه، وإنّما ﴿كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ على أنْفُسِنا بتعريضها للهَلاك بِسَبب الإعراض عَن الآيات وتَكْذِيب الرُّسُل.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان بعض أهوال القيامة صَرَف الخطابَ إلى مُشْرِكي مكّة بقوله: ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا معشر المشركين ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ مِن الأصنام كُلُّكم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ووَقُودُها الذي يُرمىٰ به فِيها لتشتعل ﴿أَنتُمْ﴾ مَعَ أصْنامِكم ﴿لَهَا وَارِدُونَ﴾.

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ٢٢١. ٢. من لا يحضره الفقيه ١: ١٢٦٢/٢٧٦، تفسير الصافي ٣: ٣٥٤.
٣. تفسير القمي ٢: ٧٦، تفسير الصافي ٣: ٣٥٤. ٤. مجمع البيان ٧: ١٠٠، تفسير الصافي ٣: ٣٥٥.
٥. في تفسير الآية (٩٣) من سورة الكهف. ٦. تفسير روح البيان ٥: ٥٢٣.
٧. تفسير القمي ٢: ٧٦، تفسير الصافي ٣: ٣٥٥.

لَوْ كَانَ هٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰ أُولٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ هٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ [٩٩ـ١٠٣]

ثمّ بيّن سبحانه امتناع كون الأصنام آلهة بقوله: **﴿لَوْ كَانَ هٰؤُلَاءِ﴾** المعبودون **﴿آلِهَةً﴾** على الحقيقة كما تَزْعُمون **﴿مَا وَرَدُوهَا﴾** وما دخلوها البتّة **﴿وَكُلٌّ﴾** مِن المعبودين وعابديهم **﴿فِيهَا﴾** بعد الورود **﴿خَالِدُونَ﴾** لا خَلاصَ لَهم مِنها أبداً، هذا حال جميعهم، وأمّا حال خصوص عَبَدَتهم فهو أنّه[1] **﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾** وأنينٌ وتنفُّس شديدٌ عَن غَمّ مالِئٍ للصدور **﴿وَهُم فِيهَا﴾** مع كونهم عُمياً وبُكماً **﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾** زَفِير أنْفُسِهم فَضْلاً عَن زَفِيرِ غَيْرِهم.

عن ابن مسعود قال: يُجْعَل المشركون في تَوابِيت مِن نار، ثُمّ تُجْعَل التوابيت في توابيت اُخرى، ثُمّ تُجْعَل تلك في اُخرى عَلَيْها مَسامِير مِن نار، فلا يَسْمَعُونَ شَيْئاً، ولا يَرى أحَدٌ مِنهم أنّ فِي النّار أحداً يُعذّب غيره[2].

عن الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام: «أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال: إنّ الله تَبارَك وتعالى يَأتِي يومَ القيامة بكلّ شيءٍ يُعْبَد مِن دُونِهِ، مِن شَمْسٍ أوْ قَمَرٍ أو غير ذلك، ثمّ يسألُ كلَّ إنسانٍ عمّا كان يَعْبُد، فيقول كلُّ مَن عَبَد غَيْرَ الله: ربَّنا إنّا كُنّا نَعْبُدُه لِيُقَرِّبنا إلَيك زُلْفى. فيقول الله تبارك وتعالى للملائكة: إذهبوا بِهِم وَبِما كانوا يَعْبُدونَ إلى النّار مَا خَلا مَن استَثْنَيْتُ، فَأولئِك عَنْها مُبْعَدُون»[3].

وعنه عليه السلام: «إذا كان يومُ القيامة اُتي بالشمس والقمر في صورة ثَوْرَين، فيُقْذَف بِهما وَبِمَن عَبَدَهما في النّار، وذلك أنّهما عُبِدا فَرَضِيا»[4].

أقول: فيه دلالةٌ على أنّ الأجْرام الفلكية لَها حياةٌ وشُعُور.

رُوي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله دَخَل المسجد وصَنادِيدُ قريش في الحَطِيم[5]، وحول الكعبة ثلاثمائة وسِتّونَ صنماً، فَجَلَس إلَيهم، فعرض له النَضْر بن الحارث، فكلّمه رسولُ الله صلى الله عليه وآله فَأفْحَمَه، ثمّ تلا عليهم **﴿إنَّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ﴾** الآية، فَأقْبَل عبدالله بن الزِّبَعْرَى، فرَآهم يَتَهامَسُون فقال: فيما خُضْتُم؟ فَأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عبدالله: أما والله لو وجدتُه لَخَصَمْتُه فدعوه، فقال ابن

---

١. في النسخة: أنّ، ولا تناسب من حيث الإعراب.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٥٢٤.
٣. قرب الإسناد: ٢٧٩/٨٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥٥.
٤. علل الشرائع: ٧٨/٦٠٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥٥.
٥. الحَطِيم: بناءٌ قُبالة الميزاب من خارج الكعبة.

الزِبعرَى: أأنْتَ قُلتَ ذلك؟ قال: «نعم»، قال: قد خصمتك وربّ الكعبة، أليس اليهودُ عَبَدُوا العُزَير، والنَّصارى عَبَدُوا المسيح، وبَنُو مُلَيْح عَبَدوا الملائكة؟ فسكت رسول الله ﷺ، فَضَحِكَ القومُ، فَنَزَل **﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾**[١] وقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ﴾** الآية[٢].

وفي رواية أُخرى قال: «بَلْ هُم عَبَدُوا الشياطين الذين أَمَرُوهم بذلك»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «لمَا نزلت هذه الآية، وَجَد منها أهل مكّة وَجْداً شديداً، فدخل عليهم عبدالله بن الزِّبَعْرى وكُفّار قريش يَخُوضُون في هذه الآية، فقال ابن الزِّبَعْرى: أتَكَلَّمَ محمّدٌ بِهذه الآية؟ قالوا: نعم، قال: لَئِن اعْتَرَفَ بِها لأخْصِمنّه، فَجُمِع بينهما، فقال: يا محمّد، أرأيت الآية التي قَرأتها آنِفاً، أفينا وَفي آلِهَتنا خاصّة، أم في الأُمَم وآلِهَتهم؟ قال: بل فيكم وفي آلِهتكم، وفي الأُمَم وآلهتهم إلّا مَنِ اسْتَثْنَىٰ [الله]. فقال ابن الزِّبَعْرى: خصمتُكَ والله، ألَسْتَ تُثْنِي على عِيسى خيراً، وقد عرفتَ أنّ النصارى يَعْبُدُونَ عِيسى وَأُمَّه، وأنّ طائفةً مِن النّاس يَعْبُدُون الملائكة؟ أفَلَيْسَ هؤلاءِ مَعَ الآلِهة في النار؟ قال: لا، فضجَّتْ قريش وضَحِكوا وقالوا: خَصَمك ابن الزِّبَعْرى؟ فقال ﷺ: قُلْتُم الباطِل، أما قُلتُ إلّا مَنِ اسْتَثْنَىٰ [الله]، وهو قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم﴾**» الآية[٤].

وقيل: لمَا كان الخطاب في الآية خطاب المُشافَهَة لا يَشْمُل غير مُشْرِكي مكّة، وهم كانوا يعبُدون الأصنام، وأنّه تعالى قال: **﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾** وَلَمْ يَقُل وَمَنْ تَعْبُدُونَ[٥]، فلا يَشْمُل عيسى والعُزَيْر والملائكة، وأنّه لَم يَقُل أحدٌ بِأُلوهيّة الملائكة، وأن العُمومَ المُفْتَرَض[٦] مُخصَّص بِالأدِلّة العقلية والنقلية في حقّ أُولئك الكِرام، فكان سؤال ابن الزِّبَعْرى ساقطاً.

وفيه: أنّ خطابات القرآن شاملةٌ لِجَميع أهْل عصر النبي ﷺ، ولا تختصّ بقريش، خصوصاً مع قوله: «بَلْ فِيكُمَ وفي آلِهَتِكم، وَفي الأُمَم وآلِهتهم» وكلمة (ما) كثيراً مَا تُطلَق عَلَى الأعَمّ مِن ذَوِي العُقُولِ وَلَوْ تَغْليباً لِغَيْرِهِم عَلَيْهِم، أو لِتَحْقِير ذَوِي العُقُولِ، وَعُمومُ اللَّفْظِ كافٍ لاعتِراضِ الخَصْم اللَّجُوج.

ولذا صرّح سبحانه بالتخصيص بعد عُموم الآية بقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا﴾** الخَصْلة **﴿الْحُسْنَىٰ﴾** وهي السعادة الأبَديّة، أو الكلمة الحُسنى، وهِي البشارة بالثَّوابِ، لا يَرَوْنَ جهنّم، بَل **﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾** لأنهم في الجنّة، شتّان بينها وبين جهنّم، حيث إنّ الجنّة في أعلى عِلّيين، وجهنّم في أسْفَل السافلين، ولذا يكون بُعْدهم مِن جهنّم بحيث **﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾** والصوت

---

١. الزخرف: ٥٧/٤٣. ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢٢٣. ٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢٢٣.
٤. تفسير القمي ٢: ٧٦، تفسير الصافي ٣: ٣٥٦. ٥. تفسير الرازي ٢٢: ٢٢٣.
٦. في النسخة: الفرضية.

الخفيّ منها.

وروى بعض العامة عن الصادق عليه السلام أنه قال: «كيف يسمعون حَسِيسَها والنّارُ تَخْمُد لمطالعتهم وتتلاشى؟!»[١].

ثمّ أنه تعالى بعد بِشارتهم بخلاصهم مِن المَهالِك بَشّرهم بالفوز بالحظوظ بقوله: **﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ﴾** وَاشْتَاقَت إليه **﴿أَنْفُسُهُمْ﴾** مِن النِّعم الرّوحانيّة والجسمانيّة **﴿خَالِدُونَ﴾** مُقِيمُون لا يُتَصوَّر زَوالها وَانْقِطاعها **﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾** قيل: هو ذَبْحُ الموت بصورة الكَبْش الأمْلَح[٢]. وقيل: النفخةُ الثانية[٣]. وقيل: إطباقُ النّارِ عَلى أهْلِها فيفزَعون لذلك فزعةً عظيمة[٤]. وقيل: هو الفَزَع عند مُشاهدة النّار، إذ لا فَزَع أعْظَم وأكبَر منه، فَمَن أمِن مِن ذلك أمِن مِمَا دُونه بالأولويّة[٥].

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ﴾ وتَسْتَقْبِلهم **﴿ٱلْمَلَائِكَةُ﴾** الذين كانوا كَتَبَة أعمالهم في الدنيا بالبُشرى ويقولون لهم: **﴿هَٰذَا﴾** اليوم **﴿يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ﴾** في الدنيا **﴿تُوعَدُونَ﴾** وتُبشَّرون بما فيه مِن فُنون الثواب على الإيمان والطاعات.

في (المجالس) عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام: «يا علي، أنت وشِيعَتُك على الحوض تَسْقُون مَن أحْبَبْتم، وتَمْنَعُون مَن كَرِهتم، وأنتم الآمِنون مِن الفَزَع الأكْبَر في ظِلّ العَرْش، يَفْزَع الناس ولا تَفْزَعون، ويَحْزَن الناس ولا تَحْزَنُون، وفيكم نزلت **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾** الآية، وفيكم نزلت **﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾** الآية»[٦].

وعن الصادق عليه السلام قال: «إنّ الله يَبْعَثُ شيعتنا يوم القيامة على ما فيهم مِن الذُّنُوب أو غيره، مبيضّةً وجوههم، مستورةً عَوارتهم، آمِنة [رَوْعَتهم]، قد سهلت لهم الموارد، وذَهَبَتْ عنهم الشَّدائِد، يَركَبُون نُوقاً مِن ياقوت، فلا يَزالُون يَدُورُون خلال الجنّة، عليهم شَرَكٌ مِن نُورٍ يتلألأ، تُوضَع لهم المَوائد فلا يَزالُون يُطْعَمون [و] الناسُ فِي الحِسابِ، وهو قول الله: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾** الآية»[٧].

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَاءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ * وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّالِحُونَ * إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ [١٠٤-١٠٦]

---

١. تفسير روح البيان ٥: ٥٢٥. ٢-٥. تفسير الرازي ٢٢: ٢٢٧.

٦. أمالي الصدوق: ٦٥٧/٨٩١، تفسير الصافي ٣: ٣٥٦.

٧. المحاسن: ١٧٩/١٦٦، تفسير الصافي ٣: ٣٥٧.

ثمّ وَصَف سبحانه ذلك اليومِ بقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّماءَ﴾ طَيّاً ﴿كَطَيِّ﴾ الطاوي ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ والطُّومار الموضُوع ﴿لِلْكُتُبِ﴾ وضَبْط المعاني الكثيرة فيه، قيل: إنّ مَعْنى طَيِّ السِّجِلِّ لِلْكتاب كونه ساتراً للكتابة[1] التي فيه، ومُخْفِياً لها، ونشره: كشفه[2].

وعن ابن عباس: السِجِلّ اسم مَلَك يَطْوي كتبَ بني آدم إذا رُفِعَت إليه[3].

ورواه بعض العامة عن أمير المؤمنين[4].

وقيل: معنى طَيّها إفْناؤها فتتحوّل دُخاناً[5].

ثمّ وَصَفَ اليومَ بإعادة الخلق فيه بقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا﴾ وَابْتَدَأنا ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ للإنسان في الدنيا ﴿نُعِيدُهُ﴾ في الآخِرة، ونَخْلُقُه ثانياً للحشر والحساب، وقد وعدنا إعادته ﴿وَعْداً﴾ حتمياً واجب الإنجاز ﴿عَلَيْنا﴾ بمقتضى الحكمة البالغة، ولذا ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ لِلْوعد ومنجّزين له لا مُحالة.

عن النبيّ ﷺ قال: «تُحْشَرُون عُراةً حُفاةً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾»[6].

أقول: أي كما خُلِقْتُم في الدنيا عُراةً حُفاةً.

ثمّ أنّه تعالى بعد البشارة بحسن حال المؤمنين في الآخرة، بَشّر بحُسن مَآلِ أمرهم في الدنيا بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا﴾ وأثْبَتنا ﴿فِى ٱلزَّبُورِ﴾ الذي اُنزل على داود، أو في الكتب السماوية، أو في القرآن ﴿مِن بَعْدِ﴾ ما أثبتناه في ﴿الذِّكْرِ﴾ واللَوح المحفوظ، أو في التوراة ﴿أَنَّ الأرْضَ﴾ كلّها، أو الأرض المقدّسة، أو أرض الجنّة ﴿يَرِثُها﴾ ويتسلّط عليها ﴿عِبادِيَ ٱلصَّالِحُون﴾ في زمان الرجعة وبعد ظهور الدولة الحقّة، أو في الآخرة.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية: مَا الزَّبُور، وَمَا الذِّكْر؟ قال: «الذِّكر عند الله، والزَّبور الذي اُنزل على داود، وكل كتابٍ اُنزل فهو عند أهل العلم، ونحن هم»[7].

وعن الباقر عليه السلام في قوله: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّالِحُونَ﴾، قال: «هم أصحاب المهدي عليه السلام في آخر الزمان»[8].

﴿إِنَّ فِى هٰذَا﴾ المذكور من الأخبار والمواعِظ والله ﴿لَبَلاغاً﴾ وكفايةً في الهداية والتنبيه، وما ينال به البُغْية والمطلوب ﴿لِقَوْمٍ عابِدِينَ﴾ والعالِمين العاملين.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ [١٠٧]

---

١. في النسخة: لكتابة. ٢ ـ٤. تفسير الرازي ٢٢: ٢٢٨.

٥. تفسير القمي ٢: ٧٧، تفسير الصافي ٣: ٣٥٧. ٦. مجمع البيان ٧: ١٠٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥٧.

٧. الكافي ١: ١٧٦/٦، تفسير الصافي ٣: ٣٥٧. ٨. مجمع البيان، ٧: ١٠٦، تفسير الصافي ٣: ٣٥٧.

ثمَ أنَه تعالى بعد ذِكْر رحمته ونعمته على المؤمنين، بيّن أنّ الرسول الذي أرسله إليهم أفضَلُ النِّعم عليهم وعلى جميع الخلق بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمّد لغرضٍ مِن الأغراض ﴿إِلَّا﴾ لتكون ﴿رَحْمَةً﴾ ونِعمةً عظيمةً ﴿لِلْعالَمِينَ﴾ وسبباً لسعادة الدّارين للخلق أجمعين.

عن أبي هُريرة: قيل رسول الله ﷺ ادْعُ على المشركين. قال: «إنَّما بُعِثْتُ رَحْمَةً، ولم أُبْعَث عذاباً»[1].

وعنه ﷺ أنّه قال لجَبْرَئيل لمّا نزلت هذه الآية: «هل أصابك مِن هذه الرحمة شيء؟» قال: نَعم، إنّي كنتُ أخشى عاقبةَ الأمر، فآمنتُ بك لمّا أثنَى الله عليّ بقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث مجيباً لبعض الزنادقة: «وأمّا قوله لنبيّه ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ وأنّك تَرى أهل الملل المخالفة للإيمان وَمَن يَجْرِي مجراهم مِن الكفّار مُقيمينَ عَلى كُفْرِهم إلى هذه الغاية، وأنّه لو كان رحمةً عليْهِم لاهْتَدَوا جميعاً ونَجوا مِن عذاب السّعير، فإنّ الله تبارك وتعالى إنّما عَنَى بذلك أنّه جَعَلَهُ سَبِيلاً لإنذار أهل هذه الدار؛ لأنّ الأنبياءَ قبله بُعِثوا بالتَّصْرِيح لا بِالتَّعْرِيض، وكان النبيّ منهم إذا صَدَع بأمْرِ الله وَأجابَه قومُه سَلِموا وسَلِم أهل دارهم مِن سائر الخليقة، وإنْ خالَفوا هلكوا وهلك أهل دارهم بالآفة التي كان نبيهم يتوعّد بها ويخوّفهم حلولها ونزولها بِسَاحَتِهم مِن خَسْفٍ أو قَذْف أو رَجْف أو رِيح أوْ زَلْزَلة أو غير ذلك مِن أصناف العذاب التي هلكت بها الأُمَم الخالية.

وإنّ الله عَلِم مِن نبيّنا ﷺ وَمِن الحُجَج في الأرضِ الصبر على ما لم يُطِق مَن تقدَّمهم مِن الأنبياء الصبر على مِثْله، فبعثه الله بالتعريض لا بالتصريح، وأثبت حُجَة الله تعريضاً لا تصريحاً بقوله في وصيّة: مَن كنتُ مَولاهُ فهذا عليّ مَولاه، وهو مِنّي بمنزلة هارونَ مِن موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي.

وليس مِن خَليقة النبيّ ﷺ ولا شِيمَته أن يقولَ قولاً لا معنى له، فلَزِم الأمّة أن تعلم أنّه لمّا كانت النبوّة والأُخوّة موجودتَيْنِ في خلقة هارون ومعدومتين في من جعله النبيّ ﷺ بمنزلته أنّه قد استخلفه على أُمَّتِه كما استَخْلَف موسى هارون حيث قال لَهُ: ﴿اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾[3] ولو قال: لا تُقلّدُوا الإمامة إلّا فلاناً بَعْدي وَإلّا نزل بكم العذاب لأتاهُم العذاب وزال باب الإنظار والإمهال»[4].

وعن الباقر عليه السلام: «أما لو قام قائمنا رُدَّت إليه الحُمَيراء[5] حتى يَجْلِدها الحدّ وحتى ينتقم لابنَةِ محمّد فاطمة منها». قيل: لم يُجْلِدها؟ قال: «لفِرْيتها على أمّ إبراهيم»، قيل: فكيف أخّره الله للقائم؟ قال: «إنّ

---

١. تفسير الرازي ٢٢: ٢٣١.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٥٢٧، الآية من سورة التكوير: ٨١/٢٠.
٣. الأعراف: ٧/١٤٢.
٤. الاحتجاج: ٢٥٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥٨.
٥. في النسخة: رُدّت بالحميراء.

الله تبارك وتعالى بعث محمّداً صلى الله عليه وآله رحمةً، وبعث القائم نِقْمَةً»[١].

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ [١٠٨ـ١١١]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان أنّ بعثة محمّد صلى الله عليه وآله كانت رحمة للعالَمين، وكان مِن آثارِ رَحْمَته دَعْوةُ النّاسِ إلى التوحيد الموجب لكمال سعادة الدارين، أمَر نبيّه صلى الله عليه وآله بالدعوة إليه بِألْطَف بيانٍ وأبلغه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ مِن ربّي ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ﴾ ومَعْبُودُكم المستحقّ للعبادة ﴿إِلَٰهٌ﴾ ومعبودٌ ﴿وَاحِدٌ﴾ لا إله غيره، فبعد ما أخبرتُكم بذلك مع دلالة المعجزات على صدقي، وبيّنتُ لكم الحُجج القاطعة والبراهين الساطعة عليه وعلى بطلان الشِّرك ﴿فَهَلْ أَنتُمْ﴾ أيّها المشركون ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ له، ومخصّصون عبادتكم به، أم تُصِرُّون على ما أنتم عليه من الشِّرك وعبادةِ الأصنام؟

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرَضوا عن قولك، ولم يَعْتَنُوا إلى دعوتك ﴿فَقُلْ﴾ لَهُم إنذاراً: إنّي ﴿آذَنتُكُمْ﴾ وأعْلَمْتُكُم ما أُوحي إليّ ولم أُقصّر فيه، أو أنذرتُكم عذابَ الله على كُفْرِكم حالَ كونكم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ في الإعلام والإبلاغ، بلا فرقٍ بين القريب والبعيد، والشريف والوضيع، والغني والفقير، أو المراد آذنتُكم بالحرب على مَهل، ولا أُعاجلكم فيه رجاء إسلامكم.

﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ ولا أعلم ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ وتُنْذَرون به من القيامة، أو العذاب الدنيوي، أو الحرب وغلبة المسلمين، مع أنّه آتٍ لا محالة، وَاعْلَموا أن الله يعذّبكم على ما تجاهرتم به من الطعن في نبوّتي وكتابي، والاستهزاء بي، وما تسرُّون مِن الحسد على ما آتاني من فضله وعداوتكم لي وللمؤمنين ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الصادر منكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ وتُسرّون أيّ قول كان وأيّ سرٍّ ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ وما أعْلَم أنّ تأخيرَ تعذيبكم أو إبهام وقته أو تأخير الأمْر بِجهادكم، أو ما أدري ما بيّنتُ وأعْلَمتُ[٢] ﴿لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ﴾ وامتحانٌ ﴿لَّكُمْ﴾ حتى يرى أنكم تُحدِثون التوبة وتُؤمِنون أم لا، أو بليّةٌ وزيادة عذابٍ لكم ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وانتفاعٌ بالحياة الدنيا ونِعَمها ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وأجلٍ مقدَّر تقتضيه مشيئة الله المبنيّة على الحكمة البالغة.

---

١. علل الشرائع: ١٠/٥٧٩، تفسير الصافي ٣: ٣٥٩. ٢. في النسخة: وأعلم.

قَالَ رَبِّ ٱحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ[١١٢]

ثمّ لمّا دعاهم النبي ﷺ على حَسَب وظيفته المقرَرة، وتمرّد القوم عن إجابة دعوته وإطاعته، حكى سبحانه شكايته منهم إليه بقوله: ﴿قَالَ﴾ الرسول ﷺ ﴿رَبِّ ٱحْكُم﴾ بيني وبين قومي ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل المقتضي لتعجيل نزول العذاب عليهم، فَحَكَم الله عليهم بالقتل يوم بدر.

ثمّ حكى سبحانه توجُّهه إلى قومه، وتوعيده إيّاهم بالعذاب بقوله: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ﴾ والقادر الواسع الرحمة بالمؤمنين ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ والمتوقّع منه النصر ﴿عَلَىٰ﴾ دفع ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ مِن الشرك وما تُعارِضون مِن الأباطِيل.

وقيل: إنّ الكفّار كانوا يَطْمَعونَ أنْ تكونَ لهم الشوكة والغَلَبة، فكذّب الله ظنونَهم، وخَيَّب آمالَهم، ونَصَر رَسُولَه ﷺ [والمؤمنين] وَخَذَلَهم[١].

رُوي أنّه ﷺ كان يقوله في حُرُوبه[٢].

عن الصادق عليه السلام: «مَن قرأ سورة الأنبياء حُبّاً لها، كان مِمَّن رافَق النبيّين أجمعين في جنّات النعيم، وكان مَهيباً في أعين النّاس حياة الدنيا»[٣].

وعن أُبَيّ بن كَعْب، عن النبيّ ﷺ: «مَن قرأ سورة الأنبياء سهّل الله الحسابَ لَهُ يومَ القيامة[٤]، وصافَحه جميعُ الأنبياء الذين ذَكَر الله اسمَهُمْ في القُرآن وسَلّموا عليه»[٥].

الحمد لله الذي وفّقني لإتمام تفسير سورة الأنبياء، ونسأله التوفيق لتفسير بقيّة الكتاب الكريم

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢٣٤.

٣. ثواب الاعمال: ١٠٨، مجمع البيان ٧: ٦١، تفسير الصافي ٣: ٣٦٠.

٤. في مجمع البيان وتفسير أبي السعود: حاسبه الله حساباً يسيراً.

٥. مجمع البيان ٧: ٦١، تفسير أبي السعود ٦: ٩٠.

في تفسير سورة الحجّ

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلٰكِنَّ عَذَابَ ٱللهِ شَدِيدٌ [١ و ٢]

ثمّ لمّا ختم الله سورة الأنبياء المبتدئة بتهديد المشركين باقتراب القيامة، وذمّهم على غفلتهم عنها، وإعراضهم عن آيات الله، وجدالهم في رسالة رسوله، ونسبة معجزاته إلى السحر، المختتمة بأمر نبيّه ﷺ بدعوة الناس إلى التوحيد، وتهديدهم على الشرك، وحكاية شكاية نبيّه ﷺ إلى ربّه من تمرّدهم، أُردفت بسورة الحجّ المبتدئة بتحذير الناس عن الشرك، وتهديد المشركين بأهوال القيامة، وذمّهم على مجادلة الرسول، واستدلاله تعالى على المعاد، المختتمة بتسلية الرسول ﷺ في مجادلة قومه، وأمْر المؤمنين بجهادهم، وتوجّههم إلى عبادة الله والتوكّل عليه، ووَعْدهم بالنصر، فَأبْتَدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع سبحانه فيها بتحذير الناس عن الشّرك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ وَاحْذَرُوا عذابَه بقبول التوحيد والتوبةِ مِن الشرك والعصيان ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي تَكونُ حين طلوع الشمس مِن مغربها، أو حين قيام الساعة ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُحيط بِهِ الوَصْف، وأمْرٌ شديدٌ لا يَحْوِيه البيان.

عن ابن عباس: أنّ زَلزَلة الساعة حين قيامها[1].

وعن النبيّ ﷺ في حديث الصُّور: «أنّه قَرْن عَظِيم يُنْفَخ فيه ثلاث نفخات: نَفْخَةُ الفَزَع، ونفخة الصَعْقَة، ونفخة [القيام] لربّ العالَمين، وأنّ عند نفخة الفَزَع يَسِيّرَ [الله] الجبال، وتَرْجُف الأرض الراجفة تَتْبَعُهَا الرادفة، قُلُوبٌ يَوْمَئذٍ واجفةٌ، وتكون الأرض كالسفينة تضرِبها الأمواج أو كالقِنْدِيل المعلّق تُرجْرِجه الرياح»[2].

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ٩١، تفسير روح البيان ٦: ٢. ٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢.

وعنه ﷺ: «معاشِرَالنّاس، التقوى التقوى، إحْذرُوا الساعة كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾»[1].

ثمّ بيّن سبحانه بعض آثار عَظَمة تلك الزَّلْزَلة بقوله: ﴿يَوْمَ﴾ تشاهدون فيه الزَّلْزَلة و﴿تَرَوْنَهَا﴾ تَرَون ﴿تَذْهَلُ﴾ وتَغْفل لِهَوْلِ مُطّلَعها ﴿كُلُّ﴾ امرأة ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ لولدها ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ وعَنِ الطّفل الذي ألقَمَتْ ثَدْيَها في فيه مع غاية جهالة اهتمامها[2] بإرضاعه ﴿وَتَضَعُ﴾ وتَلقى ﴿كُلُّ﴾ امرأةٍ ﴿ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ وجَنينها مِن بَطْنِها لغير تمام.

القمي: كلّ امرأةٍ تموت حاملة عند [زَلْزَلة] الساعة تَضَعُ حَمْلَها يومَ القيامة[3].

والظاهر أنّ الأُمورَ الثلاثة تمثيل لتهويل الأمر ﴿وَتَرَى﴾ أيّها السامعُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في ذلك اليوم كأنّهم ﴿سُكَارَىٰ﴾ مِن غاية البَهت ﴿وَمَا هُمْ﴾ حقيقةً ﴿بِسُكَارَىٰ﴾ مِن الخَمْر ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فَمِن هوله تَطِير عُقُولهم ويُسلَب تمييزهم.

رُوي أنّ هاتين الآيتين نزلتا باللّيل في غزوة بني المُصْطَلِق، وهم حَيّ مِن خُزاعة، فنادى رسول الله ﷺ فاجْتَمَع النّاسُ حوله، فَقَرأهما عليهم، فلم ير أكثر باكياً مِن تلك اللّيلة، فلمّا أصْبَحُوا لم يحطّوا السُّروج، ولم يَضْرِبوا الخيام، ولم يَطْبَخُوا القُدُور، والناسُ بين باكٍ وجالسٍ حزينٍ مُتفكّر، فقال ﷺ: «أتَدْرُونَ أيّ ذلك اليوم [هو]؟» قالوا: الله ورَسُولُه أعْلَم، قال: «ذلك يوم يقول الله لآدم: قُمْ فابعث بَعْثَ النار من ولدك، فيقول آدم: وما بعث النار؟ يعني مِن كم [وكم]، فيقول الله عزّ وجلّ: مِن كُلّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعونَ إلى النّار وواحد إلى الجنّة، فعند ذلك يَشِيبُ الصَّغير، وتَضَعُ كُلّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وَتَرَىٰ النّاسَ سُكارىٰ».

فكبُر ذلك على المؤمنين، وبَكَوا وقالوا: فَمَن ينجو يا رسول الله؟ فقال: «ابشروا وسدّدوا وقاربوا، فإنّ معكم خليقتين ما كانا في قومٍ إلّا كثّرتاه: يأجوج ومأجوج».

ثمّ قال: «إنّي لأرجُو أنْ تَكُونُوا رُبْع أهل الجنّة فكبّروا». ثمّ قال: «إنّي لأرجُو أنْ تَكُونُوا نِصْفَ أهلِ الجنّة» فكبّرُوا وحمدوا الله، ثمّ قال: «إنّي لأرجُو أنْ تَكُونُوا ثُلُثَي أهل الجنّة، إنّ أهْلَ الجنّة مائة وعشرون صفاً، ثمانون منها اُمّتِي، وما المُسْلِمون في الكفّار إلّا كالشّامة في جَنْبِ البعير، أو كالشَّعْرَة البيضاء في الثَّوْرِ الأسود».

ثمّ قال: «ويدخُل مِن اُمّتي سبعون ألفا في الجنّة بغير حسابٍ» فقال عمر: سبعون ألفاً؟ قال: «نعم،

---

١. الاحتجاج: ٦٥، تفسير الصافي ٣: ٣٦١.

٢. في النسخة: واهتمامها.

٣. تفسير القمي ٢: ٧٨، تفسير الصافي ٣: ٣٦١.

ومع كلِّ واحدٍ سبعون ألفاً» الخبر[١].

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى ٱللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ[٣و ٤]

ثمَ أنه تعالى بعد الأمر بالتَّقْوىٰ وبيان أهوال القيامة، بَيّن لَجاج القوم الموجب لغاية استحقاقهم العذاب بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ كالنَّضر بن الحارث وأضْرابه مِن المشركين المنكرِين للبَعْث ﴿مَنْ يُجَادِلُ﴾ ويُخاصِم ﴿فِى﴾ صفات ﴿ٱللهِ﴾ وإنّما يكونُ جِداله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وعِرفان وحُجَة وبرهان ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في جِداله وأقواله ﴿كُلَّ شَيْطانٍ﴾ إنسيَ أو جِنّي ﴿مَرِيدٍ﴾ مبالغ في الفساد ومجاوز الحدَ في الطُّغيان والعِناد ﴿كُتِبَ﴾ وأثبت على ذلك الشيطان أو المُجادل في اللَوح المحفوظ أو قُضِي ﴿عَلَيْهِ﴾ في الأزَل، أو جُعِل في طَبْعه كأنّما كُتِب عليه ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ واتَّبَعه ﴿فَإِنَّهُ﴾ بإغوائه وتسويلاته في قلب وليّه ﴿يُضِلُّهُ﴾ ويَحْرِفه عن طريق الحقّ والخير ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ بحَمْله على المعاصي ﴿إلىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ والنار الحريق.

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِى ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ[٥ـ٧]

ثمَ لمَا هدَّدَهم الله بعذاب الآخرة، وكانوا منكرين للبعث ومجادلين فيه، استدلَ سبحانه عليه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ وشكٍ ممّا وعدناكم ﴿مِنَ ٱلْبَعْثِ﴾ والإحياء بعد الموت، فَاذْكُروا خَلْقكم الأوّل . وتفكّروا فيه حتى يزول رَيْبكم ﴿فَإِنَّا﴾ بقُدرتنا ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ وجعلنا مبدأ تَكوَنكم ﴿مِنْ تُرابٍ﴾ حيث خُلِق أبوكم آدم عليه السلام منه ﴿ثُمّ﴾ خلقنا كلَّ فردٍ منكم ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وماءٍ متكوِّنٍ في صُلب الرَّجل خارجٍ منه بدَفْقٍ وشَهْوةٍ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وقطعة دمٍ جامدةٍ مكوَنة مِن النُّطفة ﴿ثُمَّ مِنْ

---

١. مجمع البيان ٧: ١١٢، تفسير الرازي ٢٣: ٣، تفسير الصافي ٣: ٣٦١.

مُضْغَةٍ﴾ وقطعة لحم مكوّنةٍ مِن علقة ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾ ومصوّرةٍ وتامّة الحواس والتخاطيط ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ وغير مصوّرةٍ وناقصة الحواسّ والتخاطيط، أو المراد تامّة الخلق وغير تامّة، أو خارجة مِن الرَّحِم حيّة، أو ساقطة منه ميتة، وإنّما نقلنا مبدأ وجودكم مِن حالٍ إلى حال ومِن هيئة إلى هيئة ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أنكم تَتَقلّبون تحتَ قُدْرَتنا، وأن تغيير المُضْغة إلى المخلّقة إنّما هو باختيار الفاعل القادر الحكيم المختار، ولولاه لما صار بعضُه مخلّقة وبعضه غير مخلّقة ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ﴾ بعد ذلك ﴿مَا نَشاءُ﴾ قراره فيها ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ووقتٍ مضروبٍ للولادة أدناه ستّة أشهر عند الكلّ، وأقصاه عند المشهور من الخاصة تسعة أشْهر، وعند قليلٍ منهم عَشْرة، وعند الأقلّ سَنَة، وعند أبي حنيفة سَنَتَين، وعند الشافعي أربع سِنِين، وعند مالك خَمْس سِنِين[1].

عن الباقر عليه السلام: «النُّطفة تَكُون بَيْضاء مثل النُخامَة الغليظة، فتَمْكُثُ [في الرَّحِم] إذا صارت فيه أربعين يوماً، ثمّ تصير عَلَقةً، وهي عَلَقة كعَلَقة دَم المِحْجَمَة الجامدة، تمكُثُ في الرَّحِم بعد تحويلها من النُّطفة أربعين يوماً، ثمّ تصير مُضْغَةً وهي مُضغة لَحْم فيها عُرُوق خُضْر مُشْتَبِكة، ثمّ تصير إلى عظم، ويُشَقّ له السمع والبصر، وتُرتّب جوارحه»[2].

وسُئِل عن المخلّقة فقال: «المخلّقة هم الذرّ الذين خلقهم الله في صُلْب آدم، وأخَذ عليهم الميثاق، ثمّ أجراهم في أصلابِ الرجال وأرحام النساء، وَهُم الّذِين يَخْرُجون إلى الدنيا حتى يسألوا عن الميثاق. وأمّا قوله: ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فهم كلّ نَسَمةٍ لم يَخْلقُهم الله في صُلْب آدم حين خَلَق الذرّ وأخذ عليهم الميثاق، وهم النُّطف مِن العَزْل والسّقط قبل أنْ يُنْفَخ فيه الرُّوح والحياة والبقاء»[3].

وعنه عليه السلام: «أنّ النُّطفة تكون في الرَّحِم أربعين يوماً، ثمّ تصير عَلَقَةً أربعين يوماً، ثمّ تصيرُ مُضْغَةً أربعين يوماً، فإذا كَمُل أربعة أشْهُر بعث الله مَلَكَيْن خَلّاقَين فيقولان: يا ربِّ، ما نخلُقه ذكراً أمْ أُنثى؟ فَيُؤمَران، ويقولان: يا ربّ شقيّاً أمْ سعيداً؟ فيُؤمران، فيقولان: يا ربّ ما أجَلُه؟ وما رِزْقُه؟ وكلّ شيء مِن حاله، وعدّد مِن ذلك أشياء، ويكتُبان المِيثاق بين عَيْنَيه، فإذا أكْمَل الله [له] الأجَل بعثَ الله مَلَكاً فَزَجَرَه زَجْرةً، فيخرُج وقد نسي الميثاق»[4].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تَلِدُ المرأة لأقَلّ مِن سِتّة أشْهُر»[5].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن غاية الحَمْلِ بِالوَلَد في بَطْن أمّه كَمْ هِيَ، فإنّ الناسَ يقولونَ: ربما بَقِي

---

١. راجع: كنز العرفان ٢: ٢٣٥، وتفسير روح البيان ٦: ٦.
٢. الكافي ٧: ١٠/٣٤٥، تفسير الصافي ٣: ٣٦٣.
٣. الكافي ٦: ١/١٢، تفسير الصافي ٣: ٣٦٣.
٤. الكافي ٦: ٣/١٣، تفسير الصافي ٣: ٣٦٣.
٥. الكافي ٥: ٣٢/٥٦٣، تفسير الصافي ٣: ٣٦٤.

في بَطْنِها سِنِين؟ فقال: «كَذَبوا، أقصى حَدّ الحَمْل تسعة أشْهُر لا يزيد لحظةً، ولو زاد ساعة لقتل اُمّه قَبْلَ أنْ يخرُج»[١].

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ بعد ذلك مِن بطون اُمّهاتكم حال كونكم ﴿طِفْلاً﴾ ضَعِيفاً لا تقومون بأمُوركم ﴿ثُمّ﴾ سهّل في تربيتكم وأغذيتكم اُموراً ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ وكمالكم في القوّة والعقل والتمييز ﴿ومِنْكُمْ مَنْ يتوفّى﴾ ويُقبض روحه قبل بلوغ الأشَدّ أو بعده ﴿ومنكم من﴾ يَبْقى حيّاً و﴿يُرَدُّ إلى أرْذلِ العُمُرِ﴾ مِن الهَرَمِ والخَرَف.

عن الصادق عليه السلام، عن أبيه: «إذا بَلَغَ العَبْدُ مائة سَنَة، فذلك أرْذَل العُمْر»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «يعني خَمْساً وسَبْعِين»[٣]. ﴿لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ﴾ كثيرٍ ﴿شَيْئاً﴾ مِنَ الأشياء، أو مِن العِلْم، لقلّة فَهْمِه، وسخَافَةِ عَقْلِه، وغَلَبة النسيان عليه، كحاله في أوانِ طفوليّته.

ثمّ استدلّ سبحانه على قدرته على البعث بقوله: ﴿وَتَرَى﴾ أيّها الرائي ﴿الأَرْضَ﴾ أوّلاً ﴿هامِدَةً﴾ ويابِسَةً خاليةً مِن النبات ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ﴾ مِن السماء ﴿اهْتَزَّتْ﴾ وتَحَرّكَتْ بالنبات كما يتحرّك الشابّ النَّشِيط وزيّنت بالأزهار ﴿وَرَبَتْ﴾ وانتفخت ونَمَتْ ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ ونوعٍ مِن الزّرع وصنفٍ مِن الغَرْس ﴿بَهِيجٍ﴾ وذي حُسن ونَضارة ﴿ذَلِكَ﴾ الصُّنع البديع مِن خَلْق الإنسان على أطوارٍ مختلفةٍ، وإحياء الأرض بعد موتها كائن ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ والموجودُ الثابتُ لذاته الذي لا عَجْزَ له ولا فَناء ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما أمات الأحياءَ ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن بَدْءِ الخلقِ وإعادته ﴿قَدِيرٌ﴾ وإلّا لما صَدَر منه تلك التعاجيب ﴿وَأَنَّ السَاعَةَ﴾ والقيامة التي تُجزى فيها العباد ﴿آتِيَةٌ﴾ لا محالَة بمقتضى حكمته ووَعْدِه الذي لا خُلف فيه، و﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لوضوح دليلها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ إلى المحشر، فإنه لَولَا الساعة والبعث لما خَلَق الإنسانَ وما أحْيا الأرْضَ، بل لما خَلَق العالَم أصلاً، لكون خَلْقه عبثاً.

والحاصل: أنّ خَلْقَ الإنسان وإحياءَ الأرض، إنّما كان بسبب القدرة وظهور شؤون الاُلوهيّة وحقّيته في كمال صفاته، وبسبب حِكمته المقتضية لإتيان الساعة والبعث، وحقّيته في أفعاله.

وقيل: إنّ قوله: ﴿وأنّ السَّاعَةَ﴾ خبرٌ لِمُبْتَدأ مَحْذوفٍ، والتقدير: الأمْر أنّ الساعةَ آتِية[٤].

وقيل: إنّ الباء[٥] في قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ ليس للسببيّة، بل متعلّق بالفعل المحذوف[٦]،

---

١. الكافي ٦: ٣/٥٢، تفسير الصافي ٣: ٣٦٤.
٢. تفسير القمي ٢: ٧٨، تفسير الصافي ٣: ٣٦٤.
٣. مجمع البيان ٦: ٥٧٤، تفسير الصافي ٣: ٣٦٤.
٤. تفسير أبي السعود ٦: ٩٦.
٥. في النسخة: إن كلمة باء.
٦. تفسير أبي السعود ٦: ٩٦.

والتقدير: ذٰلك لتَعْلَمُوا أنّ اللهَ هُوَ الحَقّ.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى ٱللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ * ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللهِ لَهُ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[٨ـ١٠]

ثمَ أنّه تعالى بعد ذمَ أتباع شياطين الإنس ذمَّ المتبوعين بقوله: **﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى ٱللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً﴾** ودليلٍ واضحٍ **﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾** ووَحيٍ مُوضحٍ للحَق.

وقيل: إنّ الآية السابقة نزلت في النَضْر بن الحارث، وهذه الآية نزلت في أبي جهل[١].

وعن ابن عباس: هذه الآية أيضاً نزلت في النَّضْر[٢]، ويكون التكرير للمبالغة في الذمَ[٣].

وقيل: إنّ المراد بالعِلْم العِلْمُ الضروري، وبالهُدى العلم النظري والاستدلالي، وبِالكِتابِ المُنِير الدليل السمعي[٤]، ويُحتَمل أنْ يكونَ المراد بالعِلْمِ العلم الكَشْفي، وبالهُدى البرهان العَقْلي، وبالكتاب الوحي السماوي.

ثمَ أنّه تعالى بعد ذَمهم بضلالة أنفسهم ذَمَّهم بالتكبُّر وإضْلال الناس بقوله: **﴿ثَانِىَ عِطْفِهِ﴾** تَكبّراً، ولاوي عُنقه وكَتِفه تعظّماً، ويكون جِداله **﴿لِيُضِلَّ﴾** النّاس ويَحرِفهم **﴿عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾** ودين الإسلام.

ثمَ هدَدهم بقوله: **﴿لَهُ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾** وهَوانٌ وذُلٌ وفضيحةٌ **﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَذَابَ﴾** النار **﴿الحَرِيقِ﴾** أو العذاب المُحرِق، ويقال له: **﴿ذٰلِكَ﴾** المذكور مِن الخزي في الدنيا والعذاب الحريق في هذا اليوم هو ما تستحقّه **﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾** واكتسبته بسعيك مِن الكفر والمعاصي **﴿وَ﴾** الأمر **﴿أَنَّ ٱللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾** بل هم ظالمون على أنفُسهم.

قيل: إنّ ذِكْر (ظَلَام) المتضمّن للكثرة في موقع لفظ الظُّلم للتنبيه على أنّ قليلَ الظلم منه تعالى كثيرٌ، أوْ باعتبار كثرة العبيد[٥].

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ[١١]

ثمَ أنّه تعالى بعد ذمَ المتجاهرين بالكفر المصرّين عليه، ذمّ المنافقين المُبْطِنين لِلْكُفْر المُظْهِرين لِلإسلام بقوله: **﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللهَ﴾** ويتديّن بدينه **﴿عَلَى حَرْفٍ﴾** وطَرَف واحدٍ مِن الدّين

---

١ ـ٣. تفسيرالرازي٢٣: ١١. ٤. تفسيرالرازي ٢٣: ١١. ٥. تفسير روح البيان ٦: ١٠.

وهو لسانه، لا على وسطه وهو قلبه، وهو كناية عن قَلَقه وَاضْطِرابه في الدين، فهو كالذي يَقُوم على طَرَف الجَيْش ليسهُل عليه الفِرار، إنْ أحَسّ بِشَرٍّ فَهُو لا سُكُونَ له ولا طُمَأنينَة ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ مِن سَعةٍ[١] وراحة ﴿ٱطْمَأَنَّ﴾ بسبب ذلك الخير وسكن ﴿بِهِۦ﴾ في الدين، وثبت على ما كان عليه مِن الإيمان الظاهريّ اللّساني ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ وبليَةٌ مِن شَرٍّ ومكروهٍ يَعْتَريه في نفسه أو أهله أو ماله ﴿ٱنقَلَبَ﴾ وَانْصَرَف ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ وطريقه السابق مِن الكُفْر، ورَجَع إلى ما كان عليه مِن الضَلال ﴿خَسِرَ﴾ وفَقَد ﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ وذهبتا مِن يَدِه وتضرَّر فيهما بضياع مقصوده في الدنيا مِن العِزّ والسلامة وسائر المنافع والتمتّعات وفوات غرضه في الآخِرة مِن نَيْل الثواب والسَّلامة مِن العقاب ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخُسران ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ والضَّرر الواضحُ عِند العُقَلاء، إذْ لا خُسرانَ أعْظَم منهُ.

عن ابن عباس: نزلت في أعرابٍ كانوا يَقْدُمون على النبيّ ﷺ بالمدينة مهاجرين مِن باديتهم، فكان أحدهم إذا صحّ [بها] جِسْمه، ونَتَجت فرسه مُهراً حَسَناً، وولدتْ امرأته غلاماً، وكَثُر ماله وماشيته، رضي بِالدِّينِ وَاطمَئنَّ إليه، وإن أصابه وَجَعٌ، وولدتْ امرأته جارية، أو أجهضتْ رِماكه[٢]، وذهب ماله، وتأخَرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان وقال له: ما جاءتك هذه الشّرور إلّا بسبب هذا الدّين، فَيَنْقَلِبُ عَن دِينه[٣].

وقيل: نزلت في المؤلّفة قلوبهم، منهم: عُيَيْنَة بن بدر، والأقرع بن حابس، والعبّاس بن مِرْداس، قال بعضهم لبعض: ندخُل في دين محمّد، فإن أصَبْنا خيراً عَرَفنا أنّه حقّ، وإنْ أصبنا غيرَ ذلك عَرَفنا أنّه باطِل[٤].

وقيل: أسلم رجلٌ مِن اليهود، فذهب بَصَره ومالُه وولده، فقال: يا رسول الله أقِلني، فإنّي لم أصب مِن ديني هذا خيراً، ذهب بَصَري وولدي ومالي. فقال ﷺ: «إنّ الاسلامَ لا يُقال، إنّ الإسلامَ لَيَسْبِكُ كما تَسْبِك النارُ خَبَثَ الحديد والذَّهَب والفِضّة» فنزلت هذه الآية[٥].

عن الباقر عليه السلام قال: «هم قومٌ وحّدوا الله، وخَلَعوا عبادة مَن يُعْبَد مِن دُونِ الله، فخرجوا مِن الشِّرك ولم يَعْرِفوا أنّ محمّداً ﷺ رسول الله، فَهُم يَعْبُدونَ الله على شكّ في محمّدٍ وما جاء به، فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا: نَنْظُر، فَإنْ كَثُرتْ أموالنا وعُوفينا في أنْفُسِنا وأولادنا، عَلِمْنا أنّك صادقٌ، وأنّك رسول الله، وإنْ كان غيرُ ذلك نَظَرْنا. قال الله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ يعني عافيةً في الدنيا ﴿وَإِنْ

---

١. في النسخة: وسعة. ٢. الرِماك: جمع رَمَكة، وهي الفرس أو البِرذَونَة تُتخذ للنسل.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ١٣. ٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٣: ١٣.

أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ يعني بَلاء في نَفسه ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أي انْقَلَب عَلَى الشِّرك»[١].

يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ * يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ * إِنَّ ٱللهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ إِنَّ ٱللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ[١٢ـ١٤]

ثمَ ذمَ سبحانه العابد على حَرْفٍ على شِركه المُضْمَر بقوله: ﴿يَدْعُوا﴾ ذلك الضالّ في الباطِن ويَعْبُد ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وممّا سواه ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ إنْ لَم يَعْبُده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُ﴾ إنْ عَبَدَه ﴿ذٰلِكَ﴾ الدُّعاء ﴿هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عَنِ الحقّ والصواب بحيث لا يُرجىٰ هدايته، لِوُضوح أنَ الجَمادَ لا يَلِيقُ بالدعاء ولا يَجِيىءُ منه الضَّرَر والنفع.

ثمَ بالغ سبحانه في تَقْبِيح عَمَلِهم وتَسْفِيه أحلامِهم بقوله: ﴿يَدْعُو﴾ ذلك الأحْمَقِ الغَبِيّ ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ﴾ بسبب عبادته ودُعائه الموجب للقتل والخِذلان في الدنيا، والعذاب بالنّار في الآخرة ﴿أَقْرَبُ﴾ إليه ﴿مِنْ نَفْعِهِ﴾ المُتوقَّع مِن عبادته بِزَعْمِهم مِن الشفاعة والقُرْبِ مِن الله، واللهِ ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ والناصر ذلك المعبود ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ والصاحب، وإنّما ذَكَر كلمة (مَنْ) في قوله: ﴿لَمَنْ﴾ في مورد كلمة (ما) وصيغة التفضيل مُماشاةً للمشركين المنزّلين للأصنامِ منزلةَ العُقلاء، والقائلين بأنّها الضارّات النافعات.

ثمَ أنّه تعالى بعد ذمّ الأصنام، وأنّها لا تنفع ولا تضرّ، بيّنَ نفعه بالمؤمنين وتفضّله عليهم بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ في الآخرة ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ووحدانيّته ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ بلُطفه وتفضّله ﴿إِنَّ ٱللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ مِن إثابة الموحّدين وتَعْذِيب المُشركين لا دافعَ لها ولا مانع.

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ[١٥]

ثمَ لمّا بيّن تفضّله على المؤمنين[٢]، بيّن لطفه بنبيّه ﷺ وتفضّله عليه بنصرته بقوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ﴾ ويتوهّم في حقّ محمّد ﷺ ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بإعلاءِ دِينه، وقَهْر أعدائه، ﴿وَ﴾

---

١. الكافي ٢: ٢/٣٠٣، تفسير الصافي ٣: ٣٦٦.
٢. في النسخة: تفضّله بالمؤمنين.

في ﴿الْآخِرَةِ﴾ بإعلاءِ دَرَجَته ودَرَجة المؤمنين به، والانتقام مِن مُعارضيه ومُكَذّبيه، ويُغيظه ما يرى من خلاف ما توهَمه ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ وليَرْبِط عُنُقَه ﴿بِسَبَبٍ﴾ وحبلٍ ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ المُطِلّة، أو سَقْفِ بَيْته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك الحبل فيسقُط على الأرض ويموت، أو ليقطع نَفْسَه ويَخْتَنِق ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ وليتصوّر في نَفْسِه ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ﴾ ويُزيلنّ ﴿كَيْدُهُ﴾ وتدبيره وفِعْله ذلك بنفسه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ مِن نُصرة الله لمحمّد ﷺ؟ كلّا، لا يقدِر على دَفْع نُصْرَةِ الله له وإنْ أهْلَك نفسَه مِن شدّة غضبه؛ لأنّ الله لا يُعجِزه شيءٌ عن إنفاذِ إرادته.

قيل: كان قومٌ مِن المسلمين لشدّة غَيظهم على المشركين يَستَبطئون ما وَعَد الله رسوله مِن النصر، فنزلت[1].

وقيل: إنّ أعداءه كانوا يتوقّعون أنْ لا يَنْصُره الله، فلمّا شاهَدوا أنّ اللهَ نَصَرهُ غاظَهُم ذلك، فنزلت[2].

وحاصل المعنى أنّه تعالى ناصِرُ رسوله لا محالة، فَمَن كان يُغيظه ذلك أنْ لن يفعله تعالى بسبب مدافعته فَلْيُبالِغ في الجِدّ في دفعه، فقُصارى أمْره وعاقبة مَكْره أن يختنق مِمّا يَرى مِن بُطلان سَعْيه في ذلك.

وقيل: إنّ المراد فليَمْدُد حبلاً إلى السماء المُطِلّة وليصعد عليها، ثمّ ليقطع الوحي، أو فليقطع نصر الله لنبيه ﷺ[3].

وقيل: إنّ ضميرَ (لَن ينْصُره) راجِع إلى الموصول، والمرادُ مِن النّصرة الرزق، والمعنى مَن كان يَظُنّ أنْ لَن يرزُقه الله في الدنيا والآخرة، ولذا يَعْدِل عَن التمسّك بدين محمّد ﷺ، فليُبالِغْ في الجَزَع، وغايته الاختناق، فَإنّ ذلك لا يقلِب القِسمة ولا يجعله مرزوقاً[4].

عن مقاتل: أنّها نزلت في نَفَرٍ مِن أسد وغَطفان، فإنّهم قالوا: نخاف أنْ لا ينصُر الله محمّداً، فينقطع الذي بيننا وبين حُلفائنا مِن اليهود، فلا يَميرُونَنا[5].

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [١٦ و ١٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حال المشركين والمؤمنين وعدم قدرة أحَد على المنع مِن إنفاذِ إرادته بِأبْلَغ

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٣: ١٦.
٣. تفسير الكشاف ٣: ١٤٨.
٤. مجمع البيان ٧: ١٢١.
٥. تفسير الرازي ٢٣: ١٦.

بيان، بيَن أنّ جميعَ القُرآن في البيان في درجة الإعجاز بقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ الإنزالِ البديع المنطوي على الحِكَم البالغة في هذا القرآن ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ كلَه حال كون جميعه ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ والبيانات البالغة حدَ الإعجاز الواضحات الدلالة على المعاني الرائقة اللطيفة مَعَ غايةِ الإيجاز ﴿وَأَنَّ ٱللهَ يَهْدِى﴾ به إلى الحقّ والدرجات العالية في الدنيا والآخرة ﴿مَنْ يُرِيدُ﴾ هدايته إلَيها.

قيل: إنّ التقدير وَلأنّ الله يَهدي مَن يُريد أنزله كذلك، أو الأمْرُ أنّ اللهَ يَهْدِي، إلى آخره[1].

في الحديث: «أنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهذا الكِتابِ أقواماً، وَيَضَعُ بِه آخرين»[2].

ثمَ بيَن الله الفِرقة المهديّة والفِرَق الضُّلال، وأخْبَرَهُم بإعطاء كلٍّ منهم ما يستحقّه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِما يَجِبُ الإيمان به ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وَاتَّخَذُوا المِلَّة اليهوديّة ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ وعَبَدَة الملائكة والكواكب الخارجين عَن الأديان كُلّها، وقيل: هُم المُتديّنون بدِين نُوح[3] ﴿وَالنَّصارىٰ﴾ الّذِينَ اخْتارُوا دِينَ المسيح ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾ الذين عَبَدُوا النّار ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وعَبَدُوا الأصنام ﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ﴾ ويَقْضِي ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ﴾ بإثابَة المؤمنين، وتعذيب الفِرَق الخَمْس الأُخر المتفقين عَلَى الكُفْر، ولا تخفى عليه بَواطِنهم وظَواهِرهم ومِقدار استحقاقهم وما يستحقُّون، بل ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن خفيّات عوالم المُلك والملكوت وجليّاتها ﴿شَهِيدٌ﴾ وبِهَا عَليم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِن مُكْرِمٍ إِنَّ ٱللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ[١٨]

ثمَ بيّن سبحانه ما يوجب الفصل بينهم مِن التوحيد والشِّرك والخُضوع لله والاستنكاف منه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم تعلم أيُّها الَّذِي مِن شأنك العلم ﴿أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ﴾ ويخضع ﴿لَهُ﴾ وحده ويَنْقاد لِحُكْمِه طَوعاً أو كَرهاً ﴿مَنْ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ مِن الملائكة ﴿وَمَنْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن الثَّقلَين ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَابُّ﴾ كالوُحُوش والطيور ونظائرهما ﴿وَ﴾ يسجُد له ﴿كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ سجودَ طاعةٍ وعبادةٍ، أو يوحّده: كما عن ابن عباس[4]. أو في الجَنَّة، أو حقّ لَه الثواب ﴿وَكَثِيرٌ﴾ منهم ﴿حَقَّ﴾ وثبَت ﴿عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ بِكُفْره وإشراكه وعِصيانه ﴿وَمَنْ يهِنِ اللهُ﴾ ويُشقيه بِخِذلانه وتَعْذِيبه ﴿فَمَا لَهُ مِن مُكْرِمٍ﴾ يُكرِمُه بإسعاده وإثابته ﴿إِنَّ اللهَ﴾ وَحْدَه هو الذي

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ١٠٠.
٢. تفسير روح البيان ٦: ١٤.
٣. تفسير روح البيان ٦: ١٥.
٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠.

﴿يَفْعَلُ مَا يَشاءُ﴾ مِن الإكرام والإهانة وغيرهما.

هٰذَانِ خَصْمانِ ٱخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِـن نَّـارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ[١٩ـ٢٢]

ثمَ أنَه تعالى بعد ذِكْر فرقة المؤمنين وفرقة الكفّار المنقسمة إلى خَمْس فِرَق، بَيَّن ما فيه اختلافهم وكيفيّة الفصل بينهم بقوله: ﴿هَذٰانِ﴾ الفريقان ﴿خَصْمَانِ﴾ متنازعان، الذين ﴿اخْتَصَمُوا﴾ وتَنازَعوا ﴿فِى﴾ ذاتِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ وصفاته كما عن ابن عبّاس[١]. أو في دِينهِ المَرْضِيَ عِنْده، وإنّما كان تخاصمهم [يتمثّل في] بناء أقوالهم وأفعالهم على ما كانوا يَعْتَقِدُون، وإنْ لَمْ يَجْرِ بينهما تَحاوُر.

قيل: تخاصمت اليهود والمؤمنون فقالت اليهود: نَحْنُ أحقّ بالله، لأنّ كتابنا أقدَم[٢]، ونبيّنا قَبْلَ نبيّكم. وقال المؤمنون: نحن أحقّ بالله، لأنّا آمنّا بمحمّد ﷺ وبنبيّكم، وبما أنزل الله مِن كِتاب، وأنْتُم تَعْرِفُون كتابنا ونبيّنا، ثمّ كفرتم به حسداً، فنزلت[٣].

ورُوي أنّ تلك المحاجّة كانت بين عامّة أهل الكتابِ والمؤمنين[٤].

ورُوي أنّ أبا ذرّ رضوان الله عليه كان يَحلِف بالله على أنّ الآية نزلت في سِتّة مِن قريش تبارزوا يوم بَدْر: حمزة، وعلي، وعبيدة، وعُتبة، وشَيبة، والوليد. وقال عليّ عليه السلام: «أنَا أوّل مَن يَجْثُوا لِلخصُومَة بَيْنَ يَدَي الله تعالى يوم القيامة»[٥].

وقيل: إنّ الخَصمين الجنّة والنار؛ قالت النار، خَلَقَنِي الله لعقوبته، وقالت الجَنّة: خلقني الله لرحمته، فقصّ الله خبرهما لنبيّه ﷺ[٦].

وعن الحسين بن علي عليهما السلام قال: «نحن وبنو اُميّة، قلنا: صدق الله ورسوله، وقالت بنو اُميّة: كذب الله ورسوله، فنحن الخصمان يوم القيامة»[٧].

وأمّا كيفيّة الفصل ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنَ الفِرَق ﴿قُطِّعَتْ﴾ وقُدّرت ﴿لَهُمْ﴾ على مقادير جُثّتِهم ﴿ثِيابٌ مِن نَّارٍ﴾ يَلْبَسونها.

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢١.

٢. في تفسير أبي السعود: وأقدم منكم كتاباً.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ١٠١.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢١.

٥ و٦. تفسير الرازي ٢٣: ٢١.

٧. الخصال: ٣٥/٤٢، تفسير الصافي ٣: ٣٦٨.

وقيل: شبّه الله إحاطة النّار بهم بإحاطة الثياب بلابسها[1].

وعن سعيد بن جبير: أي مِن نُحاسٍ اُذيب بالنّار[2].

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ والماء الحارّ المتناهي في الحرارة. عن ابن عباس: لو قطرت قطرة منه على جبال [الدنيا] لأذابها[3]. ﴿يُصْهَرُ﴾ ويُذاب ﴿بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ مِن الأحشاء والأمعاء ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ فتأثيره في بواطنهم كتأثيره في ظواهر[هم].

القمي قال: تشويه النار، فتسترخي شَفَته السُّفلى حتى تبلُغَ سُرّته، وتتقلّص شَفَته العُليا حتى تبلُغَ وسط رأسه[4]. ﴿وَ﴾ أعدّ ﴿لَهُمْ مِقامِعُ﴾ وأعمِدَة كما قال القمي[5]. أو سِياط ﴿مِنْ حَدِيدٍ﴾ مُحماة.

عن النبيّ ﷺ قال: «وَلَهُمْ مَقامِع مِن حَديدٍ لَو وُضِعَ مَقْمَع مِن حديد فِي الأرض ثُمّ اجْتَمَع عليه الثَّقَلان ما أقلوه مِن الأرض»[6].

﴿كُلّما أرادُوا﴾ وأيّ وقتٍ أشرفوا على ﴿أنْ يَخْرُجُوا مِنها﴾ ويتخلّصوا ﴿مِن غَمٍّ﴾ مِن غُمومها الشديدة التي تُصِيبهُم فيها، بأنْ يضربهم لَهَبها فيرفعهم إلى أعاليها ﴿أُعِيدُوا فِيها﴾ ورُدّوا مِن أعاليها إلى أسافلها بِضَرْبِ الأعْمِدَة على رؤوسهم ﴿وَ﴾ قيل لهم: ﴿ذُوقُوا﴾ وأطعموا ﴿عَذابَ الحَرِيقِ﴾ وألَمَ النار البالغة في الأحراق، أو ألَم الغليظ مِن النّار.

عن الصادق عليه السلام في رواية: «أنّ أهل النّارِ [يُعظّمون النار، وإنّ] أهـل الجَـنّة [يـعظّمون الجَـنّة] والنعيمَ، وإنّ أهل جهنّم إذا دخلوها هَوَوْا فيها [مسيرة] سبعينَ عاماً، فإذا بَلَغُوا أعلاها قُمِعوا بِمَقامِع الحديد وأُعِيدُوا في دَرَكِها، هذه حالُهم، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ثمّ تُبدّل جُلُودهم غيرَ الجلودِ التي كانت عليهم»[7] الخبر.

إِنَّ ٱللهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُوا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْحَمِيدِ[٢٣ و ٢٤]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه قضاءه في حقّ الكفّار وَسُوء حالهم في الآخرة، بيّن قضاءه في حقّ المؤمنين وحُسْن حالهم فيها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ فعظّم اللهُ شأنَهم بإسناد إدخالهم الجَنة إلى نَفْسه، ثمّ بيّن ما أعَدّ للمؤمنين بدل ما أعدّ للكفّار

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ١٠١، تفسير روح البيان ٦: ١٨.
٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢، تفسير أبي السعود ٦: ١٠١.
٤ و ٥. تفسير القمي ٢: ٨٠، تفسير الصافي ٣: ٣٦٨.
٦. مجمع البيان ٧: ١٢٤، تفسير الصافي ٣: ٣٦٨.
٧. تفسير القمي ٢: ٨١، تفسير الصافي ٣: ٣٦٩.

مِن المَقامِع بقوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ ويُزيّنون ﴿فِيهَا﴾ بأمر الله وتصدّي الملائكة ﴿مِنْ أساوِرَ﴾ كائنة ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ أحْمَر على ما قيل[١] ﴿وَ﴾ يُحَلَّون ﴿لُؤْلُؤاً﴾ لتزيُّنهم.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان لباس الكفّار في جهنّم، بيّن لباس المؤمنين في الجنّة بقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وثوبٌ مِن إبْرِيسَم مَحْض، وإنّما غيّر الأسْلُوبَ، حيث لَمْ يَقُل: ويَلْبَسُونَ حريراً، إشْعارٌ بأنَّ لباسهم أمْرٌ غنيّ عَن البَيانِ، وإنّما المحتاجُ إلى البيان تَعْيينُ جِنْسه ﴿وَهُدُوا﴾ فيها ﴿إِلَى الطَّيِّبِ﴾ والأحْسن ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾ كقول: الحَمْدُ لله الَّذي هدَانَا لِهذا، وقوله: الحَمْدُ للهِ الَّذي أذْهَبَ عَنَّا الحَزَن، وقوله: الحَمْدُ للهِ الَّذي صَدَقَنا وَعْدَه، كما عن ابن عباس[٢].

وقيل: هو البشارةُ التي تأتيهم مِن قِبَل الله[٣].

وقيل: يعني هُدُوا فِي الدُّنيا إلى القَوْل الطيّب، وهو شهادة أن لَا إله إلّا الله[٤].

وقيل: هو القرآن[٥].

﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ والطَّرِيق المَحْمُود نَفْسه أو عاقِبَته. وقيل: إنّ الصِّراط هو الإسلام، والحَمِيد هو اللهُ المستحقُّ للحَمْد بذاته، وإنّما أخَّر هذه الهداية عن الهداية إلى القول الطيّب مع تقدّمها عليها رعايةً للفواصل[٦].

عن الصادق عليه السلام - في هذه الآية - قال: «ذاكَ حَمْزةُ وجَعْفَرُ وعُبَيْدَةُ وسَلْمانُ وأبو ذرّ والمِقْدادُ بنُ الأسْوَد وعَمّارُ، هُدُوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام»[٧].

وعن الباقر عليه السلام: «هُوَ واللهِ هذا الأمْرُ الذي أنتم عَلَيْهِ»[٨].

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ[٢٥]

ثُمَ أنّه تعالى بعد بيان قضائه في حقّ الكفّار وشِدَّة عذابهم، ذَكَر أعْظَم جرائمهم بعد الكُفْر بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ باللهِ ورَسُوله ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ويَمْنَعُونَهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ والدخول في دِينه وطاعته وَالهِجْرَة إلى رسوله ﴿وَ﴾ عَن دُخُول ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وطواف البيت فيه، مع أنّه المكان ﴿الَّذِى جَعَلْنَاهُ﴾ وصَيَّرناه معبداً ﴿لِلنّاسِ﴾ كائناً مَن كان ﴿سَواءً العاكِفُ﴾ والمُقِيم ﴿فِيهِ

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٠.
٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢، تفسير أبي السعود ٦: ١٠٢، ولم ينسبه إلى ابن عباس. ٣-٥. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢.
٦. تفسير أبي السعود ٦: ١٠٢. ٧. الكافي ١: ٧١/٣٥٢، تفسير الصافي ٣: ٣٧٠.
٨. المحاسن: ١٣٣/١٦٩، تفسير الصافي ٣: ٣٦٩.

﴿وَٱلْبَادِ﴾ والمُسافِر البَعِيد إليه مِن حيث السُّكْنىٰ والطُّواف والتَّعبُّد.

عن ابن عباس: نَزَلَت الآية في أبي سُفيان بن حَرْب وأصحابه حين صَدُّوا رسول الله ﷺ عام الحُدَيبية عَن المَسجد الحرام، وأنْ يَحُجَ ويَعْتَمر ويَنْحَر الهَدْيَ، فكَرِه رسولُ الله ﷺ قتالهم، وكان مُحْرِماً بِعُمْرة، ثمَ صالحوه على أنْ يعودَ في العامِ القابِل[١].

وعنه أيضاً: أنَهما يَسْتَوِيانِ في سُكنى مكَة والنزول بِها، فَلَيْسَ أحَدُهما أحَقّ بالمَنْزِل الَّذِي يَكونُ فيه مِنَ الآخَر إلّا أنْ يكونَ واحِدٌ سَبَقَ إلى المنزل»[٢].

وعن النبي ﷺ: «مكَة مباحٌ لِمَن سَبَق إلَيها»[٣].

القمي: نَزَلَت في قُرَيش حِينَ صَدُّوا رسولَ الله ﷺ مِن مكَة، وقوله: ﴿سَوَآءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ قال: أهلُ مكَة ومَنْ جاء [إليهم] مِن البُلْدان، فَهُم فيه سَواء، لا يُمْنَع مِن النُّزُولِ وَدُخُول الحَرَم[٤].

في (نهج البلاغة) - في كتابٍ كَتَبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى قُثَم بن عبّاس، وهو عاملُه على مكَة -: «[ومُرْ أهل مكَة] أنْ لا يأخُذوا مِن ساكن أجْراً، فَإنَّ اللهَ يقول: ﴿سَوَآءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ فَالعاكِفُ المُقِيمُ بِهِ، والبادِي الَّذِي يَحُجُّ إلَيه مِن غَيْر أهْله»[٥].

وعنه عليه السلام أنَه كَرِه إجارة بُيُوت مكَة[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «أوَل مَن علَق على بابه المِصْرَاعين بمكَة معاوية، فَمَنَع حاجَ بيت الله، وَقَدْ قالَ اللهُ عزَ وجلَ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾، وكانَ النَّاسُ إذا قَدِمُوا مكَة نَزَلَ البادِي عَلَى الحاضِر حتى يَقْضِي حجَه» الخبر[٧].

وعنه عليه السلام في هذه الآية: «لم يَكُنْ يَنْبَغي أنْ يُوضَع على دُورِ مكَة أبواب، لأنَ لِلْحُجّاجِ أنْ يَنْزِلُوا مَعَهم في دُورِهِم في ساحَةِ الدَّارِ حتى يَقْضُوا مَناسِكَهم، وإنَ أوَل مَن جَعَل لِدُورِ مكَة أبواباً معاوية»[٨].

ثمَ بيَن سبحانه حُرْمَة المسجد بقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ مُراداً ﴿فِيهِ﴾ حال كونه متلبّساً ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ وعُدُول عن القصد ملْتَبِساً ﴿بِظُلْمٍ﴾. وقيل: إنَ المرادَ مَن يُرِد أنْ يأتي فيه بإلحادٍ، وهو الشرك بالله، كما عن ابن عبّاس[٩].

رُوي أنَ الآية نزلت في عبدالله بن سعد حيث استسلمه النبيّ ﷺ فَارْتَدَّ مُشْركاً، وفي قيس بن ضَبابة[١٠].

وعن مقاتل: نزلت في عبدالله بن خَطَل حين قَتَل الأنصارِي وهَرَب إلى مكَة كافِراً، فأمَر النبي ﷺ

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢٣.
٢ و٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٤.
٤. تفسير القمي ٢: ٨٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧١.
٥. نهج البلاغة: ٤٥٨ كتاب ٦٧، تفسير الصافي ٣: ٣٧١.
٦. قرب الإسناد: ٤٩٨/١٤٠، تفسير الصافي ٣: ٣٧١.
٧. الكافي ٤: ١/٢٤٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧١.
٨. علل الشرائع: ١/٣٩٦، تفسير الصافي ٣: ٣٧١.
٩ و١٠. تفسير الرازي ٢٣: ٢٥.

بقتله يوم فتح مكّة[1].

وقيل:إنّه قَتل ما نَهى اللهُ عنه مِن الصَّيْد[2].

وقيل: إنّه دُخُول مكّة بِغَير إحرام وارتكاب ما لا يحلّ للمُحْرِم[3].

وقيل: إنّه الاحتكار[4].

وقيل: إنّه المَنْع مِن عِمارته[5].

وقيل: هو قول الرجل: لا واللهِ، وبَلى والله[6].

وقيل: عامٌ في كلّ المعاصِي[7].

وعن ابن مسعود: لو أنّ رجلاً بعدن همّ بأنْ يعملَ سيّئةً عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً[8].

ويُحتمل أن يكونَ المرادُ مَن يُرِد فيه مراداً عادلاً عَنِ القَصْدِ بسبب ارتكابِه الظُّلم على نَفْسه أو غَيْرِه ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فالواجِبُ على مَنْ كان فيه أنْ يضبِط نَفْسَه ويسلُكَ طَرِيقَ السَّداد والعَدْل في جميع ما يهُمّ به ويقصِده.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «مَن عَبَد فيه غيرَ الله وتولّى فيه غير أولياء الله، فهو مُلحِد بِظلمٍ، وعَلَى الله تبارك وتعالى أنْ يُذِيقَه مِن عذابٍ أليم»[9].

وعنه عليه السلام فيها: «كلُّ ظُلمٍ إلحادٌ، وضربُ الخادِمِ مِن غَيْر ذَنْبٍ مِن ذلكَ الإلحاد»[10]، وسئل عن أدنَى الإلحادِ فقال: «إنّ الكِبْرَ أدناه»[11].

وعنه عليه السلام: «كُلُّ ظُلْم يَظْلِم به الرجلُ نَفْسَه بمكّة مِن سَرِقَة أو ظُلْم أحَدٍ أو شيءٍ مِن الظُّلم، فإنّي أراه إلحاداً، وَلِذلك كان يَنْهى عَن أنْ يُسكَن [الحرم]»[12].

وعنه عليه السلام: أنّه قيل له: إنّ سَبُعاً مِن سِباع الطَّيْر على الكعبة، ليس يمُرّ به شيءٌ مِن حَمام الحَرَم إلّا ضَرَبَه؟ فقال: «انْصِبُوا لَه وَاقْتُلُوه، فإنّه قَد أَلْحَدَ في الحَرَم»[13].

وعنه عليه السلام قال: «نزلت فيهم حيث دخلوا الكعبة فتعاهَدُوا وتعاقَدُوا عَلَى كُفْرِهِم وجُحودهم بما نزل في أمير المؤمنين عليه السلام، فَأَلْحَدُوا في البيت بِظُلْمِهم الرسول ووليّه فَبُعْداً للقَوْمِ الظّالِمين»[14].

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ

---

١ ـ٨. تفسير الرازي ٢٣: ٢٥.
٩. الكافي ٨: ٥٣٣/٣٣٧، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.
١٠. الكافي ٤: ٢/٢٧٧، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.
١١. الكافي ٢: ١/٢٣٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.
١٢. الكافي ٤: ٣/٢٢٧، علل الشرائع: ١/٤٤٥، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.
١٣. الكافي ٤: ١/٢٢٧، علل الشرائع: ٤/٤٥٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.
١٤. الكافي ١: ٤٤/٣٤٨، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.

وَٱلْقَائِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ[٢٦]

ثمّ ذكر سبحانه جملةً مِن تشريفات البيت الحرام بقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ وبيّنا ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أنْ يبني ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ وقيل:إنّ المعنى اذكُر وقت جعلنا مكان البيت مَباءةً ومَرْجِعاً لإبراهيم عليه السلام يَرجِع إليه للعِمارة والعِبادة[١].

وقلنا له: ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى﴾ يا إبراهيم في العبادة وعمل العمارة ﴿شَيْئاً﴾ مِن الأشياء، وغرضاً مِن الأغراض ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ بعد بنائه مِن الأوثان والأقْذار ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ به ﴿وَٱلْقَائِمِينَ﴾ العاكِفين فيه ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

عن ابن عباس قال: للطّائفين بالبَيْت مِن غَيْرِ أهل مكّة، والقائمين أي المُقيمين بها، والرُكّع السجود أي مِن المُصَلّين[٢].

وقيل: إنّ المراد مِن الأوصاف الثلاثة المصلّون؛ لأنّ الصلاةَ جامِعَةٌ للقيام والرُكوع والسُجود[٣].

وعن الصادق عليه السلام قال: «إنّ اللهَ يقول: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْقَائِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فينبغي للعَبْد أنْ لا يدخُلَ مكة إلّا وهو طاهِرٌ قد غَسَل عَرقَه والأذى وتطهّر»[٤].

قيل: لعلّه كان ذلك المكان صحراء، وكانوا يَرْمُون إليها الأقْذار، فأمر إبراهيم عليه السلام ببناء البيت في ذلك المكان، وتطهيره مِن الأقذار، أو كان معموراً، وكانوا قد وَضَعوا فيه الأصنام، فأمرهُ الله بتخريبه ووَضْع بناء جديد[٥].

وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[٢٧]

ثمّ أوحَى الله إليه بعد إتمام البيت بقوله: ﴿وَأَذِّن﴾ يا إبراهيم ﴿فِى ٱلنَّاسِ﴾ وأعْلِمْهم ﴿بِالْحَجِّ﴾ فَإذا أذَّنْتَ فيهم ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾ ومُشاةً عَلى أرْجُلِهم ﴿وَ﴾ رُكباناً ﴿عَلى كُلِّ ضامِرٍ﴾ وبَعيرٍ مَهْزُولٍ مِن بُعْدِ المَسِير ﴿يَأْتِينَ﴾ إلى هذا البيتِ ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ﴾ وطريقٍ واسعٍ، أو طريق بَيْنَ الجَبَلَين ﴿عَمِيقٍ﴾ وبعيدٍ منحدرٍ إلى السُّفل[٦].

روي أنّ إبراهيم عليه السلام لمّا فرغ مِن بناء البيت قال الله تعالى له: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ قال: يا

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢٦.
٢ و٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧.
٤. الكافي ٤: ٤٠٠/٣، التهذيب ٥: ٩٨/٣٢٢، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.
٥. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧.
٦. السُّفل: نقيض العلو.

ربّ، وما يَبْلُغُ صَوْتي؟ قال تعالى: عليك الأذان وعَلَيّ البَلاغ، فصَعِد إبراهيم عليه السلام عَلَى الصَّفا[١]. وفي رواية: على أبي قُبَيس[٢]. وفي أُخرى: على المَقام[٣]؛ فارتفع المَقام حتى صار كطُول الجِبال، فأدخَلَ إصْبَعَيْه في أُذُنَيه، وأقْبَل بوجهه يميناً وشِمالاً وشَرْقاً وغَرْباً وقال: أيُّهَا النّاسُ، ألا إنّ ربَّكم قد بنى بيتاً، وكَتَب عليكم الحَجَّ إلى البيتِ العَتِيقِ، فَأَجِيبُوا ربّكم، وحجُّوا بيته الحرام، ليُثيبكم به الجنّة، ويُجِيركم مِن النّار.

وفي رواية: قال إبراهيم عليه السلام كيف أقولُ يا جَبْرَئيل؟ قال جَبْرَئيل: قُل لَبَّيك أللّهم لَبَّيك، فَهُوَ أوّل مَن لَبّى[٤].

وفي رواية أُخرى قال: إنّ الله يدعُوكُم إلى حجّ البيت الحرام ليُثيبكم به الجنّة، ويُخرِجكم مِن النّار، فأجابَه يومئذٍ مَن كانَ في أصلابِ الرِّجال وأرحامِ النساء، وكُلُّ مَن وَصَلَ إليه صَوتُه مِن حَجَرٍ أو شَجَرٍ أو مَدَرٍ أو أكَمَة أو تُراب[٥].

وفي رواية: فَسَمِعَه أهل ما بين السماء والأرض، فَما [بقي شيءٌ] سَمِع صوته إلّا أقْبَل يقولُ: لَبّيك اللّهمّ لَبّيْك، فأول مَن أجاب أهلُ اليمن، فَهُمْ أكْثَر النّاسِ حَجّاً[٦].

وقال مجاهد: مَن أجاب مَرّةً حجّ مَرّةً، وَمَنْ أجابَ مَرَّتَيْنِ أوْ أكْثَر يَحُجُّ مَرَّتَين أو أكْثَر بذلك المِقدار[٧].

وعن ابن عباس: لمّا أُمر إبراهيم عليه السلام بالأذانِ تواضَعَت لَهُ الجِبال وخَفَضَتْ، وارتفعت له القُرى[٨].

وعن الصادق عليه السلام قال: «لمّا أُمِر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببناء البيت، وتَمّ بناؤه، قَعَد إبراهيم عليه السلام على رُكْنٍ ثُمّ نادى: هَلُمّ الحجّ، هلمّ الحجّ، فلو نادى: هلمُّوا إلى الحجّ، لم يَحُج إلّا مَن كان [يومئذٍ] إنْسِيّاً مخلوقاً، ولكن نادىٰ: هَلُمَّ الحجّ، هَلُمَّ الحجّ، فلبى النّاسُ في أصلابِ الرجال وقالوا: لبّيك داعي الله، لبّيك داعي الله، فمن لبّى عَشْراً حجّ عشراً، ومَن لَبّى خمساً حجّ خمساً، ومَن لبّى أكثَر فبعدد ذلك، ومَن لبّى واحداً حجّ مرّة، ومَن لم يُلَبِّ لم يَحُجّ»[٩].

وعن الباقر عليه السلام قال: «إنّ اللهَ جَلّ جلاله لمّا أمر إبراهيم عليه السلام ينادي في الناسِ بالحَجّ، قامَ عَلى المَقامِ فارتفعَ به حتى صار بإزاء أبي قُبَيْس، فنادى في الناس بالحجّ، فأسمع مَن فِي أصلاب الرجال وأرحام

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧، تفسير روح البيان ٦: ٢٤.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧، تفسير روح البيان ٦: ٢٥.
٤ و٥. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧.
٦. تفسير روح البيان ٦: ٢٥.
٧. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧، تفسير روح البيان ٦: ٢٥.
٨. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧.
٩. الكافي ٤: ٦/٢٠٦، علل الشرائع: ١/٤١٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧٣.

النساء إلى أنْ تقومَ الساعة»[١].

وقال القمي: لمّا فَرَغ إبراهيم عليه السلام مِن بَناءِ البيتِ، أمَرَهُ الله أنْ يؤذِّن فِي الناس بالحجّ، فقال: يا ربّ، ما يَبْلغُ صوتي، فقال الله: أذِّنْ، عَلَيكَ الأذان، وعَلَيَّ البَلاغ. وارتفع عَلَى المَقام وهو يومئذٍ مُلْصَقٌ بالبيت، فارتفع المَقام حتى كان أطول مِن الجِبال، فأدخَل إصْبَعَيه في أُذُنَيه، وأقْبَل بوَجْهِه شرقاً وغرباً، ونادى: أيُّهَا الناس، كُتِبَ عليكم الحجّ إلى البيتِ العَتِيقِ، فَأجِيبُوا رَبّكم؛ فأجابُوه من تحت البُحُور السبعة، ومن بين المشرِق والمَغرِب إلى مُنقطع التُّراب مِن أطرافِ الأرض كُلّها، ومن أصلاب الرجال وأرحام النساء بالتَّلْبِيَة: لبّيك اللهمّ لَبّيْك، ألا تَرَون يأتون يُلَبّون، فَمَن حجَّ يومئذٍ إلى يوم القيامة، فهم ممَّن استَجابَ لله سبحانه [و] ذلك [قوله: ﴿فيه آيات بينات﴾][٢].

وقال بعض العامّة: إنّ المأمور بقوله: ﴿أذِّنْ﴾ هو محمّد صلى الله عليه وآله، ونُسِب ذلك القول إلى أكثر المعتزلة، واستدلَ عليه بأنّ الخطاباتِ التي تَكُونُ في القُرآن إذا أمكن حَمْلها على كون المخاطب بها محمّداً صلى الله عليه وآله، وجب حَمْلها على ذلك، لأنه أولى[٣]. وعليه يكون معنى الآية: اذكُر يا محمّد إذ بوّأنا لإبراهيم...إلى آخره، وأذّن أنتَ يا محمد بالحجّ يأتوكَ رِجالاً.

وقيل: إنّ المرادَ بِالأذان إعلانه صلى الله عليه وآله بالتَّلْبِيَةِ حتى يعلم الناس أنه حاجّ فيحُجّوا معه ويَقْتَدُوا به[٤].

وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام: «أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أقامَ بالمدينة عشر سنين لم يَحُجّ، ثمّ أنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ الآية، فأمر المؤذّنين أن يؤذّنوا بأعلى أصواتهم بأنّ رسولَ الله يَحُجُّ في عامة [هذا] فعلم به مَن حضر بالمدينة وأهل العَوالي والأعراب، واجتمعوا لحجّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنّما كانوا تابعين يَنْظُرون ما يُؤمَرون فيتّبعونه، أو يصنع شيئاً فيصنعونه»[٥]. وإنّما قدّم ذِكر المُشاة للإشعار بفضيلتهم على الرُّكبان.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنّ الحاجّ الراكِب له بِكُلّ خُطوَةٍ تخطوها راحلته سَبْعُونَ حسنةً، وللماشي سبعمائة حسنة مِن حَسَنات الحَرَم» قيل: يا رسول الله، وما حسنات الحَرَم؟ قال: «الحسنة بمائة ألف حسنة»[٦].

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ[٢٨ و ٢٩]

---

١. علل الشرائع: ٢/٤١٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧٣.
٢. تفسير القمي ٢: ٨٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧٣.
٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢٨.
٥. الكافي ٤: ٤/٢٤٥، تفسير الصافي ٣: ٣٧٣.
٦. تفسير الرازي ٢٣: ٢٨.

ثمَ بيّن سبحانه حكمة الأمر بالحجّ بقوله: ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ وليَحْضُروا ﴿مَنَافِعَ﴾ مختصَةً بهذه العبادة ﴿لَهُمْ﴾ مِن المنافع الدنيويّة، كالتجارة في أيّام الحجّ كما قيل[١]، أو منافع أُخرويّة كما رواه بعض العامّة عن الباقر عليه السلام[٢]، أو هُما كما عن الصادق عليه السلام أنّه يُطاف به حول الكعبة في مَحْمِلٍ، وهو شديدُ المرضِ، فكان كلّما بلغ الرُّكنَ اليماني أمرهم فوضعوه على الأرض، فأخرجَ يده مِن كُوّة المَحْمِلِ حتى يجُرّها على الأرض، ثمّ يقول: «ارفعوني» فلمّا فَعَل ذلك مراراً في كلّ شَوطٍ، قيل له: يا بن رسول الله، إنّ هذا يشُقّ عليك؟ فقال: «إنّي سَمِعتُ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ فقيل: مَنافِع الدنيا أو منافع الآخرة؟ فقال: «الكُلّ»[٣].

وعنه عليه السلام: أنّه قيل له: لو أرحتَ بدنك مِن المَحْمِلِ؟ فقال: «إنّي أُحِبّ أن أشهد المنافِعَ التي قال الله عزّ وجلّ: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ إنّه لا يَشْهَدها أحَدٌ إلّا نفعه الله، أمّا أنتم فترجِعون مغفوراً لكم، وأمّا غيركم فيُحْفَظون في أهاليهم وأموالهم»[٤].

وفي (المجمع) عنه عليه السلام: «منافع الآخرة هي العفو والمغفرة»[٥].

وعن الرضا عليه السلام: «وعلّة الحجّ الوِفادة على الله تعالى، وطلب الزيادة، والخُروج مِن كلّ ما اقترف، وليكون تائباً مِمّا مضى، ومُستأنِفاً لِما يستقبل، وما فيه مِن استخراج الأموالِ وتَعَب الأبْدان، وحَظْرها عَن الشَّهَوات واللذّات، والتقرّب بالعبادة إلى الله عزّ وجلّ، والخضوع والاستكانة والذلّ، شاخِصاً [إليه] في الحَرّ والبَرْد والأمن والخوف، دائباً في ذلك دائماً، وما في ذلك لجميع الخلق مِن المنافع والرغبة والرَّهبة إلى الله تعالى، ومنه ترك قساوة القلب، وجسارة الأنْفُس، ونِسيان الذكر، و انْقِطاع الرجاء والأمل، وتجديد الحقوق، وحظر الأنْفُس عَن الفساد، ومنفعة مَن في شَرقِ الأرضِ و غربها، ومَن في البَرّ والبحر مِمّن يحُجّ وممّن لا يَحُجّ مِن تاجرٍ وجالبٍ، وبائعٍ ومُشْتَرٍ، وكاسبٍ ومِسْكِين، وقَضاء حوائج أهل الأطراف والمَواضِع الممكن لَهُم الاجتماع فيها كذلك لِيَشْهَدُوا مَنافِع لهم»[٦].

وفي رواية: «مع ما فيه من التفقّه»[٧] ﴿وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ﴾ عند إعدادِ الهَدايا والضحايا وذبحها ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ وهي أيّامُ النَّحْر، وقيل: عشر ذي الحجّة[٨] ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ وأنعم عليهم ﴿مِنْ

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢٨.
٣. الكافي ٤: ١/٤٢٢، تفسير الصافي ٣: ٣٧٤.
٤. الكافي ٤: ٤٦/٢٦٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧٤.
٥. مجمع البيان ٧: ١٢٩، عن الباقر عليه السلام، تفسير الصافي ٣: ٣٧٤.
٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/٩٠، علل الشرائع: ٥/٤٠٤، تفسير الصافي ٣: ٣٧٤.
٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/١١٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧٥.
٨. تفسير الرازي ٢٣: ٢٩.

﴿بَهِيمَةِ﴾ وحيوان ذات أربع يكونُ مِن ﴿ٱلْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم. قيل: كنَى عَن الذَبح بذكر الله[١]، لعدم انفكاك المُسْلِم عَن ذِكْره تعالى عند الذّبح والنَّحْر، وللتّنبيه على أنّ الغَرَض الأصلِي في ما يتقرّب به إلى الله أن يذكر اسم الله تعالى وأن يخالف المشركين في ذلك.

قيل: كان التقرّب بإراقة دمها متصوّر بصورة مَن يفدي نفسه بما يعادلها، ويبذُل تلك الذبيحة بدل مهجته، طلباً لمرضاة الله، واعترافاً بأنّ تقصيره موجبٌ لاستحقاق مُهجته[٢].

قيل: إنّ ذِكر الله عِند الذبح: بسم الله وبالله والله أكبر، اللّهم مِنْك وإليك، إنّ صلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومماتي لله رَبّ العالمين[٣].

وعن الباقر عليه السلام «ذِكْر الله هو التكبير عقيب خمس عشرة صلاة أوّلها ظهر العيد»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: «الأيّامُ المَعْلُومات عشر ذي الحِجّة، والمعدودات أيّامُ التَّشْرِيق»[٥].

أقول: نسب الفخر الرازي هذا القول إلى ابن عبّاس وكثير مِن المُفَسّرين وأكثر العلماء، وقالوا في وجه تسمية العشر بالمعلومات أنّها معلومةٌ عِند النّاس، لِحِرْصِهِم عَلَى العِلْم بها، لكون الحجّ في آخِرها[٦].

وعن الباقر عليه السلام قال: «قال علي عليه السلام: في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ أيّام العشر»[٧].

أقول: الظاهر أنّ ما رُوي عنه عليه السلام من عكس ذلك فهو سَهْوٌ مِن الرّاوي.

ثمّ بيّن سبحانه مصرف الضحايا بقوله: ﴿فَكُلُوا﴾ أنْفُسَكم ﴿مِنْهَا﴾ نَدْباً أو وُجوباً ﴿وَأَطْعِمُوا﴾ منها ﴿ٱلْبَآئِسَ﴾ ومَن في شدّة العيش و ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ والمُحتاجين إلى مؤنة سنة.

عن ابن عباس: البائِسُ: الّذِي ظَهَر بُؤسه في ثيابه ووجهه، والفقير: الذي لا يكون كذلك، وتكون ثيابه نقيّة، ووجهه وجه غني[٨].

وعن الصادق عليه السلام: «البائسُ هو الزّمِن الّذِي لا يستطيع أن يَخْرُجَ لِزَمانَتِه»[٩].

وعنه أيضاً: «البائس [هو] الفقير»[١٠].

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢٩.　　٢ و٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٩.

٤. عوالي اللآلي ٢: ٢٣٧/٨٨، عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٣: ٣٧٥، عنهما عليهما السلام.

٥. جوامع الجامع: ٣٠٠، تفسير الصافي ٣: ٣٧٥.　　٦. تفسير الرازي ٢٣: ٢٩.

٧. معاني الأخبار: ١/٢٩٦، تفسير الصافي ٣: ٣٧٥.　　٨. تفسير الرازي ٢٣: ٢٩.

٩. الكافي ٤: ٤/٤٦، تفسير الصافي ٣: ٣٧٥، والزَّمانة: مرض يدوم، والزّمِن: وصفٌ من الزمانة.

١٠. الكافي ٤: ٦/٥٠٠، تفسير الصافي ٣: ٣٧٥.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا﴾ وليُزِيلُوا ﴿تَفَثَهُمْ﴾ ووَسَخَهم بحَلْقِ الرأس وقَصّ الشارب وقلم الأظْفار ونَتْف الإبْط. أو المراد: وليؤدّوا مناسك الحجّ كلّها، كما عن ابن عبّاس[١] ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ وعُهُودهم بالنَّذْر مِن الحجّ وسائر الطاعات في تلك الأيّام، فيضاعف لهم الثواب.

عن الصادق عليه السلام: «التفث هو الحَلْق وإزالة ما في جِلْد الإنسان»[٢].

وعن الرضا عليه السلام: «هو تَقْلِيم الأظفار، وطَرْح الوَسَخ وطَرْحُ لباس الإحرام عنه»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «التَّفَث حُفُوف الرَّجُل مِن الطِّيب، فإذا قَضى نُسُكه حَلّ له الطِّيب»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «مِن التَّفَث أنْ تتكلّم في إحرامِك بكلامٍ قبيحٍ، فَإذا دخلتَ مكّة وطُفتَ بالبيتِ [و] تكلّمتَ بكلامٍ طيبٍ فكان ذلك كَفّارة»[٥].

وعن ذَرِيح المُحاربي: قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّ الله تعالى أمَرَني في كتابه بأمرٍ فأُحِبّ أنْ أعلمه، قال: «وما ذاك؟» قلت: قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال عليه السلام: «﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ لِقاءُ الإمامِ ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ تلك المَناسِك».

قال عبدالله بن سِنان: فَأتيتُ أبا عبدالله، فقلت: جُعِلت فداك، قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾؟ قال: «أخْذُ الشّارِب، وقَصّ الأظفار وما أشْبَه ذلك».

قلت: جُعِلت فداك، إنّ ذَرِيح المُحاربي حدّثني عنك بأنّك قُلتَ له: «﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ لقاءُ الإمام ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ تلك المناسك»؟ قال: «صدق وصدقت، إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، ومَن يَحْتَمِل مايحتمل ذَرِيح؟»[٦].

أقول: لا شُبهة أنّ لقاءَ الإمامِ يُزِيل الأوساخَ الباطنيّة مِن الذنوبِ والأخلاقِ الرَّذِيلة، فإزالة الأوْسَاخِ الظّاهِرية ظاهر القُرآن، وإزالة الأوساخ الباطنية بلقاء الإمام باطنه.

وعن الباقر عليه السلام يقول ـ ويرىٰ الناس بمكّة وما يعملون ـ: «فِعالُهم كَفِعالِ الجاهليّة، أما والله ما أُمِروا إلّا أنْ يَقْضُوا تَفَثَهم ويُوفُوا نُذُورَهم، فيمرّوا بنا فَيُخبِرونا بِوِلايَتِهم، ويَعْرِضُوا عَلَينا نُصْرَتَهم»[٧].

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ وجوباً طَواف النساء، كما عن الصادق عليه السلام[٨]، أو طَواف الزيارة والنساء والعُمرة

---

١. مجمع البيان ٧: ١٣٠.
٢. الكافي ٤: ٨/٥٠٣، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٣٤/٢٩٠، تفسير الصافي ٣: ٣٧٦.
٣. الكافي ٤: ١٢/٥٠٤، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٣٦/٢٩٠، تفسير الصافي ٣: ٣٧٦.
٤. من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٣٥/٢٩٠، تفسير الصافي ٣: ٣٧٦.
٥. الكافي ٤: ٣/٣٣٧، تفسير الصافي ٣: ٣٧٦.
٦. الكافي ٤: ٤/٥٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧٦.
٧. الكافي ١: ٢/٣٢٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧٦.
٨. الكافي ٤: ٢/٥١٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧٧.

﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ والقديم، أو الذي أعتقه الله مِن الغرق يوم الطوفان كما عن الصادق عليه السلام[١]، أو مِن تسلّط الجبابرة عليه كما عن ابن عباس[٢]، أو مِن أن يَمْلِكَه أحدٌ كما عن الباقر عليه السلام[٣].

ذٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ ٱللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ[٣٠]

ثمَ أنّه تعالى بعد ذِكْر تشريفات بيته، قطع الكلام بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ قيل: يعني الأمْر أو الشّأن[٤] ذلك الذي ذكر، ثمَ حَثَّ الناسَ على حِفْظ حُرْمته بقوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ ٱللهِ﴾ وما لا يحِلّ هَتْكه من البيت الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ ثواباً ﴿عِندَ﴾ الله ﴿رَبِّهِ﴾ في الآخرة.

ثمَ عاد سبحانه إلى بيان أحكام الحجّ، ولمّا كان مجال تَوهُّم حُرْمة أكْل لُحوم الأنعام حال الإحرام كَحُرْمة الصيد، صرّح بِحِلّيته بقوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ﴾ وجميع أجزائها ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في آيةٍ أُخرى في المائدة، فلا تُحرّموا منها ما أحلّه الله، ولا تَجْتَنِبوا منه، وإنْ كنتم مُجْتَنِبين عن شيء مِنَ القَبائح فَاحْتَرِزُوا ﴿فَاجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ﴾ والخبيثَ القَذِر ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَانِ﴾ والأحجار التي يَعْبُدها المشركون ويذبحون عندها، وَاحْتَرِزُوا مِنها احترازكم مِن النَّجَس ﴿وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ والكلام المنْحرِف عن الحقّ كالقول بِالُوهيَّة الأصنام، وحُرمة السائبة وأخواتها، والشهادة بغير الحقّ، وسائر الأقوال المُحَرَّمَة.

عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «عَدَلت شهادة الزور الإشراك بالله تعالى، ثلاثاً» وتلا هذه الآية[٥].

وقيل: هو الكذب والبُهتان[٦].

وقيل: هو قول أهل الجاهليّة: لَبّيكَ لا شَريك لَكَ، إلَّا شَريكٌ هُوَ لَك، تَمْلِكُه ومَا مَلَك[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «الرِّجْسُ مِن الأوثانِ: الشِّطْرَنْج، وقَولُ الزُّورِ: الغِناء»[٨] [وزاد في المجمع] «وسائر أنواع القِمار والأقوال المُلْهِية»[٩].

حُنَفَاءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّماءِ فَتَخْطَفُهُ

---

١. تفسير القمي ٢: ٨٤، المحاسن: ١١٣/٣٣٦، علل الشرائع: ١/٣٩٩ و٤ و٥، تفسير الصافي ٣: ٣٧٧.
٢. تفسير الرازي ٢٣: ٣٠.
٣. الكافي ٤: ٦/١٨٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧٧.
٤. تفسر الرازي ٢٣: ٣١.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٠.
٦ و٧. تفسير الرازي ٢٣: ٣٢.
٨. تفسير القمي ٢: ٨٤، الكافي ٦: ٦/٤٣٥، تفسير الصافي ٣: ٣٧٧.
٩. مجمع البيان ٧: ١٣١، تفسير الصافي ٣: ٣٧٧.

ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ[٣١]

ثمّ كأنّه تعالى قال: اعملوا بأحكامي حال كونكم ﴿حُنَفَاءَ﴾ ومخلصين ﴿لله﴾ مائلين عن كلّ باطلٍ إلى التوحيد والدين الحقّ ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ شيئاً في الألوهيّة والعبادة.

ثمّ بيّن سبحانه غاية ضرر الشرك وكونه سبباً للهلاكة الأبديّة بِضَرْب مَثَلَين بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ غيره في الألوهيّة أو العبادة ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ وسقط ذلك المشرك ﴿مِنَ ٱلسَّماءِ﴾ على الأرض فهلك بالفور ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ وتختلسه ﴿ٱلطَّيْرُ﴾ بسرعةٍ مِن الأرض فتُفرّقه وتُمزّقه وتُمْحي أثَره ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ العاصفة وتُسقطه مِن جَبَلٍ شامخٍ ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ وبَعِيدٍ عن محلّ سَقَط منه، أو عن من يغيثه فلا يَراه أحَدٌ ولا يسمع صوته، فشبّه سبحانه التوحيد في علوّ رُتبته بالسماء، والمشرك بالساقط منها عَلى الأرض في تنزّله وهلاكه، والأهواء التي تتوزّع أفكاره بالطّيرِ الّذِي تَخْطَفُه، والشيطان المُطْرِح له في وادي الضلال بالرّيح العاصفة التي عصفت به في المهاوي المُتْلِفة.

ذٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ ٱللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ[٣٢]

ثمّ قرّر سبحانه ذلك بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ الذي ذكرت حقٌّ ثابتٌ، أو الأمر أو الشأن ذلك الذي ذكرت، ثمّ حثّ سبحانه الناس عَلَى العمل وطاعة الأحكام بقوله: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ﴾ ويهتمّ بالعمل بِمَعالم الحجّ وعلائم دينه مِن الهدايا والقَلائِد بأن يختار لها جِساماً حِساناً سِماناً غالية الأثمان، معتقداً بأنّ طاعة الله في التقرّب بها وإهدائها الى بيته المُعظّم [فإنّها] ناشئة[١]، ﴿مِن تَقْوَى﴾ الذّي مَرْكَزه في ﴿القُلُوبِ﴾ أو المراد أنّ تعظيمها مِن أعمال ذَوِي تقوى القلوب.

القميّ قال: تعظيم البُدن جَودتها[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّما يكون الجزاء مضاعفاً فيما دون البَدَنة، فإذا بَلَغ البَدنَة فلا تُضاعف؛ لأنّه أعظم ما يكون، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ﴾» إلى آخره[٣].

وعنه عليه السلام في قصّة حجّة الوداع: «وكان الهَدْي الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله أربعة وستّين أو ستّة وستّين، وجاء علي عليه السلام بأربعة وثلاثين أو ستّة وثلاثين»[٤].

وروى بعض العامة أنّه أهدى رسول الله صلى الله عليه وآله مائة بَدَنَة فيها جَمَلُ أبي جَهْل، وكانَ فِي أنْفِه بُرَةٌ[٥] مِن

---

١. في النسخة: ناش. ٢. تفسير القمي ٢: ٨٤، تفسير الصافي ٣: ٣٧٨، وفيها: وجودتها.
٣. الكافي ٤: ٥/٣٩٥، تفسير الصافي ٣: ٣٧٨. ٤. الكافي ٤: ٤/٢٤٧، تفسير الصافي ٣: ٣٧٨.
٥. البُرَة: حلقة تجعل في أنف الناقة.

ذَهَب[١].

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ[٣٣]

ثمَ بيَن سبحانه أحكام الهدايا بقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كثيرة مِن ظَهْرها ولبنها، فَانْتَفِعوا بها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ووقتٍ معيَن، وهو وقتُ نَحْرها كما عن ابن عباس[٢]. أو وقت تسميتها أُضْحِيَةً وهَدْياً، كما في رواية أُخرى عنه[٣].

﴿ثُمَّ مَحِلُّها﴾ ووجوب نحرها أو وقت وجوبه منتهى ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ وهو هنا جميع الحَرَم كما قيل[٤].

وقيل: إنّ الآية بيان علّة إيجاب تعظيم ذبح الأنعام، والمراد أنّ لكم في الهدايا منافع كثيرة في دِينكم ودُنياكم، وأعظمها كون محلّها إلى البيت العتيق[٥].

عن جابر، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إرْكَبُوا الْهَدْي بالمَعْرُوفِ حتى تَجِدُوا ظَهْراً»[٦].

القمّي، قال: البُدْن يَرْكَبُها المُحْرِم مِن المَوْضَع الّذي يُحْرِمُ فيه غير مُضِرٍّ بها ولا مُعْنِفٍ عليها، وإن كان لها لَبَنٌ يَشْرَب مِن لَبَنِها إلى يَوم النَّحْر[٧].

وعن الصادق عليه السلام قال: «إذَا احْتاجَ إلى ظَهْرِها رَكِبَها مِن غَيْرِ أنْ يُعْنِف عليها، وَإنْ [كان] لها لَبَن حَلَبَها حِلاباً لا يَنْهَكُها»[٨].

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ[٣٤و٣٥]

ثمّ حثّ سبحانه الناس على إهداء الهدايا بقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِنْ الأُمَم السالفة مِن زمان إبراهيم عليه السلام ﴿جَعَلْنا﴾ وشَرَعنا ﴿مَنْسَكاً﴾ وقُرباناً يتعبّدون به ﴿لِيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ﴾ وَحْده ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ﴾ وأنْعَم عليهم ﴿مِن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ﴾ عِند ذَبْحِها أو نَحْرِها، ويجعلوا نُسُكَهم وقُربانهم لِوَجهِه

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٣٢.

٢ و٣. تفسير الرازي ٢٣: ٣٣.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٣٤.

٥. تفسير الرازي ٢٣: ٣٤.

٦. تفسير الرازي ٢٣: ٣٣.

٧. تفسير القمي ٢: ٨٤، تفسير الصافي ٣: ٣٧٨.

٨. الكافي ٤: ١/٤٩٢، تفسير الصافي ٣: ٣٧٨.

الكريم، فالمقصودُ الأصْلِيُّ مِن القُربان تذكَر المعبود ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ومَعْبودُكم فارِدٌ، ودينكم الإسلام، وإنَّما اختلفت الأحكام لاخْتِلاف الأزمِنة والأشخاص في المصالح، فإذا كان إلٰهكم واحداً ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ وَانْقادوا في جَميع أحكامه وتكاليفه، وتواضعوا له، وأخلصوا ذكره بحيث لا يشوبه إشراك ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمّد، بالثواب العظيم الموحّدين ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ لله المتواضعين له المخلصين في عبادته.

وعن القمي: أي العابدين له[1].

ثمّ وصف الله سبحانه المخبتين المتواضعين لعظمته بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ عندهم وتوجّهت إليه أفئدتهم، ظهرت لهم عظمته ومهابته، ولذلك ﴿وَجِلَتْ﴾ وارتعدت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ مِن خشيته وهيبته وخوف عقابة.

ثمّ لمّا كان من آثار خوفه الصبر على المكاره والشّدائد والاجتهاد في عبادته والإنفاق في سبيله، أردفَ توصيفهم بالخوف بقوله: ﴿وَٱلصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ مِن المصائب ﴿وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَاةِ﴾ التي هي أهمّ العبادات وأفضلُها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأعطيناهم مِن الأموال ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ويَبْذلون في سبيله ومرضاته.

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِن شَعَائِرِ ٱللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَن يَنَالَ ٱللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ [٣٦ و ٣٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد مدح المؤمنين بالبذل، حَثّهم في إهداء البَدَنة التي هي أحبّ الأموال عند العرب بقوله: ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ والإبل ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ وقَرَّرنا نحرها ﴿لَكُم﴾ بعضاً ﴿مِن شَعَائِرِ اللهِ﴾ ومَعالِم دينه التي شرّعها مع أنه[2] ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ ونَفعٌ كَثِير دُنيويّ أُخرويّ ﴿فَاذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ عَلَيْهَا﴾ عند نَحْرِها حال كونها قائمات ﴿صَوافَّ﴾ أيْدِيَهُنّ وأرْجُلَهن ﴿فَإذَا﴾ نحرت و﴿وَجَبَتْ﴾ وسَقَطَتْ ﴿جُنُوبُها﴾ على الأرض، وخَرَجَت رُوحُها ﴿فَكُلُوا مِنها﴾ نَدْباً ﴿وَأَطْعِمُوا﴾ منها وَجوباً الفقيرَ

---

١. تفسير القمي ٢: ٨٤، تفسير الصافي ٣: ٣٧٨.

٢. في النسخة: مع أنّ، ولاتصحّ من حيث إعراب (خير) و(نفع).

﴿ٱلْقَانِعَ﴾ بما عنده الراضي بقسمة الله، أو الراضي بما أعطَيته، ولا يَسْخَط ولا يَكْلَح ولا يَلوي شِدْقه غَضباً كما عن الصادق عليه السلام[١] ﴿وَ﴾ الفقيرَ ﴿ٱلْمُعْتَرَّ﴾ المتعرِّض للسؤال، ولم يسأل على قول[٢]، أو يعتريك ولا يسأل كما عن الصادق عليه السلام[٣]، أو المارّ بك لتعطيه[٤] كما عنه أيضاً[٥] ﴿كَذٰلِكَ﴾ التسخير البديع لها مع عظم جُثّتها وقوّتها ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ وذَلّلناها لمنافعكم بحيث يَسْهُل عليكم التصرّف فيها كيف تشاءون ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النِّعمة العظيمة التي تنتفعون بها في دينكم ودنياكم.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان أنّ البُدْنَ مِن الشعائر وتعظيم الشعائر مِن التّقوى، رَغّب المؤمنين إلَيها بقوله: ﴿لَنْ يَنالَ اللهَ﴾ ولا يَصِل إليه أبداً ﴿لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا﴾ بوجهٍ مِن الوجوه ﴿وَلكِنْ يَنَالُهُ﴾ ويرتفع إليه ﴿ٱلتَّقْوىٰ﴾ والطاعة ﴿مِنْكُمْ﴾ ويُوجب رضاه عنكم فيُثيبُكم عليها.

في (الجوامع): رُوي أنّ أهل الجاهليّة كانوا إذا نَحرُوا لَطَخُوا البيتَ بالدَّم، فلمّا حجّ المسلمون أرادُوا مِثْل ذلك فنزلت[٦].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل ما عِلّة الأضحيّة؟ قال: «إنّه يُغْفَر لصاحبها عند أوّل قطرة قطرت[٧] مِن دَمِها عَلى الأرض، وليَعْلَم الله مَن يَتّقيه بالغَيْب، قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللهَ لُحُومُهَا﴾ الآية» ثمّ قال: «اُنظُر كيف قبل اللهُ قربانَ هابيلَ وردّ قربانَ قابيل»[٨].

ثمّ حَثّهم بتذكير نعمته وذِكر عِلّته بقوله: ﴿كَذٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ وتَعرِفوا عظمته وقُدرته على ما لا يَقْدِر عليه غيره، فتُوحّدوه بالكبرياء، أو تُكبّروه على إرشادكم إلى طريق تسخيرها وكيفيّة التقرّب بها ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمّد ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عقائدهم وأعمالهم المخلصين لله في ما يأتون ويَذَرُون بقَبول الطاعات والفوز بالدّرجاتِ العالياتِ في الآخرة.

إِنَّ ٱللهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ [٣٨ و ٣٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد ترغيب الناس في الحج، بَشّرَهم بتأمينهم مِن أذىٰ المشركين مع كونهم صادّينَ عنه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ يُدَافِعُ﴾ ويُبالغ في دَفْع ضَرَرِ المشركين ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويَحْميهم أشدّ الحِماية مِن أذاهم ﴿إِنَّ ٱللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ ومبالغٍ في تَضْيِيع أحكامه التي هي أمانته، وكُلّ

---

١. الكافي ٤: ١/٤٩٩، معاني الأخبار: ١/٢٠٨، تفسير الصافي ٣: ٣٧٩.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٦.
٣. معاني الأخبار: ٢/٢٠٨، تفسير الصافي ٣: ٣٧٩.
٤. في معاني الأخبار: تطعمه.
٥. معاني الأخبار: ١/٢٠٨، تفسير الصافي ٣: ٣٧٩.
٦. جوامع الجامع: ٣٠١، تفسير الصافي ٣: ٣٨٠.
٧. في علل الشرائع: تقطر.
٨. علل الشرائع: ٢/٤٣٧، تفسير الصافي ٣: ٣٨٠.

﴿كَفُورٍ﴾ ومبالغ في تَضْيِيع حقوق نِعَمه حيث يَصْرِفها في معاصيه، ويَتَقرب بها إلى الأصنام، ويأكل نعمه، ويُقِرّ بأنّه صانعه ويعبُد غيره،فإنّه تعالى لا يُريد نَصْرَهم، ولا يَرضى فِعْلَهم، ويَدْفَع عَن أحِبّائه شَرَّهم.

قيل: نزلت حين أمر المؤمنين بِالكَفّ عَن كُفّار مكّة قبل الهجرة، وكانوا يُؤذون المؤمنينَ، فَاستَأذنوا النبيَ ﷺ في قَتْلِهم سِرّاً، فنهاهم اللهُ عنه، وبَشّرَهم بإعلانهم عَلَى الكُفّار ودَفْع بَوائِقهم عنهم[1].

ثمّ رخّص سبحانه لهم في قتال الكُفّار بعد الهجرة بقوله: ﴿أُذِنَ﴾ ورخّص مِن قِبَلِ الله في قتال الكفّار ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ مِن المؤمنين ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾.

رُوي أنّ المشركين كانوا يُؤذُون المؤمنينَ، فيأتُونَه ﷺ بَيْنَ مضروبٍ ومَشْجُوجٍ وَيَتَظَلّمون إليه، فيقول لَهُم النبيّ ﷺ: «إصبِروا فإنّي لم أُومَر بقتالٍ»، حتى هاجَروا فنزلت، وهي أوّل آية نزلت في القتال[2].

عن الباقر عليه السلام: «لم يُؤمَر رسولُ الله ﷺ بقتالٍ، ولا أُذِن له فيه حتى نزل جَبْرَئيل بهذه الآية وقلّده سيفاً»[3].

ثمّ أنّه تعالى بعد وَعْد المؤمنين بِدَفْع أذَى المشركين عنهم، وعدهم بالنصر بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾ وتَغْلِيبِهم على المشركين ﴿لَقَدِيرٌ﴾ فينصُرهم لا محالة. وقيل نزلت: في قوم خَرَجُوا مُهاجِرين، فَاعْتَرَضهم مُشْرِكو مكّة، فأذن في مقاتلتهم[4].

ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ ٱللهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ ٱللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ ٱللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[٤٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان أنّ سبب الإذن في قتال المشركين ظُلْمُهم على المؤمنين، بَيَّن أعظم ظُلمهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ ومَنازِلهم، أو أوْطانهم ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وموجبٍ لإخراجهم ﴿إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللهُ﴾ وسِوى أنْ يُقرّوا بتوحيده.

عن الباقر عليه السلام: «نزلت في رسول الله ﷺ وعلي وحمزة وجعفر، وجَرَتْ في الحسين عليهم السلام أجمعين»[5].

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٣٨.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ٣٩، مجمع البيان ٧: ١٣٨.

٣. مجمع البيان ١: ٣٥٤، تفسير الصافي ٣: ٣٨٠.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٣٩.

٥. الكافي ٨: ٥٣٤/٣٣٧، تفسير الصافي ٣: ٣٨١.

وعنه عليه السلام: «نزلت في المهاجرين، وجرت في آل محمد صلى الله عليه وآله الذين أُخرجوا من ديارهم وأُخيفوا»[1].

ثمّ بيّن سبحانه حِكْمَة أمره بالقتال بقوله: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ ٱللهِ ٱلنَّاسَ﴾ يعني ﴿بَعْضَهُمْ﴾ المشركين ﴿بِبَعْضٍ﴾ المؤمنينَ في كلِّ عَصْرٍ ﴿لَهُدِّمَتْ﴾ وخُرِّبت بتعدّي الطُّغاة ﴿صَوامِعُ﴾ الرُّهبان ومعابدهم ﴿وَبِيَعٌ﴾ النصارى وكنائسهم في مدّة بقاء شَرْع عيسى ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ ومعابد كانت لليهود في زمان بقاء شريعة موسى، قيل: هو معرَّب، وبالعبرية صلوات[2]، بالثاء المثلثة[3] ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ تكون للمسلمين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللهِ﴾ ذِكراً، أو وقتاً ﴿كَثِيراً﴾ فبأمر الله بالقتال بقي الدين ومعابد المتديّنين، وفي توصيف المساجد بكونها محالّ ذِكْر الله دلالةٌ على فَضْلِها، ويجوز أنْ يكونَ الوصفُ للأرْبَع ﴿وَ﴾ بالله ﴿لَيَنصُرَنَّ ٱللهُ﴾ ويُؤيّد ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ بِنَصْر أوليائه ودِينه، ولقد أنجز سبحانه وعْدَه حيث سلَّط المؤمنينَ على صَنادِيد العرب وأكاسِرة العَجَم وقياصرة الروم، وأوْرَثَهم أرْضَهم ودِيارَهم ﴿إِنَّ ٱللهَ لَقَوِيٌّ﴾ بذاته قادرٌ على إنفاذِ إرادته ﴿عَزِيزٌ﴾ وغالبٌ على كلِّ شيءٍ، لا يُمانَع ولا يُدافع، فلا يحتاج إلى نُصْرَة أحدٍ، وإنّما كَلَّف المؤمنين بالقتال لِيصلوا بامتثالِ أمره إلى منافعهم الدنيوية والأُخروية.

ٱلَّـذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلاَةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ[٤١]

ثمّ بيّن غايةَ شَناعةِ الظُّلم على المؤمنين الذين أُخْرِجوا مِن دِيارهم بِمَدْحِهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وسلّطناهم على أهلها، وأعطيناهم نفوذ القول ﴿أَقَامُوا ٱلصَّلاَةَ﴾ بشرائطها وآدابها لتعظيمي، وحَثّوا الناس عليها ﴿وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ﴾ أداءً لحقّي وتوسعةً على عِبادي ﴿وَأَمَرُوا﴾ الناسَ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وفعل المستحسن عند الشَّرع والعقل ﴿وَنَهَوْا﴾ هم ﴿عَنِ﴾ فِعْل ﴿ٱلْمُنكَرِ﴾ والقبيح عند اللهِ وعند العُقلاءِ، فإن كانُوا اليوم عندكم أذِلّاء مستحقرين، فَهُم أولياء الله ﴿وَلِلهِ﴾ وحده ﴿عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ ولذا لا يَبْعُد أن يَصِيرُوا أعِزّاء معظّمين ويجعلهم في الأرض متمكّنين.

نقل كلام للفخر الرازي وردّه

قال الفخر الرازي: ولكن ثبت أنّ اللهَ مكّن الأئمّة الأربعة في الأرض، وأعطاهم السلطنة عليها، فوجب كونهم آتين بالأمور الأربعة، فإذا كانوا آمِرين بِكُلِّ معروفٍ

---

١. مجمع البيان ٧: ١٣٨، تفسير الصافي ٣: ٣٨١.
٢. في روح البيان: صلوثا.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٩.

[و] ناهِين عَن كُلّ مُنكَر، وَجَب أنْ يَكُونوا على الحقّ، فَمِن هذا الوجه دلّت الآية على إمامة الأئمّة الأربعة، ولا يجوز حملُ الآية على علي عليه السلام وحده، لأنّها دالّة على الجمع[1].

في رد كلام الفخر الرازي

أقول: فيه أن الآية خاصّة بالذين أُخرِجوا مِن مكّة ظُلماً، وابتُلوا بِأذى المشركين كعليّ عليه السلام وجعفر وسلمان وعمّار وأضرابهم؛ ولا يَشْمَل الذين خَرَجُوا منها طوعاً لخدمة النبيّ صلى الله عليه وآله كأبي بكر وعمر، فإنّهم لم يُبتَلوا بأذى المشركين، ولم يُخْرَجوا مِن مكّة، ولو شَمَلَتهم الآيةُ لَشَمَلت معاويةَ أيضاً، لأنه مِن المهاجِرين إلى المدينة، وَمِن كُتّاب الوَحْي فيها، ومِنَ المتمكّنين في الأرض، مع ظهور كونه آتياً بالمُنْكَرات التي لا تُعَدّ ولا تُحْصى.

مَعَ أنّ الآية ظاهرةٌ في مَدْح المؤمنين الذين كانوا حين إخراجهم مِن مكّة مُلتَزِمين بالمعروف تاركين للمنكر مطلقاً؛ بحيث لو مُكّنوا في الأرض أمَروا غيرَهم أيضاً بالمعروف، ونَهَوا غيرهم عَن المُنْكَر في ذلِك الوقت، ولم يكن الثلاثة كذلك في ذلك الوقت، لوضوح كون عمر وعثمان بالإجماع وأبي بكر في اعتقادِنا مِن الفارّين مِن الزَّحْف في أُحُد؛ فلابدّ مِن القَولِ بكون الوصف لخصوص المُخْرَجين الذين كان لهم هذه المرتبة مِن الكَمالِ، وإن لم يتمكّنوا في الأرض، لأنّ صِدْقَ الشرطيّة لا يستلزم صِدْق مُقَدَّمها، فيكونُ الممدوحُ فِيها علياً عليه السلام وحمزة وجعفراً وسلمان وأباذرّ وأضرابهم، لا المُرْتَكِبين للمنكر وإن كانوا مِن المُخْرَجين.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[٤٢ ـ ٤٤]

ثمّ لمّا أخبر النبيّ صلى الله عليه وآله بدفع الله أذى المشركين عَن المؤمنين ونُصْرَته لهم على الكفّار، وكان المشركون يُكذّبونه في ذلك، سَلّى سبحانه قلب نبيّه صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿**وَإِن يُكَذِّبُوكَ**﴾ في ما تُخْبِرهم عَن اللهِ، فليس تَكْذِيبُهم لك أمراً بديعاً حتى يُحْزِنك ويغُمّك ﴿**فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ**﴾ نوحاً ﴿**وَعادٌ**﴾ هوداً ﴿**وَثَمُودُ**﴾ صالِحاً ﴿**وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ**﴾ إبراهيمَ ﴿**وَقَوْمُ لُوطٍ**﴾ لوطاً ﴿**وَأصحابُ مَدْيَنَ**﴾ شُعَيباً ﴿**وَكُذِّبَ مُوسىٰ**﴾ مع وُفورِ معجزاته ووُضوح آياته، فما ظَنُّك بِغَيْره؟ ﴿**فَأَمْلَيْتُ**﴾ وأمْهَلْتُ ﴿**لِلْكافِرِينَ**﴾ المكذّبين لهم إلى أجَلٍ مَعْلُوم اقْتَضَتِ المَصْلَحَة إمهالهم فيه ﴿**ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ**﴾ بالعذاب عقوبةً على تكذيبهم ﴿**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾ي وإنكاري عليهم بإنزال العذاب، حيث بدّلنا نِعْمَتهم

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٤١.

نِقْمَةً، وحياتهم هلاكاً، وعِمارتهم خراباً، وصَدَّقنا الرُّسُلَ ما وعدتُهم مِن النَّصر والتمكينِ في الأرْضِ، فَاصْبِر أنتَ أيضاً على تَكْذِيب قومك كما صَبَر اُولُوا العَزْم مِن الرُّسُل، فإنّي اُعامِل معَ مُكذِّبيك كما عامَلْتُ مع مُكذِّبِيهِم، وإنَّما المصلحةُ والحِكمةُ اقتضت إمهالهم كما اقتضت إمهال الأمَم السابقة.

فَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ[٤٥]

ثمَ أنّه تعالى بعد بيان تكذيب الأمَم رسلهم وأخذهم بعد الإمهال، بيّن كيفيّة أخذه بقوله: **﴿فَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ﴾** وكم مِن بلدةٍ **﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾** بالعذاب مِن الغرَق والصيحة والصاعقة ونظائرها **﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾** بالكفر والمعاصي وتكذيب الرسل بمقتضى العدل لا بالتشفّي والجَور **﴿فَهِىَ﴾** خَرِبةٌ أفْضَع الخراب حيث إنّ جُدْرانها **﴿خَاوِيَةٌ﴾** وساقطةٌ **﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾** وسُقوفها بعد سُقوطها **﴿وَ﴾** كم مِن **﴿بِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾** لا أهلَ لها يُسْتَسقى منها **﴿وَ﴾** كَمْ مِن **﴿قَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾** ومَنزلٍ مُرتَفَعِ البُنيان، أو مُحْكَمِه، أو مبنيَ بالجِصّ، أخليناه مِن ساكنيه.

رُوي أنّ هذه بئرنَزَل عليها صالح النبيّ مع أربعة آلاف مِمّن آمَن به وهي بِحَضْرَمُوت، وإنَّما سُمّيَت بذلك لأنّ صالحاً حين حَضَرَها مات، وكانت بلدةٌ عند البئر اسمها حاضوراء، بناها قوم صالح، وأمَّروا عليهم جليس بن جلاس، وأقاموا بها زماناً، ثمّ كفروا وعَبَدُوا صَنَماً، فأرسلَ الله عليهم حنظلة بن صفوان نبيّاً، وكان حمّالاً فيهم، فقتلوه في السوق، فأهلكهم اللهُ، وعَطّل بِئْرَهم، وخَرِب قصورهم[١].

وقيل: إنّ البئر الرَسّ، وكانت بَعَدَن لأُمّةٍ مِن بقايا ثمود، وكان لهم مَلِكٌ عادلٌ حَسَنُ السيرة، يقال له العلس، وكانت البئر تَسْقِي المدينة كلّها وباديتها وجميع ما فيها مِن الدوابّ والأنعام، لأنّها كانت لها بَكَرات كثيرة منصوبة عليها، ورجال كثيرون موكلون بها، وحياض كثيرة تُملأُ للناس، واُخَر للدَّوابّ، واُخَر للغنم والبقر والهوام، يسقون عليها بالليل والنهار يَتَناوَبُون[٢]، ولم يكن ماءٌ غيره.

فَطالَ عُمْرُ المَلِك، فلمّا مات طُلِي بِدُهْنٍ لتبقى صورته ولا يتغيّر، وكذلك يفعلون إذا مات منهم ميّت يَكْرُم عليهم، فَشَقّ عليهم موته وفساد أمرهم، وضَجّوا جميعاً بالبكاء، فاغتنمها الشيطان منهم، فدخل في جُثّة المَلِك بعد موته بِأيّامٍ كثيرة فَكَلَّمهم وقال: إنّي لَم أمُتْ، بل غِبْتُ عنكم حتى أرى صَنيعكم بعدي، فَفَرِحُوا فرحاً شديداً، وأمر خاصّته أن يَضْرِبوا له حِجاباً بينه وبينهم، ويُكلّمهم مِن

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٣.

٢. في تفسير روح البيان: يتدالون.

وَرائه، كيلا يعرفوا الموت من[1] صورته ووجهه، فنصبُوه[2] صنماً مِن وَراءِ الحِجاب لا يأكُل ولا يشرب، وأخْبَرَهُم أنّي لا أموتُ أبداً، وأنّي إله لكم.

كلُّ ذلك يتكلّم به الشيطان على لسانه، فصدّقه كثيرٌ منهم، وارتابَ بَعْضُهم، وكان المؤمِنُ المُكَذِّب منهم أقلّ مِن المُصَدِّق، وكُلّمَا تكلّم ناصحٌ منهم زُجِر وقُهِر، فَاتَّفَقُوا على عبادته، فبعث الله لهم نبيّاً كان الوحي ينزل عليه في النوم، وكان اسمه حنظلة بن صفوان، فَأَعْلَمَهم أنّ الصورة صَنَمٌ لا رُوحَ له، وأنّ الشيطانَ فيه، وقد أضَلَّهم، وأنّ اللهَ لا يَتَمَثّل بالخَلْق، وأنّ المَلِك لا يَجُوز أنْ يكونَ شريكاً لله، وأوْعَدَهُم ونَصَحَهُم وحَذَّرَهم سَطْوَة ربِّهم ونِقْمَته، فآذَوه وعادوه حتى قَتَلوه، وطَرَحُوه في بئر، فعند ذلك حَلّت عليهم النِقْمَة؛ فباتوا شِباعاً رِواء [من الماء] وأصبَحُوا والبئر قد غار ماؤها، وتعطل رِشاؤها، فصاحوا بأجمعهم، وضجّ النساء والولدان، وضَجَّت البهائم عَطَشاً حتى عَمَّهم الموت وشَمَلَهم الهلاك، وخلَفَهم في أرضهم السِباع، وفي منازلهم الثعالب والضِّباع، وتبدلّت بهم جنّاتهم وأموالهم بالسَّدر والشَّوك، شوك العِضاه والقَتاد[3]. وأمّا القَصْر المَشِيد فَقَصْرٌ بناه شدّاد بن عاد بن إرم، لم يُبْنَ في الأرض مثله[4].

وعن (المجمع): وفي تفسير أهل البيت في قوله: ﴿وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ «أي وكَمْ مِن عالِمٍ لا يُرْجَع إلَيه ولا يُنْتَفَعُ بِعِلْمه»[5].

وفي (الاكمال) عن الصادق و[في الكافي عن] الكاظم: «البئرُ المعطّلة: الإمامُ الصامت، والقصرُ المشيدُ: الإمام الناطق»[6].

وعن [صالح بن سهل أنه قال]: أمير المؤمنين عليه السلام [هو] القصر المشيد، والبئر المعطّلة فاطمة عليها السلام وولدها معطّلون مِن المُلْك[7].

أقول: لا شُبهة أنّ الروايات في بيان تأويل الآية لا تفسيرها.

وعن القمي: هو مَثَل لآلِ محمّد صلى الله عليه وآله، وبئر معطّلة: هي التي لا يُستقى منها، وهو الإمام الّذي قد غاب، فلا يُقْتَبَس منه العلم إلى وقت ظهوره، والقَصْرُ المَشِيد: هو المرتَفَع، وهو مَثَل لأمير المؤمنين عليه السلام والأئمّة وقال الشاعر:

---

١. في تفسير روح البيان: في. ٢. في النسخة: ونصبوا.
٣. العِضاه: كلّ شجر له شوكٌ صغُر أو كبُر، والواحدة عِضاهَةٌ، والقَتاد: نبات صلب له شوك كالإبر.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٤٣. ٥. مجمع البيان ٧: ١٤١، تفسير الصافي ٣: ٣٨٢.
٦. كمال الدين: ١٠/٤١٧، معاني الأخبار: ١/١١١، الكافي ١: ٧٥/٣٥٣، تفسير الصافي ٣: ٣٨٢.
٧. معاني الأخبار: ٣/١١١، تفسير الصافي ٣: ٣٨٣.

بِـئرٌ مُـعَطَلَةٌ وَقَـصْرٌ مُشْـرِفٌ   مَـثَلٌ لآلِ مـحمَدٍ مُسْـتَطْرَفُ
فَالقَصْرُ مَجْدُهُم الَّذِي لا يُـرتَقى   وَالبِئْرُ عِـلْمُهُم الَّذِي لا يُـنْزَفُ[١]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُور[٤٦]

ثمَ حثَ الله سبحانه المشركين على المسافرة ورؤية مصارع المهلكين مِنَ الأُمَم كعادٍ وثمود للاعتبارِ بها بقوله: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا**﴾ ويسافروا ﴿**فى الأرْضِ**﴾ ولم يذهبوا إلى اليمن والشام، لِيَرَوا مَصارعَ المُهْلَكين بالعذاب، كعاد وثمود وقوم لوط.

عن الصادق عليه السلام: «أي أفلَم يَنْظُروا في القرآن؟»[٢] ﴿**فَتَكُونَ لَهُمْ**﴾ بسبب مشاهدة العِبَر وبِلادِ المُكَذِّبين للرُّسُل وآثار هلاكهم بالعذاب ﴿**قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾ ما يجب تعقّله مِن آياتِ التوحيد، وشدَةِ غَضَبِ الله عَلَى الشرك ﴿**أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ ما يجب استماعه مِن المَواعِظ الإلٰهيّة التي تَكُون فِي القُرآن مِن هلاك الأُمَم الطاغية وكيفية تعذيبهم ﴿**فإنَّها لَا تَعْمَى الأَبْصارُ**﴾ التي في الرؤوس ولا تختلَ الحواسّ الظاهرة بالغَفْلة والجهل والكفر ﴿**ولٰكِن تَعْمَى**﴾ بألاهواء الزائِغَة والشَّهوات الباطلة والغفلة والجهل عَن رؤية آياتِ التوحيد والنبوّة وما فيه العِظَة والاعتبار ﴿**القُلُوبُ التى**﴾ تكون ﴿**فِى الصُّدُورِ**﴾.

وفي الحديث: «ما مِن عَبْدٍ إلّا وله أربعُ أعْيُنٍ؛ عينانِ في رأسه يُبْصِر بهما أمْرَ دُنياه، وعينانِ في قلبه يُبْصِر بهما أمْرَ دِينه وأكْثَرُ النّاسِ عُمْيان بَصَر القلب، لا يُبْصِرُون [به] أمرَ دِينهِم»[٣].

وعن السجاد عليه السلام «انّ للعبد أربع أعْيُن؛ عَيْنان يُبْصِر بِهما أمرَ دِينه ودنياه، وعينان يُبْصِر بهما أمْرَ آخرته، فإذا أرادَ الله بِعَبْدٍ خيراً فَتَح [له] العَيْنَيْنِ اللّتَيْن في قلبه، فَأبْصَر بهما الغيب وأمْرَ آخرته، وإذا أرادَ اللهُ غَيْرَ ذلك تَرَكَ القَلْبَ بما فيه»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّما شيعَتُنا أصحابُ الأربعة الأعين؛ عينانِ في الرأس، وعينان في القلب، ألا وإنَّ الخلائقَ كُلّهم كَذلِك، ألا إنّ الله عزَ وجلّ فَتَح أبصارَكُم وأعمى أبصارَهُم»[٥].

---

١. تفسير القمي ٢: ٨٥، تفسير الصافي ٣: ٣٨٣.
٢. الخصال: ١٠٢/٣٩٦، تفسير الصافي ٣: ٣٨٣.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٥.
٤. الخصال: ٩٠/٢٤٠، التوحيد: ٤/٣٦٧، تفسير الصافي ٣: ٣٨٣.
٥. الكافي ٨: ٢٦٠/٢١٥، تفسير الصافي ٣: ٣٨٣.

وعن الباقر عليه السلام: «إنّما العَمى عَمَى القَلْب» ثمّ تلا الآية[1].

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ[٤٧]

ثمّ أنه تعالى بعد تهديد المكذّبين بما نَزّل على الأُمَم المكذِّبةِ لِلرُّسُل مِن العذاب، حَكى عنهم الاستهزاء بِوَعِيدهم به بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ يا محمّد ﴿بِالعَذابِ﴾ الّذي تُهَدِّدُهم بِه استِهزاءً بتَهْدِيدِكَ إيّاهُم بِه مَعَ أنّ الله وَعَدهُم بِعَذابِ الآخِرة ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللهُ وَعْدَهُ﴾ بذلك العذاب بأنْ يَأتِيهم بِه في الدنيا، بَلْ يأتيه كما وَعَدَ بلا خُلْف ولا تَغْيير، ولم يَعِدْهُم بِعذاب الدنيا، بل ذَكَر ما نزّل على الأُمَم مِن باب العِظَة والاعتبار ﴿وَإِنَّ يَوْماً﴾ مِن أيّامِ الآخرة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يكون في كَثْرَة الآلامِ والشَّدائد عندهم ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ وتَحْسِبُون مِن سنيَ الدنيا لو بقيتم وعذّبتم فيها.

وقيل: إنّ المرادَ بيانُ طولِ أيّامِ الآخرة[2]، فالمعنى أنّ العذاب الذي يكون طول أيّامه إلى هذا الحدّ لا يَنْبغِي للعاقل أنْ يستعجله.

وقيل: إنّ المعنى أنّ اليومَ الواحِدَ وألْفَ سَنَة بالنسبة إليه تعالى سَواء؛ لأنه لا يَخافُ الفوتَ، فإذا لم تَسْتَبْعِدوا إمْهالَ يَوْمٍ واحدٍ فلا تَسْتَبْعِدوا إمهال ألف سَنَةٍ[3].

وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ * قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ[٤٨ـ٥١]

ثُمّ أنه تعالى بعد بيان أنّ عادته الإمْهالُ ثُمّ الأخْذ، أكّدَه بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ﴾ وكَم مِن بَلْدَةٍ ﴿أَمْلَيْتُ﴾ وأمْهَلْتُ ﴿لَهَا﴾ وأخّرتُ إهلاكها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مُسْتَمِرّة على الكُفر والطُّغيان مُسْتَوْجَبة لِتَعْجِيل عقوبتها، كما أمْهَلْتُ هؤلاءِ المُسْتَهْزِئينَ مَعَ غاية ظُلْمِهم وشِدّة استحقاقهم للعذاب ﴿ثُمَّ أَخَذْتُها﴾ بالعقوبة الشديدة ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ وإلى حُكْمِي المَرجع في الآخِرة، فَأفْعَل بِهِم ما أفْعَل مِمّا يَلِيقُ بأعمالِهم.

ثمّ أمَرَ اللهُ النبيَّ صلّى الله عليه وآله بالثَّباتِ عَلَى الدَّعوَة وعَدَمِ المُبالاةِ بتكذيب الكُفّار بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد:

---

١. من لا يحضره الفقيه ١: ١١١٠/٢٤٨، تفسير الصافي ٣: ٣٨٤.

٢ و٣. تفسير الرازي ٢٣: ٤٦.

﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ﴾ مِن قِبَل الله ﴿نَذِيرٌ﴾ ومُخَوِّف بما يُوحى إلَيّ مِن هلاك الأمَم المُكَذِّبَة للرسل ﴿مُبِينٌ﴾ ومُوضِحٌ لكم إنذاري، وليس لي إتيانُكم بالعَذاب حتى تَسْتَعْجِلوني به ﴿فَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وسِتْر لِما مَضىٰ مِن ذُنوبه ﴿وَرِزْقٌ﴾ مِن كُلِّ نوعٍ وصِنْفٍ مِن النِّعَم بِلا كَدٍّ ومِنَّة ﴿كَرِيمٌ﴾ وجامعٌ للفضائل ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا﴾ وَاجْتَهَدوا ﴿فِى﴾ الطَّعْنِ في ﴿آيَاتِنَا﴾ ومعجزات رسولنا بنسبتها إلى السِّحْرِ أو الشِّعْرِ أو التَّقَوُّلِ حال كونهم ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ وظانين فِينَا العَجْز عن الأخذ وَالانْتقام منهم، أو في الأنبياء العَجْز عَن إثباتِ نبوّتهم، أو مُعانِدين لنا أوْلِـهُم، أو مسابِقين لهم لِيُؤخروهم ويُعْجِزوهم ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ السَاعُونَ المُعاجِزُونَ ﴿أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ﴾ ومُلازِمُو النّار.

وفي بعض الروايات: أنّ الجَحِيم اسمٌ لِدَرَكةٍ مِن دَرَكاتِ جَهَنّم[1].

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[٥٢]

ثُمّ لمّا أثّر تَكذِيبُ المشركين وَاستِهزاؤهم بما وَعَدهم الرّسُول مِن الثّواب عَلَى الإيمان وَأوْعَدَهُم مِن العِقاب في قَلْبِه الشريف غايةَ التّأثير، بالَغَ سبحانه في تَسْلِيَته بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ في أمّةٍ أو قَرْيةٍ ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ يُوحىٰ إليه بتوسّط جَبْرَئيل ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ يُوحىٰ إليه في مَنامه على قول بعض المفسرين[2] ومَدْلُول بعض الروايات[3] ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ قَبولَ دَعْوَته ورواج دينه، أو إذا بَلَّغ عَنِ اللهِ ما أوحي إليه ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ﴾ الطَّعْنَ والْقَدْح ﴿فِى أُمْنِيَّتِهِ﴾ وما أخْبَر به عَن الله، أو أحْدَثَ المَوانِعَ عَن نُفوذ دعوته ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ ويُبْطِل ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَانُ﴾ في ألْسِنَة مُعارِضِيه مِن الطَّعْنِ وَالاعتراضات، ويَرْفَعُ ما يُبْدِعُه مِن المَوانِع ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ﴾ ويُثْبِتُ ﴿آيَاتِهِ﴾ ويُسَدِّدُها فِي القُلُوب بإظْهارِ دلائل صِدْقها، ودَفْعِ الشُّبُهات عنها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِمَقالاتِ الأنبياءِ وَالرُّسُل، وما يُورِدهُ الشَّيْطانُ عَلَيْها مِن الطَّعْن وَالاسْتِهْزاء وَالتَّكْذِيب عَلى لِسان العُتاةِ وَالمَرَدَةِ مِن الإنْس ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي إنزالِ الآياتِ وتَمكِينِ الشَّيْطانِ عَلى إلقاءِ ما يَشاءُ فِي ألسِنَةِ أتْباعِه.

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٨.
٢. تفسير البيضاوي ٢: ٩٣، تفسير أبي السعود ٦: ١١٣.
٣. الكافي ١: ١/١٣٤، و: ٣/١٣٥.

فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[٥٣ و ٥٤]

ثُمَّ بَيَّن اللهُ بَعْضَ حِكَمِه ومَصالِحِه بقوله: ﴿لِيَجْعَلَ﴾ اللهُ ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَانُ﴾ في قُلوبِ الكُفّارِ وَألْسِنَتِهم ﴿فِتْنَةً﴾ وَابْتِلاءً عَظِيماً ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مُهْلِك لا مَرَضَ أشَدُّ مِنه كَالشَّكِ وَالنِّفاقِ وَالكِبْرِ وَالحَسَدِ وحُبِّ الدُّنيا ﴿وَ﴾ لِلْكَفَرَةِ ﴿ٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الشَّدِيدَةُ الصَّلابةِ أفئِدَتُهم ﴿وَإِنَّ﴾ الفِرَقَ ﴿ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنْفُسِهم بالكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَالنِّفاقِ ﴿لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ عَنِ الحَقِّ والسَّعادَةِ وعَداوَةٍ شَدِيدَةٍ للرَّسُولِ وَكِتابِهِ وَدِينِه ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ﴾ آمَنُوا وَ﴿أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ بِجِهاتِ إعجازِ القُرآن وكَمالِ دِينِ الإسلام ﴿أَنَّهُ الحَقُّ﴾ النازِلُ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ عِلْماً لا يَزُولُ بِتَشْكِيكِ المُشَكِّكِين ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ إيماناً كامِلاً ﴿فَتُخْبِتَ﴾ وتَخْشَع ﴿لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ وتَتَواضَع لِعَظَمَتِه أفئِدَتُهم وجَوارِحُهُم ﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ بِتَوْفِيقِه وتَأْيِيدِهِ ﴿لَهَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الأمُور الدِّينية عِنْدَ تَراكُم ظُلُماتِ الشُّبُهاتِ وَاخْتِلافِ شُعَبِ الضَّلالِ ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وَالمَنْهَجِ القَوِيم المُوصِلِ إلى الحَقِّ.

وَاعْلَم أنَّ تَفْسِيرَ هذِه الآياتِ مِن المُشْكِلاتِ التي زَلَّتْ فِيها أقْدامُ الأعْلام مِن العامّة، حيثُ فَسَّرُوها بوُجُوهٍ لا يُمْكِنُ الالْتِزامُ بها للَّذِين شَمُّوا رائِحَة الإيمان، وَلِذا أعرَضْنا عَن نَقْلِها، بَل لَوْ كانَ الأمْرُ إلَينا لمَحَوْناها مِن الدَّفاتِرِ والكُتُب.

وَأمّا أصحابُنا الإماميّة فقد رَوى بَعْضُهم عَن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآية أنّه قال: «يعني ما مِن نَبِيٍّ تَمَنّى مُفارَقَة ما يعانيه مِن نِفاقِ قَوْمِه وعُقُوقِهم، وَالانْتِقالُ عَنْهم إلى دارِ الإقامَة، إلّا ألْقَى الشَّيْطانُ المُعْرِضُ بِعَداوَتِه عِنْد فَقْدِه في الكِتابِ الذي أُنْزِل عَلَيه ذَمَّه وَالقَدْحَ فيه وَالطَّعْنَ عليه، فَيَنْسَخُ اللهُ ذلك مِن قُلُوب المُؤمِنِينَ فلا تَقْبَلُهُ، ولا تُصْغي إليه غَيْر قُلُوبِ المُنافِقِينَ وَالجاهِلِينَ. وَيُحْكِمُ الله آياتِهِ بأن يَحمِي أولِيائَه مِن الضَّلالِ وَالعُدْوانِ ومُشايَعَة أهْلِ الكُفْرِ وَالطُّغْيانِ الَّذِينَ لَمْ يَرْضَ اللهُ أنْ يَجْعَلَهُم كالأنعامِ حتى قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾»[1].

وروى القمي عن الصادق عليه السلام: «أنّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله أصابه خَصاصَة[2]، فَجاءَ إلى رَجُلٍ مِن الأنصارِ فقال له: هَلْ عِنْدَك مِن طَعام؟ قال: نَعَم يارسول الله، وذَبَح له عَناقاً[3] وشواه، فلمّا أدناهُ مِنْه تَمَنّى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله أنْ يَكُونَ مَعَهُ عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فجاء أبوبكر وعمر، ثُمّ جاءَ علي عليه السلام بَعْدَهما، فأنزلَ اللهُ فِي ذلك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلّا إذا تَمَنَّى أَلْقَى

---

١. الاحتجاج: ٢٥٧، تفسير الصافي ٣: ٣٨٦، والآية من سورة الفرقان: ٢٥/٤٤.

٢. الخَصاصَة: الحاجة.

٣. العَناق: الأنثى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول.

الشَّيْطانُ في أُمْنِيّتِه﴾ يعني أبا بكر وعمر ﴿فَيَنسَخُ آللهُ مَا يُلْقِى آلشَّيْطَانُ﴾ يعني لمّا جاء عليّ عليه السلام بَعْدَهما ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِه﴾ يعني سَيَنْصُرُ اللهُ أميرَ المؤمنين عليه السلام ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى آلشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ يعني فلاناً وفلاناً ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: شَكٌّ»[1].

أقول: أمّا الروايةُ الأولى فَفَهْمُ المرادُ منها في غاية الإشكال، وأمّا الثانيةُ فلا شُبْهَةَ أنها بَيانُ التأويل لَا التَّنْزِيل.

وَلَا يَزَالُ آلَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ آلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ * آلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا آلصَّالِحَاتِ فِى جَنَّاتِ آلنَّعِيمِ * وَآلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [٥٥ ـ ٥٧]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه حالَ الكُفار ثُمّ حالَ المؤمنينَ، عادَ إلى بَيانِ إصرار الكُفّار عَلَى الكُفْرِ، وَاسْتِمرار شَكِّهم فِي صِدْقِ القُرآن أو الرَّسُول بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ آلَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ﴾ وَشَكٍّ ﴿مِنْهُ﴾ أو فِي مِرْيَةٍ مِن صِدْقِ الرَّسُول ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ آلسَّاعَةُ﴾ والقِيامَةُ ﴿بَغْتَةً﴾ وفَجْأةً وعَلى غَفْلَةٍ مِنْهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ لا يَوْمَ بَعده لأنَّه لا لَيْلَ لَهُ، أوْ لا يَوْمَ بَعْدَهُ مِثْله لِعِظَم أمْرِه، أو المراد أنَّه لا يَرَوْنَ لأنْفُسِهم فيه خيراً، وهو يَوْمُ نُزُولِ العَذابِ عليهم.

وقيل: إنّه يَومُ القيامةِ وَالسَّاعَةُ مِن مُقَدَّماته، فلا تَكرارَ في الآية[2].

﴿آلْمُلْكُ﴾ وَالسَّلْطَنَةُ التامَّةُ الظاهريَّةُ وَالواقعيَّةُ ﴿يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ وَحْدَه، والحُكُومَةُ بَيْنَ العِباد مُخْتَصَّةٌ بِه، لا حاكَم فيهم سِواه، وهو ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بالعَدْل، ثُمَ فَسَّرَ حُكْمَه بينهم بقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرَّسُول والقرآن، ولم يُجادِلوا في شيءٍ مِن الْحَقِّ بالباطل ﴿وَعَمِلُوا آلصَّالِحَاتِ﴾ وأطاعُوا أحكامَ اللهِ المُنزَلة في كتابه، أُولئك في الآخرة مُتمكِّنون ﴿فِى جَنَّاتِ آلنَّعِيمِ﴾ وبسَاتِينَ كثيرة النِّعم ﴿وَآلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ باللهِ ورسوله وكتابه ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة في القُرآن، وأصَرُّوا وَاسْتَمَرُّوا عليه ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ﴾ في ذلك اليوم ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ومُذِلّ لهم، ومُذْهِبٌ بِعِزِّهِم وَكِبْرِهِم.

وَآلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ آللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ آللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ آللهَ لَهُوَ خَيْرُ آلرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ آللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ [٥٨ ـ ٥٩]

---

١. تفسير القمي ٢: ٨٥، تفسير الصافي ٣: ٣٨٦.
٢. تفسير الرازي ٢٣: ٥٦.

ثُمَّ فَخَّمَ شأنَ المُهاجِرين مِن المُؤمنين بِتَخْصِيصِهِم بالذِّكْر والوَعْد بالثَّواب بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وخَرَجُوا مِن أوْطانِهِم ﴿فِى سَبِيلِ اللهِ﴾ وطَلَباً لِمَرْضاتِه، وتَرْوِيجاً لِدينه، ونُصْرَةً لرسوله ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ فِي الجِهاد، أو في طريق المُهاجَرَة ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ حَتْفَ الأنْفِ فيه، بالله ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ ويُنْعِمُ عليهم بِعيشَةٍ مَرْضِيَة ونِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ دائمةٍ ﴿وَإِنَّ ٱللهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ﴾ حيث إنه تعالى يَرْزُقُ بِلا عِوَضٍ ولا مِنَّةٍ ولا حساب.

ثُمَ أنه تعالى بعد بيان رِزْقِهِم، بَيَّن مَسْكَنَهم بقوله: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً﴾ وَلَيُسْكِنَنَّهم مَسْكَناً ﴿يَرْضَوْنَهُ﴾ ويَفْرَحُونَ به، وهو الجَنَّةُ التي فيها مالا عَيْنٌ رَأتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ فِي قَلْبِ بَشَر، فَيَرْضَونَه وَلا يَبْغُونَ عَنها حِوَلاً، كما عن ابن عباس[1].

وقيل: إنَه خَيْمَةٌ مِن دُرَّةٍ بَيْضاء لا فَصْمَ فيها ولا وَصْم، لها سَبْعُونَ ألف مِصْراع[2].

﴿وَإِنَّ ٱللهَ لَعَلِيمٌ﴾ بما يستحقُّونَه أوْ يَرْضَوْنَه فَيُعْطِيهم ويَزِيدُهم مِن فَضْلِه ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعَجِّل بعقوبة أعدائه وعُصاةِ خَلْقِه لِيَتُوبُوا.

رُوي أنّ طَوائف مِن أصحابِ النبيِّ ﷺ قالوا: يا رسول الله، هؤلاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا قد عَلِمْنا ما أعطاهُم اللهُ مِنَ الخَيْرِ، ونَحْنُ نُجاهِد مَعَك كما جاهَدُوا، فَمالنا إنْ مُتْنا مَعَك؟ فأنزل اللهُ هاتَيْنِ الآيَتَيْن[3].

وعن أنَس، عن النبيِّ ﷺ قال «المقتولُ فِي سَبِيلِ الله، وَالمُتَوَفىٰ في سبيلِ اللهِ بِغَيْرِ قَتْلٍ [هُما] في الخَيْرِ وَالأجرِ شَرِيكانِ»[4].

ذٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللهُ إِنَّ ٱللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱللَّيْلِ وَأَنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ[٦٠ـ٦٢]

ثُمَ أكَّدَ سبحانه الوعد بقوله: ﴿ذٰلِكَ﴾ قيل: يعني الأمْرُ ما بَيَّنّا لك مِن إنْجازِ الوَعْد لِلْمُهاجِرينَ الَّذِينَ قُتِلوا أو ماتُوا[5].

ثمَ وَعَد سبحانه المُهاجرَ الذِي قاتَل اضْطِراراً بالنَّصْرِ في الدُّنْيا وَالأجْرِ في الآخِرَة بقوله: ﴿وَمَنْ

١. تفسير الرازي ٢٣: ٥٨، تفسير أبي السعود ٦: ١١٦.
٢. تفسير الرازي ٢٣: ٥٨.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ٥٨، تفسير روح البيان ٦: ٥٢.
٤. تفسير الرازي ٢٣: ٥٨.
٥. تفسير الرازي٢٣: ٥٩.

عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ وقاتَلَ مَن يُقاتِلُه وجازي الظَّالِمَ عَلَيْهِ بِمِثْل ظُلْمِه ولَمْ يَزِد ﴿ثُمَّ بُغِيَ﴾ وظُلِم ﴿عَلَيْهِ﴾ بأنْ اضْطرّ إلى الهِجْرةِ باللهِ ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ ويُعِينُه على مَنْ[١] بغى عليه البتّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ للمُنْتَصر.

قيل: نَزَلت في قومٍ مِن المُشْركين لَقُوا قوماً مِن المُسْلِمين للَيْلَتَينِ بقيتا مِن المحَرم، فقال بعضهم لبعض: إنّ أصحابَ محمّد يَكْرَهُونَ القِتالَ في الشَّهر الحَرام، فاحْمِلوا عليهم. فَناشَدَهُم المُسْلِمونَ أنْ يَكفُّوا عَن قِتالِهم فَأبَوا وقاتَلُوهم، فَذلِكَ بَغْيُهُم عَلَيْهِم، وثبت المسلمون لهم، فَنُصِرُوا عَلَيْهِم، فَوَقَع في أنْفُس المسلمينَ مِن القِتال في الشَّهْرِ الحرامِ ما وَقَع، فأنْزَلَ الله تعالى هذه الآية وعفا عَنْهُم وَغَفَر لهم[٢].

وعن القمّي: هو رسول الله ﷺ لمّا أخْرَجَتْه قريش مِن مكّة، وهَرَبَ منهم إلى الغارِ، وطَلَبُوه لِيَقْتُلُوه، فعاقَبَهُم اللهُ يومَ بَدْر. وقُتِل عُتْبَة وشَيْبة والوليد وأبو جهل وحنظلة بن أبي سفيان وغيرهم. فلمّا قُبِض رسول الله ﷺ طُلِب بدمائهم، فَقُتِل الحسينُ عليه السلام وآل محمّد ﷺ بَغْياً وعُدواناً، وهو قول يزيد لعنه الله حين تمثّل بهذا الشعر: لَيتَ أشياخِي بِبَدْر شَهِدُوا...إلى آخره.

فقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ يعني رسولَ الله ﷺ ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ يعني حِينَ أرادوا أنْ يَقْتُلوه ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ يعني بالقائم مِنْ وُلْدِه[٣].

قيل: إنّ توصيفَ ذاتِه المقدّسة بِالْعَفُوّ وَالْغَفُور مَعَ أنّه لا ذَنْبَ لِلْمُعاقِب؛ لأنّ الْعَفْوَ عَنِ الباغي في غايَةِ الحُسْن، فَنَزَّل سبحانه تَرْكَه منزلة الإساءة، فَنَبّه على عَفْوه عنها، أو لِلتَّنْبِيه عَلى أنّ الإتّصافَ بصفاتِ اللهِ غايةُ آمالِ المؤمنين، وَمِن صِفاتِه تعالى أنّه عَفُوٌّ غَفُورٌ، فَيَحْسُن منهم العَفْو وَالغُفْران.

﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ قادِرٌ عَلى كُلِّ شَيْءٍ، بِدَليل أنّه تعالى ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ ويَغْلِبُ أحَدُهما على الآخر بالزِّيادة وَالنَّقْص، فكيف بِتَغْلِيبِ المُؤمنين عَلَى المشركين ﴿وَ﴾ بسبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ مَعَ كَمالِ قُدْرَتِه ﴿سَمِيعٌ﴾ لِمَقالاتِ الظّالِمين وَالمَظْلُومِين ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمالِهم، فَيُجازِيهم عَلىٰ حَسَبِ أعمالِهم وَاسْتِحقاقِهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور مِن القُدْرَةِ الكامِلَةِ وَالْعِلْم الشّامِلِ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابتُ والواجبُ الوجودُ الَّذِي لا زَوالَ لَهُ ولا نَقْصَ ولا عَجْزَ ولا جَهْلَ، وأنّه متفرِّد بالألُوهِيّةِ وَاسْتِحقاق العِبادَة ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ ويَعْبُدُون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ مِن الكَواكِبِ وَالأصنام ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ والفاني العاطِل، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ الفائِقُ بِقُدْرَتِه الغالِبُ عَلى

---

١. في النسخة: ما. ٢. تفسير الرازي ٢٣: ٥٩.
٣. تفسير القمي ٢: ٨٦، تفسير الصافي ٣: ٣٨٨.

كُلٍّ بِذاتِه ﴿ٱلكَبِيرُ﴾ والعَظِيم في سُلطانه، المتعالي أنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ في مُلْكِه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ ٱلسَّماءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ ٱللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَهُوَ ٱلَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَكَفُورٌ[٦٣ ـ ٦٦]

ثمّ أنه تعالى بعد الاستدلال على كَمال قُدْرَته بتصرّفه في أجزاء الزمان وتَغْيِيره اللَّيْلَ وَالنَّهارَ، اسْتَدَلَّ عليه بتصرُّفِه في السَّماءِ وَالأرض بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيُّهَا الإنسانُ بِعَيْنِ قَلْبِك ونُورِ عَقْلِك ﴿أَنَّ ٱللهَ﴾ بِقُدْرَتِه ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً﴾ نافِعاً بالأمْطارِ ﴿فَتُصْبِحُ﴾ وتَصِيرُ ﴿ٱلأَرْضُ﴾ بِنُزُولِ المَطَرِ عَلَيْها ﴿مُخْضَرَّةً﴾ بالنَّباتِ وَالزَّرْع، وإنّما قال ﴿فَتُصْبِحُ﴾ بدل أصْبَحَتْ للدَّلالَةِ عَلَى التَّجَدُّدِ والحُدُوثِ وبَقاءِ أثَرِ المَطَرِ زَماناً بَعْدَ زَمانٍ ﴿إِنَّ ٱللهَ لَطِيفٌ﴾ بِعِبادِهِ، وَلِذا فَعَل ذلك كَيْ يَعْظُم انْتفاعهم ﴿خَبِيرٌ﴾ وعالِمٌ بِمَقادِير مَصالِحِهم.

وعن ابن عباس: لَطِيفٌ بأرزاقِ عِبادِه، خَبِيرٌ بِما في قُلُوبِهم مِن القُنُوط[1].

وقيل: لَطِيفٌ باسْتِخراجِ النَّبْتِ، خَبِيرٌ بِكَيْفِيَةِ خَلْقِه[2].

وقيل: لطيف في أفعاله، خَبِيرٌ بأعمالِ خَلْقِه[3].

﴿لَهُ﴾ تعالى وَحْدَه ﴿مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقاً ومِلْكاً وتَصَرُّفاً ﴿وَإِنَّ ٱللهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ بذاته عَنْ كُلِّ شيء ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستوجب للثَّناءِ عليه في صِفاته وأفعاله ﴿أَلَم تَرَ﴾ أيُّهَا الإنسانُ بِبَصِيرَةِ قَلْبِك، وَلَمْ تَعْلَم بِهِدايَةِ عَقْلِك ﴿أَنَّ ٱللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن المَوجودات، وذَلَّلَها تحت إرادتكم تَتَصَرَّفُونَ فيهاكيف شِئْتُم ﴿وَ﴾ سَخَّر لكم ﴿ٱلفُلْكَ﴾ بأنْ تَرْكَبُوها وتَحْمِلوا الأثْقال عَلَيْها حالَ كونها ﴿تَجْرِى﴾ وتَسِيرُ ﴿فِى ٱلبَحْرِ﴾ إلى البِلادِ البَعِيدَةِ ﴿بِأَمْرِهِ﴾ تعالى وإرادَتِه ﴿وَيُمْسِكُ﴾ ويَأخُذُ ﴿السَّماءَ﴾ فَوْقَكُم، مَحْفُوظَةً مِنْ ﴿أَنْ تَقَعَ﴾ أو كَراهَةَ أنْ تَقَعَ، أو كَيْلا تَقَعَ ﴿عَلَىٰ ٱلأَرْضِ﴾ بِسَبَبٍ مِنَ الأسْبابِ ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ تعالى ومَشِيئَتِه ﴿إِنَّ ٱللهَ﴾ أنْعَمَ بِهٰذِهِ النِّعَمِ العِظامِ لأنّه ﴿بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ﴾ وشَدِيدُ المَحَبَّة ﴿رَحِيمٌ﴾ وعَطُوفٌ بِهِم.

عن الصادق عليه السلام [عن أبيه، عن آبائه] عن النبي صلى الله عليه وآله أنه بَعْدَ ذِكْرِ الأئِمَّةِالاثْني عَشَر بِأسْمَائِهم قال:

---

١ ـ ٣. تفسير الرازي ٢٣: ٦٢.

«وَمَنْ أنْكَرَ واحِداً منهم فَقَدْ أنْكَرَني، بِهِمْ يُمْسِكُ اللهُ السَّماءَ أنْ تَقَعَ عَلَى الأرْضِ إلّا بِإذْنِه، وَبِهِمْ يَحْفَظُ [الله] الأرْضَ أنْ تَميدَ بِأهْلِها»[١].

﴿وَهُوَ﴾ الإلٰهُ القَادِرُ ﴿الَّذِى أحْياكُم﴾ بَعْدَ ما كُنْتم تراباً ونُطفاً بلا حياة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بَعْدَ انقِضاءِ آجالِكُمُ المُقَدَّرَة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في القُبُورِ للبَعْثِ وَالنُّشُور.

قيل: إنّما ذَكَر هذان الإحياءان[٢] للدَّلالَة عَلى أنَّ سائر النِّعَم لذلك[٣].

ثمّ نبّه سبحانه على غايَةِ جَهْلِ النّاسِ بقول: ﴿إنَّ ٱلْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ لِنِعَمِ مُنْعِمِه حيث إنه مُسْتَغْرَقٌ في نِعَمِ اللهِ ويَعْبُد غَيْرَه.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدىً مُّسْتَقِيمٍ * وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ ٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ[٦٧ و ٦٨]

ثُمَّ أنه تعالى بَعْدَ ذِكْرِ النِّعَمِ الدُّنْيويَّةِ ذَكَر نِعْمَتَه الدِّينِيَّة بقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ وأهلِ عَصْرٍ ﴿جَعَلْنا﴾ وشَرَعْنا ﴿مَنْسَكاً﴾ وشَرْعاً ومَذْهَباً خاصّاً بِهِم ﴿هُمْ﴾ بالخُصُوصِ ﴿ناسِكُوهُ﴾ وآخِذُوه، لا يَجُوزُ لَهُمْ التَّعَدّي إلى مَنْسَكِ غَيْرِهِم، وَالعَمَلِ بِشَرِيعَةِ أُمَّةٍ اُخرى، فإذا كانت أحكامُه تعالى مُخْتَلِفَةً بِاخْتِلافِ الأمَمِ ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ ولا يُجادِلُنَّك في أحكامِ الدِّينِ، بَلْ عَلَيْهم اتِّباعُك وَالعَمَلُ بِشريعتِك ﴿وَٱدْعُ﴾ جَميعَ النّاس ﴿إِلَىٰ﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ﴾ ودينه وعبادته ﴿إِنَّكَ﴾ واللهِ ﴿لَعَلَىٰ هُدىً مُّسْتَقِيمٍ﴾ وطَرِيقٍ مُوصِلٍ إلى كُلِّ خَيْرٍ، وهو دِينُ الإسلام ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ﴾ في الحَقِّ الذِي أنْتَ عليه، وعَدَلُوا عن طَرِيقِ الإنصافِ إلى طريقِ اللَّجاجِ وَالمِراءِ، فَلا تُجادِلْهُم أنتَ بعد وُضُوحِ الحَقِّ ودَلالةِ البراهِينِ القاطِعَةِ على صِحَّةِ دِينك ﴿فَقُلْ﴾ إعْراضاً عنهم ورِفْقاً بهم ﴿ٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وتَرْتَكبُونَ مِن المُجادَلَةِ الباطِلَةِ وَغَيْرِها مِن السَّيِّئاتِ، فَيُجازِيكُمْ عليها أسْوَءَ الجَزاء.

ٱللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ فِيما كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذٰلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيرٌ[٦٩ و ٧٠]

ثمَ أخْبَرَ سبحانه نَتيجةَ عِلْمِه بأعمالِهِم بقوله: ﴿ٱللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ فِيما كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أمْرِ الدِّينِ بإثابَةِ المُحِقِّ وتَعْذِيبِ المُبْطِل.

---

١. كمال الدين: ٣/٢٥٩، تفسير الصافي ٣: ٣٨٩.

٢. في النسخة: هذه الإحياء.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ٦٣.

ثمَ اسْتَدَلَّ سبحانه عَلى عِلْمِه بأعْمالهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أيُّهَا الإنسانُ بِشَهادَةِ عَقْلِك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الخالِقَ لِجَمِيعِ الأشياءِ ﴿يَعْلَمُ﴾ لا محالَة ﴿مَا فِى ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لعدم إمكانِ خَفاءِ مَخْلوقاتهِ عليه ﴿إِنَّ ذٰلِكَ﴾ المَذْكُورِ مِمّا في السَّماءِ وَالأرْضِ مُثْبوتٌ ﴿فِى كِتَابٍ﴾ مُبِينٍ ولَوْحٍ مَحْفُوظٍ مِن قَبْلِ أنْ يَبْرَأه ويَخْلُقَه ﴿إِنَّ ذٰلِكَ﴾ المَذْكُور مِن إحاطَةِ عِلْمِه بالموجودات وثَبْتِها في اللَّوْحِ ﴿عَلَىٰ ٱللَّهِ﴾ الخالِق لها سَهْلٌ ﴿يَسِيرٌ﴾ بِحَيْثُ لا يَحتاجُ إلى إرادَتِه.

قيل: فائِدةُ ثَبْتِ الموجوداتِ في الكِتَابِ نَظَرُ المَلائِكَةِ فيه، فَإذا رَأوْه مُطابَقاً للموجودات يَزِيدُ مَعْرِفَتهم بِسَعَةِ عِلْمِه تعالى[1].

وقيل: إنّ المُرادَ بالكتابِ حِفْظُه تعالى لِجَمِيعِ الأشياء[2]، ومعنى قوله: ﴿إِنَّ ذٰلِكَ فِى كِتَابٍ﴾ إنّه مَحْفُوظٌ عِنْدَه.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِن ذٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ[٧١و ٧٢]

ثمَ أنّه تعالى بعد بيان نِعَمِه وكمالِ قُدْرَتِه وَعِلْمِه، وَبَّخَ المُشْرِكينَ على عِبادَةِ الأصنام بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ وحُجَّةً مِن السَّمْعِ وَالعَقْل ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم﴾ بأحَدِ الطُّرُقِ المُوجِبَةِ لِلْعِلْم ﴿بِهِ﴾ وبِجَوازِ عِبادَتِه ﴿عِلْمٌ﴾ فَإذا لَمْ يَسْتَنِدْ مَذْهَبُ الشِّرْكِ إلى دليلٍ، ولَمْ يَكُنْ التِزامُهُم به مِنْ عِلْمٍ، فيكونُ تَقْليداً، أوْ جَهْلاً وَاتّباعاً للهَوى، وهذا مِن أقْوَى الدَّليلِ عَلَى بُطْلانِه، وَمِن المَعْلُومِ أنَّ الالْتِزامَ بِه عَيْنُ الظُّلْم عَلَى النَّفْس ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ على أنْفُسِهم باخْتِيارِ الشِّركِ ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ ومُدافِعٍ يَنْصُرُهُم ويَدْفَعُ العَذابَ عَنْهُم.

وقيل: يعني مالهم ناصِرٌ بالحُجَّة، لأنَّ الحُجَّةَ لا تَكونُ إلّا لِلْحَقِّ[3].

ثُمَ ذَمَّهُم سبحانه على شِدَّةِ عِنادِهم للْحَقِّ بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ وتُقْرَأُ ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ القُرآنيَةُ حال كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضِحاتِ الدِّلالاتِ عَلى أنّها كَلامُ اللهِ ﴿تَعْرِفُ﴾ وتَتَبَيَّنُ ﴿فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمُنكَرَ﴾ وَالجُحُودَ بِكَونِها مِنَ اللهِ. أو تَعْرِفُ في وُجوهِهم التَجَبُّرَ والتَّرَفُّعَ، كما عن ابن عباس[4]. أو

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٣: ٦٦.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ٦٦.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٦٧.

الكَراهِيَّةَ لِلْقُرآن بِحَيْثُ ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ ويَبْطِشُونَ ﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ وَيَثِبُونَ عليهم مِن شِدَّةِ غَيْظِهِم وَانْضِجارِهِم مِن تِلاوَتِها ﴿قُلْ﴾ يا محمد رَدّاً عليهم وإقناطاً لهم مِمّا يَقْصِدُونَه مِن الإضْرارِ بالتّالِين: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُمْ﴾ وأُخبِرُكم ﴿بِشَرٍّ مِن ذٰلِكُمُ﴾ الذي تَهُمُّونَ بِه مِن البَطْشِ وَالوُثُوبِ عَلى تالِي القُرآنِ، أو الكَراهِيَّةَ والضَّجَرَ الذي يُصِيبُكُم باسْتِماعِ ما تُلِي عَلَيكم، وهو ﴿ٱلنَّارُ﴾ التي تَصْلَونَها بِسُوءِ فِعالِكم، وهِيَ التي ﴿وَعَدَهَا﴾ اللهُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إذا ماتُوا على كُفرِهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النّارُ وساءَ المَرْجِعُ هِي.

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ[٧٣]

ثُمّ أنّه تعالى بعد بيان عَدَمِ الحجَّةِ على جواز عِبادَةِ الأصنامِ، أقامَ الحُجَّةَ على عَدَمِ جَوازِها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ بَدِيعٌ وذُكِر لكم بُرهانٌ قاطِعٌ على عَدَم جواز عِبادَةِ الأصنام ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ وتدبَّرُوا فيه حَقَّ التدبُّر ﴿إِنَّ﴾ الأصنامَ ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً﴾ مَعَ غايَةِ صِغَرِه وَضَعْفِه، بَلْ لَنْ يَقْدِرُوا عَلى إيجادِ جُزْءٍ منه ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ﴾ وتَظاهَرُوا عَلَيه، فكيفَ بِحالِ انْفِراد كُلِّ فَرْد ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ﴾ وَيَجْتَذِبْ مِنْهُم ﴿شَيْئاً﴾ قَليلاً أو جَليلاً ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ﴾ ولا يَسْتَرِدُّوه ﴿مِنْهُ﴾ مع كَمالِ ضَعْفِه ﴿ضَعُفَ﴾ عابِدُ الصَّنَم ﴿ٱلطَّالِبُ﴾ مِنْهُ النَّفْعَ وَالشَّفاعَةَ ﴿وَ﴾ الصَّنَمُ ﴿ٱلْمَطْلُوبُ﴾ مِنْهُ العَوْن، أو ضَعُفَ الذُّبابُ الطالِبُ لِما يَسْلُبُه مِن الصَّنَمِ، وَالصَّنَمُ المَطْلُوبُ مِنْه.

قيل: إنّ المشركين كانُوا يَطلُونَ أصنامَهُم بالعَسَل والخَلُوقِ، وَيَسُدُّونَ أبوابَ بُيُوتِ الأصنام عَلَيها، ثُمّ يَدْخُلُ الذُّبابُ عَلَيها ويأكُلُ جَميعَ الطِّيبِ وَالعَسَلِ الذِي عَلَيْها، ثُمّ يَجِيئُونَ بعدَ أيام ويَفْتَحُونَ الأبوابَ، فَإذا لم يَجِدُوا أثَر العَسَلِ وَالطِّيبِ عَلَيها فَرِحُوا[١].

وقيل: إنّ الصَّنَمَ كَالطَّالِبِ لِخَلْقِ الذُّبابِ، وَالمَطْلُوبُ الذُّبابُ[٢].

مَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ ٱللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱللهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللهِ

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٦١.
٢. تفسير الرازي ٢٣: ٦٨.

تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ[٧٤_٧٦]

ثُمّ وَبّخَ سبحانه المشركين على غايَةِ جَهْلِهِم بقوله: ﴿مَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وما عَرَفُوه مَعْرِفَةً يَعُدُّهَا العَقْلُ مَعْرِفَةً، وما عَظَّمُوه تَعْظِيماً يَلِيقُ بِه، حَيْثُ جَعَلُوا الأصنامَ التِي تَكُون في غايَةِ الخَساسَةِ وَالضَّعْفِ شُرَكاءَ للهِ القادِرِ العَظِيمِ فِي الألُوهِيَّةِ وَالعِبادَةِ ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ﴾ عَلى خَلْقِ المُمْكِناتِ وَإعدامِ المَوجُودات ﴿عَزِيزٌ﴾ وغالِبٌ على جَمِيعِ الأشياءِ ولا يَغْلِبُ عليه شَيءٌ.

ثُمّ أنه تعالى بعدَ إبطالِ مَذْهَبِ عَبَدَةِ الأصنامِ، أبطَلَ القَوْلَ بألُوهِيَّةِ الملائكة بقوله: ﴿ٱللهُ يَصْطَفِى﴾ ويَخْتارُ بَعْضاً ﴿مِنَ ٱلمَلائِكَةِ﴾ كجَبْرئيل وميكائيل ﴿رُسُلاً﴾ بِيْنَه وَبَيْنَ أنبيائه ﴿وَ﴾ بَعْضاً ﴿مِنَ النّاسِ﴾ أيضاً رُسُلاً بينه وبين عباده، فَالمَلائِكَة كُلُّهُم كَالأنبياءِ عَبِيدُهُ وخَدَمُه، مُطِيعُون لأمْرِه، مَحْكُومُونَ بحُكْمِه، مَقْهُورُونَ تَحْتَ قُدْرتِهِ وَإرادَتِه ﴿إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ﴾ لأقْوالِهِم ﴿بَصِيرٌ﴾ بِأحْوالِهِم وَأعْمالِهِم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وَمَا مَضَى مِن أعْمالِهِم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وَيأتي مِن أعْمالِهِم، أو العَكْس، أو مِنْ أمْرِ آخرَتِهِم وَأمْرِ دُنْياهُم.

ثُمّ إنّه تعالى بعد بيان إحاطة عِلْمِهِ بِهِم، بَيَّنَ كَمالَ قُدْرَتِه عليهم بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ كُلُّها؛ لأنه مالِكُها ومُدَبِّرُها، فَلا يَمْلِكُ أحَدُهُم لِنَفْسِهِ نَفْعاً وَلا ضَرّاً.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[٧٧]

ثُمّ أنه تعالى بعد إثباتِ تَوْحِيده، وَإبطالِ عِبادَةِ الأصنامِ وَالمَلائِكَةِ، دَعا النّاسَ إلى عِبادَةِ ذاتِهِ المُقَدَّسَةِ وَالخُضُوعِ لَه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللهِ وَوَحْدانِيَّتِه ﴿ٱرْكَعُوا﴾ للهِ ﴿وَٱسْجُدُوا﴾ لَهُ وَاخْضَعُوا وَتَواضَعُوا لِعَظَمَتِه.

قيل: إنّ المراد بالرُّكُوعِ وَالسُّجُود هنا هو الصلاة، لكونهما أعْظَمَ أجزائها[١].

وعن ابن عباس: إنّ النّاسَ في أوّلِ إسلامهم كانوا يَركَعُون ولا يَسْجُدُونَ حتى نَزَلَتْ هذه الآيَة[٢].

وقيل: كانوايَسْجُدُونَ بِغَيْرِ رُكُوعٍ حتى نزلت[٣].

وقيل: كانتِ الصَّلاةُ قياماً وقُعُوداً حتى نزلت[٤].

﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ في جَمِيعِ الأمُورِ، وأطِيعُوا أوامِرِه ونَواهيه، وَأخْلِصُوا لَه في العِبادَةِ، ولا تُشْرِكُوا

١و٢. تفسير الرازي ٢٣: ٧١.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٦٣.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٦٣.

به شَيْئاً ﴿وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ﴾ وتَحَرَّوا ما هو صَلاحُكم، أو الأصْلَحُ لكم في كلِّ ما تأتُونَ كالنوافل والفرائض، وصلة الأرْحام، والبِرِّ وَالإنفاقِ على الإخوانِ وَالفُقَراء، وَحُسْنُ البِشْر والقول ومكارِم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وبِكُلِّ خَيْرٍ مِن خَيْراتِ الدُّنيا تَفُوزُون.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ اللهَ تبارك وتعالى فَرَضَ الإيمانَ عَلى جَوارِحِ ابن آدَمَ، وقَسَّمَهُ عليها، وفَرَّقَه فِيها... وَفَرَضَ عَلَى الوَجْهِ السُّجُودَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ في مواقيتِ الصَّلاةِ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا﴾ هذه فريضةٌ جامِعَةٌ عَلَى الوَجْهِ وَاليَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْن»[1].

وعنه عليه السلام: «جُعِلَ الخَيْرُ كُلُّه فِي بَيْتٍ، وَجُعِل مِفْتاحُهُ الزُّهْدُ في الدُّنْيا»[2].

وَجَاهِدُوا فِى ٱللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَٱعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ[٧٨]

ثمّ أمَرَ اللهُ تعالى بأعظَم أنواعِ الخَيْراتِ بقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِى﴾ ذاتِ ﴿ٱللهِ﴾ أو قاتِلُوا الكُفّارَ وَ المُشْرِكِينَ في سَبِيلِهِ، وَمِنْ أجْلِهِ، وطَلَباً لِرِضاهُ ﴿حَقَّ جِهادِهِ﴾ وَاسْتَفْرِغُوا الوُسْعَ وأخْلِصُوا[3] النِيَّةَ فيه.

وعن ابن عباس: هُوَ أنْ لا تَخافُوا فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِم[4].

وقيل: إنّ المرادَ إعْمَلُوا [لله] حقَّ عَمَلِه[5].

وقيل: حَقّ جِهادِه هو مُجاهَدَة النَّفْسِ وَالهَوى[6].

رُوي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمَا رَجَعَ مِن غَزْوَةِ تَبوك قال: «رَجَعْنا مِن الجِهادِ الأصْغَرِ، فَعَليكُمْ بالجِهادِ الأكْبَر»[7]. قيل: يا رسول الله، وَمَا الجِهادُ الأكْبَر؟ قال: «هو أنْ تُجاهِدَ نَفْسَكَ التي بَيْنَ جَنْبَيْك»[8].

ثُمَّ حَثَّ سبحانه الناس فيه بقوله: ﴿هُوَ﴾ تعالى اللَّطِيفُ الَّذِي ﴿ٱجْتَبَاكُمْ﴾ بِلُطْفِه وَاصْطَفاكُم بِرَحْمَتِهِ لِدِينه، وَاخْتارَكُم لِنُصْرَةِ رَسُولِه وَتَرْوِيجِ شَرِيعَتِهِ، وَخَصَّكُم بالتَّوفِيقِ لِخِدْمَتِهِ وَالاشْتِغالِ بِطاعَتِهِ، وَهذا مِن أعْظَمِ التَّشْرِيفات، وَأفْضَلِ الكَراماتِ.

عن الباقر عليه السلام: «إيّانا عَنى، وَنَحْنُ المُجْتَبَون»[9].

---

١. الكافي ٢: ٢٩ ـ ١/٣١، تفسير الصافي ٣: ٣٩١.
٢. الكافي ٢: ٢/١٠٤، تفسير الصافي ٣: ٣٩١.
٣. في النسخة: وتخلصوا.
٤ ـ٦. تفسير الرازي ٢٣: ٧٢.
٧. تفسير الرازي ٢٣: ٧٢، تفسير البيضاوي ٢: ٩٧، تفسير أبي السعود ٦: ١٢٢، تفسير روح البيان ٦: ٦٤.
٨. معاني الأخبار: ١/١٦٠ تفسير الصافي ٣: ٣٩١.
٩. الكافي ١: ٤/١٤٧، تفسير الصافي ٣: ٣٨٩.

وَمِنْ ألطافِه أنه تعالى سَهَّلَ عليكم تكاليفه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ وتكاليفه شيئاً ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ ومَشَقَّةٍ وَضِيقٍ.

وعن ابن عباس، أنّه قال لبعض هُذيل: ما تَعُدُّونَ الحَرَجَ فِيكم؟ قال: الضِّيق[1].

وعن عائشة: سألت رسول الله عن ذلك فقال: «الضيق»[2].

نُقِل أنَ أبا هريرة قال: كيف قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ مع أنه تعالى مَنَعَنا عَنِ الزِّنا والسَّرِقَة؟ فقال ابن عباس: بلى، وَلكِنَ الإصْرَ الَّذِي كان على بَنِي إسرائيل وُضِعَ عَنْكُم[3].

وعن النبيّ ﷺ: «إذا اجْتَمَعَ أمْرانِ، فأحَبُّهما إلى اللهِ ايْسَرُهُما»[4].

وَمِنْ ألطافِهِ الخاصَة عَلَيْكُم أنه تعالى جَعَل مِلَّتَكُم - أيُّها العَرَب - ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أو المراد وَسَّعَ عليكم تَوسِعة مِلَّة أبيكُم إبراهيم، أو أعْنِي بالدِّينِ مِلَّة أبيكُم إبراهيم، فَإنَّ العَرَب كانُوا مُحِبِّينَ لإبراهيم لَكَوْنِهم أولادَه، فكان التَّنْبِيهُ عَلَيهِ حَثّاً لهم عَلى قَبُولِه وَانْقِيادِهِم له.

وقِيل: إن الخِطابَ لِعُمُوم المؤمنينَ، لأنّ الله جَعَلَ حُرْمَةَ إبراهيم كَحُرْمَةِ الوالِدِ عَلى وَلَدِه[5].

وَمِنْ ألطافه أنَه تعالى ﴿هُوَ﴾ الذي ﴿سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ في لِسانِ أنْبيائِه وكُتُبه السَّماوِيَّة ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ الزمان، أو في هذا القُرآن.

عن ابن عبّاس: أنّ الله ﴿سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أيْ فِي كُلِّ الكُتُبِ ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي فِي القُرآن[6].

وإنَّما شَرَّفَكُمُ الله بِهذاالتَّشْرِيف وَسَمَاكُم بِهذا الاسِمِ الأكْرَم ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وقد مَرَ بيان كيفية تلك الشهادة في سورة البقرة[7].

وعن الباقر عليه السلام: «قال عزَ وجلَ: ﴿سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ في الكُتُبِ التي مَضَتْ ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ القُرآنِ ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ - قال عليه السلام -: فَرَسُولُ اللهِ شَهِيدٌ علينا بما بَلَّغَنا عَنِ اللهِ تبارك وتعالى، ونَحْنُ الشُّهَداءُ عَلَى النّاسِ يوْمَ القِيامَة[8]، فَمَنْ صَدَّقَ يَوْمَ القِيامَةِ صَدَّقْناهُ، ومَنْ كَذَّبَ كَذَّبْناهُ»[9].

وقيل: إنَ ضَمِيرَ ﴿هُوَ سَمّاكُم﴾ راجِعٌ إلى إبراهيم، فَإنّه عليه السلام قال: ﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ

---

١ - ٤. تفسير الرازي ٢٣: ٧٣.

٥ و٦. تفسير الرازي ٢٣: ٧٤.

٧. عند تفسير الآية (١٤٣).

٨. (يوم القيامة) ليس في الكافي.

٩. الكافي ١: ٤/١٤٧، تفسير الصافي ٣: ٣٩٢.

ذُرّيتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[١].

رُوي أنّ إبراهيم عليه السلام أُخبِرَ بأنّ اللهَ سَيَبْعَثُ محمداً صلى الله عليه وآله بِمِثْلِ مِلّتِهِ، وأنه سَيُسَمّي أُمّتَه بالمُسلِمِين[٢].

وعن كعب: أنّ اللهَ أعطىٰ هذهِ الأُمّةَ ثلاثاً لَم يُعْطِهِنّ إلّا الأنبياءَ: جَعَلَهُم شُهَداءَ عَلَى النّاسِ، وَما جَعَلَ عَلَيْهم في الدِّين مِنْ حَرَجٍ، وقال: **﴿أُدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾**[٣].

وعن الصادق عليه السلام، عن أبيه، عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «مِمّا أعطى اللهُ أُمّتِي، وفَضَّلَهم بِه عَلى سائِرِ الأُمَم، أنه أعطاهُم ثلاثَ خِصالٍ لَمْ يُعْطِها إلّا نبيّ: وذلك أنّ اللهَ تبارك وتعالى كان إذا بَعَثَ نَبيّاً قال له: اجْتَهِد فِي دِينِكَ ولا حَرَجَ عَلَيْك، وأنّ الله أعطى أُمّتِي ذلك حيث يقول: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾** يقول: من ضيقٍ. وكان إذا بعث نبياً جعله شهيداً على قومه، وإن الله جعل أُمتي شهداء على الخلق حيث يقول: **﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾**» الحديث[٤].

فَإذا عَلِمْتُم ألطَافَ رَبِّكم بكم **﴿فَأَقِيمُوا﴾** له **﴿ٱلصَّلَاةَ﴾** التي هي أفضَلُ عِباداتِه **﴿وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ﴾** التي هي قَرِينَتُها وأكْمَلُ القُرُباتِ بَعْدَها **﴿وَٱعْتَصِمُوا﴾** وَثِقُوا **﴿بِٱللهِ﴾** في جَمِيعِ أُمُورِ دِينِكُم ودُنْياكُم، وَلَا تَسْتَعينُوا بِغَيْرِه ولا تسألوا أحداً سِواهُ.

وقيل: إنّ المُرادَ مِنَ الاعتصامِ بِهِ التَّمَسُّكُ بِكتابِهِ وَأحْكامِه[٥].

عن ابن عباس: سَلُوا اللهَ العِصْمَةَ عَنْ كُلِّ المُحَرَّماتِ[٦].

وقيل: يعني اجْعَلُوا اللهَ عِصْمَةً وحافِظاً لَكُم مِمّا تَحْذَرُون[٧].

﴿هُوَ﴾ تعالى **﴿مَوْلَاكُمْ﴾** والنّاظِرُ فِي خَيْرِكُمْ وَصَلاحِكُم، وَالمُتَصَرِّفُ فِيكُم، وَمَنْ بِيَدِهِ جَمِيعُ أُمورِكم **﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾** لَكُم رَبُّكُم **﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾** وَالعَوْنُ إلٰهُكُم، إذ لا تَوانِيَ مِنْه في القِيامِ بشؤون الولايَةِ وَالنُّصْرَةِ، وَلَا يَنْقَطِعانِ مِنْهُ إلى الأَبَد.

عن الصادق عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سورةَ الحَجّ فِي كُلِّ ثَلاثَةِ أيّام، لَمْ تَخْرُجْ سَنَتُه حتى يَخْرُجَ إلى بيتِ اللهِ الحَرام، وإنْ ماتَ في سَفَرِهِ دَخَلَ الجَنّةَ». قيل: وَإنْ كان مُخالِفاً؟ قال: «يُخَفَّفُ عَنْه [بعض ما هو فيه]»[٨].

وفقَنا اللهُ تعالى لِتَلاوتِها.

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٣: ٧٤.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ٧٣، والآية من سورة غافر: ٦٠/٤٠.
٤. قرب الإسناد: ٢٧٧/٨٤، تفسير الصافي ٣: ٣٩٢.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٦٥.
٦ و٧. تفسير الرازي ٢٣: ٧٤.
٨. ثواب الأعمال: ١٠٨، تفسير الصافي ٣: ٣٩٢.

في تفسير سورة المؤمنون

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ[١ـ٣]

ثُمَ لمَا خَتَمَ اللهُ السُّورَةَ المُبارَكَةَ التي في أوّلها إثباتُ المَعادِ، وَالاسْتِدلالُ عَلَيْهِ بِقُدْرَتِه على خَلْقِ الإنسانِ مِنَ التُّرابِ، وَتَقْليبِه في أطوارٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَبِخَلْقِ النَّباتاتِ، وَفِي آخرها إثْباتُ التَّوْحِيدِ وَإبطالُ الشِّرْكِ، والدَّعْوَةُ إلى الإيمان وَإقامَةُ الصَّلاةِ وأداءُ الزكاة بِرَجاءِ الفَلاحِ، أرْدَفَها بِسُورَةِ **﴿المُؤمِنُونَ﴾** التي في أوَّلِها تَخْصِيصُ الفَلاحِ بالمُؤمنينَ وَمَدْحِهِم، وَبَيانُ رُجْحانِ الخُشُوعِ في الصَّلاةِ وَلُزومُ الاهْتِمامِ بِها، وَذِكْرُ المَعادِ وَالاسْتِدْلالُ عَلَيْهِ بالدَّلِيلَيْنِ المَذْكُورَيْنِ، وَحِكايَةُ دَعْوَةِ الأنبياءِ إلى التَّوْحِيدِ وَابْتِلاءُ مُنْكِرِيهِ بالعَذابِ، وَفي آخِرِها تَهْدِيدُ مُنْكِرِ المَعادِ بأهْوالِ القِيامَةِ، وَحِرْمانُ الكُفّارِ مِنَ الفَلاحِ، فَابْتَدَأها بِقولِه: **﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾** ثُمَ افْتَتَحَها بِوَعْدِ المُؤمِنِينَ بالفَلاحِ بقوله: **﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾** وسَعِدَ وفَازَ **﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾** وَالمُوَحِّدُونَ بأعْلَى المَقاصِدِ وأسناها.

رُوِيَ أنّ اللهَ تعالى لمَا خَلَقَ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ قال: تَكَلَّمي، فقالت: قَدْ أفْلَحَ المُؤمِنُون[١]، فقال: طُوبى لك مَنْزِل المُلُوكِ، أي مُلُوك الجَنَّة[٢].

وعن الصادق عليه السلام ما يَقْرُبُ مِنْهُ إلى قَوْلِه: طُوبى[٣].

وعن الباقر عليه السلام قال: «أتَدْرِي مَنْ هُمْ؟» قيل: أنْتَ أعْلَم، قال: «قَدْ أفْلَحَ المُؤمِنُونَ المُسَلِّمُونَ، إنّ المُسَلِّمِينَ هُمُ النُّجَباءُ»[٤].

ثُمَّ وَصَفَهُمْ اللهُ بقوله: **﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾** وَبِقُلُوبِهِم مِن مَهابَةِ اللهِ خائِفُونَ، وَبِجَوارِحِهِمْ مُتَواضِعُونَ.

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٨٢.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٦٦.
٣. تفسير القمي ٢: ٨٨، تفسير الصافي ٣: ٣٩٣، وفيهما إلى قوله: المؤمنون.
٤. الكافي ١: ٥/٣٢٢، تفسير الصافي ٣: ٣٩٣.

رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا صَلّى رَفَعَ بَصَرَهُ إلى السَّماءِ، فلمَا نَزَلَتْ رَمى بِبَصَرِهِ نَحْوَ مَسْجِدِه، وأنّه رَأى مُصَلِّياً يَعْبَثُ بِلِحْيَتِه فقال: «لو خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعتْ جوارِحُه»[1].

ورُوِيَ أنَّ العَبْدَ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ، فإنَّما هُوَ بَيْنَ يَدَي الرَّحمنِ، فَإذا التَفَتَ يَقُولُ اللهُ تعالى: إلى مَنْ تَلْتَفِتَ، إلى خَيْرٍ مِنّي؟ أقْبِلْ يا بن آدم [إليّ] فَأنَا خَيْرٌ مِمَّنْ تَلتَفِتَ إليه[2].

ثُمَّ وَصَفَهُمُ اللهُ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ﴾ وما لا فائِدَةَ فِيهِ مِنَ الأقْوالِ وَالأفعالِ ﴿مُعْرِضُونَ﴾ وَمُتَباعِدُون. قيل: هُوَ القَوْلُ الحَرام[3]. وقيل: هو كُلُّ حَرامٍ أعَمّ مِنَ القَوْلِ وَالفِعْل[4]. وقيل: هو أعَمّ مِنَ الحَرامِ وَالمَكْرُوهِ وَالمُباحِ الذي لا حاجَةَ فيه[5].

وقال القمي: يعني الغِناء وَالمَلاهِي، وهو مرويّ عن الصادق عليه السلام[6].

وعنه عليه السلام أيضاً: «هو أنْ يَتَقَوَّلَ الرَّجُلَ عليكَ بالبَاطِلِ، أو يَأتِيكَ بِما لَيْسَ فِيكَ فَتَعْرِضَ عَنْهُ لله»[7].

روى بعض العامة أنه تَكَلَّمَ رجلٌ في زَيْنِ العابِدِين عليَ بن الحُسَيْن عليه السلام وَافْتَرى عَلَيْهِ، فقال له زَيْنُ العابِدِينَ عليه السلام: «إنْ كُنْتُ كَما قُلْتَ فَأسْتَغْفِرُ الله، وَإنْ لَمْ أكُنْ كَما قُلْتَ فَغَفَرَ اللهُ لَكَ» فقامَ إلَيه الرَّجُلُ وَقَبَّلَ رَأسَه وقال: جُعِلْتُ فِداك، لَسْتَ كَما قُلْتُ فَاغْفِرْ لِي، قال: «غَفَرَ اللهُ لَكَ» فقال الرجلُ: اللهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَه.

وخرج يوماً مِن المَسْجِد، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ فَسَبَّه، فَثارَتْ إليه العَبِيدُ وَالمَوالِي، فقال زَيْنُ العابِدِين عليه السلام: «مَهْلاً عَلَى الرَّجُل»، ثُمَّ أقبَلَ عَلَى الرَّجُلِ وقال: «ما سُتِرَ عَنْكَ مِنْ أمْرِنا أكْثَر، ألَكَ حاجةٌ نُعِينُك عَلَيْها؟» فَاسْتَحْيَى الرَّجُلُ، فَالقى إلَيْه خَمِيصَةً[8] كانت عَلَيهِ، وَأمَرَ لَه بِألْف دِرْهَم، فَكانَ الرَّجُلُ بَعْدَ ذلك يقول: أشْهَدُ أنَّك مِن أوْلادِ الرَّسُول[9].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «كُلُّ قَوْلٍ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ فَهُوَ لَغْو»[10].

وَإنّما ذَكَر سبحانَه الإعراضَ عَنِ اللَّغْوِ بَعْدَ ذِكْرِ الخُشُوعِ في الصَّلاةِ، لِكَمالِ المُلابَسَةِ بَيْنَهُما. وقيل: إنّ الإعراضَ عَنِ اللَّغْوِ مِن مُتَمَماتِ الصَّلاة[11].

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ١٢٣، تفسير روح البيان ٦: ٦٧.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٦٧.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ٧٩.
٤ و٥. تفسير الرازي ٢٣: ٧٩.
٦. تفسير القمي ٢: ٨٨، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤.
٧. مجمع البيان ٧: ١٥٨، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤.
٨. الخَمِيصة: ثوب أسود أو أحمر له أعلام.
٩. تفسير روح البيان ٦: ٦٣.
١٠. إرشاد المفيد ١: ٢٩٧، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤.
١١. تفسير الرازي ٢٣: ٨٠.

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ[٤_٧]

ثُمَّ أنه تعالى بَعْدَ تَوْصِيفِ المُؤمِنِين بالقِيامِ بأداءِ العِباداتِ البَدَنِيَّةِ، التي أهَمّها الصَّلاة وَالخُشُوع فِيها، وَصَفَهُم بالاهْتِمامِ بالعِباداتِ المالية التي أهَمُّها الزَّكاة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ومُؤدُّون.

عن الصادق عليه السلام: «مَنْ مَنَعَ قِيراطاً مِنَ الزَّكاةِ فَلَيْسَ هُوَ بِمُؤمِنٍ وَلا مُسلِمٍ وَلا كَرامَة»[١].

وقيل: إنّ الزَّكاة هُنا كُلُّ فِعْلٍ مَحْمُودٍ مَرْضِيٍّ[٢].

ثُمَّ وَصَفَهُم بالتَّحَرُّزِ عَنِ الحَرامِ المُتَعَلِّقِ بأنْفُسِهِم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ﴾ وعَوراتِهِم ﴿حَافِظُونَ﴾ ومُمْسِكُونَ لَها مِن أنْ تُكْشَفَ أو تُمَسّ، فَإنَّهُم يُحَرِّمُونها عَلى كُلِّ أحَدٍ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ وَمَنْكُوحاتِهِمُ الدّائِمَة أو المُنْقَطِعَة.

وقيل: إنَّ التَّقْدِيرَ فَإنَّهُم يُلامُونَ على تَرْكِ التَّحفُّظِ إلَّا عَلى تَرْكِه مِن أزْواجِهِم[٣]. أو التقدير فَإنَّهُم لا يُرْسِلُونَ فُرُوجَهُم عَلى أحَدٍ إلَّا عَلى أزْواجِهِم ﴿أَوْ﴾ عَلى ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ بالأسْر، أو الإرْث، أو المُعامَلَة. وقيل: إنّ (عَلى) بمَعْنىٰ (مِنْ).

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ عَلَى الكَشْفِ لَهُنَّ وَمُباشَرَتِهِنَّ ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ولا مَذْمُومِين ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾ وطَلَبَ للمُباشَرَة ﴿وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور مِن الأزواج[٤] والإماء وسواهنّ ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المُبْتَغونَ للحَرام ﴿هُمُ العادُونَ﴾ والمُتجاوِزُونَ عن حُدودِ العَقْلِ وَالشَّرعِ، أو المُتَعَدُّونَ مِن الحَلال إلى الحَرامِ، أو المُتَناهون في العدوان.

بيان حِلّيّة المُتعة

إعْلَم أنَّهُ اسْتدَلَّ بَعْضُ العامة على حُرْمَة المُتْعَةِ بهٰذِهِ الآيَة، بِتَقْرِيب أنها لَيْسَتْ مِلْك يَمِينٍ ولا زَوْجَة، لِعَدَمِ التَّوارثِ فِيها، فَإنّ لازمَ الزَّوجَةِ التَّوارُث لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْواجُكُم﴾[٥].

وفيه: أنّ الزَّوْجَةَ هي المَرْأةَ التي حَلّ بُضْعُها، وَالتَّمَتُّع بِها سبب حصول عُلْقَة الزَواجِ بَيْن الرجل والمرأة، بِسَبَبِ العَقْدِ الخاصّ المفيد لِحِلّيَةِ التَّمَتُّعاتِ وَهِيَ صِنْفان: صِنْفٌ مِنها عُلْقَة دائِمَةَ بِنَفْسِها، لا تَزُول إلَّا بالطَّلاقِ، أو بحُصُولِ أحَد موانع النكاح، كعُلْقَةِ مِلْك الأعيانِ، ولا تَزُولُ إلَّا بالمُزِيل. وَصِنْف

---

١. تفسير القمي ٢: ٨٨، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤.
٢. تفسير الرازي ٢٣: ٧٩.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ٨٠، تفسير أبي السعود ٦: ١٢٤.
٤. في النسخة: الازدواج.
٥. تفسير الرازي ٢٣: ٨٠، والآية من سورة النساء: ١٢/٤.

منها عُلْقَةٌ مُقَيَّدة بأجلٍ مُعَيّن، تَزُولُ بِبُلُوغِ أجلِ تِلْكَ العُلْقَة، نَظِيرُ إباحَة المالِك للغَيْر التصرُّفَ فِي مِلْكِه. فَإذا كانت مُطْلَقَة أفادَتْ جوازُ التصرَف فيه مُطْلَقاً غير مقيَّد بِوَقْتٍ، ولا ترتفع إلا بِرُجُوعِ المالك عنها أو بانتِفاء الموضوعِ ونظائره، وإذا كانت مقيَّدة بِمُدَّة معيّنة تَزُول بِبُلُوغِ المُدَّة.

وأمَّا التَّوارثُ فَهُو حكمٌ تعبُّدي لِخُصوصِ الصِّنْفِ الأوَل مِنَ العُلْقَة بالأدِلَة المُخصِّصة لِعُمُوم الآيَةِ، وَلَو لَم تَكُن تلك الأدِلَة المُخصِّصة لِعُمُوم الآيَة، لَكُنّا نَحْكُم بثُبُوته لِكلَا الصِّنفَين، كما خصّصت الأدِلَّة بقيَّة الأحكام الأخر مِن وُجُوب النَّفَقَة، والكُسْوَة، والسُّكْنى، والقَسْم، وغيرِها مِن الحُقُوق بالصنف الأوَل.

فتبيَّن أنَ التمسُّكَ بالآية لإثباتِ حُرْمة المُتعة بَعْد ثُبوتِ شَرعِيَّتها بالكِتابِ وَالسّنَة والإجماع مِن غايةِ الجَهْل، وإنّما الكلام بيننا وبين مخالفينا في نَسْخِه، ولم يَدُلَ دليلٌ عليه، بل ثَبَت بَقاؤه بالأدِلَّة القطعيَة، بَل بِقَول مَن أبْدَع تَحْرِيمَها حيث قال: مُتْعَتانِ كانَتا عَلَى عَهْدِ رسول الله، وَأنا أُحَرِّمُهما[١]. فَإنَ إسناده التحريمَ إلى نَفْسِه دالّ على عدم نَسخِها مِن شارِعِها.

عن الباقر عليه السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّ الله أحَلَ لَكُمُ الفُرُوجَ عَلى ثَلاثَةِ مَعانٍ: فَرْجٌ مُوَرَّث[٢] وَهُوَ البَتات، وفَرْجٌ غيرُ مُوَرَّث وَهُوَ المُتْعَة، ومِلْكُ يَمِين»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: أنه سُئل عَنِ المُتْعَةِ فقال: «حلال، فلا تتزوج إلّا عَفِيفَةً، إنّ الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾»[٤].

وعنه عليه السلام: «تَحِلّ الفروجُ بثلاثة وجوه: نِكاح بِمِيراث، ونِكاح بِلا ميراث، ونِكاح بِمِلْكِ يَمِين»[٥].

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْوَارِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٨-١١]

ثُمَّ وصف سبحانه المؤمنينَ بالتحرُّزِ عَن التعدّي عَلَى الغَير بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ والودائعِ التي أوْدَعَها غَيْرُهم عِنْدَهم ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ والميثاقِ الذي بَيْنَهم وبَيْنَ غَيْرِهم مِن الخالِق وَالخَلقِ ﴿رَاعُونَ﴾ وحافِظُون لا يَخُونُون في مالٍ، ولا يَنْقُضُون عَهْداً، وَمِنْ جُمْلةِ الأماناتِ الولاية والتَّكاليف الإلٰهيّة التي حَمَلَها الإنسان كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأمانَةَ﴾[٦] الآية. وعن النبيّ صلى الله عليه وآله:

---

١. صحيح البخاري ٢: ١٦٤/٢٨٢ و٦: ٤٣/٥٩، الأوائل للعسكري: ١١٢.

٢. في التهذيب: موروث، وكذا التي بعدها.

٣. التهذيب ٧: ١٠٥١/٢٤١، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤.

٤. الكافي ٥: ٢/٤٥٣، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤.

٥. الكافي ٥: ١/٣٦٤ ـ ٣، الخصال: ١٠٦/١١٩، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤.

٦. الأحزاب: ٧٢/٣٣.

«أعْظَمُ النّاسِ خِيانَةً مَنْ لم يُتِمّ صَلاتَه»[١]. ومِن جُمْلَةِ العُهُودِ الميثاقُ الذي أخَذَه مِن بَنِي آدم في الذَّرّ.

ثُمَّ وَصَفَهُمُ اللهُ بالاهتِمامِ بالصَّلاة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾ المَفْرُوضَة ﴿يُحَافِظُونَ﴾ ويُواظِبُون بِرِعايَة شَرائطها وَحُدُودِها وَأوقاتِها، وإنّما غَيَّر الأُسْلُوبَ بإتْيانِ الفِعْلِ لِكَونِ الصَّلاة متجدِّدةً متكرِّرةً.

وقيل: إنّما فصَل بَيْنَ تَوصِيفِهم بالخُشُوعِ في الصلاة ومُحافَظَتِهِم عَلَيها، للإيذانِ بأنّ كُلاً مِنْهُما فَضِيلَةٌ مستقلّة[٢]، أو للإشْعارِ بِتَعْظِيمِ الصَّلاةِ حيثُ ذَكَرَها في مَبْدَأ أوصافِهِم ومُنْتَهاها.

ثُمَّ بيّن سبحانه كيفيّة فلاحهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المُتَّصِفون بتلك الصفات ﴿هُمُ الوارِثُونَ﴾ دُونَ غَيْرِهم ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ ويَمْلِكُونها بِحُسْنِ عَقائدهم وأعمالهم، أو يَنْتَقِل إليهم مِن الكُفّارِ الذين فَوّتُوها على أنفُسِهم و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائِمُونَ لا يَخرُجُونَ مِنها أبَداً.

عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما خَلَقَ اللهُ خَلْقاً إلّا جَعَلَ لَهُ في الجَنَّة مَنْزِلاً، وفي النّارِ مَنْزِلاً، فَإذا سَكَنَ أهلُ الجنَّةِ الجَنَّةَ وأهْلُ النّارِ النّارَ، نادىٰ مُنادٍ: يا أهْلَ الجنَّةِ أشْرِفُوا، فَيُشْرِفُون على أهْلِ النّار، وتُرْفَع لهم مَنازِلُهم فيها، ثمّ يُقالُ لَهُم: هذهِ مَنازِلُكُم التي لَوْ عَصَيْتُم الله لَدَخَلْتُمُوها» قال: «فَلَو أنَّ أحداً ماتَ فَرَحاً لمَاتَ أهْلُ الجنَّة في ذلك اليَوْمِ فَرَحاً، لِما صُرِف عَنْهُم مِنَ العَذابِ.

ثُمّ يُنادِي مُنادٍ: يا أهلَ النّارِ ارْفَعُوا رُؤُوسَكُم، فَيَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ فَيَنْظُرُونَ إلى مَنازِلِهم في الجَنَّة وَما فِيها مِنَ النَّعِيم، فَيُقالُ لَهُم: هٰذِهِ مَنازِلُكُم التي لَوْ أطَعْتُم رَبّكم لَدَخَلْتُمُوها، قال: فَلَو أنَّ أحداً ماتَ حُزْناً لَماتَ أهلُ النّارِ حُزْناً، فَيُورِث هؤلاء مَنازِلَ هؤلاء [وَيُورِث هؤلاء مَنازِلَ هؤلاء] وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْوَارِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾»[٣].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «ما مِنْ أحَدٍ مِنْكُم إلّا وَلَهُ مَنْزِلانِ: مَنْزِلٌ في الجَنَّةِ، ومَنْزِلٌ في النّارِ، فَإنْ ماتَ وَدَخَلَ النّارَ وَرِثَ أهْلُ الجَنَةِ مَنْزِلَه»[٤].

وقيل: إنّ اللهَ شَبَّه انتِقالَ الجَنَّة إلَيْهِم بغَيْر مُحاسَبَة وَمَعرِفَة بِمَقادِيرِها بانْتِقالِ المالِ إلى الوارِث[٥].

وقيل: لمّا كانتِ الجَنَّةُ مَسْكَنَ أبينا آدم، صارَ انتِقالُها إلى أولادِهِ شَبيهاً بالمِيراث[٦].

قيل: إنّ الفِرْدَوسَ هُوَ الجَنّة بِلِسان [الحَبَشة][٧] وقيل: بِلِسانِ الرُّوم[٨].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «الفِرْدَوسُ مَقْصُورَةُ الرَّحمنِ، فِيهَا الأنهارُ وَالأشْجار»[٩].

---

١. تفسيرالرازي ٢٣: ٨١. ٢. تفسير أبي السعود ٦: ١٢٥.
٣. تفسير القمي ٢: ٨٩، تفسير الصافي ٣: ٣٩٥. ٤. مجمع البيان ٧: ١٥٩، تفسير الصافي ٣: ٣٩٥.
٥. تفسير الرازي ٢٣: ٨٢. ٦ ـ٩. تفسير الرازي ٢٣: ٨٢.

وعنه صلى الله عليه وآله قال: «سَلُوا اللهَ الفِرْدَوسَ، فإنّها أعْلَى الجِنانِ، وإنّ أهلَ الفِرْدَوسِ يَسْمَعُونَ أطِيطَ العَرْشِ»[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «فيَّ نزلت»[٢].

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ[١٢ـ١٦]

ثُمّ لمَا أخْبَر باخْتِصاصِ الفَلاحِ بالمؤمنين في الآخِرةِ، استَدَلَّ عَلَى البَعْثِ فيها بِقُدْرَتِهِ الكامِلَةِ عَلى خَلْقِ الإنسانِ وَتَقْلِيبِه في أطْوارِ الخِلْقَةِ وَأكْوانٍ مُخْتلَفَة بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ﴾ في بَدْو خِلْقَتِه ﴿مِن سُلاَلَةٍ﴾ وخُلاصةٍ مُنْسَلَةٍ ومُسْتَخْرَجَةٍ ﴿مِن طِينٍ﴾.

وقيل: إنّ المرادَ بالإنسانِ أولادُ آدم، والمرادُ مِنَ الطِّينِ آدَم، ومِنَ السُّلالَةِ الأجْزاءُ الطِّينيّة المُنْبَثَّة في أعضائِهِ التي حِينَ اجْتِماعها في أوعِيَةِ المَنِيِّ صارتْ مَنِيّاً[٣].

وقيل: لمَا كانت الأغْذِيَةُ التي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا المَنِيِّ مُتولِّدَةً مِن صَفْوِ الأرْضِ وَالماءِ، كان مَبْدأ خَلْقِ الإنسانِ الطِّين لِكَونِ المَنِيِّ مِنْه[٤].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ وصَيَّرْناه ﴿نُطْفَةً﴾ وماءً صافياً في صُلْب الرَّجلِ، ثُمّ نَقَلْناهُ بِسَبَبِ الجِماع ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وَمُسْتَقَرٍّ حَصِينٍ، وَهُوَ الرَّحِم ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا﴾ وصيَّرنا ﴿ٱلنُّطْفَةَ﴾ بَعْدَ أربَعِين يوماً ﴿عَلَقَةً﴾ ودماً جامداً ﴿فَخَلَقْنَا﴾ وَصَيَّرنا بعد أربعين يوماً ﴿ٱلعَلَقَةَ﴾ والدَّمَ الجامِد ﴿مُضْغَةً﴾ وقطعة لحم ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ﴾ بعدَ أربعين يوماً ﴿عِظَاماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْماً﴾ وسَتَرناها به بعدَ نَبْت العُرُوق والأعصاب والأوتار والعَضَلات عليها ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ﴾ وأوجدناه ﴿خَلْقاً آخَرَ﴾ مُبايناً للخَلْق الأوّل بِنَفْخ الرُّوح فيه، فصار حيّاً بعدَما كان مَيتاً، وحَيواناً بعدَ ما كان جَماداً، وناطِقاً بعد ما كان أبْكَمَ، وسميعاً بعدَ ما كانَ صُمّاً، وبصيراً بعدَ ما كان أكْمه، وأودَعَ في كلّ عُضْوٍ منه عَجائِبَ فِطْرة وغَرائِبَ حكمة لا يُحِيط بِها وصفُ الواصِفِين.

عن ابن عباس: هُوَ تَصْرِيفُ[٥] اللهِ الإنسانَ بعدَ الوِلادةِ في أطوارِه في زَمَن الطُّفُولِيّة، وما بَعْدها إلى

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٨٢.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٨٨/٦٥، تفسير الصافي ٣: ٣٩٥.

٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٣: ٨٤.

٥. في تفسير الرازي: تصرّف.

اسْتِواء الشَّبابِ، وما بَعْدَه إلى أنْ يَموت[١].

ثُمَّ أثْنى سبحانه على نَفْسه بِخَلْق هذا المَخْلوقِ البَدِيعِ بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ وتعالى شأنه مِن قُدْرَته الكامِلَة وحِكْمَته البالغة وهو ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾ خَلْقاً، وأكْمَل المُقَدِّرين تقديراً؛ لأنَه خَلَق أحْسَنَ المَخْلوقين، حيثُ إنَه مَع صِغَر جُرْمِه انْطَوى فِيهِ العالَم الكَبيرُ، وفيه دَلالةٌ عَلى أنّ الإنسانَ مركَّبٌ مِن الرُّوح والجَسَد، وَأنّ في الموجوداتِ خالِقِين.

عن الرضا عليه السلام أنّه سُئل: أو غَيْرُ الخالِقِ الجَلِيل خالِقٌ؟ قال: «إنّ الله تبارك وتعالى قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾ فَقَدْ أخْبَرَ أنّ في عِبادِه خالِقِين، مِنْهُم عيسى بن مريم، خَلَق مِن الطِّين كَهَيئَةِ الطَّير بإذْنِ اللهِ، وخَلَق السَامِريُّ لَهُم عِجْلاً جَسَداً لَه خُوار»[٢].

﴿ثُمَّ إِنَّكُم﴾ يا بَنِي آدمَ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور مِن أطْوارِ الخَلْق والتَّعَيُّش إلى الأجَل المُسَمّى والله ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ بِقُدْرَته ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ بَعْد انْقِضاءِ الدُّنيا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ وعند النَّفْخَةِ الثّانِيَة تُحْيون ثانياً بِقُدْرَتِهِ الكامِلَةِ كما حَيِيتُم أوّلاً، و﴿تُبْعَثُونَ﴾ وتَخْرجُون مِن قُبُورِكم للحِساب والمُجازاة عَلى الأعمال.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَافِلِينَ * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ [١٧ ـ ٢٠]

ثُمَ لمَا كانَت الإعادةُ مَنُوطَةً بِكَمالِ القُدْرَة وَالعِلِم، بالغَ سبحانه في إثباتِهِمَا لِنَفْسِه بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ وطبقاتٍ مِن السَماواتِ كَالسَّقْفِ المحفوظ، سُمِّيَت طَبَقاتُها طَرائِق لِطُرُوقِ بَعْضِها على بعضٍ، فَإنَّ كُلّ ما فَوْقَ مِثْله طَرِيقَةٌ، أوْ لأنَها طُرُقُ المَلائِكَةِ وَالكَواكِب وَمَسيرُها ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ والنّاسِ، أو عن السَماواتِ، أو عن المَوْجُودات ﴿غَافِلِينَ﴾ وذاهِلين حتى نُهمِلَ أمْرَها وتَدْبيرَها، بل نَحْفَظُها عَن الزَّوال والاختِلال إلى الأجَلِ المُقَدَّر بِمُقْتَضَى الحِكْمَةِ، وَنَعْلَمُ خَيْرَها وَشَرَّها وجَمِيعَ ما تَحتاجُ إليه في بَقائِها.

ثُمّ بيّن سبحانه خَلْقَ ما يَحتاجُ إلَيه الإنسان في بَقائِه بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ بِنَحْوِ الأمْطار ﴿مَاءً﴾ نافِعاً ﴿بِقَدَرٍ﴾ وحَدٍّ فيه صَلاحُ الأشياءِ مِن الحَيواناتِ والنَّباتاتِ ﴿فَأَسْكَنَّاهُ﴾ ومكّناه ﴿فِى

١. تفسير الرازي ٢٣: ٨٥.
٢. التوحيد: ١٨/٦٣، تفسير الصافي ٣: ٣٩٦.

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لانتِفاعِكُم به ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ﴾ مِنْ وَجهِ الأرضِ وَإزالَتِه بالأسبابِ العادية وغيرِها بالله ﴿لَقَادِرُونَ﴾ كما كُنّا قادِرِين عَلى إنزالِه وَإتيانِه.

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «أنّ الله أنزَل مِن الجَنّةِ خَمْسَةَ أنهارٍ: جَيْحُون، وسَيْحُون، ودِجْلة، والفُرات، والنِّيل، فَأنْزَلَها اللهُ تعالى مِن عَينٍ واحدةٍ مِن عُيُونِ الجَنَّةِ مِن أسْفَلِ درجةٍ مِن دَرَجاتِها على جَناحَي جَبْرَئيل، استَوْدَعَهَا الجِبال وأجراها في الأرض، وجَعَل فيها مَنافِع لِلنّاسِ، فذلك قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وإذاكان عِنْدَ خُروج يَأجُوج ومأجُوج أرسَلَ الله جَبْرَئيل فَرفَعَ مِن الأرضِ القُرآن، والعِلْم، والحَجَر الأسْوَدَ مِن البَيْتِ، ومَقام إبراهيم، وتابوت موسى بِما فيه، وهذه الأنهار الخمسة إلى السّماء، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَادِرُونَ﴾ فَإذا رُفِعَت هذه الأشياءُ من الأرضِ، فَقَد أهْلُها خيرَ الدِّينِ وَالدُّنيا»[1].

وعن الباقر عليه السلام: «هِيَ الأنهارُ وَالعُيُون»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «يعني ماءَ العَقِيق»[3].

أقول: العَقِيقُ اسم وادٍ.

﴿فَأَنشَأْنَا﴾ وخَلَقْنا ﴿لَكُم﴾ بَعْدَ إنْزالِ الماءِ ﴿بِهِۦ﴾ في الأرْضِ ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبَساتِين ذات أشْجارٍ ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ هي أحَبُّ الأشجارِ عندَكُمْ وَأنْفعها، حيثُ تكونُ ثِمارُها غذاءً وفاكهةً و﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ مع تِلك الأشجارِ النافِعَةِ ﴿فَوَاكِهُ﴾ وثِمار ﴿كَثِيرَةٌ﴾ بِها تَتَفكَّهُون ﴿وَمِنْهَا﴾ ثِمارٌ وَزُرُوع، ﴿تَأْكُلُونَ﴾ وبِها تَتَعَيَّشُون ﴿وَ﴾ أنشأنا لكم ﴿شَجَرَةً﴾ مُبارَكةً زيتونةً تكونُ مِن شَرَفِها أنّها بالخُصُوص ﴿تَخْرُجُ مِن﴾ جَبَلِ ﴿طُورِ سَيْنَاءَ﴾ الذِي مِنْه نُودِي مُوسى عليه السلام وكَلَّمه اللهُ عليه تَكلِيماً. وهِي بَيْنَ مِصْر وأيْلَة، أو بِفِلَسطِين.

وقيل: إنّ سَيناء اسْمُ البُقْعة. وقيل: إنّ معناه حَسَن. وقيل: أوَّلُ ما نَبَتَ الزَّيتُون هُناك[4]. وقيل: فيه مُعْظَمُها[5].

وفائدتها أنّها ﴿تَنۢبُتُ﴾ مُسْتَصْحَبَةً ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾. وقيل: إنّ (الباء) بمعنى (مع)[6]. وقيل:إنّها للتَّعْدِيَة، والمعنى أنّها تُنْبِتُ بِثَمرَةٍ جامعةٍ لِدُهْن يُدَّهَنُ ويُسَرَّح به[7] ﴿وَصِبْغٍ﴾ وَإدامٍ يُصْبَغُ ويُغمَسُ فيه الخُبز، ويُلَوَّن بِه مِثْل الدِّبْس وَالخَلِّ ﴿لِّلْآكِلِينَ﴾.

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٧٤.
٢. تفسير القمي ٢: ٩١، تفسير الصافي ٣: ٣٩٦.
٣. الكافي ٦: ٣٩١/٤، تفسير الصافي ٣: ٣٩٦.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٧٦.
٥. تفسير الرازي ٢٣: ٨٩.
٦. تفسير الرازي ٢٣: ٨٩، تفسير روح البيان ٦: ٧٦.
٧. تفسير البيضاوي ٢: ١٠٢، تفسير روح البيان ٦: ٧٦، تفسير الصافي ٣: ٣٩٧.

عن النبيّ ﷺ قال: «الزَّيتُ شَجَرَةٌ مُبارَكَةٌ فَأْتَدِمُوا به، وادَّهِنُوا»[١].

وعن الباقر عليه السلام: «كان في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام: أن أخْرِجُوني إلى الظَّهرِ، فَإذا تَصَوَّبَت أقدامُكم وَاسْتَقْبَلَتْكُم الرِّيح فادفنُوني، فَهوَ أوّل طُور سَيْناء، فَفعَلُوا ذلك»[٢].

وعن الصادق عليه السلام وقد ذُكر الغريّ عنده، قال: «وهو قِطْعَةٌ مِن الجَبَلِ الذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيهِ مُوسى تَكليماً، وقَدَّس عَلَيْهِ عيسى تَقْدِيساً، وَاتَّخذَ عَلَيْهِ إبراهيمَ خَلِيلاً، واتَّخذَ عَلَيْهِ مُحمَّداً حَبِيباً، وَجَعَلَه للنَّبِيِّينَ مَسكَناً، وَوَالله ما سَكَن [فيه] بَعْدَ أبَوَيْهِ الطَّيِّبَينِ آدمَ ونُوح أكْرَم مِن أمير المؤمنين عليه السلام»[٣].

وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ [٢١ و ٢٢]

ثمّ أنّه تعالى بَعْدَ الاستِدلالِ عَلى قُدْرَته بأحوال النَّباتاتِ، اسْتَدَلَّ عَلَيْها بأحْوالِ الحَيْواناتِ بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيُّهَا الناس ﴿فِى﴾ أحوال ﴿ٱلْأَنْعَامِ﴾ وعَجائِب الأزواج الثمانية: الإبِل، وَالبَقَر، وَالغَنَم، وَالمَعْز، وَاللهِ ﴿لَعِبْرَةً﴾ وحُجَّة واضحة على قُدْرَة خالقها ولَطِيف حِكْمَته، فَإنّ مِن عَجائِبِ أحوالِها أنّا ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا﴾ يتكوّن ﴿فِى بُطُونِهَا﴾ وضُروعها مِنَ الألبانِ، أو مِمّا فِي أجوافِها مِنَ العَلَف بَعْدَ تكوُّنِ اللَّبَن منه ﴿وَلَكُمْ﴾ مَعَ ذلك ﴿فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من أشعارها وأصوافها وأوبارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وبِلُحومها وأعيانِها تَنْتَفِعُونَ، كَما تَنْتَفِعُونَ بما يَحْصُل مِنها ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البَرارِي وَالجِبال ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ والسُّفُن في البِحارِ والشُّطوط ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وتَرْكَبُون وتَنْتَقِلُون مِن بَلَدٍ إلى بَلَد.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِى آبَائِنَا ٱلْأَوَّلِينَ [٢٣ و ٢٤]

ثُمّ شَرَعَ سُبحانَه في بَيانِ أحوالِ الأُمَم الماضيةِ وَعَدَمِ اعتِبارِهم بِتِلْكَ العِبَر، وعَدَم تَفكُّرِهِم فِي عَجائِب الخَلْقِ، وعَدَم تَذَكُّرِهِم بِتَذْكِيرِ الرُّسُل، حَتَّى اسْتَحَقُّوا نُزول العَذابِ عَلَيْهِم لِغَفْلَتِهِم وَشِرْكِهِم، فَابْتَدأ بِذِكْرِ قِصَّةِ قَومِ نُوح، لِكَوْنِها أقْدَمَ القَصَص وَأعْظَمَها وأنْسَبَها بِذِكرِ الفُلْكِ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

---

١. مجمع البيان ٧: ١٦٥، تفسير الصافي ٣: ٣٩٧.
٢. التهذيب ٦: ٦٩/٣٤، تفسير الصافي ٣: ٣٩٧.
٣. التهذيب ٦: ٥١/٢٣، تفسير الصافي ٣: ٣٩٧.

نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ لِيَدْعُوهُم إلى التَّوْحِيد وعِبادَةِ اللهِ ﴿فَقَالَ﴾ داعياً لَهم باللُّطفِ وَلِينِ القَول: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَأَنْعَمَ عَلَيْكُم بِعَظَائِمِ النِّعَم، ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً في الأُلوهِيَّةِ وَالعِبادَةِ، لأنَّه ﴿مَا لَكُم﴾ في عالَم الوُجود ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ ومَعْبودٍ مُسْتَحَقٍّ للعِبادةِ ﴿غَيْرُهُۥ﴾ تَعالى، لأنَّ كُلَّ ما سِواهُ مَخْلُوقُونَ له ومَرْبُوبُونَ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولا تَخافُونَ أنْ يَسْلُبَ عنكم نِعمَهُ ويُنَزِّل عليكم عذابَهُ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ والأشْراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ لأتْباعِهِم وَالسَّفِلَةِ مِنهم، تَوْهِيناً لِنُوح عليه السلام وحَطّاً له عن قابِلِيَّة[1] الرِّسالة، وحَثّاً لهم عَلَى الإعْراضِ عَنه ﴿مَا هَٰذَا﴾ الرَّجُل ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ خَلْقاً وخُلْقاً وأعمالاً، لا مَزِيَّةَ له عليكم تُوجب أن يَخْتارَهُ اللهُ تعالى لِهٰذَا المَنْصِبِ، ومَع ذلك ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ﴾ ويتفوَّقَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بادِّعاءِ الرِّسالَةِ، ويَجْعَلَكم أتْباعه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إرسالَ رَسُول ﴿لَأَنزَلَ﴾ مِنَ السَّماءِ ﴿مَلَائِكَةً﴾ بالرِّسالةِ إلَيْكُم مِنْ قِبَلِه لأقْرَبِيَّةِ قَولِهِم إلى القَبُول، وكَوْنِهم مُطِيعِينَ لَه ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يَدَّعِيه هٰذَا الرَّجُلُ مِنْ رِسالَةِ البَشَرِ وتَوْحِيدِ المَعبُودِ ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وكُبَرائِنا الماضِينَ، وَإنَّما قالوا ذلك للإفْراطِ في تَكْذِيبِهِ وَعِنادِه، أو لِطُولِ الفَتْرَة بَيْنَ إدريس عليه السلام الذي كان نبيّاً ظاهِراً وَبَيْنَ نُوح عليه السلام.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ [٢٥ ـ ٢٩]

ثُمَّ بالَغُوا في تَوْهِينِه وتَكْذِيبه بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ واخْتِلالُ عَقل، وَلِذا يَقُولُ مايقول خِلافاً لأكْثَرِ النّاس ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ وَاصْبِرُوا عَلى ما يَقُولُه وَانْتَظِرُوا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ مَوْتِه فَتَسْتَرِيحُونَ مِنْه، أوْ انْتَظِرُوا إلى وَقْتِ إفاقَتِه مِنَ الجُنُونِ، فَيَكُفَّ عن أباطِيلِه، فَلَمّا يَئِسَ نُوح عليه السلام مِن إيمانِهِم وعالَ صَبْرُه[2] عَلى إيذائِهِم ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ على هؤلاءِ المُكَذِّبِينَ بِتَعْجِيلِك فِي إهلاكِهِم بالعَذابِ جَزاءً ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ وَنِسْبَتِهِم إيّايَ إلىٰ الجُنُون ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ إجابَةً لِدُعائِهِ ﴿أَنِ﴾ يا نوحُ ﴿اصْنَعِ

---

١. كذا، ولعلّه يريد درجة استحقاق الرسالة.
٢. أي نفد.

﴿ٱلْفُلْكَ﴾ مُتَلبِّساً[١] ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وَحِفْظِنا إيّاك مِنْ أنْ تُخْطِىءَ فِي صُنْعِها، وَمِنْ أنْ يُفْسِدَها عَلَيك مُفْسِدٌ ﴿وَوَحْيِنا﴾ إلَيك كَيْفِيَّة صُنْعِها، وَتَعليمُنا إيّاك عَمَلَها وَتَسْوِيَتَها. روي أنّه أُوحي إليه أنْ يَصْنَعَها على مِثالِ الجُؤْجُؤ[٢].

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وَاْقتَرَبَ نُزُولُ عَذابِنا عَلَى القَوْمِ ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ وَاشْتَدَّ غَلَيانُ الماءِ مِنه، قيل: كان تَنُّورُ آدم[٣]، وكانَ مِنَ الحِجارَة. وعن ابن عباس: التَّنُّورُ وَجْهُ الأرْض[٤]. وقيل: أعْلَى الأرْض[٥]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي طَلَعَ الفَجْر»[٦].

﴿فَاسْلُكْ﴾ فِي الفُلْكِ وَأدْخِل ﴿فِيهَا﴾ حِينَئِذٍ ﴿مِن كُلٍّ﴾ مِنْ أنواعِ الحَيواناتِ ﴿زَوْجَيْنِ﴾ وَفَرْدَيْنِ مُزْدَوَجين ﴿اثْنَيْنِ﴾ الذَّكَر وَالأُنثى، لِئَلا يَنْقَطِعَ نَسْلُها ﴿وَ﴾ أدْخِل فِيها ﴿أَهْلَكَ﴾ وأقارِبَك مِن الزَّوْجَةِ وَالأولادِ وَالمُؤمِنِين ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ وَقُضِي عَلَيه بِالهَلاكِ وَالعَذابِ ﴿مِنْهُمْ﴾ كَزَوْجَتِه واغلة، وابنِه كَنْعان على ما قيل[٧] ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِى﴾ ولا تُكَلِّمني ﴿فِى﴾ نَجاةِ الكُفّار ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنْفُسَهم بالشِّرْكِ وَالطُّغْيانِ وَلا تَشْفَع لَهُم ﴿إِنَّهُم﴾ لا محالَة ﴿مُغْرَقُونَ﴾ لِعَدِم قابِلِيَّتِهم[٨] لِقَبُول الشَّفاعَةِ فِي حَقِّهِم.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ﴾ وَعَلَوْت ﴿أَنتَ﴾ يا نوحُ ﴿وَمَن مَّعَكَ﴾ مِن أهْلِك وأشْياعِك ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ ورَكِبْتَهم فِيها ﴿فَقُلْ﴾ شُكْراً لِي وثَناءً على إنعامي ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّانَا مِنَ﴾ عِشْرَةِ ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ فَإنَّ النَجاةَ مِنْ عِشْرَتِهِم وَصُحْبَتِهِم وَمجاوَرَتِهِم نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ على المؤمِنِين ﴿وَقُل﴾ حِينَ الدُّخُولِ في السَّفِينَةِ، أو حِينَ الخُرُوجِ مِنها، أو فِي الحالَين: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ في السَّفِينَة، أو في الأرض مِنْها ﴿مُنزَلاً مُّبَارَكاً﴾ وَإنْزالاً مُسْتَتْبِعاً لِكُلِّ خَيْر.

قيل: الإنْزالُ المُبارَك هُوَ الوُرُودُ في مَنْزِلٍ مَأمُونٍ مِنَ الهَواجِسِ النَّفْسانِيَةِ والوَساوِسِ الشَّيْطانِيَة[٩].

﴿وَأَنتَ﴾ يا رَبِّ ﴿خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ فَاسْتَجابَ اللهُ دُعاءه حيث قال: ﴿يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾[١٠] فَبارَك فِيهِم حَيثُ جَعَلَ جَمِيعَ مَن فِي الأرضِ مِنْ نَسْلِه وَنَسْلِ مَن كانَ مَعَه، وَإنّما خَصَّهُ اللهُ بالأمْرِ بالحَمْدِ وَالدُّعاءِ لِكَوْنِه إماماً لِمَنْ مَعَهُ، فَكانَ قَوْلُه قولهم مَعَ ما فيه مِنَ الإشْعارِ بِنُبُوَّتِه وعَظَمَةِ اللهِ وَكِبرِياءِ رُبُوبِيَّتِه المُقْتَضِيَةِ لِعَدَمِ خِطابِه إلّا إلى مَلَكٍ مُقَرَّبٍ أو نَبيٍ مُرْسَل، وَفي النَّهْيِ عَن شَفاعَتِه في حَقّ الكُفّارِ وَالأمْر بالحَمْدِ عَلَى النَجاةِ مِنْهُم مُبالَغَةٌ في تَقْبِيحِهم

---

١. في تفسير روح البيان ٦: ٧٩: ملتبساً.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٧٩.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٨٠.
٤ ـ ٦. تفسير الرازي ٢٣: ٩٤.
٧. تفسير روح البيان ٦: ٨٠، وفيه: وأُمه واغلة.
٨. يريد عدم استحقاقهم.
٩. تفسير روح البيان ٦: ٨٠.
١٠. هود: ٤٨/١١.

وَشدَّةِ استِحقاقِهِمُ العَذاب.

عن ابن عباس: كانَ فِي السَّفِينَةِ ثَمانُونَ إنساناً: نُوح وامرأته [سوى] التي غَرِقَت، وَثَلاثَة بَنِينَ: سام، وحام، ويافث، وثَلاث نِسْوَة لَهُم، وَاثنان وَسَبْعُونَ إنساناً، فَكُلُّ الخَلائِقِ نَسْلُ مَن كانَ في السَّفِينَة[١].

قيل: عَلَّمَكُمْ [الله] أنْ تَقُولُوا عِنْدَ الرُّكُوب فِي السَّفِينَةِ: ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرِيٰها وَمرسيٰها﴾[٢] وعِنْدَ رُكُوبِ الدابّة: ﴿سُبْحانَ الذِى سخَّرلنا هذا [وَمَا كُنَّا لَه مُقْرِنين]﴾[٣] وَعِنْدَ النُّزُولِ: ﴿رَبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلاً مُّبَارَكاً [وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ]﴾[٤].

«وفي (الفقيه): قال النبيّ ﷺ لِعَلِيّ عليه السلام: «يا عَلِي، إذا نَزَلْتَ مَنْزِلاً فَقُلْ: (اللّهمّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ) تُرْزَق خَيره ويُدْفَع شَرّه»[٥].

إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ [٣٠]

ثُمَّ نَبَّه سُبْحانَه المُؤمِنِينَ عَلَى العِبَر التي تَكُونُ في قصة[٦] نُوح عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ﴾ المَذكُورِ مِن إنْجاءِ نُوح عليه السلام ومَنْ مَعَه، وَإهلاكِ الكُفّار بالطُّوفان ﴿لَآيَاتٍ﴾ ودَلالاتٍ واضِحاتٍ يَسْتَدِلّ بها أُولُو الأبصارِ عَلَى تَوْحِيدِ اللهِ وعَظَمَتِه وَشِدَّةِ غَضَبه على أعدائِهِ وَالمُشْرِكِينَ به، وكَمالِ لُطفِه وَرَحْمتِه على مُحِبّيهِ وَالمُؤمِنِينَ به ﴿وَإِنْ﴾ الشأنُ إنّا ﴿كُنَّا﴾ بِتِلْكَ الآياتِ ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾ ومُخْتَبِرِينَ عبادنا لِنَنْظُرَ مَن يَعْتَبِر وَمَنْ لا يَعتَبِر، أو مُبْتَلِينَ قَوْمَ نُوحٍ بِبَلاءٍ عَظِيمٍ وَعِقابٍ شَدِيدٍ، أو كُنّا مُعاقِبِينَ مَن سَلَكَ سَبِيلَهُم في تَكذِيبِ الرُّسُل.

عن أمير المؤمنين عليه السلام «أنّ اللهَ تعالى قد أعاذَكُم مِن أن يَجُورَ عَلَيْكُم، وَلَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أنْ يَبْتَلِيَكُمْ، وَقد قال جلّ مِن قائِلٍ: ﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾»[٧].

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَذٰا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٩٥.
٢. هود: ٤١/١١.
٣. الزخرف: ١٣/٤٣.
٤. تفسير الرازي ٢٣: ٩٥.
٥. من لا يحضره الفقيه ٢: ٨٨٧/١٩٥، تفسير الصافي ٣: ٣٩٩.
٦. في النسخة: قضية.
٧. نهج البلاغة: ١٥٠ الخطبة ١٠٣، تفسير الصافي ٣: ٣٩٩.

لَخَاسِرُونَ[٣١ـ٣٤]

ثُمَّ ذَكَر سُبحانه قِصَة هُود وَقَومِه ازدِياداً للعِبْرَةِ بقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ وَخَلَقنا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ وَهُمْ قَوْمُ عادٍ، كما عن ابن عباس وجماعة[١]، لأنهم بَعْدَ قَوْمِ نُوح. وقيل: هُم ثَمُودُ لأنَّهُمْ الذِينَ هَلَكُوا بالصَّيْحَة[٢] ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً﴾ كانَ ﴿مِنْهُمْ﴾ نَسَباً، فَدَعاهُم إلى التَّوْحِيدِ أوّلاً بقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ وَحْدَه لأنه ﴿مَا لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ومُسْتَحَقّ للعِبادَةِ سِواه ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ رَبَّكُم وَلا تَخافُونَ عَذابَه عَلَى الشِّرْكِ.

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾ والكُبَراءِ وَالأشْرافِ مِنْ قَبِيلَتِهِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ باللهِ ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ﴾ الله وَدارِ ﴿الآخِرَةِ﴾ وَالبَعْثِ للجَزاءِ ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ وَأكْثَرْنا عَلَيْهِم نِعَمَنا ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَمُدَّةِ أعمارِهِم فِيها إلقاءً للشُّبْهَةِ في قُلُوبِ أتْباعِهِم وَإضْلالِهِم: ﴿مَا هٰذَا﴾ الرَّجُلُ المُدَعِي للرِّسالة ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الأخلاقِ وَالأفعالِ وَالحاجةِ إلى الغِذاءِ وَالشَّرابِ لِما تَرَونَ أنه ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾ مِنَ الأطْعِمَة ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ مِنْهُ مِنَ الأشْرِبَة، فَلا فَضِيلَةَ لَه عَلَيْكُم يَسْتَحِقُّ بِهَا الرِّسالَة دُونَكُمْ ﴿وَ﴾ واللهِ ﴿لَئِنْ أَطَعْتُم﴾ وَاتَّبَعْتُم ﴿بَشَراً﴾ فِيما يَقُولُ مَعَ كَوْنهِ ﴿مِثْلَكُمْ﴾ في الفَضْلِ ﴿إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ ومُتَضَرِرُونَ باتّباعِه لإذلالِكُم أنْفُسَكم لَه بِلا نَفْعٍ عائدٍ إلَيْكُم.

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[٣٥ـ٤١]

ثُمَّ بالَغُوا في تَنْفِيرِ النّاسِ عَنِ اتِّباعِهِ بَتَسْفِيهِهِ وَتَهْجِينِ قَوْلِه بالبَعْثِ بقولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ يا قَوْمِ ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ وَاُقبِرتُم ﴿وَكُنْتُمْ﴾ في قُبُورِكُم بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ ﴿تُرَاباً﴾ ﴿وَ﴾ قَبْلَ ذلِكَ ﴿عِظَاماً﴾ نَخِرَةً مُجَرَّدَةً عَنِ اللَّحْمِ وَالعَصَبِ ﴿أَنَّكُم مُخْرَجُونَ﴾ مِن قُبُورِكُم أحياءً كَما كُنْتُم ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ وَبَعُدَ بَعْد في العَقْلِ وَالعَادَةِ ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ الإحياء ثانِياً بِتِلْكَ الأبْدانِ الأولية، لا يَكُونُ ذلِك أبداً.

قيل: لَمَّا اسْتَبْعَدُوا بِكَلِمَةِ ﴿هَيْهَاتَ﴾ كَأنَّه قيل: لِمَا اسْتِبْعادُكُم؟ قيل: لِما تُوعَدُون[٣].

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٩٧، تفسير روح البيان ٦: ٨١. ٢. تفسير الرازي ٢٣: ٩٧.

٣. تفسير البيضاوي ٢: ١٠٤، تفسير أبي السعود ٦: ١٣٤، تفسير روح البيان ٦: ٨٢.

ثُمَّ بالَغوا في إنكار المَعَادِ بقولهم: ﴿إنْ﴾ الحَياة وَما ﴿هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ يعني ﴿نَمُوتُ﴾ فِيها ونَفنى، ولا حَياةَ بعدها وتُولَدُ ﴿وَنَحْيا﴾ ونَعيشُ فِيها مُدَّةً مُعَيَّنَةً ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ بَعْدَ هذه الحياةِ والمَوْتِ ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾ ومُنْشَرِينَ مِنَ القُبُورِ، كَما يَزْعَمُ هذا الرَّجُل ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ﴾ وَاخْتَرَعَ ﴿عَلَى ٱللهِ كَذِباً﴾ صَرِيحاً في ما يَدَّعِيهِ مِنْ إرْسالِهِ إِلَيْنا وَبَعْثِكُم بَعْدَ المَوْتِ ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ﴾ فـي ما يَـقُولُ ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ وَمُصَدِّقِينَ. فَلَمَّا يَئِسَ هُود أوْ صالِح مِنْ إيمانِهِم ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ على قَوْمِي ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ وَنَسَبُونِي إلى الفِرْيَةِ ﴿قَالَ﴾ تعالى إجابَةً لِدُعائِهِ: إعْلَم أنَّ قَوْمَك ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ مِنَ الزَّمانِ وَفِي أسْرَعِ الوَقْتِ، وَاللهِ ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾ وَلَيَصِيرنَّ ﴿نَادِمِينَ﴾ على كُفْرِهِم وَتَكْذِيبِهِم بِمُعايَنَةِ العذابَ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ التي صاحَ بِها جَبْرَئيل مِنَ السَّماءِ، على ما قيل[1] ﴿بِالحَقِّ﴾ وَالعَدْلِ، أو بِغَيْرِ دافِعٍ، فَتَصَدَّعَتْ بِها قُلُوبُهم.

وعن ابن عباس: الصَّيْحَةُ هِيَ الرَّجْفَة، وقيل: هِيَ نَفْسُ العَذابِ وَالمَوت، كما يُقالُ في من يَمُوتُ: إنَّه دُعِيَ فأجاب[2]. وقيل: هِيَ العَذابُ المُصْطَلِم[3].

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ وصَيَّرناهُم بِتِلْكَ الصَّيْحَة ﴿غُثَاءً﴾ وَمِثْلَ حَمِيل سَيْلٍ مِنَ الزَّبَد وَالحَشائِش البالِيَة المُسْوَدَّة في تَبَدُّدِ الأجزاءِ وبِلاها.

عن الباقر عليه السلام «ألغُثاءُ: اليابِسُ الهامِدُ مِنْ نَباتِ الأرْض»[4]. وقيل: إنَّه كنايةٌ عَن هَلاكِهِم؛ لأنَّ العَرَبَ تَقُولُ لِمَن هَلَكَ: سالَ بِهِ الوادِي[5]. ﴿فَبُعْداً﴾ مِنَ الخَيْراتِ، وَلَعْناً دائِماً، أو سُحْقاً وَهَلاكاً ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ [٤٢_٤٨]

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٩٩، تفسير الصافي ٣: ٤٠٠.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ٩٩.
٤. تفسير القمي ٢: ٩١، تفسير الصافي ٣: ٤٠٠.
٥. تفسير البيضاوي ٢: ١٠٤، تفسير روح البيان ٦: ٨٣.

ثُمَّ أشارَ سُبحانه إلى قَصَصِ الأُمَمِ الكَثِيرَةِ الأُخَر بقوله: **﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً﴾** وأقواماً **﴿آخَرِينَ﴾** كَقَوْمِ لُوط وشُعَيْب وغَيْرِهم، وَلَقَد كانَ لِكُلِّ قَرنٍ وَأُمَّةٍ أجَلٌ مُقَدَّرٌ مَكْتُوبٌ لِمَوْتِهِم وَهَلاكِهِم وَ **﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾** عنه.

قيل: يعني لا يَتَقَدَّمُونَ الوَقْتَ المُؤَقَّت لِعَذابِهِم إنْ لَمْ يُؤمِنُوا، ولا يَتأخَّرُونَ عَنْه، وذَلِكَ الوَقْت وَقْتُ عِلْمِ اللهِ أَنَّهم لا يَزدادوُنَ إلّا كُفْراً وَعِناداً، ولا يَلِدُونَ إلّا فاجِراً كَذّاباً، وَلَا نَفْعَ لأحَدٍ في بَقائِهِم، وَلا ضرَرَ عَلى أحَدٍ في هَلاكِهِم[1].

ثُمَّ بَيَّنَ سبحانه أنّه كما أنشأ الأُمَمَ الكَثِيرَةَ بَعْضَهمْ بَعْدَ بَعْضٍ، أرْسَلَ إلَيْهِم الرُّسُلَ واحِداً بَعْدَ واحِدٍ بقوله: **﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا﴾** إلَيْهِم **﴿رُسُلَنا﴾** حالَ كَوْنِهم **﴿تَتْرَا﴾** ومُتَعاقِبَةً عَلى نَحْوِ تَعاقُبِ الأُمَم، فَكانَ لِكُلِّ قَرْنٍ وَأُمَّةٍ رَسُولٌ، ولكن **﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾** وعارَضُوهُ **﴿فَأَتْبَعْنَا﴾** القُرُونَ **﴿بَعْضَهُمْ بَعْضاً﴾** في الإهلاكِ **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾** بَعْدَ إهْلاكِهِم وَإذهابِ أعيانِهِم وآثارِهِم مِنْ وَجْهِ الأرْض **﴿أَحَادِيثَ﴾** وحِكاياتٍ لِمَن بَعْدَهُم يَتَحَدَّثُونَ بِها في أنْدِيَتِهِم، ويَحْكُونَ قَضاياهُم، ويَتَعَجَّبُونَ مِنْها، ويَعْتَبِرُونَ بِها. وقيل: إنّه جَمْع أُحْدُوثة، وَهِيَ ما يُتَحَدَّثُ به تَلَهِّياً أو تَعَجُّباً[2].

ثُمَّ ذَمَّهُم سُبحانَه وَوَبَّخَهُم بقوله: **﴿فَبُعْداً﴾** أبَدِيّاً وهَلاكاً دائِمِيّاً، أو المراد يَكُونُ انقِطاعاً أبَدِيّاً مِنَ الرَّحْمَةِ **﴿لِقَوْمٍ لَاّ يُؤْمِنُونَ﴾** بآياتِ اللهِ وَرُسُلِه.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا﴾ بَعْدَ انْقِراضِ تِلْكَ الأُمَمِ وَإهلاكِهِم **﴿مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾** التِّسْع **﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾** وحُجَّةٍ واضِحَةٍ عَلى رِسالَتِهِما وصِحَّةِ دَعْواهما مِنَ البَراهِينِ العَقْلِيَّةِ، أو أعْظَم مُعْجِزاتِه وهي العَصا، أو المرادُ مِنْه قُوَّةُ دَلالَةِ مُعْجِزاتِهِما عَلى مُدَّعاهُما **﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾** وأشْرافِ قَوْمِه **﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾** وتَعَظَّمُوا مِنْ قَبُولِ قَوْلِهِما، وتَأَنَّفُوا عَنِ الإيمانِ بِهِما وَالاعتِرافِ بِمُعْجِزاتِهِما **﴿وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾** وَمُجاوِزينَ عَنِ الحَدِّ في الكِبْرِ وَالتَّمَرُّدِ وَالطُّغْيان **﴿فَقَالُوا﴾** فِيما بَيْنَهم تَكَبُّراً أو نُصحاً: لا يَنْبَغِي مِنّا الإيمانُ بِهِما **﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾** ونَتَّبِعُهُما، وَالحال أنّ بني إسرائيلَ الذِينَ هُم يَكُونُونَ أقرِباؤهما **﴿وَقَوْمُهُمَا﴾** جميعاً **﴿لَنَا عَابِدُونَ﴾** وكَالمَمالِيكِ لَنا خادِمُون. قيل: إنّ فِرعَونَ كانَ يَعْبُدُ الصَّنَم، وَبَنُو إسرائيل كانُوا يَعْبُدُونه[3] **﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾** مُصِرِّينَ على مُعارَضَتِهِما حتى يَئِسا مِن إيمانِهِم **﴿فَكَانُوا﴾** بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِما مَحكُومِينَ بِكَوْنِهِم **﴿مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾** بالغَرَقِ في البَحْر.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً

---

١. تفسير الرازي ٢٣ : ١٠٠.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ١٠٠، تفسير روح البيان ٦: ٨٤.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٨٦.

وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ [٤٩ و ٥٠]

ثُمّ أنه تعالى بعد إخبارِه بِسَخطِهِ عَلى مُكَذِّبي مُوسى، أخْبَرَ بِلُطْفِهِ بِهِ وَبالمؤمِنِينَ بِهِ بِقَوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ في الطُّورِ لُطفاً بِه وَبأُمَّتِه ﴿ٱلْكِتَابَ﴾ المَعْهُودَ المُسَمّى بالتَّوراة بَعْدَ إهْلاكِ فِرْعَونَ وَقَوْمه وَإنْجاءِ بَنِي إسرائيل ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بِذَلِكَ الكِتابِ وَبِما فيه مِنَ العُلُومِ وَالشَّرائع ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى كُلِّ حَقّ وَخَيْر.

ثُمّ ذَكَر سُبحانَه ألطافَه بِعِيسى وَمَرْيَم رَغْماً لليَهُود بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ عِيسى ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ بِسَبَبِ ولادتِه بِنَفْخِ رُوحُ القُدُس وَتكَلُّمِه في المَهْدِ وَإجراءِ المُعجزاتِ العَظِيمَةِ عَلى يَدِه ﴿وَأُمَّهُ﴾ مَريَم بِسَبَبِ تَكَلُّمِها فِي الصِّغَر كَابنِها، على ما قيل[١]. وَعَدَمِ ارْتِضاعِها مِن ثَدْيٍ قَطُّ، وَاحْتِبالِها بِغَيْرِ فَحْلٍ ﴿آيَةً﴾ عظِيمَةً عَلى كَمالِ قُدْرَتِنا. وقيل: يعني جَعَلْناهُما عِبْرَةً لِبَني إسرائيل بَعْدَ مُوسى[٢] ﴿وَآوَيْنَاهُمَا﴾ وَأسْكَنّاهُما بَعْد فِرارِهِما مِنَ اليَهُودِ ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ وَمَكانٍ مُرْتَفِعٍ مِنَ الأرضِ. قيل: هُوَ إيلِيا مِنْ أرْضِ بَيْتِ المَقْدِس، فَإنَّها مُرْتَفِعة[٣]. وقيل: إنها كَبِدُ الأرْض[٤]. وقيل: هُوَ قَرية ناصِرَة[٥] كانَتْ ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ وانْبِساطٍ تَسْهُلُ السُّكُونَة فيها، أو ذاتِ ثِمارٍ وزُرُوعٍ ﴿وَ﴾ ذاتِ ﴿مَعِينٍ﴾ وماءٍ جارٍ.

عن الصادق عليه السلام: «الرَّبْوَة: نَجَفُ الكُوفَة، وَالمَعِينُ الفُرات»[٦]. قيل: إنّ مَرْيَمَ وعِيسى ويُوسُف بنَ ماثانَ ابن عَمِّها، أقامُوا بِها اثنتي عشرة سَنَةً، وكانت تَغْزِلُ الحَبْلَ وَعِيسى عليه السلام يَبيعُه ويأكُلُ مِن ثَمَنِه[٧].

رُوي أنّ النبيَّ صلى الله عليه وآله صَلّى الصُّبْحَ بِمَكَّةَ فَقَرأ سورة المُؤْمِنِينَ، فَلمّا أتى عَلى ذِكْرِ عيسى وَأمِّه أخَذَتْهُ شَرْقَةٌ فَرَكَع[٨]. قيل: الشَّرْقَة: شِدَّةُ البُكاء.

يَا أَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ [٥١ ـ ٥٤]

ثُمَّ أخْبَرَ اللهُ تَعالى بِتَكاليفِ الأنبياءِ تَهْييجاً للعِبادِ عَلى العَمَلِ بِها بِقَوْله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ﴾ المَأكولات ﴿ٱلطَّيِّبَاتِ﴾ والأغْذِيَةِ المُسْتَلَذّاتِ المحلّلات ﴿وَٱعْمَلُوا﴾ للهِ كُلّما كانَ ﴿صَالِحاً﴾ فَإنّه المقصودُ مِنْكُم وَالنّافِعُ لَكُم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الأعمالِ الظّاهِرَةِ وَالباطِنَة ﴿عَلِيمٌ﴾ فَأُجازيكُم

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ١٠٢.
٢ ـ٥. تفسير روح البيان ٦: ٨٦.
٦. كامل الزيارات: ٥/٤٧، التهذيب ٦: ٧٩/٣٨، تفسير الصافي ٣: ٤٠١.
٧ و٨. تفسير روح البيان ٦: ٨٦.

عَلَيْهِ ﴿وَإِنَّ هٰذِهِۦٓ﴾ المِلَةِ التي هِيَ مِلَةُ الإسلامِ وَالتَّوْحِيد ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ وَمِلَّتُكم حالَ كَوْنِها ﴿أُمَّةً﴾ ومِلَةً ﴿وَاحِدَةً﴾ وشَرِيعةً مُتَّحِدَةً فِي الأُصُولِ وَإن اختلفت فِي الفُرُوع.

وقيل: كَلِمَةُ (هذِهِ) إشارَةٌ إلى جَماعَةِ الأُمَمِ المُؤمِنَةِ بِالرُّسُل، والمعنى: إنَ هذِه الجَماعة المُتَّفِقَة عَلَى الإيمانِ بالتَّوْحِيدِ وَالرُّسُلِ المُتَّحِدة في عِبادَةِ اللهِ أُمَّتكم[١] ﴿وَأَنَا﴾ وَحْدِي ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا شَريكَ لِي فِي الأُلوهِيَّةِ وَالرُّبوبِيَّةِ، إذاً ﴿فَاتَّقُونِ﴾ أَيُّها الرُّسُلُ وَالأُمَمُ جَميعاً في اختِلافِ الكَلِمَةِ في التَّوحِيدِ وَالدِّين ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم﴾ وَدِينَهم ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ وقِطَعاً، وقد مَرَ تفسيرُه في سورة الأنبياء[٢] ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ وَفِرْقَةٍ مِنَ الفِرَق ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ وَاختارُوهُ مِنَ الدِّين ﴿فَرِحُونَ﴾ ومُعْجَبُونَ، لاعتِقادِهِم حَقّانِيَّتَه ﴿فَذَرْهُمْ﴾ ودَعْهُم يا محمَدُ ﴿فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ وَجَهالَتِهِمْ التَّي أحاطَتْ بِهِم كَالماءِ الذي ارْتَمَسُوا فِيه، ولا تَشغَل قَلْبَك بِهِم وَبِتَفرُّقِهِم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ مَوْتِهِم عَلَى الكُفْرِ، أو قَتْلِهِم، أو نُزُول العَذابِ عَلَيْهِم، وَفِيهِ وَعِيدٌ لَهُم وَتَسْلِيَةٌ للرَّسُولِ، وَفي تَنْكِيرِ ﴿حِينٍ﴾ وَإبْهامِ الوَقْتِ نِهايَةُ التَّهْوِيل.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ [٥٥ و ٥٦]

ثُمَّ لمَا كانَ الكُفّارُ يَفْتَخِرُونَ عَلى المُؤمِنِينَ بِكَثْرَةِ المالِ وَالبَنِينَ، وَيَحْسَبُونَ أنَّ تَنَعُّمَهُم بِتِلكَ النِّعَم لِقُرْبِهِم عِنْدَ اللهِ وَالتِزامِهِم بِدِينِ الحَقِّ، أنكَرَ سُبحانَه عَلَيْهِم ذلِكَ الحِسْبان بقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ وَيَتَوَهَّمُونَ ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾ ونُقَوِّيهِمْ ﴿بِهِۦ مِن مَّالٍ﴾ عظيمٍ ﴿وَبَنِينَ﴾ كَثِيرَةٍ أنَا ﴿نُسَارِعُ﴾ وَنُعَجِّلُ ﴿لَهُمْ﴾ بِهذَا الإمدادِ ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وَالمَثُوباتِ وَالأجرِ عَلى تَدَيُّنِهِم بِدِينِ الحَقِّ وَعَمَلِهِم بِه؟! ليس الأمْرُ كَما يَحْسَبُون ﴿بَلْ﴾ هٰذَا الحِسْبانِ لأنَّهُم ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنَ هذَا الإمدادِ اسْتِدْراجٌ وَاسْتِجْرارٌ بِهِم إلى الشَّرِّ وزِيادَةِ الإثْم، لا مُسارَعَة لَهم إلى الخَيْر.

روي أنَ اللهَ تعالى أوحى إلى نَبِيٍّ مِنَ الأنبياءِ: أيَفْرَحُ عَبْدِي أنْ أَبْسُطَ لَهُ فِي الدُّنْيا وَهُوَ أبْعَد لَه مِنِّي؟! أيَجْزَعُ عَبْدِي أنْ أقْبِضَ عَنْه الدُّنيا وَهُوَ أقْرَبُ لَه مِنِّي؟! ثُمَ قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾ إلى آخره[٣].

وعن الصادق عليه السلام عن أبيه، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: [إنَ الله تعالى] يقولُ: يَحْزَنُ عَبْدِي المُؤمِن إذا أقْتَرْتُ عَلَيْهِ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيا، وذَلِكَ أقْرَب لَه مِنِي، وَيَفْرَحُ إذا بَسَطْتُ لَهُ الدُّنيا، وَذَلِكَ أبْعَدُ لَه مِنِي، ثُمَ تَلا هٰذِهِ الآيَةَ، ثُمَّ قال: إنَ ذلِك فِتْنَةٌ لَهُم»[٤].

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ١٣٨. ٢. في تفسير الآية ٩٣. ٣. تفسير روح البيان ٦: ٩٠.
٤. مجمع البيان ٧: ١٧٥، تفسير الصافي ٣: ٤٠٣.

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ[٥٧ـ٦١]

ثُمَّ وَصَفَ سُبحانَهَ الَّذِينَ يُسارِعُ لَهُم فِي الخَيْراتِ بقوله: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾** ومَهابَتِه وَخَوْفِ عَذابِه **﴿مُشْفِقُونَ﴾** وَوَجِلُونَ، أو مُرْتَعِدُونَ. وقيل: إنّ المُرادَ مِنَ الخَشْيَةِ نَفْسُ العَذابِ، وَالمَعْنى أنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِم خائِفُون[١]. وقيل: إنّ المُرادَ مِنَ الإشْفاقِ شِدَّةُ الخَوْف[٢]. وقيل: هُوَ الدَّوامُ فِي الطاعة[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِآيَاتِ﴾ وَحْدانِيَّةِ **﴿رَبِّهِمْ﴾** الآفاقِيَّة والأنْفُسِيَّة وَالمُنْزَلَة بِتَوَسُّطِ الأنبياءِ وَشَواهِدِ كَمالِ ذاتِه المُقَدَّسة **﴿يُؤْمِنُونَ﴾** وَيُصَدِّقُونَ بالقَلْبِ وَاللِّسانِ وَالجَوارِح **﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ﴾** في الألُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَالعِبادةِ **﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾** غَيْرَه شِرْكاً جَلِيّاً أوْ خَفِيّاً، وَلا يَقْصِدُونَ بأعْمالِهِم غَيْرَه، وَلا يَتَوَجَّهُونَ إلى سِواه **﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾** ويُعْطُونَ **﴿مَا آتَوْا﴾** وأعْطَوا مِنَ الصَّدَقاتِ وَالكَفّاراتِ وَغيْرِهما مِن حُقُوقِ الله، ومِنَ الأماناتِ وَالدُّيُونِ وَغيْرِهِما مِنْ حُقُوقِ النّاس **﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾** وخائِفَةٌ أو مُرْتَعِدَةٌ مِنْ تَقْصِيرِهِمْ وَإخْلالِهِم في الأداءِ بِتَنْقِيصٍ أو غَيْرِه، لِكَوْنِهِم مُعْتَقِدِين **﴿أَنَّهُمْ﴾** بَعْدَ المَوْتِ **﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾** ومَلِيكِهِم **﴿رَاجِعُونَ﴾** وَعَنْ تَقْصِيراتِهِم مسؤولُونَ، لِعِلْمِهِ تَعالى بِما يَخْفَى عَلَيْهِم مِنَ الخَلَلِ وَيُؤاخِذُهُم عَلَيْه.

عن الصادق عليه السلام أنه سُئِل عَنْ هذِهِ الآيةِ فقال: «هي إشْفاقُهُم وَرَجاؤهم؛ يَخافُونَ أنْ تُرَدَّ عَلَيْهِم أعمالُهُم إنْ لَمْ يُطِيعُوا الله عَزَّ ذِكْرُه وَيَرْجُونَ أنْ تُقْبَل مِنْهُم»[٤].

وعنه عليه السلام: «**﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾** معناه خائفةٌ أنْ لا يُقْبَلَ مِنْهم»[٥]. وفي رواية: «يُؤتِي ما أتى وَهُوَ خائِفٌ راجٍ»[٦].

وعنه عليه السلام في هذه الآية: «يَعْمَلُونَ ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّهُم يُثابُون عَلَيه»[٧].

وعنه عليه السلام في رواية: ألا وَمَنْ عَرَفَ حَقَّنا، ورَجَا الثَّوابَ فِينا، وَرَضِيَ بِقُوتِه نِصْفَ مُدٍّ في كُلِّ يَومٍ، ومَا سَتَرَ عَوْرَتَه، وما أكَنَّ رَأسَه، وَهُمْ وَالله في ذلك خائِفُون، وَدُّوا أنّه حَظُّهُم مِنَ الدُّنيا، وَكَذلِكَ وَصَفَهُمُ اللهُ تعالى فقال: **﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾** إلى آخره».

ثُمّ قال: «مَا [الذي] آتَوا؟ وَاللهِ الطاعةَ مَعَ المَحَبَّةِ وَالوِلايَةِ، وَهُم في ذلك خائِفُونَ، لَيْسَ خَوْفُهُم

---

١ ـ ٣. تفسير الرازي ٢٣: ١٠٦.
٤. الكافي ٨: ٢٢٩/ ٢٩٤، تفسير الصافي ٣: ٤٠٢.
٥ و٦. مجمع البيان ٧: ١٧٦، تفسير الصافي ٣: ٤٠٢.
٧. المحاسن: ٢٤٧/ ٢٥٢، تفسير الصافي ٣: ٤٠٢.

خَوْفَ شَكٍّ، ولكِنَّهم خافُوا أنْ يَكُونُوا مُقصِّرينَ في مَحَبَّتِنا وطاعَتِنا»[١].

﴿أُولَئِكَ﴾ المُتَّصِفُون بِتِلْك الصفاتِ الحَميدَةِ هُمُ الذِينَ بأعمالِهم الصالِحَةِ **﴿يُسارِعُونَ﴾** إلى نَيْلِ المَثُوباتِ في الدُّنيا وَيَتَقَلَّبُونَ **﴿فِي ٱلْخَيْرَاتِ﴾** والمَنافِعِ الكَثيرَةِ في الدّارَيْنِ كَما قالَ تعالى: **﴿فَأتاهم اللهُ ثَوابَ الدُّنيا وَحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَة﴾**[٢] **﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾** حَيثُ عُجِّلَتْ لَهَم في الدُّنيا، ونالُوها قَبْلَ الآخِرَةِ، فأثْبَتَ اللهُ للمُؤمِنِينَ ما نَفاهُ عَنِ الكُفّارِ.

وفي إسنادِ المُسارَعَةِ إلَيْهِم إشْعارٌ بِغايَةِ اسْتِحقاقِهِم، فكأنَّ اللهَ قَرَّبَ إلَيْهِم الخَيْراتِ حتى يُسارِعوا إلَيها وَيُخَيِّرُوها.

وقيل: إنَّ المُرادَ مِنَ الخَيراتِ الطاعاتُ المُؤدِّيةُ إلى الثوابِ، وَالمَعنى يَجْتَهِدُونَ في الطّاعاتِ بأشَدِّ الشَّوْقِ وَالرَّغْبَةِ، وَهُمْ لأجْلِها سابِقُونَ النّاسَ خَوْفاً مِنْ أنْ يُدْرِكَهُمُ المَوْتُ وَيَبْتَلُوا بِحسَرةِ الفَوت[٣].

عن الباقر عليه السلام: «هُوَ عَلِيّ بن أبي طالب عليه السلام، لَمْ يَسْبِقْهُ أحَدٌ»[٤].

أقول: يعني هُوَ عليه السلام أظْهَرُ مَصادِيقِهِ.

وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ[٦٢]

ثُمَّ رَغَّبَ سبحانه المؤمِنِينَ المُهْتَمِّينَ بالطّاعة فيها، بِبَيانِ مِنَّتِهِ عَلَيْهِم بِتَسْهِيلِ تَكاليفِه وَوَعْدِهم بالثَّوابِ بقوله: **﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً﴾** مِنَ النُّفُوسِ تَكْليفاً **﴿إِلَّا﴾** ما كانَ **﴿وُسْعَهَا﴾** وَدُونَ طاقَتِها بِحَيْثُ لا تَكُونَ فِي امتِثالِهِ مَشَقَّةٌ عَلَيْها **﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾** مَكْتُوبٌ فِيهِ أعمالُ النّاسِ أو طاعاتُ المُسارِعِينَ والسابِقِينَ **﴿يَنْطِقُ﴾** وَيُبَيِّنُ الأعْمالَ للنّاظِرِينَ فِيهِ كَالنُّطْقِ بِها حالَ كَوْنِه مُلْتَبِساً **﴿بِالحَقِّ﴾** والصِّدْقِ ومُطابَقَةِ الواقِعِ كَمّاً وَكَيْفاً **﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾** بِتَنْقِيصِ الثَّوابِ وَازدِيادِ العِقابِ.

عن السجّاد عليه السلام أنَه كان إذا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضان يَكْتُبُ عَلى غِلْمانِهِ ذُنُوبَهُم حتى إذا كانَ آخِرُ لَيْلَةٍ مِنْهُ دَعاهُم، ثُمَّ أظْهَرَ لَهُمُ الكِتابَ وَقالَ: «يا فُلانُ فَعَلْتَ كَذا وَكَذا وَلَمْ أُودِّبْكَ» فَيُقِرُّونَ أجْمَع، فَيَقُومَ وَسَطهم وَيَقُولُ: «ارْفَعُوا أصواتَكُم وَقُولُوا: يا عَلِيُّ بن الحُسَين، رَبُّك قَدْ أحْصَى عَلَيْكَ ما عَمِلْتَ كَما أحْصَيْتَ عَلَيْنا، ولَدَيْهِ كِتابٌ يَنْطِقُ بالحَقِّ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلّا أحصاها، فاذكُرْ ذُلَّ مَقامِك بَيْنَ يَدَي رَبِّكَ الذي لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَكَفى بالله شَهِيداً، فَاعْفُ وَاصْفَحْ يَعْفُ عَنْكَ المَلِيكُ لِقَولِه تعالى: **﴿وَلْيَعفُوا وَلْيَصْفَحُوا ألا تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُم﴾**[٥]» وَيَبْكِي وَيَنُوح[٦].

---

١. الكافي ٢: ١٥/٣٣٠، تفسير الصافي ٣: ٤٠٢.
٢. آل عمران: ١٤٨/٣.
٣. تفسير أبي السعود ٦: ١٤٠.
٤. تفسير القمي ٢: ٩٢، تفسير الصافي ٣: ٤٠٣.
٥. النور: ٢٢/٢٤.
٦. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٥٨، تفسير الصافي ٣: ٤٠٣.

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِنْ هٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مترفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِنَّا لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُون * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ[٦٣ ـ ٦٧]

ثُمَ ذَمَّ سبحانه الكُفّارَ على غَفلتِهم مِنْ ذلِكَ الكِتابِ بقوله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ وغَفْلَةٍ ساترة لَها ﴿مِنْ هٰذَا﴾ الكِتابِ الذِي فِيه جَمِيعُ أعمالِهِم، وقَراءته عَلَيْهِم يَوْمَ القِيامة عَلى رُؤوس الأشهادِ، فيُجازَونَ عَلَيها، أو مِن هٰذَا القُرآنِ، أو مِن هذا الذِي بَيّناه فِيه ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ سَيِّئة أُخَر كَمُعاداة الرَّسُولِ، وَالطَّعْنِ فِيه وَفي كِتابه ﴿مِن دُونِ﴾ ما ذُكِر مِنَ الشِّرْكِ وَالغَفْلَةِ عَنِ الآخِرة، وَسِوى ﴿ذٰلِكَ هُمْ﴾ بِخُبْثِ ذاتِهِم وَرَذالَةِ أخلاقِهِم ﴿لَهَا عَامِلُونَ﴾ وَعَلَيْها مُسْتَمِرُّونَ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا﴾ وَابتَلَيْنا ﴿مُتْرَفِيهِم﴾ وَمُتَنَعِّمِيهِم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ الدُّنيَويَ وَالأُخْروي ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ ويَسْتَغِيثُون، أوْ بأعْلى صَوْتِهِم يَضِجُّونَ، فَيُقالُ لَهُم تَقْرِيعاً وَتَبْكِيتاً: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ وَلا تَسْتَغِيثُوا في هذا الوَقْتِ الَّذِي هُوَ وَقْتُ إعطاءِ ما تَسْتَحِقُّونَ مِنَ الجَزاءِ ﴿إِنَّكُم مِنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ ولا تُعاوَنُونَ عَلى ما دَهَمَكُم مِنَ العَذابِ، وَلا تَنْجُونَ مِنْه لأنَّه ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِى﴾ القُرآنِيَة ﴿تُتْلَىٰ﴾ وتُقْرأُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في الدُّنْيا ﴿فَكُنتُمْ﴾ عِنْدَ سَماعِها ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ مِنْ شِدَّةِ النَّفرة وَالإعراضِ عَنْها ﴿تَنكِصُون﴾ وتَرْجِعُون القَهْقَرى، وَالحالُ أنَّكُم[1] ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ بِالتَّباعُدِ مِنَ القُرآنِ وَمُكَذِّبِينَ ﴿بِهِ﴾.

وقيل: إنَّ الضَّمِيرَ راجِعٌ إلىٰ الحَرَم، لِكَوْنِهِم مُفْتَخِرِينَ بِهِ، وَكانُوا يَقُولُونَ: لا يَظْهَرُ عَلَينا أحَدٌ لأنّا أهلُ الْحَرَمِ، وَشُهْرَتُهُم بِهِ كافِيَةٌ عَنْ ذِكْرِه[2].

وقيل: إنّ ﴿بِهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِه: ﴿سَامِراً﴾ وَالمَعنى حال كَوْنِكُم بِذِكْرِ القُرآنِ وَبِالطَّعْنِ فِيهِ[3] كُنْتُم ﴿سَامِراً﴾ ومُتَكَلِّماً بِاللَيلِ. كما قيل: إنهم كانُوا يَجْتَمِعُونَ بِاللَّيْلِ حَوْلَ البَيْتِ وَيَسْمُرُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ بِذِكْرِ القُرآنِ وَالطَّعْنِ فِيهِ[4]، و﴿تَهْجُرُونَ﴾ وتَفْحُشُونَ وتَهْزَؤُونَ بِنِسْبَتِهِ إلى الشِّعْرِ وَالسِّحْرِ وَبِسَبِّ النبي ﷺ وَالْقَدحِ فِيه.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا

---

١. كذا، ولا تناسب النصب في الآية، ولعلها تصحيف (كونكم). ٢. تفسير الرازي ٢٣: ١١١.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ١١١، تفسير أبي السعود ٦: ١٤٣.
٤. تفسير الرازي ٢٣: ١١١، تفسير أبي السعود ٦: ١٤٣، تفسير روح البيان ٦: ٩٣.

رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ[٦٨ـ ٧٠]

ثُمّ وَبَّخَهُم سبحانَه عَلى عَدَمِ الإيمانِ بِالقُرآنِ بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾ هذا ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ وَالْكَلامَ النّازِلَ مِنَ اللهِ، وَلَمْ يَتَفكَّرُوا في وُجُوهِ إعْجازِهِ، وبَداعَةِ اُسْلُوبِه، ولَطافَةِ مَعانيه ﴿أَمْ جَاءَهُم﴾ قيل: إنّ المَعْنى بَلْ أجاءهم[١] ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِنَ الكُتُبِ السَّماوِيّة حتى يَسْتَبْعِدُوا إتيانَه مِنَ السَّماءِ وَيُنْكِرُوهُ، مَعَ أنَّ إنزالَ الكُتُبِ وَإرسالَ الرُّسُلِ سُنَّةٌ قَدِيمَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى بِحَيْثُ لا يُمكِنُ إنْكارُها؟ فَلَيْسَ لإنكارِهِم كَونُ القُرآنِ كَسائِرِ الكُتُبِ نازِلاً مِنَ اللهِ وَجْه.

ثُمّ أنْكَرَ عَلَيْهِم عَدَمَ إيمانِهِم بِالرَّسُولِ بِقَوْلِه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ بِالصِّدْقِ وَالأمانةِ وَحُسْنِ الأخْلاقِ وَكَمالِ العِلْمِ مَعَ اُمِّيَّتِه وَغَيْرِها مِن كَمالاتِ الأنبياءِ ﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ وَلِنُبُوَّتِه جاحِدُونَ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ وَاخْتِلالُ عَقْلٍ، وَلِذا لا يُعْتَنى بِقَوْلِه؟ لَيْسَ الأمْرُ كَما يَقُولُون ﴿بَلْ﴾ هُوَ أعْقَلُ النّاسِ وَ﴿جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ وَالدِّينِ الثّابِتِ الَّذي لا يَنْبَغِي الانْحِرافُ عَنْهُ ﴿وَ﴾ لكِنَّ ﴿أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لِمُخالَفَتِه أهواءهم الزائغَة وَشَهَواتهم الباطِلَة، فَلِذا تَمَسَّكُوا بِالتَّقْلِيد، وَزاغُوا عَنْ نَهْجِ الحَقّ وَالدِّينِ القَوِيم، وأمّا الأقَلُّونَ مِنهُم فإنّهم أعْرَضُوا عَنِ الحَقّ لاسْتِنْكافِهِم مِنْ تَوْبِيخِ قَوْمِهِم، أوْ لِعَدَمِ تَفكُّرِهِم فِيه، أو لِقُصُورِ العَقْلِ، لا للكَراهَةِ لَه.

وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّماوَاتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عن ذِكْرِهِم مُعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ[٧١ـ ٧٤]

ثُمّ لمّا كان هَوَى المُشْرِكِينَ في كَوْنِ الشِّرْكِ وَدِينِهِمُ البّاطِل حقّاً، رَدَّهُمُ اللهُ بقوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ﴾ والدِّينُ ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ ومُشْتَهَياتِ أنْفُسِهم، وَنَزَلَ القُرآنُ موافِقاً لِمَيْلِ قُلُوبِهم في الشِّرْكِ وَتَعَدُّدِ الآلِهَة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّماوَاتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ مِنَ المَلائِكَةِ وَالثَّقَلَيْن، لِما سَبَقَ في سُورَةِ الأنبياءِ مِنْ دَلِيلِ التَّمانُع، أو المراد لَوِ اتَّبَعَ أحكامُ الإسلامِ أهْواءهم مَعَ تَخالُفِها، لَوَقَعَ التَّناقُضُ فيها، ولَاخْتَلَّ نَظامُ العالَم.

عن القمّي: الحَقّ: رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام ... وفساد السماء: إذا لم تَمْطُر، وفساد الأرض

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ١٤٣، تفسير روح البيان ٦: ٩٤.

إذا لم تُنبت، وفساد الناس في ذلك[1].

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم﴾ وأنعمنا عليهم ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾ والقرآن الذي فيه شَرفهم وفخرُهم وصيتهم، أو وَعْظهم ونُصحهم، وما فيه صَلاحهم. وقيل: هو الذِكْر الذي كانوا يتَمنّونه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2].

﴿فَهُمْ عن ذِكْرِهِم﴾ لغاية حُمقهم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ وبه لا يعتنون، مع أنّ العاقل مشتاقٌ إلى ما فيه خيره وشرفه ﴿أَمْ﴾ يتوهَمون أنك ﴿تَسْأَلُهُمْ﴾ وتطلُبُ منهم ﴿خَرجاً﴾ وأجراً على أداء الرسالة، فيمنعهم البُخل بالمال، أو اتّهامك بكون دعواك الرسالة لجلب المال وحُبّ الدنيا لا لإطاعة الله ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ ورزقه الذي أوجبه لك على نفسه في الدنيا، وثوابه الذي أعدّه لك في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ من جميع ما بأيديهم من الأموال، بل من جميع الدُّنيا لسَعَة عطائه ودوامه ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ﴾ والمُعطين لعدم قُدرة أحدٍ على مثل عطائه، فلا وجه لاعراضهم عنك وعدم إيمانهم بك ﴿وَإِنَّكَ﴾ والله ﴿لَتَدْعُوهُمْ﴾ وتَهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مُوصِل إلى كُلّ خيرٍ، وتأويله -كما عن القمّي- إلى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام[3].

﴿وَإِنَّ﴾ المشركين ﴿ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولا يخافون عقاب الله في القيامة، لانهماكهم في الشهوات وحُبّ الدنيا ﴿عَنْ﴾ هذا ﴿ٱلصِّرَاطِ﴾ المستقيم ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ ولعادلون؛ لأنّ خوف الآخرة أقوىٰ البواعث على طلب الحقّ.

عن الصادق عليه السلام، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله تعالى لو شاء لعرّف العباد نفسه، ولكن جعلنا أبوابه وصِراطه وسبيله والوجه الذي يُوتى منه، فمن عَدَل عن ولايتنا أو فَضّل علينا غيرنا، فإنّهم عن الصراط لناكبون»[4].

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِن ضُرٍّ لَلَجُّوا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ [٧٥-٧٧]

ثُمّ ذمّهم الله بغاية اللّجاج والتمرّد بقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِن ضُرٍّ﴾ كالجوع والمرض والقتل والسبي ﴿لَلَجُّوا﴾ وتَمادُوا ﴿فِى طُغْيَانِهِمْ﴾ وإفراطهم في الكفر والشِّقاق وعَداوة

---

١. تفسير القمي ٢: ٩٢، تفسير الصافي ٣: ٤٠٥.
٢. تفسير الرازي ٢٣: ١١٢، والآية من سورة الصافات: ١٦٩/٣٧.
٣. تفسير القمي ٢: ٩٢، تفسير الصافي ٣: ٤٠٥.
٤. الكافي ١: ٩/١٤١، تفسير الصافي ٣: ٤٠٦.

الرسول حال كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عن الهدى، ويتردّدون في شُعب الضّلال، لايدرون الى أين يتوجّهون ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ وشدّة الجُوع ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا﴾ وما تذلّلوا ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ اللّطيف بهم ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ له أبداً.

رُوي أنه لمّا أسلم ثُمامة بن أُثال الحنَفي، ولَحِق باليمامة، ومنع المِيرة عن أهل مكّة، وأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العِلْهز[١] ـ قيل: هو شيء يتخذونه من الدم والوَبَر[٢] ـ وقيل: حتى أكلوا الجِيف[٣]، جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ في المدينة، فقال: أنشدك بالرَّحم، ألست تزعُم أنك بُعِثت رحمةً للعالمين؟ فقال: «بلى». فقال: قَتلتَ الآباء بالسيف، والأبناء بالجُوع، فادعُ أن يُكشَف عنّا هذا القَحْط، فدعا فكُشِف عنهم، فأنزل الله هاتين الآيتين[٤].

وقيل: إنّ المراد بالعذاب القتل والأسر يوم بدر[٥].

وعن الباقر عليه السلام: «الاستكانة: هي الخُضوع، والتضرُّع: رفع اليدين والتضرّع بهما»[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «الاستكانة: الدعاء، والتضرُّع: رفع اليدين في الصلاة»[٧].

وحاصل المراد: أنّهم أقاموا على الكفر والاستكبار ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخرة ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وآيسون من النجاة ومن كلّ خير.

قيل: هو بابٌ من أبواب جهنّم، عليه من الخَزَنة أربعمائة ألف، سُودٌ وجوههم، كالحة[٨] أنيابهم، قد قُلِعت الرحمة من قلوبهم، إذا بلغوه فتحه الله عليهم[٩].

وعن الصادق عليه السلام: «ذلك حين دعا النبي ﷺ فقال: اللهمَ اجعل عليهم سنين كسنيّ يوسف، فجاعوا»[١٠].

وعن الباقر عليه السلام: «هو في الرجعة»[١١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَافُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٧٨ـ٨٠]

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ١٤٦، تفسير روح البيان ٦: ٩٧.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٩٧.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ١١٣.
٤. تفسير الرازي ٢٣: ١١٣، تفسير روح البيان ٦: ٩٧.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٩٨.
٦. الكافي ٢: ٦/٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٤٠٦.
٧. مجمع البيان ٧: ١٨١، تفسير الصافي ٣: ٤٠٦.
٨. كَلَحَ: تكشّر في عبوس، وقيل: الكلوح في الأصل بدوُّ الأسنان عند العبوس.
٩. تفسير روح البيان ٦: ٩٨.
١٠ و١١. مجمع البيان ٧: ١٨١، تفسير الصافي ٣: ٤٠٦.

ثمَ ذكر سبحانه كمال قُدرته وإنعامه عليهم بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ القادر و﴿ٱلَّذِى أَنشَأَ﴾، وخلق ﴿لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ﴾ لتستعملوها في تحصيل معرفته، ولكن ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ نِعمه العِظام، بل تَكْفرونها باستعمالها في غير ما خُلِقت له.

ثمَ أردف ذِكر هذه النِّعم بذِكر ما هو أعظم منها بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ وخلقكم أوبثّكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالتناسل ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وتُجمَعون بعد التفرُّق، وتُعذَّبون على كُفران نِعمه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِى﴾ الموتىٰ ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء بمقتضى فياضيّته ورحمته وحكمته ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَافُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بالتعاقب والزيادة والنقص ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أيها المشركون تلك الآيات الواضحة الدلالة على التوحيد والقُدرة على إعادة الخلق للحساب.

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هٰذا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ [٨١ـ ٨٣]

ثُمَ لمّا ذكر سبحانه الحشر، حكى من المشركين إنكاره بالتقليد وتبعية الآباء مع دلالة البراهين القاطعة عليه بقوله: ﴿بَلْ﴾ أعرضوا عن البراهين و﴿قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ والكفار السابقون تقليداً لهم.

ثُمَ كأنّه قيل: ما قال المشركون؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا﴾ انكاراً للحَشْر ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا﴾ في القُبور ﴿تُرَاباً وَعِظَاماً﴾ نَخِرةً ﴿ءَإِنَّا﴾ لمُحيَون ثانياً و﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ ومُخرَجُون من القبور؟! حاشا لا يكون ذلك أبداً بالإله الذي نَعبُده ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ تخويفاً ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا﴾ الأقدمون ﴿هٰذَا﴾ البعث البعيد في نظر العقل ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السابقة على مجيىء محمّد ﷺ.

ثُمَ بالغوا [في] إنكاره بقولهم: ﴿إِنْ هٰذا﴾ الوعد وما ذلك الحديث ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وأكاذيب السابقين التي لفّقوها وسَطّروها في الدفاتر لتُقرأ ويُضحَك منها.

قُل لِمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ

لَكَاذِبُونَ[٨٤ـ٩٠]

ثُمَ لمّا كان هذا الانكار لقُصور عقوله عن إدراك كمال قُدرة الله أمر نبيّه ﷺ بإلزامهم عليه، باعتراف بقدرته تعالى على ما هو أعظم من الإعادة بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمد إلزاماً لهم: يا أيها المشركون ﴿لِمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمن فِيهَا﴾ من الموجودات وعجائب المخلوقات ﴿إِن كُـنتُمْ تَـعْلَمُونَ﴾ مُبدِعهما، أو تُدركون شيئاً؟ أجيبوني بعلمٍ ﴿سَيَقُولُونَ﴾ ويعترفون البتة بأن كَلها ﴿لِلهِ﴾ وحده خَلقاً وتصرُّفاً وتدبيراً. لاضطرارهم إلى الاعتراف بما هو بديهي العقل، فاذا اعترفوا بذلك ﴿قلْ﴾ حثّاً لهم على التفكُّر والتدبُّر ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ وتتنبهون أنّ من كان قادراً على إبداع تلك الموجودات العظيمة العجيبة، [فهو] قادرٌ على إعادتكم للحساب بطريق أولى، لأنّ الإعادة أهون من الابداع أوّلاً بلا مِثالٍ سابقٍ.

ثُمَ أمر سبحانه نبيّه ﷺ بالتّرقي في إلزامهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: قولوا لي ﴿مَن رَبُّ ٱلسَّماوَاتِ ٱلسَّبْعِ﴾ التي هي أعظم من جميع الموجودات ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ﴾ كلّها ﴿لِلهِ﴾ وحده خلقاً وترتيباً ﴿قُلْ﴾: بعد اعترافهم بما هو ضَرُوري العقل توبيخاً لهم: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ عذابه على الشِّرك بتركه، وعلى إنكار البعث بالاقرار به؟ وإنّما قدّم التذكّر على التقوى لكون التذكّر موجباً للمعرفة التي هي باعثة على الاتّقاء ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مَن بِيَدِهِ﴾ وفي قدرته ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ووجوده، أو سُلطانه والتصرُّف والتدبير فيه ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ ويغيث كلّ مستغيثٍ ﴿وَلاَ يُجَارُ﴾ ولا يُغاث ﴿عَلَيْهِ﴾ من أحدٍ لعدم احتياجه واضطراره؟ ﴿إِن كُـنتُمْ تَـعْلَمُونَ﴾ ذلك، فأخبروني ﴿سَيَقُولُونَ لِلهِ﴾ المُلك والمَلَكوت والجِوار ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ ومن أين تُخدَعون، وعن الرشد تُصرفون؟ مع علمكم بأنّ ما أنتم عليه من الشرك وإنكار البعث عين الضَّلال ﴿بَلْ﴾ لم يبق لهم عُذرٌ إذ ﴿أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ وأنزلنا عليهم دين الاسلام الذي حقيقته معرفة المبدأ والمعاد، وبالَغْنا في الحِجاج ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ مع ذلك ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم بالشِّرك وإنكار البعث ومُصرّون عليها.

مَا ٱتَّخَذَ ٱللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ ٱللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ[٩١و ٩٢]

ثُمَ بالغ سبحانه في إبطال الشِّرك بأقسامه بقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللهُ﴾ وما أختار لنفسه ﴿مِن وَلَدٍ﴾ كما يقول به اليهود والنصارى وبعض فِرق المشركين لوجوب المماثلة والمجانسة بين الزَّوج والزَّوجة

والوالد والولد، وامتناعهما بينه تعالى وبين ما سواه ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ لأنه ﴿إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ﴾ وانفرد كلّ خالقٍ ﴿بِمَا خَلَقَ﴾ واستبدّ به وامتاز مُلك كلٍّ عن مُلك الآخر، كما هو دأب المُلوك ﴿وَلَعَلَا﴾ وغلَب ﴿بَعْضُهُمْ﴾ في المُلك ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر كما هو العادة الجارية بين الملوك، فلم يكن بيَدِ أحدٍ منهم ملكوت كلّ شيء، فوَحْدة المُلك واتّساق النِّظام أقوى دليلٍ على وَحْدة الإله.

ثُمّ نزّه ذاته المقدسة عن النِدّ والولد بقوله: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ﴾ وتنزّه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ربّهم من كونه ذا ولدٍ وشريك.

ثُمّ استدلّ سبحانه على توحيده بسَعَة علمه بقوله: ﴿عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ والسرّ والعلانية التي تكون لجميع الموجودات بالاحاطة والقيمومية، ولو لم يكن جميعها مخلوقاته لم يكن له العلم بجميعها وليس لغيره ذلك، فكيف يُمكن أن يكون له شريك مساوٍ له في الألوهية ﴿فَتَعَالَىٰ﴾ شأنه، وتقدّس ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به ممّا لا علم له بشيء.

قيل: في ذكر الوصفين إشعارٌ بوعيد المشركين[١].

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ [٩٣ و ٩٤]

ثُمّ بالغ سبحانه في تهديدهم بأمر نبيّه ﷺ بالاستعاذة ممّا وعدهم من العذاب بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمّد، متضرّعاً إليّ: يا ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ قيل: يعني يا ربّ إن كان ولابدّ أن تُريني ما وعدت المشركين من العذاب المستأصِل في الدنيا[٢] ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى﴾ ولا تبقني ﴿فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ وأخرجني من بينهم لئلّا يُصيبني ما يُصيبهم من العذاب.

وفيه بيان لغاية فضاعة ما وعدوه، بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يكاد أن يَحيق به، وردٌّ لإنكارهم إيّاه واستعجالهم له بطريق الاستهزاء.

قيل: هضماً لنفسه، أو إنّما أُمِر ﷺ بهذا القول؛ لأنّ شؤم الكَفَرة قد يَحيق بمن وراءهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّاتُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[٣].

رُوي أنه لمّا أخبر الله تعالى نبيّه ﷺ بأن له في أُمّته نقمة ولم يُطلعه على وقتها، أمره بهذا الدعاء[٤].

في (المجمع) عن النبي ﷺ، أنه قال في حجّة الوَداع وهو بمِنى: «لا تَرجِعوا بعدي كُفاراً يضرب

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ١١٧.
٢. تفسير الرازي ٢٣: ١١٧، تفسير روح البيان ٦: ١٠٣.
٣. تفسير أبي السعود ٦: ١٤٩، والآية من سورة الأنفال: ٢٥/٨.
٤. تفسير أبي السعود ٦: ١٤٩.

بعضكم رقاب بعض، وأيم الله لئن فعلتموها لتعرِفُني في كتيبة يُضاربونكم» قال الراوي: فغُمِز من خلف منكبه الأيسر، فالتفت فقال: «أو عليّ» فنزلت[١].

وعن جابر بن عبدالله أنه قال: قال رسول الله ﷺ وقد خطبنا يوم الفتح: «أيها الناس، لأعرفنّكم[٢] ترجِعون بعدي كُفّاراً يضرِب بعضكم رقاب بعضٍ، ولئن فعلتم ذلك أضرِبكم بالسيف» ثمّ التفت عن يمينه فقال الناس: غمزه جَبْرَئيل، فقال له: أو عليّ فقال: «أو عليّ»[٣].

وفي رواية عن الصادق عليه السلام قال: «فنزل عليه جَبْرَئيل فقال: يا محمّد، [قل] إن شاء الله، أو يكون ذلك علي بن أبي طالب[٤]. فقال رسول الله ﷺ: أو يكون ذلك علي بن أبي طالب إن شاء الله. فقال له جَبْرَئيل: واحدة لك، واثنتان لعليّ، وموعدكم السَّلام»[٥].

فقال أبان بن تغلِب راوي الحديث: جُعلت فِداك، وأين السَّلام؟ فقال: «يا أبان، السَّلام من ظهر الكوفة»[٦].

أقول: الظاهر أنّه يكون في الرَّجعة، كما قال به الفيض رحمه الله[٧].

وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ * ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ[٩٥ـ٩٨]

ثمّ لمّا كان المشركون يستهزئون بالنبيّ ﷺ بوعده بالعذاب، أعلن سبحانه بقدرته على إنزاله بقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ﴾ في حياتك ﴿مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَادِرُونَ﴾ البتة، ولكن المحكمة البالغة اقتضت تأخيره.

ثُمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ بالحِلم والصَّفح بقوله: ﴿ٱدْفَعْ﴾ يا محمّد ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ طُرق الدفاع ـ وهي خَصْلة الصَّفح والحِلم ـ أعمالهم ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ من التكذيب والاستهزاء والإيذاء[٨].

عن الصادق عليه السلام: «التي هي أحسن: التقيّة»[٩]

أقول: يعني أنّها منها.

١. مجمع البيان ٧: ١٨٦، تفسير الصافي ٣: ٤٠٨.
٢. في النسخة: لاعرفتكم.
٣. مختصر البصائر: ٢١، تفسير الصافي ٣: ٤٠٨.
٤. زاد في مختصر البصائر: إن شاء الله.
٥. في مختصر البصائر: السلم، وكذا الذي بعدها.
٦. مختصر البصائر: ١٩، تفسير الصافي ٣: ٤٠٩.
٧. تفسير الصافي ٣: ٤٠٩.
٨. في النسخة: والإبداء.
٩. المحاسن: ٢٩٧/٢٥٧، تفسير الصافي ٣: ٤٠٩.

ثمّ سلّى سبحانه قلبه الشريف بقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ جنابك به من الجُنون والشِّعر والكِهانة فنُجازيهم أسوأ الجزاء.

ثُمّ لمّا كان الطيش وقلّة الصبر من الشيطان، أمره بالاستعاذة منه بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ﴾ ووَساوسهم المُغوية على خلاف رضاك ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ﴾ من ﴿أَن يَحْضُرُونِ﴾ عندي ويَحومون حولي في حال الغضب والرضا والشدّة والرّجاء وغيرهما.

رُوي عن النبي ﷺ أنه كان عند استفتاح الصلاة يقول: «لا إله إلّا الله» ثلاثاً، «والله أكبر» ثلاثاً، و«اللهمّ إني أعوذُ بك من هَمَزات الشياطين ولمَها[1] ونفثها ونفخها، وأعوذ بك ربّ أن يَحْضُرون»[2].

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ[٩٩ و ١٠٠]

ثمّ هدّد المشركين على استمرارهم في وصف النبيّ ﷺ بما ليس فيه بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وعاين أحوال البَرْزَخ ﴿قَالَ﴾ تَحسّراً على ما فرّط فيه من الايمان والعمل الصالح: يا ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ إلى الدنيا ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وفي زمان قصّرت في الايمان والعمل من أيام عمري في الدنيا.

قيل: إن خِطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم[3].

وقيل: إنّ ذِكر الربّ قسمٌ[4]، وخطاب ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ للملائكة، والظاهر أنّ المراد من (أحدهم) الكفّار. وقيل: إنّه يعُمّ المؤمنين المقصّرين[5].

عن الضحاك قال: كنت جالساً عند ابن عباس، فقال: من لم يزكّ ولم يحُجّ سأل الرجعة عند الموت، [فقال ابن عباس ﵁: أنا أقرأ عليك به قرآناً] فيقول: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾[6].

قال رسول الله ﷺ: «إذا حضر الانسان الموت جُمِع كلّ شيءٍ كان يمنعه من حقّه بين يديه، فعنده يقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾»[7].

---

١. في تفسير روح البيان: الشياطين من همزها. وفي تفسير الرازي: الشياطين همزه ونفثه ونفخه.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ١١٩، تفسير روح البيان ٦: ١٠٤.

٣ و٤. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٠، تفسير روح البيان ٦: ١٠٥.

٥. تفسير روح البيان ٦: ١٠٦. ٦. المنافقون: ١٠/٦٣. ٧. تفسير الرازي ٢٣: ١١٩.

قيل: إن الاستغاثة[١] بهذا البيان حسنة ولو مع العلم بامتناع الرجوع؛ لأنه من باب التمنّي[٢].

ثمّ ردعهم الله من هذا القول بقوله: ﴿كَلَّا﴾ لا رجوع لك إلى الدنيا أبداً، ثمّ أقنطهم بعد كلمة ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ بقوله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ ولفظةٌ صِرفةٌ لا يَعْمَل بها، وإنّما ﴿هُوَ﴾ عند الموت ﴿قَائِلُهَا﴾ تحسّراً وتندّماً ﴿وَمِن وَرَائِهِم﴾ وخلفهم أو أمامهم ﴿بَرْزَخٌ﴾ وحاجزٌ بينهم وبين الرجوع وهو الموت، أو عالم يُعذّبون فيه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ[١٠١]

ثمّ بيّن سبحانه كيفية ذلك اليوم بقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ النفخة الثانية التي يحيا بها الأموات ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ تُفيدهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وتُنجيهم من أهواله، وزال التراحم والتعاطف من قلوبهم ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فيما بينهم عنها، ولا يقول أحدٌ لأحدٍ: أنت ابن من، وأبو من، ومن أيّ قبيلة وعشيرة؟ بل يفِرّ المرء من فرط الدهشة والوحشة من أخية وصاحبته وبنيه.

رُوي أنّ عائشة قالت: يارسول الله، أما نتعارف يوم القيامة؟ إنّي أسمع الله يقول: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فقال ﷺ: «ثلاثة مواطن تَذْهَل فيها كلّ نفسٍ: حين يُرمى إلى كُلّ إنسان كتابه، وعند الموازين، وعلى جسر جهنّم»[٣].

في (روح البيان) عن الأصمعي، أنه قال: كنت أطوف بالكعبة في ليلةٍ مُقمرةٍ، فسَمِعتُ صوتاً حزيناً فتَبِعته، فاذا أنا بشابٍّ حَسَنٍ ظريفٍ متعلّق بأستار الكعبة، وهو يقول: «نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت المَلِك الحيّ القيوم، قد غلّقت المُلوك أبوابها، وأقامت عليها حُرّاسها[٤] وحُجّابها، وبابك مفتوح للسائلين، فها أنا سائلك ببابك، مذنباً فقيراً مسكيناً أسيراً، جئتك[٥] انتظر رحمتك يا أرحم الراحمين». ثمّ أنشأ يقول:

يا من يُجيبُ دُعا المُضطرّ في الظُّلم	يا كاشفَ الضُّرّ والبَلوىٰ مع السَّقَمِ
قد نام وفدُك[٦] حول البيت قاطبةً[٧]	وأنت وَحْدك[٨] يا قيّوم لم تَنَمِ
أدعوك ربّي ومولاي ومعتمدي[٩]	فارْحم بُكائي بحقّ البيتِ والحَرَمِ
أنت الغفورُ فجُد لي منك مغفرةً	أو اعفُ عنيَ يا ذا الجُود والنِّعمِ

---

١. في تفسير الرازي: الاستعانة.
٢. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٠.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٢، تفسير روح البيان ٦: ١٠٧.
٤. في المصدر: حرسها.
٥. في المصدر: جئت.
٦. في المصدر: وفدي.
٧. في المصدر: وانتبهوا.
٨. في المصدر: يا حيّ.
٩. في المصدر: ومستندي.

إن كان عفوك لايرجوه ذو سَرَفٍ[١] فمن يجُود على العاصين بالكَرَمِ

ثمَ رفع رأسه نحو السماء، وهو ينادي: «يا إلهي وسيدي ومولاي، إن أطعتك فلك المِنّة عليَ، وإن عصيتك فبجهلي فلك الحُجَة عليّ، اللهم فبإظهار مِنّتك عليَ وإثبات حُجّتك لديَ ارحمني واغفر لي ذنوبي، ولا تَحرِمني رُؤية جدّي وقرة عيني وحبيبك وصفيّك ونبيّك محمّد ﷺ»، ثمَ أنشأ يقول:

ألا أيّها المأمول في كلّ شدة إليك شكوتُ الضرَ فارْحم شِكايتي

ألا يا رجائي أنت كاشفُ كُربتي فهب لي ذُنوبي كلّها واقضِ حاجتي

فزادي قليل لا أراه مُبلّغي على الزاد أبكي أم لطول[٢] مسافتي

أتيت بأعمالٍ قِباحٍ رديّةٍ وما في الوَرَى عبدٌ[٣] جنى كجِنايتي

فكان يُكرّر هذه الأبيات حتى سقط مغشياً عليه، فدنوت منه فاذا هو زين العابدين علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام، فوضعت رأسه في حِجري، وبكيت لبكائه بكاءً شديداً شَفَقَةً عليه، فقَطَرَ من دموعي على وجهه، فأفاق من غَشيته وفتح عينيه وقال: «من الذي شغلني عن ذكر مولاي؟» فقلت: أنا الأصمعي يا سيدي، ما هذا البكاء، وما هذا الجَزَع، وأنت من أهل بيت النبوة، ومَعدِن الرسالة؟ أليس الله يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾؟![٤]

قال: فاستوى جالساً، وقال: «يا أصمعي هيهات، إنّ الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه وإن كان مَلِكاً قُرشياً، أما سَمِعت قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾»[٥].

واعترض بعض الملاحدة على القرآن المجيد بوقوع التناقض بين قوله: ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾[٦] وبين قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾[٧] وقوله: ﴿يتعارفون بينهم﴾[٨] وقد مرَ الجواب عنه في بعض الطرائف[٩].

فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ[١٠٢ـ١٠٤]

١. في المصدر: جرم. ٢. في المصدر: لبعد. ٣. في المصدر: خلق. ٤. الأحزاب: ٣٣/٣٣.
٥. تفسير روح البيان ٦: ١٠٧. ٦. المعارج: ١٠/٧٠. ٧. الصافات: ٢٧/٣٧.
٨. يونس: ٤٥/١٠. ٩. تقدم في الطرفة (٢٦) من مقدمة المصنف.

ثمّ بيّن سبحانه كيفية المحاسبة وحسن حال المؤمنين بقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ورَجحَت حسناته على سيئاته في ميزان الأعمال ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالجنّة والنِّعم الدائمة.

ثمّ بيّن سوء حال الكفّار بقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ورَجحَت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ وأضرّوا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع ما أعطاهم الله من الاستعداد والجوارح والقوىٰ الظاهرية والباطنية والعمر والعقل، ليُحَصّلوا بها السعادة الأبدية والنِّعم الدائمة.

عن ابن عبّاس: يعني غُبِنوا بها[١] بأن صارت منازلهم في الجنة للمؤمنين[٢].

وقيل: يعني امتنع انتفاعهم بأنفسهم لكونهم في العذاب[٣]. وهم ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ومقيمون أبداً.

ثمّ بيّن سبحانه بعض شدائد عذابهم في جهنّم تهويلاً للقلوب بقوله: ﴿تَلْفَحُ﴾ وتُحرِق ﴿وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ عن ابن عباس: أي تضرب وتأكُل لحومهم وجُلودهم[٤] ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ ومتقلّصو الشّفتين من شدّة الاحتراق.

عن النبيّ ﷺ قال: «تشويه النار، فتتقلّص شَفَته العليا حتى تبلُغ وسط رأسه، وتسترخي شَفَته السفلى حتى تبلُغ سُرّته»[٥].

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ[١٠٥ ـ ١٠٨]

ثمّ بيّن عذابهم الروحاني بتقريعهم وتوبيخهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ أيها المشركون ﴿آيَاتِي﴾ ومواعظي وزواجري ﴿تُتْلَىٰ﴾ وتُقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا ﴿فَكُنتُم بِهَا﴾ حينئذٍ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ وتستهزئون ﴿قَالُوا﴾ اعترافاً بتقصيرهم: يا ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ﴾ واستولت ﴿عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ ومَلكتنا شهواتنا المؤدية إلى العاقبة السيئة والجحيم الحاطمة. عن الصادق عليه السلام: «بالأعمال شقوا»[٦] ففعلنا ما فعلنا من تكذيب الرسل والآيات والأعمال القبيحة ﴿وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ﴾ وناساً مُنحرفين عن الصراط المستقيم، وسالكين طريق الجحيم حتى وقعنا فيها ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ وأعدنا إلى الدنيا ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى ما كنّا فيه من الشّرك والتكذيب ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ومبالغون في التعدّي عن حدود

---

١. في تفسير الرازي: غبنوها. ٢ ـ ٤. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٣.
٥. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٣، تفسير روح البيان ٦: ١٠٩.
٦. التوحيد: ٢/٣٥٦، تفسير الصافي ٣: ٤١١، وفيهما: بأعمالهم شقوا.

العقل ﴿قَالَ﴾ تعالى قهراً عليهم: ﴿ٱخْسَئُوا فِيهَا﴾ وانزجروا زجر الكلاب وأسكتوا سكوت الذُّل والهَوان ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ بشيءٍ من الاعتذار، ولا تسألوا رفع العذاب عنكم أو تخفيفه، لعدم قابليته للقبول والاجابة.

قيل: هو آخر كلام يتكلّمون به، ثمّ ليس لهم بعد ذلك إلّا الزّفير والشهيق والعُواء كعُواء الكلب[١].

عن ابن عباس: لهم ستّ دعوات: إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ فيجابون: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي﴾[٢]. ثمّ ينادون ألف سنة ثانية: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فيجابون: ﴿ذٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ ٱللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾[٣]. ثمّ ينادون ألف سنة ثالثة: ﴿يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيجابون: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾[٤]. ثمّ ينادون ألف سنة رابعة: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾ فيجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِن زَوَالٍ﴾[٥]. ثمّ ينادون ألف سنة خامسة: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً﴾ فيجابون ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾[٦] ثمّ ينادون ألف سنة سادسة ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ فيجابون: ﴿ٱخْسَئُوا فِيهَا﴾[٧].

وعن القمّي: بلغني والله أعلم أنّهم يتداكّون بعضهم على بعضٍ سبعين عاماً حتّى ينتهوا إلى قَعْر الجحيم[٨].

إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّاحِمِينَ * فاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ * قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْأَلِ ٱلْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُم تَعْلَمُونَ[١٠٩ـ١١٤]

ثمّ بيّن سبحانه علّة استحقاقهم العذاب المُهين بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي﴾ وطائفةٌ من المؤمنين بوَحْدانيتي ورسالة رسولي ﴿يَقُولُونَ﴾ في الدنيا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بك وبما جاء به رسولك، وصدّقنا جميع ما أردت تصديقه منّا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا، واسترها بكرمك ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ وأنعِم علينا بنِعمك الواسعة الدنيوية والأُخروية ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾ وأفضل المُنْعِمين ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٥. ٢. السجدة: ١٢/٣٢ و١٣. ٣. غافر: ١١/٤٠ و١٢.
٤. الزخرف: ٧٧/٤٣. ٥. إبراهيم: ٤٤/١٤. ٦. فاطر: ٣٧/٣٥. ٧. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٥.
٨. تفسير القمي ٢: ٩٤، تفسير الصافي ٣: ٤١٢.

سِخْرِيّاً﴾ وتشاغلتم بالاستهزاء بهم ﴿حَتَّىٰ أَنسَوكُمْ﴾ اُولئك المؤمنون بسبب الاستهزاء بهم ﴿ذِكْرِى﴾ والتدبُّر في آياتي، وأداء شُكري، والعمل بطاعتي، فلم تخافوني في الاهانة بأوليائي ﴿وَكُنتُم﴾ مبالغين في الاستهزاء بهم، حتّى إنّكم كنتم ﴿مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾.

قيل: إن رُؤساء قريش كأبي جهل وعُتبة وأُبي بن خلف، كانوا يستهزئون بأصحاب النبيّ ﷺ، ويضحكون بالفقراء منهم مثل بلال وخبّاب وعمّار وصُهيب[1].

ثمّ بيّن سبحانه من حال المؤمنين عنده ما يوجب ازدياد أسف المستهزئين وحسرتهم بقوله: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ الجنّة ونِعمها ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على استهزائكم بهم وإيذائكم لهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ﴾ بجميع مقاصدهم من الايمان والأعمال الصالحة والنِّعم الأخروية.

ثمّ أنّه تعالى بعد إقناطهم من الرجوع إلى الدنيا ﴿قَالَ﴾ لهم تذكيراً لقلّة مَكْثهم فيها، أو قال المَلَك المأمور بالسؤال عنهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ وأيّ مقدارٍ من الزمان مكثتم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي تدّعون الرجوع إليها ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ ومن حيث تَعْداد الأعوام ﴿قَالُوا﴾ استقصاراً لمدة لَبْثهم فيها بالنسبة إلى مدّة إقامتهم في النار، أو بالنظر إلى انقضائها، فإنّ المنقضي في النظر قليل، أو بالنظر إلى كونها أيّام سُرورهم وهي قصار: ﴿لَبِثْنَا﴾ ومكثنا فيها ﴿يَوْماً﴾ واحداً ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وإن أردت تحقيق المدّة ﴿فَسْأَلِ ٱلْعَادِّينَ﴾ والمتمكّنين من تَعْداد الأيام والسنين، فانّا بسبب ما دَهَمَنا من العذاب لا يمكننا إحصاؤها.

وقيل: إنّ المراد من العادّين الملائكة العادّون لأعمار الناس وأنفاسهم وأعمالهم[2].

القمي، قال: يعني سَل الملائكة الذين يعُدّون علينا الأيام، ويكتُبون ساعاتنا وأعمالنا التي اكتسبناها فيها[3].

﴿قَالَ﴾ الله تعالى أو المَلَك: ﴿إِن لَبِثْتُمْ﴾ وما مَكَثتم في الدنيا متمتّعين بنِعَمها ﴿إِلَّا﴾ زماناً ﴿قَلِيلاً﴾ لم يكن للعاقل أن يعتدّ بالتنعّم والتلذّذ فيه، وأنتم انهمكتم في الشهوات في ذلك الزمان القليل، وغَفَلتم عن سوء العاقبة، واتّبعتم هوىٰ أنفسكم، وهيّأتم لها بأعمالكم العذاب المُخلّد، وأهلكتموها إلى الأبد، وحرمتموها من النِّعم التي ليس لها حدّ و﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُم تَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة التنعّم في الدنيا والغفلة عن الآخرة، لما فعلتم ما فعلتم، أو لو كنتم تعلمون الحشر والبعث لعَلِمتم قلّة لَبْثكم في الدنيا كما عَلِمتم اليوم.

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٥.
٢. تفسير روح البيان ٦: ١١٠.
٣. تفسير القمي ٢: ٩٥ تفسير الصافي ٣: ٤١٢.

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى ٱللهُ ٱلْـمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ [١١٥ و ١١٦]

ثمّ وبّخهم سبحانه على إنكارهم البعث مع دلالة البرهان القاطع عليه وغفلتهم عنه بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ قيل: التقدير أغفلتم عن البعث فحَسِبتم[1] ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ ولَعِباً بلا حكمةٍ وصلاحٍ ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ بل تموتون وتفتّتون[2].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الله تبارك وتعالى لم يخلُق خلقه عبثاً، ولم يترُكهم سُدىً، بل خلقهم لاظهار قُدرته، وليُكلّفهم طاعته، فيستوجبوا بذلك رضوانه، وما خلقهم ليجلُب منهم منفعةً، ولا ليدفع بهم مضرّة، بل خلقهم لينفعهم ويُوصلهم إلى النعيم»[3].

وعنه عليه السلام أنّه قيل له: خُلِقنا للفَناء؟ فقال: «خُلِقنا للبقاء، وكيف وجنّته لا تبيد، وناره[4] لا تخمَد، ولكن [قل:] إنّما نتحوّل من دارٍ إلى دارٍ»[5].

ثمّ نزّه سبحانه ذاته المقدسة عن العبث بقوله: ﴿فَتَعَالَى ٱللهُ﴾ وارتفع بذاته عن العَبَث، وتقدّس عن اللغو، وتنزّه عن فعل ما لا حكمة فيه لأنّه ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ والسلطان الحقيق بالسلطنة، الغنيّ بذاته عمّا سواه، وكلّ شيءٍ محتاجٌ إليه.

قيل: إنّ الحقّ هو الموجد للشيء بمقتضى الحكمة[6]، والثابت الذي لا يزول ذاته، ولا يبيد ملكه وقدرته، ولذا ﴿لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه.

ثمّ قرّر كمال سلطنته واستحقاقه العبادة بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ فكيف بما هو دونه وتحته، وإنما وصف العرش بالكريم لنزول الرحمة والبركات منه، أو لانتسابه إلى الله الكريم.

وقيل: إنّ المراد بالعرش هنا السماوات وما فيها[7].

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ * وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّاحِمِينَ [١١٧ و ١١٨]

ثمّ هدّد المشركين بقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ﴾ ويعبُد ﴿مَعَ ٱللهِ﴾ المتفرّد بالألوهية ﴿إِلٰهاً﴾ ومعبوداً ﴿آخَرَ﴾ مع أنّه ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ ولا حُجّة على جواز عبادته ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ﴾ وجزاؤه اللائق به

---

١. تفسير روح البيان ٦: ١١١.
٢. في النسخة: وتفتّون.
٣. علل الشرائع: ٩/٢، تفسير الصافي ٣: ٤١٢.
٤. في علل الشرائع: وكيف تفنى جنة لا تبيد، ونار.
٥. علل الشرائع: ١١/٥، تفسير الصافي ٣: ٤١٢.
٦. تفسير روح البيان ٦: ١١٢.
٧. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٨.

﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ وعقوبته بيده لعدم قدرة غيره عليها.

ثمّ نبّه سبحانه عليها إجمالاً بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ﴾ ولا يفوز بالمقصود من النجاة من العذاب والنيل بالثواب ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بتوحيد الله، ومن بدائع السورة أنّه تعالى افتتحها بثبوت الفلاح للمؤمنين، وختمها بنفيه عن الكافرين.

ثمّ أمر نبيّه ﷺ بموافقة المؤمنين في التضرّع وطلب المغفرة رغماً للكفار المستهزئين بهم بقوله: ﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ﴾ لي خطاياي ﴿وَٱرْحَمْ﴾ ذُلّي وفَقري وحاجتي ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فانّ رحمة من سواك قطرةٌ من بحار رحمتك الواسعة.

رُوي أنّ أول هذه السورة وآخرها من كنوز العرش، من عمل بثلاث آياتٍ من أولها، واتّعظ بأربع آيات من آخرها، فقد نجا وأفلح[١].

وفي رواية، قال ﷺ: «لقد انُزل عليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنّة» ثمّ قرأ ﴿قد أفلح المؤمنين﴾ حتى ختم العشر[٢].

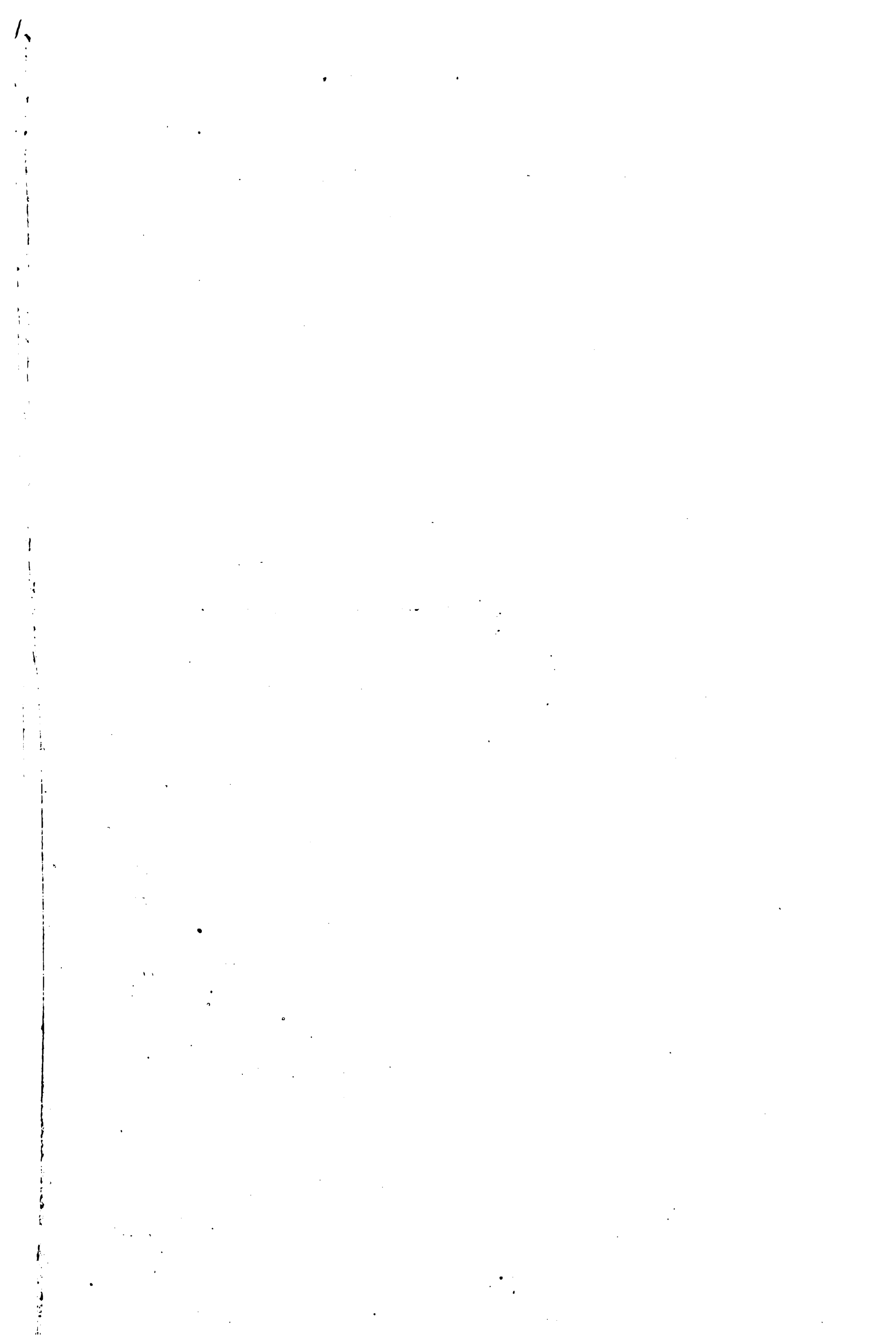
وعن عبدالله بن مسعود: أنه مرّ بمُصاب مبتلى فقرأ في اُذنه ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ [حتى ختم السورة، فبرئ بإذن الله.][٣]

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٨، تفسير البيضاوي ٢: ١١٤، تفسير روح البيان ٦: ١١٣.

٢. تفسير البيضاوي ٢: ١١٤، تفسير روح البيان ٦: ١١٣.

٣. تفسير روح البيان ٦: ١١٣.



في تفسير سورة النور

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ [١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت السورة المباركة المتضمّنة لاثبات التوحيد والمعاد وإبطال الشِّرك، والمفتتحة بالوعد بالفلاح بالمؤمنين المختتمة بسلبه عن الكافرين وحثّ العباد على العمل بأحكام الله وإيجاب حفظ الفرج عن الحرام، نُظِمت سورة النور المشتملة على تأكيد تلك المطالب العالية، وبيان حُرمَة الزنا، وتزويج المشركات والمشركين، وإيجاب حدّ الزاني والزانية، وحكم رمي الزوج زوجته بالزنا، ورمي الأجنبي الأجنبية المُحصنة به، ووجوب التعفّف عليهنّ، وغير ذلك من أحكام النساء، ولذا رُوي عن النبي ﷺ أنّه قال في رواية: «وعلموهنّ سورة النور والمِغْزَل»[١]. فافتتحها سبحانه بذكر أسمائه الحسنى على حسب دأبه ورسمة سبحانه في الكتاب الكريم بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ مدح سبحانه السورة وعظّمها بقوله: ﴿سُورَةٌ﴾ قيل: إنّ التقدير هذه سورة[٢]. وقيل: لمّا أمر في آخر السورة السابقة بسؤال الرحمة، أجابه بأن من رحمتنا عليك سورة عظيمة الشأن، وقطعة كريمة من القرآن الكريم[٣]، نحن ﴿أَنزَلنَاهَا﴾ عليك من اللّوح المحفوظ بتوسّط أمين الوحي ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وأوجبنا العمل بما فيها من الأحكام ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالات على الأحكام، وما فيها من المطالب العالية ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتستحضرون مضامينها، أو المراد كي تتعظوا وتتقوا المحارم.

---

١. مجمع البيان ٧: ١٩٤، تفسير روح البيان ٦: ١١٣. ٢. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٩.
٣. تفسير روح البيان ٦: ١١٣.

ثمّ شرع سبحانه في بيان الأحكام، فابتدأ بذكر حدّ الزنا اهتماماً بالرَّدع عنه بقوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ إن كانا غير مُحصَنين ﴿فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ بانفراده ﴿مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾.

عن الصادق عليه السلام: «الحرّ والحرّة إذا زنيا جُلِد كلّ واحدٍ منهما مائة جلدة، فأما المُحصَن والمُحصَنة فعليهما الرَّجم»[١].

وفي رواية عنه عليه السلام: «وفي البِكر والبِكرة جلد مائة ونفي سنه في غير مِصرهما»[٢].

وعنه عليه السلام: أنّه سُئِل عن المُحصَن فقال: «الذي يزني وعنده ما يُغنيه»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «من كان عنده فرجٌ يغدو عليه ويروح فهو مُحصَن»[٤].

وعن الأصبغ بن نُباتة: أنّ عمر أُتي بخمسة نفرٍ أُخِذوا في الزنا، فأمر أن يُقام على كلّ واحدٍ منهم الحدّ، وكان أمير المؤمنين عليه السلام حاضراً، فقال: «يا عمر، ليس هذا حُكمهم» قال: فأقم أنت الحدّ عليهم، فقدّم واحداً منهم فضرب عُنقه، وقدّم الآخر فرجمه، وقدّم الثالث فضربه الحدّ، وقدّم الرابع فضربه نصف الحدّ، وقدّم الخامس فعزّره، فتحيّر عمر، وتعجّب الناس. فقال له عمر: يا أبا حسن، خمسة نفر في قضيةٍ واحدةٍ، أقمت عليهم خمسة حدودٍ ليس شيءٌ منها يُشبه الآخر؟

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أمّا الأول فكان ذمّياً فخرج عن ذمّته، ولم يكن له حدٌّ إلّا السيف، وأما الثاني فرجلٌ مُحصَن كان حدّه الرَّجم، وأمّا الثالث فغير مُحصَن حدّه الجلد، وأمّا الرابع فعبدٌ ضربناه نصف الحدّ، وأمّا الخامس فمجنونٌ مغلوبٌ على عقله»[٥].

وعن القمي مثله إلّا أنه قال: ستّة نفرٍ، وخلّى سبيل السادس قال: «وأمّا الخامس فكان منه ذلك الفعل بالشُّبهة فعزّرناه وأدّبناه، وأمّا السادس فمجنونٌ مغلوبٌ على عقله سقط عنه التكليف»[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «لا يُرجَم الرجل ولا المرأة حتى يشهد عليهما أربعة شهداء على الجِماع والإيلاج والإدخال كالمِيل في المُكْحُلَة»[٧].

أقول: وكذا في الجَلد.

وعن الباقر عليه السلام قال: «يُضرَب الرجل الحدّ قائماً والمرأة قاعدة، ويُضرَب كلّ عضوٍ ويُترَك الرأس

---

١. الكافي ٧: ٢/١٧٧، التهذيب ١٠: ٦/٣، تفسير الصافي ٣: ٤١٤.
٢. الكافي ٧: ٧/١٧٧، التهذيب ١٠: ٩/٣، تفسير الصافي ٣: ٤١٤.
٣. الكافي ٧: ٤/١٧٨، التهذيب ١٠: ٢٧/١٢، تفسير الصافي ٣: ٤١٥.
٤. الكافي ٧: ١٠/١٧٩، التهذيب ١٠: ٢٨/١٢، تفسير الصافي ٣: ٤١٥.
٥. تفسير الصافي ٣: ٤١٥.
٦. تفسير القمي ٢: ٩٦، تفسير الصافي ٣: ٤١٥.
٧. الكافي ٧: ٤/١٨٤، تفسير الصافي ٣: ٤١٥.

والمذاكير»[١].

وعن الكاظم عليه السلام أنّه سُئِل عن الزاني كيف يُجلَد قال: «أشدّ الجَلْد» فقيل: فوق الثياب؟ فقال: «لا بل يُجرّد»[٢]

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم﴾ أيّها المؤمنون أو الولاة ﴿بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ ورحمةٌ وإن كانت أقلّ قليل ﴿فِى﴾ إطاعة أحكام ﴿دِينِ ٱللهِ﴾ وإجراء حدوده، فتعطّلوها أو تسامحوا فيها ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، فانّ الإيمان بهما باعثٌ على الاهتمام والجدّ في طاعة الله، والعمل بأحكامه وإجراء حدوده.

رُوي أنّه يُوتى بوالٍ نَقَص من حدّ سوطاً فيقال له: لم نَقَصت؟ فيقول: رحمة لعبادك. فيقال له: أنت أرحم منّي بعبادي! انطلقوا به إلى النار[٣].

﴿وَلْيَشْهَدْ﴾ وليحضُر ﴿عَذَابَهُمَا﴾ وجلدهما ﴿طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأجل التشهير حتى يرتدع الناس عن فعلهما.

قيل: إن تخصيص المؤمنين بالحضور والشهود، لئلا تكون إقامة الحدّ مانعة للكفّار عن قبول الاسلام، ولذلك كَرِه إقامته في أرض العدوّ.

عن الباقر عليه السلام قال: «﴿وليشهد عذابهما﴾ يقول: ضربهما ﴿طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يجمع لهما الناس إذا جلدوا»[٤].

وعن ابن عباس: أقلّ الطائفة أربعة، وقيل: ثلاثة، وقيل: اثنان[٥].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «الطائفة واحد»[٦].

وعن الباقر عليه السلام: «الطائفة الحاضرة هي الواحدة»[٧].

وعنه عليه السلام أيضاً: «أنّ أقلّها رجلٌ واحدٌ»[٨].

ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ [٣]

---

١. الكافي ٧: ١/١٨٣، التهذيب ١٠: ١٠٤/٣١، تفسير الصافي ٣: ٤١٥.
٢. الكافي ٧: ٣/١٨٣، تفسير الصافي ٣: ٤١٥.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ١٤٨، تفسير روح البيان ٦: ١١٥.
٤. تفسير القمي ٢: ٩٥، تفسير الصافي ٣: ٤١٦.
٥. تفسير الرازي ٢٣: ١٤٩.
٦. التهذيب ١٠: ٣٣/١٥٠، تفسير الصافي ٣: ٤١٦.
٧. عوالي اللآلي ٢: ٤٢٨/١٥٣، وفيه: الحاضرة للحدّ، هي الواحدة، تفسير الصافي ٣: ٤١٦.
٨. جوامع الجامع: ٣١٢، تفسير الصافي ٣: ٤١٦.

ثمّ أنه تعالى بعد بيان حدّ الزنا والزجر عنه، نهى عن نِكاح الزواني قبل التوبة بقوله: **﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ﴾** ولا يتزوّج **﴿إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾** ولا يرغب في نكاح المؤمنة الصالحة لعدم السّنخية والمشاكلة بينهما **﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا﴾** ولا يرغب في تزويجها **﴿إِلَّا﴾** رجل **﴿زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾**.

رُوي أنه كانت في المدينة بغايا وزانيات ذوات الأعلام من اليهود والمشركين مُوسِرات، فرغب بعض فقراء المهاجرين في نِكاحهنّ لينفقن عليهم من أكسابهنّ على عادة الجاهليّة، فاستاذنوا النبيّ ﷺ في ذلك، فنزلت الآية في ردعهم عنه ببيان أنّ نكاحهنّ من خصائص الزواني والمشركين، حيث إنّ الزاني لا يرغب إلّا في نكاح الزانية والمشركة، والزانية لا ترغب إلّا في نكاح الزاني والمشرك[1].

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ النّكاح **﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾** لما فيه من التشبيه بالفَسَقة، والتعرّض للتّهمة، والتسبّب بسوء المقالة، والطعن في النسب، وغير ذلك من المفاسد التي لا تليق بالأداني والأراذل فضلاً عن المؤمنين، فلا ينبغي أن يحوموا حولها.

قيل: إيراد الجملة الأُولى مع أن مَناط التنفير هي الثانية، لتأكيد العلاقة بين الجانبين، مبالغةً في الزّجر، وعدم ذكر المشركة في الجملة الثانية، للتنبيه على أنّ مَناط الزّجر هو الزنا لا مُجرّد الإشراك، وإنّما التعرّض لها في الأُولى إشباعاً في التنفير عن الزانية بنظمها في سلك المشركة[2]، كما هو الوجه في التعبير عن الكراهة بالتحريم.

وقيل: إنّ التحريم على حقيقته، والحكم مخصوصٌ بمورد النزول، أو منسوخ بقوله: **﴿وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾**[3] فانّه متناول للزانيات، وعموم قوله عليه السلام: «لا يُحرّم الحرام الحلال»[4] وقد تضافر دعوى الاجماع على جوازه، سواء أكان قبل التوبة أو بعدها.

فما عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال: «هنّ نساء مشهورات بالزنا، والرجال مشهورون بالزنا، شُهِروا به وعُرِفوا به، والناس اليوم بتلك المنزلة، فمن أُقيم عليه حدّ الزنا وشُهِر بالزنا، لم يَنْبغِ لأحدٍ أن يُناكحه حتىّ يعرف منه التوبة»[5].

ومن قوله عليه السلام: «لو أن إنساناً زنى ثم تاب تزوّج حيث شاء»[6].

وما عن الباقر عليه السلام: «هم رجالٌ ونساء كانوا على عهد رسول الله ﷺ مشهورين بالزنا، فنهى الله عن

---

١ و٢. تفسير أبي السعود ٦: ١٥٦، تفسير روح البيان ٦: ١١٦.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ١٥٧، تفسير روح البيان ٦: ١١٧، والآية من سورة النور: ٣٢/٢٤.

٤. التهذيب ٧: ١٣٥١/٣٢٨.

٥. الكافي ٥: ١/٣٥٤، تفسير الصافي ٣: ٤١٦.

٦. الكافي ٥: ٦/٣٥٥، تفسير الصافي ٣: ٤١٦.

أولئك الرجال والنساء، والناس اليوم على تلك المنزلة، من شهر شيئاً من ذلك، أو اُقيم عليه الحدّ، فلا تزوّجوه حتى تُعرَف توبته»[1] فمحمولٌ على الكراهة، لمخالفتها للاجماعات المنقولة المعتضدة بالشهرة العظيمة والمعتبرة المستفيضة منها: الصحيح «أيّما رجلٍ فجر بامرأةٍ، ثمّ بدا له أن يتزوّجها حلالاً، فاذا أوّله سِفاح وآخره نِكاح، فمثله مثل النخلة أصاب الرجل من تمرها حراماً، ثمّ اشتراها بعده، فكانت له حلالاً»[2].

والصحيح الآخر عن المرأة الفاجرة يتزوّجها الرجل المسلم، قال: «نعم، وما يمنعه؟ ولكن إذا فعل فليحصّن بابه»[3].

ومنها الخبر: «نساء أهل المدينة فواسق» قلت: فأتزوّج منهنّ؟ فقال: «نعم»[4].

ومنها الخبر الآخر: عن الرجل يتزوّج الفاجرة مُتعةً؟ قال: «نعم لأباس به، وإن كان التزويج الآخر فليحصّن بابه»[5].

ومنها خبر آخر عن رجلٍ أعجبته امرأةً، فسأل عنها، فاذا النساء تُنبئ عليها بشيءٍ من الفُجور. فقال: «لا بأس بأن يتزوّجها ويُحصّنها»[6].

مع أنّ في بعض الروايات المانعة لفظ (لم ينبغِ) الظاهر في الكراهة، وفي جميعها التصريح باتخاذ حكم الزاني والزانية مع قيام الإجماع على جواز تزويج العفيفة من الزاني، والسياق يقتضي جواز العكس.

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[٤ و ٥]

ثمّ بيّن سبحانه حُكم نسبة الزنا إلى العفيفات بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ ويَنْسُبون المؤمنات ﴿ٱلْمُحْصَنَاتِ﴾ والعفيفات إلى الزنا ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ عند الامام أو نائبه ﴿بِأَرْبَعَةِ﴾ رجالٍ ﴿شُهَدَاءَ﴾ عدُول يشهدون عليهنّ بما رَمَوهنّ به وعَجَزوا عن إثبات صدق هذه النسبة ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ أيها الولاة الحقّ ﴿ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ إن كان الطرفان بالغين عاقلين، سواء كانا ذكرين، أو اُنثيين، أو مختلفين، وسواء كان الرامي حُرّاً أو مملوكاً.

---

١. الكافي ٥: ٣/٣٥٥، تفسير الصافي ٣: ٤١٦.

٢. الكافي ٥: ٢/٣٥٦، نوادر أحمد بن عيسى: ٢٣٥/٩٨.

٣. نوادر أحمد بن عيسى: ٣٤٢/١٣٣.

٤. التهذيب ٧: ١٠٩١/٢٥٣.

٥. التهذيب ٧: ١٠٩٠/٢٥٣.

٦. التهذيب ٧: ١٣٦٣/٣٣١.

عن الصادق عليه السلام: في رجلٍ يقذِف الرجل بالزِّنا. قال: «يُجْلَد هو في كتاب الله عزَ وجلَ وسُنَة نبيه صلى الله عليه وآله»[١].

وعن الباقر عليه السلام في امرأةٍ قذفت رجلاً. قال: «تُجْلَد ثمانين جَلدة»[٢].

وعنه عليه السلام: «إذا قَذَف العبد الحرَ جُلِد ثمانين، و[قال:] هذا من حقوق الناس»[٣].

وأمّا المقذوف فيُعْتَبر أن يكون حُرَاً مسلماً متستَراً، عن الصادق عليه السلام: «من أفترى على مملوكٍ عُزِّر لحُرمة الاسلام»[٤].

وعنه عليه السلام: «لو اُتيت برجلٍ قد قَذَف عبداً [مسلماً] بالزنا لا نعلم منه إلّا خيراً، لضربته الحدَ حدَ الحرَ إلّا سَوطاً»[٥].

وفي الصحيح في الرجل يقذِف الصبية، أيُجلَد؟ قال: «لا، حتى تبلُغ»[٦] وأمّا اعتبار التستّر فلدلالة الآية، وظهور قوله «لا يعلم منه إلّا خيراً»[٧].

ثمّ بالغ سبحانه في الزجر عن القذف بقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ على شيءٍ من الحقوق والحدود ﴿أَبَداً﴾ إن لم يتوبوا، قيل: لأنّهم آذوا المقذوف بلسانهم، فحُرِموا من منافعه[٨] ﴿وَأُولٰئِكَ﴾ الرامون ﴿هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾ والخارجون عن طاعة الله، المتجاوزون عن حدوده ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ الذنب العظيم الذي اقترفوه ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم بالتدارك، ومنه الاستسلام للحدّ، والاستحلال من المقذوف ﴿فَإِنَّ ٱللهَ﴾ يغفر ما فَرَط منهم، ولا يُؤاخذهم به، ولا ينظِمهم في سلك الفاسقين الذين لا تُقْبَل شهادتهم لأنّه ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

عن الصادق عليه السلام: «القاذف يُجلَد ثمانين جلدة، ولا تُقبَل لهم شهادة أبداً إلّا بعد التوبة أو يُكذِّب نفسه»[٩].

وفي (الكافي) أنّه سُئِل: كيف تُعرَف توبته؟ فقال: «يُكذِّب نفسه على رؤوس الخلائق حين يُضرَب ويستغفر ربّه، فإذا فعل ذلك فقد ظهرت توبته»[١٠].

وعنه عليه السلام أنّه سُئِل عن الرجل يقذِف الرجل، فيُجلَد حدّاً، ثمّ يتوب ولا يعلم منه إلّا خيراً، أتجوز

---

١. الكافي ٧: ٣/٢٠٥، التهذيب ١٠: ٢٣٨/٦٥، تفسير الصافي ٣: ٤١٧.
٢. الكافي ٧: ٤/٢٠٥، التهذيب ١٠: ٢٣٩/٦٥، تفسير الصافي ٣: ٤١٧.
٣. التهذيب ١٠: ٣٥/٧٢، تفسير الصافي ٣: ٤١٧.
٤. التهذيب ١٠: ٣٤/٧١، تفسير الصافي ٣: ٤١٧.
٥. الكافي ٧: ١٧/٢٠٨، التهذيب ١٠: ٣١/٧١، تفسير الصافي ٣: ٤١٧.
٦. الكافي ٧: ٢٣/٢٠٩.
٧. الكافي ٧: ٢/٣٩٧، تفسير الصافي ٣: ٤١٩.
٨. تفسير أبي السعود ٦: ١٥٧.
٩. تفسير القمي ٢: ٩٦، تفسير الصافي ٣: ٤١٩.
١٠. الكافي ٧: ٧/٢٤١، تفسير الصافي ٣: ٤١٩.

شهادته؟ قال: «نعم، ما يقال عندكم؟».

قيل: يقولون توبته فيما بينه وبين الله، ولا تُقبَل شهادته أبداً. فقال: «بئسما قالوا، كان أبي يقول: إذا تاب ولم يعلم منه إلّا خيراً، جازت شهادته»[1].

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَـدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ * وَٱلْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ * وَٱلْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ[٦ ـ ٩]

ثمَ أنه تعالى بعد بيان حُكم رمي المُحصنَات عموماً، بيّن حُكم رمي الزوج زوجته تخصيصاً للعموم أو نسخاً بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ ويقذِفون بالزنى ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ الدائمات ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ﴾ يشهدون بما رموهنّ ﴿إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ وفي استثناء أنفسهم من الشهداء، مع كونهم مدّعين إيذان من أول الأمر بعدم إلقاء قولهم عند عدم الشهود بالمرّة، بل ينتظمون في سلك الشهود في الجملة ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ وكلّ واحدٍ منهم المشروعة لهم ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ في ما رماها به من الزنا، ﴿وَ﴾الشهادة ﴿ٱلْخَامِسَةُ﴾ هي ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ فيه، قيل: تُحبسَ المرأة حتّى تُقِرّ أو تُلاعن[2] بمقتضى قوله تعالى.

﴿وَيَدرُؤا﴾ عن الزوجة ويدفع ﴿عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾، والرجم الذياستحقّته بشهادة الزوج إلا ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ﴾ على زوجها ﴿إِنَّهُ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ في ما رماها به ﴿وَ﴾ الشهادة ﴿الخَامِسَةَ﴾ للأربع المتقدّمة وهي ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ﴾ زوجها ﴿مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ فيه.

عن ابن عباس: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحَصَنَاتِ﴾ الآية، قال عاصم بن عَدي الأنصاري: إنْ دخل رجلٌ بيته فوجد رجلاً على بطن امرأته، فإن جاء بأربعةٍ يشهدون بذلك فقد قضى الرجل حاجته وخرج، وإن قتله قُتِل به، وإن قال وجدتُ فلاناً مع تلك المرأة ضُرِب، وإن سَكَت سَكَت على غَيظٍ، اللهم افتح.

وكان له ابن عمّ، يقال له عُويمر، وله امرأة يقال لها خَولة بنت قيس، فأتى عاصماً، وقال: لقد رأيت شريك بن سمحاء على بطن امرأتي خولة، فاسترجع عاصم، وأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما أسرع ما بتليت بهذا في أهل بيتي! فقال ﷺ: «وما ذاك»؟ قال: أخبرني عويمر ابن عمّي بأنه

---

١. الكافي ٧: ٢/٣٩٧، تفسير الصافي ٣: ٤١٩.
٢. تفسير أبي السعود ٦: ١٥٩، تفسير روح البيان ٦: ١٢١.

رأى شريك بن سمحاء على بطن امرأته خَولة، وكان عُويمر وخَولة وشريك كلهم بنو عمّ عاصم.

فدعا رسول الله ﷺ بهم جميعاً وقال لعُويمر: «اتّقِ الله في زوجتك وابنة عمّك ولا تقذِفها». فقال: يا رسول الله، أُقسم بالله إنّي رأيت شريكاً على بطنها، وإني ما قربتها أربعة أشهر، وإنّها حُبلى من غيري.

فقال لها رسول الله ﷺ: «اتّقي الله ولا تُخبري إلّا بما صنعتِ» فقالت: يا رسول الله، إنّ عُويمراً رجلٌ غيور، وإنّه رأى شريكاً يطيل النظر إليّ ويتحدّث، فحملته الغَيرة على ما قال. فنزلت هذه الآية، فأمر رسول الله ﷺ حتى نُودي الصلاة جامعة، فصلّى العصر، ثمّ قال لعويمر: «قُم وقل: أشهد بالله أن خولة لزانية وأني لمن الصادقين» ثمّ قال في الثانية: «قل أشهد بالله أني رأيتُ شريكاً على بطنها، وأني لمن الصادقين» ثمّ قال في الثالثة: «قل أشهد بالله أنّها حُبلى من غيري، وأنّي لمن الصادقين». ثمّ قال في الرابعة: «قل أشهد بالله أنّها زانية، وأنّي ما قربتها منذ أربعة أشهر، وأنّي لمن الصادقين». ثمّ قال في الخامسة: «قل لعنة الله على عُويمر ـ يعني نفسه ـ إن كان من الكاذبين فيما قال».

ثمّ قال: «اقعد» وقال لخولة: «قومي» فقامت، وقالت: أشهد بالله ما أنا بزانية، وأنّ زوجي عُويمراً لمن الكاذبين. وقالت في الثانية: أشهد بالله أنّي حُبلى منه، وأنّه لمن الكاذبين، وقالت في الرابعة: أشهد بالله أنّه ما رآني على فاحشةٍ قطّ وأنّه لمن الكاذبين، وقالت في الخامسة: غضب الله على خولة إن كان عُويمر من الصادقين في قوله، ففرّق رسول الله ﷺ بينهما[1].

وفي رواية أُخرى: عن ابن عباس: أنّ عاصماً ذات يوم رجع إلى أهله، فوجد شريكاً على بطن امرأته إلى آخر ما تقدّم[2].

وفي رواية ثالثة عنه: لمّا نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ﴾ قال سعد بن عُبادة ـ وهو سيد الأنصار ـ: لو وجدت رجلاً على بطن امرأتي فإن جئت بأربعة شهداء يكون قد قضى حاجته وذهب. فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار، أما تسمعون ما يقول سيدكم؟» فقالوا: يا رسول الله، لا تَلُمه فانّه رجلٌ غيور. فقال سعد: يا رسول الله، واللهِ إني لأعلم أنّها من الله، وأنّها حقّ، ولكنّي عجبت منه. فقال ﷺ: «إنّ الله يأبى إلّا ذلك».

قال: فلم يلبثوا إلّا إذ جاء ابن عمّ له يقال له هلال بن أُمية ـ وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم ـ فقال: يا رسول الله، إنّي وجدت مع أمرأتي رجلاً رأيت بعيني وسَمِعت بأُذني، فكرِه رسول الله ﷺ ما جاء به. فقال هِلال: والله يا رسول الله لأجد الكراهة في وجهك ممّا أخبرتك به، والله يعلم أنّي

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ١٦٤.
٢. تفسير الرازي ٢٣: ١٦٥.

لصادق، وما قلت إلّا حقاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إمّا البيّنة، وإمّا إقامة الحدّ عليك».

فاجتمعت الأنصار، فقالوا: ابتُلينا بما قال سعد، فبينما هم كذلك إذ نزل عليه الوحي، وكان إذا نزل عليه الوحي أربدّ وجهه، وعلا جسده حُمرة، فلمّا سُرّي عنه قال صلى الله عليه وآله: «ابشر يا هِلال، فقد جعل الله لك فرجاً» قال: قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى، فقرأ عليهم هذه الآيات.

فقال صلى الله عليه وآله: «ادعوها» فدُعيت فكذّبت هلالاً، فقال: الله يعلم أن أحدكما كاذبٌ، فهل منكما تائب، وأمر بالملاعنة، فشَهِد هلال أربع شهادات بالله أنّه لمن الصادقين، فقال صلى الله عليه وآله له عند الخامسة: «اتّق الله يا هِلال، فانّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» فقال: والله لا يُعذّبني الله عليها، كما لم يَجْلِدني رسول الله، وشهد الخامسة.

ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أتشهدين» فشهدت أربع شهادات بالله أنّه لمن الكاذبين، فلمّا أخذت في الخامسة قال صلى الله عليه وآله لها: «اتّقي الله فانّ الخامسة هي الموجبة» فتفكّرت ساعةً وهمّت بالاعتراف، ثم قالت: والله لا أفضح قومي، وشَهِدت الخامسة أنّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ففرّق رسول الله صلى الله عليه وآله بينهما، ثمّ قال: «انظُروها إن جاءت به أبلج[١] أصهب أحمش الساقين[٢] فهو لهلال، وإن جاءت به خَدَلَّج الساقين[٣] أورق[٤] جَعْداً فهو لصاحبه». فجاءت به أورق خَدَلَّج الساقين. فقال صلى الله عليه وآله: «لولا الإيمان لكان لي ولها شأن».

قال عِكْرِمة: رأيته بعد ذلك أمير مصرٍ من الأمصار ولا يُدرىٰ من أبوه»[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «أن رجلاً من المسلمين أتى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، إن رجلاً دخل منزله، فوجد مع امرأته رجلاً يجامعها، ما كان يصنع؟ قال: فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله، فانصرف الرجل، وكان ذلك الرجل هو الذي ابتلى بذلك مع امرأته، فنزل الوحي من عند الله بالحُكم فيهما، قال: فأحضرها زوجها فأوقفها رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ قال للزوج: اشهد أربع شهادات بالله أنّك لمن الصادقين في ما رميتها به. قال: فشَهِد، ثمّ قال له: اتقِ الله، فانّ لعنة الله شديدة، ثمّ قال له: اشهد الخامسة أنّ لعنة الله عليك إن كنت من الكاذبين، فشَهِد، ثمّ أمر به فنُحّي، ثمّ قال للمرأة: اشهدي أربع شهادات بالله أنّ زوجك لمن الكاذبين في ما رماك به. فشَهِدت، ثمّ قال لها: امسكي فوعظها وقال لها: اتقي الله، فانّ غضب الله شديدٌ. ثمّ قال لها: اشهدي الخامسة أنّ غضب الله عليك إن كان زوجك من

---

١. الأبلج: المفترق الحاجبين، الطلق الوجه، وفي تفسير الرازي: أُثيبج مصغّر أثبج، وهو العريض الثَّبج الناتئه، والثَّبج: ما بين الكاهل إلى الظهر.
٢. أحمَش الساقين: دقيق الساقين.
٣. خَدَلَّج الساقين: مُمتلئ الساقين.
٤. الأورق من الناس: الأسمر.
٥. تفسير الرازي ٢٣: ١٦٥.

الصادقين في ما رماك به.فشَهِدت، قال: ففرّق بينهما، وقال لهما: لا تجتمعا بنِكاح أبداً بعد ما تلاعنتما»[١].

عن الصادق عليه السلام، أنّه سُئِل عن هذه الآية فقال: «هي في القاذف الذي يقذِف امرأته، فاذا قذفها ثمّ أقرّ أنه كَذَب عليها، جُلِد الحدّ، ورُدّت إليه امرأته، وإن أبى إلّا أن يمضي فشَهِد عليها أربع شهادات بالله أنه لمن الصادقين، والخامسة يلعن فيها نفسه إن كان من الكاذبين.

وإن أرادت أن تَدرأ عن نفسها العذاب ـ والعذاب هو الرَّجْم ـ شَهِدت أربع شهادات بالله أنه لمن الكاذبين، والخامسة أنّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين، فان لم تفعل رُجِمت، وإن فعلت درأت عن نفسها الحدّ، ثمّ لا تحِلّ إلى يوم القيامة».

قيل: أرأيت إن فرّق بينهما ولهما ولد فمات؟ قال: «تَرِثه اُمّه، وإن ماتت اُمّه يَرِثه أخواله، ومن قال إنّه ولد زنا جُلِد الحدّ».

قيل: يُردّ إليه الولد إذا أقرّ به؟ قال: «لا ولا كرامة، ولا يرث الابن، ويرثه الابن»[٢].

وعنه عليه السلام: «إذا قَذَف الرجل امرأته، فانه لا يلاعنها حتى يقول: رأيت بين رجليها رجلاً يزني بها»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «يجلس الامام مستدبر القبلة، فيقيمهما بين يديه مستقبلا القبلة بحذاه، ويبدأ بالرجل ثمّ المرأة»[٤].

وفي رواية: «يجعل الرجل عن يمينه، والمرأة عن يساره»[٥].

وعن الصادق عليه السلام في رجل أوقفه الامام للّعان، فشَهِد شهادتين، ثمّ نَكَل فأكذب نفسه قبل أن يفرَغ من اللّعان؟ قال: «يُجْلَد جلد القاذف، ولا يُفرّق بينه وبين امرأته»[٦].

وعن الجواد عليه السلام: أنه قيل له: كيف صار إذا قذف الرجل امرأته كانت شهادته أربع شهادات بالله، وإذا قذفها غيره أب أو أخ أو ولد أو قريب جُلد الحدّ، أو يقيم البينة على ما قال؟ فقال: «قد سُئل أبو جعفر عن ذلك، فقال: إنّ الزوج إذا قذف أمرأته فقال: رأيت ذلك بعيني، كانت شهادته أربع شهادات بالله، وإذا قال إنّه لم يره، قيل له: أقم البيّنة على ما قلت، وإلّا كان بمنزلة غيره، وذلك أنّ الله جعل للزوج مدخلاً لم يجعله لغيره والد ولا ولد يدخُله بالليل والنهار، فجاز أن يقول: رأيت، ولو قال غيره: رأيت قيل له: ما أدخلك المدخل الذي ترى هذا فيه وحدك، أنت مُتّهم فلابدّ أن يُقام عليك

---

١. الكافي ٦: ٤/١٦٣، تفسير الصافي ٣: ٤٢٠.

٢. الكافي ٦: ٣/١٦٢، تفسير الصافي ٣: ٤٢٠.

٣. الكافي ٦: ٦/١٦٣، تفسير الصافي ٣: ٤٢٢.

٤. الكافي ٦: ١٠/١٦٥، تفسير الصافي ٣: ٤٢٢.

٥. الكافي ٦: ١١/١٦٥، تفسير الصافي ٣: ٤٢٢.

٦. الكافي ٦: ٥/١٦٣، تفسير الصافي ٣: ٤٢٢.

الحدّ الذي أوجبه الله عليك».

قال: «وإنما صارت شهادة الزوج أربع لمكان الأربعة شهداء مكان كلّ شاهدٍ [يمين]»[١].

وعن الصادق عليه السلام أنه سُئِل: لم جُعِل في الزنا أربعة شهود، وفي القتل شاهدان؟ فقال: «[إنّ] الله عزّ وجلّ أحلّ لكم المُتعة، وعَلِم أنّها ستُنْكَر عليكم، فجعل الأربعة شهود احتياطاً لكم، لولا ذلك لأُتي عليكم، وقلّما تجتمع أربعة شهداء بأمر واحد»[٢].

وفي رواية اُخرى قال: «الزنا فيه حدّان، ولا يجوز أن يَشهَد كلّ اثنين على واحدٍ، لأنّ الرجل والمرأة جميعاً عليهما الحدّ، والقتل إنّما يُقام الحدّ على القاتل ويُدفَع عن المقتول»[٣].

وَلَوْ لَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُم مَا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ[١٠ و ١١]

ثمّ بيّن سبحانه منّته على عباده بتشريع اللّعان بقوله: ﴿**وَلَوْ لَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ**﴾ وإحسانه إليكم وإنعامه أيّها الرامون والمرميات ﴿**وَ**﴾ لولا ﴿**أَنَّ ٱللهَ تَوَّابٌ**﴾ ومبالغ في قَبول التوبة ﴿**حَكِيمٌ**﴾ في أفعاله وأحكامه التي من جملتها ما شرّع من حكم اللّعان، لعاجلكم بالفضيحة وعقوبة حدّ القذف على الزوج أو حدّ الزنا على الزوجة، أمّا أثر التفضّل والرحمة على الصادق فظاهرٌ، وأمّا على الكاذب فهو إمهاله والسّتر عليه في الدنيا، ودرء الحدّ عنه، وتعريضه للتوبة بتوصيف ذاته المقدسة بالتوابية.

ثمّ ذكر الله سبحانه قضية رمي المنافقين عائشة بما صانها الله منه لحرمة نبيّه الأكرم صلّى الله عليه وآله بقوله: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ**﴾ وصدر منهم أعظم الفرية والبُهتان في أمر عائشة ﴿**عُصْبَةٌ**﴾ وجماعة ﴿**مِنكُمْ**﴾ منافقون كعبدالله بن اُبي، ومِسْطَح، وزيد بن رِفاعة، وحَمْنَة بنت جَحْش[٤] وغيرهم ممّن ساعدهم على ما قيل[٥]، لا تتوهموا ذلك الإفك و﴿**لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم**﴾ أيّها الرسول والمؤمنون ﴿**بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ لاستحقاقكم به الثواب العظيم والكرامة على الله الكريم، وكونه سبب نزول آيات فيها تشييد الحقّ، وتضعيف الباطل، وتشديد الوعيد في من تكلّم فيه، والثناء على من ظنّ بالمؤمنين خيراً.

ثمّ هدّد سبحانه العُصبة بقوله: ﴿**لِكُلِّ ٱمْرِئٍ**﴾ ورجل ﴿**مِنْهُم مَا ٱكْتَسَبَ**﴾ وحصّل لنفسه ﴿**مِنَ**

---

١. الكافي ٧: ٤٠٣/٦، تفسير الصافي ٣: ٤٢٢.
٢. علل الشرائع: ٥٠٩/١، تفسير الصافي ٣: ٤٢٢.
٣. علل الشرائع: ٥١٠/٣، تفسير الصافي ٣: ٤٢٣.
٤. في النسخة: رحمته بنت عجش.
٥. تفسير الرازي ٢٣: ١٧٣.

﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ والعِصيان وتَبِعاته من العذاب بالتكلّم فيه والإذعان به والضّحك منه والسُّكوت وعدم النهي عنه ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ الإفك وتصدّى ﴿كِبۡرَهُۥ﴾ ومُعظمه ﴿مِنۡهُمۡ﴾ بأن أبداه وأشاعه عداوةً للرسول ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ في الآخرة.

روى الزُّهري عن جماعة، عن عائشة أنّها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج اسمها خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزوةٍ قبل غزوة بني المُصْطَلِق، فخرج اسمي فيها، فخرجت معه ﷺ، وذلك بعد نزول آية الحجاب، فحُمِلت في هَوْدَج، فلمّا انصرف رسول الله ﷺ وقرُب من المدينة، نزل منزلاً، ثمّ آذن بالرحيل، فقمتُ حين آذنوا بالرحيل، ومشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلمّا قضيتُ شأني وأقبلت إلى رَحْلي، فَلمست صدري، فاذا عِقدٌ لي من جَزْع أظفار[1] قد انقطع، فرجعتُ والتمستُ عِقدي، وحبسني طَلَبه، وأقبل الرَّهط الذين كانوا يحملوني، فحملوا هَودجي وهم يَحْسَبون أني فيه لخِفّتي، فانّي كنتُ جاريةً حديثة السّن، فظنّوا أني في الهودج، وذهبوا بالبعير.

فلمّا رجعتُ لم أجد في المكان أحداً، فجلستُ وقلتُ: لعلهم يعودون في طلبي، فنمتُ وقد كان صفوان بن المُعَطّل يمكُثُ في المعسكر يتّبع أمتعة الناس، فيحمله إلى المنزل الآخر لئلا يذهب منهم شيء، فلمّا رآني عرفني، وقال: ما خلّفك عن الناس؟ فأخبرته الخبر، فنزل وتنحّى عنّي حتّى ركبتُ، ثمّ قاد البعير.

وافتقدني الناس حين نزلوا، وماج الناس في ذِكري، فبينا الناس كذلك، إذ هجمتُ عليهم، فتكلّم الناس وخاضوا في حديثي، وقَدِم رسول الله ﷺ المدينة، ولَحقني وَجَعٌ، ولم أرَ منه ﷺ ما عَهدته من اللُّطف الذي كنتُ أعرفه منه حين أشتكي، وإنّما يدخُل ﷺ ثمّ يقول: «كيف تيكم؟» فذاك يُريبني، ولا أشعر بما جرى بعدُ حتىٰ نَقِهت، فخرجتُ في بعض الليالي مع اُمّ مِسْطَح لمهمّ لنا، ثمّ أقبلت أنا واُمّ مِسْطَح قِبَل بيتي حين فَرَغنا من شأننا، فعثرَتْ اُمّ مِسْطَح في مِرْطِها[2]، فقالت: تَعِس مِسْطَح، فأنكرتُ ذلك، وقلتُ: أتَسُبّين رجلاً شَهِد بدراً؟! فقالت: أو ما بلغك الخبر؟ فقلت: وما هو؟ فقالت: أشهد أنّك من المؤمنات الغافلات، ثمّ أخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضاً على مرضي، فرجعتُ أبكي.

ثمّ دخل عليّ رسول الله ﷺ، وقال: «كيف تيكم؟» فقلت: ائذن لي أن آتي أبويّ فأذِن لي، فجئت

---

١. الجَزْع: ضرب من العقيق يُعرف بخطوطٍ متوازية مستديرة مختلفة الألوان، وأظفار: اسم موضع.

٢. المِرْط: كساءٌ من خَزّ أو صوف أو كتّان يؤتزر به وتتلفّع به المرأة.

أبويَ، وقلت [لأمي]: يا أُمّة، ماذا يتحدّث الناس؟ قالت: يا بُنية هوّني عليك، فوالله لقلّما كانت امرأة وضيئة عند رجلٍ يُحِبّها ولها ضَرائر إلّا أكثرن عليها. ثمّ قالت: ألم تكوني علمتِ ما قيل حتى الآن؟ فأقبلتُ أبكي، فبكيتُ تلك الليلة، ثمّ أصبحتُ أبكي، فدخل عليّ أبي وأنا أبكي، فقال لأمي: ما يُبكيها؟ قالت: لم تكن عَلِمت ما قيل فيها حتى الآن، فأقبل يبكي[1]، ثمّ قال: اسكتي يا بُنية.

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأُسامة بن زيد، واستشارهما في فِراق أهله، فقال أُسامة: يا رسول الله، هن[2] أهلك ولا نعلم الّا خيراً، وأما عليّ فقال: «لم يُضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تَصدقك». فدعا رسول الله ﷺ بُريرة وسألها عن أمري، قالت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحقّ إن رأيت عليها أمراً قطّ أكثر من أنّها جارية حديثة السنّ تنام عن عجين أهلها حتى تأتي الداجن فتأكُله.

فقام النبيّ ﷺ خطيباً على المِنْبَر فقال: «يا معشر المسلمين، من يُعذِرني[3] من رجلٍ قد بلغني أذاه في أهلي ـ يعني عبدالله بن أُبي ـ فوالله ما عَلِمت على أهلي إلّا خيراً، ولقد ذكروا الذي[4] ما عَلمت عليه إلّا خيراً، وما كان يدخُل على أهلي إلّا معي».

فقام سعد بن مُعاذ فقال: أُعذرك يا رسول الله منه، إن كان من الأوس ضربتُ عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج فما أمرتنا [فعلنا]، فقام سعد بن عُبادة، وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، لكن أخذته الحميّة، فقال لسعد بن مُعاذ: كَذَبت والله لا تقدِر على قتله. فقام أُسيد بن خُضير، وهو ابن عم سعدبن معاذ وقال: كَذَبت والله لتقتلنّه، وإنك لمنافقٌ تُجادل عن المنافقين. فثار الحَيّان الأوس والخَزرج حتى هَمّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المِنبر، فلم يَزَل يخفِضهم حتى سكتوا.

قالت: ومكثتُ يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، وأبواي يَظُنّان أن البكاء فالق كبدي، فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي، إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلّم وجلس، ولم يجلس عندي منذُ قيل فيّ ما قيل، ولقد لَبِث شهراً لا يُوحي الله إليه في شأني شيئاً. ثمّ قال: «أما بعد يا عائشة، فانه قد بلغني عنك كذا وكذا، فان كنتِ بريئةً فسيبرئك الله تعالى، وإن كنتِ قد ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فانّ العبد إذا تاب تاب الله عليه».

قالت: فلمّا قضى رسول الله ﷺ مقالته فاض دمعي، ثمّ قلت لأبي: أجب رسول الله عني. فقال: والله ما أدري ما أقول. فقلت لأمّي: أجيبي عنّي رسول الله. فقالت: والله ما أدري ما أقول، فقلت وأنا

---

١. في النسخة: فأقبلت تبكي.
٢. في تفسير الرازي: هم.
٣. أي ينصفني.
٤. في تفسير الرازي: ذكروا رجلاً.

جارية حديثة السنّ ما أقرأ من القرآن كثيراً: إنّي والله لقد عرفت أنّكم قد سَمِعتم بهذا حتى استقرّ في نفوسكم وصدّقتم به، فان قلت لكم إنّي بريئة لا تُصدّقوني، وإن اعترفت لكم بأمرٍ والله يعلم أنـي بريئة تصدّقوني، والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلّا كما قال العبد الصالح أبو يوسف ولم أذكر أسمه: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾[١].

ثمّ تحولتُ واضطجعتُ على فراشي وأنا والله أعلم أنّ الله تعالى يُبرّئني، ولكن والله ما كنت أظنّ أن يَنزِل في شأني وحيٌ يُتلى، فشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلّم الله فيّ بأمرٍ يُتلى، ولكن كنتُ أرجو أن يرى الرسول في النوم رؤيا يبرّئني الله بها. فوالله ما قام رسول الله من مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله الوحي على نبيّه، فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي حتى إنّه لينحدر عنه مثل الجُمان من العرق في اليوم الشاتي من ثِقل الوحي، فسجّي بثوب ووضعت وسادة تحت رأسه، فوالله ما فرغت وما باليت لعلمي ببراءتي، وأما أبواي فوالله ما سُرّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننتُ أنّ نفسي أبوي ستخرُجان فَرَقاً من أن يأتي الله بتحقيق ما قال الناس، فسُرّي عنه وهو يضحَك، فكان أول كلمة تكلّم بها أن قال: «ابشري يا عائشة، أما والله لقد برّأكِ الله». فقلت: بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد أصحابك. فقالت أُمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقومُ إليه، ولا أحْمَدُ أحداً إلّا الله الذي أنزل براءتي، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العشر آيات.

فقال أبو بكر: والله لا أُنفقُ على مِسْطَح بعد هذا، وكان يُنفِقُ عليه لقرابته منه وفَقْره، إلى أن قالت: فلمّا نزل عُذري قام رسول الله ﷺ على المِنبر، فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلمّا نزل ضرب عبدالله بن أُبي ومِسْطَحاً وحَمْنَة وحسانَ الحدّ[٢].

أقول: في هذه الرواية التي وضعتها لاثبات شرفها بأن أوحى الله في شأنها آيات تُتلى إلى يوم القيامة، دلالة على كونها سبباً لايذاء النبيّ ﷺ وجسارتها عليه، وإثارة الفتنة، وعلى عدم اطمئنان أبويها بعفّتها، وعدم تعقّلها وتعقّل أبويها وجوب عصمة زوجات النبي ﷺ من الفُحش، لكونه من أعظم الشَّين عليه، وعلى كون صُلحاء أصحاب النبيّ ﷺ الذين أهل العصبية والحمية الجاهلية، وعلى كون بعض البدريين من أفسق الفُسّاق، إلى غير ذلك ممّا فيه دلالة على فساد اعتقاد العامة في حقّها وحقّ أصحاب النبي رووا في شأنهم أنّهم كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم.

وقال القمي ﵀: روت العامة أنّها نزلت في عائشة وما رميت به في غزوة بني المُصْطَلِق من خُزاعة،

---

١. يوسف: ١٢/١٨. ٢. تفسير الرازي ٢٣: ١٧٤.

وأمّا الخاصة فإنّهم رووا أنّها نزلت في مارية القُبطية وما رمتها به عائشة[١].

ثمّ روى عن الباقر عليه السلام أنه قال: «لمّا هلك إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، حَزِن عليه رسول الله صلى الله عليه وآله حزناً شديداً، فقالت له عائشة: ما الذي يُحزِنك عليه، فما هو إلّا ابن جُريح، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وأمره بقتله، فذهب علي عليه السلام [إليه] ومعه السيف، وكان جُريح القِبْطي في حائطٍ، [وضرب علي عليه السلام باب البستان، فأقبل إليه جريح ليفتح له الباب، فلما رأى علياً عليه السلام عرف في وجهه الغضب، فأدبر راجعاً ولم يفتح الباب، فوثب عليّ عليه السلام على الحائط] ونزل إلى البُستان واتّبعه، وولى جُريح مُدبِراً، فلمّا خشي أن يَرْهَقَه صَعِد في نخلةٍ، وصَعِد علي عليه السلام في أثره، فلمّا دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة، فبَدَت عَورته، فاذا ليس له ما للرجال، ولا له ما للنساء، فانصرف علي عليه السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال له: يا رسول الله، إذا بعثتني في أمرٍ أكون فيه كالمِسمار المَحْميّ في الوَبَر، أمضي على ذلك[٢] أو اتثبّت، قال: لا، بل تَثَبّت قال: والذي بعثك بالحقّ ماله ما للرجال، ولا له ما للنساء. فقال [رسول الله صلى الله عليه وآله]: الحمد لله الذي صَرَف عنّا السوء أهل البيت»[٣].

وزاد في رواية أُخرى: «فأتى به رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: ما شأنك يا جُريح؟ فقال: يا رسول الله، إن القِبط يُحبَون حَشمهم ومن يدخُل إلى أهاليهم، والقِبطيون لا يأنسون إلّا بالقِبطيين، فبعثني أبوها لأدخل عليها وأخدِمها وأُؤنسها»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: أنّه سُئِل: كان رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بقتل القِبطي وقد عَلِم أنّها كَذِبت عليه، أو لم يعلم، وإنّما دفع الله عن القِبطي القتل بتثبّت علي عليه السلام فقال: «بلى، قد كان والله أعلم، ولو كانت عزيمة من رسول الله صلى الله عليه وآله القتل لما رجع عليّ عليه السلام حتى يَقتُله، ولكن إنّما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله لترجِع عن ذنبها، فما رجعت، ولا اشتدّ عليها قتل رجلٍ مسلم بكِذبها»[٥].

أقول: حاصل المراد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان عالماً بكذب عائشة في رمي مارية، وكان يعلم أنّ الله يُظهِر الحقّ، وإنّما بعث علياً عليه السلام لذلك، ولترجِع عائشة عن ذنبها، ولعل النبيّ صلى الله عليه وآله ترك جَلْدها لعفو مارية عنها لمَيْل رسول الله صلى الله عليه وآله إليها.

إن قلتَ: ظاهر الآية أنّ الإفك صدر من جماعة حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ ومقتضى الرواية أنّه صدرت من عائشة فقط.

---

١. تفسير القمي ٢: ٩٩، تفسير الصافي ٣: ٤٢٣.

٢. (أمضي على ذلك) ليس في تفسير القمي.

٣. تفسير القمي ٢: ٩٩، تفسير الصافي ٣: ٤٢٣.

٤. تفسير القمي ٢: ٣١٩، تفسير الصافي ٣: ٤٢٤.

٥. تفسير القمي ٢: ٣١٩، تفسير الصافي ٣: ٤٢٤.

قلتُ: نعم، ولكن لمّا وافقتها عليه حفصة وأبواهما وبعض المنافقين الموافقين لأبويهما، صار أهل الإفك جمعاً كثيراً، وأمّا ضمير الجمع في قوله: ﴿عُصْبَةٌ مِنكُمْ﴾ فالظاهر أنّ المراد منه رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والخواصّ من المؤمنين كسلمان وأبي ذرّ وأضرابهما.

لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَوْلاَ جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولٰئِكَ عِندَ ٱللهِ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ[١٢ و ١٣]

ثمّ أخذ سبحانه في تقريع المؤمنين الذين استمعوا هذا الإفك، ولم يَردَعوا عنه، بل تكلّموا فيه بقوله: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أيّها المؤمنون، وهلّا حين أطّلعتم على هذا البهتان ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ﴾ بمقتضى وظيفتهم الايمانية ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ وبالذين هم بمنزلة روحهم ﴿خَيْراً﴾، وحسناً وطهارةً منه ﴿وَ﴾ لما ﴿قَالُوا﴾: من غير ريثٍ تكذيباً له ﴿هٰذَا﴾ القول الشنيع في حقّ المؤمنين ﴿إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ وبهتان ظاهر، وفي العدول من الخِطاب في قوله: ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيدٌ للتوبيخ.

ثمّ لام سبحانه القاذفين بقوله: ﴿لَوْلاَ جَاؤُوا﴾ وهلّا أتوا حين قالوا ما قالوا ﴿عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ عدول يشهدون بما قالوا ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ الأربعة ﴿فَأُولٰئِكَ﴾ الخائضون في الإفك ﴿عِندَ ٱللهِ﴾ وفي حكمه ﴿هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ﴾ في الظاهر والباطن بخلاف ما إذا أتوا بالشهداء فانّهم صادقون في الظاهر، وإن كانوا كاذبين في الباطن، لا متناع صدور هذا العمل الشنيع من أزواج الأنبياء ـ عن ابن عباس: ما زَنَت[١] امرأة نبيّ قطّ[٢] ـ لما في ذلك من التنفّر عن الرسول ﷺ وإلحاق الوَضمة به.

وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ ٱللهِ عَظِيمٌ[١٤ و ١٥]

ثمّ أظهر سبحانه شدّه غضبه على الخائضين في الإفك ومنّته عليهم بالامهال بقوله: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ﴾ أيّها الخائضون ﴿وَرَحْمَتُهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ من أنواع النِّعم التي من جملتها الإمهال للتوبة

---

١. في تفسير الرازي: ما بغت، وفي تفسير روح البيان: لم تبغ.

٢. تفسير الرازي ٣٠: ٥٠، تفسير روح البيان ٦: ١٢٥.

﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ من ضروب الآلاء التي من جملتها العفو والمغفرة المقدّران والله ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ ولأصابكم عاجلاً ﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾ وبسبب ما خضتم ﴿فِيهِ﴾ من حديث الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يُستحقَر دونه كلّ عذاب، فضلاً عن التوبيخ والجَلْد.

ثمّ بيّن سبحانه وقت المَسّ، أو وقت الإفاضة والخوض في الإفك بقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ وتأخذونه من غيركم حين ملاقاة بعضكم لبعض ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ حتى شاع وانتشر هذا الحديث بين الناس بحيث لم يبق بيت إلّا طار فيه على ما قيل[1].

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ قولاً ليس معناه في قلوبكم لكونه ﴿مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ واعتقادٌ، مع أنّ الواجب أن يكون القول ناشئاً عن الاعتقاد بمدلوله في القلب ﴿وَتَحْسَبُونَهُ﴾ وتتوهّمونه ﴿هَيِّناً﴾ وسهلاً لا تَبِعة له ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللهِ﴾ وفي حكمه ﴿عَظِيمٌ﴾ غايته لاستتباعه الذلّ والهوان في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة، فانّ الافتراء على المؤمن خصوصاً مثل هذا الافتراء الذي ليس أعظم منه من أكبر الكبائر، ولذا كان عذابه أشدّ العذاب وأعظمه.

وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهٰذَا سُبْحَانَكَ هٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ ٱللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمُ ٱلآيَاتِ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[١٦ ـ ١٨]

ثمّ بالغ سبحانه في توبيخ الخائضين في الإفك بقوله: ﴿وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ من المُختَرعين له ﴿قُلْتُم﴾ تكذيباً له وتبرّءاً من موافقتهم ﴿مَا يَكُونُ﴾ حلالاً ﴿لَنَا﴾ من جانب الله ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهٰذَا﴾ الكلام الشنيع، وهلّا قلتم تعجباً من إجترائهم على التفوّه به ﴿سُبْحَانَكَ هٰذَا﴾ الإفك الذي هو من أشنع الشنائع ﴿بُهْتَانٌ﴾ وافتراءٌ ﴿عَظِيمٌ﴾ عند الله؟ لشدّة قُبحه، وسوء عاقبته، ووضوح كذبه، لدلالة العقل على امتناعه، لكونه شَيْناً على النبيّ المنزّه من كلّ شينٍ.

ثمّ زجرهم سبحانه من إتيان مثله بقوله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللهُ﴾ ويَنْصَحكم أيها الخائضون في حديث الإفك بهذه المواعظ التي تعرفون بها عظمة هذا الذنب، كراهة ﴿أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ وترتكبون نظيره في مُدّة حياتكم ﴿أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر، فانّ الايمان اقوى الروادع من المعاصي، وفيه تهييج وتقريع.

ثمّ نبّه سبحانه على عظيم منّته بقوله: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمُ ٱلآيَاتِ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ١٧٩، تفسير روح البيان ٦: ١٢٧.

'داب دلالة واضحة، لتتعظوا بها وتتأدّبوا بآداب الله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده وأحوالهم الظاهرة لباطنة ﴿حَكِيمٌ﴾ في أحكامه وتدابيره.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[١٩]

ثمّ أنه تعالى بعد ذمّ الرامين بالفُحش والجائين بالإفك وإيعادهم بالعذاب، بيّن اشتراك المحبّين 'شاعة الفواحش بين المؤمنين في جميع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ ويُريدون ﴿أَن تَشِيعَ فَاحِشَةُ﴾ وتنتشر القبائح العظيمة ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ من الحدّ والفضيحة ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ من النار وسائر الشدائد ﴿وَٱللَّهُ لَمُ﴾ خفيّات الأمور وجليّاتها، وضمائر العباد وظواهرهم، فيجازيهم على ضمائرهم كما يُجازيهم لى ظواهرهم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إلّا ما علّمكم الله من ظواهرهم، فعاملوهم بها.

عن النبي ﷺ: «إني لأعرف قوماً يضرِبون صدروهم ضرباً يسمعه أهل النار، وهم الهمّازون لّمازون الذين يلتمسون عورات المسلمين، ويَهْتِكون ستورهم، ويُشيعون فيهم من الفواحش ما س فيهم»[١].

وعنه ﷺ: «لا يستُرُ عبدٌ مؤمن عورة مؤمن إلّا ستره الله يوم القيامة»[٢].

وعنه ﷺ: «المسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هاجر[٣] ما نهى الله عنه»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسَمِعته أُذناه، فهو من الذين قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ الآية»[٥].

وعن الكاظم عليه السلام أنه قيل له: الرجل من إخواني يبلُغني عنه الشيء الذي أكرهه، فأسأله عنه فيُنكِر لك، وقد أخبرني عنه قوم من الثقات؟ فقال: «كذِّب سَمْعك وبَصَرك عن أخيك، وإن شَهِد عندك خمسون قَسامة، وقال لك قولاً فصدّقه وكذّبهم، ولا تُذيعن عليه شيئاً تَشينه به وتهدِم به مروءته، تكون من الذين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ الآية»[٦].

وعن الصادق عليه السلام: قال: «قال رسول الله ﷺ: من أذاع فاحشةً كان كمبتديها»[٧].

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ١٨٣.
٢. تفسير الرازي ٢٣: ١٨٣.
٣. في تفسير الرازي: هجر.
٤. تفسير الرازي ٢٣: ١٨٣.
٥. تفسير القمي ٢: ١٠٠، الكافي ٢: ٢/٢٦٦، أمالي الصدوق: ٥٤٩/٤١٧، تفسير الصافي ٣: ٤٢٦.
٦. الكافي ٨: ١٢٥/١٤٧، تفسير الصافي ٣: ٤٢٦.
٧. الكافي ٢: ٢/٢٦٥، تفسير الصافي ٣: ٤٢٦.

وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِـالْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِن أَحَدٍ أَبَداً وَلٰكِنَّ ٱللهَ يُزَكِّى مَن يَشَاءُ وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[٢٠ و ٢١]

ثمّ بيّن سبحانه مِنّته على ناشر الفواحش بقوله: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإمهالكم وتمكينكم من تدارك ما فرّطتم على أنفسكم ﴿وَأَنَّ ٱللهَ رَؤُوفٌ﴾ وشديد المودّة بكم ﴿رَحِيمٌ﴾ وعطوف عليكم بالنِّعم لعذّبكم، ولكن لرأفته ورحمته يُراعي ما هو أصلح لكم، وإن عصيتموه.

ثمّ وعظهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ﴾ بإشاعة الفاحشة، ولا تَسْلُكوا مسالكه ولا تعملوا بسيرته، كما عَمِل أهل الإفك بإشاعة الفواحش ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ﴾ ويحذو حذوه ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ بتزيينهما في نظره وترغيبه إليهما بوسوسته ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بوعظكم وتوفيقكم للتوبة، وتشريع الحدود المكفّرة للذنب، وتأييده إياكم لتهذيب الأخلاق ﴿مَا زَكَىٰ﴾ وما طهر من دنس الذنب والأخلاق الرذيلة ﴿مِنكُم مِن أَحَدٍ أَبَداً﴾ وإلى آخر الدهر ﴿وَلٰكِنَّ ٱللهَ﴾ بفضله ورحمته ﴿يُزَكِّي﴾ ويطهّر من الذنوب بالحدود والتوفيق للتوبة وقبولها، والتأييد لتهذيب الأخلاق ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَٱللهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده التي من جملتها ما قالوه من حديث الإفك والتكلّم بالفواحش، وما أظهروه من التوبة ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالهم من السعي في إشاعة المنكر، وأحوالهم من النفاق والخلوص في الإيمان والتوبة، أو عليم بما في قلوبهم من حبّ إشاعة الفاحشة وكراهتها.

وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللهُ لَكُمْ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلاَتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[٢٢ و ٢٣]

ثمّ لمّا حلف أبو بكر على أن يقطع نفقته عن مِسْطَح ابن خالته مع كونه بدرياً مهاجراً فقيراً على ما قيل[١]، نهى سبحانه أبا بكر عن الحلف المذكور وبرّه بقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلِف ﴿أُولُوا ٱلْفَضْلِ﴾

---

١. جوامع الجامع: ٣١٤، تفسير روح البيان ٦: ١٣٢.

وأصحاب الثروة ﴿مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ في العيش والمال على ﴿أَن يُؤْتُوا﴾ أو المراد لا يقصَروا في أن يَعطُوا من أموالهم ﴿أُولِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وذوي الأرحام ﴿وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

قيل: نزلت في جماعةٍ من الصحابة حلفوا على أن لا يتصدقوا على من تكلّم بشيءٍ من الإفك ولا يُواسوهم[1].

وعن الباقر عليه السلام: «هم قرابة الرسول صلى الله عليه وآله»[2].

ثمّ حثّ سبحانه على العفو والصَّفح بقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ البتة عنهم ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ وليغضوا عن ذنوبهم وليُعرِضوا عن لومهم.

ثمّ بالغ سبحانه في الحثّ والترغيب بقوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ أيّها المؤمنون ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ بمقابلة عفوكم وصَفْحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم.

وعن الباقر عليه السلام: «يعفو بعضكم عن بعضٍ ويَصْفَح بعضكم عن بعض، فإذا فعلتم ذلك كان رحمة من الله لكم، يقول الله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ الآية»[3].

﴿وَ﴾ إنّ[4] ﴿ٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ ومبالغ في ستر الذنوب مضافاً إلى العفو و﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده المذنبين مع كمال قدرته على المؤاخذة.

ثمّ أكّد سبحانه تهديد قاذفي المُحصنات بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ بالفاحشة، ويقذِفون النساء ﴿ٱلْمُحْصَنَاتِ﴾ والعفيفات ﴿ٱلْغَافِلَاتِ﴾ عنها بحيث لا يخطر ببالهنّ شيءٌ منها و[لا] من مقدماتها أصلاً، كما قيل[5] ﴿ٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾ بم يجب الايمان به إيماناً حقيقياً خالصاً من الشِّرك والشكّ ﴿لُعِنُوا﴾ بما قالوا في حقّهنّ، وأُبعدوا من الرحمة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أو يدعوا عليهم باللعن المؤمنون والملائكة أبداً ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعِظَم ذنوبهم إذا لم يحدّوا ولم يتوبوا.

قيل: إنّ المراد من المحصنات خصوص عائشة، ومن الموصول خصوص ابن اُبي[6]؛ لدلالة الآية السابقة على العفو عن غيره.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ

---

١. جوامع الجامع: ٣١٤، تفسير الصافي ٣: ٤٢٦.
٢. تفسير القمي ٢: ١٠٠، تفسير الصافي ٣: ٤٢٦.
٣. تفسير القمي ٢: ١٠٠، تفسير الصافي ٣: ٤٢٦.
٤. كذا، والتعبير لايتفق مع حركة لفظ الجلالة، فهو مرفوع والسياق يقتضي النصب.
٥. تفسير أبي السعود ٦: ١٦٥، تفسير روح البيان ٦: ١٣٣.
٦. تفسير روح البيان ٦: ١٣٤.

يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ[٢٤ و ٢٥]

ثمّ قرّر سبحانه الوعد بالعذاب بتعيين وقت حلوله وتهويله ببيان ظهور موجبة من القذف وسائر المعاصي في ذلك الوقت بشهادة الجوارح عليها على رؤس الأشهاد بقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ التي نَطَقوا بها بالقذف وغيره من الكلمات المحرّمة ﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ التي عملوا بها المعاصي ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ التي سَعَو إليها ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من القذف وغيره ممّا صدر عنهم بانطاق الله جميعها بقدرته، فكلّ جارحةٍ تشهَد بما صدر عن صاحبها من القبائح والمعاصي ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ﴾ ويُعطيهم كاملاً ﴿دِينَهُمُ﴾ وجزاءهم ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الثابت الذي يستحقونه بمعاصيهم ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند شهادة الجوارح ومعاينة الأهوال وحُكمه تعالى بتعذيبهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ والثابت الذي لا زوال لذاته وصفاته التي منها الحكمة والعدل، وأفعاله التي منها إعطاء كلّ مستحقٍّ ما يستحقّه من الثواب والعقاب ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ والمظهِر للأشياء كما هي في أنفسها، أو الثابت في اُلوهيّته الظاهر فيها، أو العادل الظاهر في عدله.

قيل: لو تتبّعت ما في القرآن المجيد من آيات الوعيد الواردة في حقّ كلّ كفّارٍ مَريدٍ وجبّار عنيدٍ لا تجد شيئاً منها فوق هاتيك القوارع المشحونة بفنون التهديد والتشديد، وما ذاك إلّا لأجل إظهار منزلة النبيّ ﷺ في عُلوّ الشأن والنباهة وإبراز عصمة أزواجه[1] من الفُحش المُنافي لشأن النبوة.

ٱلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَٱلطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[٢٦]

ثمّ ختم سبحانه قصّة الإفك بالحكم بطهارة أزواج النبي ﷺ من الفُحش بقوله: ﴿ٱلْخَبِيثَاتُ﴾ من أقاويل أهل الإفك، أو الكلمات الدالة على الذمّ واللّعن، أو النساء الزانيات ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الأقاويل، أو الذمائم، أو النساء الزواني بحيث لا يتجاوزوهنّ ومن الرجال والنساء على التفسيرين الأولين، ومن الرجال على الثالث ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ من الفريقين، أو من الرجال ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ على المعنيين الأولين، أو من الرجال على الثالث.

القمي قال: الخبيثات من الكلام والعمل للخبيثين من الرجال والنساء[2].

﴿وَٱلطَّيِّبَاتُ﴾ من أقاويل منكري الإفك، أو الكلمات المحسنات ممّا فيه رضا الله، أو النساء العفيفات ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ والأعفّاء من الرجال والنساء، يسلمونهم ويصدق عليهم من قال

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ١٦٧.

٢. تفسير القمي ٢: ١٠١، تفسير الصافي ٣: ٤٢٧.

﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ من الرجال والنساء ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ من الكلام والعمل.

وفي الإحتجاج عن الحسن المجتبى عليه السلام وقد قام من مجلس معاوية وأصحابه، وقد ألقمهم الحجرَ قال: «﴿ٱلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ هم والله يا معاوية أنت وأصحابك هؤلاء وشيعتك ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ إلى آخر الآية، هم علي بن أبي طالب عليه السلام [وأصحابه] وشيعته[1].

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المذكورون من الطيبين والطيبات من النساء، أو الطيبين على المعنيين الآخرين للطيبات ﴿مُبَرَّؤُونَ﴾ ومنزّهون ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ فيهم، أو من أن يقولوا مثل قولهم، أو من أن يقال بشيءٍ في حقّهم من الذّم واللّعن.

ثمّ أنّه تعالى بعد تنزيههم من الفُحش، أو القول والعمل السيئين، أثبت لهم الكرامة عنده بقوله: ﴿لَهُم﴾ بالاستحقاق ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة، لما لا يخلوا البشر من الزلّات ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، وكثير أو الحسن الطيب في الآخرة من الجنّة والدرجات العالية والنِّعم الدائمة والكرامات الفائقة.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ[٢٧ و ٢٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حُكم الرمي والقَذف وعقابهما وسائر ما يتعلّق بهما، نهى عن الدخول في الخَلَوات الموجب للتهمة بغير إذن بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً﴾ مسكونةً بالملك أو الإجارة أو العارية حال كونها ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ التي تَسْكُنونها بأنفسكم ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ وتستأذنوا من ساكنيها في الدخول، وتستعلموا رضاهم به بالتسبيح أو التكبير أو التنحنح، كما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله[2] أو وقع النّعل كما عن الصادق عليه السلام[3] ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وساكنيها من وراء الباب بأن تقولوا: السلام عليكم أهل البيت أأدخل.

روي أنّه جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله، إنّي أكون في بيتي على الحالة التي

---

١. الإحتجاج: ٢٧٨، تفسير الصافي ٣: ٤٢٧.
٢. تفسير روح البيان ٦: ١٣٧.
٣. تفسير القمي ٢: ١٠١، معاني الأخبار: ١/١٦٣، تفسير الصافي ٣: ٤٢٨.

لا أُحبّ أن يراني عليها أحد، فيأتي الآتي فيدخُل، فكيف أصنع؟ قال: «ارجعي» فنزلت هذه الآية[١].

وفي (المجمع) عن النبي ﷺ: أن رجلاً استأذن عليه فتنحنح، فقال [رسول ﷺ] لامرأة يقال لها روضة: «قومي إلى هذا فعلّميه، وقولي له: قل السلام عليك[٢] أأدخل؟» فسَمِعها الرجل فقالها، فقال: «ادخل»[٣].

وروي الفخر الرازي أنّه استأذن رجلٌ على رسول الله ﷺ فقال: أألج؟ فقال ﷺ لامرأة يقال لها روضة: «قومي إلى هذا فعلّميه، فانّه لا يُحسِن أن يستأذن، قولي له يقول: السلام عليكم أأدخل؟» فسَمِعها الرجل فقالها، فقال: «أدخل» فدخل، وسأل رسول الله ﷺ عن أشياء، وكان يجيبه، إلى أن قال: وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته: حُيّيتم صباحاً، وحُييتم مساءً، ثمّ يدخُل، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لِحافٍ واحدٍ فصد الله تعالى عن ذلك، وعَلِم الأحسن والأجمل[٤].

وروى أبو هريرة عنه ﷺ أنّه قال: «الاستئذان ثلاث: بالأولى يستنصتون، وبالثانية يستصلحون، وبالثالثة يأذنون أو يَرُدّون»[٥].

وعن جُندُب، قال: سَمِعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يُؤذَن له فليرجِع»[٦].

وعن عطاء قال: سألت ابن عباس وقلت: أستأذن على اُختي وأنا[٧] أنفِق عليها؟ قال: نعم، إن الله تعالى يقول: **﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَالُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾**[٨] ولم يفرّق بين من كان أجنبياً أو ذا رحم[٩].

وروي أن رجلاً سأل النبيّ ﷺ فقال: أستأذن على اُختي؟ فقال النبيّ ﷺ: «نعم، أتُحِبّ أن تراها عُريانة!»[١٠].

وعن (المجمع) أن رجلاً قال للنبيّ ﷺ: أستأذن على اُمّي؟ قال: «نعم» قال: إنّها ليس لها خادم غيري، أفأستأذن عليها كلّما دخلت؟ قال: «أتُحبّ أن تراها عُريانة!» قال الرجل: لا. قال: «فاستأذن عليها»[١١].

وعن الصادق عليه السلام: «يستأذن الرجل إذا دخل على أبيه، ولا يستأذن الأب على ابنه، ويستأذن الرجل

---

١. تفسير روح البيان ٦: ١٣٧.
٢. في مجمع البيان وتفسير الصافي: عليكم.
٣. مجمع البيان ٧: ٢١٣، تفسير الصافي ٣: ٤٢٨.
٤ ـ ٦. تفسير الرازي ٢٣: ١٩٧.
٧. في تفسير الرازي: ومن.
٨. النور: ٥٨/٢٤.
٩. تفسير الرازي ٢٣: ١٩٩، وزاد فيه: محرم.
١٠. تفسير الرازي ٢٣: ١٩٩.
١١. مجمع البيان ٧: ٢١٣، تفسير الصافي ٣: ٤٢٨.

على ابنته وأخته إذا كانتا متزوّجتين؟»[١]

وعنه عليه السلام: «إنّما الإذن على البيوت، ليس على الدار إذن»[٢].

ثمّ حثّ سبحانه على الاستئذان والتسليم بقوله: ﴿ذٰلِكُمْ﴾ المذكور من الاستئذان والتسليم ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الدخول بَغتةً، وإنما أُمرتم بهما ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتعلمون ما هو أصلح لكم، أو المراد تتَعِظُون وتعملون بموجبه ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ في البيوت، ولم تعلموا أنّ ﴿فِيهَا أَحَداً﴾ من ساكنيها أصلاً ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ واصبروا ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ﴾ في الدخول ﴿لَكُم﴾ لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس إخفاءه، أو تُهمة السرقة.

ثمّ لمّا كان جعل النهي مغيى بالاستئذان موهماً للرُّخصة في تكرير الاستئذان ولو بعد الردّ دفع الله التوهّم بقوله: ﴿وَإِن قِيلَ﴾ من جهة أهل البيت ﴿لَكُمُ﴾ لا مجال للإذن، ونحن معذرون فيه ﴿ٱرْجِعُوا﴾ وانصرفوا ﴿فَٱرْجِعُوا﴾ ولا تَلِحّوا في الاستئذان بتكريره، ولا تَلِجوا في الدخول بالإصرار على الانتظار إلى أن يأتي الإذن، فإنّ الرجوع ﴿هُوَ أَزْكَىٰ﴾ وأطهر ﴿لَكُمْ﴾ ممّا لا يخلو عنه اللّجَ والالحاح من جَلْب الكراهة في القلوب والقَدح في المروءة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الالحاح والرجوع ﴿عَلِيمٌ﴾ فيجُازيكم عليه.

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ[٢٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حكم البيوت المسكونة للاشخاص الخاصة، بيّن حكم البيوت غير الموضوعة لسُكنى طائفة خاصة بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وحَرَجٌ في ﴿أَن تَدْخُلُوا﴾ بغير الاستئذان ﴿بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ لشخصٍ مخصوصٍ ﴿فِيهَا مَتَاعٌ﴾ وانتفاع ﴿لَكُمْ﴾.

روي أن أبا بكر قال: يا رسول الله، إنّ الله أنزل عليك آية في الاستئذان، وإنّا نختلف في تجارتنا فننزل هذه الخانات، أفلا ندخُلها إلّا بإذن؟ فنزلت[٣].

وعن محمّد بن الحنفية: أنّها الخانات والرباطات وحوانيت البيّاعين والمتاع المنفعة كالاستكنان من الحرّ والبرد وإيواء الرجال[٤] والسِّلع والشراء والبيع[٥].

---

١. الكافي ٥: ٣/٥٢٨، تفسير الصافي ٣: ٤٢٨.
٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ٦٧٧/١٥٤، تفسير الصافي ٣: ٤٢٨.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٠، تفسير أبي السعود ٦: ١٦٩.
٤. في تفسير الرازي: الرحال.
٥. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٠.

وقيل: إنّها الحمّامات[١].

وعن الصادق عليه السلام: «هي الحمّامات والخانات والأرحية، وتدخُلها بغير إذن»[٢].

أقول: الظاهر أنّ المراد كلّ بيتٍ مُعدّ لدخول الناس ولو لبعض حوائجهم، وما ذُكِر في الروايات إنّما هو من باب المثال وذكر المِصداق، فيدخُل في الآية محكمة القُضاة، ومَطَبّ الأطبّاء، والمكتبة المُعدّة لورود الناس ومطالعة الكتب ونظائرها.

ثمّ أوعد الله سبحانه الداخلين في البيوت بقصد الفساد والاطلاع على العورات بقوله: **﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾** وتُظهِرون من الأعمال **﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾** وتَستُرون من الضمائر والنيّات فيجازيكم عليها.

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ ٱلتَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ ٱلنِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[٣٠ و ٣١]

ثمّ لمّا كان غضّ البصر وحِفظ الفُروج من شؤون العفاف ووظيفة المستأذنين، أمر الرسول صلّى الله عليه وآله بتبليغ وجوبهما إلى المؤمنين والمؤمنات بقوله: **﴿قُل﴾** يا محمّد **﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾** أيّها المؤمنون غضّوا، كي **﴿يَغُضُّوا﴾** بعضاً **﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾** عن النساء الأجنبيات وخصوص عورات المحارم سوى الأزواج.

وقيل: إنّ كلمة (من) زائدة[٣] والمعنى يغضّوا أبصارهم.

وقيل: إنّ المعنى أن يَنقِصوا من نظرهم[٤] **﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾** وعوراتهم من أن يَنظُر إليها الرجال والنساء من الأجنبيات والمحارم سوى الأزواج.

وقيل: إنّما قال **﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾** ولم يقل: من فروجهم؛ لأنّه قد يجوز النظر إلى ما عدا عورة

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٠، تفسير أبي السعود ٦: ١٦٩، تفسير روح البيان ٦: ١٣٩.

٢. تفسير القمي ٢: ١٠١، تفسير الصافي ٣: ٤٢٩.   ٣. كنز العرفان ٢: ٢٢٠.   ٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٢.

المحارم وإلى ما يظهر في العادة من وجوه الأجنبيات وأكفهنّ حال الضّرورة، وإلى وجوه الإماء المستعرضات للبيع، وكذا الطبيب للعلاج، والشاهد لتحمّل الشهادة وإقامتها، والنظر إلى المخطوبة مع إمكان نكاحها شرعاً وعرفاً، ويقتصر على نظر الوجه، وكذا النظرة الأولى من غير لذةٍ أو ريبةٍ لقوله صلى الله عليه وآله: «ولكم أول نظرة، فلا تتبعوها بالثانية»[١] وأمّا حفظ الفرج فهو أضيق من الغضّ، لاختصاص التحريم بمن عدا الزوجة وملك اليمين، فلذلك لم يقل: من فروجهم.

﴿ذٰلِكَ﴾ المذكور من غضّ البصر وحفظ الفرج ﴿أَزْكَىٰ﴾ وأطهر ﴿لَهُمْ﴾ من دنس الريبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وأحوالهم، فليكونوا منه على حذر.

روي أنّ النظر سَهم من سِهام إبليس[٢].

وعن عيسى بن مريم عليه السلام أنّه قال: إياكم والنظرة، فانّها تزرع في القلوب شهوة[٣].

وفي الحديث: «احفظوا[٤] لي ستاً من أنفسكم، أضمَن لكم الجنّة -إلى أن قال:- واحفظوا فروجكم، وغضّوا أبصاركم»[٥].

﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُؤْمِنَاتِ﴾ إنهنّ ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ فلا يَنْظُرون إلى ما لا يحِلّ النظر إليه ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستّر والتصوّن، وإنما قدّم الأمر بالغضّ لأنّ النظر بريد الزنا ورائد الفجور.

عن الصادق عليه السلام: «كل آية في القرآن في حفظ[٦] الفروج فهي من الزنا إلّا هذه الآية، فانّها من النظر، فلا يحِلّ لرجلٍ مؤمن أن ينظُر إلى فرج أخيه، ولا يحِلّ للمرأة أن تنظُر إلى فَرج اُختها»[٧].

وفي رواية عنه عليه السلام: «وفرض على البصر أن لا ينظُر إلى ما حرّم الله عليه، وأن يعرِض عمّا نهى الله عنه ممّا لا يحِلّ له، وهو عمله، وهو من الإيمان، فقال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ - يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ فنهاهم أن ينظُروا إلى عوراتهم، وأن ينظر المرء إلى فَرج أخيه، ويحفظ فرجه من أن يُنظَر إليه، وقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ فنهاهنّ من أن تنظُر إحداهنّ إلى فَرج اُختها، وتحفَظ فَرجها من أن يُنْظَر إليها». وقال: «كلّ شيءٍ في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنا إلّا هذه الآية، فانّها من النظر»[٨].

وعن الباقر عليه السلام قال: «استقبل شابّ من الأنصار امرأة بالمدينة وكان النساء يتقنعن خلف آذانهن،

---

١. كنز العرفان ٢: ٢٢١.
٢. تفسير روح البيان ٦: ١٤١.
٣. تفسير روح البيان ٦: ١٤٠.
٤. في تفسير روح البيان اضمنوا.
٥. تفسير روح البيان ٦: ١٤٠.
٦. في تفسيري القمي والصافي: ذكر.
٧. تفسير القمي ٢: ١٠١، تفسير الصافي ٣: ٤٢٩.
٨. الكافي ٢: ١/٣٠، تفسير الصافي ٣: ٤٢٩.

فنظر إليها وهي مقبلةٌ، فلمّا جازت نظر إليها ودخل في زُقاق ـ سمّاه ببني[١] فلان ـ فجعل ينظر إليها من خلفها، فاعترض وجهه عظمٌ في الحائط أو زُجاجة، فشق [وجهه] فلمّا مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسيل على ثوبه وصدره فقال: والله لآتين رسول الله ولأخبرنّه، فأتاه فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال له: ما هذا؟ فأخبره، فهبط جَبْرَئيل عليه‌السلام بهذه الآية»[٢].

ثمّ خصّ سبحانه النساء بالنهي عن إظهار الزينة ومواضعها بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾ ولا يظهرن ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ قيل: يعني المحاسن التي خلقهنّ الله عليها[٣].

وقيل: المحاسن المكتسبة كالقُلب، والقِلادة، والقُرط، والخَلْخَال[٤] ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ على حسب العادة كالكُحْل، والخاتَم، والسِّوار.

عن الصادق عليه‌السلام قال: «الزينة الظاهرة الكُحل والخاتَم»[٥].

وفي رواية أُخرى: «الخاتم، والمَسَكَة، وهي القُلب»[٦].

وعن الباقر عليه‌السلام: «هي الثياب، والكُحْل، والخاتَم، وخِضاب الكَفّ، والسِّوار».

وقال: الزينة ثلاثة: زِينة للناس،وزِينة للمَحْرَم، وزِينة للزوج، فأمّا زِينة الناس فقد ذكرناها، وأمّا زِينة المَحْرَم فموضِع القِلادة فما فوقها، والدُمْلُج[٧] وما دونه، والخَلْخَال وما اسْتَفَلَ[٨] منه، وأمّا زِينة الزوج فالجسد كُلّه[٩].

وعن الصادق عليه‌السلام، أنّه سُئل: ما يَحِلّ للرجل أن يرى من المرأة إذا لم يكن مَحْرَماً؟ قال: «الوجه والكفّان والقدمان»[١٠].

وعن (الجوامع) عنهم عليهم‌السلام: «الكفّان والأصابع»[١١]. وحَمْل الأخبار المعارضة على الكراهة أولى من حَمْل هذه الأخبار على التقيّة أو النظر الاتّفاقي.

ثمّ قيل: إنّ نساء الجاهلية كنّ يَشْدُدن خُمرهنّ ومقانعهنّ من خلفهنّ، وإنّ جُيوبهنّ كانت من قُدّام، فكانت تنكشف نحورهنّ وقلائدهن، فأمر الله المؤمنات بسَتْر أعناقهنّ ونحورهنّ[١٢] بقوله:

---

١. في تفسير الصافي: لبني.
٢. الكافي ٥: ٥/٥٢١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٠.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٥.
٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٥، والقُلب: السِّوار يكون نظماً واحداً، والقُرط: ما يعلّق في شحمة الأُذن من الحُلّي، والخَلْخَال: حليه كالسِّوار تلبسها النساء في أرجلهن.
٥. الكافي ٥: ٣/٥٢١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٠.
٦. الكافي ٥: ٤/٥٢١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٠.
٧. الدُّملُج سِوار يُحيط بالعَضد.
٨. في تفسيري القمي والصافي: وما اسفل.
٩. تفسير القمي ٢: ١٠١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٠.
١٠. الكافي ٥: ٢/٥٢١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٠.
١١. جوامع الجامع: ٣١٥، تفسير الصافي ٣: ٤٣٠.
١٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٦.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ وليلقين ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ وما يستّر به رؤوسهنّ من المقانع ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ لتَستر أعناقهنّ ونُحورهنّ وصدورهنّ وقلاندهنّ وقُروطهنّ وشُعورهن عن الأجانب.

ثمّ أعاد سبحانه النهي عن إبداء الزينة بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ لتخصيصه بقوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ وأزواجهنّ ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ وإن عَلَوا ﴿أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ وفُحولهنّ ﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ﴾ وإن نزلوا ﴿أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ كذلك ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ المختصّات بهنّ من حرائر المؤمنات المُؤتَمَنات عن وصفهنّ للرجال، فانّ الكافرات لا يُؤتَمَنّ على ذلك.

عن الصادق عليه السلام: «لا ينبغي للمرأة أن تنكشف بين يدي اليهودية والنصرانية، فانهنّ يَصِفن ذلك لأزواجهنّ»[١].

أقول: لا شُبهة أنّ النهي فيه للكراهة، كما يُشعِر به لفظ (لا ينبغي).

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من الإماء دون العبيد، كما عليه المشهور[٢] أو ولو كان عبداً كما عليه بعض العامة[٣]، والخاصة لقول الصادق عليه السلام: «يعني العبيد والإماء»[٤].

وقوله عليه السلام: «لا بأس أن يرى المملوك الشعر والساق»[٥]، وفي رواية: «شعر مولاته وساقها»[٦]. وفي اُخرى: «إلى شعرها إذا كان مأموناً»[٧]. وعنه عليه السلام: **«لا يحِلّ للمرأة أن ينظُر عبدها إلى شيءٍ من جسدها إلّا إلى شعرها غير مُتعمّدٍ لذلك»**[٨].

أقول: يعني غير مُريد للتلذّذ، وفي صورة الشكّ يُحمَل نظره على الصحّة، ويؤيد ذلك نفي الحَرَج، وكون الدين سمحاً سهلاً أو المراد الإماء وخصوص الخَصيّ من العبيد، لنقل الإجماع المعتقد بالشهرة على حُرمة النظر في غيره، والصحاح سئل عن قِناع الحرائر من الخِصيان، فقال: «كانوا يدخُلون على بنات أبي الحسن عليه السلام ولا يتقنعن».

قلت: إن كانوا أحراراً؟ قال: «لا».

قلت: فالأحرار يُتَقَنّع منهم؟ قال: «لا»[٩].

---

١. الكافي ٥: ٥/٥١٩، من لا يحضره الفقيه ٣: ١٧٤٢/٣٦٦، تفسير الصافي ٣: ٤٣١.
٢. مجمع البيان ٧: ٢١٧، تفسير روح البيان ٦: ١٤٣.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٧، تفسير البيضاوي ٢: ١٢٢، تفسير أبي السعود ٦: ١٧٠.
٤. مجمع البيان ٧: ٢١٧، تفسير الصافي ٣: ٤٣١.
٥. الكافي ٥: ٢/٥٣١، تفسير الصافي ٣: ٤٣١.
٦. الكافي ٥: ٣/٥٣١، تفسير الصافي ٣: ٤٣١.
٧ و٨. الكافي ٥: ٤/٥٣١، تفسير الصافي ٣: ٤٣١.
٩. الكافي ٥: ٣/٥٣٢.

وقيل: المملوك منه داخلٌ في قوله: ﴿أَوِ ٱلتَّابِعِينَ﴾[١] لهنّ، لأجل المعيشة حال كونهم ﴿غَيْرِ أُولِى ٱلْإِرْبَةِ﴾ والحاجة إلى النساء ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ لعدم الشهوة كالخَصيّ المقطوع الأنثيين، والشيوخ الذين سقطت شهوتهم كما عن الكاظم عليه السلام.

نعم رُوي عنه عليه السلام أنه سُئِل عن الرجل يكون له الخَصِيّ يدخُل على نسائه يُناولهنّ الوَضُوء[٢]، فيرى شُعورهن؟ قال: «لا»[٣].

وفي خبر آخر: سئل عن أمّ ولد هل يصلُح لها أن يَنْظُر إليها خَصيّ مولاها وهي تغتسل؟ قال: «لا يَحِلّ ذلك»[٤].

ويمكن حمل الأول على الكراهة، والظاهر من الثاني السؤال عن رؤيته جميع بدنها، مع أنّ بعض الأخبار المجوّزة صحاح وبعضها موثقات بخلاف الأخيرين المانعين، وقيل بترجيح الأخيرين لموافقتهما للمشهور بين الخاصة، ومخالفتهما لما عليه أساطين[٥] العامة.

وفي أنّ ذهاب المشهور إلى المنع لعلّه لتوهّم الاجماع عليه، لا لِخَلَلٍ في الروايات المجوّزة، ومخالفتها[٦] لما عليه الأساطين[٧]، لو سلمت المعارضة بموافقتها[٨] لما عليه أساطين العامة، كأبي حنيفة فإنّه حمل التابعين على العبيد الصغار حتى إنّه قال: لا يحِلّ إمساك الخِصيان واستخدامهم وبيعهم وشراؤهم[٩]، بل لم يُنقَل الجواز إلّا عن الشافعي فانّه حمل التابعين على الخَصيّ والمَجْبُوب[١٠]. وقال الصيّمري: إنّه لم يُسْبَق إلى هذا القول.

والحاصل أنّ الأخبار المانعة موافقةٌ للمشهور بين العامة الذين اُمِرنا بمخالفتهم، مع أنّه مخالفةٌ لظاهر الكتاب الذي اُمِرنا بالأخذ بما وافقه وطرح ما خالفه، والأخبار المجوّزة مؤيدة في صورة نظر الخَصيّ المملوك للمرأة إلى شعر مولاته بأدلّة نفي الحَرَج، وكون الشريعة سَمْحة سَهْلة، وجواز النظر إلى شعر القواعد من النساء لعدم كونها معرضاً للشهوة والرِّيبة، ونظر البُلْه[١١] الذين لا يعرِفون شيئاً من اُمور النساء، كما عن الصادق عليه السلام تفسير التابعين بهم[١٢].

والظاهر من عبائر كثير من المانعين المنع من كون الخَصيّ محرماً لمولاته بحيث يجوز له النظر إلى

---

١. مجمع البيان ٧: ٢١٨.
٢. الوَضُوء: الماء يُتوضأ به.
٣. الكافي ٥: ٢/٥٣٢، تفسير الصافي ٣: ٤٣٢.
٤. الكافي ٥: ١/٥٣٢.
٥. في النسخة: سلاطين.
٦. في النسخة: مخالفتهما.
٧. في النسخة: السلاطين.
٨. في النسخة: بموافقتهما.
٩. كنز العرفان ٢: ٢٢٣.
١٠. كنز العرفان ٢: ٢٢٣، وفيه الخصي المَجْبُوب، والمَجْبُوب: المقطوع الأنثيين.
١١. البُله: جمع أبله، وهو الذي ضعف عقله وغلبت عليه الغفلة.
١٢. كنز العرفان ٢: ٢٢٣.

ما عدا عورتها كسائر المحارم، ولا نقول به، بل نقول بجواز نظره إلى شعرها وساقها، وما في (المسالك) من جواز نظر الخَصيّ بل الفَحل إلى مالكته، وتبعه عليه بعض من تأخر عنه، محمول عليه.

فتبين من جميع ما ذكر أنه لولا الشهرة العظيمة، ودعوى الاجماع على المنع، لكان القول بجواز نظر كلّ من المرأة ومملوكها الخَصيّ إلى شعر الآخر وساقه هو المتعيّن إلّا أنّ الأحوط خلافه.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا﴾ ولم يطلعوا، أو لم يقدِروا ﴿عَلَىٰ عَوْرَاتِ ٱلنِّسَاءِ﴾ لعدم تميّزهم بينها وبين غيرها، أو عدم بلوغهم حدّاً يشتهون التمتّع منهن ويتمكّنون من جماعهنّ.

ثمّ بالغ سبحانه في نهي النساء عن إظهار زينتهنّ بقوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ على الأرض ﴿لِيُعْلَمَ﴾ بصوت الخَلْخَال وغيره ﴿مَا يُخْفِينَ﴾ عن أعين الرجال ﴿مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فانّ ذلك ممّا يُورِث مَيل الرجال إليهنّ، ويُوهِم أنّ لهن المَيل إلى الرجال.

قيل: كانت الجاهليات يضربن بأرجلهن على الأرض، ليُسْمَع صوت خَلاخِلهنّ، فنُهي المسلمات عن ذلك لأنّه في حُكم النظر[1].

وعن ابن عباس: كانت المرأة تمرّ بالناس وتضرِب برجلها لتُسمِع قعقعة الخَلْخَال[2]. وفي النهي عن استماع صوت الزينة الدالّ على وجودها تأكيد للمنع عن إظهارها.

ثمّ لمّا كان حِفظ النفس عن الشهوات في غاية الصعوبة بحيث لا تخلو نفسٌ عن التقصير فيه، حثّ سبحانه الناس على التوبة بقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى ٱللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ من التفريط في أوامره ونواهيه، سيّما في الكفّ عن الشهوات ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بها ﴿تُفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بخير الدنيا والآخرة.

وعن ابن عباس: توبوا ممّا كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلّكم تسعدون[3].

وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[٣٢]

ثمّ أمر سبحانه بالنّكاح الصائن عن السِّفاح بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا﴾ وزوّجوا أيّها الأولياء والموالي ﴿ٱلْأَيَامَىٰ﴾ والعُزّاب الأحرار من الذكر والأنثى ﴿مِنْكُمْ﴾ ومن عشيرتكم ﴿وَٱلصَّالِحِينَ﴾ والمؤمنين أو الأهلين للنكاح ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.

وقيل: إنّ المراد من الصلاح معناه الظاهر، والتقييد به للترغيب فيه، فانّهم إذا عَلِموا به رَغِبوا في

---

١. كنز العرفان ٢: ٢٢٤. ٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٩. ٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٠.

الصلاح والتقوى[1].

وقيل: إنّه من باب التسمية باسم ما يؤول إليه، فانّ الفاسق إذا زُوّج استغنى بالحلال عن الحرام[2].

ثمّ بالغ سبحانه بالحثّ عليه بقوله: ﴿إِن يَكُونُوا﴾ الأحرار والمماليك ﴿فُقَرَاءَ﴾ وعادمي المال ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ ويكفيهم مؤنتهم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وإحسانه فلا يمنع فَقْر الخاطب والمخطوبة من المناكحة؛ لأنّ في فضل الله غُنية ﴿وَٱللَّهُ وَاسِعٌ﴾ فضلاً وقدرةً ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده في بَسط الرزق والتقتير، ففي الآية دلالة على استحباب النّكاح للعُزّاب [سواء أ]كانوا أغنياء أم فقراء تائقين[3] أم مطيقين.

روي أنّه «من تزوّج فقد أحرز نصف دينه»[4].

وعن الصادق عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من ترك التزويج مخافة العَيْلَة[5] فقد أساء ظنّه بالله عزّ وجلّ، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾»[6].

وعنه عليه السلام: «جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فشكا إليه الحاجة، فقال: تزوج فتزوّج فوسّع عليه»[7].

وروى بعض العامة عنه عليه السلام: أنّ رجلاً شكا إليه الفَقْر فأمره أن يتزوّج فتزَوج الرجل، فشكا إليه الفَقْر فأمره بأن يُطلّقها فسئل عن ذلك فقال: «قلت له تزوّج، لعلّه من أهل هذه الآية: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فلمّا لم يكن من أهلها قلت: طلقها، لعلّه من أهل آية أُخرى: ﴿وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾»[8].

وفي الحديث: «يأتي على الناس زمان لا تُنال فيه المعيشة إلّا بالمعصية، فاذا كان ذلك الزمان حلّت العُزوبة»[9].

ثمّ إنّه استدلّ كثيرٌ من العامة بهذه الآية على أنّ أمر نكاح النساء بيد الأولياء، وليس لهنّ الاستبداد به كالإماء اللّاتي أمر نكاحهنّ بيد مواليهنّ. وفيه منع واضح، مضافاً إلى معارضتها بقوله: ﴿فلا تعضلوهن ان ينكحن ازواجهن إذا تراضوا بالمعروف﴾[10] وإلى الإجماع المحقّق على استبداد الثّيّبات به.

---

١ و٢. كنز العرفان ٢: ١٣٥.
٣. التائق: الشديد الاشتياق إلى الوطئ.
٤. أمالي الطوسي: ١١٣٧/٥١٨.
٥. العَيْلَة: الفقر والحاجة.
٦. الكافي ٥: ٥/٣٣٠، تفسير الصافي ٣: ٤٣٢.
٧. الكافي ٥: ٢/٣٣٠، تفسير الصافي ٣: ٤٣٢.
٨. تفسير روح البيان ٦: ١٤٧، والآية من سورة النساء: ١٣٠/٤.
٩. تفسير روح البيان ٦: ١٤٨.
١٠. البقرة: ٢٣٢/٢.

وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللهِ ٱلَّذِى آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[٣٣]

ثمَ لمَا أمر سبحانه بالتزويج وترك الكفَ عنه مخافة العجز عن النفقة، أمر من لا يقدِر على مقدَماته بالتعفَف بقوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ وليجتهد في حِفظ النفس عن الحرام الرجال ﴿ٱلَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾ ولا يقدِرون على مقدَماته من المَهر وسائر لوازمه المتعارفة بالرياضة الكاسرة للشهوة، كالصوم كما روي عن النبيَ ﷺ أنه قال: «يا معشر الشبَان، من استطاع منكم الباءة فليتزوَج، ومن لم يستطع فعليه الصوم فانّه وِجاء»[١].

أقول: الباءة: هو الجِماع، واستُعمِل هنا في النّكاح، والوِجاء: رضّ أُنثيي الفَحْل رضاً شديداً قامعاً لشهوة الجِماع.

والمراد أنّ الصوم كالرضّ قاطع للشهوة، فعلى المؤمنين الفقراء أن يُروَضوا أنفسهم بالصوم، ويُضعّفوا شهوتهم كي يَحصُل بذلك صيانة فُروجهم وعفّة أنفسهم ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللهُ﴾ باعطائهم مايتزوَجون به ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وجُوده.

وعن الصادق عليه السلام ـ في تفسيره ـ قال «يتزوَجون حتى يُغنيهم الله»[٢].

أقول: يعني الذين ليس لهم مَؤنة النّكاح زائدة على معاشهم، فليستعففوا بالتزويج، بأن يستقرضوا، أو يبيعوا من أثاثهم وغيره كي يغنيهم الله.

ثمَ إنّه تعالى بعد ترغيب الموالي في الإحسان إلى مماليكهم بالتزويج، رغّبهم في الإحسان إليهم بمُكاتبتهم إذا طلبوها لأن يتحرّروا ويتخلّصوا من ذُلّ الرقيّة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ ويطلُبون منكم أيّها الموالي ﴿ٱلْكِتَابَ﴾ وجعل مالٍ عليهم بعوض عِتْهم ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من عبدٍ أو أمةٍ ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ وأجيبوهم إلى ما طلبوه من بيعهم من أنفسهم ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ ورشداً لتحصيل مال الكتابة من الحلال وقدرةً عليه كما قيل[٣].

وعن النبيَ ﷺ: «إن عَلِمتم لهم حِرفةً، فلا تَدَعُوهم كلاً على الناس»[٤].

---

١. تفسير الصافي ٣: ٤٣٣.
٢. الكافي ٥: ٧/٣٣١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٣.
٣. تفسير أبي السعود ٦: ١٧٢ تفسير روح البيان ٦: ١٤٩.
٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٧.

وقيل: يعني إن عَلِمتم لهم صلاحاً في الدين[١].

وعن ابن عباس: إن عَلِمتم لهم مالاً، وهو مرويّ عن الصادق عليه السلام[٢].

وفي رواية اُخرى عنه عليه السلام: «إن عَلِمتم ديناً ومالاً»[٣].

وفي الثالثة: «الخير أن يشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، ويكون بيده عمل يكتسب به، و[٤] يكون له حِرفة»[٥].

وعنه عليه السلام أنّه سُئل عن العبد يُكاتبه مولاه وهو يعلم أنّه ليس له قليل ولاكثير؟ قال: «يكاتبه وإن كان يسأل الناس، ولا يمنعه المكاتبة من أجل أنّه ليس له مال، فإنّ الله عزّ وجلّ يرزُق العباد بعضهم من بعض، والمؤمن مُعانٌ»[٦].

أقول: حاصل مجموع الروايات أنّه يعتبر في استحباب المكاتبة إيمان العبد، وتمكّنه من أداء مال الكتابة، ولو بإعانة الغير.

ثمّ حثّ سبحانه الموالي إلى إكثار الإحسان إلى المكاتبين بقوله: **﴿وَآتُوهُم﴾** أيها الموالي، وأدفعوا إليهم شيئاً **﴿مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾** ولو كان بعضاً ممّا جعلتم عليهم من مال الكتابة.

عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «كفى بالمرء شُحّاً أن يقول: آخذ حقّي ولا أترُك منه شيئاً»[٧].

عن أبي عبدالرحمن أنه كاتب غلاماً له، فترك له ربع مكاتبته، وقال: إنّ علياً عليه السلام كان يأمُرنا بذلك ويقول: «هو قول الله تعالى: **﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾** فان لم تفعل فالسُّبع»[٨].

وعن الصادق عليه السلام قال: «تضع [عنه] من نجومه التي لم تكن تُريد أن تُنقِصه [منها]، ولا تزيد فوق ما في نفسك». فقيل: كم؟ فقال: «وضع أبو جعفر عليه السلام [عن مملوكه] الفاً من ستّة آلاف»[٩].

وعنه عليه السلام: «لا تقول اكُاتبه بخمسة آلاف وأترُك له ألفاً، ولكن [انظر] إلى الذي أضمرت عليه فأعطه»[١٠].

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٨، تفسير البيضاوي ٢: ١٢٣.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٨، التهذيب ٨: ٩٧٥/٢٦٨، تفسير الصافي ٣: ٤٣٣.

٣. الكافي ٦: ١٠/١٨٧، التهذيب ٨: ٩٨٤/٢٧٠، تفسير الصافي ٣: ٤٣٣.

٤. في من لا يحضره الفقيه وتفسير الصافي: أو.

٥. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢٧٨/٧٨، تفسير الصافي ٣: ٤٣٣.

٦. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢٦٨/٧٦، وفيه: فالمحسن مُعان، تفسير الصافي ٣: ٤٣٣.

٧. تفسير روح البيان ٦: ١٤٩.

٨. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٨.

٩. الكافي ٦: ١٧/١٨٩، تفسير الصافي ٣: ٤٣٤.

١٠. الكافي ٦: ٧/١٨٧، عن أحدهما عليهما السلام، تفسير الصافي ٣: ٤٣٤.

وعن ابن عباس: أنّ الخطاب لغير السادات[١]، والمراد وآتوهم سهمهم الذي جعل الله لهم من الصدقات في قوله: ﴿وفى الرقاب﴾[٢].

وقيل: هذا أمرٌ من الله للسادة وللناس أن يُعينوا المُكاتَب على كتابته بما يُمكنهم[٣].

وعن النبيّ ﷺ: «من آعان مُكاتباً على فكّ رقبته أظلّه الله تعالى في ظلّ عرشه»[٤].

وروي أن رجلاً قال للنبيّ ﷺ: علمني عملاً يُدخلني الجنّة. قال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعظمت المسألة، أعتق النَّسَمة وفُكّ الرقبة» فقال: أليسا واحداً؟ فقال: «لا، عِتق النَّسَمة أن تنفرد بعِتقها، وفَكّ الرقبة أن تُعين في ثمنها»[٥].

روي أن صبيحاً مولى حُويطب بن عبدالعزّى سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه فنزلت الآية[٦].

ثمّ أنّه تعالى بعد أمر الموالي بتزويج العبيد والإماء ومكاتبتهم، نهى عن الاساءة إليهم بإكراههم على الفجور بقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا﴾ أيها الموالي ﴿فَتَيَاتِكُمْ﴾ وإماءكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَاءِ﴾ والفجور والتكسّب بفُروجهن ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ وتعفّفاً.

قيل: إن الشرطية لبيان تحقّق موضوع الاكراه، لأنّ الإكراه لا يتحقّق إلّا مع إرادة الأمة التعفّف[٧].

وقيل:إن القيد مبنيّ على الغَلَبة، كما في قوله: ﴿وربائبكم اللاتى فى حجوركم﴾[٨].

وقيل: إنّ كلمة (إن) بمعنى إذا التوقيتية[٩].

﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبُوا باكراههنّ على الفجور ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وحُطامها الفانية الدنيّة. رُوي أنه كان لعبدالله بن أُبي ستّ جوارٍ: معاذة، ومسيكة، وأُميمة، وعمرة، وأروى، وقتيلة، يكرههنّ على البغاء، وضرب عليهن الضرائب، فشكت ثنتان منهنّ إلى رسول الله ﷺ فنزلت[١٠].

وقيل: إن عبدالله بن أُبي اسر رجلاً، فراود الأسير جارية عبدالله، وكانت الجارية مسلمة، فامتنعت منه لاسلامها، فأكرهها ابن أُبي على ذلك رجاء أن تحمل الجارية من الأسير، فيطلب فِداء ولده فنزلت[١١].

وعن ابن عباس: أن عبدالله بن أُبي جاء إلى رسول الله ﷺ ومعه جارية من أجمل النساء تسمّى معاذة، فقال: يا رسول الله هذه الأيتام[١٢]، أفلا نأمرها بالزنا فيصيبون من منافعها؟ فقال ﷺ: «لا» فأعاد

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٨، وفيه: السادة.
٢. البقرة: ١٧٧/٢.
٣ و٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٨.
٥. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٨.
٦. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٧.
٧. مجمع البيان ٧: ٢٢١.
٨. النساء: ٢٣/٤.
٩. تفسير الكشاف ٣: ٢٤٠.
١٠. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢٠.
١١. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢٠.
١٢. في تفسير الرازي: لأيتام فلان.

الكلام فنزلت[١].

وعن جابر بن عبدالله، قال: جاءت جارية لبعض الناس فقالت: إنّ سيدي يُكرهني على البغاء، فنزلت[٢].

والقمي رحمه الله: كانت العرب وقريش يشترون الإماء، ويضعون[٣] عليهنّ الضريبة الثقيلة، ويقولون: اذهبن وازنين واكتسبن، فناههم الله عزّ وجلّ عن ذلك[٤].

ثمَ بيّن سبحانه إحسانه بالمكرهات بقوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ على البغاء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بهن لكونهنّ معذورات بسبب الإكراه، وإنّما الإثم على المُكرِهين.

القمي رحمه الله: أي لا يُؤاخذهنّ الله بذلك إذا أكرهن عليه[٥].

وعن الباقر عليه السلام: «هذه الآية منسوخة نَسَختها **﴿فان اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾**»[٦].

أقول: الرواية مخالفةٌ للقاعدة المتّفق عليها.

وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [٣٤و ٣٥]

ثمَ أنه تعالى بعد بيان الأحكام الكثيرة، مدح كتابه الكريم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ وأحكام واضحات بلسانكم ﴿وَمَثَلاً﴾ وقصة عجيبة نظيرة للقصص العجيبة المتواترة ﴿مِنَ﴾ الأقوام ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الدنيا، كرمي البرئ الذي وقع في شأن يوسف ومريم، أو المراد إنا بيّنا قصة حلول العذاب بالأمم الذين من قبلكم لتكذيبهم الرسل، وجعلنا ذلك مثلاً لكم، لتعلموا أنكم إذا شاركتموهم في المعصية كنتم مثلهم في استحقاق العذاب

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢٠.
٣. في تفسير القمي: ويجعلون.
٤. تفسير القمي ٢: ١٠٢، تفسير الصافي ٣: ٤٣٤.
٥. تفسير القمي ٢: ١٠٢، تفسير الصافي ٣: ٤٣٤.
٦. تفسير القمي ٢: ١٠٢، تفسير الصافي ٣: ٤٣٤، والآية من سورة النساء: ٢٥/٤.

﴿وَ﴾ انزلنا ﴿مَوْعِظَةً﴾ نافعة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والخائفين من الله، وسوء العاقبة من الوعيد، والتحذير عن المعاصي، كي تتعظوا بها وتنزجروا عنها.

ثمَ لما بيّن سبحانه الأحكام والحدود التي بها ينتظم العالم، وتتّسق اُمور عيش بني آدم، وكان ذلك من شؤون مديريته للكلّ، وصف ذاته المقدّسة بكمال التدبير وغاية الحكمة، أو من شؤون كونه هادياً إلى الخيرات ودليلاً منجياً من الظلمات بقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومدبّرهما بقدرته الكاملة وحكمته البالغة، وسائق الموجودات إلى كمالها اللائق بها برحمته الواسعة، أو ناظمها أحسن نظام، أو منوّرهما بالشمس والقمر والكواكب، أو مظهرهما ومخرجهما من كَتم العدم إلى الوجود، أو مزيّن السماوات بالكواكب، والأرض بالعلماء، أو هادٍ لأهل السماوات ولأهل الأرض، كما عن ابن عباس وأكثر مفسري العامة[١]. وعن الرضا عليه السلام أيضاً[٢].

وعن البرقي هدى من في السماوات، وهدى من في الأرض[٣].

ثمَ بيّن وضوح هدايته بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ والحالة العجيبة لهدايته التي هي الآيات البيّنات الدالة على توحيده وكمال صفاته، أو القرآن الذي هو نور ومظهر للصراط المستقيم، أو الرسول الهادي إلى الدين القويم، أو معارفه في قلوب المؤمنين كما عن ابن عباس[٤] ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ ومثل كُوَّة غير نافذةٍ في الجِدار موصوفة بأن[٥] ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وسِراجٌ ضَخْمٌ مُنيرٌ ثاقبٌ يكون ذلك ﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ موضوعاً ﴿فِى زُجَاجَةٍ﴾ وقنديلٍ صافٍ أزهر متلألئ، تلك ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ بحيث تكون من غاية تلألوءها ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مضيء متلألىء من الكواكب الدراري المشهورة كالمُشتري والزُّهَرَة والمِرّيخ وعُطارد وزُحَل و﴿يُوقَدُ﴾ ويشتعل ذلك المِصباح بدُهن ﴿مِن﴾ دُهن ﴿شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ عظيمة النفع، أو النابتة في الأرض المباركة، تسمّى بشجرة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ التي دعا عليها سبعون نبياً منهم الخليل كما قيل[٦] ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ تطلّع عليها الشمس حين طُلوعها دون غيرها ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تقع عليها حين غُروبها فقط، بل تكون بين الجهتين كالشام، فتكون ثمرتها في غاية النُّضج، وزيتها في غاية الصفاء، لشروق الشمس عليها كلّ حين.

وقيل: يعني أنها لا تُوصَف بالشرقية والغربية لأنّها من شجر الجنّة[٧].

---

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢٤، تفسير أبي السعود ٦: ١٧٥، تفسير روح البيان ٦: ١٥٣.

٢ و٣. التوحيد: ١/١٥٥، تفسير الصافي ٣: ٥٣٨.   ٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢٣٣.

٥. كذا، والسياق يقتضي نصب كلمة (مصباح) وما بعدها، إلّا أن تكون (أن) مخفّفة من الثقيلة مهملة.

٦. مجمع البيان ٧: ٢٢٥، تفسير الرازي ٢٣: ٢٣٦، تفسير روح البيان ٦: ١٥٥.

٧. تفسير الرازي ٢٣: ٢٣٦، تفسير روح البيان ٦: ١٥٥.

ومن صفات تلك [الشجرة] أنه ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ ودُهن ثمرها ﴿يُضِيءُ﴾ بنفسه وينوّر ما حوله ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ﴾ ولم تُصِبه ﴿نَارٌ﴾ لغاية صفائه وتلألئه، فكيف إذا أصابته نار، فذلك المِصباحُ المُوقَدُ المُنيرُ غايته مع اجتماع نوره في المِشكاة والكُوّة، وانضمام نوره بصفاء دُهنه وتلألؤ زُجاجته كان له ﴿نُورٌ﴾ شديدٌ مضاعفٌ ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ شديدٍ بحيث بلغت شدّته غايتها.

وحاصل المعنى أنه بناء على كون المراد بالنور في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ الهداية أو القرآن أنّ هداية الله تعالى أو حقّانية القرآن قد بلغت في الظهور والجلاء الى أقصى الغايات، وصارت في الظهور بمنزلة المِشكاة التي فيها زُجاجة صافية متلألئة، وفي الزجاجة مِصباح متوقّد بزيتٍ له نهاية الصفاء، وإنّما شبّهها سبحانه بذلك، مع أنّ التشبيه بضوء الشمس أبلغ؛ لأنّ المقصود التشبيه بضوءٍ كاملٍ ظاهرٍ بين الظلمات، وليس ضوء الشمس كذلك، لأنّه إذا ظهر امتلأ العالم ولا تبقى ظلمة فيه ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ﴾ بهدايته الخاصة الموصلة ﴿لِنُورِهِ﴾ وشرعه وأحكامه، أو إلى فَهمْ ما في القرآن من دلائل حقانيته والعلوم والمعارف ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هدايته من عباده ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ ويقرب المطالب العقلية العالية إلى الأفهام القاصرة بتصويرها بصورة المحسوسات لُطفاً بالعباد ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من المعقولات والمحسوسات ودقائقها وجلائلها، وضرب الأمثال وغيرها ﴿عَلِيمٌ﴾، وأمّا بناءً على كون المراد من النور نور الايمان، فالمراد تشبيه صدر المؤمن بالمِشكاة، وقلبه بالزُّجاجَة الكائنة في المِشكاة، والإيمان بالمِصباح المُنير، وحصوله من البُرهان والعِيان بتوقّد المِصباح من دُهن الزيتون الصافي.

عن الصادق عليه السلام، عن أبيه، في هذه الآية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال: «بدأ بنور نفسه ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يعني مثل هداه في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ المِشكاة جوف المؤمن، والقِنديل قلبه، والمِصباح النُّور الذي جعله الله فيه[1] ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ قال: الشجرة المؤمن ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: على سواء الجبل، لا شرقية أي لا شرق لها، ولا غربية أي لا غرب لها، إذا طلعت الشمس طلعت عليها، وإذا غربت غربت عليها ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ يكاد [النور] الذي جعله الله في قلبه يُضيء وإن لم يتكلّم ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ فريضة بعد[2] فريَضةٍ، وسُنّة بعد[3] سُنّةٍ ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ قال: يهدي الله لفرائضه وسننه من يشاء ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ قال: فهذا مثل ضربه الله للمؤمن، قال: فالمؤمن يتقلب في خمسة من النور: مدخله

---

١. في تفسير القمي: الله في قلبه.

٢ و٣. في تفسير القمي: على.

نور، ومخرجه نور، وعلمه نور، وكلامه نور، ومصيره يوم القيامة إلى الجنّة والنور»[١].

قال الراوي: قلت لجعفر عليه السلام: إنّهم يقولون مثل نور الرب؟ قال: «سبحان الله ليس لله مثل، أما قال **﴿فلا تضربوا لله الامثال﴾**؟»[٢].

وقيل: إن المراد بالنور هو المعارف الالهية[٣]، فشبّه سبحانه صدر المؤمن بالمِشكاة، وقلبه بالزُّجاجة، وعِرفانه بالمِصباح، وتوقّده من الشجرة المباركة حصوله من إلهامات الملائكة، وإنّما شبّه الملائكة بالشجرة المباركة لكثْرة منافعهم، وإنما وصفها بأنها لا شرقية ولا غربية لأنها روحانية، وإنما وصفهم بقوله: **﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾** لكثرة علومهم وإطلاعهم على أسرار ملكوت الله.

وقيل: إن المراد من النور دين الإسلام[٤]، فشبّه سبحانه صدر النبي صلى الله عليه وآله بالمِشكاة، وقلبه بالزُّجاجة، ودينه بالمِصباح، وتوقّده من شجرة مباركة وصوله إلى النبيّ صلى الله عليه وآله من إبراهيم، فانّ دين الاسلام هو مِلّة إبراهيم، ثمّ وصف إبراهيم بكونه لا شرقية ولا غربية، لأنّه لم يُصلّ قِبَل المشرق كالنصارى وقبلَ المغرب كاليهود، بل صلّى إلى الكعبة.

وقيل: إن المراد من النور نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله، فشبّه صُلب عبدالله بالمِشكاة، وجسد محمّد صلى الله عليه وآله بالزُّجاجة، ونبوّته في قلبه بالمِصباح[٥].

وقيل: إنّ في الآية قلباً، والتقدير: مثل نوره كمصباح في مشكاة[٦].

وعن الصادق عليه السلام **﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾** قال: «كذلك الله عزّ وجلّ **﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾** قال: محمّد صلى الله عليه وآله **﴿كَمِشْكَاةٍ﴾** قال: صدر محمّد صلى الله عليه وآله **﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾** قال: فيه نور العلم، يعني النبوة **﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾** قال: علم رسول الله صلى الله عليه وآله صدَر إلى قلب علي عليه السلام **﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾** قال: ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، لا يهودي ولا نصراني **﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾** [قال: يكاد] يخرُج العلم من فم [العالم من] آل محمّد مِن قبل أن ينطِق به **﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾** قال: الامام في أثر الإمام»[٧].

«وعن الباقر عليه السلام ـ في حديث ـ «يقول الله: أنا هادي السماوات والأرض، مثل العلم الذي أعطيته وهو النور الذي يُهْتَدى به مثل المشكاة فيها المِصباح، المشكاة قلب محمّد صلى الله عليه وآله والمصباح نوره

---

١. في تفسير القمي والصافي: الجنة نور.

٢. تفسير القمي ٢: ١٠٣، تفسير الصافي ٣: ٤٣٦، والآية من سورة النحل: ٧٤/١٦.

٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢٣٢ و٢٣٣. ٥ و٦. تفسير الرازي ٢٣: ٢٣٥.

٧. التوحيد: ٣/١٥٧، تفسير الصافي ٣: ٤٣٥.

الذي هو[١] العلم، وقوله: ﴿**ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ**﴾ يقول: إني أُريد أن أقبِضك فأجعل الذي عندك عند الوصيّ، كما يُجعَل المِصباح في زجاجَة كأنّها كوكبٌ دُرّي، فأُعلمهم فضل الوصي ﴿**يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ**﴾ فأصل الشجرة المباركة إبراهيم عليه السلام، وهو قول الله عزَ وجلّ: ﴿**رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد**﴾[٢] وقوله: ﴿**ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم**﴾[٣].

﴿**لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ**﴾ يقول: لستم بيهود فتصلوا قِبَل المغرب، ولا نصارى فتصلّوا قِبل المشرق، وأنتم على مِلّة إبراهيم عليه السلام، وقد قال الله عز وجل: ﴿**ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**﴾[٤].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿**يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ**﴾ يقول: مثل أولادكم الذين يُولَدون منكم مثل الزيت [الذي] يُعْصَر من الزيتون، يكادون أن يتكلّموا بالنبوة ولم لم ينزل عليهم المَلَك[٥].

أقول: لا يخفى اغتشاش متن الرواية.

فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ ٱلزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[٣٦ـ٣٨]

ثمَ إنه تعالى بعد بيان عظمته وظهور توحيده بالآيات التكوينية، وظهور هدايته لأهل العالم، وأن هداية المهتدين بتوفيقه، ذكر حال المهتدين واستغراقهم في ذكره وتسبيحه بقوله: ﴿**فِى بُيُوتٍ**﴾ عظيمة الشأن التي ﴿**أَذِنَ ٱللَّهُ**﴾ وأعلن بالاجازة والرُّخصة في ﴿**أَن تُرْفَعَ**﴾ تلك البيوت قدراً وتعظيماً وتقديساً ﴿**وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ**﴾ بالثناء والتمجيد ﴿**يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ**﴾ والصباح والمساء.

قيل: إن ﴿**فِى بُيُوتٍ**﴾ صفة (مشكاة) والمعنى: كمشكاة فيها مصباح في بيوت[٦].

وقيل: متعلّق بيوقد، والمعنى: يُوقَد من شجرةٍ مباركةٍ في بيوت[٧]، أو بالفعل المقدر، والمعنى: صلّوا في بيوت.

---

١. في الكافي: النور الذي فيه.
٢. هود: ٧٣/١١.
٣. آل عمران: ٣/ ٣٣ و٣٤.
٤. آل عمران: ٦٧/٣.
٥. الكافي ٨: ٥٧٤/٣٨٠، تفسير الصافي ٣: ٤٣٥.
٦ و٧. تفسير الرازي ٢٤: ٢.

قيل: إنّ المراد المساجد الأربعة[١].

وعن ابن عباس: جميع المساجد[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «هي بيوت[٣] الأنبياء والرُّسل والحكماء وأئمة الهدى»[٤].

والقمي عنه عليه السلام: «هي بيوت الأنبياء، وبيت عليّ عليه السلام منها»[٥].

وعن الصادق: «هي بيوت النبيّ صلى الله عليه وآله»[٦].

وروى أن قَتادة قال للباقر عليه السلام: والله لقد جلست بين يدي الفقهاء وقُدّامهم[٧] فما اضطرب قلبي قُدّام واحدٍ منهم ما اضطرب قُدّامك. فقال له: «أتدري أين أنت؟ بين يدي بيوتٍ أذن الله أن تُرفَع» إلى آخر الآية «فأنت ثمّ ونحن أولئك».

وقيل: إنّ المراد بالتسبيح مطلق تنزيه الله تعالى ممّا لا يليق به[٨].

وقيل: إنه الصلوات الخَمس كلّها[٩].

وعن ابن عباس: أنّ صلاة الضُّحى لفي كتاب الله تعالى مذكورة، وتلا هذه الآية[١٠].

وقيل: إنه صلاة الصبح والعصر[١١].

ثمّ كأنه قيل: من يسبّح فيها؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿رِجَالٌ﴾ مؤمنون ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ ولا تشغلهم ﴿تِجَارَةٌ﴾ ومعاملة مالية رابحة ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ ومبادلة مال بمال ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قلباً ولساناً ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَاةِ﴾ وأدائها بآدابها وشرائطها، فرائضها ونوافلها كما عن ابن عباس[١٢] و﴿وَإِيتَاءِ ٱلزَّكَاةِ﴾ الواجبة، وصرفها في مصارفها المقرّرة وعن ابن عباس المراد منها طاعة الله تعالى والاخلاص[١٣]، وهم مع ذلك ﴿يَخَافُونَ يَوْماً﴾ هائلاً عظيماً ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ وتتغير ﴿فِيهِ﴾ من حالٍ إلى حال ﴿ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَارُ﴾ من شدّة أهواله كما قال تعالى: ﴿مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾[١٤].

قيل: تقلّب القلوب بالتفقّه بعد الطبع، وتقلّب الأبصار بالتبصّر بعد العمى[١٥].

وقيل: تقلّب القلوب بلوغها الحناجر، وتقلب الأبصار صيرورتها زُرقاً[١٦].

وقيل: تغيّرهما بالحُرقة والنّضج بسبب العذاب، إذ تقلبهما على جَمر جهنم[١٧].

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٤: ٣.
٣. في كمال الدين وتفسير الصافي: بيوتات.
٤. كمال الدين: ٢/٢١٨، تفسير الصافي ٣: ٤٣٦.
٥. تفسير القمي ٢: ١٠٤، تفسير الصافي ٣: ٤٣٦.
٦. الكافي ٨: ٥١٠/٣٣١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٦.
٧. في الكافي: وقدام ابن عباس.
٨. الكافي ٦: ١/٢٥٦، تفسير الصافي ٣: ٤٣٧.
٩ ـ ١١. تفسير الرازي ٢٤: ٤.
١٢ و١٣. تفسير الرازي ٢٤: ٥.
١٤. إبراهيم: ٤٣/١٤.
١٥. تفسير الرازي ٢٤: ٥.
١٦ ـ ١٧. تفسير الرازي ٢٤: ٦.

وقيل: إن القلوب تتقلّب طمعاً في النجاة، وحذراً من العذاب، والأبصار تتقلّب ليرى من أي ناحية يؤمَر بهم إلى النار، ومن أيّ جهةٍ يُعطَون كتابهم.

وانما يداومون على التسبيح، ويستغرقون في الذِّكر، ويهتمون بالعبادات البدنية والمالية ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ويثيبهم في ذلك اليوم ﴿أَحْسَنَ﴾ جزاء ﴿مَا عَمِلُوا﴾ من العبادات والطاعات حسبما وعد لهم ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ على ما وعدهم ألطافاً وأنعاماً أخر لم يَعِدهم بها ولا تخطِر على قلب أحد﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وكَرَمه ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ﴾ ويُعطي نِعمه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إعطاءه الرزق والنِّعم ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وبحيث لا يقدِر أحدٌ على تعداده وتقديره.

ثمّ اعلم أنّ بعض العامة نسب إلى كثيرٍ من الصحابة أنّهم قالوا: نزلت هذه الآية في أهل الأسواق الذين إذا سَمِعوا النداء بالصلاة تركوا كل شُغلٍ وبادروا إليها، لا في أصحاب الصُّفة[1] الذين تركوا التجارة ولَزِموا المسجد[2].

عن الصادق عليه السلام ـ في هذه الآية ـ قال: «كانوا أصحاب تجارة، فاذا حضرت الصلاة تركوا التجارة وانطلقوا إلى الصلاة، وهم أعظم أجراً ممّن لايتّجر»[3].

وفي (الكافي) رفعه قال: «التجّار الذين لا تُلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله عزّ وجلّ، إذا دخلت مواقيت الصلاة أدّوا إلى الله حقّه فيها»[4].

وعنه عليه السلام أنّه سأل عن تاجرٍ ما فعل؟ فقيل: صالح ولكنه قد ترك التجارة، فقال: «عمل الشيطان ـ ثلاثاً ـ أما عَلِم أن رسول الله صلى الله عليه وآله اشترى عيراً أتت من الشام، فاستفضل فيها ما قضى دينه، وقسّم في قرابته، يقول الله عزّ وجلّ ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ الآية، يقول القصاص: إنّ القوم لم يكونوا يتجرون، كذبوا ولكنّهم لم يكونوا يدعون الصلاة في ميقاتها، وهو أفضل ممّن حضر الصلاة ولم يتجر»[5].

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن

---

١. زاد في تفسير روح البيان: وأمثالهم. ٢. تفسير روح البيان ٦: ١٦٠.

٣. من لايحضره الفقيه ٣: ٥٠٨/١٩٩، تفسير الصافي ٣: ٤٣٧.

٤. الكافي ٥: ٢١/١٥٤، تفسير الصافي ٣: ٤٣٧. ٥. الكافي ٥: ٨/٧٥، تفسير الصافي ٣: ٤٣٧.

نُورٍ[٣٩و ٤٠]

ثمَ إنّه تعالى بعد بيان حسن حال المؤمنين، وأنّهم في الدنيا في النور، وفي الآخرة في النعيم والسرور، بيّن سوء حال الكفّار في الدارين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الخيرية كصِلة الأرحام وإطعام الطعام وأمثالهما ممّا لو قارنه الايمان كان لهم أجراً عظيماً عند الله يكون ﴿كَسَرَابٍ﴾ وسبخةٍ تَلْمَع الشمس عليها عند الظهيرة، فيرى أنّها ماءٌ جارٍ ﴿بِقِيعَةٍ﴾ وأرضٍ منبسطةٍ مستويةٍ ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْآنُ﴾ ويَتَوهَمه العطشان إذا رآه من البعيد ﴿مَاءً﴾ جارياً، ويسعى في الوصول إليه ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ قَرُب منه و ﴿جَاءَهُ﴾ طامعاً لرفع العطش به ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ قابلاً للشُّرب والانتفاع به، فيخيب رجاؤه، كذلك الكافر يعمل عمل البرّ في الدنيا [و] يطمع الانتفاع به في الآخرة، ثمَ إذا وافى عرصات القيامة وجد ما عمل هباءً منثوراً، لا يكون له فيه نفعٌ وثوابٌ، بل حاله أسوأ من الظمآن الذي قُصارى أمره الخيبة، فانّ الكافر الخائب خيبته أعظم من خيبة الظمآن، ومع ذلك ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ﴾ ورأى عقابه الشديد، أو وجد زبانية الله ﴿عِندَهُ﴾ فانقلب ظنّ الانتفاع به بيقين الضرر العظيم فيه لكفره، فتعظُم حسرته، ويتناهى غمّه وكُربته ﴿فَوَفَّاهُ﴾ الله وأعطاه بنحو الكمال ﴿حِسَابَهُ﴾ وجزاءه بلا رَيْثٍ ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وإنّما أفرد سبحانه الضميرين الراجعين إلى الكفار والضمير الراجع إلى أعمالهم للحمل على إرادة كلّ واحدٍ منهم ومنها.

قيل: نزلت في عُتبة بن ربيعة، فانّه كان قد تعبّد في الجاهلية، ولَبِس المُسوح[١]، والتمس الدين، فلما جاء الاسلام كفر[٢].

ثمَ ضرب سبحانه مثلاً آخر لأعمالهم الفاسدة بقوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ كائنة ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ وبعيد القَعْر حين ﴿يَغْشَاهُ﴾ ويَسْتُره ﴿مَوجٌ﴾ عظيم ﴿مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ عظيمٌ آخر، فلمّا تراكمت الأمواج ارتفع على الموج الأعلى وحدث ﴿مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ غليظٌ ظُلمانيٌ ساترٌ أضواء النجوم، فتحصّل بسبب ظُلمة البحر العميق وظُلمة الأمواج المتراكمة ظُلمة السَّحاب ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ عديدة متكاثفة ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فتشتدّ الظُّلمة بحيث إنه ﴿إِذَا أَخْرَجَ﴾ المُبتلى بها ﴿يَدَهُ﴾ من جيبه وقرّبها من عينيه ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ فضلاً من أن يراها مع كونها أقرب شيءٍ منه، وكذا لا يُمكن أن يرى الكافر المُبتلى بظُلمة الكفر وظُلمة الأخلاق السيئة وظُلمة حبّ الدنيا عمله.

قيل: إنّ المثل الأول لأعمالهم الحسنة، والثاني لأعمالهم القبيحة[٣].

---

١. المُسوح: جمع مِسح، وهو كساءٌ من شعر.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٨، تفسير البيضاوي ٢: ١٢٦، تفسير أبي السعود ٦: ١٨١.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٨.

وقيل: إنّ الأول لأعمالهم، والثاني لعقائدهم، كما قال تعالى: ﴿**يخرجهم من الظلمات الى النور**﴾[١] واستدل عليه بقوله: ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُوراً**﴾ وإيماناً وهداية ﴿**فَمَا لَهُ**﴾ شيء ﴿**مِن نُورٍ**﴾ وهدايةٍ إلى خير أصلاً.

وقيل: إن المَثل لمجموع عقائدهم وأعمالهم، والمراد من الظلمات ظُلمة الاعتقاد وظُلمة القول وظُلمة العمل[٢].

وعن أُبي بن كعب: الكافر يتقلّب في خمسٍ من الظُّلم: ظُلمة كلامه، وظُلمة عمله، وظُلمه مدخله، وظُلمة مخرجه، وظُلمة مصيره إلى النار[٣].

وقيل: إنّه مثلٌ للكافر نفسه[٤].

عن ابن عباس: شبّه قلبه وبصره وسمعه بهذه الظُّلمات الثلاث[٥].

وقيل: قلبه مُظلمٌ وصدره مظلمٌ، وجسده مُظلمٌ[٦].

وقيل: إنّ الكافر في ظُلمات ثلاث، حيث إنّه لا يدري، [ولا يدري] أنّه لايدري، ويعتقد أنّه يدري[٧].

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ[٤١ و ٤٢]

ثمّ لمّا بيّن الله سبحانه حال رجالٍ مهتدين بنوره، مستغرقين في أنوار توحيده ومعارفه، ومتوجّهين إلى ذِكره وتسبيحه والقيام إلى الصلاة له، بخلاف المشركين المنغمرين في الظلمات، بيّن أنّ لكلّ موجودٍ معرفةً بتوحيد خالقه وذكراً وتسبيحاً[٨] وصلاةً له تعالى على حسبه بقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ**﴾ ويُنزّهه في ذاته وصفاته وأفعاله ممّا لا يليق به من النقص والخَلَل ﴿**مَن فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ وما فيهما[٩] من العقلاء وغيرهم تنزيهاً معنوياً بلسان الحال، وهو إمكانه وتكوينه وتغييره، أو تعبير مناسب بحيث تفهمه العقول السليمة، وذكر (من) في الآية لتغليب العقلاء ﴿**وَ**﴾ تُسبّح ﴿**ٱلطَّيْرُ**﴾ بأنواعها حال كونها ﴿**صَافَّاتٍ**﴾ بأجنحتها، باسطات لها في الهواء، متمكّنات من الوقوف والحركة في الجوّ كيف تشاء، مع اقتضاء ثقل جسمها السقوط وإنّما أفردها بالذِّكر مع كونها داخلة[١٠]

---

١. البقرة: ٢٥٧/٢.
٢ ـ٥. تفسير الرازي ٢٤: ٨.
٦. تفسير الرازي ٢٤: ٩.
٧. تفسير الرازي ٢٤: ٨.
٨. في النسخة: وذكر وتسبيح.
٩. في النسخة: وما فيها.
١٠. في النسخة: داخلاً.

في ما في الأرض، لكونها حال الطيران بين السماء والأرض، و﴿كُلٌّ﴾ من الأشياء المذكورة مع تنزيهه التكويني ودلالة كمال نقصه على كمال خالقه ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ بإلهام الله ﴿صَلاتَهُ﴾ وابتهاله إلى الله في حاجته واستفاضته من فضله ﴿وَتَسْبِيحَهُ﴾ وتنزيهه الاختياري خالقه.

عن الصادق عليه السلام: «ما من طيرٍ يُصاد في برٍ أو بحرٍ، ولا يُصاد شيءٌ من الوحش إلّا بتضييعه التسبيح»[١].

وروى بعض العامّة عن أبي ثابت، قال: كنت جالساً عند أبي جعفر[٢] الباقر عليه السلام، فقال لي: أتدري ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها؟ قلت: لا. قال: «إنّهن يُقدّسن ربّهن ويسألنه قُوت يومهن»[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ لله مَلكاً في صورة الدِّيك الأملح الأشهب، براثِنه[٤] في الأرض السابعة، وعُرفه تحت العرش، له جَناحان: جَناح بالمشرق، وجَناح بالمغرب، فأمّا الجَناح الذي في المشرق فمن ثَلْج، والجَناح الذي في المغرب فمن نار، فكلّما حضر وقت الصلاه قام [الديك] على براثِنه، ورفع عُرفه تحت العرش، ثمّ أمال أحد جَناحيه إلى الآخر يُصفّق بهما كما يُصفّق الديك في منازلكم، فلا الذي من الثلج يُطفئ النار، ولا الذي من النار يُذيب الثلج، ثمّ ينادي بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتَم النبيّين، وأن وصيه خير الوصيّين سُبّوح قُدّوس رب الملائكة والرُّوح. فلا يَبقى في الأرض دِيكٌ إلّا أجابه، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾»[٥].

قيل: إنّا نُشاهد أنّ الله تعالى ألهم الطيور والحشرات أعمالاً لطيفةً، يعجِز عنها أكثر العُقلاء، فلِمَ لا يجوز أن يُلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه؟[٦]

وقال آخر: إنّ الله خلق الخلق ليسبّحوه، فأنطقهم بالتسبيح له والثناء عليه والسجود له، وأشهد نبيّه[٧] ذلك وأراه، ولذا قال مخاطباً لنبيه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾ إلى آخره، ولم يقل: ألم تروا، لأنّا ما رأيناه فهو لنا إيمان، ولمحمد صلى الله عليه وآله عِيان[٨].

---

١. تفسير القمي ٢: ١٠٧، تفسير الصافي ٣: ٤٣٩.

٢. في النسخة: جعفر بن محمّد، وفي تفسير الرازي: محمد بن جعفر.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٠، تفسير روح البيان ٦: ١٦٤.

٤. البراثن: جمع بُرثُن: وهو مخلب الطائر الجارح.

٥. تفسير القمي ٢: ١٠٦، تفسير الصافي ٣: ٤٣٩.

٦. تفسير الرازي ٢٤: ١١.

٧. في تفسير الصافي: والسجود له فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ ...﴾ الآية، وخاطب بهاتين الآيتين نبيّه الذي اشهده.

٨. تفسير الصافي ٣: ٤٣٩.

وقيل: إنّ المراد قد علم الله صلاته وتسبيحه لقوله بعده: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[١] من التسبيح والدعاء، فيجازيهم بما يستحقّون، وفيه تهديد للغافلين ثمّ بيّن سبحانه كمال عظمته الموجبة للخضوع له والثناء عليه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه خالقهما وخالق ما فيهما من الذزرة والذّرة، والمتصرّف في الجميع إيجاداً وإعداماً وتقليباً وتغييراً ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ خاصةً ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ والرجوع للكلّ بالفناء والبعث، فعلى العاقل أن يخضع لهذا المَلِك القادر القاهر العظيم، ويسبحه ويُقدّسه من الشريك والمِثل والحاجة والنقائص الإمكانية.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّماءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ[٤٣]

ثمّ استدلّ سبحانه على كمال عظمته وقدرته بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمّد، أو أيهاالانسان بعين رأسك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى﴾ وينشئ شيئاً فشيئاً، أو يسوق قليلاً قليلاً ﴿سَحَاباً﴾ متقطّعاً ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ ويجمع ﴿بَيْنَهُ﴾ ويضّمَ بعض القطعات إلى بعضٍ ﴿ثُمَّ﴾ بعد تأليف قطعاته وصيرورته سحاباً واحداً ﴿يَجْعَلُهُ رُكَاماً﴾ ويُصيّره متراكماً حتى يكون غليظاً قابلاً لحمل الماء الكثير ﴿فَتَرَى﴾ بعد ذلك التأليف والتراكُم ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ و[الودق]: المطر، كما عن ابن عباس[٢] ﴿يَخْرُجُ﴾ ويتقاطر ﴿مِنْ خِلاَلِهِ﴾ وفرجه التي حدثت من تراكمه وتعصيره بسبب الرياح.

عن الباقر عليه السلام ـ في حديث يذكُر فيه أنواع الرياح ـ قال: «ومنها رياح تحبِس السّحاب بين السماء والأرض، ومنها رياح تعصِر السّحاب فتمطُر بإذن الله، ومنها رياحٌ تُفرّق السّحاب»[٣].

﴿وَيُنَزِّلُ﴾ الله أيضاً ﴿مِنَ ٱلسَّماءِ﴾ المُطلّ[٤] أو جهة العُلو بعضاً ﴿مِن جِبَالٍ﴾ وقطعِ عِظامٍ يكون ﴿فِيهَا﴾ مقدارٌ معينٌ ﴿مِن بَرَدٍ﴾ ومطرٍ مُنجمدٍ في الجوّ كالثلج ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أن يُصيبه، فيناله ما يناله من الضرر في نفسه وماله ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَن يَشَاءُ﴾ صرفه عنه ومنعه من السقوط عليه، كي لايتضرّر به.

قيل: إنّ أكثر المفسرين قالوا: إنّ في السماء جبالاً من بَرَد ، خلقها الله تعالى كذلك، ثمّ يُنزل منها ما شاء[٥] من السّحاب.

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٠.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٣.
٣. من لا يحضره الفقيه ١: ١٥٢٥/٣٤٥، تفسير الصافي ٣: ٤٤٠.
٤. كذا، ولفظ السماء مؤنث، ويجوز تذكيره.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٤.

عن الصادق عليه السلام قال: «البَرَد لا يُؤكل؛ لأن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾»[1].

﴿يَكَادُ﴾ ويقرُب ﴿سَنَا بَرْقِهِ﴾ وضوء لمعانه ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ التي للناظرين إليه، ويخطفها[2] من شدة الإضاءة وسرعة الورود.

قيل: إنّ البرق يَحْدُث من ضَرب تلك السَّحاب[3]. وقيل: إنّه نارٌ تنقدح من اصتكاك الأجزاء الدُّخانية في جَوف السَّحاب[4]، ومن قدرة الله ظُهور النار من البَرَد الذي هو ضدّها.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله إن الله عزّ وجلّ جعل السحاب غَرابيلَ للمَطر، هي تُذيب البَرَد [حتى يصير] ماءً لكيلا يضُرّ شيئاً يُصيبه، والذي تَروَن فيه من البَرَد والصَّواعق نِقْمةٌ من الله عزّ وجلّ يُصيب بها من يشاء من عباده»[5].

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِى ٱلْأَبْصَارِ * وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ فَمِنْهُم مَن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِى عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٤٤ و ٤٥]

ثمّ استدلّ سبحانه على قُدرته ثالثاً بقوله: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ويجعلهما متعاقبين، أو يُغيّرهما بالزيادة والنقص، والحرّ والبرد، والنُّور والظُّلمة، ممّا يقع فيهما من الأمور التي من جملتها إزجاء السَّحاب وما يترتّب عليه.

وفي الحديث، قال: «قال الله تعالى يُؤذيني ابن آدم بسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أُقلّب الليل والنهار»[6].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الآيات المفصّلة ﴿لَعِبْرَةً﴾ وعِظةً أو دلالةً واضحةً على توحيد الله وقُدرته واستحقاقه للخضوع والتعظيم ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَبْصَارِ﴾ الثاقبة وذوي الأنظار الصائبة.

ثمّ أنّه تعالى بعد الاستدلال بما في السماوات والأرض والآثار العُلوية، استدلّ بخصوص خلق الحيوان واختلافه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ﴾ بقدرته ﴿كُلَّ دَابَّةٍ﴾ وحيوان متحرّك ﴿مِن مَاءٍ﴾ فانّه أصل جميع الموجودات، كما عن ابن عبّاس قال: إنّ الله خلق جوهرة فنظر إليها بعين الهَيبة، فصارت ماءً، ثمّ من ذلك الماء خلق النار والهواء والنور، فأصل جميع الموجودات حتى الملائكة والجنّ وآدم من ماء[7].

---

١. الكافي ٦: ٣/٣٨٨، تفسير الصافي ٣: ٤٤٠.
٢. في النسخة: ويخطفهما.
٣ و ٤. تفسير روح البيان ٦: ١٦٦.
٥. الكافي ٨: ٣٢٦/٢٤٠، تفسير الصافي ٣: ٤٤٠.
٦. تفسير روح البيان ٦: ١٦٦.
٧. تفسير روح البيان ٦: ١٦٧.

وقيل: إنّ المراد كلّ دابّةٍ متولّدةٍ من ماءٍ خلقها الله[١].

وقيل: إنّ المراد كلّ دابةٍ سكنت الأرض، فإنّ غالبها مخلوقةٌ من النُّطفة، والحُكم على الغالب، أو على الكُلّ، لأنّ الماء أحد عناصر الكُلّ[٢].

﴿فَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ لعدم آلة المشي له كالحيّة،وإنّما قدّم ذكره لكونه أعجب ﴿وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالانسان والطير ﴿وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ قوائم كالنَّعم والوَحْش، أو أربع جهات كالعناكب والعقارب وغيرها ممّا يمشي على أكثر من أربع قوائم.

وقيل: إنّه تعالى نبّه على سائر أقسام الحيوانات بقوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ممّا ذكر وممّا لم يذكر[٣].

وقيل: عدم ذكرها لعدم الاعتداد بها، وإنّما أتى سبحانه بضمير جمع العقلاء لتغليبهم، وأتى بالموصول الذي للعقلاء ليوافق التفصيل الإجمال[٤].

ثمّ قرّر سبحانه كمال قدرته بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء.

لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِن بَعْدِ ذٰلِكَ وَمَا أُولٰـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ[٤٦ و ٤٧]

ثمّ نبّه سبحانه على تمامية الحجّة على توحيده وكمال صفاته بقوله:﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ وموضحات لجميع ما يحتاج إليه البشر من دلائل التوحيد وكمال الصفات والأحكام الدينية والأسرار التكوينية ﴿وَٱللَّهُ﴾ بالتوفيق للنظر والتفكّر فيها ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والدين القويم المرضي عنده الموصل إلى كلّ خيرٍ في الدنيا وإلى كلّ نِعمةٍ في الآخرة، وهو الاسلام.

ثمّ أنّه تعالى بعد التنبيه بنزول الآيات المتمّمة للحُجة على التوحيد والرسالة وصحّة دين الاسلام، ذمّ المنافقين المصرّين على الكفر بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هؤلاء المنافقون كذباً ونفاقاً ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾ ووَحْدانيته ﴿وَبِالرَّسُولِ﴾ عن صميم القلب ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أحكامهما، وامتثلنا أوامرهما ونواهيهما بإخلاص النيّة ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ ويُعرِض عن قبول حكمه ﴿فَرِيقٌ﴾ وطائفة ﴿مِّنْهُم﴾ عِناداً للحقّ ﴿مِن بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ القول النفاقي من إظهار الايمان والطاعة ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا أُولٰـئِكَ﴾ الذين يدّعون

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٦.
٣. تفسير روح البيان ٦: ١٦٨.
٤. تفسير أبي السعود ٦: ١٨٥.

الايمان والطاعة ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله والرسول عن صميم القلب.

وَإِذَا دُعُوا إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ [٤٨ و ٤٩]

ثمّ بيّن سبحانه تولّيهم عن حكمه بقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ﴾ الرسول ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عند تنازعهم في شيءٍ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن التحاكم إليه، لعلمهم بأنّهم على خلاف الحقّ، وأنّ الرسول لا يساعدهم على باطلهم بالرشوة والمصانعة ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ والحكم لا عليهم ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ للمحاكمة حال كونهم ﴿مُذْعِنِينَ﴾ ومُنقادين لحكمه لجزمهم بأنّه صلّى الله عليه وآله يحكم لهم.

قيل: الآيات في بِشر المنافق، خاصم يهودياً في أرض، فدعاه إلى كعب ابن الأشرف من أحبار اليهود، ودعاه اليهودي إلى النبي[1].

وعن الضحاك: أنّها نزلت في المُغيرة بن وائل، كان بينه وبين علي بن أبي طالب عليه السلام أرضٌ فتقاسمها، فوقع إلى عليّ عليه السلام منها ما لا يصله الماء إلّا بمشقّة، فقال المُغيرة: بعني أرضك، فباعها إياه وتقابضا، فقيل للمُغيرة: أخذت أرضاً سَبخة لا ينالها الماء، فقال لعلي عليه السلام: اقبض أرضك فإنّما اشتريتها أن رضيتها ولم أرْضَها لأنّه لا يَنالها الماء، فقال عليّ عليه السلام: «بل اشتريتها ورَضِيتها وقَبَضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك» ودعاه إلى أن يُخاصمه إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال المُغيرة: أمّا محمّد فلست آتيه ولا اُحاكم إليه، فانّه يُبغضني، وإنيّ أخاف أن يَحيفَ عليّ، فنزلت[2].

وعن (المجمع)، وعن البَلْخي، قال: كانت بين عليّ وعثمان منازعة في أرضٍ اشتراها من عليّ عليه السلام فخرجت فيها احجار، فأراد ردّها بالعيب، فلم يأخُذها، فقال: بيني وبينك رسول الله صلّى الله عليه وآله. فقال الحكم بن أبي العاص: إن حاكمته إلى ابن عمّه حَكَم له، فلا تحاكمه إليه، فنزلت. قال: وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام، أو قريب منه[3].

وعن الصادق عليه السلام: نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وعثمان، وذلك أنّه كان بينهما منازعة في حديقة، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: نرضى برسول الله صلّى الله عليه وآله. فقال عبدالرحمن بن عوف لعثمان: لا تُحاكمه إلى رسول الله، فانّه يحكم له عليك، ولكن حاكمه إلى ابن شيبة[4] اليهودي. [فقال لأمير المؤمنين عليه السلام: لا

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠، تفسير روح البيان ٦: ١٦٩.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠.
٣. مجمع البيان ٧: ٢٣٦، تفسير الصافي ٣: ٤٤٢.
٤. في تفسير القمي: ابن أبي شيبة.

أرضى إلّا بابن شيبة اليهودي]. فقال ابن شيبة لعثمان: تأتمنون محمداً على وحي السماء، وتتّهمونه في الأحكام؟! فأنزل الله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآيات[1].

أَفِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ ٱللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ * وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [٥٠ـ٥٣]

ثمّ بيّن سبحانه نهاية شناعة إعراضهم ببيان انحصار علّته في أحد الأمور التي كلّها من أشنع الشنائع بقوله: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ من الكفر والنفاق من أول الأمر ﴿أَمِ ٱرْتَابُوا﴾ وشكّوا في رسالة الرسول بعد اليقين بها ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللهُ﴾ ويجوز ﴿عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ في حكمهما، وليس أحد الأمرين مع تحقّقهما فيهم، لأنّهما مقتضيان لعدم اتيانهما إليه، ولو كانوا محقّين، ولا الثالث لوضوح أمانة الرسول وعدم اغماضه عن الحق عندهم ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ﴾ المعرِضون ﴿هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ على المحقّين، المُصرّون على البغي على الناس.

ثمّ بيّن سبحانه صفة المؤمنين المُخلَصين بقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المُخلَصين ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ﴾ الرسول ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين خصومهم، ولو كانوا من غيرهم ﴿أَن يَقُولُوا﴾ للداعين ﴿سَمِعْنَا﴾ دعاءكم ﴿وَأَطَعْنَا﴾ه بالاجابة والقَبول ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والفائزون بجميع المطالب الدنيوية والأُخروية، الناجون من كلّ محذور.

عن الباقر عليه السلام: «إنّ المعنيّ بالآية أمير المؤمنين عليه السلام»[2].

ثمّ أكّد سبحانه وجوب طاعة الرسول بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في ما ساءه، وسرّه، ونفعه وضرّه ﴿وَيَخْشَ ٱللهَ﴾ في ما مضى من ذنوبه أن يُؤاخذه عليه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ ويحذره في ما بقي من عمره ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المُطيعون الخاشعون المتّقون ﴿هُمُ ٱلْفَائِزُونَ﴾ بالفيوضات الأبدية والنِّعم الدائمة.

قيل: إنّ مَلِكاً سأل علماء عصره عن آيةٍ في القرآن إن عَمِل بها عَمِل بجميع القرآن، فاتّفق العلماء

---

١. تفسير القمي ٢: ١٠٧، تفسير الصافي ٣: ٤٤٢.
٢. مجمع البيان ٧: ٢٣٧، تفسير الصافي ٣: ٤٤٢.

على هذه الآية[1] حيث إنّها على إيجازها حاوية لجميع ما ينبغي للمؤمن أن يفعله.

ثمّ لمّا بيّن سبحانه استنكاف المنافقين عن إطاعة الرسول والانقياد لحكمه، حكى حلفهم الكاذب على طاعتهم له بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وحلفوا أشدّ حَلْفهم تقويةً لما أخبروا به من قولهم: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ بالخروج ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾.

عن مقاتل لمّا بيّن الله تعالى كراهة المنافقين لحكم الرسول فقالوا: والله لئن امرتنا ان نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا[2].

ثمّ أمر سبحانه رسوله ﷺ نهيهم عن هذا القسم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿لَّا تُقْسِمُوا﴾ على ما تقولون غَدراً ونفاقاً، فانّ المطلوب منكم ﴿طَاعَةٌ﴾ للرسول ﴿مَّعْرُوفَةٌ﴾ لكلّ أحدٍ بالأفعال والإخلاص وصِدق النيّة، لا اليمين الكاذبة. أو المعنى طاعةٌ معروفةٌ أمثل من قَسَمكم بما لا تصدّقون فيه، أو المعنى دعوا القسم فانّ عليكم طاعةً معروفةً فتمسّكوا بها، أو طاعتكم طاعة نفاقية فانّها معروفةٌ منكم لكلّ أحدٍ ﴿إِنَّ ٱللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الغدر والنفاق لا يخفى عليه سرائركم، وإنّه فاضحكم ومجازيكم على نفاقكم.

قُلْ أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ[٥٤]

ثمّ بالغ سبحانه في وجوب طاعته وطاعة رسوله بقوله: ﴿قُلْ﴾: يا محمّد لهؤلاء المنافقين ﴿أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾ في جميع الفرائض والسنن من صميم القلب وصدق الإيمان برجاء الفوز والفلاح.

ثمّ صرف سبحانه الكلام عن الغيبة إلى الخطاب إبلاغاً في تبكيتهم بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وتُعرِضوا عن الطاعة الحقيقية لله والرسول ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ صلى الله عليه وآله ﴿مَا حُمِّلَ﴾ وكُلّف به من تبليغ الرسالة ﴿وَعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُمْ﴾ وكُلّفتم من الإجابة والطاعة، فإن لا تطيعوه فقد بقيتم تحت هذا الحمل والثقل، وبقيت عليكم تَبِعاته ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ في ما أمركم به ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى جميع الخيرات الأبدية التي هي أقصى المطالب، وتخلّصوا من الشرور والمهالك ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ المُكرم ﴿إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾ والتبليغ الواضح الموضّح لجميع ما تحتاجون إليه، وقد فعل وليس عليه إجباركم على الطاعة، وإنّما بقي ما حُمّلتم، فان أدّيتم فلكم، وإن تولّيتهم فعليكم.

---

١. الكشاف ٣: ٢٥٠، تفسير روح البيان ٦: ١٧١.   ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣.

عن الصادق عليه السلام ـ في خطبة في وصف النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «وأدّى ما حُمّل من أثقال النبوة»[١].

وعن الباقر عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله يا معاشر قُرّاء القرآن، أتّقوا الله عزّ وجلّ في ما حمّلكم من كتابه، فإنّي مسؤول وإنّكم مسؤولون، إنّي مسؤول عن تبليغ الرسالة، وأمّا أنتم فتُسألون عمّا حُملّتم من كتاب الله وسُنّتي»[٢].

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ[٥٥]

ثمّ لمّا وصف سبحانه المؤمنين بالطاعة والانقياد للرسول صلى الله عليه وآله وحرّض الناس عليه، وعد من جمع بين الايمان والعمل بالأحكام بغاية الإعزاز والاكرام في الدنيا بقوله: ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ**﴾ أيها الناس ﴿**وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ**﴾ من أداء الواجبات وترك المحرّمات مؤكّداً وعده بالقسم بذاته المقدسة، إنّه ﴿**لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ**﴾ وليجعلنّهم متصرّفين ﴿**فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ تصرّف الملوك في ممالكهم، ومسّلطين عليها سلطنة السلاطين في أقاليمهم ﴿**كَمَا ٱسْتَخْلَفَ**﴾ المؤمنين ﴿**ٱلَّذِينَ**﴾ كانوا ﴿**مِن قَبْلِهِمْ**﴾ في زمن داود وسليمان وغيرهما ﴿**وَلَيُمَكِّنَنَّ**﴾ وليَسهّلنّ ﴿**لَهُمْ**﴾ بالتوفيق والتأييد ﴿**دِينَهُمُ**﴾ والعمل بأحكام شرعهم ﴿**ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ**﴾ واختار ﴿**لَهُمْ**﴾ من غير مانع ومزاحم ﴿**وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ**﴾ من الأعداء ﴿**أَمْناً**﴾ من ضرّهم وشرّهم، بأن ينصّرهم عليهم، فيقتلونهم ويستريحون من كيدهم وبأسهم، فعند ذلك ﴿**يَعْبُدُونَنِى**﴾ آمنين و ﴿**لَا يُشْرِكُونَ بِى**﴾ في عبادتي ﴿**شَيْئاً**﴾ ولا يتقون في العمل بأحكامي أحداً ﴿**وَمَن كَفَرَ**﴾ وارتدّ عن الدين المرضي له، أو ثبت على كفره، أو جحد حقّ هذه النِّعمة ﴿**بَعْدَ ذَٰلِكَ**﴾ الترغيب والترهيب ﴿**فَأُولَٰئِكَ**﴾ الكافرون ﴿**هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ**﴾ والكاملون في الخروج عن حدود العقل والشرع.

قيل: إنّ الله انجز هذا الوعد بعد هجرة النبيّ صلى الله عليه وآله إلى المدينة، فانّ أصحابه كانوا قبل الهجرة في أكثر من اثنى عشر سنة[٣] خائفين من الكفار، فلمّا هاجروا كانوا يُصبحون ويُمسون في السلاح حتى

---

١. الكافي ١: ١٧/٣٦٩، تفسير الصافي ٣: ٤٤٣. ٢. الكافي ٢: ٩/٤٤٣، تفسير الصافي ٣: ٤٤٣.

٣. في تفسيري البيضاوي وروح البيان: من عشر سنين.

أظهرهم الله على العرب كلّهم، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب[١]، فدلّت الآية على صحة نبوّة النبي ﷺ: لأنّ فيهاإخباراً بالغيب، لوقوع ما أخبر في الخارج مطابقاً للخبر[٢].

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: «هم الائمة عليهم السلام»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «ولقد قال الله عزّ وجلّ في كتابه لولاة الأمر من بعد محمّد ﷺ خاصة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾ يقول: أستخلفكم لعلمي وديني وعبادتي بعد نبيكم، كما استخلفت[٤] وُصاة آدم من بعده حتى يُبعَث النبيّ الذي يليه، يعبُدونني بإيمانٍ بأنّه لا نبيّ بعد محمّد ﷺ، فمن قال غير ذلك فأولئك هم الفاسقون، فقد مكّن ولاة الأمر بعد محمّد ﷺ بالعلم، ونحن هم، فاسألونا فان صدقناكم فأقرّوا، وما أنتم بفاعلين»[٥].

والقمي: نزلت في القائم من آل محمّد عليهم السلام[٦].

وعن (المجمع): المروي عن أهل البيت عليهم السلام: «انها في المهدي من آل محمّد عليهم السلام»[٧].

وعن العياشي، عن علي بن الحسين عليهما السلام: أنه قرأ الآية وقال: «هم والله شيعتنا أهل البيت، يفعل [الله] ذلك بهم على يدي رجلٍ منّا، وهو مهدي هذه الأمّة، وهو الذي قال رسول الله ﷺ: لو لم يبقَ من الدنيا إلّا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي رجلٌ من عِترتي اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظُلماً وجَوراً»[٨].

وعن الصادق عليه السلام في رواية، قال الراوي: قلت: يابن رسول الله فانّ هذه النواصب تزعُم أنّ هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي عليه السلام؟ فقال: «لا يهدي [الله] قلوب النواصب، متى كان الدين الذي ارتضاه الله ورسوله ﷺ متمكناً بانتشار الأمن[٩] في الأمّة، وذَهاب الخوف من قلوبها، وارتفاع الشكّ من صدورها في عهدٍ واحدٍ من هؤلاء؟ وفي عهد علي عليه السلام مع ارتداد المسلمين والفتن التي كانت تَثُور في أيامهم، والحروب التي كانت تَنْشَب بين الكفّار وبينهم؟»[١٠].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديث ذكر [فيه] مثالب الثلاثة وإمهال الله إيّاهم - قال: «كلّ ذلك لتتِمّ النَّظِرة التي أوجبها الله تعالى لعدوه إبليس إلى أن يبلُغ الكتاب أجله، ويُحق القول على الكافرين

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ١٣٠، تفسير روح البيان ٦: ١٧٤.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٤ المسألة السادسة.
٣. الكافي ١: ٣/١٥٠، تفسير الصافي ٣: ٤٤٣.
٤. في الكافي وتفسير الصافي: استخلف.
٥. الكافي ١: ٧/١٩٥، تفسير الصافي ٣: ٤٤٣.
٦. تفسير القمي ١: ١٤، تفسير الصافي ٣: ٤٤٤.
٧. مجمع البيان ٧: ٢٣٩، تفسير الصافي ٣: ٤٤٤.
٨. مجمع البيان ٧: ٢٣٩، تفسير الصافي ٣: ٤٤٤، عن العياشي.
٩. في النسخة: الأمر.
١٠. كمال الدين: ٥٠/٣٥٦، تفسير الصافي ٣: ٤٤٤.

ويقرُب الوعد[١] الذي بيّنه الله في كتابه بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ إلى آخره، وذلك إذا لم يبق من الاسلام إلّا اسمه، ومن القرآن إلّا رسمه، وغاب صاحب الأمر باتّضاح العُذر[٢] له في ذلك، لاشتمال الفتنة على القلوب، حتى يكون الأقرب إليه أشدّ[٣] عداوةً له، وعند ذلك يُؤيّده الله بجنودٍ لم تَرَوها، ويُظهِر دين نبيه ﷺ على يديه، ويُظهِره على الدين كلّه ولو كره المشركون»[٤].

وَأَقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ[٥٦ و ٥٧]

ثمّ أنه تعالى بعد وعد المؤمنين بالاستخلاف والتمكين لهم، حثّ إلى الأعمال الصالحات التي أهمّها الصلاة والزكاة وطاعة الرسول بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾ في جميع أحكامه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ثمّ هدّد سبحانه الكافرين بقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ ولا تتوهّمن يا أيّها النبي والمؤمنون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ الله عن إدراكهم وإهلاكهم ﴿فِى﴾ قُطر من أقطار ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بما رَحُبت، وإن هربوا كلّ مَهرَب، بل هم مقهورون تحت قُدرته في كلّ آنٍ وحالٍ ومكانٍ في الدنيا ﴿وَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ﴾ في الآخرة، ﴿وَ﴾ بالله ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمَرجع تلك النار لهم.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُم مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِن ٱلظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ ٱلْعِشَاءِ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمُ ٱلآيَاتِ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[٥٨]

ثمّ أنه تعالى بعد بيان جملةٍ من أحكام التعفّف والحثّ على امتثالها بالوعد والوعيد، عاد إلى بقية تلك الأحكام بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الرجال والنساء ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ﴾ في الدخول عليكم ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد، أو العبيد والجواري ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ يميّزون بين العورة وغيرها من

---

١. في الاحتجاج: ويقترب الوعد الحق.
٢. في الاحتجاج: بإيضاح الغدر.
٣. في الاحتجاج: أقرب الناس إليه أشدهم.
٤. الاحتجاج: ٢٥٦، تفسير الصافي ٣: ٤٤٥.

الصبيان الذين ﴿لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ﴾ ولم يصلوا إلى حدّ البلوغ ﴿مِنكُمْ﴾ أيها الأحرار ﴿ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ في اليوم والليلة في أوقات تَكرَهون أن يمرّ عليكم فيها أحد.

أحدها: الوقت الذي يكون ﴿مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ﴾ فانّه وقت القيام من المضاجع وخَلْع ثياب النوم، ولُبس[1] ثياب اليقظة.

﴿وَ﴾ الثاني: ﴿حِينَ تَضَعُونَ﴾ وتخلعون ﴿ثِيَابَكُمْ﴾ التي تلبسونها في النهار ﴿مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ وشدّة الحرّ لأجل القيلولة، وهي بعد انتصاف النهار.

وقيل: ﴿مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين[2]، والمعنى وقت الظهر، وإنّما عبّر عن الوقت بمِلاك الأمر، وهو وضع الثياب والتجرّد دون الوقت الأول الثالث لمعروفيتهما به دون الوسط.

والثالث: الوقت الذي يكون في الليل حين النوم ﴿وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ فانّه وقت التجرّد عن اللباس والدخول في فراش النوم والالتحاف باللّحاف، فتلك الأوقات ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾ وأوقات تكون ﴿لَكُمْ﴾ يختلّ فيها التستّر بحسب العادة.

ثمّ صرّح سبحانه بالترخيص في الدخول بغيرالاستئذان للمماليك والصبيان الأحرار بعد كلّ واحدٍ من تلك الأوقات، وكأنّه قيل: ما حكم الأوقات الأخر؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ﴾ وحرَج أو إثم ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ في الدخول بغير الاستئذان، لعدم ما يوجبه من الاطّلاع على العورات، مع أنّ المماليك والصبيان ﴿طَوَّافُونَ﴾ ودوّارون ﴿عَلَيْكُم﴾ للخدمة بل ﴿بَعْضُكُمْ﴾ طائفٌ ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هم يَطُوفون عليكم للخِدمة، وأنتم تَطُوفون عليهم للاستخدام والتربية فالاستئذان بعد الضرورة إلى المخالطة مستلزمٌ للحَرج والضِيق، ولمّا كان الطّواف شاملاً للفريقين، لم يكتفِ سبحانه بقوله: ﴿طَوَّافُونَ﴾ بل أبدل من ﴿طَوَّافُونَ﴾ بقوله: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهذا الأمر بالنسبة إلى البالغين تكليفٌ، وبالنسبة إلى الصبيان تمرينٌ.

ثمّ أظهر سبحانه المِنّة على الناس بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التبيّن ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على المعارف والأحكام، ويُنزلها واضحة الدلالة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ومصالحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وتشريع أحكامه.

رُوي أن غُلاماً لأسماء بنت أبي مَرْثَد دخل عليها في وقت كَرِهته فنزلت[3].

وقيل: إنّه أرسل رسول الله ﷺ مُدلِج بن عمرو الأنصاري وقت الظهيرة ليدعو عمر، وكان غلاماً،

---

١. في النسخة: اليوم، وليس.
٢. تفسير روح البيان ٦: ١٧٥.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ٢٩، تفسير أبي السعود ٦: ١٩٣.

فدخل عليه وهو نائمٌ قد انكشف عنه ثوبه، فقال عمر: لوددت أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلّا بإذنٍ، ثمّ انطلق معه إلى رسول الله ﷺ فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية[١].

روى عكرمة: أن رجلين من أهل العراق سألا ابن عباس عن هذه الآية، فقال: إنّ الله ستيرٌ يُحب السِّتر، وكان الناس لم يكن لهم سُتور على أبوابهم ولا حِجال في بيوتهم، فربّما فاجأ الرجل ولده أو خادمه أو يتيماً في حِجره، ويرى منه ما لا يُحبه، فأمرهم الله تعالى أن يستأذنوا الثلاث ساعات التي سمّاها، ثمّ جاء باليسر وبسط الرزق عليهم، فاتخذوا السُّتور والحجال، فرأى الناس أنّ ذلك [قد] كفاهم عن الاستئذان الذي اُمروا به[٢].

عن الصادق عليه السلام قال: «ليستأذن عليك بعد العشاء التي تُسمّى عَتَمة، وحين تُصبح، وحين تَضَعُون ثيابكم من الظهيرة، إنّما أمر الله عزّ وجلّ بذلك للخَلْوة وإنّها ساعات غِرّة وخَلْوَة»[٣].

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَالُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا ٱسْتَأْذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمْ آيَاتِه وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[٥٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حكم غير البالغين من الأطفال، ونفي الجُناح في الدخول بغير الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة، بيّن حكم البالغين منهم بقوله: **﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَالُ﴾** الأحرار الكائنين **﴿مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾** وحدّ البلوغ، وأرادوا الدخول عليكم في وقتٍ من الأوقات **﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾** منكم فيه **﴿كَمَا ٱسْتَأْذَنَ﴾** الأحرار **﴿ٱلَّذِينَ﴾** بلغوا الحُلم **﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾** والذين ذكروا من قبل، ذكرهم بقوله: **﴿لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾**[٤].

ثمّ أكّد سبحانه تفخيم آياته والأمر بالاستئذان بقوله: **﴿كَذٰلِكَ﴾** التبيّن **﴿يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمْ آيَاتِه وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**.

عن الصادق عليه السلام قال: «ليستأذن الذين ملكت أيمانكم، والذين لم يبلغوا الحُلم منكم ثلاث مرات كما أمركم الله». قال: «ومن بلغ منكم الحُلم فلا يَلِج على اُمّه، ولا على اُخته، ولا على خالته ـ وفي رواية عن الباقر عليه السلام بدل الخالة الابنة[٥] ـ ولا على من سوى ذلك إلّا بإذن؛ ولا تأذنوا حتى تسلّموا، فانّ السلام طاعة لله عزّ وجلّ» وقال: «ليستأذن عليك خادمك إذا بلغ الحُلم في ثلاث عورات، إذا

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ١٩٣.
٢. تفسير روح البيان ٦: ١٧٦.
٣. الكافي ٥: ١/٥٢٩.
٤. النور: ٢٤/٢٧.
٥. الكافي ٥: ٣/٥٣٠.

دخل في شيءٍ منهنّ، ولو كان بيته في بيتك» الخبر[١].

وتخصيص الأمر بالاستئذان بالأحرار يدلّ على أن الأرقّاء البالغين كغير البالغين في اختصاص الاستئذان بالأوقات الثلاثة لبقاء العلّة.

وقيل: إنّ الرقّ البالغ مَحْرَم على مولاته، يجوز له النظر إلى ما يجوز للمحارم[٢]، وادّعى جمعٌ من الأصحاب الاجماع على عدم مَحْرَميّته، وادّعى بعضٌ أنّ الآية منسوخةٌ، كما عن بن جبير وغيره وهو باطلٌ[٣].

وَٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ٱللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَٱللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[٦٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد أمر النساء بالتعفّف والسّتر من البالغين، رخّص للنساء العجائز كشف الرأس والوجه، ووضع القِناع والجِلْباب بقوله: ﴿وَٱلْقَوَاعِدُ﴾ عن الولد والحيض والزوج ﴿مِنَ ٱلنِّسَاءِ﴾ العجائز ﴿ٱللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾ ولا يطمعون في آن يتزوّجهنّ الرجال لكبرهنّ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ وإثم في ﴿أَن يَضَعْنَ﴾ ويُلقين عند الرجال وفي مرآهم ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ الساترة لرؤوسهن وشُعورهنّ كالجِلباب والإزار والقِناع، حال كونهن ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ﴾ ومنكشفات للرجال مصاحبات ﴿بِزِينَةٍ﴾ ومحاسن اُمرن أن يُخفينها من الرجال كالسِّوار والخَلْخَال والقِلادة، وغير مُظهرات لها لعدم خوف الفتنة في حقّهن.

عن الصادق عليه السلام: «أنه قرأها فقال: الجِلباب والخِمار إذا كانت المرأة مُسنّة»[٤].

وعنه عليه السلام، قال: «الخِمار والجِلْبَاب». قيل: بين يدي من كان؟ فقال: «بين يدي من كان»[٥].

وفي رواية اُخرى: «تَضع الجلباب وحده»[٦]، [وفي اُخرى]: «إلّا أن تكون أمَةً، فليس عليها جُناح أن تضع خِمارها»[٧].

وعن الرضا عليه السلام، قال: «أي غير[٨] الجِلْبَاب» قال: «فلا بأس بالنظر إلى شُعور مثلهنّ»[٩].

أقول: حاصل المراد أنهنّ إذا خرجن من بيوتهنّ بالزّينة التي يجب سَترها من الحُليّ وثياب التجمّل، يجب عليهنّ أخذ الجلباب، لأنّ هذا النحو من الخروج يدلّ على أنّهن متبرّجات وداعيات

---

١. الكافي ٥: ١/٥٢٩. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٨. ٣. الكشاف ٣: ٢٥٤.
٤. الكافي ٥: ٤/٥٢٢، تفسير الصافي ٣: ٤٤٧. ٥. الكافي ٥: ١/٥٢٢، تفسير الصافي ٣: ٤٤٧.
٦. الكافي ٥: ٢/٥٢٢، تفسير الصافي ٣: ٤٤٧. ٧. التهذيب ٧: ١٩٢٨/٤٨٠، تفسير الصافي ٣: ٤٤٧.
٨. في النسخة: عنى. ٩. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/٩٨، تفسير الصافي ٣: ٤٤٧.

للشبّان إلى التفرّج، لا طالبات لحاجتهنّ، وإذا خرجن بغير زينةٍ فلا جُناح عليهنّ أن يضعن الجِلباب والبُرد والقِناع ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ بترك الوضع ويَسْتَتِرن بالجِلباب ونظائره ﴿خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ من الوضع لبعده عن التهمة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يجري بينهنّ وبين الرجال من المقال ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائرهنّ ومقاصدهنّ.

لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمُ ٱلآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[٦١]

ثمّ لمّا نفى سبحانه الجُناح عن المرأة المسنّة في وضع الثياب، نفى الحرج عن أصنافٍ في ترك العمل ببعض التكاليف بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ ووَبال وإثم ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾ والزَمِن ﴿حَرَجٌ وَلاَ عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في ترك الجهاد على قول[١] أو في مؤاكلة الأصحّاء على آخر[٢].

قيل: إنهم كانوا يمتنعون من مؤاكلة الأصحّاء، أما الأعمى فلاحتمال أكله الأجود وتركه الاردأ للمبصر، وأما الأعرج فلا احتمال تضييق المكان على جليسه لاحتياجه إلى مكان زائد، وأما المريض فلاحتمال تأذّي الصحيح من مجالسته لمرضه، أو كانوا جميعاً يتحذّرون من استقذار الأصحّاء إياهم[٣].

وقيل: إنّ الأصحّاء كانوا لا يأكلون مع الفِرق الثلاث، لأنّ الأعمى لا يُبصر الطعام الجيد فلايأخُذه، والأعرج لا يستطيع الجلوس فيأكُل هو لقمة ويأكُل غيره لقمتين، والمريض لا يُمكنه أن يأكُل كما يأكُل الصحيح[٤]، وعلى هذا الوجه يكون (على) بمعنى (في) ولابدّ من تقدير المضاف، والمعنى ليس في مؤاكلة الأعمى حرج.

وعن عبيدالله بن عبدالله: أنّ المسلمين كانوا إذا غزوا خلّفوا زَمناهم[٥]، وكانوا يُسلّمون إليهم مفاتيح

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥، تفسير روح البيان ٦: ١٧٩.

٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.

٥. أي مرضاهم.

أبوابهم، ويقولون [لهم]: قد أحللنا لكم أن تأكُلوا ممّا في بيوتنا، فكانوا يتحرّجون من ذلك، وقالوا: لن ندخُلها وهم غائبون، فنزلت الآية رُخصة لهم[١].

وعن ابن عباس، نزلت في الحارث بن عمرو، وذلك أنّه خرج مع رسول الله ﷺ غازياً، وخلّف مالك[٢] بن زيد على أهله، فلمّا رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله، فقال: تحرّجت أن آكل من طعامك بغير إذنك[٣].

وعن الباقر عليه السلام في هذه الآية. قال: «وذلك أنّ أهل المدينة قبل أن يُسلموا كانوا يعتزلون[٤] الأعمى والأعرج والمريض، وكانوا لا يأكُلون معهم، وكان الأنصار فيهم تَيهٌ[٥] وتَكَرُّم[٦]، فقالوا: إنّ الأعمى لا يُبصِر الطعام، والأعرج لا يستطيع الزِّحام على الطعام، والمريض لا يأكُل كما يأكُل الصحيح، فعزلوا لهم طعامهم على ناحيةٍ، وكانوا يَرون [عليهم] في مؤاكلتهم جُناحاً، وكان الأعمى والأعرج والمريض يقولون: لعلّنا نؤذيهم إذا أكلنا معهم، فاعتزلوا من مؤاكلتهم» الخبر[٧].

ثمّ أباح سبحانه للناس الأكل من بيوت أزواجهم وأولادهم وأقاربهم بقوله: **﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾** حرجٌ في **﴿أَن تَأْكُلُوا مِنْ﴾** بيوتِ أزواجكم وأولادكم التي هي بمنزلة **﴿بُيُوتِكُمْ﴾** لشدّة الاتصال بينكم وبينهم **﴿أو﴾** من **﴿بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ﴾** من **﴿بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ﴾** من **﴿بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ﴾** من **﴿بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ﴾** من **﴿بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ﴾** من **﴿بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ﴾** من **﴿بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ﴾** من **﴿بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ﴾** من **﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾** وتملّكتم التصرّف فيه باذن ربّه **﴿أَوْ﴾** من بيت **﴿صَدِيقِكُمْ﴾**.

قيل: كان المؤمنون يذهبون بالضُّعفاء وذوي العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وقراباتهم وأصدقائهم، فيُطعمونهم منها، فلمّا نزل قوله تعالى: **﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً﴾**[٨] فعند ذلك أمتنع الناس أن يأكُل بعضهم من طعام بعض فنزلت[٩].

وقيل: كانت الأنصار في أنفسهم قَزازة[١٠]، وكانوا لا يأكُلون من هذه البيوت إذا استغنوا[١١].

وقيل: كان الرجل يدخُل بيت أبيه، أو بيت أخيه، أو أُخته، فتَتْحِفه المرأة بشيءٍ من الطعام، فيتحرّج

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.
٢. في تفسير الرازي: بن مالك.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.
٤. في تفسير القمي: يعزلون.
٥. التَيّة: التكبر.
٦. في تفسير القمي: تكرمة.
٧. تفسير القمي ٢: ١٠٨، تفسير الصافي ٣: ٤٤٨.
٨. زاد في تفسير الرازي: أي بيعاً، والآية من سورة النساء: ٤/٢٩.
٩. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.
١٠. التقزّز: التباعد عن المعايب والمعاصي ترفّعاً وتنزّهاً.
١١. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.

لأنّه ليس ثَمّ ربّ البيت[١].

وعن الصادق عليه السلام قال: «الرجل [يكون] له وكيل يقوم في ماله، فيأكُل بغير إذنه»[٢].

وعن أحدهما عليهما السلام، قال: «ليس عليك جُناح فيما أطعمت أو أكلت ممّا ملكت مفاتِحَه ما لم تفسده»[٣].

وعن (المجمع) عن أئمة الهدىٰ عليهم السلام أنهم قالوا: «لا بأس بالأكل لهؤلاء مِن بيوت مَن ذكره الله تعالى[٤] قدر حاجتهم من غير إسرافٍ»[٥].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل: ما يعني بقوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾؟ قال: «هو والله الرجل يدخُل بيت صديقه فيأكُل بغير إذنه»[٦].

وعنه عليه السلام: «هؤلاء الذين سمّى الله عزّ وجلّ في هذه الآية، تأكل بغير إذنهم من التمر والمأدوم، وكذلك طَعْم المرأة من منزل زوجها بغير إذنه، فأما ما خلا ذلك من الطعام فلا»[٧].

وعنه عليه السلام قال: «للمرأة أن تأكل وأن تتصدّق، وللصديق أن يأكُل من منزل أخيه ويتصدّق»[٨].

ثمّ لمّا ذكر أن الأنصار كانوا يتحرّجون من مؤاكلة الأصناف الثلاثة ويَعزِلون لهم طعامهم على ناحيةٍ، وهم أيضاً كانوا يتحرّجون من مؤاكلة الأصحّاء خوفاً من تأذيّهم، نفىٰ الله الجُناح في مؤاكلتهم بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأصحّاء وذوي العاهات ﴿جُنَاحٌ﴾ في ﴿أَن تَأْكُلُوا﴾ الطعام ﴿جَمِيعاً﴾ ومجتمعين ﴿أَوْ أَشْتَاتاً﴾ ومتفرّقين.

عن ابن عباس: أنّهانزلت في بني ليث بن عمرو، وهم حيّ من كِنانة، كانوا يتحرّجون أن يأكلوا طعامهم منفردين، وكان الرجل لا يأكُل، ويمكُث يومه حتى يجد ضيفاً يأكُل معه، فإن لم يجد مَن يُؤاكله لم يأكُل شيئاً، وربما قعد الرجل والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الرَّواح، وربما كان معه الإبل المملوّة الضَّرع لبناً، فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يُشاربه، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل، فرخّص الله في هذه الآية الأكل وحده[٩].

وقيل: إنّ الأنصار كانوا إذا نزل بواحدٍ منهم ضيفٌ، لم يأكُل إلّا وضيفه معه، فرخّص الله لهم أن

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.
٢. الكافي ٦: ٥/٢٧٧، تفسير الصافي ٣: ٤٤٩.
٣. الكافي ٦: ٤/٢٧٧، تفسير الصافي ٣: ٤٤٩.
٤. زاد في المصدر: بغير إذنهم.
٥. مجمع البيان ٧: ٢٤٦، تفسير الصافي ٣: ٤٤٩.
٦. الكافي ٦: ١/٢٧٧، تفسير الصافي ٣: ٤٤٩.
٧. الكافي ٦: ٢/٢٧٧، تفسير الصافي ٣: ٤٤٩.
٨. الكافي ٦: ٣/٢٧٧، تفسير الصافي ٣: ٤٤٩.
٩. تفسير الرازي ٢٤: ٣٧، تفسير أبي السعود ٦: ١٩٦، تفسير روح البيان ٦: ١٨١.

يأكُلوا كيف شاءوا مجتمعين أو متفرّقين[١].

وقيل: إنّهم كانوا يأكُلون فُرادى خوفاً من أن يحصُل عند الجمعية ما يُنفّر أو يؤذي فنفي[٢] الله الجُناح في أن يأكُلوا معاً[٣].

ثمّ إنّه تعالى بعد الإذن في الأكل من البيوت المذكورة، بيّن آداب الدخول فيها بقوله: **﴿فَإِذَا دَخَلْتُم﴾** أيّها المسلمون **﴿بُيُوتاً﴾** من البيوت المذكورة **﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ﴾** أهلها الذين هم بمنزلة **﴿أَنفُسِكُمْ﴾** لما بينكم وبينهم من القرابة النسبية والدينية الموجبة لذلك.

عن الباقر عليه السلام: «هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخُل، ثمّ يردُّون عليه، فهو سلامكم على أنفسكم»[٤] فانّ السلام يكون **﴿تَحِيَّةً﴾** وتَكرُمة، أو المعنى فحيّوا تحيةً تكون **﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾** ومشروعةً من لَدُنه مأموراً بها من قبله، وتكون **﴿مُبَارَكَةً﴾** ومستتبعة لزيادة الخيرات والبركات في الدنيا والثواب في الآخرة، وتكون أيضاً **﴿طَيِّبَةً﴾** تَطيب بها نفس المستمع.

عن النبي صلّى الله عليه وآله - في حديث - «إذا دخلت بيتاً[٥] فسلّم عليهم، يكثُر خير بيتك»[٦].

عن الباقر عليه السلام، قال: «إذا دخل الرجل منكم بيته، فان كان فيه أحدٌ فليُسلّم عليه[٧]، وإن لم يكن فيه أحدٌ فليقل: السلام علينا من عند ربّنا يقول الله: تحية من عند الله مباركة طيبة»[٨].

عن ابن عبّاس: من قال: السلام عليكم، [معناه] اسم الله عليكم[٩].

وعن الطبرسي: وصفها بالبركة والطيب لأنّها دعوة مُؤمنٍ لمُؤمن يرجو بها[١٠]. زيادة الخير وطيب الرزق[١١].

ثمّ مَنّ سبحانه على العباد بإيضاح الأحكام الفخيمة بقوله: **﴿كَذَٰلِكَ﴾** التبيين **﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** وتَفْهَمون ما في تضاعيفها من الأحكام، وتعملون بها وتحوزون به سعادة الدارين.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٤: ٣٧.
٣. في النسخة: يأكُلوا معه.
٤. معاني الأخبار: ١/١٦٢، تفسير الصافي ٣: ٤٥٠.
٥. في تفسيري أبي السعود وروح البيان: بيتك.
٦. تفسير أبي السعود ٦: ١٩٧، تفسير روح البيان ٦: ١٨٢، وفيه: يكثر خيرك.
٧. في تفسير القمي: يسلم عليهم.
٨. تفسير القمي ٢: ١٠٩، تفسير الصافي ٣: ٤٥٠.
٩. تفسير الرازي ٢٤: ٣٨.
١٠. زاد في جوامع الجامع: من الله.
١١. جوامع الجامع: ٣١٩، تفسير الصافي ٣: ٤٥٠.

وَرَسُولِهِ فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[٦٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان آداب الدخولِ في البيوت والورود على الأهل، بيّن آداب الخروج من عند الرسول بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الخالصون في الايمان الصادقون في تصديق الرسول هم ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب ﴿بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ وأطاعوهما في جميع الأحكام واتّبعوا الرسول ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ مجتمعين ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وفي خَطبٍ مهمّ موجبٍ لاجتماع المؤمنين عليه، كالتشاور في أمر عظيم، ومقاتلة الأعداء والجمعة والأعياد ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا﴾ من عنده، ولم يخرُجوا من محضره ﴿حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ ولم يتفرّقوا عنه حتى يستجيزوا منه، ويأذن لهم ويُخبرهم، فانّ الاستئذان وأخذ الإذن منه ﷺ مميّزٌ المُخلص من المنافق. ثمّ أكّد سبحانه ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ يا محمّد، تعظيماً لك ورعايةً للأدب[١] ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ حقاً، لا الذين لا يستأذنون لأنهم عملوا بوظيفة الإيمان، فاذا عَلِمت أنّ المستأذنين هم المخلصون في الإيمان ﴿فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ﴾ في الخروج والانصراف من عندك ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ المهمّ وخَطبهم العظيم الملمّ ﴿فَأْذَن﴾ أيّها الرسول ﴿لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ ورأيت الصلاح في الإذن له، ولا اعتراض عليك ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾ بعد الإذن ﴿لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ فانّ الاستئذان ـ وإن كان للأمر المهمّ ـ لا يخلو عن شائبة ترجيح أمرِ الدنيا على الآخرة، كما استأذن عمر في غزوة تبوك رسول الله ﷺ في الرجوع إلى أهله، فأذِن له[٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفَرَطات العباد ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

قيل: نُسِخت الآية بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[٣] وفيه ما لا يخفى من الضّعف.

قيل: كان النبي ﷺ يعرِض في خطبته بالمنافقين ويعيبهم، فينظُر المنافقون يميناً وشمالاً، فإذا راوا أنّ المسلمين لايرونهم انسلّوا وخرجوا ولم يُصلّوا، وإن رأوا أنهم يرونهم ثبتوا وصلّوا خوفاً فنزلت، فكان بعد نزول الآية لا يخرُج المؤمن لحاجةٍ حتى يستأذن رسول الله ﷺ، وكان المنافقون يخرُجون بغير إذن[٤].

وقيل: نزلت في حَفْر الخندق[٥]. وكان المنافقون ينصرفون بغير أمر رسول الله ﷺ، وكان الحَفْر من أهمّ الأمور حتى حفر رسول الله ﷺ بنفسه.

---

١. في النسخة: الأدب. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٣٩، تفسير روح البيان ٦: ١٨٣.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ٣٩، والآية من سورة التوبة: ٤٣/٩. ٤. تفسير الرازي ٢٤: ٣٩.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ٤٠.

وعن القمي: نزلت في حنظلة بن أبي عامر[١]، وذلك أنه تزوّج في الليلة التي في صبيحتها حرب أُحد، فاستأذن رسول الله ﷺ أن يُقيم عند أهله، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ﴿فَأْذَن لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فأقام عند أهله، ثمّ أصبح وهو جُنب، فحضر القتال واستُشهد، فقال رسول الله ﷺ: رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المُزن في صحائف فضةٍ بين السماء والأرض، فسُمّي غسيل الملائكة»[٢].

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ ٱللهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[٦٣]

ثمّ أنه تعالى بعد بيان إذن الخروج من عند الرسول ﷺ، بيّن آداب مخاطبته بقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا﴾ أيّها المسلمون ﴿دُعَاءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ ونداءه ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾ آخر ونداءه.

عن سعيد بن جبير: يعني لا يُنادى كما يُنادي بعضكم بعضاً: يا محمّد، يا أبا القاسم، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبيّ الله[٣].

وعن الباقر عليه السلام [قال]: «يقول: لا تقولوا يا محمّد، ولا يا أباالقاسم، ولكن قولوا: يا نبيالله، يا رسولالله»[٤].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «قالت فاطمة عليها السلام: لما نزلت هذه الآية هبت رسول الله ﷺ أن أقول له يا أبه، فكنت أقول: يا رسول الله، فأعرض عنّي مرّة أو اثنتين أو ثلاثاً، ثمّ أقبل إليّ فقال: يا فاطمة، إنّها لم تنزل فيك، ولا في أهلك، ولا في نسلك، أنت منّي وأنا منك، إنّما نزلت في أهل الجَفاء والغِلظة من قريش أصحاب البَذْخ والكِبر، قولي: يا أبه، فإنّها أحيى للقلب، وأرضى للرب»[٥].

وعن ابن عباس: يعني لا ترفعوا أصواتكم في دعائه[٦].

وقيل: لا تجعلوا أمره [إياكم] ودعاءه لكم، كما يكون من بعضكم لبعضٍ، إذ كان أمره فرضاً لازماً[٧].

وقيل: أحذروا دعاءه عليكم إذا أسخطتموه، فانّ دعاءه مستجابٌ ليس كدعاء غيره[٨].

ثمّ هدّد سبحانه المنافقين الخارجين بلا إذن الرسول ﷺ بقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللهُ﴾ المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ ويخرجون ﴿مِنكُمْ﴾ قليلاً قليلاً من بين المؤمنين ﴿لِوَاذاً﴾ وتستّراً ببعضٍ لئلا يراهم

---

١. في تفسيري القمي والصافي: ابن أبي عياش، تصحيف انظر أُسد الغابة ٢: ٥٩.
٢. تفسير القمي ٢: ١١٠، تفسير الصافي ٣: ٤٥١.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ٤٠.
٤. تفسير القمي ٢: ١١٠، تفسير الصافي ٣: ٤٥١.
٥. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٣٢٠، تفسير الصافي ٣: ٤٥١.
٦. تفسير الرازي ٢٤: ٤٠.
٧. تفسير الرازي ٢٤: ٣٩.
٨. تفسير الرازي ٢٤: ٤٠.

النبيّ ﷺ والمؤمنون أنّهم يخرجون بغير إذن.

وقيل: كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأذن فيؤذَن له، فينطلق الذي لم يؤذَن له معه[١]، وعلى أي تقدير فيه تهديدٌ شديدٌ.

ثمّ هدّد سبحانه المعرضين عن أمر الرسول ﷺ وسنّته بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ ألبتة ﴿ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ﴾ ويتخلّفون ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾ ويُعرضون أو عن أمر الله من ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ وعقوبةٌ عظيمةٌ في الدنيا، كما عن ابن عبّاس[٢]، أو الزّلازل والأهوال[٣]، أو ظهور نِفاقهم[٤]، أو تسلُّط السلطان الجائر عليهم، كما عن الصادق عليه السلام[٥] ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ[٦٤]

ثمّ أعلن سبحانه بكمال قدرته وسَعة علمه إرعاباً للقلوب، وزجراً عن مخالفته ومخالفة رسوله بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إيجاداً وإعداماً، وتصرّفاً وتدبيراً، وإبداءً وإعادةً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيّها الناس من الأحوال التي من جملتها النفاق وخلوص الايمان والطاعة والمخالفة ﴿وَ﴾ يعلم ﴿يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ ويُرَدّون إلى مَحضَر عدله ودار جزائه ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ ويُعلِمهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الأعمال السيئة، ويُظهر لهم على رؤوس الأشهاد شنائعهم، ويرتّب عليها ما يليق بها من الجزاء ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من الجليّات والخفيّات ﴿عَلِيمٌ﴾ محيطٌ لا يعزُب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء.

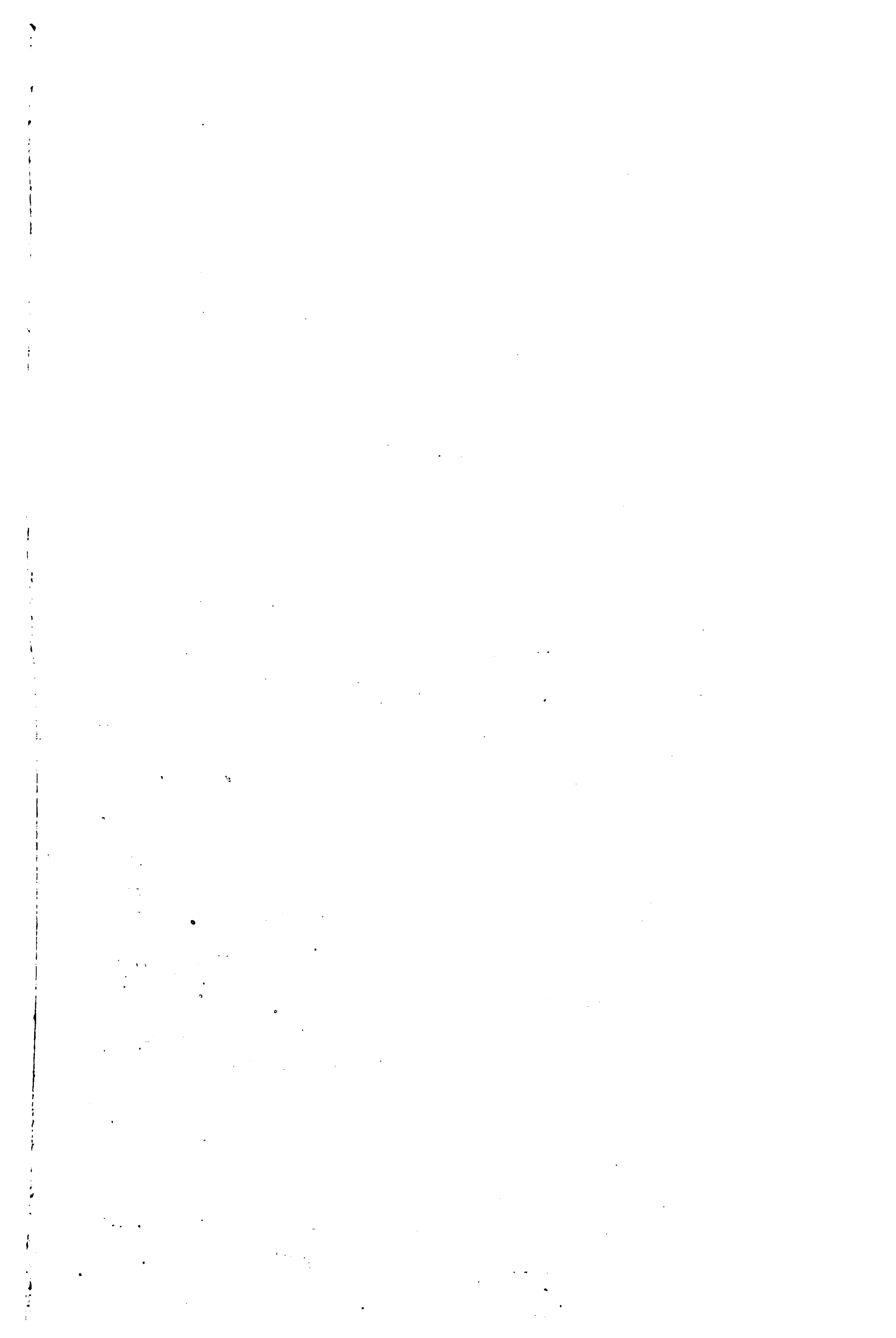
عن الصادق عليه السلام: «حصّنوا أموالكم وفُروجكم بتلاوة سورة النور، وحصّنوا بها نساءكم، فانّ من أدمن قراءتها في كلّ يوم، أو في كلّ ليلةٍ، لم يَزْنِ أحد من أهل بيته أبداً حتى يموت، فاذا هو مات شيّعه سبعون ألف مَلَك كلّهم يدعون ويستغفرون الله حتى يُدخَل في قبره»[٦].

وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: لا تُنزِلوا النساءالغُرَف، ولا تُعلّموهن الكتابة، وعلّموهن المِغْزَل وسورة النور»[٧].

الحمد لله الذي منّ عليّ لإتمام تفسير سورة النور وأسأله التوفيق لاتمام تفسير ما يليها من السور.

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٤٠.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ٤٢، ولم ينسب إلى أحد.
٣ و٤. تفسير الرازي ٢٤: ٤٢.
٥. جوامع الجامع: ٣٢٠، تفسير الرازي ٢٤: ٤٢.
٦. ثواب الاعمال: ١٠٩، مجمع البيان ٧: ١٩٤، تفسير الصافي ٣: ٤٥٢.
٧. الكافي ٥: ١/٥١٦، تفسير الصافي ٣: ٤٥٢.



في تفسير سورة الفرقان

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً * ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً[١ و ٢]

ثمّ لمّا ختم سبحانه السورة المباركة بتوصيف المؤمنين الخُلّص[١] وإيجاب طاعة النبيّ وتعظيمه، وتهديد المنافقين والمخالفين لأمره بالعذاب، وبيان كمال قدرته وسلطنته وعلمه ترهيباً للقلوب، اُردفت بسورة الفرقان التي اُفتتحت بإثبات التوحيد ونبوة نبيّه، وذكر أهوال القيامة، وخُتِمت بذكر صفات العباد المُخلصين، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات حسب دأبه بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

ثمّ لمّا كان إثبات الصانع وكمال صفاته أهمّ الأمور افتتحها بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ وتكاثر خير الإله ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ وأنزل نجوماً القرآن الذي هو مَعدِن العلوم والمعارف والحكم، ومنبع جميع الخيرات، والفارق بين الحقّ والباطل ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ ورسوله محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ هو، أو الفرقان ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ وكافّة الجنّ والإنس إلى يوم القيامة ﴿نَذِيراً﴾ ومُخوّفاً من العذاب على عصيان الله ﴿ٱلَّذِى﴾ يكون من شواهد عظمته وعظيم سلطانه وكمال قدرته أنّ ﴿لَهُ﴾ وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسلطنة التامة في عالم الوجود من الجبروت والملكوت والناسوت ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ﴾ لنفسه ولم يَختَر لذاته ﴿وَلَداً﴾ يُعبَد من دونه ويَرث مُلكه ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ له من الأزل ﴿شَرِيكٌ﴾ ونِدّ ﴿فِى ٱلْمُلْكِ﴾ والسلطنة، بل هو متفرّد في الألوهية والربوبية ﴿وَخَلَقَ﴾ وأوجد ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ قابل للوجود ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ وهيّأه لما يصلُح من الكمال والادراك والنظر والتدبير في اُمور المعاش والمعاد ﴿تَقْدِيراً﴾ بديعاً وتهيأ عجيباً.

---

١. في النسخة: الخلّصين.

عن الرضا عليه السلام قال: «أتدري ما التقدير؟» قيل: لا. قال: «هو وضع الحدود من الآجال والأرزاق والبقاء والفناء»[١].

وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً[٣ـ٥]

ثمّ وبّخ المشركين العابدين لغيره بقوله: **﴿وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾** وممّا سواه **﴿آلِهَةً﴾** كثيرة، ومعبودين وفيرون[٢] من الأصنام والأوثان مع أنّهم **﴿لَا يَخْلُقُونَ﴾** من الموجودات **﴿شَيْئاً﴾** وإن كان حقيراً، ولا يقدِرون على إيجاد شيء وإن كان يسيراً **﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾** بقدرة الغير وهواه كسائر الموجودات **﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾** ولا يستطيعون **﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾** التي هي أعزّ الأنفس عند ذوي الشعور أن يدفعوا **﴿ضَرّاً وَلَا﴾** أن يجلبوا[٣] **﴿نَفْعاً﴾** فكيف لغيرهم **﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾** أن يوجدوا **﴿مَوْتاً﴾** لحيّ **﴿وَلَا حَيَاةً﴾** لميّت **﴿وَلَا نُشُوراً﴾** وبعثاً من القبور للجزاء يوم القيامة، وفيه تنبيه على أنّ القدرة على الإحياء والإماته والبعث للجزاء من لوازم الألوهية، فمن لا يقدِر عليها فهو بمَعْزِلٍ من الألوهية.

ثمّ أنه تعالى بعد إثبات التوحيد وإبطال الشرك، شرع في إثبات نبوة خاتم الأنبياء وردّ شبهات منكريها بقوله: **﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** بنبوة محمد صلى الله عليه وآله: **﴿إِنْ هَذَا﴾** القرآن الذي يستدلّ به على نبوته ما هو **﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾** وكِذْب وشيءٌ مصروفٌ عمّا هو عليه من الباطل إلى صورة الحقّ هو **﴿ٱفْتَرَاهُ﴾** واختلقه من عند نفسه **﴿وَأَعَانَهُ﴾** وساعده **﴿عَلَيْهِ﴾** في إخباره بتواريخ الأمم الماضية لكونه أُمياً لم يقرأ الكُتب **﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾** مطّلعون على كتب التواريخ من اليهود.

قيل: نزلت في النَّضْر بن الحارث، فانّه الذي قال هذا القول، والمقصود من القوم الآخرين عداس مولى حُويطب بن عبدالعُزّى، ويسار غلام عامر بن الحضرمي، وجبير[٤] مولى عامر، فإنّهم كانوا من أهل الكتاب، وكانوا يقرؤن التوراة، ويحدّثون منها أحاديث، فلمّا أسلموا كان النبيّ صلى الله عليه وآله يتعهّدهم، فلذا قال النظر ذلك[٥].

---

١. تفسير القمي ١: ٢٤، تفسير الصافي ٤: ٤.
٢. في النسخة: وفيرة.
٣. في النسخة: (ضراً) أو يجلبوا.
٤. في تفسير الرازي: وجبر.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ٥٠.

ثمّ ردّهم سبحانه بقوله: ﴿فَقَدْ جَاؤُوا﴾ وأتوا بما قالوا ﴿ظُلْماً﴾ عظيماً حيث جعلوا الكلام المُعجِز إفكاً واختلاقاً مفتعلاً من اليهود ﴿وَزُوراً﴾ وكذباً واضحاً حيث نسبوا إلى النبيّ ﷺ ما هو بريئ منه، لأنه ﷺ تحدّى بالقرآن مع كون معارضيه مَهَرة الكلام وخَرَاريت[1] فنّ الفصاحة، قادرين على الاستعانة بأهل الكتاب والمطّلعين على التواريخ السالفة، حريصين على إبطال أمره وإطفاء نوره، ومع ذلك عَجَزوا عن إتيان أقصر سورة مثله، ولو كان من كلام البشر لأتوا به ﴿وَقَالُوا﴾ أيضاً هذا القرآن الذي جاء به ﴿أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وخُرافات المتقدّمين والأحاديث الملفّقات المنقولة من السابقين هو ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ وأمر غيره بثبتها في أوراق ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْهِ﴾ بعد كتابتها ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ وأول النهار وآخره ليَحْفَظها من أفواه الذين يقرءونها، لكونه اُمياً لا يعرف الخطّ حتى يقدِر على قراءتها بنفسه.

قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً * وَقَالُوا مَالِ هٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً[٦ـ٨]

ثمّ أمر سبحانه النبي ﷺ بجوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، إنّ ما أتاكم به من القرآن إنّما ﴿أَنزَلَهُ﴾ عليّ الإله ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ الكامن ﴿فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وخفيّات الموجودات، لأنّ القادر على تركيب الألفاظ تركيباً يعجِز عنه جميع الفصحاء مع اشتمالها على الأخبار بالمغيبات والعلوم الكثيرة والأحكام الموافقة لصلاح العباد ونظام العالم، لا يكون إلّا من العالم بجميع الأمور حتى الأسرار والخفيات في عالم الكون، فهو يعلم سرّكم وجَهركم، وظاهركم وباطنكم، وباطن أمر الرسول، وبراءته ممّا تتهمونه به، ويجازيكم على ما عَلِم منكم، ولكن لا يُعاجلكم بالعقوبة ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ مع استحقاق العقوبة.

ثمّ أنه تعالى بعد حكاية قدح المشركين في القرآن، حكى قدحهم في الرسول بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ اعتراضاً على رسالة محمّد ﷺ وتصغيراً لشأنه، وإظهاراً للتعجّب من ادّعائه واستهزاءً به بتسميته بالرسول ﴿مَا﴾ هذا الحال المُعجِب الذي يكون ﴿لِهٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ على قوله، وهو أنه ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما نأكُل ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ لحوائجه وطلب معاشه كما نمشي، إذن هو بشر مثلنا لا

---

١. الخَرَاريت، جمع خِرّيت: أي الحاذق الماهر، والدليل الحاذق بالدلالة، وفي النسخة: خراريط.

فضيلة له علينا، مع أنّ الرسول لابدّ أن يكون مَلَكاً لا يأكُل ولا يحتاج إلى ما نحتاج إليه.

ثمّ لو سلّمنا إمكان كون الرسول بشراً نقول: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ﴾ من قبل ربّه ﴿إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ من الملائكة على صورته المباينة لصورة الجنّ والإنس ﴿فَيَكُونَ﴾ ذلك المَلَك باتّفاق هذا الرسول و﴿مَعَهُ﴾ للناس ﴿نَذِيراً﴾ ومبلّغاً عن الله، وشاهداً له على رسالته حتى يعلم الناس صدقه ﴿أَوْ يُلْقَى﴾ من السماء ﴿إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ ومالٌ كثيرٌ مجتمعٌ حتى يُنفِق منه على نفسه، ويعيش بالسَّعة، وعلى الفقراء المؤمنين به، وعلى غيرهم، ترويجاً لدينه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ﴾ على فرض التنزيل ﴿جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ ويعيش بثمارها كواحد من الدهاقين حتى يخرُجَ من ذُلّ الفقر والحاجة ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ والمتجاوزون عن حدود العقل، المتعدّون على أنفسهم باهلاكها، وعلى سائر الناس باضلالهم: أيها المؤمنون بمحمّد ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ وما تُقلّدون في دينكم ﴿إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾ ومغلوباً على عقله، لأنّه يقول على خلاف قومه قولاً لا يقبله منه عاقل.

ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً[٩]

ثمّ لمّا كان قولهم في نهاية القباحة والشناعة وغاية البعد عن حدود العقل، أعرض سبحانه عن جوابهم، وخاطب نبيه بقوله: ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمّد إلى مقالة هؤلاء السفهاء، وتعجّب من أنهم ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ﴾ وقالوا في حقّك تلك ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ والأقاويل الغريبة المعجبة الخارجة عن العقول، فانّهم أرادوا القدح في نبوّتك ﴿فَضَلُّوا﴾ وتاهوا عن سلك العقل وطريق معرفة النبي ﷺ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدِرون أن يجدوا إلى الطعن فيك أو إلى الرشد والهدى ﴿سَبِيلاً﴾ فانّ الطعن في نبوة مدّعيها لا يكون إلّا بالطعن في معجزاته لا بهذه الأباطيل.

روي عن العسكري عليه السلام قال: «قلت لأبي، علي بن محمّد: هل كان رسول الله ﷺ يُناظر اليهود والمشركين إذا عاتبوه ويحاجّهم؟ قال: [بلى] مراراً كثيرة، وذلك أنّ رسول الله ﷺ كان قاعداً ذات يوم بِفناء الكعبة، فابتدأ عبدالله بن [أبي] اُمية المخزومي فقال: يا محمّد، لقد ادعّيت دعوىً عظيمةً، وقلت مقالاً هائلاً؛ زعمت أنّك رسول ربّ العالمين، وما ينبغي لربّ العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشراً مثلنا، يأكُل كما نأكُل، ويمشي في الأسواق كما نمشي، فهذا مَلِك الروم، وهذا ملك فارس لا يبعثان رسولاً إلّا كثير المال عظيم خطير[١]، له قصورٌ ودورٌ وفساطيط وخيام وعبيد وخُدّام، وربّ العالمين فوق هؤلاء كلّهم، فهم عبيده، ولو كنت نبياً لكان معك مَلَك يُصدّقك

---

١. في تفسير العسكري والاحتجاج: عظيم الحال.

ونُشاهده، بل لو أراد الله أن يبعث نبياً لكان إنّما يبعث مَلَكاً لا بشراً مثلنا، ما أنت يا محمّد إلّا مسحوراً، ولست بنبيّ، ثمّ اقترحوا أشياء كثيرة».

إلى أن قال الامام: «فقال رسول الله ﷺ: اللهم أنت السامع لكلّ صوت، والعالم بكلّ شيء، تعلم ما قاله عبادك، فأنزل الله عليه: يا محمّد **﴿وَقَالُوا مَالِ هٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾** إلى قوله: **﴿قُصوراً﴾** مع آيات اُخر. قال: فقال رسول الله ﷺ: يا عبدالله، أمّا ما ذكرت [من] أنّي آكل الطعام كما تأكلون، وزعمت أنّه لا يجوز لأجل هذه أن أكون لله رسولاً، فانّما الأمر لله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يُريد، وهو محمود، وليس لك ولا لأحدٍ الاعتراض [عليه] بلم وكيف، ألا ترى أنّ الله تعالى كيف أفقر بعضاً وأغنى بعضاً، وأعزّ بعضاً وأذل بعضاً وأصح بعضاً وأسقم بعضاً، وشرّف بعضاً ووضع بعضاً، وكلّهم ممن يأكل الطعام؟

ثمّ ليس للفقراء أن يقولوا: لم أفقرتنا وأغنيتهم، ولا للوضعاء أن يقولوا: لم وضعتنا وشرفتهم، ولا للزُّمناء والضعفاء. أن يقولوا لِمَ أزمنتنا وأضعفتنا وصحّحتهم؟ ولا للأذلاء أن يقولوا: لِمَ أذللتنا وأعززتهم؟ ولا لِقباح الصور أن يقولوا: لِمَ أقبحتنا وجمّلتهم؟ بل إن قالوا ذلك كانوا على ربهم رادّين، وله في احكامه منازعين، وبه كافرين، ولكان جوابه لهم: أنا المَلِك الخافض الرافع، المُغني المفقر، المُعزّ المذلّ، المُصحِح المُسقِم، وأنتم العبيد، ليس لكم إلّا التسليم لي والانقياد لحكمي، فإن سلمتم كنتم عباداً مؤمنين، وإن أبيتم كنتم بي كافرين [وبعقوباتي] من الهالكين.

ثمّ أنزل الله تعالى عليه: يا محمّد **﴿قل انما أنا بشر مثلكم﴾** يعني آكل الطعام و **﴿يُوحى إليّ انما الهكم اله واحد﴾**[1] يعني قل لهم: أنا في البشرية مثلكم، ولكن ربّي خصّني بالنبوة [دونكم] كما يخُصّ بعض البشر بالغِنى والصحّة والجمال دون بعض من البشر، فلا تُنكِروا أن يخصّني أيضاً بالنبوة».

إلى أن قال: «فقال رسول الله: وأما قولك: ما أنت إلّا رجلاً مسحوراً، فكيف أكون كذلك وقد تعلمون أنّي في صحة التميز والعقل فوقكم؟ فهل جرّبتم عليّ منذ نشأت إلى أن استكملت أربعين سنه خرقة[2] أو زلّة أوكذبة أو خيانة أو خطأ من القول أو سفهاً من الرأي؟ أتظنون أنّ رجلاً يعتصم طول هذه المدة بحول نفسه وقوتها، أو بحول الله وقوّته؟ وذلك ما قال الله: **﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾** إلى أن يُثبتوا عليك عمى بحجّة» الخبر[3].

---

١. الكهف: ١١٠/١٨.　　٢. في تفسير العسكري: جريرة، وفي الاحتجاج: خزية.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣١٤/٥٠٠، الاحتجاج: ٢٩، تفسير الصافي ٤: ٦.

تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً[١٠]

ثمّ أجاب سبحانه عن خُرافاتهم بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ﴾ ورأى الصلاح ﴿جَعَلَ لَكَ﴾ في الدنيا ﴿خَيْراً﴾ وأفضل ﴿مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي يقولون من النِّعم الدنيوية كالكنز والجنّة، وذلك الخير هو ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً﴾ مشيّدة كقصور الجنّة.

رُوي أن مترفي قريش عيّروا النبيّ ﷺ بالفقر، فجاء رضوان خازن الجنان بعد نزول تلك الآيات إلى النبيّ، وكانت معه حُقّة[1]، فوضعها عند النبيّ ﷺ وقال: يا رسول الله، إن فيها مفاتيح خزائن الأرض، أعطاك ربك [إياها] ويقول: خُذها وتصرّف في خزائن الأرض كيف شئت من غير أن يُنقَص من كرامتك عليّ شيء. فقال النبي ﷺ «يا رضوان، مالي إليها حاجة، فانّ الفقر أحبّ إليّ، وأريد أن أكون عبداً شكوراً صبوراً»[2].

وفي الحديث: أن ربي عرض عليّ أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً، فأمّا اليوم الذي أجوع فيه فاتضرّع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك[3].

عن ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ جالس وجَبْرئيل عليه السلام عنده، قال جَبْرئيل عليه السلام: هذا مَلَك قد نزل من السماء، استأذن ربّه في زيارتك، فلَم يَلْبَث إلّا قليلاً حتى جاء المَلَك، وسلّم على رسول الله ﷺ وقال: إنّ الله يُخيّرك بين أن يُعطيك مفاتيح كلّ شيء، لم يُعطها أحداً قبلك، ولا يُعطيها أحداً بعدك، من غير أن يُنقصك ممّا ادّخر لك شيئاً. فقال ﷺ: «بل يجمعها جميعاً لي في الآخرة». فنزل [قوله] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ﴾ الآية[4].

وعنه ﷺ: قال ﷺ: «عرض عليّ جَبْرئيل بطحاء مكة ذهباً، فقلت: [بل] شِبعة وثلاث جَوعات، وذلك أكثر لِذْكري ومسألتي لربّي»[5].

وفي رواية قال: «أشبع يوماً وأجواع ثلاثاً، فأحمدك إذا شَبعت، واتضرّع إليك إذا جعت»[6].

وعن الضحّاك: لمّا عيّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة حزِن رسول الله ﷺ لذلك، فنزل جَبْرئيل عليه السلام معزّياً له وقال: إنّ الله يُقرئك السلام، ويقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ

---

١. في أسباب النزول: سفط.

٢. أسباب النزول للواحدي: ١٨٨، تفسير روح البيان ٦: ١٩٢.

٣. تفسير روح البيان ٦: ١٩٢.

٤-٦. تفسير الرازي ٢٤: ٥٤.

﴿لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾[١] الآية.

قال: فبينما جَبْرئيل عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله يتحدّثان إذ فُتِح باب من أبواب السماء لم يكن فُتح قبل ذلك، ثمّ قال: ابشر يا محمّد، هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربّك، فسلّم عليه، وقال: [إنّ] ربّك يُخيّرك بين أن تكون نبياً مَلِكاً، وبين أن تكون نبياً عبداً، ومعه سَفط من نورٍ يتلألأ، ثمّ قال: هذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبِضها من غير أن يُنقِصك الله ممّا أعدّ لك في الآخرة جَناح بعوضة، فنظر النبي صلى الله عليه وآله إلى جَبْرئيل كالمستشير، فأومأ بيده أن تَواضَع، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «بل نبياً عبداً». قال: فكان صلى الله عليه وآله بعد ذلك لم يأكل متّكئاً حتى فارق الدنيا[٢].

وعن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تستطعم الله فيُطعمك؟ قالت: فبكيت لما رأيتُ به من الجُوع وشدَ الحَجَر [على بطنه] من السَّغب، فقال: يا عائشة، والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يُجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض، ولكن اخترت جُوع الدنيا على شِبَعها، وفَقْرها على غِناها، وحُزنها على فَرَحها. يا عائشة، إنّ الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد[٣].

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً * إِذَا رَأَتْهُم مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً [١١ و ١٢]

ثمّ بيّن سبحانه علّة صدور هذه الخُرافات عنهم بقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ كأنه[٤] سبحانه قال: لم يحملهم على هذه الأقاويل الباطلة شُبهة حقيقية في نبوتك، بل حملهم عليها وعلى تكذيبك عِنادهم وعدم خوفهم من الساعة ودار الجزاء، لأنّهم يكذّبونها، أو أنّهم كذبّوها لثقل الاستعداد لها عليهم، أو المراد أنّهم لا ينتفعون بدلائل نبوتك، ولا يتفكّرون فيها لتكذيبهم بالساعة، وعدم رجائهم الثواب، وعدم خوفهم من العقاب، وقصور أنظارهم على الزّخارف الدنيوية، وظنّهم أن الكرامة إنّما هي في الغِنى والثّروة، ولذا عيّروك بالفقر.

ثمّ هدّد المكذّبين بالساعة بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ وهيّئنا في الآخرة ﴿لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ﴾ وأنكر دار الجزاء ﴿سَعِيراً﴾ وناراً شديدة الحرّ والاشتعال.

وقيل: إنّ السعير من أسامي جهنم[٥].

ثمّ وصف الله السعير بقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ تلك السعير ﴿مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ غاية البعد، كما بين

---

١. الفرقان: ٢٥/٢٠. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٥٤.
٣. تفسير روح البيان ٦: ١٩٣. ٤. في النسخة: كان.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ٥٥، تفسير البيضاوي ٢: ١٣٦.

المشرق والمغرب، وهو على ما قيل خمسمائة عام[١]، وعن الصادق: «مسيرة سنة»[٢] **﴿سَمِعُوا لَهَا﴾** من شدَة غضبها عليهم **﴿تَغَيُّظاً﴾** وصوتاً هائلاً **﴿وَزَفِيراً﴾** وهَمْهَمة، وهي على ما قيل: صوتٌ خارجٌ من الجوف مع الترديد[٣]. وقيل: يعني علموا لها التغيظ، وسَمِعوا لها زفيراً[٤]. وقيل: يعني سَمِعوا تغيّظ الخَزَنة[٥].

وعن عبيد بن عمير: أنّ جهنّم لتزفِر زَفرةً، لا يبقى نبيّ مرسلٌ، ولا مَلَكٌ مقرّبٌ إلّا خرّ لوجهه، ترعَدُ فرائصهم حتى أن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول: يا رب[٦]. لا أسألك إلّا نفسي[٧].

أقول: ظاهر الآية أنّ النار في الآخرة حيّةٌ شاعرةٌ، كما يدُلّ عليه قوله: **﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾**[٨].

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً * لَا تَدْعُوا ٱلْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَٱدْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً[١٣ و ١٤]

ثمّ أنه تعالى بعد بيان حال الكفّار حين البُعد من جهنّم، بيّن حال ورودهم فيها بقوله: **﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً﴾** قيل: إنّ جهنّم لتضيق على الكفار كضيق الزُّج[٩] على الرُّمح[١٠].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أنـهم يُسْتَكْرَهون في النار كما يُستَكْرِه الوَتَد في الحائط»[١١].

وقيل: الأسفلون يرفعهم اللّهب، والأعلون يَخْفِظهم الداخلون فيزدحمون[١٢]، حال كونهم **﴿مُقَرَّنِينَ﴾** ومقيدين في السلاسل تُقرَن أيديهم إلى أعناقهم، أو يُقرَن بعضهم مع بعض، أو كلّ مع شيطانه في سلسلةٍ، مع ما هم عليه من العذاب الشديد والضيق، وحينئذٍ **﴿دَعَوا﴾** ونادوا تمنّياً **﴿هُنَالِكَ﴾** وفي ذلك المكان الضيّق **﴿ثُبُوراً﴾** وهلاكاً لأنفسهم بقولهم: يا ثبوراه، أو يا ثبور تعال فهذا حينك وأوانك.

رُوي أنّ أول من يُكسى يوم القيامة إبليس حُلّة من النار بعضها على جانبه[١٣] فيَسْحَبها من خلفه، وذُرّيته خلفه، وهو يقول: واثبوراه، وهم ينادون يا ثبورهم حتى يَقفوا على النار، فينادي: يا ثبوراه،

---

١. تفسير روح البيان ٦: ١٩٤.
٢. مجمع البيان ٧: ٢٥٧، تفسير الصافي ٤: ٧.
٣. تفسير روح البيان ٦: ١٩٤.
٤ و٥. تفسير الرازي ٢٤: ٥٦.
٦. زاد في تفسير روح البيان: يا رب.
٧. تفسير روح البيان ٦: ١٩٤.
٨. العنكبوت: ٦٤/٢٩.
٩. الزُّج: الحديدة في اسفل الرمح.
١٠ -١٢. تفسير الرازي ٢٤: ٥٦.
١٣. في تفسير الرازي: جانبيه، وفي تفسير روح البيان: حاجبيه.

وينادون: يا ثبورهم[١]، فيقول الله أو الملائكة: إعلاناً لهم بالخلود في العذاب ﴿لَا تَدْعُوا﴾ في هذا ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ العظيم ﴿ثُبُوراً وَاحِداً﴾ أو لا تقتصروا على دعاءٍ واحدٍ ﴿وَٱدْعُوا﴾ لكثرة أنواع العذاب وألوانه ﴿ثُبُوراً كَثِيراً﴾ لكلّ واحدٍ منها ثبورٌ لشدّته وفضاعته، أو لأنّ العذاب دائمٌ وخالصٌ من شوب غيره، فلكلّ وقتٍ من الأوقات التي لا نهاية لها ثبورٌ.

قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً [١٥ و ١٦]

ثمّ أنه تعالى بعد تهديد المكذّبين للساعة أمر نبيه بإعلامهم بحُسن حال المؤمنين ترغيباً إلى الإيمان وترهيباً عن الحسرة والندامة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: أنصفوا ﴿أَذٰلِكَ﴾ العذاب الذي لا نِهاية لشدّته ومُدّته ﴿خَيْرٌ﴾ وأحسن ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى﴾ لا انقطاع لنعيمها، ولا انقضاء لمدّة البقاء فيها، وقد ﴿وُعِدَ﴾ بها ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ والمحترزون من الكفر والشِّرك والعصيان، فانّها ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ على تقواهم وأعمالهم الحسنة ﴿وَمَصِيراً﴾ ومَرجِعاً يرجعون إليه بالموت والخُروج من الدنيا ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ﴾ ويشتهون حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ودائمين في نَعيمها ﴿كَانَ﴾ ذلك الجزاء المذكور ثابتاً ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ الكريم، لأنه وعد بذلك ﴿وَعْداً مَسْؤُولاً﴾ واجب الوفاء، أو حقيقاً بأن يُسأل ويُطالَب به، أو مسؤولاً للمؤمنين بقولهم: ﴿ربنا واتنا ما وعدتنا على رسلك﴾[٢] أو مسؤول الملائكة للمؤمنين بقولهم: ﴿ربنا وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم﴾[٣].

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا أَن نَتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلٰكِن مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً [١٧ و ١٨]

ثمّ أنه تعالى بعد تهديد المُنكِرين للساعة هدّد المنكرين للتوحيد بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ من القبور إلى العَرَصات ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ﴾ من الأصنام ﴿فَيَقُولُ﴾ الله لهم تقريعاً لعبادهم: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ﴾ وصرفتم عن طريق توحيدي وعبادتي ﴿عِبَادِى﴾ يعني ﴿هٰؤُلَاءِ﴾ المشركين بأن دَعَوتُموهم إلى عبادتكم وأمَرتُموهم بها ﴿أَمْ هُمْ﴾ بأهوائهم ﴿ضَلُّوا﴾ وأخطأوا ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ المرضي عندي المُوصِل إلى كلّ خيرٍ، وهو التوحيد، بأن اختاروا الشِّرك وعبادتكم ﴿قَالُوا﴾ تعجباً من هذا

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٥٧، تفسير روح البيان ٦: ١٩٥. ٢. آل عمران: ٣/١٩٤. ٣. المؤمن: ٨/٤٠.

السؤال، أو تنزيهاً له تعالى من الأنداد: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ربّنا ﴿مَا كَانَ يَنبَغِى﴾ وما استقام ﴿لَنَا﴾ بعد معرفتنا بألوهيتك وتوحيدك وعظمتك ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾ لأنفسنا ﴿مِن دُونِكَ﴾ وممّا سواك ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ ومعبودين، فكيف ندعو غيرنا إلى أن يتّخذنا وليّاً ومعبوداً؟

وقيل: يعني ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ الكفّار الذين هم أعداؤك أولياء، فنكون كالشياطين الذين تولّوا الكفّار كما يُولّونهم[1]، أو ما كان لنا أن نتّخذ من دون رضاك وليّاً ومحباً فضلاً عن أن نتّخذ عبداً[2]. ﴿وَلَٰكِن﴾ يا إلهنا أنت ﴿مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ من الدنيا، وأكثرت عليهم نعيمها ﴿حَتَّىٰ﴾ استغرقوا فيها و ﴿نَسُوا ٱلذِّكْرَ﴾ والإيمان بك، أو القرآن والأحكام، أو ما فيه حُسن ذكرهم في الدارين، أو التذكّر لآلائك، والتدبّر في آياتك، أو تركوا ما وُعِظوا به ﴿وَكَانُوا﴾ لذلك ﴿قَوْماً بُوراً﴾ وصاروا جماعةً هلكىٰ بعذاب الآخرة.

فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً [١٩ و ٢٠]

ثمّ التفت سبحانه من الغيبة إلى الخطاب للعبيد، احتجاجاً عليهم، وإلزاماً لهم بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ أيّها المشركون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ في الدنيا من أنّهم آلهه وأنّهم أضلّونا ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا تَملِكون ﴿صَرْفاً﴾ ودفعاً للعذاب عنكم بوجهٍ من الوجوه ﴿وَلَا نَصْراً﴾ لأنفسكم من قيد أصنامكم التي تَزْعُمون أنّهم يَشفَعونكم ويدفعون البليات عنكم، ثمّ عمّ التهديد لكلّ عاصٍ بقوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِنكُمْ﴾ أيّها الناس على نفسه باختيار الشِّرك والعقائد الفاسدة والأعمال السيئة ﴿نُذِقْهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَاباً كَبِيراً﴾ وعقوبةً شديدةً في الغاية.

ثمّ صرّح سبحانه بجواب المعترضين على رسالة الرسول ﷺ بكونه بشراً بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ أحداً ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ العِظام الذين ثبتت رسالتهم بالمعجزات الباهرات ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ﴾ والله ﴿لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كسائر الناس، ولم يكن ذلك منافياً لرسالتهم، فلا تكون أنت بِدعاً منهم ﴿وَجَعَلْنَا﴾ الناس ﴿بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ﴾ آخر ﴿فِتْنَةً﴾ وابتلاءً وامتحاناً الرسل للمرسل اليهم، والفقراء للأغنياء، والسُّقماء للأصحّاء، والسَّفِلة للأعالي، والعبيد للموالي، والرعايا للسلاطين.

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٤: ٦٣.

عن النبي ﷺ: «ويلٌ للعالم من الجاهل، وويلٌ للسلطان من الرَّعيّة، وويلٌ للرَّعيّة من السلطان، وويلٌ للمالك من المملوك، وويلٌ للشديد من الضعيف، وللضعيف من الشديد، بعضهم لبعضٍ فتنةٌ» ثمّ قرأ هذه الآية[١].

وقيل: إنّ هذا في رؤساء المشركين وفقراء الصحابة، فاذا رأى الشريف الوضيع قد أسلم قبله أنِف أن يُسلِم، فأقام على كفره لئلا يكون للوضيع السابقة والفضل عليه[٢].

وعن ابن عباس: أنّ هذا في أصحاب البلاء والعافية، هذا يقول: لِمَ لَمْ أجعل مثله في الخَلق والخُلق وفي العقل والعلم، والرزق والأجل[٣]. وفيه احتجاج على المشركين في تخصيص محمّد ﷺ بالرسالة مع مساواته إياهم في البشرية، فابتلي المُرسَل إليهم بالرُّسل، والرُّسل[٤] بالمُرسَل إليهم[٥].

فاذا عَلِمتم أيها المؤمنون أن دأبَهُ تعالى الابتلاء والامتحان ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ على البلاء والمِحَن أم لا؟ فان تصبروا فلكم ما وعد الله الصابرين من الأجر الجزيل والثواب العظيم ﴿وَكَانَ رَبُّكَ﴾ يا محمّد، أو أيها الصابر ﴿بَصِيراً﴾ وعالماً بالصابر وغيره، فيجازي كلّاً بما يستحقّه من ثواب وعقاب.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِى أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً * يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً[٢١ و ٢٢]

ثمّ حكى سبحانه اعتراضاً آخر من المشركين على رسالة النبيّ ﷺ بقوله: ﴿وَقَالَ﴾ المشركون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يُنكِرون البعث ودار الجزاء و﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ولا يتوقعون الرجوع إلينا بعد الموت، ولا يخافون عقابنا ضلالاً وإضلالاً: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ﴾ من قبل الله ﴿عَلَيْنَا ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ بالرسالة، فإنّ رسالتهم أولى من رسالة البشر وأقرب بالتصديق ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ جَهرةً وعِياناً، فيأمُرنا بتصديق محمّد واتّباعه، فانّ أمره شِفاهاً بتصديقه أدلّ على صدقه من المعجزات التي تظهر على يده، وعلى الحكيم أن يَسلُك الطريق الأقرب إلى المقصود.

ثمّ ردّهم سبحانه بقوله: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا﴾ ووالله أظهروا ترفّعاً مُضمَراً ﴿فِى أَنفُسِهِمْ﴾ وقلوبهم ﴿وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾ وطَغوا طُغياناً مُفرَطاً، وغَلوا في الكُفر غلوّاً شديداً بسؤالهم الرؤية التي لا تمكن للممكن، ولو كان نبياً مرسلاً أو مَلَكاً مقرباً لفقد شرائط الرؤية. نعم، يمكن رؤيتهم الملائكة، ولكن

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٤: ٦٥.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ٦٦.
٤. في تفسير الرازي: فابتلي المرسلين.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ٦٦.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلاَئِكَةَ﴾ الموكلين بالعذاب عند الموت، كما عن ابن عباس[١]، أو في القيامة[٢] ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ ولا خير فيه سرور القلب ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ والعُصاة والمشركين.

قيل: المراد أن ما سألوه من نزول الملائكة عليهم سيكون، ولكن لا إجابة لما اقترحوه[٣]، لعدم حسن إجابة السؤال الاقتراحي مع وجود المعجزات الكافية، بل لعقوبتهم وتعذيبهم على كفرهم وتعنتاتهم، ﴿وَ﴾ لذا ﴿يَقُولُونَ﴾ عند مشاهدة الملائكة الغِلاظ الشداد كراهةً للقائهم وفزَعاً منهم: يا ملائكة العذاب، أسأل الله ﴿حِجْراً﴾ ومنعاً لكم، وكونكم ﴿مَحْجُوراً﴾ وممنوعاً من قربنا. قيل: العرب تقول ذلك عند لقاء العدّو ونزول نازلة، وهو في معنى الاستعاذة[٤].

وقيل: إنّ (مَحْجُوراً) تأكيدٌ للحجر، كما يقال: ليلٌ أليلٌ، وموتٌ مائِتٌ، وحرامٌ محرّمٌ[٥].

وقيل: إنّ الكفار إذا خرجوا من قبورهم قالت الحَفَظة لهم ذلك[٦] ومعناه حراماً محرّماً عليكم الغفران والجنّة.

وقيل: إذا كان يوم القيامة تلقى الملائكة المؤمنين بالبشرى، فاذا رأى الكفّار ذلك قالوا لهم: بشّرونا، فيقولون: ﴿حِجْراً مَحْجُوراً﴾[٧].

وقيل: إنّ الملائكة الذين هم على أبواب الجنّة يبشّرون المؤمنين بالجنّة، ويقولون للمشركين ذلك[٨].

وقيل: إنّ الكفّار [يوم القيامة] إذا شاهدوا ما يخافونه يتعوّذون منه، ويقولون: حجراً محجوراً، فيقول الملائكة: لا يُعاذ من شرّ هذا اليوم[٩].

وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً[٢٣]

ثمّ بيّن سبحانه حال أعمالهم الخيرية دفعاً لتوهّم فائدتها لهم، وأزدياداً لحسرتهم بقوله: ﴿وَقَدِمْنَا﴾ وقصدنا ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ خيرٍ كانوا يظنّون أنّه ينفعهم كالانفاق على الفقراء، وصِلة الرَّحم، وإعانة الملهوفين ونظائرها ﴿فَجَعَلْنَاهـ﴾ـا وصيّرناها ﴿هَبَاءً﴾ وغُباراً في شُعاع الشمس ﴿مَنثُوراً﴾ ومتفرّقاً، وهذا كنايةٌ عن إبطاله بالكُلية، بحيث لا يُمكنهم الانتفاع كما لا يُمكن قبض الهباء المنثور وجمعه.

عن الصادق عليه السلام قال: «إن كانت أعمالهم لأشدّ بياضاً من القَبَاطِيّ[١٠]، فيقول الله عزّ وجلّ لها: كوني

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٤: ٧٠.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٠٠.
٤. جوامع الجامع: ٣٢٢، تفسير الرازي ٢٤: ٧١.
٥ ـ ٨. تفسير الرازي ٢٤: ٧١.
٩. تفسير الرازي ٢٤: ٧١.
١٠. القَبَاطي: ثياب بيض رقاق من كتّان.

هَباءً منثوراً، وذلك أنّهم كانوا إذا شرَع لهم الحرام أخذوه»[١].

وعنه عليه السلام: أنّه سُئل أعمال من هذه؟ قال: «أعمال مبغضينا ومبغضي شيعتنا»[٢].

وعن الباقر عليه السلام، قال: «يبعث الله يوم القيامة قوماً بين أيديهم نورٌ كالقَبَاطِي، ثمّ يقول له: كن هباءً منثوراً، ثمّ قال: أما والله إنّهم كانوايصومون ويصلّون، ولكن كانوا إذا عرض لهم شيءٌ من الحرام أخذوه، وإذا ذُكِر[٣] لهم شيءٌ من فضل أمير المؤمنين عليه السلام أنكروه. قال: والهَباء المنثور هو الذي تراه يدخُل البيت في الكَوَة من شُعاع الشمس»[٤].

أقول: هذه الروايات في بيان تأويل الآية وانطباقها على هذا النوع من المسلمين، وإن كان نزولها في المشركين.

أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً[٢٤]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان سوء حال الكفّار وغاية حرمانهم من كلّ خيرٍ وثوابٍ، بيّن حسن حال المؤمنين بقوله: **﴿أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ﴾** وهم المؤمنون المطيعون لله **﴿يَوْمَئِذٍ﴾** وفي ذلك الوقت الذي يكون المشركون في أشدّ العذاب **﴿خَيْرٌ﴾** من سائر الناس **﴿مُّسْتَقَرّاً﴾** ومنزلاً **﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾** ومُسْتَراحاً.

قيل: إنّ مستقر أهل الجنّة غير مكان قيلولتهم[٥]، فانّهم يَقيلون في الفِردوس ثمّ يعودون إلى مستقرّهم[٦].

قيل: إنّ المَقِيل زمان القيلولة[٧]، فبيّن سبحانه أنّ مكانهم أحسن الأمكنة، وزمانهم أطيب الأزمنة.

قيل: إنّه بعد الفَراغ من المحاسبة والذّهاب إلى الجنّة يكون الوقت وقت القَيلولة[٨].

عن ابن مسعود: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يَقيل أهل الجنّة في الجنّة، وأهل النار في النار[٩].

وعن سعيد بن جبير: أنّ الله تعالى إذا أخذ في فصل القضاء، قضى بينهم بقدر ما بين صلاة الغَداة إلى انتصاف النهار، فيَقيل أهل الجنة في الجنّة، وأهل النار في النار[١٠].

وقيل: يُخفّف الله الحساب على أهل الجنة حتى يكون بمقدار نصف يومٍ من أيام الدنيا، ثمّ يَقيلون

---

١. الكافي ٥: ١٠/١٢٦، تفسير الصافي ٤: ٩.
٢. بصائر الدرجات: ١٥/٤٤٦، تفسير الصافي ٤: ١٠.
٣. في تفسير القمي والصافي: عرض.
٤. تفسير القمي ٢: ١١٢، تفسير الصافي ٤: ١٠.
٥. في تفسير الرازي: غير مقيلهم.
٦ ـ ٨. تفسير الرازي ٢٤: ٧٢.
٩. تفسير الرازي ٢٤: ٧٢.
١٠. تفسير الرازي ٢٤: ٧٣.

في[١] يومهم ذلك[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «لا ينتصف ذلك اليوم حتى يَقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار»[٣].

وعن أمير المؤمنين ـ في حديث سؤال القبر ـ قال: «ثمّ يفتحان له بابا إلى الجنة، ثمّ يقولان له: نم قرير العين نوم الشاب[٤] الناعم، فانّ الله عزّ وجلّ يقول ﴿أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآية»[٥].

أقول: لعلّ المراد من قيلولتهم استراحتهم في أحسن مكان وزمان، كما أنّ موضع القيلولة أحسن المواضع، وزمانها أطيب الأزمنة، فلا ينافي ما دلّ على أنّ أهل الجنة والنار لا ينامون.

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّماءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى ٱلْكَافِرِينَ عَسِيراً * وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً[٢٥ـ٢٩]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان أنّ المشركين المقترحين على النبيّ نزول الملائكة إذا رأوا نزولهم يُدهَشون ويَفْزَعون أشدّ الدهشة والفزَع، ويكرهون لقاءهم بين أهوال يوم رؤيتهم وكيفية نزولهم المفزعة بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ وتَفطَر ﴿ٱلسَّماءُ بِالْغَمَامِ﴾ والسَّحاب الأبيض الرقيق، كَظُلّة بني إسرائيل على قول[٦]، أو الغليظ كغِلَظ السماوات السبع على آخر[٧].

قيل إنّ الغَمام أثقل من السماوات، فاذا أراد الله تشقيق السماوات ألقى الغَمام عليها فانشقت، فمعنى الآية يوم تشقق السماء بثِقل الغَمام، فيظهر الغَمام فيخرُج منها وفيها الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلاَئِكَةُ﴾[٨] إلى عَرصة القيامة ﴿تَنزِيلاً﴾ عجيباً.

قيل: تَشَقّق سماء سماء، وتنزل الملائكة في خلال ذلك [الغمام] بصحائف الأعمال[٩].

ورُوي أنّه تنشقّ سماء الدنيا فتنزل الملائكة التي فيها بمِثْل مَن في الأرض من الجنّ والإنس، فيقول لهم الخلق: أفيكم ربّنا؟ يعنون هل جاء أمر ربنا بالحساب. فيقولون: لا، وسوف يأتي، ثمّ تنزل ملائكة السماء الثانية بمِثْلَي مَن في الأرض مِن الملائكة والجنّ والإنس، ثمّ تنزل ملائكة كلّ سماء

---

١. في تفسير الرازي: من.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ٧٣.
٣. مجمع البيان ١٠: ٥٣١، تفسير الصافي ٤: ١٠.
٤. في النسخة: الشباب.
٥. الكافي ٣: ١/٢٣٢، تفسير الصافي ٤: ١٠.
٦ـ٨. تفسير روح البيان ٦: ٢٠٣.

على هذا الضعف[١] حتى تنزل ملائكة سبع سماوات، فيظهر الغَمام وهو كالسَّحاب الأبيض فوق سبع سماوات، ثمّ ينزل الأمر بالحساب، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّماءُ بِٱلْغَمَامِ﴾[٢].

وقيل: إنّ الملائكة في زمان[٣] الأنبياء عليهم السلام كانوا ينزلون من مواضع مخصوصة [والسماء على اتصالها]، وفي ذلك اليوم تنشقّ السماء، فاذا انشقّت خرجت من أن تكون حائلاً بين الملائكة وبين الأرض، فينزلون[٤] إلى الأرض[٥].

وعن مقاتل: تَشَقَّق السماء الدنيا، فينزل أهلها وهم أكثر من سُكّان الدنيا، كذلك تَشَقّق سماء سماء، ثمّ ينزل الكُروبيون وحَمَلة العرش[٦].

وعن ابن عباس: تنشقّ كلّ سماء، وينزل سُكّانها، فيُحيطون بالعالم، ويَصيرون سبع صفوف حوله[٧].

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ والسُّلطان القاهر والاستيلاء التامّ الكامل في الظاهر والواقع والصورة والمعنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت، أعني المُلك المتّصف بأنّه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت يكون ﴿لِلرَّحْمٰنِ﴾ والفيّاض المُطلق خاصة، فانّ كلّ مُلكٍ يزول ويَبْطُل إلّا مُلكه يوم القيامة ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم ﴿يَوْماً﴾ عظيماً ﴿عَلَى ٱلْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ وشديدة[٨] أهواله ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ﴾ ويُمسك بالنَّواجِذ [مسكاً] شديداً ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ على الله وعلى رسوله بعصيانهما ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ من فَرط التحسُّر والنَّدم.

عن ابن عباس: المراد عُقبة بن أبي مُعيط، كان لا يَقْدَم من سفر إلّا صنع طعاماً يدعو إليه جِيرته من أهل مكّة، ويُكثِر مجالسة الرسول ويُعجِبه حديثه، فصنع طعاماً، ودعا الرسول صلّى الله عليه وآله، فقال صلّى الله عليه وآله: «ما آكل من طعامك حتى تأتي بالشهادتين» ففعل، فأكل الرسول صلّى الله عليه وآله من طعامه، فبلغ هذا اُمية بن خلف، فقال: صبوتَ يا عُقبة وكان خليله، فقال: إنّما ذكرتُ ذلك ليأكُل من طعامي. فقال: لا أرضى ابداً حتى تأتيه فتبرق في وجهه وتطأ على عنقه، ففعل، فقال عليه السلام: «لا ألقاك خارجاً من مكّة إلّا علوتُ رأسك بالسيف» فنزل ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ ندامة، يعني عُقبه[٩].

القمي قال: رُوي أنّه يأكُل يديه حتى يبلُغ مِرْفَقيه، ثمّ تَنْبُتان، ثمّ يأكُلهما، هكذا كلّما نبتتا أكلهما تحسُّراً وندامةً على التفريط والتقصير[١٠]، وهو ﴿يَقُولُ﴾ تمنّياً:﴿يَا﴾ هؤلاء ﴿لَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ﴾ في

---

١. في تفسير روح البيان: التضعيف.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٠٣.
٣. في تفسير الرازي: أيام.
٤. في تفسير الرازي: فنزلت الملائكة.
٥ و٦. تفسير الرازي ٢٤: ٧٤.
٧. تفسير الرازي ٢٤: ٧٤، وفيه: حول العالم.
٨. في النسخة: شديداً.
٩. تفسير الرازي ٢٤: ٧٥.
١٠. تفسير روح البيان ٦: ٢٠٤، وقد نسبه المصنّف إلى تفسير القمي سهواً.

الدنيا ﴿مَعَ﴾ محمّدٍ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ الصادق ﴿سَبِيلاً﴾ وطريق مودةً وتبعيةً، وكنت معه على الاسلام، أو سبيلاً إلى النجاة من العذاب.

وعن الباقر عليه السلام: «يعني علياً ولياً»[١].

﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾ ويا هلكتا احضري فهذا أوانك ﴿لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً﴾ الضالّ المـضِلّ ﴿خَـلِيلاً﴾ لنفسي وصديقاً، فانّه والله ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِى﴾ وصرفني ﴿عَنِ﴾ قبول ﴿ٱلذِّكْرِ﴾ وموعظة الرسول، أو عن الإقرار بالقرآن والايمان به بعد إذ جاءني من جانب الله بتوسّط محمّد، وتمكّنت من العمل به.

عن ابن عباس: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ ندامةً، يعني عُقبة يقول: يا ليتني لم اتّخذ اُمية خليلاً ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ وهو القرآن والإيمان به ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى﴾ مع محمد صلى الله عليه وآله[٢] ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ﴾ المُغوي لي ولخليلي، والمُضلّ عن اتّباع الرسول والايمان بالقرآن ﴿لِلإِنسَانِ﴾ المطيع له ﴿خَذُولاً﴾ وتاركاً لنصرته مع أنّه يَعدِه نصره ويُمنّيه نفعه.

قيل: إنّ الذيل[٣] من كلام الله تعالى[٤].

عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة الوسيلة. قال: «في مناقب لو ذكرتها لعظُم بها الارتفاع، وطال لها الاستماع ، ولئن تقمّصها دوني الأشقيان، ونازعا[٥] في ما ليس لهما بحقّ، ورَكِباها ضلالةً، واعتقداها جهالة، فلبئس ما عليه وَرَدا، ولبئس ما لأنفسهما مهدا، يتلاعنان في دُورهما، ويبرأ كل منهما من صاحبه، يقول لقرينة إذا التقيا: ﴿ياليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين﴾[٦] فيجيبه الأشقى على رُثوثة[٧] يا ﴿لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ فأنا الذِّكر الذي عنه ضلّ، والسبيل الذي عنه مال، والإيمان الذي به كفر، والقرآن الذي إيّاه هَجَر، والدين الذي به كَذّب، والصراط الذي عنه نَكَب»[٨].

وعنه عليه السلام في احتجاجه على بعض الزنادقة، قال: «إنّ الله ورّى أسماء من اغترّ وفتن خلقه وضلّ وأضلّ، وكنّى عن أسمائهم في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ الآيتان»[٩].

قال الفخر الرازي: قالت الرافضة، هذا الظالم هو رجلٌ بعينه، وإنّ المسلمين غيّروا اسمه وكتموه، وجعلوا فلاناً بدلاً من اسمه، وذكروا فاضلين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله، ثمّ أطال الكلام في إثبات

---

١. تفسير القمي ٢: ١١٣، تفسير الصافي ٤: ١١. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٧٥.
٣. أي ذيل الآية، قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الشيطان للإنسان خذولاً﴾. ٤. تفسير الرازي ٢٤: ٧٥.
٥. في الكافي وتفسير الصافي: نازعاني. ٦. الزخرف: ٤٣/٣٨.
٧. في النسخة: وثوبه، ورثّت هيئة الرجل رُثوثةً: قبحت وهانت.
٨. الكافي ٨: ٢٧/٤، تفسير الصافي ٤: ١١. ٩. الاحتجاج: ٢٤٥، تفسير الصافي ٤: ١١.

دلالة لفظ الظالم على العموم، ثمّ قال: وأمّا قول الرافضة فذلك لا يتِمّ إلّا بالطعن في القرآن و[إثبات] أنه غُيّر وبُدّل، ولا نزاع في أنّه كفر[١].

وفيه: أنّه لم يقل أحدٌ من أصحابنا رضوان الله عليهم في خصوص الآية بالتغيير والتبديل، كما افتراه عليهم، بل يقولون: إنّ المراد من لفظ فلان ولفظ الشيطان هو الثاني، وإنّما كنّى الله عنه ولم يُصرّح باسمه لحكم كثيرة منها: عدم سدّ باب الضلال والامتحان على الناس، وكذلك لفظ الظالم في الآية - وإن كان عاماً - إلّا أنّ المراد أو أظهر مصاديقه هو الظالم لآل محمّد حقهم، وهو الأول، كما أنّ المراد من لفظ الفاسق في قوله: **﴿ان جائكم فاسق بنبأ﴾**[٢] هو الوليد بن المُغيرة[٣]، وإن كان اللفظ عاماً، والمراد من لفظ المؤمن في كثير من الآيات ومن قوله: **﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله﴾**[٤] خصوص أمير المؤمنين،[٥] وإن كان اللفظ عاماً.

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا هٰذَا ٱلْقُرْآنَ مَهْجُوراً * وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ ٱلْمُـجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً[٣٠و ٣١]

ثمّ حكى سبحانه شكاية النبي ﷺ من قومه المعترضين عليه بقوله: **﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾** شكايةً إلى ربّه إثر ما شاهد من قومه العتوّ والطُّغيان والطَّعن في القرآن: **﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾** قريشاً **﴿ٱتَّخَذُوا﴾** وجعلوا **﴿هٰذَا ٱلْقُرْآنَ﴾** الذي أنزلته لهدايتهم **﴿مَهْجُوراً﴾** ومتروكاً، بأن أعرضوا عنه، وصدّوا الناس عن الايمان به، أو مهجوراً فيه ومستهزءاً به بقولهم: إنّه شعر، أو سحر، أو كِهانة، أو كذب.

قيل: إنّ الرسول يقول ذلك في الآخرة[٦].

ثمّ سلّى سبحانه قلب حبيبه بقوله: **﴿وَكَذٰلِكَ﴾** العدوّ الذي جعلنا لك من مجرمي قومك كأبي جهل وأضرابه **﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾** قبلك **﴿عَدُوّاً مِنَ ٱلْمُـجْرِمِينَ﴾** والمتمرّدين من قومهم كنمرود لابراهيم، وفِرعون لموسى، واليهود لعيسى، فاصبر أنت كما صبروا وتَظْفَر كما ظَفِروا **﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً﴾** لك إلى جميع مطالبك التي منها رواج شرعك **﴿وَنَصِيراً﴾** لك على أعدائك، فاجتهد في التبليغ ولا تبالِ أحداً.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً* وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً[٣٢و٣٣]

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٧٥. ٢. الحجرات: ٦/٤٩. ٣. مجمع البيان ٩: ١٩٨.
٤. البقرة: ٢٠٧/٢. ٥. تفسير الرازي ٥: ٢٠٤، كفاية الطالب: ٢٣٩. ٦. تفسير الرازي ٢٤: ٧٧.

ثمّ حكى سبحانه اعتراض المشركين على القرآن بنزوله نجوماً بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قريش طعناً على القرآن: ﴿لَوْلَا﴾ وهلا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً﴾ ودفعةً ﴿وَاحِدَةً﴾ كتوراة موسى، وإنجيل عيسى على ما قاله أهل الكتاب؟ فأجاب سبحانه عنه بقوله: ﴿كَذٰلِكَ﴾ التفريق فرّقناه ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ ولنقوّي ﴿بِهِ فُؤَادَكَ﴾ وقلبك في التبليغ، لكون كلّ آيةٍ في حادثةٍ وواقعةٍ معجزةً ظاهرةً مستقلةً، فعجزهم عن إتيان مثلها دليلٌ واضح على صدقك، فيكون القرآن معجزاتٍ كثيرةً بحسب كثرة آياته، فلو نزل جملةً واحدةً لعدَ جميعه معجزةً واحدةً، ولكون نزوله على حسب أسئلة الناس والوقائع موجباً[1] لازدياد بصيرتهم، لانضمام فصاحته بالأخبار المغيبة، مع أنّ في نزوله مفرّقاً رِفقاً بالعباد وتسهيلاً[2] للعمل بالأحكام قليلاً قليلاً، فلو نزلت الأحكام جملةً واحدةً لثقلت عليهم، وخرجوا من الدين، ففي ثباتهم عليه مع ما استلزم التفريق من رؤية جَبْرئيل وقتاً بعد وقتٍ وحالاً بعد حالٍ تقوية لقلبك الشريف.

﴿وَ﴾ كذلك ﴿رَتَّلْنَاهُ﴾ وقرأناه عليك شيئاً فشيئاً، وعلى تُؤَدَةٍ ومَهلٍ ﴿تَرْتِيلاً﴾ حسناً موجباً لتيسّر فهمه وحِفظه والالتفات إلى جهات إعجازه ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ يا محمّد ﴿بِمَثَلٍ﴾ وسؤالٍ عجيبٍ واعتراضٍ غريبٍ يُعدّ في الغرابة من الأمثال، يُريدون به القَدْح في نبوّتك، والطعْن في كتابك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ﴾ وأوحينا إليك جواباً مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ المُبطِل لما أتوا به ﴿وَ﴾ بما يكون ﴿أَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ وألطف بياناً وتفصيلاً، لما هو الصواب ومقتضى الحكمة.

قيل: إنّ كلّ نبي إذا اعترض عليه قومه، كان هو بنفسه يردّ عليهم، وأما نبينا ﷺ فكان إذا قال له قومه شيئاً كان الله يَرُدّ عليهم[3].

ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً [٣٤]

ثمّ هدّد الله الطاعنين في القرآن المعترضين عليه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ ويُساقون من قبورهم إلى المحشر ماشين ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ويُسْحَبُون عليها ويُجَرَون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

في الحديث: «يُحشَر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف على الدوابّ، وصنف على الأقدام، وصنف على الوجوه» فقيل: يا نبي الله، كيف يُحشَرون على وجوههم؟ فقال: «إنّ الذي أمشاهم على أقدامهم، فهو قادر على أن يُمشيهم على وجوههم»[4].

---

١. في النسخة: موجب. ٢. في النسخة: رفق بالعباد وتسهيل.

٣ و٤. تفسير روح البيان ٦: ٢٠٩.

﴿أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ وأسوء مقاماً ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أخطأ طريقاً من كلّ أحد، لأنّ طريقهم مودٍ إلى الهلاك الأبد والعذاب المُخلّد.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً * فَقُلْنَا ٱذْهَبَا إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرنَاهُمْ تَدْمِيراً * وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً * وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ ٱلرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذٰلِكَ كَثِيراً * وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً[٣٥ـ٣٩]

ثمَ لمَا أخبر سبحانه بأنّه جعل لكلّ نبي عدواً، ذكر جماعةً من الأنبياء الذين ابتلوا بالأعداء فأهلكهم الله بعداوتهم لهم، فابتدأ بذكر موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ كما أعطيناك القرآن ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ﴾ النبي الذي كان اسمه ﴿هَارُونَ وَزِيراً﴾ ومعيناً يُعاونه في الدعوة وتحمّل أعباء الرسالة، كما جعلنا معك أخاك الحسبي علياً وزيراً وخليفةً يُعاونك في إعلاء كلمة التوحيد، وترويج دينك في حياتك، وحِفظ شريعتك بعد وفاتك ﴿فَقُلْنَا﴾ لهما بعد تشريفهما بمنصب الرسالة: ﴿ٱذْهَبَا﴾ بالرسالة من قبلي ﴿إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدي وكمال صفاتي، والمعجزات الباهرات التي أجريناها بيدكما تصديقاً لرسالتكما، وهم فِرعون وقومه من القِبط، فذهبا إليهم وأرياهم آياتنا فكذبوهما وعادوهما ﴿فَدَمَّرنَاهُمْ﴾ وأهلكناهم بالعذاب المستأصل بعد التكذيب ﴿تَدْمِيراً﴾ وإهلاكاً عجيباً هائلاً، وهو الغرق في بحرالقُلْزُم، ﴿وَ﴾ دمّرنا ﴿قَوْمَ نُوحٍ لمّا﴾ عادوه وكذّبوه و﴿كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ﴾ الذين قبله، أو الذين قبله وبعده بتكذيبه، لاستلزام تكذيبه تكذيب الكلّ، وكان تدميرهم أنّه ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ﴾ إلى يوم القيامة ﴿آيَةً﴾ عظيمةً على توحيدنا وكمال قدرتنا، وعِظةً ظاهرةً يَعتَبِر بها كلّ من شاهدها أو سَمِع قصّتها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ المُغرَقين بظُلمهم، أو لكلّ من سلك سبيلهم ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ في الآخرة، ﴿وَ﴾ دمّرنا ﴿عَاداً﴾ بتكذيبهم هوداً ﴿وَثَمُودَ﴾ بتكذيبهم صالحاً ﴿وَأَصْحَابَ ٱلرَّسِّ﴾ بتكذيبهم شُعيباً على ما قيل من أنهم كانوا عَبَدة أصنام وأصحاب آبارٍ ومواشٍ فبعث الله إليهم شعيباً، فدعاهم إلى الاسلام، فتَمادوا في الطغيان و[في] إيذائه، فبينما هم حول الرّس خَسف الله بهم وبدارهم[1].

وقيل: إنّهم بقية ثمود، سكنوا الرّس، وهي قرية بفَلْج اليمامة، قتلوا نبيّهم فهلكوا[2].

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٨٢.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٨٢.

وقيل: إنّهم بقية ثمود، وكان نبيّهم حنظلة بن صفوان، وكان قبل موسى، وكانوا على بئرٍ يرويهم ماؤها، ويكفي أرضهم جميعاً، فرَسّوا حنظلة فيها، فغار ماؤها ويَبِست أشجارُهم، وانقطعت ثمارهم فهلكوا[١].

وقيل: ابتلاهم الله تعالى بطيرٍ عظيمٍ ذي عُنقٍ طويل، كان فيه من كلّ لون، فكان إذا أعوزه الصيد يخْطِف صبيانهم ويذهب بهم إلى جهة المغرب، فسمّوه لطول عنقه وذَهابه إلى جهة المغرب عَنْقاء المغرب، فخَطَف يوماً ابنة مراهقة فشكوا ذلك إلى حنظلة، وشرطوا إن كَفُوا شرّه أن يُؤمنوا به، فدعا حنظلة على تلك العنقاء، فأرسل الله [عليها] صاعقةً فأحرقتها ولم تُعقب، أو ذهب الله بها إلى بعض جزائر البحر المحيط تحت خطّ الاستواء، وهي جزيرة لا يَصِل إليها الناس، ثمّ خالفوا شرطهم وقتلوه، أو رسّوه في البئر[٢].

وقيل: هم أصحاب الأُخدود، والرَّسّ هو الأُخدود[٣].

وقيل: هم قوم نساؤهم سحّاقات، فسلّط الله عليهم صاعقةً في أول الليل، وخسفاً في آخره، وصَيحةً مع الشمس، فلم يبق منهم أحد[٤].

وقيل: هم قومٌ كذّبوا نبياً أتاهم فحبسوه في بئرٍ ضيقة القُطر، ووضعوا على رأسها صخرةً عظيمةً لا يقدِر على حملها إلّا جماعة من الناس، وما آمن به إلّا عبد أسود، وكان العبد يأتي الجبل فيحتطب، ويحمل على ظهره، ويبيع الحُزمة، ويشتري بثمنها طعاماً، ثمّ يأتي البئر فيُلقي إليه الطعام من خُروق الصخرة، وكان على ذلك سنين، ثمّ إنّ الله أهلك القوم، وأرسل مَلَكاً فرفع الحجر، وأخرج النبي من البئر[٥].

وقيل: إنّ الأسود رفع الصخرة، فقوّاه الله لرفعها، وألقى حبلاً إليه واستخرجه من البئر فأوحى الله إلى ذلك النبي أنّه رفيقه في الجنة[٦].

والقمي: قال الرَّسّ نهر بأذربايجان[٧].

وعن الرضا، عن آبائه، عن الحسين بن علي عليهما السلام، قال: «أتى علي بن أبي طالب عليه السلام قبل مقتله بثلاثة أيام رجلٌ من أشراف تميم، يقال له عمرو، فقال له: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن أصحاب الرَّسّ في أي عصرٍ كانوا: وأين كانت منازلهم، ومن كان مَلِكهم، وهل بعث الله إليهم رسولاً أم لا،

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٦: ٢١٢.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ٨٢.
٤ و٥. تفسير روح البيان ٦: ٢١٢.
٦. تفسير روح البيان ٦: ٢١٣.
٧. تفسير القمي ٢: ٣٢٣، تفسير الصافي ٤: ١٥.

وبماذا أُهلكوا؟ فإنّي أجد في كتاب الله تعالى ذِكرهم، ولا أجد خَبَرهم؟

فقال علي عليه السلام: لقد سألت عن حديثٍ ما سألني عنه أحدٌ قبلك، ولا يُحدّثك به أحدٌ بعدي إلّا عنّي، وما في كتاب الله عزّ وجلّ آية إلّا وأنا أعرفها، وأعرف تفسيرها، وفي أيّ مكانٍ نزلت من سهل أو جبل، وفي أيّ وقتٍ من ليلٍ أو نهارٍ، وإن [ها]هنا لعلماً جمّاً ـ وأشار إلى صدره ـ ولكن طلابه يسيرٌ، وعن قليل تَندمون لو فَقَدْتموني[1].

وكان من قصّتهم يا أخا تميم أنّهم كانو يَعبُدون شجرة صَنوبر يقال لها شاه درخت، كان يافث بن نوح غرسها على شفير عينٍ يقال لها دوشاب، كانت انبطَت[2] لنوح عليه السلام بعد الطّوفان، وإنّما سُمّوا أصحاب الرَّسّ لأنهم رسّوا نبيهم في الارض، وذلك بعد سليمان بن داود عليه السلام وكانت لهم اثنتا عشرة قرية على شاطئ نهرٍ يقال له الرَّسّ من بلاد المشرق، وبهم سُمّي ذلك النهر، ولم يكن يومئذٍ نهرٌ أغزر منه ولا أعذب منه، ولا قرىً أكثر ولا أعمر منها، تسمّى إحداهن أبان، والثانية آذر، والثالثة دي، والرابعة بهمن، والخامسة اسفندار، والسادسة فروردين، والسابعة أردي بهشت، والثامنة خرداد، والتاسعة مرداد، والعاشرة تير، والحادية عشرة مهر، والثانية عشرة شهريور.

وكانت أعظم مدائنهم إسفندار، وهي التي ينزِلها مَلِكهم، وكان يُسمّى تركور بن عابور[3] بن يارش بن سار[4] بن نمرود بن كنعان فِرعون إبراهيم عليه السلام، وبها العين والصّنوبرة، وقد غرسوا في كلّ قرية منها حبّةً من طَلَع تلك الصّنوبرة، فنبتت الحبّة وصارت شجرةً عظيمة، وحرّموا ماء العين والأنهار، فلا يشربون منها ولا أنعامهم، ومن فعل ذلك قتلوه، ويقولون: هو حياة آلهتنا، فلا ينبغي لأحدٍ أن يُنقِص من حياتها، ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرَّسّ الذي عليه قُراهم.

وقد جعلوا في كلّ شهرٍ من السنة في كلّ قرية عيداً تجتمع إليه أهلها، فيضربون على الشجرة التي بها كُلّة من حرير فيها من أنواع الصُّور، ثمّ يأتون بشاةٍ وبقرٍ يذبحونهما[5] قُرباناً للشجرة، ويُشعِلون فيها النيران بالحطب، فاذا سَطَع دخان تلك الذبائح وقُتَارها[6] في الهواء، وحال بينهم وبين النظر إلى السماء خرّوا سُجّداً للشجرة، ويبكون ويتضرّعون إليها أن ترضى عنهم، وكان الشيطان يجيء فيحرك أغصانها، ويصيح من ساقها صياح الصبي: إنّي رضيت عنكم عبادي، فطيبوا نفساً، وقرّوا عيناً،

---

١. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: يندمون لو فقدوني.
٢. في النسخة: أنبتت.
٣. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: تركوذ بن غابور.
٤. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: سازن.
٥. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: فيذبحونها.
٦. القُتار: دُخان ذو رائحة خاصة ينبعث من الطبيخ أو الشِّواء أو البَخُور.

فيرفعون رؤوسهم عند ذلك، ويشربون الخمر، ويضربون بالمعازف، ويأخُذون «الدست بند»[١]، فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم، ثمّ ينصرفون.

وإنّما سمّيت العجم شهورها بأبان ماه وآذر ماه وغيرهما اشتقاقاً من أسماء تلك القُرى، يقول[٢] أهلها بعضهم لبعض هذا عيد شهر كذا، وعيد[٣] شهر كذا، حتى إذا كان عيد[٤] قريتهم العظمى اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم، فضربوا عند الصنوبرة والعين سُرادقاً من دِيباج[٥] عليه أنواع الصور، له اثنا عشر باباً، كلّ باب لأهل قرية منهم، ويَسْجُدون للصَّنوبرة خارجاً من السُّرادق، وما يُقرّبون لها من الذبائح أضعاف ما قرّبوا للشجرة التي في قُراهم فيجيء إبليس عند ذلك فيحرّك الصنوبرة تحريكاً شديداً، ويتكلّم من جوفها كلاماً جَهورياً ويَعِدهم ويُمنّيهم بأكثر ممّا وَعَدتهم ومنّتهم الشياطين كلها، فيرفعون رؤوسهم من السُّجود وبهم من الفرح والنشاط ما لا يُفيقون ولا يتكلّمون من الشُّرب والعزف، فيكونون على ذلك اثني عشر يوماً ولياليها بعدد أعيادهم سائر السنة، ثمّ ينصرفون.

فلمّا طال كفرهم بالله عز وجل وعبادتهم غيره، بعث الله سبحانه إليهم نبياً من بني إسرائيل من ولد يهودا بن يعقوب، فلبث فيهم زماناً طويلاً يدعوهم إلى عبادة الله عزّ وجل ومعرفته وربوبيته فلا يتّبعونه، فلمّا رأى شدّة تماديهم في الغيّ والضّلال، وتَرْكهم قَبول ما دعاهم إليه من الرُّشد والنجاح، وحضر عيد قريتهم العظمىٰ قال: يا ربّ، إنّ عبادك أبوا إلّا تكذيبي والكفر بك، وغدوا يَعْبُدون شجرةً لا تنفع ولا تضرّ، فأيبس شَجَرهم أجمع، وأرِهم قُدرتك وسُلطانك.

فأصبح القوم وقد يَبِس شجرُهم، فهالهم ذلك، وفظع[٦] بهم، وصاروا فرقتين: فرقة قالت: سَحَر آلهتكم هذا الرجل الذي يزعُم أنّه رسول إله السماء والأرض إليكم ليصرِف وجوهكم عن آلهتكم إلى إلهه، وفرقة قالوا: لا، بل غضبت آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيها ويدعوكم إلى عبادة غيرها، فحجبت حسنها وبهاءها لكي تغضبوا عليه[٧]، فتنتصروا منه، فأجمع رأيهم على قتله، فاتخذوا أنابيبَ طوالاً من رُصاص واسعة الأفواه، ثمّ أرسلوها في قرار العين إلى أعلى الماء واحدة فوق الأُخرى مثل البرابخ[٨]، ونزحوا ما فيها من الماء، ثمّ حفروا في قرارها بئراً ضيقة المدخل عميقةً،

---

١. الدست بند: لعبة للمجوس يدورون فيها وقد أمسك بعضهم يد بعض كالرقص.
٢. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: لقول.
٣. في النسخة: عيد.
٤. زاد في عيون أخبار الرضا عليه السلام: شهر.
٥. السُّرادِق: كل ما أحاط بشيءٍ من حائطٍ أو مضرب، والديباج: قماش سداه ولحمته حرير.
٦. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: وقطع.
٧. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: لها.
٨. البَرابخ: جمع بَرْبَخ، منفذ الماء ومجراه، والبالوعة من الخزف.

وارسلوا فيها نبيّهم، وألقموا فاها صخرةً عظيمةً، ثمّ أخرجوا الأنابيب من الماء، وقالوا: نرجو الآن أن ترضي عنّا آلهتنا إذ رأت أنّا قتلنا من كان يقع فيها ويصُدّ عن عبادتها ودفنّاه تحت التُّراب، وإن كبيرها يتشفّى منه، فيعود لنا نورها ونَضْرتها[١] كما كان، فبقوا عامّة يومهم يسمعون أنين نبيهم وهو يقول: سيدي قد ترى ضيق مكاني وشدّة كَربي، فارحم ضَعْف رُكني، وقلّة حيلتي، وعجّل قبض روحي، ولا تؤخر إجابة دعوتي، حتى مات.

فقال الله تعالى لجَبْرئيل عليه السلام: يا جَبْرئيل، أيظُن عبادي هؤلاء الذين غرّهم حِلمي، وأمنوا مكري، وعبدوا غيري، وقتلوا رسولي أن يقوموا لغضبي، ويَخْرُجوا من سُلطاني؟! كيف وأنا المنتقم ممّن عصاني، ولم يخشَ عقابي، وإنّي حلفتُ بعزّتي لأجعلنّهم عبرةً ونَكالاً للعالمين، فلم يَرُعهم وهم في عيدهم ذلك إلّا بريحٍ عاصفةٍ شديدة الحُمرة، فتَحيّروا فيها وذُعِروا منها وتضامّ بعضهم الى بعضٍ، ثمّ صارت الأرض من تحتهم كحجر كبريتٍ يتوقّد، وأظلّتهم سَحابةٌ سوداء، فألقت عليهم كالقُبّة جمراً يلتهب، فذابت أبدانهم [في النار] كما يذوب الرصاص في النار» الخبر[٢].

وروى بعض العامة هذه الرواية بتفاوت يسير[٣].

عن علي بن الحسين عليهما السلام، عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليهما السلام، وعن الصادق عليه السلام أنه دخل عليه نسوة فسألته امرأة منهنّ عن السّحق، فقال: «حدّها حدّ الزاني، فقالت: ما ذكر الله عزّ وجلّ ذلك في القرآن؟ فقال عليه السلام: «بلى». فقالت: وأين هو؟ قال: «هنّ أصحاب الرَّسّ»[٤].

والقمي عنه عليه السلام، قال: دخلت امرأة مع مولاتها على أبي عبدالله عليه السلام، فقالت: ما تقول في اللواتي مع اللواتي؟ قال: «هنّ في النار، إذا كان يوم القيامة أُتي بهنّ فألبسن جِلباباً من نارٍ، وخُفّين من نارٍ، وقناعاً من نار، وأُدخل في أجوافهنّ وفُروجهنّ أعمدةٌ من نارٍ، وقُذف بهنّ في النار» فقالت: ليس هذا في كتاب الله؟ قال: «بلىٰ» قالت: أين هو؟ قال: «قوله: **﴿وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ ٱلرَّسِّ﴾** فهن الرَّسيّات»[٥].

أقول: هذه الروايات في بيان سبب إهلاك نسوتهم، وما سبق في بيان سبب عقوبة الرجال، فلا تنافي بينها.

﴿وَ﴾ أهلك **﴿قُرُوناً﴾** وأُمماً كانوا **﴿بَيْنَ ذٰلِكَ﴾** المذكور من الأمم حال كونهم **﴿كَثِيراً﴾** لا يعلمهم

---

١. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: ونضارتها.
٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٠٥/١، تفسير الصافي ٤: ١٣.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٢١٣.
٤. الكافي ٧: ٢٠٢/١، تفسير الصافي ٤: ١٥.
٥. تفسير القمي ٢: ١١٣، تفسير الصافي ٤: ١٥.

إلّا الله.

﴿وَ﴾ ذكرنا ﴿كُلّاً﴾ من الأمم المُهلَكين و﴿ضَرَبْنَا﴾ وبيّنا بتوسّط الرسل ﴿لَهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ والقصص العجيبة الزاجرة عمّا هم عليه من الكفر والمعاصي ﴿وَكُلّاً﴾ من الطوائف بعد تكذيبهم الرسل وإصرارهم على الطغيان ﴿تَبَّرْنَا﴾ هم وأهلكناهم ﴿تَتْبِيراً﴾ وإهلاكاً عجيباً هائلاً.

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً * وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً[٤٠ـ٤٢]

ثمّ استشهد سبحانه على قدرته على تعذيب المكذّبين للرسل وشدّة غضبه عليهم بما وقع في سَدُوم من قرى قوم لوط بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ هؤلاء المشركون من قريش، ومرّوا مراراً كثيرة في أسفارهم إلى الشام للتجارة ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ الموسومة بسَدُوم ﴿ٱلَّتِى أُمْطِرَتْ﴾ من السماء ﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ وأُهلك أهلها بنزول الحجارة عليهم ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في ذَهابهم إلى الشام، ولم ينظُروا إلى آثار العذاب فيها فيخافوا ويعتبروا ويؤمنوا ﴿بَلْ﴾ علّة عدم إيمانهم أنهم ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ ولا يتوقّعون ﴿نُشُوراً﴾ ولا يؤمنون به حتى يرجوا ثواب الآخرة على الإيمان وطاعة الله مع وضوحه، فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوي حتى يتّعظوا بما شاهدوا من آثار العذاب؟ وإنما يحملونه على الاتفاقيات.

ثمّ أنه تعالى بعد حكاية إنكار المشركين نبوّة نبيه وشُبهاتهم فيها، حكى استهزاءهم به بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ الذين كفروا بالله وبرسالتك من قريش ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ومايفرضونك ﴿إِلَّا هُزُواً﴾ ومحلاً للسُّخرية، وكان كيفية استهزائهم أنه يقول بعضهم لبعض: ﴿أَهَٰذَا﴾ الرجل الفقير المهين فينا ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ﴾ إلينا ﴿رَسُولاً﴾ فنتّبعه في ما يقول، ونُطيعه في ما يحكم؟! ويقولون: ﴿إِن﴾ الشأن أنّه ﴿كَادَ﴾ وقرُب أنّه ﴿لَيُضِلُّنَا﴾ ويَصْرِفنا ﴿عَنْ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِنَا﴾ وأصنامنا بلُطف بيانه، وإكثار الحُجج على التوحيد، واجتهاده في الدعوة إليه ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا﴾ وثبّتنا ﴿عَلَيْهَا﴾ وأصررنا على عبادتها.

ثمّ هدّدهم سبحانه بقوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ البتة ﴿حِينَ يَرَوْنَ﴾ عِياناً في الآخرة ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ الأليم الشديد بالنار، أو في الدنيا بالقتل والأسر والذّل والجَلاء ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾؟ وأي الفريقين

أفسد مذهباً، هم أم محمّد والمؤمنون به الذين يدّعون أنّهم في ضلالٍ عن الحقّ؟

وفيه دلالةٌ على أنهم لم يكونوا على حُجّة في مذهبهم الباطل، وإنما عارضوه بمَحْض الجُحود والتقليد واللّجاج الذي هو دأب الجُهّال.

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً[٤٣ و ٤٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد الحُكم بضلالهم، وتهديدهم بالعذاب، زيّف مذهبهم بأنّه في الحقيقة عبادة هوى أنفسهم وشهوتهم لا إطاعة حكم عقولهم بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا محمّد ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ﴾ ومعبوده ﴿هَوَاهُ﴾ وشهوة نفسه، وهل تعجّبت من حُمق من بنى أمر دينه على ميل طبعه، فكلّما دعاه هواه إليه انقاد له، سواء منع عنه العقل السليم أم وافقه.

قيل: إنّ قوماً من العرب كانوا يعبُدون الحَجَر، وإذا رأوا حَجَراً أحسن شكلاً ولوناً من غيره سَجَدوا له[١].

وعن سعيد بن جبير: كان الرجل من المشركين يعبُد الصنم، فاذا رأى أحسن منه رماه واتّخذ الآخر وعبده[٢].

وعن ابن عباس: الهوى إله يُعبَد[٣].

وفي الحديث: «ما عُبد إلهٌ أبغض على الله من الهوى»[٤].

ثمّ آيس سبحانه نبيّه ﷺ عن هدايتهم لأن لا يُتعِب نفسه الشريفة في دعوتهم بقوله: ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد، ببذل جُهدك في دعوتهم ﴿تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ وحفيظاً تَحْفظهم من اتّباع الهوى وعبادة الأصنام، لا لا تكون حافظاً لهم إلّا بالإجبار الذي ليس لك، بل إنّما أنت منذرٌ، وقد قضيت ما عليك.

وقيل: إنّ المراد إنكار كونه ﷺ حفيظاً لهم من العذاب بإتعاب نفسه في دعوتهم[٥].

ثمّ نفى سبحانه عنهم أهلية الهداية بقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ وتتوهّم ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ حُججك وإنذارك ومواعظك ﴿أَوْ﴾ إذا سَمِعوها ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ويتفكّرون فيها، ولذا تطمع في إيمانهم، وتهتّم في دعوتهم، لا تتوهّم ذلك ﴿إِنْ هُمْ﴾ وما هؤلاء ﴿إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ والبهائم في العَرَاء من السمع والعقل ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وأبعد من البهائم ﴿سَبِيلاً﴾ وطريقاً الى الرشاد، لأنّها تنقاد لمن يقودها إلى ما فيه خيرها، وتطلب نفعها، وتجتنب عمّا فيه ضرّها، وتعرِف من يُحسن إليها مع عرائها عن العقل، وهم

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٢١٧.

٢ و٣. تفسير الرازي ٢٤: ٨٦.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٢١٧.

٥. تفسير أبي السعود ٦: ٢٢١.

مع عقلهم لا يعرِفون ربَهم المُحسِن إليهم، ولا ينقادون لمن يَدُلّهم إلى معرفته، ولا يطلُبون ثوابه الذي هو أعظم المنافع، ولا يجتنبون عقابه الذي هو أعظم المضارّ، ولأنّها لو لم تعتقد حقّاً لا تعتقد باطلاً ولا تكسب شراً بخلاف هؤلاء، ولأنّ جهالتها وضلالها لا تضُرّ أحداً، وجهالة هؤلاء وضلالهم تُؤدي إلى هج[1] الفتن وصدّ الناس عن كلّ حقٍّ وخيرٍ، ولأنّها عاجزة عن تحصيل الكمال، فلا تقصير منها ولا ذمّ عليها، بخلاف هؤلاء فانّهم قادرون عليه، مقصرّون فيه، مستحقّون لأشد الذمّ والعقاب.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً[٤٥ و ٤٦]

ثمّ أنّه تعالى لمّا ذمّ المشركين بعدم سماعهم الحجج على توحيده، وعدم تفكّرهم فيها، شرع في بيان أوضح الحجج عليها زائداً على ما سبق بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بعين رأسك، وبعين قلبك يا محمد ﴿إِلَىٰ﴾ صُنع ﴿رَبِّكَ﴾ أنّه بقدرته الكاملة ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلّ﴾ وبسط الكيفية المتوسطة بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة التي تكون بين الطلوعين وتحت السقوف وأفنية الجدران، وهي الحالة التي تكون أطيب الأحوال، لأنّ الظلمة الخالصة يكرهها الطبع، وينفِر عنها الحس، والضوء الخالص يبهَر البصر، ويؤثّر السخونة الشديدة، ولذا وصف سبحانه الجنّة بها بقوله: ﴿وظل ممدود﴾[2] ومن المعلوم أنه من النِّعم العظيمة والمنافع الجليلة التي لا بدّ لها من موجدٍ، ولا يكون إلّا الله، لعدم قدرة غيره على إيجاده.

﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ الله سكونه، ورأى الصلاح فيه ﴿لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ وثابتاً على حالةٍ واحدةٍ من الطول والعَرْض والامتداد والاقامة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ ومعرّفاً، لأنّ الأشياء تُعرَف بأضدادها، فانّه لولا الشمس لما رؤي[3] غير الجسم ولونه، ولا يُري الظلّ موجوداً ثالثاً، فاذا أشرقت الشمس وزال الظلّ بضوئها، عُرِف أنّه شيء بحياله، كما أنّه لولا الظلمة لما عُرِف النور، فالمراد من الآية أنا خلقنا الظلّ أولاً لما فيه من المنافع، ثم هدينا العقول إلى معرفة وجوده باطّلاع الشمس، فكانت الشمس دليلاً على وجود الظلّ الذي هو نعمة عظيمة.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ ورفعناه ﴿إِلَيْنَا قَبْضاً﴾ ورفعاً، ولكن لا دُفعة، بل يسيراً ﴿يَسِيراً﴾ فانّ الشمس كلّما ازدادت ارتفاعاً ازداد الظلّ نُقصاناً من جانب المغرب.

---

١. يقال: هجّ النار، أوقدها، وفي تفسير روح البيان ٦: ٢١٨: هيج.

٢. الواقعة: ٣٠/٥٦.

٣. في النسخة: رأى.

وقيل: لمّا خلق الله السماء والأرض والشمس والقمر والكواكب، وقع الظلّ على الأرض[١].

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاساً وَٱلنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً * وَهُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً * لِنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِىَّ كَثِيراً[٤٧ـ٤٩]

ثمّ لمّا كانت الأظلال تتحرّك بحركات الأضواء، جعل ضوء الشمس كالهادي، والظلّ كالمهتدي في سلوكه بالضوء، وقبضه إنّما يكون عند قيام الساعة بقبض الأجرام التي يقع الظلّ عليها، ويكون هذا القبض يسيراً وسهلاً على الله ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ**﴾ بقدرته وحكمته ﴿**لَكُمُ ٱلَّيْلَ**﴾ ساتراً بظلامه، كأنّه يكون ﴿**لِبَاساً**﴾ لكم ﴿**وَ**﴾ جعل ﴿**ٱلنَّوْمَ**﴾ فيه ﴿**سُبَاتاً**﴾ وراحةً لأبدانكم، حيث إنّه مستلزمٌ للفراغ من المشاغل والزحمات، أو موتاً كما قال: ﴿**هو الذى يتوفاكم بالليل**﴾[٢].

﴿**وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ**﴾ والوقت الذي ينتشر فيه ضوء الشمس ﴿**نُشُوراً**﴾ لكم ووقت التفرّق في الأرض لطلب معاشكم وتحصيل رزقكم، أو وقت القيام من الموت، فشبّه سبحانه النوم عليه بالموت، واليقظة بالبعث بعده، تنبيهاً على أن النوم واليقظة كما يكونان نعمةً عظيمةً يكونان اُنموذج الموت والبعث.

عن لقمان، أنه قال: يا بُني كما تنام فتُوقَظ، كذلك تموت فتُنشَر[٣]، أو فتُحشَر[٤].

﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ**﴾ حال كونها ﴿**بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ**﴾ وقُدّام المطر النافع الذي فيه حياة كلّ شيء، ﴿**وَأَنزَلْنَا**﴾ بقدرتنا ورحمتنا بعد إرسال الرياح ﴿**مِنَ ٱلسَّمَاءِ**﴾ المُظِل، والسقف المحفوظ، أو من جهة العُلوّ ﴿**مَاءً طَهُوراً**﴾ يتطهّر به من الأحداث والأرجاس والقذارات، فإن الطهارة نِعمةٌ ومِنّةٌ زائدة، حيث إنّ الماء الطهور أنفع وأهنأ، ويكون إنزاله ﴿**لِنُحْيِىَ بِهِ**﴾ بالنبت والزرع والأشجار والأزهار والثِّمار ﴿**بَلْدَةً**﴾ وقطعةً من الأرض التي تكون ﴿**مَيْتاً**﴾ لا نبت فيها ولا عِمارة، ولنشرب ذلك الماء ﴿**وَنُسْقِيَهُ**﴾ بعضاً ﴿**مِمَّا خَلَقْنَا**﴾ أعني ﴿**أَنْعَاماً وَأَنَاسِىَّ**﴾ ومواشي وبشراً ﴿**كَثِيراً**﴾.

قيل: إنّ المراد بهم أهل البوادي، فانّهم يعيشون بماء المطر، ولذا نكّر سبحانه الأنعام والأناسي. وأمّا أهل المُدن والقُرى، فانّهم يُقيمون بقُرب الأنهار والمنابع، والوحوش والطيور تبعد في طلب

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٨٩.
٢. الأنعام: ٦/٦٠.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٢٢.
٤. تفسير الرازي ٢٤: ٩٠.

الماء[١].

وإنّما خصّ سبحانه الأنعام بالذكر، لأنّ غاية معائشهم ومنافعهم منوطةٌ بها، ولذا قدّم سقيها على سقيهم، كما قدّم إحياء الأرض على سقيها، لأنّه سبب لحياتها وتعيّشها.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً * وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً * فَلا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً[٥٠ـ٥٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان المنافع الدنيويّة للمطر، بيّن منافعه الأخروية بقوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ أنزلنا المطر و﴿صَرَّفْنَاهُ﴾ وأجريناه ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في أنهارهم وأوديتهم، أو أنزلناه في مكانٍ دون مكانٍ، أو في عامٍ دون عام.

روي عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه [قال]: «ما من عام بأمطر من عامٍ، ولكن إذا عَمِل قومٌ بالمعاصي حوّل الله ذلك إلى غيرهم، فاذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي»[٢].

وعن ابن عباس: ما عام بأمطر من عام، ولكن الله يصرفه في الأرض[٣].

وقيل: إن المراد صرفنا وكوّرنا المذكور من الاظلال والرياح و السّحاب والمطر وسائر ما ذُكِر من الأدلة في القرآن وسائر الكتب السماوية[٤] ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ ويتفكّروا حتّى يعرفوا قدرة الله وحكمته وحقّ نعمته، ويقوموا بشكره وأداء تكاليفه ﴿فَأَبَىٰ﴾ وامتنع مع ذلك ﴿أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ ممّن سلف وخلف ﴿إِلَّا كُفُوراً﴾ لنعمه، وعدم المبالاة بشأنها، وعدم تأدية شكرها والقيام بحقّها، بل جحدوها باسنادها إلى الطبائع وتأثير الكواكب.

ثمّ لمّا كان للكفّار اعتراضٌ في بعث الرسول وشخصه، بيّن أنّ أمره راجعٌ إلى اختياره ومشيئته بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ ورأينا الصلاح ﴿لَبَعَثْنَا﴾ من قبلنا ﴿فِى كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ ومجتمعٍ للناس من بلدٍ ومدينةٍ ﴿نَّذِيراً﴾ ورسولاً من البشر، يُنذِر أهلها، ليخفف عليك أعباء الرسالة، ولكن أجللناك وعظّمنا شأنك بأن خصصناك بهذا المنصب العظيم، وبعثناك إلى الخلق أجمعين إلى يوم الدين تفضيلاً لك على سائر الأنبياء والمرسلين، فليس لأحدٍ أن يعترض علينا في إكثار الرسل أو تخصيصه بشخصٍ واحدٍ من أيّ صنفٍ كان، فاذا عَلِمت اختيارنا فيه وعِظَم شأنك لدينا ﴿فَلا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ في ما يطلُبون منك من الإمساك عن الدعوة إلى التوحيد ودعوىٰ الرسالة، وموافقتهم في عبادة أصنامهم خوفاً منهم، واتلُ عليهم القرآن الذي هو أعظم معجزاتك ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ واجتهد في مُحاجّتهم

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٢٥.

٢ - ٤. تفسير الرازي ٢٤: ٩٨.

ودفعهم عن باطلهم بهذا القرآن، أو بسبب علوّ قدرك، أو بسب كونك نذير جميع القُرى ﴿جِهَاداً كَبِيراً﴾ وعظيماً.

قيل: يعني جامعاً لمجاهدات الرسل الكثيرة[١].

قيل: إن توصيف مجاهدته بالقرآن بالكِبَر، لأنّه أكبر وأعظم من الجهاد بالسيف[٢].

وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً * وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً[٥٣ و ٥٤]

ثمّ بالغ سبحانه في بيان كمال قدرته بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ﴾ وأرسل، أو خلط، أو خلّى ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ والماء العظيمين في مجاريهما حال كونهما ممتازين كلّ من الآخر بحيث يقال: ﴿هٰذَا﴾ الماء ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ وطيبٌ رافعٌ للعطش لغاية عُذوبته وطيبه ﴿وَهٰذَا﴾ الماء الآخر ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغٌ في المُلوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً﴾ وحاجزاً وحائلاً من الأرض، أو من قدرته، كأنّه يتنفر كلّ منهما من الآخر، ويقول له: ﴿وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾ كما يقول الرجل ذلك لعدوّه تعوّذاً من شرّه، والمعنى أنّه يقول كلّ من البحرين للآخر: حرامٌ مُحرّمٌ عليك أن تختلط بي، وتغلِب عليَّ، وتُزيل صفتي، أو المراد تنافراً بليغاً، أو حداً محدوداً، والظاهر أنّ المراد بالبحر العذب الأنهار الكبار كالنِّيل والفُرات ودجلة، ومن المِلحْ الأجاج البحر المعهود، لما قيل من أنّه لا وجود للبحر العذب[٣].

قيل: إنّ دجلة تدخُل في بحر فارس، وهو المسمّى بالبحر الأخضر، وتجري في خلاله فراسخ لا يتغيّر طعمها[٤].

وقيل: إنّ النيل يدخُل في البحر الأخضر[٥]، وهو بحر فارس، وهو على عذوبته، والبحر مرّ زُعاق.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان كمال قدرته بصنعه في الماء، بيّن قدرته بخلق الانسان الذي هو أحسن مخلوقاته وأشرفها منه بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَاءِ﴾ الدافق المخلوق في أصلاب الرجال ﴿بَشَراً﴾ وإنساناً ينطوي فيه العالم الكبير ﴿فَجَعَلَهُ﴾ أو جعل الماء ﴿نَسَباً﴾ وذكراً يُنسَب إليه ويقال: فلان بن فلان ﴿وَصِهْراً﴾ وإناثاً يتزوّج بهنّ.

والظاهر أنّ النسب القرابة بالولادة، والصِّهر القرابة بالتزويج ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ بحيث لاحدّ

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٠.
٢. تفسير الصافي ٤: ١٩، تفسير روح البيان ٦: ٢٢٧.
٣ ـ ٥. تفسير روح البيان ٦: ٢٢٩.

لقُدرته، حيث خلق بقدرته من مادةٍ واحدةٍ بشراً ذا أعضاءٍ مختلفةٍ وطباعٍ متباعدةٍ، وجعله قسمين متباينين متقابلين، وربما يخلُق من مادةٍ واحدةٍ في رَحِم واحدةٍ ذكراً وأُنثىٰ توأمين.

عن ابن سيرين والسُّدّي: أنّ الآية نزلت في النبي ﷺ وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث زوّج النبيّ ﷺ ابنته فاطمة علياً عليه السلام فكان علي نسباً حيث إنّه ابن عمه، وصِهراً حيث إنّه زوج ابنته[١].

وعن الباقر عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «ألا وإنّي مخصوصٌ في القرآن بأسماء، احذروا أن تُغلَبوا عليها فتَضِلّوا في دينكم، أنا الصهر لقول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً**﴾»[٢].

وفي (روضة الواعظين) أنه قال رسول الله ﷺ: «خلق الله عزّ وجلّ نُطفةً بيضاء مكنونة، فنقلها من صُلبٍ إلى صُلبٍ حتى نُقِلت النُّطفة إلى صُلب عبدالمطّلب، فجعلها نصفين، فصار نصفها في عبدالله، ونصفها في أبي طالب، فأنا من عبدالله، وعلي من أبي طالب وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَاءِ بَشَراً...**﴾»[٣].

وقيل: إنّ المراد من الماء الماء الذي هو أصل الموجودات[٤]، والمراد من البشر آدم عليه السلام[٥].

عن الصادق عليه السلام: أنّه سُئِل عن هذه الآية فقال: «إنّ الله تبارك وتعالى خلق آدم من الماء العَذْب، وخلق زوجه من سِنخه، فبرأها من أسفل أضلاعه، فجرى بذلك الضِّلع بينهما سببٌ ونسبٌ، ثمّ زوّجها إياه، فجرى بينهما بسبب ذلك صِهر، فذلك قوله: ﴿**نَسَباً وَصِهْراً**﴾ فالنسب ما كان بسبب الرجال، والصِّهر ما كان بسبب النساء»[٦].

أقول: يعني بسبب النطفة والتزويج.

وعن الصدوق باسناده عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: قلت له: يا رسول الله، عليّ أخوك؟ قال: «نعم، عليٌّ أخي». قلت: يا رسول الله، صِف لي كيف عليّ أخوك؟ قال: «إنّ الله عز وجل خلق ماءً تحت العرش قبل أن يخلُق آدم بثلاثة آلاف عام، وأسكنه في لؤلؤة خضراء في غامض علمه، إلى أن خلق آدم، فلمّا خلق آدم نقل ذلك الماء من اللؤلؤة، فأجراه في صلب آدم إلى أن قبضه الله تعالى، ثمّ نقله إلى صُلب شيث، فلم يَزَل ذلك الماء ينتقل من ظهرٍ إلى ظهرٍ حتى صار في عبدالمطلب، ثمّ شقّه

---

١. مجمع البيان ٧: ٢٧٣، وتفسير الصافي ٤: ١٩، وتفسير روح البيان ٦: ٢٣٠، عن ابن سيرين.
٢. معاني الأخبار: ٩/٥٩، تفسير الصافي ٤: ٢٠. ٣. روضة الواعظين: ٧١، تفسير الصافي ٤: ٢٠.
٤. الرازي ٢٤: ١٠١. ٥. مجمع البيان ٧: ٢٧٣.
٦. تفسير القمي ٢: ١١٤، تفسير الصافي ٤: ١٩.

[الله] عزّ وجلّ نصفين، فصار نصفه في أبي عبدالله بن عبدالمطلب، ونصف في أبي طالب، فأنا من نصف الماء، وعلي من النصف الآخر، فعلي أخي في الدنيا والآخرة»[1].

أقول: للرواية وأمثالها تأويلات لا يفهمها إلّا من نوّر الله قلبه بالايمان، وأنعم عليه بالفِكر الصائب والبصيرة الكاملة.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً[٥٥ ـ ٥٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان كمال قدرته وعظمته، وبّخ المشركين على عبادة الأصنام التي لا قدرة لها على شيءٍ بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ﴾ ومجاوزين عنه ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن لا يَعبُدوه، لأنها جمادات لا ينبغي لذي مُسكة[2] الاعتماد عليها ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ المشرك بشركه وعداوته للحقّ ﴿عَلَىٰ رَبِّهِ﴾ الخالق له وإلهه المربّي له ﴿ظَهِيراً﴾ وعوناً للشيطان. وقيل: يعني هيّناً[3].

وعن الباقر عليه السلام ـ في رواية ـ «علي هو ربّه في الولاية»[4].

والقمي، قال: الكافر هو الثاني، وكان علي أمير المؤمنين عليه السلام ظهيراً»[5].

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان عداوة الكفّار له، بيّن لُطفه بهم الموجب لحبّهم له بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمّد، إلى الناس ﴿إِلَّا﴾ لتكون ﴿مُبَشِّراً﴾ لهم بالثواب على الطاعة ﴿وَنَذِيراً﴾ لهم بالعقاب على العصيان، فمن أجهل ممّن اجتهد في إظهار العداوة لمن يحبّه ويلطُف به ويُصلِح مهماته من دون طمعٍ في مالهم، ولذا أمر نبيّه بإعلامهم بعدم توقّع أجرٍ منهم على الرسالة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهولاء المشركين: أنا مبعوث إليكم لتبليغ الحقّ و﴿مَا أَسْأَلُكُمْ﴾ ولا أطلبُ منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ شيئاً ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ ومالٍ لنفسي حتى تقولوا: إنّ محمداً يطلُب أموالنا بما يدعونا إليه ﴿إِلَّا﴾ عمل ﴿مَن شَاءَ﴾ واراد ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ﴾ قُرب ﴿رَبِّهِ﴾ ورحمة مَليكة ﴿سَبِيلاً﴾ من الايمان والطاعة له، فانّه أجري وجُعلي على التبليغ والدعوة، فانّ أجرى على رسالتي طاعتكم لله وتقرّبكم إليه، فانّ النبي يُثاب بقدر

---

١. أمالي الطوسي: ٦٣٧/٣١٢، تفسير الصافي ٤: ٢٠، ولم نعثر عليه في مصنفات الشيخ الصدوق، والذي في الصافي: وعن الأمالي، بدل وعن الصدوق.

٢. المُسكة: العقل الوافر والرأي.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ٢٢٦.

٤. بصائر الدرجات: ٥/٩٧، تفسير الصافي ٤: ٢٠.

٥. تفسير القمي ٢: ١١٥، تفسير الصافي ٤: ٢٠.

عبادة اُمّته، وفيه المبالغة في دفع شبهة طمعه في الأجر الدنيوي وإظهار غاية الشُّفقة بهم، فهذا نظير قول الوالد لولده: إنّي لا أطلب باحساني إليك وتربيتي إياك أجراً إلّا أن تحفَظ نفسك ومالك من التّلَف.

وقيل: إنّ المراد لا أسألكم على الدعوة إلى الله إلّا أن يشاء أحدٌ أن يتقرّب إلى الله بالانفاق في الجهاد وسائر الخيرات، فيتّخذ به سبيلاً إلى رحمة ربّه ونَيْل ثوابه[1].

وقيل: إنّ الاستثناء منقطع[2]، والمعنى لا أسألكم عليه أجراً لنفسي، ولكن أسألكم أن تطلُبوا الأجر لأنفسكم باتّخاذ السبيل إلى ربّكم[3].

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً[٥٨]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه تظاهر الكفّار على عداوة الله ورسوله، أمر نبيه ﷺ بالاعتماد عليه في دفع شرّهم بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ واعتمد يا محمد في دفع شرّهم وكفاية اُمور معاشك ومعادك ﴿عَلَى﴾ ربّك ﴿ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لاَ يَمُوتُ﴾ فإنه الحقيق بأن يتوكّل عليه دون الحيّ الذي من شأنه أن يموت، فانّه بالموت يُضيّع من توكّل عليه ﴿وَسَبِّحْ﴾ ونزّه ربّك من النقائص الامكانية كالعجز والحاجة والجهل والغفلة ونظائرها، أو صلّ لربك، أو قل: سبحان الله، حال كونك مُقرِناً له ﴿بِحَمْدِهِ﴾ والثناء عليه بنعوت الكمال وطلب مزيد إنعامه بشكره على سوابق نعمه.

ثمّ وعد سبحانه نبيّه بالانتقام من أعدائه بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ ما ظهر منها وما بَطَن ﴿خَبِيراً﴾ ومُطّلعاً لا يحتاج إلى غيره في تعذيبهم والانتقام منهم، لكمال قدرته عليه، فيجزيهم جزاءً وافياً، فلا عليك أن آمنوا أو كفروا، أو أطاعوا أو خالفوا.

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمٰنُ فَسْأَلْ بِهِ خَبِيراً[٥٩]

ثمّ وصف نفسه بالقدرة الكاملة إرعاباً للقلوب وتقويةً للدواعي على التوكّل عليه بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بقدرته ﴿ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات ﴿فِى﴾ مُدّة مقدارها مِقدار ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا، أو في ستة أوقات كلّ وقتٍ منها محدود بالاضافة إلى ما خلق فيه، على

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٢.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ٢٢٦.

ترتيبٍ اقتضته الحكمة، فالمُدّة المتوهمة التي خلق فيها الأرض يوم، والتي خلق فيها السماوات يوم وهكذا، وإنّما خلق العالم على التدريج مع قدرته على خلقه جميعاً في أقلّ من طَرْفة عينٍ، لحكمٍ لا يعلمها إلّا هو، منها تعليم العباد التأني في الأمور ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ واستولى بقدرته الكاملة وعلمه الشامل ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ونفذ تصرّفه وتدبيره في جميع الموجودات.

قيل: إنّ الاستقرار على سرير المُلك، كما هو الظاهر من الاستواء على العرش، كنايةٌ عن قوة سلطانه ونفاذ أمره[1]، أو رفعه على السماوات[2]. فهذا القادر على خلق الموجودات العُلوية والسُّفلية المنبسطة رحمته على الممكنات هو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فانّ الرحمانية هي الاستواء والقاهرية على جميع الممكنات ﴿فَسْأَلْ﴾ يا محمّد ﴿بِهِ﴾ شخصاً ﴿خَبِيراً﴾ وعالِماً بكيفية خلق الموجدات والاستواء عليها.

قيل: هو الله لعدم علم غيره بها[3]. وعن ابن عباس: هو جَبْرئيل[4]. وقيل: هو العالم بالكتب السماوية ليصدقك فيه[5].

قيل: إنّ لفظ (به) متعلّق بخبير، وإنّما قُدّم تحفّظاً على رؤوس آلاي وحُسن النظم[6].

وقيل: إنّ الباء زائدة، والمعنى فأسأله حال كونه خبيراً[7].

وقيل: إنّها بمعنى (عن)[8]. وقيل: إنّها للتعدية لتضمّن السؤال معنى الاعتناء[9]. وقيل: إنّها للقسم كقوله: ﴿واتقوا ٱلله ٱلَّذِى تسائلون بِهِ﴾[10].

روي أنّ اليهود حكوا ابتداء خلق الأشياء بخلاف ما أخبر الله تعالى[11].

وقيل: إنّ ضمير (به) راجع إلى الرحمن ردّاً على إنكار المشركين إطلاق اسم الرحمن على الله، بأنّ العالم بالكتب السماويّة يعلم أنّ ما يُرادف هذا الاسم أُطلق على الله في الكتب[12].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً[٦٠]

ثمّ لما توهّم المشركون من أمر النبي ﷺ بالسجود للرحمن، أمره بعبادة غير الله، لجهلهم بان الرحمن من أسمائه تعالى، ذمّهم سبحانه على ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ﴾ والإله

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٣٤.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٥.
٣ و٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٥.
٥. تفسير البيضاوي ٢: ١٤٦.
٦ ـ ٨. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٥.
٩. تفسير البيضاوي ٢: ١٤٦.
١٠. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٥، والآية من سورة النساء: ١/٤.
١١. مجمع البيان ٧: ٢٧٥، تفسير الصافي ٤: ٢١.
١٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٢٧، تفسير الصافي ٤: ٢٢.

الذي خلق برحمته جميع الموجودات قيل: إنّ المراد بالسجدَة هنا الصلاة[١] ﴿قَالُوا﴾ اعتراضاً على النبيّ ﷺ ما تقول ﴿وَمَا ٱلرَّحْمٰنُ﴾ وأي شيء هو؟ فانّا لا نعرِف أن يكون اسماً لشيء ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ بالسجود له مع عدم معرفتنا إيّاه، لا نطيعك في ذلك ﴿وَزَادَهُمْ﴾ الأمر بالسجود للرحمن ﴿نُفُوراً﴾ وانزجاراً عن الايمان.

روي أن أبا جهل قال: إنّ الذي يقوله محمّد شِعرٌ. فقال ﷺ: «الشعر غير هذا، إنْ هذا إلّا كلام الرحمن» فقال أبو جهل: بخٍ بخٍ، لعمري والله إنّه لكلام الرحمن الذي باليمامة، هو يعلّمك. فقال ﷺ: «الرحمن الذي هو إله السماء، ومِن عنده يأتيني الوحي» فقال: يا آل غالب، من يعذرني من محمد، يزعُم أنّ الله واحدٌ، وهو يقول: الله يعلّمني والرحمن، ألستم تعلمون أنّهما إلٰهان؟ ثمّ قال: «ربّكم الله الذي خلق هذه الأشياء، أمّا الرحمن فهو مسيلمة»[٢]. قيل: فسجد رسول الله ﷺ وعليّ وجماعة الصحابة، ولمّا رآهم المشركون يَسْجُدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين، فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ أي فزادهم سجودهم نفوراً[٣].

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً[٦١ و ٦٢]

ثمّ لمّا ذكر الله نفورهم عن السجود له، بيّن كمال عظمته الموجبة لسجود جميع الموجودات له بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى، أو تكاثر خير الإلٰه ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ بقدرته وحكمته ﴿فِى ٱلسَّماءِ﴾ لنفع الناس ﴿بُرُوجاً﴾ ومنازل الكواكب السبعة السيارة.

وعن ابن عباس: البروج: هي الكواكب العِظام[٤].

﴿وَجَعَلَ فِيها﴾ لهذا العالم المظلم ﴿سِرَاجاً﴾ وشمْساً مضيئةً ﴿وَقَمَراً مُنِيراً﴾ بالليل ﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ وذوي عقبة يعقّب كلّ منهما الآخر، ويأتي خلفه.

وعن ابن عباس: جعل كلّ واحدٍ منهما يخلُف صاحبه في ما يحتاج أن يعمل فيه، فمن فَرط في عمل أحدهما قضاه في الآخر[٥].

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: وقد فاتته قراءة القرآن بالليل: يا بن الخطاب، لقد أنزل الله فيك آية، وتلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً...﴾ ما فاتك من

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٣٥.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٥.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٦.
٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٦.

النوافل بالليل فاقضِهِ فِي [نهارك، وما فاتك من النهار فاقضه في] ليلك[١].

وعن الصادق عليه السلام: «كلّ ما فاتك بالليل فاقضِه بالنهار، قال الله تبارك وتعالى» وتلا هذه الآية. ثمّ قال: «يعني أن يقضي الرجل ما فاته بالليل»[٢].

وقيل: يعني جعلهما مختلفين بالسواد والبياض والطول والقِصَر[٣]، كلّ هذه النِّعم العِظام نافعٌ أو مخلوق ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ ويتفكّر فيها، فيستدلّ بها على عظمة خالقها وكمال قدرته ولطفه ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ لمنعمه والقيام بحقّ نعمته بالجِدّ في الطاعة، والجُهد في العبادة.

وقيل: إنّ المعنى جعل الليل والنهار ليكونا وقتين للمتذكّرين والشاكرين، فمن فاته في أحدهما شيءٌ من العبادة قام به في الآخر[٤].

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً * وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً[٦٣ و ٦٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذمّ المشركين وعبّاد الشياطين بالامتناع عن السجود للرحمن والخضوع له، مدح عباده بالخضوع والتواضع والسجود له والتضرّع إليه والاقتصاد في المعيشة بقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمٰنِ﴾ هم ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ بين الناس ﴿عَلَى﴾ وجه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في النهار حال كونهم ﴿هَوْناً﴾ ومتذلّلين متواضعين ليّنين، لا يضربون بأقدامهم أشراً ولا بطراً، ولا يتجبّرون، ولا يتبخترون، لعلمهم بعظمة ربهم وهيبته، وشهودهم كبرياءه وجلاله، فخشعت لذلك أرواحهم، وخضعت نفوسهم وجوارحهم.

وفي الحديث: «المؤمنون هيّنون ليّنون، كالجمل الأنف إن قيد انقاد، وإن استُنيخ[٥] على صخرةٍ استناخ»[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «هو الرجل يمشي بسجيّته التي جُبِل عليها لا يتكلّف ولا يتبختر»[٧].

والقمي، عن الباقر عليه السلام، أنّه قال في هذه الآية: «الأئمّة يمشون على الأرض هوناً خوفاً من عدوّهم»[٨].

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٦.
٢. من لا يحضره الفقيه ١: ١٤٢٨/٣١٥، تفسير الصافي ٤: ٢٢.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٦.
٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٧.
٥. في تفسير روح البيان: انيخ.
٦. تفسير روح البيان ٦: ٢٤٠.
٧. مجمع البيان ٧: ٢٧٩، تفسير الصافي ٤: ٢٣.
٨. تفسير القمي ٢: ١١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٣.

وعن الكاظم عليه السلام: «هم الأئمة عليهم السلام يتقون في مشيهم»[١].

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ﴾ وكلمهم ﴿الْجَاهِلُونَ﴾ بكلام فيه خُرق وهزء وقَباحة ﴿قَالُوا﴾ نطلب منكم ﴿سَلَاماً﴾ وأمناً من الشرّ والضرّ، لا نُجاهلكم ولا نُخالط بشيء من أموركم، بل بيننا متاركةٌ تامة.

وقيل: يعني قالوا قولاً سلاماً، أي سَداداً، يَسلَمُون فيه من الأذى والإثم[٢].

وقيل: قالوا سلاماً أي سلام توديع لا تحية[٣]، والمراد أنّا لا نُقابلكم بسوء، بل نعدِل عن طريقتكم ونحلُم عنكم.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان سِيرتهم في النهار مع الخَلْق، بيّن سِيرتهم في الليل مع الخالق بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ﴾ ويُصبحون لياليهم حال كونهم ﴿لِرَبِّهِمْ سُجَّداً﴾ لله ﴿وَقِيَاماً﴾ قيل: يبيتون لله على أقدامهم، ويَفْرُشون له وجوههم، تجري دموعهم على خُدودهم خُوفاً من ربّهم[٤].

وقيل: يُصلّون في جميع الليل، وإنّما ذكر عبادتهم بالليل لكونها أشقّ وأبعد من الرياء[٥]، وفي الخبر: من كثّر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار[٦].

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَاماً[٦٥ـ٦٧]

ثمّ ذكر سبحانه أنّهم مع اجتهادهم في العبادة خائفون من عذاب الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في صلاتهم، أو في سُجودهم وقيامهم، كما عن ابن عباس[٧]، أو في عامّة أوقاتهم[٨] ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ﴾ وادفع ﴿عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ وشراً دائماً، وهلاكاً لازماً لكلّ من ابتلى به.

عن الباقر عليه السلام يقول: «ملازماً لا يفارق»[٩].

وعن ابن عباس: الغرام هو المُوجِع[١٠].

وقيل في تفسير الغرام: إنّه تعالى سأل الكفار ثمن نعمه، فما ادّوها إليه، فأغرمهم فأدخلهم النار[١١].

ثمّ ذكروا علّة مسألتهم النجاة من جهنّم بقولهم: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ قيل: إنّها مستقرٌ

---

١. تفسير القمي ٢: ١١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٣.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٤١.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٨.
٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٨.
٥ و٦. تفسير روح البيان ٦: ٢٤٢.
٧. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٨.
٨. تفسير روح البيان ٦: ٢٤٣.
٩. تفسير القمي ٢: ١١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٣.
١٠. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٨.
١١. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٨.

للعصاة من المؤمنين، حيث إنّهم لا يُقيمون فيها، ومُقام للكفّار[١]. ويُحتمل أن يكون هذا كلام الله تعالى[٢].

في بيان المراد من الاسراف والتقتير

ثمّ مدحهم سبحانه بالاقتصاد في المعيشة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا﴾ على أنفسهم وعيالهم، وعلى الفقراء ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ ولم يتجاوزوا فيه عن حدّ التوسّط ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾.

وعن ابن عباس: الاسراف: هو الانفاق في معصية الله تعالى، والاقتار منع حقّ الله تعالى[٣].

وعن مجاهد: لو أنفق رجلٌ مثل جبل أبي قُبيس ذَهَباً في طاعة الله تعالى، لم يكن سَرَفاً، ولو أنفق صاعاً في معصية الله تعالى يكون سَرَفاً[٤].

وقيل: يعني لم يُنفِقوا في معاصي الله، ولم يُمسِكوا عمّا ينبغي، وذلك قد يكون في الإمساك عن حقّ الله، وهو أقبح تقتيرٍ، وقد يكون في الامساك عن المندوب، كالانفاق على الفقير[٥].

وقيل: إنّ السرف مجاوزة الحدّ في التنعّم والتوسّع في الدنيا، وإن كان من حلالٍ، كالأكل فوق الشِّبَع بحيث يمنع النفس من العبادة، والاقتار: هو التضييق، كالأكل أقلّ من الحاجة. قال: وهذه صفة الصحابة، كانوا لا يأكُلون طعاماً للتنعّم واللذّة، ولا يلبسون ثياباً للتجمّل والزينة، ولكن يأكُلون مايسُدّ جوعهم، ويعينهم على عبادة ربّهم، ويلبسون ما يستُر عوراتهم ويَصُونهم عن الحرّ والبرد[٦].

وعن القمي: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ يعني لم يُنفِقوا[٧] في المعصية ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ يعني لم يَبْخَلوا عن حقّ الله[٨].

وعن النبيّ ﷺ: «من أعطى في غير حقٍّ فقد أسرف، ومن منع من حقّ فقد قَتَر»[٩].

وعن علي عليه السلام: «ليس في المأكول والمشروب سَرَفٌ وإن كثُر»[١٠].

وعن الصادق عليه السلام: «إنّما الإسراف في ما أفسد المال وأضرّ بالبدن».

قيل: فما الاقتار؟ قال: «أكل الخُبز والمِلح وأنت تقدِر على غيره».

قيل: فما القصد؟ قال: «الخبز واللّحم واللبن والخلّ والسّمن، مرّة هذا، ومرّة هذا»[١١].

وعنه عليه السلام: أنّه تلا هذه الآية، فأخذ قبضةً من حصى، وقبضها بيده، فقال: «هذا الاقتار الذي ذكره [الله] في كتابه» ثمّ قبض قبضةً أخرى، فأرخى كفّه كلّها، فقال: «هذا الإسراف» الخبر[١٢].

---

١ ـ٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٩.
٦. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٩.
٧. في المصدر: والإسراف الإنفاق.
٨. تفسير القمي ٢: ١١٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣.
٩ و١٠. مجمع البيان ٧: ٢٨٠، تفسير الصافي ٤: ٢٤.
١١. الكافي ٤: ١٠/٥٤، تفسير الصافي ٤: ٢٤.
١٢. الكافي ٤: ١/٥٤، تفسير الصافي ٤: ٢٤.

﴿وَكَانَ﴾ الانفاق ﴿بَيْنَ ذٰلِكَ﴾ المذكور من الاسراف والاقتار ﴿قَوَاماً﴾ ووسطاً عدلاً.

وفي الخبر ثمَ أخذ قبضة اُخرى فأرخى بعضها وأمسك بعضها، وقال: «هذا القوام»[١].

وعن القمي: القَوام: العدل[والانفاق] في ما أمر الله به[٢].

وَٱلَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً[٦٨]

ثمَ لمَا كانت هذه الأعمال من المشركين القاتلين للبنات ممكنةً، وصف عباده بالتوحيد واجتناب الكبائر بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ﴾ ولا يَعبُدون ﴿مَعَ ٱللهِ﴾ الحقّ ﴿إِلٰهاً آخَرَ﴾ ولا يُشركون به غيره ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللهُ﴾ قتلها بوجه ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ المُبيح لقتلها كالقِصاص أو الحدّ ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ ولا يُجامعون امرأة بغير الاسباب المبيحة لجماعها، وفيه تعريض للكفّار بأنّهم يعبُدون إلٰهاً آخر، ويقتلون البنات، ويزنون ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ﴾ المذكور من القبائح ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾ ويَنَل وَبال تلك الأعمال.

وقيل: إنّ الآثام وادٍ في جهنَم[٣].

وعن القمي: آثام: وادٍ من أودية جهنّم من صُفرٍ مُذاب، قُدَامها خُدَة[٤] في جهنّم، يكون فيه من عَبَد غير الله ومن قتل النفس التي حرّم الله، ويكون فيه الزُّناة[٥].

وقيل: هو جهنم[٦].

وفي الحديث: الغيّ والآثام بئران يسيلُ فيهما صَديد أهل النار[٧].

وعن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله أيّ ذنبٍ أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نِدّاً وهو خَلَقك» قلت: ثمّ أيّ؟ قال: «أن تقتُل ولدك خشية أن يأكل معك». قلت: ثمَ أيّ؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك» فأنزل الله تصديقه[٨].

يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً

---

١. الكافي ٤: ١/٥٥، تفسير الصافي ٤: ٢٤.
٢. تفسير القمي ٢: ١١٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ١١١.
٤. في الخُدّة: الحفرة المستطيلة في الأرض. وفي النسخة: حدّة.
٥. تفسير القمي ٢: ١١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٤.
٦. تفسير الرازي ٢٤: ١١١.
٧. تفسير روح البيان ٦: ٢٤٧.
٨. تفسير الرازي ٢٤: ١١١.

رَحِيماً[٦٩و ٧٠]

ثمّ بيّن سبحانه الآثام، وأكّد تهديد المرتكبين لتلك القبائح العظام بقوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ ويتزايد له العقاب وقتاً بعد وقت ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ بسبب انضمام شركه بالمعاصي ﴿وَيَخْلُدْ﴾ في العذاب ويقيم ﴿فِيهِ﴾ ابداً حال كونه ﴿مُهَاناً﴾ وذليلاً ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ ورجع عن شِركه وعِصيانه، وآمن بوحدانية ربّه ﴿وَعَمِلَ﴾ بعد إيمانه ﴿عَمَلاً صَالِحاً﴾ مرضياً عند الله ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ التائبون الصالحون ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ بأن تُمحى سيئاتهم من صحيفة عملهم، ويُكتَب مكانها الحسنات، كما عن سعيد بن المسيّب وجماعة من مفسري العامّة[١].

عن النبي ﷺ: أنه [قال]: «ليتمنين أقوام أنّهم أكثروا من السيئات» قيل من هم يا رسول الله؟ قال: «الذين يُبدّل الله سيئاتهم حسنات»[٢].

وعنه ﷺ: «أنّه يُؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويُخبّأ عنه كِبارها، فيقال: عَمِلت يوم كذا وكذا وهو مقرّ لا يُنكِر، وهو مشفِق من الكبائر، فيقال: أعطوه مكان كلّ سيئةٍ عَمِلها حسنةً، فيقول: إنّ لي ذنوباً ما أراها هاهنا». قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه، ثمّ تلا ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ﴾ إلى آخره[٣].

في بيان المراد من تبديل السيئات بالحسنات

أقول: يَحتمل كون المراد من الرواية المحو والاثبات للذين[٤] ذكرنا، وإخفاء الصورة وإظهارها.

عن الباقر عليه السلام: أنّه سُئِل عن الآية، فقال: «يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة فيُوقَف بموقف الحساب، فيكون الله تعالى هو الذي يتولّى حسابه، لا يُطلِع على حسابه أحداً من الناس فيُعرّفه ذنوبه، حتى إذا أقرّ بسيئاته قال الله عز وجل للكتَبَة: بدّلوها حسنات، وأظهروها للناس. فيقول الناس حينئذٍ: ما[٥] كان لهذا العبد سيئة واحدة» إلى أن قال: «هي للمُذنبين[٦] من شيعتنا خاصة»[٧].

وعن الرضا عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة أوقف الله عزّ وجلّ المؤمن بين يديه، وعرض عليه عمله، فينظُر في صحيفته، فأول ما يرى سيئاته، فيتغيّر لونه، وترتعد فرائصه، ثمّ تُعرَض عليه حسناته فتقرّ حينئذٍ لذلك[٨] نفسه، فيقول الله عزّ وجلّ: بَدلوا سيئاته حسنات، وأظهروها للناس. فيبدّل الله لهم

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ١١٢، تفسير روح البيان ٦: ٢٤٧.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ١١٢.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٤٧.
٤. في النسخة: الذين.
٥. في أمالي المفيد: أما.
٦. في أمالي المفيد وتفسير الصافي: هي في المذنبين.
٧. أمالي المفيد: ٢٩٨/٨، تفسير الصافي ٤: ٢٤.
٨. في تفسيري القمي والصافي: فتفرح لذلك.

فيقول الناس: أما كان لهؤلاء سيئة واحدة؟ وهو قول الله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللهُ﴾ إلى أخره»[١].

وعنه، عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حبّنا أهل البيت يكفّر الذنوب، ويضاعف الحسنات، وإنّ الله تعالى ليتحمّل من[٢] محبّينا أهل البيت ما عليهم من مظالم العباد إلّا ما كان منهم [على] إصرارٍ وظُلمٍ للمؤمنين ،فيقول للسيئات: كوني حسنات»[٣].

أقول: الظاهر منه تغيير مُجسّمة الأعمال، وقريب منه رواية أُخرى عنه عليه السلام[٤].

وعن الباقر عليه السلام ـ في حديث ما معناه ـ: «أنّ الله سبحانه يأمُر بأن تُؤخَذ حسنات أعدائنا فتُرَدَ على شعيتنا، وتؤخذ سيئات شيعتنا فتُرَدَ على مبغضينا، وهو قول الله تعالى: ﴿فَأُولٰـئِكَ يُبَدِّلُ ٱللهُ﴾ إلى آخره، يبدّل الله سيئات شيعتنا حسنات، ويبدّل الله حسنات أعدائنا سيئات»[٥].

وعن ابن عباس: أنّ التبديل إنّما يكون في الدنيا، فيبدّل الله تعالى قبائح أعمالهم في الشرك بمحاسن الأعمال في الاسلام، فيبدّلهم بالشِّرك إيماناً، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفّة [وإحصاناً]، فكأنّه تعالى يُبشّرهم بأنه يُوفّقهم لهذه الأعمال الصالحة، فيستوجبوا بها الثواب[٦].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «ما جلس قومٌ يذكُرون الله إلّا نادى بهم منادٍ من السماء: قُوموا فقد بدّل الله سيئاتكم حسنات»[٧].

وقيل: إنّ المراد بالتبديل تبديل عقابهم بالثواب[٨].

ثمّ بيّن سبحانه علّته بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ فمقتضى الصفتين؛ هذا التبديل وازدياد الثواب.

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللهِ مَتَاباً * وَٱلَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً * وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً * وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً[٧١ـ ٧٤]

ثمّ إنه تعالى بعد البشارة بقبول توبة المشركين المرتكبين للكبيرتين، بشّر عُموم العُصاة بقبول توبتهم بقوله: ﴿وَمَن تَابَ﴾ ورجع عن أيّ معصيةٍ ونَدِم عليها ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ يتدارك به ما فرّط،

---

١. تفسير القمي ٢: ١١٧، تفسير الصافي ٤: ٢٥.
٢. في أمالي الطوسي: عن.
٣. أمالي الطوسي ٢٧٤/١٦٤، تفسير الصافي ٤: ٢٥.
٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٥٧/٣٣، تفسير الصافي ٤: ٢٥.
٥. علل الشرائع: ٦٠٩ و٨١/٦١٠، تفسير الصافي ٤: ٢٥.
٦. تفسير الرازي ٢٤: ١١٢.
٧. روضة الواعظين: ٣٩١، تفسير الصافي ٤: ٢٥.
٨. تفسير الرازي ٢٤: ١١٢.

والتزم بالطاعة ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ﴾ ويرجِع بعد الموت ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿مَتَاباً﴾ عظيم الشأن مرضياً عنده ماحياً للعقاب ومُحصّلاً للثواب.

وقيل: يعني من تاب إلى الله من المعاصي الماضية يوفقه الله للتوبة من المعاصي المستقبلة، وهذه بشارة عظيمة[١].

وعن القمي: أي لا يعود إلى شيءٍ من ذلك باخلاصٍ ونيّةٍ صادقةٍ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ﴾ ولا يَحْضُرون ﴿ٱلزُّورَ﴾ والباطل والمجالس التي تُرتَكب فيها المحرّمات، أو خصوص الكذب على الله والرسول، كما عن ابن عباس[٣].

وقيل: الزُّور هو الغِناء، كما عن الصادق عليه السلام[٤]، وابن الحنفية[٥]، وزاد القمي: مجالس اللهو[٦].

﴿وَإِذَا مَرُّوا﴾ بالمشغولين ﴿بِاللَّغْوِ﴾ والسفهي من القول والفعل، أو الفُحش من الكلام ﴿مَرُّوا﴾ به حال كونهم ﴿كِرَاماً﴾ ومنزّهين منه، معرضين عنه.

قيل: إذا سَمِعوا من الكفّار الشتم والأذى أعرضوا عنهم[٧].

وقيل: إذا ذكروا[٨] النِّكاح كنّوا عنه[٩].

وعن الباقر عليه السلام: «هم الذين إذا أرادوا ذِكر الفَرج كنّوا عنه»[١٠].

وعن الصادق عليه السلام: أنّه قال لبعض أصحابه: «أين نزلتم»؟ قالوا: على فلان صاحب القِيان. فقال: «كونوا كراماً، أما سمعتم قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾؟» الى آخره[١١].

وقال محمّد بن أبي عبّاد ـ وكان مشتهراً بالسّماع وشُرب النّبيذ ـ سألت الرضا عليه السلام عن السَّماع، فقال: «لأهل الحجاز رأيٌ فيه، وهو في حيّز الباطل واللّهو، أما سَمِعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾؟» إلى آخره[١٢].

أقول: الظاهر أنّ الجميع من مصاديق اللغو.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ ونبهوا ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالّة على المواعظ والحكم ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾ ولم يَسْقُطوا ﴿عَلَيْهَا﴾ حال كونهم ﴿صُمّاً﴾ وفاقدي الأسماع لا يصغون إليها إصغاء القَبول ﴿وَعُمْيَاناً﴾

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ١١٣.
٢. تفسير القمي ٢: ١١٧، تفسير الصافي ٤: ٢٦.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ١١٣.
٤. الكافي ٦: ٦/٤٣١، تفسير الصافي ٤: ٢٦.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ١١٣.
٦. تفسير القمي ٢: ١١٧، تفسير الصافي ٤: ٢٦.
٧. تفسير الرازي ٢٤: ١١٤.
٨. في تفسير الرازي: ذكر.
٩. تفسير الرازي ٢٤: ١١٤.
١٠. مجمع البيان ٧: ٢٨٣، تفسير الصافي ٤: ٢٦.
١١. الكافي ٦: ٩/٤٣٢، تفسير الصافي ٤: ٢٦.
١٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٥/١٢٨، تفسير الصافي ٤: ٢٦.

وفاقدي الأبصار، لم يُبصِروا ما فيها من المعجزات والعِبر، بل أكبّوا عليها وأقبلوا إليها سامعين بآذانٍ واعيةٍ، مبصرين بعيونٍ راغبةٍ، منتفعين بها حقّ الانتفاع على خلاف الكفار والمنافقين.

عن الصادق عليه السلام، قال: «مستبصرين ليسوا بشكّاك»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ يتضرّعون إلى الله و﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ﴾ جهة ﴿أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ ما يكون لنا ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ وضياء أبصار ومسرّة قلوبٍ من الطاعة والصلاح وحيازة الفضائل، ومساعدة في الدين، وقيل: إنّ المعنى هَب لنا قُرّة أعين[2].

ثمّ بيّنها بقوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ بأن يجعلهم الله مؤمنين صالحين ﴿وَٱجْعَلْنَا﴾ بتوفيقك لنا في الايمان والتقوى بحيث نكون ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ ومُقْتدىً في الاجتهاد في الطاعة، والقيام بمراسم الشريعة.

قال بعض العامة: إنّ الايات نزلت في العشرة المبشّرة[3].

وعن سعيد بن جبير: أنّ هذه الآية خاصة في أمير المؤمنين عليه السلام، وكان أكثر دعائه: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ يعني فاطمة ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ يعني الحسن والحسين عليهما السلام ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

قال عليه السلام: «والله ما سألت ربي ولداً نضير الوجه، ولا سألت ولداً حسن القامة، ولكن سألت [ربي] ولداً مطيعين لله خائفين وجلين منه، حتى إذا نظرت إليه وهو مطيعٌ لله قرّت به عيني» قال: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ [قال]: «نقتدي بمن قبلنا من المتقين، فيقتدي المتّقون بنا من بعدنا»[4].

وقال القمي: روي أن ﴿أَزْوَاجِنَا﴾ خديجة ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ فاطمة، و﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ الحسن والحسين ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ علي بن أبي طالب والأئمة عليهم السلام[5].

وعن الصادق عليه السلام: «إيانا عنى». وفي رواية: «هي فينا»[6].

أُولٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً * قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً [٧٥ ـ ٧٧]

ثمّ إنّه تعالى بعد توصيف عباده بالصفات الكريمة، بيّن الطافه بهم بقوله: ﴿أُولٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ وأعلى منازل الجنّة التي تكون من ذهبٍ ولؤلؤٍ ومَرجان على ما قيل[7] ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على مشاقّ

---

١. الكافي ٨: ١٧٨/١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢٦. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ١١٤.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ١١٥. ٤. مناقب ابن شهرآشوب ٣: ٣٨٠، تفسير الصافي ٤: ٢٧.
٥. تفسير القمي ٢: ١١٧، تفسير الصافي ٤: ٢٧. ٦. جوامع الجامع: ٣٢٦، تفسير الصافي ٤: ٢٧.
٧. تفسير روح البيان ٦: ٢٥٤.

الطاعات، ورفض الشهوات، وتحمّل المجاهدات ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾ في الغرفة من الملائكة، أو من ربّ العزّة، ويَنالون ﴿فِيهَا تَحِيَّةً﴾ ودعاءً بطول الحياة ﴿وَسَلَاماً﴾ وَصَوناً من شوائب الضّرر والآفات، فيكون لهم بقاءٌ بلا فَناء، وغنيٌ بلا فَقْر، وعزٌّ بلا ذُلّ، وصحةٌ بلا سُقم، وراحةٌ بلا تعب حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿حَسُنَتْ﴾ تلك الغُرفة من حيث كونها ﴿مُسْتَقَرّاً﴾ ومنزلاً ﴿وَمُقَاماً﴾ ومحلّ إقامة.

ثمّ أنّه تعالى بعد حكاية دعاء العباد حثّ الناس في الدعاء والعبادة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمؤمنين ﴿مَا يَعْبَؤُا﴾ وما يصنع، أو ما يبالي، أو ما يعتني ﴿بِكُمْ رَبِّى﴾.

وقيل: إنّ (ما) استفهامية[١]، والمعنى أي شيءٍ يصنع بكم، أو أيّ وزن لكم؟[٢]

وعن الباقر عليه السلام: «ما يفعل بكم»[٣] ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ ومسألتكم إياه، أو تَضَرّعكم إليه في الشدائد، أو إيمانكم، أو عبادتكم، أو شُكركم له نِعَمَهُ.

وقيل: يعني لولا دُعائي إيّاكم إلى الايمان والعبادة[٤].

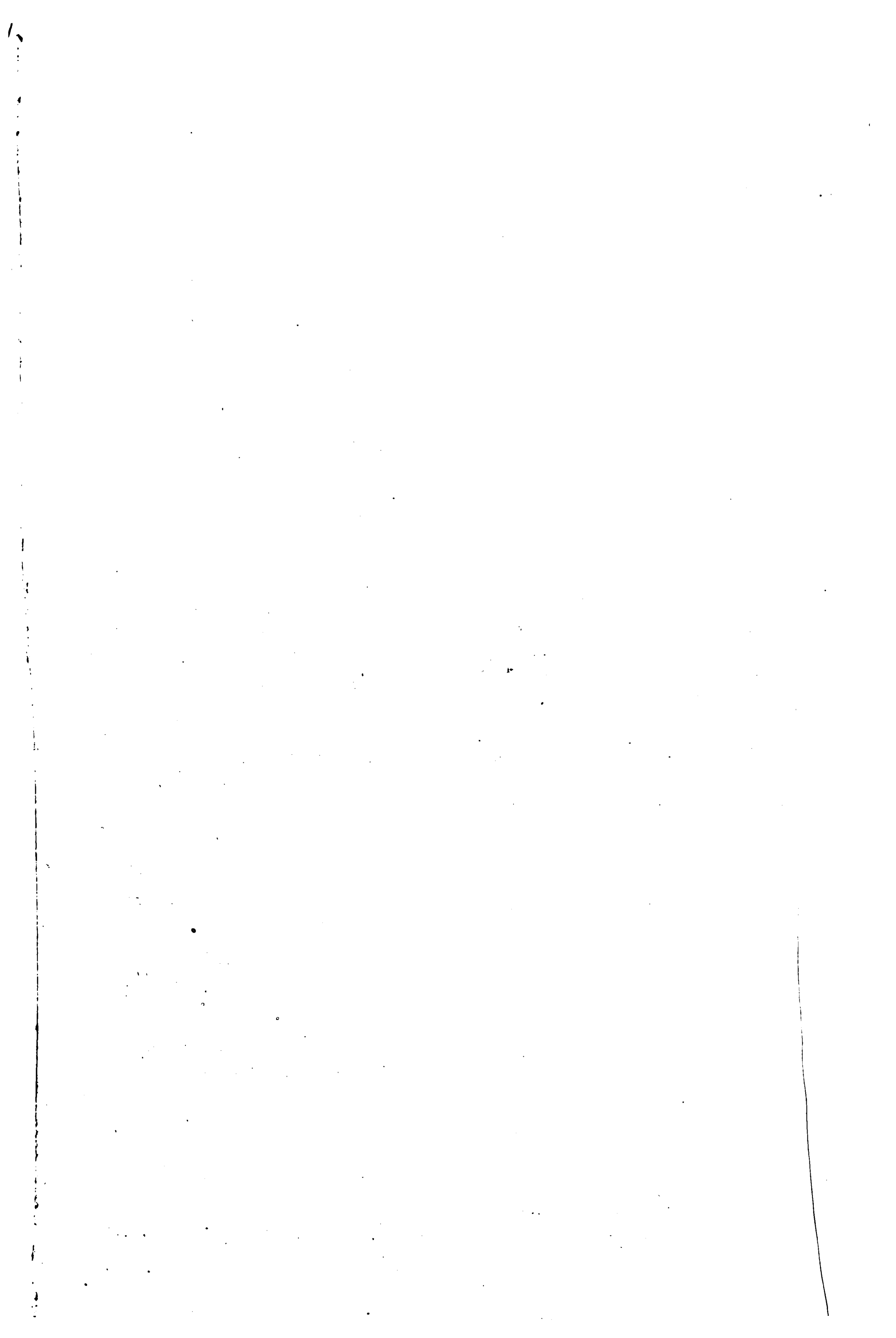
﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أيّها المشركون بما أخبرتكم من أنّ الله خلقكم، أو من أن الاعتناء بشأنكم إنّما يكون للايمان والعبادة والدعاء ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ هذا التكذيب، أو جزاؤه الدنيوي أو الأُخروي ﴿لِزَاماً﴾ يحيق بكم لا محالة.

عن الباقر عليه السلام، أنّه سئل كَثرة القراءة أفضل أم كَثرة الدُّعاء؟ قال: «كَثرة الدعاء أفضل» وقرأ هذه الآية[٥].

عن الكاظم عليه السلام[٦]: «من قرأ هذه السورة في كَل ليلةٍ لم يُعذّبه الله أبداً، ولم يُحاسبه، وكان[٧] في الفِرْدَوس الاعلى»[٨].

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٥٦.
٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٣٢.
٣. تفسير القمي ٢: ١١٨، تفسير الصافي ٤: ٢٧.
٤. تفسير الرازي ٢٤: ١١٧.
٥. مجمع البيان ٧: ٢٨٥، تفسير الصافي ٤: ٢٧.
٦. في مجمع البيان: أبي الحسن الرضا عليه السلام وفي ثواب الاعمال: أبي الحسن عليه السلام.
٧. زاد في ثواب الاعمال وتفسير الصافي: منزله.
٨. ثواب الاعمال: ١٠٩، مجمع البيان ٧: ٢٥٠، تفسير الصافي ٤: ٢٨.



في تفسير سورة الشعراء

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ ٱلسَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ [١ ـ ٤]

ثمّ لمّا ختم سبحانه السورة المباركة ببيان أنّ الغرض من الخلق الايمان والعبادة، وأنّه يعذّب مُكذّب الرسول على تكذيبه بأشدّ العذاب، أردفها في النَّظم بسورة الشعراء المتضمّنة لبيان عظمة القرآن، وإصرار النبيّ ﷺ على إيمان قومه، وامتناعهم منه، وتهديدهم بما وقع على الأمم السابقة من العذاب على تكذيب الرسل، وذكر بعض أدلّة التوحيد، ودفع بعض شُبهات المشركين في الرسالة.

فابتدأ سبحانه فيها على حسب دأبه في الكتاب الكريم بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثمّ افتتحها بذكر الحروف المقطّعة بقوله: ﴿طسم﴾ للحكم التي سبق ذكرها في بعض الطرائف[١]، ومرّ فيها بعض ما لها من التأويل.

وعن ابن عباس في ﴿طسٓمٓ﴾ عجرت العلماء عن تفسيرها[٢].

وروى بعض العامة عن عليّ عليه السلام: «أنّه لمّا نزل ﴿طسٓمٓ﴾ على رسول الله ﷺ قال: طاء: طور سيناء، وسين: اسكندرية، وميم: مكّة»[٣].

وروى بعضهم عن الصادق عليه السلام أنه قال: «أقسم الله بشجرة طوبى، وسدرة المنتهى، ومحمّد المصطفى في القرآن بقوله: ﴿طسٓمٓ﴾ فالطاء: شجرة طُوبىٰ، والسين سدرة المنتهى، والميم: محمد المصطفى»[٤].

وفي (المعاني) عنه عليه السلام: «وأمّا ﴿طسٓمٓ﴾ فمعناه أنا الطالب السميع المُبدي المعيد»[٥].

ثمّ ذكر سبحانه جواب القسم، وهو عظمة القرآن وإعجازه بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ السورة أو الآيات التي

---

١. راجع: الطرفة (١٨) من مقدمة المؤلف.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٥٨.
٣. مجمع البيان ٧: ٢٨٨، تفسير الصافي ٤: ٢٩، تفسير روح البيان ٦: ٢٥٨.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٢٥٩.
٥. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٤: ٢٩.

فيها هي ﴿آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾ والقرآن الظاهر إعجازه لعجز الناس عن الاتيان بمثله، أو المظهر للمعارف والأحكام والعلوم المحتاج إليها مع اُمية من أتى به، أو المظهر للحقّ والباطل، أو المراد هي الآيات المكتوبة في اللّوح المحفوظ.

ثمّ لمّا كان النبيّ ﷺ مع قوّة دلالة القرآن على صدقه شديد الحزن على عدم إيمان قومه به، سلّاه سبحانه إشفاقاً عليه بقوله: ﴿لَعَلَّكَ﴾ يا محمّد ﴿بَاخِعٌ﴾ وقاتلٌ ﴿نَفْسَكَ﴾ غمّاً على قومك لأجل ﴿أَلَّا يَكُونُوا﴾ مع عظمة معجزتك ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ بتوحيد الله وبرسالتك وصدق كتابك، لا تغتمّ فانّهم ليسوا بأهلٍ[١] للإشفاق عليهم، لكونهم في غاية اللّجاج والعِناد للحقّ، فلا يؤمنون بالطّوع، وإن أحببت إجبارهم على الايمان، فنحن قادرون عليه لأنّا ﴿إِن نَشَأْ﴾ إجبارهم عليه ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ ٱلسَّمَاءِ آيَةً﴾ عظيمةً مُلجئة لهم إلى الايمان كإنزال الملائكة أو الصيحة ﴿فَظَلَّتْ﴾ وصارت بسبب تلك الآية ﴿أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ منقادين بحيث لا يقدِر أحدهم أن يميل عنقه إلى المخالفة والعصيان، وإنّما لم نشأ ذلك لعدم الفائدة في هذا النحو من الايمان، كما لا فائدة في الايمان في الآخرة.

ثمّ إنه تعالى نسب الخضوع إلى رقابهم، مع أنه حال يعرِض لهم لأنّها محلّة، ولذا جاء سبحانه بالجمع الذي للعقلاء.

وقيل: إنّ المراد بالأعناق الرُّؤساء والكُبراء، كما يقال لهم الرؤوس[٢].

وقيل: إنّ المراد جماعاتهم كما يقال: جاء عُنق من الناس[٣].

عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: «سيفعل الله ذلك بهم» قيل: من هم؟ قال: «بنو اُمية وشيعتهم» قيل: وما الآية؟ قال: «رُكود الشمس ما بين زوال الشمس إلى وقت العصر، وخروج صدر ووجه في عين الشمس، يُعرف بحسبه ونسبه، وذلك في زمان السفياني، وعندها يكون بواره وبوار قومه»[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ القائم عليه السلام لا يقوم حتى ينادي منادٍ من السماء، تسمعه الفتاة في خِدرها، ويسمعه أهل المشرق والمغرب، وفيه نزلت هذه الآية ﴿إِن نَشَأْ نُنَزِّلْ﴾، إلى آخرها»[٥].

والقمي عنه عليه السلام قال: «تخضع رقابهم - يعني بني اُمية - وهي الصيحة من السماء باسم صاحب الأمر عليه السلام»[٦].

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا

---

١. في النسخة: بأهلين. ٢ و٣. تفسير الرازي ٢٤: ١١٩.

٤. إرشاد المفيد ٢: ٣٧٣، تفسير الصافي ٤: ٣٠. ٥. غيبة الطوسي: ١٣٤/١٧٧، تفسير الصافي ٤: ٢٩.

٦. تفسير القمي ٢: ١١٨، تفسير الصافي ٤: ٢٩.

فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ[٥ ـ ٩]

ثمّ ذمّهم سبحانه على إعراضهم عن الآيات بقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ وعِظة، أو تنبيه وتذكير للحقّ في القرآن الظاهر كونه ﴿مِنَ﴾ قبل ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بتوسّط نبيه ﷺ ﴿مُحْدَثٍ﴾ ومجدّد إنزاله لتكرر التذكير ﴿إِلَّا كَانُوا﴾ في كلّ كرةٍ من التذكير ﴿عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ وموَلّين ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ بذلك الذِّكر المُحدَث المُكرّر عَقيب الإعراض، وبلغوا النهاية في ردّ الآيات، حيث نسبوها تارةً إلى السحر، وأُخرى إلى الشعر، وثالثة إلى الأساطير ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ البتة من غير تخلّف بسبب إعراضهم وتكذيبهم المقرون بالاستهزاء ﴿أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وأخباره من العقوبة الشديدة العاجلة والآجلة التي بمشاهدتها يطّلعون على حقيقة حال القرآن من أنه كان حقاً نازلاً من الله، أو باطلاً مُخْتَلَقاً عليه، وحقيقاً بأن يُصدّق ويُعظّم قدره، أو يُكذّب ويُستَخَفّ به.

ثمّ أنّه تعالى بعد توبيخهم على تكذيب الآيات التدوينية، أنكر عليهم في ترك النظر والتفكّر في الآيات التكوينية على التوحيد بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم ينظُروا ﴿إِلَى﴾ عجائب صنعنا في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ المَيْتَة اليابسة انا ﴿كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا﴾ بانزال المطر عليها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ وصِنْفٍ ﴿كَرِيمٍ﴾ ومُرضي في ما يتعلّق به من المنافع حتى الضارّ منه، وإن غفل عنه الناس.

وفي (الجمع) بين كلمة (كَمْ) التي للكثرة ولفظ (كُلِّ) دلالة على الكَثْرة في كلّ صنفٍ من الأصناف.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإنبات، أو في كلّ واحدٍ من الأزواج ﴿لَآيَةً﴾ عظيمةً ودلالةً واضحةً على كمال قدرته وحكمته ووحدانيته، ووسعة رحمته الموجبة لايمان الناس والانزجار من الكفر ﴿وَمَا كَانَ﴾ مع ذلك ﴿أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لعدم تفكّرهم فيها وانهماكهم في الشهوات ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر على عباده، القادر على الانتقام من الكفّار، ومع ذلك يُمهلهم لأنه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم ورحمته مانعةٌ من تعجيله في عقوبتهم.

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ

مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ ٱلضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ [١٠ ـ ٢١]

ثمَ لمَا وصف ذاته المقدَسة بالوصفين المقتضيين لإرسال الرُسل وإمهال مكذّبيهم والانتقام منهم بعد حينٍ، شرع في بيان قَصَصِهم، ولمَا كان قصَة بعث موسى وأمَته أعجب بدأ بذكرها بقوله: ﴿**وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ**﴾ في جانب الطُور الأيمن من الشجرة ﴿**أَنِ ٱئْتِ**﴾ يا موسى ﴿**ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ**﴾ على ربَهم وعلى أنفسهم بالكفر والطغيان، وعلى بني إسرائيل باستعبادهم وذبح أولادهم، أعني بالقوم ﴿**قَوْمَ فِرْعَوْنَ**﴾ لدعوتهم إلى توحيدي وطاعتي، وإنذارهم من عذابي على الكفر والعصيان.

ثم اظهر سبحانه التعجَب من جُرأتهم عليه بقوله: ﴿**أَلَا يَتَّقُونَ**﴾ الله ولا يخافونه، أو لا يحترزون عن عذابه بالايمان والطاعة.

ثمَ كأنَه قيل: ماذا قال موسى؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿**قَالَ**﴾ موسى متضرّعاً إلى الله ﴿**رَبِّ**﴾ العالمين ﴿**إِنِّى أَخَافُ**﴾ من ﴿**أَن**﴾ يَنكِروا نبوتي و﴿**يُكَذِّبُونِ**﴾ في دعوى رسالتي ﴿**وَيَضِيقُ**﴾ لذلك ﴿**صَدْرِى**﴾ وقلبي، فينقبض منه روحي ﴿**وَلَا يَنطَلِقُ**﴾ لذلك ﴿**لِسَانِى**﴾ ويزيد فيه الحُبسة[1]، ويعسُر عليَ الدعوة والمحاجَة ﴿**فَأَرْسِلْ**﴾ جَبْرَئيل بالوحي ﴿**إِلَىٰ**﴾ أخي ﴿**هَارُونَ**﴾ الذي هو أفصح لساناً منَي، ليكون مُعيناً لي في تبليغ رسالتك، وهداية خلقك، وإلّا لاختلّت مصلحة بَعثي إليهم ﴿**وَ**﴾ مع ذلك ﴿**لَهُمْ**﴾ بزعمهم ﴿**عَلَيَّ**﴾ وفي عُهدتي ﴿**ذَنبٌ**﴾ عظيمٌ، وهو قتل القِبطي دفعاً عن السِّبْطي ﴿**فَأَخَافُ**﴾ أن آتيهم وحدي من ﴿**أَن يَقْتُلُونِ**﴾ قِصاصاً قبل ادّعاء الرسالة كما ينبغي، وأما هارون فلا ذنب لهم عليه، ففائدة بعثي إليهم معه أتمَ وأكمل، فردعه الله أولاً عن احتمال قتله قبل إكمال التبليغ بقوله ﴿**قَالَ كَلَّا**﴾ لا يقدرون على قتلك بالقِصاص وغيره، ثمَ أجاب مسألته في إرسال هارون معه بقوله، ﴿**فَاذْهَبَا**﴾ أنت وهارون إلى فرعون وقومه برسالتي مستدلّين على صدقكما في دعوتكما ﴿**بِآيَاتِنَا**﴾ التسع ﴿**إِنَّا مَعَكُم**﴾ بالعَون والنصرة، ومع عدوَكما بالقَهر والشَّوكة، ولمقالكما ومقال عدوكما ﴿**مُسْتَمِعُونَ**﴾ ولما يجري بينكما وبينه من الكلام سامعون ﴿**فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا**﴾ لفرعون وقومه: ﴿**إِنَّا**﴾ معاً ﴿**رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ**﴾ إليك، وإنَما أفرد الرسول للإشعار باستقلاله في الرسالة

---

١. الحُبسة: ثِقل في اللسان يمنع من الإبانة.

وتبعيه هارون له، ثمَ بيّن ما أرسل به بقوله: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ وأطلقهم من قَيد الأسر والعُبودية للقِبط، لأذهب بهم إلى أرض الشام، التي هي مسكن آبائهم.

قيل: كان فِرعون استعبدهم أربعمائة سنة، فانطلق موسى إلى مِصر، وكان هارون بها، فلمّا تلاقيا ذهبا إلى باب فِرعون ليلاً، ودقّ موسى الباب بعصاه، ففزع البوابون وقالوا: من بالباب؟ فقال موسى عليه السلام: أنا رسول رب العالمين، فذهب البوّاب إلى فِرعون فقال: إن مجنوناً بالباب يزعُم أنه رسول ربّ العالمين، فأذِن له في الدخول من ساعته[1].

وقيل: ترك حتى أصبح فدعاهما[2].

وقيل: لم ياذن لهما سنةً حتى قال البواب: هاهنا إنسان يزعُم أنّه رسول رب العالمين. فقال: إئذن له حتى نضحك منه، فدخلا عليه، وأدّيا الرسالة، فعرف موسى[3] لأنه نشأ في بيته فشَتَمه و﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ يا موسى ﴿فِينَا﴾ وفي حِجرنا ونِعمنا حال كونك ﴿وَلِيداً﴾ وصبياً رضيعاً قريب الولادة ﴿وَلَبِثْتَ﴾ وأقمت ﴿فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ كثيرة. قيل: كان فيهم[4] ثلاثين سنة[5] ﴿وَفَعَلْتَ﴾ أخيراً ﴿فَعْلَتَكَ﴾ القبيحة ﴿ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ من قتل القِبطي ﴿وَأَنتَ﴾ صرت بفعلتك ﴿مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ لنعمتي الجاحدين لحقّ تربيتي حيث عمدت إلى قتل رجلٍ من خواصّي ﴿قَالَ﴾ موسى: نعم، تلك الفعلة التي تقول ﴿فَعَلْتُهَا إِذاً﴾ وحين فعلت ﴿وَأَنَا﴾ كنت ﴿مِنَ ٱلضَّالِّينَ﴾ والخاطئين فيها، لا من المتعمّدين، فليس لك أن تَلُمني وتُؤاخذني بها، وتَعُدّ فعلي من كُفران نِعمتك، لأن السهو والخطأ عُذران عند العقلاء لا يُوجبان العِتاب والمؤاخذة، ومع ذلك بلغني أنّكم شاورتم في قتلي ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ وذهبتُ من بلدكم إلى مَدين ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ من أن تَقتُلوني ظُلماً وتُؤاخذوني بما لا أستحقّه ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى﴾ حين رجوعي من مَدين إلى مِصر ﴿حُكْماً﴾ وعقلاً كاملاً، ورأياً رزيناً، وعِلماً بتوحيده وكمال صفاته ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين اصطفاهم على عباده.

وقيل: إنّ المراد من الحكم النبوة، والمعنى جعلني أولاً نبياً، ثمّ أعطاني مَنْصِب الرسالة[6].

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُوقِنِينَ * قَالَ

---

١ ـ ٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٦٧.

٤. في تفسير الرازي: لبث عندهم، وفي تفسيري أبي السعود وروح البيان: لبث فيهم.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٢٥، تفسير أبي السعود ٦: ٢٣٨، تفسير روح البيان ٦: ٢٣٨.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٢٦٨.

لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ[٢٢ـ٢٨]

ثمّ أجاب عليه السلام عن مِنّته عليه بالتربية بقوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ التربية ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ ولكن كانت لأجل ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ واستعبدت ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ واستخدمتهم وذبحت ابناءهم ولذا ألقتني أمّي في اليمّ، ولولا هذا الظلم منك عليهم ما احتجتُ إلى تربيتك.

وقيل: يعني إنما أنفقت عليّ من أموال قومي الذين استعبدتهم وأخذت أموالهم، فلا مِنّه لك عليّ، أو أنّك وإن ربّيتني إلّا أنك ظلمت قومي، أو أنّ الذي ربّاني كان من الذين عبدتهم، وهو أمّي وسائر قومي، وإنّما الذي كان منك إنّك لم تَقْتُلني[1].

وعلىٰ أيّ تقدير: لما أجاب عن طعنه فيه ومنّته عليه، أخذ فِرعون في الاعتراض على ما ادّعاه من رسالة ربّ العالمين و ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ تجاهُلاً في معرفته [و] حفظاً لمُلكه ورياسته: يا موسى ﴿وَمَا﴾ حقيقة مرسلك الذي تقول إنّه ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وما كُنه ذاته؟ فإنّ رسوله لابدّ من معرفته بالذات، ولمّا لم يكن معرفة ذاته البسيطة من جميع الأجزاء العقلية والخارجية ممكناً، أجابه موسى ببيان صفاته وآثاره و﴿قَالَ﴾: هو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات وخالقها ومدبّرها، فاعْرِفوه بهذه الصفة ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بأنّ هذه الموجودات الممكنة لابد أن يكون وجودها مستنداً إلى واجب الوجود بالذات، وأقنعوا بهذا الجواب الذي هو أحسن الأجوبة عن سؤالكم.

وقيل: يعني إنّ كنتم موقنين بالأشياء محقّقين لها بالنظر الصحيح المؤدي إلى الإيقان، عَلِمتم بأنّ العالم عبارة عمّا ذكرت وربّه خالقه ومدبّره[2].

ولمّا لم يَفْهَم فِرعون جواب موسى عليه السلام ومطابقته لسؤاله تعجّب منه و﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ وفي مجلسه من الأشراف ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ إلى هذا الجواب فإنّي أسأله عن حقيقة مُرسله وجنسه، وهو يجيب بأفعاله وآثاره، وهذا عجيب من عقل هذا الرجل.

ثمّ لما كان مجال دعوى، قدّم السماوات والأرض وعدم احتياجهما إلى المُوجِد والمؤثر، عدل موسى عليه السلام عن الجواب الأول و﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ وخالقكم ومن المعلوم ان الشخص لا يكون خالق

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٢٦.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٦٩.

نفسه.

ثمَ لمّا كان فرعون مدّعياً أنه خالق أهل عصره دون الذين كانوا قبله عقبه بقوله: ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فانّ المستحقّ للربوبية هو الذي يكون رباً لجميع الأعصار، فلمّا لم يَفهَم فرعون حقيقة الجواب ﴿قَالَ﴾ لأهل مجلسه استهزاء بموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ حيث إنّه لا يَفهَم السؤال ولا يعرف الجواب ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام وهو غير معتنٍ بكلامه السّفهي زيادة في تعريف الربّ هو ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ ومُطلِع الشمس ومُغيبها ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات، وإنّكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ شيئاً وتميّزون بين صحيح الكلام وسقيمه، علِمتم أنّ حقّ الجواب عن سؤالكم ما قلت، وأنّه لا جواب عنه الا ما ذكرت إذ معرفة حقيقة الربّ غير معقولةٍ حيث إنّها بسيطة لا جنس لها ولا فصل، فاذن لا يمكن تعريفها إلّا بآثارها وأفعالها وعجائب صنعها، ومن الواضح أنّ سَير الشمس من المشرق إلى المغرب على وجه نافع ينتظم به أمور الخلق، لا يكون إلّا بتدبير القدير الحكيم اللطيف الخبير، ولا تتوقّف الرسالة على معرفة ذات المُرسِل بكُنهها، بل هي متوقّفه على معرفته بآثاره.

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ [٢٩ ـ ٣٣]

ثمَ لمّا عجز فِرعون عن معارضة موسى بالحُجّة، عدل إلى التهديد تمرّداً وطُغياناً و﴿قَالَ﴾: يا موسى، وعزّني ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ﴾ واخترت ﴿إِلَٰهاً غَيْرِى﴾ ومعبوداً سواي ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ﴾ البتّة ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ وفي زُمرة المحبوسين. قيل: كان يَسْجُنهم في حُفرةٍ عميقةٍ حتى يموتوا[١].

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: اتفعل ذلك ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ﴾ ومُعجِز ﴿مُّبِينٍ﴾ وموضّح لصدق دعواي في الرسالة؟ ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ وأظهِره لي ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ في دعوى الرسالة والمُعجزة.

قيل: كان في يد موسى عصاه، فقال لفرعون: ما هذه التي بيدي؟ قال فرعون: هذه عصا[٢] ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ من يده على الأرض ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ وحيّةٌ عظيمةٌ ظاهرةٌ، لم يَشُك أحدٌ

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ٢٤٠، تفسير روح البيان ٦: ٢٧٠.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٠.

في كونها حيةً.

قيل: إنّ فرعون التجأ إلى موسى من شدَة الرُّعب، وقال: يا موسى أسألك بالذي أرسلك أن تأخُذها فأخذها فعادت عصا[1].

وعن الباقر عليه السلام: «فالتقمت الإيوان بلَحْييها، فدعاه: أن يا موسى أقلني إلى غد»[2].

والقمي: فلم يبقَ أحدٌ من جُلساء فرعون إلّا هَرَب، ودخل فرعون من الرُّعب مالم يملِك [به] نفسه، فقال فرعون، أنْشُدك بالله وبالرَّضاع إلّا ما كففتها عنّي، فكفَّها فلمّا أخذ موسى عليه السلام العصا رجعت إلى فرعون نفسه، وهمّ بتصديقه، فقام إليه هامان، فقال له: بينا أنت تُعبَد إذ صرت تابعاً لعبد[3].

﴿وَنَزَعَ﴾ وأخرج ﴿يَدَهُ﴾ من جيبه بعد إدخالها تحته ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ كالقمر ﴿بَيْضَاءُ﴾ وذات نُور وبياضٍ من غير بَرَصٍ ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ اليها.

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ[٣٤ـ٣٩]

رُوي أنّ فِرعون لمّا رأى الآية الأولى قال: فهل غيرها؟ فأخرج يده فقال: ما هذه[4]؟ قال فِرعون: يدك فما فيها فادخلها في إبطه ثمّ نزعها ولها شُعاعٌ كاد يُغشي الأبصار ويَسُدّ الأُفق[5]، فلمّا خاف فرعون أن يُؤمن به خواصّه ﴿قَالَ﴾ احتيالاً في الصرف عنه، وتعميةً لهم هذه الحُجّة ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾ والأشراف الذين كانوا في مجلسه من القِبط: ﴿إِنَّ هٰذَا﴾ الرجل ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسِّحر فائقٌ على الناس فيه، ثمّ قال تنفيراً لقلوبهم من موسى عليه السلام: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُم﴾ ومملكتكم هذه، ويَقهركم على تبعيته ﴿بِسِحْرِهِ﴾ ثمّ قال تحبيباً لقلوبهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ وتُشيرون عليّ في أمره؟ وترون رأيكم في دفعه حتى اتّبعكم وأنقاد لقولكم فحَطّته معجزات موسى عليه السلام عن الاستقلال بالرأي مع دعواه الربوبية إلى إظهار الطاعة لرأي عبيده، فأجابه الملأو﴿قَالُوا﴾ له: ﴿أَرْجِهْ﴾ وأخر موسى ﴿وَأَخَاهُ﴾ ولا تَعْجَل في أمرهما، ولا تُبادر إلى قتلهما قبل أن يَظْهَر كِذْبهما حتى لا يسيء ظنّ

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٧١.
٢. مجمع البيان ٧: ٣٩٥، تفسير الصافي ٤: ٣٣.
٣. تفسير القمي ٢: ١١٩، تفسير الصافي ٤: ٣٣.
٤. في النسخة: هي.
٥. تفسير البيضاوي ٢: ١٥٤، تفسير أبي السعود ٦: ٢٤١، تفسير روح البيان ٦: ٢٧١.

الناس بك، فاذا ظهر كِذبهما كنت معذوراً فيما فعلت بهما من الحبس والقتل ﴿وَٱبْعَثْ﴾ وارسل الشّرط ﴿فِى ٱلْمَدَائِنِ﴾ قيل: يعني مدائن الصعيد في نواحي مصر[1] حال كونهم ﴿حَاشِرِينَ﴾ وجامعين الناس حتى ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ في فنّ السحر يَفْضُلون عليه فيه.

روي أنّ فِرعون أراد قتل موسى، ولم يكن يصل إليه، فقالوا له: لا تفعل فانّك إن قتلته أدخلت على الناس في أمره شُبهه، ولكن أرجِهِ وأخاه إلى أن تُحْشَر السحرة ليقاوموه، فلا تَثْبُت له عليك حُجَة، ثمّ أشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يَحْشُرون ويجمعون السَّحَرة ظنّاً منهم بأنّهم إذا كثّروا غلبوه وكشفوا حاله وعارضوا قوله: ﴿إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بقولهم: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [فجاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة] ليُطيّبوا قلبه، وليسكّنوا قَلَقَه[2].

فبعث فرعون الشُّرط إلى المدائن ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ وهم اثنان وسبعون، أوسبعون ألفاً، على اختلاف فيه في الإسكندرية على ما قيل[3] ﴿لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وزمانٍ معينٍ لحضورهم، وهو وقت الضحى، ويوم معين وهو يوم الزينة. ﴿وَقِيلَ﴾ من قبل فِرعون ﴿لِلنَّاسِ﴾ من أهالي مِصر وغيره ممّن يُمكن حضوره: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ في مجمع موسى والسَّحرة، ولتشاهدوا تعارضهم وتغالبهم؟ وإنما قالوا ذلك حثّاً على مبادرتهم إليه.

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ [٤٠ـ٤٢]

ثمّ بيّنوا الغرض من الاجتماع بقولهم: ﴿لَعَلَّنَا﴾ ورجاء منّا أن ﴿نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ في دينهم ﴿إِن كَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ﴾ على موسى في السِّحر.

﴿فَلَمَّا جَاءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ إلى باب فِرعون، وأذِن لهم في الدخول عليه، واستمال قلوبهم، وحثّهم على معارضة موسى ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ﴾ يا فِرعون ﴿أَئِنَّ لَنَا﴾ عندك ﴿لَأَجْراً﴾ جزيلاً وجُعلاً عظيماً من المال أو الجاه ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ﴾ على موسى؟ ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ لكم عندي أجرٌ عظيمٌ من المال ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ذلك ﴿إِذاً﴾ وحين غلبتموه ﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي.

قيل: وعدهم أن يكونوا أول من يدخُل عليه وآخر من يخرُج من عنده، وكان ذلك أعظم الشأن

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٧١.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٢.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٢.

عندهم[١].

وفي رواية عن الصادق عليه السلام: «بعث في المدائن حاشرين ـ يعني مدائن مصر كلّها ـ فجمعوا الف ساحرٍ، واختاروا من الألف مائة، ومن المائة ثمانين، فقال السحرة لفرعون: قد علِمت أنّه ليس في الدنيا أسحر منّا، فان غَلَبنا موسى فما يكون لنا عندك؟ قال: إنّكم لمن المقرّبين عندي، اُشارككم في مُلكي. قالوا: فإن غلبنا موسى وأبطل سحرنا، علمنا أنّ ما جاء به ليس من قبل السّحر، ولا من قبل الحِيلة، وآمنّا به وصدّقناه. قال فرعون: إنّ غلبكم موسى صدّقته أنا أيضاً معكم، ولكن اجمعوا كيدكم[٢]، وكان موعدهم يوم عيدٍ لهم، فلمّا ارتفع النهار جمع فرعون الخلق والسّحرة، وكانت له قُبّة طولها في السماء ثمانون ذراعاً، وقد كانت اُلبست الحديد والفُولاذ المَصْقُول، وكانت إذا وقعت الشمس عليها لم يَقدِر أحدٌ أن ينظُر إليها من لمع الحديد ووهج الشمس، فجاء فِرعون وهامان وقعدا عليها يَنْظُران، وأقبل موسى ينظُر إلى السماء، فقالت السَّحرَة لفِرعون: إنّا نرى رجلاً ينظُر إلى السماء، ولم يبلُغ سِحرنا السماء»[٣] الخبر.

قَالَ لَهُم مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَالِبُونَ * فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ[٤٣ ـ ٥٠]

وأحضروا حِبالهم وعِصِيّهم واصطفّوا في قبال موسى عليه السلام، ثم قالوا تأدباً وتعظيماً له: يا موسى إما أن تُلقي عصاك أولاً، وإما أن نُلقي حِبالنا وعِصِينا، الأمر إليك. فلمّا تواضعوا له تواضع هو أيضاً لهم وقدّمهم على نفسه و﴿قَالَ لَهُم مُوسَىٰ﴾: بل ﴿أَلْقُوا﴾ واطرحوا أولاً ﴿مَا أَنتُم مُلْقُونَ﴾ ومُطرِحون، وافعلوا ما أنتم فاعلون، فانّي لا اُبالي بكم وبصنيعكم، وهذا الأمر إذن لا إيجاب. وقيل: إنّه إيجاب لكونه طريقاً إلى كشف الحقّ[٤].

وقيل: إنّه إيجابٌ مشروطٌ، والمعنى ألقُوا إن كنتم محقّين، أو تهديد والمعنى إن ألقيتم فانّي آت بما

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٣.
٢. زاد في تفسير القمي والصافي: أي حيلتكم، قال.
٣. تفسير القمي ٢: ١٢٠، تفسير الصافي ٤: ٣٥.
٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٤.

يُبطِله[1].

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ قيل: كان كلّ من الحبال والعِصي سبعون ألفاً[2]، ﴿وَقَالُوا﴾ غروراً باتيانهم بأقصى ما يُمكن من السحر نُقسِم ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ وعظمته ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ على موسى وهارون.

عن ابن عباس: قد كانت الحبال مطلية بالزِّئبق والعِصيّ مُجوّفة مملوءة منه، فلمّا ألقوها حميت بحرّ الشمس، واشتدّت حركتها، [فصارت] كأنّها حيّات تتحرّك من كلّ جانبٍ من الأرض، فهاب موسى عليه السلام ذلك[3]، فأوحى الله إليه أن ألقِ ما في يمينك ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ عند ذلك ﴿مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ من يده باذن الله ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ ثُعبانٌ مُبينٌ ﴿تَلْقَفُ﴾ وتَبْلَع بسرعة ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ وما يُظهِرون على خلاف الواقع، وما يَقْلبونه بسحرهم عن صورته فيُخيّلون في حِبالهم وعِصيّهم أنّها حيّات ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ على وجوههم ﴿سَاجِدِينَ﴾ لله تعظيماً له أثر ما رأوا من بلع العصا جميع آلاتهم، لعلمهم بأنّه خارجٌ عن حدّ السِّحر، وأنّه معجزةٌ عظيمةٌ، وإنّما قال سبحانه (ألقى) تشبيهاً، لعدم تمالكهم للخُرور للسجود بإلقاء غيرهم إياهم ﴿وَقَالُوا﴾ عن صدقٍ وخُلوص: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثمّ لمّا كان فرعون مدّعياً لربوبية العالمين فسّروه بقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ الذي أرسلهما بهذه المعجزة المُعظَّمة التي لا تُشبه السِّحر.

فلمّا رأى فرعون إيمان السَّحرة بموسى الدالّ على صدقة ﴿قَالَ﴾ للسحرة تلبيساً على أتباعه وإظهاراً لبقائه على قدرته: يا قوم ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾. قيل: إنّ همزة الاستفهام التوبيخي محذوفة، والمعنى أآمنتم بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ﴾ تستأذنوا منّي[4] و﴿ءَأَذَنَ لَكُمْ﴾ في الايمان به مع أنكم عبيدي، وإنّما كانت هذه الجُرأة عليّ والمسارعة في الايمان به لمواطاتكم معه و ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ وأُستاذكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فواضعكم على إهلاكي وتغليبه عليّ وإذهاب سُلطاني قبل أن تأتوني وتجيئوا إلى هذا الموضع ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ جزاء عملكم، وعن قريب تَرون وَبال صَنيعكم، ثمّ بيّن جزاءهم تفصيلاً بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ من شقّ ﴿وَأَرْجُلَكُم مِّنْ﴾ شقّ ﴿خِلَافٍ﴾ آخر جزاءً على مخالفتي ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بعد القطع.

قيل: إنّه أول من قطع من خلاف وصَلَب. وقيل: كلمة (من) للتعليل، والمعنى لخلاف صار منكم[5].

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٤.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٣.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٤.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٤، و٣: ٢١٤.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٥.

فلما سَمِع السَّحرة تهديده ﴿قَالُوا﴾ مجيبين له: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ فيه علينا، ولابأس به، فإنّا لا نُبالي بالموت ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ بعد الموت ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ وراجعون، وهذا أقصى مُنانا، لأنّه تعالى يُكرمنا ويُثيبنا أفضل الثواب على إيماننا بالصبر على ما أصابنا في مرضاته.

إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ[٥١]

ثمّ نبّهوا على أنّ الكفر ومعارضة النبيّ من أعظم المصائب بقولهم: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ ونرجو ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ ومعاصينا من الكفر ومعارضة موسى وغير ذلك لأجل ﴿أَن كُنَّا﴾ من بين الناس، أو الذين حضروا الموقف، أو اتّبعوا فرعون ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله وبنبوة موسى عليه السلام.

وعن الصادق عليه السلام - في رواية - «فألقى موسى عصاه، فذابت في الأرض مثل الرّصاص، ثمّ طلع رأسها، وفتحت فاها، ووضعت شِدقها العليا على رأس قُبة فِرعون، ثمّ دارت وأرخت شَفتها السُّفلى والتقمت عصيَ السَّحرة وحِبالهم، وغُلِب كلّهم، وانهزم الناس اجمعون حين رأوها وعِظَمها وهَوْلها بما لم تر العيون، ولا وصف الواصفون مثله، فقُتِل في الهزيمة من وطء الناس بعضهم بعضاً عشرة آلاف رجل وامرأة وصبيّ، ودارت على قُبّة فرعون، فأحدث هو وهامان في ثيابهما، وشاب رأسهما[1] من الفزع، وفر[2] موسى في الهزيمة مع الناس، فناداه الله عزّ وجلّ: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾[3] فرجع موسى عليه السلام ولفَ على يده عباءاً كانت عليه، ثمّ أدخل يده في فيها فاذا هي عصاه[4] كما كانت، وكان كما قال الله عزّ وجلّ ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ لما رأوا ذلك و﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ فغضب فرعون غضباً شديداً و﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ يعني موسى ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ الآية فقالوا له كما حكى الله عزّ وجل ﴿لَا ضَيْرَ﴾ الآيتان، فحبس فرعون من آمن بموسى في السجن حتى أنزل الله عزّ وجلّ عليهم الطّوفان والجَراد والقُمّل والضّفادع والدّم، فأطلق عنهم»[5].

وقيل: إنّ اللّعين قطع أيدي السَّحرة وأرجُلهم من خلاف، وصلبهم على شاطيء النيل، وكان موسى ينظُر إليهم ويبكي، فأراه الله منازلهم في الآخرة، فسلّى قلبه[6].

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي

---

١. زاد في تفسير القمي: وغشي عليهما. ٢. في تفسيري القمي والصافي: مر.
٣. طه: ٢١/٢٠. ٤. في تفسيري القمي، والصافي: عصاً.
٥. تفسير القمي ٢: ١٢٠، تفسير الصافي ٤: ٣٦. ٦. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٥.

ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِى إِسْرَائِيلَ [٥٢ ـ ٥٩]

فأقام موسى عليه السلام بين أظهرهم سنين يُظهِر لهم الآيات، فلم يزيدوا إلّا عُتوّاً وفساداً، فلمّا أراد الله تخليص موسى وقومه من أذى القِبط وتمليكهم بلاد فرعون وقومه وأموالهم، بيّن تدبيره فيه بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ بعد الغلبة الظاهرة على فرعون وقومه ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ المؤمنين بك من بني إسرائيل وأخرجهم من مِصر لئلّا يستأصلهم فرعون بالعذاب بُغضاً عليك ﴿إِنَّكُم﴾ بعد الخروج من مصر ﴿مُّتَّبَعُونَ﴾ يتّبعكم فرعون وجنوده، فأخبر موسى عليه السلام قومه بما أوحى الله إليه فقالوا للقِبط: إنّ لنا عيداً في هذه الليلة، فاستعاروا منهم حُلَيهم وحُللهم، ثمّ خرجوا بتلك الأموال إلى جانب البحر ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ بعد ما سَمِع بخروجهم ﴿فِى ٱلْمَدَائِنِ﴾ والبلاد التي تحت سلطانه شُرطاً ﴿حَاشِرِينَ﴾ وجامعين للعساكر، وأمرهم أن يقولوا لأهل المدائن تضعيفاً لبني اسرائيل: ﴿إِنَّ هٰؤُلَاءِ﴾ القوم ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ وعدّة ﴿قَلِيلُونَ﴾.

عن ابن عباس: كانوا ستمائة ألف مقاتل، لا شابّ فيهم دون عشرين سنة، ولا شيخ يُوفي على الستين سوى الحشم، وفرِعون يُقلّلهم لكثْرَة من معه[١]. والمقصود إظهار عدم مبالاته بهم وعدم احتمال غلبتهم.

وعن الصادق[٢] عليه السلام يقول: «عُصبةٌ قليلةٌ»[٣].

وقيل: أُريد بالقلّة الذلة، لا قلة العدد[٤].

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾[٥]: على الفتنة، ومحترزون عن الفساد على حسب عادتنا وحزمنا في الأمور.

عن الصادق عليه السلام: «خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل ليقطع بهم البحر، وجمع فرعون أصحابه، وبعث في المدائن حاشرين، وحَشَر الناس، وقدّم مُقدّمته في ستمائة ألف، ورَكِب هو في ألف ألف»[٦].

روي أنّ فرعون رَكِب[٧] على فرس[٨] حصان كان في عسكره على لونه ثلاثمائة ألف[٩]، فخرج كما

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٧.

٢. في تفسيري القمي والصافي: الباقر.

٣. تفسير القمي ٢: ١٢٢، تفسير الصافي ٤: ٣٧.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٧.

٥. لم يتعرض المصنف لتفسير الآية (٥٥.

٦. تفسير القمي ٢: ١٢١، تفسير الصافي ٤: ٣٧.

٧. في تفسير الرازي: خرج.

٨. زاد في تفسير الرازي: أدهم.

٩ و ٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٧.

حكى الله بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ بتدبيرنا من تهيئة أسباب الخروج لهم، وإيجاد الداعي فيهم ﴿مِّن جَنَّاتٍ﴾ وبساتينهم التي فيها كثير أنهار ﴿وَعُيُونٍ﴾ ومنابع ماء ﴿وَ﴾ من ﴿كُنُوزٍ﴾ وأموالٍ وفيرة لم يُنفقوها في طاعة كما قيل[١] ﴿وَ﴾ من ﴿مَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ومنازل حسنة ومجالس بهيّة والأمكنة التي كانوا يتنعّمون فيها، وإنّما يكون الإخراج الذي هو من غضب الله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإخراج العجيب الهائل من جميع الأحوال والأمكنة ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ وملكناها بعدهم ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قيل: إنّهم رجعوا بعد هلاك فرعون إلى مصر، وتصرّفوا [في] أموال القِبط[٢]. وقيل: إنّهم تصرفوا فيها[٣] في زمن داود[٤].

فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ [٦٠ ـ ٦٢]

ثمّ بيّن كيفية إهلاك فرعون وقومه بقوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ ولحقوهم حال كونهم ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ وداخلين في وقت طلوع الشمس، وقيل: يعني ذهبوا وراءهم من ناحية المشرق[٥] ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ وتقارب كلّ من أصحاب فرعون أصحاب موسى من الآخر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ﴾ له يا موسى ﴿إِنَّا﴾ والله ﴿لَمُدْرَكُونَ﴾ ومُلحَقون ومأخوذون، أو مُهلَكون حين لحوقهم بنا ﴿قَالَ﴾ موسى تسليةً وزجراً لهم عن هذا الوهم: ﴿كَلَّا﴾ لن يُدركوكم أبداً، وكيف يُدركونكم و﴿إِنَّ مَعِيَ﴾ بالنُّصرة والحِفظ ﴿رَبِّي﴾ وانه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ ويَدلّني البته إلى طريق النجاة منهم وكيفية إهلاكهم.

رُوي أنّ أصحاب فِرعون لمّا قربوا من بني إسرائيل، خلق الله بُخاراً حال بين الفريقين بحيث لم يَرَ أحدٌ منهم الآخر، فقال فرعون لأصحابه: انزلوا وتوقفوا حتى ترتفع الشمس ويزول البُخار، فإنّه لا مَفرَ لبني إسرائيل لأنّ أمامهم البحر، ونحن وراءهم[٦].

ورُوي أنّ مؤمن آل فرعون كان عند موسى، فقال له: أين اُمرت، فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون؟! فقال موسى: اُمرت بالبحر، ولعلي أؤمر بما أصنع[٧].

فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ

---

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٨.
٣. في النسخة: تصرّفوها.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٨.
٥. تفسير القرطبي ١٣: ١٠٦، تفسير روح المعاني ١٩: ٨٤.
٦. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٩.
٧. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٩.

ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ[٦٣ـ٦٨]

ثمّ بيّن سبحانه طريق نجاته ونجاة أصحابه وإهلاك أعدائه بقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ عند انتهائه وانتهاء أصحابه إلى بحر القُلْزُم الذي كان بين اليمن ومكّة، أو إلى النِّيل الذي كان بين أيلة ومِصر ﴿أَنِ ٱضْرِب﴾ يا موسى ﴿بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فضربه ﴿فَانفَلَقَ﴾ البحر، وانشقّ الماء، وانفرق اثني عشر فرقاً بعدد الأسباط ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ وقطعة ماء مجتمع بعضه فوق بعض ﴿كَالطَّوْدِ﴾ والجبل المتطاول ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾.

عن ابن عباس: لمّاانتهى موسى مع بني إسرائيل إلى البحر، أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا إلّا يُوشَع بن نُون، فانّه ضرب دابّته وخاض في البحر حتى عَبَر، ثمّ رجع إليهم فأبوا أن يخوضوا، فقال موسى عليه السلام للبحر: انفرق لي. فقال: ما اُمِرتُ بذلك، ولا يعبُر عليّ العُصاة. قال موسى عليه السلام: يا ربّ، قد أبى البحر أن ينفرق. فقيل له: اضرِب بعصاك البحر، فضربه فانفرق، فكان كلّ فِرقٍ كالطَّود العظيم، أي كالجبل العظيم، وصار فيه اثنى عشر طريقاً، لكلّ سبطٍ منهم طريق، فقال كلّ سبطٍ: قُتل أصحابنا، فعند ذلك دعا موسى عليه السلام ربّه، فجعلها مناظر كهيئة الطبقات، حتى نظر بعضهم إلى بعضٍ على أرضٍ يابسة[١].

رُوي أنّ جَبْرَئيل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون، وكان يقول لبني إسرئيل: ليَلْحَق آخركم بأولكم، ويستقبل القبِط فيقول: رويدكم ليحلق آخركم[٢].

وعن عبدالله بن سلام: لمّا انتهى موسى ٧ إلى البحر، قال: «يا من كان قبل كلّ شيءٍ، والمكّون لكل شيءٍ، والكائن بعد كلّ شيءٍ، اجعل لنا فرجاً ومخرجاً»[٣].

وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا أُعلّمك الكلمات التي قالهنّ موسى حين انفلق البحر؟» قلت: بلىٰ قال: «قل اللهمّ لك الحمد، وإليك المُشتكى، وبك المُستغاث، وأنت المُستعان، ولا حول ولا قوة إلّا بالله»[٤].

قيل: لمّا انفلق البحر أرسل الله ريحاً فجفف بها قَعْر البحر، ثمّ دخل بنو إسرائيل في شِعاب جَبل الماء ومسالك البحر[٥].

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ وقرّبنا من بني إسرائيل ﴿ثَمَّ﴾ وفي المكان الذي انفلق البحر، القوم ﴿ٱلْأَخَرِينَ﴾ وهم فرعون وجنوده حتى دخلوا على إثرهم مداخلهم. وقيل: يعني قرّبنا بعض قوم فرعون من بعضهم

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٩.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٩.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٩.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٩.

حتى لا ينجو منهم أحد[١]. وقيل: يعني قرّبناهم من الموت[٢].

﴿وَأَنجَيْنَا﴾ من الغرق **﴿مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾** من بني إسرائيل **﴿أَجْمَعِينَ﴾** بحفظ البحر على هيئته إلى أن خرجوا إلى أن البَرّ **﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾** فيه القوم **﴿ٱلْأَخَرِينَ﴾** المتّبعين لموسى باطباقه عليهم.

عن الصادق عليه السلام: «لمّا قرُب موسى من البحر وقرُب فِرعون من موسى، قال أصحاب موسى: إنّا لمُدرَكون» إلى أ، قال: «فدنا موسى عليه السلام من البحر، فقال له انفرق[٣]. فقال البحر: استكبرت يا موسى عن[٤] أن انفرق[٥] لك ولم أعصِ الله عزّ وجلّ طَرفة عينٍ، وقد كان فيكم العاصي[٦]؟ فقال له موسى عليه السلام: فاحذر أن تعصي وقد علمتَ أن آدم أُخرِج من الجنة بمعصيته، وإنّما لُعِن إبليس بمعصيته. فقال البحر: ربّي عظيمٌ مطاعٌ أمره، ولا ينبغي لشيءٍ أن يعصيه. فقام يُوشَع بن نُون فقال لموسى يا نبي الله، ما أمر[٧] ربّك؟ قال: بعبور البحر فأقحَم يُوشَع فرسه في الماء، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى: **﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾** فانفق، فكان كلّ فِرق كالطَّود العظيم، أي كالجبل العظيم، فضرب له في البحر اثني عشر طريقاً، فأخذ كلّ سبطٍ منهم في طريق، فكان الماء قد ارتفع وبقيت الأرض يابسة، طلعت فيها الشمس فيبست، كما حكى الله عزّ وجلّ: **﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي ٱلْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَىٰ﴾**[٨] ودخل موسى عليه السلام وأصحابه البحر».

إلى أن قال: «فأخذ كل سبطٍ في طريقٍ، وكان الماء قد ارتفع على رؤوسهم مثل الجبال، ففزعت[٩] الفرقة التي كانت مع موسى في طريقه، فقالوا: يا موسى، أين إخواننا؟ فقال لهم: معكم في البحر، فلم يصدّقوه، فأمر الله عزّ وجلّ البحر فصار طاقات، حتى كان ينظُر بعضهم إلى بعض ويتحدّثون، وأقبل فرعون وجنوده، فلمّا انتهى إلى البحر قال لأصحابه: ألا تعلمون أنّي ربّكم الأعلى قد فُرِج لي البحر، فلم يجسُر أحدٌ أن يدخُل البحر، وامتنعت الخيل منه لهول الماء، فتقدّم فرعون حتى جاء إلى ساحل البحر، فقال له مُنجّمه: لا تدخُل البحر وعارضه، فلم يقبل منه، وأقبل على فرسٍ حصانٍ، فامتنع الحصان أن يدخُل الماء، فعطَف عليه جَبْرَئيل، وهو على ماديانة[١٠] فتقدّمه ودخل، فنظر الفرس إلى الرمكة فطلبها، ودخل البحر، واقتحم أصحابه خلفه، فلمّا دخلوا كلّهم ـ حتى كان آخر من دخل من

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٩.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٤٠.
٣. في تفسير القمي: انفلق.
٤. (عن. ليست في تفسيري القمي والصافي.
٥. في تفسير القمي: أن تقول لي انفلق.
٦. في تفسير القمي: المعاصي.
٧. في تفسيري القمي والصافي: أمرك.
٨. طه: ٧٧/٢٠.
٩. في تفسيري القمي والصافي: فجزعت.
١٠. الماديانة: لفظ أعجمي، يراد به الانثى من الخيل، ويقال له بالعربية: الرَّمَكَة، وهي الفرس تتخذ للنتاج.

أصحابه وآخر من خرج من أصحاب موسى ـ أمر الله عزّ وجلّ الرياح فضربت البحر بعضه ببعضٍ، فأقبل الماء يقع عليهم مثل الجبال، فقال فرعون عند ذلك: **﴿آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل﴾** الخبر[١].

وعنه عليه السلام «أنّ قوماً ممّن آمن بموسى عليه السلام قالوا: لو أتينا عسكر فرعون وكنّا فيه ونِلنا من دُنياه، فاذا كان الذي نرجوه من ظهور موسى عليه السلام، صرنا إليه، ففعلوا فلمّا توجّه موسى عليه السلام ومن معه [إلى البحر] هاربين من فِرعون، رَكِبوا دوابهم، وأسرعوا في السير ليلحقوا بموسى عليه السلام وعسكره فيكونوا معهم، فبعث الله عزّ وجلّ مَلَكاً فضرب وجوه دوابّهم، فردّهم إلى عسكر فرعون، فكانوا في من غرق مع فرعون[٢].

﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ﴾ المذكور من معاجز موسى عليه السلام، وغلبته على فرعون، وإنجائه من الغرق وإهلاك أعدائه **﴿لَآيَةً﴾** ظاهرةً ودلالةً واضحةً على وحدانية الله وكمال قدرته وحكمته، وعبرةً عظيمةً للمعتبرين ممّن شاهد الوقائع، ومن جاء بعدهم إلى يوم القيامة وسَمِعوها فيدخُل فيهم قريش الذين سمَعِوها من النبي صلى الله عليه وآله الذي كان اُمياً لم يَسْمَعْها من أحدٍ ولم يَقْرأها في كتابٍ، ولذا كان إخباره بها من الإخبار بالمغيبات، ومن أظهر المعجزات، **﴿وَ﴾** مع ذلك **﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾**.

وقيل: إنّ ضمير الجمع راجعٌ إلى القِبط، وما آمن منهم إلّا خربيل أو حزقيل مؤمن آل فرعون، وآسية زوجه فرعون، ومريم بنت موشا[٣] التي دلّت على عظام يوسف حين خُروج موسى من مصر[٤].

وقيل: إنّه راجعٌ إلى عموم المصريين[٥]، أمّا القِبط منهم، فلمّا ذُكِر، وأمّا بنو إسرائيل فلقولهم حين عبورهم على عبدة العجل: **﴿يا موسى اجعل لنا الها كما لهم الهه﴾**[٦].

وقيل: راجعٌ إلى قوم نبينا الذين سَمِعوا منه قصة موسى وفرعون، لعدم تدبّرهم فيها واعتبارهم بها حتى يَحْذَروا من أن يُصيبهم مثل ما أصاب قوم فرعون[٧].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب عى ما أراد من تعذيب المكذبين **﴿ٱلرَّحِيمُ﴾** بهم حيث يُمهلهم ولا يُعجَل في عقوبتهم، أو بالمؤمنين. وفي الآيتين تسلية للنبي حيث إنّه كان يغتّم قلبه الشريف بتكذيب قومه مع ظهور معجزاته، وعرّفه محنة موسى حتى يصبر كما صبر.

---

١. تفسير القمي ٢: ١٢١، تفسير الصافي ٤: ٣٨، والآية من سورة يونس: ٩٠/١٠.

٢. الكافي ٥: ١٣/١٠٩، تفسير الصافي ٤: ٣٩.

٣. في تفسير أبي السعود: يا موشا، وفي تفسير روح البيان: ناموشا.

٤ و ٥. تفسير أبي السعود ٦: ٢٤٦، تفسير روح البيان ٦: ٢٨٠.

٦. الاعراف: ١٣٨/٧.

٧. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٠.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَاكُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ[٦٩ ـ ٨٢]

ثمَ اردف قصة إبراهيم بقصة موسى، ليعرف حبيبه أنّ حزن جدّه كان أشدَ من حزنه بقوله: **﴿وَٱتْلُ﴾** يا محمّد **﴿عَلَيْهِمْ﴾** على مشركي قومك، واقرأ من كتاب ربك **﴿نَبَأَ﴾** أبيهم **﴿إِبْرَاهِيمَ﴾** الذي يفتخرون بكونهم أولاده، ويستظهرون بأنّهم من نَسْله **﴿إِذْ قَالَ﴾** موعظةً وإرشاداً **﴿لِأَبِيهِ﴾** المَجازي، وكان في الحقيقة عمّه الذي ربّاه، أو زوج أُمّه **﴿وَقَوْمِهِ﴾** الذين بعث فيهم من الرجال، والذين كانوا في بلدة بابل التي يُنْسَب إليها السَّحَرة إنكاراً عليهم عبادة الأصنام، أو سؤالاً مع علمه بالمسؤول عنه توطئةً لتنبيههم على ضلالهم: يا قوم **﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾** وأيَ شيءٍ له تخضعون خضوع المخلوق لخالقه؟

﴿قَالُوا﴾ جواباً له: **﴿نَعْبُدُ أَصْنَاماً﴾** وتماثيل من الفِلزات والحَجَر والخشب. قيل: إنّها كانت اثنين وسبعين[1] **﴿فَنَظَلُّ﴾** ونشتغل في نهارنا بالتعظيم **﴿لَهَا﴾** أو نداوم على عبادتها حال كوننا **﴿عَاكِفِينَ﴾** وملازمين لهذ الشُّغل ومقبلين عليه.

عن ابن عباس: عاكفين مفتخرين بالأصنام[2]. قيل: إنّ إبراهيم لمّا خرج من الغار ودخل مصر أراد أن يعلم دين أهله، فلمّا سَمِع جوابهم[3] **﴿قَالَ﴾** تنبيهاً على فساد مذهبهم: **﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾** ويُدركون دعاءكم ويستجيبون مسألتكم؟ **﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾** وحين تسألون حوائجكم **﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾** على عبادتكم لهم **﴿أَوْ يَضُرُّونـ﴾ـكم** إن تركتم عبادتها؟ فانّ العاقل لا يعمل عملاً إلّا لجلب المنفعة، أو دفع الضرر، فلمّا عَجَزوا عن إقامة البرهان على صحة عَمَلهم ودفع اعتراض إبراهيم عليهم، تمسّكوا بالتقليد، و **﴿قَالُوا﴾**: لا ما رأينا منهم شيئاً من السمع والنفع والضر **﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾** وكُبراءنا **﴿كَذٰلِكَ﴾** الفعل الذي نحن نفعل كانوا **﴿يَفْعَلُونَ﴾** ومثل هذه العبادة كانوا يَعبُدون، وهم لمّا كانوا أعقل وأبصر منّا اقتديا بهم وقلدناهم في رأيهم و **﴿قَالَ﴾** إبراهيم تقريراً لهم وتبرّئاً من عملهم:

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٨١.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٤٢، ولم ينسب إلى ابن عباس.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٨١.

﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ قيل: إنّ التقدير أنظرتم فأبصرتم، أو تأملتم فعلمتم[١] ﴿مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ وكبراؤكم السابقون حقّ الإبصار، أو حقيقة العلم بأن الباطل لا يصير حقّاً بكَثْرة قائليه وقِدَم عامليه، لا والله لم تَنْظُروا ولم تَقفوا على حال أصنامكم ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ لكثرة ضررهم كأنّهم ﴿عَدُوٌّ لِي﴾ في الدنيا، أو في الآخرة بعد إحيائهم، أو عابدهم عدوّ لي، وفيه تعريض على كونه عدوّ لعَبَدتهم، وإظهاراً لنُصحهم بصورة نُصح نفسه ليكون أقرب إلى القبول.

ثمّ نبّههم على حصر النفع في عبادة الله بقوله: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ والتقدير: أنّ جميع الآلهة الذين كانوا يَعبُدونهم عدوّ إلّا رب العالمين فانّه كان في آبائهم من يَعْبُده، أو التقدير: لا وليّ لي إلّا ربّ العالمين.

وقيل: إنّ الاستثناء منقطعٌ، والمعنى: ولكن ربّ العالمين وليي وحبيبي في الدنيا والآخرة لا يزال يتفضّل عليّ بمنافعهما[٢] التي يجب أن يكون المعبود واجداً لها، بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ وأخرجني من كَتْم العدم إلى الوجود الذي هو أعظم النِّعم ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ويرشدني إلى معرفته، وطريق تحصيل مرضاته، وصلاح الدارين من بدو الخلق إلى زُهوق الرُّوح، ممّا ينتظم به المعاش والمعاد، فانّه[٣] يهدي في البدو إلى امتصاص دم الحيض، وعند الكمال إلى الحقّ، وفي الآخرة إلى الجنّة.

وقيل: يعني خلقني لاقامة الحقّ، ويهديني إلى دعوة الخلق، أو خلقني للطاعة، ويهديني إلى الجنّة[٤]، وإنّما اختلف الفعلان بالماضوية والمُضارعية لتقدّم الخلق واستمرار الهداية.

﴿وَالَّذِي هُوَ﴾ وحده بعد الخلق ﴿يُطْعِمُنِي﴾ نِعمه لتقوية أجزاء بدني ﴿وَيَسْقِينِ﴾ الشراب لتربية أعضاء جسدي بخلق المطعوم والمشروب والتسليط عليهما، وإيجاد جميع مقدّمات الانتفاع بهما كالشهوة وقوّة المَضْغ والابتلاع والهضم والدفع وغير ذلك، وإنّما كرّر الموصول للدلالة على استقلال كلّ واحدٍ من الصلات في استحقاق العبادة وإيجابها ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ من التفريط في المطاعم والمشارب، وفساد الأخلاط، أو اقتضاء الحكمة ﴿فَهُوَ﴾ بلُطفه ﴿يَشْفِينِ﴾ ويُبرئني من المرض، وإنّما أضاف المرض إلى نفسه مع كونه من الله لرعاية الأدب، أو لكونه بصدد ذكر النِّعم، ولا ينتقض بذكر الموت، فانّه نعمة من حيث إنّه سبب للتخلّص من آفات الدنيا وشدائدها، والخلاص من المضيقة وقفص الجسد، والدخول في فُسحة عالم الآخرة، والنيل بالمحابّ التي تُستحقر دونها

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ٢٤٨، تفسير روح البيان ٦: ٢٨٢.
٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٤٨، تفسير روح البيان ٦: ٨٢، وفي النسخة: منافعه.
٣. في النسخة: فاية.
٤. مجمع البيان ٧: ٣٠٣.

الدنيا وما فيها، وذلك لأهل الايمان والتوحيد.

وعن الصادق عليه السلام: «وإذا مرضت بالعصيان فهو يشفيني بالتوبة»[١].

﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى﴾ ويقبض روحي بقدرته وحكمته ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ للحساب وجزاء الأعمال وقيل: يعني يُميتني بالخذلان أو الجهل، ثمّ يحييني بالتوفيق للطاعة، أو بالعقل والعلم[٢] ﴿وَٱلَّذِى أَطْمَعُ﴾ وأرجو ﴿أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ وزلاتي ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ والجزاء وعند الحساب، وفي التعبير عن يقينه بالطمع تأدبّ وتعليم للعباد، كما أنّ التعبير عما يصدُر منه من ترك الأولى بالخطيئة هضم للنفس، وحثّ للعباد على الحذر من المعاصي وطلب المغفرة.

وقيل: إنّ المراد خطايا اُمّته، أو اُمّة محمد صلى الله عليه وآله وإنّما علّق المغفرة بيوم الدين لظهور فائدتها فيه[٣].

رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ * وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ [٨٣و ٨٤]

ثمّ أنه عليه السلام بعد احتجاجه على قومه بتوصيف المستحق للعبادة بأوصاف فائقة مستلزمة للمعبودية بحيث لا يكون الفاقد لواحدٍ منها قابلاً[٤] لها، سأل لنفسه أهمّ المطالب بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى﴾ وأعطني بكرمك ﴿حُكْماً﴾ وعلماً كاملاً أستحقّ به خلافتك ورياسة خلقك، كما عن ابن عباس[٥]، وهو المعرفة بحقائق الأشياء ورؤيتها كما هي. وقيل: إنّ الحكم قوة بيان كلّ ما يحتاج إليه الناس على مقتضى الحكمة[٦] ﴿وَأَلْحِقْنِى﴾ بتوفيقك للعمل بمرضاتك ﴿بِالصَّالِحِينَ﴾ والكاملين في الأخلاق والأعمال والمنزّهين عن النقائص الحيوانية والشهوات النفسانية، واجعلني في زُمرتهم، أو أجمع بيني وبينهم في الجنّة ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ﴾ وحُسن ذكرٍ وجاهٍ عظيمٍ باقٍ ﴿فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ وبين الناس إلى يوم الدين.

قيل: إنّه عليه السلام ابتدأ في دعائه بطلب الكمال الذاتي وهو العلم، ثمّ بالكمال الأخلاقي وهو الصلاح، ثمّ بالكمال الدنيوي الرّوحاني وهو الجاه والذكر الجميل الباقي إلى آخر الدهر[٧]. وعلّة طلبه أنّ النفوس البشرية إذا انصرفت هممهم إلى شخصٍ واحدٍ بالمدح والثناء، أثّرت في ذلك الشخص كمالاً زائداً على ما يكون له، وإنّ شهرة شخص بين الناس بسبب ماله من الفضائل وجريان مدحه

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٥.
٢ و٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٥.
٤. يعني مستحقاً.
٥. تفسير الصافي ٤: ٤٠، تفسير روح البيان ٦: ٢٨٦، ولم ينسبه إلى ابن عباس، مجمع البيان ٧: ٣٠٤، وفيه: إنه العلم.
٦. مجمع البيان ٧: ٣٠٤.
٧. تفسير الرازي ٢٤: ١٤٩.

فيهم داعية لهم في اكتساب فضائله.

عن الصادق عليه السلام: قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: لسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خير له من المال الذي يأكله ويورثه»[١].

وقيل: إن المراد أنْ يجعل الله في ذُريته في آخر الزمان من يكون داعياً إلى الله تعالى[٢]. وحاصل الدعاء: واجعل صادقاً من ذُريّتي يُجدّد[٣] ديني، ويدعو إلى ما أدعو[٤] إليه، وهو محمّد وأوصياؤه عليهم السلام[٥].

القمي قال: هو أمير المؤمنين عليه السلام[٦].

وقيل: إنّ المراد اتّفاق أهل الأديان على حبّه، فاستُجيب دعاؤه، فانّه لا يرى أهل دين إلّا وهم يُثنون عليه ويُوالونه[٧].

﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ * وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [٨٥ـ٨٧]

ثمّ أنه عليه السلام بعد طلب السعادة الدنيوية طلب السعادة الأُخروية بقوله: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ﴾ فيها جميع ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ في الآخرة، ومن مستحقّيها كاستحقاق الوارث لمال مورثه.

ثمّ لمّا وعد عليه السلام آزر أن يستغفر له في السورة السابقة، وفىٰ بوعده بقوله: ﴿وَٱغْفِرْ﴾ يا رب ﴿لِأَبِى﴾ آزر ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ والمُنحرفين عن صراط الحقّ وطريق الجنّة.

قيل: إنّ المراد بالمغفرة هدايته إلى الايمان[٨].

وقيل: هي بمعناها، ولكن لمّا كانت مشروطة بالايمان كان طلبها مستلزماً لطلبه[٩].

وقيل: إنّ أباه وعده بالإيمان[١٠]، فدعا له بهذا الشرط[١١]. وقيل: إنّ أباه: قال له: إنا على دينك باطناً، وانما اظهر الشرك خوفاً من نمرود، فدعا له بظَن أنّه مؤمن[١٢]. ولذا قال: إنّه كان من الضالين، وليس الآن منهم، فلمّا تبيّن له أنّه على كفره تبرأ منه.

---

١. الكافي ٢: ١٩/١٢٣، تفسير الصافي ٤: ٤٠.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٤٩.
٣. زاد في تفسير الصافي: أصل.
٤. في تفسير الصافي: ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم.
٥. تفسير الصافي ٤: ٤٠، وفيه: محمد وعليّ والأئمة عليهم السلام من ذرّيتهما.
٦. تفسير القمي ٢: ١٢٣، تفسير الصافي ٤: ٤١.
٧. تفسير الرازي ٢٤: ١٤٩.
٨. تفسير أبي السعود ٦: ٢٥٠، تفسير روح البيان ٦: ٢٨٦.
٩. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٦.
١٠. في تفسير الرازي: الإسلام.
١١ و١٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٥٠.

ثمَ أنه عليه السلام بعد سؤال العزّ الدنيوي لنفسه، سأل الأخروي منه بقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ ولا تُهنّي بحطّ درجتي في الجنّة عن درجة غيري، وبعتابي على ترك ما هو الأولى منّي، أو لا تفضحني بين الناس باظهاره، أو لا تُخجلني عندهم ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ من القبور إلى المحشر ويجتمعون فيه، وإنّما كان سؤاله هذا مع علمه بأنّ الله لا يخزي النبيّ لهضم النفس وإظهار العبودية والحاجة وتعليم العباد وحثّهم على الاقتداء به.

يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ [٨٨ـ ٩١]

ثمّ بيّن عظمة ذلك اليوم بقوله: ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ﴾ أحداً في نجاته من أهواله، وإن صرفه في الدنيا في وجوه الخيرات ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ نفساً في خلاصها من العذاب بالنصرة والشفاعة ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللهَ﴾ فيه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وبريء من العقائد الفاسدة والأخلاق الرذيلة والشهوات النفسانية، أو أمن فتنة المال والبنين، أو من حبّ الدنيا.

عن الصادق عليه السلام: «هو القلب السليم من حبّ الدنيا»[1].

وعنه عليه السلام: «صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم، لأنّ سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله تعالى في الأمور كلّها» ثمّ تلا هذه الآية[2].

وعنه عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «القلب السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه» قال: «وكلّ قلبٍ فيه شرك أو شكّ فهو ساقط، وإنّما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة»[3].

وقيل: إنّه انقطع كلام إبراهيم بقوله: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ووصف اليوم من كلام الله ردّاً على الكفار الذين قالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً، فأخبر بأنّهما لا ينفعان من لا سلامة لقلبه في الدنيا، وأما من سَلِم قلبه فتنفعه خيراته وأولاده فاذا مات ابنه قبله يكون له ذُخراً وأجراً، وأن تخلّف بعده فانّه يذكُره بصالح دعائه ويتوقّع منه شفاعته[4].

وقال بعض العامة: القلب السليم من بُغض أهل بيت النبي وأزواجه وأصحابه[5].

وقيل: إنّ القلب السليم هو القلب القلق المضطرب من خشية الله، كالذي لدغته الحية[6].

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ وقُرّبت فيه ﴿ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ من موقفهم لينظُروا إليها ويفرحوا بأنّهم يدخلونها

---

١. مجمع البيان ٧: ٣٠٥، تفسير الصافي ٤: ٤١.
٢. مصباح الشريعة: ٥٣، تفسير الصافي ٤: ٤١.
٣. الكافي ٢: ٥/١٣، تفسير الصافي ٤: ٤١.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٧.
٥ و٦. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٨.

فيعجَل سرورهم ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ وأُظهرت ﴿ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ والضالين، وتُجْعَل بمرآهم لينظُروا إليها ويتحسّروا على أنّهم مساقون إليها فيعجّل غَمّههم.

عن الصادق عليه السلام: «الغاوون [هم] الذين عرفوا الحقّ وعَمِلوا بخلافه»[1].

قيل: يُؤتى بالجحيم في سبعين ألف زِمام، وفي اختلاف الفعلين دلالةٌ على ترجيح جانب الوعد، فانّ التبريز لا يستلزم التقريب، وفي تقديم ذكر إزلاف الجنّة إشعار بسبق رحمته غضبه[2].

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ[٩٢ـ١٠١]

ثمّ حكى سبحانه تقريع المشركين بقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ في ذلك اليوم من قبل الله تعالى تقريعاً وتوبيخاً أيها المشركون ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللهِ﴾ وممّا سواه من الأصنام الذين تقولون: هؤلاء شُفعاؤنا عند الله ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ اليوم بدفع العذاب عنكم ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم؟ فلما لم يكن للتقريع جواب، حكم بدخول الآلهة وعابديهم في النار ﴿فَكُبْكِبُوا﴾ وأُلقوا ﴿فِيهَا﴾ على الرؤوس منكوسين مرة بعد أُخرى ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُونَ﴾ والمعبودون والعابدون و ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من الشياطين الذين يُزيّنون في قلوبهم عبادة الأصنام والمعاصي ويوسوسون إليهم ﴿أَجْمَعُونَ﴾ لا يَشِذّ منهم أحدٌ، ليجتمعوا في العذاب كما كانوا يجتمعون في الضلال.

ثمّ أنهم بعد اجتماعهم في جهنّم ﴿قَالُوا﴾ لآلهتهم ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ وينازعون مع آلهتهم بعد ما أحياهم وأنطقهم بقدرته: ﴿تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وانحرافٍ واضحٍ عن الحقّ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ ونَعْدِلكم ﴿بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ في استحقاق العبادة مع أنكم أدنى خلقه وأذلّهم وأعجزهم ﴿وَمَا أَضَلَّنَا﴾ عن الهُدى ودين الحقّ، وما صرفنا عن التوحيد إلّا كُبراؤنا ورؤساؤنا ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الطاغون حيث زيّنوا لنا عبادتكم وأمرونا بها ﴿فَمَا لَنَا﴾ اليوم أحدٌ ﴿مِن شَافِعِينَ﴾ فيشفعوا لنا[3] عند ربنا كما يَشفع الملائكة والأنبياء والائمّة والصديقين للمؤمنين ﴿وَلَا﴾ من ﴿صَدِيقٍ﴾ ولا من

---

١. عدة الداعي: ٧٦، بحار الأنوار ٢: ٥٢/٣٧.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٨.

٣. في النسخة: فيشفعونا.

﴿حَمِيمٍ﴾ وخاصة مهتمَ بأمرنا أو رؤوف وشفيق كما يكون للمؤمنين، فإنّ بين أهل النار التعادي والتباغض.

وقيل: يعني ما لنا من شافعين ولا صديق من الأصنام الذين كنّا نَحْسَبهم شُفعاء، ومن شياطين الإنس الذين نزعمهم أنّهم أصدقاء[١].

عن الصادق عليه السلام: «الشافعون الأئمّة عليهم السلام، والصديق من المؤمنين»[٢].

والقمي عنهما عليهما السلام: «والله لنشفعنّ في المذنبين من شيعتنا حتى يقول أعداؤنا إذا رأوا ذلك: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ الشفاعة لمقبولةٌ، وما تُقبَل في الناصب، وإنّ المؤمن ليَشْفَع لجاره وماله حسنة، وإنّ أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع في ثلاثين[٤]، فعند ذلك يقول أهل النار ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾»[٥].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أنّ الرجل يقول في الجنة: ما فعل صديقي فلان؟ وصديقه في الجحيم، فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه في[٦] الجنة، فيقول: من بقي في النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾»[٧].

قيل: إن جمع الشافعين وتوحيد الصديق لكَثرة الأول وقلّة الثاني[٨]، فانّ الصادق في المودة الذي هو المراد من الصديق أعزّ من الكبريت الأحمر، وقيل: إنّ الصديق يُطلَق على الجميع كالعدوّ[٩].

فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ[١٠٢ـ١٠٤]

ثمّ لما يئسوا من النجاة تَمَنّوا العود إلى الدنيا بقولهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ ورجعة إلى الدنيا، ويا ليت لنا عودةً إليها ﴿فَنَكُونَ﴾ فيها ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين تنالهم الشفاعة وتنفعهم الصداقة.

وقيل: إنّ كلمة (لو) شرطية، والمعنى لو أنّ لنا الرجوع فنكون من المؤمنين لفعلنا كذا وكذا[١٠]، أو لنلنا بغاية آمالنا.

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٥٢.
٢. المحاسن: ١٨٤/١٨٧، تفسير الصافي ٤: ٤٣.
٣. تفسير القمي ٢: ١٢٣، تفسير الصافي ٤: ٤٣.
٤. في الكافي وتفسير الصافي: ليشفع لثلاثين إنساناً.
٥. الكافي ٨: ١٠١/٧٢، تفسير الصافي ٤: ٤٣.
٦. في مجمع البيان وتفسير الصافي: إلى.
٧. مجمع البيان ٧: ٣٠٥، تفسير الصافي ٤: ٤٣.
٨. جوامع الجامع: ٣٣٠، تفسير البيضاوي ٢: ١٥٩، تفسير الرازي ٢٤: ١٥٢.
٩. تفسير البيضاوي ٢: ١٥٩، تفسير أبي السعود ٦: ٢٥٣، وفيه: الجمع كالعدوّ.
١٠. تفسير أبي السعود ٦: ٢٥٣.

القمي قال: من المؤمنين، أي من المهتدين، لأنّ الايمان قد لَزمهم بالإقرار[١].

ثمّ حكى سبحانه شدة قساوة قلوب أكثر اُمّة إبراهيم تسليةً لحبيبه ﷺ بقوله: ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من احتجاجات إبراهيم عليه السلام ولَجاج قومه ﴿**لَآيَةً**﴾ عظيمةً وعظةً نافعةً لمن يتّعظ، وعبرةً لمن يعتبر من قوم إبراهيم ﴿**وَمَا كَانَ**﴾ مع ذلك ﴿**أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ به، كما لم يكن أكثر قومك مؤمنين بك.

روي أنه لم يؤمن بابراهيم عليه السلام من أهل بابل إلّا لُوط وبنت نمرود[٢].

﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ**﴾ يا محمّد ﴿**لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ**﴾ والقادر على الانتقام وتعجيله، لكنّه ﴿**ٱلرَّحِيمُ**﴾ بهم لإمهالهم كي يؤمنوا أو يَلِدوا مؤمناً.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا ٱللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا ٱللهَ وَأَطِيعُونِ * قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ[١٠٥ ـ ١١٣]

ثمّ ثلّث سبحانه بقصة نوح وقومه التى كانت أعظم من القصّتين[٣] السابقتين ازدياداً لتسلية النبي ﷺ بقوله: ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ**﴾ نوحاً من ابتداء دعوته إلى انتهائها، وهم بتكذيبه كذّبوا الأنبياء ﴿**ٱلْمُرْسَلِينَ**﴾ جميعهم، أو المراد أنّهم كذّبوا جميع المرسلين، وكان نوح عليه السلام منهم ﴿**إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ**﴾ وواحدٌ منهم معروفٌ بينهم بالصدق وسلامة النفس والشفقة عليهم اسمه ﴿**نُوحٌ**﴾ نُصحاً وعِظَةً: يا قوم ﴿**أَلَا تَتَّقُونَ**﴾ الله في ترك عبادته والاشتغال بعبادة غيره، واعلموا ﴿**إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ**﴾ من الله مبعوثٌ فيكم لدعوتكم إلى توحيده وعبادته، وقد علمتم أنّي ﴿**أَمِينٌ**﴾ في جميع الأمور، فعليكم أن تأمنوني على دينكم، وما اُخبر به عن ربّكم، ولا تتّهموني بالكذب والخِيانة في نُصحكم ﴿**فَاتَّقُوا ٱللهَ**﴾ في مخالفتي ﴿**وَأَطِيعُونِ**﴾ في ما آمركم به من توحيده وعبادته ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ**﴾ شيئاً ﴿**مِنْ أَجْرٍ**﴾ وجُعْل ﴿**إِنْ أَجْرِىَ**﴾ وما جُعْلني على تأدية الرسالة ﴿**إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ**﴾ لأن عملي له، فيكون أجري عليه، فاذا عَلِمتم عدم طمعي في أموالكم ﴿**فَاتَّقُوا ٱللهَ**﴾ في إنكار رسالتي

---

١. تفسير القمي ٢: ١٢٣، تفسير الصافي ٤: ٤٣.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٩١.
٣. في النسخة: القضيتين.

﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في أمري.

فلمّا سَمِع قومه دعوته ﴿قالوا﴾ له إنكاراً عليه: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَ﴾ نتّبعك في قولك، والحال أنّه ﴿اتَّبَعَكَ﴾ الفقراء ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ والسّفلة الأدنون جاهاً ومالاً ونسباً فإنّ إيمانهم لا يكون عن نظرٍ وبصيرةٍ لعدم رزانة عقلهم ومتانة رأيهم، بل نظرهم إلى جلب المال وتحصيل الجاه، فهم في الباطن كافرون بك، لا ينبغي لنا أن نجعل أنفسنا في رديفهم.

قيل: كانوا من أهل الصناعات الخسيسة[1]. وقيل: إنّهم كانوا حُجّاماً[2].وعن ابن عباس: كانوا حائكين[3].

﴿قَالَ﴾: نوح عليه السلام في جوابهم: ما إحاطتي ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من إيمانهم الحقيقي بربي، وإقرارهم القلبي برسالتي، ومالي إطّلاع على خُلوصهم في الايمان أو نفاقهم، وليس عليَّ التفتيش عن باطنهم وشقّ قلوبهم، بل عليَّ الاكتفاء والاعتبار بظاهر إقرارهم ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ ومؤاخذتهم على بواطنهم وسرائرهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ﴾ عهدة ﴿رَبِّى﴾ المُطّلع على البواطن والسرائر، العالم بالخفيات، وأنتم ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وتُدركون المطالب الواضحة لشعرتم صحّة قولي، وأدركتم صدق خبري، ولكنكم تَجْهَلون وتقولون ما لا تعلمون.

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ[١١٤ ـ ١٢٢]

ثمَ لمّا كان في قدح أتباعه إيهام توقّع طردهم عن مجالسه وإبعادهم عن حوله، قطع طمعهم هذا بقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ﴾ هؤلاء ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومُبعِدهم عن حولي ومجلسي، ولا يمكنني موافقتكم في ما تتوقّعون منّي من الاعراض عمّن أقبل على ربي، لأنّه خلاف وظيفتي ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ وما أنا إلّا رسولٌ مبعوثٌ لتخويف الناس من العذاب على الكفر بالله وعصيانه ﴿مُبِينٌ﴾ ومتظاهر بالانذار، أو موضح لما اُرسلت به سواء كانوا أعزاء أو أذلاء، أغنياء أو فقراء، بل وظيفتي تقريب من قبل قولي ودعوىٰ رسالتي، وآمن بربي، فلمّا عَجَزوا عن معارضته بالحجة أخذوا في تهديده و ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٥٥.

٣. تفسير القرطبي ٩: ٢٤.

تَنتَهِ﴾ ولم تُردَع ﴿يَا نُوحُ﴾ عن الدعوة إلى التوحيد والايمان بك والانذار والوعظ ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ البتة فيما بيننا ﴿مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ والمطرودين عن أرضنا، أو من المقتولين بالأحجار، لأنّه أقبح قتلة، أو من المشتومين.

عن الثُّمالي: الرجم في جميع القرآن بمعنى القتل، إلّا في سورة مريم في قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأرْجمنّك﴾[1] فانّه بمعنى الشتم[2].

فعند ذلك يئس نوح عليه السلام من إيمانهم، واشتكى إلى ربّه و ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ وأصرّوا في ردّ قولي بعد ما دعوتهم ليلاً ونهاراً ﴿فَافْتَحْ﴾ واحكُم ﴿بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾ بما يستحق كلّ منّا ومنهم من الرحمة والعذاب ﴿وَنَجِّنِى﴾ وخلّصني ﴿وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من شرّ الكفّار وممّا ينزِل بهم من العذاب، فاستجبنا دعاءه ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ﴾ من أهله والمؤمنين به بعد إرسال الماء من السماء وفورانه من الأرض بحملهم ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ والسفينة المملوءة بهم وبكلّ صنفٍ من الحيوانات والأمتعة والمأكولات.

عن الباقر عليه السلام: «المشحون: المجهّز الذي قد فُرِغ منه ولم يبق إلّا دفعه»[3].

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾ في الماء ﴿بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ من الناس ممّن لم يكن في السفينة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الانجاء والاغراق ﴿لَآيَةً﴾ وعِظةً وعِبْرةً لمن بعدهم من الناس ﴿وَمَا كَانَ﴾ مع ذلك ﴿أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسله، فلا تحزن يا محمّد على عدم إيمان قومك، واصبر على أذاهم كما صبر نوح عليه السلام ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمّد ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ والقادر على الانتقام وتعجيله، ولكنّه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم لإمهالهم كي يؤمنوا، أو يَلِدوا مؤمناً.

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا ٱللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ [١٢٣ ـ ١٣٠]

ثمّ بالغ سبحانه في تسلية نبيه صلى الله عليه وآله بذكر قصة هود بقوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبيلة يقال لها ﴿عَادٌ﴾ انتساباً على جدّهم الأعلى ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كلّهم بتكذيبه ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ عِظة ﴿أَخُوهُمْ﴾ في النسب اسمه

---

١. مريم: ٤٦/١٩. ٢. تفسير القرطبي ١٣: ١٢١.
٣. تفسير القمي ٢: ١٢٥، وفيه: إلّا رفعه، تفسير الصافي ٤: ٤٥.

﴿هُودٌ﴾ وقيل: هو لقبه لوقاره وسكينته واسمه عابر[١]: يا قوم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله في كفركم وعصيانكم له ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه، أو مشهور عندكم بالأمانة، فاذا سلّمتم ذلك ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ وخافوا من عقابه على الكفر به وإنكار رسالتي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في ما آمركم به أداءً للرسالة ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ شيئاً ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ ولا أتوقّع منكم مثقال ذرّة من جُعلٍ ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ وما جُعلي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنّ عملي لا يكون إلّا له.

ثمّ نهاهم عن اللغو والعبث بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ﴾ يا قوم ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ ومكانٍ مرتفع ﴿آيَةً﴾ وعلامةً ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بها قيل: إنّهم كانوا يَبْنُون في الأماكن الرفيعة[٢] ليُعرَف غناهم تفاخراً[٣]. وقيل: إنّهم كانوا يبنون بها بُروج الحمام[٤].

وعن ابن عباس: أنّهم كانوا يبنون بكلّ رِيعٍ عَلَماً يعبثون فيه بمن يمُرّ في الطريق إلى هود[٥].

﴿وَتَتَّخِذُونَ﴾ لأنفسكم ﴿مَصَانِعَ﴾ وحياضاً من ماءٍ، أو أمكنةً شريفةً، أو قصوراً مشيدةً، أو حُصوناً مُحصَنةً ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ وبرجاء أنّكم ﴿تَخْلُدُونَ﴾ أو كأنّكم تدومون[٦] في الدنيا ولا تموتون أبداً.

عن النبي ﷺ ـ في حديث ـ قال: «كل بناءٍ يُبنىٰ فانّه وَبال على صاحبه يوم القيامة إلّا ما لابُدّ منه»[٧].

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ وتناولتم سيفاً أو سوطاً بصولةٍ وقهر ﴿بَطَشْتُمْ﴾ وتناولتم بالقهر حال كونكم ﴿جَبَّارِينَ﴾ ظالمين وقاتلين لمن تغضبون عليه بلا رأفةٍ ورحمةٍ وقصد تأديبٍ ونظرٍ في العاقبة.

والحاصل أنّه عليه السلام ذمّهم أولاً: ببناء الأبنية الرفيعة بلا حاجة إليها، بل لإظهار التكبّر والخُيلاء، وثانياً: بإحكام الأبنية الدالّ على طول الأمل والغَفْلة عن أن الدنيا دار مجازٍ، وثالثاً: بالظُّلم على الناس وقلّة الرأفة والرحمة، والجميع دالّ على استيلاء حبّ الدنيا عليهم حتى أخرجهم عن حدّ العبودية وادخلهم في حَد العُتو والطُّغيان.

فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [١٣١-١٣٥]

ثمّ بالغ هود في زجرهم عن حبّ الدنيا ودعائهم إلى الآخرة بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ وخافوا عقابه على الانهماك في الشهوات، واتركوا تلك الأعمال الشنيعة ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في ما آمركم به من الإقبال

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٩٤.
٢. في تفسير الرازي: المرتفعة.
٣ ـ ٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٥٧.
٦. في النسخة: تديمون.
٧. مجمع البيان ٧: ٣١٠، تفسير الصافي ٤: ٤٥.

على الله والدار الآخرة والقيام بالعدل والانصاف، وقصر الأمل فانّه النافع لكم.

ثمّ حثّهم على التقوى بتذكيرهم نِعم ربّهم الموجب لإيقاظهم من سِنة الغفلة، ورغبتهم إلى الايمان وقيامهم بالشكر بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا﴾ الله ﴿ٱلَّذِى أَمَدَّكُم﴾ وقوّاكم ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ به من أنواع نِعمه منها أنّه ﴿أَمَدَّكُمْ﴾ وأعانكم ونَظَم اُمور معاشكم ﴿بِأَنْعَامٍ﴾ كثيرة من الابل والبقر والغَنم لتستفيدوا منها ﴿وَبَنِينَ﴾ عديدة لتستعينوا بهم في الحوائج ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ وبساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ غزيرة الماء تشربون منها، وتسقون بها أنعامكم وزروعكم وبساتينكم.

ثمّ هددهم على بقائهم على الكفر والعصيان مع إظهار الشّفقة عليهم بقوله:﴿إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن تدوموا[1] على الكفر وكفران النعم من أن يُنزِل الله عليكم ﴿عَذَابَ﴾ الاستئصال في ﴿يَوْمٍ﴾ ذي هولٍ ﴿عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة لعِظم ما يحِلّ فيه.

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَاعِظِينَ * إِنْ هٰذَا إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ[١٣٦ـ١٣٨]

ثمّ أنّ القوم بعد إبلاغ هود عليه السلام في نُصحهم ووعظهم ﴿قَالُوا﴾ في جوابه طُغياناً وعُتوّاً: يا هود ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ ولا يتفاوت في نظرنا ﴿أَوَعَظْتَ﴾ ونصحتنا ﴿أَمْ﴾ سكتَ و ﴿لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَاعِظِينَ﴾ والناصحين، فانّا لن نكترث بكلامك، ولن نعتنِ بقولك، ولن ننصرف عمّا نحن عليه بدعواك ﴿إِنْ هٰذَا﴾ الدعوى الذي تدّعي من الرسالة والتوحيد والتحذير من الشرك ﴿إِلاَّ خُلُقُ﴾ جماعة من ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ودأب عدّة من السابقين، أو المراد ما هذا الذي نحن عليه من العقائد والأعمال إلّا عادة الأقوام السابقين والأمم الماضين، فانّهم كانوا على ديننا وملتزمين بأعمالنا، ونحن مُقْتَدُون بهم، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلّا عادة الناس من قديم الدهر جارية فينا نحيا كحياتهم، ونموت كموتهم، لا بعث ولا حساب ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على عقائدنا وأعمالنا، لا في الدنيا لعدم المقتضي للعذاب، ولا في الآخرة لعدم عالم آخر وراء هذا العالم.

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا ٱللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ

---

١. في النسخة: تديموا.

أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ [١٣٩ ـ ١٤٥]

ثمّ حكى سبحانه إهلاكهم بتكذيب هود بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وأصرّوا على إنكار رسالته عناداً ولَجاجاً ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بسبب تكذيبهم إيّاه بريحٍ صَرصَرٍ عاتيةٍ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك ﴿لَآيَةً﴾ وعبرةً عظيمةً ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

ثمّ ذكر سبحانه قصة صالح بقوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبيلة يقال لها ﴿ثَمُودُ﴾ لأنّهم أولاد ثمود بن عبيد بن عوص بن عاد كما قيل[١] ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كلّهم ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ وواحدٌ منهم يقال له ﴿صَالِحٌ﴾ نُصحاً: يا قوم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله ولا تخافون عذابه على عبادة غيره؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من قبل الله ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه، أو مشهور بينكم بالأمانة والصدق، فاذا سلّمتم ذلك ﴿فَاتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في مخالفتي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في ما أدعوكم إليه، فانّ وظيفتي الدعاء إلى التوحيد ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وجعل ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ وجُعلي، وما جزاء عملي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ [١٤٦ ـ ١٥٤]

ثمّ وبّخ قومه بطول الأمل وإنكار المعاد وكُفران نعم الله بقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ وهل تطمعون أن تبقوا[٢] ﴿فِي مَا هَاهُنَا﴾ من الديار والعَقار والنِّعم حال كونكم ﴿آمِنِينَ﴾ ومحفوظين من الآفات والموت والمجازاة على كفرانه؟[٣] لا يكون ذلك أبداً.

ثمّ فسر الموصول وفصّل النِّعم بقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ وبساتين كثيرة الأشجار والثِّمار ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهارٍ أو آبار كثيرة الماء.

قيل: إنّهم لم يكن لهم أنهار جارية[٤]. وقيل: كانت لهم في الصيف لأنّهم كانوا يخرجون في الصيف إلى القصور والكروم والأنهار، وأما في الشتاء فلم يكن لهم إلّا الآبار[٥].

﴿وَزُرُوعٍ﴾ كثيرة من الحنطة وسائر الحبوبات النافعة ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ وما يخرج منها من غلاف

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٩٧.
٢. في النسخة: تبقون.
٣. زاد في النسخة: بعده.
٤ و ٥. تفسير روح البيان ٦: ٢٩٧.

كنصل السيف فيه الشِّمراخ الذي هو للنخيل كالعُنقود للكرم ﴿هَضِيمٌ﴾ وداخلٌ بعضها في بعضٍ، أو مُتَدلّ لثقل الحَمْل، أو لطيف وهو كناية عن لطافة ثمره، لأنّه كلّما لَطُفَ الثمر لَطُفَ طَلْعُه، أو كناية عن كون النخل اُنثى لأنّ طَلَع الذَّكر صَلْبٌ غَليظٌ، كذا قيل[1].

وقيل: إنّ الطَّلع زَهْرة النخل[2]، وقيل: إنّه أطيب الرطب[3]، وإنّما خصّ النَّخْل بالذِكْر مع دخولها في البساتين للتنبيه على فضلها.

﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ لسكونتكم ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً﴾ ومساكن حال كونكم ﴿فَارِهِينَ﴾ ومتنشّطين وطيبي القلوب بالنَّحت، أو حاذقين فيه، فاذا عَلِمتم أنّ الله هو الذي أنعم عليكم بتلك النِّعم ﴿فَاتَّقُوا ٱللهَ﴾ بترك الشِّرك وطول الأمل ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في أحكامي التي جئتكم بها من الله ﴿وَلَا تُطِيعُوا﴾ وتتّبعوا ﴿أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ والمفرّطين في اتباع الشهوات، المتجاوزين عن الحدّ في حبّ اللذات، وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى﴾ هذه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ التي تَسْكُنونها باشاعة الكفر والعصيان وإضلال الناس وصدّهم عن الحقّ ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أمراً من الأمور، ولا يصدُر منهم شيءٌ من الخير، بل كلّما يصدُر منهم مَحض الشرّ وشرّ محض، فأجابه قومه و﴿قَالُوا﴾ رداً عليه وتكذيباً له في دعواه الرسالة: يا صالح ﴿إِنَّمَا أَنتَ﴾ أحد ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ والمغلوبين على عقولهم بكَثْرة سحر السحرة بهم لما نرى منك من كلمات لا يتفوّه بها عاقل، أو المراد إنّما أنت من الذين لهم بُطون يأكُلون ويشربون ﴿مَا أَنتَ﴾ إذن ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا مزيّة لك علينا، ولو كنت مَلَكاً لكنّا نقبَل دعواك بلا آية ولا بيّنة، ولكن لمّا تحقّق أنّك بشرٌ ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ وحُجَةٍ واضحة الدلالة على صحّة دعواك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ فيه وقد مرّ تفصيل اقتراحهم الناقة في الأعراف[4].

قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ[١٥٥ ـ ١٥٩]

فلمّا خرجت الناقة من الصخرة، وبركت بين أيديهم ﴿قَالَ﴾ صالح يا قوم ﴿هٰذِهِ﴾ الناقة التي تَرَونها ﴿نَاقَةٌ﴾ اقترحتموها عليّ، وليكن ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾ ونصيبٌ من الماء في يومٍ معينٍ ﴿وَلَكُمْ

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٩٨.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٩٨.
٣. الكشاف ٣٢٨/٣، الدر المنثور ٣١٥/٦.
٤. راجع تفسير الآية (٧٣) وما بعدها من سورة الأعراف.

شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ لا تشرب هذه من نصيبكم، ولا تشربوا أنتم من نصيبها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ ولا تَقصِدوها بمكروهٍ وإيذاءٍ وضربٍ وعَقرٍ وقتلٍ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ عند ذلك من قبل الله ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لعِظَم ما يحِلَ فيه ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ ببغيهم ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ بعده ﴿نَادِمِينَ﴾ عليه لما رأوا من آثار غضب الله عليهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الموعود إجمالاً، وهو صيحة جَبْرئيل عليه السلام، فهلكوا جميعاً بها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الاهلاك ﴿لَآيَةً﴾ وعبرةً عظيمةً للناس ﴿وَمَا كَانَ﴾ مع ذلك ﴿أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ به، قيل: ما آمن به منهم إلّا أربعة آلاف[1] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا ٱللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ [١٦٠ـ١٦٨]

ثمَ ذكر سبحانه قصّة لوط بمبالغة في تسلية حبيبه بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ وصاحبهم ﴿لُوطٌ﴾ بن هادان نُصحاً لهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وكيف لا تخافون عذاب الله على الشرك والعصيان ﴿إِنِّى لَكُمْ﴾ من جانب الله ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ على دينكم ودنياكم ﴿فَاتَّقُوا ٱللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ في ما اُبلّغكم من الله ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

ثمَ إنّه تعالى بعد إعلامهم برسالته ودعوتهم إلى التوحيد وطاعة الله وإظهار عدم طمعه في أموالهم، وبَخهم على عملهم الشنيع من وطئهم الرجال بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ يا قوم ﴿ٱلذُّكْرَانَ﴾ وتطؤونهم أنتم ﴿مِنَ﴾ أهل ﴿ٱلْعَالَمِينَ﴾ ولا يُشاركَكم فيه غيركم، لكونه أقبح القبائح عند كلّ أحدٍ، أو المراد أتاتون الذكور من أولاد آدم ﴿وَتَذَرُونَ﴾ وتَدَعون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ ونسائكم، ولا تُجامعونهن مع كونهنّ مخلوقات لاستمتاعكم بهنّ بأيَ نحوٍ شئتم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ومتجاوزون عن الحدّ في جميع المعاصي التي من جملتها هذا العمل الشنيع، أو المراد: بل أنتم قوم أحقّاء بأن تُوصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم هذه الفاحشة، فأجابه قومه و﴿قَالُوا﴾ تهديداً له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ ولم ترتدع ﴿يَا لُوطُ﴾ عن تقبيح عملنا والانكار علينا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ من بلادنا

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٠.

والمنفيين من ديارنا بأسوء حال ﴿قَالَ﴾ لوط: يا قوم ﴿إِنِّى﴾ أبغض المقام فيكم، واتمنّى الخروج من بينكم، لأنّي ﴿لِعَمَلِكُم﴾ الشنيع من وطئ الرجال ونكاح الذكور ﴿مِنَ ٱلْقَالِينَ﴾ والمبغضين أشدّ البُغض، فكيف ارتدع عن نهيكم عنه وإنكاره عليكم بسبب تهديدكم بإخراجي من بينكم، مع أنه غاية أملي؟

رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزاً فِى ٱلْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ[١٦٩ ـ ١٧٥]

ثمّ أعرضَ عنهم وتضرّع إلى ربّه في إخراجه من بينهم، وخلاص نفسه وأهله من شؤم عملهم بقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِى﴾ وخلّصني ﴿وَأَهْلِى مِن﴾ سوء ﴿مَا يَعْمَلُونَ﴾ من العمل الشنيع وعذابه بإخراجي من بينهم ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ وخلّصناه ﴿وَأَهْلَهُ﴾ ومن تعلّق به ﴿أَجْمَعِينَ﴾ استجابةً لدُعائه ﴿إِلَّا عَجُوزاً﴾ وامرأةً مُسنّةً اسمها والهة على ما قيل[١]، فانّها لكفرها ورضاها بعمل القوم بقيت ﴿فِى ٱلْغَابِرِينَ﴾ والباقين في البلد والعذاب.

رُوي أنّها خرجت مع لوط، فلمّا سَمِعت الرّجفة التفتت فأصابها حجر فهلكت[٢]. وقيل: إنّها بقيت في البلد ولم تخرُج مع لوط[٣].

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ وأهلكنا أفظع الهلاك وأشدّه ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ من قومه وأهل بلده حيث قلبت عليهم بلادهم وجعل عاليها سافلها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً﴾ عجيباً هائلاً وهو مطر الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ والقوم الذين خُوِّفوا من العذاب ولم يؤمنوا ولم يرتدعوا من أرتكاب الفاحشة.

قيل: إنّ الحاضرين في البلاد أُهلكوا بانقلاب بلادهم، والمسافرون منهم أُهلكوا بمطر الحجارة[٤].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ العذاب المستأصل الذي على هؤلاء القوم ﴿لَآيَةً﴾ وعبرةً عظيمةً لمن بعدهم، ولمن بقي في الأرض من العصاة ﴿وَمَا كَانَ﴾ مع ذلك ﴿أَكْثَرُهُم﴾ مع إبلاغ لوط في النُّصح ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ به قيل: ما آمن به إلا بنتيه وصهره[٥] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ والقادر على تعذيب أعدائه وقهرهم لكنّه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم لإمهالهم.

---

١ ـ ٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٢.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٢.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٢.

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا ٱللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ[١٧٦ ـ ١٨٠]

ثمّ حكى سبحانه كيفية دعوة شُعيب، وامتناع قومه من الايمان به بقوله: ﴿**كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ**﴾ وأهل الغيظة التي كانت بقرب مدين ﴿**ٱلْمُرْسَلِينَ**﴾ كلّهم بتكذيبهم شعيباً، أو كذّبوا جميع الرسل ومنهم شعيب المبعوث لدعوتهم ودعوة أهل مَدين ﴿**إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ**﴾ نصحاً وإنذاراً: يا قوم ﴿**أَلَا تَتَّقُونَ**﴾ الله ولا تخافون عقابه على الشرك والعصيان.

في حديث عامي: أنّ شعيباً أخا مَدين أُرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة[١].

وروي أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجرٍ ملتفٍّ كان حَمْلها المُقْل[٢].

ثمّ قال: ﴿**إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ**﴾ من الله مبعوثٌ لدعوتكم إلى التوحيد وإلى ما هو خيرٌ لكم في الدارين ﴿**أَمِينٌ**﴾ عنده على وحيه، وعندكم على دينكم ودنياكم، وقد عرفتموني أنّي [أدعوكم] إلى الايمان لم أطلب إلّا ما هو صلاح حالكم ﴿**فَاتَّقُوا ٱللهَ**﴾ إذن ﴿**وَأَطِيعُونِ**﴾ في ما آمركم به، فانّ أمري أمر الله، وطاعتي طاعته، واعلموا أنّ وظيفتي تبليغ أحكام ربّي ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ**﴾ ولا أطلب منكم ﴿**عَلَيْهِ**﴾ شيئاً ﴿**مِنْ أَجْرٍ**﴾ وجُعْلٍ ﴿**إِنْ أَجْرِىَ**﴾ وما جُعْلي ﴿**إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ**﴾ ومالك السماوات والأرضين، لأنّ عملي له.

أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ[١٨١ ـ ١٨٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد الاعلان برسالته، ودعوتهم إلى طاعته، واظهار عدم طمعه في دنياهم وأموالهم، شرع في بيان ما أمر بتبليغه من الله إليهم من الأحكام، ونهيهم عمّا تداول بينهم من أقبح الأعمال بقوله: ﴿**أَوْفُوا**﴾ للناس ﴿**ٱلْكَيْلَ**﴾ وأتموه كاملاً إذا استحقّوا منكم الكيل ﴿**وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ**﴾ والمنقصين لحقوقهم بتنقيص أكيالهم ﴿**وَزِنُوا**﴾ الموزونات من حقوقهم ﴿**بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ**﴾ والميزان العدل السويّ. قيل: إنّ القِسطاس رُوميّ مُعرّب[٣].

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٦٣.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٦٣، المَقْل: حَمْل الدَّوم، وهو يشبه النخل.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٣.

ثمّ عمّم سبحانه النهي عن تنقيص الحقوق سواء أكانت مكيلةً أوموزونةً، أو معدودةً أو غيرها بقوله: ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تُنقِصوا أموالهم وحقوقهم، [سواء] أكان الحقّ عيناً كنقص العدد والزرع، أو كيفيةً كدفع الرديء مكان الجيّد، أو سلطنةً كمنع المالك عن التصرّف في مُلكه بالغَصْب والسرقة، أو ذي الحقّ عن استيفاء حقّه، كمنع الزوجة زوجها عن التمتع بها، وامتناع الزوج من أداء حقوق زوجته ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ ولا تعتدوا ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ كالقتل والغارة، وقطع الطريق، وإهلاك الزرع، وإشاعة الكفر والعِصيان. قيل: كان قومه يفعلون جميع ذلك[١].

وَٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ [١٨٤ـ١٨٦]

ثمّ حثّهم على إطاعة تلك الأحكام بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا﴾ الله العظيم القادر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ بقدرته ﴿وَ﴾ خلق ﴿ٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والخلائق السابقين فرهّبهم عن العصيان بكمال قدرته، ورغّبهم في الطاعة ببيان أعظم نِعمه من خلقهم وخلق أسلافهم الذين لولاهم لما خُلِقوا.

ثمّ أنهم بعد استماع البيانات التي لا تصدُر إلّا من أعقل الناس، نسبوه إلى الجنون و ﴿قَالُوا﴾: يا شعيب ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ والمجانين الذين سحرهم الساحرون مرةً بعد اُخرى حتى زال عقلهم ولذا تقول ما تقول. ثمّ نفوا عنه قابلية الرسالة[٢] بقولهم: ﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ وليس لك فضل علينا، والرسول لابدّ أن يكون مَلَكاً مُنزّهاً من شؤون البشرية ثمّ صرّحوا بتكذيبه الذي هو نتيجة المقدّمتين بقولهم: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ في دعواك الرسالة.

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ [١٨٧ـ١٩١]

ثمّ لمّا كان شعيب عليه السلام يهددهم بالعذاب على تكذيبه وعدم الايمان به، رتّبوا على تكذيبه طلب نزول العذاب عليهم استهزاءً بقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ وقطعةً ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ والسَّحاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ في دعواك ووعيدك بالعذاب.

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٦٣.

٢. يريد استحقاقه لها.

قيل: إنّما طلبوا العذاب لاستبعادهم وقوعه، وظنّهم بأنّه إذا لم يقع ظهر كذبه[١]. فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ شعيب: ﴿رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإصرار على الكفر والتكذيب، فيعامل معكم بما تستحقّون، فأمركم مفوّض إليه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد وضوح الحقّ وتمامية الحجّة كما كذّبوه من قبل ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ وشملهم ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ حسبما اقترحوه.

رُوي أنّه حبس عنهم الريح سبعاً، وسلّط عليهم الرمل، فأخذ بأنفاسهم، لا ينفعهم الظل والماء، فاضطرّوا إلى الخروج إلى البرّ، فاظلّتهم سَحابةٌ وجدوا لها برداً ونسيماً، فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا[٢] ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بعِظَم ما وقع فيه من العذاب.

روي أنّه عليه السلام بعث إلى أصحاب مَدين وأصحاب الأيكة، فأهلكت مَدين بصيحة جَبْرئيل عليه السلام وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلّة[٣] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ العذاب الهائل ﴿لَأَيَةً﴾ وعبرةً للنّاس ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قيل: لم يؤمن من أصحاب الأيكة أحداً، وإنّما آمن به جمع من أهل مَدين[٤].

وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ[١٩٢-١٩٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر القَصص التي كان الإخبار بها من النبيّ الأمي من الإخبار بالمغيّبات، أعلن بكون القرآن نازلاً منه بقوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾ بدلالة إعجاز البيان والاشتمال على المغيبات والله ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ لا اختلاق البشر ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ بأمره جَبْرئيل الذي يقال له ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ على وحيه، وتلاه عليك بحيث وعاه قلبك وحفظه كأنه نزل به أولاً ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ثمّ على ظاهرك.

وقيل: لمّا كان المخاطَب في الحقيقة القلب لكونه محل التميّز والاختبار وسائر الأعضاء مسخرةً له[٥]، يكون هو محلّ النزول في الحقيقة، فكأنّه قال: نزل عليك بحيث تفهمه حقّ الفهم ﴿لِتَكُونَ﴾ منذراً ﴿مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ ورسولاً من المرسلين الذين أُرسلوا ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ واضح المعنى لقومهم، كهود وصالح وشعيب وإسماعيل، أو المراد نزل به على قلبك بلغةٍ عربيةٍ حتى لا يقول قومك: لا نفهم كتابك.

عن أحدهما عليهما السلام أنّه سُئل عنه فقال: «يبين الألسن، ولا تبينه الالسن»[٦].

---

١ ـ ٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٦٤.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٥.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٦٦.
٦. الكافي ٢: ٢٠/٤٦٢، تفسير الصافي ٤: ٥١.

وعن الصادق، عن أبيه عليهما السلام قال: «ما أنزل الله تبارك وتعالى كتاباً ولا وحياً إلّا بالعربية، فكان يقع في مسامع الأنبياء بألسنة قومهم، وكان يقع في مسامع نبينا صلى الله عليه وآله بالعربية، فاذا كلّم به قومه كلّمهم بالعربية، فيقع في مسامعهم بلسانهم، وكان احد[1] لا يخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله بأيّ لسان خاطبه إلّا وقع في مسامعه بالعربية كلّ ذلك يُترجِم جَبْرئيل عليه السلام عنه تشريفاً من الله عزّ وجلّ له»[2].

وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ[١٩٦ ـ ٢٠٣]

ثمّ استدلّ سبحانه على نزول القرآن منه بقوله: ﴿**وَإِنَّهُ**﴾ بمعناه وأوصافه وعلائمه ﴿**لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ**﴾ وكتب الأنبياء السابقين، فانّه تعالى أخبر فيها بنزوله على النبي المبعوث في آخر الزمان، أو المراد أنّ ذكر النبي كان في الكتب السابقة كما روي أنّ أهل مكة بعثوا إلى يهود المدينة يسألونهم عن محمّد صلى الله عليه وآله وبعثته، فقالوا: إنّ هذا لزمانه، وإنّا نجد في التوراة نعته وصفته[3]، فنزل ﴿**أَوَلَمْ يَكُن لَهُمْ ءَايَةً**﴾ ودلالة على صدق محمد صلى الله عليه وآله وصحّة كتابه ﴿**أَن يَعْلَمَهُ**﴾ ويَشْهَد بصدق نبوته أو كتابه ﴿**عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ**﴾ كعبدالله بن سلّام وأضرابه من أحبارهم.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ قريش مع كون القرآن نازلاً بلسانٍ عربي مقترناً بشواهد الصدق كفروا به بقوله: ﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ**﴾ بهذه الفصاحة التي عجَزت العرب عن إتيان مثله ﴿**عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ**﴾ الجاهلين بلغة العرب ﴿**فَقَرَأَهُ**﴾ ذلك الأعجمي ﴿**عَلَيْهِم**﴾ قراءةً صحيحةً خارقةً للعادة ﴿**مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ**﴾ أيضاً لفَرْط عِنادهم ولجَاجهم مع انضمام القراءة إلى إعجاز العبارة مع عدم احتمال كونه من تقوّلات الأعجمي.

وقيل: إنّ المراد لو أنزلنا هذا القرآن بلسان العجم على رجل أعجمي فقرأه على قريش، لامتنعوا من الايمان به اعتذاراً بعدم فهمه، فأنزلناه بلسانهم قطعاً لعُذرهم، ومع ذلك لا يؤمنون به[4].

وعن الصادق عليه السلام: «لو نزلنا[5] القرآن على العجم ما آمنت به العرب، وقد نزل على العرب فآمنت به

---

١. في علل الشرائع: أحدنا.
٢. علل الشرائع: ٨/١٢٦، تفسير الصافي ٤: ٥١.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٧ و٣٠٨.
٤. تفسير أبي السعود ٦: ٢٦٥.
٥. في تفسير القمي: انزل.

العجم»[1] وفيه دلالةٌ على كمال عصبية العرب وفضيلة العجم عليهم بالانصاف.

وقيل: إنّ المعنى لو أنزلنا القرآن على بعض الحيوانات فقرأه ذلك الحيوان عليهم بلسانٍ فصيح ما كانوا به مؤمنين[2].

وعن ابن مسعود: أنّه سُئل عن هذه الآية فأشار إلى ناقته فقال: هذه من الأعجمين[3].

﴿كَذٰلِكَ﴾ الإنزال بلسانٍ عربيٍ ﴿سَلَكْنَاهُ﴾ وأدخلناه بمعانيه وجهات إعجازه ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المصرّين على الكفر، ومع ذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ عِناداً ولَجاجاً واستكباراً ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ في الدنيا أو الآخرة، فإذا رأوه يؤمنون به إلجاءً واضطراراً، ولا ينفعهم ذلك الايمان، أو المراد كذلك الادخال والسلك للقرون بالتكذيب سلكناه وأدخلناه في قلوب المصرّين على الكفر، ولذا لا يؤمنون به حتى يَرَوا العذاب المُلجئ لهم إلى الايمان ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ ذلك العذاب ﴿بَغْتَةً﴾ وفَجأه في الدنيا أو الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت إتيانه ﴿فَيَقُولُوا﴾ عند ذلك تحسّراً وتأسّفاً على تفريطهم ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ ومُمْهَلُون حتى نتدارك ما فرّطنا في جنب الله، أو لنؤمن ونصدّق.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ[٢٠٤ـ٢٠٧]

ثمّ وبّخهم سبحانه على تعجيل العذاب الموعود استهزاءً بقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ والتقدير أيستمهلون عند نزول العذاب فبعذابنا في الحال ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ بقولهم: فاتنا بما تعدنا، ومن المعلوم أنّ بين الاستعجال والاستمهال غاية التنافي.

ثمّ نبّه سبحانه على عدم فائدة الاستمهال بعد نزول العذاب بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أيّها العاقل، وأخبرني ﴿إِن مَّتَّعْنَاهُمْ﴾ ونفعناهم بالحياة الدنيا ونِعمها ﴿سِنِينَ﴾ متطاولةً، أو سنين أعمارهم، أو من بدو الدنيا إلى آخرها ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ وما نفعهم شيئاً ﴿مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ وينتفعون به من العمر والنِّعم في الدنيا في رفع العذاب وتخفيفه.

عن الصادق عليه السلام قال: «أُري رسول الله صلى الله عليه وآله في منامه بني أُمية يصعدون مِنْبَره من بعده، ويُضِلّون الناس عن الصراط القهقرى، فأصبح كئيباً [حزيناً] فهبط عليه جَبْرئيل عليه السلام فقال: يا رسول الله، مالي

---

١. تفسير القمي ٢: ١٢٤، تفسير الصافي ٤: ٥١.
٢. مجمع البيان ٧: ٣٢٠.
٣. مجمع البيان ٧: ٣٢٠.

أراك كئيباً حزيناً؟ قال: يا جَبْرئيل، إنّي رأيت بني أمية في ليلتي هذه يصعدون مِنْبَري من بعدي، ويُضلّون الناس عن الصراط القهقرى، فقال: والذي بعثك بالحقّ نبيّاً إنّ هذا شيء ما اطّلعت عليه، فعرج إلى السماء، فلم يَلبَث أن نزل عليه بآيٍ من القرآن يُؤنسه بها قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ الآيات»[1].

وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ[٢٠٨ـ٢١٢]

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ عذابه لا يكون إلّا بعد إتمام الحجّة بقوله: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ ظالمة من القُرى بالعذاب ﴿إِلَّا﴾ كان ﴿لَهَا مُنذِرُونَ﴾ من النبيّ والمؤمنين من أتباعه، وإنما كان إنذارهم لأجل أن يكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ وعِظَةً لهم وإتماماً للحُجّة عليهم ﴿وَمَا كُنَّا﴾ باهلاكهم في حال جهلهم ووجود العُذر لهم ﴿ظَالِمِينَ﴾ بهم، بل كان مَحْض العدل.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان أنّ القرآن تنزيل ربّ العالمين لاشتماله على إعجاز البيان والإخبار بالمغيبات من ذكر قصص الأنبياء كما هي في زُبر الأولين مع كون النبي اُمياً، دفع قول القائلين بأنّه من إلقاءات الشياطين كسائر ما نزل على الكَهَنة بقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَاطِينُ﴾ وما أتت به مَرَدَة الجنّ ﴿وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ﴾ وما يصحّ منهم إنزاله، مع اشتماله على المعارف والعلوم الحقّة الحقيقية الموجبة لإرشاد الخلق إلى الحقّ وجميع الخيرات الدنيوية والأُخروية، مع أن شُغلهم إضلال الخلق وجدّهم فيه ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك أصلاً لأنّهم لا يُمكنهم العلم بالحقائق والمغيبات إلّا بالسّماع من الملائكة و﴿إِنَّهُمْ﴾ بالشهب ﴿عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ من الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ وممنوعون، ولو كانوا غير معزولين عن السمع لنزلوا بمثله على الكَهَنة والكفّار مع كمال ارتباطهم بهم والموّدة بينهم، ولم ينزلوا على النبيّ ﷺ الذي هو أعدى عدوّهم وهم أعدى عدّوه، لأنّه يلعنهم ويَذُمهم دائماً ويصرِف الناس عن اتّباعهم.

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ * وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ[٢١٣و٢١٤]

---

١. من لا يحضره الفقيه ٢: ٤٥٣/١٠١، الكافي ٤: ١٠/١٥٩، تفسير الصافي ٤: ٥٢.

ثمَ أنه تعالى بعد إثبات كون القرآن العظيم نازلاً من ربَ العالمين بتوسّط جَبْرَئيل، دعا الناس إلى التوحيد المقصود من إنزاله بنهي نبيه عن الاشراك الدالّ على إرادة نهي اُمّته عنه بقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ﴾ ولا تَعبُد يا محمّد ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ المُنزِل للقرآن ﴿إِلَٰهاً ءَاخَرَ﴾ ومعبوداً غيره ﴿فَتَكُونَ﴾ إذن مع كمال قُربك من الله ومحبوبيّتك عنده ﴿مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ بأشدّ العذاب، فكيف بغيرك؟ ثمّ بعد نهية عن الشرك وإنذاره وتحذيره عنه، أمره بإنذار أقاربه الأقرب فالأقرب بقوله: ﴿وَأَنذِرْ﴾ وخوّف من عقاب الله على الشِّرك وعصيانه ﴿عَشِيرَتَكَ﴾ وأرحامك ﴿ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ منهم فالأقربين، لأنّ الاهتمام بشأنهم أهمّ، فالبدأة بإنذارهم أولى، ولأنّ تأثير كلامه في الأجانب والأبعدين بعد التشدّد على نفسه، ثمّ على الأقرب فالأقرب منه أشد.

روي أنّه لمّا نزلت [هذه] الآية صَعِدعليه السلام الصَّفا فنادى الأقرب فالأقرب، وقال: «يا بني عبدالمطلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مَناف، يا عباس عمّ محمّد، يا صفية عمّة محمّد، إنّي لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من المال ما شئتم»[1].

وفي رواية قال: «افتدوا أنفسكم من النار، فانّي لا اُغني عنكم من الله شيئاً[2]، أطيعوني واعترفوا بتوحيد الله ورسالتي تنجوا من العذاب، وسلوني من المال ما شئتم.

وفي رواية: [أنه] جمع بني عبدالمطلب وهم يومئذٍ أربعون رجلاً على رجل شاة وقَعْبٍ[3] من لبنٍ، وكان الرجل منهم يأكُل الجَذعة ويشرب العُسّ[4]، فأكلوا وشَربوا ثمّ قال: «يا بني عبدالمطلب، لو أخبرتكم أنّ بسَفْح هذا الجبل خيلاً أكنتم مُصدّقي؟» قالوا: نعم. فقال: «إنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ»[5].

وروي عن البراء بن عازب[6] أنه لمّا نزلت الآية أرسل النبيّ صلى الله عليه وآله إلى بني عبدالمطلب، فجمعوا في دار عمّه أبي طالب، وكانوا أربعين رجلاً، فأمر علياًعليه السلام أن يطبخ لهم فَخْذ شاة ومُدّاً من حِنطة فوضع الطعام عندهم، وأتاهم بصاعٍ من لبنٍ، وكان كلّ منهم يأكُل جَذَعاً[7] ويشرب عليه عُساً من لَبَن، فلمّا رأوا الطعام الذي أحضره عليّعليه السلام عندهم ضَحِكوا وقالوا: هذا الطعام لا يكفي واحداً منّا! فقال النبي صلى الله عليه وآله: «كُلوا بسم الله» فأكلوا منه عشرة عشرة حتّى شَبِعوا، فقال: «اشربوا بسم الله» فشربوا الصاع من اللبن حتى رووا جميعاً، فلما رأوا ذلك المُعجِز قال أبو لهب: هذا ما سحركم به الرجل فسكت

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٧٢.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٣١١.
٣. القَعْب: القَدَح الضخم الغليظ.
٤. العُس: القدح الكبير.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٧٣.
٦. في النسخة: عن غارب.
٧. الجَذَع من الضأن: ما بلغ ثمانية أشهر أو تسعة.

النبيّ ﷺ فقاموا وذهبوا، ثمّ دعاهم في يومٍ آخر، وأحضر لهم مثل ذلك الطعام والشراب، فأكلوا وشَرِبوا، ثمّ قام النبيّ ﷺ وقال: «يا بني عبدالمطلب، إنّ الله بعثني إلى الخلق كافّة وإليكم خاصة فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين على الميزان تَملِكون بهما العرب والعجم، وتنقاد لكم بهما الأمم، وتدخُلون بهما الجنّة، وتنجون بهما من النار، شهادة أن لا إله إلّا الله، وإنّي رسول الله، فمن يُجيبني إلى هذا الأمر، ويؤازرني إلى القيام به يكن أخي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي؟» فما أجابه أحدٌ إلّا عليّ عليه السلام فانّه قام وقال: «أنا اؤازرك على هذا الأمر» وهو أصغرهم سناً وأحمشهم[1] ساقاً، وأمرضهم عيناً، فقال له النبي ﷺ: «اجلس؟»

ثمّ أعاد النبيّ ﷺ كلامه، فلم يُجبه أحدٌ، فقام عليّ عليه السلام وقال: «أنا أنصُرك يا رسول الله» فقال: «أجلس يا علي، فانّك أخي ووصيّي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي» فقام القوم وقالوا لأبي طالب استهزاءً: «أطع ابنك فقد أُمِّر عليك»[2].

وروى العلامة رحمه الله في (نهج الحق) عن (مسند [أحمد بن] حنبل): لمّا نزل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ جمع النبيّ ﷺ من أهل بيته ثلاثين رجلاً، فأكلوا وشربوا [ثلاثاً] ثمّ قال لهم: «مَن يَضْمَن عنّي ديني ومواعيدي، ويكون خليفتي، ويكون معي في الجنّة» فقال عليّ عليه السلام: «أنا» فقال: «أنت».

قال رحمه الله: ورواه الثعلبي في (تفسيره) وزاد: يعيد ثلاث مرات في كلّ مرّة يسكُت القوم غير عليّ عليه السلام»[3].

وقال بعض المحقّقين: إنّ لفظ (ديني) بكسر الدال، لأنّه لم يكُن على النبيّ ﷺ عند وفاته دَينٌ[4].

وعن أبي رافع أنّه جمع النبي ﷺ بني عبدالمطّلب، وطبخ لهم فَخْذ شاة، فأكلوا منه وشبعوا كلّهم، ثمّ أعطاهم قَدحاً من اللّبن فشربوا، ثمّ قال: «إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأنتم عشيرتي ورَهْطي، وإنّ الله لم يبعث نبياً إلّا جعل له من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصياً وخليفةً في أهله، فأيّكم يقوم فيبايعني على أنّه أخي ووارثي ووزيري ووصيي، ويكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي» ثمّ قال: «ليقومنّ قائمكم أو ليكوننّ من غيركم» فاعاد هذا الكلام ثلاثاً، فقام عليّ عليه السلام فبايعه، ثمّ قال: «ادنُ منّي يا علي» فدنا منه، ففتح فاه فبزق في فمه، وتفل بين كتفيه وبين يديه، فقال

---

١. أي أدقّهم.

٢. مجمع البيان ٧: ٣٢٢، الطرائف: ١٣/٢٠، تأويل الآيات ١: ٢٠/٣٩٤، بحار الأنوار ٣٨: ١١١/١٤٤، و: ٤٦/٢٥١.

٣. مسند أحمد ١: ١١١، كشف الحق: ٢/٢١٣، تاريخ الطبري ٢: ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٦٣، معالم التنزيل ٤: ٢٧٨، شرح النهج ١٣: ٢١٠، كنز العمال ١٣: ٣٦٤١٩/١٣١.

٤. كشف المراد: ٣٩٦ «نحوه».

أبو لهب بئس ما حَبَوتَ ابن عمّك أن أجابك فملأت فاه ووجهه بُزاقاً. فقال النبيّ ﷺ: «ملأته حكمةً وعلماً»[١].

وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ* وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ[٢١٥ - ٢٢٠]

ثمّ أنّه تعالى بعد أمر نبيه ﷺ بانذار الأقربين من عشيرته أمره بحسن العشرة والتواضع لعموم أهل الايمان بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ ولَيّن جانبك وتواضع ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ وأطاع أوامرك ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك.

عن الصادق عليه السلام قال: «قد أمر الله تعالى أعزّ خلقه وسيد بريّته محمّد ﷺ بالتواضع، فقال عزّ وجلّ ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والتواضُع مزرعة الخشوع[٢] والخَشية والحيَاء، وإنّهن لا يَنْبُتن إلّا منها وفيها، ولا يَسْلَم الشرف الحقيقي إلّا للمتواضع في ذات الله تعالى»[٣].

ثمّ أمر الله بالتبري من العصاة من المؤمنين بقوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ وخالفوا حكمك ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي بلا خوف من كيدهم وضررهم ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ في جميع حالاتك ﴿عَلَى﴾ الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ القادر القاهر لأعدائه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بأوليائه المتوكّلين عليه بالنصر والتأييد، فيَنْصُرهم ويكفيهم شر كلّ ذي شرّ.

ثمّ وصف ذاته المقدّسة بالعلم الكامل بأحواله بقوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ بوظائف النبوة، أو للصلاة بالناس جماعةً، أو للتهجّد، أو لأمرٍ من الأمور ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى﴾ تصفّح أحوال ﴿ٱلسَّاجِدِينَ﴾ والعابدين لتطّلع على أسرارهم.

قيل: لمّا نُسِخ فرض قيام الليل، طاف عليه السلام تلك الليلة ببيوت أصحابه، لينظُر على مايبيتون[٤]، لحرصه على طاعتهم، فوجدها كبيوت الزنابير، لما سَمِع منها من دَنْدَنتهم[٥].

أو المراد نرى تصرّفك فيما بين المأمومين[٦] بالركوع والسُّجود، كما عن ابن عباس[٧]، أو تقلّبك في المؤمنين المصلّين لكفاية اُمور الدين، أو تقلّبك في أصلاب آبائك المؤمنين، أو النبيّين، كما عن ابن

---

١. مجمع البيان ٧: ٣٢٣، تأويل الآيات ١: ١٩/٣٩٣، بحار الأنوار ٣٧: ٤١/٢٧١.
٢. زاد في مصباح الشريعة: والخضوع.
٣. مصباح الشريعة: ٧٤، تفسير الصافي ٤: ٥٤.
٤. في تفسير الرازي: لينظر ما يصنعون.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٧٣.
٦. في مجمع البيان: ويرى تصرفك في المصلين.
٧. مجمع البيان ٧: ٣٢٣.

عباس أيضاً[١].

﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأذكارك وأقوالك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بضمائرك ونياتك.

عن الباقر عليه السلام: «الذي يراك حين تقوم في النبوة ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّاجِدِينَ﴾ قال: أصلاب النبيّين»[٢].

وعنهما عليهما السلام قالا: «في أصلاب النبيين نبيّ بعد نبيّ حتى أخرجه من صُلب أبيه عن نكاحٍ غير سِفاحٍ من لدُن آدم»[٣].

وعن الباقر عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا ترفعوا قبلي ـ يعني رؤوسكم[٤] ـ فإنّي أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي، ثمّ تلا هذه الآية»[٥].

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ[٢٢١ـ٢٢٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان عدم قدرة الشياطين على إنزال القرآن، بيّن أنّهم لا ينزلون على النبيّ الذي هو عدوّهم ومخالفهم، بل ينزلون على أوليائهم وأتباعهم بقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ وأخبركم أيّها المشركون ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ﴾ اعلموا أنه ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ وكذّاب ﴿أَثِيمٍ﴾ دائم العِصيان، فانّهم ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ إلى الشياطين فيتلقّون منهم ما يُوحُون إليهم، أو المراد أنّهم يُلقون المسموع من الشياطين إلى النّاس ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ في ما يُخبِرون عن الشياطين، مفترون عليهم ما لم يُوحوا إليهم ولم يسمعوا منهم، وامّا القليل منهم يكتفون بذكر ما سَمِعوا بلا زيادةٍ عليه، وإن كانوا في سائر أخبارهم كاذبين.

وقيل: إنّ المراد بالقليل سطيح وشقّ وسواد بن قارب الذين كانوا يُخبِرون بالنبيّ ويُصدّقونه[٦] ويشهدون بنبوته، ويَدعون الناس إليه[٧].

وقيل: إنّ المراد من أكثرهم أكثر أقاويلهم لا أشخاصهم، فيُطابق الأفّاكين[٨].

وقيل: إنّ المراد من أكثرهم كلّهم[٩].

---

١. متشابه القرآن ومختلفه لابن شهرآشوب ٢: ٦٤.
٢. تفسير القمي ٢: ١٢٥، تفسير الصافي ٤: ٥٤.
٣. مجمع البيان ٧: ٣٢٤، تفسير الصافي ٤: ٥٤.
٤. في مجمع البيان وتفسير الصافي: قبلي، ولا تضعوا قبلي.
٥. مجمع البيان ٧: ٣٢٤، تفسير الصافي ٤: ٥٤.
٦. في تفسير روح البيان: كانوا يلهجون بذكر رسول الله وتصديقه.
٧. تفسير روح البيان ٦: ٣١٤.
٨. تفسير روح البيان ٦: ٣١٤.
٩. تفسير روح البيان ٦: ٣١٤.

وحاصل المراد أنّ الأفّاكين يُلقُون آذانهم إلى الشياطين فيتلقّون منهم أوهاماً لنقص عقولهم، فيَضُمّون إليها بحسب تخيّلاتهم الباطلة خُرافات لا يُطابق أكثرها الواقع، فأين حال هؤلاء من محمّد الصادق الذي لم يصدُر منه كِذب في ما أخبر به من المغيّبات وغيرها.

وقيل: إنّ المعنى أنّ الشياطين يُلقُون السمع إلى الملأ الأعلى فيختطفون من الملائكة بعض ما يتكلّمون به من المغيّبات، ثمّ يُوحون به إلى أوليائهم، وأكثرهم كاذبون في ما يُوحون به إليهم، لأنّهم لم يسمعوا من الملائكة جميع ما يُوحون إلى أوليائهم[١].

أو المراد أنّهم يُلْقُون السمع، أي المسموع من الملائكة إلى أوليائهم[٢].

عن الباقر عليه السلام: «ليس من يومٍ ولا ليلة إلّا وجميع الجنّ والشياطين تزور أئمّة الضلال ويزور عددهم من الملائكة أئمّة الهدى، حتى إذا أتت ليلة القدر، فيهبط فيها من الملائكة إلى وليّ الأمر عدد خَلْق الله، وقد قيّض الله عزّ وجلّ من الشياطين بعددهم، ثمّ زاروا وليّ الضلالة[٣] فأتوه بالإفك والكَذِب حتى يُصبح ليلة[٤] فيقول: رأيت كذا وكذا، فلو سأل وليّ الأمر عن ذلك لقال: رأيتَ شيطاناً أخبرك بكذا وكذا حتى يُفسّر له تفسيراً، ويعلّمه الضلالة التي هو عليها»[٥].

وعن الصادق عليه السلام - في هذه الآية - قال: «هم سبعة: المُغيرة، وبِنان، وصائد، وحمزة بن عُمارة البَربري، والحارث الشامي، وعبدالله بن الحارث، وأبو الخطاب»[٦].

وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا ٱللهَ كَثِيراً وَٱنتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ[٢٢٤ـ٢٢٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان الفرق بين الكاهن والنبي في جواب القائلين بنزول القرآن على محمّد صلّى الله عليه وآله بتوسّط الشياطين كنزول الكِهانة على الكَهَنة، أجاب سبحانه القائلين بأنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله شاعرٌ من الشعراء ببيان الفرق بين النبيّ والشاعر بقوله: ﴿**وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ**﴾ والضالّون، ومحمّد صلّى الله عليه وآله يتبعه الراشدون.

رُوي أنّ شعراء العرب[٧] كابن الزِّبَعْرى، وأبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطّلب، وهُبيرة بن أبي

١ و٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٧٤.
٣. في النسخة: أئمة الضلال.
٤. في الكافي وتفسيرالصافي: حتى لعله يصبح.
٥. الكافي ١: ٩/١٩٧، تفسير الصافي ٤: ٥٥.
٦. الخصال: ١١١/٤٠٢، تفسير الصافي ٤: ٥٥.
٧. في مجمع البيان وجوامع الجامع: المشركين.

وهب المخزومي، ومُسافع بن عبد منَاف الجُمحي، وأبو عزّة عمرو[١] بن عبدالله، كَلّموا أُمية ابن أبي الصلت الثقفي بكِذب وبُطلان[٢] وقالوا: نحن نقول مثل ما قال محمّد، فقال الشعراء أشعاراً في هجو النبيّ ﷺ وذمّ الاسلام، فاجتمع عليهم غُواة قريش، وسَمِعوا أشعارهم وحَفِظوها، وكانوا يُنشِدونها فنزلت[٣].

وقيل: إنّه كان في عهد النبيّ ﷺ شاعران تخاصما، فهجا كلّ منهما الآخر، كان أحدهما من الأنصار والآخر من غيرهم، وكان مع كلّ منهما جمعٌ يُعاونوه فنزلت[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ المراد بالشعراء الكفّار الذين هجوا رسول الله ﷺ وأنشدوا أشعارهم، فاتبعهم جمعٌ من الكفّار حين يُنشِدونها»[٥].

وعن ابن عباس: اُريد بالشعراء الشياطين، فانّ العرب كانوا يقولون: الشعراء تَبِعة الشياطين[٦].

وعن الباقر عليه السلام ـ في هذه الآية ـ: «هل رأيت شاعراً يتّبعه أحدٌ؟ إنّما هم قومٌ تفقّهوا لغير الله فضلّوا وأضلّوا»[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «هم قومٌ تعلّموا وتفقهوا بغير علمٍ فضلّوا وأضلّوا»[٨].

وعنه عليه السلام: أنّه سُئِل عن هذه الآية فقال: «هم القُصّاص»[٩].

وقيل: إنّ المراد بالشعراء في الآية الذين شَغَلهم الشعر عن القرآن والسُنّة[١٠].

وقيل: إنّهم الذين إذا غَضِبوا شَتَموا، وإذا قالوا شعراً كان شعرهم الكَذِب والبُهتان ومدح الناس بما ليس فيهم بقصد الصلة والجائزة أو لحميّة الجاهلية»[١١].

ثمّ بيّن سبحانه غاية غوايتهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها العاقل ﴿أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ﴾ ومسلكٍ في فنّ الكلام من المدح والذّمّ والجدل والغزل والحماسة وغيرها ﴿يَهِيمُونَ﴾ ويذهبون على وجوههم إلى سبيل غير معينٍ كالمتحيّر، أو المراد أنّهم يتحيّرون في أودية المقال والوَهْم والخَيال والغَي والضّلال كالبهائم الضالة، حيث إنهم يمدحون الشيء بعد أن ذمّوه، ويُعظّمونه بعد أن استحقروه وبالعكس.

القمي: يُناظرون بالأباطيل، ويُجادلون بحجج المضلّين[١٢]، وفي كلّ مذهبٍ يذهبون[١٣].

---

١. في النسخة: أبو غرة عمر.
٢. في مجمع البيان: تكلموا بالكذب والباطل.
٣. مجمع البيان ٧: ٣٢٥، جوامع الجامع: ٣٣٤.
٤. الدر المنثور ٦: ٣٣٣، تفسير روح المعاني ١٩: ١٤٦.
٥. مجمع البيان ٧: ٣٢٥ عن ابن عباس.
٦. تفسير أبي السعود ٦: ٢٧٠، جوامع الجامع: ٣٣٤.
٧. معاني الأخبار: ١٩/٣٨٥، تفسير الصافي ٤: ٥٥.
٨. مجمع البيان ٧: ٣٢٥، تفسير الصافي ٤: ٥٥.
٩. اعتقادات الصدوق: ١٠٩، تفسير الصافي ٤: ٥٥.
١٠ و١١. مجمع البيان ٧: ٣٢٥.
١٢. في المصدر: بالحجج المضلة.
١٣. تفسير القمي ٢: ١٢٥، تفسير الصافي ٤: ٥٦.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ بأن يَعِظوا الناس ولا يَتّعظون، وينهون عن المنكر وهم لا ينتهون، ويرغبون الناس في الأخلاق الحميدة ولا يتخلّقون بها، وفي الأعمال الخيرية ولا يَعْمَلون بها، بخلاف محمد ﷺ فإنّه من أوّل أمره إلى آخره على طريقةٍ واحدةٍ، وهي الدعوة إلى الله، والترغيب في الآخرة، والتزهيد عن الدنيا، وبدأ في جميع ذلك بنفسه حيث قال في كتابه: **﴿فلا تدع مع الله الهاً آخر فتكون من المعذبين﴾**[١] ثمّ بالأقربين منه حيث قال: **﴿وانذر عشيرتك الاقربين﴾**[٢] وكلّ ذلك مخالفٌ لطريقة الشعراء، فعلم أنه ﷺ ليس بشاعرٍ.

والحاصل أنّه لمّا نسب المشركون القرآن العظيم من حيث الإخبار بالمغيبات إلى الكِهانة وقالوا: إنّما تنزّلت به الشياطين، ومن حيث فصاحة الكلام وبلاغته إلى الشعر وقالوا: إنّ محمّداً شاعرٌ، ردّ الله الخُرافتين ببيان منافاة الكِهانة والشاعرية لحال الرسول العاقل الكامل الصادق التارك للهوى والدنيا.

ثمّ أنه روي أنّه لمّا نزلت الآيات الذامّة للشعراء قال حسان بن ثابت وابن رَواحة وجمعٌ من شعراء الصحابة: يا رسول الله، إنّ الله يعلم أنّا شعراء، ونخاف أن نموت على هذه الصفة، ونُحسَب من أهل الغَواية والضَّلالة، فقال ﷺ: «إنّ المؤمن مجاهدٌ بسيفه ولسانه» فنزلت[٣].

قوله تعالى: **﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾** بالله ورسوله **﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾** التي منها مدح النبيّ ودين الاسلام وهجو الكفّار ونصرة الرسول **﴿وَذَكَرُوا ٱللَّهَ﴾** بأشعارهم ذكراً **﴿كَثِيراً﴾** بأن كانت في إثبات التوحيد، وبيان المعارف، وصفات النبي ﷺ ومدحه ومدح المعصومين من آله وترغيب الناس في الاسلام وزجرهم عن الكفر والعصيان، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة والحكمة والموعظة ونظائرها **﴿وَٱنتَصَرُوا﴾** وانتقموا من الكفّار بهجوهم **﴿مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾** من قبلهم بالهجو والإيذاء.

رُوي أنه لمّا هجا المشركون النبي ﷺ قالت الصحابة: ما منع المؤمنين الذين ينصُرون النبيّ ﷺ بسيوفهم أن يَنصُروه بألسنتهم، فقال حسان وابن رَواحة: يا رسول الله، إنّا نكفيهم. فقال ﷺ: «اهجُوهم ورُوح القُدُس معكم»[٤].

وفي رواية قال ﷺ لحسان: «اهجُ المشركين، فانّ جَبْرئيل معك»[٥].

وفي رواية عنه ﷺ، أنه قال لحسان: «اهجُهم، فو الذي نفسي بيده لهو أشدّ عليهم من [رشق] النبل»[٦].

---

١. الشعراء: ٢٦/٢١٣. ٢. الشعراء: ٢٦/٢١٤.
٣. مجمع البيان ٧: ٣٢٦، الدر المنثور ٦: ٣٣٤، تفسير الصافي ٤: ٥٧. ٤. مجمع البيان ٧: ٣٢٦.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٣١٧. ٦. تفسير الرازي ٢٤: ١٧٦.

وعن الشَّعبي أنّه قال: كان أبو بكر يقول الشعر، وكان عمر يقول الشعر، وكان عثمان يقول الشعر، وكان عليّ أشعر الخلفاء[١].

ثمّ هدد الله الهاجين للرسول والمؤمنين بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ البتة الكفار ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا﴾ على أنفسهم بهجو النبيّ ﷺ والمؤمنين، أو عليهم بهجوهم وإيذائهم ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ﴾ ومرجعٍ، أو أي رجوعٍ بعد الموت ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ ويرجِعون، ولا يخفى أنّ في هذا الإيهام تهويلاً عظيماً ودلالةً على أنّ مكانهم في جهنّم أسوأ الأمكنة، وعذابهم فيها أشدّ العذاب.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ[٢] الطواسين[٣] في ليلة الجمعة، كان من أولياء الله وفي جواره وكَنَفه[٤]، ولم يصبه في الدنيا بؤسٌ أبداً، وأعطي في الآخرة من[الأجر] الجنّة حتى يرضى وفوق الرضا[٥]، وزوّجه الله مائة زوجةٍ[٦] من الحُور العِين»[٧].

نسأل الله التوفيق لتلاوتها، ونشكره على التوفيق لإتمام تفسير السورة المباركة.

---

١. مجمع البيان ٧: ٣٢٦، وفيه: أشعر من الثلاثة.

٢. زاد في ثواب الاعمال: سورة، وفي تفسير الصافي: سور.

٣. زاد في مجمع البيان وتفسير الصافي: الثلاث، وفي ثواب الأعمال: الثلاثة.

٤. زاد في مجمع البيان: وأسكنه الله في جنّة عدن وسط الجنّة مع النبيين والمرسلين والوصيين الراشدين.

٥. في ثواب الأعمال ومجمع البيان وتفسير الصافي: رضاه.

٦. في مجمع البيان: حوراء.

٧. ثواب الأعمال: ١٠٩، مجمع البيان ٧: ٢٨٦، تفسير الصافي ٤: ٥٧.

في تفسير سورة النمل

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ آيَاتُ ٱلْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ * هُدىً وَبُشْرَى لِـلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّـذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ[١ ـ ٣]

لمّا خَتَم سبحانه سورة الشعراء بدفع نسبة الكِهانة والشعر عن القرآن العظيم، ومدح المؤمنين به، وتهديد الظالمين الهاجين له وللرسول والمؤمنين، أردفها في النَّظم بسورة النمل المُفتتحة والمُختتمة بمدح القرآن وتعظيمه، وبيان فوائده المهمة وفضله، المتضمنة لكثيرٍ من المطالب التي تضمّنتها السورة السابقة من بيان كيفية بعثة موسى عليه السلام ودعوته لفِرعون، وإظهاره المعجزات الباهرات، وقصة صالح ولوط، وبيان التوحيد والمعاد وغيرها، فابتدأها بذكر أسمائه المباركة بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثمّ افتتحها بالحروف المقطّعة من قوله: ﴿طسٓ﴾ لما مرّ في بعض الطرائف من النُّكت[١] وقيل: معناه الطاهر السنيّ، وأنا اللطيف السميع[٢].

عن الصادق عليه السلام: «أنا الطالب السميع»[٣].

وعن ابن عباس: أنّه اسمٌ من أسماء الله أقسم به[٤] على أن ﴿تِلْكَ﴾ السورة أو الآيات التي فيها ﴿آيَاتُ ٱلْقُرْآنِ﴾ الذي بشّر به الأنبياء السابقون، وعُرِف بعِظَم القدر وعُلوّ الشأن ﴿وَ﴾ آيات ﴿كِتَابٍ﴾ لا يُشابهه كتاب ﴿مُبِينٍ﴾ ومُظهر ما في تضاعيفه من المعارف والحكم والأحكام والعبر وبيان أحوال الآخرة، أو ظاهر إعجازه وصدقه لكلّ أحدٍ.

ثمّ بالغ سبحانه في اتّصافه بكونه هادياً ومبشّراً بقوله: ﴿هُدىً﴾ بالبراهين إلى الحقّ وجميع الخيرات ﴿وَبُشْرَى﴾ برحمة الله ورضوانه ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به فانّهم المنتفعون بما فيه وهم ﴿ٱلَّـذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلاَةَ﴾ حقّ الإقامة ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ﴾ الواجبة، ويُؤتونها لمستحقّيها، ويَصرِفونها في

---

١. راجع: الطرفة (١٨) من مقدمة المؤلف.

٢. تفسير الصافي ٤: ٥٨، تفسير روح البيان ٦: ٣١٨.

٣. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٤: ٥٨.

٤. مجمع البيان ٧: ٢٨٨.

مصارفها ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ﴾ ودار جزاء الأعمال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ حقّ الإيقان، ولذا يجتهدون في الطاعات البدنية التي أهمّها الصلاة، والعبادات المالية التي أهمّها الزكاة رجاء الثواب وخوفاً من العقاب، وإنّما أتى بضمير الجمع للاشارة إلى اختصاصهم بهذا اليقين ووصفهم بهذا الوصف لإخراج من يظهر الإيمان ويعمل تلك الأعمال مع الشكّ احتياطاً.

وقيل: إنّ الجملة[1] اعتراضية، والمعنى أن المؤمنين العاملين هم المُوقنون بالمَعاد[2].

أَنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ * وَإِنَّكَ لَتُلَقَّىٰ ٱلْقُرْآنَ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ[٤-٦]

ثمَ أنه تعالى لمَا خصّ البُشرىٰ بالْمؤمنين الموقنين بالآخرة، ذمَ الكفّار وذَكَر ما خصّ بهم من العذاب الشديد بقوله ﴿أَنَّ﴾ الكفّار ﴿ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ الحسنة ببيان كثرة ثوابها وترغيبهم إليها، أو أعمالهم القبيحة بأن جعلناها مشتهاةً لطباعهم محبوبةً لأنفسهم، أو بأن سَلَبنا عنهم التوفيق للأعمال الخيرية الموجبة لسلطنة الشيطان عليهم، وترغيبه لهم، وتزيينه الأعمال السيئة في نظرهم ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ عنها ولا يُدرِكون ما يتبعها من الثواب على الوجه الأول، أو من العقاب على الوجه الثاني، أو المراد يتردّدون في الاشتغال بالقبائح والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يترتّب عليها من الضّرر والعقوبة.

﴿أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْعَذَابِ﴾ وشديده في الدنيا، أو في الآخرة ﴿وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ والأغبنون لتضييعهم العمر والعقل اللذين هما بمنزلة رأس المال، وتفويتهم المثوبات العظيمة، وتحصيلهم العقوبات الشديدة، فلا يَعْدِلهم خاسر.

ثمَ أنه تعالى بعد تعظيم القرآن وبيان فوائده وكَثْرة علومه، صرّح بكونه نازلاً منه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتُلَقَّىٰ﴾ ولتُعطى ﴿ٱلْقُرْآنَ﴾ وتأخُذه بتوسّط جَبْرئيل ﴿مِن لَدُنْ﴾ إله ﴿حَكِيمٍ﴾ أيّ حكيم و ﴿عَلِيمٍ﴾ أيّ عليم! فبحكمته بيّن فيه المعارف والأحكام، وبعلمه ذكر فيه القَصص والعِبر الكثيرة.

قيل: إنّ هذا تمهيدٌ لما يُريد أن يسوق بعده من القَصص، فكأنه تعالى قال: خُذ من آثار حكمته وعلمه قصّة موسى عليه السلام المشتملة على العلوم النظرية من توحيده وقُدرته وسائر صفاته الكمالية[3].

---

١. في النسخة: الجملتين.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٧٨، تفسير البيضاوي ٢: ١٧٠، تفسير روح البيان٦: ٣١٩.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٠.

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٧و ٨]

ثمَ شرع سبحانه في بيان قصة موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِذْ قَالَ﴾ والتقدير اذكُر يا محمّد إذ قال. وقيل: إنّ كلمة (إذْ) متعلّقة بعليم[١]. والمعنى عليم بمقال موسى عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ﴾ وزوجته بنت شُعيب وأولاده حين رجوعه من مَدين إلى مِصر. وقد ضلّوا الطريق في الليلة المظلمة الباردة: يا أهلي، قِفوا مكانكم ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ وأبصرتُ من البعيد ﴿نَاراً﴾ مشتعلةً اُريد أن أذهب إليها، ولا يخلو ذَهابي من أحد الأمرين: إما ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا﴾ ومن الذين حولها ﴿بِخَبَرٍ﴾ عن حال الطريق ﴿أَوْ آتِيكُم﴾ منها ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ وشُعلةٍ مأخوذةٍ من تلك النار، إن لم أجد عندها أحداً ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وتدفعون بحرّها عن أنفسكم البرد، وإنما وعدهم بأحد الأمرين لقوّة رجائه بأنّه إن لم يَظْفَر بكليهما يَظْفَر بأحدهما، لأنّه لا يجمع الله بين الحِرْمانين على عبده.

قيل: لم يكُن معه إلّا زوجته، فكنّى سبحانه عنها بالأهل، ثمَ أتى بضمائر الجمع تبعاً له[٢].

وقيل: لمّا أقام زوجته عند جماعة كانوا هناك لتأنَس بهم، خاطبهم بضمائر الجمع.

وعلى أي تقدير خلّف أهله وذهب إلى النار ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ وقرب منها رأى شجرةً مخضرةً عليها نارٌ لا تُحرِقها ولا تُحرِق أوراقها، فعجب من ذلك ثمَ همّ أن يأخذ منها، فلمّا رفع عصاه إلى رأس الشجرة نزلت إلى أصلها، فلمّا أراد أن يأخُذ من أصلها علت على الشجرة، فبقي متفكّراً في أمرها، فإذن ﴿نُودِيَ﴾ من الشجرة. وقيل له بصوتٍ عالٍ: ﴿أَن بُورِكَ﴾ وكثُر خير ﴿مَن فِي﴾ البُقعة المباركة التي هي مكان ﴿النَّارِ﴾ التي على الشجرة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أراضي الشام التي هي مبعث أنبياء الله ومحلّ أحيائهم وأمواتهم ومَهبِط الوحي إليهم[٣].

عن ابن عباس: المعنى تبارك من في النور وهو الله، ومن حولها يعني الملائكة[٤].

أقول: لابدّ من حمل كلامه على إرادة أنّ كلامه تعالى أو قدرته أو سلطانه أو عظمته في النّار، وقيل: إنّ المراد ممّن في النار، هو موسى عليه السلام وحده[٥]. أو هو وجميع من كان في تلك البُقعة، ومن قوله

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ١٧١.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٨١.
٣. تفسير أبي السعود ٦: ٢٧٣ و٢٧٤، تفسير روح البيان ٦: ٣٢١.
٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٢.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٢، تفسير أبي السعود ٦: ٣٧٤.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ كلّ من كان في أرض الشام[١].

ثمّ نزّه سبحانه نفسه عن الحاجة إلى المكان والعوارض الامكانية بقوله: ﴿وَسُبْحَانَ ٱللهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ دفعاً لتوهّم التشبيه من سَماع كلامه، أو تعجيباً من عظمة ذلك الأمر.

يَامُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا ٱللهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ[٩ـ١١]

ثم أعلم أنّ في ابتداء خطاب الله لموسى عليه السلام عند مجيئهِ بشارةً له بأنّه قد قُضي له أمرٌ عظيمٌ تنتشر منه البركة في أرض الشام، وهو رسالته وظهور معجزاته، وفي تنزيه ذاته وتوصيفه بالربوبية تمهيد مقدمة لصحّة رسالة موسى، وأنّها من شؤون ربوبيته للعوالم، ومن جلائل الأمور وعظائم الوقائع.

ثمّ أنّه رُوي أن موسى عليه السلام لمَا سَمِع النداء قال: من المنادي؟ فناداه الله ثانياً بقوله: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ﴾ الشأن أو المنادى ﴿أَنَا ٱللهُ﴾ ثمّ عرف نفسه بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القويّ القادر على ما لا تناله الأوهام والعقول من خوارق العادات ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في فِعاله.

ثمّ أنّه تعالى بعد توصيف ذاته بالوصفين تمهيداً لاظهار إرادة إيجاد المُعجز على يديه قال له: ﴿وَأَلْقِ﴾ من يدك ﴿عَصَاكَ﴾ فألقاها بلا ريثٍ فانقلبت حيةً عظيمةً تسعى ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ وتتحرّك بسرعةٍ ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أو حيةٌ صغيرةٌ في سرعة الحركة والالتواء ﴿وَلَّىٰ﴾ منه ﴿مُدْبِراً﴾ وفرّ معقّباً ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يرجِع إليه بعد ما فرّ منه. قيل: كان عند فِرعون ثُعبانٌ وفي الطُّور جانٌ[٢]، فنودي ﴿يَا مُوسَى﴾ ثِق بي و ﴿لَا تَخَفْ﴾ من غيري ﴿إِنِّى﴾ إله ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قيل: يعني حين نزول الوحي لاستغراقهم في مطالعة شؤون الله، فانّهم حينئذ لا يخطِر ببالهم الخوف، وأما في سائر الأوقات هم أخوف الناس منه تعالى[٣].

أو المراد أنه لا يكون لهم سوء العاقبة فيخافون منه[٤]، وإنما يخاف غيرهم من الظالمين ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ منهم نفسه بارتكاب عمل سوءٍ وترك الأولى ﴿ثُمَّ بَدَّلَ﴾ وصيّر عمله ﴿حُسْناً﴾ بالتوبة والتدارك ﴿بَعْدَ﴾ كونه عمل ﴿سُوءٍ﴾ وعصيان في حقّه، فانّ حسنات الأبرار سيئات المقرّبين ﴿فَإِنِّى﴾ بعد التوبة والتدارك ﴿غَفُورٌ﴾ للتائبين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالمؤمنين.

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ٣٧٤.
٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٧٤، تفسير روح البيان ٦: ٣٢٢.
٣ و ٤. تفسير أبي السعود ٦: ٢٧٤، تفسير روح البيان ٦: ٣٢٣.

وقيل: إن الاستثناء منقطعٌ، والمعنى ولكن من ظلم نفسه من المرسلين بارتكاب ما هو ذنب بالنسبة إليه من الترك للأولى، كآدم الذي قال: ﴿ربّنا ظلمنا أنفسنا﴾[1] وداود، وسليمان، وموسى حيث قال: ﴿ربّ إني ظلمت نفسي﴾[2] وإنّما حسن هذا الاستثناء للتعريض بما وجد من موسى عليه السلام من قتل القِبطي بغير إذنٍ من الله، أو للاعلان بسعة رحمته للمذنبين.

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِى تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ [١٢ ـ ١٤]

ثمّ أراه المعجزة الأُخرى بقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ قيل: لم يقل في كُمّك؛ لأنّه كان عليه جُبَّةٌ صغيرةٌ من صَوف لا كُمّ لها، كان يلبسها بدل القميص[3]، فأمر بإدخال يده فيها، ثمّ كأنه قال: فان أدخلت يدك فيها ﴿تَخْرُجْ﴾ منها حال كونها ﴿بَيْضَاءَ﴾ براقة لها شُعاع كشُعاع الشمس ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وآفةٍ فيها من بَرَصٍ ونحوه.

عن الصادق عليه السلام قال: «من غير برص»[4].

فهذان الآيتان ﴿فِى﴾ جملة ﴿تِسْعِ آيَاتٍ﴾ التي أُعطيكها، وقيل: إنّ كلمة (في) بمعنى (مع)[5] والمعنى: اذهب مع تسع آيات معهودةٍ من العصا، واليد البيضاء، والجدب، والطُّوفان، والجَراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، والطَّمس ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ القبطيين داعياً لهم إلى توحيدي وطاعتي ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ وخارجين عن الحدّ في الكُفر والطُّغيان.

ثمّ بيّن سبحانه كَثرة شقاوتهم بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ توسّط موسى عليه السلام ﴿آيَاتُنَا﴾ التسع حال كونها ﴿مُبْصِرَةً﴾ مستنيرةً واضحة الدلالة مفرطة في الإنارة ووضوح الدلالة بحيث كادت أن تُبصِر نفسها لو كانت قابلة للإبصار ﴿قَالُوا﴾ عِناداً وشِقاقاً: ﴿هٰذَا﴾ الذي جاء به موسى ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشَعبذة ظاهرة لكلّ أحدٍ ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ وأنكروا كونها آيات إلهية ومعجزات باهرة بألسنتهم ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿ٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ وعرفوا إعجازها بقلوبهم، وإنما كان جحُودهم بها

---

١. الأعراف: ٢٣/٧.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٢٣، والآية من سورة القصص: ١٦/٢٨.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٢٤.
٤. معاني الأخبار: ١/١٧٣، تفسير الصافي ٤: ٥٩.
٥. مجمع البيان ٧: ٣٣٢.

﴿ظُلْماً﴾ على أنفسهم ﴿وَعُلُوّاً﴾ وطلباً للرفعة بين الناس، أو استكباراً من الايمان بموسى عليه السلام.

قيل: كان ظهور استيقانهم من استغاثتهم بموسى عليه السلام عند نزول كلّ آيةٍ في كشفها فكشفها عنهم[١].

﴿فَانظُرْ﴾ يا نبي الرحمة، أو أيها الناظر العاقل ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ وإلى ما صار ﴿عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض، وما كان نتيجة إفسادهم، كان إغراقهم في الدنيا في الماء، وإحراقهم في الآخرة بالنار.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ[١٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان تفضّله على موسى عليه السلام بإعطانه الآيات التسع، وتخصيصه بمناجاته معه، ذكر تفضّله على داود وسليمان بالعلم بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً﴾ شريفاً عزيزاً لائقاً بهما، وهي معرفةٌ كاملةٌ بربّهما وبحقائق الأشياء وبالأحكام الشرعية، فشكَرا ذلك ﴿وَقَالاَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بما آتانا من العلم ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين هم أفضل مخلوقاته.

أقول: فيه دلالةٌ واضحةٌ على كون العلم أفضل الكمالات الدنيوية والأخروية.

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ[١٦]

ثمّ شرع سبحانه في بيان ما خصّ به سليمان من الفضائل والنِّعم بقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ﴾ أباه ﴿دَاوُدَ﴾ ماله وملكه ونبوّته. وقال بعض مفسري العامة: المراد إرث المال[٢]. وعن بعضهم: إرث المُلك والسياسة[٣]. وعن الحسن وكثير منهم: إرث المال والمُلك، وهو مروي عن أهل البيت عليهم السلام[٤]، ولا يَرُدّه الحديث الموضوع «نحن معاشرالأنبياء لا نُورَث، ما تركناه صدقة» كما زعمه الفخر الرازي[٥] وغيره من العامة[٦]، بل تَرُدّ الآية الرواية المذكورة، لكونها مخالفة لكتاب الله، كما استدلّت فاطمة عليها السلام على بطلان الرواية بهذه الآية ونظائرها[٧]. نعم يمكن إرادة المال والمُلك والنبوّة كما فسرّناها أولاً بطريق عموم المجاز.

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٢٤.
٢ و٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٦.
٤. مجمع البيان ٧: ٣٣٤.
٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٦.
٦. تفسير القرطبي ١٣: ١٦٤.
٧. راجع: بلاغات النساء: ٢٦، الطرائف: ٢٦٥، كشف الغمة ١: ٤٨٨، الاحتجاج: ١٠٢.

ويُؤيده ما روي عن الجواد عليه السلام من أنه قيل له: إنّهم يقولون في حَدَاثة سنّك؟ فقال: «إنّ الله تعالى أوحى إلى داود أن يستخلف سليمان عليهما السلام وهو صبي يرعى الغنم، فأنكر ذلك عُبّاد بني إسرائيل وعُلمائهم، فأوحى الله إلى داود عليه السلام أن خُذ عِصيَ المتكلّمين وعصا سليمان واجعلها في بيتٍ واختِم عليها بخواتيم القوم، فاذا كان من الغد فمن كانت عصاه قد أورقت وأثمرت فهو الخليفة، فأخبرهم داود عليه السلام فقالوا: قد رضينا وسلّمنا» الخبر[1].

وعن الصادق عليه السلام: «يعني المُلك والنبوّة»[2] وعلى أي تقديرٍ جلس سليمان بعد أبيه على سرير المُلك ﴿وَقَالَ﴾ تحديثاً بنعمة الله وفضله عليه ودعوةً إلى تصديق نبوته ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ اعلموا أنّا ﴿عُلِّمْنَا﴾ من قبل الله وألهمنا ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ وفهم مراداتهم من أصواتهم التي يُصوّتون بها لتفهيم أغراضهم.

ثم بعد حديثه بنعمة علمه بمنطق الطير حدّث بعلمه لمنطق الحيوانات وسائر ما تفضل الله عليه بقوله: ﴿وَأُوتِينَا﴾ وأعطينا حظّاً وافراً ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ كالمُلك والنبوّة والكتاب وتسخير الرياح والجنّ والشياطين ومَنطِق الدوابّ وعين القِطْر[3] والصُّفر وغير ذلك ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور من العلوم والنِّعم ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ والعطاء الجسيم والمَزيّة الظاهرة التي لا يُشاركنا فيها أحدٌ.

قيل: أُعطي سليمان جميع ما أُعطي داود، وزيد له تسخير الجنّ والريح ومَنطِق[4] الطير، ولمّا تولّى المُلك جاءه جميع الحيوانات يهنّئونه إلّا نملة واحدة، فجاءت تعزّية فعاتبها النمل في ذلك، فقالت: كيف أُهنّئه وقد عَلِمت أنّ الله إذا أحبّ عبداً زوى عنه الدنيا وحبّب إليه الآخرة، وقد شُغِل سليمان بأمرٍ لا يُدرىٰ [ما] عاقبته، فهو بالتعزية أولى»[5].

عن الصادق عليه السلام: «أُعطي سليمان بن داود مع علمه معرفة المَنْطِق بكُلّ لسانٍ[6]، ومَنْطِق الطير والبهائم والسِّباع، وكان إذا شاهد الحروب تكلّم بالفارسية، وإذا قعد لعماله وجنوده وأهل مملكته تكلّم بالرومية، وإذا خلا بنسائه تكلّم بالسريانية والنبطية، وإذا قام في محرابه لمناجاة ربه تكلّم بالعربية، وإذا جلس للوُفود والخُصماء تكلّم بالعِبرانية»[7].

أقول: الحقّ أنه عليه السلام كان يتكلّم مع أهل كلّ لسانٍ بلسانهم، وإنّما أتى في كلامه بنون الواحد المُطاع لقضاء صلاح المُلك إظهار عظمته ونفوذ سلطانه.

---

١. الكافي ١: ٣/٣١٤، تفسير الصافي ٤: ٦٠. ٢. جوامع الجامع: ٣٣٥، تفسير الصافي ٤: ٦٠.
٣. القِطر: النحاس. ٤. في تفسير روح البيان: وفهم نطق.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٣١. ٦. زاد في تفسيري القمي والصافي: ومعرفة اللغات.
٧. تفسير القمي ٢: ١٢٩، تفسير الصافي ٤: ٦٠.

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـانَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا ٱلنَّـمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِـن قَـوْلِهَا وَقَـالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ [١٧ ـ ٢٠]

ثمَ حكى سبحانه عظمة مُلكه بقوله: ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـانَ جُنُودُهُ**﴾ وجمع من أطراف مملكته عسكره ﴿**مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ**﴾ وأحضروا عنده ﴿**فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ ويُكفَون عن الخروج عن طاعته ويُحبَسون عليها، أو يمنعون من تقدّم بعض على بعضٍ ليكون سيره على ترتيبٍ واحدٍ، أو يوقفون في مكانٍ واحدٍ ويُمنَعون عن التفرّق.

روي أنّ معسكره كان مائة فَرسخ في مائه، خمسة وعشرون منه للإنس، وخمسة وعشرون للجنّ، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش، وقد نسجت له الجنّ بِساطاً من ذهبٍ وإبريسم فَرسخاً في فَرسخ، وكان يُوضَع مِنبَره في وسطه، وهو من الذهب فيقعُد عليه، وحوله ستمائة ألف كُرسيّ من ذهبٍ وفِضّةٍ، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفِضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجنّ والشياطين، وتُظلّه الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع الريح[١] البِساط فتسير به مسيرة شهر[٢]، فسار سليمان عليه السلام وجنوده يوماً على البِساط ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا**﴾ وأشرفوا ﴿**عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ**﴾ أو بلغوا آخره. قيل: هو بالشام[٣]. وقيل: بالطائف كثير النَّمل[٤].

عن الصادق عليه السلام: «أن لله وادياً ينبُتُ الذهب والفِضّة، وقد حماه الله بأضعف خلقه وهو النمل، لو رامته البَخاتي[٥] ما قَدِرت عليه»[٦].

ثمَ قيل: إنّهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي ومنتهاه[٧]، إذن ﴿**قَـالَتْ نَـمْلَةٌ**﴾ حين ما رأتهم متوجّهين إليهم، قاصدين للنزول قريباً منهم: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلنَّـمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِـنَكُمْ**﴾ لأجل أن ﴿**لَا يَحْطِمَنَّكُمْ**﴾ ولا يقتلنّكم بأرجلهم ﴿**سُلَيْمَـانُ وَجُنُودُهُ**﴾ إذا نزلوا بواديكم ﴿**وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ أنّهم

---

١. في تفسير روح البيان: وترفع ريح الصبا. ٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٢.
٣ و٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٣.
٥. زاد في تفسير القمي: من الإبل، والبَخاتيّ، جمع بُختي: وهي الإبل الخراسانية.
٦. تفسير القمي ٢: ١٢٦، تفسير الصافي ٤: ٦٢. ٧. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٧، تفسير روح البيان ٦: ٣٣٣.

يَحْطِمُونكم. وقيل: يعني لا يَحْطِمَنَّكم جنود سليمان، فجاء بما هو أبلغ[١].

قيل: إنّها كانت نملة عرجاء في عِظَم الدِّيك، أو النَّعجة، أو الذئب، لها جَناحان، وكانت مَلِكة النَّمل، وكان اسمها منذرة أو طاخية أو جرمي، سميّت بهذا الاسم في التوراة، أو الانجيل، أو في بعض الكتب السماوية[٢]، سمّاها الله تعالى بهذا الاسم وعرفها به الأنبياء قبل سليمان[٣].

رُوي أنّ سليمان يأمُر الريح العاصف بحمله[٤]، ويأمُر الرّخاء بسيره[٥]، فأوحى الله تعالى إليه وهو يسير بين السماء والأرض: أنّي قد زدت في مُلكك أن لا يَتَكَلم بشيءٍ إلّا ألقته الريح في سمعك فألقت الريح كلام النَّملة في سمع سليمان من ثلاثة أميال[٦] **﴿فَتَبَسَّمَ﴾** سليمان حال كونه **﴿ضَاحِكاً مِن قَوْلِهَا﴾** متعجباً من حَذَرها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالح بني نوعها.

روي أنه عليه السلام لمّا سَمِع قول النملة قال: ائتوني بها، فأتوا بها، فقال لها: أما علمت أن جُندي لا يَظلِمون؟ قالت: بلى، ولكن لمّا كنتُ أميرهم كان عليّ نُصحهم. فقال سليمان: إنّ جُندي كانوا يسيرون في الهواء، فكيف كانوا يَحْطِمونكم؟ قالت: ما أردت حطمهم في الأرض، بل أردت أن لا ينظُروا إلى سلطانك وحَشَمتك، فيَشْغَلهم ذلك عن ذكر الله، فيَحْطِمهم الخِذلان فتُقبِل قلوبهم إلى الدنيا، والدنيا مبغوضةٌ عند الله. فقال سليمان: صدقتِ. فقالت: أعلمت لم سمّي أبوك داود؟ قال: لا قالت: لأنّه داوى جراحة قلبه بالودّ، وهل تدري لم سمّيت سليمان؟ قال: لا. قالت: لأنك سليم الصدر والقلب[٧].

وعن الرضا عليه السلام، أنّه قال: «قالت النملة: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾** الآية، حملت الريح صوت النملة إلى سليمان عليه السلام، وهو[٨] [مارٌ] في الهواء، والريح قد حملته، فوقف وقال: عليّ بالنملة، فلمّا اُتي بها قال سليمان: [يا] أيّتها النملة، أما علمتِ أنّي نبيّ الله، وأنّي لا أظلم أحداً؟ قالت النملة: بلى. قال سليمان عليه السلام: فلم تحذرينهم ظُلمي وقلت: يا أيّها النمل ادخُلوا مساكنكم؟ قالت النملة: خشيت أن ينظُروا إلى زينتك فيفتتنوا بها فيعبدوا غير[٩] الله عزّ وجلّ.

ثمّ قالت النملة: أنت أكبر أم أبوك داود؟ قال سليمان: [بل] أبي داود. قالت النملة: فلم زيد في حروف اسمك حرف على حروف اسم ابيك؟ قال سليمان: ما لي بهذا علم. قالت النملة: لأنّ أباك

١. جوامع الجامع: ٣٣٦.
٢. في تفسير روح البيان: الصحف الالهية.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٣.
٤. في تفسير روح البيان: تحمله.
٥. في تفسير روح البيان: تسيره.
٦. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٢.
٧. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٤.
٨. زاد في عيون أخبار الرضا عليه السلام، وتفسير الصافي: مارّ.
٩. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: فيبعدون عن ذكر.

داوي جُرحه بودَ فسمّي داود، وأنت يا سليمان أرجو أن تُلحَق بأبيك.

ثمَ قالت النملة: هل تدري لم سخَرت لك الريح[١]؟ قال سليمان: ما لي بهذا علم، قالت النملة: يعني عزَ وجلَ بذلك لو سخرت لك [جميع المملكة كما سخرت لك] هذه الريح لكان زوالها من يدك كزوال الريح. فحينئذٍ تبسّم ضاحكاً من قولها»[٢].

وروى أنه عليه السلام قال لها: كم عدد جندك؟ قالت: إن لي أربعين ألف أمير، تحت كلَ أميرٍ أربعون ألف نقيب، تحت كلَ نقيبٍ أربعون ألف نملة. قال: لِمَ لَم تسكُني أنت وجندك فوق الأرض؟ قالت: اخترنا تحت الأرض لأن لا يطلَع على حالنا غير الله.

ثمَ قالت النملة: يا نبي الله أخبرني عن عطية من عطايا ربّك قال: إنّ الله سخَر لي الريح، فتحمل بِساطي وتسير به إلى أي مكان اُريد. قالت: أتدري حكمة ذلك؟ قال: لا. قالت: أراد الله أن يُنبّهك بأن مُلك الدنيا كالريح تجيء سريعاً وتذهب سريعاً، فمن اعتمد على الدنيا فكأنّما اعتمد على الريح، فعند ذلك ناجى سليمان ربه[٣] ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى﴾ وأحبسني على ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من العلم والنبَوة والمُلك والعدل وفَهم منطق الطير والحشرات وسائر الحيوانات ونحوها ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ داود وتيشائع بنت البائن[٤] ﴿وَ﴾ على ﴿أَنْ أَعْمَلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحاً﴾ وحسناً ﴿تَرْضَاهُ﴾ وتقبله منّي إتماماً للشكر واستدامة للنعمة ﴿وَأَدْخِلْنِى﴾ الجنة بعد ما قبضتني إليك ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ وفضلك ﴿فِى﴾ زمرة ﴿عِبَادِكَ ٱلصَّالِحِينَ﴾.

عن ابن عباس: أراد من الصالحين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء[٥].

وقيل: إن المعنى اجعلني أزع شُكر نعمتك عندي، وأكفه وأربطه بحيث لا ينفلت عنّي ولا أنفكَ عنه أصلاً[٦].

وفي الحديث: «النعمة وحشيةٌ، قيّدوها بالشُكر»[٧].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا وَصَلت إليكم أطراف النعم فلا تُنفَروا أقصاها بقلّة الشكر» انتهى[٨].

وإنّما شكر على النعم التي أنعم الله بها على والديه، لأنّ النعمة على الوالدين نعمةٌ على الولد، فانّ

---

١. زاد في عيون أخبار الرضا عليه السلام وتفسير الصافي: من بين سائر المملكة.
٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٨/٧٨، تفسير الصافي ٤: ٦٢.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٤.
٤. في تفسير روح البيان ٦: (٣٣٥. : بتشايع بنت اليائن.
٥. مجمع البيان ٧: ٣٣٦.
٦. تفسير البيضاوي ٢: ١٧٣، تفسير أبي السعود ٦: ٢٧٩، تفسير روح البيان ٦: ٣٣٥.
٧ و٨. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٥.

شرافة الوالدين موجبة لشرافة الولد، لكونه فَرعاً للأصل الكريم، وأمّا النِّعم التي أنعم الله بها على داود فهي النبوة، والمُلك، وخلافة الله في الأرض، وتسبيح الجبال والطير معه، وحسن الصوت، وإلانة الحديد في يده، وتعليمه صَنعة اللبوس، وإنزال الزَّبور عليه، وأمّا النعمة على والدته فهي تزويجها من داود بعد أن كانت زوج أوريا، وإسلامها، وتزكيتها، وطهارتها.

ثمّ قيل: إنّ سليمان كان إذا قعد على الكرسي جاءت جميع الطيور التي سخّرها الله له فتَظِلّ الكرسيَ والبساط وجميع من عليه من حرّ الشمس[1].

قيل: إنّه عليه السلام قعد يوماً على كرسيه، فوقع الشمس، في حِجره، فرفع رأسه[2].

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ وتعرّف أحوالها وتصفحها، فلم يَرَ الهُدهد فيما بينها، وكان رئيس الهداهد على ما قيل[3] ﴿فَقَالَ﴾ لحاضري مجلسه: ﴿مَا لِيَ﴾ وأيّ حال عرض لي فصار[4] سبباً لأن ﴿لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ في مكانه؟ أساتر بيني وبينه يمنعني من رؤيته؟ ﴿أَمْ كَانَ﴾ اليوم ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلْغَائِبِينَ﴾ عن محضري؟

قيل: خرج سليمان عليه السلام من مكة عند طلوع الشمس متوجّهاً إلى اليمن، وكان بينهما مسيرة شهر، فسار حتى أتى إلى وادٍ كثير الأشجار حسن الهواء، فنزل لأن يتغدّى فيه، فجاء وقت الصلاة، فأراد أن يتوضّأ فلم يجد ماءً، وكان الهُدهُد دليل الماء، فطلبه فلم يجده[5].

وعن العياشي أنه قال أبو حنيفة لأبي عبدالله عليه السلام: كيف تفقّد سليمان عليه السلام الهدهد من بين الطير، قال: «لأن الهدهد يرى الماء في بطن الأرض كما يرى أحدكم [الدهن] في القارورة».

فنظر أبو حنيفة إلى أصحابه فضحك. فقال أبو عبدالله عليه السلام: «ما يُضحكك؟» قال: ظَفِرت بك جعلت فداك. قال: «وكيف ذلك؟» قال: الذي يرى الماء في بطن الأرض لا يرى الفخّ في التُّراب حتى يؤخذ بعُنقه!

قال أبو عبدالله عليه السلام: «يا نعمان، أما علمت أنّ القَدَر إذا نزل عُمي البصر»[6].

وقيل: إنّ سليمان عليه السلام جلس على سريره في نواحي بيت المَقْدِس، واشتغل بأمور المملكة والدين، فقال هدهد في نفسه: إنّ سليمان مشغولٌ عنّي، فأرتفع في الهواء ساعةً لأنظُر في فُسحة الدنيا وطولها وعَرضها، فطار في الهواء، فوقعت فُرجةٌ في مِظَلّة الطيور، فوقع شُعاع الشمس على

---

١ و٢. تفسير القمي ٢: ١٢٧، تفسير الصافي ٤: ٦٣.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٦.
٤. في النسخة: علي صار.
٥. تفسير أبي السعود ٦: ٢٧٩، تفسير روح البيان ٦: ٣٣٧.
٦. مجمع البيان ٧: ٣٤٠، وفيه: أنه إذا نزل القدر اغشى البصر.

سليمان، فنظر إلى الطيور فرأى مكان الهدهد خالياً منه، فتفحّص عنه، واحتمل أن يكون عدم رؤيته إياه لتغييره مكانه، أو لعروض مانع عن رؤيته فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟

لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ [٢١ و ٢٢]

ثمَ [لمّا] احتاط وبالغ في التفتيش والسؤال عنه، حتى عَلِم أنه غائبٌ، أضْرَب عمّا احتمل، وقال: بل كان من الغائبين، وغضب عليه، وقال: والله ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ﴾ تأديباً وصلاحاً لانتظام المُلك ﴿عَذَاباً شَدِيداً﴾ وهو نَتْف ريشه[١] وإلقاؤه في الشمس، كما عن بن عباس[٢]، أو ألقاؤه حيث النمل فتأكُله، أو طليه بالقَطِران وتشميسه، أو عزله من خدمته، أو إلزامه خدمة أقرانه، أو التفريق بينه وبين إلفه وزوجته، أو تزويجه من عجوز، أو جعله مع ضدّه في قَفص[٣] ﴿أَوْ لَأَذبَحَنَّهُ﴾ لتعتبر به أبناء جنسه، ولئلّا يكون له نسل ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وحُجَةٍ واضحة على عُذره في غيبته.

وإنّما كان الحَلف في الواقع على أحد الفعلين الأولين على تقدير عدم الثالث، ولكن لمّا كان مقتضياً لوقوع أحد الثلاثة جعل الثلاثة في الظاهر متعلّقاً للحلف على سبيل المجاز، فحلف على أنّه لابدَ من وقوع أحد الثلاثة.

حُكي أنّه لما أرتفع الهدهد إلى الهواء رأى هدهداً آخر واقفاً فانحطّ إليه في الهواء، ووصف له مُلك سليمان وما سخّر له من كلّ شيءٍ، ووصف له صاحبه مُلك بلقيس واقتدارها، وأنّ تحت يدها اثني عشر ألف قائد، تحت يد كلّ قائدٍ مائة ألف، فذهب معه لينظر، فما رجع إلّا بعد العصر[٤] ﴿فَمَكَثَ﴾ سليمان وانتظره زماناً قريباً ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وأمداً غير مديد.

قيل: دعا سليمان عليه السلام عريف الطير، وهو النسر، فسأله عن الهدهد فلم يجد علمه عنده، ثمّ قال لسيد الطير وهو العُقاب: عليّ به، فارتفعت فنظرت، فاذا هو مقبلٌ فقصدته، فناشدها الله تعالى وقال: بحقّ الذي قوّاك وأقدرك إلّا رحمتني، فتركته وقالت: ثكلتك اُمّك، إنّ نبيَ الله حلف ليعذّبك، قال: أو ما استثنى؟ قالت: بلى. قال: أو ليأتيني بعُذر مبين، فلمّا قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجُرَهما على الأرض تواضعاً له، فلمّا دنا منه أخذ عليه السلام برأسه فمدّه إليه، فقال: يا نبي الله اذكُر وقوفك بين يدي الله، فارتعد سليمان، ثمّ قال له: يا هدهد، كيف أنت إن نتفتُ ريشك وألقيتك في حرّ

---

١. في النسخة: شعره. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٩.
٣ و ٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٧.

الشمس؟ قال: أعلم أنّك لا تفعل ذلك، لأنّك نبي الله لا ترضى بذلك. قال: إن حبستك في قفص مع ضدّك؟ قال: أعلم أنك لا تفعل ذلك أيضاً لأنّك كريمٌ. إلى أن قال: قل ما أفعل بك؟ قال: العفو عنّي فانّه سجيّة الكِرام، فعفا عنه[١].

ثمّ سأله عمّا جاء به ﴿فَقَالَ أَحَطتُ﴾ مع حقارتي وغاية ضَعْفي ﴿بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ واطّلعت على ما لم تطّلع عليه مع سَعَة علمك وكمال قدرتك ﴿وَجِئْتُكَ مِن﴾ بلد ﴿سَبَأٍ﴾ يقال له: مدينة مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام[٢] ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وخبرٍ خطيرٍ محقّق لاشكّ فيه.

عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ: أنّ سبأ اسم أبي حيّ باليمن، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، كان له عشر بنين، ذهب ستّة منهم إلى اليمن، وسكنوا فيه، وهم: كندة والأزد، ومَذْحِج، وحِمْيَر، وأشعر، وأنمار. وكان خثعم وبُجيلة من أنمار، وذهب أربعة منهم إلى الشام، وهم: لَخم وجُذام وغسان وعاملة، فسمّي الحيّ باسم أبيهم[٣].

وقيل: إنّ اسمه عبد شمس، ولُقّب بسبأ لانّه أول من سَبى[٤].

وقيل: إنّه أول من تتوّج من ملوك اليمن[٥]، ولعلّ إخفاء أمر مملكة سبأ على سليمان عليه السلام مع قربها منه لمصلحةٍ رآها الله تعالى فيه[٦].

إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * ٱللهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ * ٱذْهَب بِّكِتَابِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا إِنِّى أُلْقِىَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ[٢٣-٣١]

ثمّ بيّن الهُدهُد ما أحاط به بقوله: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ﴾ حين ذهبتُ متفقّداً لما خفي من الأمور قياماً

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٨.
٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٨٠، تفسير روح البيان ٦: ٣٣٨.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٨، ولم ينسبه إلى ابن عباس.
٤و٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٨.
٦. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٩.

بخدمتك ﴿ٱمْرَأَةً﴾ في مملكة سبأ وأهله ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ وتحكُم عليهم، وتُدبّر أمورهم، ولها السلطنة عليهم، اسمها بلقيس بنت شرحبيل، أو شراحيل بن مالك بن ريان، من نسل يعرب بن قحطان، وكان أبوها ملك أرض اليمن كلّها، وَرِث المُلك من أربعين أباً، ولم يكن له ولدٌ غيرها، فغلبت بعده على المُلك، ودانت لها الأُمَة[١] ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ تحتاج إليه الملوك من الحَشم، والخيل، والعَدد، والسياسة، والهَيبة، والرأي، والمال، والنعم ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ وسرير ﴿عَظِيمٌ﴾ بالنسبة إلى عروش غيرها من الملوك.

قيل: كان عرشها ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً عرضاً، في ثمانين ذراعاً ارتفاعاً[٢]، مُقدّمه من ذهب مُفصّص بالياقوت الأحمر، والزَّبَرجَد الأخضر، ومؤخره من فِضة مُكلّل بأنواع الجواهر، له أربع قوائم: قائمة من ياقوت أحمر، وقائمة من ياقوت أصفر[٣]، وقائمة من زَبَرْجَد، وقائمة من دُرّ، وصفائح السرير من ذهب، وعليه سبعةُ أبيات، لكلّ بيت بابٌ مُغلَق، وكان عليه من الفُرش ما يليق به[٤].

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ ويَعْبُدونها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومتجاوزين عن عبادته ﴿وَزَيَّنَ﴾ وحسّن ﴿لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ﴾ بوسوسته وتسويله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة التي منها عبادة الشمس ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ ومنعهم بسبب ذلك التزيين ﴿عَنِ﴾ سلوك ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ المستقيم، واختيار المذهب الحقّ، وهو توحيد الله وعبادته ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك الصدّ ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحقّ، ولا يَصِلون إلى خيرٍ أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ثمّ أن الهدهد أظهر معارفه التي اقتبسها من سليمان عليه السلام إظهاراً لتصلّبه في التوحيد، وتوجيهاً لقلب سليمان نحو قبول قوله، وصرفاً لعزيمته إلى تسخير مملكة بلقيس بقوله: ﴿أَلَّا﴾ وهلا[٥] ﴿يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾.

وقيل: إنّ المراد أن تزيين الشيطان عبادة الشمس[٦]، لأجل أن يعبُدوا الله المتفرّد باستحقاق العبادة، حيث إنّه القادر ﴿ٱلَّذِى﴾ بقدرته ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ ويظهر المدّخر المستور ﴿فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الكواكب والأمطار والأرزاق والنباتات وغيرها ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ من العقائد

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ٢٨١، تفسير روح البيان ٦: ٣٣٩.
٢. في تفسير روح البيان: ذراعاً وطوله في الهواء ثمانين ذراعاً.
٣. في تفسير روح البيان: اخضر.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٩.
٥. بل إن إعراب (ألّا يسجدوا) هنا مفعول له للصدّ على حذف اللام منه، أي فصدّهم لئلا يسجدوا. راجع: تفسير روح البيان ٦: ٣٤٠.
٦. تفسير البيضاوي ٢: ١٧٤، تفسير أبي السعود ٦: ٢٨١، تفسير روح البيان ٦: ٣٣٩.

والنيّات ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وتُظهِرون من الأعمال، ثمّ صرّح بنفي الشريك له في العبادة بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ثمّ لمّا وصف عرش بلقيس بالعظمة، وصف الله بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي لا يُعادله في العَظَمة عرش أحدٍ من الملوك، بل لا يليق توصيفه بالعظمة في قُباله.

في الحديث: «أنهاكم عن قتل الهدهد فانّه كان دليل سليمان على قرب الماء وبعده، وأحبّ أن يُعبَد الله في الارض حيث يقول: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾» إلى آخر الآيات[1].

قيل: إن قول الهدهد إلى ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وما بعده كلام الله[2].

ثمّ ﴿قَالَ﴾ سليمان عليه السلام في جوابه: ﴿سَنَنظُرُ﴾ في ما أخبرتنا به ونفتّشه حتى نعلم ﴿أَصَدَقْتَ﴾ في ما قلت ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾.

روي أنّ سليمان لمّا سَمِع إشراك أهل سبأ غضب، وقال ائتوني بدواةٍ وقلم حتى أكتُب كتاباً أدعوهم إلى دين الحقّ، فأُتي بهما، فكتب في المجلس أو بعده إلى بلقيس: من عبدالله سليمان بن داود إلى مَلِكَة سبأ بلقيس. بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتّبع الهدى. أما بعد فلا تعلوا عليّ وائتوني مسلمين. ثمّ طبعه بالمسك وختمه بخاتمه المنقوش على فُصّه اسم الله الأعظم، وقال الهدهد: إنّك رسول أخلعك بخِلعةٍ، فمسح يده على ريشه، فظهرت فيه الألوان المختلفة، ثمّ وضع إصبعه على رأسه فخرج منه تاج، وإنّما خَصّة بالرسالة من سائر رعيّته من الجنّ والطير، لما رأى فيه من المعارف، وقوّة الفِراسة، وبذل النُّصح له ولمُلكه، ورعايته جانب الحق، فعلّق الكتاب إلى عُنقه أو أعطاه بمنقاره وقال له: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَابِى هَٰذَا﴾ إلى بلقيس، وأهل سبأ ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ واطرحه لديهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ وتباعد منهم إلى مكانٍ لا يَرَونك وتسمع ما يقولون ﴿فَانظُرْ﴾ وتعرّف ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ واستمع ما يقول بعضهم لبعضٍ بعد قراء كتابي[3].

روي أنّ الهدهد أخذ الكتاب وأتى بلقيس، فوجدها راقدةً في قصرها بمأرب، وكانت إذا رقدت غلّقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها، فدخل من كُوّة وألقى الكتاب على نحرها وهي مستلقية، وقيل: فنقرها وتأخّر يسيراً فانتبهت فَزِعةً، وكانت قارئةً كاتبةً عربية من نسل تُبّع الحِميري، فلمّا رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، لأنّ ملك سليمان كان في خاتمه، وعرفت أنّ الذي أرسل

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٤٠.
٢. جوامع الجامع: ٣٣٦.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٤١.

الكتاب أعظم مُلكاً منها، لطاعة الطير إياه وهيئة الخاتم، فعند ذلك ﴿قالَت﴾ لأشراف قومها وأعاظم مملكتها بعد إحضارهم[١]: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا﴾ وعظماء القوم قد حدث لي أمرٌ عظيمٌ ﴿إِنِّى أُلْقِىَ﴾ اليوم ﴿إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ عليّ، ومعظّم لدي، أو مختوم كما عن القمي[٢]، وفي الحديث: «كَرَم الكتاب ختمه»[٣].

قيل: كانت معجزة سليمان عليه السلام وملكه في خاتمه، فختم الكتاب به، فألقى الرُّعب في قلبها حتى شَهِدت بكَرَم كتابه[٤].

وقيل: الكريم يعني حَسَناً ما فيه[٥]، أو مرضياً في لفظه ومعانيه[٦]، أو شريفاً لتصدّره بالبسملة[٧]، أو واصلاً عن نهجٍ غير معتاد[٨].

قيل: إنها لمّا سَمِعت قبلها بسلطنة[٩] سليمان على الجنّ والانس والوحش والطير، عَظَّمت كتابه[١٠].

وإنّما رُزِقت الايمان لتكريمها الكتاب، ثمّ سألها الأشراف عن مرسله ومضمونه فقالت: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَـانَ وَإِنَّهُ﴾ مكتوب في أوله ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثمّ مكتوب فيه ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ ولا تترفَعوا عن طاعتي، ولا تتكبروا بكِبر الجبابرة ﴿وَأْتُونِى﴾ جميعاً حال كونكم ﴿مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لأوامري، أو مؤمنين موحّدين.

قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ [٣٢ـ٣٤]

فلمّا رأت أنّه مع إيجازه فيه الدعوة إلى التوحيد بذكر البسملة، والنهي عن الترفّع الذي هو اُمّ الرذائل، والأمر بالاسلام الذي هو أمّ الفضائل، مع الحجة القاطعة على عِظم شأن مُرسله وصدقه بارساله بتوسّط الهُدهد، واتّصاله إليها بنحوٍ خارقٍ للعادة ﴿قَالَت﴾ للأعاظم الذين كانوا بحضرتها، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو اثني عشر ألفاً: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَفْتُونِى فِى أَمْرِى﴾ وقولوا ما تستفتون في

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ٢٨٣، تفسير روح البيان ٦: ٣٤١.
٢. تفسير القمي ٢: ١٢٧، تفسير الصافي ٤: ٦٥.
٣. جوامع الجامع: ٣٣٧، تفسير الصافي ٤: ٦٥.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٤١.
٥. تفسير الرازي ٤: ١٩٤، تفسير روح البيان ٦: ٣٤٢.
٦ و٧. تفسير روح البيان ٦: ٣٤٢.
٨. تفسير أبي السعود ٦: ٢٨٣.
٩. في النسخة: قلبها سلطنة.
١٠. مجمع البيان ٧: ٣٤٣.

شأني؟ فانّي منذ ملكت زِمام السلطنة ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً﴾ ومنفذةً ﴿أَمْراً﴾ من الأمور المهمة وغيرها ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ وتَحْضُرون عندي، وتصوّبون عملي، اعتماداً على عقولكم، واستمداداً بآرائكم ﴿قَالُوا﴾ في جوابها: ﴿نَحْنُ﴾ رجال ﴿أُولُوا قُوَّةٍ﴾ وذوو الأجسام العظيمة السليمة والعدد الكثير، والعُدَة الكاملة للحرب ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ﴾ وبطش ﴿شَدِيدٍ﴾ ونَجْدة وشَجاعة تامة في قتال العدوّ.

ثمّ لمّا كان حسن الأدب في أن لا يحكم أهل المشورة على الرئيس المستشير بالعمل برأيهم، بل عليهم أن يُخبروه في ما أراد قالوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ مفوّض ﴿إِلَيْكِ﴾ موكولٌ إلى نظرك ورأيك، فاذا كان كذلك ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ به حتى نُطيعك فيه، فلمّا رأت ميلهم إلى الحرب باظهار قوتهم الذاتية والعرضية، وكان ذلك عندها خلاف الصواب، أخذت في تزييف رأيهم. ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا﴾ بالقهر والغَلَبة وبطريق المقابلة ﴿قَرْيَةً﴾ من القرى، وبلدة من البلدان ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ وخرّبوها، وأتلفوا ما فيها من النفوس والأموال ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا﴾ وصيّروا أشراف ساكنيها ﴿أَذِلَّةً﴾ بالأسر والإجلاء وغير ذلك من فنون الاهانة والاذلال.

ثمّ أكّدت قولها بقولها: ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ الذي قلت ملوك الدنيا ﴿يَفْعَلُونَ﴾ بحسب العادة والسيرة المستمرة، فعلى هذا يكون في مقاتلتهم وغلبتهم علينا تخريب ملكنا، وإذلال رعايانا، فاذن كان الأصلح هو الصلح.

وعن القمي وبعض العامة: أنّ الذليل كلام الله، تصديقاً لقول بلقيس[1].

وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَـانَ قَالَ أَتُـمِدُّونَنِ بِـمَالٍ فَـمَا آتَـانِى ٱللهُ خَـيْرٌ مِـمَّا آتَـاكُـمْ بَـلْ أَنـتُم بِـهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ[٣٥و ٣٦]

ثمّ ذكرت مقدمة الصلح بقولها: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ عظيمةٍ ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ ورائيةٌ، أو منتظرةٌ ﴿بِمَ يَرْجِعُ﴾ إليّ من الخبر ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من قبلي إلى سليمان، أنه قَبل الهدية أو ردّها، فنستكشف من معاملته ومكالمته حالته أنّه نبي أو مَلِك، ونعلم غرضه أنّه السلطنة أو الهدية، فنعمل بمقتضاه.

رُوي أنّها بعثت خمسمائة غُلام، عليهم ثياب الجواري وحليهن[2] كالأساور والأطواق والقِرَطة مخضبي الأيدي، راكبي خيلٍ مُغشّاة بالدِّيباج، مُحلّاة اللُّجم والسُّروج بالذهب المرصّع بالجواهر،

---

١. تفسير القمي ٢: ١٢٨، تفسير روح البيان ٦: ٣٤٤، تفسير الصافي ٤: ٦٥.

٢. في النسخة: سلبهن.

وخمسمائة جارية على رِماك[1] في زيّ الغلمان، وألف لَبِنةٍ من ذهب وفضّة، وتاجاً مُكلّلاً بالدُّرّ والياقوت المرتفع قيمتة، ومقداراً كثيراً من المِسك والعَنبر، وحُقّة فيها دُرّةٌ ثمينةٌ غير مثقوبة، وخَرَزَة جَزَعيّة معوجّة الثقب، وكتبت كتاباً فيه نسخة الهدايا، وبعثت مع الهدايا رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو، وضمّت إليه رجالاً من قومها ذوي رأي وعقل، وقالت: إن كان نبياً ميّز بين الغِلمان والجواري، وأخبر بما في الحُقّة قبل فتحها، وثقب الدرّة ثقبات مستقيمات[2]، وسلك في الخَرَزَة خيطاً. ثمّ قالت للمنذر: إن نظر سليمان إليك نظر غضبان فهو مَلِك، فلا يَهولنّك منظره، وإن رأيته هشّاً لطيفاً فهو نبي.

فأقبل الهُدهُد نحو سليمان مسرعاً، فأخبره الخبر، فأمر سليمان الجنّ فضربوا لَبِن الذهب والفضّة، وفرشوها في ميدان بين يديه طوله ستة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفاته من الذهب والفِضّة، وأمر بأحسن الدوابّ التي في البرّ والبحر، فربطوها عن يمين الميدان ويسارة [على اللبن وأمر بأولاد الجنّ وهم خلق كثير فأُقيموا على اليمين واليسار]، ثمّ قعد على سريره والكراسي من جانبيه، في يمينه أربعة آلاف كُرسيّ من ذهب، وفي يساره أربعة آلاف، واصطفّت الشياطين صفوفاً فراسخ، والإنس صفوفاً، والوحش والسباع والهوامّ كذلك فلمّا دنا رسل بلقيس من مجلس سليمان ونظروا إليه بُهِتوا، ورأوا الدوابّ تروث على لَبِن الذهب، فكان حالهم كحال أعرابي أهدى إلى خليفة بغداد جرّة ماء، فلمّا رأى دِجْلة خَجِل وصبّه.

ولذا قيل: إنّهم لمّا رأوا ما أنعم الله على سليمان من المُلك الكبير، استقلّوا ما عندهم حتّى همّوا بطرح اللّبِنات، إلّا أنّه منعتهم الأمانة من ذلك، وجعلوا يمُرّون بكراديس الجنّ والشياطين فيَفْزَعون، وكانت الشياطين يقولون: جوزوا ولا تخافوا، فلمّا وقفوا بين يدي سليمان عليه السلام نظر إليهم بوجهٍ حَسَنٍ طَلْقٍ، وقال: ما وراءكم؟ فأخبر المنذر الخبر، وأعطى كتاب بلقيس، فنظر فيه فقال: أين الحُقّه؟ فجيء بها، فقال: إنّ فيها درةً ثمينةً غير مثقوبةٍ، وخَرَزةً جزعيةً مُعوجّة الثقب، وذلك بإخبار جَبْرَئيل أو الهُدهُد.

فأحضر سليمان عليه السلام الجنّ والإنس، ولم يكن عندهم علم الثقب والسلك، فقالت الشياطين لسليمان عليه السلام: إرسل إلى الأرَضَة، فجاءت الأرَضَة فأخذت شعرةً في فيها، فدخلت في الدُّرّة وثقبتها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال سليمان عليه السلام: ما حاجتك؟ فقالت: تُصيّر رزقي في الشجر. قال: لك ذلك، ثمّ قال: من لهذه الخَرَزة يُسلِكها الخيط؟ فقالت دُودةٌ بيضاء: أنا لها يا أمين الله. فأخذت

---

١. رِماك، جمع رَمَكة: الفرس.

٢. في تفسير روح البيان: ثقباً مستوياً.

الخيط في فمها، ونفذت في الخَرَزَة حتى خرجت من الجانب الآخر. فقال سليمان: ما حاجتك؟ قالت: تجعل رزقي في الفواكه. قال: لك ذلك، فجمع سليمان بين طرفي الخيط وختمه، ودفعها إليهم.

ثمّ طلب سليمان عليه السلام الماء، فأمر الغِلمان والجواري أن يغسلوا وجوههم من الغُبار، ليميز بين الجواري والغِلمان، فكانت الجارية تأخذ الماء بإحدى يديها فتجعله في الأخرى، ثمّ تضرب به وجهها، والغلام كان يأخذه من الآنية ويضرب به وجهه[1].

وأما الهدية ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ المنذر بها ﴿سُلَيْمَانَ﴾ وقد قالت بلقيس: إن قبلها سليمان كان مَلِكاً، وإن ردّها كان نبياً، ولذا ﴿قَالَ﴾ سليمان عليه السلام للمنذر وبلقيس تغليباً للحاضر على الغائبة أو للرسل: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ وتقوّونني ﴿بِمَالٍ﴾ لا اعتداد به ﴿فَمَا آتَانِيَ اللّٰهُ﴾ ووهب لي من المُلك العظيم الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعدي مع العلم والزُّلفى والنبوة والمال ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿مِمَّا آتَاكُمْ﴾ وأنعم عليكم من المال القليل والمتاع اليسير الدنيوي، فلا حاجة لي إلى هديتكم، ولا وَقْع لها عندي ﴿بَلْ أَنْتُمْ﴾ لحبّكم الدنيا وحُطامها ﴿بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ وما يُهدى إليكم من المال ﴿تَفْرَحُونَ﴾ فليس لكم أن تستميلوا قلبي إليكم بالأموال.

روى بعض العامة عن الصادق عليه السلام قال: «الدنيا أصغر قدراً عند الله وعند أنبيائه وأوليائه من أن يفرحوا بشيءٍ منها أو يحزنوا عليه»[2].

وقيل: إنّه عليه السلام بعد إنكاره عليهم إمداده بالمال، أضرب عنه إلى توبيخهم بفرحهم بهديتهم التي أهدوها إليه افتخاراً وامتناناً واعتداداً بها[3].

وقيل: إنّ المعنى بل أنتم من حقّكم أن تأخذوا هديّتكم وتفرحوا بها[4].

ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُون * قَالَ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَم أَكْفُرُ

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٤٤ ـ ٣٤٥.
٢ و٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٤٦.
٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٩٦.

وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ[٣٧ـ ٤٠]

ثمّ هدّد سليمان بلقيس وقومها على امتناعهم عن طاعته بقوله: ﴿ٱرْجِعْ﴾ أيها الرسول المبعوث من قبل مَلِكة سبأ وقومها ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وأخبرهم أنّي لا انخدع بالهدايا والتُّحف، بل اُريد منهم الطاعة والانقياد، فان أطاعوني واستسلموا لي وإلّا ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ من الجنّ والإنس ﴿بِجُنُودٍ﴾ عظيمةٍ ﴿لَّا قِبَلَ﴾ ولا طاقة ﴿لَهُم﴾ للمقاومة ﴿بِهَا﴾ أصلاً ﴿وَ﴾ والله ﴿لَنُخْرِجَنَّهُم﴾ من مملكتهم ولنجلينّهم ﴿مِنْهَا﴾ حال كونهم ﴿أَذِلَّةً﴾ بعد كونهم أعزّةً ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ومستحقرون بالأسر والإجلاء بعد كونهم معظّمون.

القمي: فرجع إليها الرسول فأخبرها[١] بردّ الهدية وثقب الدرّة وسلك الخيط في الخَرَزة، وعظمة حشمة سليمان وكمال قدرته، فعلمت أنّه لا محيص لها من الانقياد والتسليم، فبعثت إلى سليمان: أنّي قادمةٌ إليك بمُلوك قومي حتى أنظُر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك، ثمّ جعلت عرشها في بيت وقفلت أبوابه، وجعلت عليه حُراساً، وأخذت مفتاح البيت عند نفسها، ثمّ توجّهت مع عسكرها نحو سليمان.

قيل: كان لها اثنا عشر ألف مَلِك كبير، تحت كلّ مَلِك اُلوف كثيرة، وكان سليمان عليه السلام رجلاً مهيباً لا يبدأ بشيءٍ حتى يسأل عنه، فجلس يوماً على سريره، فرأى جمعاً جمّاً على فرسَخٍ عنه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: بلقيس بملوكها وجنودها، فأقبل سليمان عليه السلام على أشراف قومه، وقيل: حين علم بمسيرها إليه[٢] ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ من بلدةِ مأرب، ويُحضِره لديّ في مكاني هذا ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى﴾ حال كونهم ﴿مُسْلِمِينَ﴾ ومنقادين، أو مؤمنين.

أقول: لعلّه عليه السلام أراد من إحضاره عنده إراءتها معجزةً اُخرى أوّل ورودها عليه، لتكون في إيمانها على بصيرةٍ كاملةٍ، أو أراد اختبار عقلها وفطانتها بعد تنكيره عرشها عندها، لينظُر أنّها تعرفه أو تُنكِره. قيل: ذلك لأنّ الجنّ قَدَحوا فيها بنقص العقل لئلا يتزوّجها[٣]. وقيل: إنّه أراد تملّك عرشها قبل إيمانها لاحترام مالها بعده[٤].

﴿قَالَ﴾ ذكوان، أو كوذي، أو اصطخر، وهو ﴿عِفْرِيتٌ﴾ وماردٌ خبيثٌ ﴿مِّنَ﴾ شياطين ﴿ٱلْجِنِّ﴾ قيل: كان رئيسهم، وكان قبل ذلك متمرّداً على سليمان عليه السلام، وكان كالجبل العظيم يضع قدمه عند

---

١. تفسير القمي ٢: ١٢٨، تفسير الصافي ٤: ٦٦.
٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٤٨.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠١، تفسير أبي السعود ٦: ٢٨٩.
٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٩٧، وفيه: قبل إسلامها لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها.

منتهى طرفه[١]: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ وأحضِره عندك ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ ومجلس حكومتك، وكان جلوسه إلى نصف النهار ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ على حِفْظه وحِفْظ ما فيه من الجواهر والنفائس لا اختلس منه شيئاً ولا أُبدّله.

قيل: إنّه قال سليمان عليه السلام: أُريد أسرع من هذا[٢] ﴿قَالَ﴾ آصف بن برخيا وهو على ما قيل: كان ابن خالة سليمان ووزيره وكاتبه ومؤدّبه في صِغره وصديقه[٣] ﴿ٱلَّذِى عِندَهُ﴾ الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب و﴿عِلْمٌ﴾ كثير ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المنزل على الأنبياء السابقين كابراهيم وموسى وغيرهما، وعمله به، أو علم ببعض اللوح المحفوظ واسراره المكتوبة فيه. عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «ذلك وصيّ أخي سليمان بن داود»[٤] -: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ويرجِع إليك ناظرك، ويتحرّك جَفْنك.

قيل: خرّ ساجداً، وقال: يا حيّ يا قيّوم، يا ذا الجلال والإكرام[٥]. ثمّ سأل الله إحضار عرش بلقيس فحضر، وقيل: خسف الله به الأرض[٦]، ثمّ أخرجه منها في محضر سليمان عليه السلام ﴿فَلَمَّا رَآهُ﴾ سليمان ﴿مُسْتَقِرًّا﴾ ومتمكّناً ﴿عِندَهُ﴾ وحاضراً لديه في أقلّ من طَرفة عين.

عن الباقر: «أن اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً، وإنّما كان عند آصف منه حرفٌ[٧]، فتكلّم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده، ثمّ عادت الأرض كما كانت أسرع من طَرفة عين»[٨].

وفي رواية أُخرى: «فتكلّم به، فانخسفت الأرض ما بيته وبين السرير، والتقت القطعتان، وحوّل من هذه على هذه»[٩].

﴿قَالَ﴾ سليمان تشكّراً للنعمة ﴿هَٰذَا﴾ الذي أرى من حضور العرش لديّ بأسرع زمان، وحصول مرادي بأحسن وجه ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ عليّ وإحسانه إليّ بلا استحقاقٍ منّي، وإنّما أعطاني هذه النعمة ﴿لِيَبْلُوَنِى﴾ ويختبرني ﴿أَ﴾ أنا ﴿أَشْكُرُ﴾ها، بأن أراها منه بلا حول وقوة منّي، وأُأدّي حقّها من الطاعة والعبادة ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ها، بأن لا أراها منه، ولا أقوم بموجبها.

قيل: فلمّا رآه رفع رأسه وقال: الحمد لله الذي جعل في أهلي من يدعوه فيستجيب له[١٠].

---

١ -٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٤٩.
٤. أمالي الصدوق: ٨٩٢/٦٥٩، روضة الواعظين: ١١١، تفسير الصافي ٤: ٦٧.
٥ و٦. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٠.
٧. في الكافي وبصائر الدرجات وتفسير الصافي: منها حرف واحد.
٨. الكافي ١: ١/١٧٩، بصائر الدرجات: ١/٢٢٨، تفسير الصافي ٤: ٦٧.
٩. بصائر الدرجات: ٦/٢٢٩، تفسير الصافي ٤: ٦٧، وفيه: إلى هذه.
١٠. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٠ و٣٥١.

ثمّ نبّه عليه السلام بحاجة العبد إلى الشكر، وغنى الربّ عنه بقوله: ﴿وَمَن شَكَرَ﴾ نِعم الله ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ ونفعه عائد[1] إليها، لكونه سبباً لدوامها ومزيدها، والثواب عليه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ النعم بعدم معرفة قدرها، وحقّ منعمها، وترك أداء حقّها، فانّ ضرر كفرانه عليه ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عن شكر الشاكرين ﴿كَرِيمٌ﴾ ومتفضّل عليهم بجُوده بنعمه، وإن لم يشكروا.

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ[٤١ ـ ٤٤]

ثمّ ﴿قَالَ﴾ سليمان لخدمه: إذا جاءت بلقيس ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ بأن غيّروا هيئته وشَكْله بحيث لاتَعْرِفه في بادئ النظر ﴿نَنظُرْ﴾ ونراها ﴿أَتَهْتَدِى﴾ إلى معرفته فتظهر كياستها وقوّة فطانتها الناشئة من كمال عقلها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ إلى معرفته فتظهر سخافة عقلها.

قيل: إنّ الشياطين خافوا أن تُفشي بلقيس أسرارهم إلى سليمان عليه السلام، لأنّ اُمّها كانت جنية، وإن يتزوّجها سليمان عليه السلام، ويكون منهما ولد جامع للجنّ والإنس، فيرث المُلك فيَخْرُجون من ملك سليمان عليه السلام إلى مُلك هو أشدّ وأفضع، ولاينفكّون من التسخير، فأرادوا أن يُبغضوها إلى سليمان عليه السلام، فقالوا: إنّ في عقلها خللاً وقصوراً، وأنّها شَعْراء الساقين، وأن رجليها كحافر حمار، فأراد سليمان عليه السلام أن يختبرها في عقلها[2] ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ إلى سليمان عليه السلام والعرش بين يديه ﴿قِيلَ﴾ لها من قبل سليمان: ﴿أَهٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ وإنما لم يقل: أهذا عرشك؟ لئلّا يكون تلقيناً لها، فنظرت إليه فعرفته، ولكن لمّا رأت فيه تغييراً لم تقل لا ولا نعم، بل ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فلوّحت إلى نوع مغايرة له.

قيل: جعلت الشياطين أعلاه أسفله، وبنوا فوقه قِباباً [أخرى][3]، وجعلوا موضع الجوهر الأحمر

---

١. في النسخة: عائده. ٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٢.
٣. زاد في تفسير روح البيان: هي أعجب من تلك القباب.

الأخضر وبالعكس[١].

ثمّ ظَنّت أنّ سليمان أراد اختبار عقلها وإظهار معجزةٍ لها، قالت: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ بنبوتك ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ لدلالة غيرها من المعجزات على صدق دعواك ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ ومؤمنين بك من ذلك الوقت.

ثمّ بيّن سبحانه علّة إخفائها الايمان به قيل بقوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ ومنعها من إظهار الايمان بالله و بنبوّة سليمان قبل الوقت﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الشمس، أو النّار، وعبادتها القديمة لها.

ثمّ نبّه سبحانه على نُكتة سببية عبادتها السابقة لصدّها بقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وناشئة بين أظهرهم، فلم يمكنها إظهار الاسلام حتى دخلت في ممكلة سليمان فصارت من قوم مسلمين.

وقيل: إنّ المراد صدّها الله أو سليمان عن عبادة غير الله[٢]، أنّها كانت قبل توفيق الله وهداية سليمان من قومٍ كافرين، لا تعرف غير مذهبهم.

وقيل: إنّ قوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ إلى آخره، من كلام سليمان عليه السلام والمؤمنين به حيث إنّهم لمّا رأوا أنّها قالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ قالوا: إنّها أصابت في الجواب، فهي عاقلةٌ، وقد رُزِقت الاسلام[٣].

ثمّ عطفوا على ذلك قولهم: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ بالله وبقدرته الكاملة ﴿قبل علمها﴾ إظهاراً للشكر على تقدّمهم في الاسلام عليها.

قيل: لمّا قالت الشياطين: إنّ ساقيها شَعْراوان وإنّ رجليها كحافر الحمار لا أصابع لها، أمر سليمان عليه السلام ببناء قصر صحنه من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه السُّموك[٤] ودوابّ البحر، ووضع سريره في وسطه، فجلس عليه، وعكف عليه الطير والجنّ والإنس، فلمّا جاءت بلقيس إلى باب القصر[٥] ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ والقصر الرفيع ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ والشمس تُشرِق عليه، والماء يموج في صحنه، والسُّموك تسبح فيه ﴿حَسِبَتْهُ﴾ وتوهّمته ﴿لُجَّةً﴾ وماءً قليلاً يبلُغ الكعبين، أو أنصاف السوق، أو ماءً كثيراً تُردّد أمواجه، فشمّرت ذيلها ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لئلا تبتلّ ثيابها، فرأى سليمان عليه السلام أنّها أحسن النساء ساقاً وقدماً، خلا أنّها شَعْراء ﴿قَالَ﴾ سليمان لها: لا تكشفي عن ساقيك، فان ما ترينه ليس بماء ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ﴾ وقصر ﴿مُّمَرَّدٌ﴾ ومسوّى ﴿مِن قَوَارِيرَ﴾ ومصنوع من الزجاج الأبيض الصافي فوق ماء، أو لم يكن ماء، بل كان الزجاج الصافي شبيهاً بالماء.

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٢.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠٠.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٩٩ و٢٠٠.
٤. السُّموك، جمع سمك.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٣.

قيل: إنه لمّا رأى ساقها شعراء كَرِهه، وأمر الشياطين أن يتّخذوا لها شيئاً يذهب الشعر، فقالوا: نحتال لك حتى تصير كالفضّة، فاتّخذوا النُّورة والحمّام، فكانت النُّورة والحمّام من يومئذٍ[١].

وقيل: إنّ الحمّام الذي ببيت المقدس بباب الأسباط بُني لها، وهو أوّل حمّام بني على وجه الأرض[٢].

وقيل: إنّ جنّياً قال لسليمان: ابني لك داراً تكون في بيوته الأربعة الفصول الأربعة، فبنى الحمّام[٣].

فلمّا عَلِمت بلقيس أنّه قوارير، استحيت وتستّرت وكمّلت إيمانها بالتوحيد ونبوّة سليمان عليه السلام ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ باختيار الشرك قبل اهتدائي إلى التوحيد بهداية سليمان.

وقيل: حَسِبت أنّ سليمان عليه السلام أراد غرقها بالماء، فلمّا تبيّن لها خطأ ظنّها قالت: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بسوء ظنّي بسليمان[٤] ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ وأخلصت التوحيد اقتداءً به ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فأظهرت كمال معرفتها بألوهيّته تعالى، وتفردّه باستحقاق العبادة، ومعرفتها بالربوبية لجميع الموجودات التي من جملتها الشمس التي كانت تعبُدها من قبل، بالجمع بين ذكر اسم الجلالة ووصفه بالربوبية، ثمّ تزوّجها سليمان، ومن قال بذلك استدلّ عليه بنظره عليه السلام إلى ساقها، فلو لم يكن مريداً لتزويجها لم يكن له ذلك، ولم يشاور الإنس والجنّ في علاج إزالة شعرها مع أنّه شاور الإنس فقالوا: موسى، فقال: الموسىٰ يخدِش ساقها، ثم شاور الجنّ فما اهتدوا إلى شيءٍ، ثمّ شاور الشياطين فعبؤوا النُّورة والحمّام.

قيل: أحبّها حبّاً شديداً، وأقرّها على مُلكها، وأمر الجنّ فبنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم يُر مثلها في الارتفاع والحُسن، وكان عليه السلام يزورها في كلّ شهرٍ مرّة، ويقيم عندها ثلاثة أيام، وولدت له داود بن سليمان، ثمّ مات في حياة أبيه[٥].

وقيل: إنّه عليه السلام عرض عليها النكاح فأبته، وقالت: مثلي لا ينكِح الرجال، فأعلمها سليمان عليه السلام أنّ النكاح من شريعة الاسلام، فقالت: إنّ كان ذلك فزوّجني من ذي تُبَع، وكان هو فتىً من أبناء ملوك اليمن، فزوّجها إياه، ثمّ ردّها إلى اليمن، وسلّط زوجها على اليمن، ودعا زوبعة أمير جنّ اليمن، فأمره أن يكون في خدمته، ويعمل له ما أستعمله فيه[٦].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ

---

١ ـ ٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٤.
٤. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠١.
٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٤.
٦. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٣.

يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ ٱللهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ[٤٥-٤٧]

ثمّ حكى سبحانه لُطفه بصالح بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ﴾ قبيلة ﴿ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ وكان ما أُرسل به ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ﴾ ولا تعبُدوا غيره، فآمن به جمع منهم ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ بعد هذه الدعوة ﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ويجادلون في صدق نبوته ودعواه التوحيد وكذبهما ﴿قَالَ﴾ صالح - للفرقة المكذّبة القائلين له: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾[١] -: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وتَطْلبون سرعة نزول العقوبة عليكم ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ والتوبة ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللهَ﴾ وهلّا تتوبون إليه قبل نزول العذاب؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبولها وصرفه عنكم، كيلا تُعذّبون بل تُنعمون.

قيل: إنّهم كانوا يقولون من جهلهم وغوايتهم: إن أتيتنا بما تَعِدنا من العذاب تبنا حينئذٍ وإلّا فنحن على ما كنا عليه[٢]، فوبّخهم صالح على هذا القول، وحثّهم على استعجال التوبة.

وقيل: إنّ المعنى لِمَ تسألون البلاء والعقوبة قبل سؤال العافية والرحمة، ولِمَ لا تُقدّمون طلب الرحمة على طلب العقوبة[٣].

ثمّ إنّهم بعد دعوة صالح بألطف بيان ونُصحه لهم بأبلغ وجه، عارضوه بأسوأ قول حيث ﴿قَالُوا﴾ في جوابه: يا صالح إنا ﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ وتشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ من المؤمنين حيث تتابعت علينا بعد دعوتك وإيمانهم بك الشدائد والبلايا.

قيل: أنّهم قَحَطوا فقالوا: أصابنا هذا الشرّ من شُؤمك وشُؤم أصحابك[٤] ﴿قَالَ﴾ صالح: ﴿طَائِرُكُمْ﴾ وما جاء به الشرّ إليكم كائنٌ ﴿عِندَ ٱللهِ﴾ وسابقٌ في علمه، أو مكتوبٌ في اللّوح المحفوظ، وهو تقديره وإرادته، أو عملكم الذي هو محفوظٌ عنده.

ثمّ أضرب عليه السلام عن إسناد شرّهم إلى الطائر الذي هو السبب لابتلائهم إلى الإسناد إلى الحكمة الداعية له بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بالبلايا وتُخْتَبرون بإنزال الشرور عليكم، ليتّضح أنّكم ترتدعون عن الكفر والمعاصي أم لا، وتنصرّفون عن قبائح الأعمال أم تُديمون عليها؟ أو المراد بل أنتم قوم تُعذّبون على معاصيكم، أو أنتم قوم تقعون في الفتنة بوسوسة الشيطان.

---

١. العنكبوت: ٢٩/٢٩.
٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٩٠، تفسير روح البيان ٦: ٣٥٥.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٥.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٦.

وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ[٤٨ـ٥٣]

ثمّ بيّن سبحانه أنّهم بعد إساءتهم القول أساءوا في معاملتهم معه بقوله: ﴿**وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ**﴾ التي فيها صالح من أرض الحِجْر ﴿**تِسْعَةُ رَهْطٍ**﴾ وجماعة أو أشخاص، كانت أسماؤهم على ما قيل: هذيل بن عبد الرب، وغنم بن غنم، ورياب بن مهرج، ومصدع بن مهرج، وعمير بن كردية، وعاصم بن مخزمة، وسبيط بن صدقة، وسمعان بن صفي، وقدار بن سالف، وهو رئيسهم[١].

وقيل: قدار بن سالف، ومصدع بن دهر، وأسلم، ورهمي، ورهيم، ودعمي ودعيم، وقبال، وصداف، وكانوا عُتاة القوم وأبناء أشرافهم[٢].

وهم ﴿**يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ التي سكنوها بالاشتغال بالمعاصي وإشاعة الكفر ﴿**وَلَا يُصْلِحُونَ**﴾ أمراً من الأمور، ولا يَمْزُجون شرّهم بشيءٍ من الخير، وفسادهم بشيءٍ من الصلاح، وكان من إفسادهم المحض أن ﴿**قَالُوا**﴾ في أثناء مشاورتهم في أمر صالح حال كونهم ﴿**تَقَاسَمُوا**﴾ وتحالفوا ﴿**بِاللهِ**﴾ على نحوٍ معتبرٍ عندهم: ﴿**لَنُبَيِّتَنَّهُ**﴾ ولنُهاجمنّ عليه في الليل بَغتةً ولنقتلنّه ﴿**وَأَهْلَهُ**﴾ ومن معه ﴿**ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ**﴾ ووارث دمه إذا سُئِلنا عن قاتله: ﴿**مَا شَهِدْنَا**﴾ وما حضرنا مَهْلِك صالح و﴿**مَهْلِكَ أَهْلِهِ**﴾ ومقتلهم، أو هلاكهم وقتلهم حتى تعرف قاتلهم ﴿**وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾ فيما نقول من عدم حضورنا في ذلك المكان فضلاً عن التولي له.

﴿**وَمَكَرُوا**﴾ في قتل صالح ﴿**مَكْراً**﴾ ضعيفاً، واحتالوا حيلةً هيّنةً بهذه المواضعة ﴿**وَمَكَرْنَا**﴾ في إهلاكهم ﴿**مَكْراً**﴾ عجيباً، ودبّرنا تدبيراً متيناً بجعل مواضعتهم سبباً لهلاكهم ﴿**وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ بذلك.

روي أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه، فلمّا وعدهم بعد عقرهم الناقة بالعذاب إلى ثلاثة أيام، قالوا: زَعَم صالح أنّه يفرُغ منّا إلى ثلاث، فنحن نفرُغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشِّعب ليقتلوه إذا جاء للصلاة ثمّ يرجعوا إلى أهله فيقتلوهم، فبعث الله صخرةً

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٦.

من جبالهم، فبادروا فطبقت عليهم في الشِّعب، فهلكوا ثمّة وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة[١].

وعن ابن عباس: أنّه كان لصالح مسجد في غار يجيئه في الليل ويصلّي فيه، فقالت التسعة: إنّ صالحاً وعدنا العذاب بعد ثلاثة أيام، ونحن نقتّله قبلها، فجاءوا أول الليل إلى باب الغار، فكَمَنوا له وسَلّوا سيوفهم كي يقتلوه إذا جاء، فأرسل الله ملائكة، فاهبطوا على رأس كلّ واحدٍ حجراً، وقُتِلوا جميعهم[٢].

وفي رواية: أنّهم دخلوا الغار، فأنزل الله صخرةً من الجبل، ووقعت في باب الغار فسدّه فهلكوا[٣].

وعن مقاتل: أنّهم انتظروا صالحاً في أصل الجبل، فانحطّ عليهم الجبل فهلكوا[٤].

والقمي: فأتوا صالحاً ليلاً ليقتلوه، وعند صالح ملائكة يحرسونه، فلمّا أتوا قاتلهم ـ أو قتلهم[٥] ـ الملائكة في دار صالح رجماً بالحجارة، فأصبحوا في داره مقتولين، فأخذت[٦] قومه الرجفة فأصبحوا في دارهم[٧] جاثمين[٨].

﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ وهي ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ وأهلكناهم ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ الذين لم يكونوا معهم في التثبيت ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بحيث لم يبقَ منهم أحد ﴿فَتِلْكَ﴾ البيوت الخَرِبة التي تَمرّون عليها في أسفاركم ﴿بُيُوتُهُمْ﴾ حال كونها﴿خَاوِيَةً﴾ وخالية، أو ساقطة ومنهدمة ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم بالكفر والطغيان ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التدمير العجيب ﴿لَآيَةً﴾ وعِبرةً عظيمةً كافيةً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيتّعظون به ﴿وَأَنجَيْنَا﴾ من العذاب ومجاورة العُتاة صالحاً و﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما آمن به ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الله، أو يحترزون من الكفر والعصيان.

قيل: هم أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حَضْرَمَوت[٩].

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِن دُونِ ٱلنِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ[٥٤و ٥٥]

ثمّ ذكر سبحانه تفضّله على لوط بانجائه من قومه والعذاب النازل عليهم بقوله: ﴿وَلُوطاً﴾ والتقدير: وأرسلنا أو أذكُر يا محمّد لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم: ﴿أَتَأْتُونَ﴾

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٧، تفسير الصافي ٤: ٧٠.
٢. تفسير الكشاف ٣: ٣٧٣.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٧.
٤. مجمع البيان ٧: ٣٥٥.
٥. في تفسيري القمي والصافي: أتوه قاتلتهم.
٦. في تفسير القمي: مقتلين وصبحت، وفي تفسير الصافي: مقتلين وأخذت.
٧. في تفسير القمي: ديارهم.
٨. تفسير القمي ٢: ١٣٢، تفسير الصافي ٤: ٧٠.
٩. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٨.

وترتكبون ﴿ٱلْفَاحِشَةَ﴾ والفعلة الشنيعة في الغاية ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ فُحشه وشدّة قُبحه، وتعلمون غاية شناعته؟! ومن الواضح أنّ ارتكاب القبيح من العالم بقُبحه أقبح، أو تُبصرون عمله فيما بينكم، وتُعلنون به بلا تخفٍّ وتستّرٍ، أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم من العذاب.

ثمّ بيّن الفاحشة بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ في أدبارهم لتقضوا ﴿شَهْوَةً﴾ حيوانية ﴿مِن دُونِ ٱلنِّسَاءِ﴾ ومتجاوزين عنهنّ مع كونهنّ محالّ الشهوة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ سوء عاقبة عملكم، أو كالذين تجهلون قباحة هذا العمل، لكونكم غير عاملين بعلمكم، أو قوم سُفهاء لا تميّزون بين حُسن الفعل وقُبحه.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ ٱلْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ [٥٦ـ٥٨]

ثمّ بيّن سبحانه غاية جهلهم بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ له بعد إبلاغه في نُصحهم شيء ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾: يا قوم ﴿أَخْرِجُوا﴾ لوطاً و ﴿آلَ لُوطٍ﴾ ومن تَبِعه ﴿مِن قَرْيَتِكُمْ﴾ وبلدكم، وهي بلدة سَدُوم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ﴾ وجماعة ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ بأنفسهم من دَنَس الفُحش باعتقادهم، ويتنزّهون عن فعلنا القبيح.

عن ابن عباس: أنّه [على] طريق الاستهزاء بلوط[١].

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ وأقاربه من العذاب بأمرهم بالخروج من القرية وقت نزوله ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ﴾ وزوجته الكافرة المسمّاة بواهلة على ما قيل[٢]، فانّا ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ وقضينا كونها ﴿مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾ والباقين في البلدة، أو في العذاب مع القوم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ بعد خروج لوط وأهله من بينهم وقلب قريتهم، أو على من كان منهم في الأسفار ﴿مَّطَراً﴾ عجيباً غير الأمطار المعتادة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ والكفّار المتوعّدين بالعذاب؛ لأنّه كان من حجارة من سجّيل، وهو أفضع العذاب، كما أنّ اللِّواط أفحش الفواحش.

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰ ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ

---

١. تفسير أبي السعود ٦: ٢٩٢، تفسير روح البيان ٦: ٣٥٩.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٩.

بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ[٥٩ و ٦٠]

ثمّ لمّا كان إهلاك أعداء الله نعمةً على أوليائه، أمر سبحانه نبيّه ﷺ بالشُّكر عليه بقوله: **﴿قُلِ﴾** يا محمّد: **﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾** على نعمه التي منها إهلاك أعدائه **﴿وَسَلَٰمٌ﴾** وعافية دائمة من كلّ آفةٍ دينية ودنيوية **﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾** هم وخصّهم بالعصمة من كلّ سوء، والطهارة من كلّ رِجس.

وقيل: إنّه تعالى لمّا بيّن ابتلاء أُمم الماضين بالعذاب، وكان من النعم على خاتمهم رفع عذاب الاستئصال عن أُمّته ببركته وحُرمته، أمره بالحمد له والدعاء للأنبياء الذين صبروا على مشاقّ الرسالة[١]، أو لمّا كان اطّلاعه ﷺ على قصص الأنبياء الماضين التي تكون من الأخبار الغيبية وفيها الآيات والحكم الكثيرة من النِّعم العظيمة عليه، أمره بالحمد عليها والدعاء بالسلامة لأُمّته[٢].

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان كمال قدرته وحكمته، وغاية تفضّله على أوليائه وغضبه على أعدائه، شرع في تقريع العابدين للأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع بقوله: **﴿ءَآللَّهُ﴾** الذي بيده كلّ خير **﴿خَيْرٌ﴾** للعبادة **﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** به من الأصنام والأوثان التي لا يترتّب على عبادتها فائدة.

روي أنّ النبيّ ﷺ لمّا تلا هذه الآية قال: «بل الله خيرٌ وأبقى وأجلّ وأكرم»[٣].

ثمّ أخذ سبحانه في بيان خيراته وعظائم نِعَمه الدالة على وَحْدانيته واستحقاقه للعبادة بقوله: **﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾** والأجرام العلوية والسفلية التي هي أُصول الكائنات ومبادي جميع الخيرات والبركات **﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾** نافعاً بنحو الأمطار.

ثمّ عدل سبحانه عن الغيبة إلى التكلّم لتأكيد الاختصاص بقوله: **﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾** وبساتين **﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾** وغَضَارة وحُسن لون ومنظرة.

ثمّ نبّه سبحانه على تفرّده بهذه القدرة الكاملة التي خلق بها السماوات والأرض، وجعل السماء محلاً للماء، والأرض محلاً للنبات، وأنبت بالماء الحدائق التي لها بهاء ورَوْنَق بقوله: **﴿مَا كَانَ﴾** وما استقام **﴿لَكُمْ﴾** مع عقلكم وقوّتكم وتدبيركم **﴿أَن تُنۢبِتُوا شَجَرَهَا﴾** وإلّا ماكنتم محتاجين إلى الغَرْس وتحمُّل كُلفة السقي وغيره ممّا له دخل في نمو الشجر والمصابرة على ظهور الثمر، فكيف بغيركم من الجمادات، ومع ذلك أتقولون **﴿أَءِلَٰهٌ﴾** ومعبودٌ آخر مشاركٌ **﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾** العظيم القادر على كلّ شيءٍ في الألوهية، لا يقول ذلك عاقل **﴿بَلْ﴾** المشركون **﴿هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾** ويميلون بجهلهم من التوحيد إلى الشِّرك، أو يسوون لسفههم مع الله غيره.

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠٥.
٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٩٢.
٣. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠٥، تفسير روح البيان ٦: ٣٦٠.

أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَءِلَٰهٌ مَعَ ٱللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[٦١]

ثمَ أضرب سبحانه عمّا ذكر من التبكيت إلى التبكيت بوجه آخر بقوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ﴾ للانسان وغيره من الحيوانات ﴿قَرَاراً﴾ ومستقراً بإخراج بعضها من الماء وتسويتهما حسبما تدور عليه منافعهم ﴿وَجَعَلَ﴾ بلطفه ﴿خِلَالَهَا﴾ وفي فُرجها، أو في أوساطها ﴿أَنْهَاراً﴾ جارية تنتفعون بها ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ جبالاً ﴿رَوَاسِيَ﴾ وثوابت تمنعها من الاضطراب والانقلاب بأهلها، وتتكون فيها المعادن، وتنبعُ منها الينابيع، وتتعلق بها مصالح لا تُحصى ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العَذْب والمالح، أو بحر فارس والروم ﴿حَاجِزاً﴾ مانعاً من المخالطة والامتزاج، فمع ما ترون من قدرته الكاملة ﴿أَ﴾ تقولون: ﴿إِلَٰهٌ مَعَ ٱللهِ﴾ يُشاركه في استحقاق العبادة ؟! ﴿بَلْ﴾ المشركون ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحُجج والبراهين على التوحيد، ولا يفهمون بُطلان ما هم عليه من الشِّرك مع كمال وضوحه.

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَعَ ٱللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَٰهٌ مَعَ ٱللهِ تَعَالَى ٱللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ[٦٢ و ٦٣]

ثمَ أضرب سبحانه عن تبكيت المشركين بنِعَمه العامة لجميع الموجودات وانتقل إلى تبكيتهم بشدّة حاجة الخلق إليه بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ ويستجيب دعاءالمبتلى بالضيق والشدة مع عدم ملجأ له ولا حيلة ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ وسأله كشف ضُرّه ورفع شدّته وتضرّع إليه؟ ﴿وَ﴾ من ﴿يَكْشِفُ﴾ عن عباده ﴿ٱلسُّوءَ﴾ ويدفع عنهم المكروه كالمرض والفقر والغرق بالشِّفاء والغنىٰ والنجاة، وإن لم يدعوه؟ ﴿وَ﴾ من ﴿يَجْعَلُكُمْ﴾ بعد إهلاك الأمم الماضين ﴿خُلَفَاءَ﴾ هم في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وساكنين في مساكنهم، ومتصرّفين فيها بعد موتهم مع ذلك؟ ﴿أَ﴾ تقولون: ﴿إِلَٰهٌ﴾ آخر ﴿مَعَ ٱللهِ﴾ المُنعِم عليكم بتلك النِّعَم الجِسام ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ آلائه، وتتوجّهون إلى نَعْمائه، أو تتنبّهون للحقّ مع غاية الوضوح.

وقيل: إنّ المراد من القليل العدم[١].

عن الصادق عليه السلام، قال: «نزلت في القائم من آل محمّد، هو والله المضطرّ إذا صلّى في المقام

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ١٨١، تفسير أبي السعود ٦: ٢٩٥، تفسير روح البيان ٦: ٣٦٣.

ركعتين، ودعا الله عزّ وجلّ أجابه[1]، ويكشِف السوء، ويجعله خليفةً في الأرض»[2].

أقول: يعني أنّه أظهر مصاديق المضطَر، لا أنّ المراد شخصه فقط، ثمّ أضرب سبحانه عمّا ذكر إلى التبكيت بذكر نِعمة اُخرى بقوله: ﴿**أَمَّن يَهْدِيكُمْ**﴾ ويَرْشُدكم إلى الطريق مع كونكم ﴿**فِى ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ**﴾ بالنجوم في السماء وعلامات الطريق في الأرض؟

وقيل: اُريد من الظلمات مُشْتَبهات الطرق[3] ﴿**وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ**﴾ لتكون ﴿**بُشْرًا**﴾ ومبشّرات ﴿**بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ**﴾؟ وقيل: إنزاله المطر[4] الذي به حياة الأرض وما فيها مع الوصف.

﴿**أَ**﴾ تقولون: ﴿**إِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ**﴾ يقدِر على مثل ذلك؟! ﴿**تَعَالَى ٱللَّهُ**﴾ العظيم القدير الحكيم ﴿**عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ به من الجمادات التي هي أعجز مخلوقاته.

أَمَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِنْهَا عَمُونَ[٦٤-٦٦]

ثمّ أضرب سبحانه من النِّعم المذكورة إلى ذِكر أصل النِّعم الدنيوية والاُخروية، وهو نعمة الايجاد في الدنيا والاعادة في الآخرة بقوله: ﴿**أَمَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ**﴾ في هذا العالم ويجر من كَتم العَدَم إلى الوجود في الدنيا ﴿**ثُمَّ يُعِيدُهُ**﴾ ويُوجده ثانياً في الآخرة بعد إماتته في الدنيا.

ثمّ لمّا كانت نعمة الوجود لا تتمّ إلّا بالبقاء المتوقّف على إيصال ما يحتاج بقاؤهم إليه، أردفه بذكره بقوله: ﴿**وَمَن يَرْزُقُكُم**﴾ ويُوصِل إليكم جميع ما يتوقّف عليه بقاؤكم عليه ﴿**مِنَ ٱلسَّمَاءِ**﴾ بالأمطار ﴿**وَ**﴾ من ﴿**ٱلْأَرْضِ**﴾ بالإنبات، ومع ذلك ﴿**أَ**﴾ تقولون ﴿**إِلَٰهٌ**﴾ آخر يكون ﴿**مَّعَ ٱللَّهِ**﴾ ويُشاركه في الاُلوهية واستحقاق العبادة ﴿**قُلْ**﴾ يا محمّد، للمشركين هذه المذكورات براهيننا على مُدّعانا من التوحيد، وأنتم ﴿**هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ**﴾ على أنّ مع الله آلهة اُخرى ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ في دعواكم.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان اختصاصه بالقدرة الكاملة، بيّن اختصاصه بالعلم غير المتناهي بقوله: ﴿**قُل**﴾ يا محمّد ﴿**لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَاوَاتِ**﴾ من الملائكة ﴿**وَ**﴾ من في ﴿**ٱلْأَرْضِ**﴾ من الإنس والجنّ

---

١. في تفسير الصافي: فأجابه.
٢. تفسير القمي ٢: ١٢٩، تفسير الصافي ٤: ٧١.
٣. تفسير البيضاوي ٢: ١٨١، تفسير أبي السعود ٦: ٢٩٥، تفسير روح البيان ٦: ٣٦٣.
٤. تفسير البيضاوي ٢: ١٨١، تفسير روح البيان ٦: ٣٦٣.

﴿ٱلْغَيْبَ﴾ وما لا يُدركه الحواسّ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قيل: إنّ الاستثناء منقطع، والمعنى لكنّه تعالى يعلمه[١].

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه أخبر يوماً ببعض الأمور التي لم تأتِ بعدُ، فقيل له: أُعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب؟ فضَحِك وقال: «ليس هو بعلم غيب، إنّما هو تعلّم من ذي عِلم، وإنّما علم الغيب علم الساعة وما عَدَّده الله سبحانه بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية، فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكرٍ وأُنثى، وقبيحٍ أو جميلٍ، وسخيّ أو بخيل وشقيّ أو سعيد، ومن يكون للنار خطباً أو في الجنان للنبيين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله، وما سوى ذلك فعلم علّمه الله نبيه فعلّمنيه، ودعا لي أن يَعيَه صدري وتضطمَ عليه جوانحي»[٢].

وأمّا غيره من الانس والجنّ لا يعلمون ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ من القبور، وأيّ وقتٍ يُنشَرون للحساب، فانّه من علم الغيب الذي اختصّ بذاته تعالى ﴿بَلِ ٱدَّارَكَ﴾ وتكامل واستحكم ﴿عِلْمُهُمْ﴾ بتكامل أسبابه من الدلائل والحجج ﴿فِى﴾ شأن ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وتمكّنوا من معرفتها، ومع ذلك لمّا لم يتفكّروا فيها جهلوا بوقوعها.

وقيل: يعني انتهى علمهم وانتفى إدراكهم بلحوقها فجهلوا بها[٣].

وعن ابن عباس: أن وصفهم باستحكام العلم بالآخرة على سبيل التهكّم والاستهزاء[٤].

﴿بَلْ﴾ المشركون ﴿هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ ثمّ أضرب سبحانه عن كونهم شاكّين إلى بيان كونهم في أقطع حالٍ من الشكّ بقوله: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ وفاقدو البصيرة بحيث لا يكادون يدركون دلائلها.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ * وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ [٦٧ ـ ٧٠]

ثمّ حكى سبحانه مقالتهم في المعاد الدالة على عميهم منه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ من مشركي مكّة: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَ﴾ كان ﴿ءَابَآؤُنَآ﴾ أيضاً تراباً ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ من القبور أحياءً؟! وإنّما كرّروا الاستفهام الانكاري مبالغةً في الإنكار.

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٦٤.
٢. نهج البلاغة: ١٨٦ الخطبة ١٢٨، تفسير الصافي ٤: ٧٢، وفي النسخة وتفسير الصافي: وتضم عليه جوارحي.
٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٦٥.
٤. تفسير الرازي ٢٤: ٢١٢، وتفسير البيضاوي ٢: ١٨١، ولم ينسب إلى ابن عباس.

ثمَ حكى استدلالهم على بطلان القول به بقوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ الإخراج والحشر والنشر ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ وزمان ظهور محمد، ولم نَرَ أحداً منهم خرج من قبره، فلذا ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ الوعد، وما هو ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وخُرافات السابقين.

ثمَ أمر سبحانه نبيه ﷺ بتهديدهم بما نزل على أضرابهم من مكذّبي الرسل بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿سِيرُوا﴾ أيها المشركون وسافروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي كانت مسكن مكذّبي الرسل، كأرض الحجر والأحقاف وسَدُوم وغيرها ﴿فَانظُرُوا﴾ بنظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ومآل المكذّبين للرسل، فانّ عاقبتهم التالية الهلاك بالعذاب. ثمَ سلّى نبيه بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن أصرّوا على التكذيب، أو ابتُلوا بالعذاب.

ثمَ قوّى قلبه الشريف في تبليغ الرسالة بقوله: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾ وحَرَجٍ وخوفٍ ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ويحتالون في قتلك ويُدّبرون في إهلاكك، فانّا كافلوك وناصروك.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ [٧١ ـ ٧٤]

ثمَ حكى سبحانه استهزاءهم بالنبيّ ﷺ والمؤمنين في وعدهم بالعذاب بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاءً: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تَعِدوننا؟ وفي أيَ وقت ينزل العذاب الذي تُخوّفوننا به؟ عيّنوه لنا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في وعدكم به ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، ﴿عَسَىٰ﴾ وقَرُب ﴿أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ ولَحِقكم ﴿بَعْضُ﴾ العذاب ﴿ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وهو عذاب يوم بدر ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ وإنعامٍ ﴿عَلَى﴾ كافة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ بتأخير عقوبتهم على الكفر والعصيان ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لا يعرِفون هذه النِّعمة، ولذا ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل لجهلهم يستعجلونه.

ثمَ بيّن سبحانه أنّ تأخير عذابهم ليس لجهله تعالى بأعمالهم بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ وتَسْتُر ﴿صُدُورُهُمْ﴾ من النيّات والدواعي ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ويُظهِرون من الأقوال والأفعال من عداوة الرسول واستهزائهم به وتكذيبهم له فيُعاقبهم أشدّ العذاب.

وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ * إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ [٧٥ ـ ٧٧]

ثمَ قرّر سبحانه سَعَة علمه بقوله: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ وأمرٍ خفيٍّ غاية الخَفاء ﴿فِى ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا﴾ وهو مكشوفٌ عنده، ومكتوبٌ ﴿فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ واللوح المحفوظ الظاهر للناظرين فيه من الأنبياء الصالحين والملائكة المقرّبين.

ثمَ أنّه تعالى بعد إثبات توحيده وَسَعة قدرته وعلمه المستلزمة للمعاد، شَرَع في إثبات نبوة نبيه باعجاز القرآن بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ﴾ الذي جاء به محمد الأمّي الذي لم يُخالط عالماً، ولم يَسْتَفد من أحد العلماء، ولم يقرأ كتاباً ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ ويبيّن لهم ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كشأن عيسى وعزير، والمعارف الالهية من التشبيه والتنزيه، وأحوال المعاد والجنّة والنار، وقَصَص الأنبياء وغيرها، حتى لَعَن بعضهم بعضاً، ﴿وَإِنَّهُ﴾ بفصاحته وبلاغته البالغتين حدَ الإعجاز، ومطابقة ما فيه من المعارف والأحكام للعقول السليمة، وخُلوّة من التناقض والتهافت ﴿لَهُدًى﴾ ورشاد إلى نبوّة محمّد ﷺ وسائر العقائد الحقّة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ووسيلة للفوز إلى السعادة الأبدية والمقامات العالية ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ * إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِى ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ [٧٨ ـ ٨١]

ثمَ أنّه تعالى بعد ذكر اختلاف الناس، بين أنّه مع إنزاله القرآن الرافع للاختلاف، يكون هو الحاكم بينهم يوم القيامة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ حين حضور المُصيب والمُخطئ عنده يوم القيامة ﴿يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ﴾ العدل وفَصله الحقّ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على إنفاذ حكمه من غير مدافعٍ ومزاحمٍ و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكلّ شيءٍ، ومنه الحقّ الذي اختلفوا فيه، فلا تكن من اختلافهم في تعبٍ، فاذا كان ربّك قادراً على حِفظك عالماً بحالك ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ﴾ وفوّض أمرك إليه، ولا تبالِ بهم، ولا تلتفت إلى اختلافهم ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ والدين الواضح صحّته، ومن المعلوم أنّ من هو على الحقّ حقيقٌ بنصر الله.

ثمَ ذمّ سبحانه المخالفين له، المصرّين على الكفر والباطل، وقَطَع طمعه عن هدايتهم وإيمانهم، إراحةً لقلبه الشريف من تعب اجتهاده في دعوتهم بقوله: ﴿إِنَّكَ﴾ لا تقدِر على هداية هؤلاء الكَفَرة؛ لأنّهم بمنزلة الموتى، لسقوط قلوبهم عن قابلية الانتفاع بالآيات واستماع الدلائل والبراهين والاتّعاظ

بالمواعظ، وأنت ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ولا يُمكنك تفهيمهم الحكم والحقائق، وهم بمنزلة الصُمّ ﴿وَ﴾ أنت ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ والأشخاص الفاقدين لقوّة السمع ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ والنداء فضلاً عن الآيات القرآنية سيما ﴿إِذَا وَلَّوْا﴾ وأعرضوا عنك حال كونهم ﴿مُدْبِرِينَ﴾ وجاعلين ظهورهم نحوك، فانّ الصُمّ إذا كانوا مقبلين ومتوجّهين نحو الداعي والمتكلّم، فانّهم بمقابلة صِماخهم وقُربهم منه لعلّهم يسمعون أو برؤية حركات وجهه وشفتيه لعلّهم يفهمون، وأمّا إذا كانوا منصرفين عن الداعي، ومخلّفين له وراء ظهورهم وبعيدين منه، لا يرجى منهم السمع والفهم، وهم بمنزلة العُمي الذين ضلّوا الطريق ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِى ٱلْعُمْيِ﴾ هداية نافعة ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ في الطريق، لأن الأعمى الضالّ إذا قيل له هذا الطريق لا يراه ولا يهتدي إليه، بل ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن﴾ سَلِم قلبه عن العِناد واللّجاج، فانّه سبق في عِلمنا أنّه ﴿يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لطيب طينته وسلامة قلبه من الأمراض المانعة عن الايمان كالحسد والعِناد واللّجاج وحُبّ الرئاسة والدنيا، وغلبة عقله على شهوته وهوىٰ نفسه ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ ومُنقادون لما سَمِعوا من الحقّ، ومُخلصون في الايمان.

وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ[٨٢]

ثمّ هدّد سبحانه هؤلاء الكفّار بأهوال قبل القيامة بقوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ وقرُب العذاب الموعود إليهم ودنا نزوله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بظهور أمارات القيامة ووقت إنجاز الوعيد ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

قيل: هي دابة طولها ستون ذراعاً[١].

وقيل: يبلُغ رأسها السّحاب، وما بين قَرنيها فَرسَخ للراكب، ولها أربع قوائم وزَغَب وريش [وجَناحان]، ورأسها رأس الثور، وعينها عين خِنزير، وأُذنها أُذن فيل، ولها قَرن إيل، وصدر أسد، ولون نِمْر، وخاصرة بقرة، وذنب كَبْش، وخُفّ بعير، تخرُجُ من المسجد الحرام من بين الرُّكن حِذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد، أو من الصفا، ومدّة خروجها ثلاثة أيام[٢].

وقيل: إنّها جمعت خلق كلّ حيوان، ولها وجه الآدميين مُضِيء[٣]، ومعها خاتم سليمان، وعصى موسى، يراها أهل المشرق والمغرب[٤]، وهم ينظُرون وهي ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ بالعربيّ الفصيح، أو مع كلّ

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢١٧، تفسير البيضاوي ٢: ١٨٣، تفسير روح البيان ٦: ٣٧٢.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢١٧.
٣. في تفسير روح البيان: مضيئة.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٧٢.

طائفةٍ بلسانهم، وتقول من قبل الله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الناطقة بمجيء الساعة ويوم الجزاء ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ بل فيها يشكّون.

وفي الخبر: بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون، إذ تضطرب الأرض تحتهم وتتحرّك تحرّك القِنديل، فينشقّ جبل الصفا ممّا يلي المسعى، فتخرُج الدابّة منه كما خرجت ناقة صالح من الصخرة، ولا يتِمّ خروجها إلّا بعد ثلاثة أيام، فقومٌ يقفون نُظّاراً، وقومٌ يَفْزَعون إلى الصلاة، فتقول للمصلّي: طوّل ما طوّلت، فوالله لأحطمَنّك، فتخرُج ومعها عصى موسى وخاتم سليمان فتضرِب المؤمن في مسجده بالعصا فيظهر أثره كالنّقطة، فينبسط نُوره على وجهه، ويُكتَب على جبهته: هو مؤمن، وتختِم الكافر في أنفه بالخاتم، فتظهر نُكتة فتقشو حتى يسودّ لها وجهه، ويُكتَب بين عينيه: هو كافر، ثمّ تقول لهم: أنت يا فلان من أهل الجنّة، وأنت يا فلان من أهل النار[١]، ولم يبق في الدنيا إلّا من ابيضّ وجهه.

وفي الحديث: أنّ خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب متقاربان[٢].

قيل: إنّه أوّل أشراط الساعة[٣]. وقيل: إنّه آخرها[٤].

ونسب بعض علماء العامة إلى محدّثيهم أنّ بني الأصفر ـ وهم الأفرنج ـ إذا خرجوا وظهروا إلى الأعماق في ستّ سنين يظهر المهدي عليه السلام في السنة السابعة، ثم يظهر الدجّال، ثمّ ينزل عيسى عليه السلام، ثمّ تخرُج دابة الأرض، ثمّ تَطلُع الشمس من المغرب، وقالوا: إذا خرجت الدابة حُبِست الحَفَظَة، ورُفِعت الأقلام، وشهِدت الأجساد على الأعمال[٥].

أقول: كل ذلك بروايات العامة، وأما الروايات الخاصة، فعن القميّ، عن الصادق عليه السلام، قال: «انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو نائم في المسجد قد جمع رملاً ووضع رأسه عليه، فحرّكه برجله، ثمّ قال له: قم يا دابة الأرض[٦]، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، يسمّي بعضنا بعضاً بهذا الاسم؟! فقال: لا والله، ما هو إلّا له خاصة، وهو الذي ذكره[٧] الله في كتابه، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا﴾ الآية، ثمّ قال: يا علي، إذا كان في[٨] آخر الزمان، أخرجك الله في أحسن صورةٍ، ومعك مِيسَم تَسِم به أعداءك».

فقال رجل لأبي عبدالله عليه السلام: إن العامّة[٩] يقولون: إنّ هذه الدابة تَكْلِمهم؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام:

---

١ ـ ٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٧٢.
٦. في المصدر: دابة الله.
٧. في المصدر: وهو الدابة التي ذكر، وفي تفسير الصافي: وهو الدابة الذي ذكره.
٨. (في. ليست في المصدر وتفسير الصافي.
٩. ليس في المصدر: الناس.

«كَلَمهم الله في نار جهنّم، إنّما هو تُكلّمهم من الكلام»[١].

أقول: الظاهر أنّه نسب إلى العامة القول بأنّ يَكْلِمهم من الكَلْم بمعنى الجَرْح[٢]، فردّه عليه السلام.

وعنه عليه السلام أنّه قال: «[قال:] رجل لعمار بن ياسر: يا أبا اليقظان، آية في كتاب الله قد أفسدت قلبي؟ فقال: وأيّةُ آيةٍ هي؟ قال: قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. فأيّةُ دابةٍ[٣] هي؟ فقال عمار: والله ما أجلِس ولا آكُل ولا أشرب حتى أُريكها، فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يأكُل تمراً وزُبداً، فقال [له]: يا أبا اليقظان هَلُمّ، فأقبل عمّار وجلس يأكُل معه، فتعجّب الرجل منه، فلمّا قام عمّار قال [له] الرجل: سبحان الله! إنّك حلفت أن لا تأكُل ولا تشرب ولا تجلِس حتى تُريني الدابة! قال عمار: قد أريتكها إن كنت تَعقِل[٤].

وروى العياشي هذه القصة عن أبي ذرّ[٥]، وعن الباقر عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: ولقد أُعطيت الستّ: علم المنايا والبلايا، والوصايا، وفصل الخطاب، وإنّي لصاحب الكرّات ودولة الدول، وإنّي لصاحب العصا والمِيسَم، والدابة التي تُكلّم الناس»[٦].

وفي (الاكمال) عن أمير المؤمنين عليه السلام ـ في حديث بعد أن ذكر الدجّال وقاتله ـ قال: «ألا إنّ بعد ذلك الطامّة الكبرى. فقيل: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: خروج دابة الأرض من عند الصفا، ومعها خاتم سليمان وعصا موسى، تضع الخاتَم على وجه كلّ مؤمنٍ فينطبع فيه: هذا مؤمن حقاً، وتضع العصا[٧] على وجه كلّ كافر فيُكْتَب: هذا كافر حقاً، حتى إنّ المؤمن لينادي: الويل لك يا كافر، وإنّ الكافر ينادي: طُوبى لك يا مؤمن، وددتُ أنّي كنت مثلك، فأفوز فوزاً عظيماً، وترفع الدابة رأسها [فيراها] من بين الخافقين باذن الله جلّ جلاله، وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها، فعند ذلك تُرفَع التوبة، فلا تُقبَل توبة وعَمَل[٨]، ولا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.

ثمّ قال عليه السلام: لا تسألوني عمّا يكون بعد هذا، فانّه عَهِدَ إليّ حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله أن لا أُخبر به غير عِترتي»[٩].

وفي (المجمع) عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «دابة الأرض طولها ستون ذراعاً، لا يُدركها طالب، ولا يفوتها هارب، فتسم المؤمن بين عينيه [ويكتب بين عينيه] مؤمن، وتَسِم الكافر بين عينيه [ويكتب بين

---

١. تفسير القمي ٢: ١٣٠، تفسير الصافي ٤: ٧٤.
٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢١٨، تفسير أبي السعود ٦: ٣٠٢.
٣. في النسخة: آية.
٤. تفسير القمي ٢: ١٣١، تفسير الصافي ٤: ٧٤.
٥. مجمع البيان ٧: ٣٦٦، تفسير الصافي ٤: ٧٥.
٦. الكافي ١: ١٥٤/٣، تفسير الصافي ٤: ٧٥.
٧. في المصدر: ويضعه، وفي تفسير الصافي: وتضعه.
٨. في المصدر: فلا توبة تقبل ولا عمل يرفع.
٩. كمال الدين: ٥٢٧/١، تفسير الصافي ٤: ٧٥.

عينيه] كافر، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالعصا، وتختِم أنف الكافر بالخاتم حتى يقال: يا مؤمن ويا كافر»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سُئل عن الدابة، فقال: «أما والله لا يكون لها ذَنَب، وإنّ لها لَلِحية»[2].

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ [٨٣ ـ ٨٥]

ثمَ ذكر سبحانه بعض أهوال يوم القيامة بقوله: ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُ**﴾ والتقدير اذكُروا، أو اذكُر يا محمّد لقومك يوم نحشر ﴿**مِن كُلِّ أُمَّةٍ**﴾ من اُمم الرسل، أو كلّ قَرنٍ من القرون ﴿**فَوْجاً**﴾ وجمعاً كثيراً ﴿**مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا**﴾ ودلائل توحيدنا ورسالة رسلنا ﴿**فَهُمْ يوزَعُونَ**﴾ ويُحْبَسون كي يُلْحَق بهم أسافلهم التابعون.

عن ابن عباس، قال: أبو جهل، والوليد بن المُغيرة، وشيبة بن ربيعة، يُساقُون بين يدي أهل مكّة، وهكذا تُحشَر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار[3].

وقيل: إنّ المراد بالفوج الذين يرجِعون إلى الدنيا بعد قيام القائم ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا**﴾ إلى موقف السؤال والحساب أو التوبيخ[4] ﴿**قَالَ**﴾ الله أو المَلَك من قبله تعالى توبيخاً لهم: ﴿**أَكَذَّبْتُم**﴾ في الدنيا، أو في زمان حياتكم ﴿**بِآيَاتِي**﴾ الدالة على توحيدي والناطقة بلِقاء يومكم هذا ﴿**وَ**﴾ أنتم ﴿**لَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً**﴾ ولم تَنْظُروا فيها نظراً يؤدّي إلى معرفة حقيقتها وصِدقها. ويُحتَمل أن تكون الواو للعطف لا للحال، والمعنى: جمعتم بين تكذيبها وعدم التفكُّر والتدبّر فيها ﴿**أَمَّاذَا كُنتُمْ**﴾ بعد ترك التفكُّر فيها، أو عدم الاعتناء بها ﴿**تَعْمَلُونَ**﴾ وبأيّ شيءٍ بعد ذلك كنتم تشتغلون غير الكفر والتكذيب والعصيان؟ فلا يمكنهم إلّا الإقرار بأنّهم ما فعلوا إلّا ذلك.

وعن الصادق عليه السلام ـ في الحديث الذي مضى في تفسير دابّة الأرض ـ أنّه قال: «والدليل على أنّ هذا في الرجعة: [قوله]: ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً**﴾ الآية». وقال: «الآيات أمير المؤمنين والائمّة عليهم السلام»[5].

أقول: والمعنى على هذا: أنّه يُحشَر مكذّبو الائمة في الرجعة، ويحييهم ثانياً، ويوبّخهم بلسان

---

١ و٢. مجمع البيان ٧: ٣٦٥، تفسير الصافي ٤: ٧٥.
٣. تفسير أبي السعود ٦: ٣٠٢، تفسير روح البيان ٦: ٣٧٣.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٧٣.
٥. تفسير القمي ٢: ١٣٠، تفسير الصافي ٤: ٧٦.

مَلَك، ويقول: إنّي نصبت لكم أئمة ليهدوكم، أكذبتموهم ولم تتفكّروا في دليل امامتهم؟! ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ وحلّ العذاب بهم ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ به أنفسهم من التكذيب بالآيات ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ ولا يقدِرون على التكلّم بالعُذر وغيره، لشدة هول ما يشاهدون من أنواع العذاب ، أو للختم على أفواههم.

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شاءَ ٱللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ[٨٦و ٨٧]

ثمّ أنّه تعالى بعد إرعابهم بذكر أهوال القيامة، بيّن دليلاً قاطعاً على التوحيد والمعاد بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ هؤلاء المشركون المنكرون للمعاد ببصيرة قلوبهم ﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱللَّيْلَ﴾ المُظلم ﴿لِيَسْكُنُوا﴾ عن الحركة ويستريحوا ﴿فِيهِ﴾ من التعب بالنوم والقرار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ ومضيئاً ليبصروا فيه طرق التقلّب في معاشهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من جعل الليل والنهار كما وُصِفا ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة وبراهين واضحة على التوحيد والمعاد ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فانّ من كان قدرته وحكمته بحيث يُقلّب الليل والنهار، ويُعقِب النور بالظلمة وبالعكس، كان متوحداً بالألوهية، وقادراً على تقليب الحياة إلى الموت، والموت إلى الحياة مع اقتضاء الحكمة ذلك.

ثمّ عاد سبحانه إلى بيان أهوال القيامة ازدياداً لإرعاب القلوب بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ﴾ النفخة الأولى أو الثانية ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ والقَرْن الذي بيد إسرافيل، وهو نافِخُهُ مرةً للموت وأُخرى للحشر ﴿فَفَزِعَ﴾ وخاف من هول صوته خوفاً موجباً للنّفار ﴿مَن فِى ٱلسَّماوَاتِ﴾ السبع من الملائكة ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الجنّ والإنس ﴿إِلَّا مَن شاءَ ٱللهُ﴾ ثبات قلبه وعدم فَزَعه، وهم الملائكة أو ساداتهم كجبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، أو خَزَنة الجنّة والنار، أو خصوص إسرافيل، أو الحُور العِين أو الحُور وخَزَنة جهنم، أو حملة العرش.

وعن جابر: أنّ موسى منهم حيث صَعِق مرّةً[١].

وعن النبي ﷺ: «أنّهم الشهداء»[٢].

﴿وَكُلٌّ﴾ منهم ﴿أَتَوْهُ﴾ وحضروا بعد النفخة الثانية في الموقف حال كونهم ﴿دَاخِرِينَ﴾ وذليلين

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٠.

٢. تفسير الطبري ٢٠: ١٣، تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٠، نسبه إلى القيل، مجمع البيان ٧: ٣٧٠.

للسؤال والحساب، وإنّما عبّر سبحانه عن الفَزَع والإتيان بصيغة الماضي للدلالة على تحقّق وقوعهما، وقد مرّ كيفية بيان الصُّور، والنّفخ فيه، وعدد النّفخ، والفصل بين النفختين[1].

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللهِ ٱلَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ[٨٨]

ثمّ ذكر سبحانه من أهوال القيامة حال الجبال بقوله: ﴿وَتَرَى﴾ أيّها الرائي ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ يومئذٍ حال كونك ﴿تَحْسَبُهَا﴾ وتتوهّمها ﴿جَامِدَةً﴾ وساكنةً في اماكنها ﴿وَهِيَ﴾ في ذلك الوقت ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ وتسيرُ كَسَيْرِه في السرعة، فانّ الجسم العظيم إذا تحرّك حركةً سريعةً على نهجٍ واحدٍ في السَّمْت والكيفية، ظنّ الناظر أنّه واقفٌ، مع أنّة متحرّك في غاية السرعة، وكذا الشيء العظيم الذي لا يُحيط بأطرافه البصر، إذا سار لا يحِسّ الناظر سيره، ويتوهمه واقفاً، وذلك يكون عند النفخة الثانية حين تُبدّل الأرض غير الأرض، وتغيّر هيئتها، وتُسيَّر[2] الجبال عن مقارّها.

وعن بعض العامة، عن الصادق عليه السلام ـ في تأويل الآية ـ قال: «وترى الأنفس جامدةً عند خُروج الرُّوح، والروح تسير[3] في القُدس لتأوي إلى مكانها تحت العرش»[4].

ثمّ نبّه سبحانه على عِظَم شأن تلك الأفعال، وتهويل أمرها، وكونها من بدائع صُنعه المبنية على الحكمة البالغة المستتبعة للغايات الجميلة التي رُتّبت لأجلها مقدّمات الخَلْق ومبادي الإبداع على الوجه المُتقَن المُسْتَحْكَم بقوله: ﴿صُنْعَ ٱللهِ﴾ وفعله الجيّد غايته ﴿ٱلَّذِى أَتْقَنَ﴾ وأحكم ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ خَلْقه، وسوّاه على ما ينبغي، ثم علّل النفخ والبعث وسائر أهوال القيامة بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿خَبِيرٌ﴾ وعالم ﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ من الطاعة والعصيان، فيجازيكم عليه بما تستحقّون.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُم مِن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[٨٩و ٩٠]

ثمّ بيّن حال المطيعين والعاصين في ذلك اليوم بقوله: ﴿مَنْ جَاءَ﴾ في ذلك اليوم ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ والأمور الحميدة من العقائد الصحيحة والطاعات الخالصة ﴿فَلَهُ﴾ من الثواب ما هو ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿مِنْهَا﴾ فانّ تجلّياته تعالى في الجنّة أفضلُ من معرفته له تعالى في الدنيا، ونِعمه الأبدية خيرٌ من

---

١. تقدم ذكر الصّور في الأنعام/٧٣ والكهف/٩٩ وطه/١٠٢ والمؤمنون/٢٣.
٢. في النسخة: وسير.
٣. في تفسير روح البيان: تسري.
٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٧٦.

طاعاته في الدنيا.

وقيل: يعني له خيرٌ حاصلٌ من جهتها[١].

﴿وَهُم مِن فَزَعٍ﴾ عظيم يكون لأهل العصيان ﴿يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ ومأمونون لا يُرعِبهم بعد الفَزَع من نفخ الصُّور شيءٌ من أهوال الموقف التي هي الفزع الأكبر ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ من الشِّرك والكفر، وما هو بمنزلته من إنكار الولاية ﴿فَكُبَّتْ﴾ وأسقطت منكوسةً[٢] ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ أو المعنى أُلقوا على وجوههم ﴿فِي النَّارِ﴾. وقيل: إنّ المراد بالوجوه أبدانهم[٣]. ثمّ يقال لهم توبيخاً: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ اليوم ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك، والعقائد الفاسدة، والأعمال الشنيعة.

في الحديث: «إذا كان يوم القيامة جاء الإيمان والشِّرك يجثوان بين يدي الربّ تعالى، فيقول الله تعالى للايمان: انطلق أنت وأهلك إلى الجنّة ويقول للشِّرك: أنطلق أنت وأهلك إلى النار». ثمّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ إلى قوله: ﴿فِي النَّارِ﴾[٤].

وروى بعض العامة عن أبي عبدالله الجدلي قال: دخلتُ على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «يا أبا عبدالله، ألا أُنبّئك بالحسنة التي من جاء بها أدخله الله الجنة، والسيئة التي من جاء بها أكبّه الله في النار ولم يقبل معها عملاً؟» قلت: بلى. قال: «الحسنة حُبّنا، والسيئة بُغضنا»[٥].

وعن الصادق، عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام - في هذه الآية - قال: «الحسنة معرفة الولاية وحبّنا أهل البيت، والسيئة إنكار الولاية وبُغضنا أهل البيت» ثمّ قرأ الآية[٦].

وعن الباقر عليه السلام - في قوله تعالى: ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً﴾ - قال: «من تولّى الأوصياء من آل محمّد واتّبع آثارهم، فذاك يزيده ولاية من مضى من النبيين والمؤمنين الأولين حتى تصل ولايتهم إلى آدم عليه السلام، وهو قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ يُدخِله الجنة»[٧].

وعنه عليه السلام - في هذه الآية - قال: «الحسنة ولاية عليّ وحبّه، والسيئة عداوته وبُغضه، ولا يُرفع معهما عملٌ»[٨].

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ

---

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢١.
٢. في النسخة: منكوساً.
٣ - ٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٧٧.
٦. الكافي ١: ١٤/١٤٢، تفسير الصافي ٤: ٧٨.
٧. الكافي ٨: ٥٧٤/٣٧٩، تفسير الصافي ٤: ٧٨.
٨. روضة الواعظين: ١٠٦، تفسير الصافي ٤: ٧٨.

فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[٩١-٩٣]

ثمّ أنه تعالى بعد الاحتجاج على التوحيد وإبلاغ البيان فيه، ختم الكلام بأمر نبيّه بإظهار التزام نفسه به، قبلوا قوله وحُججه أوَلاً، قطعاً لطمع المشركين من أن يميل عليه السلام إلى دينهم، وإظهاراً لعدم المبالاة بلَجاجهم وعِنادهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ التي هي أحبّ البلاد لديّ وأكرمها وأعظمها عندي وعند ربّي ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وجعلها لمن دخلها، وممنوعةً من أن تُهتَك حُرمتها، ويُعضَد شَجرُها[١]، ويُنفَر صيدُها، ومن المعلوم أنّ ذلك كلّه من نِعم ربّي عليّ وعليكم، وليس إضافتها إليه لاختصاص ربوبيته بها، بل ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ من هذه البلدة وغيرها من الموجودات ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ والمنقادين له، والمطيعين لأحكامه، أو من الثابتين على دينه ﴿وَ﴾ أمرت ﴿أَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْآنَ﴾ الذي أنزله عليّ، وإن تجحدونه أنّه منه، وتَنْسِبونه إلى السِّحر مرةً، وإلى الشعر اُخرى، وإلى الكِهانة ثالثة، وإلى الأساطير رابعة ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى التوحيد ودين الاسلام والسعادة الأبدية بهدايته وإرشادك ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى﴾ إلى كلّ خيرٍ عائدٍ ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾ لا يتعدّى إلى غيره ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بمخالفتك عن الصراط المستقيم، وانحرف عن الطريق القويم ﴿فَقُلْ﴾ له: ليس عليّ وَبال ضلالك و﴿إِنَّمَا أَنَا﴾ مُنذرٌ ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾ ورسولٌ من الرسل ليس عليّ إلّا الإنذار والتبليغ، وقد أدّيت ما عليّ، وخرجت عن عهدة ما كُلّفت به، وعليكم الاهتداء والايمان، وبقي ما عليكم والله مجازيكم عليه.

ثمّ لمّا بيّن وظيفته وهو التبليغ، وخروجه من عهدتها، وبراءته من وَبال مخالفة أُمّته، أمره الله سبحانه بالشكر على نِعمه عليه بقوله: ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إكمال نِعمه عليّ من العلم والحكمة والنبوة والكتاب، وتوفيقه للقيام بوظيفة الرسالة وتحمّل أعباء النبوة، وأمّا أنتم يا مُشركي قريش، فأُعلمكم أنّ الله المنتقم ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ في الدنيا أو الآخرة ﴿آيَاتِهِۦ﴾ القاهرة وعقوباته الشديدة ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ حين لا ينفعكم معرفتها، وتُقرّون بها حين لا يفيدكم الإقرار.

القميّ، قال: الآيات أمير المؤمنين والأئمّة عليهم السلام إذا رجعوا إلى الدنيا يعرِفهم أعداؤهم إذا رأوهم في الدنيا[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: «والله ما لله آية أكبر مني»[٣].

قال مقاتل: يعني سيريكم آياته عن قريبٍ من الأيام، فطوبى لمن رجع قبل وفاته، والويل على من

---

١. يُعضَد شجرها: أي يُقطع.
٢. تفسير القمي ٢: ١٣٢، تفسير الصافي ٤: ٧٩.
٣. تفسير القمي ٢: ١٣٢، تفسير الصافي ٤: ٧٩.

رجع بعد وفاته وبعد ذهاب الوقت[١].

ثمّ بالغ سبحانه في تهديد الضالين بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا محمّد ﴿بِغَافِلٍ﴾ وذاهلٍ ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه أسوأ الجزاء، وإنّما أخّره لحِكَمٍ كثيرةٍ لا للغفلة عنه وعدم إطّلاعه عليه.

عن أبي بن كعب، عن النبيّ ﷺ: «من قرأ سورة طسّ كتّب اللهُ تعالى له عشر حسنات بعدد من آمن بسليمان وهود وشعيب وصالح وإبراهيم، وبعدد من كذّبهم، وإذا خرج من قبره يوم القيامة يقول: لا إله إلّا الله»[٢].

اللهمّ وفّقني لأداء شكر نعمتك من التوفيق لاتمام تفسير السورة المباركة، ووفّقني وجميع المؤمنين لتلاوتها آناء الليل وأطراف النهار.

---

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٧٩.

٢. مجمع البيان ٧: ٣٢٧، تفسير أبي السعود ٦: ٣٠٧.

